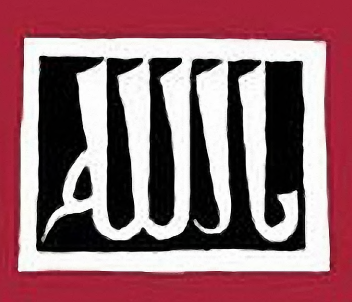


موسوعة أعلام

المجددين في الإسلام

من القرن الأول حتى القرن الخامس للهجرة

سامر كُريِّم

الجزء الأول

مكتبة الدار العربية للكتاب

مدخـل عـام

عنيت بقضية التجديـد في الإسـلام منـذ بدايـة الثمانينيـات في القـرن المـاضى ، واستمرت هذه العناية : قـراءة وبحثـا وتـسجيلا حتـى منتـصف عـام ٢٠٠٦ ، وقـد أثمرت هذه العناية عددا من الفصول عن معنى التجديد في الإسلام ورجاله ، بدأت نشرها بصحيفة الأهرام في التاسع من مايو عام ١٩٨٧ متتبعا هذه القضية ، وما يتصل بها من تداعيات وملابسات ، كما تتبعت رموز هذا التجديد ورجاله ، وهم في حقيقة الأمر من أولئك الذين اتفق المؤرخون : قديما وحـديثا عـلى تـسميتهم : مجـددين في الإسلام .

وقد تجدد هذا الاهتمام ، وتلـك العنايـة بقـضية التجديـد في الإسـلام بـصورة مكثفة ، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومـا نجـم عنهـا من انفجار برجي التجارة العالميين بنيويورك، وأجزاء من مبنى البنتاجون بواشنطن، حيث نجحت الصهيونية العالمية – كعادتها في الدس وخلط الأوراق – في أن تـصور للعالم أن هذه الأحداث التي وقعت بالولايات المتحـدة الأمريكيـة ، قـد تمـت بأيـد إسلامية . وبناء على ذلك اتهم الإسلام – ظلما وعدوانا – بتهمة الإرهاب ، ونتيجـة لذلك أيضا : نشط البعض من الكتـاب الأمـريكيين ، وبعـض المـسئولين في الإدارة الأمريكية إلى القول بأنه ينبغي إعادة النظر في بعض بـرامج التعلـيم الإسـلامي ، أو باختصار : التجديد في التعليم الإسلامي ، أو بصورة أعم وأشمل : إعادة النظـر إلى قضية التجديد في الفكر الإسلامي ، وتحويلها من مجرد عمل فكـري يفيـد الإسـلام والمسلمين إلى أداة في أيدي أعداء هذا الدين .

وبجهل فاضح ، اعتبر هؤلاء المدعون من الأمريكيين أن هذه أول محاولة لتجديد الفكر الإسلامى ، وفاتهم أن التجديد في الفكر الإسلامى ، تم على أيدي أبنائه كما سنرى منذ خمسة عشر قرنا ، وليس هناك حاجة إلى من يجدد . أقول : التجديد في الفكر الإسلامى تم على أيدي أبناء الإسلام منذ القرن الأول الهجري ، واستمر إلى اليوم لسبب بسيط هو : أن هذا الدين يعمل دائما على أن يكون أتباعه مواكبين لمسيرة الحياة التي هي دائما في تجدد مستمر .

والحق .. أن هذه القضية قد أثارت اهتمام بعض المفكرين الذين استفزتهم هذه الأكاذيب ، سواء في اتهام الإسلام بالإرهاب بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ بالولايات المتحدة الأمريكية ، أو بادعاء القيام بإعادة النظر في بعض برامج التعليم الإسلامي ، أو حتى محاولة الدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامي .

ومن هؤلاء المفكرين : الأستاذ الدكتور «عبد المعطي بيومي» الذي كتب مقالا مهما بمجلة (المصور) عنوانه : (الدعوة إلى التجديد قديمة ، ولا صلة لأمريكا بها) مشيرا إلى بعض المحاذير التي منها الشائعات التي يمليها سوء الظن المبرر بأمريكا قد تلحق دعاة التجديد ليشملهم سوء الظن ، غير المبرر هنا – فكلما دعا داع إلى التجديد كان عرضة للظنون الواهمة ، والشائعات الباطلة ، والرمي بالعمالة لأمريكا والدوران في محيطها . وهذا لا يخيف دعاة التجديد فحسب ، بل يوقف هذا التيار الوطني الإسلامي المخلص ، ويحرم الأمة من مواصلة مسيرتها التقدمية ، بل يصل خطره إلى تعويق دعوة الإسلام ، وتعطيل صلاحيته لكل زمان ومكان .

ولا يكتفي الدكتور «بيومي» بطرح هذه المحاذير ، بل نراه يقرر قائلا : « وإذا تعطلت طاقات التجديد في الأمة وتوقفت مسيرتها التقدمية ، وعوقت دعوة الإسلام؛ فإن الأمة– بالقطع– تفقد مناعتها حينئذ، وتفقد القدرة على امتلاك أدوات المواجهة في الحوار أو في الصراع ، وتجديد مقاومتها لمواجهة محاولات «العولمة» أو

«الكوكبة» التي تهدف إلى تنميط العالم أو قولبته – خاصة الأمة الإسلامية – بنمط أو قالب واحد يستأصل كل الفوارق، ويقضي على كل الخصائص الثقافية والعقائدية» .

ولهذا .. ولغيره من أسباب .. كان على المرء أن يرجع إلى كل ما يمكن الوصول إليه من مراجع في هذا المجال ، حتى يمكن تقديم صورة– ولو يسيرة– عن التجديد ورجاله ، تدحض دعاوى البعض الذين يدعون أنهم : يأتون بما لم يفكر فيه من قبل رجال الإسلام . ومتى ؟ منذ أكثر من خمسة عشر قرنا . وكيف ؟ بمناهج إسلامية دقيقة وموضوعية. ولماذا؟ لحاجة المسلمين إلى هذا التجديد؛ لظهور بعض المشكلات التي لم تكن موجودة في العصور الإسلامية الأولى ؛ نتيجة لاتساع رقعة الدولة .

ولهذا الأمر.. أعترف بأنني كنت قارئا أكثر مني كاتبا، نعم، قارئا وناقلا لبعض النصوص كما هي أكثر من محلل لها بكل ما تركه السابقون : قدماء كانوا أو محدثين حتى تستوي لدي معرفة لا بأس بها. يمكن أن أنقلها إلى القارئ في هذه الصفحات.

والحق .. أنني وجدت الإسلام كدين عامر برجاله الذين وهبوا حياتهم وأفكارهم لخدمة هذا الدين الحنيف ، كما وجدت تطورا في تفكير المفكرين المسلمين في العصور المتتالية . قد يعز على نظرائهم في زماننا ، بل ووجدت أنه في القرن الواحد منذ بداية القرون الإسلامية أكثر من مجدد . منهم: العلماء والفقهاء ، وكذلك القائمون على أمور المسلمين من خلفاء وولاة وحكام ؛ مما يدل دلالة واضحة على أن الإسلام يهتم بأمور الدنيا اهتمامه بأمور الآخرة .

وقد لاقت بعض هذه الحلقات عند نشرها بالأهرام منذ عام ١٩٨٧ بعضا من رضا القارئ واهتمامه . وهو ما عبرت عنه بعض الرسائل والاتصالات والتعليقات، تلك التي كان يخصني بها القارئ الذي يهمه – قبل كل شيء – أمر دينه ، فيفكر فيما يتعلق بأمر هذا الدين ، وتلك إيجابية تهم أي كاتب أن يفكر معه القارئ ، ويهتم بما يكتب له .

ولعل هذا التفكير ، ومن قبله الاهتمام ، يرجع - أولا وأخيرا - للذين أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد ، وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من التضحيات الباسلة ، وواجهوا أيضا الكثير من المخاطر التي تولى كبرها البعض من أهل الجمود . يأتي في المقام الثاني بعد هؤلاء المجددين : فريق الكاتبين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تسجيل جوانب هذه القضية لمن بعدهم جيلا بعد جيل ، حتى تصل إلينا في زماننا ، ونقرأها ونثيرها ثم ننشرها على الناس .

إلا أن ما ينشر ملخصا أو مركزا في مقال بصحيفة أو دراسة في مجلة ، ربما يعوزه الكثير من التفصيل والتأصيل عند تحويله إلى صفحات يتضمنها فصل في كتاب ، ولهذا .. كان على المرء أن يعود إلى المراجع القديمة ، مضافا إليها ما استجد من مراجع جديدة ؛ حتى يمكن تقديم قضية التجديد في الفكر الإسلامي بصورة أكثر شمولا ، وأدق توثيقا ، وهو ما تطلب جهدا جديدا لا يقل عن الجهد المبذول في كتاب يتم تأليفه دون الرجوع إلى ما يكون قد كتب في مقال أو دراسة . ذلك لأن فصول الكتاب المعتمدة على مقال أو دراسة نشرت من قبل ، لابد أن ينظر إليها من جديد ، في مادتها وتناولها وبعض مراجعها .

ولهذا .. ولغيره من أسباب تتعلق بهذه الموسوعة وتقديمها للقارئ ، كان على المرء أن يمهد لهذه القضية بالسؤال عن التجديد ، وماذا يعني في هذا المدخل ، الذي أتمنى أن يوضح – كإشارة – الحديث عن هؤلاء المجددين كل على حدة ، غير غافل عن أحوال العالم الإسلامي في كل مائة عام من أعوامه الهجرية ، فنقدم هذه الأحوال المتعلقة بالبيئة التي كان يعيش فيها المجدد ، وما يتصل بها من مواقف ، في محاولة لتقديم صورة موجزة للعصر الذي كان يعيش فيه هذا المجدد من عدة نواح ، منها: السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية . والسؤال عن جوانب تجديد المجدد ، وهو ما يهمنا في الصفحات التالية لهذه الموسوعة ، ومناقشة إلى أي مدى واكبت هذه

الجوانب الحياة الإسلامية في سعيها المتجدد ؟ وإلى أي مدى كانت هذه المواكبة ذات فائدة للمجتمع الإسلامي ؟ وغير ذلك من تساؤلات ، راجيا من الله عز وجل أن يوفقني في الإجابة عليها ، وعلى غيرها من تساؤلات تنشأ مع الاستمرار في السطور التالية ، كإشارات سريعة إلى هذه الباقة من مجددي الأمة الإسلامية الموجودة على مدى الخمسة عشر قرنا ، تلك التي امتد منها الإسلام في الزمان، وانتشر في المكان .

* * *

إن الحديث عن معنى التجديد ورجاله ، هو في حقيقة الأمر حديث عن الإسلام في أرقى صوره الفكرية ، وإن الاهتمام بتاريخ حركة التجديد في الإسلام من شأنه الاهتمام بتطور الفكر الديني .

لقد ظهر جانب من هذا الحديث ظهورا واضحا في المائتي عام الأخيرة . في كتابات نذكر منها كتابات: الأفغاني والكواكبي والإمام محمد عبده ومصطفى المراغي.

ثم في كتابات الرواد المعاصرين، ومنهم: الدكتور هيكل وأحمد أمين وطه حسين والعقاد وأمين الخولي والحكيم ومحب الدين الخطيب ، بل وأخذت اهتماما بارزا عند الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، فأفرد لها كتابا عنوانه : « المجددون في الإسلام » . هذا إلى جانب ترجمة كتاب : « الإسلام والتجديد » الذي كتبه في الثلاثينيات الأستاذ عباس محمود وهو - بالطبع - غير كاتبنا عباس محمود العقاد .

إلا أن هذا الاهتمام ، سبقه اهتمام آخر مبكر ، ربما يمتد إلى القرن الثالث الهجري، كما يقرر الأستاذ «أمين الخولي» في كتابه عن (التجديد في الإسلام) .

ولا عجب في ذلك الاهتمام : حديثا وقديما بالكتابة عن حركة التجديد الإسلامى ، ذلك لأنها أحيت قضايا عديدة ، ونفضت عنها غبار القرون . ومنها أن الإسلام منذ قرونه الأولى حتى يومنا هذا ، ليس عقيدة دينية فحسب ، بل نظاما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . وليس الإسلام عبادة جوفاء ، وليست تعاليمه بمعزل

عن التطور والتغير في الحياة ، بل إن الإسلام دين متطور ، يؤثر في الأحداث فيؤيد الحركات الوطنية الجليلة ، حتى ترتكز على دعائم تمتد جذورها في قلب كل فرد في المجتمع الإسلامي ، مما أدى إلى إقامة علاقة خصبة بين العناصر الدنيوية والأخرى الدينية طغت على جميع الجوانب . حتى إن تاريخ العالم الإسلامي في زمن ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ليس سوى تاريخ مسطور ، بين سجلاته أخبار تبادل الأيديولوجيتين : الدينية والدنيوية وتقاربهما .

إذا .. التجديد في الإسلام لازم لزوم الحياة نفسها ، مواكب لظهور الإسلام على مسرحها . فالدين الإسلامي قد أتى بالقواعد العامة التي تصلح لكل زمان ومكان. والمجدد يفكر في تنظيم الفروع التي لا تمس جوهر هذه القواعد . عليه مسئولية التفكير على اعتبار أن التفكير أصل من الأصول المقررة في الإسلام ، كدين يشمل صلاح الدنيا والآخرة ، فلا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها ، بل يدخل فيها ما يصلح الدنيا ؛ حتى يمكنه النهوض بالأمة التي ظهر فيها أولا ، وعلاقتها ببقية الأمم بعد ذلك . وهو من هذه الناحية يتسع للتجديد في كل زمان ومكان .. تجديدا يقوم به رجاله بنص حديث النبي ﷺ : « **إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها** »[1] . وقد قامت حول تفسير هذا الحديث خلافات كما يذكر الأستاذ الصعيدي والأستاذ الخولي وغيرهما من المؤرخين والمفكرين – منها : أن المراد من الأمة فيه : أمة الإسلام ، ويجوز أمة الدعوة حيث يراد من الإسلام النهوض الديني والدنيوي للأمم التي تعاصره .

وقد اختلف المفسرون أيضا في المراد من رأس المائة هذه ، فهناك من رأى : آخر هذه المائة على اعتبار : أن المراد من البعث من انقضت عليه المائة عام وهو حي عالم ، وهناك من رأى أن رأس المائة في أولها على اعتبار : أن البعث هو الإرسال ، أي : إرسال لنفع البشر . وهناك أخيرا من رأى أن إرسال المجدد سواء في أول المائة أو في

(1) أبو داود / باب الملاحم / 1 .

وسطها أو في آخرها ، وأن قيد الرأس في الحديث الشريف اتفاقي ، ولأنه قد يكون في وسط المائة من هو أفضل ممن هو على رأسها .

كذلك اختلفوا في (من) يبعث في المائة عام ، وهل يكون واحدا ؟ أم يكون أكثر؟ فقيل : إنه لا يكون إلا واحدا ؛ لأنه جاء في بعض روايات الحديث التصريح بأن الله يبعث على رأس كل مائة عام رجلا .. أو قيل أنه قد يكون أكثر من واحد ؛ لأن الرواية المشهورة للحديث (**إن الله يبعث من**) ولفظ من يطلق على : الواحد وعلى الجمع .

من ناحية أخرى ، يذكر الأستاذ أمين الخولي : « أن القدماء يعنون بذلك التجديد : إحياء السنة ، وإماتة البدعة وإحياء ما اندرس » . وبتتبع تفصيل هؤلاء القدماء لأحوال التجديد ، وهل هي منازع واتجاهات عملية اجتماعية ، أم هي نظرية تبليغية ؟ فيراهم ينزعون حينا منزعا عمليا ، وحينا آخر منزعا نظريا . ومع هذا وذاك، يلحظ إيثارهم للمنزع العملي في التجديد الذي تؤيده أشياء منها : أنهم يعدون الخلفاء وبعض الملوك والرؤساء مجددين ، مجال تجديدهم هو في: إصلاح الأمة بواضح عبارة القدماء الأصل في حفظ الدين قانون السياسة ، وبث العدل والتناصف الذي به تحقن الدماء ، ويتمكن من إقامة قوانين الشرع ، ولذلك هب القدماء يعدون في كل مائة عام حكاما مع العلماء . فعلى رأس المائة الأولى إلى جانب الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن عبد العزيز، وقالوا عنه : يكفي هذه الأمة وجوده، خاصة أنه فعل في الإسلام ما ليس بخاف ، كذلك الإمام الحسين وشقيقته السيدة زينب (رضى الله عنهما) وعدوا في المائة الثانية : الخليفة المأمون ، والأئمة الأربعة ، إلى جانب الإمام الليث بن سعد . وفي الثالثة : المقتدر بالله مع ابن سريج وابن حنبل . وفي الرابعة : القادر بالله مع أبي الحسن الأشعري والفارابي . وفي الخامسة : المستظهر بالله مع الغزالي وابن سينا وابن حزم وهكذا ... كذلك يؤيد الاتجاه العملي في التجديد : اعتبار القدماء منصب تجديد الدين منصبا اجتماعيا يشبه

منصب الخلافة ، بل إن التجديد بلغ من الأهمية ، إلى حد أن رفعوه إلى مرتبة النبوة ، فنقرأ لهم عبارة : «لو كان بعد النبي ﷺ نبي آخر لكان الغزالي» ، وهو أحد المجددين . ويزيد الاتجاه العملي في التجديد حيث يتعدد المجددون في القرن الواحد كل في ميدان ينفع بغير ما ينفع الآخر .

وبهذا الاتجاه العملي، يضع أمامنا الأستاذ «أمين الخولي» معنى للتجديد خلاصته: « أنه حركة دائمة ومتصلة ، ما اتصلت الحياة ، وما قام فيها من يحمي الحياة من الانحراف ، ويجهر بالحق ويصون المجتمع من الانتكاس وشيوع المفاسد فيه » .

وإذا كان هذا هو معنى التجديد ، فمن هو إذا المجدد ؟ . في رأي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» : « أن المجدد هو من يجب أن يتعالى على التعصب الممقوت بين الفرق الإسلامية ، فلا يصح أن يكون لمذهبه في الدين أثر في غايته في التجديد . ولا فيما يرمي إليه من النهوض بالمسلمين ، بل يجب أن ينظر في دعوته إلى المسلمين جميعا » .

وطبيعي .. أن يواجه التجديد كحركة فكرية ديناميكية بعض التحديات ، تلك التي أشار إليها بعض المؤرخين في كتاباتهم عنه وعن تاريخه ، مثل : نشأته ورجاله ، خاصة ما نلمسه فيما يواجهه من هذه التحديات في العقود الثلاثة من القرن الحالي أي : القرن الخامس عشر الهجري ، نتيجة لتطور الحياة وتغيرها من حال إلى حال ، أو تقدم التكنولوجيا وعطائها المستمر للإنسان المعاصر ، هذا العطاء يأتي بآثار عكسية إذا لم يتنبه هذا الإنسان في استخداماته اليومية لهذه الوسائل التكنولوجية .. ومن هذه التحديات التي أوردها المؤرخون ، واتفقوا عليها منذ بدأ التجديد إلى السنوات الأخيرة من العقد الثالث للقرن الخامس عشر للهجرة ما يلي :

- تمسك حكام المسلمين : ملوك ورؤساء وأمراء وقادة بالحكم الاستبدادي الذي لا يمكن أن ينجح أي إصلاح في ظله وفي وجوده ؛ ذلك لأن هذا الحكم يفصل

ويباعد بين الحاكم والمحكوم ، حين يجعل الحاكم ساعيا في غيه ، والمحكومين يتجرعون ويلوكون صور القهر والظلم والاستبداد ، ونتيجة لذلك ؛ لا يشعر ولا يحس الحاكم بمعاناة المحكومين ، ولا يرغب ولا يعترف بحقهم في الحياة ، أو حتى مجرد أن يعيشوا ، وليس أن يتقدموا ويتطوروا ؛ لأن ذلك لو حدث كما يعتقد الحاكم ، فإن نتيجته المحققة : التفكير في التخلص منه والقضاء عليه! ولهذا.. فإن أول تحديات ومعوقات التجديد ، تتجسد في الحكم الاستبدادي الذي لا يسمح بأي حرية أو تفكير .

- جمود الغالبية من علماء الدين ، ووقوفهم « محلك سر » ؛ إذ لم يفكر في الإصلاح سوى عدد قليل منهم ، وظل الباقي على جمودهم غير عابئين أو غير مهتمين بالتفكير في الإصلاح .. وطبيعي – والأمر كذلك – أن يبرز من بين هؤلاء العلماء الجامدين وغير المهتمين بالإصلاح مجددون . على اعتبار أن التجديد يقوم أساسا على التفكير والرغبة في الإصلاح ، وذلك بإيجاد الحلول التي تواكب ما يطرأ من مشكلات .

- وإذا كان هناك عدد من أهل الجمود ، فإن هناك أيضا عددا كبيرا من الحكام الذين لا يؤيدون الحركات الإصلاحية في أوطانهم ؛ حيث يتوجسون الخيفة منها ، ويسيئون الظن بها ، ويعتبرونها معارضة لهم ، بل ودعوة إلى التمرد والثورة عليهم، ولهذا .. فقد أصبح من المألوف عند بعض الحكام عرقلة مسيرة التجديد، والوقوف ضدها : قديما وحديثا ، وهو ما سوف نلمحه في الفصول المتتالية من هذه الموسوعة ، حيث نرى عددا من المجددين قد واجهوا العديد من المتاعب ، ومنهم الذي عانى من عذاب السجون أو القتل ، وكانت جريمة كل هؤلاء هي التفكير ، أقول : مجرد التفكير وكأنهم يتصورون أن هذا العقل الذي خص الله سبحانه وتعالى به الإنسان دون غيره من مخلوقاته ليس له عمل ، أو أن استخدامه يتلخص في عبارة: يبقى الحال على ما هو عليه ، إذا طلب الأمر حلا أو إصلاحا .

- تقسيم الأمة الإسلامية إلى شيع وأحزاب ، لعل أبرزها الشيعة والسنة ، كما تفعل الولايات المتحدة في السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين الميلادي في العراق ، وبالتحديد منذ عام 2003 حتى كتابة هذه الصفحات عام 2008 ، وتغذية هذا التقسيم من أعداء الإسلام ، والمغالاة في ذلك مما ترك كبير الأثر على التفكير في خير الأمة الإسلامية كلها وليس في واحدة منها ، متناسين أن عظمة الإسلام تتمثل في كونه أمة واحدة لا تتنازعها المآرب والأغراض المتطرفة .

- معاداة أوروبا عامة ، والولايات المتحدة الأمريكية خاصة للتجديد الذي يتم على أيدي أصحابه من المسلمين ، أما إذا كان هذا التجديد من صنعهم ؛ فهو الذي يفضلونه ؛ لأنه يتماشى مع مصالحهم . أقول : أوروبا وأمريكا تعادي كل ما يحدث من حركة تجديد ، متبعة في ذلك صورا وأشكالا استخدمتها في القرون القليلة الماضية مثل : حركة الاستشراق التي تعمل تحت غطاء الاهتمام بالثقافة العربية والإسلامية ، وهي في حقيقة أمرها تأخذ ما يفيدها من هذه الثقافة . والأهم التعرف على مكونات تفكير أبناء هذه الثقافة ، حتى يسهل السيطرة عليهم ، والاستيلاء على مواردهم ، وهو ما يعرف بالاستعمار .. حتى إنه أصبح مألوفا أن يكون الاستشراق والاستعمار وجهين لعملة واحدة .. وكما سنرى في الفصول المتتالية كم عانى المجددون من معاداة هذه الأمم والشعوب الأوروبية والأمريكية أمرا انتهى إلى اعتبار المسلمين – بما فيهم العلماء والأدباء والسياسيون وغيرهم – إرهابيين ... وهو تفكير شاذ وشرير ، تولت كبره الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة التي تولى فيها جورج بوش الابن الإدارة الأمريكية .. ومعه بالطبع حلفاؤه من حكام الدول الأوروبية . ومن عجيب الأمور : أن بوش نفسه يطالب بالتجديد بجهل فاضح ، على اعتبار أن هذا التجديد تم منذ مئات السنين كما رأينا .

- ظهور طائفة من مدعي العلم والفتوى في وسائل الاتصال بالجماهير ، وعلى الأخص التليفزيون ، خاصة في قنواته الفضائية بشكل لافت ، إلى درجة أن أمر الفتاوى وصل إلى أن يتولاها غير المتخصصين من رجال الدين والعقيدة ، مثل الذي يفتي في الدين بغير علم أو تخصص ، أو تلك التي يتولاها الفنانون والفنانات بعد اعتزالهم للفن ، وكأننا نأخذ تعاليم ديننا من العوالم لا من العلماء كما عبر عن ذلك أحد علماء الأزهر .. هذا بالطبع إلى جانب هذا الكم من المتعالمين الذين يسعون من وراء ذلك إلى الشهرة والمال ، وليس العمل للصالح العام ، وتواجد هذه الأنماط من مدعي العلم من شأنه أن يغطي على تواجد أهل العلم والفضل ، على مثال القاعدة الاقتصادية التي تقول : بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجديدة من الأسواق .

وقد تحدث في ذلك مفارقات عجيبة وغريبة : كأن يتصدى بالحديث الصباحي عن الإسلام في إحدى الإذاعات العربية مسيحي مشهور بحواراته المستفزة ، وأن يوهم المستمعين بأنه عليم بهذا الدين إلى درجة الإفتاء فيه ، ويظل على هذا النحو حتى ينكشف أمره ؟!!

- يضاف إلى هذا النوع الجديد من مدعي العلم والفتوى في الأجهزة الإعلامية وجود هؤلاء الصبية من أتباع الجماعات الإسلامية الذين وقفوا بالإسلام عند بعض النصوص التي لا يقرها كتاب أو سنة ، بل كانت من وضع أمرائهم .. هذه الجماعات كان عليها أكبر الوزر فيما يتهمنا إياه الغرب من اتهامنا بالإرهاب كمسلمين ، إلى جانب ما أصابنا من تخلف وجمود وسوء فهم لحقيقة الإسلام ، وما ألم بنا من زعزعة لأركان مجتمعاتنا من أمن وأمان ، بشكل مباشر أو غير مباشر .

وعلى الرغم من وجود هذه التحديات والعوائق ، فمن المؤكد أن حركة التجديد في الإسلام كما سنرى في الفصول المتتالية كانت تمثل سمة بارزة تميز بها هذا

الدين دون غيره من الديانات السماوية الأخرى ؛ حيث أوجدت حركة فكرية مستمرة للتأكيد على أن الإسلام يواكب حركة الحياة الدائمة التغير في كل زمان ومكان ، ويعمل دائما على وضع الحلول المناسبة لكل ما يواجه المسلمين من تحديات ومشكلات ، وهو ما تهتم بإبرازه فصول هذا الكتاب ، حين تكشف عن جوانب التجديد من خلال رجاله على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان في الأمم والشعوب التي تعيش تحت لواء الإسلام ، متتبعين هؤلاء الرجال المجددين في كل جوانب الحياة: دينية كانت أو علمية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ، أو غيرها من جوانب نشط فيها وتعامل معها المسلم في مجتمعه الإسلامي ، وكانت من قبل غير موجودة في الحياة أثناء نزول الوحي على النبي ﷺ أو ما بعده من عصور إسلامية .. ويستوقفنا من هؤلاء المجددين نماذج لها أرصدة من إنجازات التجديد في الفكر الإسلامي. يتقدمهم - بالطبع - الخلفاء الراشدون الأربعة رضوان الله عليهم، حين واجهوا مشكلات جديدة ؛ نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية وتوقف الوحي بعد وفاة النبي ﷺ ، يضاف إلى هؤلاء الخلفاء الراشدين الأربعة : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الذي يعتبر خامس الخلفاء ؛ لعدله وزهده ورخاء عصره، وكذلك الخليفة المأمون الذي ازدهرت في عهده العلوم والفنون والثقافات ، وبدأ عصر الترجمة لأمهات الكتب الأجنبية إلى العربية ، خاصة اليونانية ، حتى قيل : إن العرب المسلمين حافظوا على التراث اليوناني والروماني . وتفسير ذلك : أن العرب حين ترجموا الآثار اليونانية ، فقد حفظوها من الضياع ليأتي بعد ذلك الأوروبيون ، ويترجموها عن العربية إلى لغاتهم بفضل العرب .

ويحظى هذا الجزء الأول بحشد من الأئمة الكبار يتقدمهم - بالطبع - الإمام مالك والإمام أبو حنيفة والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وهم: أئمة المذاهب الأربعة ، ومعهم الإمام الليث بن سعد ، وإمام أهل الشام الأوزاعي وأئمة ثلاثة لهم

في تاريخنا وعقيدتنا الإسلامية تواجـد وبـروز ، وهـم : الإمـام البخـاري ، والإمـام مسلم ، والإمام الطبري وغيرهم .

كما يحظى هذا الجزء من موسوعة أعلام المجددين في الإسلام بتواجد أكبر عدد من فلاسفة الإسلام ومفكريه ، ممن تجاوز أثرهم العالم العربي والعـالم الإسـلامي إلى غيره من الأقطار الأجنبية ، ويتقدمهم فيلسوف العـرب الكنـدي ، والمعلـم الثـاني: الفارابي بعد المعلم الأول أرسطو والشيخ الرئيس ابن سـينا ، وحجـة الإسـلام أبـو حامد الغزالي وابن حزم ، وعدد آخر من العلماء الذين تأثرت بعلمهـم أوروبـا ، وفي مقدمتهم : الرياضي الخوارزمي والطبيب الرازي ، والفلكـي البـيروني ، كـما يوجـد أيضا مبدعون مبرزون في الأدب واللغة يتقدمهم في اللغة عبد الرحمن بن هرمز ، وما له من أثر في قواعد اللغة العربية ، والشاعر الخالد أبو العلاء المعري وغيرهما .

كذلك تشرف الصفحات التالية بتسجيل إنجازات عـدد مـن نـساء آل البيـت رضوان الله عليهن ممن كن على قدم المساواة في تجديـد الفكـر الإسـلامي ، وهـن : سيدة الرأي والشورى رئيسة الـديوان : زينـب بنـت الإمـام عـلي رضي الله عـنهما ، والمرجع في رواية الحديث النبوي وتصحيحه : فاطمة النبوية بنت الإمـام الحـسين ، وصاحبة أول ندوة فكرية في الإسلام : السيدة سكينة بنت الإمام الحـسين ، ونفيـسة العلم والمعرفة : نفيسة بنت الإمام حسن الأنور رضوان الله عليهن جميعا .

ولا ينتهي هذا الجزء الأول من موسوعة أعلام المجـددين في الإسـلام دون أن تطالعنا تيارات إسلامية ، كان لها كبير الأثر في الفكر الإسلامي ، ومنهـا : الأشـعرية نسبة إلى أبي الحسن الأشـعري ، والماتريديـة نـسبة إلى إمـامهم الماتريـدي ، وإخـوان الصفا والماوردي وما لهذين التيارين الأخيرين من مريدين وأتباع ، انتشروا في طـول العالم الإسلامي وعرضه .

وعلى الجملة .. أريد أن أقول للقارئ الكريم : إنني بهذا الجهد الذي أسعفه عون من الله وفضله ، لا أزعم أنني قد أوفيت على الغاية ، أو شارفت الهدف في هذه الصفحات التي بين يديك .. والسبب هو : أنني لم أتعود إلا أن أكون واحدا من القراء، آخذا مكاني بينهم ؛ لنتدارس الفكرة تلو الفكرة لمن سبق من المؤلفين المخلصين في صبر وأناة . خاصة وأن جهود هؤلاء المجددين وإنجازاتهم تقوم أساسا على الفكر في أفضل وأعظم مستواه.. مكتفيا من القول ومن الحجة بما يمكن أن يكون نقطة الانطلاق لتفكير جاد ومفيد ، يرد على أباطيل الذين يدعون بأنهم يرغبون في تجديد الفكر الديني من ناحية ، وتقديم الدين الإسلامي الحقيقي من خلال أبنائه من أعلام المجددين من ناحية أخرى .. آملا أن يصل بنا هذا الفكر النبيل إلى أسمى الغايات وأنبل الأهداف .

والله ولي التوفيق .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر ٢٠٠٨

القرن الأول



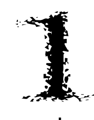
1 – أبو بكر الصديق

2 – عمر بن الخطاب

3 – عثمان بن عفان

4 – علي بن أبي طالب

5 – الإمام الحسين



6 – السيدة زينب

7 – 

هـذا القـرن

في القرن الأول الهجري كما في بقية القرون ، يتضح لنا معنى الإسلام كدين ودنيا، فهو إلى جانب كونه يأمرنا باتباع تعاليمه ، فإنه يحثنا على العمل ، ويقرن العمل بالعبادة . بل ويجعل العمل الدنيوي نوعا من العبادات . ولذلك .. فالإسلام لم يقتصر على الجانب الروحي ، وإنما جعل معه الجانب المادي أيضا ، والجانبان يسيران معا في حياة المسلم .. وذلك لأنه حين تنمو الحياة في أحضان الإسلام غير المتطرف.. فإنها تبلغ غاية أمنها ، ومنتهى سلامتها ، وكمال عافيتها ، وذروة قوتها .

ومنذ أن ظهر هذا الدين الحنيف ، وهو يقف إلى جوار هذه الحياة يشد أزرها ، ويقدس حقها ، ويعمل من أجل تطويرها ، ويواجه تحديات حاضرها ومستقبلها .

ورسالة هذا الدين، كانت للناس كافة في كل زمان ومكان . ولذلك .. كان هذا الدين بالنسبة للحياة أول مصلح ، وأهدى معلم ، وأرشد قائد ، وأرحم مؤدب ، وأبصر مروض ، بما له من ركائز وتعاليم ، قيم ومبادئ ، أخلاق وفضائل .. كانت جميعها من أسباب انتصار إنسان ، وقيام دولة ، وبناء حضارة .

فالعلاقة إذا بين الدين والحياة في الإسلام .. علاقة وثيقة ووطيدة .. تبدو أكثر وضوحا وبيانا للمدركين لجوهر أحكام الإسلام وتعاليمه .

ذلك .. أن الإسلام محيط شامل .. تستوعب أحكامه وتعاليمه كلا من الحياة الدنيا والحياة الآخرة . فيتحدث عن كلتيهما معا . ويبين كيف تفضى إحداهما إلى الأخرى ، وكيف تتصلان ، وكيف تمتزجان في نسيج واحد يعجز المرء عن تبين الحد

الفاصل بينهما . اللهم إلا في حقيقة : أن الحياة الدنيا عاجلة فانية ، والحياة الآخرة آجلة باقية .

والقرآن الكريم يؤكد في مجمل آياته الاهتمام بالدنيا والآخرة معا . وليس صدفة- والأمر كذلك - أن تتكرر كلمة الدنيا في آياته ١١٥ مرة وهو العدد نفسه الذي تكررت به كلمة الآخرة . على الرغم من أنه ليست كل الآيات التي وردت فيها الدنيا ترد فيها الآخرة . وهذا التساوي في عدد كلمات الدنيا والآخرة في القرآن الكريم يعتبر أصدق شاهد ، وخير دليل على اهتمام كتاب الله بالدنيا والآخرة معا .

ومن هذه الآيات التي تؤكد اهتمام القرآن الكريم بالدنيا والآخرة قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ [1] وقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [2] .

كذلك تدعونا الأحاديث النبوية الشريفة إلى العمل من أجل الدنيا والآخرة معا حيث قال ﷺ : « **ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه** » ، وقال : « **إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الصوم ولا الصلاة** » **قيل : فما يكفرها يا رسول الله؟** قال: «**الهموم في طلب العيش**»، وقال: « **عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة** » ، وقال : « **علم ساعة خير من عبادة عشر سنين** » ، وفي دعائه ﷺ كان يقول : « **اللهم إني أسألك رحمة أنال بها شرف كرامتك**

(١) القصص : ٧٧ .
(٢) يونس : ٦٢- ٦٤ .

فِي الدنيا والآخرة » ، وذلك على ضوء قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾[1] .

فالإسلام بنص كتابه المبين ، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع علمائه رضوان الله عليهم .. يدعو إلى الاهتمام بالدنيا والآخرة معا . وهو في توجهه – على هذا النحو – لم يقتصر على جانب العبادات وحدها ، متجاهلا جانب طلب العيش .. فالسماء لا تمطر ذهبا للقاعدين عن السعى . ولم يقتصر على الجانب الروحى في الآخرة فحسب ، بل على الجانب المادي في الحياة ، إذ وكيف يتجاهل هذا الجانب المادي ، والله عز وجل قد خلق الإنسان من روح ومادة ، ولم يأمر أيا من الروح أو المادة أن يهدم الجانب الآخر أو يرميه بالضعف أو التقصير !؟

إن من الأهداف الجليلة لهذا الدين الحنيف : الموازنة بين عنصري تكوين الإنسان : (الروح والمادة) فيعطى الروح حقها ،ويعطى للمادة حقها أيضا ، ويعدل بينهما عدلا تصلح به الحياة الدنيا بشكل يؤهله للخير في الحياة الآخرة .

وعلى هذا .. فكل خطوة تخطوها في الحياة الدنيا مباركة بأمر الله ، إذا اتصلت بالمثل الأعلى الذي يسميه الإسلام الحياة الآخرة ، وكل عمل تؤديه في الحياة الدنيا يصير نافعا بإذن الله ، إذا وضعت نصب عينيك الحياة الآخرة . وملعونة هذه الدنيا إذا أصبحت وحدها غاية ، وما استحق محبها إلا الشقاء .

إذا .. في الإسلام تتداخل الحياة الدنيا والحياة الآخرة . تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ؛ فكل عمل في أولاهما له أثر في أخراهما . والعمل الدنيوي لا يحكم عليه في ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته و أهدافه .

وتداخل الحياة الدنيا والحياة الآخرة هو تداخل مبهر ينتج عنه توازن مدهش حققه الإسلام بين الروح والمادة ، بين المثالية والواقعية ، إلى درجة أن فلاسفة الإسلام يحكمون على الإسلام بأنه مثالي في واقعيته ، وواقعي في مثاليته .

---

(١) البقرة : ٢٠١ .

ولعل هذا التوازن العظيم في الإسلام هو الذي جعل الحضارة الإسلامية متميزة عن غيرها من الحضارات؛ فلم يطغ الجانب المادي على الجانب الروحي حتى يصبغ الروحانيات بصبغته على نحو ما هو معروف في الحضارة الغربية: قديمها وحديثها ، ولم يطغ الجانب الروحي على الجانب المادي حتى يصبغ الماديات بصبغته على نحو ما هو معروف في بعض حضارات الشرق القديم . بل حرص الإسلام على هذه الموازنة ، بشكل جعل المهتمين بدراسة الحضارات يذهبون إلى القول بأن الإسلام من زاوية حضارية ، قد صبغ الحضارة الإسلامية بصبغة مميزة وطابع فريد .

وهذا التوازن بين الروح والمادة في الإسلام اعتبر من عناصر قوته الكامنة التي يستطيع أن يواجه بها تحديات حاضره ومستقبله . وهذه القوة بالذات يتنبه إليها من آن لآخر الأجانب ، فيعملون إما على إضعافها بأفكار وخطط أقلها : إذاعة الافتراءات والأباطيل ، أو يثبتون ما تنطوي عليه من عناصر وحقائق بطريقة الدق إلى جانب الأذن . حتى تواجهها أقوامهم . ومن الفريق الثاني جماعة من المفكرين الذين عرف الإنصاف إلى قلوبهم سبيلا ، ومنهم المفكر الألماني : «باول شمتز» في كتابه: (الإسلام قوة الغد العالمية) الذي ترجمه العالم الجاد الدكتور «محمد شامة».

والسؤال الآن: كيف كانت آثار هذا التوازن بين الروحانيات والماديات. أو بين الدنيا والآخرة أو بين الدين والحياة . في انتصار مجتمع وقيام دولة ، وبناء حضارة؟

للإجابة على هذا السؤال، لابد أن نتفق أولا على : أن المجتمع والدولة والحضارة هي جميعها من دنيا المسلمين . وهي كدنيا المسلمين فعليها أن تتسم بمبادئ وقيم وأخلاقيات الإسلام . بعد ذلك سنرى تحقق هذا التوازن بين الدين والحياة عند المسلمين في حربهم أو سلامهم .. في تربيتهم أو تعليمهم .. في تعظيمهم لدور العقل أو إيمانهم بقيمة الفكر.. في تقديرهم للعلم أو رؤيتهم للعمل أو إدارتهم

للحكم .. في رفضهم لأساليب الإرهاب أو مقاومتهم لأشكال القمع ، أو تحديهم لألوان العدوان . وغير ذلك مما يدخل في معنى الإسلام كدين ودنيا .

و نبي هذا الدين ﷺ حرص على هذا المعنى حيث كان يحث المسلم على أن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا، ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا . ولتأكيد هذه المعاني مع غيرها ، كان ﷺ يحرص على القول القرآني بأنه : ﴿ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(1) بمعنى أنه إنسان مثلنا ، إلا أنه صاحب رسالة سماوية ، والمبادئ التي يحملها هي ليست من ابتداعه ، وإنما هي مما يوحى إليه . وكل تعاليم الإسلام لم يأت بها النبي ﷺ من عنده ، وإنما جاءته عن طريق الوحي . هذا ما فهمته كقارئ من سياق الأحداث في كتاب (محمد رسول الحرية) للأستاذ «عبد الرحمن الشرقاوي» وعلى ضوء ما فهمت ، أستطيع القول بأنه حقا أن النبي ﷺ بشر مثلنا ، ولا يجول بخلدنا أن يخرج عن هذه البشرية، ولكنه بشر يوحى إليه، وهذا هو الفارق بين بشريته ﷺ ، وبشريتنا نحن . هو ﷺ بشر مثلنا ، ولكن لا ينطق عن الهوى ، هو ﷺ بشر مثلنا ولكن اصطفاه رب العرش العظيم ليرسله رحمة للعالمين ، هو بشر مثلنا ، ولكن يخاطبه الله سبحانه وتعالى بالقول : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(2) .

ولعل هذا ما تناوله أستاذنا الحكيم عند نشر كتابه عن النبي ﷺ ردا على بذاءات المفكر الفرنسي : «فولتير» فاستطاع أن يخرج من هذا الموقف حين كتب (محمد الرسول البشر) فهو يقدم دلالات الرسالة التي تقنعنا ، وفي الوقت نفسه يقدم الإثباتات الإنسانية التي يقتنع بها مواطنو «فولتير» . ونفس الأمر نجده عند الأستاذ «العقاد» حيث أراد أن يتكلم عن معنى « الرجل » في كتابه : (عبقرية محمد) فكان فصلا من فصول الكتاب .

---

(1) الكهف : ١١٠ .

(2) القلم : ٤ .

فإذا اتخذ الكاتب عن النبي الكريم – أي كاتب – هذه العبارة القرآنية : ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾[1] نغمة سائدة في صفحاته ، فلا يعني ذلك أنه يتوقف عند البشرية فحسب . بل يتجاوزها إلى معان كثيرة :

فهو النبي الذي يؤاخي بين العبيد والسادة ، بين المأجورين والملاك ، بين الفقراء والأغنياء .. ويجعل من الصدق والأمانة والوفاء دستورا للعلاقات بين الناس ، ويضع كل بريق خاطف زائف تحت قدميه . لكنه يؤكد دائما (**أنا بشر مثلكم**) وهذه اللمحات لا تأتي إلا من بشر يوحى إليه .

وهذه الحضارة الإسلامية التي أضاءت ظلام أوروبا في العصور الوسطى هي من تعاليمه ، ولا يستطيع إقامتها إلا نبي يوحى إليه .

وللتأكيد على هذه المعاني التي أقرها النبي ﷺ نواصل الحديث عنها في أعمال الخلفاء الراشدين الأربعة والحسين بن علي بن أبي طالب وشقيقته السيدة زينب ، وخامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز كمجددين في الإسلام .

* * *

(1) الكهف : ١١٠ .

أبو بكر الصديق

وكما صنع ثلاثة من جيل الرواد في التاريخ للصديق أبي بكر رضى الله عنه . فكتب الدكتور هيكل (الصديق أبو بكر) ، والأستاذ العقاد (عبقرية الصديق) ، والدكتور طه حسين (الشيخان : أبو بكر وعمر) ، وكتب ثلاثة آخرون من الجيل التالي هم: خالد محمد خالد، وعبد الحميد جودة السحار، وعبد الرحمن الشرقاوي.. نحاول أن نشير إلى هذا الخليفة العظيم في هذه الصفحات .

والقارئ لما كتبه هؤلاء وغيرهم عن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضى الله عنه ، يكتشف ذلك الإعجاب والتقدير الذي يضمرونه لهذه الشخصية الفذة في تاريخ الإسلام . لا لكونه شخصية كاملة الإيمان اتصلت بالنبي الكريم ورسالته السمحة ، وإنما كشخصية لها جاذبيتها التاريخية التي تخطف انتباه المتابع لتاريخ صدر الإسلام ، وتثير في نفس الفنان الحب والإكبار للوفاء الجليل الذي اتسمت به هذه الشخصية العظيمة .

فالصديق صاحب العظمة الصامتة التي تأبى أن تتحدث عن نفسها ؛ لأنها عظمة الروح العالية، والجلال النبيل الذي يستحي أن يعلن عن نفسه؛ لأنه من نعمة الإيمان.. لابد أن يتوقف عنده التاريخ ليسجل من مواقفه وأعماله صفحات من نور. لقد تحمل هذا الشيخ الوقور من الأعباء ما ينوء بحمله كوكبة من أشداء الرجال . وأي عبء يساوي أن يكون هذا الشيخ الرقيق في خلافة نبي؟ أي قدر مقدور هذا؟ خليفة نبي وأي نبي !؟ سيد المرسلين ؛ لقد كان من عبئه المقسوم أن يجمع شمل خير أمة أخرجت للناس . وأن يكون ثابت الجأش والجنان لحظة أن وقعت الواقعة بوفاة

الرسول حبيبه وخليله، والقوم بين كثرة مكذبة وقلة مصدقة ، وكيف يصدقون وهم يظنون أن الرسول سيظل حيا يشهد لأمته : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] وأن يكون – من بعد – القائد والسياسى والداعية الذي تكون ضمن مهامه انتشار دعوة الحق وتثبيتها في مشارق الأرض ومغاربها ، يفعل ذلك وهو البشر الذي لا يوحى إليه !

ترى بعد ذلك .. هل كان الصديق أبو بكر هو الخليفة المختار من بين صحابة رسول الله ، ومنهم العشرة المبشرون بالجنة لحمل هذه المسئوليات الجسام ؟ سؤال أطرحه لتجيب عليه هذه الصفحات إجابة تبدو ملامحها من لحظات إعداد رسول الله ﷺ لصديقه أبي بكر خليفة من بعده . فيبين للمؤمنين ما أنزل في أبي بكر من آيات بينات كقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2] . إشارة إلى النبي الكريم وصديقه أبي بكر ، وقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[3]. إشارة إلى اللوم الذي تلقاه أبو بكر من والده أبي قحافة ؛ لأنه ينفق أمواله في تحرير العبيد ليدخلوا الإسلام . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[4] . إشارة إلى صحبة أبي بكر للنبي ﷺ في الغار في لحظة من حياة الرسول هي لحظة الشروع في قتله .

(1) البقرة : ١٤٣ .

(2) الزمر : ٣٣ .

(3) الليل : ٥ – ٧ .

(4) التوبة : ٤٠ .

ولا يمكن أن ينسى التاريخ موقف الثبات لدى أبي بكر لحظة وفاة النبي ، وانقسام المسلمين بين مصدق لهذا الخبر ، ومكذب له من فعل الصدمة . هنا واجههم أبو بكر في ثبات ، قائلا : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » ، وموقفه من قبول بيعة المؤمنين له خليفة لرسول الله وهو الزاهد العزوف عن الإمارة والخلافة ، الحريص على حياة الإحسان والهدوء والطمأنينة والعمل الصالح ، الرافض لتبعات الخلافة ومسئولياتها الجسام .

ولعل هذا يطرح سؤالا : لكن لماذا قبل البيعة، فتولى الأمر وهو كره له ؟ ولعله رضي الله عنه يجيب على ذلك بالقول : « قبلتها منهم لأني تخوفت أن تكون فتنة من بعدها ردة » .

ولا يستطيع أن يقول قولا كهذا غير إنسان صلته حميمة بالنبي الكريم إلى الدرجة التي تسمح بإفشاء هذا السر الخطير الخاص بارتداد مؤمنين عن الإسلام بعد وفاة الرسول . والحق أنه كان عند حسن ظن الرسول الكريم به ؛ لأنه استطاع أن يقضي على الفتنة في مهدها .

وموقف ثالث من أبي بكر حيث نفذ أمر رسول الله ﷺ ، على الرغم من كره البعض في أن يقود «أسامة بن زيد» الشاب ابن العشرين جيشا للمؤمنين به كبار الصحابة ، ومنهم عمر بن الخطاب . حتى وإن تبرم كبار الصحابة لهذا الأمر وغضبوا منه ؛ لأنه ينفذ أمر النبي الذي لا يقوى على مخالفته حتى وإن قتل في سبيله.
وموقف رابع هو : التصميم على المقترحات الإسلامية غداة توليه مباشرة استكمالا لما كان سيفعله النبي الكريم لنشر الدعوة في الشام والعراق وفارس ، والانتصار على القوتين العظميين في العالم القديم : الروم والفرس ، وقد تم ذلك في خلافته التي لم تستمر أكثر من سنتين وبضعة أشهر .

ثم موقفه الحاسم من اختيار خليفته : عمر بن الخطاب .. بعد مشاورة للصحابة ، واستناد إلى قول رسول الله في ابن الخطاب « وأن تؤمروا عمر تجدوه أمينا لا يخاف في الله لومة لائم » .

ثم تأمل سلوكيات هذا الخليفة العظيم .. صاحب المنزلة الكبرى عند الله ورسوله والمؤمنين ، وأولها أنه كان يأكل ويعيش من عمل يده . حتى بعد أن أصبح خليفة لرسول الله .

حتى لقيه عمر بن الخطاب ، وابن الجراح حاملا ثوبين على كتفه ليبيعهما ، فقالا له : « أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : « تصنع هذا ، وقد وليت أمر المسلمين ؟ » . قال أبو بكر : « فمن أين أطعم عيالي » . قالا : « انطلق معنا حتى نفرض لك شيئا » ، ويرد عليهما : « لا تطيب نفسى بأن آكل وأطعم إلا من عملي » ولم يوافق على قبول ما يطعمه وأولاده من بيت المال أكثر من ثلاثة دراهم . ومنذ ولي أبو بكر الخلافة أصبح أفقر رجل في رعيته وكان قبلها تاجرا غنيا . بالضبط كما كان قبل دخوله الإسلام من أكبر أثرياء الجزيرة العربية ، وواحد من قلائل أنفقوا على جيش المسلمين .

وما أروع أبا بكر وأعظمه يوم تولى أمر المسلمين فقال : « أما بعد ، أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أخطأت فقوموني. الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف منكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله » .

هذا هو أول الخلفاء : الصديق أبو بكر، وهذه خلافته التي حمى الله بها الإسلام، لتتيح للإنسانية كلها نهضة تمكنها ، وتمكن المبادئ والقيم والفضائل من الانتصار ، ولتحمي الدنيا من هجير التعصب والجهالة .. وكانت - حقا وصدقا - حصنا لحرية العقيدة و الفكر والإرادة .. ولكم يدين الإسلام لأبي بكر .

كذلك تبدو منزلة أبي بكر عند النبي ﷺ من أحاديثه ، حيث يقول : « **يا أيها الناس ، احفظوني في أبي بكر** » ويقول : « **رحم الله أبا بكر ، زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وأعتق بلالا من ماله ، وما نفعني مال في الإسلام قدر ما نفعني مال أبي بكر** » ويقول : « **ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت منه كبوة وتردد إلا أبا بكر ما عتم (ما تمهل) وما تردد** » . ويقول : « **لو كنت متخذا غير ربي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام ومودته** » ، ثم يقول : « **أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ...** » .

كذلك وضح إعداد النبي ﷺ لأبي بكر لتولي الخلافة من بعده حيث جعله أميرا على الحج في العام التاسع للهجرة ، وحيث جعله يصلي بدلا منه بالناس عندما اشتد به المرض .

ولا شك أن أبا بكر يستحق هذه المنزلة والتقدير من الله ورسوله ، والإكبار والإجلال من الناس . فهذا الرجل الوديع الرقيق السمح ، تنطوي نفسه على قوة هائلة لا تعرف التردد أو الإحجام ، وقدرة ممتازة على اتخاذ القرارات والمواقف . ولقد تجلت هذه القدرة والقوة معا حين قبض الرسول عليه الصلاة والسلام ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، فواجه الناس الذين كادت عقولهم تذهب منهم .

ولهذا .. ولغيره من أسباب ، كان أبو بكر جديرا بأن يكون أول المجددين في الإسلام ؛ نظرا لمواقفه الجليلة ، وأعماله التي أنقذت الإسلام من ردة أطلت على هذا الدين بعد وفاة النبي ﷺ ، والانتصارات التي حققها لنشر دين الله ، واتساع رقعة الدولة الإسلامية في العالم القديم .

* * *

عمر بن الخطاب

وقبل أن يقبض أبو بكر رضى الله عنه إلى الرفيق الأعلى، اختار عمر بن الخطاب - رضى الله عنه- خليفة من بعده. وقد لاقى هذا الاختيار رضا وارتياحا ؛ حيث تم اختيار الرجل المناسب لتحمل المسئوليات الجسام، خاصة وأن الخليفة الجديد له منزلة كبيرة .

وأي منزلة لبشر حين ينزل القرآن موافقا لرأيه . مثلا قال عمر للنبي ﷺ : « لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى يا رسول الله»، فنزلت الآية : ﴿ **وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى** ﴾[1] . وقال عمر للنبي ﷺ عندما صلى على رأس المنافقين عبد الله بن سلول: « إنه منافق لا يستحق الصلاة » ، فنزلت الآية : ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ** ﴾[2] .

وقال عمر لنساء النبي عندما اعتزلهن غضبا منهن : « إن انتهيتن ، أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن » ، فنزلت الآية : ﴿ **عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ** ﴾[3] . وكان لعمر رأي آخر غير أخذ الفداء من أسرى بدر ، فلما أخذ المسلمون الفداء نزلت الآية : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[4] . كما دعا عمر الله سبحانه وتعالى أمام النبي ﷺ قائلا : « اللهم بين لنا في الخمر حكما

(1) البقرة : ١٢٥ .
(2) التوبة : ٨٤ .
(3) التحريم : ٥ .
(4) الأنفال : ٦٧ .

شافيا ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ **إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ** ﴾[1] . حتى قوله تعالى : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** ﴾[2] . فقال عمر : « انتهينا يا رب » .

ومنزلة عمر بن الخطاب عند النبي ﷺ كانت كبيرة ؛ حيث قال : « **إن الله تبارك وتعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه** » ، وقال : « **يكون في الأمم محدثون أي : ملهمون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر** » ، وقال : « **عمر معي وأنا مع عمر ، والحق بعدي مع عمر حيث كان** » ، وعن عمر وأبي بكر قال : « **هما لابد لي منهما .. هما بمنزلة السمع والبصر** » . وعنهما قال أيضا لعلي بن أبي طالب : « **هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين إلا النبيين والمرسلين.. ولا تخبرهما يا علي** » ، وقال : « **اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب وعمرو ابن هشام** » .

ذلكم هو عمر بن الخطاب خليفة رسول الله الذي قال : « والذي بعث محمدا بالحق ، لو أن دابة هلكت بأقصى أرض المسلمين لأخذ بها عمر يوم القيامة » ، والقائل أيضا : « لا تقولوا لي الرأي الذي تظنونه يوافق رأيى ، بل قولوا الرأي الذي تحسبونه موافقا للحق » وهو عمر بن الخطاب الذي سأل يوما سلمان الفارسى قائلا: « أملك أنا أم خليفة ؟ فقال سلمان : يا أمير المؤمنين إن بين الملك والخلافة فرقا ، قال عمر : وما هو ؟ قال سلمان : الخليفة : لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في الحق . فأنت بحمد الله كذلك » .

هذا هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه في التاريخ . فماذا عنه عندما يتناوله كاتب مثل «عبد الرحمن الشرقاوي» غير ملتزم بالتسلسل أو السرد التقليدي . نراه

(1) المائدة : ٩٠ .

(2) المائدة : ٩١ .

يخط أولى ملامح هذه الصورة بأنه كان واحدا من سبعة عشر يتقنون القراءة والكتابة في مكة كلها . وأنه حافظ لأشعار العرب وأنسابهم ، وأنه مهتم بتحصيل معارف عصره ؛ حيث لا يستغل السفر للتجارة فحسب ، وإنما لمعرفة طبائع الشعوب المجاورة .

وملامح أخرى ، كل واحدة تقدم معاني ودلالات للفاروق عمر ، فتقدمه حين أسلم فأعز الإسلام وأعلنه حين قال للنبي ﷺ : « والذي بعثك بالحق ، لأعلنن الإسلام كما أعلنت الشرك » يقدمه وزيرا لخليفة رسول الله أبي بكر ، مطيعا ملتزما مدركا لمسئوليته مجتهدا مجددا ، مستلهما روح الشريعة من النص والسنة على اعتبار أن هناك قضايا ومشكلات استحدثت بعد وفاة النبي ﷺ توجب على ولي أمر المسلمين أن يستنبط لها الأحكام المناسبة كما علمه مع بقية الصحابة رضوان الله عليهم النبي الكريم .. أن يتدبروا ويتفكروا .

يقدمه والقوم يبايعونه بالخلافة ، وكيف أقبلت عليه الجماعات والأفراد ، يقول الواحد منهم يا خليفة رسول الله ، فيرد عمر رضي الله عنه وكأنه يتعجل الإصلاح حتى في الكلمات العادية فيقول : « والذي سيأتي بعدي ستنادونه يا خليفة خليفة خليفة رسول الله هذا شيء يطول .. » ، ثم قال : « أنتم المؤمنون وأنا أميركم .. فأنا أمير المؤمنين .. فكان هو أول من لقب بهذا اللقب . ويقدمه لنا «الشرقاوي» في حربه وسلمه ، في احترامه للمبادئ والقيم ، في زهده عن طيبات الحياة ومباهجها ، في شدته ورقته ، في إقامته لدعائم أركان دولة إسلامية تمتد من بحر قزوين شرقا ، وحدود تونس غربا ، وبلاد الروم والصقالبة شمالا والسودان جنوبا . حتى أصبحت دولته الإسلامية أكبر دولة عرفها العالم القديم إلى جانب كونها أكبر دولة تأسست على المبادئ والقيم ، وليس على الظلم والاستبداد .

وإذا كان لكل كاتب فكرة تدور حولها صفحات كتابه ، فماذا عن الفكرة التي تدور حولها صفحات كتاب « الشرقاوي » عن الفاروق عمر ؟ من قبل ، نرى مثلا فكرة الدكتور طه حسين في تناوله لشخصية هذا الخليفة العظيم في كتابه: (الشيخان) بأن المسلمين لم يعرفوا خليفة بعد عمر عني بأمر الدين وإقامة الحدود وجعل بيت المال ملكا للسائل والمحروم ، ووفر للجميع الرزق دون أن يمنعهم عن العمل . ودارت فكرة الدكتور هيكل في صفحات كتابه : (الفاروق عمر) حول تكوين الإمبراطورية الإسلامية على أساس قوي من الخلق المتين ، وأنه إذا صح للمؤرخين أن يشيدوا بعظماء كالإسكندر ويوليوس قيصر ونابليون لأنهم أقاموا إمبراطوريات، فالأحرى بهم أن يكونوا أكثر إشادة بعظمة عمر بن الخطاب الذي أسس إمبراطوريته على هذا الخلق المتين . ودارت فكرة الأستاذ العقاد في تناوله لهذه الشخصية الأسطورية حول طبيعته كجندي يتسم بالشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف والنخوة والنظام وتقدير المسئوليات والإيمان بالحق والواجب والإنجاز ، ومن هذه تكونت عبقرية عمر ، تلك التي أعزت الإسلام ودعمته . فإذا كانت هذه فكرة السابقين ، فإن الفكرة عند الأستاذ الشرقاوي التي تدور حولها صفحات كتابه مستحدثا للعديد من الإنجازات والأعمال والمواقف الخالدة . فالفاروق عمر هو أول من دون الدواوين ، ونظم القضاء ، وقرر الرواتب الشهرية للعمال ، ووضع التاريخ الهجري ، وأشعر أهل البلاد المفتوحة بأنهم والعرب سواء ، جاعلا دستور العلاقات قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ** ﴾[1] ، وقول رسوله : « **لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى** »[2] وكان أول من جعل الخراج على أهل الأمصار ، والجزية على أهل الذمة ضامنا لهؤلاء وهؤلاء حماية الدولة .

(1) الحجرات : ١٣ .
(٢) أحمد بن حنبل / 5 / 411 .

وهو أول قاض في الإسلام ، وأول من جعل للقضاء سلطة مستقلة ، ووضع أصول التقاضي لضمان حق كل إنسان في قدر متساو من العدل ، وهو أول من عين أهل الفتوى ليعلموا المسلمين أصول دينهم . وكان أول حاكم كفل للناس حرية العقيدة ، وأول من جمع الناس على قيام تراويح رمضان ، وأول من كشف المتاجرين باسم الدين ، وأول من اهتم بأن يكون الإسلام مهذبا للضمائر ، معلما للنفوس والعقول .

والفاروق عمر ، كان أول من حاسب عماله حسابا عسيرا ؛ مكن الرعية المظلومين من الرعايا الظالمين المستبدين ، وأول من كتب أموال العمال عند توليتهم إدارة الأمصار حتى يضم إلى بيت المال ما يزيد باستغلالهم نفوذهم ، ولعله أول من سأل ولاته سؤال : من أين لك هذا ؟ وهو أول من اهتم بقيمة العمل وتفضيله أحيانا على العبادة .

كذلك كان عمر بن الخطاب أول أمير للمؤمنين يتفقد أحوال الرعية في النهار والليل رافعا عنها إصرها وظلمها ، محررها من الأغلال التي يضعها من بيده حاجة الناس حقا .

* * *

عثمان بن عفان

لا شك أن تناول شخصية ثالث الخلفاء الراشدين : عثمان بن عفان رضى الله عنه بالدراسة ، يضع الباحث أمام صعوبات شتى ، مصدرها : أن بداية ولايته أمر المسلمين اقترنت بالفتنة الكبرى ، تلك التي انتهكت بسببها الحرمات . وقضى على هيبة الخلافة الإسلامية ، وانقسمت الدولة الإسلامية إلى شيع وأحزاب وجماعات وتيارات ، دخيلة على الإسلام من الخارج ، أو في قلب الإسلام من الداخل .

ومما يضاعف الأمر صعوبة هو : أن المادة التاريخية تأتي متباينة الأغراض والأهداف . ذلك أن للمؤرخين القدامى أو حتى المعاصرين آراء مختلفة في تقييمهم لهذه الفتنة وأسبابها ، فمنهم من يستبد به الهوى لآل البيت بشكل يجانب الموضوعية. ومنهم من ينحاز إلى بنى أمية الذين كان ينتسب إليهم عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومنهم من كان يلقى اللوم على الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ؛ حيث لم يطوق هذه الفتنة التى كان من نتيجتها مقتل ثالث الخلفاء الراشدين والمصحف بين يديه دون اعتبار لشيخوخته .

وهذا الاختلاف نلمحه أيضا عند المعاصرين في تناولهم لهذه الشخصية العظيمة . فالدكتور «طه حسين» يخصص لهذه الفتنة جزأين ، وعندما يتحدث عن عثمان رضى الله عنه لا يؤرخ لولايته أو مقتله بقدر ما يؤرخ لنظام الحكم الإسلامي وعناصره ، فهو لا يقدم صورة الفرد بقدر ما يقدم صورة متكاملة العوامل والتيارات التي كان يموج بها عصر الخليفة الشهيد . ونجد الدكتور «هيكل» في تناوله لهذه الشخصية يهتم بذلك الجدل الدائر بين الفرق الإسلامية في أمر خلافة

عثمان رضى الله عنه وأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بهذه الخلافة أمرا جعل هذه الفرق تحاول التشكيك في شرعية خلافة كل من أبي بكر وعمر رضى الله عنهما حيث ترى أن الخلافة - حقا - لعلي ، وهذا الحكم كان يتطلب حاكما يستطيع أن يستوعب كل هذه المشكلات ويتجاوزها . على اعتبار أن لشخصية الحاكم أثرا بالغا في سياسة الدولة وتصريف أمورها. وأما الأستاذ العقاد : فقد ذكر في كتابه : (ذو النورين : عثمان بن عفان) أن من سمات شخصية ثالث الخلفاء : أنها أقرب إلى الطيبة والسماحة منها إلى البأس والصرامة ؛ فلأنه كان طيبا سمحا فهو لم يعبأ بأشياء كثيرة ، لعل أقلها أن يضع حراسا حول بيته ليمنعوا عنه القتلة . ويتساءل العقاد : هل ما حدث لعثمان رضى الله عنه كان من الممكن أن يحدث لواحد من عماله كمعاوية بن أبي سفيان ؟ الأمر يختلف بين شخصية عثمان رضى الله عنه الذي قصر في حق نفسه أكثر مما قصر في حق الرعية.. وغيره كمعاوية الذي أرادها ملكا عضوضا أكثر منها خلافة تقية .

لا ريب إذا .. في أن الكاتب لشخصية عثمان بن عفان تواجهه صعوبات مثل هذه الصعوبات التي واجهت السابقين ، ولكنه لم يعلن عنها ، وإن كان القارئ قد أدركها فيما يبذله الكاتب من مجهود عظيم .

إن أول هذه الصعوبات : اختلاف المؤرخين حول بيعة ثالث الخلفاء ، والتي تمت وفق حيلة مدبرة لإقصاء الإمام علي وبني هاشم عن الخلافة .

فهناك من يسجل أحداث يوم البيعة ، وكيف ظهرت النوايا وكشفت الحيلة حتى قال الإمام علي : « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علي ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » ، وعلى الرغم من هذا يبايعه الإمام علي ؛ لأنه أعرف الناس بفضله ودوره في الإسلام ، يبايعه لأنه يدرك أن هذا التكليف بالخلافة لعثمان ليس تشريفا له ولتاريخه المجيد .

لقد واجهته مشكلات عديدة ، تكون الأولى منها بعد بيعته مباشرة ، وهي في قتل عبد الله بن عمر بن الخطاب لثلاثة انتقاما لقتل أبيه أمير المؤمنين . فهل يقر الخليفة الجديد هذا التصرف ، فيبيح دم المسلم أم لا يقره ؟ أيقتص من ابن أمير المؤمنين المقتول ؟ ولا يجد ثالث الخلفاء حلا خيرا من دفع دية القتلى من ماله الخاص حقنا للدماء . ترى هل هذا هو الحل الأمثل ؟!

وفي تناول شخصية الإمام علي وسط هذه الأحداث. نجد الأستاذ «الشرقاوي» وقد كتب مجلدين عن عثمان وعلي رضي الله عنهما تحت عنوان (علي إمام المتقين) . يختلف كثيرا عن الدكتور طه حسين الذي كتب عنهما مجلدين أيضا تحت عنوان : (الفتنة الكبرى) فالشرقاوي يحفل كثيرا بالتأريخ للإمام علي ، ويجعله رجل الساعة حتى في تأريخه للخليفة عثمان بن عفان . على الرغم من أنه يسجل أن ثالث الخلفاء لم يجعل الإمام عليا وزيرا له ، وإنما جعل أحد أقاربه وهو مروان بن الحكم وزيرا . وأن ثالث الخلفاء كان لا يستغني عن مشورة الإمام علي ، فيستدعيه ويتفقان على رأي . لكن سرعان ما يتركه الإمام علي ويحيط بثالث الخلفاء مستشارو السوء فيرجع عما اتفق عليه . ويستمر المحيطون بثالث الخلفاء في الدس بينه وبين الإمام علي ويوقعون بينهما حتى يطلب منه ثالث الخلفاء مغادرة المدينة فينفذ الإمام علي مكرها . ويجمل الشرقاوي هذا الموقف قائلا : « فلا علي كرم الله وجهه بالقادر على إقناع عثمان رضي الله عنه فينقذه بمشورته ، ولا عثمان بمستطيع أن يتخلى عن ذوي قرباه من بني أمية الذين يتخيلون أن عثمان يحابيهم ، ولا يدركون أنه يبرهم امتثالا لأوامر الله ورسوله بذوي القربى . وهكذا اقتنصوه من فضيلته وقد كان أوصل الناس بالرحم» .

والحق .. أن الشرقاوي اهتم برصد نفوذ أقارب عثمان رضي الله عنه بشكل غطى على جوانب أخرى كان القارئ ينتظرها من كاتبه الكبير ، ومنها تحديد نظام الحكم في عصر خلافة عثمان رضي الله عنه ، وهل كان نظام الحكم تيوقراطيا

أم ديمقراطيا أم ملكيا أم قيصريا أم كسرويا ؟! أم أنه كما وصفه الدكتور طه حسين : «النظام العربي المبتكر»؟!

وعلى الرغم مما صاحب اختيار ثالث الخلفاء من أزمات مصدرها أقاربه ، إلا أنه استطاع رد أطماع الروم في الدولة الإسلامية . وتم في عهده فتح قبرص وبلاد الأفغان وأرمينية وآسيا الصغرى ، وازدادت الدولة اتساعا ، كما ازدادت تكدسا بالأموال في بيت المال . هذا صحيح ، إلا أن هناك نقاط ضعف ليته كان قد تجاوزها وكان من الممكن تجاوزها ، منها : أنه أباح مغادرة كبار الصحابة للمدينة ، وأنه لم يستشرهم كما كان يفعل كل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنه أحاط نفسه بنفر من بني أمية على رأسهم الداهية «مروان بن الحكم» .

وما عاد عثمان رضي الله عنه ، ليسمح من أحد غيرهم وهم ما برحوا يغرونه بالمبالغة في الشدة على الناس ، ومنها ظهوره في أبهة لم يتعودها الإسلام ؛ حيث يقيم فسطاطا كبيرا يقيم فيه أيام الحج ، ومنها أيضا أنه يهب إبل الصدقة لوزيره مروان ابن الحكم ، إلى غير ذلك من أمور تجعل القوم يشكون إلى الإمام علي الذي يذهب بدوره إلى عثمان رضي الله عنه ليبلغه ماذا يصنع بنو أمية في الناس بالأمصار ، ويطلب علي من عثمان عزلهم فلا يوافق .

وكلما أحس الإمام علي بازدياد انتقادات المؤمنين ، ذكرهم بفضل عثمان رضي الله عنه . فهو إن اختلف مع البعض في كيفية توزيع الأموال ، إلا أنه هو عثمان نفسه الذي كان في طليعة المؤمنين وأحد المهاجرين ، وأكثر الناس إنفاقا على جيوش المسلمين ، وأكثرهم تحريرا للعبيد، وأكثرهم جودا وبرا بالمؤمنين . إنه عثمان صاحب الحياء الذي جعله نفر من أقاربه طريقا إلى الدنيا وزخرفها ، وقد كان هذا الحياء نفسه هو الطريق المستقيم لصاحبه إلى التقوى ومكارم الأخلاق . إنهم إذا مستشارو

السوء حول كل حاكم .. هؤلاء الذين عينهم ، فأخذوا الناس بسياسة الملك العضوض ، فصنع مأساته ونهايته العاجلة بنفسه .

وظهور الفتنة السوداء التي قسمت وفرقت المسلمين بعد أن كانوا يدا واحدة ، الفتنة التي استمر معاوية وأعوانه وأقاربه من بني أمية في إشعالها ؛ أملا في وصوله إلى الخلافة ، وهو إلى عهد قريب كان مشركا حتى فتح مكة ، ودخل هو وأبوه رأس الشرك أبو سفيان حظيرة الإسلام رهبة وليس عن رغبة . معاوية اليوم يطالب بدم الصحابي الجليل عثمان من صحابي جليل هو : علي رضي الله عنهما ، فيا للعجب !!



علي بن أبي طالب

لعلنا الآن نقف وجها لوجه مع الإمام علي كرم الله وجهه: الرجل الذي لم تعرف الإنسانية حاكما مثله ، ابتلي عصره بالفتن والاضطرابات والحروب الأهلية.. حاكما حرص على حماية العدل وإقامة الحق ، وتهذيب النفوس ، حاكما اجتمعت فيه كل مقومات الحكم الصالح ، ونبالة القيادة الرشيدة ، وشرف التعامل الإنساني .. ذلكم هو الإمام علي كرم الله وجهه .. الذي خاطبه مربيه ومعلمه المصطفى ﷺ قائلا: «**أنت سيد في الدنيا ، سيد في الآخرة ، من أحبك فقد أحبني ، وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك أبغضني ، وبغيضك بغيض الله** » .

وقال ﷺ عنه : « **ويل لمن أبغضك من بعدي** » وقال عنه : « **رحم الله عليا .. اللهم أدر الحق معه حيث دار** » ، وقال عنه : « **من اتخذ عليا إماما لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى وتنبأ له** » : «**إن عليا لن يموت في مرض ، ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ**» .

صدقت يا رسول الله ، عليك الصلاة والسلام ، فأي غيظ يتجرعه إنسان يعيش زمانا يقول عنه كرم الله وجهه : « واعلموا رحمكم الله ، إنا في زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل» .

زمن فيه لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يعول غنيهم فقيرهم .. وصدقت يا إمام المتقين. فمن نكد هذا الزمان أن ترى خصما لك مثل معاوية بن أبي سفيان ابن آكلة الأكباد القائل عن نفسه: «الدنيا مالت بي وأنا ملت بها ، هي أمي وأنا ابنها» .

حقا .. من نكد هذا الزمان أن يتنازع فيه اثنان ، أولهما : إنسان زهد في أمر دنياه حتى يكسب آخرته ، والثاني: أصلح أمر دنياه بفساد دينه . نعم من نكد هذا الزمان : أن يعيشه الإمام علي وقد نشأ في بيت النبوة تربيه الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين ليتولاه ويعلمه النبي سيد الخلق أجمعين .. مع معاوية وقد نشأ في بيت الشرك حيث تربيه أمه هند بنت عتبة آكلة أكباد المؤمنين ، ليتولاه رأس الكفر أبو سفيان ابن حرب ، فالتربية الأولى تنتج إماما صالحا للمتقين إذا تولى أمر المسلمين فإنه يريدها خلافة تقوم على العدل والحرية والمساواة ، بينما تنتج الأخرى طاغية مختالا فخورا . والتربية الثانية تفرز طاغية إذا تولى أمر المسلمين ، فإنه يريدها ملكا وراثيا عضوضا مستبدا ، يقوم على جماجم وأشلاء ودماء المسلمين وحدهم . هذا هو علي كرم الله وجهه وهذه محنته في التاريخ الإسلامي .

ولهذا ولغيره.. فإن الذين يكتبون عن الإمام علي يتعاطفون معه أشد التعاطف؛ فمثلا : الشرقاوي حين يتناول هذه المادة عن الإمام في مجلدين ، لا يكتفي بأن يكون محاميا بارعا يجتذب قلوب القراء حين يدافع عن أمر يراه مشروعا ، وإنما هو يدخل في رحاب الإمام علي متلبسا به متشكلا بشكله ، حتى يظن القارئ أنه يحيا حياته ويعيش محنته في توحد يدعو إلى الإعجاب . فمثلا حين يسجل للمشكلات والهموم التي واجهها الإمام علي كرم الله وجهه منذ توليه أمر المسلمين يسكب مشاعره في سن قلمه . وأي هم يلقاه من يتولى أمر المؤمنين ، وقتلة ثالث الخلفاء لا يزالون مقيمين بالمدينة متسلطين عليها . أكتب عليه وعلى من يبايعه من المهاجرين والأنصار أن يكونوا مستهدفين لهؤلاء القتلة والذين يحركونهم فئة وراءهم من بني أمية على امتداد الدولة الإسلامية ؟ وأي هم يلقاه الإمام الجديد حيث يعرف أن أغلب من ولاهم عثمان رضي الله عنه يستنكرون خلافته ، ويؤلبون الرعية ضده ، مطالبين بدم الخليفة المقتول من رفيقه وصاحبه الإمام علي ، ليس وفاء للخليفة المقتول ولا كراهية للإمام ، وإنما حرصا على مصالحهم التي أصبحت مهددة . وأي هم يلقاه

إمام يتولى أمر المؤمنين فيرى أهل الثقة وإخوة الجهاد ، وفي مقدمتهم : أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير يتألبون ضده بفعل دس معاوية وأعوانه ويشعلون حرب الجمل التي فيها يختلط الثرى بدماء وأشلاء المؤمنين من الطرفين ولا يتنبهون إلى هذه الفتنة إلا بعد فوات الأوان . وأي هم يلقاه إمام يرى شرور معاوية وأعوانه تزحف وتستشري لتقطع أجزاء من الدولة ، يصلحها بعد ذبح الأطفال وقتل الشيوخ وسبي النساء المؤمنات ، حتى إذا كانوا على أبواب الكوفة يدعوهم الإمام علي للجهاد ، فلا يجد إلا تقاعسا فيخاطبهم : « يا عجب كل العجب.. عجب يميت القلب ، ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقهم على حقهم » .. وأي هم يلقاه من يتولى أمر المسلمين ، فيجد نفسه مواجها بعديد من المشكلات مجتمعة .. وأولاها : من الذي قتل عثمان ومن قبله عمر ومن قبلهما أبو بكر الذي مات مسموما ؟ هل هناك يد تفتك برؤوس الدعوة الإسلامية بعد وفاة صاحبها ﷺ ؟ ومشكلة أخرى : هي في عزل الولاة من بني أمية وغيرهم ممن ولاهم عثمان رضي الله عنه فركبوا رقاب الناس وأصابوا ثروات من دماء المسلمين ؟ ومشكلة ثالثة : هي في طلب صحابيين جليلين هما : طلحة والزبير أن يوليهما صاحبهما الإمام علي البصرة والكوفة فلا يستطيع امتثالا لتعاليم النبي ﷺ الذي حذر ممن يطلب ولاية على الناس فلن يكون في خدمة الناس. ومشكلة رابعة : هي في إقرار مبدإ المساواة الذي أهدر مؤخرا ، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، الكل سواء : الأمير كالفقير فكيف يرضى أصحاب السوابق والفضائل من المهاجرين والأنصار . ومشكلة خامسة : هي كيف يقر المبدأ الذي استهل به خلافته يوم بيعته وبغيره لن تكون له خلافة وهو : إقرار فرض أن في أموال الأغنياء حقا للفقراء . لكن هم الهموم الذي كتب على الإمام علي أن يلقاه في معاوية بكل ما انطوت عليه نفسه من مكر ودهاء وحب للدنيا وزخرفها .

إذا .. كان لكل كتاب عن الإمام على كرم الله وجهه فكرة يدور حولها . فمثلا نجد في كتاب الدكتور/ طه حسين(الفتنة الكبرى) أن الفتنة التى تضخمت وتشعبت في عصر على كرم الله وجهه بدأت في عصر عثمان رضى الله عنه ولم تنقض بموت يزيد بن معاوية ، بل استأنفت شدتها وعنفوانها ؛ فعرضت دولة المسلمين لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التى حدثت قبل ذلك . وتدور فكرة كتاب (عبقرية الإمام) للأستاذ / العقاد حول مفتاح شخصيته ، وهو في آداب الفروسية التى تشتمل على الأنفة التى تأبى أن تسف إلى ما يخجل ويشين ، والمصارحة التى تدعوه أن يقول في العلن ما يقول في السر هو كإمام للمسلمين لم ينس الشرف قط ليغتنم فرصة. ولم يساوره الشك قط في هذا الشرف ، فهو يصنع ما وجب عليه وإن خسر . وأما عبد الرحمن الشرقاوي فإن فكرته البارزة في مجلدي «(على إمام المتقين) لعلها في تبيان الفارق الشاسع بين الإمام على كرم الله وجهه ومعاوية وهو الفارق بين الحق والباطل ، ولعل الشرقاوي يجسد هذا الفارق ؛ حيث يسجل رد الإمام على رضى الله عنه على المتحدثين بدهاء معاوية قائلا : « والله ما معاوية بأدهى منى ، ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر منى لكنت أدهى الناس ولكن كل غدرة فجرة ، وكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة » . وقد صدق الإمام ؛ فلو أنه هادن معاوية وأقره حتى يأخذ منه البيعة ثم عزله لاستقرت الخلافة بهذه الوسيلة المخادعة ، ولكن كيف للإمام على كرم الله وجهه أن يخالف طبيعته بمخالفته للقاعدة الشرعية : « **لا تجوز ولاية الفاسق**» مستحيل .

من هذه الفروق وغيرها كثير .. تولدت الخلافات واستمرت بين الاثنين ، فلم تستقم بينهما الأمور حتى وإن تخللتها هدنة قصيرة استطاع خلالها الإمام على أن يقوم ببعض الإصلاحات إلى أن كانت النهاية الحزينة بمقتله كرابع للخلفاء الراشدين كما قتل من قبل عمر . وعثمان رضي الله عنهما ، وتنتهي الخلافة الراشدة، ولا تنتهي هذه الفتنة اللعينة .

* * *

الإمـام الحسـين

منذ أن خرج«خارج» فأذن في الناس : لقد قتل عثمان ثالث الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة ، ومن بعده قتل الإمام على كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين بالكوفة ، ومن بعدهما كان مقتل الحسين بن على بكربلاء ، والفتنة قائمة لا تنتهى ، ولم يتفرق الناس إلا وقد وقعت الواقعة ، وكانت كربلاء كربا وبلاء على المسلمين ، ومحنة استمرت أعواما وقرونا ، وأثارت من الخطوب الجسام ما أثارت ، وأي خطوب بعد سفك ما سفك من الدماء ، وإزهاق ما أزهق في النفوس ، وانتهاك ما انتهك من الحرمات ، وقضى بعد هذه الفتنة على سنة الخلافة الراشدة ، وتمزقت أوصال دولة الإسلام إلى شيع وأحزاب ، وأسس فيها ملك عضوض لا يقوم على الدين والمنفعة العامة ، وإنما يقوم على السياسة والمصلحة الخاصة . وكان يظن مؤسسه معاوية أن هذا الملك يمضى في طريقه وادعا مستقرا في بنى سفيان دهرا طويلا ، ولكنه لم يستقر فيهم إلا ليتحول عنهم في عنف وشدة وغلظة عرضت المسلمين ودولتهم للخطوب المتتالية ، وذلك حين غاب عنهم المثل الأعلى في العدل الذي يملأ الأرض وينشر السلام. والذي تقطعت دونه الرقاب ، قرونا متصلة دون أن يبلغوا منه شيئا حتى استيأسوا من قربه ، ولم يستيأسوا من وقوعه ، فما زالوا يعتقدون أن واحدا منهم سيأتي في يوم من الأيام ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . وهذا واحد من المؤمنين المتطلعين إلى هذا العدل ، إنه الحسين بن على رضى الله عنهما ، الذي كان تجديده في إنقاذ الإسلام من رجعية ، ولكنه قتل لتنتشر الفتنة التي لا تزال إلى اليوم تفرق المسلمين بين سنة وشيعة .

الحسين بن على – رضى الله عنهما – الذي لا يوجد مسلم في العصر القديم أو الحديث يحبه ﷺ ، ولا يقدر كل هذا الحنان الذي يغمر به سبطيه ، وأحب الناس

إليه : الحسن والحسين رضى الله عنهما ، فبهذا الحنان النبوي الشريف أصبح الحسين في عداد تلك الشخصيات الرمزية التى تتخذ منها الأمم والشعوب عنوانا للمحنة أو الألم أو الفداء ، فهذه الشخصيات محبوبة عند كل فرد ، وموضع عطفه وإشفاقه.. كأنما هذه الشخصيات تمت إليه بصلة القرابة والرحم .. بل وأكثر من ذلك .

ولقد بلغ الإمام الحسين ، مبلغا من المكانة الرمزية ، حتى أوشك بعض واصفيه أن يلحقوا به المعجزات والأساطير ، التي انتهت بانتهاء النبوة من على الأرض .

ولاشك أن مأساة الإمام الحسين .. تكفي وتزيد عن تلك الصور الرمزية التي نسجتها الأجيال المتعاقبة ، وكيف لا يكون ذلك وقد كان ملء السمع والبصر في خلقه وخلقته ، في أدبه وسيرته ، في مبادئه وقيمه ، وإلى جانب ذلك ، فهناك شبه كبير بينه وبين جده ﷺ وأبيه كرم الله وجهه. فقل فيه ما شئت من الصفات الكريمة، والمثل العليا ، والأدب الجم .

لقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من علم وأدب وفروسية ، إلى جانب ما أوتي به من ملكة للخطابة التي تخلب لب من يسمعه : طلاوة لسان ، وحسن بيان ، وغنة صوت ، وجمال إيمان . استمع إليه مثلا في توديع أبي ذر الغفاري حين أخرجه من المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بعد أن طرده من الشام معاوية ابن أبي سفيان : « يا عماه ، قد منعك القوم دنياهم ، ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما منعوك ، وما أحوجهم إلى ما منعتهم .. وأسأل الله الصبر ، وأستعيذ به من الجشع والجزع . فإن الصبر من الدين والكرم ، وإن الجشع لا يقدم رزقا ، وإن الجزع لا يؤخر أجلا » .

قال ذلك وهو في الثلاثين من عمره ، فكأنما أودع في هذه الكلمات شعار حياته كاملة ، وخلاصة مبادئه ، منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها شهيدا في كربلاء .

ولكن كيف يقتل الحسين بيد مسلم ، ويمثل بجثته أبشع تمثيل ، كيف يقتل بيد من سمع الرسول ﷺ وهو يقول : « **هؤلاء هم أهل بيتي ، من أحبهم فقد أحبني ، ومن عاداهم فقد عاداني** » .

إن لذلك قصة ، بل مأساة ومحنة ، لعل أهم أحداثها تبدأ من لحظات تولي «يزيد ابن معاوية» الخلافة بعد أبيه معاوية ، وكما كان الإمام الحسين رضى الله عنه رافضا للخليفة الراحل ، فهو أيضا رافض للخليفة الجديد ، حتى يستدعيه أمير المدينة «الوليد بن عقبة» ، وصاحب بيت المال « مروان بن الحكم » ليعرضا عليه مبايعة يزيد ، فيرفض ، فيصير الحوار عاصفا بين « الطرفين » يستخف فيه به مروان ويعربد حين يقول للإمام الحسين عن البيعة إنها لا تعدو أن تكون كلمة فلنقلها . وهنا يسألهما الحسين : « أتعرفان معنى الكلمة ؟ .. الكلمة فرقان بين نبي وبغي » . وينصرف عنهما غير مبايع .

ويبقى الحسين في المدينة يعظ الناس ، ويوضح لهم أمور دينهم ودنياهم ، حتى يصله كتاب من ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يدعوه فيه إلى التوجه إلى الكوفة بالعراق ، فالناس فيها متشوقون إليه ، ويبايعونه أميرا للمؤمنين ، يطبق شريعة الله التي جاء بها رسوله ﷺ ، ونفذها خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم .

ويعلم يزيد بذلك فيزداد حنقا وغضبا ، ويأمر رجله بالكوفة « ابن زياد » بأن يقضى على كل من يبايع الحسين ، وفي مقدمتهم : مسلم بن عقيل ، وأن يأتيه برأس الحسين نفسه حيا أو ميتا فور وصوله !

وسواء أدرك الإمام الحسين الخطر المحدق به وبأسرته أو لم يدركه ، فإن طبيعته التى ورثها عن أبيه - رضى الله عنهما - كانت تمنعه في كل الأحوال من التردد في أمر قد اتخذه .. ويستعد للرحيل مصحوبا بأسرته ، وآل بيته من النساء والأطفال ، على الرغم من تحذير عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وتأكيده له بغدر من يتوجه إليهم، فيرفض تحذيره ، ويبدأ في الرحيل .

وهناك عند «كربلاء» يتأكد من صدق هذا الصحابي الجليل حين يكتشف أن أنصاره بالكوفة قد خذلوه ، وأن من بقي على عهده قد قتل ، وفي مقدمة هؤلاء القتلى ابن عمه «مسلم بن عقيل» رضي الله عنه .

وفي الجانب الآخر تستعد الكوفة بالغدر والقتل والتنكيل لملاقاة الحسين وآل بيته وشيعته . وتتوالى الأحداث سريعة ، حتى إذا التقى الجمعان تساقط النفر القليل من أنصار الحسين ، حتى لا يبقى إلا الحسين وآل بيته من النساء والأطفال ، فيصرخ في سماء المعركة بأنه الشهيد ابن الشهيد ويتقدم شاهرا سيفه وسط صرخات الأطفال، ونحيب النساء ، ويتكاتف عليه القوم بالمئات ، وتتكالب عليه السيوف ، وتستهدفه النبال والحراب حتى يخر صريعا مضرجا بالدماء ، وليس في جسده الطاهر موضع سليم من الطعان .

ولا تكتفي هذه الأعداد الجبانة المأجورة الظامئة إلى مزيد من دماء الأبرياء بما صنعت بابن بنت رسول الله وبأطفاله ونسائه، وإنما يقبلون على جثته فيجزون رأسها، ليحملوا الرأس الشريف إلى أميرهم الداعر الفاسق «يزيد بن معاوية» في الشام!! .

وهكذا .. يبقى الإمام الحسين على مر القرون : الشهيد ابن الشهيد ، وأبا الشهداء ولا يبقى من جثمانه غير هذا الرأس الطاهر الذي حمله الفجرة إلى كبيرهم الداعر الفاسق يزيد بن معاوية ، ليطوفوا به في عدة أمصار إسلامية حتى يستقر أخيرا في ضريحه المقام بمسجده في القاهرة بالقرب من الأزهر الشريف .

على أنه قد يهون المكان في وجود المكانة .. ومكانة الحسين - كمعنى ورمز - عظيمة خالدة في القلوب والضمائر ، متجسدة راسخة في الأفكار والخواطر ، لأسباب كثيرة ، منها أنه واحد من المجددين في الإسلام ، وآية تجديده : أنه أراد أن ينقذ الإسلام من رجعية مقيتة ، يتنافى معها - في زمانه - تواجد هذا العدل الذي بشر به جده العظيم ، أما كيف كان ذلك ، فإن له قصة أخرى ، تبدأ فصولها منذ أن

لجأ معاوية بن أبي سفيان إلى إيثار ابنه يزيد بولاية العهد من بعده ، واتباعه في ذلك أسلوب القوة ، فكان بهذا أول من سن هذه السنة الرجعية في الإسلام . ولعل أول من زين له ذلك « المغيرة بن شعبة » - وكان لا يقل مكرا ودهاء عن معاوية نفسه - حينما أراد عزله من الكوفة ، فذهب إلى الشام ، وبدلا من أن يقابل معاوية قابل ابنه يزيد وقال له : « إنه وقد ذهب أعيان أصحاب رسول الله وآله وكبراء قريش ، وإنما بقي أبناؤهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأيا ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ، ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين - يقصد أباه معاوية - أن يعقد لك البيعة ؟ فقال له يزيد : « أوترى ذلك يتم ؟» قال المغيرة : « نعم » .

وهنا أخبر يزيد أباه بذلك . فاستدعى معاوية المغيرة وقال له : « ما يقول يزيد؟» فرد المغيرة : « يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان رضى الله عنه ، وفي يزيد منك خلف ، فاعقد له ، فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ، ولا تكون فتنة » . فقال معاوية وقد أعجبته الفكرة « ومن لي بهذا ؟ » فقال المغيرة : « أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين إلا المصريين فلا يخالفك أحد » .

وهنا يتضح أن المغيرة يعمل لمصلحة خاصة ، هي ضمان بقائه واليا على الكوفة، وإن ألبسه ما ألبسه من ثوب المنفعة العامة .

وطبيعى أن يعيد معاوية المغيرة بن شعبة إلى الكوفة واليا عليها ، طالبا منه أن يمهد لذلك ، وبدأ يحبب الناس في هذا الأمر ، حتى أجابه إليه بعض أنصار بنى أمية، فأوفد المغيرة عشرة منهم إلى معاوية ، فزينوا له البيعة ليزيد ، حتى يقوى عزمه عليها ، وكان نتيجة ذلك أن أرسل إلى عامله بالبصرة زياد طالبا منه أن يمهد لذلك ، فأرسل إليه زياد ينصحه أن يتريث في هذا الأمر لعدم استكمال شروطه في يزيد. فعمل معاوية بنصيحة زياد ، وأقلع عن هذا الأمر .. ثقة في زياد الذي كان يعتبره ساعده الأيمن ، ولا يحب أن يخالفه .

فلما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم - عامله على المدينة المنورة - كتابا يعزم فيه على البيعة لابنه يزيد ، فقرأه مروان ، ثم قرأه على الناس في المسجد فهاج القوم وماجوا ، وقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : وما الخيار أردتم لأمة محمد إنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل خلفه هرقل ! وقام الحسين ابن علي فأنكر ذلك ، ومثله فعل عبد الله بن الزبير .

فلما بلغ معاوية ذلك سار إلى المدينة والتقى بالحسين بن علي ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وحدثهم في موضوع بيعة يزيد ، فقال له عبد الله ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال : اصنع كما صنع رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحدا ، فارتضى الناس أبا بكر .. فرد معاوية : ليس فيكم مثل أبي بكر ، وأضاف : الاختلاف ، فقالوا له : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر ، فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ، ليس من بني أمية فاستخلفه ، أو إن شئت فاصنع كما صنع عمر ابن الخطاب ، جعل الأمر شورى في ستة نفر ، ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه: فقال معاوية لهم : هل عندكم غير هذا ؟ قالوا : لا ، فقال لهم مهددا . فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم ، وإنه قد أعذر من أنذر ، ثم أخبرهم صراحة بأنه سيتجمع الناس لهذا الأمر ، وهددهم بالقتل إن أظهروا خلافا له .

ثم جمع الناس ، فقال لهم مشيرا إلى هؤلاء الثلاثة : الحسين بن علي ، وعبد الله ابن الزبير ، وعبد الله بن عمر : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يؤخذ رأي دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وأنهم قد رضوا أو بايعوا ليزيد ، فبايعوه - أنتم - على اسم الله . فبايع الناس ، وكانوا ينتظرون بيعة هؤلاء الثلاثة أولا ، حتى إذا التقوا بهم قالوا لهم : زعمتم أنكم لا تبايعون ، فلم رضيتم وأعطيتم وبايعتم ؟ ورد الثلاثة : والله ما فعلنا ، فقالوا لهم : ما منعكم أن تردوا على الرجل ؟ فقالوا : كادنا - أي صنع مكيدة - وهذا جانب من مكر معاوية ودهائه .

والحق أن هؤلاء الثلاثة – وهم بالفعل من خيرة سادة قريش – كان لهم عذرهم في هذا السكوت على هذه المكيدة التي دبرها معاوية لأسباب كثيرة ليس منها الخوف من القتل . فمثل هؤلاء لا يخافون القتل . في مقدمة هذه الأسباب : اجتماع كلمة المسلمين على معاوية بن أبي سفيان أميرا لهم في ذلك الوقت ، وهم ثلاثة لا يصح ولا يجوز لهم الخروج على ذلك الإجماع ، وربما كان معاوية يعرف ذلك مقدما ، ففعل ما فعل مطمئنا .

غير أنه من ناحية أخرى ، لا يستطيع منصف أن يبرئ معاوية وصنعه ، فقد أضاف إلى رجعيته في تحكيم السيف في خلافة علي بن أبي طالب ، رجعية أخرى في أخذ الناس بالقوة في بيعة ابنه يزيد . وقد رضي الناس في ظاهر الأمر لقيام سلطانه وكراهيتهم شق عصا الطاعة .

فرأى الحسين أن ينتظر إلى أن يذهب ما يخشاه الناس من ذلك ؛ لعلمه أنهم عند موت معاوية لن يدينوا ليزيد ، ولن يفوا بهذه البيعة التي أخذت منهم بسلطان أبيه وحيلته لأنها بيعة باطلة .

ومات معاوية ، وكان الوالي على المدينة المنورة «الوليد بن عتبة» ، فأرسل إليه يزيد طالبا منه أن يأخذ البيعة له من الحسين، فلما طلب الوليد من الحسين هذه البيعة. قال له : « أما البيعة فإن مثلي لا يعطي بيعته سرا ولا أراك تجتزئ بها مني سرا دون أن تظهرها على الناس علانية ، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمرا واحدا » .

ولم يكن الحسين يريد البيعة ليزيد ، ولكنها حيلة مشروعة لجأ إليها ليتمكن من القيام بما عزم عليه من العمل للقضاء على هذه الرجعية التي ابتدعها معاوية في الإسلام ، وتخليص الناس من عسف بني أمية واستبدادهم ، وإقامة حكم الشورى الذي يراعي مصالح الرعية قبل مصلحة الراعي ، ويسير على العهد الذي كان عليه في أيام الخلافة الراشدة .

ونفذ الحسين ما أراد ، رافضا البيعة ليزيد ، وخرج من المدينة إلى مكة ، وكاتب شيعته بالكوفة ، فكتبوا إليه كتابا جاء فيه : « إنه ليس علينا إمام فأقدم علينا ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى . فإن النعمان بن بشر في قصر الإمارة ، ولسنا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه في عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك ، أخرجناه من الكوفة وألحقناه بيزيد في الشام » .

فأرسل الحسين إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ليأخذ له بيعتهم ، فلما قدم عليهم اجتمعوا عليه ، وبايعه منهم اثنا عشر ألفا . وهنا قام رجل ممن يؤيد يزيد بن معاوية إلى النعمان بن بشر فقال له : « إنك ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد » فقال له النعمان : « لأن أكون ضعيفا في طاعة الله أحب إلي من أن أكون قويا في معصيته ، ما كنت لأهتك سترا » .

وعلم يزيد بذلك ، فعزل النعمان بن بشر عن الكوفة ، وأضافها إلى عبيد الله ابن زياد ، واليه على البصرة ، وأمره أن يطلب مسلم بن عقيل ويبحث عنه ، فإن ظفر به قتله . ورسم له حيلة من الحيل التي تعودها بنو أمية لبلوغ ما يريدون ، حتى ولو كان بغير وجه حق ، المهم أن يبلغوه .

كانت الحيلة أن يأتي عبيد الله بن زياد في وسط بعض أهل البصرة إلى الكوفة ملثما ، حتى لا يعرف شخصيته أحد ، فكان لا يمر على أحد فيسلم عليه إلا رد عليه مرحبا وقائلا : عليك السلام يا ابن بنت رسول الله . وقد ظنوا أنه الحسين بن علي قد وصل لتوه من المدينة . واستمر عبيد الله بن زياد على هذا الحال ، حتى دخل قصر الإمارة ، وجعل يبحث عن مسلم بن عقيل حتى وجده وقتله .

وكان مسلم بن عقيل قبل قتله ، قد أرسل إلى الحسين يطلب منه سرعة الحضور إلى الكوفة ، فتجهز الحسين في نحو ثمانين رجلا من أهله وأربعين فارسا ونحو مائة رجل من شيعته ، وسار يقصد الكوفة التي تنتظره، والآلاف التي ترحب بمقدمه كما

أبلغه عقيل.. غير أن عقيل بن مسلم قد قتل ، والأحداث قد تطورت بشكل ليس في صالح الحسين الذي توجه إلى الكوفة دون أن يعرف هذه التطورات. أما في الجانب الآخر فقد أعد عبيد الله بن زياد جيشا على رأسه «عمر بن سعد بن أبي وقاص» – الذي كان داهية في فن الحرب والقتال ، والتقى الجمعان : الحسين في هذه القلة القليلة من الرجال والعتاد ، وجيش ابن زياد بقيادته المدربة ، ورجاله الذين يعدون بعشرات الآلاف ، وعتادهم .. وكانت النتيجة المتوقعة أن يقتل الحسين .

ومن هنا .. حق القول بأن الحسين راح شهيدا في سبيل القضاء على الرجعية السياسية التي أرادها معاوية وابنه يزيد ، وبنو أمية بعد ذلك للإسلام . وله في ذلك أجر الشهداء الذين استشهدوا في سبيل الخير للناس ، وفي سبيل المصلحة العامة ، ولا ينقص من أجره في ذلك تقاعس من استشهد في سبيلهم عن نصرته ؛ لأن الحق لا ينقص من قدره تهاون الناس في نصرة القائمين به .

ومن أنصار هذه الرجعية من يرى أن الحسين قد قتل بسيف جده عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه خرج على إمام من أئمة المسلمين . وهذا قول مردود من أساسه ، وقد رد عليه المفكر الإسلامي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» في ثلاث نقاط:

أولاها : أن البيعة ليزيد كانت باطلة . كما سبق أن رأينا من حيل .

ثانيتها : أن يزيد لم يجمع الناس على بيعته بعد موت أبيه ، بل كان ممن خرج عليه أهل المدينة ، وقد طردوا عامله منها فاستبدله بمسلم بن عتبة ، الذي حاصر المدينة حتى استسلمت له ، فأباحها لجيشه ثلاثة أيام قضاها في القتل والسلب والنهب . وكان ممن خرج عليه أهل مكة ، إذ دعا فيها عبد الله ابن الزبير لنفسه أميرا عليها، فسار إليه مسلم بن عتبة ، وقد مات في الطريق، فقام مكانه الحصين بن نمير ، ودار قتال بينه وبين عبد الله بن الزبير ، استمر

إلى ما بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وهذا يعني : أن مكة ومن قبلها المدينة لم تجمع على بيعة يزيد .

وثالثها : أن الحسين بن علي لم يقم بعمله مجازفة ، أو بدون تلمس الطريق إليه ، فقد أرسل أولا مسلم بن عقيل إلى أهل العراق . فقام بالبيعة له قبل أن يسير إليهم ، ثم أرسل إليه أن بالعراق قوة تمكنه من أن يصل بها إلى غايته من القضاء على تلك الرجعية الجاهلية .. فسار إليهم على هذا الأساس ، ولو أنهم صدقوا وقاموا معه لوصل إلى غرضه ، وذهب أمر يزيد الذي يحتج به عليه ، فلا يكون عليه في ذلك أية شائبة ، وإنما دمه في عنق يزيد أولا ، وفي عنق من دعاه من أهل العراق ، ثم تخلى عنه ثانيا .

وعلى هذا .. فقد عد مفكرو الإسلام الحسين رضى الله عنه من مجددي القرن الأول الهجري ذلك ؛ لأنه قد نفذ بنظرته إلى المستقبل ، فأدرك أن ما يفعله معاوية والأمويون من بعده ، إن هو إلا رجعية مقيتة ، يخالف ما قام به الإسلام من مبادئ وسياسات أساسها الشورى في اختيار أمير المؤمنين ، لا أن تكون الخلافة ملكا يتوارثه الأبناء جيلا بعد جيل ، فليس الحسين يحرض على الخلافة لمأرب أو هدف دنيوي أو معنوي - فيكفيه شرفا أن يكون ابن بنت رسول الله ، وابن الإمام علي كرم الله وجهه ، وهي ميزات ليس لها مثيل - بقدر ما هو يحرص على استمرار مبادئ الإسلام وقيمه ، وأولها الشورى .

* * *

السيدة زينب

تعتبر السيدة زينب من : مجددي القرن الأول الهجري ؛ حيث توفيت عام ٦٣هـ واعتبارها من المجددين في الإسلام أسوة بالرجال ؛ لما لها من مآثر كثيرة تجعلها تقف إلى جانب كبار العلماء ، ليس لهذا فحسب بل لكونها حفيدة النبي ﷺ ، وكريمة الإمام علي كرم الله وجهه وشقيقة الحسن والحسين رضى الله عنهم جميعا ، ولأنها كانت عند أهل العزم والتصميم : أم العزائم ، وعند أهل الجود والكرم : أم هاشم ، وعند أهل مصر والسودان : الطاهرة .. كان يرجع إليها الأئمة الكبار – ومنهم أبوها على وأخواها الحسن والحسين – في الرأي والمشورة ، فسميت : صاحبة الشورى ، وكانت دارها في المدينة المنورة ملتقى الضعفاء ، واسمها : نداء المحتاجين ، فلقبت بأم العواجز ، وتحول بيتها في مصر إلى مقر يعقد فيه الوالي لقاءاته بالرعية واجتماعاته مع رجاله تحت إشرافها ، فعرفت برئيسة الديوان . وكانت في ساحة الوغى وفوق أعواد المنابر بليغة فصيحة ، تسيطر على المشاعر والألباب ، فوصفت بأنها سيدة البيان .

تلك هي السيدة زينب ، حفيدة الرسول ﷺ ، من ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، أشرف نساء الأرض حسبا ونسبا ، وابنة الإمام علي كرم الله وجهه الذي تربى في أحضان النبوة ، فاقتبس منها النور والهدى ، فبقي متصديا لنشر العلم والفتيا ، حتى كان يقول : « سلوني .. سلوني عن كتاب الله تعالى ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم : أنزلت بالليل أم بالنهار » . الإمام علي الذي وصفه الرسول الأعظم لابنته الزهراء عند زواجها بقوله : « **فوالله لقد أنكحتك**– أي : زوجتك – **أكثرهم**

علما ، وأفضلهم حلما وأولهم سلما » . والشقيقة الصغرى للسبطين : الحسن والحسين رضى الله عنهما اللذين كانا أقرب أهل الأرض إلى قلب جدهما الرسول الأعظم ، واللذين أوصى بمحبتهما ، وجعل محبتهما من محبته عليه الصلاة والسلام .

وهكذا .. نجد أنه إن كان في واحدة من النساء فضيلة ، فقد تجمعت للسيدة زينب رضي الله عنها الكثير من الفضائل .. ففيها : وفاء وصدق ، صفاء ونقاء ، شجاعة وإقدام ، إباء وشمم ، علم وبلاغة ، عبادة وتقوى ، عفة وزهد ، وإذا تيسرت بطولة من البطولات لواحدة من النساء فقد تجمعت بطولات متعددة في السيدة زينب ، ومنها : الإيمان بالمبدأ ، وعلو الهمة ، واحتمال إنكار الذات ، والجهاد في سبيل الله وقول الحق ، والتضحية والفداء .

هل نحن في حاجة إلى مزيد ؟ ربما .. وأول ما يستوقفنا من سيرتها – مسترشدين بما جرت به الأقلام : قديما وحديثا – ميلادها ، حيث ولدت بالمدينة المنورة بعد أخويها : الحسن والحسين ، في شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة .. وعلى هذا فقد أدركت من حياة جدها الرسول الأعظم خمس سنوات .. لقيت خلالها من الجد كل عطف وحب وحنان ، ومن الأب والأم كل رعاية واهتمام ، حتى تحقق لها مبكرا قبسات النبوة من جانب ، ونور الحكمة من جانب آخر ، فورثت عن الجد الرسول الأعظم ما لا يحصى ولا يعد من الفضائل ، ومن الأم فاطمة الزهراء التقى والعفاف ، الطهارة والهدى . وعن الأب الإمام علي الفصاحة والبلاغة ، العلم والإيمان ، وعن الشقيقين السبطين التضحية والفداء ، وإنكار الذات، والإيمان بالمبدأ .. ذرية كريمة ، بعضها من بعض .

سماها جدها الرسول الأعظم باسم ابنته زينب ، التي كانت قد توفيت قبل ذلك بقليل ، وتربت كأخويها الحسن والحسين في حجر النبوة .. فتفتحت كرامتها طفلة صغيرة على أحداث جليلة ، ورجال عظماء ، ينشئون خير أمة أخرجت للناس.

لكن هـذه الحياة العامـرة بنـور العلم والإيمان ، المزدحمـة بالأحداث والأعـمال لم تدم .. فقد حدث أمر جلل هز الأمة من أقصاها إلى أقصاها . وهل هنـاك حـدث أكثر جللا من وفاة جدها النبي ﷺ ، لتلحق به أمها الزهراء بأقل من سنة ، فيـسيطر عليها حزن يملك كل أقطار نفسها ، لكنه يجعلها أنـضج إدراكـا ، وأرهـف حـسا ، وأكبر سنا ، وكيف لا ؟ وقد كان عليها أن تعمل بوصية الأم الحبيبة وهي على فراش الموت ، بأن تكون لأخويها الحسن والحسين أما ، وللبيت راعية ، حتى وإن أعوزتهـا التجربة في هذه وتلك .. وهكذا تختارها الأقدار لتحمل الأعباء والمسئوليات وهي لم تزل في عمر الورد .. حتى إذا شبت وجاوزت مرحلة الصبا إلى الشباب يطلبهـا ابـن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب للزواج ، ويوافق الأب في غير تـردد ، وتـرضى البنت في غير نقاش ، وهل يكون هناك تردد أو نقاش في أمر عبد الله بن جعفر ، أول مولود ذكر في الإسلام . وأصغر من بايع النبـي ﷺ وقبلـت بيعتـه ، إذ كـان لم يبلـغ العاشرة ، حتى قـال النبي ﷺ عنه وعن أبيه جعفر : « **اللهم اخلف جعفرا في أهلـه ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه** » .

وكان يلقب بين المؤمنين بقطب السخاء ، حتى إنه يروى عن جـوده وكرمـه أن امرأة سألته شيئا فأعطاها أضعاف ما طلبت ، فقيل له : « يا عبد الله ، إنها لا تعرفك، وكان يرضيها منك اليسير » .. فقال : « إن كان يرضيها مني اليسير فإني لا أحـب إلا الكثير ، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي » .. مـن هـذا الرجـل المناسـب يـتم زواج السيدة زينب ، لا لتنتقل إلى بيت زوجها الحالي ، ولكن لتبقى في بيـت أبيهـا في المدينة المنورة ، وتنتقل معه إلى الكوفة ، حيث ولي أمر المسلمين ليعيشا في مقر الخلافة في رعاية الأب أمير المـؤمنين ، حيـث كـان يرجـع إليهـا ، ويـؤمن بـصواب رأيهـا ، وصدق حدسها .. وتنجب «زينب» لابن عمها ذرية صالحة لم يبق منهم غير اثنـين : «علي» ، و«أم كلثوم» .

وإذا كانت هذه هي النشأة في بيت الجد والأب والزوج ، حياة يظلها الطهر والإيمان ، فطبيعي أن تنصرف السيدة زينب إلى العبادة . فنراها صورة جليلة لمن قاما بتربيتها ، ونموذجا لحياة فاضلة كريمة .. ونراها صوامة قوامة ، قانتة تائبة ، تقضي أكثر ليلها متهجدة .. تالية للقرآن ، مبتهلة ، داعية خاشعة ، تردد هذا الدعاء الذي لقنه إياها الجد ، الرسول الأعظم : « **سبحان من تعطف بالمجد وتكرم ، سبحان من لا ينبغي التسبيح إلا له جل جلاله ، سبحان من أحصى كل شيء مددا لعلمه وإرادته وقدرته ، سبحان ذي العزة والمن والنعم ، سبحان ذي القدرة والجود والكرم ، اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ... باسمك العظيم، وكلماتك التامات ، أن ترحمني يا أرحم الراحمين** » .

وعن أبيها الإمام علي كرم الله وجهه ترث هذا الدعاء : « يا عماد من لا عماد له، وذخر من لا ذخر له، يا سند من لا سند له، يا من لم يكن له مثله قبل ولا بعد، ولا كفو ، ولا ند ، ولا نهاية ولا حد ، بحرمة اسمك ، ارحمني برحمتك يا أرحم الراحمين ».

ولم تصرفها عبادتها ونسكها وابتهالاتها وخشوعها عن التفكير في آيات الله في خلقه ، أو تتلقى ما يسمح به زمانها من علم وفكر ، وكيف لا تهتم بالعلم والتفكير ، وقد سمعت عن مكانة العقل والعلم مما نقل عن جدها الرسول الأعظم حيث قال : «**العلماء ورثة الأنبياء**» ، وقال : « **لموت قبيلة أيسر من موت عالم** » . وسمعت من أبيها قوله: « ثلمة[1] الدين.. موت العلماء ». وقبل ذلك سمعت قول الحق تعالى: ﴿ **هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[2] .. هذا إلى جانب أنها تربت في مدينة العلم النبوي ، وصحبت أباها الإمام إلى يوم استشهاده ، فنهلت من علمه

(1) الثلمة (بضم الثاء : الشيء الذي به خلل) .

(2) الزمر : ٩ .

الكثير ، وعاشت حينا من الدهر مع أخويها : الحسن والحسين ، فنهلت منهما الكثير أيضا ، ولذلك خاطبها ابن شقيقها على زين العابدين بن الحسين ، رضي الله عنهما : « أنت يا عمتاه ، بحمد الله عالمة غير معلمة ، وفهمة غير مفهمة » . يقصد بذلك كما يقول أحد مؤرخيها الأستاذ «علي أحمد شلبي» في كتابه عنها : « إن علمها هو مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع ، وأفيض عليها إلهاما » .

ولذلك .. فقد روت الحديث عن أمها ، وعن أبيها ، وعن أخويها .. كما روت عن أم سلمة ، وأم هانئ.. ولذلك روى عنها ابن عباس، وعلي زين العابدين، وعبد الله بن جعفر ، وفاطمة النبوية رضي الله عنهم أجمعين .

ومما سجله عنها مؤرخوها للدلالة على كثرة علمها وتبحرها هذه القصة التي تروى بأن أخويها : الحسن والحسين كانا يتذاكران ما سمعاه من جدهما النبي ﷺ من علم ، فدخلت عليهما السيدة زينب مستأذنة وملقية عليهما السلام ، وجلست معهما وقالت : « سمعتكما تقولان إن جدي ﷺ كان يقول : « **الحلال بين والحرام بين ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله.. ألا وهي القلب** »[1] اسمعا يا حسن ويا حسين، إن جدكما رسول الله ﷺ ذكر ثلاث درجات في الدين : الحلال ، والحرام ، والمشتبه .. أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى ، بأن جاء القرآن الكريم بحله ، وبينه الرسول ﷺ في بيانه الواضح ، كحل الشراء والبيع ، وإقامة الصلاة في أوقاتها ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، وترك الكذب ، والنفاق ، والخيانة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) البخاري/ باب الإيمان/ 29/ بيوع/ 3 .

وأما الحرام فهو ما حرمه القرآن الكريم ، وهو على النقيض من الحلال .. ويبقى المشتبه ، وهو الشيء الذي ليس بالحلال ولا بالحرام .. والمؤمن الذي يريد لنفسه السعادة في الدنيا والنعيم في الآخرة ، ما عليه إلا أن يؤدي ما أوجبه عليه رب العالمين ، ويسير في طريق القرآن الكريم ، ويقتدي بالنبي الكريم ، ويبتعد عن طريق الشبهات ما استطاع . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه وأصبح دينه نقيا . وأما من سار في طريق الشبهات فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله . وإن لكل ملك حمى بجوار ملكه ، وحمى ملك الملوك محارمه ، ولقد قال النبي ﷺ : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس** » ، وإن الله تعالى أودع في الإنسان مضغة وجوهرة ، إذا صلحت فإن الجسد كله يكون صالحا نقيا ، وفي القلب ، فإذا كان سليما فإن صاحبه يكون يقظا لأمور دينه ومبادئ شريعته . يرى السعادة كلها في الاستقامة على هدي القرآن والسنة ، ومن سلك هذا السبيل يكون يوم القيامة من الفائزين . إن حياتنا في الدنيا مرحلة من المراحل التي توصل الإنسان إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وليس بعد الموت عقاب ، ولا بعد الدنيا إلا الجنة أو النار ... » .

وما إن انتهت من حديثها ، حتى قال الإمام الحسن : « أنعم بك يا هاشمية .. حقا إنك من شجرة النبوة المباركة ، ومن معدن الرسالة الكريمة » .

وأما عن زهدها – رضي الله عنها – فقد كانت مضرب الأمثال في ذلك ، على الرغم من غنى زوجها وثرائه ، ولعلها في ذلك كانت تلتزم بالحكمة القائلة بأن الزاهد من يحب خالقه ويبغض ما يبغض خالقه، ويتحرج من حلال الدنيا ولا يلتفت إلى حرامها .. أو بحديث جدها الرسول الأعظم : « **إذا أراد الله بعبد خيرا فقهه في الدين وزهده في الدنيا ، وبصره عيوبه** » . وقد رأت ما عليه أمها الزهراء ، التي كانت تفترش حصيرا من سعف النخيل لنومها ، والتي كانت تلبس الخشن من وبر الإبل ، وتطحن الشعير بيدها حتى تدمى ، وتعجن وتخبز ، وتقوم بعمل البيت كله في غير كلل .

وقد رأت أيضا ما كان عليه أبوها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كان يرقع مدرعته – أي : ثيابه عند الخياط حتى أحصى فيها سبعين رقعة ، حتى قال : «والله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها » . ولم يكن لديه يوم بويع بالخلافة غير حصير صغير كان يجلس عليه مفضلا الآخرة على الدنيا .. فلا عجب والأمر كذلك أن تكون السيدة زينب زاهدة ، وأن تكون مثالا ونموذجا لهذا الزهد ، وأن يصل الزهد عندها حدا جعلها تزهد في المال والولد والبيت والزوج ، وراحة البال ، وهدوء النفس، لتلحق بأخيها الإمام الحسين مؤثرة الآخرة على الدنيا، ساعية إلى الجهاد في سبيل نصرة الحق ، ولسان حالها يقول : « الآخرة خير وأبقى » .

ويضاف إلى خصلة الزهد عندها خصلة أخرى هي: الصبر على المكاره، ولعلها ورثت هذه الخصلة عن جدها الرسول الأعظم ، الذي بلغ من صبره على مكاره قومه أن خاطبه القرآن الكريم : ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾[1] . ها هي ذي حفيدته يصيبها من أحداث الزمان ما لو أصاب الجبال الرواسي لتضعضعت جوانبها ، وتصدعت أركانها من الهول والقسوة، إلا أنها قابلت كل ذلك بقلب مطمئن ، ممتثلة لأمر الله تعالى ، مؤمنة بقوله: ﴿ **وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ** ﴾[2] . أو لحديث جدها الرسول الأعظم حيث قال : « **الإيمان شطران : شطر صبر ، وشطر شكر** » .

كانت بداية صبرها على المكاره حين فتحت عينيها بفقدان أحب الأحباب : الجد والأم ، حتى إذا قطعت من الزمن سنوات تفجع باستشهاد أبيها الإمام وهو على قمة الدولة الإسلامية .. وتتوالى المآسي والنكبات والكوارث بمرور الأيام ،

(1) الكهف : ٦ .
(2) البقرة : ١٧٧ .

بصنيعة معاوية وأعوانه ، حتى يكون من صنيعته تدبير موت شقيقها الحسن رضى الله عنه مسموما على يد زوجته «الجعدة» اللعينة التي تواطأت مع ابن أبي سفيان ، وتختتم سنوات حياتها بمأساة كربلاء ، يوم شاهدت بعينها استشهاد الشقيق والابن وابن العم وابن الشقيق من خيرة رجال المسلمين .

حقا .. إذا كانت كربلاء كربا وبلاء على المسلمين عامة ، فقد كانت أشد كربا وأقسى بلاء على السيدة زينب خاصة . ففي كربلاء قتل لها في يوم واحد شقيقها الإمام الحسين ، وستة من إخوتها لأبيها هم : « العباس ، وجعفر ، وعبد الله ، وعثمان ، ومحمد ، وأبو بكر ، وثلاثة من أبناء شقيقها الحسين ، وقيل إنه قتل لها ولدان من أبنائها .. وبقية أسرة أبيها من الرجال ، ولم يبق سوى ابن شقيقها «علي زين العابدين بن الحسين» الذي أنقذه مرضه من الموت .. يضاف إلى هؤلاء من استشهد من قبل في الأيام الماضية ، وفي مقدمتهم ابن عمها مسلم بن عقيل بن أبي طالب على أيدي زبانية يزيد بن معاوية » .

وعلى الرغم مما حدث يوم كربلاء الذي كان فادحا وأليما ، فإن السيدة زينب كانت مثالا للصبر والتضحية والفداء ، بل والثبات والشجاعة والإقدام ، حيث كانت هي السيدة الرائدة يوم كربلاء ، فكانت تواسى المظلوم ، وتسهر على المريض ، وتضمد جراح المصاب ، وتسقي العطشى ، وتستثير همم المجاهدين . وننظر إلى موقفها في ذلك اليوم ، حيث ترى ابن شقيقها علي زين العابدين ، وهو الوحيد الذي بقي من الرجال حين عظم الأمر عليه ، واشتد بعد استشهاد أبيه وإخوته وأبناء عمومته ، هنا تقول له عمته السيدة زينب في ثبات نادر : « مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي ؟! والله إن هذا لعهد من الله لجدك وأبيك ، إنه أخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ، وهم معروفون في أهل السماوات ، أنهم يحملون ويجمعون هذه الأشلاء المقطعة ، والجسوم المضرجة بالدماء فيدارونها ، وينصبون علما لقبر أبيك الشهيد لا يمحى رسمه ، ولا أثره

ولا يزداد إلا علوا على مر الأيام وكر الليالي .. ويتحدث أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وطمسه ، فلا يزداد إلا ظهورا » .

ولننظر إليها وهي تلقي نظرة أخيرة على الأشلاء المقطعة لشقيقها الإمام الحسين ، وكيف اختلطت دماؤه الطاهرة بالرمال ، وفي الوقت نفسه تحين منها نظرة عابرة إلى ما بقي على قيد الحياة من آل البيت فلا تجد إلا النساء والأطفال ، وهنا يعلو صوتها حتى لكأنه يشق عنان السماء من قوة بيان تأثيره : « يا محمدا ، صلى عليك مليك السماء .. هذا حسين بالعراء مقطع الأعضاء والأجزاء ، وبناتك أصبحوا سبايا.. إلى الله المشتكى ، وإلى محمد المصطفى ، وإلى علي المرتضى وإلى فاطمة الزهراء وإلى حمزة سيد الشهداء .. يا أصحاب محمد ، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والرداء بأبي من أضحى معسكره يوم الاثنين منها ، بأبي من لا غائب فيرجى ، ولا جريح فيداوى ، بأبي من نفسي له الفداء ، بأبي المهموم حتى قضى ، بأبي العطشان حتى مضى ، بأبي من شبيه يقطر بالدماء ، بأبي من كان جده المصطفى » .

ومن كربلاء يسير الموكب الحزين إلى الكوفة . والغريب أن يخرج أهلها لاستقبال أبناء علي كرم الله وجهه ، الذين خذلوه من قبل ، والأغرب أن يقدم أهلها الطعام والشراب لأفراد هذا الموكب الذي قتل رجاله ، وعلى رأسهم الإمام الحسين، فتبادرهم السيدة فاطمة النبوية قائلة : « يا أهل الكوفة ، إن الصدقة علينا حرام » . ذلك لأن آل البيت لا تجوز عليهم الصدقات .. وتومئ السيدة زينب موافقة ابنة شقيقها طالبة من يقدم ذلك بالامتناع . والأغرب من ذلك أن تأخذهم دهشة ومفاجأة .. حيث يرون بنات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يدخلن الكوفة غبر عفر ، سبايا وأسرى .. فتنعقد منهم الألسنة خشية من جلال الموقف . متناسين متجاهلين تقاعسهم أيام أن حشد الطاغية يزيد ورجله المتعطش للدماء ابن زياد . وهنا تقف السيدة زينب شامخة الوجه منتصبة القامة ، تكشف ما جبل عليه أهل

الكوفة من نفاق: « الحمد لله، والصلاة والسلام على أبي محمد وآله الطيبين الأخيار، أما بعد ؛ يا أهل الكوفة ، يا أهل الخداع والغدر ، أتبكون اليوم ؟ فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذ من أيمانها دخلا مكرا بينكم ، ألا أهل فيكم إلا الصلف (التكبر) والكذب، والشنف والتباغض، وملق الإماء ، وعجز الأعداء » . أتبكون وتنتحبون؟ إي والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبت بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل أبدا ، فتعسا لكم وسحقا ، فلقد خاب السعي ، وتبت الأيدي ، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، ... ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كيد لرسول الله نويتم ، وأي كريهة له أبرزتم ، وأي دم له سفكتم ، وأي حرمة له انتهكتم .. لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا .... » .

وطبيعي أن يتأثر كل من سمع كلمتها ، التي كشفت الكثير ، حيث أدركوا فداحة هذا الحدث الذي تحاسبهم عليه الأجيال .. حيث تركوا أبناء رسول الله لهذه الطغمة الباغية تقتلهم وتمثل بجثثهم وتسبي نساءهم ، وتسوق أطفالهم .. حدث هذا لأن أهل الكوفة خذلوهم .

ويتكرر هذا الموقف العصيب ؛ حيث يكون الموكب عند أمير الكوفة عبيد الله ابن زياد .. اليد الباطشة ليزيد بن معاوية ، حيث استغل الأخير كراهيته للإمام الحسين ورغبته في أن يقدم لأمير المؤمنين ما يثبت أقدامه في الكوفة .. وها هي ذي السيدة زينب تلتقي وجها لوجه مع قاتل شقيقها الحاقد عليه ابن زياد .. الذي يبتدرها قائلا : « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وكذب أحدوثتكم » . فترد عليه السيدة زينب رضى الله عنها في ثبات وجلد : « الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه ﷺ ، وطهرنا من الرجس تطهيرا .. إنما يفتضح الفاجر ، ويكذب الفاسق وهو غيرنا » . ويرد ابن زياد: كيف رأيت صنع الله في بنيك وأخيك ؟ وترد السيدة زينب : ما رأيت

إلا خيرا .. هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاج وتخاصم. فانظر كيف أنت يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة . وهنا يشتد حنقه وغيظه حتى لا يستطيع السيطرة على نفسه أو مشاعره ، فيقول متشفيا : لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين والعصاة ، والمردة من أهل بيتك ! فقالت له : لعمري ، لقد قتلت كهلي ، وقطعت فرعي ، واجتثثت أصلي . فإن كان في هذا شفاؤك فلقد اشتفيت » .

ويتكرر هذا الموقف في مجلس يزيد بن معاوية أمير المؤمنين .. بعد انتقال الموكب إلى مقر الخلافة بالشام .. وقد جيء برأس الإمام الحسين رضي الله عنه ، ووضع بين يديه في إناء .. ليوجه إليه الحديث فيضرب جنبيه بكلتا يديه متشفيا وقائلا :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

فترد عليه السيدة زينب : أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض ، وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى ، إن بنا هوانا على الله ، وبك كرامة، وإن هذا لعظيم خطرك عنده فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك ، تضرب أصدريك فرحا ، وتنفض مذوريك مرحا ؟! أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك ، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا ، هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ؟! ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء .. فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها . وهل رأيك إلا فند ، وأيامك إلا مدد ، وجمعك إلا تبدد يوم ينادي المنادي .. ألا لعنة الله على الظالمين . ثم ترد عليه ببيت من الشعر قائلة :

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

ولم يستطع الطاغية «يزيد» أن يقاطعها برغم ما فيه من جبروت وقسوة، وما فيه من سلطان وهيبة .. بل ظل مشدوها ، حيث افتضح أمره ولم يجد ما يقوله سوى :

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وهكذا كانت السيدة زينب رضي الله عنها أول سيدة في الإسلام شاءت لها الأقدار أن تقوم بهذا الدور السياسي على مسرح الأحداث .. وهي سيدة جريحة مطحونة من هول المأساة ، وهكذا .. أصبح موقف السيدة زينب وقوة تعبيرها عنه.. جعل من كربلاء مأساة دامية على مر الزمن .. وتوالي الأجيال .

وقد يسأل سائل : كيف كانت هذه السيدة – وهي المرأة العربية التي لم تخرج من البادية – على هذه الصورة من رباطة الجأش ، وقوة العزيمة .. وفصاحة اللسان، وقوة البيان ؟!

إن لذلك أسبابا وأسبابا .. منها ما تتمتع به من مكانة فريدة ، وينبع ذلك من نسبها وحسبها وبيئتها .. ومنها ما عرف عنها أيضا من حب للعلم والمعرفة ، وكيف لا وقد رأينا ثقافتها من أحاديثها ومناقشاتها للملوك والأمراء ، وهي في أسوأ الظروف وأقسى الأحوال .

وهناك أسباب جعلت السيدة زينب رضي الله عنها محورا لهذه المأساة الدامية ، وخير معبر عن وقائعها ، الأمر الذي جعل كل المصادر التي تناولت سيرتها أو سيرة شقيقها الإمام الحسين ، لا تخرج في مدتها عما قالته السيدة زينب كمصدر موثوق به .

ولعل موقفها هذا جعل يزيد نفسه يتردد ويضعف ، ويرجو أن يغريها بالمال ، فعرض عليها رد أموالها التي نهبت منها ومن زوجها وأبنائها . وهنا ترد عليه قائلة في إباء وشمم : « يا يزيد ، ما أقسى قلبك !! تقتل أخي وتعطيني المال !! والله لا كان ذلك أبدا » .

ويتناقل العرب أخبارها ، فيزدادون إعجابا بموقفها وثباتها ، حتى كانت القبائل تنتظرها في طريق العودة إلى المدينة المنورة ، وتظل حشودهم أياما حتى يرون عقيلة بني هاشم التي استطاعت أن تحقر من شأن ابن زياد في الكوفة ، وابن معاوية في الشام .

ويستقر بها المقام في المدينة المنورة ، ويلتف حولها الناس ، فتندد بعدوان يزيد ابن معاوية ، وبغي عبيد الله بن زياد ، وطغيان أعوانهما على آل البيت .. فأثارت ثائرة الجميع ، وهيجت الألباب والمشاعر ، وألهبت بمنطقها السياسى الجماهير على حزب الشر .. وهنا خشى يزيد على نفسه ، فأمر أن تغادر المدينة إلى حيث تشاء من البلاد في أرض الله ، فيما عدا الحرمين الشريفين .

وطبيعي أن ترفض الرحيل من بلد الأجداد والآباء والأحباب ، وأن يتمسك بها الناس ، فقد رأوا في أحاديثها تنفيسا عما يكنونه ليزيد وأعوانه وزبانيته من كره واحتقار .. وتتدخل ابنة عمها عقيل قائلة : « يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء .. فطيبي نفسا وقري عينا ، وسيجزي الله الظالمين .. أتريدين بعد ذلك هوانا ؟! ارحلي إلى أي بلد آمن » .

وتختار السيدة زينب مصر دار إقامة لها .. لما سمعته عن أهلها من محبة ووفاء لآل البيت ، ولما عرفته من أن مصر كنانة الله في أرضه ، لها من السمات والسماحة ما يجعلها مكانا آمنا لأولياء الله .. فتجيئها مصحوبة بنفر قليل من آل بيتها وتبقى بها ما يقرب من عام ، فيه تمهد أرض الدار الآخرة ، يوم لقاء ربها .. وتكون دارها هي قبرها ، وهو مسجدها الآن .

* * *

عمر بن عبد العزيز

وإذا كنا قد خالفنا الترتيب التقليدي في سلسلة الخلافة الراشدة ، حيث لم نلحق خامس الخلفاء الراشدين بمن سبقوه من الخلفاء الراشدين الأربعة ، حين أتبعناهم بالحديث عن الإمام الحسين وشقيقته السيدة زينب رضى الله عنهما وعن أبيهما الإمام علي ، فإن ذلك راجع لسببين أولهما : لمكانتهما في الإسلام كحفيدين لرسول الله ﷺ ، وقد عاشا التجديد بأحلى معانيه ، سواء في بيت جدهما الرسول الأعظم ، أو في بيت أبيهما الإمام ، والسبب الثاني هو : أنهما وجدا في الحياة وفي الإسلام قبل خامس الخلفاء لسنوات طويلة ، ومن حقهما حسب التسلسل التاريخي أن يسبقاه ، مؤكدين أن هذا التقديم في الترتيب لا يقلل من قيمة وعظمة هذا الخليفة الخامس .

لكن خامس الخلفاء الراشدين يشاء القدر أن يكون من نسل بني أمية خليفة منصفا عادلا . أحسن علماء الأمة الظن به فاجتهدوا في توثيق الأمر له ، فهو خير من يصلح ما أفسده خلفاء بني أمية . ويواصل مع الدولة مسيرتها إلى التقدم . وليعيد للناس صورة الخلافة الإسلامية في عصر الأربعة الراشدين حتى ينعتوه بأنه خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه . ويحقق للناس أملا تطلعوا إليه منذ صار الحكم فيهم جورا واستبدادا .

وتزودنا الكتب المهتمة بالتجديد بالكثير من إصلاحات عمر بن عبد العزيز منذ اللحظة الأولى التي يتولى فيها أمر المسلمين . فها هو ينتهي من صلاته على جثمان الخليفة الراحل حتى يرى خيلا وبراذين وبغالا مطهمة لكل دابة سائس فيسأل : ما هذا ؟ فيجيبونه : مواكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يتولى الحكم . فقال لهم :

دابتي أوفق . والتفت إلى غلامه وقال : يا مزاحم ، ضم هذه إلى بيت مال المسلمين . وفي العودة يسأله غلامه عن غمه وهمه بعد تولي الخلافة فيرد عليه : « ويحك ومالي لا أغتم ، وليس أحد من أهل المشارق والمغارب إلا وهو يطالبني بحق أؤديه إليه ، طلبه مني أو لم يطلبه » .

وفي البيت .. تقبل عليه زوجته الجميلة فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان لتهنئته بالخلافة . فلم يقابلها بالفرح والسرور ، وإنما خيرها أن تقوم معه ، على أنه لا فراغ له إليها وبين أن تلحق بأهلها .. وهكذا بدايات عظيمة لخليفة عظيم يقوم بمسئولية الخلافة ومواصلة رسالة الدولة الإسلامية .

وننظر إلى تاريخه لنتبين مواطن التجديد ، فنجد إعادة العمل بالشورى بعد استبداد طويل والقضاء على الفتن ، وجوانب أخرى يسجلها المؤرخون تذكرنا بعدل جده عمر بن الخطاب .

على سبيل المثال : يذكر الدكتور «وليد قمحاوي» في مقالته المهمة عن هذا الخليفة أن أعمال عمر بن عبد العزيز منذ تولى الخلافة كانت تدل على وعيه العميق لحقوق الشعب ولمسئولياته نحو هذا الشعب المالك الحقيقي لكل شيء. وأول ما يثير الإعجاب التاريخي بتصرفاته ، أنه لم يقبل أن يجلس على العرش لمجرد أنه من الأسرة المالكة ، أو لأن الملك الراحل قد أوصى له بالعرش من بعده .. فقد أدرك عمر أن : كرسي الحكم ليس متاعا يورثه فرد محظوظ لآخر ، وإنما هو ملك الشعب يعطيه لمن يشاء، وبإرادته الحرة . ولم تقنعه مبايعة الناس له لدى سماعهم بوصية الملك السابق ، وإنما وقف ليقول: « أيها الناس، إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم». ولعل عمر كان يتمنى، وهو يخاطب الناس ويرفض ملكا تقدم له يد غير يد الشعب وبدون علمه .. يتمنى لو أعفاه الناس من هذا البلاء .. ولكن

الشعب الطيب عرف أن صاحب مثل هذا الرأي والشعور، جدير بكل ثقة وولاء، فإذا بالناس أشد إصرارا وإجماعا على البيعة، تنبع من إرادتهم الحرة. وغادر عمر المنبر واجما من عظم المسئولية الملقاة على عاتقه، والدمع يفيض من عينيه، تجاوبا مع ناس فتح لهم قلبه فرفعوه على رؤوسهم. وكان يعني كل حرف من قوله لهم: « إلا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم .. غير أن الله قد جعلني أثقلكم حملا ».

وخارج المسجد، حيث تمت البيعة، كان الموكب الملكي بانتظاره، والشرطة مستعدة لمرافقته في الأبهة المعتادة. لكن عمر يصرفهم جميعا، ويركب بغلته الخاصة ومعه وزيره ويمضي، لا ليستقبل المهنئين ويتقبل فروض الطاعة والولاء، أو ليمتع حواسه بما أعطيه من قصور وأموال وامتيازات .. وإنما ليقوم في يوم واحد بثلاثة إجراءات ذات دلالة ضخمة وآثار بعيدة المدى.

وكان أمره الأول: عزل واليين ظالمين، قد ساما الناس ظلما واستغلالا. فقد خشي عمر أن يبيت ليله وما زال في دولته واليان يبطشان بالناس وحقوقهم، باسم الملك وسيفه. وما كان عمر من الحكام الذين يقطعون دابر اللصوص، لتصبح اللصوصية بكل ألوانها احتكارا لهم. لذلك .. كان أمره الثاني إعادة كل ما للملك والأسرة المالكة من قصور وأراض ومجوهرات إلى بيت المال.

حتى جواهر زوجته الخاصة وضعها في بيت المال، ليقول لكل من راجعه في ذلك كله أن كل ما كان لدى الأسرة المالكة وحاشيتها من أموال وأملاك لم ينزل عليهم من السماء، وإنما هي أشياء أخذت من الناس بجبروت السلطان.

وكان عمر قد أدرك أنه ما دام قد طرق سبيلي العدل السياسى، والعدالة الاجتماعية بهذين القرارين، فإنه يستطيع أن يتخذ قراره الثالث في اليوم الأول من حكمه، وهو إصدار الأوامر إلى الجيش العربي المتورط في بلاد الروم، بالعودة إلى وطنه. ولم يكن هذا قرارا أملته ضرورة عسكرية بقدر ما كان رفضا لسياسة تقليدية

تقضى بإشغال الناس بالغزوات والحروب خارج نطاق وطنهم ومصالحهم، لإلهائهم عما في داخله من جور وفساد. وطوال مدة حكمه، لم يدفع عمر جيشه ليغزو أيا من البلاد الأجنبية حول الوطن.

وفي داخل الوطن بالذات، كان عمر يعرف أن معاركه الحقيقية هنا، وأن الجيش الأوحد الذي يمكن الاعتماد عليه في خوضها هو الشعب، كل الشعب. وحتى يستطيع تعبئة شعبه لخوض معاركه الكبرى، كان على عمر أن يخلصه من كل جور واستغلال، وأن يسعى إلى توحيد صفوفه، بتحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين أفراده كافة، ثم يكون مع ذلك كله العمل الدائب على استثمار خيرات وطنه ورفع مستوى معيشته.

ولتخليص الشعب من كل جور واستغلال، مضى عمر بن عبد العزيز قدما في تطهير الجهاز الحكومي من الفاسدين والظالمين والمستغلين، وتعيين من يثق بعدلهم وحكمتهم، مشترطا عليهم معاملة الرعية بالحسنى والإنصاف والابتعاد عن كل تجارة أو استغلال نفوذ في تحقيق مكاسب شخصية لهم. وكان من ذلك قوله: «لا يتجر إمام. ولا تحل لعامل (أي: وال) تجارة في سلطانه الذي هو عليه، فإن الأمير متى يتجر يستأثر». ولا نجد أروع من هذا تعبيرا عن ضرورة الفصل بين نشاط رأس المال ومقاليد الحكم، وعدم السماح لأحدهما باستغلال الآخر ونفوذه. ولم يكن هذا سهلا، فقد كان بنو أمية قد جعلوا مساحات من أخصب الأراضي الزراعية في العراق ومصر وغيرهما ملكا خاصا لهم ولأشياعهم يحتكرون وارداتها الضخمة، ويستغلونها بواسطة مئات الألوف من الموالي الذين كانوا يجمعونهم من كل الأقطار ليشغلوهم في ظل أسوإ الظروف.

ولم يرض عمر لنفسه أن يكون مركزه مجالا، حتى لأتفه ألوان التسلط والاستغلال، ولو كان الأمر لا يتعدى الشكليات. فقد أبى أن يلقب بخليفة الله في

الأرض ، لما قد يوحيه هذا اللقب من قداسة وعصمة من كل نقد وتوجيه . واستنكر اضطهاد الأمويين لأعدائهم التقليديين : ذرية علي بن أبي طالب ، فأمر بعدم سبهم من على المنابر وبمعاملتهم بالحسنى والإحسان . ولم يسمح لخلقه أن تدنسه نزعة الغرور أو العنف أو الإسفاف ، ورفض حتى أن تستعمل زوجته دابة للدولة في قضاء حاجة بيتها يوما من الأيام . فقد كان عمر عميق الإدراك لمسئوليته الضخمة نحو شعبه ، يعبر عن ذلك بقوله : « إني نظرت فوجدتني قد وليت أمر هذه الأمة : أسودها وأحمرها .. ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم » . ونحو الجائع والضائع والمقهور والمعدم وكل واحد من أبناء الشعب ، وعى عمر رسالته ، وأنه المسئول الأول عن كل ضيق يلم بهم أو مظلمة تصيبهم .

وكان وعيه- بجرأة وإخلاص- تمثل في رده على تهجم أحد كبار الأمويين عليه لمصادرته امتيازاتهم : « إنما حق الواحد منكم في مال المسلمين كأحدهم ، لك ما لهم وعليك ما عليهم .. فوالله لا أعطيكم درهما إلا أن يأخذ جميع المسلمين » ، وردا على وصف قريبه الأموي له بأنه ظالم لأهله ، تارك لسنة سلفه ، أجابه عمر وكأنه يخاطب كل وارث عرش جائر : « وأن الظالم التارك لعهد الله الذي استعملك (أي عينك) صبيا سفيها تحكم في دماء المسلمين وأموالهم .. وإن لم يكن ذلك له ولا حق له فيه».

وفي سبيله لتوحيد صفوف شعبه بتحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية بين أفراده كافة ، أدرك عمر بن عبد العزيز أن الإسلام ليس عبارة تقال أو طقوسا تقام ، وإنما هي ثورة إنسانية هدفها الأول بناء مجتمع سليم . وهكذا .. لم يكتف بإيقاف فتوحات، الغاية منها اجتلاب الغنائم وتحقيق المطامع ، وإنما أوقف أيضا سياسة أسلافه المتبعة في إثارة الفتن بين القبائل : « فرق تسد » ، وكل ما من شأنه تجزئة المواطنين كافة . ومن ذلك إلغاؤه السخرة في العمل ورفعه الجزية عمن أسلم . وكان

أسلافه الأمويون قد أبقوا الجزية على كل من يسلم ، جشعا منهم ورغبة في جمع أكثر ما يستطيعون من الأموال . ولم يستطع عمر أن يقبل أن يكون هناك تمييز ضرائبي بين المواطنين المتساوين ؛ فإن دخولهم الإسلام يعني أن يصبحوا متساوين في الحقوق تساويهم في الواجبات . فمن ذلك قوله : « وأما من كان اليوم محاربا فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل ، فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وله ما أسلم عليه من أهل ومال . وإن كان من أهل الكتاب فأعطى الجزية وأمسك ، فإنما تقبل ذلك منه » .

وكما يسجل الدكتور «وليد قمحاوي» في مقالته الممتازة ، وهنا قد نجد من يتساءل : كيف نوفق بين فلسفة الحكم هذه العادلة ، وما يروى عن عمر من أنه أمر بأن يكون لغير المسلمين هيئة في اللباس والشارع تميزهم ، وبجمع السلاح منهم وإبعادهم عن المراكز القيادية الحساسة؟.. والواقع أن هذه الرواية ، إذا صحت ليست ثغرة في مفهوم عمر للحكم ، وإنما هي لبنة في مفهومه للإسلام ، الذي نستطيع أن نقول إنه مماثل لمفهومها الحديث للمواطنة . فإنه يفترض الآن أن كل من يقيم في بلد ، إما أن يعتبر مواطنا له ما لغيره وعليه ما على غيره ، وإما أن يكون غريبا ذا جنسية أخرى عليه ، أن يحتفظ بوثائقها ويتقيد بتعليمات معينة ، كما أنه لا يدعى إلى الخدمة العسكرية مثلا . وقد يغنينا عن شرح طويل لهذا التماثل بين المفهومين إذا تذكرنا أنه لم يكن في ذلك العهد حدود واضحة بين مفاهيم القومية والدين والمجتمع العربي والإسلامي ، واللغة العربية كلغة قوم أو كلسان أنزل به القرآن .

وعلى ضوء هذا التفسير ، يمكن أن نفهم جواب عمر ، لما كتب إليه أحد ولاته معترضا على رفع الجزية عمن أسلم تحت زعم : أن هذا ينقص واردات بيت المال ، فقد أجاب عمر بقوله إنه يتمنى أن يرى كل واحد يصبح مسلما حتى ليضطر كلاهما (الملك والوالي) إلى فلح الأرض بأيديهما لكسب قوتهما . فعمر قد فتح باب الثورة العربية الإسلامية على مصراعيه ليدخله جميع المواطنين على قدم المساواة .

أما العمل الدائب على استثمار خيرات الوطن ورفع مستوى معيشة الشعب فقد كان شغلا شاغلا لعمر بن عبد العزيز . ونستطيع هنا أن نذكر : أنه لما بعث إليه فلاحو البصرة يشكون ملوحة مائهم ، أمر بحفر قناة ماء عذبة تروي أرضهم وتسقيهم ، كما نستطيع أن نستشهد بجملة كتبها إلى ولاته في معرض حثهم على استصلاح الأراضي : « من غلب الماء على شيء فهو له ». أي : إن كل من استخلص أرضا من بحر أو نهر أو مستنقع فإنها تصبح ملكا له لا ينازعه فيه أحد . وكان من ذلك أمره بأن كل من أهمل أرضا خصبة ثلاث سنوات متتالية ، تؤخذ منه وتعطى إلى من هو جدير وقادر على استغلالها .

بل إن حب عمر لم يقتصر على الإنسان والأرض فقط ، وإنما شمل الحيوان أيضا، وكان له من عدله نصيب ، فقد كتب إلى أحد ولاته يقول : « لقد بلغني أن بمصر إبلا ثقالات يحمل على البعير منها ألف رطل ، فإذا أتاك كتابي هذا، فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل » .

لكن أروع ما قام به عمر بن عبد العزيز : إجراءاته في مجال التكافل الاجتماعي ، سواء كان ذلك في مضمار ما تفرضه الدولة على المواطن من التزامات مادية ، أو ما يفترض في الدولة من التزامات تجاه المواطنين . فقد أمر بتخفيف الضرائب على المواطنين قائلا : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » . ونكون أكثر تقديرا لمعنى هذه الجملة متى أدركنا أن محمدا هنا تعني خلفاءه وثورته الإسلامية مثلما تعني : المجتمع وجهاز الدولة اللذين انبثقا عنهما . كذلك منع عمر ولاته عن أخذ الهدايا من المواطنين ، ورفع الجزية عن المسلمين ، وأنقص الضرائب المفروضة على غير المسلمين . أما واردات الدولة فلم يكن مصيرها جيوب الملك وأسرته وبضعة أفراد محظوظين ، وإنما كانت تصرف على جهاز إداري نظيف عادل ، ولحفظ الأمن في الداخل ومن الخارج ، وما يفيض عن ذلك ، وما أكثر الذي كان يفيض ، يوزع على المواطنين بقدر حاجتهم .. حتى إن عمر أمر بقضاء الديون عن الغارمين (أي :

المدينين) حتى متوسطي الحال منهم ، ومساعدة من يريد أن يتزوج فلا يجد إلى الزواج سبيلا ، ومن يعيل أسرة ولا يكفيه دخله .

لكن هل كانت هذه جميعا مجرد نيات طيبة في ضمير عمر بن عبد العزيز ، أو أوامر جميلة يصدرها فتذروها رياح الأهواء ؟ الواقع أنها لم تكن كذلك؛ لأنها أعطت نتائجها الرائعة ، على الرغم من قصر المدة التي عاشها في الخلافة .. وكانت أولى النتائج ابتعاد كابوس الظلم واستتباب الأمن : فلا فتن أو تناحر بين القبائل العربية ، ولا نقمة عند الموالي بسبب الجزية ، ولا كراهية تأكل قلوب بني هاشم ، ولا ذريعة للخوارج في مطالبتهم بأن «لا تكون الأموال دولة بين الأغنياء»، «فقد حرموها» ، ولا ضرائب فادحة يثور عليها الفلاحون ، أو حرمانا واستغلالا يضيق بهما محرومون مستغلون ، وكان أن استكان جميع المواطنين ، وكان الولاء لعمر بن عبد العزيز ينبع من كل القلوب .

وكانت ثانية النتائج : ارتفاع مستوى معيشة المواطنين كافة .. فقد كان من آثار تخفيف الضرائب عن الأراضي ، إقبال الفلاحين على زرعها وزيادة إنتاجها ، كما كان في استعادته الإقطاعيات الواسعة من بني أمية وأشياعهم وتوزيعها على صغار الفلاحين ؛ مما جعل هؤلاء يقبلون على زراعتها واستثمارها بنشاط وإخلاص ، فيزيد الإنتاج وتتحسن الأحوال . أما الصناع فقد أدى تخفيف الضرائب عنهم إلى تحسين أوضاعهم ، فلم يعودوا مضطرين إلى بيع مصنوعاتهم إلى الأغنياء والحكام بأثمان زهيدة لسداد ما عليهم من ضرائب ، وإنما غدوا يبيعونها بأثمانها الحقيقية ، محتفظين منها بحاجتهم أو مشترين ما يحتاجون . وكان أن زاد طلب السلع على ما هو معروض منها مع ازدياد الطاقة الشرائية ، وهذا من أهم العوامل في نمو الصناعة . وكذلك التجار أصبحوا أحسن حالا بعد أن تخلصوا من منافسة الولاة غير الشريفة لهم ، وغدت السوق مفتوحة أمام صغار التجار . حتى الدولة نفسها ، لم تقل

وارداتها بسبب تخفيض الضرائب ، وإنما على العكس من ذلك ، فقد كان خراج العراق مثلا أيام عمر بن عبد العزيز أكثر مما كان في العهد السابق ، عهد الحجاج وحاشيته ، إنه لم يبق في الدولة جائع أو محتاج أو محروم .

وكانت النتيجة الثالثة : إقبال الناس على الإسلام ، يدخلونه راغبين ، وندرك أهمية هذا الأمر إذا تذكرنا أن الإسلام : كان عقيدة مثلما كان مواطنة . وهكذا بلغ انتشار الإسلام ذروته في عهد عمر بن عبد العزيز .

لكن أسلوب عمر لم يكن مفروشا بالورد ؛ فقد ورث تركة مثقلة بالمشكلات والقشور النفسية والشكوك ، وتولى الحكم في وقت استشرى فيه الظلم والفساد ، ولم يقبل عمر أن يفرق بين غاياته ووسائله ، فتكون غاياته إنسانية ، ووسائله إليها غير إنسانية . لذلك .. لم يقبل أن يجعل البطش والظلم سلاحه في نشر الرحمة والعدل، وكان من ذلك قوله : « من لم يصلحه إلا الغشم (أي الظلم) فلا يصلح . والله لا أصلح الناس بهلاك ديني » . وكذلك قوله: « لأن يلقوا الله بخياناتهم ، أفضل من أن ألقى الله بدمائهم ». وكانت الرحمة والعدل والحكمة وسائل عمر في بناء مجتمعه المثالي .

فئة واحدة لم يتردد عمر في تجريدها من كل امتيازاتها غير المشروعة ، وفي تهديدها بالبطش والتدمير ، تلك هي : الأسرة الحاكمة ومن يماثلونها من الطغاة والمستغلين . فلقد رفض عمر أن تبقى هذه الأقلية متحكمة في رقاب الشعب وأرزاقه ، ترهقه بالظلم وتستنزف خيراته لنفسها ، وأدرك أنه لا يكفي أن يسترد منها سرقاتها ، وإنما يجب أن يكون تحذيرها ووعيدها ، سيفا مصلتا فوق رأسها ، حتى تثوب – مع الأيام – إلى رشدها . وكان من ذلك قوله لأحد بني أمية : « لو طالت بي حياة ، أو رد الله الحق إلى أصله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتكم على المحجة البيضاء .. ومما وراء هذا ما أرجو أن يكون خير رأي أبته بيع رقبتك فإن لكل

مسلم فيك سهما ... ولولا ما يمنعني منك لبعثت إليك من يقضي على لمتك لمة السوء » .

وكانت هذه الأقلية ، تمثل العداوة الوحيدة لعمر طوال الشهور الثلاثين التي عاشها حكمه وثورته ، حتى ليروى أنها التي دست له السم ، فقتلته لتسترد ما فقدته في عهده من أسلحة الاستبداد والاستغلال .

وكانت نتيجة ذلك : انهيار الدولة الأموية ، كما فسر بعض الأمويين نادما : «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، وظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا ، وجار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، وطلبنا أعداءنا ، فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

قال أحد الفقهاء : « ما خبرت أحدا الله أعظم في صدره من هذا الغلام » وما أقرب إلى هذا قولنا اليوم : « ما خبر العرب ملكا للشعب أعظم في ضميره من عمر ابن عبد العزيز » .

ولهذا ولغيره مما ذكره الدكتور «وليد قمحاوي» وغيره من المؤرخين ، يمكن أن يكون عمر بن عبد العزيز من بين مجددي القرن الأول الهجري وخامس الخلفاء الراشدين .



القرن الثاني



1 – السيدة فاطمة النبوية
2 – السيدة سكينة
3 – عبد الرحمن بن هرمز
4 – الإمام أبو حنيفة
5 – الإمام الأوزاعي
6 – الإمام الليث
7 – الإمام مالك
8 – هارون الرشيد
9 – السيدة نفيسة
10 – المأمون
11 – معروف الكرخي
12 – الإمام الشافعي

2

هـذا القـرن

هذا القرن ، ازدهرت فيه البيئة الإسلامية بكل مظاهر الحضارة التي نـضجت ثمارها ، بعد أن تمكن خلفاء بنـي العبـاس مـن دعـم أركـان دولـتهم .. وكـان مـن مقومات ذلك : تشجيع الزراعة ؛ فوفروا وسائل الري بشق الجداول وحفر الـترع ، وتشجيع الصناعة ، فارتقت فنا وتنوعت شـكلا ، وازدهـرت الثقافـة فتنـافس ذوو التخصصات والكفاءات في تدوين العلوم المختلفة وضبطها وتمييزها . فدونت كتب الفقه ، وحررت مسائله ، ووضحت مناهجه ، واتسع نطـاق المنـاظرات والنـدوات العلمية والأدبية فتركزت القواعد العلمية ، وتفرعت المسائل وتحددت المناهج ، كـما اتسعت جوانب المعرفة وتعددت ضروبها ، فلم تقتصر على علـوم الـدين مـن فقـه ، وتفـسير وغيرهمـا ، أو اللغـة مـن : نحـو وصرف ، ولكنهـا امتـدت إلى الفلـسفة والرياضيات والفنون والصناعات وغيرهـا ممـا نقلتـه الترجمـة العربيـة مـن الـتراث اليوناني والروماني، ولولا هذه الترجمة لاندثرت هذه المعارف اليونانية وضـاعت إلى الأبد ، ولما أصبح للحضارة العربية في هذا العـصر بالـذات فـضلان عـلى أوروبـا : فضل الحفاظ على منجزات العقل اليوناني ، وفضل إنجازات العقل العربي وإضافاته الكثيرة والمهمة .

حدث هذا على الرغم من النكسات التي أصابت المسلمين نتيجة الفتنة الكبرى التي حدثت بعد مقتل الإمام عـلي كـرم الله وجهـه ، وابنـه الحـسين رضى الله عنـه واستيلاء الأمويين على الحكم ... على الرغم من ذلك فقد بقي المسلمون أقـوى أمـة

في العالم القديم .. حيث حققوا حضارة عربية إسلامية متماسكة ونبيلة ، في الوقت الذي ضعفت فيه دولة الروم الشرقية في العلم وشئون الحياة ، ودب الخلاف بين الكنيسة الشرقية والغربية حول الصور والتماثيل ، وذلك بتأثير الإسلام الذي له موقف منذ ذلك . كذلك تأخر العلم في أوروبا ، تأخرا واضحا لم ينقذه من كبوته سوى اللجوء إلى العلم الإسلامي .

في الجانب الآخر .. الأمة الإسلامية التي ما برحت تلملم ما حدث فيها من تمزق وتفرق بعد الفتنة والانقسام إلى شيعة وسنة ، فقد نشأت اختلافات بين الفرق الإسلامية خاصة في النظرة إلى إصلاح النكسة الرجعية في الحكم .. فقد كان لأهل السنة رأي ، وللشيعة رأي ، وهذه وتلك كل منهما تختلف عن آراء المرجئة والخوارج والمعتزلة ، وقد واجهت محاولات الإصلاح تحديات كثيرة ، حتى كادت أن تحقق نتيجة الخلط بين الدين والسياسة . ضاعف من هذه التحديات عوامل أخرى لعل أبرزها : نفور العامة من التجديد العلمي في الدولة العباسية ، ربما لعدم استيعاب هؤلاء العامة لأهداف هذا التجديد ، وعامل آخر هو ظهور الطبقات بين عامة الشعب ، كفوارق دعا الإسلام إلى تذويبها ، ولعل هذا كان نتيجة لأسلوب ونظام الحكم الذي أرساه الأمويون ، وعامل ثالث يتجسد في بقايا استبداد وطغيان حكام بني أمية وامتلاكهم وسيطرتهم على أرزاق الناس .

لكن على الرغم من ذلك ، فقد اتسم هذا القرن بالتحضر والازدهار كما قلنا ، ويكفي أن يكون من بين ولاته العلماء والأدباء من بني العباس ، وفي مقدمتهم : الخليفة العالم المأمون ، ووالده الخليفة هارون الرشيد . كما اتسم بتواجد رموز من آل البيت ، أبرزها السيدتان الجليلتان : سكينة بنت الإمام الحسين منشئة أول ندوة ثقافية في الإسلام إن لم يكن في التاريخ ، وشقيقتها السيدة فاطمة النبوية راوية الحديث ومفسرته، تلك التي كان يرجع إليها المهتمون به من العلماء والفقهاء والمفسرين على اعتبار أنها مصدر موثوق لقربها من المصدر الأساسي لهذا الحديث

وهو جدها لأبيها النبي ﷺ .. وعلى الرغم من هذه الصفحات التي تعنى بالتجديد الذي قام به الرجال ، إلا أن هاتين السيدتين لهما من الفضل والعلم والأدب ما قد يفوق غيرهما من الرجال لاعتبارات كثيرة تتضح في الحديث عنهما . وإلى جانبهما نفيسة العلم والمعرفة : السيدة نفيسة .

كذلك اتسم هذا القرن بتواجد أربعة من أئمة السنة هم : إمام أهل المدينة المنورة : مالك بن أنس ، وإمام مصر : الليث بن سعد ، والإمام أبو حنيفة النعمان ، والإمام الشافعي ، وطبيعي أن يكون لكل واحد من هؤلاء الأئمة الأجلاء آراء وأفكار لم تقتصر على عصرهم ، وإنما امتدت لتشمل بقية القرون حتى تصل إلى اليوم. إلى جانب إمام أهل الشام : الإمام الأوزاعي .

كذلك .. برز اهتمامهم باللغة العربية وآدابها ونحوها في هذا القرن ، فلم يكن الاهتمام منصبا على الفقه فحسب ، بل إنه امتد فشمل هذه اللغة : نحوها وصرفها، وهو دور عظيم قام به : «عبد الرحمن بن هرمز» الذي لا يذكر علم النحو دون أن يذكر اسمه على اعتبار أنه كان من الأوائل الذين يرجع إليهم الفضل في وضع قواعد هذا العلم الذي نتعامل معه ونستخدمه إلى اليوم .

وباختصار .. فإن هذا القرن غني بمجدديه الذين نلتقي بأفكارهم التجديدية على الصفحات التالية :

السيدة فاطمة النبوية

السيدة فاطمة النبوية ، كريمة الإمام الحسين رضى الله عنه ، وحفيدة كل من الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء، وشقيقة السيدة سكينة رضي الله عنهم أجمعين.

كانت من مجددي القرن الثاني للهجرة حيث توفيت عام ١١٠هـ ، هذه السيدة الهاشمية الشريفة تعرف في التاريخ الإسلامي، بأنها : راوية الحديث الشريف، والأحداث الجليلة.

ففى مقدمة الأسماء التى استند إليها «ابن إسحاق» في روايته للسيرة النبوية التى كتبها ابن هشام لتعرف باسمه، (سيرة ابن هشام) كان اسم السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين ابن الإمام علي رضي الله عنهم.

وتحت عنوان: «إسنادات الرجال» تجد اسم السيدة فاطمة ضمن الأسماء القليلة الموثوق بها ، والتى رجع إليها كل من ابن إسحاق وابن هشام، فاستندا إليها في روايتهما السيرة النبوية.

ويستوقفنا استنادهما إليها - بالمجلد الأول في رواية حديث مهم عن جدتها أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها... ومصدر أهمية هذا الحديث أنه كان في اختبار الوحى الذي لجأت إليه أم المؤمنين لتدرك بفطرتها الأنثوية: أهو ملك من السماء أم شيطان من الأرض... ولتقولها للنبى ﷺ، عن جبريل عليه السلام: «ابن عم، اثبت وأبشر، فوالله إنه لملك من السماء ، وما هذا بشيطان من الأرض»، وهو ما تناولته الكتابات الحديثة عن القديمة، والخلف عن السلف، وسيظل كذلك مصدرا موثوقا به إلى قيام الساعة، والسبب أن راويته هي السيدة فاطمة النبوية، الموثوق بها في الحديث.

وفي المجلد الثاني للسيرة النبوية، نجد ابن إسحاق وابن هشام يستندان إليها في رواية تاريخية على جانب كبير من الأهمية، لأنها كانت هي الأساس الذي ترجع إليه كل الكتابات الخاصة بالتاريخ بسرية زيد بن حارثة إلى مدين، حيث نقلت عن رسول الله ﷺ، قصة إرساله لهذه السرية، والهدف من ذلك، وهو ما يتناوله العلماء والمؤرخون المحدثون عن الأقدمين، والخلف عن السلف.

والشواهد كثيرة على رواية هذه السيدة الطاهرة للحديث النبوي، والوقائع التاريخية الجليلة كما هو مسجل في بطون الكتب .. ولكننا قصدنا سيرة ابن هشام ؛ لأنها هي الأصل وهي الأساس الذي تستقي منه كل الكتابات : قديمها وحديثها، وقائع السيرة وأخبارها، للتأكيد على أن هذه السيدة الطاهرة كانت من المصادر الأولى الموثوق بها في الوقت نفسه لرواية الحديث الشريف، والوقائع التاريخية كمصادر لا غنى عنها لمعرفة الإسلام في صورته الأولى التي جرت بها ألسنة رجاله ونسائه من السلف الصالح.

هذه إشارة سريعة إلى مكانة السيدة فاطمة النبوية رضي الله عنها في التاريخ الإسلامي، فماذا عن سيرتها الذاتية؟ وماذا عن العصر الذي وجدت فيه؟ وماذا عن موقفها من الفتنة الكبرى التي أطاحت بوحدة الدولة الإسلامية ، فحولتها إلى شيع وأحزاب؟ وماذا عن مأساتها مع غيرها من أبناء وبنات النبي في كربلاء؟

تمر القرون متتالية، بما فيها من أجيال وسنين وأيام، ولا تزال الصورة التي تجري بها أقلام الكتاب، وتدور حولها ألسنة الرواة كما هي.. صورة مأساة كربلاء، يوم استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه، ومعه كثير من آل البيت النبوي الشريف، في هذه البقعة من الأرض ، ولا يبقى من أبناء الحسين سوى : علي زين العابدين رضي الله عنهما وجمع من النساء، تتقدمهم السيدة زينب شقيقة الإمام الشهيد رضي الله عنهما.

ومن بين تلك النساء كانت السيدة فاطمة النبوية ابنة الإمام الشهيد... وكانت يومئذ شابة صبية تحتمي بعمتها السيدة زينب رضي الله عنهما، ولا منجى ولا مغيث من بطش الأمويين سوى رحمة الله.

لكن .. من هذه السيدة الطاهرة التي تربت في كنف والدها الإمام الحسين، فنهلت من مورده، وتحلت بخلقه، وكانت صورة منه في شجاعته وجرأته، وصلاحه وتدينه، وتعبده وتقواه وورعه؟!

ومتى ولدت؟ وفي أي عصر من عصور الخلافة الإسلامية؟ أعصر جدها الإمام علي؟ أم عصر عمها الإمام الحسن؟ أم عصر مغتصب الخلافة معاوية ابن أبي سفيان؟

وكيف كانت في سنوات عمرها الأولى؟ وما اكتنف هذه السنوات من أحداث جسام بالنسبة للأمة الإسلامية عامة، وبيت النبي ﷺ خاصة؟ وغيرها من أسئلة حار لها الكثير من الباحثين والدارسين والمؤرخين.

من هي السيدة فاطمة النبوية؟ يكفي أن نقول إنها بنت الإمام الحسين من زوجته الرباب ، والشقيقة الصغرى للسيدة سكينة ، والكبرى للإمام علي زين العابدين، وحفيدة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، أي إنها من بنات وأبناء النبي ﷺ وكفى!!

ومتى ولدت؟ في هذا الأمر تتوارد الكتابات وتختلف .. ومن هذه الكتابات (طبقات الأتقياء) التي يقول صاحبها ابن حيان: إنها لحقت بربها وهي في السبعين من عمرها .. ومن ناحية أخرى تجمع كل الروايات والمصادر التاريخية على أنها توفيت عام ١١٠ هجرية... وإذا تأملنا ما قاله ابن حيان، وما أورده المؤرخون والرواة كان ميلادها عام ٤٠ هجرية.

وإذا كانت الأحداث قد دارت في هـذا العـام – وهـو الأرجـح بـشهادة أكثـر الباحثين والدارسين – فإن مكان مولـدها كـان في مدينـة الكوفـة في أخريـات أيـام خلافة جدها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي استشهد في شهر رمـضان مـن العام نفسه (٤٠ هـ) كما هو ثابت في التاريخ الإسلامي.

نقول: ولدت هـذه الـسيدة الطـاهرة قبـل استـشهاد الإمـام عـلي ولـيس بعـد استشهاده، لأن أحداث هذه السنة لم تذكر أن الإمام الحسين قـد رزق بمولـودة مـن زوجته الرباب بعد استشهاد أبيه الإمام علي كرم الله وجهه.

وقد سماها والدها الإمام الحسين فاطمة تيمنا باسم أمه فاطمة الزهراء، ولعلهـا كانت أشبه الحفيدات بها، كما كان أبوها أكثر الناس شبها برسول الله ﷺ.

وهكـذا .. ولـدت هـذه الطفلـة في فـترة الخلافـة التـي حفلـت بـالمؤامرات والدسائس، والتي انتهت بمقتل رابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب، واختيـار المسلمين لابنه الحسن رضى الله عنه أميرا للمؤمنين ليبقى فترة تتراوح بين الثلاث أو الأربع سنوات .. حدث قبلها وبعدها ما حدث من أمور جسام.

وهنا.. تفتحت عيناها طفلة صغيرة على أحداث جسام، وبالقطع كانت لا تعيها ولا تدركها، حتى لو أعيدت على مسامعها مرة ومرات، إذا .. كيف تدرك مثلا هـذا الصراع القائم بين عمها أمير المؤمنين الإمام الحسن وبين معاوية بن أبي سفيان، وهي لم تزل طفلة صغيرة تخطو أولى خطواتها في الحياة؟!.

وكيف تدرك ابنة الأربع سنوات أن عمها أمير المؤمنين قد تنـازل عـن حقـه في الخلافة لمعاوية بعد اتفاق الطرفين على أن يخلف الإمام الحسن معاوية بعد وفاته؟!

وكيف تدرك هذه الطفلة معنى رحيل أبنـاء الإمـام عـلي كـرم الله وجهـه عـن الكوفة إلى مدينة رسول الله، ثم إجبارهم على الرحيل من مدينة جدهم إلى مكة بعـد وفاة الإمام الحسن مسموما؟!

هل تدرك فاطمة الطفلة البريئة التي لم تبلغ العاشرة من العمر. أن معاوية قد تآمر مع زوجة العم «الجعد» لقتل العم، كي يتحلل من الاتفاق الذي أبرمه مع الإمام الحسن، والذي ينص صراحة على أن تئول الخلافة بعد معاوية إلى صاحبها والمتنازل عنها الإمام الحسن؟! كيف تدرك هذه الطفلة أن معاوية صنع ما صنع بسبط رسول الله ﷺ وريحانته كي ينكص بالعهد ويتنكر له حتى يخلو له ولأبنائه وأحفاده الخلافة .. فتتحول من خلافة قامت على الشورى إلى ملك عضوض يتوارثه الأبناء والأحفاد؟! ولم ينتظر معاوية طويلا حتى ينسى الناس فعلته، بل راح في جرأة واجتراء يسعى إلى أخذ البيعة لولده «يزيد»، ليكون أميرا للمؤمنين بعده.

لا شك أن هذه الطفلة التي شبت وأصبحت فتاة وضيئة – كما تصفها الروايات – قد سمعت بهذه الأحداث، وأدركت منها القليل ولم تع منها الكثير، إلا أنها أحداث على أي حال لا يمكن أن تمحوها الذاكرة على مر الزمن.

غير أن الحدث الأكبر الذي رأته وأدركته ووعته، ولم تنسه قط طيلة حياتها هو يوم مقتل والدها الإمام الحسين في كربلاء.

يا له من حدث جلل في يوم رهيب..!! أبدا ما نسيته فاطمة، أو أي واحدة من آل البيت .. لأنه فجيعة تذكر بالعويل والنحيب، وكيف لا؟!.. وقد سقط أمام أعينهم في حومة الوغى الفارس الشجاع وسيفه مضرج بدمائه .. سقط صريعا في سبيل نصرة الحق .. سقط وحوله بنوه وذووه، ومن بعده سقط الجميع، حتى امتلأت ساحة كربلاء بجثث الأطهار الذين ما تخاذلوا عن نصرته، فهم على قلة عددهم وتواضع عتادهم .. لم يفكروا لحظة في تركه وحيدا لأشباه الرجال، وإنما وقفوا معه في حياته مدافعين مجاهدين، وصدموا بعد استشهاده وبقوا يظللون جثته الطاهرة بالسيوف والحراب .. ولكن هيهات أن تستمر سيوف وحراب قليلة أمام جحافل

كثيرة من الجبناء غلاظ القلوب .. لقد خر صريعا كما خر الجميع الواحد تلو الآخر، مفضلا أن يصبح جثة هامدة وشهيدا إلى جوار سيد الشهداء ، على أن ينعم بحياة خسيسة غير كريمة.

وهل تستطيع الابنة الشابة فاطمة أن تنسى ذلك اليوم الذي فيه علق رأس أبيها الطاهر ، وبقية رؤوس الشهداء على أعواد يطوفون بها شوارع الكوفة وطرقها ومن معهم من النساء والأطفال ، إلى حيث الطاغية ابن زياد .. ليأمر بمسيرة هذا الموكب الحزين إلى كبيرهم طاغية الأمويين الفاجر الفاسق « يزيد بن معاوية » في الشام؟!

هل يستطيع أحد من المسلمين أن ينسى هذا الموكب الذي يتقدمه الرأس الطاهر، وخلفه بنات الرسول وقد هتكت ستورهن .. وهن يسعى بهن كالسبايا .. إلى من؟! إلى أمير الغواني والخمور يزيد بن معاوية ، ليقمن في مجلسه، وتتقدمهن السيدة زينب والسيدة فاطمة النبوية رضي الله عنهما؟!

اللحظات تمر ثقيلة متثائبة، واللقاء غير عادي بين من طهرهن الله تطهيرا وبين حفيد آكلة أكباد الشهداء ، وعيون الشرفاء زائغة فيما يكون عليه مصيرهن .. بينما عيون الجبناء لا تعرف حرمة المقدسات، حتى إذا حانت نظرة من أحد رجال يزيد إلى هذا الحسن الرباني، إلى هذه الصبية الطاهرة فاطمة النبوية .. مال إليها راجيا أن تكون له، ومال على يزيد يسأله: «يا أمير المؤمنين هب لي هذه الجارية تكون جارية لي».

هكذا يقولها وقد هان كل شيء عند الأمويين، حتى أصبحت المقدسات مباحة!؟ وترتعد فاطمة ابنة العشرين وتجفل، وتأخذ بثياب عمتها السيدة زينب – رضى الله عنها – وكأنها تحتمي من نظرات ذلك الفاجر الداعر الذي يعبث بحياء من طهرهن الله تطهيرا، وأبعد عنهن الرجس... فتصيح العمة الحزينة الثكلى في قوة وعزيمة لا تستغرب من ابنة الإمام علي وشقيقة الإمام الحسين وفوق هذا حفيدة

النبي ﷺ، وتقول موجهة حديثها إلى يزيد وإلى هذا الفاجر الذي يعتبر فاطمة مجرد جارية توهب لمن يطلبها ليتلهى بها ويعبث: «كذبت ولؤمت، ما ذلك لك ولا له».

وثار يزيد عندما سمع صياح السيدة زينب، ولم يثر من قبل على نديمه الفاجر حين أراد العبث بالمقدسات والحرمات، وكبر في عينيه أن تهاجمه السيدة زينب على هذه الصورة .. ووجد نفسه يصيح فيها قائلا: «إنما أنت الكاذبة .. ولو شئت لفعلتها وذهبت فتاتك للرجل». وإذا بالسيدة زينب تقول في إصرار وعناد، وكبرياء وشموخ، وبلاغة وحكمة: «بل أنت الكاذب الشرير، وإنك لأعجز وأضعف من أن تتجاسر على ذلك .. إلا إن خرجت على ملة الإسلام وتبرأت من دين الله».

بعد هذا اليوم .. كرهت السيدة فاطمة بنت سيد الشهداء حياة الصخب والضجيج تلك التي عاشت في أتونها الرهيب، وليكفها من الماضي ما كان .. فقد اغتيل الجد بطعنة جبانة، ومات العم مسموما، ثم استشهد الأب والإخوة وأبناء العم .. فأية حياة تلك التي قدر عليها أن تعيشها في المدينة أو في مصر، حيث تسافر مع عمتها السيدة زينب رضي الله عنهما.

تعيش بقية عمرها بمصر صوامة قوامة، راوية للحديث، إلى درجة أن أخذ عنها الإمام أحمد بن حنبل، وابن ماجه، وأن يعظمها خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ويعلي قدرها، حتى إنه حين ذكرت في مجلسه بأنها لا تعرف الشر، قال: «إن عدم معرفة السيدة فاطمة للشر جنبها الشر نفسه».

وانصرفت هذه السيدة الطاهرة بعد ذلك عن الدنيا انصرافا كليا، لقد رأت الكثير، وعرفت الكثير وأدركت الكثير، وقاست من الكثير، فماذا تريد من الدنيا؟ وماذا يبقى لها من الدنيا؟ إنها تريد أن تقبل على العبادة وأن تنصرف إلى الاعتكاف، وأن يبقى لها أن يعرف الناس مكانتها، فيبحثون عنها ويستمعون إليها عن الذي يفيد

وينفع حيث تقول ، ومن كلامها: «والله ما نال أهل السفه بسفههم شيئا، ولا أدركوا من لذاتهم إلا بعض ما نال أهل المروءات بجميل ستر الله».

ويتزوجها ابن عمها في حياة والدها الإمام الحسين رضى الله عنه، وتنجب له ثلاثة أبناء، منهم الإمام إبراهيم الجواد، وشقيقه الإمام محمد، اللذان استشهدا على أيدي بني العباس.

وقد مات عنها هذا الزوج قبل مأساة كربلاء .. وقبل أن يموت أوصاها بأن تتزوج .. وقد تزوجت بعد فترة من وفاته من حفيد عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبعد موته امتنعت عن الزواج، حيث تقدم لها الكثيرون، فكان ردها حازما قاطعا كما تذكر الروايات – بأنها تزوجت مرتين، ومن الله عليها بالولد، فماذا تريد؟

وظلت هذه السيدة الطاهرة «فاطمة النبوية» بقية حياتها – سواء بأرض الحجاز، أو بمصر، عاكفة على العبادة، ومقبلة على الزهد، مدبرة عن الدنيا .. وكانت مثلا رائعا من أمثلة الصلاح والتقوى، والاستمساك بأهداب الفضائل والمثاليات .. وهو أسلوب غير مستبعد من آل البيت، ومنهج تتبعه غيرها من بنات جنسها على مر الزمن، ظلت بقية حياتها راوية للحديث الشريف مفسرة له، أمرا جعل رواة الحديث وكتابه يرجعون إلى أقوالها ثقة فيما تقوله. ويجعل منها واحدة من أهل التجديد .



السيدة سكينة

السيدة سكينة : كريمة الإمام الحسين ، وحفيدة كل من الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما من مجددي القرن الثاني للهجرة حيث توفيت عام ١١٧ هـ، كانت إلى جانب كونها مرجعا في الأحاديث النبوية وتفسيرها ، كانت أول امرأة في الإسلام إن لم يكن في العالم ، تقيم ندوة أدبية يحضرها الأدباء والعلماء والفقهاء، حيث اشتهرت في تاريخ الثقافة العربية بأنها : صاحبة أول ندوة أدبية تقيمها المرأة، ويقف ببابها الرجال، وقد كان من بين هؤلاء الرجال .. فحول الشعراء في تاريخ هذه الثقافة.

ولعل حق هذه السيدة سكينة رضى الله عنها في هذا المجال قد أصبح محفوظا، ليس على مستوى الثقافة العربية فحسب، وإنما على مستوى الثقافات الأجنبية أيضا. ولعل سبب شهرة ندوة السيدة سكينة رضى الله عنها في التاريخ .. يرجع إلى مكانة وقيمة من كان يقصدها من الشعراء، وفي مقدمتهم «الفرزدق» و«كثير» و«جرير» و«جميل» و«عمر بن أبي ربيعة» إلى جانب العلماء والفقهاء، وما كان يصدر عنها من أحكام نقدية وعلمية وفقهية .. حتى كان الشاعر لا ينشر قصيدة على الناس قبل أن ينشدها داخل الندوة وتجيزها السيدة سكينة رضي الله عنها.

ولم تقتصر الندوة على الكلمة الشاعرة فحسب، وإنما امتدت إلى الاهتمام بكثير من فنون القول .. حتى إذا غطى اهتمامها الكلمة شعرا ونثرا انتقل إلى الكلمة لحنا وغناء، حيث استوعبت ندوتها الموسيقى والغناء، وكان حكمها على كل ذلك مبنيا على علم واسع، وإحساس صادق.

لكن .. لا يمكن التعرف على جوانب من هذا الدور التجديدي ، المهم في حياة العلم والفقه خاصة، والثقافة العربية عامة، دون معرفة شيء عن نشأتها الأولى في بيئة طاهرة، تجل الكلمة شعرا ونثرا، وتقدر قائليها شعراء كانوا أو كتابا أو علماء... وإذا ما تيسر ذلك فلا مناص من معرفة علاقة هذه السيدة الطاهرة بمجتمعها. وقبل كل ذلك علينا أن نتعرف على مسألة وجودها بمصر في الضريح المقام بالمسجد المعروف باسمها بالقاهرة، على ضوء ما وصل إلينا من كتابات وروايات للعلماء والمؤرخين الأقدمين منهم والمحدثين.

اختلفت الروايات في شأن وجود رفاتها الطاهر في الضريح المقام بمسجدها الموجود بحي الخليفة بالقاهرة، في الشارع المسمى باسمها. فالإمام الشعراني يذكر في طبقاته: «أنه لما دخلت السيدة نفيسة مصر كانت عمتها السيدة سكينة رضي الله عنهما المدفونة قريبا من دار الخلافة مقيمة بمصر، ولها الشهرة العظيمة».

وأيا ما تكون هذه الروايات التى تؤيد وجود الرفات الطاهر لهذه السيدة الفضلى بمصر، في المسجد الذي بناه خصيصا لها عبد الرحمن كتخدا عام ١١٧٣ هـ وكتب عليه اسمها، أو التى ترى غير ذلك، فإن الثابت الذي لم يختلف حوله المؤرخون والرواة قديمهم وحديثهم، أن هذه السيدة الطاهرة قد شرفت أرض مصر مرة أو مرتين على الأقل، وربما نزلت وأقامت في هذا المكان المقام عليه ضريحها بمسجدها بالقاهرة، وإلا فما معنى أن يقام لها دون غيرها من آل البيت هذا الضريح في هذا المسجد، في هذا المكان من القاهرة، لو لم تكن لها علاقة به سواء كانت هذه العلاقة قد تمت بالوفاة، أو بالزيارة؟!

والآن ماذا عن سيرة هذه السيدة الطاهرة؟

تقول الروايات : قديمها وحديثها، ولا تختلف في ذلك إلا في طريقة التناول:

إنه عندما طرق الإمام الحسين رضى الله عنه باب امرئ القيس بن على الكلبى ، طالبا يد ابنته «الرباب» عمت البهجة والفرحة أقطار نفسه، وكيف لا يكون كذلك؟

وهو بهذه المصاهرة الكريمة سيرتبط ببيت محمد ﷺ فأي شرف وأي عزة تطاول هذا النسب؟

إن طالب اليد هو الحسين، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على وفاطمة الزهراء، رضى الله عنهما... وكفى بهذا شرفا وعزة .. وطبيعى - والأمر كذلك - أن يستجيب والد العروس لهذا القادم الحبيب لتدخل ابنته «الرباب» – ذات الحسب والنسب، والأدب والحسن- بيت الحسين وتنجب له فيمن تنجب من الذكور عبد الله الذي استشهد مع أبيه في كربلاء، وعلى زين العابدين، وهو آخر من بقي من أبناء الحسين من الذكور يوم كربلاء وسكينة، وفاطمة النبوية رضي الله عنهم.

وسميت الفتاة الأولى آمنة، تيمنا باسم أم النبى ﷺ، وسميت الثانية فاطمة تيمنا بأم الحسين فاطمة الزهراء، لكن تغير اسم الفتاة الأولى إلى سكينة، حيث اعتادت أمها الرباب أن تناديها به لأسباب، منها: الاحترام والتقدير لاسم الجدة العظيمة التى أنجبت البشير النذير محمدا ﷺ، ومنها أن هذه الفتاة الصغيرة اتصفت دون بقية أخواتها بسمات خاصة: هدوء نفس، وطيبة قلب، وطول استغراق، مما جعل نفوس أهل البيت تهفو إليها وتسكن، وترتاح إلى أدبها وذكائها وتستقر.

ولعل هذا المعنى يترجمه شعر والدها الإمام الحسين رضي الله عنه:

لعمري إنني لأحب دارا تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالي وليس لعاتب عندي عتاب

وهكذا غلب الاسم المستحدث «سكينة» على الاسم الأصلي «آمنة» ليتلاشى الأخير. ويبقى على مر الزمان «سكينة» اسما لها.

وإذا كانت السيدة سكينة ، قد نشأت في مهاد العلم والفضل، والحسب والنسب فجدها لأبيها هو الإمام على كرم الله وجهه، وأبوها الإمام الحسين، وعمها الإمام الحسن، أول أمير للمؤمنين بعد الخلفاء الراشدين الأربعة.. وأنها نشأت في

بيئة حديثة العهد بظهور الإسلام، ووثيقة الرابطة بالجد الأعظم النبي ﷺ، شديدة التمسك بهذا الدين الجديد .. فكان من الطبيعي أن تكون عابدة قانتة، حافظة لدينها.

غير أن هذه البيئة المتفردة لم تنسها سماتها المتميزة بها عن غيرها ؛ حيث بدأت شخصيتها تتبلور وهي في الثالثة عشرة من عمرها، حتى إنه لم يأت موسم الحج في العام الستين للهجرة إلا كانت هذه الفتاة قبلة الأنظار، والمثل الذي يحتذى به بين فتيات المدينة.

وفي موسم الحج – كما تنقل الروايات قديمها وحديثها – شاعت «الطرة السكينية» أو «الجمة» أو «القصة» أو «الخصلة»، فلم تبق شابة في المدينة إلا قلدتها في تصفيف شعرها، واستمرت هذه الحالة من التقليد والمحاكاة فترة من الزمن، حتى تجاوز الفتيات إلى الشباب، فراح يقلد هو الآخر هذه «الجمة السكينية» الأمر الذي انزعج له بعد ذلك معاصرها خامس الخلفاء عمر بن عبدالعزيز حين كان واليا على المدينة، فكان إذا وجد شابا يصفف جمته على الطريقة السكينية جلده، وأمر بقص شعره، مبررا ذلك بأن الإسلام لا يقبل تشبه الرجال بالنساء، حتى لو كن من أفضلهن.

ولا تعني هذه الطبيعة التي فطرها الله عليها من الحسن الذي تؤخذ له القلوب أن تكون هذه السيدة الطاهرة منصرفة عن دينها، بل على العكس، حيث كانت تصل في تعبدها إلى درجة الاستغراق التام، والانصراف الأتم عمن حولها، وهو ما يؤكده قول والدها الإمام الحسين رضي الله عنه ، وحين جاءه ابن أخيه الحسن المثنى ابن الإمام الحسن رضي الله عنهم، طالبا الزواج من واحدة من ابنتيه: سكينة، أو فاطمة، فقال له الإمام الحسين: اخترت لك فاطمة، فهي أكثر شبها بأمي فاطمة الزهراء، أما سكينة فغالب عليها الاستغراق مع الله، فلا تصلح للرجال.

وإلى جانب استغراقها وتعبدها - وهذا أمر طبيعي كما قلنا - كان لها استغراق آخر يترجمه اهتمامها بالأدب وتذوقها له. ولعل هذه السمة اكتسبتها من البيئة المحيطة بها عامة، تلك التي كانت بيئة أدب، ومكانتها كابنة للإمام الحسين وحفيدة الإمام علي، وما كانا عليه - كل منهما - من بلاغة في القول وفي الأدب، ربما يميزها عن آل بيت النبي ﷺ .

هذه البيئة في عموميتها وخصوصيتها ، كانت تعنى بالشعر خاصة، وتزداد العناية بهذا الجانب من الأدب، حيث عمدت الدولة الأموية – بعد ذلك – إلى جعله وسيلة من وسائل الدعاية لسياستها الغريبة، فانصرف الناس إليه، فكان من الضروري أن يهتم الطرف المقابل، وهو المناهض لبني أمية من آل البيت، بندوة السيدة سكينة (رضي الله عنها) كضرب من فنون القول.

لم يكن غريبا والأمر كذلك ، أن يكون مجلس السيدة سكينة رضي الله عنها - أو ندوتها فيما بعد - عامرا بالأدب، منصرفا إلى الشعر منه خاصة، وهي خاصية لعلها تكون جديدة، على الأقل بعد الإسلام، حتى إن الدكتورة «سعاد ماهر» أشارت إليها بالقول: «وإذا كان الغرب يفتخر بندوات نسائه العلمية والأدبية في القرن الثامن عشر، فإن للعرب أن يتباهوا ويفخروا بندوات نسائه في الأندلس، التي سبقت الغرب بعدة قرون، فقد كانت ندوات «ولادة بنت المستكفي» في القرن الحادي عشر الميلادي مجمع العلماء وأهل الأدب والفن. على أن ندوات « ولادة » لم تكن الأولى من نوعها في الإسلام، فقد سبقتها في القرن الثاني الهجري ندوات نسائية في المدينة المنورة. وكان أول من سنها هي السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، ثم تبعتها بعد ذلك غيرها من سيدات قريش.

ويؤكد هذا القول ما امتازت به ندوة السيدة « سكينة » من العلم الغزير، والأدب الرفيع، والشعر الرقيق، حيث تسجل الروايات أنه كثيرا ما اجتمع

ببابها فحول شعراء العربية ، وفي مقدمتهم « جرير ، والفرزدق ، وجميل ، وكثير وابن أبي ربيعة ». خصوصا في موسم الحج من كل عام، طالبين أن تأذن لهم بإنشاد أشعارهم من وراء حجاب.

لقد وصلت إلى أسماع الحاضرات في ندوة السيدة «سكينة» رضى الله عنها أشعار مجنون ليلى، وتشبيب جميل بثينة، وغزل كثير عزة، وهجاء جرير للفرزدق، وروايات عمر بن أبي ربيعة الخيالية، وكانت صاحبة الندوة هى الأخرى قائلة للشعر، راوية وناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه وقوافيه، وذواقة لمعانيه عارفة لأقدار قائليه.

وتحدثنا الروايات القديمة، وهى ما تنقله الكتابات الحديثة، من أن عددا من الشعراء كان بينهم الفرزدق، وجرير، وجميل. اتفقوا فيما بينهم على حضور ندوة السيدة «سكينة» ليحتكموا إلى رأيها فيمن يكون أشعرهم ، وأنشد كل منهم شعره حتى جاء دور جميل، فأنشد قائلا:

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد؟
وأفضل أيامي وأفضل مشهدي إذا هيج بي يوما وهن قعود

وهنا قالت السيدة «سكينة» رضى الله عنها لجميل: أنت الذي جعلت قتيلنا شهيدا، وحديثنا بشاشة، وأفضل أيامك يوما تدافع عنا وتجاهد، ولم تتعد ذلك إلى قبيح... أنت أشعر الموجودين.

وفي ندوة أخرى حضرها «الفرزدق» مع غيره من الشعراء، بعد أن أتم حجه، فبادرته السيدة «سكينة» رضى الله عنها قائلة: من أشعر الناس؟ وكأنها بذلك تذكره بما تم في ندوة سابقة، فتثيره إلى قول ما عنده فأجابها الفرزدق باعتزار: أنا. قالها في حضور الشعراء: فقالت له أشعر منك جرير إذ يقول:

بنفسي من تجنبه عزيز علي ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجع النيام

وأسمعها الفرزدق بعض أشعاره، وكانت بالفعل عظيمة المستوى، ولكن السيدة «سكينة» رضي الله عنها كانت تريد أن تستثير لديه جانب التحدي، فقالت له: صاحبك جرير أشعر منك، حيث يقول:

لولا الحياء لها جني استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهمو ونهار

فقال الفرزدق: والله لئن أذنت لي لأسمعنك ما هو خير منه... وأسمعها ما هو أجود مما قال من قبل. فقالت له – وكأنها تصر على أن يأتي بأحسن ما عنده:

جرير أشعر منك إذ يقول:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

كانت تعلم جيدا القدرة الشاعرية للفرزدق، ولكنها كانت ترغب في استثارته بمقارنته بمن ينافسه ، وهو جرير. فهي في الحقيقة لا تتحيز لواحد منهما دون الآخر .. وإلا فما معنى أن تنقد شعر جرير في ندوة أخرى، وتقول عن أحد أبياته وهو:

طرقتك سيدة القلوب وليس ذا حين الزيارة فارجعي بسلام

بأنه ينقصه الكثير من آداب اللياقة، والخروج على حسن السلوك، حيث يرد أي طارقة، فما بالنا لو كانت هذه الطارقة هي سيدة القلوب؟! وقد لاقى حكمها عليه رضا من الحاضرين.

واشتملت ندوة السيدة «سكينة» على الموسيقى والغناء إلى جانب الشعر. فقد كانت لها أذن تميز بين ضروب الألحان، الأمر الذي جعل اثنين من أكبر المطربين في زمانهما – وهما «الغريض» و «ابن سريج» يحتكمان إلى رأيها فيمن يلحن أفضل، حيث قال لها ابن سريج: سيدتي، إني كنت قد صنعت لحنا وحسنته فنازعنيه الغريض، فأردنا أن نحتكم إليك... فأي منا قدمته فينا تقدم.

فقالت: هاته... فبدأ يغني هذا البيت كما لحنه:

وعرجي علينا ربة الهودج　　　إنك لا تفعلي تحرجي

فقالت: هاته أنت يا غريض... فغناها الغريض كما لحنها. فعادت وقالت لابن سريج: أعده. وسألت الغريض أن يفعل ففعل. فسكتت لحظات قالت بعدها: ما أشبهكما باللؤلؤ والياقوت في أعناق الحسان. لا يدري أيهما أحسن؟!

وهكذا كانت السيدة «سكينة» رضي الله عنها حتى قال عنها ابن خلكان: «بأنها سيدة نساء عصرها، وأحسنهن أخلاقا، وأكثرهن تعبدا، وأرفعهن نسبا وقال عنها الأصفهاني: «إن امرأة تختار على السيدة سكينة لمنقطعة النظير».

ولعل في هذه القصة ما يترجم ذلك ويتجاوزه إلى وصف سمات شخصيتها بوجه عام ، والقصة تقول: إنه كان يتوافد على ندوة السيدة سكينة رضي الله عنها شريفات المدينة، وبنات أعرق بيوتها، ولقد حدث ذات مرة أن قالت بنت عثمان ابن عفان رضي الله عنه تفخر بأبيها: «أنا بنت الشهيد». وسكت الجميع، فلم تجسر إحداهن أن ترقى بمقام أبيها، أو أخيها، أو زوجها، إلى مقام أمير المؤمنين وصهر النبي وصاحبه، ثالث الخلفاء عثمان بن عفان. غير أن الأنظار اتجهت إلى صاحبة الندوة السيدة سكينة رضي الله عنها انتظارا للرد، أولا: للحكم على ما قالت ابنة عثمان رضي الله عنه... وثانيا: لأنها كانت وقتئذ هي سيدة المدينة بلا منازع. ولكنها

ظلت صامتة لا ترد ولا تعلق على قولة بنت عثمان، حتى حان موعد الصلاة وارتفع صوت المؤذن: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله»، وعندئذ نظرت السيدة سكينة رضي الله عنها إلى بنت عثمان رضي الله عنه، وقالت موجهة الحديث إليها: «أهذا أبي أم أبوك؟» وسكتت بنت عثمان رضي الله عنها ؛ لأنها لم تجد ردا عليها.

تلك هي السيدة «سكينة» بنت الإمام الحسين، رضي الله عنهما، خير مثال للمرأة العربية المسلمة المؤمنة المثقفة... التي استطاعت أن تخلد اسمها على مر الزمن.



عبد الرحمن بن هرمز

يؤمن عبد الرحمن بن هرمز – أحد مجددي القرن الثاني الهجري، حيث توفي عام ١١٧ هـ – بأن المعرفة الموسوعية تتطلب من الراغب في جمعها إمكانية خاصة، لعلها تعني القدرة على جمع شتات العلوم المختلفة وتدوينها، ثم تبويبها وتقديمها للمتلقي في شكل ميسر يستطيع أن يتعامل معه، ويستفيد منه دون مشقة أو عناء.

ولهذا .. يفترض في الإنسان – صاحب المعرفة الموسوعية – أن يكون ملما قدر الإمكان بأطراف المعارف، حتى يستطيع أن يفاضل ويختار بينها ، ليصل في النهاية إلى الإفادة الصحيحة التي تفيد وتغني طالب العلم .. كما يفترض فيه أيضا التمتع بعقلية تحليلية تركيبية في الوقت نفسه .. تستطيع أن تحلل الأشياء للخروج منها بنتائج يمكن ضمها إلى بعض ؛ للوصول إلى معنى مطلوب، وقبل كل شيء يفترض فيه أن يكون واسع الأفق، متعدد الثقافة.

وتاريخ الثقافة العربية الإسلامية غني بأصحاب هذه المعارف الموسوعية الذين يمكن أن يقال عن الواحد منهم بأنه جامعة، أو دائرة معارف، أو موسوعة متحركة .. ومن هؤلاء الذين يتمتعون بالمعارف الموسوعية : عبد الرحمن بن هرمز.

فلا يذكر شيء عن علم النحو إلا ويذكر عبد الرحمن بن هرمز، على اعتبار أنه كان : من الأوائل الذين يرجع الفضل إليهم في وضع هذا العلم، الذي لا تزال العربية لغة وأدبا تعمل به.

ولا يذكر ذكر «الفقه» إلا ويذكر اسم عبد الرحمن بن هرمز أيضا، على اعتبار أنه كان من المتفقهين في هذا العلم، حيث صاحب أبا هريرة، وأخذ عن ابن عباس ،

وسمع الحديث عن أبي سعيد الخدري، كما تتلمذ عليه الإمام مالك إمام المدينة، وغيره من التابعين الذين كانوا فيما بعد أسسا لهذا العلم.

ولا يذكر علم الأنساب إلا ويذكر عبد الرحمن بن هرمز، على اعتبار أنه كان من العلماء الثقات في هذا العلم، وإليه ترجع كثير من المصادر لمعرفة أنساب العرب، كأساس للتاريخ لا غنى عنه.

هذا العالم الفقيه عبد الرحمن بن هرمز الذي (كنى بأبي داود) واشتهر (بالأعرج القرشى)، كان يرتبط بأسرة بنى هاشم في قريش برابطة الولاء، حيث كان ولاؤه لربيعة بن عبد المطلب عم النبى ﷺ، وكان من التابعين الأجلاء في هذه السلسلة الذهبية التي بدأت بالنبي الكريم.

هذا التابعى الجليل ولد بالمدينة المنورة، وعاش فيها وقتا كانت المدينة فيه مجتمعا للخاصة من علماء المسلمين... من الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، فكانت فرصة له أن يتتلمذ كما يذكر «ابن سعد» في (طبقاته) - على عدد كبير من الصحابة الذين أدركهم، فسمع الحديث ورواه عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري وابن عباس، ومعاوية بن أبي سفيان، وغيرهم.

على أن «السيوطى» يذكر في كتابه (حسن المحاضرة) أن عبد الرحمن بن هرمز صاحب أبا هريرة ، وحفظ القرآن على يديه، وأخذ القراءة عنه زمنا طويلا، فكانت نتيجة ذلك هذه الشخصية المتعددة الجوانب في العلوم.

ولهذا توسع في التفسير، وعرف الكثير من أحكام علم الحديث، إلى درجة أن «الذهبى» يقول في : (تاريخ الإسلام) عن عبد الرحمن بن هرمز بأنه: «كان ثقة ثبتا[1].. عالما». وهذا حكم للذهبي لا يمكن إغفاله أو تجاهله لدقة هذا المؤرخ وموضوعيته.

(١) الثبت : الحجة .

وكذلك توافر ابن هرمز على دراسة القرآن وقراءته، فكان من الثقات المثبتين يلجأ إليه الناس للقراءة عليه لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته، وعلمه ومعرفته، ولهذا تكاد جميع المراجع التاريخية تجمع في حديثها على وصف عبد الرحمن بن هرمز بالمقرئ المحدث، تقديرا له ولعلمه المتعدد الذي تفرد به دون غيره في زمانه.

وليس مصادفة أن يذكر بأنه من العلماء بالأنساب .. وكل المراجع تؤكد هذه الصفة ، ومنها ما يقوله عنه الذهبي في تاريخه: «وله خبرة بأنساب قريش»، وأن يقول السيرافي عنه :«كان أعلم الناس بأنساب قريش»، مما جعله المرجع الموثوق به في هذا الجانب من العلوم.

وليست مصادفة أيضا أن يذكر اسمه حين يذكر علم النحو، فقد كان أول من وضع علوم اللغة العربية والنحو، وإن كانت بعض المراجع والروايات تنسب هذا إلى أبي الأسود الدؤلي .. صحيح أن الأخير له الفضل في منهجة هذا العلم ، ولكن لا يمكن أن ينسينا هذا فضل من بدأ به، فحق الريادة محفوظ له.

من هذه المراجع التي تنسب أسبقية وضع علم النحو لابن هرمز .. ما رواه السيوطي: « كان ابن هرمز أول من وضع علم العربية». وذكره الزبيدي في طبقات النحويين واللغويين قائلا عن ابن هرمز: «كان أول من وضعوا أبوابا، وأصلوا أصولا للنحو واللغة، وعلى ضوئها سار من جاء بعده».

وكان ابن هرمز الأب الأول والأستاذ للإمام مالك ، كما يقول الإمام ذلك عن نفسه. ومما يذكر عن ابن هرمز أنه كان بين تلاميذه: جم التواضع، لا يغضب إذا نقده أحدهم ، معللا ذلك بقوله لتلاميذه : « دخل في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل في عقلي قبل ذلك» . وهذه أعظم رسالة للأستاذ، أن يعد تلميذه ، لا ليواصل الطريق من بعده، ولكن لكي يعبده ويطوره حتى يكون أفضل من الأستاذ .

وأما عن مجيئه إلى مصر واستقراره بالإسكندرية، فيذكر «البلاذري» في كتابه (فتوح البلدان): «أن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج القارئ خرج إلى الإسكندرية من المدينة المنورة مرابطا، ومات بهذه المدينة – الإسكندرية – عام ١١٧ للهجرة».

وعن ذلك يقول أيضا شمس الدين الذهبي في كتابه (تاريخ الإسلام): «انتقل ابن هرمز في آخر أيام حياته إلى مصر، وتوفي غريبا بالإسكندرية سنة سبع عشر ومائة على الصحيح».

وإذا كانت هذه المراجِع القديمة تؤكد وصول ابن هرمز إلى الإسكندرية ووفاته بها، فإن المراجع الحديثة - وفي مقدمتها كتاب الدكتور «جمال الشيال» (أعلام الإسكندرية)، وكتاب الدكتورة «سعاد ماهر» (مساجد مصر)، وهما من المصادر الحديثة الموثوق بها - يؤكدان أن ابن هرمز جاء الإسكندرية ومات في المكان الذي يقام عليه مسجده برأس التين في الإسكندرية.

ومن نافلة القول أن نذكر : أن الكثيرين في مصر قد استفادوا من علم ابن هرمز، حتى ولو كانت الفترة التي قضاها فيها قبل وفاته قصيرة، فمع قصرها كان علمه الواسع زادا كافيا لكل طالب علم، سواء في اللغة، أو الفقه، أو التاريخ.

* * *

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، رأس المذهب الحنفي ، من مجددي القرن الثاني الهجري حيث ولد عام ٨٠هـ وتوفي عام ١٥٠هـ ، وكما تذكر دائرة المعارف الإسلامية ومؤرخوه أنه كان عبدا مجلوبا من كابل بأفغانستان إلى الكوفة بالعراق وأطلق سراحه واحد من قبيلة عربية من تيم الله بن ثعلبة ، وغدا هو وأحفاده على هذا من موالي تلك القبيلة ، وكان أبو حنيفة يلقب أحيانا : «التيمي» . ولا نعرف عن حياته إلا القليل جدا ، فلا نعرف غير أنه عاش في الكوفة خزازا يبيع الخز . ومن المؤكد أنه حضر مجالس الدرس لحماد بن سليمان المتوفى سنة ١٢٠هـ الذي كان يدرس الفقه الديني في الكوفة . وربما حضر بمكة في ذهابه للحج مجالس عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤هـ أو ١١٥هـ . ويجب أن نتداول بحذر الإثباتات الطويلة التي دونها من ترجموا له عن الثقات الذين يقدر أنه سمع عنهم الأحاديث ، وبعد موت حماد أصبح أبو حنيفة عمدة الثقات في مسائل الفقه بالكوفة والممثل الرئيسي لمدرسة الكوفة الفقهية . وقد جمع حوله عددا كبيرا من خاصة المريدين الذين لقنهم مذهبه . ولم يل القضاء أبدا ومات في السجن ببغداد حيث دفن ، وبنيت على قبره قبة . ولا يزال الحي الذي حول الضريح يسمى الأعظمية ، وكان (الإمام الأعظم) هو اللقب الشائع لأبي حنيفة .

وقد سيقت قصة سيرته على أن الخليفة العباسي المنصور أشخصه إلى عاصمته الجديدة التي بناها وأراد أن يوليه قضاءها ، وأنه سجنه لإبائه الصريح ، وثمة رواية أخرى تقول إن الوالي الأموي «يزيد بن عمر بن هبيرة» الذي كان عاملا لمروان الثاني

عرض عليه من قبل قضاء الكوفة وضربه بالسياط مرة ومرة ليقبل ، ولكن دون جدوى . وهذه وشبيهاتها من قصص قصد بها إلقاء ضوء على نهاية أبي حنيفة في السجن ، وأن الإمام يجب ألا يكون قاضيا . وإن بدا هذا غريبا في نظر الأجيال المتأخرة . والصحيح - فيما يرجح - أنه قد يكون ورط نفسه بتلميحات ليس فيها احتراس وقت فتنة العلويين ، فتم ترحيله إلى بغداد وسجن هناك .

وأبو حنيفة نفسه لم يضع تصنيفا ما في الفقه ، ولكنه ناقش تلاميذه آراءه وأملاها عليهم . وبعض مصنفات تلاميذه هي من الأصول المعتمدة للمذهب الحنفي ، وخاصة كتاب : (اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى) و(الرد على سير الأوزاعي) لأبي يوسف ، و(الحجج) ، و(شرح موطأ مالك للشيباني) إذ إن القول بأن أبا حنيفة تلقى عن حماد يرجع أساسا إلى آثار أبي يوسف وآثار الشيباني ، وإن الموازنة بين أبي حنيفة وسلفه تمكننا من أن نقدر ما حققه أبو حنيفة في تطوير الفكر الإسلامي فقها وعقيدة .

والفكر الفقهي لأبي حنيفة أرقى كثيرا من هذا الذي كان لمعاصره «ابن أبي ليلى» (المتوفى سنة ١٤٨هـ) الذي كان يلي قضاء الكوفة في زمانه . أما عنه وعن التفكير الفقهي المعاصر في الكوفة بصفة عامة ، فإن أبا حنيفة كان له فيما يظهر شأن الواضع لأسس النظرية التي حققت تقدما كبيرا في الفكر الفقهي الاصطلاحي ، وبعده عن القضاء جعله أقل تقيدا من ابن أبي ليلى بمقتضيات التطبيق كما كان في الوقت نفسه أقل تثبيتا لبعده عن الاسترشاد بما يفيده من يمارس القضاء . ومذهب أبي حنيفة بصفة عامة مذهب متكامل متسق من حيث منهجه ، وفيه الكثير جدا من الأفكار الفقهية الجديدة الصريحة حتى إن جزءا كبيرا منها قد وجدت فيه مآخذ أنكرها تلامذته ، ولا يتميز فكره الفقهي بأنه كان أوسع أفقا في أساسه من فكر معاصريه الأكبر منه سنا ، والأكثر أخذا به من فكرهم فحسب ، بل كان أيضا أرقى اصطلاحا في أحكامه وتحوطه ولطف نظرته .

والطابع الغالب في الفكر الفقهي بصفة عامة عند أبي حنيفة هو الإمعان في التعقل ؛ مما يجعل هذا التفكير يشوبه في كثير من الأحيان شيء من الأناة والتأرجح مع قلة عناية بالتطبيق . وقد اعتمد أبو حنيفة على الرأي والقياس ، لم يجاوز في ذلك الحد المألوف عند مدارس الفقه الأخرى في زمانه ، وقد جيء على نهج ممثلي المذاهب الأخرى ، كآراء أهل المدينة ، فكان مثلهم قليل الميل إلى العدول عن مذهب السلف بالنسبة لأحاديث الآحاد ، وهي الأحاديث التي بدأت تشيع في الفقه الإسلامي في حياة أبي حنيفة في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة .

ولما أصبحت هذه الأحاديث من المسلمات لدى المعنيين بالتحديث بفضل ما جاء به الشافعي بعد ذلك بجيلين اتخذ أبو حنيفة - لأسباب وقعت اتفاقا - كبشا للفداء على اعتبار أنه يعارض الأحاديث النبوية ، كما اتخذ كذلك كبشا للفداء لقوله بالرأي في المذاهب الفقهية القديمة ، ولكثير من الأقوال التي نسبت إليه وصادفت هوى من نفوس الناس الذين جاءوا من بعده .

وقد كان لأبي حنيفة من حيث هو متكلم أيضا ، أثر كبير ، فهو أصل مأثور عام من الفقه العقائدي ، يعنى عناية خاصة بأفكار جماعة المسلمين والمبدأ الذي يوحدها وهو السنة ، وبجمهور المؤمنين الذين يتبعون طريقا وسطا ويتجنبون التطرف ، ويعتمد على الكتاب أكثر من اعتمادهم على البراهين العقلية ، وهذا المأثور يمثله كتاب (العالم والمتعلم) الذي ينسب خطأ إلى أبي حنيفة ، و(الفقه الأبسط) الذي نشر بين تلامذة أبي حنيفة ثم في أعمال المتكلمين الحنفيين بعد ذلك .

وقد أراد أعداء أبي حنيفة المتأخرون أن ينتقصوا من قدره، فلم يكتفوا بأن رموه بالآراء المسرفة المستقاة من أقوال المرجئة ، بل تجاوزوا ذلك فرموه بجميع أصناف المبادئ المارقة التي لا يمكن أن يكون قد اعتنقها . مثال ذلك : أنهم نسبوا إليه القول بأن النار ليست خالدة ، وهو قول من أقوال الجهمية التي عارضها أبو حنيفة

صراحة في الفقه الأكبر ، كما نسبوا إليه أنه قال إن الخروج على الحكومة ليس فيه ما ينافي الشرع ، وهو مذهب يخالف مخالفة مباشرة ميول أبي حنيفة كما يتبين ذلك من (العالم والمتعلم) ، بل قد رمي بأنه من المرجئة الذين يؤمنون بالسيف (وهو أمر مخالف لشيمته) ، وربما كان هذا الاستنتاج اعتمد فيه على رأيه أيام فتنة النفس الذكية .

وقد برز من أعقابه في الفقه ابنه حماد وحفيده إسماعيل قاضى البصرة والرقة المتوفى سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م) . ونذكر من تلاميذه الأكثر أهمية «زفر بن الهذيل» المتوفى سنة ١٦٥هـ (٧٨١ – ٧٨٢م) و«أبا يوسف» و«أبا مطيع البلخي» ، و«الشيباني» و«أسد بن عمرو» المتوفى سنة ١٩٠هـ (٨٠٦م) و«حسن بن زياد اللؤلئي» المتوفى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩ – ٨٢٠م) ، وكان يقدره أعظم التقدير من بين المحدثين «عبد الله ابن المبارك» المتوفى سنة ١٨١هـ (٧٩٧م) .

وبازدياد سلطان الأحاديث جمع أتباعه ابتداء من يوسف بن أبي يوسف أحاديث الرسول التي استشهد بها أبو حنيفة في تدليله الفقهي ، وحين أخذت الأخبار الموضوعة في الشيوع ، وهو مظهر خاص من المظاهر التي شابت الفقه الإسلامي زاد أيضا عدد الأحاديث الموضوعة إلى أن قام أبو المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي المتوفى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧م) بجمع خمس عشرة رواية مختلفة من الأحاديث التي رواها أبو حنيفة في كتاب واحد ، هو (جامع مسانيد أبي حنيفة).

* * *

الأوزاعـي

فقيه أهل الشام : الإمام الأوزاعي، أحد مجددي القرن الثـاني للهجـرة، المتـوفى عام ١٥٧ هجرية والذي كان حجـة وعلامـة في الفقـه والحـديث والعلـم في عـصره ومكانه بالـشام، والمعـروف في التـاريخ الإسـلامي باسـم عبـد الـرحمن بـن عمـرو الأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي : بطن من بطون همدان.

تلقى ثقافته الأولى باليمامة ، فسمع من يحيى بن أبي كثير وغيره من مشايخ أهـل اليمامة. ونال اهتمام المستشرقين في الشرق والغرب ؛ حيث قال عنه المستشرق الألماني «شخت»: إنه ولد في الشام وتلقى علومه في اليمامة ، وهذه الروايـة تطـابق مـا قالـه (ابن سعد) في الطبقات وعليها نعتمد، وقد مارس بعض الوظائف لـدى الحـاكم في اليمامة، وبعدئذ جاء إلى بيروت حيث دفن في (قرى حنتوس) قرب بيروت، وقـبره اليوم معروف.

ولعلنا نقرأ معا ما كتبه الأستاذ «زهدي يكن» إلى جانب غيره من المصادر لمزيد مـن التعـرف على هـذا المجـدد الذي علم نفسـه، فلم يكـن أعقــل منـه، ولا أروع ولا أعلم، ولا أفصح، ولا أوفر، ولا أحلم، ولا أكثر صمتا منه، ما تكلم بكلمـة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

وقد وصفه «ابن سعد» فقال: ثقة، مأمون، صادق، فاضل، خير، كثير الحديث، في العلم والفقه ، حجة. وقد أدرك خلقا من التابعين وغيرهم، وحـدث عنـه جماعـة من السادات، «كمالك بن أنس» و«سفيان الثوري»، وأثنى عليه غير واحد مـن كبـار الأئمة منهم «الزهري»، وهو من شيوخه. وأجمع الناس على عدالته، وأمانته.

ويكفينا شهادة ما قاله عنه مالك رضي الله عنه: «كان الأوزاعي إماما يقتدى به». وقال «سفيان بن عيينة»: «كان الأوزاعي إمام أهل زمانه، وقد حج مرة، ودخل مكة، وسفيان الثوري أخذ بزمام جمله، ومالك بن أنس يسوق به، والثوري يقول: أفسحوا للشيخ، حتى أجلسه عند الكعبة، وجلسا بين يديه يأخذان عنه». إن هذه الرواية تدل على مكانة الأوزاعي لدى فقهاء زمانه وعلمائه. وأما ما رواه البعض أن مالكا والأوزاعي قد تذاكرا مرة في المدينة من الظهر حتى صليا العصر ومن العصر حتى صليا المغرب، فغمره الأوزاعي في المغازي، وغمره مالك في الفقه، نعتقد أن هذا مبالغة من الرواة كما حققه المستشرق «شخت» في أحد مباحثه عن الأوزاعي. وأما ما رواه يحيى القطان عن مالك: بأنه قد اجتمع عنده الأوزاعي ، والثوري، وأبو حنيفة فقال مالك بعد سؤاله من يحيى عن أرجحهم بأنه الأوزاعي، فنظن أن ذلك من الروايات الضعيفة، ونأخذ بقول يحيى بن معين، بأن العلماء أربعة: سفيان الثوري، وأبو حنيفة، ومالك، والأوزاعي.

إن الأوزاعي بالإضافة إلى أنه كان إماما بالفقه، ثبتا، وحجة ، كان ثقة باللغة لا يلحن ، وله رسائل إلى الولاة، وإلى الخليفة المنصور الذي كان ينظر فيها ويتأملها، ويعجب من فصاحتها، وحلاوة عباراتها.

وقال «المنصور» على ما رواه «ابن كثير» في (البداية والنهاية) لسليمان بن مخلد، وهو أحظى كتابة: «ينبغي أن نجيب الأوزاعي على كتبه لنستعين بكلامه فيما كتب».

ويقول «الوليد بن مسلم» كما في (صفوة الصفوة) لابن الجوزي : «ما رأيت أحدا أشد اجتهادا من الأوزاعي في العبارة».

ومن كلامه: «عليك بآثار السلف، وإن رفضك الناس، وإياك وأقوال الرجال وإن زخرفوه وحسنوه».

وقال أيضا: «اصبر على السنة، وقف حيث يقف القوم، وقم ما قاموا، وكف عما كفوا، وليسعك ما وسعهم».

وقال: «العلم ما جاء عن أصحاب محمد، وما لم يجئ عنهم فليس بعلم».

وقال: «إذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم باب الجدل، وسد عنهم باب العمل».

وهذا يدل دلالة واضحة ناصعة بأنه من: رجال الحديث الذين يكرهون القياس بما فيه نقاش وجدل.

ويشير الأستاذ «زهدي يكن» إلى مذهب الأوزاعي فيذكر: كان أهل الشام يعملون بمذهبه، وكان قاضي الشام أوزاعيا، أي على مذهب الأوزاعي، وكان السوريون يفتون بأقواله؛ فصح عليه لقب فقيه أهل الشام.

وقد انتقل مذهب الأوزاعي إلى المغرب، ومنه إلى الأندلس الإسلامية إلى أن اضمحل وحل محله مذهب الإمام مالك الذي أدخله إليها أبو عبد الله زياد ابن عبد الرحمن القرطبي، فقيه الأندلس الذي سمع من مالك وكتابه «الموطأ»، وله عنه في الفتاوى كتاب معروف في منتصف القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وبقي في سوريا معمولا به حتى نهاية القرن السادس الهجري.

ومن مؤلفات الأوزاعي التي أملاها على تلامذته كثيرة قد أحصى منها صاحب «الفهرست» كتاب (السنة) في الفقه وكتاب (المسائل الفقهية)، والأرجح أن هذين الكتابين لم يبقيا على أصلهما. وأما (مسند الأوزاعي) الذي أشار إليه «حاجي خليفة» فيحتمل أنه قد نسب إليه بتاريخ لاحق كما هو في مؤلفاته الأخرى.

وفي تونس هناك مسند للإمام «الأوزاعي» مخطوطا بجامع القيروان.

أما آراء «الأوزاعي» فقد أشير إليها بتفصيل في الرد على «سير الأوزاعي»، لأبي يوسف: كذلك نرى أثرا لهذه الآراء في كتاب «الأم» للشافعي، وفيه مناقشات

لآراء الإمام أبي حنيفة. وقد عثر في القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) على كتاب (سير الأوزاعي) وضعه أحد تلامذته. وبصورة عامة: فإن آراء الإمام الأوزاعي تمثل السنة التقليدية في الفقه الإسلامي.

وكانت للأوزاعي مكانة لدى الخلفاء والحكام، وكانوا لا يؤخرون له طلبا، وقد تشفع في السجناء السياسيين المعتقلين في بيروت إلى الخليفة المنصور كما رواه ابن أبي حاتم، فقبلت شفاعته. وهو من ناحية السياسة كان في غاية الحياد بعيدا عن أجواء السياسة محترما ومكرما، فلم يداهن الأمويين ولم يتملق العباسيين.

وأما قصة مقابلة الإمام الأوزاعي لعبد الله بن علي، عم الخليفة العباسي السفاح الذي أجلى بني أمية عن الشام فهي - بنظر المحققين - قصة خيالية. وخلاصة هذه القصة للفائدة:

لما دخل عبد الله بن علي دمشق، بعد أن أجلى بني أمية عنها، طلب الأوزاعي، فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه. قال الأوزاعي: «دخلت عليه وهو على سرير وفي يده خيزرانة، والمسودة عن يمينه وشماله، معهم السيوف مصلتة، وأيضا الغمد الحديد، فسلمت عليه فلم يرد، ونكت (نكت الأرض : ضربها بالعصا) بتلك الخيزرانة التي في يده ثم قال: «يا أوزاعي ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدي أولئك الظلمة عن العباد، والبلاد؟، أجهاد ورباط هو؟»». فقلت:

«أيها الأمير، سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول، سمعت محمد بن إبراهيم التيمي يقول، سمعت علقمة بن فاص يقول،سمعت عمر بن الخطاب يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

فنكت بالخيزرانة أشد ما ينكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : «يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية؟» فقلت : «قال رسول الله ﷺ : **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، النفس بالنفس والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

فنكت بها أشد من ذلك، ثم قال: ما تقول في أموالهم؟ فقلت : «إن كانت في أيديهم حراما فهي حرام عليك أيضا، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعي».

فنكت أشد ما كان ينكت قبل ذلك ثم قال : «ألا نوليك القضاء؟». فقلت:

- «إن أسلافك لم يكونوا يشقون علي في ذلك، وإني أحب أن يتم ما ابتدأوني به من الإحسان». فقال: «كأنك تحب الانصراف؟» . فقلت: «إن ورائي حرما، وهن يحتجن إلى القيام عليهن وسترهن، وقلوبهن مشغولة بسببي».

قال الأوزاعي: انتظرت رأسي أن يسقط بين يدي، فأمرني بالانصراف، فلما خرجت، إذا برسوله من ورائي، وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير : استنفق هذه، وتضررت منها، وإنما أخذتها خوفا.

هذا .. ولما رحل الأوزاعي عن دمشق، نزل بيروت مرابطا بأهله وأولاده. قال الأوزاعي: وأعجبني في بيروت أني مررت بقبورها ، فإذا بامرأة سوداء في القبور، فقلت لها: أين العمارة؟ فقالت: «إن أردت العمارة فهي هذه» وأشارت إلى القبور، وإن كنت تريد الخراب، فأمامك، وأشارت إلى البلد.

ولقد اختلفوا في سنة وفاته ، فمنهم من قال سنة ١٥٠ هـ ، وقال العباس ابن الوليد البيروتي: توفي يوم الأحد أول النهار لليلتين بقيتا من صفر سنة ١٥٧ هـ

(1) البخاري/ باب الديات/ 6 .

(٧٧٤م) وهذا التاريخ هو الذي اتفق عليه الجمهور وهو الصحيح، وقد عاش سبعا وستين عاما، ودفن حيث هو الآن..

ورثاه بعضهم بالأبيات الآتية:

جاد الحيا بالشام كل عشية ... قبرا تضمن لحده الأوزاعي
قبر تضمن منه كور شريعة ... سقيا له من عالم نفاع
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعا ... عنها بزهد أيما إقلاع

وينبهنا الأستاذ «زهدي يكن» إلى أن هذه هي سيرة فقيه أهل الشام، الإمام الأوزاعي الذي كان من أكرم الناس، وأسخى الناس، ما أمسك شيئا من دراهم ولا اقتنى من عقار ولا غيره، ولا ترك يوم مات سوى سبعة دنانير كانت جهازه، وكان ينفق ما دخل عليه في سبيل البر، وعلى الفقراء، وعلى المساكين.

هذه سيرة فقيه الشام الذي دخلت تفاصيل مذهبه في عالم الإهمال، وعالم النسيان. وأما ما نراه في الطبقات الكبرى لابن سعد، وفي تقدمة المعرفة، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ، وحلية الأولياء لابن نعيم ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وفي تهذيب الأسامي للإمام النووي ، وتذكرة الوعاظ للذهبي ، والبداية والنهاية لابن كثير، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، والمنظم لابن الجوزى، فإنها لا تغني شيئا، لعدم احتوائها على آراء الأوزاعي ومذهبه بالتفصيل كما حوت كتب المذاهب الأخرى.

غير أننا عرفنا بعض آرائه في المراجع التي ذكرناها قبلا ، ككتاب (الأم) للشافعي، وكتاب : (الرد على سير الأوزاعي) لأبي يوسف. وإنما هذا نزر يسير.

ومن الغريب .. أن يختفي هذا الصرح العلمي - أي مذهب الأوزاعي - الذي انتشر في سوريا وفي المغرب حتى كان المذهب الوحيد فيه وفي الأندلس الإسلامية،

وأن لا يتوافر العلماء على حفظ مؤلفاته وآثاره لضمها إلى مجموعة الآثار التي تركها لنا السلف .

إن هذا الإهمال من رجالنا في دراسة سير عظمائهم، يمتد مع الأسف إلى دراسة الشريعة الإسلامية نفسها، تلك الشريعة الغنية بنظمها ومتانة قواعدها، والتي كفلت ضبط علاقات الناس وسلوكهم أجيالا طويلة، بلغ في خلالها الفقه الإسلامي ذروته من البحث، وعمق التفكير ودقة الأسلوب، سواء في ذلك القواعد المدنية والأحوال الشخصية والقضايا الجزائية.

إن هذا البناء العلمي المتين الدقيق الذي ساد العالم الإسلامي ونظم أحوال شعوبه، وضبط علاقات أفراده، في عصر كان فيه الظلام مخيما على العالم خلال القرون الوسطى، لم ينل نصيبه من البحث والدراسة في بدء العصور الحديثة من جهود العلماء أو رجال القانون خاصة العرب منهم.

ولعل في رجالنا من تتجه نيته : لإحياء تراثنا الفقهي - ومنه مذهب الإمام الأوزاعي - فيظهر في أسلوب يتفق دائما مع البحث العلمي الجديد، وعسى أن تتحقق الآمال بعون الله وتوفيقه.

* * *

الإمام الليث

في قرية متواضعة من قرى دلتا النيل بمصر، تسمى: «قلقشنده» من أعمال محافظة القليوبية الآن، وتبعد عن القاهرة بما لا يزيد على العشرين كيلومترا، ولد الإمام الليث بن سعد أحد مجددي القرن الثاني الهجري أو بالتحديد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة. حيث قدر لهذا الوليد أن يفتح عينيه على غنى وثراء غير عادي لأبيه، الذي كان يملك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي تدر عليه الكثير من المحاصيل والفواكه .. ولهذا نشأ هذا الطفل في بحبوحة من الرزق، وسعة من المال، إلى جانب هذا: التزام الأسرة بالمحافظة على تعاليم الإسلام، ومنها أن يعم خيرها ورزقها على الناس، حيث يكون هذا الخير وذلك الرزق فيه النفع للجميع.

ولعل ذلك جميعه جعل والده لا يضن على الفتى بالتعليم، فلا يقتصر تعليمه على ما يتلقاه من قراءات بسيطة في إقليمه، وإنما يرسله إلى أكبر دور العلم في زمانه: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط، حيث كان يعج وقتئذ بالعلماء والفقهاء، ومن بينهم التابعون وتابعو التابعين حتى يتلقى الفتى علما وفقها على أيدي أعلم أهل زمانه.

كان العلم وقتئذ ينقسم في جملته وتفصيله بين رجلين: رجل يتمسك بنصوص القرآن والسنة، ويفتي في أمور الدنيا بما يجد في هذين المصدرين من نصوص منطبقة تماما على ما يريد، فإن لم يجد آثر السلامة بعدم الإفتاء في شيء. ورجل آخر كان يقرأ الكتاب والسنة ويتدبرهما تماما، وبعد ذلك يجتهد حين كانت تواجهه أمور مستحدثة في بيئة جديدة غير البيئة التي ظهر فيها الإسلام ونشأ، أو حالات طارئة لم تكن من قبل .. هنا كان على هذا الرجل أن يجتهد قياسا على ما جاء في القرآن والسنة.

طبيعي .. أن يلحظ الليث بن سعد ذلك ويتأمله ؛ ليخرج بنتيجة على قدر كبير من الأهمية ، مؤداها أن المتمسكين بالنصوص لا يخرجون عنها ، حيث يتشددون تشددا قد يستحيل معه مواجهة مطالب الحياة المستحدثة التي لم يرد في حكمها نص قطعي ، وأصحاب الرأي والاجتهاد يتساهلون تساهلا قد يدعو أحيانا إلى الخطإ في الحكم ، أو إحداث الاضطراب في الفتيا .

وهنا رأى طالب العلم الليث بن سعد أن يستقل بالنظر الخاص به ، انطلاقا من واقع الحال الذي يعلن عن أن المتشددين بالنصوص يعتمدون على الآية الكريمة : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1] . وهذا أمر حق .

وأن أصحاب الرأي والاجتهاد يقولون : إن الرسول ﷺ قد اجتهد، وصحابته اجتهدوا في حياته . وهذا حق أيضا .

هنا سأل طالب العلم الليث بن سعد نفسه : إذا .. لماذا الغلو في الاقتصار على النص أو الاعتماد على الرأي ؟ خصوصا وقد تبين أن النصوص ليست ظاهرا فحسب ، أو كلمات فقط ، بل هي روح ، لها دلالات وعلل ، ومعان ، والإنسان قد شرفه الله عز وجل بنعمة التفكير ، فعليه أن يفكر ويتدبر ، ويتأمل أسرار الكلمات ، ظاهرها وباطنها . ولن يتأتى ذلك إلا للذين يتقنون اللغة العربية ، ويقفون على أسرار بلاغتها . وهنا يستطيع الواحد منهم أن يدرك ويفهم ما تهدف إليه النصوص من ناحية وتعنى به في ظاهرها وباطنها من ناحية أخرى ، ثم إن للأحاديث تفسيرات كثيرة لما جاء به في القرآن الكريم . وتفصيلا لما أجمله هذا الكتاب ، وتباينا لما خفي منه على المدارك والعقول من ناحية أخرى .

(1) النساء : ٨٣ .

لذلك كله .. رأى الليث بن سعد أن يتخذ له مذهبا وسطا بين أهل النصوص وأهل الرأي والاجتهاد ، وأخذ يذيع عنه هذا المذهب بين زملائه من طلاب العلم في جامع عمرو بن العاص في مواجهة الشيوخ الذين يمثلون الاتجاهين معا . والتف الطلاب حوله وكان من العجيب أن يحدث هذا الشاب وهو في مقتبل العمر ، حيث لم يصل بعد إلى سن العشرين ، والأكثر أن يحدث أكثر من هذا ، حيث بدأ الناس يستفتونه - ثقة فيه - فيفتيهم ، ويرضون عن فتياه .

حتى إذا خرج للحج والعمرة ، وزار المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، والتقى هناك بعلماء الإسلام وفقهائه الوافدين للحج من كل حدب وصوب في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وتبادل معهم الرأي والمشورة ، عندئذ تبين له أنه على صواب فيما هو يفكر فيه ، فالإسلام يجل العقل ويقدر منجزاته .

وفي الحجاز ، يلتقي بالإمام مالك بن أنس رضي الله عنه ، وتبدأ بينهما علاقة فكرية لم تنته إلى آخر حياتهما ، فقد كانا في عمرين متقاربين إلى جانب أنهما كانا يتلمسان حثيثا الطريق إلى العلم والتفقه في الدين ، الليث بن سعد في مصر ، ومالك ابن أنس في الحجاز .

ويعود » الليث « إلى مصر ، ويبني دارا كبيرة بالفسطاط بجوار مسجد عمرو ابن العاص ، وكان لهذه الدار نحو عشرين بابا ، ملأ غرفها الكثيرة بكل ما استطاع أن يصل إليه من خيرات الدنيا إلى جانب الكتب ، وفتح هذه الدار لطلاب العلم وأصحاب الحاجات والفقراء والمساكين وكان يقوم الليل إلا قليلا ، حتى إذا أقبل الفجر خرج على فرسه إلى مسجد عمرو بن العاص لحضور الحلقات وحفظ الدروس ، وبعد أن يفرغ من درسه وبحثه وصلاته وعبادته كان يرجع إلى عمله ليظل مستغرقا فيه ، حتى إذا أقبل العصر ارتدى أجمل ثيابه وتعطر وتطيب ومشى في الحدائق والأسواق مستمتعا ما شاء له الاستمتاع حتى يرجع إلى داره ليجد من

يستفتيه في أمر دينه فيفتيه ، وهكذا كانت حياته موزعة بين العمل والعبادة والدرس والفتيا .

وسمع إمام المدينة مالك بن أنس بما يصنعه صديقه إمام أهل مصر الليث ابن سعد ، فكتب إليه رسالة يعاتبه فيها ويرد عليه في رسالة مماثلة ، والرسالتان تشتملان على آراء ومواقف مختلفة في أمور عديدة بين هذين العالمين الجليلين ، لكن على الرغم من ذلك فقد جاءتا آية مشرقة من آيات الحوار العف الذي يحتاج إليه فكرنا الديني في كل زمان ومكان .

وحسبنا أن نتحرى من الرسالتين سجلهما ابن القيم الجوزية في كتابه : (أعلام الموقعين) بعض العبارات القصيرة ، التي تكشف لنا عن هذا الأدب الرفيع بين العلماء ، والذي نعرفه اليوم بأدب الحوار .

من جملة ما كتب الإمام مالك للإمام الليث بن سعد : « بلغني أنك تأكل الرقاق وتلبس الرقاق وتمشي في الأسواق » .. فرد عليه الإمام الليث بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾[1] .

ثم يرد إمام مصر الليث بن سعد على إمام دار الهجرة مالك بن أنس على بعض ما أثاره من مسائل فقهية كان قد أفتى بها في مصر ، فيقول الإمام الليث : « وإنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم وإني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به . وإن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني الموقع الذي تحب وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا أخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني . والحمد لله رب العالمين ولا شريك له » .

(1) الأعراف : ٣٢ .

ثم يذكر الإمام الليث الإمام مالك باجتهاد الصحابة ، حيث تفرقوا في الأمصار ، فيقول : « وأما ما ذكرت من قول الله تعالى :

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾(1) .. فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، فجندوا الأجناد ، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان في كل جند منهم طائفة ، يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة » .

كذلك يذكره باختلاف التابعين وأتباعهم ، فيقول : « ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ ، ومنهم «سعيد بن المسيب» ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم ، فحضرتهم بالمدينة وغيرها ، ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن » .

كما يذكره باختلاف هذين التابعين لأستاذهما : « وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قد مضى ما قد عرفت ، وحضرت وسمعت قولك فيه ، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة : « يحيى بن سعيد ، وعبيد الله بن عمر ، وكثير بن فرقد » ، وغيرهم كثير ممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه. وذاكرتك أنت ، وعبد العزيز بن عبد الله بعض ما نعيب على ربيعة بن أبي عبد الرحمن من ذلك ، فكنتما من الموافقين تكرهان منه ما أكره .. » إلى آخر هذه الرسالة المهذبة التي اشتملت في الوقت نفسه على رد مقنع للإمام الليث على ما جاءت به رسالة الإمام مالك من مسائل ناقشها ورد عليها .

(1) التوبة : ١٠٠ .

وفي رسالة الإمام مالك ما يشير إلى أن الإمام الليث يستمتع بطيبات الحياة : «بلغني أنك تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق .. » . وإذا كان الأمر كذلك فهو لم يستمتع وحده بهذه الطيبات ، فقد كان يوزع المال والطعام والثياب على أهل العلم ، وكل من يعرف أنه صاحب حاجة ، فكان يطعم في اليوم ثلاثمائة من الفقراء والمساكين غير الأهل والأصدقاء . وإذا جاءه خراج مزارعه كان يجلس أمام داره وقد جعل المال في صرر حتى يوزعها جميعا .

ومن أجل ذلك ، نادى بأنه ليس من حق أحد أن يحتفظ بمال إلا إذا بلغ الناس حد الكفاية . إذ لا يستحب وقد لا يجوز أن يكون هناك أغنياء مترفون في الإسلام ويجاورهم فقراء معدمون لا يجدون حتى ما يسد أقواتهم .

وسمع الخليفة العباسى المنصور عن الإمام الليث ، فاستدعاه إلى العراق وكان لهذا الخليفة ولع كبير بالعلم والأدب برغم ما كان يحيط به من بطانة السوء ، فناظره المنصور وأعجب به وعرض عليه ولاية مصر ، ولكن الإمام الليث – وقد نذر نفسه للتفرغ للعلم – اعتذر بلباقة جعلت المنصور يقول له : « لقد أعجبتني .. أكثر الله في الرعية من أمثالك » ونصح علماء العراق أن يذهبوا إليه ويأخذوا عنه .

وحين قام أحد الولاة في مصر بهدم الكنائس اعترض عليه الإمام الليث بأن هذا ليس من تعاليم ديننا الإسلامي . وطلب منه أن يكف فورا عن ذلك ، ولما رفض الوالي كتب الإمام الليث لأمير المؤمنين بالعراق طالبا عزل هذا الوالي ، لأنه في حكم الإسلام متبرع لأمر يخالف به الإسلام ، فعزله أمير المؤمنين .

وفيما يروى : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد جرى بينه وبين زوجته «زبيدة» حديثا قال فيه : « أنت طالق إن لم أدخل الجنة » ، وندم على ما فعل وجمع فقهاء العراق والحجاز لحل هذه المشكلة فعجزوا ، فاستدعى من مصر الإمام الليث وطلب منه الإمام أن يحضر مصحفا ففعل الرشيد . وقال له الإمام : « تصفحه

يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها » ففعل الرشيد حتى إذا انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[1] قال الإمام الليث : « أمسك يا أمير المؤمنين وقل : إني أخاف مقام ربي » فقال الرشيد ذلك . وهنا قال الإمام الليث : « هما جنتان يا أمير المؤمنين وليست بجنة واحدة » ، فقال الرشيد « أحسنت والله » .

هكذا عاش الإمام الليث بن سعد حياة عريضة فيها تعلم وعلم ، أخذ وأعطى، قرأ وكتب .. ولم ينقطع يوما واحدا عن حلقته بمسجد عمرو بن العاص .. حتى بلغ الثانية والثمانين . عندها فارق الحياة . بعد أن ملأ الدنيا وشغل الناس . ودفن في المكان المقام عليه في مسجده في شارع الإمام الليث بالقاهرة وكان قبره كالمصطبة . وفيما يذكر المقريزي بخططه : إن قبر الليث كان مصطبة كتب عليها ما نصه : « هنا الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد ، رضي الله عنه مفتي أهل مصر » .



(1) الرحمن : ٤٦ .

الإمام مالك

الإمام مالك بن أنس ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة من أهل السنة (مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة عليهم رضوان الله) من مجددي الإسلام في القرن الثاني للهجرة ، حيث ولد عام ٩٣هـ ، وتوفي عام ١٧٩هـ ، عن عمر يناهز الستة والثمانين عاما .

هذا الإمام الجليل عاش ، وحدث ، ومات في المدينة المنورة حيث لم يبارحها طوال حياته ، ولذلك فقد لقب بإمام دار الهجرة تيمنا بالمدينة التي هاجر إليها النبي ﷺ وصحابته فرارا من إيذاء أهل مكة .

وطبيعي .. أن يكون للإمام مالك – وهو رأس المذهب المالكي – مؤلفات ورسائل أهمها كتابه العمدة المعروف بـ (الموطأ) ، الذي يعتمد عليه ويرجع إليه أتباع مذهبه المالكي أول مذاهب السنة انتشارا في العالم الإسلامي ، حيث كان من نتيجة ذلك : أن أصبح سائدا في الشمال الإفريقي منذ ما بعد منتصف القرن الثاني للهجرة، إلى اليوم.

والجدير بالذكر ، أن الإمام مالك يتميز عن غيره من الأئمة الأربعة بأنه تلقى العلم والفقه على أيدي كثير من التابعين رضى الله عنهم ؛ وذلك بسبب نشأته ووجوده بينهم في المدينة المنورة ، بعد رحيل صحابة رسول الله ، ولهذا فقد كانت فتاويه وآراؤه الفقهية موضع اهتمام بقية الأئمة على اعتبار اجتهاده وتجديده وآرائه تعتبر سابقة على غيره من المجددين باستثناء الذين وجدوا من قبل في القرن الأول الهجري ، والذين أشرنا إليهم في فصل سابق من هذه الموسوعة .

والتاريخ الشخصى لهذا الإمام الجليل يسجل بأنه : كان محدثا وفقيها يتحرى في الرواية والفتوى الدقة والموضوعية . خاصة في الرجوع إلى الأحاديث النبوية حيث لا يأخذها عن ذوي هوى مبتدع ، ولا من شيخ لا يعر ف ما يحمل من فقه يحدث به، ولا من سفيه ، ولا من كذاب .. وهو منهج نلمحه في ثنايا وصفحات كتابه «الموطأ»، وبقية كتاباته تلك التي جمع فيها ما تأكد من صوابه وصحته من الأحاديث النبوية الشريفة .

كذلك نلمح في كتابه : (الموطأ) وغيره من الكتابات التي تنسب إليه أنه رضى الله عنه كان يأخذ من اجتهاده وفتاويه ، بما جاء بالكتاب والسنة والإجماع ، وروايات أهل المدينة على اعتبار أنهم كانوا أقرب عهدا إلى عصر النبوة والصحابة والتابعين : يضاف إلى ذلك استخدامه الأدوات الخاصة به مثل القياس والاستحسان ومراعاة المصالح المرسلة ، إلى آخر هذه الأدوات والوسائل المستخدمة في اجتهاده وتجديده ، ولذلك فقد انتشر مذهبه في أغلب البلاد العربية والإسلامية بعد أن انتقل كعلم وفقه من المدينة المنورة في صدور أتباعه ومريديه إلى مصر ، والشمال الإفريقي ، والأندلس المسلمة ، وبعض أمم الشرق الإسلامي مثل خوارزم وبلاد ما بعد النهر وبخارى .. وغيرها وذلك لقيام هذا المذهب ببعض الحلول للمشكلات والأزمات التي نشأت بعد رحيل النبي ﷺ ، وصحابته عليهم رضوان الله ؛ نتيجة لاتساع رقعة العالم الإسلامي شرقا وغربا .. فطبيعي أن تنشأ المشكلات التي تعترض المسلم ، وما تتطلبه من حلول مناسبة .

والإمام مالك كان على غرار من سبقوا من الصحابة أو التابعين ويشبههم في أمور منها : عدم التشدد في أمور لا تقتضى ذلك ، وعدم التعصب لرأي قاله في يوم من الأيام ، وظهر ما يناهض هذا الرأي ، وربما يكون أكثر فائدة لجمهور المسلمين مقتديا بذلك بما كان يفعله صحابة رسول الله : عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين حين أراد الخليفة عمر رضي الله عنه ألا يوزع الأراضي

المفتوحة على المقاتلين من بين المسلمين ، وكان موضوع الخلاف مثيرا لتفسير آيات عديدة من القرآن الكريم ، وكان يحمل في طياته مصالح كبيرة لفئات يتفاوت نصيبها من الثروة والحاجة إلى المال ، فما اشتد عمر رضى الله عنه في كلمته ، وما عنف أحدا من الصحابة في عبارة ، وما انتقل الحوار من شواهد الرأي وأدلته ، إلى بواعث أصحابه ودوافعهم ، وإنما تبادلوا رأيا برأي ، وحجة بحجة ، حتى اقتنع الصحابة قائلين للخليفة عمر بعد الحوار الطويل : « نعم ما قلت وما رأيت » .

لقد اقتدى الإمام مالك بأسلوب هؤلاء الصحابة الأجلاء رضي الله عنهم ، وذلك حين حاور الإمام الليث بن سعد إمام مصر ، ولم يقل إذا كان الليث إمام مصر فأنا إمام مدينة رسول الله ﷺ ، لم يقل هذا أو غيره ... وقد جاء هذا الحوار في أثر رائع مكتوب حول عديد من قضايا الإسلام تبادلاه الإمامان في رسالتين مشهورتين ، اشتملتا على أدب رفيع ، وآية مشرقة من آيات الحوار الهادئ الراقي الذي نحتاج إلى مثله اليوم كما يقول الأستاذ الدكتور/ «أحمد كمال أبو المجد» .

يقول الإمام مالك في مطلع رسالته إلى الإمام الليث : « واعلم - رحمك الله - بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة لما عليه الناس عندنا - أي بالمدينة المنورة - وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك مصر وحاجة من قبلك إليك ، واعتمادهم على ما جاءهم منك حقيق بأن تخاف على نفسك ... » إلى أن يقول مخاطبا الإمام الليث : « فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك ، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت إليك به إلا النصيحة لله وحده ، والنظر لك ، والضن بك .. فأنزل كتابي منزلته ، فإنك تعلم أني لم آلك نصحا » .

ويجيب الإمام الليث بن سعد على رسالة الإمام مالك بمثلها قائلا : « قد أصبت بالذي كتبت به من ذلك .. وقع مني بالموقع الذي تحب وترضى » . ثم يقول: « وقد بلغنا عنكم شيء من الفتيا .. وقد كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتابي ،

فتخوفت أن تكون قد استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب إليك في شيء مما أنكرت ، وفيما أوردت فيه على رأيك » . ثم يمضي الإمام الليث مخالفا الإمام مالك في العديد من آرائه وفتاويه في وضوح وصراحة لا مداورة فيهما ولا مجاملة على حساب الحق إلى أن يختمها بقوله : « وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إلا إذا ذهب بتلك مع استثنائي بمكانك ، وإن نأت الديار ، فهذه منزلتك عندي ، ورأيك في فاستقينه ، ولا تترك الكتابة إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يوصل بك ، فإني أسر وأفرح بذلك » .

أقول متفقا مع الدكتور « أحمد كمال أبو المجد » في تعليقه على الرسالتين .. ما أحوجنا إلى الاقتداء بهذا الحوار الذي تم بين هذين الإمامين الجليلين ، حتى يفيء إلى أدب الإسلام في الحوار أولئك الذين ينصبون من أنفسهم أوصياء على الناس ، الذين ساد بسببهم فكر يحاصره الخوف من إرهابهم ، فكر جوهره التشدد ، وأساسه التوسع في سد الذرائع .. حتى جمد المسلمون ، والأخطر عزف العلماء عن الخوض في كثير مما يحتاج الناس فيه إلى اجتهاد وتجديد ، حتى ماتت بسبب ذلك أفكار أو ظلت حبيسة الصدور لا تقوى على الظهور ، وأقفلت أبواب الحوار بالتي هي أحسن ، لتفتح - بدلا منها - ساحات الصراع والشغب ، ساحات ظاهرها الشفقة والرحمة ، وباطنها الضياع والعذاب .. مما كانت نتيجته ولا شك تخلف المسلمين وتأخرهم عن غيرهم ..

أقول مرة ثانية وثالثة ورابعة : ما أحوجنا إلى مثل هذا الحوار الذي جرى بين هذين الإمامين الجليلين : مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، لما له من فائدة كبرى في حياتنا المعاصرة .

* * *

هـارون الرشـيد

أمـير المؤمـنين : هـارون الرشـيد بن المهـدي الذي ينتهـي نـسـبه إلى عبــد الله ابن العباس ، يعتبر من مجددي القرن الثاني الهجري ، حيث ولد في الري ، حين كـان أبوه المهدي أميرا عليها وعلى خراسان سنة 148 هــ ، واسـتخلف بعهـد أبيـه أمـير المؤمنين المهدي عند موت أخيه أمير المؤمنين: الهادي في 14 ربيع الأول عام 170هـ، ليلة أن ولد فيها ابنه أمير المؤمنين بعد ذلك المأمون ؛ حتى قيل إنه لم يحـدث في سـائر الزمان أن مات فيها خليفة ، وقام خليفة ، وولد فيها خليفة إشارة إلى مـوت الهـادي وتولي الرشيد وولادة المأمون – إلا في هذه الليلة بالذات .

كان الرشيد من أعظم الخلفاء ، وأجل ملوك الدنيا ، وكان كثير الغزو والحـج ، وكان له نظر في العلم والأدب ، وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائـة ركعـة إلى أن مات ، ويتصدق من حر ماله كل يوم بألف درهم ، وكان يحب العلم وأهله ، ويعظم حرمات الإسلام ، ويبغض المراء في الدين ، ويرفض الكلام في معارضة النص .

قال الجاحظ عن الرشيد : « اجتمع للرشـيد مـا لم يجتمـع لغـيره مـن الخلفـاء ، وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن حفصة ، ونديمه العباس ابن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم ، ومغنيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة ، ومن أبنائه المأمون .. وكانت أيام الرشيد كلها خير ، كأنها من حسنها أعراس وأفراح لما كان فيها من رخاء وانتصار » .

في عام 187 هـ أتاه كتاب من ملك الروم «نقفور» ، يعلنه بـنقض الهدنـة التـي كانت قد عقدت بين المسلمين وبين الملكة «ريني» ملكة الروم . ونص هذا الكتاب :

« من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب .. أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرخ ، وأقامت من نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك أموالها أحمالا ، وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبا ؛ حتى لم يتمكن أحد من أن ينظر إلى وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأي على الوزير ، فطلب الرشيد دواة ، وكتب على ظهر كتابه : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون الرشيد أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه » .

ثم سار في اليوم التالي إلى بلاد الروم ، ولم يزل حتى نزل مدينة هرقل ، وكانت غزوة مشهورة ، وفتحا مبينا ، فطلب نقفور الهدنة ، ملتزما بخراج يحمله كل سنة فأجيب على ما طلب ، ولما رجع الرقة نقض نقفور العهد ، لشكه من كرة الرشيد في البرد ، ولم يجترئ أحد أن يبلغ الرشيد نقض نقفور العهد ، وسار إليهم بجيش كبير لتأديبهم . وقال في ذلك الشاعر أبو العتاهية أبياتا منها :

ألا نادت هرقلة بالخراب ... من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب

وفي عام 189 هـ فادى الروم حتى لم يبق بممالكهم في الأسر مسلم . وفي عام 190 هـ فتح هرقلة ، وبث جيوش الإسلام بأرض الروم، وافتتح «شراحيل بن معن ابن زائدة» – أحد قواده – حصن الصقالبة ، وافتتح «يزيد بن مخلد» ملقونية ، وسار حميد بن معيوف إلى قبرص ، فهدم وحرق بيوتها ، وسبى من أهلها ستة عشر ألفا .

وفي سنة 192 هـ توجه الرشيد نحو خراسان ، فذكر « محمد بن الصباح الطبري» ، فجعل يذكره ويحادثه في الطريق إلى أن قال: يا صباح ، لا أحسبك تراني بعدها. فقلت: يردك الله سالما، ثم قال: ولا أحسبك تدري ما أحدثك عنه، فقلت: لا والله، فقال : تعال حتى أريك ، وانحرف عن الطريق ، وأومأ إلى الحراس فتنحوا ، ثم قال : أمانة الله يا صباح أن تكتم السر . وكشف عن بطنه ، فإذا عصابة حرير حول بطنه ، فقال : هذه علة أكتمها عن الناس ، ولكل واحد من ولدي علي رقيب ، فمسرور رقيب المأمون ، وجبريل رقيب الأمين ، ونسيت الثالث ، ما منهم أحد إلا ويحصي علي أنفاسي ، ويعد أيامي ، ويستطيل دهري ، فإن أردت أن تعرف ذلك فالساعة أدعو ببرذون أعجف ليزيد في علتي ، فجاءوا به كما وصف ، فنظر إلي ثم ركبه ، وودعني وسار إلى جرجان ، ثم رحل منها في صفر عام 193 هـ .

وقيل : إن الرشيد رأى في منامه (أي الحلم) أنه سيموت في طوس ، فقال : احفروا لي قبرا بها ، فحفروا له . ثم حمل في قبة على جمل ، وسيق به حتى نظر القبر ، فقال : يا ابن آدم إلى هذا ؟ وأمر قوما فنزلوا فختموا فيه ختمة بقراءة القرآن والأذكار ، وهو لا يزال في محفة على شفير القبر ، وقد تحقق الحلم بعد ذلك حين مات في طوس .

وكان من قبل قد بايع بولاية العهد لابنه : محمد سنة 175 هـ ولقبه الأمين ، وله يومئذ خمس سنين ، لحرص أمه زبيدة على ذلك ، ثم بايع لابنه عبد الله من بعد الأمين سنة 182 هـ ولقبه المأمون ، وولاه ممالك خراسان بأسرها ، ثم بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين سنة 186 هـ ولقبه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور وهو صبي ، فلما قسم ملكه بين هؤلاء الثلاثة قال بعض العقلاء لقد ألقى بأسهم بينهم ، ونتيجة ذلك الإضرار بالرعية ، وعلق الذهبي في تأريخه : فكان هذا أول وهن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة .

وقد نفذت البيعة في ولي عهده الأمين . فأتاه الخبر وهو حينئذ في بغداد ، فصلى بالناس الجمعة ، وخطب ونعى الرشيد إلى الناس وبايعوه وأصبح هو أمير المؤمنين.

وعن ملامح شخصية هارون الرشيد ، خاصة في الجانب الذي له صلة بالتجديد ، فهناك الكثير من الشهادات التي أدلى بها علماء وفقهاء زمانه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر : قال «القاضي الفاضل» في بعض رسائله : « ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا لهارون الرشيد ، فإنه رحل بولديه : الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله » .

وقال «سعيد بن مسلم» : « كان فهم الرشيد هو فهم العلماء . وكان مجلسه المحبب إلى نفسه هو مجلس العلماء » .

وقال «الإمام الصولي» عن «إسحاق الهاشمي» ما سجله السيوطي بكتابه (تاريخ الخلفاء) : « كنا عند الرشيد فقال لنا : بلغني أن العامة من الناس يظنون أنني أبغض الإمام علي بن أبي طالب وبنيه ، ووالله ما أحب أحدا حبي له ، ولكن هؤلاء أشد الناس بغضا لنا ، وطعنا علينا وسعيا في فساد ملكنا ، بعد أن أخذنا بثأرهم ، ومساهمتنا إياهم - يقصد الشيعة من الفاطميين - حتى إنهم لأميل إلى بني أمية منهم إلينا . فأما ولده لصلبه فهم سادة الأهل ، والسابقون إلى الفضل . ولقد حدثني أبي المهدي عن أبيه المنصور عن محمد بن علي عن أبيه ابن عباس أنه سمع النبي ﷺ يقول في الحسن والحسين : « **من أحبهما فقد أحبني ، ومن أبغضهما فقد أبغضني**» وسمعه يقول: «**فاطمة سيدة نساء العالمين غير مريم ابنة عمران، وآسية ابنة مزاحم**».

ولا شك أن في هذا القول الكثير من الصدق ، فلا شك أن بني العباس أقرب للإمام علي وبنيه رضوان الله عليهم أجمعين من بني أمية . ولكن الذي أشعل نار الفتنة والكراهية دخلاء على الطرفين ، وأسباب أخرى ليس هنا مجال بحثها .

ومن أمثلة اهتمام الرشيد بالعلماء وتقريبهم إليه : أنه كان لا يتحرج من أن يطلب منهم النصح والمشورة . وعلى سبيل المثال لا الحصر : قال ابن الجوزي : « قال الرشيد لشيبان : عظني ، قال له : لأن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن ، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف ، فقال الرشيد : فسر لي هذا . قال شيبان: من يقول لك أنت مسئول عن الرعية فاتق الله ، أنصح لك ممن يقول لك : أنتم أهل البيت مغفور لكم ، وأنتم في قرابة نبيكم عليه الصلاة والسلام. العصمة لكم » .

والحق .. أن من أسباب ومبررات اختيار الرشيد مجددا في القرن الثاني الهجري كما يذهب بعض العلماء ، وفي مقدمتهم السيوطي : أن الدولة الإسلامية في عهده ازدهرت ازدهارا مشهودا له ، وأن رقعتها اتسعت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، مع التقدم الحضاري الذي عم هذه الدولة في كل أقطارها .



السيدة نفيسة

السيدة نفيسة رضى الله عنها من بين مجددي القرن الثاني الهجري ، فقد توفيت عام ٢٠٨ هجرية عن عمر يناهز الثلاثة والستين عاما، وولدت عام ١٤٥ هـ أي قبل منتصف القرن الثاني للهجرة بخمس سنوات ، وقد كان المسلمون وقتئذ أقوى أمم العالم، وإن كان قد أثر فيهم ما أصاب الإسلام من نكسة، مصدرها أن الدولة قد حادت عن نظام الشورى، فتحول نظام الحكم بها في عصر بنى أمية من خلافة راشدة، إلى ملك عضوض، يتوارثه الأبناء عن الآباء.. فترة من الزمن.

وهذا ما كان يؤخذ على بنى أمية – من قبل المؤرخين – على الرغم من حفاظهم على البلاد التى دخلت حظيرة الإسلام من الصين شرقا، إلى المحيط الأطلنطى غربا، ومن الهند جنوبا إلى فرنسا شمالا، ومن بعدهم جاء خلفاء بنى العباس، فكانوا أعظم قوة، وأبعد همة؛ فقد امتازوا على الأمويين بأنهم لم يكن فيهم عنجهية تتجافى بهم عن الاستفادة من علوم ومعارف غيرهم، وتجعلهم يجمدون على ما ورثوه عن آبائهم، حتى لم تكد تظهر هذه الدولة العباسية إلا أخذت تعمل على أن يكون للدولة الإسلامية «عظمة» علمية وأدبية وفكرية تضاهى عظمتها السياسية، ففتحت أبواب التجديد في العلم، والمعرفة، والفلسفة، على مصاريعها .. حيث نظرت بعين التقدير إلى ما كان عند الشعوب القديمة غير العربية من علوم وفلسفات ومعارف، فبذلت قصارى جهدها في نقلها إلى اللغة العربية... وقد ابتدأ ذلك في عهد ثاني خلفائها أبي جعفر المنصور .. ليستمر في عهد الذين أعقبوه من الخلفاء العباسيين، حتى جاء المأمون فأربى في ذلك على من سبقوه، حيث أقبل على طلب العلم والفلسفة والمعرفة إقبالا يشهد له بالكثير من الفضل.

لقد أتحف الخليفة المأمون في سبيل العلم والفلسفة والمعرفة ملوك القسطنطينية بالهدايا النفيسة، وكانوا قد زهدوا في علوم وفلسفات أجدادهم من اليونانيين، فأرسلوا إليه ما عندهم من كتب، اختار لها المأمون أشهر المترجمين، وأمرهم بنقلها إلى العربية، ليرغب الناس في قراءتها، حتى تنتشر بين المسلمين، ويصيروا بعد ذلك أساتذة العالم في هذه العلوم والفلسفات والمعارف، وذلك حين أصبحت لهم حضارة عربية إسلامية ، وصلت إلى أوج من الكمال يوم استكملت في هذا القرن ما كان ينقصها من العلوم والفلسفات والمعارف، وظهر فيها المشتغلون باللغة بجانب المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية التي كانوا قد برزوا فيها من قبل من القرن الأول الهجري.

ومع بداية هذا العصر المزدهر بعلومه وسياساته وثقافاته ، ولدت السيدة نفيسة بمكة عام ١٤٥ هجرية، وتفتحت عيناها طفلة صغيرة على حقيقة باهرة، هي أنها تعيش في رحاب ما تركه الجد الأعظم محمد ﷺ من قيم ومبادئ، تعاليم وقواعد رفيعة سامية.. فأبوها «الإمام حسن الأنور» ابن الإمام زيد الأبلج ابن الإمام الحسن ابن الإمام علي والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم.. هذا الأب الكريم النسب صار إماما يتطاير اسمه بين أرجاء الأمة الإسلامية بما يحمل من الألقاب، وما يتصف به من صفات، فهو شيخ الشيوخ، وشيخ بني هاشم، وكبير آل البيت في زمانه، والتابع العالم، والعابد الحكيم، والقطب المعلم .. الذي يتلقى عنه التلاميذ والمريدون العلم والفضل، وهو إلى جانب هذا المرجع الأخير الذي يرجع إليه حين يغيب عن الأذهان هدي الصحابة رضوان الله عليهم.

وطبيعي .. أن تدرك السيدة نفيسة الأحداث التي كانت تتعلق بمركز آل البيت في نهاية عصر الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية. كما أدركت عن قرب فترة الود والصفاء الانتقالية التي قامت بين العلويين من آل البيت، وبني عمومتهم من العباسيين، أيام كان البيتان متحدين في مواجهة خصمهم المشترك والذي يتمثل في

الأمويين... وأدركت كذلك تنكر أبناء العم من العباسيين بعد أن سلس لهم قياد الخلافة الإسلامية، وأصبحوا يديرون أمور الدولة بدلا من الأمويين الذين صاروا ضعافا، فلا حاجة إذا لبني العباس لأبناء العم من العلويين لمواجهة خصم بات ضعيفا، بل إن الخليفة العباسي مع الأيام قد تحول إلى خصم لأبناء العم من العلويين.

لقد سمعت هذه السيدة الفضلى فيما سمعت في صباها الباكر أن العلويين وقد أصبح أمرهم كذلك - لم ينسوا أيضا حقهم في الخلافة بعد مأساة كربلاء، بل كانت الخلافة شغلهم الشاغل، يطلبونها بكل وسيلة، ومن كل قائم عليها، أمويا كان أم عباسيا - لدرجة أنهم إذا وجدوا الفرصة سانحة لإعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها، حتى لا يدعوها تمر، وإذا أنسوا في نفوسهم ضعفا استكانوا مكتفين بلقب الإمام، أو انتمائهم إلى بيت رسول الله ﷺ .. مفضلين الحياة الهادئة، والانصراف إلى الدين والعبادة والاعتكاف، عوضا عن الاشتغال بالحرب والسياسة.

وأدركت السيدة نفيسة رضى الله عنها والدها الإمام حسن الأنور... أدركته عن قرب، فأدركت مدى الحرج الذي كان يلاقيه، فقد كان من العلويين، غير أنه كان يرتبط بصلة المصاهرة مع العباسيين، حيث كانت أختها الكبرى أم كلثوم متزوجة من مؤسس الدولة العباسية «أبي العباس السفاح»، ولذلك .. اضطرته هذه المصاهرة أن يكون غير بقية العلويين. حيث كان هذا الأب العلوي أول من لبس العمامة السوداء شعار العباسيين، وأنه كان يتعاون معهم، حيث تولى إمارة المدينة وعمره وقتئذ سبعة وستون عاما من قبل الخليفة العباسى أبي جعفر المنصور، وبقي على ولايته ست سنوات، إلا أن كل ذلك لم يشفع له عند هذا الخليفة نفسه، وذلك عندما اقتضى الأمر أن يسجنه بفعل مكيدة ، ففعل بعد أن أقصاه عن الولاية، وصادر أملاكه، متناسيا تماما ما كان له من مكان حيث إنه صهر مؤسس دولتهم، وإنه من أبناء العم!!

كل ذلك لا يهم لدى العباسيين إذا كان الأمر متعلقا ببريق المنصب، ومكسب السلطة .. فلا يهم أن يلقى القريب والنسيب والحليف في غياهب السجون ، إذا كان ضد المصلحة الخاصة، فالعباسيون وقد استوت لهم مقاليد الأمور، ودانت لهم الدنيا ومن عليها، وحققوا من متاعها الشيء الكثير.. كانوا يتوجسون خيفة من العلويين، ويرصدون عليهم العيون.. يفعلون هذا مع كل علوي.. حتى ولو كان إنسانا فاضلا مسالما كالإمام حسن الأنور. ولعل ذلك له أسباب كثيرة، في مقدمتها بالطبع الإحساس بأنهم اغتصبوا حقا ليس لهم.. وأنهم إزاء هذا الإحساس لابد وأن يمحوا أصحاب هذا الحق من الوجود.. حتى يستقر الأمر لهم.

في هذا المناخ السياسي والاجتماعي المضطرب ، نشأت السيدة نفيسة وترعرعت، ولعل اضطراب الأحوال قد أثمر نتيجة محورية في بناء شخصية هذه السيدة الفضلى أصقل مداركها ومشاعرها في وقت مبكر، يضاف إلى ذلك أنها فتحت عينيها على مظاهر التقى والإيمان.. وفي الوقت نفسه سعة الرزق وبحبوحة العيش، والأكثر من هذا وذاك أن تجد نفسها ضمن عشرات ينتمون إلى مدرسة أبيها الإمام حسن الأنور .. مدرسة تضم العلماء والمؤرخين على غرار ابن إسحاق راوي السيرة النبوية .. في هذه المدرسة الأولى تلقت أمور دينها ودنياها، مما كان له كبير الأثر في تكوين شخصيتها فيما بعد.

وإلى جانب كل هذه العوامل الخارجية المكونات لشخصيتها، ما فطرت عليه من ذكاء حاد، وذاكرة قوية، وفهم سريع، واستيعاب لكل ما يحدث حولها من أمور وأحداث .. كانت تسمعها وتدخرها في حافظتها .. وقد عاونها في ذلك تعلمها المبكر للقراءة والكتابة، فقد تعلمت ذلك وهي في السابعة من عمرها، ولم يكن في زمانها ولا بيئتها من تحقق له ذلك في مثل هذا العمر، إذ كانت الأمية سائدة في نطاق البنين، فما بالنا بالبنات!

كان القرآن الكريم هو أول ما تهتم به وتحفظه بقلب مفعم بحب معانيه، وكانت الأحاديث النبوية الشريفة هي أهم ما تستوعبه بعد القرآن .. فأتت عليها تستوعبها وتدرسها بعاطفة خاصة، لعل مصدرها أن قائل هذه الأحاديث هو الجد الأعظم ﷺ وكانت علوم ومعارف زمانها غير بعيدة عنها، وإنما متاحة لها، فأقبلت عليها بعقلية متفتحة فذة .. وكانت في كل ذلك على إيمان مبكر بأن الفكر فريضة إسلامية، أقرتها آيات الكتاب الكريم، وأكدتها الأحاديث الشريفة .. وأن للعلم في كتاب الله وأحاديث رسوله مكانة جليلة.

وهكذا .. تمثلت السيدة نفيسة أول ما تمثلت طريقة أبيها في الانصراف إلى العبادة، والخلوص لله عز وجل، حتى قيل عنها إنه إذا كان بلال بن رباح رضي الله عنه قد شق أول طريق في التصوف، فإن السيدة نفيسة كانت من السابقات اللائي شققن طريقهن إلى التصوف بين النساء.

في هذه السن المبكرة كانت تقوم الليل وتصوم النهار، وتمعن في عبادتها ، وتزيد كلما نما جسمها وعقلها.. وكأنها تستشعر لذة بما تفعل. وها هي تقف أمام الكعبة، تتعلق عيناها بأستارها هامسة: «إلهي وسيدي ومولاي، منعني عجزي وضاعف فرحتي برضاك عني، فلا سبب له أتسبب به يحجبك عني». قد يدرك القارئ هنا مدى نضجها العقلي والوجداني الذي أصابته مبكرا في هذا الدعاء الحار الذي إن دل على شيء فإنما يدل على الإيمان في سلوكها مع الخالق.

وهكذا .. كان حال السيدة نفيسة في «مكة» أو «أم القرى»، حتى إذا انتقلت إلى المدينة المنورة بصحبة أسرتها تضاعف إيمانها، وهي لم تزل بعد في العشرين ربيعا، وعلى هذا يمكن القول - اتفاقا مع العلماء والمؤرخين - بأن هذه السيدة الفضلى قد سارت في طريق الله عبر مدرستين عظيمتين : الأولى في مكة ، والثانية بالمدينة المنورة.. لتأتيها العلوم والمعارف من كل صوب وحدب. وها هو ذا أبوها الإمام

حسن الأنور يصحبها مرات إلى قبر الجد الأعظم - كما تـذكر الروايـات - ويـردد : «يا رسول الله، إني راض عن ابنتي نفيسة».. ثم يرجع ومازال يفعل هـذا حتـى رأى فيما يرى النائم رسول الله ﷺ يأتيه في منامه ويقول لـه: «يـا حـسن، أنـا راض عـن ابنتك برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاي عنها».

وفي المدينة .. يتصدر الإمام « مالك بن أنس » وقتئذ مجالس العلم، التـي تجمـع صفوة العلماء، ومن بينهم السيدة نفيسة، التي تتلقى مالا تعرفه طيلة أربعة عشر عاما قضتها في رحاب هذا العالم الجليل حتـى تـوفي، فيتحقـق لهـا الحـسنيان معـا: شرف العلم، ومن قبله شرف النسب: وتستمر في طريق العلم والمعرفـة، وفيـة لهـما، حتـى يصبحا ركيزة تضاف إلى ركيزة عبادتها وصلاحها وتقواها.

ومع الأيام ، يزداد نضجها العقلي، ومعه تزداد محبتها للذات الإلهية، وتخلص في هذا الحب في خشوع وخضوع، وتبعد نفسها عما نهى الله ورسوله، وتطهر نفسها من كل شائبة مما يشين أفعال البشر، وتزهد في هذه الدنيا التي تبنى على الصراع والـشر، وتقبل على العبادة في اعتدال وتعقل، جاعلة حياتهـا مرحلـة تـزود آخرتهـا بالعمـل الطيب المثمر، فلا تقعد ولا تتواكل، بل تعمل لدينها ودنياها، فكانت بحق نعم المرأة العابدة العاملة الزاهدة . المرأة التي لا تنسى الأخذ بحقها المقسوم في حيـاة أحـل الله سبحانه وتعالى طيباتها لعباده المخلصين.

حتى إنه حين يتقدم لخطبتها ابن عمها «إسحاق ابـن الإمـام جعفـر الـصادق» رضى الله عنهما... ترضى به خطيبا، وتحفظه زوجا، وتعيش معه محبة، وتصبح دارهما في المدينة المنورة - ثم في مصر بعد ذلك - ملتقى للعلماء، وكعبة لأعلام عصرها ممن عرفوا عنها أنها بحق «نفيسة العلم والمعرفة».

ومن المدينة المنورة ، انتقلت السيدة نفيسة وزوجها إلى مصر، ليلحق بهما والدها الإمام حسن الأنور رضي الله عنه بأربعة أشهر .. ولعلها اختارت هذا البلـد الأمـين

طلبا للهدوء والاستقرار، بعيدا عما يذكرهم من خلافات وصراعات، عاشوا فيها زمانا.. صراعات وخلافات كانت لا تزال ماثلة في الأذهان حتى وإن بعدت السنون وتغيرت الأحوال.

وتجد في مصر وشعبها ما لم تجده في غيرها من البلدان. لقد أحب هذا الشعب الكريم هذه السيدة الطاهرة.. أحبها قبل أن يراها.. حين سمع بعلمها وفضلها وتقاها وهي بمدينة الرسول ﷺ. حيث كان الحجاج المصريون ينقلون أخبارها، فلما اختارت مصر مستقرا، وشعبها أهلا، استقبلت بكل حفاوة وتكريم منهم، حتى إذا استقرت بينهم تحقق لهم ما كانوا يسمعونه عنها، فازدادوا تعلقا بها، ومن ناحيتها قابلت هذه المشاعر الصادقة بأفضل منها، برغم ما كان يساورها من قلق، خوفا من أن يسيء بنو العباس فهم ذلك، فيفسدون عليها رضا كانت تفتقده.

لقد رأى الشعب المصري في السيدة نفيسة – كما يذكر الأستاذ «محمد شاهين حمزة» – آماله الروحية تتحقق. فأقبل عليها إقبال الظمآن إلى الماء العذب. واشتد إقبالهم وتزاحمهم على بابها، حتى عاقها ذلك عما نذرت نفسها له من العبادة والعلم، وصبرت فترة، حتى إذا طالت راودتها فكرة العودة إلى حيث جاءت، فصحيح أنها أحبت هذا الشعب، ولكنها تحب الله أكثر، وتود أداء فرائضه وتقوم بعبادته خير قيام.

وحين ترامى إلى الشعب المصري نبأ عزمها على الرحيل، فزع إلى واليه من قبل الخليفة العباسى المأمون، ولم يتوان هذا الوالي عن التوجه إلى السيدة نفيسة طالبا منها البقاء بمصر، نزولا على رغبة أهلها، فقالت له: «إني جئت مصر بنية الإقامة الدائمة حتى الموت، وأن أدفن في تربتها.. إني امرأة ضعيفة، وأرى الناس قد تكاثروا على تكاثرا فاق طاقتي، وشغلني عن زادي لمعادي .. ومكاني هذا صغير قد ضاق بالجموع الوافدة . فقال لها الوالي: «إني سأزيل جميع ما تشكين منه لتبقي في مصر.. وسأهيئ لك الأمر على الوجه الذي ترضين به». وبالفعل يسر لها مكانا أفضل، ومن

جانبها خصصت يومين في الأسبوع تلتقي فيهما بالوافدين عليها، وطـاب لهـا المقـام بمصر.. ولم يكن موقفها من الشعب المصري الملتف حولها سلبيا، بل كان إيجابيـا إلى حد بعيد.. حيث أعطته مما أفاض الله عليها من فضل، فنهل من مجالس العلـم التـي كانت تعقد في دارها، ومنحته صدق الدعوة إلى الله تعالى، وجمال التوجيه والإرشـاد بخيري الدنيا والآخرة، وقدمت من نفسها أنموذجا متكاملا لمـا تكـون عليـه المـرأة المسلمة المنتسبة إلى أشرف الخلق.. وهكذا ظل حبها باقيا في مصر يتوارثه الأبناء عن الآباء في حياتها أو بعد مماتها ، منذ وطئت أقدامها أرض مصر إلى اليوم.

ومع مسؤلياتها في الدعوة والفتوى أحيانا التي تجددت بمـصر ، كانـت تحـافظ على تأدية شعائر الحج كل عام، حتى بلـغ مـرات حجهـا أكثـر مـن ثلاثـين مـرة. في بعضها كانت تتعمد المشى عـلى أقـدامها.. كـما كانـت تحـافظ عـلى عبادتهـا بـصورة منتظمة، حتى قالت عنها ابنة أخيها زيد: «قمـت بخدمـة عمتـي أربعـين عامـا، فـما رأيتها نائمة الليل ولا أفطرت النهار.. ولقد قلت لها ذات مرة: أما تـرفقين بنفسـك يا عمتاه؟ فقالت: «كيف أرفق بنفسي وأمامي عقبات لا يقطعها إلا الفائزون».

ولعلها في ذلك كانت تتمثل جدها العظيم الإمام علي كرم الله وجهـه.. حيـث كان يقـول: «يا دنيا غري غيري.. إلي تعرضت، أم إلي تشـوفت؟! لقد باينتك ثلاثـا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك حقير. آه من قلة الـزاد وبعـد الـسفر ومـشقة الطريق!!». مشيرا إلى الدنيا التي هي طريق إلى الآخرة وما فيها من الأهوال.

ولعل شخصية السيدة نفيسة تبدو من أحاديثها وأقوالهـا، تلـك التـى سـجلها مؤرخوها، ونقلها الخلف عن السلف لتبقى على مـر القـرون خـير شـاهد وأصـدق دليل على عظمة خلود هذه السيدة الطاهرة.. فهـى حـين تتـضرع إلى الله عـز وجـل بالدعاء تقول: «اللهم يا من علا فقدر، وملك فقهر.. أجبر من أمتك مـا انكـسر» في هذا الدعاء نلمح رصانة عبارته، وهو ما ورثته من بيئتها العربية ونـسبها الكـريم.. كذلك نلمح نظرتها الثاقبة إلى أحوال الدنيا وما فيها من متاع الغرور، حيـث تقـول:

«الدنيا كلها مرارة، فإن كانت بها حلاوة فهى حلاوة الإيمان»، ونلمح أيضا جانبا من شخصيتها، حيث توجه المسلم إلى أنه ليست الصلاة - وهى صلة العبد بربه - بكثرة عدد الركعات، إنما الأفضل أن تتحقق هذه الصلة حتى وإن كانت ركعتين وتقول: «إن ركعتين في الصلاة فيهما الصلة المطلوبة في الصلاة بين العبد وربه خير من ألف ركعة تجردت منها».. ثم إنها وقد أتيح لها قسط وافر من العلم والمعرفة.. نراها تقول: «إن الإسلام غنى بتعاليمه عن الفلسفات الأخرى». هذا القول منها يدل على اطلاعها على هذه الفلسفات واكتشافها نواحى النقص والقصور فيها، وهو ما لا يتسنى إلا لعقل استوعب المعارف المتباينة، ثم قارن بينها.

ولعل إيمانها وصبرها وقوة عزيمتها يتجلى جميعه في إصرارها على مواصلة الصوم، حتى وإن كاد يقضى عليها.. وتقول لمن يطلب منها إفطارا رفقا بها: «واعجبا.. لي ثلاثون سنة أسأل الله عز وجل أن يتوفاني وأنا صائمة. وأفطر؟! معاذ الله».

وسيدة على هذا النحو من العلم والفضل، والتقى والصلاح.. لابد أن تكون قبلة لأعلام عصرها من العلماء، وفي مقدمتهم الإمام الشافعى الذي كان يزورها، وكانت تستقبله وتفيض عليه، وتناقشه في كثير من جوانب الفقه وأصول العبادة... ولم ينقطع عن زيارتها والاستزادة بفضلها إلا يوم أن اختاره الله إلى جواره. وكانت من المشيعين له.

وقصدها الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه حيث التقى بها حين كانت تعود مريضا من طلاب مجلسها العلمى، ويومها طلب منها صالح الدعوات، وكان يحرص على اللقاء بها كلما سنحت ظروفه في مصر أو في الحج.

ويروى أنها شهدت في آخر حياتها ظلم أحد حكام مصر آنئذ. وبلغها من ظلمه وجوره حيث جاء أهل مصر متوسلين أن تتشفع لهم عنده حتى يرفع عنهم مظالمه.. فسألتهم أوقات وأماكن خروجه فعرفوها.. فما كان منها إلا أن استوقفت موكبه

ونادته باسمه مجردا. فاستجاب لها مترجلا عن جواده ، واتجه إليها وهو يرتجف، فقالت له: «ملكتم فأسرتم، فكان منكم الجور والعسف، وقطع الأرزاق، وقد علمتم سهام الأسحار نافذة غير مخطئة ، لاسيما الصادر منها من قلوب أو جعتموها، وأكباد أذقتموها قسوة الجوع، ومحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، فاعملوا ما شئتم، فنحن صابرون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». وهنا ارتعد الحاكم الظالم، وأقبل على السيدة نفيسة يترضاها ويعدها بأن يصلح كل شيء.

ومرت الأعوام والسنون، وعندما أخذ الوهن يدب في أوصالها تخيرت لنفسها قبرها في المكان الذي كانت فيه دارها، وفي نفس الحجرة التي عاشت فيها بقية حياتها بمصر، وحفرت قبرها بنفسها ونزلت إليه، وصلت فيه مرات.. حتى إنه قيل بأنها قرأت القرآن الكريم بأكمله عدة مرات في هذا القبر الذي أحبته إلى درجة أنه كان يطيب لها المقام فيه أحيانا ساعات طوالا.

ولما أحست السيدة نفيسة رضى الله عنها بقرب نهايتها، راحت تستعد لذلك، وتقرأ سورة الأنعام، وراحت تستعيد آياتها في ضراعة وتبتل، حتى إذا ما وصلت إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1] فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها.

* * *

(١) الأنعام: ١٢٧.

المأمـــون

وكان الخليفة العباسى المأمون من الأئمة الأجلاء : مالك والليث بن سعد والشافعى وأبي حنيفة وابن حنبل والأوزاعى من المجددين على رأس المائة الهجرية الثانية . على اعتبار أن مجال تجديد هؤلاء الأئمة منصرف إلى العقيدة والدين ، ومجال المأمون منصرف إلى إصلاح شئون الحكم ورعاية أحوال الناس . إن الأصل في حفظ الدين هو حفظ قانون السياسة وبث العدل والإنصاف الذي به تحقن الدماء ؛ ويتمكن من إقامة قوانين الشرع . ولهذا يقرر المؤرخون أن دعائم ملك المأمون قامت على محاولة إيجاد أمر جامع في كل من : الدين والعلم والحكم . ففى الدين حاول القضاء على هذه الفتنة التى قامت بين المسلمين بسبب انقسامهم إلى شيع وأحزاب ، فرق وطوائف . وفي العلم حاول أن يقضى على هذه الخلافات التى قسمت المسلمين إلى فئات تتعصب كل فئة منها لعلمها ؛ لأن كلا منها تجهل ما عند الفئة الأخرى من علم أو كما يقولون : « الناس أعداء ما جهلوا ». وفي الحكم حاول القضاء على هذه الاختلافات السياسية الناشئة من انقسامهم إلى عباسيين وعلويين .

والحق أن المأمون- كما يصفه جلال الدين السيوطى في كتابه (تاريخ الخلفاء) - كان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما وفضلا وعلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤددا . وإن له من المحاسن الكثير لولا ما أتاه من الناس في القول بخلق القرآن . فقد كانت هذه محنة استمرت زمنا .

وذكر السيوطى أنه لم يتول الخلافة من بنى العباس أعلم من المأمون ، ولذلك وصف بالخليفة العالم فقد كان فصيحا مفوها ، إلى درجة أنه كان يقول عن نفسه : «معاوية بن أبي سفيان بعمره يقصد عمرو بن العاص، وعبد الملك بن مروان بحجاجه

يقصد الحجاج بن يوسف ، وأنا بنفسى» . وقيل عنه إن لبنى العباس فاتحة ووسطا وخاتمة، فالفاتحة : الخليفة السفاح والوسط : الخليفة المأمون والخاتمة أو النهاية: الخليفة المعتضد ، وخير الأمور الوسط، أي: أن المأمون هو خير بنى العباس . كذلك قيل عن علم المأمون وفضله أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان رضي الله عنه والمأمون العباسي ، وأن المأمون كان يختم القرآن في كل رمضان .

ومن كلام المأمون الذي يدل على علمه وثقافته ونفاذ بصيرته أنه قال : «لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال » ، وقال : « أعيب الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل » ، وقال : « أحسن المجالس ما نظر فيه إلى الناس » ، وقال : « الناس ثلاثة : فمنهم ثمل الغذاء لابد منه على أي حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض . ومنهم كالداء مكروه - والعياذ بالله على كل حال » .

ولهذا .. لم يكن غريبا أن يهتم المأمون بالعلم والعلماء وأن يفضل في ذلك من سبقه من خلفاء بنى العباس . وأن يقبل على علوم الفلسفة خاصة ، وأن يتكلف في سبيل الحصول على كتبها الكثير من المال والجهد . كان يتحف ملوك الروم بالقسطنطينية بالهدايا الفنية لسابق معرفته بأن لديهم كتبا ثمينة في الفلسفة ورثوها عن الحضارة اليونانية القديمة ولم يعرفوا لها قيمة حتى إذا وصلتهم هدايا المأمون أرسلوها إليه . فاختار لها أشهر المترجمين حتى ينقلوها إلى العربية وينشروها بين الناس ، والأكثر يرغبون الناس في الإقبال على هذا العلم الذي أول ما يهتم به هو الاهتمام بتحريك العقل . وكما يقرر المؤرخون أن ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية من كمال ، كان يرجع إلى ما صنعه المأمون حين اهتم بالعلوم الفلسفية ، وجعل المشتغلين فيها يعملون بجوار المشتغلين بالعلوم الدينية والأدبية ، وصارت لهم منزلة في الدولة لا تقل عن منزلة غيرهم من أصحاب العلوم .

ونتيجة لهذا كما يقرر السيوطي ويتبعه عدد من المؤرخين ، أن المأمون مضى في نزعته التجديدية غير متأثر فيها برأي غير رأيه ، فرأى أن خير وسيلة للجمع بين

الفرق المتخالفة أن يعقد لهم مجالس مناظرة، يدور فيها البحث فيما بينهم من خلاف، ويعرف كل منهم ما عند الآخر من أدلة حتى يزول الخلاف بالاقتناع . ولا شك أن هذه نزعة مقبولة وعظيمة من المأمون . ولكنها - كما يقرر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» وغيره من المؤرخين وفي مقدمتهم السيوطي - لم تكن الوسيلة الناجحة لجمع كلمة المسلمين في ذلك الخلاف الذي نشأ بين تلك الفرق وهذه الطوائف ؛ لأن مجالس المناظرة التي استحدثها المأمون لا يكون النظر فيها لصاحب الحق دائما ، بل كثيرا ما يكون الظفر فيها لمن يكون أفصح كلاما وإن لم يكن الحق معه .

والتاريخ الإسلامي يحسب للمأمون من النوايا الصالحة الكثير .. ففي مسألة الحكم توجه بنية صالحة أراد بها أن يجمع كلمة المسلمين حتى يزول ما بينهم من خلاف سياسي نشأ منذ عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه . ففرق كلمتهم على الحكم حتى قيل إن المأمون قد تجاوز هذه النوايا الصالحة إلى ما هو أبعد مدى حيث عمل على تنفيذ هذه النوايا ، وذلك حين أراد أن يختار المسلمون رجلا من غير أهل بيته من العباسيين تجتمع كلمتهم عليه ليتولى الأمر من بعده . وقد كان المسلمون منقسمين حول من له حق الولاية عليهم . فأهل السنة يرون أنه يجب أن يكون قرشيا ، والشيعة يرون أنه يجب أن يكون علويا لأن هذا الحق ثابت لجميع المسلمين.

وهنا جمع المأمون خواص أوليائه وأخبرهم أنه نظر في ولد العباس وولد علي رضي الله عنهم . فلم يجد أحدا أفضل من علي بن موسى الرضا فبويع بولاية العهد وهذا الاختيار من المأمون يعيد إلى الأذهان مبدأ الشورى في الإسلام . حيث لم يجعل حكم المسلمين يستأثر به بنو العباس .

وعلى هذا الأساس من التفكير الإصلاحي ، كان يسلك المأمون ، حتى رأى الكثيرون من المؤرخين أن المأمون في مقدمة مجددي القرن الثاني للهجرة .

والآن.. هل نحن في حاجة إلى مزيد من حديث يدور حول هذا الخليفة وأفضاله ومناقبه وعلو شأنه وازدهار الدولة الإسلامية في عهده ؟.. لنرجع إلى ما كتبه عنه المؤرخون حتى نقترب من صورة هذا الخليفة التي هي أقرب ما تكون من الكمال .

ولعل من أجمل وأدق ما قرأته عن الخليفة المأمون ما كتبه المؤرخ الكبير «جمال الدين سرور» مع غيره من المؤرخين الثقات عن عصر هذا الخليفة المستنير، فنقرأ أنه كان لاتساع رقعة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى أصبح كثير من الناس طلابا للعلم وأنصارا للأدب كما طاف فريق كبير منهم البلاد سعيا إلى موارد العلم .

وقد تميزت عدة مدن في العصر العباسى بقوة الحركات العلمية والأدبية ، نخص بالذكر منها بغداد حاضرة الخلافة التي أصبحت أواخر القرن الثاني الهجري مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية .

ومن العوامل التى ساعدت على ذلك اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية بنقل الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية ، فقد اتجهت ميول الخلفاء العباسيين بعد أن اختلط العرب بالفرس والروم إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فوجه أبو جعفر المنصور اهتمامه إلى ترجمة الكتب . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع الذي نشأ بالبصرة وقضى نحو عشر سنوات من حياته في العصر العباسي ، أما بقية حياته فكان قد قضاها في العصر الأموي .

وكان لوقوع بعض مدن الدولة الرومانية الشرقية في حوزة الرشيد أثر كبير في نشاط حركة الترجمة في عهده ، فأمر بترجمة ما وصل إليه من كتب اليونان ، كما شجع البرامكة في أيامه المترجمين بإجزالهم العطايا عليهم .

كذلك تجلى في عهد الخليفة المأمون بن الرشيد ازدهار حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية إلى العربية ، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وقد روى «ابن النديم» في كتابه (الفهرست) أن المأمون كان بينه وإمبراطور الروم مراسلات ، فكتب إليه يسأله الإذن في إنقاذ ما يختار من كتب العلوم القديمة التي يتوافر وجودها في بلاد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع . فعهد المأمون إلى الحجاج بن يوسف بن مطر ، وابن البطريق ، وغيرهما ، بإحضار بعض الكتب من القسطنطينية . وبعد أن عادوا إليه مزودين بالكتب التي وقع اختيارهم عليها ، أمرهم بنقلها إلى اللغة العربية .

ولما هادن الخليفة المأمون صاحب جزيرة قبرص ، بعث إليه يطلب بعض كتب اليونان ، فجمع ذوي الرأي عنده واستشارهم في إرسال هذه الكتب إلى الخليفة فأشار عليه أغلبهم بألا يرسل إليه أي كتاب .

ومن أشهر المترجمين في عهد المأمون : «حنين بن إسحق» الذي ولد سنة ١٩٤هـ من أب عربي من قبيلة عباد التي تسكن الحيرة . وكان يدين بالنصرانية على المذهب النسطوري . وقد رحل في بداية حياته إلى بلاد الروم حيث تعلم اليونانية ، ثم عاد إلى البصرة ولازم الخليل بن أحمد ، فأخذ عنه العربية ، وكان حنين بن إسحق يجيد أربع لغات هي الفارسية واليونانية والعربية والسريانية . وأهم ما امتاز به حنين الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية .

اتصل حنين في بداية أمره بالخليفة المأمون ، فأسند إليه الإشراف على (بيت الحكمة) الذي قيل إن الرشيد هو الذي وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات التي تحوي كل العلوم التي اشتغل بها العرب. ويعد هذا البيت أهم مجمع أسس لنشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وكانت الترجمة من بين أعماله الرئيسية .

لم تكن العناية بالترجمة مقصورة على الخلفاء العباسيين ، بل اهتم جماعة من الأثرياء في عهد المأمون بنقل كثير من الكتب إلى العربية ، ومن هؤلاء : بنو شاكر

المنجم الذين عهدوا إلى حنين بن إسحق بالذهاب إلى بلاد الروم ، فأحضر إليهم كثيرا من طرائف الكتب والمصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب .

وقد ترجم في عهد المأمون كثير من الكتب اليونانية ، نذكر منها : (الحكم الذهبية) لفيثاغورس ، وبعض المصنفات لأبقراط وجالينوس ، وكتاب (السياسة المدنية) لأفلاطون ، وكتاب (المقولات والطبيعيات) لأرسطو .

وكان المأمون يحض الناس على قراءة الكتب التي ترجمت في أيامه ويرغبهم في تعلمها ، ومن ثم تقدمت الحركة العلمية في عهده ، وتنافس أولو النباهة من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء في تحسين إنتاجهم فأجزل لهم العطاء .

وينتقل الدكتور «سرور» إلى موضوع آخر هو : كان هناك نوعان من الدراسة اشتغل بهما المسلمون :

أولهما : دراسة دينية حول القرآن والحديث .

وثانيهما : دراسة دنيوية حول الطب والفلسفة والكيمياء والمنطق والرياضيات والتاريخ والجغرافيا .

وقد عبر «ابن خلدون» في (مقدمته) عن هذين النوعين تعبيرا صادقا، فقال: إن العلوم صنفان ، صنف طبعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه . والأول يشمل العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركها البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها . والثاني يشمل العلوم النقلية وهي مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي . وزاد ابن خلدون على ذلك فقال : إن العلوم العقلية أو الطبيعية مشتركة بين الأمم ؛ لأن الإنسان يهتدي إليها بطبيعة فكره ، وأما العلوم النقلية كلها فمختصة بالملة الإسلامية وأهلها .

كانت العلوم الدينية من تفسير للقرآن الكريم وجمع للحديث واستنباط الأحكام الشرعية منهما موضع اهتمام كثير من المسلمين في العصر الأموي . أما الجدل الديني والبحث الفلسفي فلم يقم بهما إلا القليلون في ذلك العصر . فلما جاء العصر العباسي واصل المسلمون الاشتغال بالتفسير والحديث والفقه، كما وجهوا اهتمامهم إلى العلوم الدنيوية، فترجمت عدة كتب في الكيمياء والرياضيات والطب والمنطق والفلسفة . واشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت إلى العربية وعكفوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها .

نخص بالذكر من هؤلاء : «يعقوب بن إسحق الكندي» الذي كانت له منزلة كبيرة عند المأمون والمعتصم ، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم ، وهذا في تأليفه حذا حذو أرسطو ، وترجم كثيرا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها .

ويذكر الدكتور «سرور» دور المأمون منذ أن استقرت خلافته ببغداد بعقد مجالس للمناظرة بين كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم في البحث . ولا غرو فقد عرف المأمون منذ نعومة أظفاره بالجد والحرص على طلب العلم والتفقه فيه . وهو رجل متنوع العمل ، عالم مع العلماء، فيلسوف مع الفلاسفة ، وكان يرمى من مجالس المناظرات التى يدعو إليها العلماء والفقهاء ، إلى إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين، وبذلك تتفق كلمة الأمة في المسائل الدينية التي كانت مصدر ضعفهم .

قال يحيى بن أكثم : أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن جمع له وجوه الفقهاء والعلماء من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا ، فجلس لهم المأمون وسألهم عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم ، ولما انقضى هذا المجلس قال المأمون : يا أبا محمد، كرر هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف.. وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا - بتوفيق الله وتأييده على إتمامه - سببا لاتباع هذه الطوائف ما هو

أرضى وأصلح للدين ، إما شاك فيتبين ويتثبت ، فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها .

وكان للمأمون من الذوق العلمى والفلسفة ورحابة الصدر في الجدل والمناظرة والإصغاء إلى مختلف الآراء ما حفز العلماء على التعمق في البحث ليظهروا في مجالس المناظرات بمظهر يدل على كفايتهم العلمية وسعة اطلاعهم . وكان ما يدور في مجالس المأمون من الجدل والمناظرة يتناقل على ألسنة الناس ، فيتجادلون فيه هم كذلك .

عرف المأمون بميله إلى الحرية في التفكير مع التقيد بأصول الدين ، ومن ثم أصبح الاعتزال أقرب المذاهب إلى نفسه لأنه أكثر حرية وأكثر اعتمادا على العقل ، فقرب المعتزلة منه وصاروا ذوي نفوذ في قصره .

وكان الاعتزال قد نشأ في البصرة في أواخر عهد الدولة الأموية ، ثم انتشر منها إلى سائر بلاد العراق ، لكن أصوله لم تنظم إلا في صدر العصر العباسى ، حيث أخذ الخلفاء يناصرون الحركة العلمية ، وينهضون بالأساس الذي وضعه العلماء في الدولة الأموية . كما أن دعوة المعتزلة لم تظهر ظهورا بينا إلا في هذا العصر ، فبعثوا الدعاة إلى الأمصار لنشر مبادئهم ، واعتنق مذهبهم كثير من الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعلا شأنهم علوا كبيرا في عهد المأمون والمعتصم والواثق .

إلى آخر ما ذكره الدكتور «جمال الدين سرور» وغيره من المؤرخين قديما وحديثا عن عصر المأمون ، مما يؤكد أن هذا الخليفة من حكام المسلمين الذين توسلوا بالتجديد في الفكر الإسلامى كحل لكل شئون الدولة الإسلامية وعلاقاتها مع بقية الأمم في ذلك العصر بعد هذا التوسع الذي تم على أيدي أبنائها الحكام والمحكومين على حد سواء .

* * *

معروف الكرخي

ولد لأبوين مسيحيين في كرخ بغداد بالعراق، ورضع لبان أمه المسيحية رضيعا، وتربى على يدي والد مسيحي طفلا ، وتعلم على يد معلم مسيحي صبيا ، وشب ليتحول من المسيحية إلى الإسلام شابا ، وشملت محبة الإسلام بقيمه وتعاليمه كل أقطار نفسه ، وأتقن وأجاد كل ما يتصل بهذا الدين وكأنه بذلك يتعلم ليعلم ، وأصبح من مجددي القرن الثاني للهجرة ، وظل على هذا النحو حتى توفي عام 200 هـ .. (ذلك هو : معروف بن فيروز (أو فيروزان الكرخي) نسبة إلى كرخ بغداد التي ولد ونشأ فيها .

كان معلمه المسيحي يطلب منه أن يردد وراءه هذه العبارة قائلا : « قل ورائي – ثالث ثلاثة » فكان يخالفه قائلا : « بل هو الواحد ، هو الواحد ، هو الواحد » ، فيضربه على عناده ضربا مبرحا ظنا منه أنه يتمرد عليه ويعارضه ، دون أن يعلم أنه لا يعاند ولا يعارض ولا يتمرد ، إنما يعبر عما في قلبه ، ولا يستطيع لسانه أن ينطق بغير ما يشعر به فؤاده .. ويستمر الأمر على هذا الحال حتى ضاق بأسلوب معلمه في التربية والتعليم ، فقرر الهروب منه ومن ضربه ليس إلى البيت الذي يصر على تعليمه على يد هذا المعلم المسيحي بالذات ، وإنما إلى هذه الدنيا الواسعة حيث لا يرجع إلى البيت ولا إلى المعلم ، ويطول غيابه ، الأمر الذي تقلق عليه أسرته وتتألم، وتتمنى أن يعود إليها بأي وسيلة ، ويرددون : ليته يرجع إلينا على أي دين يشاء فنوافقه عليه.. المهم أن يرجع » .

في هذه الغيبة الطويلة لجأ هذا الشاب المبشر بعلم وفضل إلى واحد من الصالحين يدعى : «علي بن موسى الرضا» فأسلم على يديه ، وأعطاه اسمه «علي» الذي كان يكنى به أحيانا .. وتعلم أن دخوله في الإسلام لم يحل أو يمنع التفكير في والديه. حيث رجع إليهما حين بلغه قولهما . وعندما عاد سألاه : على أي دين ؟ فقال: على دين الإسلام . فأسلم أبواه حين أخبرهما بإسلامه وما ينطوي عليه هذا الدين من المبادئ والقيم .

وصاحب معروف الكرخي الإمام علي بن موسى الرضا ، فأخذ عنه الزهد ، إلا أنه بالغ في ذلك ، ولم يلتزم بحد الاعتدال ، ولعله في ذلك قد تأثر بمتصوف زاهد كبير هو «ابن السماك» وغيره من الزاهدين . وفي علاقته بابن السماك حكاية تروى بأنه : حين كان مارا بالكوفة وقف عند رجل يعظ الناس يقال له ابن السماك ، الذي قال أثناء وعظه عبارة استوقفت معروف الكرخي هي: « من أعرض عن الله بكليته، أعرض عنه جملة ، ومن أقبل على الله تعالى بقلبه ، أقبل الله برحمته عليه ، وأقبل بوجوه الخلق إليه » فوقعت كلمات هذه العبارة في قلب معروف الكرخي وأقبل على الله تعالى ، إقبالا غير عادي متأثرا بأسلوب هؤلاء الزهاد ، الذين كانت طريقتهم مداومة العبادة والطاعة لله ، ولزوم الفقر ومحبة الفقراء ، ولزمهم لزوما منقطع النظير ، حتى بلغ من أمره في ذلك أنه قيل له في مرض موته ، اوص فقال : « إذا مت فتصدقوا بقميصي ، لأني أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا» .

ولعل هذا السلوك من مجددنا معروف الكرخي يصفه بعض العلماء ومنهم الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» بأنه كان سلبيا حيث رأى : « أن مبالغة أولئك الزهاد في أمرهم إلى حد تقديس الفقر كان له أسوأ الأثر على المسلمين ، فكأنهم بذلك أرادوا أن يصلحوا إفساد الناس في الغلو في أمر الدنيا ، بالغلو في أمر الآخرة ، فعالجوا غلوا بغلو ، مع أن الإسلام ليس بدين الغلو في أمر الدنيا أو الآخرة ، وإنما

هو دين الاعتدال في أمرهما ، فلا يمدح فيه من يفرط في أمر دنياه ، كما لا يمدح فيه أيضا من يفرط أمر أخراه » .

وللأستاذ الصعيدي كل الحق في ذلك . إلا أن هذا السلوك السلبي ظهر بين المسلمين في هذا القرن (الثاني) حين كانت الدنيا مقبلة عليهم ، وكانت آثار القوة التي أودعها الإسلام في نفوس أتباعه ، لا تزال لها سلطان عليهم ، فلم يسمعوا كثيرا لدعوة التفريط في الدنيا من أولئك الزهاد لأنهم عدوهم فقراء وغيرهم أغنياء ، صحيح أن هذا الزهد مباح في الإسلام إلا أنه ليس هو المثل الأعلى فيه كما يرى هؤلاء الزهاد ، وأن إباحته مشروطة بعدم الغلو في أمره إلى حد تقديس الفقر ، فالمبالغة فيه مذمومة من العلويين وغيرهم ، والاعتدال في أمر الدنيا هو المطلوب في الإسلام .

ولعل أقوال معروف الكرخي كانت من الأسباب التي جعلت الناس يقبلون عليه ويلتفون حوله ، بل جعلت كبار العلماء - قديما وحديثا - يعتبرونه واحدا من مجددي القرن الثاني الهجري ، ومن هذه الأقوال : « إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عليه باب العمل ، وأغلق عنه باب الجدل ، وإذا أراد الله بعبد شرا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل » . وهذا القول إيجابي وصواب جملة وتفصيلا ؛ لأن الخير كل الخير في العمل وليس في الجدل والكلام، والإسلام يعتبر العمل نوعا من العبادة، وتغليبه على الجدل أو الكلام هو خير للمسلم ، ومنها قولهم : « إذا عمل العالم بالعلم استوت له قلوب المؤمنين ، وكرهه كل من في قلبه مرض» . هذا القول يدلنا على أن أولئك المتصوفة ومنهم معروف الكرخي في هذا القرن كانوا مع مبالغتهم في العبادة والزهد ، لا يرون أنهم في غنى عن العلم - ولا يرون أن مجرد العبادة والزهد يكفي لنيل رضا الله عز وجل ، بل لابد معهما من العلم ، ليقوم العمل به على أساس سليم ، وينال بالعلم والعمل رضا الله كاملا غير منقوص . ولعل هذا الوعي والإدراك بقيمة العلم والعمل هما اللذان جعلا للأمة العربية الإسلامية مركز

الصدارة ، خاصة في القرون الهجرية الأولى ، يستوي في هذا الوعي والإدراك أتباع الصوفية أو غيرهم من المسلمين .

ولعل هذه الأقوال المقرونة بالأعمال كانت من مبررات اختيار معروف الكرخي واحدا من مجددي القرن الثاني الهجري . يضاف إلى ذلك أن تصوفه كان تصوف زهد وورع ، لا تصوف فلسفة ونظر ، وقد استعملت كلمة الصوفي أول ما استعملت في الكتابات الأدبية اسما لطائفة معينة من الزهاد الذين سماهم الجاحظ – الصوفية من النساك – وقد عمت حركة الزهد وانتشرت في كل مكان عندما ظهر في هذا القرن الميل إلى مجانبة الدنيا ، كرد فعل لما كان سائدا ومتفشيا في المجتمع الإسلامي في هذه الفترة بالذات من أنواع الترف والبذخ ، وهو ما عبرت عنه الأدبيات ، وفي مقدمتها حكايات ألف ليلة وليلة وغيرها . ولهذا .. فإن آلافا من المسلمين اعتزلوا الناس إلى حياة دينية هادئة إما فرادى ، وإما مع نفر قليل من أصحابهم ، وقد فر بعضهم – كما يقول الأستاذ الصعيدي وغيره من العلماء – إلى الخانقاوات التي ابتدأت تظهر قبل نهاية هذا القرن ، وإن لم تأخذ هذا الاسم ، عندما رسخ في نفوسهم اليقين من عذاب الآخرة وأهوال يوم القيامة . فبالغوا في الشعور بالمعصية ، ورجعوا عن كل مخالفة للشرع مهما صغرت بمختلف أساليب التوبة والندم ، واصطنعوا أساليب الذكر والتوكل ، وقد كان الذكر في أول الأمر نوعا من التأمل ، مصحوبا بترديد كلمة « الله » . أما التوكل فقد أخذ به بعضهم إلى حد التجرد عن كل عمل لهم فيه إرادة ، وامتنعوا حتى عن السعي في طلب الرزق .

هنا سلك معروف الكرخي مسلكا جديدا في التصوف وعرفه بأنه : « الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق » ، ثم يقول : « إن محبة الله شيء لا يكتسب بالتعليم ، وإنما هي هبة من الله وفضل » . ثم يعرف الأولياء في أمور ثلاثة : « أن يكون فكرهم في الله ، وأن يقوموا بالله ، وأن يكون عملهم لله » . وإذا لم يكن

للعارف من غير نفسه أي نوع من أنواع السعادة ، فإنه في نفسه متقلب في جميع أنواع السعادة . وإن من يتتبع أقواله - أي معروف الكرخي - وأقوال غيره يدرك أن أقواله من طراز آخر يخالف طراز أقوالهم كل المخالفة ؛ لأن تصوفهم يتجه نحو غاية «النجاة بالنفس من عذاب الآخرة » ، أما تصوفه هو - أي معروف الكرخي - فقد كان في جوهره وسيلة للمعرفة ، بمعنى : قصد الوصول إلى الذات العلية ، فوضع بهذا أساسا للتصوف النظري لمن بعده .

ولعل هذا وغيره كانت من مبررات اعتبار معروف الكرخي من مجددي القرن الثاني الهجري ، ويكفي هذا المجدد فضلا أنه استشعر معنى الإسلام وهو في ميعة الصبا حين كان يخالف معلمه الذي يقول له «ثالث ثلاثة» فيرد عليه : « بل هو الواحد » ويهرب من معلمه ومن والديه محبة في الدين الذي اختاره ، وحين يعود يقنع والديه بالدخول في هذا الدين ، فيوافقانه .. يكفيه هذا ومعه ما استحدث في أساليب التصوف من جوانب جديدة تدعو إلى المعرفة والعمل والعلم .



الإمام الشـافعي

الإمام الشافعى يعتبر من مجددي القرن الثاني الهجري ، كما اصطلح على ذلك العلماء والمؤرخون. صحيح أنه عاش السنوات الأربع الأولى من القرن الثالث إلا أن أغلب سنوات عمره كانت في القرن الثاني للهجرة، ولذلك فقد اصطلح أغلب الذين كتبوا عنه على وضعه ضمن مجددي القرن الثاني للهجرة.

والإمام الشافعى هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وينتهى نسبه إلى عبد مناف، فيلتقى نسبه مع النبى ﷺ عند الجد عبد مناف.. هذا الإمام والمجدد الإسلامى ولد بغزة عام ١٥٠ هجرية، وهى السنة التى توفي فيها الإمام أبو حنيفة... بدأ في طلب العلم بمكة والمدينة فبلغ فيه شأنا سمح له بالفتيا. والتدريس باليمن، فدس له «واليها» عند الخليفة هارون الرشيد حتى يخلص من رقابته، لكن يبرئه في بغداد قاضى الرشيد قائلا عنه: «له من العلم حظ كبير وليس الذي وجه إليه من شأنه»... ويعود إلى العلم والتحصيل، فما خلق إلا لهما، ويكتب رسالة أخذ الفقه منها علما له أصوله، ويؤسس مذهبا دينيا له أتباع ومريدون كواحد من المذاهب الإسلامية الأربعة : (المالكي والحنفي والحنبلي والشافعي).

كان الناس قبل الشافعى، إما : أصحاب حديث يحفظونه ويعجزون عن النظر والجدل، وإما : أصحاب رأي يجيدون النظر والجدل ويعجزون عن الآثار والسنن. فجمع بين الأمرين معا... نصر الحديث بالرأي، فانقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أهل الحديث. وقد بلغ من انتصاره أنه كان يقول: «ما من أحد إلا وتذهب عنه سنة لرسول الله ﷺ وتغرب فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت، فالقول ما قال رسول الله ﷺ».

لكن الإمام الشافعي لم يجد مجالا لعمله الجديد في بغداد ؛ لأنه كان يغلب على بغداد طريقة أهل الرأي، ولاسيما في عصر المأمون، الذي ظهر فيه الفلاسفة والمعتزلة، وهم أكثر غلوا في الاعتماد على الرأي من أبي حنيفة وأصحابه.. فتوجه إلى مصر عام ١٩٩ هـ، وفيها وجد مجالا متسعا، والمناخ يسمح بالتجديد في العلم، فقد سبقه إلى هذا المجال فقيه مصر الليث بن سعد منذ سنوات قليلة.

وقد جارى الإمام الشافعي غيره من أهل الحديث في الاعتماد على ظواهر النصوص في الأصول والفروع، فكان يذم التأويل فيها، كما يذم الاعتماد على الرأي وحده الصادر من العقل، كما جرى عليه علماء الكلام في عصره من المعتزلة، فلم تتجه نفسه إلى ذلك التفرق الديني الذي أشاع بين المسلمين الكثير من التباعد، ولم يعمل لنشر التسامح بين الفرق الدينية بقدر المخالفة في الرأي بل كان في الجانب المتزمت الذي لا يقبل تأويل النصوص ولا يرى أن يستفيد المسلمون في الدفاع عن دينهم بالمنطق أو نحوه من الوسائل التي توجد عند غيرهم.

وقد امتاز الإمام الشافعي بين الأئمة الأربعة بأنه ضبط بنفسه الأصول التي جرى عليها في اجتهاده واعتمدها في استنباطه ودونت في كتابيه : (الرسالة) و(الأم) وفيهما تلمح الكثير من آرائه التجديدية. يقول في كتابه (الأم): «العلم طبقات شتى، الأولى: الكتاب والسنة إذا أثبتت والثانية: الإجماع فيما ليس فيه كتاب ولا سنة. والثالثة: أن يقول بعض أصحاب النبي ﷺ قولا ولا نعلم مخالفا منهم.. والرابعة: اختلاف أصحاب النبي ﷺ في ذلك. والخامسة القياس والاستحسان، ولا يسعيان إلى شيء غير الكتاب والسنة، وهما موجودان ، وإنما يؤخذ العلم من أعلى».

وامتاز أيضا الإمام الشافعي بشاعريته التي كان لها كبير الأثر في حل قضية الشعر والدين حلا علميا، والتي محورها نفس شاعرية الرسول عليه الصلاة والسلام في القرآن. وقد فصل الإمام الشافعي في هذه القضية بقوله: «الشعر كلامه

حسن كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام.. غير أنه كلام باق سائر فذلك فضله على الكلام» . ولا يطمح أي شاعر أن يسمع كلام إمام كالشافعي أكثر من هذا القول الواضح الفاصل.

ومن مظاهر تجديد الإمام الشافعي في التمسك بالحق أنه كان يقول رأيين أو أكثر في المسألة الواحدة دون أن يرجح رأيا منها لعدم ظهور المرجح عنده ، وكان يقول بالرأي ، ثم يتبين له أن الحق في غيره فيتحول عن رأيه الأول، وقد برر ذلك فيما اشتهر من مذهبه القديم والجديد. ففي العراق استنبط الشافعي أحكاما وأصدر فتاوى وفق المنحى الذي اختاره للاجتهاد فكان من مجموع أحكامه وفتاواه ما عرف بفقه الشافعي «القديم» الذي تضمنته كتبه المؤلفة بالعراق، ومن بينها كتاب (الرسالة) وكتاب (المبسوط).

ولكن الشافعي بعد أن استقر بمصر رجع إلى كتبه وأقواله القديمة بالدرس والتمحيص. كما يرى الأستاذ «عبد الله سعد الرويشد» في كتابه : (قادة الفكر الإسلامي). فأقر بعضها وتحول عن بعضها الآخر نتيجة لمخالطته علماء مصر، وسماعه ما صح عندهم من الأحاديث، وما نقلوه من آراء الليث بن سعد ولما شاهده من حالات اجتماعية غير التي عرفها في الحجاز والعراق. ولذلك عرفت أقواله التي أملاها على تلاميذه في مصر بفقه الشافعي «الجديد»، وتضمنه كتاب «الأم» الذي هو تنقيح لكتابه «المبسوط».

ومن أمثلة ما تحول عنه الشافعي من الأقوال أمرين: أولهما: أنه في فقهه القديم اعتبر العلة في تحريم ربا الفضل في غير النقدين - أي في المشروبات والمأكولات - كونها ما يكال ويوزن ثم اعتبر في قوله الجديد أن العلة هي كونها مما يطعم.. وثانيهما أنه قال في فقهه القديم: يجب على المطلقة قبل الدخول متعة إن أخذت نصف

الصداق، وقال في الفقه الجديد لكل مطلقة متعة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

وهذا التطور الذي انتاب الإمام الشافعي في فتاواه أمر طبيعي نتيجة تطوره في الأخذ عن السابقين والتفكير فيه، ثم مواكبة اللاحقين، فقد أخذ في المدينة المنورة عن الإمام مالك وتخرج عليه، كما أخذ - بعد ذلك - عن أصحاب الإمام أبي حنيفة علم أهل الرأي وتفقه فيه. وبتمكنه من المذهبين لاحظ ما فيهما من كمال وقصور فعمل على إيجاد مذهب وسط بينهما يتفق مع ما حصل من معارف جديدة بعد استقراره بمصر وتعرفه على آراء علمائها وفقهائها.

وللإمام الشافعي الحق في ذلك.. له الحق أن يطور فيما أخذ عن الإمام مالك والإمام أبي حنيفة اللذين قال عنهما الجويني إمام الحرمين: «فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل..».

وإذا كنا في صدد الحديث عن فتاوى الإمام الشافعي. فقد يكون من المفيد أن نتعرض لاجتهاده. كما جاء في بعض كتابات المؤرخين، وفي مقدمتهم الأستاذ «عبد الله بن سعد الرويشد»، وخلاصة اجتهاد الشافعي أنه وقد اجتمع له علم الرأي من العراقيين وعلم أهل الحديث من الحجازيين، تعرف في ذلك بما أوتي من علم ومواهب وخرج من المناقشة في المسائل إلى تأصيل الأصول، وتقعيد القواعد، ووضع لأول مرة رسالته في علم الأصول، حيث شرح طريقته وأقام قواعده، وسمي بحق مؤسس علم الأصول، وقد كان لرسالة الشافعي في الأصول أثر عظيم في تاريخ الحقوق والاجتهاد إذ إنها حملت العلماء بعد ذلك على أن ينصرفوا للاهتمام بتدوين قواعد طرائقهم والنقاش فيها إلى جانب اهتمامهم بإيجاد حلول للمسائل

(١) البقرة: ٢٤١.

والمناقشة فيها، وأقاموا بذلك علما عظيما مستقلا عن العلم بالمسائل، وكونوا فيه مكتبة عربية ضخمة كانت ولا تزال فخرا للأجيال وشرفا ممتازا لعلم الحقوق الإسلامية.

غير أن الإمام الشافعي - أثناء تدوين طريقته، وتكلمه عن أصول الشريعة ومصادرها قد ضيق نطاق الاجتهاد كأصل من أصول الشريعة وجعله مقصورا على القياس ، وأخرج منه الاستحسان ونحوه وقال فيه: «من استحسن فقد شرع ولم يقيد من أصول الشريعة ومصادرها إلا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، فإن لم يكن نص فيهما فبالحمل على النص بطريقة القياس»، ولا شيء غير النص عند الشافعي في كل مسألة يفتي فيها ولقد أثبت الشافعي انحصار الأصل الإسلامي في الكتاب والسنة. وفي هذا يقول الشافعي: «الكتاب والسنة هما الأصلان اللذان افترضهما الله وهما «عينان». ثم قال: «إذا اجتهد المجتهد فالاجتهاد ليس بعين قائمة، إنما هو شيء يحدثه من قبل نفسه، ولم يؤمر باتباع نفسه، إنما أمر باتباع غيره. فإحداثه على الأصلين اللذين افترض الله عليه أولى به من إحداثه على غير أصل أمر باتباعه، وهو رأي نفسه، ولم يؤمر باتباعه. فإذا .. كان الأصل أن لا يجوز أن يتبع نفسه، وعليه أن يتبع غيره والاجتهاد شيء يحدثه من عند نفسه».

ثم قال الإمام الشافعي: «الاستحسان يدخل على قائله، كما يدخل على من اجتهد على غير كتاب ولا سنة، ومن قال هذين القولين قال قولا عظيما، لأنه وضع نفسه، في رأيه واجتهاده واستحسانه، على غير كتاب ولا سنة موضعهما... وهذا خلاف كتاب الله عز وجل، لأن الله تبارك وتعالى إنما أمر بطاعته وطاعة رسوله..».

ويتضح لنا من هذا : أن طريقة الإمام الشافعي في الاجتهاد هي نفس الطريقة التقليدية التي كانت منتشرة في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين، والتي لا تزال مسيطرة حتى الآن فيها. وهي لا ترمي إلى الاعتراف بالاجتهاد كمصدر من مصادر

الحقوق، ولا تقبل منه إلا ما كان محمولا على نصوص القانون معتبرا صادرا عنه، وتعتبر الاجتهاد واسطة للكشف عن إرادة المشرع القديم في الحادثة الجديدة ، لا للكشف عن إرادة غيره، وذلك بواسطة القياس المنطقي.

وخلاصة القول: أنه إذا أردنا أن نحدد الطابع الذي طبع به المذهب الشافعي فنقول أنه يتحدد في هذه النقاط:

١- حصر المصادر الحقيقية للشريعة في نصوص الكتاب والسنة.

٢- الأخذ بالاجتهاد ضمن نطاق القياس فقط، وإخراج ما عدا ذلك من طرق الاجتهاد كالاستحسان.

٣- اعتبار الاجتهاد بهذا المعنى حملا على النص، ولا شيء فيه غير النص : كتابا كان أو سنة.

وإننا لنجد في الطابع الخاص للمذهب الشافعي – أي تضييق نطاق الاجتهاد وحصره في نطاق القياس فقط: فارقا أساسيا ما بين طرائق الاجتهاد لدى المذهب الشافعي من جهة، ولدى المذهبين: الحنفي والمالكي من جهة أخرى، حيث اعتبر هذان المذهبان – كما تقدم – الاجتهاد مصدرا من مصادر الشريعة، وذلك بأوسع معاني الاجتهاد من قياس واستحسان واستصلاح. مع تقدير تطورات الأزمان، والأعراف، وما يكون لها من تأثير في الأحكام.

ومن هذا .. ذهب الأستاذ « عبد المتعال الصعيدي » إلى القول بأن الشافعي لم يكن مجددا فيما يتعلق بالرجعية التي وقعت فيها الفرق الإسلامية ؛ لأنه كان يرى مثل أهل السنة أن الإمامة في قريش، وأنها قد تكون من غير بيعة إن كان ثمة ضرورة إلا أن هناك عددا من الكتاب المحدثين، ومنهم الدكتور «عبد الحميد صالح حمدان » يعتبره مجددا على رأس المائة الثانية للهجرة.

بل قد يروى عنه - أي الشافعي - أنه قال: «كل قرشي غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة». فهذا منه إقرار لتلك الرجعية، وقد جعل الإسلام الأمة صاحبة الحق في تولية من يولى عليها، فمن يأخذه بالسيف يكون غاصبا، لأنه يكون في الغالب ناشئا عن عجزهم، ولأن المعصية لا يسوغها اجتماع الناس عليها، وإنما يسوغها التوبة منها. ولعل الشافعي يقصد من ذلك تحريم الخروج عليه إذا كان فيه ضرر أكثر من بقائه.

كذلك كان للإمام الشافعي رأي فيما يتعلق بالرجعية الاجتماعية التي قامت على التفرقة بين الشعوب الإسلامية.. ورفع بعضها فوق بعض.. فقد انقسم الفقهاء في مقياس الكفاءة في النكاح بين تلك الشعوب، فذهب الجمهور إلى اعتبار النسب في الكفاءة. وكان أبو حنيفة من أشدهم مغالاة في ذلك، وقد روي عنه أنه قال: «قريش أكفاء بعضهم بعضا. والعرب كذلك» وقال الثوري: «إذا نكح المولى المرأة العربية يفسخ النكاح».

وذهب بعض الفقهاء - كالإمام مالك - إلى اعتبار الدين في الكفاءة، فلا اعتبار عنده للنسب فيها. وهذا ما نطق به القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[1].

ولا شك .. أن هذا الرأي كان فيه القضاء على تلك الرجعية الاجتماعية التي أصيب الإسلام بها قبل أن يتمكن من إزالة الفوارق بين شعوبه، ليجعل منها شعبا واحدا لا يعلو فيه جنس على جنس، ولا توجد في جنس منه نزعة إلى الاستئثار بشيء في الدولة دون غيره، وقد توسط الشافعي بين الرأيين، فقال: «ليس نكاح غير

(١) الحجرات: ١٣.

الأكفاء حراما فأرد به النكاح، وإنما هو تقصير بالمرأة والأولياء. فإذا رضوا صح، ويكون حقا لهم تركوه، فلو رضوا إلا واحدا فله فسخه» فلم يقض الشافعي على تلك الرجعية الاجتماعية التي قامت في الإسلام .

ومع ذلك فقد اجتهد الإمام الشافعي ، وأضاف إلى تفكيرنا الإسلامي الكثير والجديد، حتى توفي في شهر رجب عام ٢٠٤ هـ، ودفن في : مقابر ابن عبد الحكم بمصر. وجدد مقبرته السلطان صلاح الدين الأيوبي، فأقام له ضريحا كتب عليه، «عمل هذا الضريح المبارك للإمام الفقيه محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع بن عبيد الله بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف الشهير بالشافعي» .



القرن الثالث



1 – الواثـــــق بـــــالله

2 – الخـــــــــــوارزمي

3 – الإمـام أحمـد بـن حنبـل

4 – الإمـــــام البخـــــاري

5 – الكنـــــــــــــدي

6 – الإمـــــام مـــــسلم

7 – أبـــو بكـــر الـــرازي

8 – ابـــــن ســـــريج

9 – الطـــــــــــبري

3

هذا القـرن

وتبدأ السنة الأولى من المائة الثالثة الهجرية يوم الأربعاء ٣٠ يوليو عام ٨١٦ م بما تحدثنا عنه كتب التاريخ من : أن المسلمين في هذا القرن كانوا من أكبر دول العالم قوة ومنعة.. علما وثقافة.. عملا وحضارة.. رغم ما اعتراهم من ضعف وتمزق بفعل توالي النكسات والفتن. لكن هذا الضعف الذي بدأ في هذا القرن على الدولة الإسلامية قد غطاه وجود مناطق قوية على أطرافها ، فكانت دولة بني طاهر في خراسان حامية للإسلام في الطرف الشرقي، وكانت دولة ابن طولون في مصر حامية له في الطرف الغربي.. إلى جانب ذلك ، فبنو أمية شغلوا بالفتح الإسلامي للأندلس، ولعل انشغالهم في هذا العمل قد حقق هدفين أولهما : تخفيف حدة الصراع بينهم وبين بني العباس، وثانيهما : فتح عوالم جديدة في الأندلس وغيرها من البلدان الأوروبية ، وإقامة حضارة عربية إسلامية قامت على أساسها الحضارة الأوروبية الحديثة.ولذلك يلحظ المتابع لسير الأحداث في هذا القرن : أنه إذا كانت عوامل الضعف والتمزق المتوارثة من القرنين : الأول والثاني قد دبت ، ففي المقابل كانت هناك عوامل قوة تتركز في المحافظة على ثقافة الأمة ونهضتها. تلك التي صنعتها عقول أبنائها ، فيبدو الحفاظ على هذه النهضة واضحا بواسطة ملوك بني العباس ، وفي مقدمتهم : الواثق بالله ذلك الخليفة المحب للعلم والعلماء ، الشغوف بالثقافة والفنون. حتى قيل عنه إنه يعيد أمجاد الدولة الإسلامية التي تحققت في عصر كل من هارون الرشيد والمأمون . ولذلك لقبوه بالمأمون الصغير.

كذلك ظهر في حلبة الصراع – خلال ذلك القرن – عنصر ثالث متمثل في الأتراك الذين وجدوا بسبب كون أم عاصم : (أحد خلفاء بني العباس) كانت تركية الأصل، وكان من الطبيعي أن يتولوا حراسة قصرها وأن يشغلوا أكبر المناصب. وأن يكثر عددهم حتى يصل إلى خمسين ألفا.. كذلك بدأ نفوذ الصوفية. وإلى آخر هذه الفئات التي يحدث فيما بينها خلافات لا تنقطع ، وتشغل الراعي والرعية ، وتجعل الدولة في حالة مستمرة من القلاقل والتوترات . وبديهي أن وجود مثل هذه الخلافات بين فئات الأمة يتطلب وجود مجدد يسمو على كل ما يحدث من خلافات. وقد ذكر كل من الأستاذ «الصعيدي» والأستاذ «أمين الخولي» وغيرهما من العلماء والمؤرخين عددا من المجددين في مقدمتهم الواثق العباسي والمهتدي العباسي من الملوك وأحمد بن حنبل من الفقهاء والكندي والرازي من الفلاسفة والخوارزمي من الرياضيين. ولا شك أن كلا من هؤلاء الرجال له إسهاماته في مجال التجديد في الإسلام كما سنرى في الصفحات التالية:

لكن هناك ثلاثة أمور ينبغي التوقف عندها لتأمل أحوال هذا القرن.. أولها: الاضمحلال الذي بدأ يدب في أوصال الدولة الإسلامية، وثانيها: بدء نفوذ الصوفية ومغالاتهم، والثالثة: في ازدياد ضعف أوروبا.

فأما عن الأمر الأول الخاص باضمحلال الدولة الإسلامية فقد أشار إليه جلال الدين السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) نقلا عن المؤرخ «ابن جرير الطبري» لما علم بخلع المقتدر ومبايعة ابن المعتز قال: «ما الخبر؟ قيل: بويع ابن المعتز ، قال: فمن رشح للوزارة؟ قيل: محمد بن داود. قال: ومن ذكر للقضاء؟ قيل: أبو المثنى. فأطرق – أي ابن جرير – ثم قال: هذا الأمر لا يتم. فقيل له: وكيف؟ قال: كل واحد ممن سميتهم متقدم في معناه عالي الرتبة، والزمان مدبر، وما أرى هذا إلا اضمحلالا، وما أرى لمدته طولا».

وقد صدقت نبوءة الطبري ؛ فإن ابن المعتز لما تم له الأمر، بعث إليه المقتدر يأمره بالانصراف، حتى يتيسر له الانتقال إلى دار الخلافة، فلم يوافق، وهنا اجتمع أنصار المقتدر واتجهوا إلى حيث يقيم ابن المعتز.. فلما رآهم هرب منهم، فعاد الأمر إلى المقتدر كما كان، وقد حبس ابن المعتز إلى أن مات في السجن ، وانتهت ولاية المقتدر بقتله.. وهذا هو الاضمحلال بعينه.

وأما الأمر الثاني فهو في بداية نفوذ الصوفية، ودعواتهم السالبة في التجرد عن الدنيا بما فيها من متع ومباهج وطيبات، وإيثارهم الزهد المبالغ فيه كإيثار الجوع على الشبع، والاستغراق في الشطحات الصوفية ، والكلام عن المقامات التي ربما تحدث انعزالا عن معنى الحياة الواقعية، وتأثير ذلك على بناء المجتمع : فئاته وطبقاته، يضاعف من ذلك اعتبارهم أن أتباع الصوفية لهم الحظوة المستمدة من عند الله عز وجل.. وغير ذلك من تفكير سلبي سبب نكسات رجعية في المجتمع.. ضاعف من حدتها ظهور بعض الفرق الصوفية مثل : الملامتية وغيرها.

أما الأمر الثالث فهو في ازدياد ضعف أوروبا التي كانت تعيش – وقتئذ – في ظلام دائم، وجهالة شديدة، وتخلف واضح، وتفكك المجتمع إلى جماعات لا يحكمها نظام أو قانون، وإنما حياة همجية بدائية سائدة، ولم ينقذها من هذا الضعف والاضمحلال والتخلف سوى العلم العربي والحضارة الإسلامية التي عبرت الحدود من موطنها في الأندلس الإسلامية عبر مدينة طليطلة، أو من الجنوب الإيطالي من صقلية خاصة.

هذا العلم العربي، والحضارة العربية الإسلامية، والتقدم والتطور الحادث في الدولة الإسلامية.. كانت جميعها من المشاعل التي أضاءت ظلام أوروبا، وبدلتها من الضعف قوة، للأسف وجهت لضرب الذين أفادوهم وهم العرب والمسلمون بعد ذلك.

والصفحات التالية.. تتضمن الحديث عن بعض مجددي هذا القرن الثالث الهجري:

الواثـق بالله

أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم بن الرشيد من الخلفاء القليلين الـذين اتفق المؤرخون والعلماء على اعتبارهم من المجددين في الإسلام . فباستثناء الخلفـاء الراشدين الأربعة ، لا نجد من خلفاء بنى أمية سوى عمر بن عبد العزيز الذي كـان يختلف أسلوبه عن أسلوب بنى أمية ، ويقـترب مـن الخلفـاء الراشـدين عـلى وجـه التحديد ، كان قريب الشبه بجده الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنـه ، أمـا بقيـة خلفاء بنى أمية فلـيس فـيهم مـن اتفـق العلـماء والمؤرخـون عـلى اعتبـاره مجـددا في الإسلام؛ ذلك لأن التجديد له شروطه التى لا تنطبق على أي منهم ؛ والسبب لأنهم منذ أن تولى كبيرهم معاويـة بـن أبي سـفيان الحكـم حتـى آخـر خلفـائهم اتـسمت عصورهم بالفتن والصراعات ؛ مما أدى في النهايـة إلى تمزيـق الدولـة الإسـلامية إلى شيع وأحزاب ، وتحويل الخلافة إلى ملك ، والتطاول عـلى آل البيـت وخاصـة عليـا وبنيه رضوان الله عليهم . إلى جانـب أن حرصـهم عـلى أبهـة الملـك كـان أكثـر مـن حرصهم على إصلاح أحـوال المسلمـين رغم اتسـاع الدولـة الذي بدأ منـذ عهـد الخليفـة أبي بكر رضـي الله عنه.

وإذا ما انتقلنا إلى العصر العباسى نجد من خلفائـه مجـددين كثـر في الإسـلام . فنجد هارون الرشيد ، والمأمون والواثق بالله وغيرهم ، وذلك لاختلافهم عـن بنـى أمية في إدارة شـئون الإسـلام ، واهـتمامهم بـما يفيـد وينفـع الدولـة ، ومـا يميزهـا حضاريا. فنجد ما اهتم به هارون الرشيد من الاهتمام بالعلوم يمتد إلى ابنـه المـأمون وإلى حفيده الواثق بالله الذي ولد عام 196 هـ وتولى الخلافة بعـد أبيـه المعتـصم بـن هارون الرشيد عام 227 هـ واعتبر ضمن مجددي القرن الثالث للهجرة .

هذا المجدد كان وافر الأدب ، جيد الشعر ، وكثيرا ما كان يلقب بالمأمون الصغير ، وذلك لحبه للعلم والعلماء والأدب والأدباء ، وكان عمه المأمون يعظمه ويقدمه حتى على ولده .. لهذه الأسباب التي اتصف بها المأمون الكبير وورثها الواثق حتى قال عنه الفضل اليزيدي : « لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من الواثق ، فقيل له : هل كان أروى من عمه المأمون ؟ فقال الفضل : نعم ؛ لأن المأمون كان يمزج الشعر بغيره من العلوم ، أما الواثق فكان لا يخلط بالشعر شيئا تقديرا منه لقيمة الشعر » .

كان إلى جانب محبته للعلوم والثقافة وتقريب العلماء والمثقفين منه . فكان يندر أن تخلو مجالسه من الشعراء أو العلماء والفنانين ، وغير ذلك مما يقرب الحاكم من شعبه .. فقد اتسم بالكثير من الصفات الشخصية الطيبة ومنها الحلم ، حتى قيل عنه: « ما كان في الخلفاء أحد أحلم من الواثق هارون بن المعتصم ، ولا أصبر على الأذى ، ولا أحكم ولا أعقل منه عند الخلاف » .

وكان يتسم بالتواضع الشديد والاحترام والتقدير لأهل العلم حتى قال عنه «أحمد بن حمدون» : « دخل هارون بن زياد مؤدب الخليفة الواثق بالله إلى مجلسه ، فأكرمه واحترمه . فسأله أحد الحاضرين : من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به هذا الفعل ؟ فقال : هذا أول من فتق لساني بذكر الله ، وقربني من رحمة الله ، هو معلمي ومؤدبي وأستاذي » .

وكان لا يفتر لسانه عن كلمة تسيء إلى شيعة علي بن أبي طالب ، على الرغم من أنه كانت هناك فجوة بين العلويين والعباسيين ، وعلى الرغم من أن الجانبين أبناء عمومة .. حتى قيل في عهد أحد خلفاء بني العباس الأوائل : « إن العلويين أصابهم ما أصابهم من هذا الخليفة العباسي أكثر مما كان يصنعه فيهم بنو أمية » . بينما نجد الواثق بالله يحفظ للعلويين التقدير والاحترام حتى كتب «يحيى بن أكثم» : «ليس

هناك من أحسن إلى آل علي بن أبي طالب مثل الواثق بالله ، حتى إنه قيل : إنه ما مات وفيهم فقير أو محتاج في عصره » . والحق أن هذا الأسلوب من التعامل قد بدأ من قبل : وبالتحديد من جده لأبيه أمير المؤمنين هارون الرشيد بن المهدي ، وامتد إلى حفيده الواثق بالله . ولعله بذلك كان يريد أن يصلح ما صنعه بنو أمية منذ كبيرهم معاوية بن أبي سفيان أو ما صنعته السياسة في أساليب بعض المتقدمين من خلفاء بني العباس إلى درجة أن منهم من كان يخشى زيادة نفوذ العلويين أكثر من خشيتهم من أطماع بني أمية في الحكم .

وحتى محنة أو أزمة الحديث عن خلق القرآن تلك التي بدأت في العصر الأموي وازدادت وتفاقمت في عصر بني العباس خاصة في عهد أمير المؤمنين المأمون العباسي ، وامتدت إلى الذين بعده سواء أخوه أو ابن أخيه الواثق بالله الذي تأثر بذلك حتى إنه بعث كتابا إلى أمير البصرة يأمره بأن يمتحن الأئمة بخلق القرآن وكان قد اتبع أباه المعتصم ، وعمه المأمون . إلا أنه رجع عن ذلك في أواخر أيام حكمه ، بعد أن اكتشف أن وراء هذه المحنة في عصره هو الوزير ابن أبي داود الذي كان يشعل النار كلما هدأت حول هذه المحنة إلى درجة أنه قرر أن : « من قال من الأسرى أن القرآن مخلوق أطلقوا سراحه وأعطوه دينارين ، ومن امتنع دعوه في الأسر إلى ما شاء الله حتى يقول أو يهلك .. » .

هذا الوزير الشرير ، الذي كان يتصف بالقسوة والغلظة قال عنه الخطيب ما نقله جلال الدين السيوطي بكتابه (تاريخ الخلفاء) وكان أحمد بن داود قد استولى على عقل الواثق بالله ، وحمله على التشديد في المحنة ، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن . إلا أنه كما يقال : إن الواثق رجع عن ذلك قبل وفاته عام 227 هـ .

وفي هذا السياق .. قال غيره ما سجله السيوطي في تأريخه بأنه قد حمل إلى مجلس أمير المؤمنين الواثق بالله رجل مكبل بالقيود والسلاسل . فلما دخل المجلس –

وابن أبي داود حاضر فيه – قال هذا الرجل المقيد موجها الحديث إلى هذا الوزير الشرير في حضور أمير المؤمنين : أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه أعلمه رسول الله – ﷺ – ولم يدع الناس إليه ، أم شيء لم يعلمه عليه الصلاة والسلام؟ رد عليه ابن داود : بل علمه . قال الرجل المقيد بالسلاسل ، فكان يسعه أن لا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم ؟ وضحك أمير المؤمنين الواثق بالله وقام وهو قابض على فمه حتى لا يرتفع صوت ضحكه أمام الحضور ، ودخل بيتا وهو يقول مرددا : «وسع النبي – ﷺ – أن يسكت عنه ، ولا يسعنا » . ثم أمر لهذا المقيد بالسلاسل أن يعطى ثلثمائة دينار ، وأن يرد معززا مكرما إلى بلده ، ولم يمتحن أحدا بعد ذلك ، ومن يومها كره ومقت الوزير ابن أبي داود .

وهكذا كانت أخلاق الواثق وحيله إلى العدل والإنصاف ، ولهذا ولغيره الكثير اعتبره المؤرخون والعلماء أحد مجددي القرن الثالث الهجري .

❊ ❊ ❊

الخـوارزمي

أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي : أحد مجددي القـرن الثالـث الهجـري، حيث توفي عام ٢٣٦ هجرية ٨٥٠ ميلادية ، وقد شهد جانبا من عصر الخليفة العباسى المأمون الذي يعتبر من أزهى العصور الإسلامية، حيـث أسـهم هـذا العـالم الجليـل بنصيب كبير في عظمة هذا العصر، مما جعله لـيس مـن أعمدتـه فحـسب وإنـما مـن أعمدة الحضارة العربية الإسلامية، حيـث تطـايرت شـهرته ، وتـردد اسـمه في كـل أرجاء الدنيا ، حتى إنك إذا سألت عنه أجنبيا وليس عربيا أو مسلما، يقول لك عنـه: رأس رياضي من أكبر الرؤوس، لا في زمانه فحسب، بل في كل زمـان. وهـو الـذي ألف في الحساب، وألف في الجبر، وألف في الجغرافية، وفي الفلك.

أما في الحساب فهو مؤلف أقدم كتاب في الحـساب. وتـرجم هـذا الكتـاب إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وهي لغة أوروبا العلمية حـين ذاك. وتـرجم كتاب آخر في الجبر، وظل الكتابان يدرسـان في جامعـات أوروبـا بحـسبان أولهـما : كتاب حسابها الأول، وبحسبان الثاني كتاب جبرها الأول. وذلك إلى القرن السادس عشر الميلادي.

فهذا هو كتاب الحساب الذي كان له الحظ الأوفر في إدخال الأعداد العربية إلى أوروبا، وتسأل عن أصل هذا الكتاب العربي فلا تجد له في العربية أصلا. لقـد ضـاع أصله فيما ضيع الزمان. أو لعله يرقد اليوم في دار من دور الكتب العامة، أو دار كتب خاصة، أو في بيت من بيوت العرب أو بيوت المسلمين. في القسطنطينية أو في الهنـد، أو ما بينهما. أو في الصين أو إسبانيا أو ما بينهما.

إن الذين بحثوا في مأثورات العرب - وأكثرهم أوروبيون - يقولون إن آثار العرب أقلها الذي ظهر، وأكثرها الذي خفي، وإن الغد كفيل بالكشف عن كثير والكشف عن آثار العرب القدماء، كان كالكشف عن آثار القدماء من المصريين، كلاهما قريب العهد حديث.

ودخلت الأعداد العربية أوروبا فأسموها الجورزمات aLGORISMS، وتطلب معنى هذا اللفظ في القاموس الإفرنجي فتعلم أنه اسم لفن الحساب بالتسعة الأرقام العربية والصفر. وتطلب أصله، فتعلم أنه مأخوذ من الخوارزمي، أبي عبد الله محمد ابن موسى. وكتب أبو عبد الله الخوارزمي، إلى جانب كتاب الحساب، كتاب الجبر الذي ذكرنا. وسماه : (حساب الجبر والمقابلة).

وتسأل عن الجبر، كيف جاء العرب، فتسمع من قول أنه جاء من الهند، وتسمع من آخرين أنه جاء من الأغارقة، وتقارن بين الجبر الذي جاء به العرب، في القرون التي يسميها الغرب الوسطى، بالجبر الذي كان في الهند، وبالجبر الإغريقي. ذلك الذي جاء على يد إقليدس. وقد عاش بالإسكندرية في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، أو ذاك الذي جاء على يد ديوفانتس DIOPHANTUS وقد عاش أيضا في النصف الثاني في القرن الثالث بعد الميلاد.. أقول : تقارن بين جبر العرب، وهذا الجبر الهندي الشرقي، وذاك الجبر الإغريقي الغربي فستجد فروقا في الكيف وفي الكم، وفي المزاج . وبينما انتحى الإغريق ناحية الهندسة يستعينون بها على حل المعادلات الجبرية، نحا العرب إلى جانب ذلك منحى مجردا صرفا، فبلغوا في تجريد الأعداد، وفي الفكر المجرد، مبلغا عاليا.

على أنك قد تزيد فتسأل، ومن أين جاء الهند بالجبر، ومن أين جاء الإغريق؟! وتبحث فتجد أن الصين كان بها قبل الميلاد المسيحي جبر، وتذهب في الدهر قدما. وتبحث فتعلم أن الفكرة الجبرية كانت حتى عند القدماء من المصريين. وتقرأ ورقة البردي المسماة ببردي أحمس.

وغير الخوارزمي، كتب في الحساب وفي الجبر كتاب من العرب آخرون. ترجمت كتبهم ودخلت أوروبا. ولكن ليس لكتب من هذه مثلما كان لكتب الخوارزمي من أثر النهضة الأوروبية العلمية التي ننعم في ظلالها اليوم.

وعابوا على العرب أن وقفت بهم الأعداد عند الألف، فلما أرادوا المليون قالوا ألف ألف. والذين يعيبون هكذا هم قوم يجهلون. إن الأعداد لا تخترع إلا عند الحاجة. وعند الألف، والألف ألف، وقفت حاجة العرب، وحاجة غير العرب كذلك. إن المليون لفظ في لغات بني البشر حديث. حيث لم يظهر إلا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يستخدمه أهل الرياضة إلا عام ١٣٤٠م ومعناه يظهر أنه لم يتحدد حتى في القرن السادس عشر. فمن الكتاب من كتبه عندئذ فعني به، لا ألف ألف، كما نعني نحن اليوم، ولكن ألف ألف ألف. أي البليون : لفظ ظهر نحو عام ١٤٨٠ ميلادية. وعنوا به أولا مليون مليون، وهذا ما يفهمه الإنجليز إلى اليوم. وفهم الفرنسيون غير ذلك. فهموا أنه ألف مليون، وتبعهم الأمريكان إلى اليوم. لهذا يتفادى الكتاب كثيرا لفظ بليون، فيقولون مكانه ألف مليون.

وهكذا .. فإن الخوارزمي كان له فضل في تعريف العرب ثم الأوروبيين بعلم الحساب، ويعتبر كتابه عن الحساب الأول من نوعه، في أوروبا فقد نقله «أولارد البائي» إلى اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوروبا في العصور الوسطى، وكان هذا الكتاب أول كتاب في الحساب داخل أوروبا، وبقي زمنا طويلا مرجعا للعلماء والتجار والمحاسبين وقد عرف في أوروبا باسم «الغورتمي» نسبة إلى الخوارزمي.

كذلك يعتبر الخوارزمي مؤسسا لعلم الجبر كعلم مستقل عن الحساب وهو الذي أخذته عنه أوروبا . وإلى جانب الحساب والجبر، فقد اشترك في قياس محيط الأرض في عصر الخليفة المأمون، كما أدخل تعديلات على جغرافية بطليموس، ونشر

كتابا صمم فيه صورة الأرض... إلى آخر هذه الإنجازات التي استفاد منها العرب وأوروبا بل والبشرية كلها ، على اعتبار أن شجرة العرفان شجرة عظيمة مباركة، ذهبت جذورها في الأرض وخفيت، وامتدت في ظلام خفائها إلى شرق وغرب. وهي شجرة إن خفيت أصولها، فقد طال جذعها وسمقت فروعها، وأينعت أزهارها، ونضجت لها من بعد أزهار، وأثمار. وقامت الأجيال على سقيها. وقد سقاها العرب فيمن سقى، وسقوها في قرون عز فيها السقاة.

فهذا مجد العرب. وهو مجد من بعض مجد الله. فالله حكيم، والله عليم. وهو سبحانه الذي جعل الخوارزمي وغيره من العلماء العرب في خدمة البشرية.



الإمام أحمد بن حنبل

الإمام أحمد بن حنبل من مجددي القرن الثالث الهجري، على ما اتفق عليه المؤرخون، حيث توفي ببغداد في ١٢ ربيع الأول عام ٢٤١ هـ ، وحين نرجع إلى ما كتبه عنه الشيخ « محمد أبو زهرة » نجد أن ابن حنبل ولد في ربيع الأول عام ١٦٤هـ.

وقد ولد من أسرة عربية شيبانية ، فكلا أبويه من شيبان، وشيبان قبيلة من ربيعة، لها همة في الجاهلية والإسلام، حتى لقد قيل: «إذا كنت في ربيعة فكاثر وفاخر بشيبان، وحارب بشيبان».

وكان أبوه محمد بن حنبل من القواد، وجده ممن اشترك في نصرة العباسيين حتى زالت وانتهت الدولة الأموية، وقد ضربه حاكم الأمويين لذلك فاحتمل حتى زالت تلك الدولة، وأمه كانت شيبانية كما أشرنا، وكان أبوها جوادا كريما قد فتح بابه للعرب، حيث كانت تنزل عنده وفود القبائل فيضيفها.

ورث أحمد بن حنبل عن هذين الأبوين سمو النفس، وبعد الهمة، وجميل الصبر، وقوة الاحتمال، ولكن قدر لهذا الفتى أن يتربى يتيما، كما تربى شيخه الشافعي يتيما، حيث لم يدرك أباه. وقد قامت أمه على تربيته والعناية بتنشئته في ظل بعض ذوي عصبته، ولم يتركه أبوه فقيرا معدما لا يجد ما يكفيه، بل ترك له عقارا يسكنه، وبه حوانيت لها غلات ضئيلة تعطيه الكفاف من العيش، ولا تعطيه كريم العيش ولينه، وقد استمر يعيش من هذه الغلة الضئيلة حتى قبضه الله تعالى إليه، فعندما أقبلت الدنيا عليه، وألقيت بين يديه، نحاها عنه بنفس نزيهة... حتى كانت الأموال تجيئه من المتوكل فيردها في تواضع كريم.

وقد ظهرت مظاهر الورع لدى أحمد بن حنبل منذ أن كان طفلا لم يكتمل رشده، فقد كان عمه يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد، وكان يكتب بها تقارير، وقد كلف ابن أخيه أحمد بن حنبل أن يبلغ الوالي بعضها، فأخذ الكتب وألقى بها في النهر. ولما سئل عن ذلك قال متعجبا: «أنا كنت أرفع تلك الأخبار!! رميت بها في الماء» فجعل الوالي وهو الذي كان يسائله، يسترجع ويقول: «هذا غلام يتورع – أي ورع – ، فكيف نحن ؟!».

ولهذا النزوع الديني منذ صباه اختارت له أسرته الدراسات الدينية، فتعلم علوم العربية وحفظ القرآن، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة، وجه إلى الديوان ليتدرب على الكتابة والتحرير. حتى إذا أتم هذا الدور، وشب عن الطوق، أخذ يختار لنفسه طرقا وأساليب، فاختار ما يتفق مع نزوعه ومع ما نشأته عليه أسرته، وقد اختار أن يتجه إلى الحديث، فكان يذهب إلى حلقاته، فجلس في حلقة القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، وقد كان فقيها ومحدثا، فقبس من فقهه قبسة، وإن لم يستمر على الجلوس في حلقته، فقد اتجه إلى الحديث بكليته، وكان هناك المحدثون في كل بقاع الأراضي الإسلامية. ففي البصرة محدثون، وفي الكوفة محدثون، وفي بغداد كثيرون منهم وبلاد الحجاز تزخر وتفخر بهم. وقد التقت المدائن والأمصار التقاء علميا في ذلك العصر، فلم يكن ثمة حواجز إقليمية تجعل كل إقليم يكتفي بحديث أهله، ولا يقبل رواية غيره، بل كانت الرحلة العلمية مستمرة متصلة.

وعندما اعتزم أحمد بن حنبل في مستهل شبابه أن يطلب الحديث ، أخذ نفسه بالشدة في طلبه من كل ينابيعه، فجمع حديث الشام والعراق والحجاز، وبلا ريب قد طلب الحديث أولا في بغداد ، وابتدأ في طلبه في سن الخامسة عشرة أي سنة ١٧٩ هـ، واستمر يسمع ويكتب في بغداد حتى سنة ١٨٦ هـ، ثم ابتدأ رحلاته العلمية.

وبذلك يكون قد بقي في بغداد نحو سبع سنين يطلب الحديث في مكانه فيها، ولزم مع ذلك ابن حازم الواسعي نحو أربع سنين منها، وبعد موت شيخه هذا تلقى عن كل شيوخ الحديث في بغداد ، وبدأ رحلاته حيث رحل إلى البصرة خمس مرات، ورحل إلى الحجاز مثلها، وفي رحلته إلى الحجاز سنة ١٨٧هـ التقى بالإمام الشافعي، فأخذ عنه الفقه، وقد كان لقاؤه بالشافعي بعد أن نضج، وأخذ يبين مناهج الاستنباط. وهنا نجد أحمد بن حنبل يضم إلى دراسته وجمعه للحديث دراسته للفقه، وبذلك التقى عنده علم الفقه وعلم الحديث، وإن كان الحديث فيه أظهر وأوضح. وكان يرحل الرحلات الكثيرة مع قلة في المال، حتى إنه كان أحيانا يرحل ماشيا، وقد حج خمس مرات، منها ثلاث كان ماشيا على قدميه.

ولقد كان يستطيب المشقة في طلب الحديث ؛ لأن الشيء الذي يجيء بيسر يكون قريب النسيان، وكان يحتسب النية في الهجرة لأجل الحديث، وقد سافر إلى اليمن لطلب الحديث الذي رواه عبد الرزاق بن همام بصنعاء اليمن. وفي هذا السفر فقد منه الزاد، فكان يحمل أمتعة الناس بأجر حتى وصل إلى عبد الرزاق. ولما علم هذا بما عليه من مشقة أمده بدنانير، فقال أحمد الصابر الشاكر: «أنا بخير»! وردها! وقد مكث على هذه المشقة سنتين استهان بها فيهما، لأنها في طلب الحديث، ولأن العمل الشاق خير من قبول العطاء.

وهكذا.. طوف أحمد بن حنبل في الأقاليم الإسلامية طالبا للحديث، لا يستكثر منه الكثير، ولا يني عن الكد والجهد والتعب، حتى كان يحمل حقائب كتبه على ظهره.

وكلما كد وجد واجتهد زاد مقامه... وقد بلغ مبلغ الإمامة ، وصار مقصد طلاب الحديث، وفقه الحديث، والمستفتين من كل بقاع العالم الإسلامي، وكان يدون كل ما يستمع ويكتب، وقد رآه بعض تلاميذه على هذه الحال وقد بلغ من

الفضل ما بلغ فقال له: «يا أبا عبد الله، أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمام المسلمين، فلماذا تكتب؟» فقال الإمام المجد: «مع المحبرة إلى المقبرة» وكان يقول رضي الله عنه : «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر».

وكان الإمام أحمد معنيا بتدوين ما يسمع وما يكتب في الكتب، فإن العصر الذي عاشه كان عصر تدوين الكتب في شتى العلوم، كان يصمت إلى ما يسمع ويحفظه، وإذا سأل سائل أو روى عنه راو لا يعتمد على حفظه في روايته، بل مما كتب، ويستمع إليه ليقرأ ما كتبه راويه.

ولقد اتجه أحمد بن حنبل إلى الفقه منذ لقائه بالشافعي، فامتزج حديثه بفقهه، ودرس الفقه من ينابيعه المختلفة حتى إن تلميذه قال: كان أحمد قد كتب ما كتب أهل الرأي، ثم لم يلتفت إليها. فهو يطلب الآراء وإن كان لا يذعن لاتجاه بعضها.

وإن الأحاديث التي رواها هي أحاديث فقه ، حيث روى الأحاديث النبوية وفقه الصحابة فيما رواه من فتاويهم وأقضيتهم ، وفقه التابعين فيما رواه من فتاويهم وأقضيتهم أيضا، على رواية ما جاء في موطأ مالك من فتاوى للصحابة، بل كان حريصا على تعرف مالك في مسائله، وخصوصا ما كان على عمل أهل المدينة. وقد سجل حديثه في كتابه العظيم «المسند»، وهو أكبر موسوعة لأحاديث رسول الله ﷺ ، وفتاوى الصحابة وأقضيتهم.

وقد جلس أحمد بن حنبل للحديث والإفتاء عندما بلغ الأربعين من عمره، ويروى أن أحد معاصريه جاء إليه يطلب الحديث سنة ٢٠٣ هـ، فذهب ذلك الطالب إلى عبد الرزاق بن همام في صنعاء باليمن ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٢٠٤ فوجده قد حدث واستوى الناس في مجلسه.

وأما لماذا لم يحدث قبل أن يبلغ الأربعين؟ فإن ذلك اقتداء بالنبي ﷺ لم ينزل عليه الوحي قبل الأربعين. وقد استوى أحمد بن حنبل من بعد الأربعين في جلسة الدرس والإفتاء، وأم الناس لعلمه وفضله، وكان درسه بمسجد بغداد.

وقد اتصف الإمام أحمد بصفات رفعته في جيله، وجعلته في الذروة بين العلماء، **وأولى هذه الصفات** : الصفة العلمية التي هي لازمة لكل عالم اشتغل بفرع من فروع العلم الديني أو الدنيوي، وهي الحافظة الواعية، فهذه الحافظة أساس لكل علم ونظر، وخصوصا علماء الحديث. ولقد آتى الله أحمد منها حظا وفيرا، والأخبار عنه في هذا متضافرة، وقد عده كثيرون أحفظ أهل عصره، ولقد قيل لأبي زرعة معاصره: «من رأيت من المشايخ والمحدثين أحفظ؟». قال: «أحمد بن حنبل».

وكان مع حفظه ووعيه عميق النظرة في كل ما ينقل ، فهو يحفظ أحاديث النبي ﷺ وفتاوى الصحابة ، وفتاوى كبار التابعين ، ويتفهم هذا كله تفهم العارف المستنبط لا مجرد الراوي الحافظ، وقد اشتهر بذلك بين المحدثين حتى عد فقيههم في عصره . ويقول في ذلك إسحاق بن راهويه : «كنا نتذاكر الحديث من طريق أو طريقين أو ثلاثة فأقول ما مراده ، ما أفقهه ، فيقفون كلهم إلا الإمام أحمد ابن حنبل».

والصفة الثانية، وهي أبرز صفات أحمد بن حنبل : الصبر والجلد وقوة الاحتمال، وهي مجموعة سجايا كريمة أساسها قوة الإرادة وصدق العزيمة، وهذه الصفة هي مزاج صفات الإمام أحمد، فقد جمع بها بين الفقر والجود وعزة النفس والعفة، وجمع بها بين الإباء والعفو، احتمال الأذى والصفح الجميل، وهي التي جعلته يتحمل الشدة في طلب العلم في الحضر والبدو، وهي التي نازل بها الذين رموه بالأذى فصبر وصابر، ولم يهن ولم يجبهم إلى قولهم، حتى عجزوا وهم الأقوياء، وغلب وهو الضعيف في بدنه، ولكنه القوي في نفسه.

ولما زالت النقمة اختبره الله بالنعمة ، فصبر فيها كما صبر في الأولى، فرد عطاء الخليفة ورضى أن يعيش هو وعياله في قلة من الرزق والعيش. وصبره، صبر لا أنين فيه ولا شكوى ولا ذهاب جنان، ساقوا اثنين بين يديه فقتلوهما، وهم يهددونه

بالقتل أو يقول ما يريدون، فوجد في بعض الأحياء المعذبين البويطي صاحب الشافعي فقال له: «ماذا قال الشافعي في المسح على الخفين؟»، فتعجب الجميع حتى قال أحمد بن دؤاب متعجبا: «انظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه فيناظر في الفقه!».

والصفة الثالثة - النزاهة بكل شعبها وضروبها كما يقول الشيخ « محمد أبو زهرة» : «فهو نزيه النفس لم يأخذ من مال غيره : قليلا أو كثيرا. وهو نزيه في إيمانه فلم يجعل لغير الله سلطانا عليه ، ولا يداري ولا يداجي ، ولو كان السيف في يد من يبرق ويرعد. وهو نزيه في تفكيره ، فلم يرد أن يفكر في أمر لم يفكر فيه السلف الصالح ولا يحقق حاجة دنيوية من حاجات الزمان. وهو نزيه في فقهه يأخذ برأي الصحابة ، فإن اختلفوا اعتبر أقوالهم أقوالا له، وكذلك التابعون الكبار أهل الورع. وإذا لم يكن نص ولا فتوى لصحابي أو تابعي أخذ بالقياس، واعتبره كأكل الميتة لا يحل إلا للضرورة وبقدرها » .

وكان مع زهادته ونزاهته يبيح الحلال لكل من يستطيعه من حلال، ويعتبر تناول الحلال يلين القلوب، وفي دائرة الحلال الذي لا شبهة فيه تستطاب الحياة، ويقول في ذلك: «يؤكل كل الطعام بثلاثة: مع الإخوان بالسرور، ومع الفقراء بالإيثار، ومع أبناء الدنيا بالمروءة» وكان يفهم أن الصداقة البرة عز، ولذا كان يقول: «إذا مات أصدقاء الرجل ذل»..... وأن النزاهة المطلقة التي اتصف بها ذلك الإمام الجليل انبعثت من إخلاص مستفيض، حتى إنه لإخلاصه كان يحب أن يخمل ذكره، ويغبط الذين خمل ذكرهم، ويقول في ذلك: «طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذكره». ولإخلاصه كان يستقل عبادته، ولا يستكثر المنة التي نزلت به.

والصفة الرابعة التي امتاز بها ذلك الإمام الجليل هي المهابة. كان مهيبا من غير خوف، وكان رجال الشرطة يهابونه حتى عندما يهاجمون داره. فإنه يروى أن شرطيا

ذهب ليناديه، فهاب أن يطرق بابه، وآثر أن يطرق باب عمه ويدخل إليه من بابه، حتى يؤسس نفسه بذلك اللقاء المهيب. وقد قال أحد معاصريه: «دخلت على فلان وفلان من السلاطين، فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل. صرت إليه، أكلمه في شيء فوقعت علي الرعدة حين رأيته من هيبته».

وإن الهيبة هبة من الله تعالى، وقد نماها عند أحمد بن حنبل ما اتصف به من الجد الذي لا مزاح فيه ، حتى إنه ليحسب أن كل مزحة مجة من العقل... ونماها صمته فإذا تكلم لالغو ولا تأثيم فيما يقول... ونماها صبره في المحن، وعفته عن أموال الحكام.

وكان مع هذه المهابة الأليف المأمون المخلص والمحب لتلاميذه وأصحابه ، وقد قال أحد معاصريه في وصفه: «ما رأيت أحدا في عصر أحمد بن حنبل ممن رأيت، أجمع منه ديانة وصيانة، وملكا لنفسه، وفقها، وأدب نفس، وكرم خلق، وثبات قلب، وكرم مجالسة».

ذاع بين الناس وصف التشدد في الدين بالحنبلية، بل ذاع في العصور الإسلامية إلى عصرنا هذا وصف التشدد في النزاهة بالحنبلية. وإن هذا الوصف له صلة بالإمام أحمد بن حنبل ذاته، وببعض الذين اعتنقوا مذهبه. فأما الذي يتصل بشخصه فهو النزاهة والبعد عن الحرام، حتى إنه كان يمتنع عن أكل طعامه إذا خبز بوقود ظن أن مالكه لم يملكه من حلال، أو فيه شبهة حرام، وأن صفاته وأعماله كلها تدل على أنه أخذ نفسه بشدة لا يحتملها سواه، وإن لم يدع الناس إلى أن يسلكوا مسلكه. أما ما وقع من بعض الذين اعتنقوا مذهبه فإن ابن الأثير يذكر في تاريخه أنه في سنة ٣٢٣ هـ قامت فتنة في بغداد بسبب شدة الحنابلة، فأراقوا الأنبذة، وهاجموا دور القوادين، وكسروا أدوات الغناء، وضربوا المغنيات، وكلما رأوا رجلا يمشي مع امرأة استوقفوهما، وسألوهما عن العلاقة بينهما، ويندر أن يسلم منهم أحد، وأغلظوا على الشافعية وعلى الشيعة في تقديس مناظراتهم.

وأما ما يتعلق بالمذهب الحنبلي نفسه ، فإنه قد اشتهر بالتشدد في الطهارة، انفرد بالتشدد في مسائل: منها أنه يوجب تطهير أي إناء تقع فيه نجاسة بغسله سبع مرات إحداهن بالتراب، وذلك هو الراجح في المذهب. ومنها - أن الماء الذي ينزل من الإناء الذي يقع فيه نجاسة يعد نجسا ، فكل الماء الذي ينزل من مرات الغسيل يعد نجسا. ومنها أنه إذا كان مع الشخص إناءان، أحدهما فيه ماء طاهر، والثاني فيه ماء نجس، وشك لم يعرف أيهما، أريقا من غير نحر. ومنها أن الأواني التي كان يستعملها الوثنيون والمجوس يجب تطهيرها بطريقة الحنابلة قبل استعمالها. وبهذا حق للمصريين وغيرهم أن يصفوا كل متشدد في دينه أو نزاهته بأنه حنبلي، فالوصف سليم، وأكثر هذه الأسباب يرفع الحنبلية ولا يخفضها .

يبقى في هذا الحديث الذي دار حول الإمام أحمد بن حنبل، بعد قراءتنا لبعض ما كتبه الشيخ «محمد أبو زهرة» وغيره من العلماء والمهتمين، رأى هذا الإمام في مسألة «خلق القرآن» تلك التي أثيرت في عصره وانقسم العلماء وقتئذ إلى فريقين والحق أن هذه القضية شغلت المسلمين زمنا طويلا. حيث بدأت تطل برأسها في العصر الأموي لتمتد وتأخذ مجالا أوسع وأرحب في الجدل والمناقشة إبان العصر العباسي ، وبالتحديد في عهد الخليفة المأمون. وقد انحصر الجدل فيها بين طرفين: أهل الرأي ويتزعمهم المأمون أحد المجددين في القرن الثاني وخلفاؤه، وأهل الحديث ويمثلهم أحمد بن حنبل أحد المجددين في القرن الثالث الهجري كما عرفنا.

والقضية كانت حول مسألة خلق القرآن. الطرف الذي يمثل أهل الرأي يرى أن القرآن مخلوق، والطرف الذي يمثل أهل الحديث يرى أنه لا مجال لمناقشة مثل هذه المسألة ، طالما لم يأت بشأنها نص في الأحاديث النبوية ، ولم يناقشها الخلفاء والتابعون بعد ذلك.

ولعل «بداية» طرح هذه المسألة في عصر بني أمية ، وبعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه ، وما صاحب ذلك من ظروف سياسية يجسد الهدف الأساسى منها في البداية على الأقل ، وهو العمل على تفرق المسلمين في الرأي حول مسألة لا تتطلبها حاجتهم وقتئذ. فقد بدأها أناس غير مسلمين يريدون إثارة الجدل ، أو كما علق العالم الفقيه الراحل محمد أبو زهرة: «إثارة الجدل» ومع الجدل الريب بين المسلمين. حتى تضعف قوة اليقين في قلوبهم، حين أثارها في عصر بني أمية (الجعد بن درهم) واستنكرها كثير من العلماء. واعتبروا إثارة ذلك بدعة. ولزم بقية التابعين الصمت. فلم يتعرضوا لها سلبا أو إيجابا وقتل خالد بن عبد الله القسري (الجعد بن درهم) وكان بين المسلمين طائفة قد تصدت للرد على كل ما يثيره البعض، ووجدت أن من الواجب أن يقولوا أن القرآن مخلوق.

وهكذا نرى في هذا الرأي : أن البداية كانت في العصر الأموي، وأن التابعين لزموا الصمت. ولعلهم فعلوا ذلك تجنبا لاتساع الجدل، إلا أنه بعد أن تولى المأمون أمر المسلمين. واتخاذه رأي المعتزلة. حتى كان يقول: «المعتزلة أصحابنا» أخذ يدعو إلى القول بخلق القرآن محاولا أن يحمل الفقهاء والمحدثين من أهل السنة على اعتناق ذلك. ولكن بعضهم توقف عن اعتناق رأي المأمون بدعوى أنهم يقولون ما لم يقله الرسول ﷺ أو صحابته رضى الله عنهم. خاصة وأن هذا الأمر لم يكن الناس في حاجة إليه في حياتهم العملية.

غير أن المأمون لم يتراجع. وكتب إلى وزيره أحمد بن داود الذي كان له ضلع كبير في تحريك هذه القضية ، يأمره أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن ، وأن يجمع القضاة والفقهاء ليعلمهم ذلك ، فمن أقر أن القرآن مخلوق خلى سبيله ، ومن أبى أعلمه به. كان ذلك في كتاب موجه قال فيه: «وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية... ساووا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين على أنه قديم لم يخلقه. وقد قال الله عز

وجل في محكم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء للمؤمنين ورحمة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1] فكل ما جعله الله فقد خلقه».

وبدأت كتب المأمون في هذا الشأن تأتي تباعا ، فبدأ بضرورة حمل كل من يتولى عملا في الدولة على القول بخلق القرآن، «ولا تقبل شهادة أي شخص ما لم يقل بخلق القرآن»، ثم تصعد في ذلك فمنع المفتين والمحدثين أن يقوموا بالفتوى أو بالحديث ما لم يقروا بخلق القرآن. وانتهى الأمر بأن ينزل العقاب الشديد بل والإعدام بمن لم يقل أن القرآن مخلوق. ونتيجة لهذا الأمر استدعى الفقهاء والمحدثين الذين لا يقولون ذلك موثقين بالأغلال والسلاسل قائلا: «فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله... ولا قوة إلا بالله».

وقد أجاب الجميع ما عدا ثلاثة سيقوا موثقين إلى المأمون فرجع أحدهم عن رأيه في الطريق ومات الثاني وبقي الثالث وهو الإمام أحمد بن حنبل ، للمحنة صابرا، غير أن المأمون مات قبل أن يصله هذا الإمام الجليل إلا أن التشديد في مسألة خلق القرآن كان وصية من المأمون إلى أخيه المعتصم.

وطبيعي .. أن يقوم الخليفة المعتصم بالوصية فيعذب الإمام ابن حنبل بالسجن مع الضرب المتواصل ثمانية وعشرين شهرا. والإمام مصمم على رأيه ، بأنه لا يقول بشيء لم يصدر به حديث ، وحين يئس المعتصم أخرجه من السجن على أن يلزم داره فلا يفتي ولا يحدث وإن كان قد سمح له بالإفتاء في أواخر عهده.

وبعد المعتصم يتولى الواثق الخلافة فيعيد المسألة من جديد . وينزل بالإمام ابن حنبل وغيره عقابا شديدا بالسجن أو بالضرب. ولكنهم يزدادون إصرارا حتى رأى الواثق أن يباشر التحقيق معهم بنفسه ، فيحضر ابن حنبل، ويتولى التحقيق معه الوزير أحمد بن داود في حضرة الخليفة.

---

(١) الزخرف: ٣.

ومن الغريب أن يتولى هذا الوزير التحقيق وهو خصم في الوقت نفسه فيسأله: لماذا لا تقول إن القرآن مخلوق؟ ويجيب ابن حنبل : «شيء لم يدع إليه رسول الله ﷺ ولا الخلفاء رضوان الله عليهم. ويقول الإمام ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه، فإن قلت علموه وسكتوا عنه وسعني وإياك من السكوت ما وسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت - الوزير - فيا لكع ابن لكع ، يجهل النبي الكريم والخلفاء الراشدون شيئا تعلمه أنت»؟!

فيعاد إلى سجنه وتعذيبه ، لكن دون جدوى ، فيخرجونه بشرط ألا يفتي ولا يحدث في عهد الواثق ، حتى إذا جاء الخليفة المتوكل يزيل عنه هذه المحنة بأن يبعد أحمد بن داود «المحرك لها والموسوس بها » لمن سبقه من الخلفاء. ويعلق العالم الراحل «أبو زهرة» على هذه القضية قائلا: «الحق أن القائلين بعدم خلق القرآن لهم وجهة نظر فيما يقولون وليس فيما يقولون كفر أو زيغ. بل إن الذي دفعهم إلى ذلك هو سد الطريق على الذين يحاولون إفساد المسلمين بتأويل بعض العبارات القرآنية تأويلا باطلا. كما أن الإمام أحمد بن حنبل ومعه كل المحدثين ما كانوا يريدون الخوض في ذلك لأنه لا نص فيه ولا توجد فائدة عملية منه » .

وهكذا .. كانت قضية غريبة. أثارتها في البداية عناصر أموية أرادت شغل تفكير المسلمين فيما لا يجدي ، واستمرت بموافقة العباسيين . ثم كان من نتيجتها تعذيب هذا الإمام الجليل وتعطيل اجتهاداته!

❋ ❋ ❋

الإمـام البخـاري

الإمام البخاري هو : محمد بن أبي الحسن بن إبراهيم المغيرة بن بردزيـه، المولـود في بخارى والمنتسب إليها... أحد مجددي القرن الثالث للهجرة، حيـث كانـت وفاتـه عـام ٢٥٦ هـ بعد حياة حافلة قضاها في خدمة الحديث النبوي الشريف إما باحثا عنـه ومنقبـا في أقطار العالم الإسلامي ، أو محققا وشارحا له في أجزاء لا يغفل عنها أي مسلم.

اقترن حفظه للقرآن صغيرا دون العاشرة، بطور تأسيسه وتكوينـه، إذ تفتحـت مداركه على معاني هذا الكتاب المبين... إلى درجة أن مؤرخيه ومنهم الأستاذ عبد الله ابن سعد الرويشد يشيدون به ويذهبون إلى أنه كان سريع الصعود مع النضج.

وبعد حفظ القرآن الكريم اتجه إلى حفظ الحديث وعلومـه، ويـصبح في مقدمـة المحدثين . ولعل اهتمامه بالحديث حفظا وشرحا نستدركه فيما قاله المؤرخ المقريـزي: سمعت محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول: سمعت البخاري يقـول: «ألهمـت حفظ الحديث وأنا في الكتاب، قلت: وكم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عـشر سـنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ على الناس:«سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم» فقال: إن أبـا الـزبير لم يـرو عـن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك، فدخل فنظـر فيـه، ثـم رجع فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير – وهو ابن عـدي – عـن إبـراهيم، فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال لى: صدقت. قال: فقال لـه إنـسان: ابـن كـم حـين رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة».

وهذا الابتداء كان بشير خير للبخاري وقد زاده انتصاره في محاورة الداخلي ثقة في نفسه، واطمئنانا لمستقبله، ثم لا شك أنه زاده إخلاصا في العمل وإقبالا على الطلب، فلم يكن يقتنع بما يلتمسه من شيوخه، وما يتلقاه عنهم بل كان يتحول عنهم إلى الكتب يعكف عليها، ويشغل وقته بقراءتها وحفظها ويستمر على هذا المنهاج خمسة أعوام بعد مجاوزته مقاعد الكتاب حتى إذا أشرفت هذه الأعوام على التمام كان قد وعى وحفظ الأعلام المشهورين الذين تتلمذ عليهم في بلده، وزاد عليهم بحفظ ما وقع له من كتب الأئمة السابقين – وهو يقول فيما سمعه منه وراقه محمد ابن أبي حاتم: «فلما بلغت ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ، وعرفت كلام هؤلاء» يعني أصحاب الرأي كما يقول الحافظ ابن حجر في (هدي الساري).

وكان البخاري يميل إلى كتب الحديث والفقه ويؤثرها بالقراءة والحفظ، والأخبار متواترة على كثرة ما وعاه البخاري في صباه في روايته للحديث ومعرفته به معرفة لا يستطيع غيره أن يحصيها في هذه الفترة القصيرة. بل كادت تشرف به على العمى أحيانا، ويقول أحمد بن الفضل البلخي:

«ذهبت عينا محمد في صغره، فرأت أمه النبى إبراهيم عليه السلام في منامها فقال: يا هذه قد رد الله على ابنك بصره بكثرة بكائك - أو دعائك - فأصبح وقد رد الله عليه بصره».

وكان البخاري عزيز النفس، عفيف اليد، يتجمل ويتحمل، صبورا على المكاره والشدائد وصروف الدهر، ولا يريق ماء وجهه حتى في أشد حالات العسرة، والمسغبة، فيعالج الجوع ومراراته، ويحمل نفسه بالصبر إلى أن يفرج الله ما به، وينزه كرامته عن امتداد اليد.

وقد فارق البخاري وطنه بعد أن بلغ السادسة عشرة من عمره وكان ذلك سنة (عشر ومائتين هجرية – ٢١٠ هـ) فلقد خرج من بلده بخارى مودعا عهد الاستقرار والعيش المقيم في رحاب الأهل والعشيرة، متخطيا مرحلة التكوين والتلمذة

المحضة، والأفق العلمى المحدود في وطنه، خرج مع أمه وأخيه أحمد - وكـان أسـن منه - ليؤدوا فريضة الحج، فلما انتهى الموسم قفلت الأم إلى بخارى مع ابنها الأكـبر. وبقى هو في حرم الله وفي جوار بيته ليستقبل العهد الجديد : عهد الرحلة الدائبة التى لا تقيم إلا بمقدار ما تأخذ من جديد المعرفة، وعهد التبحر في العلم والرواية، وعهد التحصيل في أفق رحيب يتميز نطاقه على محيط العالم الإسلامى كله، وعهد التـصدر لمنصب الأستاذية في كل بلد ينزله، مع دوام التلمذة لكـل مـا يجـد في الجلـوس إليـه فائدة، وعهد التسجيل لمحصوله العلمي الغزير، وتأليفـه عـلى نحـو يفيـد الإسـلام وينفع المسلمين.

وقد كان البخاري موفقا إلى اختيار الحرمين الشريفين ليكونا قبلته فيما يتزود بـه من الرواية عن شيوخه. فأقام بمكة ما أقام، ثم رحل إلى المدينـة فمكـث فيهـا نحـو عام، حتى إذا أخذ حظه من السماع لمحدثي الحجـاز، انطلـق في سـياحته متـنقلا إلى غيره من الأقطار، وتواصلت رحلاته حتى شملت معظم الرقعة الإسلامية، فطوف بأهم المراكز العلمية المنبثة بين أرجائها، فيما بين حدود مصر ناحيـة الغـرب، ونهايـة خراسان وما وراء النهر في أقصى الشرق.

وقد كانت غاية البخاري من هذه الرحلات العلم وتحصيله، والعكـوف عليـه، فما غاب عنه لحظة من حياته، ولا أشرك في طلبه والسعي لـه شـيئا آخـر مـن عـرض الدنيا وإن عظم، بل حصر رغبته فيه وحده، ووفر عليه وقته وجهده، وما رئي إلا هـو على حال من ثلاث: إما جالسا إلى شيخ يسمع منه ويتلقى عنه، أو متصدرا للحـديث لمن حوله من الطلاب، أو منقطعا إلى القلم والقرطاس يقيد شوارد ما جمع، ليحفظهـا بالتدوين من الضياع، وليعدها بالتصنيف والتأليف للانتفاع وسهولة الاطلاع.

وأول ما جنى البخاري من ثمـار هذا العهد أن تسنى له لقاء عـدد من الشيوخ لم يقاربه فيه محدث لا في عصره ولا فيما سبقه أو لحقه، فقـد جـاب الأقطـار وطـوف

بالأمصار، ولقي أغلب المحدثين في زمنه - وما كان أكثرهم حينذاك، وبذلك تضاعف أعداد من التقى بهم. وقد أحصى على وجه التحديد نوعا من هؤلاء فيقول: «كتبت عن ألف وثمانين نفسا ليس منهم إلا صاحب حديث».

وقد كان شيوخ البخاري كثيرين، منهم في مكة ومنهم في المدينة، ومنهم في العراق في البصرة وفي الكوفة، وفي بغداد، وفي الجزيرة، وفي الشام، وفي مصر، وفي بلخ، وفي مرو، وفي نيسابور، وهم على كثرتهم واختلاف أمصارهم يحصرهم المحدثون في الطبقات الآتية:

١- من حدثه عن التابعين مثل: محمد بن عبد الله الأنصاري حدثه عن حميد، ومثل: عبيد الله بن موسى الذي حدثه عن إسماعيل بن أبي خالد.

٢- من كان في هذا العصر، ولكنه لم يسمع من التابعين الثقات كآدم بن أبي إياس وسعيد بن أبي مريم.

٣- ومنهم من لم يلق التابعين، بل أخذ عن كبار من تبع الأتباع كنعيم بن حماد، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأمثال هؤلاء.

٤- وأخيرا: جماعة في عداده في السن والإسناد سمع منهم للفائدة كعبد الله ابن أبي العاص الخوارزمي، وعبد الله بن محمد الآمل.

وقد أفاد البخاري من هذه المشيخة الضخمة ما فتح له في المعرفة آفاقا جديدة ذهب إلى أبعد غاياتها، فاستزاد على ثروته السابقة من الحفظ أضعافا كثيرة، واستضاف إلى حظه من فقه الحديث وما يضاهي هذه الزيادة الكبيرة.

وهكذا .. كان البخاري واحدا من الأفذاذ النادرين الذين وهبوا حياتهم لخدمة الحديث النبوي الشريف، والأعداد التي رويت في تقدير المشهور من حفظه لا تعلو على مستوى كفايته، بل هي دونه بكثير وهو ما يجعله ضمن المجددين في الإسلام.

* * *

الكـنـدي

في مقدمة مجددي القـرن الثالـث الهجـري : أبـو يوسـف يعقـوب بـن إسـحق الكندي فيلسوف العرب، وأحد أبناء ملوكها، فرع الدوحة الكندية ، وسـليل أمـراء الجزيرة العـربية : كان أبوه إسحـق بن الصباح أميرا عـلى الكوفـة لعهـد ثلاثـة مـن خلفاء العباسيين : المهدي والهادي والرشيد ، وتنتهي سلسلة أجداده لـدى يعـرب ابن قحطان ، وبينهم الأشعث بن قيس من أصحاب النبي ﷺ وكان قبل ذلك ملكـا على كندة كما كان أبوه . ومن أجداد الكندي : معد يكرب وكان ملكا في حضر موت كأبيه . ومعظم أجداد الكندي ملوك بالمشعر واليمامة والبحرين .

وكما يسجل الدكتور «محمد لطفي جمعة» بكتابه : (تاريخ فلاسفة العـرب) : أن مؤرخي العرب لم يذكروا تاريخ ميلاد الكندي ووفاته بالدقـة ؛ ولم يـذهبوا إلى أكثـر من أنه من أهل القرن الثالث للهجرة ، ولكـن عـالمين غـربيين حققـا ذلـك ، فـذكر «فلوجل» أن الكندي عاش في بداية القرن التاسع للميلاد ، ومـات بعـد عـام ٨٦١ م وذكر العلامة «البينوناجي» الإيطالي أحد أساتذة الفلسفة بروما ، المتـوفى في أواخـر القرن التاسع عشر وكان ممن عنوا بتـاريخ الفلـسفة العربيـة ، ونـشر كتبـا للكنـدي باللاتينية : أن وفاته كانت عام ٢٥٨ هجرية أي ٨٧٣ ميلاديـة ، وثبـت أنـه كـان حيـا يرزق عام ١٩٨ هجرية فكأنه عمر نحو سبعين عاما .

قال سليمان بن حسان (وهو ابن جلجل الأندلسى) : إن الكندي كـان بـصريا ، أي من البصرة ، وكان له بالبصرة ضيعة نـزل بهـا ثـم انتقـل إلى بغـداد ، وتخـرج في مدارسها بعد مدارس البصرة ، وكان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطـق

وتأليف الألحان والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ؛ وقيل إنه كان يملك جانبا من علوم الإغريق والفرس ويعرف حكمة الهنود ، وكان كذلك ملما بإحدى اللغتين الأجنبيتين الذائعتين لذاك العهد وهما : اليونانية والسريانية ، لأجل هذا ندبه المأمون فيمن ندب من الحكماء إلى ترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان.

وقال «سليمان بن حسان» : « إنه لم يكن في الإسلام فيلسوف قبله ! » ولعله يقصد بذلك أن الكندي أول فلاسفة الإسلام . ثم إن الكندي احتذى في تأليفه حذو أرسطو ، وفسر من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخص المستصعب وبسط العويص ، وهذا لعلو إمكاناته في الترجمة ، فقد ذكر «شاذان» في المذكرات عن أبي معشر المشهور عند المصريين بكتاب في التنجيم : « إن حذاق التراجمة في الإسلام أربعة بينهم يعقوب بن إسحق الكندي » .

بيد أن بعض معاصريه نقموا عليه إما حسدا وإما غير ذلك ، ومنهم القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد القرطبى ، قال في كتاب (طبقات الأمم) : « عند الكلام على كتب الكندي في المنطق إنها نفقت عند الناس نفاقا عاما وقلما ينتفع بها في العلوم، لأنها خالية من صناعة التحليل التى لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل في كل مطلوب إلا بها ، وأما صناعة التركيب وهى التى قصد يعقوب في كتبه هذه إليها فلا ينتفع بها إلا من كانت عنده مقدمات عتيدة فحينئذ يمكن التركيب ، ومقدمات كل مطلوب لا توجد إلا بصناعة التحليل . ولا أدري ما حمل يعقوب على الإضراب عن هذه الصناعة الجليلة هل جهل مقدارها أم ضن على الناس بكشفها ، وأي هذين كان فهو نقص فيه ، وله بعد هذا رسائل كثيرة في علوم جمة فيها آثار فاسدة ومذاهب بعيدة عن الحقيقة » .

وتحامل القاضى القرطبى ظاهر على أن هذا لم يكن رأي علماء الإفرنج في الكندي فقد عده «غليوم كرادانو» الإيطالي المتوفى سنة ١٥٧٦ ، بين الاثنى عشر

عبقريا الذين ذكر أنهم أهل الطراز الأول في الذكاء والعلم لم يخرج للناس سواهم منذ بداية العالم إلى نهاية القرن الثالث عشر للمسيح ، وقال «روجر باكون» وهو قس إنجليزي من أهل القرن الثالث عشر للمسيح ، ومن مشاهير القرون الوسطى: « إن الكندي والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس لاشتهاره بما دونه في علم المرئيات ، وقد نقل بعض رسائله في هذا الباب «جيرار دي كريمونا» .

ويذكر الدكتور «محمد لطفي جمعة» في صفحات كتابه : (تاريخ فلاسفة الإسلام) أن مؤلفات الكندي الفلسفية ، وشروحه لحكمة أرسطو وهي أول ما دونه العرب في هذا الصدد ، نادرة الذكر في كتبهم التي وصلت إلينا ، ونذكر بين مؤلفاته كتابا في قصد أرسطو طاليس في المعقولات وآخر في ترتيب مصنفات أرسطو . وذكر له ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء رسالة « في كمية كتب أرسطو وما يحتاج إليه في تحصيل علم الفلسفة مما لا غنى في ذلك عنه وفي ترتيبها وأغراضه فيها » . وكتاب في قصد أرسطو طاليس في المقولات الموضوعة لها رسالته الكبرى في مقياسه العلمي . ومن كتب أرسطو كتاب (أتلوجيا) وهو قول على الربوبية : تفسير فارفوريوس الصوري ونقله إلى العربية عبد المسيح بن عبد الله ناعمة الحمصي، وأصلحه أحمد بن المعتصم بالله أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، وطبع ببرلين عام ١٨٨٢م.

أما تأليفات الكندي فتكاد تشمل سائر العلوم، فقد دون كتبا في الفلسفة وعلم السياسة والأخلاق، وعلم الكريات والموسيقى والفلك والجغرافية والهندسة ونظام الكون والتنجيم، والطب والنفسانيات والأبعاديات والمساكن ألف فيه رسالته الكبرى ورسالة في الربع المكون، وعلم المعادن وفيه رسالة في أنواع الجواهر والأشباه، ورسالة في نعت الحجارة والجواهر ومعادنها وجيدها ورديئها وأثمانها، ورسالة في تلوين الزجاج وأخرى في أنواع الحديد والسيوف وجيدها ومواضع

انتسابها. وألف في الكيمياء رسالة في العطر وأنواعه ورسالة في كيمياء العطر، وأخرى في التنبيه على خدع الكيميائيين ورسالة في الطبيعة ورسالة في الأجرام الغائصة في الماء ورسالة في الأجرام الهابطة ورسالة في عمل المرايا. وله كتب خطية في مكاتب أوروبا ذكرها «بروكلمان» في فهرسته. بيد أن الناظر في مؤلفات الكندي يرى أنها لم تخرج عن حدود العقل، وأخبرنا العلامة «سنتلانا» أستاذ تاريخ الفلسفة بالجامعة المصرية القديمة عام ١٩١١: «أن البينوناجي الذي سلف ذكره نشر عام ١٨٩٧ خمس رسائل فلسفية للكندي أولاها في ماهية العقل ونشرت ترجمتها باللاتينية».

وليس بين مؤلفات الكندي شيء في الدين، بل إنه اشتهر برأي خاص في «واجب الوجود» خالفه فيه المتشددون من أهل عصره، وأخذوا عليه رأيه المذكور الذي أودعه رسالة التوحيد. وقد روى «عبد اللطيف البغدادي» أحد أدباء العرب، ومؤلف «كتاب أخبار مصر» وهو من أهل القرن الثاني عشر ومن الفقهاء المتعصبين، أنه كتب رسالة ضمنها بحثا في حقيقة واجب الوجود وما ينبغي نحو ذاته العلية، وأن غايته من تدوينها نقض ما دونه الكندي من قبل في «رسالة التوحيد» وروى كاتب «مقالة الكندي» في «دائرة المعارف البريطانية » أنه كان أول الثائرين على الإسلام» يقصد المبتدعين. ولكن في هذا مغالاة ؛ فقد سبقه كثير من المعتزلة، كواصل بن عطاء في أوائل القرن الثاني وعمرو بن عبيد والنظام تلميذ ابن الهيثم والجاحظ تلميذه وكلهم سابقوه. على أن خصوم الكندي لم يأخذوا عليه إلا قوله بوحدة «واجب الوجود وبساطة ذاته العلية»، وأن هذا القول أرسطي محض ومعناه: أن القائلين به لا يعترفون لواجب الوجود بصفة مطلقة ، والصفات المطلقة هي المميزة عن الذات، وكان أرسطو - حقيقة - ينكر الصفات ويقول بأنها والذات شيء واحد، وهو القصد من قولهم ببساطة واجب الوجود.

كما يذكر الدكتور «محمد لطفي جمعة» أن المعتزلة والسنيين متفقون في جوهر هذه المسألة. فإن المعتزلة تقول: «إن الله عليم بذاته، خبير بذاته، قادر بذاته»، أي: يعلم ويقدر دون الاحتياج إلى صفة. أما الصفاتية وهم جمهور المسلمين فيقولون: «بأن الله عليم بالعلم أي بصفة اسمها العالم، وقادر بالقدرة أي بصفة اسمها القادر»، وأن هذه الصفات ليست منفصلة عن الذات، لأنها لو انفصلت لعادوا إلى رأي المعتزلة وقد يشركون. وحجة المعتزلة فيما سبق بيانه: أن القول بالصفات يثبت ثلاثة عشر قديما (الصفات المشهورة ثلاث عشرة: خمس سلبية وواحدة نفسية وسبع معان). على أن المعتزلة إذا سئلوا قالوا: إن الله قادر فهم متفقون ومع جمهور المسلمين في الجوهر كما أسلفنا.

أول أعداء الكندي من معاصريه هو «أبو معشر». روى ابن النديم البغدادي الكاتب المعروف بابن أبي يعقوب في كتاب (الفهرست) «أن أبا معشر وهو جعفر بن محمد البلخي من أصحاب الحديث أولا وكان منزله في الجانب الغربي بباب خراسان ببغداد، وكان يضاغن الكندي ويغري به العامة، ويشنع عليه لأخذه بعلوم الفلاسفة، فلما رأى الكندي منه ذلك أراد أن يقطع نفسه شره بما ينفع أبا معشر ولا يضره، فدس عليه من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فاشتغل بهما، ولكنه لم يوفق فيهما فعدل عنهما إلى علم أحكام النجوم فانقطع شره عن الكندي بنظره في هذا العلم وقد تعلم علم أحكام النجوم بعد سبع وأربعين سنة من عمره» وأمسى من تلاميذ الكندي بعد أن كان من ألد أعدائه!

روى أبو جعفر بن يوسف في كتابه (حسن العقبى) عن أبي كامل شجاع ابن الحاسب « أنه كان لعهد المتوكل أخوان شريران: محمد وأحمد ابنا موسى ابن شاكر، وكان هذان الشقيقان يكيدان لكل من ذكر بالتقدم في علم أو معرفة، فلما ذاع فضل الكندي غاظهما ذلك وأرادا الوقيعة به لدى المتوكل، وكان للكندي نصير في بلاط الخليفة، وهو سند بن علي فباعداه عن المتوكل ووجهاه إلى مدينة السلام،

فلما خلا لهما الجو دبرا للكندي مكيدة ، فضربه المتوكل ووجه إلى داره أفرادا فأخذوا كتبه بأسرها في خزانة سميت «الكندية».

وقد ردت له هذه الكتب بخبر غريب وهو أن الشقيقين كانا يعملان للانفراد بالمتوكل وإبعاد أهل الفضل عنه، والحصول على ما يستطيعان من المال، فكشف أمرهما في حفر النهر المعروف بالجعفري ، فإنهما أسندا حفره إلى مهندس معرفته أوفى من توفيقه، فغلط في فوهة النهر، وأتلفا جملة من مال المتوكل فأقسم أن يصلبهما على شاطئه إن كان ما بلغه عن الغلط حقا، فتوسلا إلى سند بن علي الذي ما تركا شيئا من سوء القول إلا ذكراه عند المتوكل به، فقال لهما سند بشمم أهل الفضل: «إنكما لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى بأن يتبع، والله لا أذكركما عند المتوكل بصالحه حتى تردا عليه كتبه!» فتقدم محمد بن موسى في حمل الكتب إليه وأخذ خطه باستيفائها، فوردت رقعة الكندي بتسلمها عن آخرها، وقال سند للمتوكل: إنهما ما غلطا لينقذهما من العقاب. ومات المتوكل بعد ذلك بشهرين قبل أن يظهر غلط الحفر في النهر.

اعتاد مترجمو الحكماء رواية بعض أقوالهم في الحكمة العامة للاستدلال على آرائهم، ويغلب أن يكون المنقول من الحكم الذائعة على ألسنة الأدباء ذكرت للإسهاب، أو دست على الرواة ، فقد قرأت حكما نسبت لسقراط، وقرأتها بعينها منسوبة لكونفوشيوس ولقمان وغيرهما، ومثل هذا كثير ولا أظن أنه يؤخذ به في تقدير المنسوب إليه أو في الحكم عليه.

والأقوال المروية عن الكندي تنقسم من حيث شكلها قسمين نثرا وشعرا، والنثر عن ثلاثة أمور: الأول نصيحة للطبيب، والثاني في الحث على التواضع، والثالث في التحذير من الأقارب.

قال في وصيته: «ليتق الله تعالى المتطبب ولا يخاطر، فليس عن الأنفس عوض!». وقال: «كما يجب أن يقال كان سبب عافية العليل وبرئه، كذلك فليحذر أن يقال إنه كان سبب تلفه وموته» وكان رحمه الله طبيبا ، ونصحه صالح لكل زمان!

إلا أن هذا الفيلسوف المجدد كانت تعتريه حالات نفسية حزينة تجعله متشائما في بعض الأحيان ، فيشك فيمن حوله لو كانوا من أقرب الناس كأن يقول يوصى ولده: «يا بني ، الأب رب، والأخ فخ، والعم غم، والخال وبال، والولد كمد، والأقارب عقارب».

والآن .. لعلنا بعد ذلك نتوقف عند المواقف التجديدية للكندي الذي لا يذكره المتقدمون بين مجددي القرن الثالث مع أنه جدير بالذكر لما قدم من جهود تجديدية. كما يذهب الأستاذ «الصعيدي» - جعلته أول من استحق من المسلمين لقب «فيلسوف العرب» فتآخى فيه الإسلام والفلسفة وفتح الباب على مصراعيه في هذا المجال ، من بعده أدرك المسلمون أن الإسلام لا يعادي الفلسفة فأقبلوا عليها. حتى نبغوا فيها وصار منهم فلاسفة كبار تفخر البشرية كلها بانتسابهم إليها، حين قام الفكر الأوروبي الحديث على جهودهم.

وعلى الرغم من أن لفيلسوف العرب - الكندي - العديد من المواقف التجديدية الإيجابية إلا أن موقفه كان سلبيا من مشكلته مع الخليفة المتوكل ؛ حيث لم يتعد هذا الموقف أكثر من حدود تعرفه على الداء ، ولم يحاول أن يقدم الدواء بمعنى تنبيه الأمة بذلك الفساد السياسي والاجتماعي.

ومع ذلك : فإن إسهامات الكندي في مجال الفلسفة تعد فتحا جديدا في الثقافة العربية، ولعل ما ساعده على ذلك ثقافته التي تكونت من تحصيل العلوم العربية في البصرة، ثم الاطلاع على كتابات فلاسفة اليونان في لغتها الأصلية مترجما بعضها ومهذبا البعض الآخر.

وهكذا .. كان الكندي ملما بعلوم عصره ، وكان ينزع من آرائه نزعة المعتزلة. حيث كان يقول بالعدل والتوحيد وحال التوفيق بين النبوة والعقل. وقارن بين الملل المختلفة مقارنة انتهت به إلى أنها مجمعة على الاعتقاد بأن العالم صادر عن علة أولى هو الله.

ومدار فلسفة الكندي مدار تجريدي في عصره ؛ حيث يدور حول الرياضيات والفلسفة الطبيعية، وعادة فإن الإنسان لا يكون فيلسوفا إلا إذا درس الرياضيات، ولهذا نراه يطبق الرياضيات في بحوثه الطبية وفي دراسته للموسيقى ؛ حيث كان يرى أن كلا من الطب والموسيقى يقوم على التناسب الهندسى، فالأدوية قوامها تتناسب في الكيفيات الأربع : (الحار والبارد والرطب واليابس).

ولا يمكن لفيلسوف العرب الكندي - الذي عاش في جو العرب من أخذ ورد، وشهد مجالس الخلفاء التي كانت تعقد لمناقشة بعض القضايا الدينية والفلسفية - أن يعيش بمعزل عن التجديد الذي كان يشمل مناحي الحياة في هذا القرن الثالث الهجري، وبهذا .. يكون واحدا من المجددين في الإسلام.

* * *

الإمـام مسلم

ولد الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور عام ٢٠٤ وتوفي عام ٢٦١ هـ ولذلك فهو من مجددي القرن الثالث الهجري، ومع أنه نشأ نشأة دينية في نيسابور وولد فيها، فهو ينتمي إلى أصل عربي، لأنه ابن من أبناء بني قشير، وهي قبيلة عربية، فهو يشبه الإمام أحمد بن حنبل إذ ولد بخراسان، وهو شيباني من أسرة عربية، ويظهر أن أسرته آوت إلى تلك البلاد النائية طلبا للراحة والاطمئنان، ولم يكن له صلة بأهل السلطان كأكثر هذه البلاد.

وقد حفظ القرآن الكريم وتعلم أصول الدين وأخذ الفقه عن المذهب الشافعي، وإن كان له اجتهاد يخرجه عن أن يكون مقلدا، وذلك لأن مذهب الشافعي كان منتشرا في تلك الجهات ولم يكن يغالبه في السيطرة والنفوذ سوى المذهب الحنفي، الذي كان مذهب الدولة، بيد أن المذهب الشافعي كان يستمد قوته من الشعب وإيثاره له، والمذهب الحنفي يستمد قوته من السلطان، ولكن المناظرة كانت تعقد حرة بين مذهبين سنيين يلتقيان في زاوية رأسها الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح رضى الله عنهم، ولم يكن انفراج كبير في خطي الزاوية، بل إن خطيها متقاربان، لا يبتعدان.

وكما يذكر الشيخ محمد أبو زهرة : بعد أن أعد العدة، وأخذ الأهبة، وصار فتى سويا اتجه إلى الحديث بكليته، والحديث فيه علم الإسلام، والتقى بكبار المحدثين في نيسابور حتى جمع الرواية عنهم كاملة غير منقوصة، وقد أخذ عنهم أخذ متقن ملازم، فلما استوفى وقوي عوده، رحل إلى البلاد الإسلامية يطلب الحديث من

مواطنه وأهله، ويأخذه عن رجاله، فسافر إلى الأقطار الإسلامية في طلب الأئمة، فارتحل إلى خراسان، وذهب إلى الري، وإلى العراق، وأخص من التقى به وأخذ عنه الإمام أحمد، وكان في أوجه، وقد تسامعت به البلاد، ثم رحل إلى الحجاز يطلب الحديث فيه مع موسم الحج، ويروي عن كبار المحدثين فيه. ولم تقف رحلته عند حد العراق، بل رحل إلى الشام يأخذ من محدثيها، وإلى مصر، ولعله كان يأخذ في مصر علمين: علم الحديث عن الرواة، وعلم الفقه عن تلاميذ الشافعي الذين كانت مصر لهم مستقرا ومقاما.

وعندما زار الإمام البخاري نيسابور التقى به مسلم وأخذ عنه وأعجب به أشد الإعجاب، ولازمه، وأدام الحضور إلى مجلسه. ولما استمع إليه أحبه، وتعصب له، حتى لقد روى الرواة أنه بعد أن استمع إليه قبل ما بين عينيه ، وقال له : « دعني يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين وطبيب الحديث في عالمه ».

وقد بلغ مسلم بن الحجاج الشأو في الرواية بعد أن طوف في البلاد مشرقا ومغربا، مختلفا إلى مجالس الرجال، وهو يتلقى عنهم، وينقدهم، وينقد ما ينقلون نقد الصيرفي للدراهم، يدفع زيفها، ويقبل جيدها وينقل إلى غيره ما يراه أكيد الصدق في النقل عن رسول الله ﷺ.

فهو لا يأخذ إلا عن الثقات الصادقين الأمناء أهل الاستقامة، ويوجب على طالب الحديث أن يبتعد عن أهل التهم، يتقيهم، ويقول في ذلك رضي الله عنه: «اعلم وفقك الله ، أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات النقالين لها من المتهمين، أن ينقي منها ما كان من أهل التهم، والعائدين من أهل البدع، والدليل على أن الذي قلنا هو اللازم دون ما خالفه، قول الله جل ذكره : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا

بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾[1] وقال جل ثناؤه : ﴿ **مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ** ﴾[2] وقال عز وجل : ﴿ **وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ** ﴾[3] وما ذكرنا من هذه الآي يدل على أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة».

فهو يشترط فيمن يروي عنهم من معاصريه أن يكونوا معروفين بالصدق، والعدالة، والاستقامة وألا يكون غرامهم كثرة التحديث من غير أن يعرفوا السقيم من الصحيح، بل إنه يتخذ من الإكثار دليلا على عدم الإتقان، ويروي في ذلك قول النبي ﷺ ، «**كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع**».ويروي عن عمر ابن الخطاب قوله: «يحسب للمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع».

وكان يأخذ من كثرة الحديث دليلا على عدم التحري في صدق ما ينقل عن الرسول ﷺ، ويذكر عن نفسه أنه اختار كتابه من بين ثلاثمائة ألف حديث بعد أن اختبر صدق ما أخذه ورواه، فلم يكن همه لا هو ولا غيره من المحدثين الإكثار والجمع، كما افترى بعض المستشرقين، بل كان همه التحري، وعرف الصحيح، ورد السقيم.

وكان يبعد من روايته الأخبار الغريبة التى لم تستأنس بمثلها، أو التى تكون في ذاتها غريبة على المعقول، ويروي عن ذلك قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لهم فتنة».

وكان رضى الله عنه لا يقبل حديثا ممن كان يغتاب الناس، وخاصة العلماء، ذكر «الخطيب البغدادي» أن مسلم بن الحجاج كان يدافع عن البخاري في قوله بالنسب للقرآن، وكان محمد بن يحيى الذهلى من شيوخه ينال من البخاري لرأيه، وقال يوما لأهل مجلسه، وفيهم مسلم: «من كان يقول بقول البخاري في مسألة اللفظ بالقرآن،

(١) الحجرات: ٦.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) الطلاق: ٢.

فليعتزل مجلسنا»، فنهض مسلم من فوره إلى منزله، وجمع ما كان سمعه من الذهلي، وأرسله إليه، وترك الرواية عنه، واستحكمت الوحشة بينهما.

وكان من الغريب أن البخاري، الذي قيل فيه ما قيل، لم يترك الأخذ عن محمد ابن يحيى هذا، بل روى عنه في صحيحه وعذره. إن هذا الخبر يدل على قوة التحري، والإخلاص للعلماء عند مسلم، ويدل على السماحة عند البخاري، وأخذه بالعفو وترجيحه على سواه.

ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة أن الإمام مسلم يشترط في الرواية أن يكون السند متصلا ، فيعد من الضعيف الحديث الذي يرويه التابعي ، ولا يذكر الصحابي الذي روى عنه، ويسمى المرسل، كما لا يروي الخبر الذي ينقطع في إحدى طبقاته، ويروى في ذلك أن عبد الله بن المبارك رد الخبر المروي عن الحجاج بن دينار أن النبي قال: «**أن تصلي لأبويك مع صلاتك، وأن تصوم لهما مع صومك**»، فقد قال ابن المبارك: «إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي». إشارة إلى بعد الزمان والمكان.

وعلى هذا .. فإن مسلما يقسم المحدثين الذين التقى بهم وتتبع إسنادهم إلى ثلاثة أقسام، ويجعل كل قسم طبقة تليها أخرى، فأهل الطبقة الأولى : الذين عرفوا بالاستقامة والإتقان لما ينقلون، ومن ينقلون عنهم ، لم يوجد في رواياتهم اختلاف ولا تخليط، ولا في إسنادهم ضعف، بل صدق، وهؤلاء تقدم رواياتهم على غيرهم.

والقسم الثاني : من لم يعرف عنهم كذب ، ولا انحراف عن الجادة ، ولكن لم يعرفوا بالإتقان في الرواية والسند ، وهم طبقة دون الأولى، وتقدم الأولى عليها إن كان تعارض ، فهم في منزلة دون منزلتهم . ويروى في ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ ، إذ قالت: «**أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم**».

والقسم الثالث : من لا يقبل حديثهم، وهم المتهمون عند أهل الحديث، أو عند الأكثر منهم، وكذلك من يكون الغالب على حديثه المنكر الذي يخالف المعروف عن الثقات أو من يكثر عنده الغلط، فإن هؤلاء لا يروى عنهم أيضا.

بهذه الدقة في اختيار من ينقل عنهم ، روى الأحاديث التي اشتملت عليها كتبه، ولكن أهل الخبرة كانوا يرون أن البخاري قد اشترط فيمن يأخذ عنه ما لم يشترط مسلم، فالبخاري اشترط الإتقان والصدق والعدالة والضبط والحفظ كما اشترط مسلم، بيد أن البخاري، اشترط الملازمة لمن يروى عنه، لأن بالملازمة أمدا غير قصير يتعرف حاله بالعيان، لا بالخبر، بينما اشترط مسلم أن يلقاه، وأن يكون في عصر واحد، ولا شك أن مجرد اللقاء دون الملازمة.

ويقارن الشيخ أبو زهرة بين البخاري ومسلم قائلا : «وإذا كان البخاري في روايته يمتاز على مسلم بهذه الميزة التي توثق الرواية أشد توثيق، فمسلم يمتاز على البخاري بجودة التصنيف، وحسن الترتيب، وقد بدا ذلك في كل مؤلفاته ».

ومن كتبه : (السند الكبير على أسماء الرجال)، وكتاب (الجامع الكبير على الأبواب)، وكتاب (العلل)، وكتاب (أوهام المحدثين)، وكتاب (التمييز)، وكتاب (من ليس له إلا راو واحد)، وكتاب (طبقات التابعين)، وكتاب (المخضرمين).

ولكن كتابه العظيم الذي خدم به الإسلام، وناظر البخاري به في كتابه، هو (الصحيح)، والأكثرون من العلماء أجمعوا على أن كتاب البخاري أوثق رواية، وكتاب مسلم أحسن تبويبا وترتيبا، وقد بالغ علماء المغرب وبعض علماء المشرق في تقدير كتاب مسلم، حتى قدموه على البخاري، ولكن الجمهور الأعظم من المحدثين على غير ذلك.

وإنه مما أخذ على الإمام البخاري تكراره الحديث الواحد في عدة مواضع، وأحيانا يذكر بعض الحديث في موضع، وبعضه في موضع آخر، وقد تحاشى ذلك

الإمام مسلم في صحيحه، فلم يكن فيه تكرار، إلا ما تضطر الضرورة إليه، وقد ذكر هو ذلك في مقدمة صحيحه، فقال رضى الله عنه: «نقسمها إلى ثلاثة أقسام، وثلاث طبقات من الناس من غير تكرار إلا أنه يأتي موضع لا يستغنى فيه عن تردد حديث فيه زيادة معنى، أو إسناد يقع إلى جنب إسناده لعلة تكون هناك، فلابد من إعادة الحديث الذي فيه ما وصفنا من الزيادة، أو أن يفصل ذلك المعنى من جملة الحديث على اختصاره إذا أمكن، ولكن تفصيله ربما عسر من جملته، فإعادته إذا ضاق ذلك أسلم».

ومؤدى هذا الكلام أنه لا يعيد إلا إذا كانت ثمة زيادة لا تفهم من غير ذلك الحديث كله، أو يكون هناك إسناد يقوي الإسناد الذي يكون فيه علة قد تنزله عن درجته، فيذكر الإسناد الجديد ليعلو به أو تكون إحدى الروايتين فيها اختصار، والأخرى فيها تفصيل فيذكر المفصل، إذ يضيق المختصر عن أن يشمل كل المعاني.

وهكذا .. استمر الإمام مسلم رضى الله عنه في طلب الحديث وتحريره، وتخليص أحاديث رسول الله ﷺ، بل رد كل ما لم يكن الراوي فيه يطمئن إلى روايته، وكل ما يكون غريبا لم يستأنس بالمعروف من أحاديث رسول الله ﷺ حتى حضرته الوفاة.

وقد أجمع العلماء على دقته وحذقه : نبوغه وبراعته في علم الحديث ، وأكبر دليل على ذلك كتابه (الصحيح) الذي لم يوجد كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب والاعتناء بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدللين عليها كما ذكرنا من قبل...

وعلى الجملة .. فقد كان من أئمة الحديث وأكبر المبرزين فيه وأهل الحفظ والإتقان، والرحالين في طلبه إلى كل الأمم والأقطار حتى يضمن الصحيح الذي لا يتسرب إليه أي شك وفرز الأصيل من الدخيل... وهو ما جعل عمله موثوقا به تمام الثقة.

* * *

أبو بكر الرازي

أبو بكر الرازي من مجددي القرن الثالث الهجري ؛ حيث أقبل على دراسة كتب الفلسفة والطب دراسة رجل يريد العلم لذاته حتى كان إماما في الفلسفة، كما كان كذلك ، وأكبر في الطب حيث كان أشهر أطباء عصره.

ولقد ولد أبو بكر، محمد بن زكريا الرازي، في الري على مقربة من طهران، نحو عام ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م)، ونزح إلى بغداد فتعلم الطب، فكان عارفا بطب الإغريق، وطب الهند. يقول عنه «القفطي» صاحب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء): إنه دبر بيمارستان الري، ثم بيمارستان بغداد، والبيمارستان هو المستشفى، وإنه كان طبيب الدولة العربية الإسلامية الأول بغير منازع.

ومما يحكى تدليلا على صحة إدراكه الطبي، أنه لما أراد أن يختار موضعا لمستشفى بغداد، ذهب إلى نواح منها يطلب أصحها هواء، وأطهرها جوا، فعلق قطعا من اللحم في جهات من بغداد متفرقة، فالموضع الذي بقيت فيه قطع اللحم أطول مدة، دون أن تفسد، فذلك هو الوضع الذي اختاره لبيمارستانه. وأبو بكر تعلم الكيمياء على حداثته، ونشأ فيها، وعمل وألف، قبل أن يتفرغ للطب، وعرف بها.

وقد اكتشفوا له حديثا كتابه المسمى بكتاب (الصنعة)، وجدوه في بيت أمير هندي. وقد وجدوا فيه أن الرازي اعتمد في الكيمياء على ما اعتمد عليه « جابر ابن حيان، إلا أنه كان أكثر واقعية من جابر. فهو لما قسم المواد، قسمها لا كما قسم جابر وتلاميذه إلى أجسام وأرواح وأهوية، ولكن إلى : نباتي وحيواني ومعدني. وجرت هذه التعابير على ألسنة الناس إلى اليوم. وقد جمع إلى الطب العلم بالكيمياء،

وبالفلسفة، وبصنوف أخرى من المعرفة ، حتى بلغت مؤلفاته مائتين، فما فوقها، نصفها في الطب.

وأكبر مؤلفاته الطبية : (الحاوي)، سمي هكذا لأنه حوى كل شيء. وهو موسوعة زادت مجلداتها على العشرين، وهي من الاتساع بحيث لم يكتب مثلها في الطب كاتب واحد قط. وهي تجمع طب الإغريق ، إلى طب غير الإغريق ، إلى طب العرب، إلى طب الرازي نفسه ، وإلى ما رأى في طب غيره. ومما يؤسف له ، أنه على مقدار علمنا، لا يوجد اليوم من هذه الموسوعة إلا عشرة مجلدات، موزعة بين المكتبات.

وترجم الحاوي في عصر النهضة الأوروبية إلى اللاتينية، ترجمه «فرج بن سالم الإسرائيلي»، بأمر من شارل الأول، ملك نابلي وصقلية ، وفرغ من ترجمته عام ١٢٧٩م ، ونسخ الحاوي بعد ذلك نسخا كثيرة دارت في أوروبا فيما تلا ذلك من قرون. وجاءت المطبعة الحديثة فطبع الحاوي، ما بين عام ١٤٨٦ ، وعام 1542م على كثرة النفقات ، خمس طبعات ، عدا ما طبع منه مفرقا ، وكان أثر هذا الكتاب في أوروبا بالغا إلى فجر عصورنا العلمية الحديثة .

وغير الحاوي ، كان للرازي تأليفات كثيرة ، في أمراض عالجها فرادى ، من ذلك كتاب له في الحصى في الكلى والمثاني . ومن أشهر كتبه كتابه في الجدري والحصبة، الذي ترجم إلى اللاتينية ، وخرجت منه أربعون طبعة بين عام 1498 وعام ١٨٦٦م، أي أن آخر طبعة منه كانت منذ قرن مضى، وإن دل هذا الكتاب على شيء ، فهو يدل على ما كان للرازي من دقة في الملاحظة وعلم بالطب واسع.

وكان الرازي في الطب أبا قراطيا نسبة إلى أبي قراط المذهب ، جالينوسيه ، ولم يمنعه ذلك من نقد صاحبيه عندما رأى موضعا للنقد، وألف كتابا أسماه

(الشكوك على جالينوس)، وفيه يعتذر عن مناقضته لرجل له من الاسم والشهرة ما لجالينوس، وهو عدا هذا يقع منه موضع التلميذ من أستاذه. ثم هو يعود فيقول: ولكن الفلسفة تأبى التسليم للأستاذ، فإن ذلك فيه وقوف بالعلم، وذكر أن جالينوس نفسه لام من يطلب من الأساتذة والرؤساء التسليم من تلامذتهم والمريدين بغير حجة تقنع، أو برهان يدفع.

وهناك موقف لأبي بكر الرازي في الطب، وقف مثله الإمام أبو حنيفة في الفقه، إذ رأى رأيا، فقيل له: ولكن من قبلك فلان رأى وفلان رأى. فقال: هؤلاء رجال ونحن رجال. قولة لا تزال ترددها الأجيال ، فياليت المقلدين منا قرأوا، وإذا قرأوا وعوا، وإذا وعوا انتفعوا.

ومن مؤلفات الرازي في الطب ، مؤلفات على هامش الطب، كشفت عما عنده من فهم أحوال الناس، ومنها «كتاب في الطب الروحاني»، و «كتاب في الأسباب المميلة لقلوب الناس عن أفاضل الأطباء إلى أخسائهم»، و«كتاب التلطف في إيصال العليل إلى بعض شهواته»، و«كتاب يؤكد أن الطبيب الحاذق لا يقدر على إبراء جميع العلل»، وكتاب «لم صار جهال الأطباء والنساء في المدن أكثر من العلماء؟». وهو ما يؤكد المقولة الاقتصادية : «السلعة الرديئة تطرد السلعة الجيدة من الأسواق».

وكان الرازي ، إلى جانب ممارسته الطب، وإلى جانب التأليف في الطب، يدرس الطب لتلاميذه. قال أبو الحسن الوراق: قال لي رجل من أهل الرأي، شيخ كبير، سألته عن الرازي فقال: كان شيخا كبير الرأس.

وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه، ودونهم تلاميذهم، ودونهم تلاميذ آخرون. وكان يجيء الرجل، فيصف ما يجد لأول من يلقاه منهم، فإن كان عنده علم، وإلا تعداه إلى غيره ، فإن أصابوا، وإلا تكلم الرازي في ذلك.

وكان كريما متفضلا، بارا بالناس حسن الرأفة بالفقراء والأعلاء، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة، ويمرضهم . ولم يكن يفارق النسخ إما : يسود أو يبيض.

وكان إلى جانب طبه، إنسانا رقيق الحاشية، رقفها لا شك فيما رقق، تعرفه وتعلمه الغناء والموسيقى في حداثته الأولى. وكان يضرب بالعود ويغني، فلما خرج شاربه والتحى، كف، وسئل في ذلك فقال: إن الغناء الذي يخرج من بين شارب ولحية لا يستعذب!.

وللرازي تجديد في الفلسفة اليونانية وإصلاحها سبق به فلاسفة الإسلام جميعا. وقد عرفت أوروبا في عصر النهضة للرازي كبير فضله، فترجمت كتبه إلى اللاتينية للاستفادة مما فيها من علم كان يومئذ جديدا عليهم، وطبعتها عدة مرات، وظلت جامعات الطب تعتمد عليها زمنا طويلا. وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساسا للتدريس في الجامعات الأوروبية في القرن السابع عشر الميلادي ، ولم تنل مؤلفات فلاسفة اليونان الطبية مثلما نالته كتبه من الحظوة إلا قليلا، إذ اقتصر أمرها على بعض جوامع الكلم لأبي قراط، وبعض الخلاصات لجالينوس.

❋ ❋ ❋

ابن سـريج

القاضي البغدادي : أبو العباس أحمد بن عمر بـن سريـج مـن مجـددي القـرن الثالث للهجرة ، حيث توفي عام 307 هـ كما يقرر كل مـن جـلال الـدين الـسيوطي بكتابه (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة) وأمين الخـولي بكتابـه (المجـددون في الإسلام)، حيث يتفقان على أنه كـان مـن أبـرز وأشـهر علـماء زمانـه ، وعـلى وجـه الخصوص أبرز فقهاء المذهب الشافعي ، حين بلغ في هذا المذهب شأوا عظيما بـسببه لقب بالشافعي الصغير ، هذا إلى جانب وصفه بالإمام المطلق .

عاش هذا العالم والفقيه الجليل في المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية ، ما بين فارس والعراق ، وأجاد أهم وأبرز علوم زمانه ، وفي مقدمتها علوم الحساب والفقـه والكلام ، وبرع في الجدل حتى إنه قال : « ما رأيت من المتفقهة .. من اشتغل بالكلام والجدل وأفلح .. » إشارة إلى مناظراته مع علماء الكـلام والجـدل وتفوقـه علـيهم ، حتى إنه كان يحكم بأنهم أقل منه في المـستوى العلمـي ، وإلا فلـماذا لا يـصمدون في حواراتهم معه ، وبأنه على درجة عالية تؤهله لأن يتفوق على غيره .

بدأ هذا العالم فقيها كما يفهم من المعنى التقليدي لعلم الفقه ، حيث كان يشارك في تنظيم أحكام الحياة العملية ، ولذلك تولى من الوظائف وظيفة القـضاء فـترة مـن الزمن في شيراز بفارس إلى أن تقدمت به السن ، واتسعت رؤيته ، وامتـدت بـصيرته فانتهى إلى شيء من التصوف الروحي ، لعل استعداده الفطـري سـاعده عـلى ذلـك وجعله يتمادى فيه ، حتى إذا قدم إلى بغداد في العراق ، ويعرض عليه قـضاء القـضاة

فيها فيرفضه من الوزير الذي عرضه عليه تقديرا لعلمه وشهرته في النزاهة التي امتدت من فارس إلى العراق .

وحاول معه الوزير مرات ، ولكنه بقي على رأيه في الامتناع والرفض ، الأمر الذي اضطر الوزير أن يقول له : « إذا لم تمتثل لما قلته لك ، وإلا أجبرتك عليه » .

فرد عليه ابن سريج غير عابئ بما قاله الوزير : « افعل ما بدا لك » .

وغضب الوزير الذي كان يحكم في ذلك العهد بأمره ، وأصدر أمرا مؤداه أن يغلق عليه باب بيته بالمسامير فلا يستطيع أن يبارحه ، فيكون ذلك أقسى من السجن حتى يقبل . لكن ابن سريج أصر على رأيه في رفض المنصب الذي عرضه عليه الوزير ، ولم ترهبه هذه العقوبة أو أكثر منها حتى لو أمر بقتله .

وحين عاتبه الناس على تشدده في رفض هذا المنصب الذي يتمناه أي عالم في الدولة . فإذا به يرد عليهم مسببا ذلك بقوله : « أخشى أن يسمع الناس أن رجلا من أصحاب الشافعي عومل على توليه القضاء بهذه الطريقة ، وهو مصر على إبائه ؛ زهدا في الدنيا » .

وتفسير ذلك : ربما لنزعة التصوف التي كان عليها وقتئذ ، أو أنها صورة العالم الحقيقي التي وصل إليها هذا العالم بعد توليه القضاء في صدر شبابه ، وإدراكه ما يساور القائم بهذه الوظيفة من القلق في كل حكم يقضى به . وهكذا كان رفضه لهذا المنصب بعد تقدمه في العمر وزهده فيه ، رضى لنفسه ، هذا إلى جانب رغبته الأكيدة في تحطيم هذا النوع من التحكم الذي بدا عليه سلوك الوزير في عرضه لهذا المنصب ، وحتى يكتشف الناس بأن هناك زاهدا تحداه ، وأبى أن يتولى ما عرضه عليه على الرغم من العنف الذي صاحب هذا العرض . يضاف إلى كل ذلك الحرج من ولاية القضاء في كل عصر إشفاقا من تبعاته الثقال ، وأعباء العدالة التي جعلت قاضيين في النار وقاضيا في الجنة .. خاصة لو كان من يعرض عليه هذا المنصب على النحو الذي

كان عليه ابن سريج من علم وفضل ، وزهد وتصوف .. عندئذ لابد عليه من التريث الذي قد يصله إلى مثل هذا الإباء والرفض .

وهكذا.. كان ابن سريج كما يكون العالم دائما في معاملته، يترفع حتى مع الوزير فلا يزوره ، ولا يطلب منه شيئا ، وهنا يميل الوزير عنه بحكم غطرسته وتكبره ؛ واعتقاده بأنه يملك الدنيا ومن عليها ، ويأمر فيطاع .. ولكن كل هذا لا يعني العالم الحقيقي .

وإزاء هذا الرفض منح هذا الوزير المستبد رضاه لفقيه آخر من المذهب المالكي نكاية في ابن سريج ومذهبه الشافعي ، خاصة وأن هذا الفقيه المالكي يتردد عليه ويطلب رضاه ، فيوليه منصب القضاء الذي عرضه من قبل على ابن سريج فيسارع بقبوله بسعادة غامرة .

وتدور الأيام ، وإذا بهذا القاضي - صديق الوزير الحاكم المستبد - يتورط في فتوى يخالف فيها جماعة العلماء إرضاء للوزير واعتزازا بصداقته ، ضاربا عرض الحائط بزملائه من الفقهاء ، ويشكو من ذلك الجميع بما فيهم العلماء والفقهاء وأهل الشريعة في البلاد ، وهنا يقتضي الأمر عقد مجلس عام لكل فقهاء البلاد ، ويكون ابن سريج حاضرا فيه ، وجالسا في صمت ، فلا يتحدث ولا يناقش ولا يعلق على الرغم من أن الضجيج عال من حوله ، والنقاش حاد أمامه .. وهو على هذه الحالة من الصمت والسكوت ، فيطلب الوزير منه أن يتكلم ، أن يدلو بدلو في هذا المجال. ويتكلم ابن سريج - وهو الفقيه الشافعي - بما يحسم الأمر في مسألة فقهية مع هذا القاضي المالكي قائلا : « إن ما أفتى به قول عدد من العلماء ، وأعجب ما في الموضوع أنه قول الإمام مالك نفسه ، وهو مسطور في كتابه الفلاني ..

ويأمر الوزير بإحضار الكتاب المالكي الذي أشار إليه ابن سريج ، فيكون الأمر كما قاله .. ويعجب الوزير من تعرف وحفظ ابن سريج في غير مذهبه ، وغفلة

صديقه القاضي لما يفتى به مذهبه المالكي .. وهكذا يقدم هذا المجدد مثلا للعالم في زهده وتصوفه وفي تعامله مع منافسيه من العلماء والفقهاء ، ولعل المثل في ذلك هو تنافسه مع محمد بن داود الظاهري الذي كانت بينهما مساجلات ومناقشات كثيرة ، وصلت إلى أن يؤلف كل منهما كتابا ليرد عليه الآخر ، وكثيرا ما كان ابن سريج يتفوق عليه في المناظرات المشهورة ، والمجالس المروية .. لكن عندما يموت ابن داود الظاهري قبل ابن سريج ، فإذا هو يحول مجلس العلم الذي كان يقيمه إلى مجلس للعزاء في معاصره ومنافسه ، ويجلس لتقبل العزاء فيه ، وينقل ما معناه متسائلا على لسان ابن داود : كيف يأكله التراب ؟ فهكذا تترفع النفوس الكريمة ، وتقدر مخالفيها حين تعرف فضائلهم ، فيسمون على بشريتهم الضعيفة .

وهناك جانب في شخصية ابن سريج العالم المجدد ، لعل ذلك يبدو في شعره الذي كان ينحو إلى الحب والجمال .. وكأنه كان يترسم أسلوب إمامه صاحب المذهب الشافعي حيث كان شاعرا وله ألوان كثيرة ، حتى إنه لقب بالإمام الشاعر ، وهكذا كان ابن سريج .

وتفسير ذلك : أن أولئك العلماء والفقهاء يفهمون الحياة فهما يصلها بالدين ، ويصل الدين بها . ويعلم من لا يعرف كيف يكون العالم الفقيه الزاهد المتصوف حساسا لما حوله .. وبمثل هذا تتجدد الحياة بعمل وأسلوب أولئك المجددين الكرام.

وهكذا .. كان ابن سريج بالنسبة لمعاصريه ، فقالوا عنه : « عالما في شخص ، وأمة في نفس ، وإمام الدنيا بالإطلاق ، وشافعي عصره بالإطباق » .

* * *

الطــبري

ولد الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في مدينة آمل عاصمة طبرستان في أواخر عام ٢٢٤ هـ وتوفي عام ٣١٠ هـ، ولذلك ، فمجال عمله كان في القرن الثالـث الهجري، أي : إنه من مجددي هذا القرن. ولعل أهم ما تركه هذا الإمـام الجليـل هـو تفسيره وتاريخه وبهما يعرفنا تاريخنا الإسلامي.

وكما يذكر الأستاذ «محمد خليفة التونسى» في مجـال التعريـف بـه مـشيرا إلى أن «أخباره لقلتها وتفرقها لا تكفي لتكوين قصة حياته أو سيرته، وإن أغنت في رسـوم صورته الشخصية»، وسنتوخى له هنا صورة مصغرة لضيق المقام.

ويبدو من كل هذه الأخبار كأنما نذره القدر منـذ صـباه، لأداء «رسـالة دينيـة» مقدسة ، فهيأه لها بمأثورات أسرته وبشمائله معا ومكن عـشقها منـه، ثـم فرغـه لهـا طوال حياته، فلم يعرف غيرها حتى ودعها مع الحياة في شيخوخته بعد أن عمر نحو ست وثمانين سنة، ولقد مضى القدر يعده لها باكرا حتى إذا أطاق حملها في صباه، حمله إياها وأعانه عليها، وأنماها له مع نموه، حتى ناله به ونال بهـا في نهايـة شـوطهما معـا خير ما عندها وخير ما عنده.

وهذه الرسالة هي رسالة «العلم» بمعناه الواسع القديم في العربيـة واليونانيـة، أو رسالة «التعليم والتعلم» التي استغرقته، واجتهد هو في استغراقها فبلغ من ذلـك غاية ما يبلغ وسع الإنسان، وما لإنسان إلى استغراقها سبيل.

وننظر إلى أخبار حياته جملة، أو نستقرئها تفصيلا ، فلا نرى له عمـلا ولا خلقـا ولا نية ولا مسمى ولا هوى إلا وهو يمد إلى هذه الرسالة بعرق ينبض بـدم الحيـاة،

ويعينها بكل ما فيه من أسباب القوة والتأصل والدوام، وكما يذهب الأستاذ التونسي: « فلو أردنا أن نصفه بكلمة واحدة وافية في الدلالة عليها وعليه لكفانا أن ندعوه «الحواري»، وإنه لمصداق قوي لما أثر عن النبي - عليه الصلاة السلام - في قوله: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**».

ولو أردنا أن نعرف من مثال واحد كيف ينبغي أن يكون «الحواري» خلقا وسيرة أو «العالم» الذي قدر له أن يتلقى رسالة نبي وينهض بها بعده - لكان الطبري مثالا وافيا له، بل هو أوفى «حوارييه» من كثير بين من ادعوا أو يدعون بحق: «حواريين».

ويذكر «ياقوت» في تاريخه أن الطبري قد رحل عن مدينته (آمل) في حداثته إلى غيرها من بلاد طبرستان طلبا للعلم، بعد أن أخذ منها ما استطاعت أن تعطيه، فطلب العلم في الري وغيرها من مدن طبرستان وقراها قبل رحلته إلى أقاليم أخرى، ولم يكن منذ حداثته يكتفي بالتلقي عن شيخ واحد إذا أطاق التلقي عن شيخين ولو بهظته المشقه مادام يطيقها. ومن أخبار حداثته - بطلب علم التفسير والحديث والتاريخ مع طائفة مثله في مدينة الري - ما حكاه من أنهم كانوا يكتبون عن شيخها الكبير محمد بن حميد الرازي، الذي يكثر النقل عنه في تاريخه قال: «كنا نكتب... فيخرج إلينا في الليل مرات، ويسألنا عما كتبناه، ويقرؤه علينا.. وكنا نمضي إلى أحمد ابن حماد الدولابي - وكان في قرية من قرى الري بينها والري فراسخ - ثم نعدو كالمجانين، حتى نصير إلى ابن حماد فنلحق بمجلسه . وبهذا العشق لرسالته أقبل عليها منذ الحداثة، مستهينا بالمشاق كسائر العشاق، وإن كلفته دلج الليل ذاهبا آيبا بين بلدين منقطعين يعدو هو وصحبه كالمجانين ويقال إنه كتب عن ابن حميد فوق مائة ألف حديث».

ومن التوفيقات : أن تدوم له معونة أبيه طوال حياته، فقد خلف له ضيعة كان رزقها يأتيه يسيرا، فأغنته عن السعي لتحصيل رزقه أو التعويل على أحد فيه، ومكنته

من أدوات العلم ومن الرحلة إلى معاهده في أمصار الشرق الإسلامية، فأخذ ما وسعه من شيوخ آمل والري ونحوهما في وطنه طبرستان، ثم شيوخ بغداد والكوفة والبصرة وواسط في العراق، وشيوخ دمشق وغيرها من بلاد السواحل والثغور في الشام، وشيوخ الفسطاط في مصر. ثم استقر في بغداد منذ أواخر شبابه حتى مات ودفن فيها سنة ٣١٠ هـ. وهو مكفي المؤنة متفرغ للقراءة والإقراء أو الإملاء والتأليف احتسابا لوجه الله، بعد أن كاد يستوعب كل علوم عصره الأصيلة القديمة والدخيلة المحدثة، وكلها كانت مستبحرة قبله وفي أيامه.

ولقد صار إمام عصره الذي كان من أحيا العصور في تاريخنا ثقافة وحضارة، وظهر علوم إمامته بين أعظم معاصريه حتى في حياته جماعة من بقية شيوخه ومن من طبقتهم سنا وعلما وشهرة، وشهد له أفضلهم بالتقدم، ومن هؤلاء المبرد، ومنهم شيخه في الأدب والنحو أبو العباس ثعلب الذي شهد له بحذقه في النحو وهو علمه المبرز فيه، حيث قال: «وهذا من أبي العباس كثير لأنه كان شديد النفس شرس الأخلاق، وكان قليل الشهادة لأحد بالحذق في علمه».

وكذلك يسجل ياقوت في تاريخه أن الطبري قد بلغ في عدة علوم شرعية وأدبية وكونية غاية ما يبلغ المختص في كل منها على حدة، مع سعة اطلاعه على غيرها، حيث قال مواطنه وكاتب سيرته «عبد العزيز بن محمد الطبري»: «كان أبو جعفر قد نظر في المنطق والحساب والجبر والمقابلة وكثير من فنون أبواب الحساب وفي الطب، وأخذ منها قسطا وافرا يدل عليه كلامه في الوصايا... وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي كان لا يعرف إلا الفقه، والحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها».

وقال في موضع آخر: «كان أبو جعفر من الفضل والذكاء والعلم والحفظ على مالا يجهله أحد عرفه، لجمعه من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد غيرها من

هذه الأمة، ولا ظهر من كتب المصنفين وانتشر من كتب المؤلفين ما انتشر له» ثم تحدث بتبحره في علوم القرآن والقراءات واختلاف الفقهاء وعلم اللغة والنحو والجدل والأخلاق وإحاطته بمأثورات شعر الجاهلية.. وقد وصفه غير هذا المؤرخ بمثل ذلك وبتبحره في علوم أخرى كالجبر والمقابلة والطب، ثم الفلسفة التي كان يحرص على ألا يعرف بها لأسبابه، وهذه الشهادة بين كثير مثلها وكلها تجمع على فضله وتبريزه، والإعجاب به، ولكن مواطنه المعجب - ككثير غيره - يقول هنا بقدر، ويقدم الأدلة عليه، من وراء ذلك كله كتبه التي تغنيه عن شهادات الشهود من أوليائه وأعدائه. وقليل ما بقي منها ومن أخباره ما يدل على أنه كان من أفذاذ الموسوعيين في العالم إلى جانب حظه الواضح من العبقرية وصلابة الشخصية.

وتظهر فيه خلائق «الحواري». وسيرته كما تظهر فيه ملكاته الذهنية مما يحتاج إليه الحواري منها، فيصفه مترجمه السابق: «بالزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية وحقائق الأفعال » ويقول فيه أيضا: «كان عازفا عن الدنيا تاركا لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها وكان - كما ينبغي للحواري - واضح البيان حاضر البديهة قوي العارضة عارفا بأخلاق الناس أفرادا وجماعات، متمكنا من فقه دينه ولغته، بصيرا بالكلام وذوقه، شجاعا في الحق لا يخشى فيه لومة لائم، فما راجت في أيامه بدعة مخلة بالدين أو الأدب العام - عنده - إلا نهض للرد عليها، ولا ظهر تنقيص لقدر أحد من صحابة النبي والتابعين أو شيوخا إلا بادر بالإملاء والتأليف في فضائله، فألف مثلا في الرد على داود الأصبهاني وناظريه فغلبه في بعض آراء «الظاهرية» ، وألف كتاب (فضائل علي بن أبي طالب في الرد على النواصب) ، وأظهر فضائل التابعين وفضائل شيوخه في كتابه (ذيل المذيل) للرد على ما تناولهم بالأصفار وكان كأبناء النعمة الصلحاء الأقوياء الذين يملكونها، ولا تملكهم ». قال مواطنه ومترجمه السابق ما نقله عنه الأستاذ التونسي : « كان

أبو جعفر ظريفا في ظاهره نظيفا في باطنه حسن العشرة لمجالسيه ، متفقدا لأحوال إخوانه، مهذبا في جميع أحوال نفسه، منبسطا مع إخوانه حتى إنه ربما داعبهم أحسن مداعبة، وربما جيء بين يديه بشيء من العلم والفقه حتى يكون كأجير جد وأحسن علم».

ولهذا ولغيره من أسباب .. اختير أبو جعفر الطبري واحدا من المجددين في الإسلام.



القرن الرابع



1 – أبو جعفر الطحاوي

2 – أبو الحسن الأشعري

3 – الماتريدي

4 – الفارابي

5 – إخوان الصفا

6 – النيسابوري


7 – أبو حيان التوحيدي



8 – الحسن بن الهيثم

هـذا القـرن

وتفتتح السنة الأولى من المائة الرابعة الهجرية ، يوم السبت الموافـق ٧ أغـسطس عام ٩١٣ م بأحداث كبيرة لعلها تنـدرج جميعهـا تحـت عنـوان : اضـمحلال الدولـة العباسية وزوال هيبتها التى كانـت في القـرنين : الثـاني والثالـث الهجـريين، في كـل البلدان والأمصار مما أدى إلى انقسامها إلى دول وإمارات - ولذلك أسباب كثـيرة في مقدمتها : تسلط العنصر التركى الذي كان قد استجلبه أحد خلفائها المعتصم بـالله : ثامن أبناء الخليفـة هـارون الرشـيد ، وزيـادة نفـوذ هـؤلاء الأتـراك في إدارة الـبلاد وسياستها حتى تذمر أهل البلاد الأصليون ، وثاروا لاسـتعادة نفـوذهم في دولـتهم التى قامت على أكتافهم، فقاموا بإنشاء دول لهم ، وإن كانت تدين ظاهريـا بالطاعـة للدولة العباسية .

كذلك تنوعت النكسات الرجعية، وامتدت فروعها إلى بنية المجتمع الإسلامى بشكل يعد أسوأ ممـا حـدث في القـرن الثالـث الهجـري. فـإلى جانـب هـذه النكـسة الـسياسية المتمثلـة في تفتيـت الدولـة العباسـية إلى دول تفـرق التفـاف الـشعوب الإسلامية حول دار الخلافة الإسلامية ، أطلت النكسة الرجعية الدينية برأسها حتى وصل التنازع بين الفرق الإسلامية إلى حد التحارب والتقاتل كـما حـدث بـين أهـل السنة والشيعة ، كذلك أطلت النكـسة الرجعيـة الاجتماعيـة بـين عنـاصر المجتمـع الأصلية والأخرى الدخيلة . يضاف إلى هذه النكسات: نكسة التصوف التى بـدأت في القرن الثالث الهجري لتستمر وتتفاقم بصورة خطيرة في القرن الرابع فتزداد سوءا وإفسادا في الدولة ، خصوصا بعد اجتذاب عامة المسلمين وخاصتهم.

ولكن هذه الدول الجديدة على ما كانت عليه من الخلاف والانقسام، كانت أعظم دول الأرض حضارة في هذا القرن ؛ إذ حفظت للمسلمين ما كان لهم من السبق الفكري على دول العالم كما حفظت ما كان لهم من السبق العلمي ؛ لأن ملوك هذه الدول كانوا يتنافسون فيما بينهم على النهوض بالأدب والعلم والفن لتزدان به دولهم وتسمو على غيرها من الدول .

وفي المقابل فيها .. نجد أوروبا في هذا القرن تعيش تخلفا مطبقا ، على الرغم من محاولات ملوكها - وفي مقدمتهم «شارلمان» - تقليد ما يحدث من تقدم في دار الإسلام ، ولم يكن حال العلم فيها بأحسن حظا من حالها السياسي .

ولهذا .. يقرر المؤرخون أنه إذا كان المسلمون في القرن الثالث الهجري في حاجة إلى مجدد يصلح ما نشأ في المجتمع الإسلامي من فتن ونكسات وانقسامات. فإن حاجتهم أشد في القرن الرابع ؛ ذلك لأن حالة القرن الرابع كانت أسوأ أثرا . ومن هنا كان اختيار مجدد هذا القرن اختيارا خاصا يناسب ما فيه من أزمات. فيذكرون من أولي الأمر : « الأمير القادر » الذي بقي في الحكم واحدا وأربعين عاما وكان على شيء من القوة ، ومن الفقهاء أبو الحسن الأشعري ورجحوه على غيره لعدم تعصبه . حتى جاء مذهبه - كما يذهب الأستاذ الصعيدي - مذهبا وسطا بين إفراط المعتزلة وتفريط القدامى من أهل السنة ، فصار مذهبه مذهب جمهور المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . ولم يبق لمذهب القدامى من أهل السنة أثر إلا عند بعض المتشددين من الحنابلة ، ولم يبق لمذهب المعتزلة أثر إلا بين بعض فرق الشيعة ، مع أن الفريقين قد نفرا منه في بادئ الأمر .

والسبب كما يذكر الدكتور «إبراهيم بيومي مدكور» ، أن الأشعري وضع توفيقا باهرا بين السلف والمعتزلة ، به يحتفظ للنقل والنصوص الدينية بقداستها دون أن يهمل جانب العقل الذي يخدم العقيدة ويؤيدها ، ويواجه نقط الخلاف الشائكة بين

الطرفين في موضوع الألوهية ، ويقدم لها حلولا طابت لها نفوس العامة. ورضي بها الخاصة ، ثم أخذت تقوى مع الزمن حتى أصبحت العقيدة السائدة التي يقوم على أمرها أئمة متلاحقون يعززونها ويناصرونها ولا يخرجون عليها إلا في حدود ضيقة.

وكذلك .. اختاروا مجددين من أهل الفلسفة على رأسهم : الفارابي وإخوان الصفا ، وقبل الحديث عن الفارابي كمجدد لهذا القرن نشير إلى رسائل إخوان الصفا، التي هي دائرة معارف فلسفية تجمع ما وصل إليه المسلمون في جوانب مختلفة منها الإلهيات والطبيعيات والرياضيات وعلم النفس، وهدفها التقريب بين الدين والفلسفة ولا يعرف لها مؤلف معين تنسب إليه.

وسوف نخصص الحديث عن مجددي القرن الرابع لكل من : أبي الحسن الأشعري والفارابي وإخوان الصفا والطحاوي ، والماتريدي ، والنيسابوري، وأبي حيان التوحيدي وابن الهيثم كأمثلة للمجددين في هذا القرن .



أبو جعفر الطحاوي

أبو جعفر الطحاوي : من مجددي القرن الرابع الهجري حيث ولد عام ٢٣٨ وتوفي عام ٣٢١ هـ وهو من القائلين : إنه يخطئ من يظن أن الإسلام - وهو دين العقل - معاد للعلم ، فمنذ جاء هذا الدين وهو يحث على العلم ، ويجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وليس هناك أي دين آخر - سماوي أو غير سماوي - عرف قدر العلم والعلماء مثلما عرف الإسلام حيث قال تعالى : ﴿ **هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] . ولم يتخذ موقفا من أي نوع من العلوم إذا كانت في الأصل موجهة لخيري الدنيا والآخرة .

وإذا كانت الدعوة إلى الإسلام واجبة على كل مسلم ومسلمة ، بالقول أو العمل، فإن الدعوة إلى العلم والتفقه في الإسلام واجبة أيضا على المسلمين ، وفي هذا يقول عز وجل : ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[2] . ولذلك يشترط الإسلام - فيمن يتولى تفقيه المسلمين - الأمانة والإخلاص ، القدوة الصالحة والثقافة الواسعة ، والرواية المستنيرة ، والاستعداد للفداء والجهاد ، ومن هؤلاء المؤمنين الذين برزوا في الفقه : الإمام العالم أحمد بن محمد بن سلامة المعروف في التاريخ الإسلامي بأبي جعفر الطحاوي .

---

(1) الزمر : ٩ .
(2) التوبة : ١٢٢ .

هذا الإمام العالم ، والفقيه الحنفي أبو جعفر الطحاوي الذي انتهت إليه إمامة المذهب الحنفي بمصر ، ولد عام ٢٣٨ للهجرة بقرية « طحا » في ولاية ابن إسحاق على مصر ، فكان من أنصار آراء أبي حنيفة النعمان ومتأثرا بها ، ومتشيعا لها ، خاصة في عهد هذا الوالي العادل .

فقد كان عهد ابن إسحاق يتسم بالعدل والإنصاف، وقد أظهر فيهما ما لم يسمع بمثله في زمانه ، وفي ذلك يقول الذهبي في تأريخه : « كان ابن إسحاق يتوجه ماشيا إلى المسجد القريب من مسكنه، وكان ينادي الناس في شهر رمضان: «السحور. السحور». وهو أمر لم يكن معتادا من الولاة والأمراء والملوك، خاصة بعد الأمويين.

ومن هنا .. تفتحت عينا الإمام الفقيه أبي جعفر الطحاوي على عهد اتصف بالعدل والإنصاف والورع الذي عم البلاد ، فشمل المدن والقرى ، ومنها « طحا » التى ينتسب إليها هذا الإمام الفقيه الذي برز في الكثير من الموضوعات الفقهية التي يفرضها عليه عصره .

لقد كانت البدايات الفقهية للإمام العالم أبي جعفر الطحاوي شافعية إلا أنه تحول عنها إلى المذهب الحنفى .. وحين سئل في ذلك قال : « كنت أرى حالا لن يديم النظر في كتب أبي حنيفة ، فلذلك انتقلت إليه .. » ولعل هذا التحول كان خيرا وبركة بالنسبة لزمانه الذي كان يتطلب توضيح الكثير من المسائل الخاصة بالفقه .

ولقد أقبل هذا الإمام الطحاوي على كتب الفقه : قديمها وحديثها حتى تكونت لديه وجهة نظر في العقيدة والدين فيما ترك من الكتب الفقهية المفيدة ، منها (أحكام القرآن) .. و(اختلاف العلماء) و(معاني الآثار والشروط) ، وكانت له دعوة مجابة، وكان يقول : « من طهر قلبه من الحرام فتحت لدعواته أبواب السماء » .

ولم يقتصر دور هذا الفقيه الإمام على تأليف الكتب فحسب ، بل كان يقوم بالوعظ والإرشاد حينا والتدريس في المسجد العتيق حينا آخر . بل شمل دوره تبصير المسلمين بتحول الولاة إلى التعسف والظلم في أخريات حياته ، خاصة وإلى

الخليفة العباس المقتدر أبو منصور (تكين) الذي أقره الخليفة المقتدر على مصر وسوريا .. وكان تكين هذا يتصف بالجبروت والمهابة ، وهو أمر يختلف عن مسلك ابن إسحاق كما رأينا ويتفق مع سلوك العباسيين عامة .

وقصة الطحاوي مع الوالي أبي منصور تكين يحدثنا بها السخاوي في كتابه : (تحفة الأحباب) فيقول : « إن أمير مصر أبا منصور تكين الشهير بالجبار المهاب ، سمع بعلم وفضل الإمام الطحاوي وإقبال الناس عليه ، حتى أصبح له مريدون وأتباع ، فطلبه وعندما تحدث معه أدرك سبب الإقبال عليه .. وهنا بادره الأمير قائلا: « أريد أن أزوجك ابنتى » فقال الفقيه الإمام : « لا أفعل ذلك » . قال الأمير : هل أقطعك أرضا ؟ قال الإمام : لا . قال الأمير وقد أصر على استمالة هذا الإمام الذي يتبعه أبناء مصر : « إذا .. فاسألنى ما شئت ؟ » فرد عليه الطحاوي قائلا : «وتسمع؟!» قال الأمير : « نعم » . وهنا رد عليه الإمام الطحاوي قائلا : « احفظ دينك لئلا ينقلب ، واعمل في فكاك نفسك قبل الموت ، وإياك ومظالم العباد » . ونزلت هذه الكلمات غير المتوقعة على الوالي نزول الصاعقة .

وقبل أن يرد عليه هذا الأمير الجبار والمهاب بالنفى أو الإيجاب تركه الإمام الطحاوي ومضى إلى حال سبيله .. فقد قال له ما يريد على اعتبار أن دور رجل الدين في رأيه هو تبصير العباد - حتى ولو كانوا ملوكا وولاة - بأخطائهم .. مهما تكن نتائج هذا التبصير .

ومن عجيب الأمور : أن هذا الوالي المهاب قد سمع جيدا نصح هذا الفقيه الإمام ، فرجع عن ظلمه وعسفه لأهل مصر، بل وتحول إلى منصف وعادل، والسبب هو إدراك صدق هذا الإمام فيما نصح ، وتغليبه الصالح العام على المنفعة الشخصية، والأهم: أنه وجد من يستطيع أن يقول له «لا» وهو ما لم يتعوده من قبل.

وهكذا .. استمر الإمام الطحاوي يبصر المسلمين في أمر دينهم طوال حياته .. منفقا كل وقته إما في الفتوى والوعظ والإرشاد أو في التفكير والتأمل والتأليف ، أو في التدريس والمناقشة والمساجلة .

وقد نلمح في كتابات هذا الإمام العالم الفقيه الكثير ما يدل على سعة عقله وتطوره بالنسبة إلى عصره ، فهو يرى أنه لا يمكن المساواة بين العالم والجاهل في المنزلة والمكانة في الدين ، يقول الله في كتابه الكريم : ﴿ **هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] ، أو حين يقول الله سبحانه لنبيه الكريم : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** ﴾[2] .

ولذلك : فشيخنا الصالح أبو جعفر الطحاوي يرى أن مسئولية العالم في الدين الإسلامي كبيرة ، وخطؤه ليس خطأ عاديا ، وقد صور النبي ﷺ موقف العالم الذي يأمر الناس بالخير ، ولا يقوم بأدائه تصويرا معبرا حينما قال : « **يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقطاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان، مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه** »[3] .

ومن هنا .. كان السلف الصالح – ومنهم الشيخ أبو جعفر الطحاوي الحنفي – يرون في القرآن مرآة لأحوالهم ، وميزانا لتصرفاتهم ، وكانوا يستحيون أن يخرج الواحد منهم من حدود هذا الدين ولو بزلة لسان .

واستمر هذا المجدد الصالح أبو جعفر الطحاوي يقوم بواجبه على النحو الذي رسمه الإسلام ونبيه الكريم ، حتى كانت وفاته في سنة ٣٢١هـ ، في نفس المكان الذي يتعبد فيه ويعلم ويفقه في أمور الدين ، هذا المكان أقيم عليه مسجد ضم رفاته الطاهر .

* * *

(1) الزمر : ٩ .
(2) طه : ١١٤ .
(3) البخاري – بدء الخلق / 1 .

أبو الحسن الأشعري

أبو الحسن الأشعري من مجددي القرن الرابع الهجري ، فقد ولد عام ٢٦٠ هجرية وتوفي عام ٣٢٤ هـ، وكان من أسرة عربية تنتمي إلى الأشاعرة الكرام الذين مدحهم النبي ﷺ لفضل معاونتهم للمسلمين في يسرهم وعسرهم .

وتربى بالبصرة في حضانة أسرة عربية توارث عنها العزمة القوية ، والإرادة الماضية ، وكانت البصرة موطن الاعتزال ، وموطن فرق الشيعة ، والمكان الذي التقى فيه العقل العربي ، بالعلم الهندي واليوناني . وهي كما تطل على البادية العريقة بصفائها ، وتحتضنها الحضارة بروائها ، فقد التقى فيها أيضا العلم العميق والصفاء الذهني ، فالتقى علم الإسلام النقي الصافي ، بالفلسفات المختلفة ، والآراء المتباينة ، والأهواء والانحرافات .

درس في نشأته علوم الإسلام الأولى . فحفظ القرآن وطائفة من الأحاديث ومقدارا من الأحكام الفقهية يتعرف منها أمر دينه ، وكان من الممكن أن يسلك مسلك الفقهاء والمحدثين ، ولكن كان علم هؤلاء علم رواية وتفريع الأحكام، وتخريجها على أصولها من الكتاب أو السنة أو القياس الفقهي ، وذلك بإلحاق أمر غير منصوص على حكمه ، بأمر آخر منصوص لاشتراكهما في الوصف الذي يعد علة للحكم .

ونقرأ معا ما كتبه الشيخ «محمد أبو زهرة» في مقالة عن الجوانب العلمية في مسيرة حياة الأشعري حيث يرى أنه كان في نفسه نزوع إلى الدراسات العقلية في ظل المبادئ الإسلامية ، ولم يجد ذلك إلا عند المعتزلة ، فقد كانوا يدرسون العقائد

الإسلامية ، ويؤيدونها بالبرهان العقلي ، ويؤولون كل ما جاء في القرآن على مقتضى حكم العقل القطعي ، إن خالفه ظاهر القرآن في بعض آياته .

وقد تتلمذ الأشعري على شيخ من شيوخ المعتزلة ، وكان إمامهم بالبصرة في عصره، هو «أبو علي الجبائي» ، فلازم درسه ، ولكنه لم يكن تلميذا كبقية التلاميذ يتبعون شيخهم فيما ينتهي إليه ، أو على الأقل يرجحون بالنسبة لأساتذتهم الاتباع ، على الإبداع ، بل كان ذلك التلميذ النابه يناقش شيخه في كل ما يعرض له من مسائل ، وأحيانا تنتهي مناقشة التلميذ للشيخ بإسكاته وحيرته في الجواب .

اتصل بالمعتزلة ، وقرأ على علمائها، وشاقته طريقتهم في التفكير ، إلا أن المستقبل والتفكير الحر يجعله ينقب عن الآراء التي تكون، وعن الأفكار حيثما تكون، وكذلك لم تقطعه دراسة الاعتزال عن دراسة آراء الفقهاء والمحدثين في العقائد ، وقد كان يدرسها بعين عاطفة مقربة ، لا بعين ساخطة مبعدة .

وكان كلما تقدمت به السن ، أو كلما نضج فكره يستنكر من آراء المعتزلة شيئا ، حتى إذا وصل إلى الأربعين ، وبلغ أشده ، وهي السن التي يكتمل فيها العقل والجسم، وجد نفسه بعيدا عن الاعتزال بقلبه وعقله .

وقد أخذ بعد ذلك يقارن بين ما يعتنقه المعتزل وبين ما يعتنقه الفقهاء والمحدثون ، معتمدين فيه على حكم المنقول من القرآن وعن السنة ، وعكف زمنا يوازن بين ما في كل منهما من حق ، وانتهى بعد الموازنة إلى رأي قرر فيه أن الاحتياط في الاعتقاد هو ما يدعو إليه الفقهاء والمحدثون ، ولكن ينقصهم الاعتماد على العقل في تقرير ما يقررون ، فلابد لبيان الحق من نص يثبته ، وبرهان عقلي يقربه ويؤيده ، ولابد للدفاع عنه من منطق عقلي يرد على الخصوص .

وعلى أي حال قد فارق الاعتزال ، وإن لم ينضو تماما تحت سلطان الفقهاء والمحدثين .

وبعد أن انتهى إلى هجر آراء المعتزلة ، وإن لم يهجر منهاجهم في الاستدلال ، ذهب إلى المسجد الجامع في البصرة ، وصعد المنبر ، ثم قال :

« أيها الناس من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني أنا أعرفه بنفسي . أنا فلان ابن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، متصد للرد على المعتزلة ، كاشف لفضائحهم .

« معاشر الناس :

إنما تغيبت عنكم هذه المدة ؛ لأني نظرت فتوافرت عندي الأدلة ، ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى ، فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد ، كما انخلعت من ثوبي هذا » .

وانخلع من ثوب كان عليه ، ودفع إلى الناس كتبه .

ولاشك أن هذا التحول قد أضاف إلى الفقهاء والمحدثين ناصرا قويا ، ورجلا ماهرا في الكلام ، وفي الاستدلال. وأن ما كتبه بعد ذلك يدل على أنه كان متأثرا بالإمام أحمد بن حنبل ، وموقفه من المعتزلة ، وقد كانت حياته وأصداء مواقف الإمام أحمد بن حنبل لا تزال في التاريخ ، حيث لقي الأشعري من لقوه فقد كانت وفاة الإمام أحمد سنة ٢٤١ هـ ، وحياة الأشعري كانت ما بين ٢٦٠ – ٣٢٤ هـ فهو يقول في مقدمة كتابه (الإبانة) .

« ديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته ، ونحن عمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به المبتدعين وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمة الله تعالى على إمام مقدم ، وكبير مفهم ، ورحمته على جميع أئمة المسلمين » .

وقد شرح خلاصة آرائه عند انتقاله من الابتداء شرحا محكما في مقدمة كتابه «الإبانة» . وخلاصة آرائه في هذا الكتاب :

إنه يرى أن بعض الصالحين تكون له آية ، أي علامة تدل على مكانته عند الله ، وهو ما يسمى : كرامة الأولياء ، وقد أنكر المعتزلة ذلك ، وخصها الشيعة بأئمتهم ؛ فقد قالوا أن المعجزات تجري على أيديهم كما تجري على أيدي الأنبياء ، بيد أنهم لا ينزل عليهم الوحي .

وأن الصوفية يرون إثبات الكرامة للصالحين ، بيد أن المخلصين المحققين منهم يطلبون الاستقامة ، بأن يسيروا على ما أمر به الشارع سيرا مستقيما ، ولا يطلبوا الكرامة ، ويقول قائلهم في دعائه : اللهم هبنا الاستقامة بدل الكرامة ؛ لأن الكرامة تستحق من العبد الشكر ، والاستقامة يرجو بها العبد الأجر .

كذلك يرى في كتابه أن كل ما جاءت به السنة ، سواء أكانت أحاديث متواترة أم كانت غير متواترة ، حجة تثبت بها العقائد ، فعذاب القبر يجب اعتقاده ، وغير ذلك من الأمور التي جاءت بها السنة ، لأنه ما دامت صحة الحديث قد ثبتت بالطرق التي يلتزمها المحدثون في الرواية فهو حجة في العمل والاعتقاد ، إذ لا فرق بينهما في الإثبات . ولا معنى لأن نعمل بالحديث ، وننكر الأخذ بمثله في الاعتقاد .

ولكن هل يكفر من لا يأخذ بأحاديث الآحاد ؟

يظهر أن الأشعري ، وهو شافعي المذهب لا يكفره ، لأن الإمام الشافعي يقرر في الرسالة أن العلم قسمان ، علم يثبت في الظاهر والباطن ، وهو العلم الذي يكون طريقه قطعيا ، فهو يلزم في الاعتقاد والعمل ، وعلم يثبت في الظاهر دون الباطن ، وهو ما يكون دليله ظنيا ، فهو يلزم في العمل الظاهر ، دون الاعتقاد ، ويعد من هذا القسم ما يكون طريقه خبر الآحاد . فإذا كان الأشعري أوجب الاعتقاد بحديث الآحاد ، فهو لا يكفر من لا يعتقد بما جاء فيه نتيجة لاستنارة عقله .

والأشعري يأخذ بظواهر النصوص ، فيعتقد رؤية الله يوم القيامة ، وكان يرى أولا أن لله وجها ليس مثل وجوهنا ، ويدا ليست كأيدينا ، وأن هذا هو منهاج أحمد ابن حنبل الذي اختاره في هذا الباب إماما له أولا .

وأبو الحسن الأشعري يرى أن الأشياء ليس لها قبح ذاتي ، ولا حسن ذاتي ، إنما التحسين والتقبيح من عمل الشارع وحده . وسنجد أن كثيرين من السنيين يخالفونه في الأمرين الأخيرين ، وقد رجع عن أولهما . وهو يرى أن مرتكب الكبيرة ليس مخلدا في النار . ولكن يعاقب بمقدار ما أذنب إلا أنه قام بها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾[(١)]. وإن عاقب فبالعدل ، وإن عفا فبالرحمة .

والأشعري مع أنه يأخذ بأدلة النقل ، متواترة وغير متواترة ، قد أخذ من المعتزلة منهاجهم في الجدل ومدافعة المهاجمين للإسلام ، يأخذهم بالمنطق والبرهان، وهو بهذا يتخذ العقل خادما للنصوص ، ولا يجعل النصوص محكومة بالعقل ، فهي فوق العقل ، والعقل أداة تقريبها والدفاع عنها .

وقد تصدى للمجادلة في ميدانين ، أحدهما داخلي ، وهو الرد على المعتزلة وكان يلحن بمثل حجتهم ، ويتبع طريقهم في الاستدلال فيحاربهم بمثل أسلحتهم ولا يقف عند النصوص في الدفاع ، بل يقلب القول ويصرفه دفاعا عن النصوص .

أما الميدان الثاني - الخارجي : فقد تصدى ، للرد على الفلاسفة والباطنية من الشيعة الذين كانوا يثيرون ما يوهن العقائد الإسلامية ، والقرامطة الذين قوي أمرهم ، وسال سيلهم في آخر القرن الثالث وأول القرن الرابع الهجري ، وغيرهم ممن لا يفحمه إلا الأقيسة المنطقية ، ولا يقطعه إلا دليل العقل .

---

(١) هود : ١١٤ .

وفي الحق : أنه قد ضعف شأن المعتزلة في النصف الثاني من القرن الثالث ، وما بعده ، وقد كان لهم بلاء حسن في الدفاع عن الإسلام ضد الذين يهاجمونه ، ويشككون الناس في حقائقه ، ولكن الميدان لم يخل ، فقد حمل الأشعري في العراق ومن جاء بعده لواء الدفاع عن الإسلام . وحق القول : إنه كلما أفل للإسلام نجم بزغ له نجم آخر .

والأشعري قد أوتي صفات جعلته في الذروة من المدافعين ، فهو مخلص ذو همة، وهو قوي البيان بالقلم واللسان ، فكتبه التي كتبها بعد ترك الاعتزال وقبله تتسم بالعبارة والأسلوب البليغ المحكم ، وتفيض بقوة الإيمان بما يقول .

وله كتب ألفها في الاعتزال ، وأخرى بعده ، وكلا النوعين يدل على الإحاطة الكاملة والعمق في التفكير ، ومن كتبه التي كتبها قبل أن يترك المعتزلة كتابه : (مقالات الإسلاميين) ، وعباراته بينة واضحة ، وأحسب أنه أجمع كتاب للفرق الإسلامية التي ظهرت حتى القرن الثالث الهجري .

وله كتب بعد ترك الاعتزال منها كتابه : (الإبانة) ، ولعله أول كتاب كتبه بعد الانتقال إلى معسكر الفقهاء والمحدثين ، فإن التأثر بهم واضح ، كالشأن فيمن ينتقل من ميدان إلى ميدان متأثرا بالمنهاج الذي انتقل إليه ، فإن دفعة الانتقال تكون قوية، ولكن بعد أن يستقر في الميدان يفكر في الجو الذي انتقل إليه تفكيره المستقل الذي تغذى بمادة لا يجدها في المكان الذي آوي إليه .

ولذا .. جاء كتابه : (اللمع) من بعد ذلك معدلا بعض آرائه التي قالها في الإبانة ، فهو في الإبانة كان يمنع تأويل اليد بالقدرة ، والوجه بالذات ، ويلزم الأخذ بظواهر النصوص ، ولكن في اللمع يقرر ذلك التأويل وهو في الحقيقة ليس بتأويل ولكنه أخذ بمجاز مشهور ، والمجاز المشهور لا يعد تأولا ، ومن ذلك المجاز قول

العربي : وضع الأمير يده على المدينة ، فلا تراد الحقيقة ، بل يراد السلطان ، وكذلك الأمر : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ ﴾. [(١)].

نال الأشعري منزلة كبيرة عند الحكام في زمانه ، ومن بعده ، حتى إن صلاح الدين الأيوبي كان حريصا على أن يحفظ أولاده منظومة تتضمن آراء الأشعري .

ولم يقتصر تقديره على الحكام ، بل صارت آراؤه عقيدة المسلمين أو أكثرهم ، بل كان العلماء لفرط تقديرهم لا يتبعونه فيما وصل إليه من نتائج فقط ، بل إن من كبارهم من أوجب اتباعه في الأدلة التي ساقها . ومن كان يخالف الأشعري يتعرض للنقد الشديد ، فتعرض الغزالي إلى اللوم عند نقده ، وتعرض ابن تيمية للحبس عند مخالفته ، وتعرض ابن حزم الأندلسي للأذى عندما هاجمه .

وفي الجملة : ترك الأشعري أثرا واضحا في علم العقائد ، كما ترك أئمة الفقه آثارا بينة في علم الفروع .

* * *

(١) الفتح : ١٠ .

الماتريدي

من مجددي القرن الرابع الهجري في الإسلام : الإمام أبو منصور محمد بن محمد ابن محمود الماتريدي ، والماتريدي نسبة إلى القرية التى ولد بها وتسمى «ماتريد» أو ماتريت. وماتريد أو ماتريت قرية من قرى سمرقند في بلاد ما وراء النهر الذي يراد به نهر جيحون . ولا نعرف شيئا كثيرا عن والديه ولا عن أحد من أسرته ، وإن كان المؤرخون يذكرون أن نسبه يرجع إلى أيوب خالد بن زيد بن كليب الأنصاري ، وهو الذي نزل عليه رسول الله ﷺ حين هاجر للمدينة . ولا يذكر أحد من المؤرخين تاريخ مولده ، ولكنهم متفقون على أنه توفي عام ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م .

تفقه الماتريدي في العلم على أئمة العلماء في عصره الذين أخذوا العلم بدورهم عن سلسلة من العلماء تنتهى إلى الإمام أبي حنيفة ، وتخرج في حلقة الإمام أبي نصر العياضى ، وهو أنصاري مثله ، يرجع نسبه إلى يحيى بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجى ، وكان العياضى من أهل العلم والجهاد ، فقد استشهد خلف أربعين رجلا كلهم من أقران الماتريدي وهو يحارب الكفرة في بلاد الترك . وعلى الرغم من أن أبا نصر العياضى كان شيخا للماتريدي فإنه كان يجلس معه في حلقة أبي بكر أحمد الجورجاني ، وكذلك كان يجلس الإمام أبو بكر أحمد الجورجاني مع تلميذه الإمام أبي نصر العياضى في حلقة شيخهما الإمام أبي سليمان الجورجاني تلميذ محمد ابن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة .

تلك هي مشيخة الصلاح والتقوى التي تخرج فيها الماتريدي ، وقد عكفت هذه المشيخة على رواية الكتب المنسوبة للإمام أبي حنيفة ورسائله ووصاياه في أصول

العقائد ودراساتها . فكان (الفقه الأكبر) المنسوب لأبي حنيفة و(الرسالة) و(الفقه الأبسط) و(العالم والمتعلم) و(الوصية) هي التعليقة التي يحملها فقهاء مذهب النعمان في أصول العقائد . وقد حملها الماتريدي ورواها عن شيوخه ، ولكنها أخذت شكلا آخر على يديه ، كانت هذه المؤلفات بمثابة « بيان » لعقيدة أهل السنة وما يصح الاعتقاد به من غير دليل ولا برهان ، ولكن هذه العقيدة وما تضمنته من أصول تحولت من « عقيدة » إلى « علم » أي إلى « علم كلام » على يد الماتريدي ، لأنه « حقق تلك الأصول في كتبه بقواطع الأدلة ، وأتقن التفاريع بلوامع البراهين اليقينية». فكان هو «متكلم » مدرسة أبي حنيفة النعمان ورئيس أهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر ؛ ولذلك سميت المدرسة باسمه ، وأصبح المتكلمون على مذهب الإمام أبي حنيفة في بلاد ما وراء النهر يسمون بالماتريدية ، واقتصر إطلاق اسم أبي حنيفة على الأحناف المتخصصين في مذهبه الفقهي .

وقد تخرج على يديه أربعة من أئمة العلماء هم : أبو القاسم إسحاق بن محمد ابن إسماعيل الشهير بالحكيم السمرقندي المتوفى عام ٣٤٠هـ / ٩٥١م ، والإمام أبو الحسن علي بن سعيد الرستغفني ، والإمام أبو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوي المتوفى عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩م ، والإمام أبو الليث البخاري . كما قام جيل متصل من الماتريدية يوضحون مذهب إمامهم وينقحونه ، فيلتقون معه كثيرا ويختلفون معه أحيانا ، ويسهمون بذلك في دعم العقيدة الماتريدية لأهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر .

يشير إلى مؤلفاته الدكتور «فتح الله خليف» التي ترجع إلى العديد من المصادر العلمية ، حيث تدل عناوين الكتب التي يذكرها المؤرخون للماتريدي على أنه كرس حياته للدفاع عن العقيدة ، والرد على المنحرفين عن السنة . كما تدل أيضا على سعة معارفه وإلمامه بعلوم الدين من فقه وأصول وكلام وتفسير .

فقد رد على المعتزلة ونقض أصولهم الخمسة وتعقب الكعبى بالذات ، إمام أهل الأرض عند المعتزلة ومعاصر الماتريدي ، فنقض آراءه ومؤلفاته . ففى الرد على المعتزلة صنف (بيان وهم المعتزلة) ، و(رد الأصول الخمسة لأبي محمد الباهلى) . وفي نقض آراء الكعبى ومؤلفاته صنف (رد أوائل الأدلة للكعبي) ، و(رد تهذيب الجدل للكعبي) و(رد وعيد الفساق للكعبي) .

وكذلك .. رد على القرامطة والروافض ، وصنف في ذلك (الرد على أصول القرامطة) و(رد كتاب الإمامة لبعض الروافض) . أما مؤلفاته في أصول الفقه فهى: (مأخذ الشرائع) و(كتاب الجدل) ، وهو فوق ذلك يكتب في التفسير والكلام على طريق أهل السنة ، كما يصنف في الفقه ، فيسمى كتابه في التفسير (تأويلات أهل السنة) أو (التأويلات الماتريدية في بيان أصول أهل السنة وأصول التوحيد) ، وهذا التفسير يشهد بسعة علم الماتريدي وغزارة معارفه في علوم الدين واللغة . ومن حسن الحظ أن حفظ لنا الزمن هذا التفسير كما حفظ لنا كتاب (المقالات) و(كتاب التوحيد) ، أما كتبه الأخرى فقد ضاعت كلها .

وما زالت مؤلفاته الموجودة مخطوطة حتى الآن فيما عدا كتاب (التوحيد) الذي حققه الدكتور «فتح الله خليف» ونشره عام ١٩٧٠م ، فكان أول عمل ينشر على الناس من أعمال الإمام الماتريدي مؤسس المدرسة الماتريدية في علم الكلام لأهل السنة والجماعة في بلاد ما وراء النهر . ولا ترجع أهمية كتاب التوحيد إلى أنه من أقدم النصوص لشيخ من شيوخ أهل السنة والجماعة ، بل لأنه المصدر الأول لكل رجال المدرسة الماتريدية وشيوخها الذين جاءوا بعد الماتريدي ونصروا مذهبه .

كما يقوم بتحليل محتوى كتاب التوحيد الدكتور «فتح الله خليف» حيث يستهل الماتريدي كتاب التوحيد بفصل أبطال التقليد ، وهو في ذلك لا يخرج على الإجماع المنعقد بين علماء الكلام من أهل السنة والمعتزلة علة السواء على فساد التقليد وبطلانه .

ولقد ذهب الأشعري والأشعرية إلى حد تكفير المقلد ، إذ اشترطوا في صحة الإيمان أن يكون قائما على الاستدلال ، بل إنهم يرون أنه « لا يصح إسلام أحد حتى يكون بعد بلوغه شاكا غير مصدق » . على أن الشك هنا ليس مقصودا لذاته ، وإنما هو شك الغرض منه تطهير النفس من الأفكار الموروثة حتى تستعد لقبول الحق بالنظر والاستدلال الذي ينبغي تدريب المسلم عليهما فور أن يصل إلى البلوغ أو قبل ذلك إذا استطاع إليهما سبيلا . يقول ابن حزم : « ذهب محمد بن جرير الطبري والأشعرية كلها حاشا السيمناني إلى أنه لا يكون مسلما إلا من استدل ، وإلا فليس مسلما . وقال الطبري : من بلغ الاحتلام (أي الحلم) من الرجال والنساء أو بلغ المحيض من النساء ، ولم يعرف الله عز وجل بجميع أسمائه وصفاته من طريق الاستدلال فهو كافر .. حلال الدم والمال ، وقال : إنه إذا بلغ الغلام أو الجارية سبع سنين وجب تعليمهما وتدريبهما على الاستدلال على ذلك ، وقالت الأشعرية : لا يلزمهم الاستدلال على ذلك إلا بعد البلوغ .

أما المعتزلة فلا تخرج أقوالهم في إبطال التقليد عما يقوله الماتريدي في كتاب (التوحيد) ، فلم يقل القاضي عبد الجبار المتوفى عام ٤١٥ هـ / ١٠٢٤م - أي بعد وفاة الماتريدي باثنين وثمانين عاما - شيئا سوى ما قاله الماتريدي ، وليس بينهما اختلاف إلا في العبارة فقط ، أما سياق الأدلة فواحد عند الرجلين .

يقول الماتريدي مفتتحا كتاب (التوحيد) : « أما بعد ، فإنا وجدنا الناس مختلفي المذاهب في النحل في الدين ، متفقين على اختلافهم في الدين على كلمة واحدة : أن الذي هو عليه حق ، والذي عليه غير باطل ، على اتفاق جملتهم في أن كلا منهم له سلف يقلده ، فثبت أن التقليد ليس مما يعذر صاحبه لإصابة مثله ضده ، على أنه ليس فيه سوى كثرة العدد ، اللهم إلا أن يكون لأحد ممن ينتهي القول إليه حجة عقل يعلم (بها) صدقه فيما يدعي ، وبرهان يقهر المنصفين على إصابته الحق ، فمن

إليه مرجعه في الدين بما يوجب تحقيقه عنه فهو المحق ، وعلى كل واحد منهم معرفة الحق فيما يدين هو به .. » .

ويقول القاضى عبد الجبار في الفصل الذي عقده في كتاب (المغني) في بيان فساد التقليد : « اعلم أن القول به يؤدي إلى جحد الضرورة ، لأن تقليد من يقول بقدم الأجسام ليس بأولى من تقليد من يقول بحدوثها . فيجب إما أن يعتقد حدوثها وقدمها ، وذلك محال ، أو يخرج عن كلا الاعتقادين ، وهو محال أيضا ، وكذلك القول في سائر المذاهب ، وليس له أن يقول : أقلد للأكثر في ذلك ، وذلك لأن المحق قد يكون واحدا ، والمبطل قد يكثر جمعه، فيجب أن يعرف الحق بغير هذه الطريقة .

فهل يدل هذا الاتفاق بين رجلين على أثر الماتريدي على شيخ الاعتزال ؟ سؤال يجيب عليه الدكتور «فتح الله خليف» في دراسته الممتازة عن هذا المجدد بالقول: «نحن لا نستبعد أن يكون القاضي عبد الجبار قد تأثر في ذلك بالماتريدي . إننا نعلم أن القاضي عبد الجبار نشأ على السنة على مذهب الأشعري قبل أن يتبع المعتزلة ، ونعلم أن الأشعري وإن كان قد ذم التقليد إلا أنه لم يذكر عنه مثل هذه الأدلة التي نجدها عند الماتريدي وعند القاضي عبد الجبار من بعده . وإذا كان التقليد باطلا مرفوضا من العقل فإنه مذموم أيضا من الشرع ، فالله سبحانه وتعالى قد ذم التقليد والمقلدين في كتابه الكريم ، قال تعالى ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ** ﴾[1]. وقال تعالى : ﴿ **قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠** ﴾[3] ، وغير ذلك في التنزيل .

(1) الزخرف : ٢٢ .
(2) الزخرف: ٢٤ .
(3) الأحزاب: ٦٧ .

كذلك .. فإن الله تعالى قد حثنا على النظر ورغبنا فيه وألزمنا الاعتبار وأمرنا بالتفكير والتدبر ، وما التقليد إلا « إبطال منفعة العقل لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر ، وقبيح بمن أعطى شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة » .

ويعرض الماتريدي في الكتاب نظريته في المعرفة ، ويناقش قيمة معارفنا ومعيار الحق في المعارف التي تصل إلينا عن طريق الحس والخبر والعقل ، وهي عنده سبيلنا إلى العلم بحقائق الأشياء . ولا نستطيع أن نستغني في المعرفة عن مصدر من هذه المصادر ، لأن لكل مصدر طائفة من المعارف لا سبيل إلى الوصول إليها إلا عن طريق هذا المصدر .

« بالحس نعلم ما به نلتذ ونتألم وما به نبقى ونفنى ، وكل من ينكر المعرفة الحسية فهو مكابر متعنت لا تصح مناظرته ، لأنه ينكر ما يعانيه بنفسه ويكفي أن نؤلمه بالألم الشديد من ضرب أو قطع حتى يعترف بأنه يتألم فنقابله حينئذ بتعنت مثل تعنته ، منكرين عليه ألمه ومعرفته بألمه حتى يجزع ويضجر وينتهك ستره » .

وهكذا .. كان تفكير الماتريدي ، وأتباع مدرسته من بعده . كما عرضه الدكتور «خليف» أول من عرفنا عليه .



الفــارابي

الحـديث الآن عـن أبي نـصر الفـارابي : أحـد مجـددي القـرن الرابـع الهجـري وصاحب الفضل الأول على الفلسفة الإسـلامية ، لأنـه هـو الـذي وضـع أساسـها ورتب مسائلها. ولهذا أيضا - يعد أول فلاسفة الإسلام بلا منازع ، ولذلك يلقبونـه (بالمعلم الثاني) تمييزا له عن أرسـطو المعلـم الأول للفلـسفة اليونانيـة ، كـما يلقبونـه بصاحب المدينة الفاضلة كما لقبوا أفلاطون بصاحب الجمهورية .

والتجديد الذي ينسب للفارابي أنه لم ينظر إلى الفلسفة نظرة المقلد ، وإنـما ينظـر إليها نظرة المجتهد المبتكر ، وأنه كان يدعو إلى الحقيقة ، وبهذا يكـون قـد فـتح بـاب الاجتهاد ومهد الطريق لمن بعده .

فالفارابي أول من صاغ الفلسفة الإسلامية في ثوبها الكامـل ، ووضـع أصـولها ومبادئها . كذلك نجد عنده مذهبا فلسفيا متكاملا يمتاز بظاهرتين رئيسيتين لعلهـما جديدتان في ذلك الوقت وهما : نزعة روحية ، واتجاه صوفي ، وعنده النزعة الروحية والاتجاه الصوفي يلتقيان في نواح كثيرة ، وهو ما كان له عميق الأثر فيمن جـاء بعـده من فلاسفة الإسلام. وفي هذا تختلف جهـوده عـن جهـود الكنـدي الـذي تـصدى للفلسفة بالشرح والتهذيب دون أن يكون لـه مـذهب فلـسفي ينـسب إليـه. وعـلى الإجمال يرصد المهتمون بالتجديد للفارابي عمليتين تجديديتين في إطارهما تدخل كـل إسهاماته الفلسفية : أما التجديد الأول للفارابي فكان : في كيفية إصلاح الحكم عـلى حسب تأثره بالفلسفة ، وقد ظهر ذلك فيما كتبه عن المدينة الفاضلة ، والتجديد الثاني هو : في تهذيب ما ترجم قبله من علوم الفلسفة وترتيبه ترتيبا علميـا منهجيـا يـسهل طريق البحث لمن بعده .

هذا إلى جانب تأثر غير المسلمين بإسهاماته الفلسفية للنهوض بعلومهم إلى درجة أن الفارابي يعد واحدا من الحكماء الأربعة في تاريخ الفكر الإنساني بوجه عام.

وللتعرف على جوانب من تفكير أبي نصر الفارابي ، نستأنس بما كتبه عن المدينة الفاضلة تلك التي تعتبر جانبا من تجديد الفكر الإسلامي في صفحات بالموسوعة الفلسفية وبعض المؤرخين تقرأ منها بعض هذه الصفحات التي منها يتحدث عن المدينة الفاضلة، لا عن المدينة المثلى أو اليوتوبيا utopia .

عند الفارابي : « إن المدينة الفاضلة تشبه البدن التام الصحيح ، الذي تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه. وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة متفاضلة الفطرة والقوى ، وفيها عضو واحد رئيسى هو القلب ، وأعضاء تقرب مراتبها من ذلك الرئيس ، وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله، ابتغاء لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيسى ، وأعضاء أخرى فيها قوى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه التي ليس بينها وبين الرئيسى واسطة – وهذه في المرتبة الثانية ، وأعضاء أخرى تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء الذين في هذه المرتبة الثانية ، وهكذا إلى أن ينتهي إلى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلا . فكذلك المدينة: أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات. وفيها إنسان هو رئيس، وآخرون تقرب مراتبهم من الرئيس . وفي كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلا يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس ، وهؤلاء هم أولو المراتب الأولى ، ودون هؤلاء قوم يفعلون الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة ، إلى أن تنتهي إلى آخرين يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم ، فيكون هؤلاء هم الذين يخدمون ولا يخدمون ، ويكونون في أدنى المراتب ، ويكونون هم الأسفلين .

غير أن أعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التي لها «هي» قوى طبيعية . وأجزاء المدينة ، وإن كانوا طبيعيين، فإن الهيئات والملكات التي يفعلون بها أفعالهم للمدينة

ليست طبيعية ، بل إرادية على أن أجزاء المدينة مفطورة بالطبع بفطر متفاضلة يصلح لها إنسان بشيء دون شيء. غير أنهم ليسوا أجزاء المدينة بالفطر التي لهم وحدها ، بل بالملكات الإرادية التي تحصل لها ، وهي الصناعات ومشاكلها ، والقوى التي هي أعضاء البدن بالطبع فإن نظائرها في أجزاء المدينة ملكات وهيئات إرادية» .

وتشبيه المدينة بالبدن نجد نظيرا له عند أرسطو، حين يشبه أجزاء المدينة بأجزاء الحيوان، بيد أن الفارابي توسع في المقارنة والتشبيه أكثر مما فعل أرسطو.

ورئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه، وله أفضل ما يشاركه فيه غيره من أعضاء المدينة ، شأنه شأن العضو الرئيسى - وهو القلب - إذ هو بالطبع أكمل الأعضاء وأتمها . ورئيس المدينة هو السبب في أن تحصل الملكات الإرادية التي لأجزائها أن تترتب مراتبها ، وإن اختل منها جزء كان هو المعاون له بما يزيل عنه اختلاله .

كذلك يقول الفارابي عن رئيس المدينة : إن نسبته إلى سائر أجزاء المدينة كنسبة السبب الأول (الله) إلى سائر الموجودات. ولهذا ينبغي على أجزاء المدينة الفاضلة أن تحتذي بأفعالها حذو مقصد رئيسها الأول .

ويمضى الفارابي إلى بيان صفات رئيس المدينة الفاضلة فيقول : « إن رئيس المدينة الفاضلة لا يمكن أن يكون أي إنسان ، لأن الرئاسة إنما تكون بشيئين: أحدهما أن يكون بالفطرة والطبع معدا لها ، والثاني : بالهيئة والملكة الإرادية » . يعني أنه ينبغي أن يتوافر فيه شرطان : أن يكون لديه استعداد فطري للرياسة ، وأن تتكون لديه الملكة الإرادية لتولي أعمال الرياسة .

ويرى الفارابي أن رئيس المدينة الفاضلة «ينبغى أن تكون صناعته صناعة لا يمكن أن يخدم بها أصلا ، ولا يمكن فيها أن ترأسها صناعة أخرى أصلا ، بل تكون صناعته صناعة : نحو غرضها تؤم الصناعات كلها ، وإياها يقصد بجميع

أفعال المدينة الفاضلة . ويكون ذلك الإنسان إنسانا لا يكون يرأسه إنسان أصلا ، وإنما يكون ذلك الإنسان إنسانا قد استكمل فصار عقلا ومعقولا بالفعل » . وهنا يخرج الفارابي عن وصف الرئيس الإنسان، إلى وصف الرئيس الذي هو فوق الإنسان، أو يكون إنسانا يوحى إليه الله بتوسط العقل الفعال ، « ويكون بما يفيض منه إلى عقله المنفعل حكيما فيلسوفا ومتعقلا على التمام ، وبما يفيض منه إلى قوته المتخلية نبيا منذرا بما سيكون ، ومخبرا بما هو آت من الجزئيات ... وهذا الإنسان هو في أكمل مراتب الإنسانية ، وفي أعلى درجات السعادة ، وتكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال .. وهذا الإنسان هو الذي يقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة ، فهذا أول شرائط الرئيس » . وبهذه الصفات يصف الفارابي رئيسا مثاليا للمدينة الفاضلة ، بل للأمة الفاضلة ، بل « للمعمورة من الأرض كلها » .

وهذه حال لا تكون « إلا لمن اجتمعت فيه بالطبع اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها » :

إحداها : أن يكون تام الأعضاء، قواها مواتية أعضاءها على الأعمال التى من شأنها أن تكون بها ؛ ومتى هم عضو من أعضائه بعمل يكون قد أتى عليه بسهولة.

ثم أن يكون بالطبع جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له، فيلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ، وعلى حسب الأمر في نفسه .

ثم أن يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه ، **وفي الجملة** : لا يكاد ينساه .

وأن يكون جيد الفطنة ، ذكيا، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن له على الجهة التي دل عليها بالدليل .

وأن يكون حسن العبارة ، يواتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة .

ثم أن يكون محبا للتعليم والاستفادة ، منقادا له ، سهل القبول ، لا يؤلمه تعب التعلم، ولا يؤذيه الكد الذي يناله منه .

وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب والمنكوح ، متجنبا بالطبع اللعب ، مبغضا للذات الكائنة عن هذه .

وأن يكون محبا للصدق وأهله ، مبغضا للكذب وأهله .

وأن يكون كبير النفس ، محبا للكرامة : تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين من الأمور ، وتسمو نفسه بالطبع إلى الأرفع منها .

وأن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هينة عنده .

وأن يكون بالطبع محبا للعدل وأهله ، مبغضا للجور والظلم وأهلهما يعطى النصف من أهله ومن غيره ويحث عليه ويؤتي من حل به الجور مواتيا لكل ما يراه حسنا وجميلا ؛ ثم أن يكون عدلا غير صعب القياد ، ولا جموحا ولا لجوجا إذا دعي إلى العدل ، بل صعب القياد إذا دعي إلى الجور وإلى القبيح .

وأن يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي أن يفعل ، جسورا عليه، مقداما غير خائف ولا ضعيف النفس .

ويكرر الفارابي ذكر هذه الخصال في كتابه (تحصيل السعادة) ، ويذكر أن هذه هي الشروط التي ذكرها أفلاطون في كتاب « السياسة » .. والواقع أن الفارابي ينقل هنا عن كتاب « السياسة » : لأفلاطون ، حين يتحدث سقراط عن الحاكم وما ينبغي أن يتوافر فيه من صفات ؛ وهي في نظر « سقراط وأفلاطون » :

أن يكون حريصا على تذوق كل العلوم ومهتما بالدراسة ، وشديد الاطلاع .

أن يتعلق في كل شيء بالجوهر والماهية .

أن يكون محبا للصدق، ولا يقر أبدا الكذب .

أن يكون معتدل المزاج ، غير شره مطلقا ؛ وغير متعطش للثروات.

أن لا يطلب إلا لذة النفس وحدها ، طارحا لذات البدن .

أن يكون كبير النفس ، مترفعا عن الصغائر .
أن يكون شجاعا لا يخاف الموت.
أن يكون جيد الحفظ لما يتعلمه ، ذا ذاكرة قوية .
أن يسهل عليه فهم ما يتعلمه .
أن يكون طبعه ذا ذوق وأناقة واتزان .
أن يكون محبا للعدالة .
أن يكون ذا فطنة، أي : ذا حكمة عملية .

وواضح تماما من بيان صفات الفيلسوف الحاكم عند أفلاطون كما عرضها في كتاب (السياسة) أن الفارابي في كتابيه : (تحصيل السعادة) و(آراء أهل المدينة الفاضلة) إنما نقل ما ذكره أفلاطون دون أن يضيف إليه شيئا ذا بال ، كما اعترف هو نفسه في كتاب « تحصيل السعادة » .

ويعترف الفارابي بأن من العسير اجتماع هذه الخصال (اثنتي عشرة) في إنسان واحد ، وإنما توجد في « الواحد بعد الواحد ، والأقل من الناس » . ولهذا يرى أن يكتفى في الرئيس الذي من المرتبة الثانية بالشرائط التالية الستة :

الأول : أن يكون حكيما .

والثاني : أن يكون عالما حافظا للشرائع والسنن والسير التي دبرها الأولون للمدينة ، محتذيا بأفعاله كلها حذو تلك بتمامها .

والثالث : أن يكون له جودة استنباط فيها لا يحفظ عن السلف فيه شريعة، ويكون فيما يستنبط من ذلك محتذيا حذو الأئمة الأولين .

والرابع : أن تكون له جودة روية وقوة استنباط ، لما سيعرف في وقت من الأوقات الحاضرة من الأمور والحوادث التي تحدث ، مما ليس سبيلها أن يسير فيه الأولون ، ويكون متحريا فيما يستنبطه من ذلك صلاح المدينة .

والخامس : أن يكون له جودة إرشاد بالقول إلى شرائع الأولين ، وإلى التي استنبط بعدهم من احتذى فيه حذوهم .

والسادس : أن يكون له جودة تأتي ببدنه في مباشرة أعمال الحرب ، وذلك أن تكون معه الصناعة الحربية الخادمة والرئيسة .

والحكمة هي الشرط الذي لا غنى عنه لوجود رئيس في المدينة الفاضلة ، وهذا أيضا متأثر بما ذهب إليه أفلاطون في كتاب (السياسة) ويتأيد من ناحية أخرى بما قاله الفارابي في تلخيصه لمحاورة « السياسة » ، فقال : إن أفلاطون يرى أن المدينة الفاضلة « يلزم من فيها – إن كان مزمعا أن يوجد فيها جميع ما تنال به السعادة – أن تكون المهنة الملكية التي فيها هي الفلسفة على الإطلاق ، وأن الفلاسفة يكونون أعظم أجزائها ، ثم يليهم سائر أهل المراتب » .

ومن هذا كله .. يتبين أن الفارابي في نظرياته السياسية إنما اعتمد على أفلاطون؛ ولهذا نراه يلخص محاوره (النواميس) لأفلاطون تلخيصا وافيا في رسالته التي بعنوان « تلخيص نواميس أفلاطون » أفلاطون في الإسلام .

ويكون الختام عند مضادات المدينة الفاضلة

ويضاد المدينة الفاضلة :

١ – المدينة الجاهلة (أو الجاهلية) .

٢ – المدينة الفاسقة .

٣ – المدينة المتبدلة .

٤ – المدينة الضالة .

وهكذا كان تسجيل الفارابي عن المدينة الفاضلة بكتابه (آراء أهل المدينة الفاضلة) .

* * *

إخــوان الصفـا

يذهب مؤرخو تجديد الفكر الإسلامي إلى أن جماعة « إخوان الصفا » التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، على أنها تدخل ضمن علماء المجددين في الإسلام .

وأعضاء هذه الجماعة التي اتخذت البصرة مقرا لها ، كانوا يطلقون على أنفسهم «إخوان الصفا» ؛ لأن غاية مقاصدها كانت السعي إلى سعادة نفوسهم الخالدة بتضافرهم فيما بينهم ، وبغير ذلك من الطرق ، وخاصة العلوم التي تطهر النفس . ولسنا نعرف شيئا عن نشاطهم السياسي . أما جهودهم في التهذيب النظري ، فقد أنتجت سلسلة من الرسائل رتبت ترتيبا جامعا لشتات العلوم متمشيا مع الأغراض التي قامت من أجلها الجماعة . ويغلب القول بأن هذه الرسائل جمعت ونشرت في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تقريبا : وهي تبلغ ٥٢ رسالة .

ويذكر من مؤلفيها : أبو سليمان محمد بن مشير البسي المشهور بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، ومحمد بن أحمد النهر جوري ، والعوفي ، وزيد ابن رفاعة . ولا نستطيع أن نعرف الآن شيئا أكثر من هذا ؛ لأن إخوان الصفا كانوا يميلون إلى التعبير عما يجول في نفوسهم بأسلوب غير صريح . والآراء التي تضمنتها هذه الرسائل على قدر ما أمكننا تحقيقه ، مستمدة من مؤلفات القرنين : الثامن والتاسع الميلاديين : ونزعتهم الفلسفية هي نزعة قدماء مترجمي الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، وجامعها الذين يأخذون من كل مذهب بطرف ، ويستشهدون

في هذه الرسالة بهرمس وفيثاغورس وسقراط وأفلاطون أكثر من استشهادهم بأرسطو طاليس ، ذلك أن أرسطو عندهم أقل مقاما من هؤلاء ؛ فهم يعدونه منطقيا ومؤلفا لكتاب (أثولوجيا) الأفلوطيني و(كتاب التفاحة). ولا نجد في رسائل إخوان الصفا أثرا للفلسفة المشائية الحقيقية التي بدأت بظهور الكندي . ومن خصائص نزعتهم الفلسفية : أنهم لم يأخذوا شيئا من الكندي ، ولو أنهم أخذوا من أحد تلاميذه الذين انحرفوا عن مذهبه ، وهو « المنجم البهرج أبو معشر » المتوفى عام ٢٧٣ هـ (٨٨٥م) . وليس معنى ذلك أنهم لم يكونوا على دراية بمصنفات الكندي ومدرسته . وتدلنا الترجمة اللاتينية التي كتبت في القرون الوسطى للرسالة الثالثة عشرة على أنها من تأليف « محمد : تلميذ الكندي » .

وتسجل (دائرة المعارف الإسلامية) بأن هذه الرسائل قد أخذت من كل مذهب فلسفي بطرف ، والمحور الذي تدور عليه هو فكرة الأصل السماوي للأنفس وعودتها إلى الله ، وقد صدر العالم عن الله ، كما يصدر الكلام عن المتكلم أو الضوء عن الشمس ، ففاض عن وحدة الله بالتدرج : العقل ، ومن العقل النفس ثم المادة الأولى ، ثم عالم الطبائع ، ثم الأجسام ، ثم عالم الأفلاك ، ثم العناصر ، ثم ما يتركب منها وهي المعدن والنبات والحيوان ، والمادة في هذا الفيض تبدو أساسا للتشخيص ولكل شر ونقص ، وليست النفوس الفردية إلا أجزاء من النفس الكلية ، تعود إليها مطهرة بعد الموت ، كما ترجع النفس الكلية إلى الله ثانية يوم المعاد ، والموت عند إخوان الصفا يسمى : البعث الأصغر ، بينما تسمى عودة النفس الكلية إلى بارئها : البعث الأكبر .

ويذهب إخوان الصفا إلى أن الأديان كلها في جميع العصور وعند جميع الناس يجب أن تتفق وهذه الحكمة : وغرض كل فلسفة وكل دين هو أن تتعرف النفس على الله بقدر ما يستطيعه الإنسان . وقد أولوا القرآن تأويلا رمزيا لكي يتمشى مع هذا

التصور الروحي للأديان ، كما أولوا بعض القصص غير الدينية تأويلا رمزيا مثل قصص كتاب «كليلة ودمنة». وقد بين «جولدتسيهر» كيف أن اسم «إخوان الصفا» قد أخذ من قصة الحمامة المطوقة التي تذهب إلى أن الحيوانات إذا صفت أخوتها وتبادلت المعونة فيما بينها تستطيع الفكاك من شباك الصياد وغيرها من المخاطر .

وقد كتبت هذه الرسائل : الاثنتين والخمسين في أسلوب مسهب فيه تكرار وحض على الفضيلة ، وهذه الرسائل تشبه في الظاهر موسوعة في العلوم المختلفة . والجزء الأول من هذه الرسائل يحتوي على أربع عشرة رسالة تعالج مبادئ الرياضيات والمنطق ، بينما يعالج الجزء الثاني الذي يحتوي على سبع عشرة رسالة في العلوم الطبيعية بما فيها علم النفس : أما الرسائل العشر التي يتضمنها الجزء الثالث فتبحث فيما بعد الطبيعة . وتتناول الرسائل الإحدى عشرة الأخيرة التصوف والتنجيم والسحر . وقد فصل الكلام في الرسالة الخامسة والأربعين من الجزء الرابع على نظام هذه الجماعة وطبيعة تكوينها .

إلى آخر ما سجلته دائرة المعارف الإسلامية عن إخوان الصفا .. التي يمكن أن نضيف إلى محاولات تجديدها في الفكر الإسلامي جانبا مهما ، هو : أن رسائل هذه الجماعة الاثنتين والخمسين كانت بمثابة دائرة المعارف التي هي عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات .. ولهذا ولغيره ، فإن بعض المفكرين ومنهم الدكتور «زكي نجيب محمود» يرجعون جانبا من التأريخ للتنوير في الفكر الإسلامي بكل ملامحه وتفاصيله - يظهر للعيان فيما جاءت به وسجلته رسائل الصفا .

* * *

النيسابوري

أبو سهل محمد بن سليمان النيسابوري من مجددي القرن الرابع الهجري ، كما يقرر كل من : السيوطي وأمين الخولي وغيرهما ، وقد عاش حتى توفي عام 369 هـ ، مهتما بالعلم : طالبا ومعلما شأنه في ذلك شأن أسرته التي تعرف ببني حنيفة ، وهي أسرة اشتهر فيها الكثيرون بالعلم والفضل .

تعلم وتثقف في المنطقة الشرقية ، وبالتحديد في بلاد فارس ، ليخرج منها بعد أن تجاوز مرحلة المراهقة إلى الشباب إلى العراق ، وفيها درس بالبصرة . ولم يطل به المقام كثيرا حيث عاد إلى أصفهان بفارس ، وبقى فيها مقدما على الكثير من العلماء كفقيه ومتكلم وصوفي وأديب وشاعر .. ولعل تكامل الوظائف المدنية مع الثقافات الدينية بما فيه من سلوك صوفي قد أكسب شخصية هذا المجدد جوانب ربما تختلف عن غيره من المجددين في الإسلام ، في مقدمة هذه الجوانب : سلوكه العملي ، وتفتحه الفني والأدبي كما يرى مؤرخوه .

فأما سلوكه العملي فيجسمه نزوعه الصادق الذي يبدو من قوله : « ما اعتدت على شيء قط، وما كان لي قفل أو مفتاح، ولا مررت على فضة أو ذهب » . وهو قول يؤكده ويصدقه الفعل. فقد كان أبو سهل جوادا كريما ، لا يبخل ولا يضن؛ حتى إنه وهب جبته لإنسان في الشتاء اتقاء البرودة ، مع أنه ليس عنده غيرها ، ومن أجل ذلك .. كان إذا خرج إلى التدريس كان يلبس عباية النساء .

هذه العبارة توضح الكثير من المعاني التي أولها أنه إن كان صوفيا ، فهو مع ذلك ليس انعزاليا حيث يخرج للتدريس ويلتقي بالناس ولا يعيش في خلوة تبعده

عنهم ، وثاني هذه المعاني أنه يؤثر الغير على نفسه كرما منه ؛ حيث يهب جبته لمن يراه في حاجة إليها اتقاء البرد القارس ، وثالث هذه المعاني أنه حيث فعل ذلك فلا يتحرج منه ، فهو في رأيه عمل للخير .

إلا أن الموقف يصبح حرجا حيث يتطلب نشاطه العلمي أن يلتقي مع وفد جاء من أجله ، وفيه عدد من الأئمة والعلماء والمتكلمين والنحويين ، وكان عليه أن يستقبل هذا الوفد ، فما كان منه إلا أن ارتدى عباية النساء ، التي كان يرتديها ، وأسدل من فوقها ذراعه يتستر بها أمامهم . وهنا ظن القوم - وكانوا من الرسميين- أنه يستخف بهذا الوفد إلى درجة أنه يستقبلهم على هذا الحال . وما هي إلا لحظات حتى يكتشف هذا الوفد أنهم أمام عالم فذ بعلمه .. هذا العالم نفسه الذي جعل معاصره «الصاحب بن عباد» يقول عنه : « إنه لا يرى مثله ، ولا رأى هو مثله منقطعا عن الحياة .. ففي حضور الوفد المذكور يتقدم لمناظرة أعضائه العلماء ، واحدا، واحدا ، في موادهم ويتفوق عليهم جميعا في كل فن تناقشوا فيه » .

ولعل الأستاذ «أمين الخولي» يعلق على ذلك قائلا : « هل يتجدد ديننا بتصوف من هذا الصنف العملي ، العلمي ، الفني معا ، وليس بتلك الخرق والبيارق والذكر، ومشيخة الطرق ، وما إلى ذلك من أوهام مدجلة ، تزيد صورة التدين تشويها ، وتحرج مركزه في مجالات الحياة؟ » .

على أن هذا المجدد صاحب السلوك العملي القويم ، له أيضا تفتحه الفني حيث كان أديبا وشاعرا ، له آثاره في الشعر العاطفي ، الذي يتحدث عن الحب الصادق . كان يقول :

أنام على سهو وتبكي الحمائم ... وليس لها جرم ومني الجرائم

كذبت وبيت الله ، لو كنت عاقلا ... لما سبقتني بالبكاء الحمائم

وتدفع إليه مسألة عاطفية من أفق ديني منظومة شعرا هي :

تمـنيت شـهر الصــوم لا لعبــادة ولكـن رجـاء أن أرى ليلة القـدر
فأدعـو إله النـاس دعـــوة عاشـق عسى أن يريح العاشقين من الهجر

فيرد عليها في الحال بالشعر :

تمـنيت ما لو نلتـــه فسـد الهـوى وحـل به للحـين قاصمة الظهـر
فما في الهوى طيب ولا لذة سوى معـاناة ما فيه يقاسـى من الهجـر

ولا تعليق على هذه الأبيات التي تنضح عاطفة بغير ما سبق أن ذكرنـا مـن أنـه كان رجلا صوفيا زاهدا مترفعا عن كل ما هو مادي في الحياة ، فلـم يعتـد عـلى شيء يجعله عبدا له ، ولم يكتنز أو يخزن أو يعد شيئا ، ولم يحتفظ بقفل يحبس فيـه مـا يكـون قد اكتنزه .. هذه السمات التي يتصف بها هذا العالم الذي انـصرف عـن كـل مبـاهج الحياة .. تجعلنا نندهش حين يعبر عن هذا الحب العفيف ، الـسامي الحـسن ، النبيـل الروح .

وقد تتضاعف هذه الدهشة إذا قارنا هذه المشاعر والأحاسيس التي كانت لدى مجددنا ، ولدى غيره من المجددين وفي مقدمتهم : الإمام الشاعر الشافعي وبين علماء وفقهاء هذا الزمان الذين تأتي أحكامهم في مثل هذه الحالات الإنسانية مانعة رادعـة مما يجعلهم بعيدين عن حقائق الحياة التي ينبغي أن يدركوها ويتأملوها حتـى تكـون أحكامهم على درجة عالية مـن العـدل والإنـصاف مثـل مجـددنا هـذا وغـيره مـن المتكلمين المجددين ، وما يرجى منهم تجدد التدين تجددا حيويا ، يهـزون بـشعورهم الإنساني ما يكون قد فسد من فهم هذه العواطف ، التي هي فطرية ، ويكون إقبـالهم – وهم العلماء والأئمة – عـلى مثـل الحـديث عنهـا قاضـيا عـلى المـشاعر الوضـيعة والنزوات المتسفلة .

والحق .. أن الحياة المعاصرة تعاني بهذا البعد للدين وأهله عن مجال العواطف الإنسانية ، أزمات صعبة من علاقة الدين بالفن . وشيوع هذا البعد أو الانفصام الصارخ في حياتنا المعاصرة بين ما تبذله الدولة في سبيل الفن بفهم ما ، وتطبيق ما ، وسياسة ما ، وبين حال أصحاب التدين المعاصرين الذين يأثمون هذا الحديث في الوقت الذي فيه لا يملكون الاعتراض على السلبيات التي تمارس باسم الفن ، فتمضي الحياة الفنية غير صادقة ولا سليمة ، وتظل المسافة متسعة بين رجل الدين ورجل الفن ، مع أن المفترض أن يكون الحال على غير ذلك . فما أحوج رجل الفن إلى رجل الدين الذي يهديه إلى القيم والمبادئ وليس الذي يرفض ويحرم كل عمل يأتي به رجل الفن . ويبدو أن مجددنا أبا سهل النيسابوري الذي عاش في القرن الرابع الهجري ، كان أكثر تطورا من كثيرين ممن يعيشون في القرن الخامس عشر الهجري ، والسبب أنه يعترف بالعواطف الإنسانية ولا ينكرها أو يلغيها ، ولا يكتب فيها شعرا ونثرا نظيفا عفيفا يرتقي بالمشاعر الإنسانية ، لا ينحط بها ويتسفل .

ولعلي أتفق مع الأستاذ أمين الخولي في المقارنة بين المجدد : « أبو سهل النيسابوري» وعلماء وأئمة زماننا حيث يتساءل : « هل يكون في المتحدثين عن الدين من يعنى بهذه النواحي النفسية للعاطفة ، ويدبر تدبيرا عالما ، مجربا ، لرعايتها وتوجيهها بدل هذه العزلة العاجزة ، التي تسيء إلى الدين وإلى الفن جميعا ؟ هل يكون في المتحدثين عن الدين في زماننا عالم أو إمام يسلك أسلوبا مشابها لأسلوب مجدد القرن الرابع الهجري « أبو سهل النيسابوري » ؟

* * *

أبو حيان التوحيدي

من مجددي الإسلام : أبو حيان التوحيدي على بن محمد بن العباس : أديب وفيلسوف من مجددي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، وفي مسقط رأسه روايات، فيقال: إنه ولد في نيسابور، ويقال في شيراز بإيران، ويقال في واسط بالعراق، ويقال في بغداد، ولاشك أن ذلك كان ما بين سنتي ٣١٠ و٣٢٠ هـ (٩٢٢-٩٣٢م).

وفي بغداد درس أبو حيان النحو على السيرافي والرماني ، والفقه الشافعى على أبي حامد المروالروذي ، وأبي بكر الشاشى ، كما أنه كان يحضر مجالس شيوخ الصوفية، وكان يحترف مهنة النسخ ويتكسب منها .

ويقال - في فترة مشكوك فيها - أن الوزير المهلني المتوفى سنة ٣٥٢ هـ/ ٩٦٣ م قد اضطهده لما قال به من آراء تتسم بالزندقة ، وكان أبو حيان في مكة سنة ٣٥٣هـ (٩٦٤م) ؛ كذلك نتبين من كتابه (المقابسات) أنه حضر سنة ٣٦١هـ (٩٧١م) مجالس الفيلسوف يحيى بن عدي في بغداد . وفي الري جرب حظه مع الوزير أبي الفتح ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦م) ، ووجه إليه رسالة محكمة الصنعة ، ونستدل من مشاعر السخط التي أحس بها حيال هذا الوزير على أنه لم ينل منه الكثير . واستخدمه ابن عباد نساخا منذ سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) ، ولكنه لم يصب شيئا من النجاح قط في هذه المرة أيضا . ولاشك أن أغلب السبب في هذا الإخفاق يرجع إلى حدة خلقه وشعور يخامره بالاستعلاء (مثال ذلك أنه أبى أن يضيع وقته في نسخ مجموعة رسائل مولاه الضخمة) . وأخيرا استغنى عن خدماته ، وأحس أبو حيان بأنه قد أسيئت معاملته ، فانتقم لنفسه برسالة رسم فيها بقلمه صورة هزلية بارعة

لكل من أبي الفتح بن العميد وابن عباد (ذم، أو مثالب ، أو أخلاق .. الوزيرين ، وقد أورد ياقوت الحموي مقتطفات وافية منها) .

وكانت المدة ما بين سنتي ٣٥٠ و ٣٦٥ هـ (٩٦١ - ٩٧٥م) هي التي صنف فيها مجموعته في الأدب المسماة (بصائر القدماء) أو (البصائر والذخائر) في عشرة مجلدات.

والراجح أنه وجه في الري إلى مسكويه المسائل التي أجاب عنها مسكويه في رسالته « الحوامل والشوامل » . ولما عاد أبو حيان إلى بغداد في نهاية عام ٣٧٠ هـ - ٩٨٠م) أوصى به زيد بن رفاعة وأبو الوفا البوزجاني المحاسب خيرا لدى ابن سعدان، فبدأ أبو حيان يكتب لابن سعدان كتاب: (الصديق والصداقة) الذي لم يتم مع ذلك إلا بعد ثلاثين سنة . وكان يؤم بانتظام في هذا العهد مجالس الرجل الذي أثر فيه أعظم الأثر ونعني به أبا سليمان المنطقي ؛ وقد كان أبو سليمان هو ملهمه الأكبر وخاصة في المسائل الفلسفية بل في كل موضوع آخر يمكن تصوره .

وقد ظل أبو حيان في حاشية وأتباع الوزير الملازمين يحضر استقبالاته المسائية حيث كان عليه أن يجيب الوزير عن مسائل مختلفة أشد الاختلاف من لغوية إلى أدبية إلى فلسفية إلى ثرثرة تدور في البلاط وأسمار في الأدب . (وكان أبو حيان في كثير جدا من الأحيان يردد في هذه المسائل آراء أبي سليمان المنطقي الذي كان يعيش في عزلة ولا يغشى هذه المجالس) .

وقد نزل أبو حيان على رجاء أبي الوفاء المحاسب فجمع لإمتاع أبي الوفاء سجلا بسبعة وثلاثين مجلسا من هذه المجالس ما سماه : (الإمتاع والمؤانسة) ، وهو الكتاب الأشهر الذي عرف به .

ولا نعرف عن خريف حياة أبي حيان إلا القليل ، وقد كان فيما يظهر يعيش في فقر وفاقة . وفي هذه السنين المتأخرة صنف كتاب (المقابسات) ، وهي مجموعة من

مائة حديث وستة في موضوعات فلسفية مختلفة ، والمتحدث الأول هنا هو أبو سليمان أيضا ، ولكنه يظهر فيها أيضا سائر أعضاء الحلقة الفلسفية ببغداد .

وكل من كتابي : (المقابسات) و(الإمتاع والمؤانسة) كنزان من كنوز المعرفة عن الحياة العقلية المعاصرة ، ولاشك في أنهما سوف يثبتان قيمتهما التي لا غنى عنها وقتئذ في تكوين صورة لمذاهب فلاسفة بغداد .

وفي أواخر أيام أبي حيان عمد إلى كتبه فأحرقها مبررا ذلك بالإهمال الذي كتب عليه أن يعيش رازحا تحت أثقاله عشرين سنة . وقد اشتكى مثل هذه الشكوى في مقدمة رسالته « الصديق والصداقة » . ويزعم دليل القرافة في شيراز أن قبر أبي حيان التوحيدي يعرف هناك في شيراز ويحدد وفاته بسنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) .

وقد كان أبو حيان من أصحاب الأساليب العربية المتميزة ، يعجب بالجاحظ أشد الإعجاب حتى إنه كتب في مدحه رسالة خاصة هى « تقريظ الجاحظ » روى منها ياقوت الحموي الكثير في كتابه ، وقد كانت رغبة أبي حيان في تقليد هذا العلم من أعلام النثر العربي واضحة جلية .

وتتجلى عبقرية أبي حيان بأجلى بيان في تلك الفقرات من كتبه التى يرسم فيها الشخصيات . أما عن عقائده فإنه لم يكن له فيما يبدو أي مذهب أصيل ، إذ لا يخفى تأثره بمذهب أبي سليمان المنطقى الذي يعنى بالأفلاطونية المحدثة الذي كان يشترك فيه مع معظم فلاسفة بغداد المعاصرين الآخرين . وقد أظهر أبو حيان مثل غيره من أفراد هذه الحلقة ، اهتماما بالتصوف ، ولكن هذا الاهتمام لم يبلغ حدا يجعلنا نسلكه في عداد الصوفية بحثا . ويضم كتابه (الإشارات الإلهية) دعوات وعظات وإشارات عارضة تحسب لمصطلحات الصوفية ، إلا أنها كانت على مستوى عظيم من الفكر الإسلامى المستنير الذي جعل صاحبه (أبو حيان التوحيدي) واحدا من أئمة هذا الفكر التجديدي في التاريخ الإسلامي .

* * *

الحسن بن الهيثم

أبو على الحسن بن الحسن (أو الحسين) بن الهيثم : أبرز علماء العرب المسلمين أثرا في الكيمياء والفيزياء والطب . والذي يعرف عادة في مراجع وكتب الأوروبيين في العصور الوسطى باسم (ألهازن) ، والذي كانت له مع ذلك مشاركات معروفة في الرياضيات ، والفلك وعلوم الأوائل الأخرى في فلسفة أرسطو . هذا العالم الجليل يعتبره العلماء والمؤرخون من مجددي القرن الرابع الهجري حيث ولد في البصرة بالعراق عام ٣٥٤هـ وتوفي بالقاهرة بمصر عام ٤٣٠هـ. ولأنه ولد وعاش في البصرة أغلب سنوات عمره فكان يطلق عليه في بعض الأحيان أبو على البصري. إلا أنه نزح في كهولته إلى مصر ، والتحق بخدمة الخليفة الفاطمى : « الحاكم بأمر الله»، حيث عرض عليه مشروعا ينظم به جريان نهر النيل ، ولكنه تخلى عن تنفيذ هذا المشروع بعد وفاة هذا الخليفة .

وبعد وفاة الحاكم بأمر الله ابتعد عن بيت الخلافة بمصر ، وعاش من نسخ مصنفات الرياضيات والكيمياء والفيزياء والتأليف فيها ، حتى كان له العديد من المؤلفات التى تقترب من المائتى كتاب ورسالة ، كما يذكر ابن أبي أصيبعة « في الرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة والفلك » كان من أهمها : كتابه (المناظر) أي البصريات ، حيث يتضمن نظريات متطورة وجيدة عن المرايا المستوية والمخروطية والأسطوانية والكروية والبيضاوية ، وفي زوايا الانحراف والانكسار والإبصار ، وكان أول من استخدم الغرفة المظلمة لرصد الخسوف .

وكان أيضا أول من قال : إن للضوء خاصية جوهرية ذاتية لبعض الأجسام مثل: الكواكب والنار والشموع والفحم المحترق ، وصفة غير ذاتية أو عرضية في

الأجسام المعتمة أو الشفافة التي تعكس ضوء الأجسام الأخرى . وقال : إن الضوء ينبعث في خط مستقيم وفي كل الاتجاهات، ونقد نظريات اليونانيين القدماء التي كانت تقول إن الشعاع ينبعث من العين ويتجه إلى الشيء المرئي ثم يرتد إلى العين ، واستبدل بها نظرية أخرى تقول : إن الأجسام هي التي تبعث ضوءها الخاص أو المنعكس في كل اتجاه ، وما تتلقاه العين هو الذي يجعلها تبصر .

وكان لكتاب (المناظر) أثر بالغ في تكوين المعارف العلمية في هذا الجانب لدى الأوروبيين في العصور الوسطى من «روجر بيكون» إلى «كبلر». وقد قام «كمال الدين أبو الحسن الفارسي» بكتابة شرح مستفيض لهذا الكتاب « المناظر » في حدود عام ١٣٢٠م نشره «فيدمان» .

ومن مؤلفات ابن الهيثم الأخرى والكثيرة نذكر أمثلة لعناوين منها : « في كيفيات الإظلال » الذي تمت ترجمته إلى الألمانية ترجمة مختصرة قام بها «فيدمان»، وكتاب « في المرايا المحرفة بالقطوع» ، وآخر عنوانه : « في المرايا المحرفة بالدوائر»، و« مساحة المجسم المكافئ » . هذا وقد ترجم إلى الألمانية فيدمان بعض رسائل ابن الهيثم ، ومنها : « في المكان » و« المسألة العددية » و« أصول المساحة » وغيرها من الكتب والرسائل التي اقتربت كما تقول المصادر الأجنبية- وليست العربية وحدها- إلى المائتي كتاب ورسالة كانت جميعها ذات دور بالغ الأثر في تكوين المعارف العلمية من فيزياء وكيمياء وطب وفلك لدى الأوروبيين .

ومع كتاب (المناظر) الذي ترجم إلى اللاتينية رسالة في (الشفق) كان قد نقلها «جيرار القرموني» إلى اللاتينية .

ولا يقتصر دور ابن الهيثم كواحد من المجددين في الإسلام على ريادته وسبقه على الأوروبيين في المعارف العلمية فحسب ، بل إن دوره تجاوز ذلك إلى تكوين العقل وبناء الثقافة الذي انتقل من الثقافة العربية الإسلامية إلى الثقافات الأوروبية .

حيث نراه - أي ابن الهيثم - لا يقتصر على قراءة كتب الأقدمين وعدم التسليم بصحة ما فيها وتكراره ، بل لابد من النظر فيها بعين الفحص والتمحيص ، والتثبت من الآراء الواردة ، حتى يتبين له صوابها من بطلانها بالحجة والبرهان .

وكما يقول - أي ابن الهيثم في مصنف بعنوان : (الشكوك على بطليموس) تحقيق الدكتور/ عبد الحميد صبرة والدكتور « نبيل الشهابي » : « الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، ووجود الحق صعب ، والطريق إليه وعر ، والحقائق منغمسة في الشبهات ، وحسن الظن بالعلماء في طباع الناس .. وما عصم الله العلماء من الزلل ، ولا حمى علمهم من التقصير والخلل ، ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ، ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور ، والوجود بخلاف ذلك . فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين ، والمسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم ، بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم ، المتوقف فيما يفهمه عنهم ، المتبع الحجة والبرهان ، لا قول القائل الذي هو إنسان ، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان ، والواجب على الناظر في كتب العلوم ، إذا كان غرضه معرفة الحقائق ، أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظر فيه ، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه ، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه ، ويتهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ، ولا يتسامح فيه ، فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق وظهر ما عساه وقع في كلام من التقصير والشبه» .

ويعلق الدكتور «ناصر الدين الأسد» في كتابه : (نحن والعصر .. مفاهيم ومصطلحات إسلامية) على ذلك قائلا : « إن ما قاله الحسن بن الهيثم طبقه في كتبه ، وطبقه غيره من العلماء والأطباء خاصة ، حين لم يكتفوا بقراءة كتب الأقدمين والتسليم بصحة ما فيها وتكراره ، وإنما نظروا فيها بعين الفحص والتمحيص ونقدوها ، وردوا على ما يحتاج منها إلى رد ، وقبلوا منها ما رجحت أو ثبتت عندهم صحته » .

هذا .. ويمكن المضي في تعداد العديد من الأساليب الأخرى لدور الحسن بن الهيثم وغيره من علماء الإسلام في تكوين منهج الثقافة العربية المستمد من روح الإسلام ومبادئه . وذلك في مسائل التجربة والتحليل والاختبار حيث ذهب بعضهم إلى أن « الطب اليوناني والعربي يمثلان عصرا واحدا ، يتميز بتفكير متشابه»، وأن هذا العصر هو عصر الخبرة المنظمة عقليا ، وليس عصر التجربة العلمية ، وهو عصر دام عشرين قرنا ، وضع أبقراط كلياته ومنهجه ، ثم فصله وفرع عليه جالينوس ، ومارسه العالم المجدد العربي الرازي ، ونسقه وأوضحه الشيخ الرئيس ابن سينا أحد المجددين الكبار في الإسلام ، إلى أن عرف الناس العلم التجريبي وعلم الكيمياء على يد ابن الهيثم . وقد ذهب البعض الآخر إلى نقيض ذلك تماما ، فقرروا أن مرحلة العلم العربي تمتاز عن مرحلة العلم اليوناني ، بأنها كانت مرحلة إرساء الأصول العلمية الأولى للاستقراء وللتجربة ، وذلك بتدوين المشاهدات وتقريرها واستخلاص القواعد الكلية منها ، في حين كانت مرحلة العلم اليوناني قائمة على وضع الكليات أولا ثم محاولة تطبيق الواقع عليها وهي الطريقة الاستنتاجية أو الاستنباطية التي تولاها العلماء العرب ومنهم ابن الهيثم .

ولهذا .. يمكن القول - اتفاقا مع ما قاله السابقون من العلماء والمؤرخين والمفكرين - أن علماء العرب قد عرفوا التحليل والاستقراء والتجربة العلمية في الحدود التي أعانتهم عليها الوسائل المتاحة وقتئذ ، أو المعارف والعلوم المستنبطة في زمانهم ، والأدلة على ذلك كثيرة مبثوثة في ثنايا التراث العربي الإسلامي ، لدى ابن الهيثم وغيره من العلماء العرب الأقدمين .

* * *

القرن الخامس



1 – الباقلاني

2 – ابن سينا

3 – البيروني

4 – أبو العلاء المعري

5 – الماوردي

6 – ابن حزم

7 – الجويني

8 – أبو حامد الغزالي

9 – ابن باجة

10 – يوسف بن تاشفين



هذا القــرن

وتبدأ السنة الأولى من المائة الخامسة للهجرة يوم الثلاثاء الموافـق ١٥ أغـسطس عام ١٠١٠ م بأحداث كبيرة .. ففى هذا القرن سقطت دول وقامت أخرى ، سواء في المشرق أو المغرب ، ففى المشرق قامت دولـة الـسلاجقة مـن الأتـراك الـذين كـانوا يأخذون بمذهب أهل السنة ويدينون سياسيا - ولو ظاهريا - بالولاء لبنى العباس، خـصوصا وأن الاثنـين يتفقـان في الأخـذ بمـذهب الـسنة . كـذلك قامـت الدولـة الخوارزمية التى تنسب إلى قاعدتها في مدينة خوارزم وهى كالدولة السلجوقية تركية المنشأ . وفي المغرب قامت أيضا دول جديدة وزالت أخرى ، وفي مقدمة هذه الـدول التى زالت دولة بنى أمية في الأندلس بعـد سـقوطها صريعـة نتيجـة ضـعف أبنائهـا ونشوب الصراع بين عناصر الأمة حتى وقعت الـبلاد في محنـة « ولـت عـلى الأدبـار المؤبدة » كما يقول ابن حزم . فقد انقسمت يومئذ الأنـدلس إلى إمـارات أو طوائـف لكل منها صاحبها متخذا لقب الملك ، ولذلك يسمون : ملـوك الطوائـف ويـسمى عصرهم في التاريخ بعصر الطوائف ، وهو عصر ذو وجهـين .. كـما يقـول الـدكتور «حامد عبد المجيد» لامع مشرق مضىء ، وثانيهما قاتم شديد الإظلام . الأول يتصل بتراث الأجيال الذي أنتج الرقي العقلي، والثاني ينتمي إلى عصر التفرق والانقسام .

كـذلك .. قامـت في المغـرب دولـة المرابطـين ، ومن أبـرز ملوكهـا « يوسـف ابن تاشفين» الذي كان يأخذ بمذهب العباسيين ويدعو لملوك بني العباس من فـوق المنابر ، وهذا جانب إيجابي يحسب لابن تاشفين ، ويدخلـه إلى حـد مـا - كـما يـذكر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» - في زمرة المجددين ، خصوصا بعـد أن لبـى نـداء

المستنجدين به من المسلمين ضد سطوة وجور الفرنجة فأجارهم ، ولولاه لكان الأندلس قد ضاع في هذا القرن كما ضاعت صقلية .

وعلى هذا .. يتفق أكثر العلماء والمؤرخين على أن المسلمين كانوا في هذا القرن الخامس أسوأ حالا من القرن السابق ، ولا أدل على ذلك من أن الفرنجة استطاعوا أن يهاجموهم في عقر دارهم ويستولوا على بيت المقدس . ولم تكن الناحية الاجتماعية بأحسن حالا من هذه الأحوال السياسية ، فقد عمت في البلاد رجعية نجمت عن تصارع أهل السنة في الدولة العباسية ومعسكر أهل الشيعة في الدولة الفاطمية . هذا إلى استفحال خطر التصوف ، وقد أشار المقريزي إلى مظهر من مظاهره في خططه وهو مظهر الخانقاوات الشبيهة بالأديرة في المسيحية ، تلك التي يترهب فيها البعض، وكان لذلك أسوأ الأثر ؛ لأن ذلك سيحدث نظاما يبيح التعطل عن العمل باسم الدين - ويجعل منه - للأسف - مثلا أعلى في الإسلام .

ولهذا ولغيره من الأسباب .. يذكر المؤرخون حاجة المسلمين الملحة إلى مصلحين اجتماعيين أو مجددين يتجاوزون كل هذه الانقسامات ، ويجمع الواحد منهم الشمل ويرأب الصدع ، ويزيل من النفوس بقايا كل هذا الصراع في المشرق أو المغرب وينهي هذا التحارب بين الفرق الإسلامية، سنة كانت أو شيعة أو متصوفة . ويذكرهم بالحجة والدليل على أن الدين الإسلامي لا يقبل كل ذلك .

والغريب والعجيب في الوقت نفسه : أن في هذا القرن بالذات ظهر رجال، الواحد منهم يماثل عصرا بأكمله . فقد ظهر في المشرق حجة الإسلام الإمام الغزالي والشيخ الرئيس ابن سينا من الفلاسفة ، وظهر في المغرب ابن حزم من الفقهاء المفكرين ، وفي المنتصف بالشام ظهر أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف ، وفي أواسط آسيا ظهر عالم الفلك والصيدلة والجيولوجيا والرياضيات أبو الريحان البيروني - لكن يبدو أن المشكلات قد استفحلت وعظم أمرها حتى على هؤلاء

الأفذاذ الذين يذكر لهم التاريخ نواحي تجديدية وإصلاحية مبهرة . فيذكر لابن سينا دفاعه المجيد عن الفلسفة حين استهدفت لهجمات أبنائها ، ويذكر له تجديده حين بدأ في إصلاح الفلسفة اليونانية نفسها وهو العمل الذي توقف عن الاستمرار فيه أبناؤها في الغرب ، ويذكر له اجتهاداته في علم الطب ، وكيف أصبحت أبحاثه أساس النهضة الأوروبية ، وفي الغرب ابن حزم الذي حرر العقل من جموده وبدأ رحلة الاجتهاد والتجديد بتحرير هذا العقل من التسليم بما يذهب إليه المتصوفة ، وفي الشام يذكرون أبا العلاء المعري ودعوته إلى إعمال العقل في الأحكام ، وأنه ليس هناك سلطان سوى سلطان العقل ، وهو بالتحديد التنوير الذي عرفته أوروبا بعد ذلك بمئات السنين ، كما يذكر للبيروني أنه برع في الفلك ، ووضع أول كرة أرضية من نوعها .. وإلى جانب هؤلاء جميعا ظهر حجة الإسلام الإمام الغزالي ، وغيرهم من العلماء والفقهاء والرياضيين ، ممن كان لهم تأثير على الحضارة الأوروبية وغيرهم ممن ظهروا في هذا القرن .



الباقــلاني

الإمام أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني مـن مجـددي القـرن الخـامس حيث توفي عام 403 هـ ، أي على رأس المائة الخامسة للهجـرة ، كـما يـرى الـسيوطى بكتابه (التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة). وإلى جانب تلقيبه بالإمام ، فقد كان يلقب أيضا بالقاضى نظرا لمكانته الفقهية الجليلة ، وإليه انتهت إمامة المالكية، يضاف إلى ذلك أنه كان على علم واسع بعلم الكـلام ؛ حتـى كـان في مقدمـة علـماء عـصره وحتى وصفوه بشيخ السنة ، ولسان الأمة ، المتكلم على مـذهب أهـل الـسنة وأهـل الحديث معا ، مثلما كان أبو الحسن الأشعري .

كان هذا المجدد من أهل البصرة بالعراق ، وتثقف ببغداد ، وامتاز خاصـة عـن معاصريه في الكثير من الجوانب التى اهتمت بها مدرسة بغداد وقتئذ ، تلك التى كان يفد إليها طلاب العلم من كل حدب وصوب في الأمة الإسلامية لثقافته المتميـزة في علم الكلام وغيره من علوم عصره .. فكان من أحسن النـاس خـاطرا ، وأجـودهم لسانا وأوضحهم بيانا ، وأصحهم عبارة حتى قالوا عنه : من سمع منـاظرة القـاضى أبي بكر الباقلاني لم يستلذ بعدها بـسماع كـلام أحـد غـيره مـن المتكلمـين والفقهـاء والخطباء والمترسلين.. بل جاوز الأمر هذه المجـالات الدينيـة إلى المجـالات الأدبيـة والفنية ، إذ قالوا : إن من سمع منا عبارته يستلذ بالأغاني ، وغيرها من طيب كلامه، وفصاحته ، وحسن نظمه وإشارته.

وقد كان لهذا الجانب من شخـصيته أثـره في الحيـاة العمليـة، وصـلاحيته لهـا ، ونجاحه فيها ، إذ كان يوفد في سفارات سياسية إلى بلاد الروم في القسطنطينية مرات عديدة للباقته وحسن مخاطبته .

أو كما يذهب الأستاذ «أمين الخولي» في بحثه عنه فيرى أن تلك اللباقة في شخصية الباقلاني كانت عنصرا يكشف عن حاجة المتحدث عن الدين إلى تلك الطاقة الفنية في القول، لما يمكن أن يكون بين الدين والفن من صلة، وذلك في طبيعة كل منهما من الوجدانية ، والتقائهما في الآفاق النفسية ؛ إذ العقيدة ، ليست في جوهرها ، وملاك أمرها إلا طمأنينة وجدانية ، وليست عملا فكريا منطقيا .

وعلى الرغم مما حظي به هذا المجدد الجليل من المكانة في عصره ، إلا أن هناك كانت وجهات نظر فيه خاصة ما كتبه الإمام ابن حزم بكتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) من حمله بأسلوبه القاسي على الباقلاني، ولاسيما في الجزء الرابع من هذا الكتاب ، وما يتضمنه من موضوعات منها : وصل الدين بالحياة ، تحقيقا لما تشتد الحاجة إليه من الإيمان بالعلم ، إيمانا يدفعنا إلى المشاركة في الحياة الجادة المتطلعة بشغف إلى معرفة أسرار الكون وقوانين فطرته، تلك هي مسألة السببية التي أنكرها الأشاعرة ومنهم مجددنا الباقلاني ، فهزوا الثقة بالسنن الكونية وثباتها، حين اطمأنوا إلى ثبات تلك النواميس ، التي يجد الإنسان في تعرفها وكشفها .

عن هذه السببية وإنكارها يحمل ابن حزم على الأشاعرة ومنهم الباقلاني حين يقول : «ومن شنعهم الممزوجة بالهوس، وصفاقة الوجه قولهم : إنه لا حر في النار، ولا في الثلج برد ، ولا في العسل حلاوة ، ولا في الصبر مرارة ، وإنما خلق الله تعالى ذلك عند اللمس والذوق .. هذا حمق عتيق قادهم إليه إنكارهم للطبائع، وقد ناظرناهم على ذلك ، هذا مع قول شيخهم الباقلاني : إن لقشور العنب رائحة ، وللزجاج والحصى طعما ورائحة ، وزادوا حتى إلى أن قالوا : إن للفلك طعما ورائحة، فليت شعري متى ذاقوه، أو شموه، أو من أخبرهم بهذا؟، وهذا لا يعرفه إلا الله ، ثم الملائكة ، الذين هنالك .. ولكن من ذاق طعم الزجاج وشم رائحته فغير منكر أن يدعي مشاهدة الفلك ولمسه وشمه وذوقه ..».

إلى آخر ما قاله ابن حزم في خصومته مع الباقلاني والأشاعرة .

وحتى تتضح ملامح شخصية هذا العالم الجليل ، علينا أن نتتبع ثلاث مسائل في سلوكياته : هي ضريبة المعرفة على العلماء العارفين ، وحيويته التي جعلت منه سفيرا دبلوماسيا ، ولباقته القولية المرنة التي لا تخرج عند المناظرة من التعبير بعبارات فعالة مؤثرة .

وأما ضريبة المعرفة أو ضريبة العقل – كما يذهب مؤرخوه – بمعنى أن يكون الإنسان ذو العقل والمعرفة ملكا لمجتمعه لعلمه وتجربته ، فيؤدي عن تلك المعرفة ضريبة لمجتمعه ، فيقدم فيها من علمه احتسابا «هذا المعنى شعر به أجدادنا المسلمون، فشعروا بوجوب هذه الضريبة المحتسبة حتى قال أحدهم : إن من يأخذ الأجر على العلم لا يكتب العلم عنه ، وكأنهم بهذا القول يتهمون أمانته العلمية ، ويبخلون عليه بلقب العالم لأنه في تقديرهم لا يستحقه. وبلغ الأمر أن ما يأتي به من علم لا يكتب عنه . وها هو مجددنا الباقلاني كان يؤدي الضريبة الواجبة عليه حتى قالوا عنه : «ما نفع الله هذه الأمة بكتب القاضي الباقلاني، وبثها فيهم ، إلا لحسن نيته وسريرته واحتسابه ذلك عند ربه . ويبدو أن هذا الاحتساب – كما يذكر الأستاذ أمين الخولي– من القاضي الباقلاني كان واضحا وقويا تأثر به تلاميذه ومريدوه . فكان منهم تلميذه «أبو عبد الله الأذري» الذي قضى خمسين عاما مغتربا عن أهله ووطنه، حيث لم يكن فيها – كما نقل عنه – إلا على ظهر جمل، أو مبيت في غير بيته، وهو يطلب العلم آخذا له ، أو مأخوذا عنه ، حتى كان قوي الإحساس بهذا الاحتساب العلمي ، وفي الأداء لضريبة المعرفة حتى إنه قال تأكيدا لهذا المبدأ ، « تعليمي هذا العلم أوثق الأعمال عندي، فأخاف أن تداخله داخلة إن أخذت عليه أجرا ، ولا أحتسب أجري فيه إلا على الله.» كان يفعل ذلك تأثرا بأستاذه الباقلاني الذي حرص على ذلك إلى درجة أنه كان يترك تلاميذه في بيته، ثم يذهب إلى السوق

فيشتري حوائجه ، ثم ينصرف به عائدا إليهم، فكانوا يقولون : « يا شيخنا .. نحن شباب جماعة ، وكلنا نتمنى ونرغب أن نقوم بقضاء حاجتك في المهم الصعب العسير فكيف في هذا الأمر اليسير ؟ نسألك بالله العظيم إلا ما تركتنا وقضاء حوائجك ، فإن هذا من العار علينا ..» .

فكان يرد عليهم : «.. لا يخفى علي أنكم مسارعون لهذا الأمر ، ولكن أنتم قد علمتم عذري ، وأخاف أن يكون هذا من بعض أجري على تعليمي لكم » .

ولعل هذا السلوك من مجددنا الباقلاني يجعلنا نتمنى أن يكون له مثيل في سلوكيات أصحاب العلم والمعرفة فيقدموا عنها ضريبة . فما أحوج الحياة العلمية إلى مثل هذا السلوك الذي كان يتبعه الباقلاني وتلاميذه بوجوب تقديم ضريبة المعرفة أو ضريبة العقل، فلا يكون شيء من ذلك مرتزقا ، ووسيلة للكسب المادي فيفسد العمل فيها ، ويكون فيه من القصور ، بل الفساد ما نجد صداه في حياتنا بوجه عام .

إنه درس مفيد ينبغي أن نسترجعه ونستفيد منه في حياتنا الحالية مثلما فعل الباقلاني مجدد القرن الرابع .

وأما حيوية الباقلاني فقد كانت تعني اتصاله بالحياة العامة فيشارك فيها بالرأي والمشورة ، لا أن يكون منعزلا عن الناس ، منصرفا إلى ذلك دون أن يفيد المجتمع الذي هو عضو فيه.. وهذه الحيوية كانت لدى الباقلاني كما يرى مؤرخوه في الفطنة ، واللباقة ، وقوة الملاحظة ، وحسن التصرف إلى آخر هذه الصفات التي تجعل المرء يشارك الآخرين ويكون من نسيج مجتمعهم لا أن يكون دخيلا على هذا المجتمع .

وها هو الملك عضد الدولة يبعث القاضي أبا بكر الباقلاني في سفارات عدة ممثلا للدولة لإقامة علاقات بين المسلمين وغيرهم ، أو لوصل علاقات تكون قد انقطعت. ومن هذه السفارات بعثه سفيرا إلى ملك الروم وكان ذلك في سنة 371هـ ، فلما وصل عاصمة ملكه عرف الملك عنه الكثير من رجاله ووزرائه ، حيث بينوا له

مكانته في الدولة ، وموضعه في العلم ، إلى جانب علو شأنه عند الذي قام بإرساله إليه ، وثقته في أنه يستطيع الخروج من المواقف الحرجة التي تتأزم بمثلها الصلات ، وأن حيوية الباقلاني - كما يري السيوطي - وسرعة بديهته كانت تتصرف في هذه المواقف تصرفا مناسبا وسريعا ، وليس بتصرفات تتعقد معها المواقف وتتأزم .

ومما روي في هذا الإطار : أن ملك الروم حينما عرف مكانة الباقلاني الاجتماعية والعلمية والثقافية ، رأى أن لا يطلب منه ما يطلبه من رعيته من تقبيل الأرض بين يديه ، ولن يستطيع أن يؤاخذه على ذلك إذا لم يفعله ، وهنا طرأت للملك فكرة مؤداها أن يضع السرير الذي يجلس عليه ، وراء باب قليل الارتفاع ، لا يمكن أحدا من الدخول منه إلا راكعا ، ليدخل منه الباقلاني على تلك الحال ، فيكون عوضا عن إجباره على الركوع الذي يعتبره المسلمون كفرا وإثما . فلا ركوع إلا لله عز وجل ، وأمر بوضع سرير الملك في هذا الموضع المعد لهذا الغرض ، وأمر بإدخال القاضي الباقلاني من هذا الباب الذي لا يدخله بشر إلا راكعا أو حتى زاحفا على ركبتيه .

كانت البديهة الحاضرة في هذه اللحظة مطلوبة ، حين وصل القاضى إلى المكان ورآه على هذا النحو ففطن للأمر ، وهنا أدار ظهره إلى مدخل الباب ، وحنى رأسه في اتجاه معاكس لمجلس الملك ، ودخل من الباب بظهره ، ودخل على الملك على هذا النحو حتى صار بين يديه ، ثم رفع رأسه ونصب ظهره ، وأدار وجهه إلى الملك مقرئا عليه تحية الإسلام . والمدهش أن ملك الروم أعجب بهذا التصرف من الباقلاني الذي ينطوي على الفطنة وحسن التصرف وسرعته.

وكان للباقلاني التقدير والاحترام من الملك والهيبة في نفسه .

ولعل هذه القصة فيها ما نتمناه لكل صاحب قول في الدين ، مع مخالطة للناس أن يكون لبقا حسن التصرف مثلما رأينا من مجددنا الباقلاني، وتبقى اللباقة من سمات شخصية مجددنا الباقلاني ، تلك التي تتذوق حسن التعبير ، وقوة التأثير، تلك التي

اتسمت به شخصية هذا المجدد العظيم ، حتى بلغ من ذلك شأوا عظيما ، وبلغ من القول فيها أن تم تصويرها على أنها مسألة تدخل في مجال الفقه حتى قيل عن هذا المجدد : « لو أوصى رجل بثلث ماله أن يدفعه إلى أفصح الناس وأكثرهم لباقة لوجب أن يدفع إلى الباقلاني » .

وتصاحب هذه اللباقة مرونة التعبير التي تهدف إلى الإسكات والإقناع لو كان في ظاهرها عند المتزمتين شيء من خشونة. ومثال ذلك: مناقشة جرت بين الباقلاني ، وأهل البلاط الروماني ، حينما سافر إليهم . فقد روي أن ملك الروم قصد توبيخه بطريق غير مباشر فقال له : « أخبرني عن قصة عائشة زوجة نبيكم ، وما قيل فيها ..» .

وهنا رد عليه القاضي الباقلاني ردا مفحما لم يتوقعه هذا الملك الطاغية حين قال: «هما اثنتان قيل فيهما ما قيل . زوج نبينا عليه الصلاة والسلام ، ومريم بنت عمران ، فأما زوج نبينا فلم تلد ، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ، وكل قد برأها الله مما رميت به ، أو نسب إليها ..» فسكت الملك حيث لم يجد ما يعقب به أمام هذا الرد المقنع من القاضي الباقلاني . ذلك الذي كان بمثابة المواجهة القاسية في الظاهر، لكنها كانت أنسب ما تكون في موضعها . ولو أن الباقلاني تحرج من الرد على هذا الملك الطاغية الذي أراد أن يسيء إليه لما ربح الجولة بهذه الطريقة المسكتة .

* * *

ابن سـينا

الشيخ الرئيس ابن سينا: من مجددي القرن الخامس الهجري، بل ومن أعظم من أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية وهي في أوج عظمتها وتطورها ، حيث عرفه العالم من أقصاه إلى أدناه بما اشتملت عليه عبقريته من جوانب من العلم والفلسفة .

إذا ذكر العرب أعلام الفلسفة في المشرق العربي ، ذكروا الكندي ، وذكروا الفارابي ، وابن سينا . وإذا ذكر العرب أعلام الفلسفة في المغرب العربي ، ذكروا ابن باجة ، وذكروا ابن طفيل ، وابن رشد . وأكبر هؤلاء الفلاسفة أثرا في الفلسفة هو بلا جدال ابن سينا . وهو إلى الفلسفة جمع الطب . ومؤلفاته الفلسفية ، وكذا الطبية ، نشرت جميعها في أوروبا اللاتينية، باللاتينية، أي يوم كانت هذه لغة الدرس هناك، ولغة العلم ، وشاعت ، وذاعت ، وكانت من مراجعهم الكبرى في هذه الشئون .

وقد أقامت الجامعة العربية مؤتمرا تحيي فيه ذكرى مولده بعد ألف عام ، وجعل مكانه بغداد ، وذلك في ١٩٥٢ ميلادية . ونشر إثر المؤتمر « الكتاب الذهبى » لابن سينا ، مطبعة مصر ١٩٥٢ م ، وقد تضمن البحوث التي ألقيت فيه ، وفي حياته وإنجازاته ، في هذا المؤتمر .

وابن سينا هو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا . وقد ولد في قرية قريبة من بخارى ، في تركستان اليوم ، وذلك عام ٣٧٠ هجرية ، وتوفي عام ٤٢٨ هـ (٩٨٠م- ١٠٣٧م) .

وانتقلت الأسرة إلى بخارى ، وفي بخارى بدأ تعلمه ، تعلم الحساب على يد رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند . وجاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلي ،

فأنزلـه أبـوه دار الأسـرة رجاء أن يتعلـم ابن سينا منه ، وقبل قـدوم النـاتلي اشـتغل ابن سينا بالفقه وتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد .

وبدأ في الفلسفة بكتاب (إيساغوجى)، قرأه على الناتلى، ثم أخـذ يقـرأ الكتـب على نفسه ، وطالع الشروح حتى أحكم علم المنطق، وكذا كتاب (إقليدس) . وانتقل إلى المجسطى ALMAGEST ، وفرغ مـن مقدماتـه ، وانتهـى إلى أشـكاله الهندسـية ، وعندها قال له الناتلى : اقرأها وحلها بنفسك ، واعرض عـلى مـا أشـكل وفي ذلـك يقول : «وكم من مشكل ما عرفه الناتلي إلا وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه» .

وترك ابن سينا الناتلى ، واشتغل بتحصيل الكتب من النصوص والشروح ، من الطبيعى والإلهى . وصارت أبواب العلم تتفتح عليـه ، ثـم رغـب في علـم الطـب، وصار يقرأ الكتب المصنفة فيه ، وتعهد المرضى . وكـان مـع ذلـك يختلـف إلى الفقـه ويناظر فيه . ثم توافر على القراءة سنة ونـصفا ، فأعـاد قـراءة المنطـق وجميـع أجـزاء الفلسفة .

وترك ابن سينا بخارى . وتنقل بعد ذلك من بلد إلى بلد ، ومن أمـير إلى أمـير . وقد يعجب المرء من وفرة تأليفه وغزارة علمه على الرغم من عدم استقراره وتفرغـه للعلم ، فهو إما على سفر في طريق ، أو محبوس في سجن ، أو متوار في داره ، أو وزير يصرف الأمور » . ومرض بالكولنج ، وحاول مداواة نفسه بـشتى الطـرق ، ولكـن عاجلته المنية ، وله من العمر ٥٨ سنة .

ويذكر في تأريخ له بأن أشهر مؤلفاته كتابان : (الـشفاء) و(القـانون) . وكتـاب الشفاء (قصد به شفاء النفس من عللها وأخطائها) وهو مقسم أربعة أقسام ، هي : المنطق، والطبيعة ، والرياضة ، وما بعد الطبيعـة . وكتـاب النجـاة لـه أيـضا ، وهـو مختصر كتاب الشفاء . وليس فيهما من علم الأخلاق أو السياسة شيء . وقـد تـرجم الكثير من هذا إلى اللاتينية منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، إلى القرن السادس عشر ، وكان يدرس في جامعات أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

وكتاب القانون في الطب ، وهو موسوعة طبية مؤسسة على علم الطب في اليونان ، وفي العهد الروماني الإمبراطوري ، وعلى مؤلفات عربية ، والقليل منه كان من نتائج تجاربه هو ، والذي تعلمه هو من تجاربه الخاصة ، ضاع وفقد أكثره أثناء تنقله الكثير .

وقد شاع استخدام كتاب القانون هذا في الدولة العربية ، وكذلك في أوروبا ، فقد ظلت الجامعات تدرسه هناك قرونا . وترجمه إلى اللاتينية أولا «جيراد كريمونا» Gerad of Cremmona في القرن الثاني عشر ، وأعيد طبعه ١٥ مرة ، وذلك إلى عام ١٥٠٠م وأعاد «أندريا الباجون» Andrea Alpagon ترجمته في عام ١٥٢٧ ميلادية ، وكان لهذه الترجمة في أوروبا طبعات عدة .

وحول نسبة ابن سينا يسجل المؤرخون أن ابن سينا ادعاه العرب ، وادعاه الفرس ، وادعاه حتى الترك ! والحق أنه فارسى عرقا ، وعربي لغة ، وثقافة ، وإغريقي روماني فلسفة وطبا . ولكن بيئته الكبرى هي الدولة العربية الإسلامية .

هذا وقد استحق ابن سينا لعلمه وفلسفته أن يكون شيخ الفلاسفة ، فلقبوه بالشيخ الرئيس لعطائه في الفلسفة ، حيث يمتاز فلاسفة الإسلام بأنه عرف كيف يجمع ما حصله من علوم الفلسفة في صورة سهلة الفهم .

وإذا كان قد ألف في الفلسفة كتاب الشفاء وهو موسوعة كبيرة فيها ، كما ألف في الطب القانون كما ذكرنا وهو أعظم كتاب في الطب ظهر في العصور الوسطى .. إلا أنه لم يسلم من الهجوم عليه واتهامه من أعداء الفلسفة في عصره ، ومن الحكم عليه بذلك من أصحاب الجمود وأعداء التجديد ، فلم يهتم بنقدهم له ، وإنما استمر في عطائه للعلم والفلسفة مع إخلاصه لدينه حتى آخر يوم في حياته .

وكما يقرر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» أن التجديد الذي قام به ابن سينا لا يتجاوز حدود الفلسفة التي جاء بها الرجعيون والجامدون وأعداء التجديد ، ويرجع السبب في ذلك إلى اشتغاله بالوزارة في الدولة الفارسية التي قامت في هذا

القرن على أساس الجنسية . وطلب مناصب الحكم أن تبعد صاحبها أحيانا عن مواصلة الإصلاح. ومع ذلك فقد أعطى ابن سينا وبذل الأمر الذي يعترف به أعداء الإسلام .. قبل أتباعه ، واعتبر في مقدمة المجددين .

ولزيادة الفائدة من معين فكر هذا المفكر الخالد لعلنا نعرض أحد كتبه التي لها دخل مباشر بهذا الموضوع ، وهو كتاب الشفاء حيث قصد من تأليفه هدفا محددا ... لموضوع غير محدد . فالهدف هو شفاء النفس من عللها وأخطائها . إلا أن موضوع هذا الشفاء غير محدود ، ولذلك لم يكن غريبا أن تغطي مادة هذا الكتاب صفحات ثمانية وعشرين مجلدا متضمنة أربعة أقسام رئيسية هي : الفلسفة والمنطق والطبيعيات والرياضيات ، وأن يتفرع كل قسم إلى أجزاء ، وكل جزء إلى أبواب ، وكل باب إلى فصول ، وكل فصل إلى مقالات ، وكل مقال إلى عناصر وفقرات .. وهكذا ..

والكتاب يشبه إلى حد كبير دائرة المعارف أو الموسوعة المتكاملة ، إلا أنه يتولى كتابته باحث واحد ، مع أن دوائر المعارف والموسوعات – حتى الآن – تجتمع على كتابتها أعداد من الباحثين . وأنه يتضمن مادة مصنفة مبوبة مرتبة ، مع أن صاحبه لم يحظ بنوع من الاستقرار المطلوب لمثل هذا التصنيف أو التبويب أو الترتيب . فقد كان ابن سينا يؤلف بعض فصوله وهو معتل صهوة جواده على سفر أو في طريقه إلى إحدى المعارك .. حتى قيل إنه أتم تأليفه متنقلا ، فبدأه في همذان ، وأتمه في أصفهان.

وقضى في ذلك ما يزيد عن العشر سنوات ، وأن الكتاب – كما يصوره البعض– لم يخرج عن كونه تفسيرات وتأويلات لفلسفة أرسطو وغيره من آباء الفلسفة اليونانية . مع أن الثابت أن أغلب مادته عبارة عن أبحاث ونظرات وآراء خاصة بابن سينا .. تمثل جانبا من الحياة العقلية في القرن الرابع الهجري ، بحيث يعتمد الكتاب في أكثر جوانبه على التفكير العربي البالغ كمال تطوره ، وإذا تجاوز ذلك إلى الفكر اليوناني فيكون ذلك على سبيل العرض أو التمثيل أو التأصيل .

والكتاب – كما تذكر مؤلفات الأساتذة : عباس محمود العقاد ومحمود محمد شاكر وقدري طوقان ، والدكاترة إبراهيم مدكور وأحمد زكي وأحمد فؤاد الأهواني وعبد الحليم منتصر وراشد البراوي وسيد حسين نصر – يبرز جوانب كثيرة من عبقرية ابن سينا ليست كفيلسوف أو طبيب أو أديب ، وإنما أيضا كعالم في الطبيعة والفيزياء والرياضة وغيرها من جوانب المعرفة . وإن ابن سيناء اختصر هذا الكتاب في كتاب آخر هو (النجاة) ؛ « ليكون في متناول يد طالب العلم » .

وإذا كانت هذه إشارة سريعة إلى الكتاب فماذا عن صاحبه ؟ ماذا عن بيئته وعصره ؟ وهل كان في حالة تؤهله لتأليف هذا الكتاب إلى جانب عدد من الكتب العربية ؟ قيل إنها تجاوزت المائتين إلى الثلثمائة ، وقيل إنها تجاوزت الأربعمائة كتاب إلى جانب مؤلفاته الفارسية التي وصلت إلى الثلاثين كتابا ؟

المتتبع لسيرة حياة ابن سينا – كما كتبها بنفسه – يجد أن حياته تحفل بجوانب كثيرة غير مألوفة . ففي الوقت الذي اشتغل فيه بتدبير أمور الدولة وزيرا ، نجده لا يكف عن الدرس والتأليف . وفي الوقت الذي ينصرف فيه إلى مباهج الحياة وترفها نراه يقضى الليالي الطوال في القراءة والكتابة . حتى إذا أعياه الإجهاد . دلف إلى النوم مشغولا بما يفكر. فتتولى أحلامه حل ما استغلق عليه من مسائل أثناء نومه، ولا عجب في ذلك ؛ حيث إن العلم الحديث – كما يذكر العقاد – لا يستغرب مثل هذه الحالة التي يعرفها الدارسون ؛ لأن العقل الباطن يتنبه مثلما يتنبه العقل الظاهر ، فيتعاون العقلان : الظاهر والباطن على الحل ، ولا ينفرد العقل الظاهر أثناء اليقظة بالتفكير .

وطبيعي – والأمر كذلك – أن يستغل ابن سينا كل لحظة في حياته استغلالا تاما فيستثمر بعضا من وقته في تدبير شئون الدولة وزيرا ، ويعطي الفكر والعلم حقهما من موهبته واستعداده كمفكر وعالم ، كما يعطي لنفسه وجسده حقهما من الترفيه والإشباع ، ولكن رغم ذلك لم ينج ابن سينا من المتاعب .

وكونه شريكا ومسئولا في الحكم يعيش في عصر الانقسام والتنازع على الملك بين أمراء أقاليم الدولة العباسية في الرقعة الشرقية ، وكونه بشرا فلجسده عليه حق ، وغير ذلك من أسباب جعلته يدخل من حيث لا يريد في منازعات . ويتعرض للوشايات ، ويستهدف للمكايد .. فيهدد بالقتل ، ويزج به في السجن ، ويهرب بجلده من هذا وذاك مرات ، ويذوق مر الحياة قبل حلوها ، ويعرف أن الشهرة والمجد واللمعان .. لابد وأن تجر عليه الكثير من كيد وحسد وحقد الصغار . بل على العكس يستثمر كل هذه السلبيات لتكون من بعد إيجابيات .. يسخرها لخدمة الإنسانية ؛ حيث تصطبغ فلسفته بمسحة من العملية فتميل إلى الناحية العقلية أكثر من الناحية الروحية فيعلي من شأن العقل ويقول مطمئنا : «.. العقل لا يترك قوى النفس الدنيا في مكانها ، بل هو يرتقي بها » . ومن هنا استطاع ابن سينا أن يستوعب الفلسفات السابقة عليه ويهضمها ، ثم يتخذ منها موقفا انتقاديا ؛ حيث رفض بعضها ، واتفق مع بعضها ، وكون لنفسه وللعربية بعد ذلك فلسفة مميزة ، وكان صادقا حيث قال : « الفلاسفة يخطئون كما يصيبون ، وهم ليسوا بمعصومين من الخطأ » وهو ما لم يجرؤ على قوله واحد من قبل .

والسؤال الآن : عن مكانة هذا الكتاب وصاحبه ابن سينا في الفكر العالمي ؟ ولعل خير تكريم وأعظم مكانة للاثنين معا : أن يقال عنهما في افتتاح كل مؤتمر، أوفي تصدير كل كتاب أو مدخل كل رسالة جامعية .. إن الكتاب استمر مرجعا لمفكري وعلماء أوروبا وجامعاتها ومراكزها العلمية لأكثر من ستة قرون دون انقطاع ، هذا إلى جانب كثير من أقوال المفكرين والعلماء التي نذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر :

الباحث الإيطالي « جور وانو » في كتابه (ابن سينا فيلسوف عربي لا ينسى) يقول : « إن نظريات ابن سينا في كتاب الشفاء قد ثبت صحتها على مر العصور » .

والمفكر الخالد «بيكون» يقول : « كثيرا ما اعتمدت على ابن سينا في توضيح آراء أرسطو ، حيث استطاع أن يميز مذاهبها عن مذاهب الأفلاطونية المحدثة » .

والمفكر الإسباني المعاصر «سلفادور جوميز» رئيس الجمعية الدولية لدراسة فلسفة العصور الوسطى يقول : «لقد كان نفوذ ابن سينا في الغرب عظيما . حتى لقد أدى إلى حركة فكرية تعرف بالسينوية ، وقد تجلى هذا النفوذ في مجالات رئيسية في الفلسفة والعلوم والأدب » .

هل نحن في حاجة إلى مزيد من فكر هذا المجدد الخالد في الإسلام الذي استفادت من فكره أوروبا أكثر مما استفاد منه العالم الإسلامي ؟ للإجابة : ننقل قليلا مما جاء عنه في دائرة المعارف الإسلامية التي حررها عدد من الأجانب ، وقام بترجمة بعض من أجزائها أساتذة كبار يتقدمهم «عبد الحميد يونس، وإبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي » حيث سجلت دائرة المعارف الإسلامية المحررة بأقلام أجنبية أن ابن سينا ألم بكل معارف عصره إلماما عجيبا ، حتى فتن الأجيال اللاحقة التي خلقت منه شخصا أسطوريا هائلا . ويوجد في الأدب التركي كتاب بأكمله عن هذه الشخصية الأسطورية . نظم ابن سينا شعرا بالعربية ، كما كان من أوائل من نظموا الرباعيات بالفارسية ، وبرز بصفة خاصة في الطب ، وكان الأمراء يتهافتون عليه لطبه . ولقد حدثنا « دي بور » عن أثر القانون في الشرق والغرب ، ومما يدل على مدى انتشاره بين الغربيين أنه طبع باللاتينية ست عشرة مرة في السنوات الثلاثين الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادي ، وأعيد طبعه عشرين مرة في القرن السادس عشر . وهذا الإحصاء لا يشمل إلا الطبعات الكاملة للقانون ، أما الطبعات التي تقتصر على قسم أو أكثر فلا حصر لها ، وظل يدرس في أوروبا إلى عهد قريب ، إذ كان من أهم مراجع (جامعة مونبلييه) حتى العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، وعني بدراسة طب ابن سينا أخيرا «دي كوننج وليبيرت ورشبرغ» وغيرهم . أما الفلسفة فهي ميدان انتصاره الخالد ، فقد حلت كتبه فيها محل كتب

أرسطو عند فلاسفة الأجيال اللاحقة ، قال ابن خلدون : « وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والإشارات والنجاة» . بدأ بتأليف الشفاء أثناء أن كان وزيرا وأتمها عام ٤١٨ هـ ، وكتب النجاة في هذا العام نفسه وهو في طريقه إلى الحرب مع قادة الدولة ، ويؤخذ من رواية « لحاجي خليفة » أن تلميذه الجورجاني أتم هذا الكتاب . وكتب (الإشارات) بعد عام ٤٢٠ ، ويجدر بنا أن نقف قليلا عند آرائه في النفس والإلهيات :

فيتحدث أولا عن النفس النباتية ثم الحيوانية ثم الناطقة ، وهو يدرس النفس الناطقة من جهات مختلفة ، وليس في كلامه عن الحواس شيء جديد غير وصفه الفسيولوجي لمراكز الحواس من المخ وانتقال الصور المحسة في الجهاز العصبي على أحسن ما كان يسمح به علم الحياة في عصره، وأثر «جالينوس» في هذه الناحية ظاهر، أما آراؤه في العقل فهي تخالف آراء سلفيه: الكندي والفارابي بعض المخالفة: فقد نظر إلى العقل على أنه قوة تستكمل بالمعقولات شيئا فشيئا ، فالعقل «هيولاني» في بادئ الأمر خال من كل معقول ، ثم يصير «بالملكة » إذا استكمل بالمعقولات الأولى، ثم « بالفعل » إذا حصل شيئا من العلوم الكسبية ، ثم مستفادا إذا كانت تلك العلوم الكسبية حاضرة فيه بالفعل وهو يطالعها بالفعل ، والعقل يكتسب العلم بالفكر والحدس ، والفكر حركة للنفس الناطقة تبحث بها عن الحدود الوسطى بالمطلوب حتى إذا ظفرت بها رتبتها في مقدمات قياسية ، أما الحدس إذا ظفرت بها رتبتها في مقدمات قياسية ، أما الحدس فقد ظفر بالمطالب وحدودها الوسطى دفعة واحدة ، ومن الناس من يكون من أصحاب الفكر وحده ، ومنهم من يحدث إلى جانب الفكر ، ومنهم من يكون علمه كله حدسا وهؤلاء هم الأنبياء ، ويسمى العقل حينئذ عقلا « قدسيا » ، وهكذا يجعل ابن سينا علم الأنبياء أرفع علم على خلاف الفارابي الذي يرى علم الفلاسفة أوثق وأبعد في الخيال والرمز .

ولاشك في أن أرسطو كان يذهب إلى أن المعقولات مستمدة من المحسوسات ، وقد أشار ابن سينا في كتابه (التعليقات على كتاب النفس لأرسطو) إلى هذا الرأي ، إلا أن للمستشرقين رأيا مخالفا . ونجد رأي المستشرقين هذا مبسوطا في كل كتبه الأخرى، وهو رأي يدفع بعلم النفس إلى مجاهل الإلهيات ولكنه يجعل المعرفة العقلية وثيقة مطابقة للماهيات الأزلية التي لا تتغير ، ذلك لأنه يذهب إلى أن المعقولات تفيض عن عقل خارج عنا أزلي أبدي ، انتهت إليه صور الماهيات من مبدع الكل ، ذلك العقل هو « العقل الفعال » ، وليس البدن وحواسه إلا وسائل تهيئ العقل الإنساني. فالمحسوسات شأنها عند ابن سينا شيء ثانوي في المعرفة العقلية .

وقد كانت براهين القدماء على لا مادية النفس ومباينتها للجسم منطقية ، أما ابن سينا فقد كان أول من لجأ إلى التجربة النفسية ، قال : لنتصور إنسانا خلق محجوب البصر لا يرى من إهابه شيئا ، متباعد الأطراف لا يلمس جزء من جسمه جزءا آخر ، يهوي في خلاء لا يصدمه فيه قوام الهواء حتى لا يحس ولا يسمع ، أليس يغفل مثل هذا الإنسان عن حمله بدنه ؟ أليس يشعر بشيء واحد فقط هو ثبوت أنيته (نفسه) ؟ فالنفس إذن موجودة وجودا غير بدني . ونحن نجد مثل هذا البرهان بعد ذلك عند ديكارت ، مما جعل بعض الباحثين يذهبون إلى إمكان إطلاع ديكارت على آراء الفيلسوف الإسلامي ، وتأثره بها .

أما إلهياته فموضوعها : البحث في « الوجود المطلق» ، ويبدأ ابن سينا إلهياته بتحديد صلة « الوجود» بماهيات الأشياء ، فيرى أن هناك من الأشياء ما لا يؤخذ في حده معنى الوجود ، كالمثلث مثلا فإنا نتمثله خطا وسطحا ولا نتمثله موجودا ، مثل هذا الشيء وجوده زائد على ماهيته عارض عليها ، وهو يحتاج في وجوده إلى علة . ولما كانت العلل لا يمكن أن تتداعى إلى غير نهاية لامتناع الدور والتسلسل ، فلابد من الانتهاء إلى علة أولى بالإطلاق ، ماهيتها عين وجودها ، وهذه العلة

لا نستطيع أن نتمثلها معدومة ؛ لأن ماهيتها الوجود نفسه، ولأنها مبدأ كل موجود. هكذا يؤدي التمييز بين ماهية الشيء ووجوده إلى التمييز بين «الممكن» و«الواجب»، إذ الممكن ما يستوي وجوده وعدمه ، والواجب هو الضروري الوجود الذي يترتب على عدمه عدم كل موجود، ويقابلهما العالم والله على الترتيب .

ولقد كان العالم عند أرسطو قديما قدم الله ، ومثل هذه الاثنينية لا تتفق مع نزعة المسلم إلى التوحيد ، لذلك .. لما اضطر ابن سينا إلى القول بقدم العالم حتى يجعل أفعال الله قديمة مثله ، رأى أن يجعل الله متقدما على أفعاله القديمة « بالذات » لا بالزمان . والزمان نفسه - مع أنه قديم - مخلوق أيضا تقدمه الواجب بالذات لا بزمان آخر .



البيروني

قبل منتصف القرن الخامس الهجري بقليل ، أو بالتحديد عام ٤٤٠ هـ قبل منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، أو بالتحديد عام ١٠٤٨ م . توفي أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، عالم وسط آسيا الذائع الصيت ، أحد عمالقة الفكر الذين لم تزل منزلتهم ترتفع كلما ازدادت معرفتنا بتراثهم . وعندما نشر كتاب البيروني (الآثار الباقية عن القرون السابقة) باللغة الروسية منذ مئة سنة مضت تجلى مظهر واحد فقط من مواهبه المتعددة ، مظهر مؤرخ العصر الوسيط المبرز . غير أنه كلما اكتشف المزيد من أعماله - من رسائل في الرياضيات والجغرافية والفلك - وكلما درست هذه الأعمال بمزيد من العمق ، ارتفعت مكانة البيروني فوق الجماهير الكبيرة من معاصريه .

وكما تسجل اليونسكو العالمية في دورياتها أن البيروني كان سابقا لزمانه ، حتى بدأ الكثير من اكتشافاته اللامعة مبهما في أذهان الأغلبية من علماء عصره . فهو أول من توصل إلى معادلة عجيبة في بساطتها لقياس محيط الأرض .

وكان يعتقد أن الأرض ربما هى التى تدور حول الشمس ، ونمت عنده فكرة تقول بأن الحقب الجيولوجية تتعاقب في صورة دورات زمنية . فكتب يقول : بمرور الزمن يتحول البحر أرضا جافة ، وتصير الأرض الجافة بحرا .

وعلى هذا الفرض الرائع أقام البيروني نظريته في التاريخ الجيولوجي للأرض .

ترى ما الذي جعل البيروني سابقا على معاصريه إلى هذا المدى البعيد ، وخلق أعمالا جعلت اسمه معروفا في الشرق كرمز للدرس والمعرفة في القرن الحادي عشر الميلادي ؟

لقد اشتهرت خوارزم - بوسط آسيا - التى ولد بها البيروني ، وشب عن الطوق بثقافتها المتقدمة زمنا طويلا . وكان بمدنها قصور ومساجد ومعاهد دينية

رائعة ، وكانت العلوم في هذه الدولة القديمة المزدهرة متقدمة للغاية ، وتحظى بتقدير الكافة .

وشهد القرنان : العاشر والحادي عشر زوال الخلافة العربية ببغداد ، ونهضت دول جديدة على أنقاضها ، وظهرت كوكبة من علماء وسط آسيا اللامعين ، منهم : أبو نصر الفارابي ، وابن سينا .

وفي هذه الفترة ولد البيروني بالقرب من « كاث» عاصمة خوارزم في الرابع من سبتمبر عام ٩٧٣ ميلادية . وكتب في قصيدة شعرية - ظهرت في إحدى رسائله - قائلا : الحقيقة أنني لست واثقا من صحة نسبي ؛ لأني لا أعرف بالضبط من هو جدي . وكيف أعرف جدي ما دمت لا أعرف أبي ؟

وقد أسعده الحظ ، في صدر شبابه ، فاتصل برجل يوناني متعلم ، أصبح فيما بعد معلمه الأول . واستجابة لطلب اليوناني قام الفتى البيروني بجمع النباتات والبذور والفاكهة . الأمر الذي ألهب في نفسه الاهتمام بالعلوم الطبيعية . وكان مربي البيروني أبو نصر منصور بن علي بن عراق أو « منصور » فحسب ، من أفراد الأسرة المالكة الخوارزمية ، عالما متألقا في الرياضيات والفلك ، عرف البيروني بهندسة إقليدس وبعد ذلك بطليموس ، فأصبح العالم الشاب أهلا لدراسة الفلك .

وقد كتب البيروني يصف هذه الحقبة من حياته قائلا : « سعدت معظم أيامي بالهدايا والمزايا التي كنت أحظى بها، وغذتني أسرة عراق بلبانها، وتكفل منصور بتربيتي».

بعد ذلك ، درس البيروني النجوم والمعادن ، وسبر أغوار السماوات والأرض ، وقرأ الآلاف من الكتب ليتعمق في التاريخ ومعانيه ، وصنع كرة أرضية ، أول كرة من نوعها في وسط آسيا . وكان كذلك شاعرا موهوبا ، عاش السنوات الأخيرة المحمومة من عهد الدولة السامانية القوية ، وشهد نشأة وسقوط دولتين إقطاعيتين : الكراخانيين ، والغزنويين .

وطبعت المنازعات الاجتماعية ، والحروب الإقطاعية ، والغزوات البربرية بصماتها في مطبوعاته. خاصة علم التاريخ ، كان يعيش في خواء. ولعل الاضطرابات الاجتماعية التي اجتاحت خوارزم قد أوحت إليه بموضوع أول أعماله الكبرى ، حيث رجع بفكره إلى الزمن الماضي لتفهم الكيفية التي كان المجتمع يتطور بها .

أنجز البيروني كتابه (الآثار الباقية عن القرون السابقة) في سن السابعة والعشرين ، قبيل مولد القرن الحادي عشر مباشرة . وشرح ذلك قائلا : « كان قصدي من هذا الكتاب أن أحدد ما يمكن تحديده من دقة المدى الزماني المختلف » .

وبدأت دراسته من فجر الحياة البشرية حتى لحقت بعصر الطوفان الكبير وغطت ما كان معروفا عن عهود نبوخد نصر والإسكندر .

ويشرح الكتاب مختلف التقاويم ، كالتقويم العربي والتقويم اليوناني والتقويم الفارسي .

ويمتزج فيه تاريخ الحكام والأبطال والأحداث السياسية بتاريخ الثقافة والعادات والأخلاقيات .

ولا يجوز اعتبار كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » عملا تاريخيا بحتا . ولكنه دراسة تاريخية من ناحية ، وأتنوجرافية من ناحية أخرى ، لم تزل محتفظة إلى يومنا هذا بأهميتها ومعناها .

ويرجع العلماء الروس في العقد الرابع من القرن العشرين مرة بعد أخرى إلى كتاب « الآثار الباقية » في أبحاثهم عن التاريخ القديم لوسط آسيا ، وهم لا يجدون في غير كتاب البيروني أي وصف للتقويم الصفدياني العظيم الأهمية من حيث دراستهم لموضوع الوثائق الصفديانية في صدر القرن الثامن . ففي كتابه هذا وحده ما يريدونه من معلومات عن خوارزم قبل أن يدخلها الإسلام ، وهو الموضوع الذي بدأ علماء الآثار في دراسته .

ولم يكن البيروني من العلماء أصحاب البروج العالية ، فقد التقى بأناس من مختلف المهن والصناعات ، ووثق صلاته بأقرانه من العلماء .

فمثلا نعلم ،من بعض الرسائل التى حررها البيروني في خوارزم عام ٩٩٧ م أن ابن سينا أثناء السبعة عشر ربيعا التى قضاها في بخارى ، نعلم أن هذين العالمين الكبيرين قد ناقشا لغات أرسطو في الطبيعة والسماوات والقوانين الطبيعية التى تحكم الجسم الساقط ، والجسيمات التي لا تقبل الانقسام (الذرات) وقد كرس البيروني مؤلفه « لهذه الرسائل » .

وتفصح رسائل البيروني عن احترام عميق لفلاسفة الإغريق الأقدمين ، وتظهره في صورة رجل العلم الناضج رغم صغر سنه . وفي عام ١٠١٠م قبل في «أكاديمية» المأمون ، (بيت الحكمة) التى كانت تضم مجموعة من مشاهير العلماء ، منهم الفيلسوف وعالم الطبيعة ابن سينا ، والمؤرخ والفيلسوف ابن مسكويه وعالم الرياضيات « أبو نصر الفارابي » .

وإذ كان علم الطبيعة الأوروبي في حالة ركود في ذلك الوقت كان العلماء في خوارزم يتقدمون بهمة على الطريق الذي رسمه علماء العصور القديمة . وقد مهد النمو الاقتصادي بخوارزم في مستهل العصر الإقطاعي لإقرار عصر ذهبي للعلم في صدر القرن الحادي عشر .

وكان أيضا من شأن التجارة مع الشعوب الشمالية - الخزر ، والتتار ، والروس القدامى ، وقبائل الأورال وسيبيريا الغربية - أن استحثت التقدم العلمى . وازدهرت المعرفة والدراسة في هذه التربة الخصبة ، بتقاليدها التى تشمل ثقافة ألف سنة مضت ، وتقرن « حكمة الهند المجاورة بصيره هيلابس النائية » .

وتدل إشارات البيروني المتكررة إلى فلسفة اليونان وتفكيرها العلمى على سعة اهتماماته وشمولها . كان ملما بإلياذة هوميروس وأوديسته . ودرس رسائل أفلاطون «القوانين وغيرها» كما كان ملما تمام الإلمام بأعمال أرسطو وأرشميدس وديمقريطس، وأطرى على أرسطو إذ كان يعتبره أحسن الفلسفات اليونانية .

وكان القرن الحادي عشر الميلادي عصر القلاقل الكبرى ، ففى سنة ١٠١٧م اجتاحت خوارزم جحافل محمود الغزنوي ، واستولت على آلاف الأسرى ، ومن بينهم البيروني .

وكانت العشر السنوات التالية أشق السنوات التى مرت بحياة هذا العالم ، ولكنها كانت أغزرها في إنتاجه : فقد درس الفلك ، وجمع المواد اللازمة لرسالته في الرياضيات ، واجتهد في تفهم تأثير القمر على المد والجزر ، وخطط مؤلفه العظيم عن الهند الذي يعد ذروة فكره العلمى .

وكان الأدب العربي والفارسى السابق لزمن البيروني يصور الهند بأنها بلد العجائب. وكان الهنود متبحرين في الفلك والحساب ، وكانوا نحاتين وشعراء بارعين . وكان علماؤهم يتمتعون بمنزلة رفيعة وصيت بعيد ، بل لقد أكد البعض أن الفلسفة قد نشأت في الهند .

وفي غزنة تعرف البيروني على بعض العلماء الهنود كانوا مثله قد هجروا أوطانهم، وقد ألهبت مقابلاته لهم وأحاديثه معهم اهتمامه ببلدهم العظيم . وظل البيروني فترة طويلة امتدت اثنتي عشرة سنة حتى عام ١٠٣٠م مستغرقا تماما في دراسة الهند .

وكان كثير من الناس ، قبل البيروني ، قد سافروا إلى الهند وبخاصة السند وساحلها الجنوبي ، وصدرت كتب يرجع إليها المؤرخون في دراستهم لهذا البلد . ومع ذلك فإن كتاب البيروني العظيم عن الهند يدل بوضوح على معالجة علمية موضوعية للهند . حيث بدأ البيروني في سن الخامسة والأربعين يدرس اللغة السنسكريتية ، وزار الهند عدة مرات ، ومشى فوق أديمها واستنشق هواءها . فأجرى موازناته ، وأبدى إعجابه .

كان البيروني ، ككل عالم حقيقى ، يسعى لإشراك الناس في علمه في الوقت الذي يسعى فيه إلى تحصيل العلم . فقد ترجم كتاب «العناصر» لإقليدس ، وكذلك ترجم رسالته التي كتبها هو في الفلك إلى السنسكريتية ، وشرع أيضا في ترجمة

(ألبانشا نترا) إلى العربية ، فلم يكن يعتبر الترجمة التـي كانـت موجـودة وقتئـذ لهـذا العمل الأدبي الخالد وافية الغرض .

وأصبح كتاب البيروني (الهند) أعظم مصدر لدراسـة الهنـد في القـرن الحـادي عشر ، فقد استوفى به دراسة النظام الطائفي ، والفلسفة ، والعلوم الدقيقة ، والـدين والقوانين ، والعادات ، والمعتقدات الخرافية، والأساطير ، ونظام الموازين والمكاييل، واللغة المكتوبة ، والجغرافية . واستشهد البيروني في كتابه هذا بأربعة وعشرين عمـلا من أعمال أربعة عشر كاتبا إغريقيا . واستخدم أربعـين مـصدرا سنـسكريتيا ، وكـان باحثا موضوعيا ، منزها عن النزعات العنصرية ، يكن احتراما عميقا للثقافة المتقدمة لشعب غير شعبه .

وعندما أرسل إليه الوالي - إقرارا بفضله - فيلا محملا بفضة خالـصة . أجـاب البيروني قائلا : فقد تصرفني الهدية عن العلم . ويعرف الحكماء أن الفضة سرعـان ما تتبدد . ولكن العلم يظل حيا ، ولن أسـتبدل البتـة بـالثروة الأبديـة التـي تتـضمنها المعرفة العلمية ، ذلك الوهج الفضي المبهرج السريع الزوال .

وكانت اهتمامات البيروني الرئيسية : الرياضيات والفلك والجغرافيا و الطبيعـة والمساحة التطبيقية، ولكنه في عمله الأخير كتاب (الصيدلة) صنف الخواص الطبيعية للنباتات والحيوانات والمعادن ، ووضح بالأعشاب الطبية استخداماتها .

وفي هذا الكتاب (الصيدلة) أثبت البيروني جانب الأسـماء العربيـة ، نحـو ٩٠٠ اسم فارسى و ٧٠٠ اسم يوناني و٤٠٠ اسـم سـوري و٣٥٠ اسـما هنـديا . واسـتشهد بأعمال أرسطو في علم الأحيـاء ، وكتابـات ديوسـقوريدس وجـالينوس مـن علـماء الطبيعـة والعقـاقير في القـرنين : الأول والثـاني الميلاديـين . ولكنـه لم ينجـز كتـاب «الصيدلة » ، ومع ذلك فإن هذا الكتاب جليل الشأن ، حتى بالقدر الذي وصـل بـه إلينا .

قال عنه المعاصرون : كانت يد البيروني لا تتوقف عن الكتابة، وعيناه لا تكفان عن الملاحظة ، وعقله لا ينفك عن التأمل ، فيما عدا يومين من الأعياد كل سنة .

وعندما توفي سنة ١٠٤٨ م وهو في الخامسة والسبعين من عمره كان أكثر من ١٥٠ عملا قد تدفق من ريشته ، منها ٧٠ في الفلك ، و٢٠ في الرياضيات و١٨ في الأدب ، ومنها أعمال مترجمة ، وقوائم بالكتب ، وذاع صيته باعتباره رساما للخرائط، وعالما في الأرصاد ، وفيزيائيا ، وفيلسوفا ، ومؤرخا ، وعالما في السلالات البشرية .

وتسجل مادة اليونسكو في دوريتها عن البيروني قائلة :

« ولم يصلنا من أعماله سوى سبعة وعشرين عملا ، ولا نعلم هل الأعمال الأخرى قد بادت أم أنها موجودة ولكن لم يعثر عليها ؟ كتب « أبو الفرج » المؤرخ والفيزيائى السوري عن البيروني الذي يعتبره معلمه : « أن أعماله كثيرة ، جامعة شاملة ، جديرة بالثقة التامة ، وليس ثمة إنسان ما سواء من زملائه أو ممن أتوا بعده إلى يومنا هذا ، قد تبحر مثله في الفلك ، من قواعده الأصلية إلى أصغر تفريعاته التفصيلية » .

وكان للبيروني تأثير كبير على العلم في أمم الشرق ، ويؤكد الكثير من البلاد انتماءه إليها . غير أن ابن خوارزم ، هذا ابن البلد الذي كانت له حضارة من ألمع حضارات بلاد وسط آسيا ، إنما ينتمى إلى كل الأمم والعصور .

ولهذا ولغيره ، يعتبر عدد من المؤرخين والعلماء ، أن البيروني واحد من المجددين في الإسلام ؛ حيث استحدث ونبغ في جوانب من هذه العلوم : « الفلك ، التاريخ ، علم النبات ، الصيدلة ، الجيولوجيا ، الرياضيات ، الجغرافيا » . هذا إلى جانب كونه شاعرا وفيلسوفا وعالما في الإنسانيات .

هو باختصار : عالم تفخر به الحضارة الإسلامية في أوج ازدهارها .

* * *

أبو العـلاء المعـري

« أبو العلاء » أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري : الشاعر الإسـلامي المـشهور من مجددي القرن الخامس الهجري ، حيث ولد عام ٣٦٣ هـ وتـوفي عـام ٤٤٩ هـ ، وينتسب إلى (معرة النعمان) ، وهي قرية في شمالي الشام بين حلب وحمص ، وينتسب إلى أسرة عربية محترمة تزعم أنها انحدرت من (قبيلة تنوخ) التي استقرت منذ القـدم في هذا الإقليم ، وقد ولي جده القضاء ، ويظهر أن أباه كان على شيء من العلـم : ولم يكد أبو العلاء يبلغ الرابعة من عمره حتى أصـابه الجـدري فأفقـده عينيـه أو كـاد : ويحق لنا أن ندهش من حافظته العجيبة التي مكنته - رغم ذلـك الـنقص الخلقـي - من أن يظهر في آثاره هذا التنوع وتلك الدراية الواسعة بالعلوم التـي قلـما فاقـه فيهـا أحد . وقضى شبابه في عصر مضطرب : فقد كان الحمدانيون يحكمون شمالي الشام في ذلك العهد حكما مزعزعا لوقوعهم بين الفاطميين الذين كانوا يتقدمون من الشمال ، ومع ذلك لم تكن هذه الظروف ملائمة على الإطلاق للأدب . ومع أن عـصر سـيف الدولة الزاهر كان قد انقضى ، فإن النهضة الأدبية التي بدأها ذلك الأمير لم تكن قـد فقدت بعد . وكانت شهرة الشام الأدبيـة عظيمـة في ذلـك الوقـت ، كـما نتبـين مـن الثعالبي الذي عاصر أبا العلاء .

درس أبو العلاء في حلب وطرابلس وأنطاكية على تلاميذ النحوي «ابن خالويه» وغيرهم من علماء الشام : ويظهر أنه كان يتجه بدراساته إلى احتراف المديح كـالمتنبي مثلا ، وقد وصلت إلينا بعض مدائحه في «سعد الدولة الحمداني» ، وعـلى أيـة حـال فإن المعري سرعان ما ترك أشعار المديح لأنهـا كانـت خليقـة بـأن تعـرض كبريـاءه

وطبيعته الحساسة للمهانة التي لا تحتمل ، فقد قال في مقدمة (سقط الزند) : «لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طلبا للثواب» .

وكان يعيش- عند عودته إلى المعرة- من معاش سنوي قدره ثلاثون دينارا تدفع له من مال محبوس ، ومن المحتمل أنه كان يعيش كذلك من الأجور التي كان يدفعها بعض الطلاب الذين اجتذبتهم شهرته الفائقة ، ويدل على ما كان له في مسقط رأسه من مكانة ، انتخاب مواطنيه له للرد نيابة عنهم ، وقد ظل أبو العلاء في المعرة حتى عام ٤٠١ هـ حتى استقر رأيه ، لأسباب مجهولة ، على أن يعيش في بغداد ، إذ ليس من العجيب أن يشعر في صدر حياته بقيود الحياة الريفية ، وينزع إلى ميدان أوسع تقدر فيه مواهبه ، ولذلك ذهب إلى قصبة البلاد ، ولكنه قفل راجعا بعد عام وسبعة أشهر إلى موطنه . ويقول أبو العلاء نفسه : إن مرض أمه وحاجته إلى المال هما السببان اللذان دفعاه إلى العودة . ولكن يظهر أن السبب الأخير بعيد الاحتمال ، فقد كان له أصدقاء ذوو نفوذ يستطيعون أن يمدوا له يد المعونة إذا احتاج الأمر إلى ذلك .

وقد أفسدت- في نفس الوقت- بعض الحوادث العارضة استقباله الرائع الذي بلغ حد التملق ، يضاف إلى ذلك أن رفض الشاعر التكسب بالشعر وقف حائلا بينه وبين تحقيق أطماعه . إلا أن زيارته لبغداد تدل على مرحلة دقيقة في حياته ، وحيث كان إلى ذلك الوقت قد عرف بأنه عالم متبحر وشاعر مطبوع متأثر بأسلوب المتنبي الذي كان متحمسا في الإعجاب به ، ولم تظهر موهبته الفريدة إلا في آثاره المتأخرة التي كتبها بعد عودته إلى المعرة : (اللزوميات) و(رسالة الغفران)، ولا نستطيع أن نشك أنه استوعب في بغداد كثيرا من الآراء والتأملات الخارجة على مذهب أهل السنة التي يتميز بها هذان الكتابان . أما ما يؤكده البعض من أنه حضر دروس أئمة العلماء في عصره فهو مخالف لما قاله هو نفسه في خطاب أرسله إلى عمه يخبره فيه أنه وصل إلى المعرة قادما من بغداد ، وأنه منذ بلغ العشرين من عمره لم يفكر في أن يأخذ العلم على واحد من أهل العراق أو الشام . وما كاد يصل إلى بلده حتى بلغه نعي

والدته ؛ وقد أثر فيه هذا الحادث تأثيرا بالغا ، وشجعه على تنفيذ عزمه على اعتزال الناس ، ويقال إنه عاش منذ ذلك الحين في كهف أخذ نفسه فيه بالتقشف: لا يأكل لحم الحيوان بل لا يتناول البيض واللبن .. ولعل ذلك يشير إلى اللقب الذي كان يطلق عليه أحيانا وهو « رهين المحبسين » ، ومع ذلك فإنه لم يمكن قط من أن يعيش عيشة النساك ، وقد وجد أبو العلاء في المعرة ما فاته في بغداد من الشهرة والمال، ووفد عليه الطلاب من الجهات البعيدة ليقرأوا عليه . وأمضى نحو أربعين عاما في عزلة لم يخلد فيها إلى الكسل ، نعرف ذلك من قائمة مصنفاته الكثيرة التي ألف معظمها خلال هذه المدة ، إلى أن توفي عام ٤٤٩ هـ (١٠٥٨م) .

والمعري يدين بشهرته في المشرق إلى مجموعة أشعاره الأولى المسماة : (سقط الزند)، وأهم الشروح المعروفة هو شرح أبي العلاء نفسه المعروف بـ: (ضوء السقط) وشرح تلميذه التبريزي : ومعظم أشعار سقط الزند نظمها أبو العلاء قبل رحلته إلى بغداد ، وتشمل هذه المجموعة أيضا بعض قصائد نظمها في تاريخ متأخر عن ذلك : وهي تحتوي على مدائح ومراث ومقطوعات نظمت في مناسبات مختلفة وغير ذلك، وخص جزءا منها بـ « الدرعيات » ، ولم يكن أثر المتنبي ظاهرا في الأسلوب الذي توخى فيه الصنعة البلاغية فحسب ، بل في تلك الحرية التي تجاهل فيها القواعد المأثورة . أما مجموعة أشعاره الثانية (لزوم ما لا يلزم) ، فإنها تتميز بآراء جريئة ، وتعرف هذه المجموعة عادة باسم « اللزوميات » . واللزوميات اسم يشير إلى الصعوبة الفنية التي التزمها في القافية .

لكن يجب أن نعترف بأن أبا العلاء قد ظهر في هذه المجموعة بمظهر المفكر الجريء المبتكر إلى حد عجيب ، كما أثبت أنه رجل الأخلاق السامية . ولم يقنع أبو العلاء بإظهار النقائص الاجتماعية والسياسية في جرأة ، بل جعل الحياة الإنسانية كلها موضوعا لبحثه ، وأخذ يتأمل في أعمق معضلاتها: وقد لا ننصف أبا العلاء إذا قارناه بأبي العتاهية الذي يشبهه من بعض الوجوه شبها ظاهرا ، وقد تخلص

أبو العلاء في اللزوميات من قيود كانت تقيد غيره من الشعراء السابقين . ولأبي العلاء مؤلف آخر مشهور هو (رسالة الغفران) ، وهي رسالة كتبها بأسلوب منمق وأهداها إلى رجل يدعى : علي بن منصور الحلبي ، وقد عرض المؤلف الشعراء الزنادقة الذين غفر لهم ، ومن هنا اشتق اسم الرسالة ، والذين رفعوا إلى الجنة ، وهي مشهد حوادث القصة ، على اعتبار أنهم الشخصيات الأولى فيما يمكن أن نسميه «الكوميديا الإلهية» أو هي في الحقيقة قصة جريئة خلط فيها الجد بالهزل وهي تحتوي إلى جانب هذا على قدر كبير من المعارف المتنوعة ، وعلى حديث عن الزنادقة بنوع خاص ، مع شواهد من أشعارهم ، والنظر في طبيعة معتقداتهم .

وقد حدث جدل طويل حول عقيدة أبي العلاء في حياته ، وهو وإن لم يعدم من يدافع عنه ، فقد عده الكثيرون من معاصريه زنديقا ، وشاعت عنه هذه الصفة منذ ذلك الوقت ، والشواهد على ذلك من مصنفاته غامضة متناقضة ، وهاجم بشدة ابن الراوندي في رسالة الغفران ، لأنه قام بنفس هذا العمل ، كما أنه أخذ بعقيدة أهل السنة في إعجاز القرآن . وهو وإن بدا أنه تحدث في بعض شعره في اللزوميات كما يتحدث المسلم الورع ، فليست هناك عقيدة إسلامية لم يسخر منها : وقد فسر هذا على عدة وجوه ، ولكن أعجبها الفرض الذي يقول إن أفكاره كانت مقيدة بصعوبة القافية التي التزمها في أشعاره ، وليس أمامنا إلا القول بأنه كان في أعماقه متشككا قوي الشك ، وأن معظم أقواله البارزة تتجه هذا الاتجاه ، والراجح أن الفقرات التي تدل على إيمانه ، كان يقصد بها ذر الرماد في أعين النقاد ، أو ربما كان في بعض الأحيان يضع شكوكه موضع الشك ، ويهاجم مرارا وتكرارا أولئك الذين يستغلون استعداد العامة لتصديق الخرافات بقصد اكتساب السلطة والمال ولم يقبل أية صورة من صور الحياة الأخرى ، وكان ينظر إلى الفناء على أنه خلاص سعيد من الحياة الفانية : وقد حمله تشاؤمه الشديد على الاعتقاد بأن الإثم كل الإثم ، إنما هو إنجاب الأبناء وتعريضهم لجميع ألوان الشقاء التي يتعرض لها كل حي .

وتبدو الجوانب التجديدية عند أبي العلاء في إعمال العقل ، حيث يرى أنه يجب على كل شخص أن يتبع ما يلهمه إياه العقل ، وهو خير هاد إلى الحقيقة ، وهذا معنى التنوير بأجلى معانيه .

ولعلنا نلمح هذا التنوير كمعنى ، وكشعار فيما رسمه هذا المجدد لمدرسة فكرية متكاملة في القرن الخامس الهجري حيث قال شعرا :

زعم الناس أن يقوم ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الزعم لا إمام سوى مشيرا في صبحه والمساء

وتأسيسا على ذلك : فليس من الإنصاف أن نصم المعري بالنفاق ، ولو أن هناك شواهد متعددة تدل على أنه كان يعتبر نفسه حرا في اصطناع النفاق في عدد من المسائل المحرجة التي تتصل بالدين ؛ إذا تراءى له أن يفعل ذلك .

وهكذا .. كان أبو العلاء المعري الشاعر الفيلسوف المفكر المجدد ... مثلا حيا لأبناء الحضارة العربية الإسلامية .

* * *

الماوردي

من مجددي القرن الخامس الهجري : رائد الفلسفة السياسية في الإسلام أبو الحسن الماوردي الذي عاش بين عامي ٣٦٤ هـ ، ٤٥٠ هـ حيث كانت وفاته . ولعلنا نقرأ ما سجله الدكتور «إبراهيم مدكور» في مجلده عن (الفكر الإسلامي) حيث يرى في الفكر الإسلامي فلسفة سياسية لها طابعها ومميزاتها ، عولت أساسا على الكتاب والسنة ، وخضعت للواقع والتجربة ، وتأثرت بما عرف في العالم الإسلامي من نظم وتقاليد أجنبية : شرقية أو غربية ، فارسية أو هندية ، يونانية أو رومانية . وأسهم في تكوينها الأدباء والمؤرخون ، وتعمق في درسها الفلاسفة والفقهاء والمتكلمون . وفي وسعنا أن نقرر أن للتجربة العملية – بوجه خاص – شأنا كبيرا فيما ذهب إليه هؤلاء من آراء وأفكار، وما انتهوا إليه من مبادئ ونظريات، فقد ابتلى المسلمون منذ عهد مبكر بنزاع على السلطة أثار ما أثار من خلافات ، وأشعل ما أشعل من حروب وخصومات . وأدى إلى قيام حكومات متعاقبة تفننت في نظمها ووسائل إدارتها لشئون الدولة . ولم يكن غريبا أن يعنى الشيعة خاصة بالآراء السياسية ، وأن يجعلوها دعامة درسهم وبحثهم . ودفعوا الأطراف الأخرى إلى مجاراتهم و الحرص على معارضتهم والرد عليهم ، فنشأ في العالم الإسلامي فكر سياسي مبكر ، غذي بوسائل مختلفة ، نما على مر الزمن ، وبلغ أوجه في القرن الخامس ، الذي عد بحق : العصر الذهبي للثقافة الإسلامية .

وفي هذا القرن ، نشأ أبو الحسن الماوردي ونهل من ثقافته المزدهرة . عاش في مدينتين ثقافيتين كبيرتين أولاهما: البصرة التي عرفت بمدارسها النحوية والكلامية،

وكان لها قصب السبق في الحركة العلمية الإسلامية ، وثانيتهما : بغداد عاصمة الملك والخلافة ، وكعبة الباحثين والعلماء . فجمعت بين الزعامتين : السياسية والثقافية ، وقد أولع الماوردي بالعلوم الدينية ، وتتلمذ لكبار الشيوخ في عصره ، وأصبح حجة في الفقه الشافعي ، ولعله اتجه نحو المشكلات السياسية عن طريق دراساته الفقهية ، وفي الفقه الإسلامي أبواب هي أشبه ما تكون بالقانون الدستوري أو الإداري . هذا إلى أنه حظي برعاية الخليفة القادر بالله (٣٨١ هـ - ٤٢٢) ، الذي اختاره قاضي القضاة ، وللقضاء شأن خاص في النظام الإداري للدولة الإسلامية . وكان القضاة أول ممثلي الخليفة في الولايات والأقاليم . استن سنتهم عمر بن الخطاب (٥٨١ م-٦٤٤م) ، وسار على نهجه من جاء بعده من الخلفاء . وتأيدت سلطة القضاة عاما بعد عام ، وتوثقت صلتهم بالشئون العامة ، وأصبح مركز قاضي القضاة من المراكز الرئيسية في الدولة .

وفي بغداد شهد الماوردي فوق هذا صورة من صور النزاع على السلطة ، ونرجح أنها كانت من البواعث التي دفعته إلى معالجة القضايا السياسية ، فقد كانت الخلافة على عهده في مهب الريح ، يجتذبها البويهيون من جانب ، ويعدو عليها السلجوقيون من جانب آخر ، وأصبح الخليفة والماوردي لا سلطان لهما ، واستطاع السلجوقيون - آخر الأمر - أن يستقلوا بالسلطان ، ولم يتركوا للخليفة إلا اللقب ، وشيئا من السلطة الروحية . رأى الماوردي هذا كله ، وعاش فيه وتأثر به ، وكان هواه دون نزاع مع الخليفة ، وود لو استطاع أن يعاونه على البغاة والمعتدين ، وما كان يملك إلا أن يكتب ويؤلف ، وقد فعل .

ولهذا، فإن للماوردي كتبا كثيرة يدور معظمها حول القانون والسياسة، فعرض (للوزارة والوزراء) و(لنصيحة الملوك) و(سياسة الحكم)، و(أدب الدنيا والدين)، ووقف طويلا عند (الأحكام السلطانية). ولم تجمع مؤلفاته بعد جمعا شاملا، ولا يزال

قدر منها مخطوطا ، وفي مقدمتها كتاب : (الأحكام السلطانية) ، الذي تنبه إليه المستشرقون منذ أخريات القرن الماضي ، وترجم إلى الفرنسية عام ١٩٠٠، ولكنه لم ينل حظه تماما من الدرس والبحث . والواقع أن الماوردي الفقيه أعرف في العالم العربي من الماوردي عالم السياسة، مع أن له في مضمارها مكانة لا يبزه فيها كثيرون.

وفي حديثه عن الوزارة يقسمها قسمين : وزارة تفويض ، ووزارة تنفيذ ، ويبين شرائط كل منهما وأوضاعهما ، ويفصل القول في تدبير الأموال ، ويطالب الوزراء بالعناية بجمعها ، والدقة والحذر في صرفها . ويوجه إلى وزير القرن العاشر الميلادي ملاحظات لا يزال وزير القرن العشرين في حاجة ماسة إليها . فيقول له : « أنت سائس ومسوس ، تسوس رعيتك ، وتنقاد لطاعة ملكك أو خليفتك ، فتجمع بين سطوة المطاع وانقياد المطيع . ولو تم التوازن بين هذين الطرفين ، لانتظم الملك واستقر أمر الرعية » . ويخاطبه أيضا قائلا : «بيدك تدبير مملكة : صلاحها واجب عليك وفسادها منسوب إليك ، تؤاخذ على الإساءة ، ولا يعتد بإحسانك ، لأنك مطالب به ، وعند التقصير لا يكفى الاعتذار ولا حسن المقال ، لأن لسان الفعال أنطق من لسان المقال » . وكأنما يكتب بلغة العصر ، حين يقول : « أيها الوزير ، إنك لن تستكثر محبيك إلا بالعدل والإحسان ، ولن تنقصهم بمثل الجور والإساءة ، فالعدل استثمار دائم ، والجور استئصال مستمر ، والعدل مطلوب في الأموال والأقوال على السواء ، والعدل في الأموال أن يأخذها الوزير بحق ، وأن يعطيها لمستحق ، فهو سفير مؤتمن ، وكفيل مرتهن ، عليه العزم ، ولغيره الغنم ، وعدله في الأقوال ألا يخاطب العالم بلغة الجاهل ، وأن يقف في الحمد والذم على قدر الإحسان والإساءة . واعلم أيها الوزير أنك تباشر تدبير ملك له أس ، وأسه الدين والشرع ، وعلى نظام هو الحق والعدل ، فاجعل الدين قائدك والحق رائدك » .

وفي كتاب (الأحكام السلطانية) دراسات سياسية وقانونية مستفيضة ومتنوعة. فيها ألوان من الفقه والقانون ، ويقع في عشرين بابا ، تنصب أربعة منها على الفقه

الدستوري، وثلاثة على القانون الإداري، وثلاثة على القانون الدولي العام والخاص، وستة على المالية العامة ، وأربعة على أداء الفرائض من صلاة وحج، وإقامة الحدود على مرتكبي الجرائم من قتل وسرقة ، ويعول في ذلك كله على التجربة العملية ، وعلى ما أخذ به فقهاء الإسلام من قبل .

وكان طبيعيا أن يعنى الماوردي بنظرية الإمامة أو الخلافة ؛ لأنها أساس الحكم والسياسة ، والإمامة عنده ضرورة لازمة ، أو إن شئت بلغة المتكلمين واجبة بالشرع أو بالعقل على خلاف بين الأشاعرة والمعتزلة ، هي لازمة ؛ لأنه لا يصلح الناس فوضى ، وتنعقد باختيار أهل الحل والعقد وأن توافر فيه شرط العدل، قرشي النسب. ويؤكد الماوردي فكرة الاختيار ردا على نظرة الشيعة القائلة بالوصاية ، ويتحدث طويلا عن أهل الحل والعقد ، وهم أهل الشورى ، ويجري على لسانهم ما يساوي نظرية العقد السياسي الحديثة ، وإن كان الذي يصنعها مسلما بأنه يكفي فيها واحد يتولى الحل والعقد ، وأغلب ظني أن هذا فرض من الفروض النظرية التي أولع بها بعض الفقهاء . ويبرهن بإسهاب على شرط النسب القرشي ، وكأنما كان يحس بالمعارضة المحيطة به التي لا تسلم بهذا الشرط ، ولا يسلم بما سلم به غيره من جواز قيام إمامين معا في بلد واحد ، وقد أدرك آثار ذلك الواضحة فيما صنع البويهيون والسلجوقيون ، ولا يتحمس لما أجازه الفقهاء من انعقاد الإمامة بعهد من أب لابنه، أو من أخ لأخيه ، مما يتعارض مع مبدأ الاختيار وسلطة أهل الحل والعقد. ويؤثر الماوردي هنا الصمت ، وهو أضعف الإيمان ، ومعروف أن لهذا العهد سوابق كثيرة في الإسلام ، ولا يتردد خليفة إن استطاع أن يأخذ به . وليس بلازم أن تعرف الأمة جمعاء الإمام بنسبه واسمه ، كما زعم الزيدية ، لاسيما وهو خليفة الله في أرضه ، وقد أرسل محمد ﷺ إلى الناس كافة ، ولهذا فإن نظرة الزيدية هنا قاصرة ولاشك .

ويحاول الماوردي أن يحدد واجبات الإمام الدينية والدنيوية ، وهي واجبات مهمة وخطيرة ، ويحرص على أن يباشرها الإمام بنفسه ؛ لأن التفويض والتوكيل غير مأمونين ، ولا يبعد أن يغش المفوض أو يخون .

وتسقط إمامة الإمام إن جرح وثبت أنه ارتكب منكرا ، أو إن ضعف عقله ، أو فقد أهلية التصرف . ويظهر أن الماوردي لا ينكر حق الرعية في رفض طاعة الإمام الفاجر ، ولكنه مع هذا لا يستسيغ العزل القسري ، ويعده من فعل البغاة . وإذا ما أسر الإمام لم يبق محل لإمامته . والاستيلاء على السلطة بالغدر والقوة ينكره الماوردي ، ويمقت الآراء والفتاوى التي تبرره ، وكثيرا ما تسابق في تقديمها بعض القانونيين والفقهاء .

هذا هو رئيس الدولة في تعيينه وسلطاته وواجباته ، وفي عجزه عن القيام بأداء رسالته ، على نحو ما صوره الماوردي ، وهي صورة مستمدة في أغلبها من الواقع ، وقائمة على أساس من الفقه والتشريع ، ولا غرابة ، فمؤلفها فقيه قبل أن يكون سياسيا ، ونستطيع أن نقرر أنها صورة إسلامية أساسا ، وإن اشتملت على عناصر أجنبية . ونلمح فيها فوق هذا جذورا لبعض النظريات السياسية المعاصرة ، كنظرية الحق المقدس ، ونظرية العقد السياسي .

كذلك .. ويتابع الماوردي نظم الحكم المختلفة من وزارة ، وإمارة ، وولاية ، فيحللها ويبين شروطها وأوضاعها . والوزير ، إن أحسن اختياره ، سند كبير لرئيس الدولة ، يشد أزره ، وينوب عنه في تصريف الأمور ، وقد سبق لموسى عليه السلام أن سأل ربه أن يمنحه وزيرا ﴿ **هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى** ﴾[1] وكتب المأمون في اختيار وزير : « إني لمست لأموري رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفة في خلائقه ، واستقامة في طرائقه ، وأحكمته التجارب » ، والوزارة

(1) طه : ٣٠ - ٣٢ .

نظام قديم في الإسلام ، ومن الوزراء من كان قدوة في قوله وعمله ، أشار فسدد الرأي ، ونفذ فأحكم التنفيذ .

وللخليفة أن يقلد أميرا على إقليم أو بلد بصفة عامة ودائمة ، أو في مهمة خاصة ولمدة معينة . وقد يمنحه سلطة مطلقة فيحل محله في الإقليم الذي أمره عليه ، أو يحصر سلطاته في دائرة محدودة . والإمارات كثيرة ، والأمراء متعددون ، ولكل أمير مهمته ، فهناك إمارة الاستيلاء على إقليم بالقوة ، وإمارة الجهاد لمقاتلة الأعداء ، ولكل أمير حقوق وعليه واجبات ، وعين الخليفة الصالح يقظة تقف بهذه الحقوق عندما ينبغي ، وتتأكد من أداء هذه الواجبات على وجهها .

والولايات متعددة أيضا ، كولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية الصدقات ولكل وال شروطه ومؤهلاته ، وصلاحياته واختصاصاته . وينبغي أن تحدد هذه الشروط دون تساهل فيها ، وأن يتبين هذه الاختصاصات دون تجاوز لها أو عدوان عليها . وفي الوسع أن ينشأ في كل ولاية دواوين وإدارات تتابع العمل عن قرب ، وتدير دفة الحكم .

وتلتزم هذه النظم قبل كل شيء بتعاليم الإسلام ومبادئ الأخلاق ، فهي نظم دينية أخلاقية ، تقوم على الحق والعدل ، وهي أيضا نظم عملية تعنى بحاجات الناس ومتطلبات الحياة ، فتواجهها في صدق ، وتحاول أن تحققها على أكمل وجه . وهي أخيرا نظم اجتماعية تأخذ بالرأي والمشورة ، وتسلم بحقوق الشعب وسلطانه، وتؤمن بالتغيير والتطور ، وتدعو لأن يلبس لكل حال لبوسها . وما أجدرها أن تدرس في عمق ، وأن تعرف في تفصيل ، وأن تقارن بما يشابهها من النظم الحديثة .

ونأمل في هذه الذكرى الألفية أن تخرج سياسة الماوردي إلى عالم النور ، وأن تضع هذا المفكر الإسلامي في مكانه اللائق به .

* * *

ابن حـــزم

أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى : أحد مجددي القرن الخامس الهجري ، والذي ينتهى نسبه إلى يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، والذي ولد في آخر رمضان عام ٣٨٤ هـ وتوفي عام ٤٥٦ هـ .

وقد كانت أسرته تعيش في كنف البيت الأموي في دمشق ، ولما انتقل البيت الأموي إلى الأندلس انتقلت معه ، واستمرت في ولاء ومعاونة له . وكان أبوه وزيرا في إحدى ولايات الأندلس في الحكم الأموي ، وتولى هو ذلك المنصب في وقت قصير لبعض أمرائهم .

وقد نشأ هو في بحبوحة من العيش ، وعزة من السلطان ، وكان يعيش عيش أهل الثراء ، وإن ضيق عليه في أخريات أيامه ، وكان يعتز بأنه طلب العلم لذات العلم ، يرجو به ما عند الله فلا يطلب به جاها ، ولا عزا . وقد قال له الباجى « من كبار فقهاء الأندلس» : « إنك نلت العلم ، وأنت تسهر بمشكاة من الذهب ، وأنا أسهر بقنديل ، بائتا بالسوق» . فقال ابن حزم : « إنك طلبت العلم ، وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي ، وأنا طلبته .. لم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة » .

وهكذا .. نشأ ربيب النعمة هذا فاكها فيها ، فحفظ القرآن في بيته ، حفظه إياه النساء من الجواري ، ولنتركه يروي ذلك فهو يقول : « لقد شاهدت النساء ، وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري ، لأني ربيب في حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب .. وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيرا من الأشعار ، ودربنني في الخط » .

هذا السياق يدل على أن أولئك الجواري كن مثقفات ثقافة واسعة ، فهو يقول إنهن علمنه القرآن ، ولم يقل إنهن حفظنه ، لأن تعليم القرآن أكبر من تحفيظه ، إذ تعليمه بيان بعض معانيه ، وفيه تعرض لبعض أسباب النزول ، فهو لم يحفظ القرآن غير فاهم ، بل حفظه ابتداء فاهما له مدركا لمعانيه في الجملة ، وعلى قدر طاقته في سنه.

ولم يكن بعيدا عن أبيه ، بل كان أبوه ملاحظا له ، معنيا به ، يراقب ميوله واتجاهاته ، ويحرص على أن ينشأ عفيفا قوي النفس مع تلك النشأة الناعمة ، حتى لا تعتري نفسه طراوة من ينشأ بين النساء .

بعد أن أخذت نيران الصبا وغرارة الفتوة وشرة الحداثة تتجه إلى نفسه وتتأجج فيها - أخذه أبوه وأسلمه إلى بعض الشيوخ ، واختصه بعالم اتسم بالتقوى ، قد قال ابن حزم في وصفه : « كان عاقلا عالما عاملا ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح، والزهد في الدنيا ، والاجتهاد للآخرة ، وما رأيت مثله جملة : علما وعملا ودينا وورعا ، فنفعني الله به كثيرا ، وعلمت منه موضع الإساءة وقبح المعاصي » .

وكما يذكر الشيخ محمد أبو زهرة : استمر ابن حزم يعيش تلك الحياة الناعمة الهادئة ، ويتعلم العلم في رفق وهدوء بال لا يقتحم حياته مكدر ، بل في اطمئنان واستقرار ، وفي ذلك الوسط تربى كما يتربى أبناء الأمراء ، وتثقف كما يتثقفون ، حفظ القرآن ، وتعلم علومه ومعانيه وحفظ قدرا من الشعر ، واتجه إلى أفاضل الشيوخ يأخذ من مناهلهم الندية .

ولكن ذلك العيش الناعم الهادئ تبدل ، إذ تبدلت حال أبيه ، فقد كان أبوه وزيرا ، وقديما قال الحكماء : « من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه على دمه ». وكانت وزارة أبيه في آخر عهد الأمويين بالأندلس ، أي وقت أن ضعفت أيديهم عن الاستمساك بصولجان الحكم ، ووقوعه في قبضة أحد وزرائهم : أبي منصور

العامري، واستبداده بالأمر دونهم ، فأنزل أبوه من منصب الوزير ، وامتحن بالاعتقال والتغريب ، حتى مات وهو في هذه الشدة ، ولنترك الفتى الناعم يقص علينا النقمة بعد النعمة : « شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح والاستتار ، واشتدت الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس وخصتنا ، إلى أن توفي أبو الوزير رحمه الله ، ونحن في هذه الأحوال - بعد العصر لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنتين وأربعمائة » .

استمرت الشدة بعد وفاة أبيه ، ولم تنقطع ، وأخذ يحملها وحده ، بعد أن كان في احتمالها تابعا لأبيه ، وتتابعت الشدائد ، حتى أخرجوا من قرطبة مكان عزهم ، ويقول في ذلك : « وضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم عام أربعة وأربعمائة » .

نزلت هذه الشدائد والفتى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وقد صقلته ، وكانت ابتداء حياة جديدة له ، فقد انتقل من فتى ناعم ، إلى رجل مكافح مناضل ، يخاصم في الفقه ، « فيصب على خصمه الجندل ، ويسيطه ماء الخردل » ، كما وصفه معاصروه .

انصرف إلى العلم بكليته ، واختاره من بعد بإرادته ، ليعوض عن منصب الوزارة عرش العلم ، فأخذ يدرس الحديث ويرويه ، يأخذه من الشيوخ ، ويأخذه من الكتب ، حتى حصل على أكبر مجموعة من علم الرسول ، ومن فقه الصحابة ، ثم أخذ يدرس الفقه ، ووصل فيه إلى القمة ، وكان يحب منه ما يكون ضاحيا واضحا ، ولذلك اكتفى بأخذ الأحكام من النصوص ، من غير بحث عن علة لها ، ولا تعرف لغاياتها ، فاختار المذهب الظاهري له مذهبا ، وهو المذهب الذي يرفض الأخذ بالرأي في الأحكام الشرعية ، ولا يحاول تقليل النصوص ، بل يرفض ذلك رفضا باتا .

وقد أصبح الإمام الأول لهذا المذهب هو داود الظاهري الأصفهاني ، وصار إمامه الثاني ابن حزم . ولقب بالظاهري لاختياره ذلك المذهب ، وقد تشدد فيه أكثر من إمامه الأول، وساعده على التشدد إحاطته الواسعة بأحاديث رسول الله ، ثم مع ما عرض له من حدة ، لازمته نحوا من ثلاثين سنة . ولم يشغله شيء عن العلم بعد أن نكبت أسرته ، وحمل العبء الكامل من الآلام ، إلا وقتا قصيرا اشتغل فيه وزيرا لأحد الذين ظهروا من بني أمية ، فدفعه ولاؤه لهم إلى معاونته ، ولكن سرعان ما زال ملك ذلك الذي ظهر ، وتتابعت النكبات على ابن حزم ، ثم عادت إليه هدأة العالم الذي يعكف على الدرس .

ولكنه مع ذلك كانت في نفسه قوة دافعة إلى الحركة ، فلا يمكنه أن يستقر في صومعة ؛ ولذلك اندفع إلى الرحلات ووجد في هذه الحركة ما ينمي به علمه ، وما يشبع به نفسه ، فانتقل من قرطبة إلى المرية طلبا للاطمئنان ، وانتقل من بعد ذلك إلى مدينة يقال لها الحصن ، ثم انتقل إلى بلنسية ، ثم عاد إلى قرطبة حنينا إلى المباني التي تربى فيها وترعرع ، ثم انتقل إلى مدينة الشاطبة وأقام في منازل كانت لأسرته بها ، وانتقل إلى القيروان .

وفي كل مكان يلتقي فيه بعلمائه يناقشهم ويناقشونه ، ويستأنس بأهل الود منهم، ويجذب الشباب بآرائه الجديدة ، وبحلو عباراته ، واتساع آفاقه في غير الفقه وهو يكتب ويدون ، حتى أخرج مجموعة علمية رائعة .

ويذكر الشيخ محمد أبو زهرة في حديثه عن ابن حزم : لقد كان ابن حزم العالم أموي النزعة في وقت زال فيه سلطان الأمويين ، ولم تكن محاولاته في الفقه فقط بل كانت محاولاته في التاريخ واسعة ، فكان يدون حوادث عصره بما يراه ، لا بما يرون ، لا يهمه رضا أحد أو سخط أحد ، ومن أولئك الذين يذكر في شأنهم ما يراه أمراء

يحكمون ، فلم يجدوا سبيلا لمنع استرساله إلا أن يأمروا بإحراق كتبه فحرقوها ، ولكنه يقبل التحدي بالتحدي ، فيقول في قوة وعنف :

وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس ، بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل إذ أنزل ويدفن في قبري

ولم تكن النقمة عليه من الأمراء فحسب ، بل كانت النقمة أيضا من العلماء ، فقد كان أكثر علماء الأندلس يعتبر مذهب الإمام مالك دينا ، ويعتبرون ذلك فوق قدر الرجال حتى إن الشافعي رضي الله عنه بلغه أنهم كانوا يستسقون بقلنسوة للإمام مالك .

فهاجم ابن حزم مذهب مالك ، ولم يسلم مالك من قلمه . وكلما ازداد استنكارهم ازداد عنفا وحدة على المذهب المالكي وصاحبه ، فكثر الأعداء ، وقل الأنصار ، ولم ينهج في نشر علمه منهج المودة ، بل المعاندة ، حتى لقد قال فيه بعض معاصريه : « علم العلم ولم يعلم سياسة العلم » .

ويشير الشيخ محمد أبو زهرة إلى سجاياه ، ويفسر حزنه فيذكر :

« آتى الله ابن حزم حافظة واعية ، وجلدا في طلب العلم جعله يستوعب أكبر قدر من علم السنة ، والآثار ، واختلاف الفقهاء ، وأكبر قدر من رواية الشعر ، وأخبار التاريخ . وكان مع هذا الاستيعاب حاضر البديهة تجيء إليه المعاني البعيدة في أوقات الحاجة إليها .

ثم كان عميق النظر في الدراسة ، مع أنه لم يأخذ في الفقه بالرأي . وعمقه قد بدأ في دراسته للنفوس فكان يحلل ويتعمق في التحليل . وقد بدا ذلك واضحا كل

الوضوح في رسالته (طوق الحمامة) التي درس فيها العشق وأسبابه وظواهره ، وبدأ أيضا في رسالته (مداواة النفوس) ، ثم بدأ تحقيقاته التاريخية .

وقد آتاه الله مع هذه المزايا العلمية إيمانا قويا بالله ، وإخلاصا واضحا في طلب الحقيقة ، لا يهمه في بيان ما يصل إليه رضا أحد أو غضب أحد . وكان عالي الهمة ، لا ينماع في غيره ، تزيده قوة خصمه علوا، لا يستخذي ولا يضعف ولا يتبع إلا مصادر الشرع ، يعلو على الشديد ، ولا يستسلم ، ويعلو في المقاومة ولا يهن ولا يضعف» .

هذا إلى جانب أن في طبيعته حدة شديدة في القول . فكان إذا رد قولا رماه بالشناعة . ورمى صاحبه بالخروج على الدين . ولكن لماذا كانت هذه الحدة ، وهل لازمته في كل أدوار حياته؟ والجواب عن ذلك أنه يبدو من كتابيه : (طوق الحمامة) و(مداواة النفوس) أنه لم تنشأ معه الحيرة كطبع فيه منذ طفولته ، فقد كان هادئ النفس ، مشرق القلب حتى بعد أن نزلت النكبات في أسرته ، ولكن اعترته الحدة لمرض أصابه ، ويقول هو فيه في تبدل حاله بسبب المرض : «لقد أصابتني علة شديدة ولدت في ربوا في الطحال شديدا ، فولد ذلك علي من الضجر ، وضيق الحال، وقلة الصبر والنزق - أمرا جاشت نفسي فيه».



الجويني

هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن عبد الله الجويني ، أحد مجددي القرن الخامس الهجري ، حيث ولد عام 419 هـ ، وتوفي عام 478 هـ ، في بشتنكان وهي قرية تقع بالقرب من نيسابور كما تسجل دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، بينما تسجل بعض الكتابات العربية أن مسقط رأسه كانت (أزادواه) وهي قصبة جوين في نيسابور وقد نسب اسمه الجويني إلى هذه القصبة جوين .

تعلم ودرس على والده في إحدى مدارس نيسابور ، وخلف هذا الوالد بعد الوفاة في مهنة التدريس ، وكان ذلك في العشرين من عمره ، متبعا من العقائد مذهب « أبو الحسن الأشعري » . لكن حين أخذ عبد الملك الكندري وزير طغرل بك السلجوقي يهاجم بعض البدع ، ويلعنها من فوق أعواد المنابر ومنها ما كان الجويني ينتمي إليها، غادر الجويني مسقط رأسه بل ونيسابور كلها ، هو وأبو القاسم القشيري أحد الرافضين لما كان يدعي طغرل بك . فاتجها إلى بغداد بالعراق في بادئ الأمر ، وهناك التقى ببعض علمائها والمبرزين من فقهائها ، واستفاد منهم كثيرا .

ولما حان موسم الحج سافر إلى الحجاز عام 450 هـ ، حيث تجمع المراجع على أنه أقام بين مكة والمدينة أربع سنوات ، كان خلالها يدرس ويفتي إلى جانب الاستفادة من الوافدين من علماء الدنيا وفقهائها في مواسم الحج المتتالية ومن هذه الإقامة بين أم القرى مكة ، ومدينة الرسول المدينة المنورة وفيهما الحرمان الشريفان : «الحرم المكي ، ومسجد الرسول – ﷺ – » جاءه لقب إمام الحرمين لقاء هذا التواجد المثمر الذي تجلى فيه الأخذ والعطاء في العلم والفضل .

ويظل مقيما بين مكة والمدينة إلى أن تولى نظام الملك الوزارة في عصر الدولة السلجوقية ، وانتصار الأشاعرة وعودة تأثيرهم الديني في نيسابور ، وانتصار هذا الوزير للأشاعرة ، وطلبه عودة المهاجرين من أبناء نيسابور وخاصة العلماء من أتباع الأشاعرة إلى وطنهم ، كان الجويني واحدا من هؤلاء المهاجرين الذين عادوا إلى نيسابور تقريبا في أواخر عام 454 هـ أو أوائل عام 455 هـ . ولم يكتف نظام الملك بذلك بل أنشأ مدرسة خاصة بالجويني تقديرا لعلمه وفضله الذي شهد له كل الدارسين على يديه في مكة والمدينة ، وقد سميت هذه المدرسة بالنظامية في نيسابور .

وفي هذه المدرسة التي أنشئت من أجله جلس للتدريس، وكان يحضر دروسه أكابر نيسابور ، وأعداد غفيرة من الطلاب يتلقون العلم الذي حصله من لقاءاته مع علماء الإسلام الوافدين على مكة والمدينة في مواسم الحج من كل حدب وصوب ، ويتخرج على يديه الكثيرون ممن كانوا يوجهون الحياة الروحية وقتئذ في نيسابور وجيرانها .

وإلى جانب دوره التعليمي في نيسابور عين مشرفا على الأوقاف كمنصب يماثل وزارة الأوقاف في العصر الحديث ، كما يذكر كل من السبكي وابن عساكر . ومن ناحية أخرى كان تقدمه وتطوره في الفقه سببا في تقلده زعامة المذهب الشافعي هناك، خاصة وأنه استطاع في هذه السنوات التي قضاها بين مكة والمدينة من الاطلاع على المذاهب الأربعة ، سواء من كتبها أو من اللقاء بأتباعها ، فتكونت لديه حصيلة علمية ممتازة ، جعلته يوازن بين مذاهب السنة الأربعة ، ومقارنتها بما كان يتوافر لديه من معلومات حول مذاهب الشيعة ، كما تكونت لديه شخصية علمية متميزة نتيجة الاطلاع على هذه المذاهب الإسلامية العلمية المتعددة .

وطبيعي أن تكون لفقيه على هذا النحو كتابات وكتب، ومن مؤلفاته التي أمكن الحصول عليها : (نهاية المطلب في دراية المذهب) ، و(الورقات في أصول الفقه) ، و(مغيث الخلق في بيان الأحق) ، و(لمع الأدلة في قواعد أهل السنة) ، و(الشامل في أصول الدين) ، و(الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد) ، وغيرها كثير .

هذه الكثرة التي جعلت السبكي يذهب في طبقاته إلى أنه لا يمكن تعليل هذه الكثرة إلا بعد عناء شديد، وفي ذلك يقول السبكي في طبقاته: « .. وكذلك إمام الحرمين أبو المعالي الجويني حسب عمره، وما صنفه، مع ما كان يلقيه على طلابه، ويذكره في مجالسه، يصعب أن يفي به باحث واحد .. ».

وفي هذا السياق يذكر السبكي في طبقاته للجويني كتاب (البرهان في أصول الفقه)، وكيف اشتمل على معضلات جمة، حتى إن السبكي يميل إلى تسميته (لغز الأمة)، حيث نحا فيه الجويني نحوا جديدا غاية الجدة. وأن أعظم مؤلفاته: كتاب (الورقات في أصول الفقه) الذي أشرنا إليه ضمن ما تحصلنا عليه من هذه المؤلفات، وقد شرح هذا الكتاب مرارا وتكرارا منذ القرن الخامس الهجري حتى القرن الحادي عشر للهجرة، على الرغم من أنه لم يطبع حتى هذا التاريخ.

يبقى أن نذكر في مجال الحديث عن إمام الحرمين الجويني أنه كان حقا وصدقا من أكبر علماء الكلام عند أهل السنة في القرن الخامس الهجري، وأنه اهتم بشكل خاص بتجديد المصطلحات، وتقديم الأسس العامة للدراسة والبحث بدقة الاستدلال. هذا إلى جانب أن هذا العالم الجليل تتضح عنده ضرورة النظر العقلي ووجوبه على الإنسان العاقل. كما تناول حدث العالم، والرد على المخالفين له، وبحث وجود الله وصفاته ووحدانيته والنبوة والثواب والعقاب ... وغيرها.

وعلى الجملة: كان الجويني له تأثير كبير في عصره، وله مريدون وتلاميذ، منهم حجة الإسلام أبو حامد الغزالي وغيره. ولهذا ولغيره من أسباب .. اتفق العلماء على اعتباره واحدا من مجددي القرن الخامس الهجري.

* * *

أبو حامد الغزالي

وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي : من مجددي القرن الخامس الهجـري ، لما لـه من آثار تجديدية في عصره أو في العصور التالية .

لقد أثر الغزالي في عصره حتى قيل : إنه شطر أهل العلم وأولي الأمر من الـولاة شطرين ، أولهما يناصره ويؤيده ، وثانيهما يخذله ويهاجمـه ، وظـل الفريقـان يختـصمان حتى طارت شهرته في جميع البلـدان . وقـد رأى الغـزالي دون غـيره مـن الفلاسـفة والمفكرين في حياته ومن تلاميذه ومريديـه مـن يقدسـه ويفـضله عـلى جميـع أفـذاذ عصره، وفي الوقت نفسه رأى من يضرب بآرائه عرض الحائط ويحرق كتبه ؛ والأكثر يرميه بتهمة الإلحاد والكفر . ويبدو أن هذا الصنيع متبع دائما مـع كـل مفكـر منـتج كالغزالي . ومثل المفكر المنتج في هذا مثل الشجرة المنتجة المثمرة التـى لا تنجـو مـن إلقاء الطوب والأحجار . وانظر .. يتهمون الغزالي في دينه وهو الذي قيل عنه إنه لو جاء نبى بعد محمد ﷺ لكان الغـزالي ومعجزاتـه هـي كتاباتـه .هكـذا يـصبح شـأن أصحاب العبقريات الخالدة لآرائهم .

لقد مجد الغزالي العقل وأعلى من شأنه ، ثم حد من قدراتـه وأنقـص إمكاناتـه ، وجعل منه سوطا يلهب به ظهر الفلسفة التى تؤمن بالنظر العقلى ، ولكن مـع ذلـك يبقى للغزالي أنه وضع دستورا للأخلاق لو أن المسلمين طبقوه وعملوا به لنجوا مـن هذه الهوة السحيقة التي تردوا فيها وعلا شأنهم ، واستعادوا مجدهم .

وحتى في هجومه على الفلسفة والفلاسفة يعد الغزالي مجددا ؛ حيث إنـه نبـه إلى مواطن الضعف فيها ، وإن كان قد غالى في هذا حتى كـاد يقـضي عـلى الفلاسـفة في

المشرق ، في كتابه : (تهافت الفلاسفة) الذي رد عليه ابن رشد في كتاب (تهافت التهافت) . ولا ننسى أن هجوم الغزالي على الفلسفة كان يرجع إلى نزعة صوفية نشأ فيها ولم يستطع التخلص منها ، وإنما لازمته طوال حياته إلى درجة أنه قيل: إن اهتمام الغزالي بالتصوف وتبنيه لبعض مظاهره في معالجاته الفكرية وهو فيلسوف العصر وحجة الإسلام ، قد جعل الكثيرين يميلون إلى التصوف . ومهما يكن من أمر الذين يهاجمون الغزالي فلا يمكن أن يتجاهلوا توفيقه بين العقل والنقل ؛ فهو يستعين بالفعل حيث يدرك نفسه ويدرك غيره ، وإذا تجرد من غشاوة الخيال والوهم أدرك الأشياء على حقيقتها ، ثم يأتي بعد ذلك النقل الذي يمكنه مجاوزة العقل .

وكذلك لا يمكن تجاهل تجديد الإمام أبي حامد الغزالي الذي أشار إليه الدكتور «عبد الرحمن بدوي» الذي جاء في عرض كتاباته ، ومنها كتاب (مشكاة الأنوار) ، والذي له مكانة خاصة ؛ لأنه يعبر عن المرحلة العليا في تصوف الغزالي . إنه في ظاهره تفسير للآية الكريمة : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ** ﴾[1] ولكن في حقيقته عرض لمذهب في النور الإلهي، ساهم فيه الغزالي بنصيب وافر لإيجاد فلسفة النور التي بلغت أوجها في التصوف الإسلامي عند «السهروردي» المقتول صاحب (هياكل النور) والتسبيحات الرائعة في تمجيد النور « ارفع ذكر النور ، وانصر أهل النور ، وارشد النور إلى أهل النور ».

وللنور عند الغزالي معان تختلف باختلاف طبقات الناس . هو عند العوام بمعنى الظهور ، وهو يطلق تارة على ما يفيض من الأجسام المنيرة على ظواهر

(١) النور : ٣٥ .

الأجسام الكثيفة ، فيقال : استنارت الأرض ، وتارة أخرى يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة لأنها في أنفسها مستنيرة . « وعلى الجملة : فالنور عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس » .

والأنوار تترتب حسب قربها من المنبع ، فأقربها أعلاها مرتبة، وهي لا تتسلسل إلى غير نهاية ، بل ترتقي في ترتيبها إلى منبع أول هو النور لذاته وبذاته ، ليس يأتيه نور من غيره ، ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها .

ولهذا انقسم النور إلى : نور ظاهر ، ونور باطن ، والظاهر هو الذي يضيء الأجسام ، والباطن هو الذي يضيء القلوب . والأول وجوده من غيره ، والثاني وجوده من ذاته . ولهذا كان الأول نسبيا ، بينما الآخر ذاتي ، والنور الذي يستمد وجوده من ذاته هو النور الإلهي ، « فالموجود الحق هو الله تعالى ، كما أن النور الحق هو الله تعالى » .

والعارف يترقى من حضيض المجاز إلى ذروة الحقيقة ، فيرى بالمشاهدة العينية أن ليس في الوجود إلا الله ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، لأن ما عداه هو من حيث ذاته عدم خالص . وبعض العارفين يعرفون ذلك عرفانا علميا ، وبعضهم يعرفه ذوقا وحالا . هنالك يدرك أن الله « هو النور » ، ولا نور سواه ، وأنه كل الأنوار ، وأنه النور الكلي ، لأن النور عبارة عما تنكشف به الأشياء ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه ، وأن الحقيقي ما ينكشف به وله ومنه . وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده ، بل ذلك له في ذاته من ذاته ، لا من غيره . وهذا لا يتصف به إلا النور الأول ، وهو الله .

وسالك الطريق إلى الله يترقى من درجة إلى درجة أعلى منها ، فيتضح له إشراق الأنوار نورا بعد نور حتى يصل إلى حظيرة القدس ، وهي العالم الخالص من الحس والخيال . ولابد من أجل ذلك أن يدرك أن العالم الكثيف الخيالي السفلي هو بمثابة «زجاجة ومشكاة للأنوار ، ومصفاة للأسرار ، ومرقاة إلى العالم الأعلى» .

والأرواح البشرية النورانية لها خمس مراتب : الروح الحساس ، وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس ؛ والروح الخيالي وهو الخيالي الذي يكتب ما تورده الحواس ويحفظه مخزونا عنده ليعرضه على الروح العقلي فوقه عند الحاجة إليه ؛ والثالث هو الروح العقلي الذي يدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال ؛ والرابع الروح الفكري ، وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيؤلف بينها ويستنتج منها المعارف النفسية ، والخامس الروح القدس النبوي الذي به يختص الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السماوات.

والغزالي يقول : إن الأمثلة التي ضربها الله تعالى في آية النور تناظر هذه الأرواح الخمسة : فالمشكاة تناظر الروح الحساس ، والزجاجة تناظر الروح الخيالي ، والمصباح يناظر الروح العقلي ، والشجرة تناظر الروح الفكري ، والزيت يناظر الروح القدسي النبوي . « فالحس هو الأول ، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالي ، إذ لا يتصور الخيالي إلا موضوعا بعده ، والفكري والعقلي يكونان بعدها ، فبالأحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح ، والمشكاة كالمحل للزجاجة، فيكون المصباح في زجاجة ، والزجاجة في مشكاة ، وإذا كانت هذه كلها أنوارا بعضها فوق بعض ، فبالأحرى أن تكون نورا على نور » .

« لكن دون إدراك النور الإلهي حجبا تبلغ السبعمائة حجاب ، بل وفي بعض الروايات أنها سبعون ألفا . والمحجوبون من الخلق ثلاثة أقسام : منهم من يحتجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من يحتجب بنور مقرون بظلمة ، ومنهم من يحتجب بمجرد النور المحض » .

والأولون هم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وشغلوا بالدنيا ومطالب الحواس . والقسم الثاني طائفة حجبوا بنور مقرون بظلمة ، وهم ثلاثة أصناف :

صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من الأقيسة العقلية الفاسدة – والصنف الأول عبدة الأوثان ، والثاني طائفة أثبتت وراء المحسوسات أمرا ، لكنهم لم يمكنهم مجاوزة الخيال فعبدوا موجودا قاعدا على العرش وهم المجسمة ، والثالث طائفة عبدت إلها سميعا بصيرا عالما قادرا مريدا حيا منزها عن الجهات ، لكنهم فهموا هذه الصفات على نحو صفات البشر .

والقسم الثالث من المحجوبين هم المحجوبون بمحض الأنوار ، وهم أصناف لا يمكن حصرها. لكن الغزالي يجتزئ منهم بثلاثة : صنف عرفوا معنى الصفات على سبيل التحقيق فأدركوا أن صفات البشر غير صفات البشر ؛ وصنف ثان ترقى عن الأول فظهر لهم في السماوات كثرة ، وأن محرك كل سماء خاصة موجودا آخر يسمى ملكا ، والصنف الثالث أرقى من هؤلاء فقالوا : إن تحريك الأجسام ينبغي أن يكون لخدمة رب العالمين وعبادته ، وهو طاعة من عبد من عبيده يسمى ملكا ، نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر إلى الأنوار المحسوسة ، فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ، والرب تعالى وجد محركا للكل بطريق الأمر ، لا بطريق المباشرة .

وفوق هؤلاء جميعا صنف رابع ، هم الواصلون ، تجلى لهم أن هذا المطاع موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ ، وأن نسبة هذا المطاع إلى الوجود الحق نسبة الشمس إلى النور المحض . وقد انقسموا فريقين : فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره ، وبقي هو ملاحظا للجمال والقدس وملاحظا ذاته في جماله ؛ وفريق أسمى منهم ، هم خواص الخواص « أحرقتهم سبحات وجهه الأعلى، وغشيهم سلطان الجلال ، وانمحقوا وتلاشوا في ذاتهم ولم يبق لهم لحاظ إلا أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم ، ولم يبق إلا الواحد الحق » .

وهكذا .. نرى الغزالي في (مشكاة الأنوار) يفسر آية النور تفسيرا صوفيا رمزيا : فالله هو النور الحق ، وهو نور كل شيء : نور الحس والخيال ، ونور العقل والقلب؛ وبهذا النور يهتدي من يهتدي ، والأنوار النسبية عديدة ، يترقى في معراجها الإنسان حتى يصل إلى حظيرة القدس ، وهناك يحترق بسبحات وجه الله . وعالم الحس هو بمثابة المشكاة، والخيال كالزجاجة ، والعقل كالمصباح والفكر كالشجرة ، والروح القدسي النبوي كالزيت .

وعلى السالك في الطريق إلى الله أن يتخلص من الحجب التي تحول بينه ونور الأنوار، حتى يصل إلى مشاهدة النور الحق ، وهيهات أن يبلغ ذلك إنسان ! فالطريق شاقة طويلة وإغراءات الانصراف عنها لا حصر لها ، لكثرة الشهوات والمطامع وشدة تعلق النفس بالدنيا ، وانجذاب الأبدان إلى الأرض .

ويقرر الدكتور «عبد الرحمن بدوي» أن الغزالي في هذا الكتاب كان شديد التأثر بالأفلاطونية المحدثة ، سواء في حديثه عن النور أو في تمييزه بين عالم الشهادة وعالم الملكوت ، وقوله إن ثمت مماثلة بين العالمين . لكنه لا يوغل في الرمز، أعني في تأويل ما في القرآن وفي الوجود على أنه رموز فحسب ، خوفا من أن يتهم بنزعة باطنية ، وهو الذي حارب الباطنية حربا مظفرة شعواء ، بل جمع الغزالي بين الرموز الحقيقية، والظاهر والباطن ، عملا بقول النبي : « **للقرآن ظاهر وباطن ، وحد ومطلع** » . والمفسر الكامل هو من يجمع في تفسيره بين ظاهر القرآن وباطنه .

وإلى هنا .. تنتهي قراءتنا لما كتبه الغزالي في كتاب (مشكاة الأنوار) .

والمؤرخون والعلماء يدخلون حجة الإسلام الإمام الغزالي التجديد من باب عرف به وهو الكشف عن ضعف وتهافت الفلسفة خاصة بكتابه (تهافت الفلاسفة) الذي غالى فيه حتى يكاد أن يكون قد قضى على الفلسفة ؛ حيث كره الناس علوم الفلسفة ، حتى عجز بعدها أن يظهر فيلسوف له وزن كبير فترة من الزمن – مع أن

علوم الفلسفة ألزم من غيرها للمسلمين ، ولا يمكن الاستغناء عنها في أمر دنياهم.. وحتى حين يرفض البعض الفلسفة في العبارة تعتبر موقفا فلسفيا . فكان القائلون بها لا يستطيعون الهجوم عليها حتى ولو شاءوا تمزيقها .

ولهذا .. ولغيره ، فقد جاء بعد ذلك من رد على الإمام الغزالي من الفلاسفة في طول قامة ابن رشد كما سنعرف بعد قليل .

* * *

ابن باجة

من مجددي القرن الخامس الهجري : ابن باجة المعروف في التاريخ الإسلامي باسم : أبو بكر محمد بن يحيى بن الصايغ ، وقد ولد في (سرقسطة) في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري . وعاش في تلك المدينة إبان حكم المستعين الثاني (٤٧٨-٥٠٣ هـ/ ١٠٨٥-١١٠٩ م) آخر أمراء بني هود حكام سرقسطة ولا رده وتطيله .

ويبدو أن أسرته كانت تشتغل بالصياغة ، صياغة الجواهر ، لأن كلمة « باجة » معناها : الفضة باللهجة العربية الأندلسية في ذلك العصر ، ويبدو أن هذا المجدد قد اشتغل مدة بهذه المهنة .

وبرز في الكثير من العلوم : فكان لغويا وشاعرا وموسيقيا ، وفيلسوفا .

ولما غزا المرابطون سرقسطة سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠م) كانت شهرته قد استقرت ، بدليل أنه صار من المقربين إلى حاكم سرقسطة الذي ولاه المرابطون ، وهو ابن تفلويت ، الذي كان عاملا على سرقسطة من قبل علي بن يوسف بن تاشفين . وقيل إنه صار وزيرا لابن تفلويت هذا . وفي حوالي سنة ٥٠٩ (١١١٦م) أي قبل استيلاء ألفونس صاحب المعارك على سرقسطة سنة ٥١١ هـ (١١١٨ م) رحل ابن باجة إلى الجنوب ، فأقام في المرية ، وغرناطة وإشبيلية وفاين . وفي إشبيلية استقر حيث كان يشتغل بالتدريس والتأليف .

ثم ارتحل إلى فارس حيث نال رضا أبي بكر يحيى بن يوسف بن تاشفين وصار وزيرا له . وهناك توفي مسموما في سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م . وقيل إن خصمه أبا العلاء

ابن زهر ، الطبيب الشهير ، هو الذي احتال ليوضع له السم في أكلة باذنجان مما أدى إلى وفاته .

وقد أورد تلميذه وصاحبه الوزير أبو الحسن علي بن عبد العزيز ابن الإمام ثبتا ببعض مؤلفاته يشتمل على مائة وخمسة كتابا .

وعن فلسفته : نرجع إلى مادة هذا المجدد في الموسوعة الفلسفية : إعداد الدكتور/ «عبد الرحمن بدوي» . حيث توافر ابن باجة على علمين من علوم الفلسفة هما : علم النفس ، والعلم الطبيعي . « وأما العلم الإلهي - كما لاحظ صاحبه الوزير ابن الحسن علي بن عبد العزيز ابن الإمام - فلم يوجد في تعاليقه شيء مخصوص به اختصاصا تاما، إلا نزعات تستقر من قوله في: (رسالة الوداع) و(اتصال الإنسان بالعقل الفعال) ، وإشارات مبددة في أثناء أقاويله ، لكنها في غاية القوة والدلالة على براعته في ذلك العلم الشريف الذي هو غاية العلوم ومنتهاها ، وكل ما قبله من المعارف فهو من أجله وتوطئة له » .

ويمكن أن نطلق على فلسفته اسم : علم الإنسان ؛ لأن ما تناوله فيها يدور معظمه حول موضوعات هذا العلم .

فيرى أن كل حي يشارك الجمادات في أمور ، وكل إنسان يشارك الحيوان غير الناطق في أمور . « فالحي والجماد يشتركان فيما يوجد للاسطقس الذي ركبا منه ، مثل السقوط إلى أسفل طوعا ، والصعود إلى أعلى قهرا . ويشارك الإنسان الحيوان غير الناطق في النفس الغاذية والمولدة والنامية ، كما يشاركه في الإحساس والتخيل والتذكر ، وما يوجد عنها مما هو للنفس .

لكن الإنسان يمتاز عن الحيوان غير الناطق ، وعن الجماد والنبات بالقوة الفكرية ، وهو لا يكون إنسانا إلا بها .

والإنسان بما هو حيوان تلحقه الأفعال التي لا اختيار له فيها أصلا، كالإحساس. لكنه بما هو إنسان له أفعال لا توجد لغيره من الموجودات. والأفعال الإنسانية الخاصة به ما يكون باختياره . فكل ما يفعله الإنسان باختياره فهو فعل إنساني ، وكل فعل إنساني فهو فعل باختيار ، وأعني بالاختيار : الإرادة الكائنة عن روية » .

أما الانفعالات العقلية - « إن جاز أن يكون في العقل انفعال » فلا يختص بها الإنسان ، بل يشاركه فيها الحيوان : مثل الإلقاء في الروع ، والهرب من مفزع ، وسائر الانفعالات . « والفعل البهيمي هو الذي يتقدمه في النفس الانفعال النفساني فقط ، مثل : التشهي أو الغضب أو الخوف ، وما شاكله ، والإنساني هو ما يتقدمه أمر يوجبه عند فاعله : الفكر ، سواء تقدم الفكر انفعال نفساني أو أعقب الفكر ذلك .. فالبهيمي (هو) المحرك فيه ما يحدث في النفس البهيمية من الانفعال ، والإنساني هو المحرك فيه ما يوجد في النفس من رأي أو اعتقاد ، ومعظم أفعال الإنسان مركبة من : بهيمي وإنساني ، وقلما يوجد البهيمي خلوا من الإنساني. «فأما من يفعل الفعل لأجل الرأي والصواب ، ولا يلتفت إلى النفس البهيمية ولا ما يحدث فيها ، فذلك الإنسان أخلق به أن يكون فعله ذلك إلهيا من أن يكون إنسانيا . فلذلك يجب أن يكون هذا الإنسان فاضلا بالفضائل الشكلية حتى يكون متى قضت النفس الناطقة بشيء لم تخالف النفس البهيمية ، بل قضت بذلك الأمر ، من جهة أن الرأي قضى به .. ولذلك كان الإنسان الإلهي - ضرورة - فاضلا بالفضائل الشكلية » .

والإنسان قد توجد له حالة ، بها يشبه النبات ، وذلك في الزمان الذي يحتوي عليه (فيه) الرحم : فإنه يتخلق أولا ، فإذا كمل تخلقه ، اغتذى ونما . وهذه أفعال توجد للنبات من أول وجوده ، ولا يوجد له غيرها أول وجوده ، وذلك عند النشوء ، والحار الغريزي قد يفعل هذه الأفعال . وإذا خرج الجنين من بطن أمه

واستعمل حسه ، أشبه عند ذلك الحيوان غير الناطق وتحرك في المكان واشتهى . وإنما يكون ذلك لحصول الصورة الروحانية المرتسمة في الحس المشترك ، ثم في الخيال . والصورة المتخيلة هي المحرك الأول فيه ، فيكون عند ذلك في الإنسان ثلاثة محركات كأنها في مرتبة واحدة : القوة الغاذية النزوعية ، والقوة المنمية الحسية ، والقوة الخيالية . وكل هذه القوى هي قوى فاعلة . وهي موجودة بالفعل ، لا عدم فيها : وهذا هو الفرق بين القوى الفاعلة والمنفعلة : فإن في المنفعلة : العدم ، لأن الصورة الروحانية المحسوسة هي مراتب الروحانية - على ما يتبين في كتاب «المتوحد» - لأنها إدراك ، وتلك الصور الأخرى يدرك بها الجسم ولا يدركها . ولذلك لا تنسب إلى النبات معرفة أصلا ، وتنسب إلى الحيوان ، فإن كل حيوان هو حساس .. فالإنسان إذا كان في الرحم وأشبه النبات فإنما يقال له إنه حيوان بالقوة ، وذلك أن روحه الغريزي يقبل الصورة الروحانية ، فهو حيوان بذلك القبول . فأما الروح الغريزي في النبات ، فلا يمكن فيه ذلك .

والإنسان له أحوال مختلفة بحسب مراحل العمل : ففي سن اليفاع يكون حيوانا فقط ، فإنه إنما ينفعل عن النفس البهيمية فقط ، لكن من تنشأ لديه الروية ، فإنه عند ذلك يكون إنسانا بالإطلاق ومكتفيا بنفسه ، ليس به ضرورة إلى من يكفله. وغايات الإنسان ثلاث :

- إما بصورته الجسمانية .
- وإما بصورته الروحانية الخاصة .
- وإما بصورته الروحانية العامة .

فأما الأولى فهي للإنسان من حيث هو جسم ، وأما الثانية فإنها قد توجد أيضا في كثير من الحيوان ، مثل الحياء للأسد ، والعجب للطاووس ، والملق للكلب ، والكرم للديك ، والمكر للثعلب . إلا أن هذه إذا كانت للبهائم ، كانت طبيعية للنوع،

ولم يختص بها شخص من ذلك النوع ، بل إن إدراك شيء من ذلك لواحد منها ، قرن بالنوع . والإنسان وحده هو الذي تكون له هذه الصفات بأشخاصه ، لا بنوعه.

والكمالات الفكرية أحوال خاصة بالصورة الروحانية الإنسانية ، مثل صواب الرأي وجودة المشورة وكثير من القوى التي اختص بها الإنسان : كالخطابة وقيادة الجيوش والطب وتدبير المنزل .

ومن الناس من يراعي صورته الجسمانية فقط وهو الخسيس ، ومنهم من يعاني صورته الروحانية فقط ، وهو الرفيع الشريف . وكما أن أخس (مراتب) الجسماني من لا يحفل بصورته الروحانية عند صورته الجسمانية ولا يلتفت إليها ، كذلك أفضل مراتب الشريف من لا يحفل بصورته الجسمانية ولا يلتفت إليها ..

ومن شرف الأشراف الكبار الأنفس : صنف دون هذا ، وهو الأكثر ، وهو من لا يحفل بصورته الجسمانية عند الروحانية غير أنه لا يتلفها. لكن من يؤثر جسمانيته على شيء من روحانيته فلا يمكن أن يدرك الغاية القصوى . والفيلسوف هو بالجسمانية : إنسان موجود ، وبالروحانية يكون أشرف ، وبالفعلية يكون إلهيا فاضلا. وذو الحكمة يجب - بالضرورة - أن يصبح فاضلا إلهيا ، وهو يأخذ من كل فعل أفضله ، ويشارك كل طبقة في أفضل أحوالهم ، وينفرد عنهم بأفضل الأفعال وأكرمها .

وكثيرا ما يتحدث ابن باجة في رسالته عن « الصورة الروحانية » .

وعنده أن الروح تقال على ما تقال عليه النفس .

« فالنفس والروح اثنان بالقول ، وواحد بالموضوع . والروحاني منسوب إلى الروح .. ويدلون به على الجواهر الساكنة المحركة لسواها ، وهذه - ضرورة - ليست أجساما ، بل هي صور لأجسام ، إذ كل جسم فهو متحرك » .

ويقسم ابن باجة الصور الروحانية إلى أربعة أصناف :

- صور الأجسام المستديرة : وهي الأجرام السماوية التي تتحرك حركة دورية .
- العقل الفعال والعقل المستفاد .
- المعقولات الهيولانية .
- المعاني الموجودة في قوى النفس ، وهي الموجودة في الحس المشترك ، وفي قوة التخيل ، وفي قوة الذكر .

والصنف الأول لا تداخله هيولي ، والصنف الثالث له نسبة إلى الهيولي ، إذ وجودها في الهيولي ، والصنف الثاني هو من حيث الأصل غير هيولاني ، وإنما نسبته إلى الهيولي هي أنه متمم للمعقولات الهيولانية - وهذا هو العقل المستفاد ، أو فاعل لها : وهذا هو العقل الفعال . أما الصنف الرابع فإنه وسط بين المعقولات الهيولانية والصور الروحانية .

والصور الروحانية إما عامة ، وهي التي لها نسبة إلى الإنسان الذي يعقلها ، وإما خاصة ، ولها نسبتان : إحداهما خاصة وهي نسبتها إلى المحسوس ، والأخرى عامة وهي نسبتها إلى الحاس المدرك لها ، مثال ذلك صورة جبل أحد عند من أحسه ، إذا كان غير مشاهد له ، فتلك صورته الروحانية الخاصة ، لأن نسبتها إلى الجبل خاصة . ولا فرق عندنا في قولنا : هذا جبل أحد ونحن نشير إليه في مكانه ويدركه البصر ، أو نشير إليه وهو موجود في الحس المشترك ، أي حين نتخيله دون أن نراه .

ولكل إنسان أجناس من القوى: أولاها القوة الفكرية، والثانية القوة الروحانية الثلاث ، والثالثة القوة الحساسة ، والرابعة القوة المولدة ، والخامسة القوة الغاذية ، وما بعد معها ، والسادسة القوة الاسطقية .

والخامسة والسادسة لا نسبة لهما إلى الحيوان أصلا ، ولهذا فإن البعض يسمون الخامسة : طبيعة . وأما أفعال القوة السادسة فهي بالاضطرار صرفا ، ولا شركة بينها

وبين أفعال الاختيار ، وأما أفعال القوة الخامسة فليست بالاختيار أصلا ، ولا بالاضطرار صرفا ، إذ تختلف عن الاضطرارية يكون المحرك في الجسم ، وإنما يحتاج إلى المتحرك وهو المادة ، التي هي الغذاء ، أما الرابعة فهي أقرب إلى أفعال القوة الخامسة ، غير أنها أقرب إلى الاضطرار وهو اللمس . وأما القوة الثانية فلها أفعال وانفعال . فأما الانفعالات الحاصلة عنها فمجراها الحس ، وأما الأفعال الكائنة عنها فهي اختيارية ، إذا كانت إنسانية ، وأما إذا كانت بهيمية ، فهي بالاضطرار . وأما القوة الأولى وهي القوة الفكرية ، فإن التصديق والتصور فيها بالاضطرار ، ولو كانا باختيار صدقنا بها يسوؤنا .

والصور الروحانية منها ما لها حال ، ومنها ما لا حال له . أما التي لا حال لها فهي التي تحصل مجردة أو تكون من الأنواع الموجودة كثيرا وعلى المجرى المعتاد .

كذلك يرى ابن باجة أن محرك النفس هو الانفعال الحاصل في الجزء النزوعي . وذلك يكون بالخيار ، وبها يسميه ابن باجة بـ «الإجماع» وهو يساوي ما نسميه الآن : العزم والتصميم – من أجمع أمره ، أي : صمم عليه . « فالمحرك الأول الذي فينا مؤلف من خيال ونزوع . والنزوعي يعبر عنه بالنفس . ولذلك أقول : «نازعتني نفسي » ... والخيال هو المحرك . والمتحرك هو الجزء النزوعي .

ويقول في موضع آخر : «إن المحرك الأول مؤلف من أمرين : أحدهما هو المحرك ، وهو الرأي أو الخيال ، والآخر الذي به يحرك وهو النزوع ... لكن نسبة الرأي إلى النزع نسبة المحرك إلى الآلة التي بها يحرك» ، أي : أن الرأي هو المحرك ، والنزوع هو الآلة التي يتم بها تحريك النفس بواسطة الرأي .

والمقصود بالرأي هنا : الرأي الصواب .

وعن اللذات يقول ابن باجة : إن اللذات أنواع: فأولاها لذات الشهوات البدنية، والثانية اللذات التي تنال عن الفضائل الشكلية .

واللذة تكون متصلة على ثلاثة أنحاء :

- إذا كانت واحدة بالعدد .
- إذا كان موضوعها موجودا باستمرار .
- إذا كان الفاعل لها موجودا باستمرار .

ويقسم ابن باجة اللذات تقسيما ثنائيا بعبارة أخرى إلى : لذات طبيعية ، وهي لذة الملموسات كالالتذاذ بالحار والبارد والمحيطين بنا ، وبما يدخل أجسامنا كالمأكولات والمشروبات . ولذات عقلية ، مثل الالتذاذ بالعلوم ، وبالتخيل ، وهذه تختلف عن الأولى بأن الأولى تتقدم أصنافها أضدادها ، وأما الثانية فليس ذلك فيها، وقولي : تتقدم أصنافها أضدادها مثل : أن الجوع يتقدم لذة الأكل ، والعطش يتقدم لذة الشرب ، « فأما العلو فلا يمكن ذلك فيها ، لأنها يقين ، فزوالها إنما يكون بزوال حال الموضوع كالنسيان ، وتعري الموضوع عنها ، وإلا فلا يمكن ذلك فيها ، لأنها كليات فليست في زمان ، ولأن العلم بها يقين ، فلا يمكن أن يستحيل بعناد . وإنما يعدم بزوال الموضوع ، وهو الإنسان ، أو بتعريه عنها وهو النسيان .. ولكن تبين أن العلم الأقصى - الذي هو تصور العقل ، وهو وجود العقل المستفاد لا يمكن فيه النسيان ، اللهم إلا أن يكون ذلك عن الطبع » .

ويميز ابن باجة ثلاثة أصناف من الناس من حيث المعرفة العقلية ، وهي :

أولا : « المرتبة الجمهورية » على حد تعبيره ، « وهي المرتبة الطبيعية » . وهؤلاء إنما لهم المعقول مرتبطا بالصور الهيولانية ، ولا يعلمونه إلا بها وعنها ومنها ولها . ويدخل في هذه جميع الصنائع العملية .

وثانيا : المعرفة النظرية ، وهي ذروة الطبيعة ، إلا أن الجمهور ينظرون إلى الموضوعات أولا ، وإلى المعقول ثانيا ولأجل الموضوعات . والنظار الطبيعيون ينظرون إلى المعقول أولا ، وإلى الموضوعات ثانيا ... فهذه المرتبة النظرية يرى

صاحبها المعقول ولكن بواسطة ، كما تظهر الشمس في الماء : فإن المرئي في الماء هو خيالها ، لا هي بنفسها . والجمهور يرون خيال خياله ، مثل أن تلقي الشمس خيالها على ماء ، وينعكس ذلك إلى مرآة وترى في المرآة .

وثالثا : مرتبة السعداء الذين يرون الشيء بنفسه .

ثم يسوق ابن باجة أسطورة الكهف المشهورة الواردة في كتاب «السياسة» لأفلاطون فيقول :

«فحال الجمهور من المعقولات تشبه أحوال المبصرين في مغارة لا تطلع عليهم الشمس فيرونها ، بل يرون الألوان كلها في الظل . فمن كان في فضاء المغارة رأى في حال شبيهة بحال الظل ، ولما يبصروا قط ذلك الضوء . فلذلك كما أنه لا وجود للضوء مجردا عن الألوان عند أهل المغارة ، كذلك لا وجود لذلك العقل عند الجمهور ولا يشعرون به».

وأما النظريون : فينزلون منزلة من خرج من المغارة إلى البراح ، فلمح الضوء مجردا عن الألوان ، ورأى جميع الألوان على كنهها .

وأما السعداء : فليس لهم في الإبصار شبيه ، إذ يصيرون هم الشيء . فلو استحال البصر فصار ضوءا ، لكان عند ذلك ينزل منزلة السعداء .

وأما الألغاز عن حال السعداء بحال من نظر إلى الشمس بعينها ، فذلك الألغاز لا يناسب الألغاز عن حال الجمهور ، بل الألغاز عن حال الجمهور أشد مناسبة ومقاربة من هذه .

ثم يشير ابن باجة إلى نظرية الصور (المثل) الأفلاطونية ، فقال : « إن الصور معان مجردة عن المادة ، يلحقها الذهن كما يلحق الحس صور المحسوسات، حتى يكون الذهن كالقوة الحساسة للصور ، أو كالقوة الناطقة للمتخيلات . فيلزم عن

ذلك أن تكون المعاني المعقولة من تلك الصور أبسط من تلك الصور ، فيكون هنا ثلاثة : المعاني المحسوسة ، والصور ، ومعاني الصور» . ويقصد بالمعاني المحسوسة: المدركات الحسية ، أو الامتثالات الناشئة عن معطيات الحس ، ويقصد بالصور : الكليات في الأذهان . وربما يقصد بمعاني الصور : الصور في عالم المثل ، وإن كان كلامه هنا غير واضح .

ويرد على أرسطو في نقده لنظرية الصور (المثل) الأفلاطونية فيقول : إن نقد أرسطو الوارد في كتاب (ما بعد الطبيعة) يصح لو كان المقصود من القول بالصور أنها تفعل فعل الكائنات التى هى صور لها بأن نقول : إن صورة النار تفعل فعل النار فتحرق ، إذ لو كان الأمر كذلك للزمت المحالات التي ذكرها أرسطو .

وإنما المقصود بالصور أنها : معان مجردة عن المادة ، ولا تفعل فعل الأشياء التى هى في مادة ، والصور بهذا المعنى حقيقة ، «واحدة ، سابقة ، غير بالية ولا فاسدة » .

ولا يتوسع ابن باجة في الكلام عن السعداء ، أهل المرتبة الثالثة ، الذين يرون الأشياء ذاتها كما لو كانوا يرون الشمس نفسها ، بل يحيل إلى رجاء أن يثبت ذلك «مفسرا مبينا » لكن لم يصلنا شيء في هذا الباب ، إن كان قد أنجز وعده هذا .

وهنا نصل إلى الجانب السياسى في فلسفة ابن باجة . فنراه يستعمل عبارة «المدينة الكاملة » بدلا من «المدينة الفاضلة « التى استعملها الفارابي ، لكنه يظل مع ذلك في إطار آراء الفارابي ، التى ترجع بدورها إلى آراء أفلاطون ، ويتحدث عن نظم الحكم الأربعة ، أو السير الأربع على حد تعبيره .

ويشير ابن باجة في هذا إلى أفلاطون صراحة ، من حيث دراسة تدبير المدينة أو سياسة الدولة ، فيقول : « فأما تدبير المدن فقد بين أمره أفلاطون في «السياسة المدنية» وبين ما معنى الصواب منه ، ومن أين يلحقه الخطأ . وتكلف القول فيما قد قيل فيه » .

والمدينة الفاضلة « أفعالها كلها صواب » فإن هذه خاصتها التي تلزمها . ولذلك لا يتغذى أهلها بالأغذية الضارة ، ولذلك لا يحتاجون إلى معرفة أدوية للاختناق بالفطر ولا غيره مما جانسه ، ولا يحتاجون إلى معرفة مداواة الخمر ، إذ كان ليس هناك أمر غير منتظم . وكذلك إذا أسقطوا الرياضة ، حدثت عن ذلك أمراض كثيرة . وبين أن ذلك ليس لها ، وعسى أن لا يحتاج منها إلى أكثر من مداواة الخلع وما جانسه ، **وبالجملة** : الأمراض التي أسبابها الجزئية واردة من خارج ولا يستطيع البدن الحسن الصحة أن ينهض بنفسه في دفعها ... فمن خواص المدينة الكاملة أن لا يكون فيها طبيب ولا قاض . ومن اللواحق العامة للمدن الأربع البسيطة أن يفتقر فيها إلى طبيب وقاض ، وكلما بعدت المدينة عن الكاملة ، كان الافتقار فيها إلى هذين أكثر ، وكان فيها مرتبة هذين الصنفين من الناس أشرف .

وبين ابن باجة أن «المدينة الفاضلة الكاملة قد أعطي فيها كل إنسان أفضل ما هو معد نحوه ، وأن آراءها كلها صادقة ، وأنه لا رأي كاذب فيها ، وأن أعمالها هي الفاضلة بالإطلاق وحدها ، وأن كل عمل غيره ، فإن كان فاضلا فبالإضافة إلى فساد موجود » .

* * *

يوسف بن تاشفين

أحد ملوك المرابطين في المغرب ، الذي أسس مدينة مراكش ، والذي يعتبر من مجددي القرن الخامس الهجري ، لميله الشديد لجمع كلمة المسلمين بعد فرقتها بسبب الخلافات بين السنة والشيعة ، أو بين الأمويين والعلويين أو حتى بين العلويين والعباسيين ، على الرغم من أنهم أبناء عمومة ، وانتقلت هذه الصراعات من المشرق العربي للدولة الإسلامية إلى المغرب العربي إلى الأندلس التى كان يحكمها ملوك الطوائف الذين تسببوا في تفرقة المسلمين وانقسامهم ، مما أعطى الفرصة للأسبان إلى العدوان على المسلمين بسبب ما وصل إليه المسلمون من الضعف والانقسام والخلافات.

يوسف بن تاشفين كانت لديه طموحات وآمال ، كلها تتركز في استعادة قوة المسلمين في الأندلس وذلك : بجمع كلمتهم ، ومواجهة الذين يعتدون عليهم من الأسبان المسيحيين ، في هذا السياق كان يهتم بتوحيد كلمة المسلمين ، كان - وهو الأموي - يدعو للملوك العباسيين من فوق المنابر ، وكان يتبع مثلهم مذهب أهل السنة وغير ذلك من مواقف تجعل هذا الحاكم العربي يدخل ضمن الدعوة إلى التجديد كما يقرر الأستاذ الصعيدي . أما كيف تحقق له ذلك ؟ فإن هذا يتطلب التعرف أولا على شخصية يوسف بن تاشفين ، ودولة المرابطين التى كان يحكمها ، وأسباب الحرب بينه وبين ألفونسو السادس ملك قشتالة وغير ذلك من إنجازات جعلته ضمن المجددين لهذا القرن .

أما عن شخصيته : فقد ولد في دولة المرابطين عام 400 هـ ، وينتهي نسبه إلى أصول عربية ، وبالتحديد إلى بنى أمية ، وقد أظهر كفاءة جعلت الملك أبا بكر اللمتوني مؤسس دولة المرابطين يختاره ليكون قائدا لجيش المرابطين الزاحف لغزو

بعض القبائل المغربية المتمردة ، وقد حقق انتصارات عظيمة ، مما أسبغ عليه صفات الشجاعة والبطولة والحزم ، حيث ينأى عن إرهاق رعيته بالمغارم المحرمة ، ولم يفرض إلا ما يجيزه الشرع من زكاة وجزية .

وقد حكم يوسف بن تاشفين أعظم إمبراطورية إسلامية قامت في الغرب الإسلامي ، فهو فضلا عن إنشاء الإمبراطورية المغربية الكبرى ، وإنشاء مدينة مراكش . هذه الإمبراطورية كانت ممتدة من تونس والمحيط إلى حدود السودان ، والاستيلاء على بعض المناطق التي كانت خاضعة للأسبان ، وذلك بعد انتصاره على جيوشهم في معركة الزلاقة ، والاستيلاء على ممالك الطوائف الأندلسية ، حيث وقف على ضعف ملوكها . فألحقها بإمبراطوريته ، وبسط سيادة الدولة المرابطية المغربية على إسبانيا المسلمة .

وكان يوسف بن تاشفين في بداية أمره يلقب بالأمير ، فلما دانت له المغرب وإسبانيا المسلمة ، وترامت حدود مملكته ، اتخذ لقب : أمير المسلمين ، بعد أن استأذن الخليفة المستظهر بالله العباسي .

وأما قصة المعركة التي دارت بين المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين ، والفرنجة بقيادة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، فقد حدثت بعد أن استنجد المسلمون في الأندلس به حتى يوقف عدوان الفرنجة عليهم . وقد جرد لذلك جيشا اتجه به إلى الأندلس ، وهناك كانت مواجهات بينه وبين ألفونسو السادس وجيشه ، وكان النصر للمسلمين في معركة الزلاقة .

والحق .. أن يوم معركة الزلاقة ، كان من أيام الإسلام المشهودة في انتصاره على المسيحية الشمالية في أوروبا . فمن الواضح أن لقاء الفريقين في سهول الزلاقة بالأندلس ، إنما هو صفحة من صفحات سيرة الحروب الصليبية التي كانت إسبانيا أول مهاد لها ، والتي اضطرمت بعد ذلك بقليل في المشرق العربي . إن هذه المعركة

كانت تعني في الواقع أكثر من هزيمة لملك قشتالة ألفونس السادس ، وأكثر من ظفر لجيش المرابطين . ذلك لأن فورة المرابطين الدينية التي اجتاحت قبل ذلك قرى وبوادي ومدن المغرب ، ثم عبرت البحر إلى إسبانيا لنصرة المسلمين هناك . وفي الأمرين معا كانت الجيوش المسلمة بقيادة يوسف بن تاشفين .. الأمر الذي أوقف تقدم الفرنجة إلى بقية المناطق الإسلامية ، والأمر نفسه كان يستشعره الفرنجة بأن قوة المسلمين في إسبانيا الإسلامية تشكل خطرا على إسبانيا المسيحية بل وأوروبا كلها . وهذا ما وضح عقب معركة الزلاقة حيث شعر ألفونسو السادس ملك قشتالة بأن ذلك التحالف بين المرابطين ملوك الطوائف والمسلمين في إسبانيا ، يوشك أن يقضي على إسبانيا المسيحية . ومن هنا بدأ يبعث برسله إلى ملوك أوروبا يهيب بهم ويحذرهم من خطر المسلمين الداهم ، ويعلمهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون والمساعدة ، فإنه سوف يعقد الصلح مع يوسف بن تاشفين والمسلمين مضطرا ، وسوف يتركه يتوغل من إسبانيا إلى غيرها من البلاد الأوروبية .. وقد وجدت صيحة ألفونسو صداها في فرنسا ، وفي مختلف الإمارات الفرنجية التي حولها . وهنا سارعوا إلى نجدته ، في الوقت الذي بدأ يوسف بن تاشفين في التحرك إلى المغرب ، بالطبع بعد أن استولى على الجزء الإسلامي الذي كان يحكمه ملوك الطوائف حين استشعر ضعفهم ، وأنهم بهذا الضعف سوف يتسببون في انتصار الفرنجة على المسلمين ، وضم هذا الجزء إلى إمبراطوريته .

ولا شك أن انتصار المسلمين على الفرنجة في معركة الزلاقة كان له العديد من النتائج العملية التي كان منها : أن عادت إلى إسبانيا المسلمة روح الثقة والأمل ، وأخذت قواها المتخاذلة في الانتعاش والنهوض ، وعادت إلى الشعب الأندلسي المسلم روح الحماسة الدينية التي كادت أن تنمحي بضعف أمراء الطوائف ، وتراميهم على أعتاب ملوك الفرنجة ، وتخلص هؤلاء الأمراء من ذلك الخزي الذي لحقهم بالخضوع لملك قشتالة .

هذه النتائج الخاصة ، لا تعد شيئا إذا قيست بالنتائج العامة البعيدة المدى ، تلك التي ترتبت على هذا النصر . ففي سهول الزلاقة وأراضيها ارتد وتراجع سيل قوات الفرنجة المسيحية الجارف عن اقتحام الأندلس المسلمة ، بعد أن كانت هذه القوات تنذرها بالمحو والفناء . وغنم أتباع الإسلام حياة جديدة في إسبانيا امتدت إلى أربعة قرون أخرى ومهدت السبل إلى سيطرة المرابطين على إسبانيا المسلمة ، ومن بعدهم الموحدون وجعلت الأندلس كما لو كانت ولاية مغربية زهاء مائة وخمسين عاما ، بعد أن كانت الحياة في إسبانيا المسلمة لم تكن سوى صراع دائم مع إسبانيا المسيحية .. بل واستطاعت أن تتابع نشاطها المنتج ، وتقدمها الحضاري .

وكل ذلك .. كان بفضل إقدام وشجاعة يوسف بن تاشفين ، وتلبيته لنداء النجدة من إخوته المسلمين في إسبانيا ، واستطاع بجيشه الذي انتقل من المغرب إلى إسبانيا أن يتفوق على جيش قوامه ثمانون ألف فارس ، ومائتا ألف من المشاة ، وهو ما جعل ألفونسو ورجاله يعترفون بأن المعركة كانت هائلة ، وخسائرهم كانت فادحة .

ولهذا .. ولما تتسم به شخصية يوسف بن تاشفين من العدل والإنصاف ، والتقشف والزهد ، والتفاني لنصرة الإسلام ، والحماسة لإعلاء كلمته اعتبره العلماء والمؤرخون واحدا من مجددي القرن الخامس الهجري .



ختـــام

وبعد ، فهذا هو **الجزء الأول** (من موسوعة أعلام المجددين في الإسـلام) ، مـن القرن الأول الهجري حتى القرن الخامس الهجري ، وما تـضمنه - كـما رأينـا - مـن أعمال واجتهادات ، كلها كانت لخدمة الإسلام وأبنائه في أكثـر مـن مجـال ؛ حيـث لم يقتصر على الجانب الديني فحسب، وإنما تجاوزه إلى غيره من الجوانـب الحياتيـة عـلى اعتبار أن الإسلام دين وحياة .

والسؤال : هل استطاعت هذه الصفحات المخصصة لكل مجدد أن تغطـي كـل ما قدمه هذا المجدد للإسلام ؟ هل استطاعت هذه الـصفحات أن تلـم بكـل الآثـار الفكرية لهؤلاء المجددين ؟ بالقطع لا . فهنـاك مـن المجـددين في هـذا الجـزء الـذي غطت أعماله وأحـداث حـياتـه عـددا من المجـلدات بأكملها ، والمثل : واحـد مـن الخلفاء الراشدين أو واحد من الفلاسفة والمفكرين ، أو واحد من العلـماء . ولهـذا ، قلنا من قبل : إن الصفحات التي خصصناها لكـل مجـدد لا تـزعم لنفـسها أنهـا قـد أوفت على الغاية ، أو شارفت على الغرض .. إنها مجرد إشارة أو إيـماءة إلى مـا قدمـه كل مجدد لا أكثر ولا أقل .

إن غاية ما نطمح إليه : أن تشير هذه الصفحات ولـو مـن بعيـد إلى مـا أحدثـه هؤلاء المجددون من مناقشات وتـساؤلات وقـضايا وأفكـار ، أن تقـدم الإجابـات لبعض ما يشغل الإنسان المسلم مـن قـضايا ومـا يواجهـه مـن تحديات ، أن تقـدم الصورة الحقيقية للإسلام التي تدحض أباطيل خصومه ، أن تقـدم القيمـة والقـدوة

والمثل والمبدأ لأبناء هذا الدين، أن تثبت للعالمين أن هذا الدين قد صنع بقيمه ومبادئه حضارة عربية إسلامية نبيلة ومتماسكة ، تقوم على العدل والإنصاف والحق ...

ولهـذا أقـول : إن هذه الصفـحات التي اهتمت بهؤلاء الأعـلام المجـددين في هذا الجزء الأول لا تزعم لنفسها أنها غطت كل ما يتعلق بها .. إذ كيف يكون ذلـك وتجديدهم في الإسلام كان غزيرا كالضوء المنتشر ، ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمـة عظمة من كتبت عنهم ، واهتمت بهم من المجددين .

حسبها أن تقول : إن هذا الجهد الذي أسـعفه توفيـق مـن الله وفـضله .. لـيس سوى إشارة إلى ما قدمه هؤلاء الرجال مـن تجديـد حافـل بالنظريـات والمناقـشات والتساؤلات والأفكار .

* * *

سامح كريم

القاهرة الجديدة ـ 2008

المراجــع

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية
- الإصابة في تمييز الصحابة — لابن حجر
- السيرة النبوية — لابن هشام
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب — للسخاوي
- بدائع الزهور في وقائع الدهور — لابن إياس
- الممالك والمسالك — لابن حوقل
- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة — لابن تغري بردي
- تاريخ الرسل والملوك — لابن جرير الطبري
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة — لابن حجر
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة — لابن الزيات
- الطبقات — لابن سعد
- فتوح مصر وأخبارها — لابن عبد الحكم
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب — لابن العماد
- العقد الفريد — لابن عبد البر
- تاريخ المسلمين — لابن العميد
- عيون الأخبار — لابن قتيبة
- البداية والنهاية — لابن كثير
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمري
- الأغانى — للأصفهاني
- السنن الكبرى — للبيهقي

- إغاثة الأمة بكشف الغمة — للمقريزي
- الخطط والآثار — للمقريزي
- السلوك لمعرفة دول الملوك — للمقريزي
- الطبقات الكبرى — للشعرانى
- الطبقات الصغرى — للشعرانى
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية — للمناوي
- مروج الذهب — للمسعودي
- مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع — لياقوت الحموي
- البلدان — لليعقوبى
- رسائل بين الإمامين: مالك والليث بن سعد — لأحمد كمال أبو المجد
- أبو الحسن الأشعري — دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- تاريخ الخلفاء — لجلال الدين السيوطى
- حسن المحاضرة — لجلال الدين السيوطي
- الشفاء — لابن سينا
- القانون — لابن سينا
- الكتاب الذهبي - إعداد جامعة الدول العربية عام ١٩٥٢ عن ابن سينا
- المنقذ من الضلال — لحجة الإسلام: أبو حامد الغزالى
- تهافت الفلاسفة — لحجة الإسلام: أبو حامد الغزالي
- تهافت التهافت — لابن رشد
- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال — لابن رشد
- طوق الحمامة — لابن حزم
- نزهة المشتاق — للشريف الإدريسي

- الموسوعة الجغرافية — للشريف الإدريسى
- روض الأنس ونزهة النفس — للشريف الإدريسى
- الفتوحات المكية — لمحيى الدين بن عربى
- نصوص الحكم — لمحيى الدين بن عربى
- المقدمة — لعبد الرحمن بن خلدون
- العبر ، وديوان المبتدأ والخبر — لعبد الرحمن بن خلدون
- صبح الأعشى — للقلقشندي
- الإنصاف في بيان أسباب الخلاف — للدهلري
- الرسائل — للدهلري
- شرح أبواب صحيح البخاري — للدهلري
- التفهمات الإلهية — للدهلري
- القول الجميل في بيان سواء السبيل — للدهلري
- السيل الجرار على حدائق الأزهار — للشوكانى
- القول المفيد في حكم التقليد — للشوكانى
- المسند — لأحمد بن حنبل
- المأمون : عالم من العلماء وأديب مع الأدباء — لجمال الدين سرور
- الفهرست — لابن النديم
- ابن سينا : فيلسوف لا ينسى — لجور وانو
- مؤلفات ابن تيمية
- مشكاة الأنوار — لحجة الإسلام: أبو حامد الغزالي
- الكشف في مناهج الأدلة في عقائد الملة — لابن رشد
- الفصل في الملل والأهواء والنحل — لابن حزم
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس — لابن حزم
- مناجاة — لمحيي الدين بن عربي

- المدينة الفاضلة — لأبي نصر الفارابي
- تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن — للقرطبى
- وفيات الأعيان — لابن خلكان
- الآثار الباقية عن القرون الخالية — للبيرونى
- الهند — للبيرونى
- الصيادلة — للبيرونى
- لسان العرب — لابن منظور
- نهاية الأرب — للوطواط
- الموطأ — للإمام مالك
- تاج العروس — للزبيدي
- الأم — للإمام الشافعي
- إسلاميات .. محمد حسين هيكل — لسامح كريم
- شرح موطأ ابن مالك — للشيبانى
- رحلات ابن بطوطة — تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي
- الموافقات — للشاطبى الغرناطى
- الاعتصام — للشاطبى الغرناطي
- إسلاميات طه حسين — لسامح كريم
- إسلاميات العقاد — لسامح كريم
- إسلاميات أحمد أمين — لسامح كريم
- محمد الرسول البشر — لتوفيق الحكيم
- المجددون في الإسلام — لعبد المتعال الصعيدي
- فلاسفة الإسلام — للدكتور سعد عبد العزيز
- المؤلفات الإسلامية — لعبد الرحمن الشرقاوي

- محمد رسول الله والذين معه — لعبد الحميد جودة السحار
- حوار لا مواجهة — للدكتور أحمد كمال أبو المجد
- فلاسفة العرب — للدكتور محمد لطفى جمعة
- قادة الفكر الإسلامي — للدكتور راشد البراوي
- الفلسفة الإسلامية — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- الفلسفة المسيحية — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- إسلاميات توفيق الحكيم — لسامح كريم
- الكافية في النحو — لابن الحاجب
- الإمام عبد الحليم محمود — لمحمد شلبى
- ثلاثة حكماء مسلمين — للدكتور سيد حسين نصر
- مفكرو الإسلام — لكارادوفو
- أعلام الإسكندرية — للدكتور جمال الدين الشيال
- السحار والفكر الإسلامي — لمأمون غريب
- جمال الدين الأفغانى — لعبد الرحمن الرافعى
- عبقري الإصلاح والتعليم : محمد عبده — لعباس محمود العقاد
- أم القرى — لعبد الرحمن الكواكبى
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد — لعبد الرحمن الكواكبي
- الأعمال الكاملة للكواكبي — تحقيق د. محمد عمارة
- الرحالة ك — لعباس محمود العقاد
- الإسلام والحضارة العربية — لمحمد كرد على
- الإسلام وأصول الحكم — لعلى عبد الرازق
- أيام لها تاريخ — لأحمد بهاء الدين
- الإسلام والخلافة في العصر الحديث — للدكتور محمد ضياء الدين الريس

- من هنا نبدأ — لخالد محمد خالد
- رجال حول الرسول — لخالد محمد خالد
- أفكار في القمة — لخالد محمد خالد
- حديث رمضان — للإمام مصطفى المراغى
- محاضرات في الفلسفة الإسلامية — للشيخ مصطفى عبد الرازق
- الفكر الإسلامى — للدكتور إبراهيم بيومى مدكور
- الفلسفة الإسلامية — للدكتور إبراهيم بيومى مدكور
- الإسلام في شبه القارة الهندية — الدكتور عبد المنعم النمر
- مالك بن أنس — لأمين الخولى
- المجددون في الإسلام (الجزء الأول) — لأمين الخولى
- تقديم كتاب ذي القرنين لأبي الكلام آزاد — لأحمد حسن الباقوري
- أبو الكلام آزاد — للدكتور عبد المنعم النمر
- كتابات العبادي التاريخية — للدكتور جمال الدين الشيال
- ابن بطوطة — للدكتور محمد مصطفى زيادة
- معانى القرآن بين الرواية والدراية — لأحمد حسن الباقوري
- قطوف من أدب النبوة — لأحمد حسن الباقورى
- من أعلام العصر : كيف عرفت هؤلاء ؟ — للدكتور محمد رجب البيومى
- مواقف الغزالى من قضية تخلف المسلمين — للباحث إبراهيم طلبة حسين
- الخصائص الفنية لمقالات الشيخ الغزالي — للباحث خالد كمال
- الشيخ الغزالي : شاهد على العصر — للباحث الدكتور محمد مورو
- من هنا نعلم — لمحمد الغزالى
- أعمال ومواقف الغزالي — دراسة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
- أجزاء معجزة القرآن — للشيخ محمد متولي الشعراوي

- مصريون معاصرون — للدكتور محمد الجوادي
- الشعراوي مفكرا — لمحمود مهدي
- عمر بن عبد العزيز — دراسة للدكتور وليد قمحاوي
- الخطط التوفيقية — لعلى مبارك
- أدب مصر الفاطمية — للدكتور محمد كامل حسين
- الطرق الصوفية في مصر — للدكتور عامر النجار
- الحركة الصوفية في الإسلام — للدكتور محمد علي أبو ريان
- الأعلام — للزركلى
- عظماء الإسلام — لحسن النشار
- محمد عبده — للدكتور عثمان أمين
- الفلسفة الأخلاقية في القرآن — للدكتور محمد عبد الله دراز
- المدخل إلى القرآن الكريم .. عـرض تحليلي مقارن — للدكتور محمد عبد الله دراز
- دراسات إسلامية — للدكتور محمد عبد الله دراز
- مؤلفات « أبو الأعلى المودودي »
- مؤلفات « أبو الحسن الندوي »
- مؤلفات « وحيد الدين خان »
- تاج العروس — للزبيدي
- تجريد العقائد — لنصير الدين الطوسي
- الشامل في الطب — لابن النفيس
- رسالة في الأعضاء — للدكتور يوسف زيدان
- الحكم — لابن عطاء الله السكندري
- الأبناء العظام — لرأفت الخياط
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء — لابن أبي أصيبعة

- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب — لعبد القادر البغدادي
- إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأتباع — للمقريزي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب — للقلقشندي
- محمد رسول الله والذين معه — لعبد الحميد جودة السحار
- التيار الإسلامي في قصص السحار — للدكتور صفوت يوسف زيد
- أحمد بن حنبل — دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- الإبانة — لأبي الحسن الأشعري
- اللمع — لأبي الحسن الأشعري
- مصطفى عبد الرازق — دراسة للدكتور عثمان أمين
- مساجد مصر — للدكتورة سعاد ماهر
- حول التجديد في الفكر الإسلامي — مقال بالمصور للدكتور عبد المعطي بيومي
- دائرة المعارف الإسلامية المترجمة
- الموسوعة العربية الميسرة
- الشريف الإدريسى — دراسة لمحمد عبد الله عنان
- مقالات التجديد في الإسلام من عام ١٩٨٧ حتى عام ٢٠٠٦ بالأهرام — لسامح كريم
- دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدي
- مناهج تجديد — لأمين الخولى
- مع النبى في رمضان — لسامح كريم
- قمم وأفكار إسلامية — لسامح كريم
- أعلام في التاريخ الإسلامى في مصر — لسامح كريم
- أعداد من مجلة العربي الكويتية

- أعداد من مجلة تراث الإنسانية
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم لأنور الجندي
- الشيخ المراغى بأقلام الكتاب إعداد أبو الوفا المراغي
- فجر الإسلام لأحمد أمين
- قادة الفكر الإسلامى لعبد الله بن سعد الرويشد
- شخصيات صوفية من صعيد مصر في العصر الإسلامى
- الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد
- البغية للسيوطى
- حسن المحاضرة للسيوطى
- تاريخ الخلفاء للسيوطى
- معجم البلدان لياقوت الحموي
- نثار الأزهار لابن منظور
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن الأثير
- الكامل للمبرد
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام للذهبى تحقيق محمد محمود حمدان
- الكبائر للذهبى تحقيق محمد محمود حمدان
- عصر محمد على لعبد الرحمن الرافعى
- مخطوط للدكتوراه عن: محب الدين الخطيب للدكتورة سهيلة الرعاوي
- الطهطاوي قبل قاسم أمين في الكتابة عن تحرير المرأة بحث للدكتور محمد محمود الدش
- الأوزاعى إمام أهل الشام بحث للدكتور زهدي يكن
- ابن طفيل بحث لمحمد عبد الله عنان

◘ الإمام مسلم	بحث للشيخ محمد أبو زهرة
◘ الطبري	بحث لمحمد خليفة التونسى
◘ القزويني	بحث للدكتور عبد الحليم منتصر
◘ الماتريدي	بحث للدكتور فتح الله خليف
◘ توجيهات الشيخ شلتوت	للإمام محمود شلتوت
◘ مذكرات القرضاوي	لبدر محمد بدر

❊ ❊ ❊



موسوعة أعلام

المجددين في الإسلام

من القرن السادس حتى القرن الثاني عشر للهجرة

سامح كريم

الجزء الثاني

عالم الفكر المعاصر

تقديم

يقصد بكلمة موسوعة : كل عمل يجمع بين دفتيه مجموعة من الحقائق ، تدخل في دائرة العلم الإنساني ، وهي إما أن تكون : معلومات عامة مختصرة في جميع ميادين المعرفة ، أو كما يقال : من كل بستان زهرة ، وإما أنها تشتمل على فرع بعينه من فروع المعرفة ؛ فتعمقه ، وتقدم فيه موضوعات تصلح مراجع للباحثين في هذا الفرع، أو غيره من المعارف .

وعلى ذلك .. فالموسوعة تختلف عن القاموس في أنها لا تقتصر على تقديم التعريف فقط (مثل القاموس) وإنما تقدم تأريخا للموضوع ، وتوضيحا لعلله ، وتبيانا لعلاقاته بالموضوعات الأخرى المتشابهة ، كذلك تختلف الموسوعة عن التقديم أو عن الكتاب السنوي ؛ لأن هذين الشكلين لا يشتملان إلا على الأحداث التي وقعت حديثا . هذا إلى جانب أن كلا من التقديم والكتاب السنوي يصدران على فترات متتالية ، بخلاف الموسوعة التي تشتمل على أحداث ومعلومات ووقائع وحقائق تقع في أزمنة طويلة ، بالإضافة إلى أنها تصدر كوحدة متكاملة تعالج موضوعا واحدا بعينه ، كما نرى في هذا الجزء الثاني ، أو السابق، أو الجزء اللاحق من موسوعة : (أعلام المجددين في الإسلام) ، في أنها تشتمل على موضوعات تدور حول التأريخ لهؤلاء المجددين من القرن الأول الهجري في الإسلام حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري.

وقد تقترب الموسوعة في إعدادها وكتابتها من دائرة المعارف ، حتى يكاد أن يكون معناهما واحدا . ولذلك .. هناك من المهتمين بالعمل الموسوعي الذي لا يفرق بين العملين ، ويراهما واحدا حين يتحدث عن أحدهما أو عنهما معا .

وقد عرفت الثقافة العربية العمل الموسوعي ، أو قل : دوائر المعارف .وقد ظهر ذلك في القرن الرابع الهجري وامتداده في القرن الخامس الهجري ، حين قدم إخوان الصفا ما يمكن أن يقال عنه : موسوعة ، أو دائرة معارف كما سنرى بعد قليل . وفي الفترة نفسها أو قبلها قدم «أبو نصر الفارابي» موسوعة أسماها : «إحصاء العلوم» كانت آية في عمقها ودقتها .

وفي العصور الوسطى .. تمت بعد ذلك محاولات عربية متعددة يتقدمها موسوعة العلامة «النويري» واسمها : (نهاية الأرب في فنون الأدب) كانت في ثلاثين جزءا ، رتبها في خمسة فنون : الأول في : السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلي ، والثاني في : الإنسان وما يتعلق به ، والثالث في : الحيوان وما يشتمل عليه ، والرابع في : النبات ، وذيله بأنواع الطب ، والخامس في : التواريخ .. وكذلك موسوعة : (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) «لعبد القادر البغدادي» ... وغيرها من الأعمال الموسوعية التي اهتمت بتجميع المعارف والعلوم والآداب .

هذا .. وقد تطور العمل الموسوعي بوجه عام تطورا بطيئا حين اعتمد على الترتيب الأبجدي ، حتى لم يصل هذا العمل إلى مثال يحتذى به ، حتى عام 1704 ميلادية حين نشر «جون هاريس» المعجم الفني ، وبعده بربع قرن تقريبا نشر «إبهريم تشامبرز» موسوعة كانت مرتبة ترتيبا أبجديا ، وتتميز بأنها عمل اشترك فيه عدد من المؤلفين ، وبأنها تستخدم العلامات المرقومة أو الدالة على الإحالة ، إلى أن ظهرت الطبعة الأولى من (دائرة المعارف البريطانية) في ثلاثة مجلدات ، كانت تجمع بين ترتيب المواد ترتيبا أبجديا ، وترتيبها حسب النظام العلمي . بعد ذلك ، توسع هذا

العمل في (دائرة المعارف البريطانية) حيث حوت الكثير من التراجم والموضوعات ، ومازالت طبعاتها تتوالى ، ومجلداتها تزيد في كل طبعة ، حتى وصلت إلى عشرات المجلدات التي يرجع إليها كل باحث عن المعارف في كل بلاد العالم . وتبع دائرة المعارف البريطانية، كل من : دائرة المعارف الفرنسية التي اشترك في تأليفها عدد من المؤلفين والفلاسفة والمفكرين الفرنسيين، يتقدمهم الأديب الفرنسى الأشهر «ديدرو» ويعتبر ما قاموا به من أشهر دوائر المعارف على الإطلاق ، ثم الموسوعة الألمانية ، ومن بعد هذه الموسوعة الألمانية ، تم نشر الموسوعة الأمريكية المعروفة (أمريكانا) . التي حدث في إعدادها التغيير والتطوير ، حتى لم يبق منها إلا اسمها .

وفي العالم العربي .. نشر «بطرس البستاني» الستة مجلدات : الأول من (دائرة معارف البستاني) في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ، ثم أخرج «سليم البستاني» المجلدين : السابع والثامن ، كما أنجز كل من «نجيب ، ونسيب بطرس البستاني» كلا من المجلدات : (التاسع والعاشر والحادي عشر) ، وذلك بالاشتراك مع «سليمان البستاني». وفي عام 1954م قام «فؤاد إفرام البستاني» بإعادة النظر في المجلدات المنشورة السابقة من (دائرة معارف البستاني) تمهيدا لإتمام العمل ، وذلك بالاشتراك مع لجنة من العلماء اللبنانيين وأشقائهم العرب . لكن في أثناء ذلك ، أو بالتحديد عام 1928م ظهرت (دائرة معارف القرن العشرين) للأستاذ «محمد فريد وجدي» ، وفي عام 1955م صدرت (الموسوعة العربية) في مجلد واحد .

وبعد ذلك .. وصل التأليف الموسوعي إلى ذروته من حيث اكتماله والتزامه بالمنهج العلمي في إعداد الموسوعات ودوائر المعارف في الوطن العربي أو في الخارج. لتظهر بمصر (الموسوعة العربية الميسرة) في منتصف ستينيات القرن الماضى ، حيث اشترك في تأليفها وإعدادها نفر من كبار المفكرين والأدباء والكتاب تحت إشراف المؤرخ الكبير «محمد شفيق غربال» ، لتصدر في مجلد واحد تقترب صفحاته من الألفي صفحة . يتبعها بعد ذلك العديد من الموسوعات ، ودوائر المعارف العربية

والمترجمة التي تشتمل على شتى المعارف التي تهم الباحث والمثقف العربي ؛ حيث تكون في متناول يده لتعينه على مواصلة البحث . ومن هذه الموسوعات العربية : (موسوعة سفير) التي تدور حول الإسلام، و(موسوعة المعلم) التي لم تكتمل ، والتي تهتم بموضوعات ومعارف مختلفة .

ومن أهم الموسوعات ودوائر المعارف المترجمة : (دائرة المعارف اليهودية) التي قام بترجمتها «الدكتور عبد الوهاب المسيري» ونشرتها دار الشروق ، ودائرة المعارف الإسلامية التي لم تكتمل ، والتي اشترك في كتابتها نفر من المستشرقين والمهتمين بالثقافة العربية الإسلامية ، وقام بترجمتها إلى العربية كل من الأستاذ «إبراهيم زكي خورشيد» والدكتور «عبد الحميد يونس» والأستاذ «أحمد الشنتناوي» ونشرتها دار الشعب في أعداد أسبوعية ثم جمعتها في مجلدات ، على الرغم من عدم اكتمالها وتوقف هؤلاء المترجمين .

وفي هذا الجزء الثاني من: موسوعة: (أعلام المجددين في الإسلام)، والذي قبله والذي بعده محاولة لتقديم أعمال ومواقف الأعلام المجددين في الإسلام في خمسة عشر قرنا هجريا .

وفي هذا .. تجدر الإشارة إلى أمرين يتعلقان بهذه الموسوعة ، واختياري للعمل فيها منذ سنوات ، والذي كانت نتيجته : وجود هذه الباقة العظيمة من المجددين في الإسلام .

فأما **الأمر الأول** فهو في: اختيار العمل الموسوعي ذاته، كقالب يمكن أن يحتوي الحديث عن التجديد ورجاله ، أو منهج يمكن في ضوئه تقديم هذا الجانب المهم من التفكير الإسلامي .. ولعلي هنا استأنست بما صنع الأجداد العرب الأقدمون حين أبدعوا هذا العمل كنوع من التنوير الذي سبقوا به الأوروبيين ؛ حيث لم يكد يأتي القرن الرابع الهجري وامتداده في القرن الخامس ؛ حتى بدأت حركة التنوير العربي الإسلامي بكل ملامحها وتفاصيلها تظهر للعيان ، وكانت رسالة إخوان الصفا بمثابة

الموسوعة أو دائرة المعارف التي هي عادة رمز يشير إلى التنوير ، وذلك من ناحية جمع المعلومات وتبويبها ونشرها .

وأما **الأمر الثاني** فهو يتعلق بمنهج العمل الموسوعي ذاته ، فقد نلحظ في الصفحات التالية أننا لا نلتزم بالمنهج التقليدي المتبع في كتابة الموسوعات ودوائر المعارف ، حيث يتم ترتيب الشخصيات حسب الحروف الأبجدية ، وذلك لعدم صلاحية هذه الطريقة على هؤلاء المجددين ؛ إذ كيف يمكن وضع المادة الخاصة بعمر بن الخطاب أو علي بن أبي طالب أو عمر بن عبد العزيز بعد عشرات من المجددين الذين يجيئون قبلهم وفقا لترتيب الحروف الأبجدية من حرف الألف حتى حرف العين الذي فيه هذه الشخصيات الفذة في تاريخ الإسلام . ولهذا كان علينا أن نختار منهجا آخر للكتابة عن هذه الشخصيات مع غيرها .. كان علينا أن نتوسل بالترتيب أو التسلسل التاريخي في الخمسة عشر قرنا الهجرية آخذين في الاعتبار : الترتيب أو التسلسل التاريخي داخل القرن الهجري الواحد بقدر المستطاع ؛ فأحيانا ما تقابلنا صعوبة أو عقبة ، مؤداها : عدم توافر تواريخ الميلاد لأغلب المجددين . وفي هذه الحالة لا مفر من الاعتماد على تواريخ الوفاة التي يتفق حولها أكبر عدد من المؤرخين للأخذ بها في هذا التسلسل التاريخي .

ويتضمن هذا الجزء الثاني : الحديث عن أعلام المجددين في سبعة قرون ، تبدأ من القرن السادس الهجري حتى القرن الثاني عشر الهجري ؛ حيث نلاحظ قلة في المجددين في بعض القرون خاصة كلا من القرون : العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر ، ولعل ذلك يرجع إلى تدهور الأحوال في العالم العربي الإسلامي في بعض القرون ، وما يتبعه من تدهور في التفكير .

لكن .. على الرغم من ذلك ، فقد ظهر في هذه الفترة – الممتدة من القرن السادس الهجري إلى الثاني عشر الهجري – عدد من فلاسفة الإسلام المبرزين

يتقدمهم : ابن سينا والغزالي وابن خلدون وابن عربي ... وغيرهم ، كما يظهر أيضا عدد من المؤرخين الثقات من أمثال: ابن أبي أصيبعة والذهبي والسيوطي والمقريزي.. وغيرهم .

على أنه في الإمكان : حصر هؤلاء المجددين في الأسماء التي استطعنا أن نرصدها، والتي تعلن عنها الصفحات التالية من هذا الجزء الثاني ، راجيا من الله أن أكون قد أوفيت ببعض الغرض كبداية لخطوات تالية .

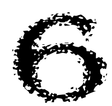
والله ولي التوفيق .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر 2008

القرن السادس





1 – أبـو الطـاهر بـن عـوف
2 – أبـو بكـر الطرطوشـي
3 – سـنـد بـن عنـان
4 – الـشريف الإدريـسي
5 – الأصـفهاني
6 – يوسف بن عبـد المؤمن
7 – ابـن طفيـل
8 – الـسـهروردي
9 – الخيوشـاني
10 – القنـائي
11 – ابـن رشـد
12 – القاسـم الـشاطبي
13 – أبـو الفـرج الجـوزي
14 – الزمخـشري
15 – فخـر الـدين الـرازي

هـذا القـرن

وتستهل المائة الهجرية السادسة بعام 1107 ميلادية ؛ حيث تتصدر هذا القـرن الهجري العديد من الأحداث الكبرى التى تهز العـالم الإسـلامى . **وأولهـا** : انقـسام الدول الإسلامية التى تكونت بفعل الانقـسام أيـضا إلى دويـلات وإمـارات مثـل : الدولة السلجوقية التى انقسمت على نفسها إلى : إمارات ودويـلات ، الأمـر الـذي جعل الدولة الخوارزمية تفكر في أن تحل محلها ، ولكـن لم يـتم للأخـيرة مـا أرادت . وانتهت الدولة الغزنوية لتقوم على أنقاضها الدولـة الغوريـة . وفي المغـرب : زالـت دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين . وانتهت في مصر الدولة الفاطمية ،وقامـت الدولة الأيوبية .

ثاني هذه الأحداث : استرداد صلاح الدين الأيـوبي لبيـت المقـدس مـن قبـضة الصليبيين ، فأعاد للإسلام كرامته باسترجاع ثالث الحرمين وأولى القبلتين .

ثالثها : تدهور الحالة العلمية في المشرق العربي ؛ بسبب العداء الشديد للفلسفة، وفي الوقت نفسه تقدم العلوم في المغرب العربي ؛ حيث وجـد في بلدانـه مـن يحـاول التوفيق بين الدين والفلسفة من العلماء كابن رشد . وبالتالي ، أقبل الناس عـلى هـذه العلوم ، وفي مقدمتها الفلسفة .

رابعها : ازدياد خطر التصوف بازدياد مظاهره كالخانقـاوات التـى بـدأ النـاس يقدمون لها النذور . وأصبحت قبور رجال الصوفية مزارات للتبرك وطلب الحاجة. وهذه من صور الجهل والتخلف . ساعد على ذلك ظهور قطبين كبيرين من أقطـاب الصوفية هما : «الرفاعى» و«الجبلى» في هذا القرن بالـذات ، ولعلهـما كانـا لا يبغيـان للأمة هذا التخلف ، ولكنه حدث على أي حال .

خامسها : انشغال العالم الإسلامي في انقسامات السياسة ، وانصرافه عن التفكير في الخطر المحدق به ، والذي كانت أوروبا تتولى كبره ، وتجهز له بعد هزيمتها باسترداد بيت المقدس.

سادسها : سعي أوروبا عن طريق دهاقينها من المستشرقين والمبشرين إلى معرفة العالم العربي الإسلامي ، ونقل كل ما يمكن من آثاره الفكرية لإقامة نهضتها .

لذلك .. أصبحت هناك حاجة إلى رجل يجدد دين الأمة في هذا القرن ، مجدد يستطيع أن يعالج كل هذه النكسات السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي مقدمتها : تكفير الأمة الذي انقسم بفعل العداء المفتعل بين الدين والفلسفة . بين النقل والعقل. وكان «ابن رشد» هو ذلك الرجل المناسب ، يصحبه رجال في مقدمتهم : «يوسف بن عبد المؤمن» أحد ملوك الموحدين الذي اهتم بالعلم والعلماء . و«الإدريسى» صاحب النظريات العظيمة في علم الجغرافيا ، تلك التي مكنته من كشف الحقائق الأساسية لهذا العلم ، ومنها : كروية الأرض . و«فخر الدين الرازي» الذي تفوق على أهل زمانه في علم الكلام – كما يذكر ابن خلكان – وكذلك ظهر «أبو بكر الطرطوشي» المجدد ، و«القاسم الشاطبي» ابن شاطبة بالأندلس الوافد إلى الإسكندرية.

وهذا القرن الذي عاش فيه هؤلاء ، كان يثير في الأذهان معاني مرذولة ؛ فالإنسان فيه ساذج الإيمان ، هدفه في الحياة : الخلاص من الحياة نفسها ليسعد بنعيم الآخرة، والعقل صار مستعبدا بسلطة خارجة عنه لا يفكر إلا في حدودها، والفلسفة لا ترتبط بحياة الناس وحل مشكلاتهم ، بقدر ما تحرص على خدمة اللاهوت وصكوكه ، والمعرفة واحدة تعمل لهدف واحد هو : سبيل النجاة ، والثقافة مقصورة على نفر هزيل من الرهبان المحدودي العقول بحكم توجيههم ووظائفهم في الحياة... وإذا كان هذا هو الحال في دار الإسلام بوجه عام في العصور الوسطى ، فالحال في الشرق الإسلامي بوجه خاص لا يختلف كثيرا عن هذه الحالة العامة .

فالفلسفة في محنة ، مصدرها : موقف «الإمام الغزالي» الذي هاجم الفلاسفة السابقين عليه ، واهتم بالتصوف والشريعة حتى خيل للناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وتضخم هذا المعنى بعد أن استهدفت الفلسفة لهجمات علماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة ، وتعمدهم الخلاف في نظرتهم إلى الأشياء ، فكل فريق من الفريقين يدعي لنفسه حق تأويل الدين ، ويدعوه هذا الحق إلى تكفير غيره لمجرد الخلاف في الرأي ، وانعكست هذه النظرة من الشرق الإسلامي على الغرب . ففي قرطبة مثلا : الطوائف والملل اعتبرت الفلسفة رجسا من عمل الشيطان ، حتى الفلسفة اليونانية والمذهب الأرسطي ، وغيره من المذاهب الفلسفية أصبحت حلما يراود الخاصة ، ويثير الخوف لدى الكافة ،و صار مدى تطور التفكير مرتبطا بمقدار ما ينكشف له من جوانب التراث الفلسفي اليوناني .

هذا .. إلى جانب أن الظروف السياسية كانت لا تقل سوءا عن الحالة الفكرية أو الاجتماعية ؛ فقد خضعت الأندلس لنوع من الحكم الديني المتزمت، إبان عهدي: المرابطين ، والموحدين .

وباختصار .. كان العالم الإسلامي في حاجة إلى أكثر من مجدد ... وهو ما تهتم به الصفحات التالية .

أبو الطاهر بن عوف

الشيخ الصالح: « أبو الطاهر إسماعيل بن مكى بن عيسى بن عبد الرحمن ابن عوف، والذي ينتهى نسبه إلى الصحابي الجليل : عبد الرحمن بن عوف . يعد من مجددي القرن السادس الهجري؛ حيث مات سنة 581 هـ. وهو صاحب أول مدرسة سنية نظامية أنشئت في مصر .

كان من العلماء الأتقياء الذين يتصفون بالعلم والورع ، حتى قال عنه «جلال الدين السيوطى» في تاريخه: « كان صدر الإسلام في زمانه ، تفقه على يديه الكثيرون، سمعوا منه ، وملئوا الدنيا علما أخذوه عنه » . وقال عنه «أبو الحسن بن الحميري» : «كان ابن عوف رحمة الله عليه إمام عصره ، وفريد دهره ، في الفقه على مذهب الإمام مالك ، وعليه كانت تدور الفتوى ، وجمع - إلى ذلك - الورع والزهد ، وكثرة العبادة، والتواضع ، ونزاهة القول والفعل ، وصدق القلب والعقل » .

ترجم لهذا الشيخ الجليل : «أبو الطاهر بن عوف» . واحد من المؤرخين ، هو «ابن سليم الهمذاني» ، فسجل الكثير من مراحل حياته ، وجوانب علمه وفضله ، وهو ما ينقله لنا الدكتور «جمال الدين الشيال» في كتابه: (أعلام الإسكندرية) فيقول: «كان ابن عوف من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام : ظاهر الورع والتقوى ، كما روى عنه الفقه والتفسير «ابن المقدسي» » .

ويستطرد «ابن سليم الهمذاني» في ترجمته للشيخ أبي الطاهر بن عوف ما ينقله الدكتور «جمال الدين الشيال» فيقول : « وكان بيت أو مقام ابن عوف بثغر الإسكندرية بيتا كبيرا ، اشتهر بالعلم وكان فيه جماعة من الفقهاء ، اجتمع منهم

سبعة في وقت واحد ، كانوا إذا دخلوا مجتمعا قيل لهم : مرحبا بالفقهاء السبعة ، تشبيها لهم بالأئمة السبعة في المدينة المنورة » .

والتقدير هنا لا ينصرف إلى هؤلاء العلماء السبعة بقدر ما ينصرف إلى أستاذهم: أبي الطاهر بن عوف ، تقديرا لفضله وعلمه الذي لقنه لهؤلاء العلماء السبعة في حياته.

وإلى جانب التدريس ، اشتغل ابن عوف بالتأليف ، فوضع شرحا عظيما في الفقه عرف بالشروح الصوفية ، ويعد من أمهات المصادر التي يرجع إليها الدارسون والباحثون في الفقه الإسلامي ، إذ يقع في ستة وثلاثين مجلدا .

ولا يقل الجانب السياسى في حياة أبي الطاهر بن عوف عن الجانب العلمي ، فقد كانت له مواقف مشهودة له سجلتها كثير من الكتابات ، خاصة تلك التي كانت تعلي من شأن العلماء أمام السلاطين والأمراء . ومن هذه الكتابات الموثوق بها كتاب: (أعلام الإسكندرية) للدكتور «جمال الدين الشيال» ، الذي يحدثنا عن جانب من تاريخ ابن عوف السياسى في عهد كل من الدولتين : الفاطمية والأيوبية ، فيقول: «وشهد ابن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية ، وقيام الدولة الأيوبية : دولة صلاح الدين الأيوبي بمصر سنة 567 هـ وقد زار صلاح الدين الأيوبي الإسكندرية، وحرص في هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس ابن عوف، وسمعوا عليه (موطأ الإمام مالك) بروايته وشرحه وتفسيره » .

وتذكر بعض الكتابات الأخرى : أنه كان لابن عوف مكانة خاصة عند السلطان صلاح الدين الأيوبي ، فيشير إلى ذلك «الصفدي» مؤكدا مكانة هذا العالم الجليل عند السلطان ، ذاكرا واقعة استفتاء صلاح الدين الأيوبي لابن عوف عن جواز أن يكون القاضي أعمى ، وتقديرا له ولفتواه ، وكتب صلاح الدين إليه يسأله بخط يده ، وليس بخط يد أحد من وزرائه أو عماله . وحين وصلته الفتوى عمل بها على الفور، ثقة منه بعلم وفضل هذا الرجل الجليل .

ولابن عوف- عدا ذلك- أفضال أخرى ؛ فإليه يرجع الفضل في تحديد الصادر إلى ثغر الإسكندرية ، وهو ضريبة تجارية تدفع على كل ما يخزن من بضائع في الميناء ، رتبه لفقهاء وعلماء الإسكندرية كرواتب تصرف كل شهر، وجعل لها ناظرا وشهودا، وأوقفها عليهم ، وعلى ذريتهم من بعدهم .

غير أن الفضل الأكبر الذي يرجع إلى الشيخ ابن عوف هو في إنشائه لأول مدرسة نظامية سنية في مصر . أقامها خصيصا ليكون هو صاحبها ومعلمها في آن واحد .

وعن هذه المدرسة وأثرها وصاحبها ، تسجل الدكتورة «سعاد ماهر» في كتابها : (مساجد مصر) قائلة : «ونستطيع القول في ثقة واطمئنان بأن مدينة الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت نظام المدارس ، وأن أول أستاذ نظامي متفرغ لممارسة هذه المهنة هو : الشيخ أبو الطاهر بن عوف » .

وقد حدد «القلقشندي» من المجددين موقع هذه المدرسة من الإسكندرية فقال: «وخرجت أوامر «الوزير رضوان» بإنشاء (المدرسة الحافظية العوفية) بهذا الثغر المحروس ، أي : الإسكندرية بشارع المحجة » .

وقد حقق الدكتور الشيال موقع هذا الشارع اعتمادا على النصوص التاريخية ، وفي مقدمتها : النص الأخير للقلقشندي ، فتوصل إلى أنه هو : شارع أبي قير الحالي .

وقد أورد القلقشندي في تاريخه المرسوم الصادر بتعيين ابن عوف شيخا لهذه المدرسة ، التي عرفت فيما بعد : المدرسة الحافظية العوفية ، نسبة إلى أبي الطاهر ابن عوف .. وتخليدا لذكراه .

* * *

أبو بكر الطرطوشي

أبو بكر الطرطوشى من علماء وفقهاء قليلين ، عرفوا قيمة العقل في العصور الوسطى ، ولذلك اعتبره المؤرخون من مجددي الإسلام في القرن السادس الهجري ؛ حيث يحدثنا التاريخ : أنه حين دخل الإسلام الأندلس أثر تأثيرا عظيما في أهلها ، فنقلهم من ظلام وجهالة العصور الوسطى إلى مشارف المدنية وحضارة العصر الحديث ، ولم يقتصر تأثير الإسلام على المنطقة التي وجد بها وهي الأندلس، وإنما امتد كذلك إلى غيرها من البلاد الأوروبية ، مثل : إيطاليا ، وفرنسا ، في أوروبا ... وغيرها. كذلك لم يقتصر تأثيره في الأندلس على علوم بعينها كالفلسفة والفيزياء والرياضيات والآداب والفنون، وما يتفرع عن هذه العلوم . وإنما امتد إلى علوم أخرى دينية كالتصوف، حيث كان للعلماء المسلمين في الأندلس أثر في غيرهم من الأوروبيين . وعلى سبيل المثال : نجد «ابن عياد الرندي» أحد أتباع الطريقة الشاذلية التي أسسها «أبو الحسن الشاذلي» والذي له تأثير مباشر على الصوفي الإسباني «يوحنا الصليبي» ، كما أن للمتصوف العظيم « محيي الدين بن عربي » تأثيره المباشر في تصورات الإيطالي «دانتي» التي تضمنتها رائعته الخالدة (الكوميديا الإلهية)، وغيرها من تأثيرات دينية ، وهذا يعني: أن الإسلام كان في تطور دائم في كل جوانب المعرفة الإنسانية ، مادية كانت أو روحية.. ومن العلماء الذين اشتهرت بهم الأندلس: «ابن حزم ، وابن باجة»، وتبعهم علماء يتقدمهم إمامنا «أبو بكر الطرطوشي» المدفون بالإسكندرية .

إذا .. فإمامنا هذه المرة قادم من الأندلس ، وبالتحديد من مدينة طرطوشة التي تقع على سفح الجبل ، قريبا من بلنسية وقرطبة ليدفن بالإسكندرية بعد أن قضى حياة

حافلة بالعلم والفضل والفقه ، ناقلا إلى المشرق ما تلقاه من علم عن «ابن حزم والباجي» شيخ علماء الأندلس وغيرهما من العلماء الذين برزوا في الأندلس الإسلامية .

لكن قبل وصول الإمام الطرطوشى إلى الإسكندرية ، واستقراره بها حتى آخر أيامه ، تخللت حياته أحداث مهمة ، تبدأ منذ أن تلقى العلم في المسجد الكبير بمدينة طرطوشة بالأندلس على أيدي عدد من المعلمين الذين اكتشفوا فيه استعدادا مختلفا عن غيره في تقبل العلوم .

ولم تشبع مدينة طرطوشة وشيوخها وعلماؤها من نهم إمامنا إلى المعرفة الدينية ، فتركها راحلا إلى أكبر مدن الأندلس وقتئذ : «سرقسطة» ، حيث التقى بعالمها الكبير القاضى «أبي الوليد الباجي» ، وعنه استطاع أن يجمع علمه الواسع كأكبر علماء الأندلس ، كذلك علم ابن حزم الذي وضعه من قبل في قلب الباجي ليكون خليفة من بعده في مناقشة الموضوعات الدينية والعلمية التي تنشأ وتتجدد بين حين لآخر ، فكان أبو بكر الطرطوشي خير تلميذ للباجي وأستاذه «ابن حزم» الأندلسي.

ولعل إقبال الإمام الطرطوشى على العلم والتفقه فيه نابع من أصالته العربية ؛ حيث تذكر بعض المصادر التاريخية أن الإمام أبا بكر الطرطوشى المشهور في أوروبا «بأبي رندقة» ، ينتهي نسبه إلى قريش في عائلة «فهد القرشي» ، المعروفة بأصالتها في العلم والأدب والنسب بين القبائل .

وأما اسم أبي رندقة الذي اشتهر به خاصة في المصادر الأوروبية ، فقد خلعه عليه الأوروبيون أنفسهم ، وذلك بعد أن اتسع علمه ، حتى عم أرجاء البلاد ، فأراد الأوروبيون أن ينسبوه إليهم ، حتى يقل أتباعه من جراء التشكيك في نسبه ، لكن هذا الاسم الذي خلعه عليه الأوروبيون لا دخل له بهذا الإمام الجليل ، كما تؤكد ذلك بعض الروايات والكتابات الحديثة ، وفي مقدمتها : كتابات «الدكتورة سعاد

ماهر» في كتابها : (مساجد مصر) ، و«الدكتور جمال الشيال» في كتابه : (أعلام الإسكندرية) ، الذي يؤكد فيه عروبة وعلمية أبي بكر الطرطوشي .

يقول الدكتور الشيال عن : والد أبي بكر الطرطوشى : «كان عالما متفقها في الدين، ولذلك وجه ابنه أبا بكر هذه الوجهة العلمية الدينية التي أفادته فيما بعد».

معنى هذا : أن العلم في الدين والفقه كان متأصلا متوارثا أصيلا في أبي بكر وليس دخيلا .

وحين نضج علمه واكتمل ، اتجه إلى المشرق لأداء فريضة الحج والاستقرار بمكة المكرمة ، والوقوف على ما تركه السلف الصالح من آثار علمية وفقهية . وهناك التقى بجلة من العلماء ، في مقدمتهم الإمام : «أبو إسحاق الشيرازي» وغيره من علماء التصوف . وقد سمع كثيرا من الشعر من شيوخه ، ورواه عنهم فيما بعد في كتابه : (سراج الملوك) مما يؤكد أنه كان يتمتع بحاسة نقدية أدبية عالية المستوى .

وغادر بغداد إلى الشام بعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة به ، تقوم على الزهد والسعي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقضى الفترة التي عاشها في الشام يلقي على الناس علما هو خلاصة ما وصل إليه علماء المغرب في الأندلس . وعلماء المشرق في العراق ، وكان لعلمه مذاق خاص ، الأمر الذي أكثر من حوله الأتباع والمريدين ، أولئك الذين كانوا يفدون إليه رغبة في معرفة أمور دينهم ودنياهم ، وظل هكذا بينهم عالما وفقيها متنورا ، حتى توجه إلى الإسكندرية بمصر ، والتي كانت ملتقى المغاربة المتوجهين إلى الحج والعائدين منه ؛ فهي في الطريق إلى الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس .

لكنه في طريقه من الشام إلى الإسكندرية، توقف برشيد تحت إلحاح أهلها ، غير أن أهل الإسكندرية كونوا وفدا من علمائهم وأعيانهم وفقهائهم ليتوجه إلى رشيد ، ويلتقي الإمام الطرطوشي بهذا الوفد الذي يطلب منه التوجه إلى الإسكندرية ،

فيقبل ويبدأ الدرس وينشر العلم على مذهب الإمام مالك ، إلى جانب ما كان قد استفاده من علماء الأندلس وفقهائهم .

وقد أتاحت له حياة الاستقرار التي عاشها بالإسكندرية ، وترحيب واستقبال أهلها له الفرصة للقراءة والتأليف ، حتى قدم للمكتبة الإسلامية اثنين وعشرين مؤلفا في التفسير والفقه وعلم السياسة ، وفي الحكم وإدارة المجتمع والوقوف على مشاكله وأهمها كتاب : (سراج الملوك) .

وفي هذه الكتابات والأحاديث ، نلمح آراء أستاذه بالأندلس «أبي الوليد الباجي» .. تلك التي أودعها في قلبه أستاذه العظيم «ابن حزم» .. كما كان يردد دائما.. ومن هذه الآراء ما كان يردده في مجالسه في فضل العلم على حامله ؛ حيث يرى أنه لو لم يكن للعلم فضيلة سوى أن أهل الجهل يهابون صاحبه ويحترمونه، وأن العلماء يقدرونه ويحترمونه ، لكفى هذا سببا إلى السعي وراء العلم وطلبه ، فكيف إذا ببقية فضائله في الدنيا والآخرة ؟

ولو تدبر العالم في كل ساعاته : ماذا كفاه العلم من المذلة والغفلة ، من الهم بغية الحقيقة ، ومن الفرح بكشفها – عن طريق العلم – لضاعف من حمد الله عز وجل وشكره على منحه فضل العلم ، ولطلب أن يهبه المزيد منه ! وقال : إن الذي يبخل على الناس بعلمه أشد وأقسى من الذي يبخل عنهم بماله ؛ فالمال يمكن تحقيقه بأي الوسائل ، أما العلم فلابد لتحقيقه بوسيلة الفتح الرباني الذي يفتح به الله على عبده ، وبالعلم وحده تقترب من الخالق سبحانه وتعالى، ومنه ما يعينك على الوصول إلى رضاه . ومن أراد سعادة الدنيا وخير الآخرة فليقتد بهدي محمد – ﷺ– في علمه واحترامه وتقديره لأهل العلم ، وطلبه للعلم حتى وإن كان في الصين .

وعن فضل العقل : يحدثنا الإمام الطرطوشي فيقول : ليس هناك فضل يهبه المولى لعبده أعز وأجل وأكرم من فضل العقل ، فصاحب العقل هو الذي يعيش في

نعـيم دائم ؛ لأنه يستطيع أن يعامل الناس على قدر عقولهم . كمـا أمـرنا رسول الله - ﷺ - بتوجيه إلهي حيث قال : « **أمرت أن أعامل الناس بقدر عقولـهم** » . والعاقل هو الذي لا يغتبط بصفات تفوقه على الحيوانات والجمادات ، وهي التمييز الذي به يمكن أن يقارب الملائكة ... فمن قوي تمييزه ، واتسع علمه ، وحسن عمله فليسعد ويغتبط . حين لا يتقدمه إلا الملائكة ، وخيار الناس. وقول الله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ** ﴾[1] ولأن نهي النفس عن الهوى هو : ردعها ومنعها عن كل ما يغضب الله . ولأن في نهيه عن الغضب ردع النفس عن هواها ، وفي أمره عليه الصلاة والسلام أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ردع النفس عن أمور السوء ، وأولها الأنانية وحب الذات .

وهكذا .. كان الإمام أبو بكـر الطرطـوشي في كتاباتـه وأحاديثـه . حتـى تـوفي بالإسكندرية عام 520 هـ ، ليدفن هناك في مسجد بباب البحر ، كما يقـول المقريـزي في (خططه) .

❋ ❋ ❋

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١.

سند بن عنان

الشارح المفكر : سند بن عنان الذي تخصص في شرح فقه الإمام مالك : أحد الأئمة الأربعة في مجلدات عددها ثلاثون مجلدا ، لعلها تغني عن الرجوع إلى هذا الفقه ، هذا الفقيه الجليل يعد واحدا من مجددي القرن السادس الهجري ، والذي يعتبر خير مثال للتلمذة الفكرية .

هذه التلمذة الفكرية في ثقافتنا العربية الإسلامية ، لها تقدير لم يتوافر لأي من الثقافات الأخرى ، فكلنا نعرف كيف تتلمذ الصحابة - رضوان الله عليهم - على الرسول - ﷺ - واتبعوه واهتدوا بهديه ، وصدعوا لتعاليمه بشكل جعل التابعين لهؤلاء الصحابة يقتدون بالسنة الشريفة ، ويصدقون بما قاله هؤلاء الصحابة . ونفس الأمر نجده عند تابعى التابعين، يحترمون ويتبعون من سبقهم من التابعين، ويقدرون ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال ، على اعتبار أنهم تتلمذوا على الصحابة الأجلاء . وهكذا نجد اللاحقين يتبعون السابقين ، مما يؤكد بصورة أو بأخرى كيف أن الثقافة العربية الإسلامية حلقة متصلة تعنى أشد ما تعنى بالتلمذة الفكرية، على اعتبار أن نتاج هذه التلمذة هم حملة مشاعلها ، ورواد تنويرها ، والمسؤولون عنها في مستقبل السنن .

ولعل هذه السمة التي تميزت بها الثقافة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي ، لم تند عن ذاكرة أساتذتها من جيل الرواد في الثقافة العربية الحديثة ، فنراهم يعتنون بمن لحقهم من الأجيال ، ويسلكون في ذلك مسلكا علميا متحضرا ، فنجد أحدهم وهو الشيخ «أمين الخولي» أحد المجددين ، يعتبر أن التلميذ ينبغي أن يكون أفضل من أستاذه . فلا خير لأستاذ لا يعد تلميذه ليكون أفضل منه . وحجته في ذلك : أن

التلميذ يساوي تجربة أستاذه وعلمه ، مضافا إليها ما يحققه بعد ذلك من علوم ومعارف جديدة بشكل ربما لا يتوافر لأستاذه بحكم التطور والزمن . ولعل الشيخ أمين الخولي أجمل ذلك فيما يشبه المعادلة الرياضية ، حيث قال : إن (ت) أي : التلميذ تساوي (أ) أي : الأستاذ مضافا إليها (ز) أي: الزمن، فتصبح المعادلة : [ت = أ + ز] وهو دليل جديد على تقدير التلمذة الفكرية في ثقافتنا العربية الإسلامية .

وعند تأمل ملامح شخصية الشيخ سند بن عنان يمكن التعرف على معنى هذه التلمذة الفكرية في الثقافة العربية الإسلامية في عصرها الوسيط ، فقد كان سند ابن عنان أنبغ تلاميذ الشيخ أبي بكر الطرطوشي أحد المجددين وأقربهم إلى نفسه ، وكان كأستاذه مالكي المذهب ، وقد سمع منه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم الوحيد ، بل أخذ عنه قبسا من أخلاقه وفضله أيضا ، وخاصة فلسفة الزهد التي أخذ بها الطرطوشي نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون بقوله : «كان من زهاد العلماء ، وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه على الشيخ أبي بكر الطرطوشي ... » .

وقد بلغ من صلاح وتقوى سند بن عنان أن هناك كثيرا من الروايات تحكي عن كراماته ، ولعلنا ننقل واحدة منها ، كان قد سجلها - بعد تحقيق - الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه : (أعلام الإسكندرية) ، حيث يذكر : « قال «تميم بن معين البادسي» - وكان من الفقهاء : رأيت رسول الله - ﷺ - في المنام ، فقلت : يا رسول الله ، اكتب لي براءة من النار . فقال لي : امض إلى الفقيه «سند» يكتب لك براءة . فقلت : ما يفعل ، فقال : قل له بأمارة كذا وكذا » . فانتبهت ، ومضيت إلى الفقيه سند ، فقلت له : اكتب لي براءة من النار . فبكى وقال : ومن يكتب لي براءة من النار؟ فقلت له الأمارة . فكتب الرقعة » .

هذه الرواية المحققة من المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال على ما فيها من مبالغة، إلا أنها تحمل دلالات على تقوى وصلاح هذا الرجل الصالح، وإلا فما معنى أن يسجل مؤرخنا الدكتور الشيال ما يؤكد هذه الرواية ، قال : « وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة » : « ولما أدركت تميما الوفاة أوصى أن تجعل الرقعة في حلقة وتدفن معه » .

وروى الفقيه «أبو القاسم بن مخلوف بن جاره» : « أخبرني من أثق به أنه رأى الفقيه سند بن عنان في نومه في شكل مطمئن وعزيز» .

ويبدو أن سند بن عنان كان قد بلغ من العلم والفضل حدا جعل فقيه مصر في القرن السابع الهجري، وهو «تقي الدين ابن دقيق العيد» يصفه بقوله : « كان – أي : سند بن عنان – فاضلا من أهل العلم والنظر .. » .

وإلى جانب علمه وفضله في الفقه والتفسير والجوانب الدينية الأخرى ، فقد تميز بصفة أخرى ، هي : محبته للأدب شعرا ونثرا ، فقد كان كأستاذه الطرطوشي ، يقول الشعر أحيانا ، وقد روى ابن فرحون قصيدة له منها :

وزائرة للشيب حلت بمفرقي فبادرتها بالنتف خوفا من الحتف

فقالت :

على ضعفي استطلت وحدتي رويدك للجيش الذي جاء من خلفي

ولهذا .. لم يكن غريبا أن يشتغل سند بن عنان بالتأليف ، وأن ينتج في ذلك ما تذكره المراجع بالخير . وفي مقدمة ما ألف كتابه الضخم المعروف بـ : (المدونة) ، وهو من أمهات الكتب في شرح فقه الإمام مالك . وقد سمى هذا الشرح : (الطراز) وكان في ثلاثين مجلدا .

وعاش سند بن عنان حياته بين التفقه في الدين والتأليف فيه وكتابة الأدب .. حتى رشحته كل هذه المؤهلات كي يتولى مكان أستاذه الطرطوشى ؛ فيجلس في حلقته ومدرسته ، ويلقي دروسه . وقد قال ابن فرحون في ذلك : « وجلس سند ابن عنان لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبي بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به .. » .

وقد ظل سند بن عنان يدرس لطلابه واحدا وعشرين عاما بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفي عام 541 هـ . ودفن بالقرب من قبر أستاذه الطرطوشى بمسجده باسمه ، لا يزال موجودا حتى الآن في شارع الباب الأخضر بالإسكندرية.



الشريف الإدريسي

عمدة الجغرافيين المسلمين ، وأحد مجددي القرن السادس الهجري « محمد ابن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي» سليل أسرة بني حمود التي حكمت جنوبي الأندلس وثغر سبتة في أوائل القرن الخامس الهجري ، والذي ولد عام 493 هجرية. لا يعرف مؤرخوه الكثير عن نشأته ، إلا أنهم - كما يذكر المؤرخ « محمد ابن عبد الله عنان» - يعرفون من إشارات وردت في مؤلفه بأنه درس في معاهد الأندلس ، وأنه قام برحلات عديدة في شبه الجزيرة الإسبانية ، بل ووصل في رحلاته شواطئ فرنسا وشواطئ إنجلترا ، كذلك عبر البحر إلى المغرب ، وتجول فيه شمالا وجنوبا . وهناك ما يدل على أنه عاش وقتا في مراكش ، ووقتا آخر في قسطنطينية ، واتجه إلى المشرق حيث آسيا الصغرى . ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة كان لها أثر في تكوين معلوماته الجغرافية ، التي ظهر أثرها فيما بعد في أبواب كثيرة من معجمه الجغرافي .. شهدت له فيها أوروبا .

وهنا .. يلعب القدر دوره في تطور حياة الإدريسى ، ذلك .. أننا نراه بعد ذلك في جزيرة صقلية يمثل في بلاطها ، ويخوض حياة علمية باهرة . ونحن نعرف أن جزيرة صقلية لبثت تحت حكم المسلمين زهاء قرنين منذ افتتحها الأغالبة سنة 264هـ (878م) ، وغدت في ظلهم حديقة يانعة تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها ، حتى إذا أدرك الوهن والانحلال تلك الدولة الإسلامية الصغيرة توالت عليها حملات الفرنج ، حتى استعادها «الدوق روجر النورماني» سنة 464 هـ (1072م)، وانتهت بذلك دولة الإسلام في صقلية . وكان ذلك قبل مولد الإدريسي بنحو

عشرين عاما فقط . ولما توفي «الدوق روجر» خلفه في حكم الجزيرة ولده «روجر الثاني»، وهو المسمى : «رجار» في الرواية العربية . وكان أولئك النورمان ، من ذوي الأفق الواسع ، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضاري ، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم ، ومن ثم .. فقد استطاعت الجالية الإسلامية في صقلية ، أن تعيش في ظلهم آمنة متمتعة بشعائرها ونشاطها الاجتماعي والثقافي والمهني . وفي ظل هذا التسامح المحمود ، دعا الدوق روجر الثاني للعمل في بلاطه رهطا من العلماء المسلمين ، من الصقليين المحليين ، ومن إفريقية والمغرب ، وكان في مقدمة هؤلاء : الشريف الإدريسي .

متى وفد الإدريسى على بلاط الملك النورماني ؟ وفي أي ظروف تلقى دعوته ؟ هذا ما لا نعرفه بالضبط . ولكنا نعرف أن الدوق روجر الثاني حكم صقلية من سنة 1101 م ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاما . ومن المرجح : أن الإدريسى وفد على بلاط صقلية بين سنتي 1030م و1040 م . وكان العلامة المسلم يومئذ ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافي – فاستقبله الدوق روجر بترحاب ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة التي حققها الإدريسي بكتابة معجمه الجغرافي الخالد .

عكف الإدريسى على تأدية مهمته ، في جو يظله التفكير الحر المستنير ، والتعاون العلمي المثمر ، بين الشرق والغرب ، والارتفاع بالقيم العلمية والأدبية ، فوق الاعتبارات والمبادئ الرجعية ، التي كانت سائدة في تلك العصور في كثير من المجتمعات ، ومن ثم .. فإنا نجد العلامة المسلم ، يحدثنا في مقدمة كتابه عن الدوق روجر بمنتهى الإعجاب والإجلال على النحو الآتي : «وإن أفضل ما عني به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر ، محاسن الملك العظيم روجار ، المعتز بالله، المقتدر بقدرته ، ملك صقلية وأنطاكية ، إمام رومية ، الناصر للملة النصرانية ، إذ هو خير من ملك الروم بسطا وقبضا » . ثم يشيد بقوته وعدله ، وعمله ، وسعة معارفه .

ويشرح لنا الإدريسى بعد ذلك الظروف التي عهد فيها إليه الملك «رجار» (روجر) بمهمته الجغرافية الكبرى ، فيقول : إن الملك ، لما اتسعت حدود مملكته وترامت ، أراد أن يعرف حقيقة أقاليمها ، وطبيعة مسالكها ، وحدودها برا وبحرا ، وما بها من البحار والخلجان والجبال ، فأمر بأن يؤتى بكتب الجغرافية العربية ، وأن تدرس بعناية . ولما تمت هذه الدراسة ، أمر بعد ذلك بأن تعد كرة عظيمة من الفضة الخالصة ، وأن تنقش فيها صورة الأقاليم السبعة بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها. والأقاليم السبعة هي: أساس التقسيم الجغرافي للعالم في العصور الوسطى. وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين. فأدى الإدريسى تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه ، ونقش فوق الكرة الفضية خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ . وقد اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية ، وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوروبيين في العصور الوسطى ، ولا سيما العلامة البندقي «مارينو سانونو» (1260-1338م) الذي استرشد بها في معظم خرائطه . ويقال : إن الخريطة لم تستغرق من الفضة التي رصدت لها سوى الثلث ، وإن رجار وهب الجغرافي المسلم بقية الكمية الفضية ، وأعطاه فوق ذلك مبلغا كبيرا من المال ، وشحن سفينة من نفس المتاع .

وتلا ذلك فكرة وضع مؤلف جغرافي عام يرسم مطابقا للكرة الفضية ، يستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها ، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين ، وأماكنها ، وصورها ، وبحارها ، وجبالها ، ومسافاتها ، وخواصها ، وأجناس نباتها ، وما بها من الصناعات والتجارات ، وما يذكر عنها من العجائب ، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ، ومذاهبهم وأزيائهم ولغاتهم . هكذا يلخص لنا الإدريسى في مقدمته محتويات : (الموسوعة الجغرافية الكبرى) ، التي عهد إليه الملك رجار بوضعها . وقد اعتمد الإدريسى في وضع هذه الموسوعة ، فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية التي جمعها من طوافه في شبه الجزيرة الإسبانية ، وشواطئ

فرنسا ، وغربي البحر الأبيض وجزائره ، والمغرب وآسيا الصغرى ، وما استفاده من بحوث الجغرافيين القدماء ، وابن خرداذبة ، والمسعودي ، وابن حوقل ، وقد اعتمد فضلا عن ذلك كله على تقارير الرسل والمبعوثين الذين أوفدهم الملك رجار بإشارته وتوجيهه إلى مختلف البلدان الأوروبية ، ومنها : فرنسا وإيطاليا وألمانية وبلاد اسكندناوة ، وجزائر بحر الإدرياتيك ، وجزر الأطلنطيق ، وهي التي يتناولها الإدريسي جميعا – ولأول مرة في الجغرافية العربية ، وجغرافية العصور الوسطى – بكثير من الدقة والبراعة في التحديد والوصف .

واستغرق وضع المؤلف كله بضعة أعوام ، وكمل – حسبما يحدثنا الإدريسي في مقدمته – في العشر الأولى من شهر يناير الموافق لشهر شوال سنة 548 هـ (1154م)، وذلك قبيل وفاة الملك النورماني بأشهر قلائل . وسمي المؤلف (بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وهو عنوان يقول لنا الإدريسي إنه من وحي الملك «رجار» وإشارته . ولما كان المؤلف كله قد وضع بإشارة الملك «رجار» ورعايته ، وأهدي في مقدمته إليه ، فقد سمي كذلك «كتاب رجار» أو الكتاب الرجاري ، تنويها من مؤلفه، بفضل هذا الأمير العالم المستنير .

ويرى الأستاذ / «محمد عبد الله عنان» أن كتاب (نزهة المشتاق) للإدريسي أعظم مؤلف جغرافي في العصور الوسطى . وعلى الرغم من أنه يجري في وصف البلدان على نظرية «الأقاليم السبعة» المتبعة في سائر البحوث الجغرافية السابقة ، فإنه يمتاز بنزعته العلمية . ويكفي أن تعلم أن الإدريسي يبدأ كتابه بالتحدث عن «كروية الأرض» ، ويمتاز من جهة أخرى بخرائطه العديدة التي بلغت سبعين خريطة لكل إقليم من الأقاليم السبعة ، عشر خرائط بعدد أقسامه . وأبدع أقسامه «نزهة المشتاق» هي الفصول التي تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية ، والمغرب ، وبحر الإدرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض ، وهي البلاد التي تجول فيها الإدريسي ودرسها عن كثب . ففي هذه الفصول يكشف الإدريسي عن رسوخ معلوماته ودقة

مشاهداته . هذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوروبا الشمالية مثل ألمانية وبلاد إسكندناوة . وفضلا عن ذلك ، فإن الإدريسى يبدي دقة واضحة في تعريب المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوروبية ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية ، وربما الإيطالية ، التي كانت يومئذ لغة البلاط النورماني والقشتالية التي وقف عليها خلال تجواله في شبه الجزيرة الإسبانية .

وفي القسم المتعلق بشبه الجزيرة الإسبانية يقدم إلينا الإدريسى أغرب قصة استكشافية بحرية قام بها مسلمو الأندلس . هى قصة : «الإخوة المغرورون» ، وهم ثمانية إخوة أو أبناء عم ، من أهل مدينة الحامة الأندلسية . خرجوا من ثغر لشبونة (أو لشبونة) في مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر ، وساروا في بحر الظلمات أعنى : (المحيط الأطلنطى) في اتجاه الغرب عدة أيام ، ثم ساروا جنوبا نحو ثلاثة أسابيع أخرى ، في بحر كدر عالي الأمواج ، حتى لاحت لهم جزيرة رأوا بها رجالا عمالقة ونساء فائقات في الحسن ، فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياما حتى جرت الريح الشرقية ، فوضعهم في سفينتهم معصوبي الأعين ، وسارت بهم أياما حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبي . ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة أن أولئك المغامرين الأندلسيين ، قد اكتشفوا بعض جزر الكناري أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربي السنغال . وقد كانت قصة هذه المغامرة البحرية التى ينفرد الإدريسى بروايتها فيما بعد ، ضمن الحوافز التى شجعت البحارة البرتغاليين ، وفي مقدمتهم «الأمير هنري» الملاح الشهير ، على القيام برحلاتهم البحرية العظيمة في المحيط الأطلنطي ، منذ أوائل القرن الخامس عشر .

وقد كتب الإدريسى - غير موسوعته الجغرافية - كتابا آخر عنوانه : (روض الأنس ونزهة النفس) ، أو كتاب : (المسالك والممالك) ، كتبه للملك «وليم الأول» ولد الملك «رجار» الذي خلف أباه في الملك . بيد أنه لم يصلنا من هذا المؤلف سوى قطعة صغيرة مخطوطة توجد في مكتبة باستانبول .

توفي الإدريسي سنة 560 هـ (1166م) في السادسة والستين من عمره . ولسنا نعرف أين توفي وأين دفن .ويغلب على الظن أنه استقر في البلاط النورماني في (بلرم) حتى توفي ودفن بالجزيرة .

وتشغل موسوعة الإدريسي الجغرافية (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) عدة مجلدات كبيرة . وتوجد منها نسخ مخطوطة عديدة في : باريس ، واكسفورد ، واستانبول ، والقاهرة . بيد أنه لم ينشر منها حتى اليوم بالعربية سوى مختصر طبع في روما منذ سنة 1592 م ، في مطبعة آل مديتشي ، والقسم المتعلق بوصف إفريقية والأندلس ، وقد نشر بعناية العلامة المستشرق «دوزي» منذ نحو قرن – ثم نشر القسم الخاص بالأندلس مرة أخرى بعناية المستشرق الإسباني » «سافدرا» ، ونشرت كذلك الأقسام المتعلقة بإيطالية وصقلية . وترجمت الأقسام المذكورة إلى الإسبانية والفرنسية والإيطالية ، وترجمت الموسوعة كلها إلى اللاتينية في أوائل القرن السابع عشر ، ولكن كانت ترجمة مليئة بالأخطاء ، بقيت مخطوطا لم ير النور .

ويهيب الأستاذ «محمد عبد الله عنان» بالعلماء أن يهتموا قائلا : «ونحن نرجو أن يكون الوقت قد حان لإخراجها كاملة بعد هذا الاحتجاب الطويل ، كما نرجو أن تتاح الفرصة لعلمائنا للمساهمة في هذا العمل العظيم مع زملائهم العلماء المستشرقين الذين سبقوا إلى الفضل في الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة » .

* * *

الأصفهاني

نحن الآن في رحاب علم من أعلام مجددي القرن السادس الهجري الأجـلاء ؛ حيث تنسب إليه أول مدرسة سلفية لها مريـدوها وتلاميـذها هـو : الـشيخ الحـافظ «صدر الدين أبو طاهر بن أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفي الأصفهاني» الذي ولـد وعاش صـباه بأصـفهان في إيـران ، لينتقـل في أرض الله حيـث يـستقر بـه المقـام في الإسكندرية ليموت ويدفن بها سنة 575 هجرية .

وواضح من اسم الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني – وهو الاسـم الذي عرف به – شهرته وجنسيته وموطنه الأصلي . فـشهرته التـي عـرف بهـا في أي مكان يوجد فيه من العالم الإسـلامي هـو : «الـشيخ الحـافظ صـدر الـدين الـسلفي الأصفهاني» يدل دلالة ظاهرة ، وأخرى لغوية على جنسيته وموطنـه الأصـلي . فأمـا الدلالة الظاهرة فهي في : كلمة الأصفهاني ، وأمـا الدلالـة اللغويـة فهـي في كلمـة : السلفي ، ومعناها بالفارسـية أنـه صـاحب ثـلاث شـفاه ؛ لأن شـفته العليـا كانـت مـشقوقة ، فـصارت مثـل شـفتين ، وأمـا جنـسيته وموطنـه فواضـحان مـن كلمـة الأصفهاني ، حيث موطنه ومسقط رأسـه بأصـفهان ، وجنـسيته إيرانيـة أو فارسـية بنظام العالم القديم .

وطبيعي .. أن يتلقى الشيخ الصالح علومه الأولى في مدينة أصفهان حيث ولد فيهـا عام 475 هجـرية ، واتجـه منذ نعـومة أظفـاره إلى العلـوم الدينيـــة ، وخاصـة علم الحديث ، قراءة وحفظا ، تأملا وتفسيرا .. عـلى فقهـاء زمانـه ، وفي مقـدمتهم : «ابن الفضل الثقفي» ، و«ابن عبد الوهاب المديني» ، و«ابـن عـلي الحنفـي» .. وكـما

يذكر السبكي في (طبقات الشافعية) أن هذا الشيخ الصالح قد طلب الحديث وهو لم يزل شابا يافعا . فكتب الأجزاء الخاصة بروايات هذا الحديث ، وردها إلى أصولها؛ لمعرفة الأصيل من الدخيل عام 490 هجرية ، أي لم يكن قد تجاوز بعد الخامسة عشرة من عمره ، واستمر على هذا النحو أربع سنوات كاملة .. بعدها بدأ في قول الحديث وترديده وتفسيره ، ونبغ في ذلك نبوغا ملحوظا ، الأمر الذي جعل الناس يتجمعون حوله للاستفادة من علمه شيئا فشيئا .. وما هي إلا بضع سنوات حتى أصبح موضع ثقتهم وملتقى تساؤلاتهم فيما أسبغ الله عليه من علمه وفضله ، فاتخذ له مجلسا علميا في واحد من مساجد أصفهان .

ومن ناحية أخرى .. نجد هذا الشيخ الصالح لا يكتفي بما حقق من علم وفضل داخل حدود بلده أصفهان أو إيران كلها .. فلم تعد هذه أو تلك بعلمائها وفقهائها تشبع نهم هذا العالم المتفتح الذهن ؛ الأمر الذي جعله يرنو ببصره إلى خارج الحدود ، حيث حواضر الإسلام ، وأول ما التمع في ذهنه : بغداد ، وقد كانت بعد المدينة المنورة من الحواضر الإسلامية التي تتجه إليها أنظار الباحثين والعلماء .. فيحل إليها .. إلى بغداد .. التي كانت وقتئذ تموج بالأحداث الفكرية والعقلية ، وتزخر بالتطورات السياسية والاجتماعية .. وتمتلئ بالفقهاء والعلماء ؛ حيث كانت الأمة الإسلامية في مجدها وعظمتها التي لم تغرب بعد .

وفي ذلك يقول هو نفسه، أي : الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني : «دخلتها – أي : بغداد – ولم يكن لي همة ساعة دخولها إلا المضي إلى الشيخ «نصر ابن البطر» – وكان من علماء زمانه ببغداد – فدخلت عليه وقلت له : « وصلت يا سيدي من أصفهان إليك ، طالبا علمك وفضلك ، فرحب بي . ثم قرأت عليه سبعة عشر حديثا ، وخمسة وعشرين جزءا من القرآن الكريم ، وخرجت من عنده باكيا .. إلى أن أصبحت من أقرب تلاميذه إليه .. » .

وأما معنى خروجه باكيا من عند هذا الشيخ الجليل في بغداد ، فقد فسره بعض المؤرخين إلى أنه اكتشف قصور علمه بالنسبة إلى هذا العالم ، وأن هناك جوانب كثيرة من العلم لا تزال خافية عليه ، وأنه ما حقق من العلم إلا قليلا ، ولا يقاس بعلم واسع عند غيره .

ولم يكن الشيخ ابن البطر هو أستاذ الشيخ صدر الدين الأصفهاني وحده في بغداد ، وإنما كان هناك علماء آخرون في الفقه واللغة والحديث والقرآن والتفسير . تردد وتتلمذ عليهم طوال أربعة أعوام كاملة . بعدها توجه إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج .. وهناك التقى بعلماء الفقه والحديث ، وفي مقدمتهم : «ابن جرير الطبري» بمكة ، و«الإمام القزويني» بالمدينة ، وهما من المجددين ، وتلقى عنهما العلم ، واستفاد منهما إفادة أضافت الكثير إلى معارفه في هذين الميدانين من العلوم .

وعاد إلى بغداد ليستوفي أبحاثه ودراساته ، وليؤلف معجما لعلمائه وأساتذته ، وفي هذه الفترة بالذات وصفه «ابن نصر» قائلا : «كان الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني ببغداد ، كأنه شعلة نار في تحصيل الحديث» . ليعود إلى المشرق مرة ثانية ، بادئا بزيارة مدينة همذان في إيران ، فيلتقي بحجة الإسلام «أبي حامد الغزالي» ، وليقول عنه : «حضرت مجلس الغزالي بهمذان ، وكنا في رباط واحد ، وبيننا ألفة وتودد ، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام والمناقشة ، وأفضلهم في الفقه والحديث » . وكان يقصد بالطبع العلماء الذين التقى بهم مع الغزالي .

وترك الشيخ الحافظ السلفي الأصفهاني المشرق للمرة الثانية ، متوجها إلى دمشق ، وأقام بها عامين . وكما يقول السبكي : «واتصف بعلم جم ، سمع منه الكثيرون واستفادوا» ومن دمشق ، ذهب إلى مدينة «صور» حيث ركب سفينة حملته إلى الإسكندرية . وكان وقتئذ في السادسة والثلاثين من عمره .

وفي الإسكندرية كان كما وصفه الدكتور «جمال الدين الشيال» بكتابه (أعلام الإسكندرية) نقلا عن ابن المسعاني : «ثقة ، ورعا ، متقنا ، ثبتا ، حافظا ، فهما ، له حظ كبير من اللغة العربية ، كثير الحديث والعلم ، حسن الفهم والبصيرة » .

وفي هذه المدينة تزوج واستوطن ، واغتنى وتصدق ، وصارت له وجاهة علمية واجتماعية ، وفيها اشتغل بالتدريس ، فكان يعقد حلقاته في مساجدها ، ولم يلبث أن أقبل عليه الطلبة من كل فج عميق ، حتى أنشئت لعلمه ودرسه مدرسة عرفت فيما بعد- في التاريخ الإسلامي- (بالمدرسة السلفية). نسبة إلى صاحبها: مؤسسها ومنشئها الحافظ السلفي وهي : ثاني مدرسة بعد (المدرسة النظامية الأولى) التي أنشأها «أبو طاهر بن عوف» بالإسكندرية، تنسب إلى عالم لعلمه بالإسكندرية ومصر عامة.

وبقي الشيخ الحافظ السلفي بالإسكندرية معتكفا في مدرسته مدة مقامه بها أربعة وستين عاما ، لم يغادرها قط طوال هذه السنين سوى مرة واحدة ، حيث ذهب إلى مدينة الفسطاط ، ليتصل بمن فيها من العلماء ؛ ليأخذ عنهم العلم ، يعطيهم – كما يذكر – مما وهبه الله من علم وفضل .

والجدير بالذكر .. أن الشيخ الحافظ السلفي الأصفهاني كان من العلماء القليلين الذين قدروا المرأة العالمة الورعة التقية حق قدرها . فأشار إلى من يعرفهن من راويات الحديث كالسيدة عائشة رضي الله عنها ، والسيدة نفيسة ، والسيدة فاطمة النبوية ، والسيدة عاتكة بنت زيد ... وغيرهن ممن برزن في الحضارة الإسلامية ، فذكرهن في كتابه : (معجم السفر) كما ذكر النساء المشتغلات بالأدب كالشاعرات .

وكانت للشيخ حافظ السلفي في المجتمع السكندري مكانة ملحوظة ، فكان يسعى إليه الملوك والولاة والأمراء وكبار رجال الدولة ، وكانت له عند العامة كرامات وبركات حتى قيل : إنه إذا اشتد المرض بواحد منهم هرع إليه ، فكان يكتب

له ورقة تحوي آيات من القرآن ، فيشفى المريض بإذن الله ، وقد كشف القوم عن هذه الورقة وما تحويها ، فوجدوا أن ما كتب فيها إلى جانب الآيات القرآنية دعاء لطيف فيه استعانة بالله عز وجل ، يقول فيه : «اللهم ، إنهم ظنوا بي خيرا ، فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم بي .. أنت القادر على كل شيء ، سبحانك ..! » .

وبقي الشيخ الحافظ صدر الدين السلفي الأصفهاني بالإسكندرية حتى ناهز المائة من العمر ، ودفن بها ، وله فيها ضريح ، يزار حتى اليوم .



يوسف بن عبد المؤمن

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، أحد ملوك الأندلس العربية ، من مجددي القرن السادس الهجري ؛ حيث كانت وفاته عام 580 هـ ، ولعله كان من أجدد الناس في هذا القرن بصفة التجديد ليس لكونه ملكا ، ولكن لغير ذلك من الأسباب: فكرية وثقافية ؛ فإليه يرجع الفضل في إحياء التفكير الفلسفي بعد أن حكم على هذا التفكير في القرون الماضية بالرفض ، ووصف كل الذين يتعاملون بالفلسفة بأنهم ملاحدة ، أو خارجون على الشريعة الإسلامية . يضاف إلى هذا الفضل كونه ساهم – إلى حد كبير – في الحفاظ على الفلسفة اليونانية – كما سنرى – ولو أن هذا المجدد لم يفعل أي شيء في حياته إلا هذا العمل وهو : إحياء التفكير الفلسفي بعد طوال مرات ، وإنقاذ الفلسفة اليونانية والحفاظ عليها من الضياع .. لكان هذا يكفي ، لكي يلقب بالمجدد . وذلك .. لاهتمامه بصورة لافتة بالفلسفة ، واحتضانه لرجالها ، وفي مقدمتهم : «ابن رشد» ، ومن قبله «ابن طفيل» . والأهم : إدراكه بأن الثقافة العربية ينقصها التزود بالفكر اليوناني الأصيل ، وكأنه بذلك يعمل بقول النبي – ﷺ – : «**اطلبوا العلم ولو في الصين**» ولهذا ولغيره من أسباب استحق هذا الرجل اللقب الذي خلعه عليه علماء عصره ، بعد أن تولى الملك وهو : «الملك المفكر » أو : «الملك الفيلسوف» .

والحق .. أن اهتمامه بالفلسفة والعلم يرجع فيه إلى والده الذي غرس في نفسه – منذ الصغر – محبتهما ؛ حيث عني بتثقيفه عناية عظيمة ، فلم يركن إلى تعليمه وتدريبه على الفروسية فحسب ، وإنما عني كذلك بتثقيفه حتى قال عنه مؤرخوه :

أنه نشأ على ظهور الخيل ، وفي الوقت نفسه تعود بل أدمن تعاطي الثقافة والفلسفة ، حتى صار واحدا من بين علماء عصره ومفكريه .. إلا أن ميله كان لافتا إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله لبقية الأنواع الثقافية أو المجالات العلمية . وقد وصفه البعض بأنه : كان جماعا مناعا ، ضابطا لأمور مملكته ، عارفا بسياسة رعيته ، ووصفه البعض الآخر بأنه : كان عف اللسان ، حلو الكلام ، طيب المجالسة ، أعرف الناس بما تكلم به العرب ، وأحفظهم لأيامهم ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام .

وكان أبوه قد استخلف من بعده على الملك ، ابنه الأكبر محمد ، ولم يكن يمثل صفات أخيه الأصغر يوسف ، فاختلف الناس حول هذا الشقيق الأكبر اختلافا وصل إلى أن خلعوه ، وكانت مدة ولايته شهرا ونصف الشهر ، ليبايعوا الشقيق الأصغر يوسف ؛ حيث اتفقت عليه الكلمة . ولما آل إليه الأمر وملك بعض البلاد في الأندلس ، تجهز لغزو بعض المناطق في الأندلس . إلى آخر ما حقق من انتصارات في الأندلس .. ربما لا يعنينا في هذا المجال تسجيلها بقدر ما يعنينا اهتمامه بالعلم والفلسفة ؛ حيث عرف قدرهما في هذا القرن ، ولم يشغله أو يؤثر فيه تألب ملوك عصره وعلمائه عليها ، بل خرج على جمودهم وأعاد للفلسفة مكانتها في دولته ، وجدد ما بلي من معالمها ، ووصل في الاهتمام بتجديدها إلى ما لم يصل إليه أحد قبله؛ لأنه هو الذي أنار الطريق لابن رشد الحفيد ، ووجهه نحو الغاية التي رفعت من شأن فلسفته ، وكان «ابن طفيل» قد أوصل ابن رشد إلى يوسف بن عبد المؤمن قبل أن يتولى الملك ، فسأله عند اتصاله به سؤالا في ظاهره المكر قائلا : هل للسماء بداية أم أنها أزلية ؟ وهنا تهيب ابن رشد أن يجيب على هذا السؤال ؛ لأنه لم يكن يعرف أن هذا الملك على خلاف شديد مع أمراء عصره حول النظر إلى الفلسفة . ولما لاحظ هذا الملك خشية ابن رشد وتردده في الإجابة على سؤاله ، تولى هو الإجابة عن هذا السؤال حيث شرح فيه رأي أفلاطون وأرسطو في ذلك . وهنا اطمأن إليه ابن رشد ، وأدلى برأيه في ذلك مستطردا .

وحين قدم ابن طفيل ابن رشد لابن عبد المؤمن بعد توليه الـملك ، طلـب منـه أن يقوم بشرح جـديد لهذه الكتب ، فقام ابن رشد بشرحها وفق مـا طلـب يوسـف ابن عبد المؤمن ، وكانت شروحه لها أقرب إلى فهمهـا مـن الكتـب القديمـة ، فأنـار بذلك طريق العلم لابن رشد ، ووضح له الغرض الذي قصده في الشروح الجديدة ، وبهذا كانت فلسفة ابن رشد أقرب إلى فلسفة أرسطو من غيرها . ولولا إرشـاد هـذا الملك المفكر لابن رشد لم يكن لفلسفته هذه الميزة العظيمة التي تميز بهـا دون غـيره ، وهو ما رآه عدد من المؤرخين والعلماء : عربا وأجانب ؛ حيـث يـرون أن ابـن رشـد مدين لهذا الملك .

ولعل هؤلاء العلماء والمفكرين ، ومنهم الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» اتفقـوا على أن هذا الملك المفكر كان أقرب من غيره إلى أن يكون مجـددا في هـذا القـرن مـع إشارتهم الدالة على أن الفلسفة وقتئذ كانت فيه ، ولم ينظر هؤلاء العلـماء والمفكـرون إلى هذه الناحية التى يستحق عليها هذا الملك المفكر صفة التجديد ، وإنـما نظـروا إلى جهاده من أجل إعلاء الكلمة العربية في الأندلس ، وتغاضوا عما كان لـه مـن فـضل من أجل إعلاء قيمة إعمال العقل ، بإحيائه للفلسفة ، وكأنـه بـذلك يعـلى مـن قيمـة إعمال العقل وقدرته على التفكير في الأندلس وما يجاوره من بـلاد المغـرب العـربي ، خاصة بعد أن انتهى أمر هذه الفلسفة في بلاد المشرق العربي ، وكان من نتيجة عمـل هذا الملك المفكر أن انتهى عهد الهجوم على الفلسفة ، وصار المتعـاملون فيهـا أجـدر بلقب التجديد .

بل هناك من العلماء الذي يرى بأنه لو أن هذا الملك المفكر تغاضى عن الجهـاد ، وعاش في هذا الملك الواسع لربحت فيه الفلسفة أكثر من ذلك ، وارتفعت أكثـر ممـا ارتفعت ، وسارت في طريق التقدم والنهوض ، وانتفع بها المسلمون قبل أن ينتفع بها غيرهم .

* * *

ابن طفـيل

إذا كان هناك الـذين يمثلـو ن فلـسفة المـشرق الإسـلامى في عـصر ازدهـاره ، ويتقدمهم «أبو نصر الفارابي» ، و«الـشيخ الـرئيس ابـن سـينا» ، و«حجـة الإسـلام الإمام الغزالي» . فهناك أيضا الذين يمثلون فلسفة المغرب الإسلامى في أوج عظمتها وازدهارها ، ويتقدمهم «ابن باجة وابن رشد وابن طفيل» ممن أثروا تأثيرا مباشرا في الحضارة الأوروبية ، فضلا عن كونهم من بناة الحضارة الإسلامية .

والأخير أي : ابن طفيل هو «أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمـد بـن طفيـل» أحد مجددي القرن السادس الهجري ، حيث توفي عام 581هـ وولد ونـشأ في «وادي إش» ، وهي مدينة تتبع التقسيم السياسي لولاية غرناطة إحدى ولايات الأندلس.

وولاية غرناطة ، التى ينتمى إليها كثير من العلماء والأدباء ، والتـى اسـتطاعت أن تحتفظ بعروبتها وإسلامها حتى أيام الأندلس الأخيرة ، في أواخر القرن الخـامس عشر الميلادي . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد في الأعوام الأولى في القرن السادس الهجري . ودرس الحديث والفقه واللغة على «أبي محمد الرشـاطى» ، و«عبد الحق بن عطية» ، وغيرهما من أقطاب العصر ، ولكنه مال إلى «الحكمة وعلوم الأوائل» . ودرس الحكمة والطب بإشبيلية ، وكان في مقدمة أسـاتذته «ابـن باجـة» أعظم فلاسفة الأندلس يومئـذ ، وغـيره مـن أعـلام العـصر ، وبـرع منـذ شـبابه في الفلسفة والطب ، كما برع في الفقه والأدب .

ولعلنا نقرأ ما كتبه الأستاذ « محمد عبد الله عنان » عن ابن طفيل، ونستفيد منه . حيث بدأ ابن طفيل حياته العامة ، في الوقت الذي اضطرمت فيه الأنـدلس بـالثورة

على المرابطين ، وقامت في كل قاعدة أندلسية ، حكومة قومية جديدة ، على نمط الطوائف . وكانت بلدة «وادي إش» : قد حذت في ذلك حذو غيرها ، وقام بها «أحمد بن ملحان الطائى» في سنة 540 هـ ، وأنشأ بها حكومة مستقلة ، فانتظم ابن طفيل بين كتابه ، وخدمه إلى حين . ولما سقطت حكومته بعد ذلك بأعوام قلائل ، وتغلب الموحدون على قواعد الأندلس ، انتقل ابن طفيل إلى خدمتهم ، وكتب لوالي غرناطة الموحدي فترة أخرى .

على أن القدر ، كان يدخر لابن طفيل مكانته الحقيقية على يد الأمير الموحدي «السيد أبي يعقوب يوسف» ابن الخليفة «عبد المؤمن بن على» . فقد عين هذا الأمير واليا لإشبيلية سنة 551 هـ (1156م) ، وكانت إشبيلية قد غدت يومئذ قاعدة الحكم الموحدي بالأندلس . بعد أن عفا الزمن على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وغدت في الوقت نفسه أعظم مراكز الحركة الفكرية والأدبية، وكان السيد أبو يعقوب ، عالما فيها ، أديبا يشغف بالدرس ، ويجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، حتى غدت إشبيلية – خلال الأعوام الثمانية التى قضاها في حكمها – جامعة الأندلس الحقيقية، وكان ابن طفيل في مقدمة هذا الرهط العلمي الذي ينتظم حول الأمير العالم .

ولما توفي الخليفة «عبد المؤمن بن على» في سنة 558هـ ، خلفه في الخلافة ولده السيد «أبو يعقوب يوسف» . ولسنا نعرف بالتحقيق ما إذا كان ابن طفيل قد شغل منصب الطبيب الخاص للخليفة الجديد ، منذ البداية . بيد أنه لما مرض الخليفة سنة 565هـ ، واستطال مرضه أربعة عشر شهرا ، كان الذي يتولى علاجه – وفقا لرواية ابن صاحب الصلاة– مؤرخ الموحدين وقتئذ، «طبيباه: « أبو مروان بن قاسم » ، و«أبو بكر بن طفيل». وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية الفيلسوف والطبيب الكبير باعتباره طبيب الخليفة الموحدي . على أنه يلوح لنا مما تؤكده لنا الرواية من توثق أواصر المحبة والصداقة بين الخليفة وطبيبه ، أن ابن طفيل كان يشغل منصبه قبل ذلك بأعوام . ومن جهة أخرى فإن ابن طفيل لم يكن فقط طبيب الخليفة ، وإنما كان في الوقت نفسه مستشاره وموضع ثقته .

وكان من أثر ذلك : ما عهد به الخليفة إليه من نظم قصيدة بليغة حماسية في دعوة طوائف العرب الذين يقطنون إفريقيا ، وحثهم على الاشتراك في الجهاد بالأندلس ، يشاد فيها برفيع أصولهم ، وأرومتهم ، وكونهم السيف الماضي في نصرة الدين ، فنظم ابن طفيل - تحقيقا لتلك الغاية - قصيدة طويلة في أربعين بيتا ، تفيض بلاغة وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف في الوقت نفسه من منزلة عالية في النظم تضعه في أكابر الشعراء . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها ، وقد جاء في مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادي واقتناء الرغائب

وأذكوا المذاكي العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب

فلا تقتنى الآمال إلا من القنا ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب

ولا يبلغ الغايات إلا مصمم ... على الهون ركاب ظهور المصائب

ومنها في : استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية ... تحف بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب

لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب

وهذه الناحية من نواحي عبقرية ابن طفيل ، أعني : شاعريته العالية ، وروعة نظمه ، لم تأخذ حقها من التعريف ؛ إذ كانت صفاته العلمية والفلسفية ، تطغى دائما على ما عداها من صفاته الأخرى . بيد أننا سوف نرى فيما بعد أن لابن طفيل غير هذا النظم السياسي الحماسي ، نظما رقيقا آخر .

وفي سنة 566هـ (1170م) عبر الخليفة «أبو يعقوب يوسف» في جيوش الموحدية إلى الأندلس طلبا للجهاد ، وكان في ركبه بالطبع طبيبه الخاص : ابن طفيل ، وقضى الخليفة في شبه الجزيرة خمسة أعوام . وكانت إشبيلية مقامه الأثير . وفي هذه الفترة التي قضاها الخليفة أبو يعقوب في المدينة الأندلسية العظيمة تفتحت مواهبه العلمية والأدبية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم أئمة التفكير الإسلامي ، هم: طبيبه الخاص: ابن طفيل ، وتلميذه القاضى الفيلسوف «أبو الوليد بن رشد» ، والطبيب العبقري : «عبد الملك بن زهر» . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ، ولا يصبر على فراقه .

وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه إلى أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نوه لديه بفضل الفيلسوف «ابن رشد» وبراعته .

وكان هذا الخليفة العالم أبو يعقوب ، يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ . وإذا صدقنا رواية المراكشى التي ينقلها إلينا عن القرطبي ، فإن الفضل يرجع إلى الخليفة في وضع شروح فلسفة أرسطو العربية . وذلك أنه وفقا لهذه الرواية هو الذي أوعز إلى طبيبه ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو ، وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض .

ولكن ابن طفيل ، نظرا لكثرة مشاغله وشيخوخته ، هو الذي اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة ، لما يعلمه من مقدرته ، وقوة نزوعه ، وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذي حمل ابن رشد على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهي الشروح التي اشتهر بها وترجمت فيها بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم في دوائر التفكير الغربي .

ولما توفي الخليفة «أبو يعقوب يوسف» في ربيع الآخر سنة 580 هـ (أغسطس سنة 1184م) . عقب نكبته في موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل في منصبه طبيبا

خاصا لولده الخليفة الجديد «أبي يوسف يعقوب المنصور» ، بيد أنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، إذ توفي بمراكش في أواخر سنة 581 هـ (1185م) وحضر الخليفة جنازته بنفسه .

ويرصد الأستاذ «محمد عبد الله عنان» الآثار الفكرية لهذا المفكر والعالم والشاعر، فيذكر أن من أشهر مؤلفات ابن طفيل: رسالة (حي بن يقظان) أو (أسرار الحكمة المشرقية) و(الأرجوزة الطبية المجهولة) و(رسالة النفس) ... وغيرها من مؤلفات ورسائل أخرى لم تصل إلينا . وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة (حي ابن يقظان» ، وهي تلخيص فلسفي رائع لأسرار الطبيعة والخليقة ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل خلق «من بطن الأرض» في جزيرة مجهولة من جزائر الهند ، جنوبي خط الاستواء ، وهذا الطفل هو «حي» . وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدريجي لظروف الحياة ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يقترب في تأمله من الله. وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية، حيث لا تزيد عن خمسين صفحة، فقد لفتت بروعتها أنظار رجال النقد الحديث، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى عدة لغات أوروبية أخرى ، وقد تأثرت بها بعض الروايات والقصص الأدبية في أوروبا في مقدمتها قصة (روبنسون كروزو) المعروفة .

وتشيد الرواية الإسلامية المعاصرة بعبقرية ابن طفيل ، ويصفه «المراكشى» ، بأنه «أحد حسنات الدهر» ، ثم يقول لنا : إنه «صرف عنايته في أواخر عمره إلى العلم الإلهي، ونبذ ما سواه . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع في العلوم الإسلامية» . ويصفه «ابن الخطيب» بأنه «كان عالما محققا ، شغوفا بالحكمة المشرقية ، متصوفا ، طبيبا ، ماهرا في أصول العلاج ، وفقيها بارع الإعراب ، وكاتبا بليغا ، ناظما ناثرا ، مشاركا في عدة فنون».

هل نحن في حاجة إلى الحديث عن كتاب (حي بن يقظان) لابن طفيل ، والذي يعتبر في قيمته العلمية والإبداعية من أمثلة تجديده في الفكر الإسلامي ؟ ولعل أول وأوضح انطباع يستقر في ذهن من يطالع قصة «حي بن يقظان» كما عرضها ابن طفيل ، أنها ملحمة تصور ما ينطوي عليه العقل البشري من إمكانات وطاقات . فبالعقل يستطيع الإنسان الوصول إلى المعرفة وإدراك وجود الخالق .

ويحدثنا «أحمد أمين» : أن (حي بن يقظان) رسالة بناها مؤلفها على نظرية له وهي : «أن في وسع الإنسان أن يرتقي بنفسه من المحسوس إلى المعقول إلى الله ، بحيث يستطيع بعقله أن يصل إلى معرفة العالم ومعرفة الله . وعنده أن المعرفة تنقسم إلى قسمين : معرفة حسية ومعرفة نظرية . أو بعبارة أخرى : معرفة مبنية على الكشف والإلهام كالتي عند الصوفية ، ومعرفة مبنية على المنطق كالتي عند العلماء . أما الأولى ، فيمكن الوصول إليها برياضة النفس ، فتنكشف لها الحقائق كأنها نور واضح لذيذ يومض إليه حينا ثم يخبو حينا . وكلما أمعن الإنسان في الرياضة تجلت له المعارف . وأما النوع الثاني من المعرفة فهو مؤسس على الحواس . والمعرفة بالحواس تتألف وتستنتج منها نتائج علمية هي أيضا نوع من المعرفة التي يسميها : المعرفة النظرية» .

وفي رأي محرري (دائرة المعارف الإسلامية) أن هذه القصة عبارة عن عرض للأفلاطونية الجديدة في أشد صورها صوفية ، «وقد عرض ابن طفيل في كثير من المهارة هذه الفلسفة على مراحل متدرجة ، متخذا لذلك إنسانا قصصيا ، موهوبا قادرا على التفكير ، وجد منذ طفولته في جزيرة مقفرة . وهنا استطاع بقوة عقله فقط أن يميط اللثام عن الفلسفة ، وأسس لنفسه مذهب الأفلاطونية الجديدة في صورته الإسلامية ، وسمى ابن طفيل هذا الإنسان – وهو رمز للعقل – حي بن يقظان أي : ابن الله ، وتظهر في نهاية هذه القصة شخصيتان هما . سلامان وأبسال ، لهما دور رمزي في هذه القصة».

وفي حاشية بالمصدر الأخير المشار إليه ، يحدثنا «عباس محمود» - وهو غير عباس محمود العقاد- أن الغاية التى رمى إليها ابن طفيل من كتابه «هى شرح بعض المسائل الفلسفية في أسلوب قصصى ، كالكلام في الله ، وصدور الكون ، ونظرية المعرفة ، والفلسفة الطبيعية ... وغير ذلك من المسائل التى نهج فيها ابن طفيل نهج من تقدمه من فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سينا . وقد انتهى إلى تقرير التوفيق بين الفلسفة والدين ، وأن العقل والوحى سبيلان للمعرفة الصحيحة ، غير أن الفلسفة ينبغى أن يترك أمرها إلى الخاصة دون العامة من الناس ، وقد رمز إلى ذلك في قصته بعجز «الملك سلامان» عن فهم ما وصل إليه «حي بن يقظان» عن طريق العقل ، وإن كان قد أدركه عن طريق الدين .

ولكن ، لندع هذه الجوانب الفلسفية والروحية التى تكشف عنها القصة تارة وترمز إليها تارة أخرى، ونتتبع مراحل التطور الذي طرأ على حياة «حى بن يقظان» كما يراها الدكتور «راشد البراوي» منذ وجد - أي حى بن يقظان - على ظهر تلك الجزيرة المقفرة ، وذلك خلال ما مر به من تجارب ، وما اعترضه من صعاب ومشكلات، وما اهتدى إليه من حلول. وكلها تجارب ومشكلات انبثقت من غريزة البقاء : أي : من ضرورة إشباع حاجاته الأساسية ، والطبيعية أو المادية أساسا.

ففى أول أمره ، نما وتغذى بلبن الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج على المشى ، ثم شاهدها فيما بعد ، تطعمه ما تساقط من ثمار حلوة نضجة ، ورأى نفسه على خلاف جميع الحيوانات في الجزيرة ، عاريا ، عديم السلاح ، ضعيف العدو ، وقليل البطش، عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها ، فوجد أن ثمة صراعا بينه وبينها ، فإما أن يدفع خطرها ، وإما أن يظل يعاني من تلك النواقص ، فيكون في هذا القضاء عليه .

وهكذا دفعته غريزة البقاء إلى التماس ما يستر به بدنه ويحفظه من تقلبات الطقس. وما يدفع به عادية الحيوان ، وانتهى إلى اتخاذ نوع من الكساء من أوراق الأشجار . وشهد نارا انقدحت في أجمة قلخ (قصب أجوف) ، وسرعان ما

استخدمها لنيل الدفء ، ثم في توافر الطعام ناضجا عندما ألقى فيها ببعض الحيوانات البحرية.

وسار خطوة أبعد ، فإذا به يتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه ، وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض لئلا يصل إليه شيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شئونه . واستألف جوارح الطير ليستعين بها في الصيد ، واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها ، واتخذ من صياصي البقر الوحشية شبه الأسنة وركبها في القصب القوي وفي عصى الزان وغيرها ، واستعان في ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح ، واتخذ ترسه من جلود مضاعفة. كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعي . ثم دفعته الضرورة إلى أن يأتلف بعض الحيوانات الشديدة العدو ، ويحسن إليها بإعداد الغذاء الذي يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الأصناف .

إذا ... بعد لبن الظبية ، عاش «حى بن يقظان» على الغذاء النباتي من الثمار الناضجة المتساقطة ، ومن الدرنات وما في حكمها أيضا بطبيعة الحال ، ثم اتخذ من لحوم الطير والحيوانات طعاما ، يأكله نيئا . وتعلم كيف يصنع نوعا بدائيا للغاية، من الكساء ، توافرت مادته الخام وهى من : أوراق الأشجار الكبيرة ، وريش الطيور الميتة . وعرف النار بطريق الصدفة، وسخرها في خدمة أغراضه البسيطة .وصنع أنواعا من السلاح للدفاع عن النفس وللصيد ؛ فكان ذلك خطوة بالغة الأهمية كفلت له السيطرة على الحيوان الذي يفوقه قوة وبطشا بفضل ما زودته به الطبيعة من قرون أو أنياب ومخالب . وتعلم صناعة البناء ، واستألف بعض الحيوانات . وأهم من هذا أنه عرف أبسط أشكال الادخار لما آثر الاحتفاظ ببعض ما فضل من غذائه ، وكان ذلك هو الذي دفعه إلى إقامة مكان للتخزين .

وهكذا .. استطاع أن يسخر الطبيعة لخدمته ، حين استخدم عقله في التفكير فيما يفيده .

* * *

السهروردي

شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي، الملقب في التاريخ الإسلامى بالشيخ المقتول ، أو شيخ الاستشراق . يعتبره العلماء والمفكرون واحدا من مجددي القرن السادس الهجري ، لما قدمه في سنوات عمره القصير من إضافات فكرية كونت فيما بعد مدرسة استشراقية لها تعاليمها ومناهجها ، أتباعها ومريدوها . وكان هو عميدا لهذه المدرسة .

ولد السهروردي سنة 549 هـ (1153م) في قرية سهرورد على مقربة من المدينة الإيرانية الحديثة «زنجان»، التى أنجبت قسطا وافرا من الرجال العظماء في الإسلام . وتلقى تعليمه الباكر على يد «مجد الدين الجيلى» في مراغة ، المدينة التى كتب لها أن تشتهر بعد ذلك بضعة أعوام عندما أنشأ الفاتح المغولي «هولاكو» المرصد الشهير بالقرب منها ، وجمع كبار علماء الفلك في ذلك الوقت تحت إمرة «نصير الدين الطوسى» فيها. ثم انتقل السهروردي بعد ذلك إلى أصفهان، وهى مركز شهير للحركة العلمية في إيران آنذاك ؛ لاستكمال دراسته ؛ فأتم دراساته المقررة على يد «ظهير الدين القاري». ومن الطريف أن «فخر الدين الرازي» المعارض الكبير للفلسفة ، كان أحد رفاقه في المدرسة ؛ وعندما قدمت له نسخة من (التلويحات) بعد وفاة السهروردي بعدة سنين قبلها ، بكى ذاكرا رفيق الدراسة الذي اختار مسلكا يختلف كل الاختلاف عن مسلكه هو .

وما إن أتم السهروردي دراساته المقررة ، حتى شد الرحال داخل إيران . فقابل عددا من شيوخ الصوفيين ، وانجذب بشدة إلى بعضهم . والواقع أنه باشر المسلك الصوفي في هذا الوقت من حياته ، وقضى فترات طويلة من الخلوة ذاكرا متفكرا .

ثم اتسعت رحلاته شيئا فشيئا لتشمل الأناضول وسورية التى هام بمناظرها الطبيعية . وفي إحدى سفراته ذهب من دمشق إلى حلب ، حيث تقابل مع «الملك الظاهر ابن صلاح الدين الأيوبي» الشهير. وكان الملك الظاهر يحب المتصوفين والعلماء ، فتعلق بالحكيم الشاب ، ودعاه إلى الإقامة في بلاطه بحلب .

قبل السهروردي الدعوة بسرور بالغ ؛ لما كان يكنه من حب خالص لتلك الأقاليم ، وأقام في البلاط ، ولكن صراحته وقلة احتياطه في إفشاء بعض العقائد «الباطنية» أمام المجالس على اختلاف أنواعها ، والذكاء الحاد الذي مكنه من قهر خصومه جميعا في الجدال ، ونبوغه في كل من الفلسفة البحثية والتصوف ، كل هذه العوامل تضافرت لتزيد في عدد أعدائه ، وخاصة في أوساط العلماء ؛ فطالبوا - آخر الأمر - بإعدامه بتهمة ترويج عقائد تتنافى مع الدين . فلما رفض الملك الظاهر ، التمسوا ذلك رأسا من صلاح الدين. وكانت سورية- إذ ذاك- قد استعيدت من الصليبيين، وكان تأييد العلماء أمرا ضروريا لدعم سلطان صلاح الدين ، فلم يكن له مفر من أن يذعن لإرادتهم . فضغط على الملك الظاهر حتى ينفذ رغبة هيئة السلطات الدينية الثائرة على الحكيم الشاب . وعليه أودع السهروردي السجن ، وفي سنة587 هـ (1191م) مات ، دون أن يعرف السبب المباشر لموته ، حيث يذكر بعض مؤرخيه أنه قتل في محبسه .

وهكذا .. لاقى شيخ الاستشراق في سن الثامنة والثلاثين نفس المصير الذي لاقاه سلفه العظيم «الحلاج» ، الذي كان قد انجذب إليه بشدة في شرخ شبابه ، والذي كثيرا ما يستشهد بأقواله في كتبه .

وعلى الرغم من هذا العمر القصير من حياة السهروردي ، فقد كتب نحو الخمسين كتابا في كل من العربية والفارسية ، وصلنا معظمها . وهذه الآثار مكتوبة بأسلوب رائع؛ كما أنها ذات قيمة أدبية رفيعة . فالآثار الفارسية تعتبر من روائع النثر

الفارسي ؛ فهي في الحقيقة نموذج للنثر الروائي والفلسفي الحديث. وتقع هذه الآثار في عدة أنماط متميزة بحيث يمكن قسمتها إلى خمسة أقسام :

1- الكتب الأربعة الكبيرة التعليمية والعقائدية، وجميعها بالعربية. وهي تشكل مجموعة رباعية تبحث أولا في الفلسفة المشائية كما فسرها وحورها السهروردي، ثم في الحكمة الإشراقية نفسها التي تأتي على أعقاب هذا الأساس العقائدي . وتتألف هذه المجموعة الرباعية من : «التلويحات» و«المقاومات»و«المطارحات»، التي تتناول ثلاثتها تعديل الفلسفة الأرسطية ، وأخيرا : درته النادرة : (حكمة الإشراق) التي تدور على العقائد الإشراقية.

2- رسائل قصيرة بالعربية والفارسية ؛ وهي تتناول المادة الواردة في المجموعة الرباعية بلغة أبسط وطريقة أسهل. وتشتمل هذه الرسالات على (هياكل النور)، (الألواح العمادية) ، «برتو نامه» أو (رسالة في الإشراق) ، و(في اعتقاد الحكماء) و(اللمحات) ، و (يزدان شناخت) أو (معرفة الله) ، (بستان القلوب).

وقد نسب الكتابان الأخيران : (معرفة الله) ، و(بستان القلوب) إلى عين القضاة «الهمذاني» و«السيد الشريف الجرجاني» على الرغم من أنه يبدو من المرجح جدا أنهما للسهروردي .

3- قصص أو روايات صوفية رمزية تصور رحلة النفس خلال الكون بحثا عن انعتاقها وإشراقها . وهذه الرسائل جميعها بالفارسية ، وإن كان لبعضها نظائر عربية. وهي تشتمل على: «عقل سرخ» أي: (العقل الأحمر)، «آواز بر جبرائيل» أي: (حفيف جناح جبريل)، «الغربة الغربية»، «لغت موران» أي: «لغة النمال»، رسالة في «حالة الطفولية» ، «روزي با جماعة صوفيان» ، أي: (يوم مع جماعة الصوفيين) ، «رسالة في المعراج» ، «صفير سيمرغ» ، أي : (صفير العنقاء) .

4- منقولات وترجمات وشروح على كتب الفلسفة القديمة والنصوص الدينية السماوية ، مثل : ترجمة (رسالة الطير) لابن سينا إلى الفارسية وشرح على (الإشارات) لابن سينا وتأليف (رسالة في حقيقة العشق) ترتكز على رسالة ابن سينا «في العشق» ، وتفاسير لعدة آيات قرآنية وأحاديث نبوية.

5- أوراد وأدعية بالعربية على نمط تلك التي كانت تعرف بـ «كتب الساعات» في العصور الوسطى، ويطلق عليها السهروردي اسم : «الواردات والتقديسات».

إن هذا الإنتاج ، مقرونا بالشروح المتعددة التي كتبت عليه في مدى القرون السبعة الماضية ؛ هو ما يكون مصدر عقائد المدرسة الإشراقية . وإنها لثروة طائلة للحكمة ، تحتوي على رموز كثيرة ، مستمدة من شتى المذاهب.

ويبدو أن سعة اطلاع السهروردي ، أوجدت عنده فكرة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين ، فالفلاسفة عنده : رجال من أسرة واحدة وفروع من شجرة مباركة تمد الإنسانية بما فيها من ثمار وخيرات ، لأنهم أبناء هذه الإنسانية ، ورجال السلام والإصلاح . وعلى هذا فإن زهاد الهند ، وفلاسفة الإغريق ، وحكماء العرب يسعون جميعا وراء غاية واحدة ، ويعملون على نشر نظرية ثابتة ، وينضوون تحت لواء فلسفة واحدة ، هي الفلسفة الإشراقية . ومبدأ هذه الفلسفة وأساسها الأول : أن الله نور الأنوار ، ومصدر جميع الكائنات ، فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي . والعقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها . فالفلسفة الإشراقية تعتمد إذا .. على نظرية العقول العشرة الفارابية مختلطة بعناصر فلسفية أخرى .

فالسهروردي يرى أنه إذا كان العالم في جملته قد برز من إشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والإشراق . فإذا ما تجردنا عن الملذات الجسمية ، تجلى علينا نور إلهي لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن

كائن ، منزلته منا كمنزلة الأب ، والسيد الأعظم للنوع الإنساني ، وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى : الروح المقدسة أو بلغة الفلاسفة : العقل الفعال . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة ، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم .

وليس للتصوف من غاية إلا هذا الارتباط ، والإشراقيون يسعون إليه ما استطاعوا إليه سبيلا ، وكثيرا ما ينعمون به . أما الأنبياء فهم في اتصال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردي : «إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عالمها هذه القوى البدنية ومشاغلها ، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وكثرة السهر تخلص أحيانا إلى عالم القدس، وتتصل بأبيها المقدس ، وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها ، كمرآة تنقش بمقابلة ذي نقش ».

فالفلسفة الإشراقية التي دعا إليها السهروردي متأثرة في بدئها ونهايتها بتعاليم الفارابي ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية ونزاعة إلى العالم العلوي . غير أن هذه الفلسفة صوفية كلها ، أو التصوف هو كل شيء فيها ، في حين أنه ليس لدى الفارابي إلا بعضا من مذهب متنوع الأجزاء ، هذا إلى جانب أن الاستشراقي لا يقنع بالعقل وحده ، بل يطمع في الامتزاج بنور الله عز وجل ، وهو نور الأنوار ، النور الذي ليس بعده ولا قبله نور . فكأن السهروردي حين دعي إلى الاختيار بين تصوف الحلاج ، وتصوف الفارابي ، رأى أن يجمع بينهما ، ويقول بالاتصال والاتحاد معا .. تتفرع من فكرته عن وحدة الوجود .

❋ ❋ ❋

الخيوشاني

أحد مجددي الإسلام في القرن السادس: «محمد بن موفق بن الحسن بن عبد الله» المعروف في التاريخ الإسلامي بالخيوشاني . نسبة إلى مسقط رأسه (مدينة خيوشان) بفارس ، والذي جاء إلى مصر من فارس، هذه البلاد التي اعتنق الإسلام فيها كثيرون، وكان منهم الأفذاذ من العلماء والمفكرين الذين تمتعوا بالعلم والإيمان كما تحاول هذه الموسوعة رصدهم ، وهذه واحدة من سمات الإسلام ، حيث لا يدخل في بلد من بلاد الله إلا ويثير نبوغ أبنائها ويحرك طاقتهم إلى العلم ، ويخرج خبيء عبقرية أهلها .

كان هذا الرجل الصالح .. إماما جليلا ، ورعا تقيا . لم تر العيون في زمانه أكثر منه علما وزهدا ، وإصرارا على الحق . هذه السمات جميعها هي التي جعلته يصمم على القضاء على المذهب الشيعي بمصر ، وبالتالي : إسقاط الخلافة الفاطمية لأسباب كثيرة ، أهمها : إحساسه - وهو المسلم السني - أن هذا المذهب الشيعي بدأ يحيد عن جادة الحق .

وأول ما يستوقفنا في سيرة هذا الإمام الورع تاريخ ميلاده ، حيث تتفق معظم المصادر التي ذكرت هذا التاريخ على أنه في سنة 516هـ في (قرية خيوشان) ، كان يتعلم الفقه على المذهب الشافعي على يدي «محمد بن يحيى» ، أكبر تلاميذ حجة الإسلام «أبي حامد الغزالي» ، ثم حضر مصر عام 560هـ . وتوفي ودفن فيها عام 587هـ .

لكن الغريب في سيرة هذا الإمام الصالح ، أنه نشأ في مجتمع تعتنق الأغلبية منه المذهب الشيعي في إيران ، في الوقت الذي يعتنق (هو) المذهب السني ، ويتعصب له

تعصبا ملك عليه أقطار نفسه . حتى إنه عزم وهو في التاسعة والأربعين من عمره . أن يحارب بكل ما أوتي من علم وحجة المذهب الشيعي الذي تفرضه الدولة الفاطمية. تلك التي كانت وقتئذ مهيمنة على الحواضر الإسلامية بما فيها بلاد إيران.

وفي ذلك .. يقول «المناوي» في كتابه : (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) على لسان هذا الإمام الجليل : الخيوشاني : «لابد أن أصعد إلى مصر وأزيل دولة الفاطميين» . وبالفعل ، صعدها قبل سقوط الدولة الفاطمية على يدي صلاح الدين الأيوبي بسنتين ، وأخذ - منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر - في محاربة الفاطميين ، وكان من قوة الحجة والبيان ، وعظم الشخصية وقوتها ، والتفاف الناس من حوله وتجمعهم .. أن أخذت حاشية الخليفة الفاطمي تهادنه وتسترضيه .

ويسجل المناوي هذه الواقعة التاريخية في كتابه (الكواكب الدرية) قائلا : «إنه لما جاء الإمام الخيوشاني ، وصرح بسب الفاطميين .. أرسلوا إليه مالا فرده إليهم ، وضرب لهم رسولهم على صدره ورأسه بقوة ، حتى صارت عمامته حلقا في رقبته ، وسب أميرهم سبا علنيا .. » .

وهذا يؤكد صدق ما وعد به قبل أن يغادر بلاده إيران ، متوجها إلى مصر من أنه سوف يعمل ما في وسعه على زعزعة أركان حكم الفاطميين الشيعة ، حيث كان قلبه مغلقا أمام كل تفاهم مع الشيعة ؛ مما زعزع مكانتهم في مصر .

وكما تذكر الدكتورة «سعاد ماهر» في كتابها (مساجد مصر) قائلة : « لقد وجد صلاح الدين الأيوبي بغيته في الإمام الخيوشاني عندما أراد تحويل الخطبة من خلفاء الفاطميين إلى خلفاء العباسيين أي : من المذهب الشيعي إلى المذهب السني ؛ حيث تهيب صلاح الدين من هذا الإجراء في بادئ الأمر ، حتى وقف الإمام الخيوشاني أمام المنبر بعصاه، وأمر الخطيب بذكر بني العباس، ففعل. وهكذا نرى أن الخيوشاني أصر على موقفه . وتكرر هذا الموقف حتى كان العامل الأول في القضاء على المذهب الشيعي الإسماعيلي في مصر ، وبالتالي .. في إسقاط الخلافة الفاطمية .. » .

صحيح .. أن دعوة الإمام الخيوشاني قد تحولت من الصبغة العقائدية - أي : مناهضة مذهب ديني لمذهب ديني آخر - إلى صبغة سياسية . وصحيح أيضا أن المستفيد في هذا الصراع هو النظام السياسي في المقام الأول ، المتمثل في حكم صلاح الدين الأيوبي ، غير أن ذلك كان في مصلحة مصر . بشهادة الكثيرين من المؤرخين ، وذلك لجنوح الشيعة من ناحية ، وعدم قبول كل المصريين لها من ناحية أخرى .

وطبيعي - والأمر كذلك - أن يحترم صلاح الدين الأيوبي هذا الإمام الجليل ويقدره ، وربما كان يخشاه ، حيث وقر في نفسه ، واستقر في اعتقاده أنه إذا غضب عليه هذا الإمام الصالح ودعا عليه ، فسوف يصاب بمكروه . ولعله نوع من الاعتقاد كان يساور هذا السلطان العظيم الذي دانت له الممالك والأمم ، قد يكون جانبا من شخصيته التي كانت تخشى الله وأولياءه من الصالحين ومنهم هذا الرجل الصالح .

ومما يذكر في هذا الصدد : أنه لما خرج صلاح الدين الأيوبي لقتال الفرنجة عند بلدة الرملة بالشام ، توجه إلى بيت الإمام الخيوشاني قاصدا وداعه ، كما تعود أن يفعل في كل أمر كان يستعد القيام به . وفي هذا اللقاء ، التمس الإمام الخيوشاني من صلاح الدين الأيوبي أن يبطل بعض المكوس التي كانت تحصل من الحجاج ، فرفض صلاح الدين هذا الالتماس ، فقال له الإمام الخيوشاني محتدا : « قم لا نصرك الله» ، ووكزه بعصاه بشدة ، فوقعت قلنسوة السلطان صلاح الدين عن رأسه . والغريب .. أن هذا السلطان العظيم لم يتخذ منه موقفا مشددا ، والأغرب : أن المسلمين هزموا في هذه المعركة ، كنوع من الفأل غير الطيب .

كان الإمام الخيوشاني لا يخشى في الله لومة لائم ، لقد علم أن « تقي الدين » ابن شقيق صلاح الدين يبيع «المزر» وهو شراب من الذرة مسكر ، شأنه شأن البيرة في أيامنا ، فكتب إلى السلطان صلاح الدين يطلب منه أن ينهى ابن أخيه عن

بيع هذا الشراب. وهنا واجه السلطان صلاح الدين ابن أخيه قائلا: «يا بني، لا طاقة لنا بالشيخ الخيوشاني، اذهب إليه وترضاه» . وتنفيذا لرغبة العم ذهب ابن الشقيق إلى الإمام الخيوشاني . وعند بابه أرسل إليه من يعلن عن حضوره واعتذاره قائلا : «تقي الدين ابن شقيق السلطان صلاح الدين يسلم عليكم» فرد الإمام الخيوشاني : « بل قل : شقي الدين لا سلم الله عليه » فقال الرسول : « إنه يعتذر » فرد الخيوشاني قائلا : « إنه الكذب » وامتنع عن مقابلته . فما كان من تقي الدين إلا أن امتنع عن بيع هذا الشراب خوفا من غضب الخيوشاني .

كذلك يذكر المناوي : أن الخيوشاني عاش عمره لم يأكل لقمة واحدة من وقف الدولة . ولم يأخذ من مال الملوك درهما واحدا . وعندما توفي كفن في كسائه الذي جاء به من خيوشان ، موصيا أن يضم جثمانه إلى جثمان الإمام الشافعي تحت قبة واحدة بالقاهرة .

* * *

القنـائي

فترة اتسمت بالصراع الحاد في المغرب ، بين المرابطين الذين يحاولون – في بـأس شديد – استرجاع ماضيهم السليب ، والموحـدين الـذين يتفـانون في تثبيـت دعـائم ملكهم .. في هذه الفترة ولد «أسد بن أحمد بن حجون» الشهير بالسيد عبـد الـرحيم القنائي في سنة 521 هجرية، من أخريات أيام مؤسس دولة الموحدين «ابن تومرت»، والذي مات بمصر عام 592هـ ، فهو من مجددي القرن السادس الهجري .

وكانت (مدينة ترغاي) بإقليم (سبتة) بالمغرب هـي مـسقط رأس هـذا الرجـل الصالح . وفيها نشأ وترعرع ، وفي دور العلم بها حصل الكثير من المعارف الدينيـة . خاصة في مسجد ترغاي الكبير ، متتلمذا على أيدي كبـار علمائهـا . وفي مقـدمتهم : والده «أحمد بن حجون» . فقد كان عالمـا تقيـا ورعـا .. يتمتـع بمكانـة عظيمـة مـن الاحترام والتقدير . كما كان له في نفوس أهل إقليمه «ترغاي» كل محبة وولاء ، فهـو بينهم الإمام ، والواعظ ، والمعلم ، والمصلح الديني والاجتماعي الذي يلجأ إليه كـل صاحب مشكلة فقهية أو علمية أو اجتماعية .

وقد يلحظ القارئ أن اسم الوالد هو أحمد بن حجون يختلـف تمامـا عـن اسـم الابن الذي هو عبد الرحيم القنائي ، فما معنى هذا الاختلاف ؟

إن لذلك قصة .. تبدأ منذ أن رزق هذا الوالد الصالح أحمد بن حجـون بغـلام سماه «أسد» ، على ما كان شائعا في القبائل بالمغرب ، واستمر هذا الاسـم دون تغيـير حتى كبر الغلام وشب ولم يتغير ، غير أن الابـن نفـسه رأى ضرورة تغيـير الاسـم ، لشعور داخلي بأن «أسدا» لا يستقيم مع ما يتسم به من تقوى ودعة ورحمـة ، ووجـد

أن أقرب الأسماء إلى صفاته هي اسم «عبد الرحيم» . وفي ذلك يقول عن نفسه : «كان اسمي الذي سميت به أسدا بلغة أهل قبيلتنا، فلما فتح الله لي، وعاينت وصف الرحمة، سميت نفسى عبد الرحيم طمعا فيما عاينت .. » . ثم أضيف إلى «عبد الرحيم» صفة « القنائي » نسبة إلى تواجده بمدينة قنا بصعيد مصر ، فاشتهر بين الناس بعبد الرحيم القنائي ، كما سيأتي فيما بعد . وعرف بهذا الاسم حتى وفاته .

ونعود إلى تأمل سيرة حياة هذا الرجل الصالح ، فنجده طفلا نشأ نشأة دينية خالصة ، تبدأ من البيت ، حيث تتفتح كرامته على والده متعبدا تقيا ، وتنتهي إلى المسجد وغيره من أماكن العبادة وتلقي علوم الدين ، حتى لم يكد يصل إلى العاشرة من عمره ، حتى كان قد حفظ القرآن ، وجوده تلاوة وفهما .

ويستمر على هذه الحالة ، حتى إذا بلغ الثامنة عشرة من عمره يتوفى والده ، فيترك هذا الحادث الجلل أثرا كبيرا في نفسه ؛ فلم يكن هذا الوالد مجرد أب له ، بل كان معلما له أيضا . حتى إن وفاته تركت بصماتها على صفحة حياته من الناحية النفسية ، والناحية الجسدية أيضا . وصار أمرا لاحظته والدته العربية الأصل ، فرأت أن ترسله إلى أشقائها بدمشق في الشام ، فربما يكون في الإقامة بين أخواله في المشرق العربي – إلى جانب تغير المكان – ما يشفيه نفسيا ، وما يعينه على النمو جسديا ، أو ربما يتحقق من هذه السفرة بعض الفوائد التي أولها تحصيل معارف جديدة تشغله عما يفكر فيه من رحيل الأب والمعلم .

وبالفعل .. رحل الابن عبد الرحيم إلى المشرق حيث دمشق ، وكما توقعت والدته لم تقتصر الفائدة على الشفاء فحسب ، بل تجاوزتها إلى تحصيل أكبر قدر من علم ، مما يوافق استعداده الطبيعي .

ففي دمشق .. استطاع الاتصال بكبار علماء وفقهاء المشرق العربي ، وأن يقترب من عالمهم .. ويظل على هذا الحال فترة من الزمن قد جاوزت العامين ، نهل فيهما

من علوم المشارقة ، كما تفقه في علوم المغاربة ، إلا أن شدة الحنين إلى مسقط رأسه «ترغاي» بالمغرب التي تناديه إلى العودة ، فعاد إليها ، وقد أصبح في العشرين من العمر . هذا إلى جانب أنه أضاف إلى معارفه وتجاربه معارف وتجارب جديدة اكتسبها من تواجده عامين في المشرق ، كما أكسبه نضجا وعلما جديدين .

لقد كان الامتزاج بين الثقافة المشرقية والأخرى المغربية أثرهما البالغ في نفس ذلك الشاب المتفتح الواعي ، لقد صقل هذا الامتزاج شخصيته بشكل ملحوظ ، حتى أصبح من العلماء الذين يمكن أن يرجع إليهم في القضايا الدينية .

ومما ذكره المؤرخون : أن هذا الرجل الصالح كان حين يدخل المسجد لا يدخله كطالب علم ، بل على أنه عالم يملأ المكان الذي أصبح شاغرا لرحيل والده ، حتى إن المسجد الكبير في «ترغاي» بالمغرب . كان يمتلئ حيث لم يعد فيه مكان لقادم . فالناس يأتون إليه من كل صوب وحدب ؛ ليروا ابن العشرين عاما عالما يجمع بين ثقافة المشرق وثقافة المغرب . أو بين ما حققه في طفولته وصباه . وبين ما اكتسبه في شبابه وسفره .

وهكذا .. قضى السيد عبد الرحيم القنائي خمس سنوات جديدة من عمره على هذا النحو إماما وفقيها في موطنه «ترغاي» بالمغرب ، إلى أن سمع عن تكتل لقوى العدوان الصليبي ، تتجه بأنظارها إلى المشرق العربي ؛ لتفتك به تحت راية الصليب . وهنا رأى وجوب تكتل القوى لحماية حواضر الإسلام . وفي هذه الأثناء توفيت والدته ، تلك التي كانت تجعله يتمسك بالبقاء في «ترغاي» .

وهنا عزم على الرحيل متوجها إلى المشرق مرة ثانية ، ولكن إلى الحجاز هذه المرة لتأدية فريضة الحج .. وبين الأماكن المقدسة يظل تسع سنوات متنقلا وحاجا في كل سنة . حتى إذا كان موسم الحج العاشر ، التقى بأحد الرجال الصالحين ، وهو الشيخ «مجد الدين القشيري» ، القادم من صعيد مصر ، ويتم بينهما حديث ودي – فقد كان

كل منهما قد سمع بأخبار الآخر - خلاصته : لم لا يفكر في السفر إلى مصر ؟! ودعاه لزيارة «قنا» لما لها من مقومات ، ربما لا تتوافر في أي مدينة مصرية أخرى ، لم لا يسافر لرفع راية الإسلام ، وتعليم المسلمين أصول دينهم خاصة وأن القشيري قد لمس في هذا الشاب الورع من علم وفضل ، وتقوى وورع .

ولم يتردد في السفر إلى قنا بصحبة «الشيخ القشيري» . وفي هذه المدينة الهادئة بدأ صفحة جديدة من حياته . فأمضى في بادئ الأمر عامين ، يتعبد ويختلي بنفسه ليعرف خباياها وجوهرها ، وفي الوقت نفسه كان يعمل ليضمن قوت يومه ؛ فهو يرى أن الدين الإسلامي دين علم وعمل ، ومن ترك واحدة منهما ضل الطريق .. وبدأ بعد ذلك في القيام بمهمة الوعظ والدعوة . وتقديم الدين الإسلامي على نحو ما عرف وما اكتسب ، سواء في المغرب أو المشرق . وأفاض في ذلك وفتح الله عليه ، فكانت له مؤلفات ، في مقدمتها (تفسير القرآن الكريم) و(الأصفياء) وغيرهما .

وامتدت شهرته إلى أبعد من المكان الذي اختاره للقيام بمهمته ؛ حتى وصلت إلى السلطان «العزيز بن صلاح الدين الأيوبي» ، فأصدر قرارا بتعيينه شيخا لمدينة قنا، ومن يومها أصبح يعرف بالقنائي . واستقر في هذه المدينة من صعيد مصر ، وتزوج ابنة الشيخ القشيري ، وأنجب أولادا كثيرين ، وأنشأ زاوية يتعبد فيها ، حتى كانت وفاته سنة 592 ، فدفن في المكان المقام عليه مسجده الآن بمدينة قنا .

والحق .. أن للسيد عبد الرحيم القنائي الكثير من الإضافات في مجالات عدة ، لعل أبرزها : التصوف ، والعلم ، والاجتماع ، والأخلاق . وقد سجل الأستاذ «محمد عبده الحجاجي» في كتابه (شخصيات صوفية في صعيد مصر) الكثير من هذه الإنجازات ، مستندا إلى عدد من كتب الطبقات والسير والمؤرخين الذين أفاضوا في الحديث عن السيد عبد الرحيم القنائي . وعددوا آراءه في التصوف والأخلاق والعلوم الإسلامية ، ومنهم «ابن نوح الأقصري» في كتابه (الوحيد في سلوك أهل

التوحيد) و«الأدفوي» في كتابه (الطالع السعيد) و«الإمام الشطنوفي» في كتابه (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) . و«الإمام الشعراني» في كتابه (لـواقح الأنـوار في طبقـات السادة الأخيار) المعروف بالطبقات الكبرى ، و«الإمام المناوي» في كتابه (الكواكـب الدرية في طبقات السادة الصوفية) وغيرهم . وكلهـم يجمعـون فـيما كتبـوا عـلى أنـه القطب الصوفي الكبير ، والعالم الفقيه الذي بلغت شخصيته المثـل الأعـلى في صـعيد مصر في القرن السادس الهجري في جانبين من العلوم هما : «الحقيقة» و«الـشريعة» . رضي الله عنه وأرضاه .



ابن رشد

في ظل ظروف هذا القرن (السادس الهجري) تلك التي أشرنا إليها ، ظهر ابن رشد ليكون أحد مجددي هذا القرن ، بل والمفكر العالمي الذي اختارته الأقدار ليدرس ويتدبر أصول الشريعة الإسلامية ، ويبحث ويستوعب نظريات الفلسفة . ثم يتأمل ذلك الخيط الرفيع بين معطيات العقل الإنساني وأصول النقل الإلهي . حتى ينتهي إلى بناء يوفق فيه بين هذا العقل وذاك النقل . فيقضي على الاعتقاد بأن الفلسفة رجس من عمل الشيطان .

ولاشك أن هذا العمل من ابن رشد كان مشكورا . ويكفي أن ندلل على ذلك من أن الفلسفة في العالم الإسلامي : شرقه وغربه كانت في محنة مصدرها موقف «الغزالي» حين هاجم الفلاسفة السابقين ، وضاعف من الاهتمام بالتصوف ، حتى خيل للناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وتضخم هذا المعنى بعد أن استهدفت لهجمات علماء الكلام من أشاعرة ومعتزلة وتعمدهم الخلاف في نظرتهم للأشياء . فكل فريق يدعي لنفسه حق تأويل الدين ، ويدعوه هذا الحق إلى تكفير غيره .

وهنا .. برز دور «ابن رشد» وموقفه الذي تضمنه كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال) ليوفق بين القانون الإلهي المعروف بالشريعة . والتأمل العقلي والحكمة المعروفة بالفلسفة ، ويقرر وحدة المقصد والهدف والغاية للاثنين ؛ فكل منهما : «الشريعة» و«الفلسفة» رفيقة وأخت وشقيقة للأخرى ؛ ذلك لأن الحقيقة واحدة، وكل ما هنالك أننا نسعى إليها ونفسرها على أنحاء كثيرة. فالشرع يرد بالحق. والنظر العقلي يؤدي إلى الحق. وعلى ذلك.. فالاثنان متفقان في الهدف .

جوهر نظرية ابن رشد هو : التوفيق بين الدين والفلسفة ، أي : لا يوجد تعارض بينهما . فالفلسفة تفحص ما جاء به الشرع وتتأمله . فإن أدركته استوى الأمر، وإن لم تدركه أعلنت قصور العقل الإنساني في أمر يدركه الشرع وحده . ولهذا.. فالشرائع ضرورية للعقول التي تفكر ، والفلاسفة لديهم القدرة على عرض ما في الشرائع من معان .

وكما يدلل ابن رشد على صدق نظريته، فيرى أن الشرع يحثنا على النظر العقلي في الموجودات ، وهو ما يستفاد من الآيات الكريمة : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[1] . ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾[2] .

كذلك يقول ابن رشد : ينبغى أن نعلم أن مقصود الشرع إنما هو تعليم العلم الحق ، والعمل الحق ، والعلم الحق هو معرفة الله تعالى من بعده سائر الموجودات على ما هى عليه . والعمل الحق هو امتثال الأفعال التى تفيد السعادة وتجنب الأفعال التى تجلب الشقاء . وينبه ابن رشد أننا مدعوون أيضا إلى البحث عما انتهت إليه الأمم السابقة . في باب النظر في الموجودات . فإذا ما ألفيناه متفقا مع ما تقتضيه شرائط البرهان الصحيح قبلناه وسررنا به وشكرناهم . وإذا ألفيناه غير ذلك نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

إلى جانب هذه النظرة التجديدية . فإن ابن رشد استطاع بوهج فكره أن يعاون الشعوب والأمم المجاورة لدار السلام في النهوض بفكرها . وتلك واحدة من رسالات التجديد الكبرى في الإسلام .

بعد ذلك .. لعلنا نتعرف على سيرة وملامح تفكير هذا الفيلسوف العالمى ؛ ليتضح لنا دوره العظيم في الفلسفة والدين، وكيف أمكنه التوفيق بينهما على ما رأينا، وأسباب اختياره مجددا في الإسلام .

---

(١) الحشر : 2 .
(٢) الأعراف : 185 .

في ظل هذه الظروف الفكرية مصحوبة بالظروف السياسية السيئة .. نشأ ابن رشد في أسرة تضم العلماء والقضاة والمفكرين . ودرس على أعلام عصره ، وبرع في الفقه والفلسفة والطب . حتى إذا بلغ الثلاثين من العمر ، كانت دولة المرابطين قد أذنت بزوال وظائفها ، وخلفتها دولة الموحدين الدينية . فنزح إلى إشبيلية وهناك قدمه ابن طفيل إلى الخليفة الموحدي «أبو يعقوب يوسف » ، وكان يعمل طبيبا خاصا له . ولم يمض وقت طويل حتى أشار عليه ابن طفيل بأن يشرح ويقدم فلسفة أرسطو ؛ لأن الخليفة كثيرا ما شكا من غموضها، وتروق الفكرة لابن رشد فينفذها، ويقدم ثلاثة أنواع من الشروح هي : الأصغر والأوسط والأكبر للكتاب الواحد من كتب أرسطو . ويلمع نجمه ، وتزيد حظوته عند الخليفة الذي كان عالما حافظا فيقربه منه ، حتى إذا مات ابن طفيل يجعله طبيبه الخاص . حتى يتوفى هذا الخليفة ويتولى الخلافة ابنه المنصور .. وكان كأبيه عالما حافظا يعشق الاستماع إلى آراء ابن رشد ، ولا سيما التي حول علاقة الدين بالفلسفة .

ولكن هذه الفترة التي كانت فيها شهرة ابن رشد ؛ أعقبتها فترة أخرى كانت فيها نكبته ؛ حيث دس البعض من ذوي النفوس الضعيفة بينه وبين الخليفة ، فبثوا حول آرائه دعاية مسمومة مؤداها : الخروج على أحكام الشريعة الإسلامية ورموه بالمروق والإلحاد ... مع أنه هو القائل : «إن مبادئ الشريعة الإسلامية تفوق العقول الإنسانية، فلابد أن يعترف بها من جهل أسبابها» ، وعلى الرغم من هذا انتهى الأمر بإدانته ومعاقبته بالنفي مع عدد من تلاميذه ومريديه ، ثم تبرئته قبل وفاته بسنوات قليلة .

ولعل تجديد ابن رشد فيما يتضمنه كتابه: (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) من أساسيات هذا التجديد ، فالكتاب من عنوانه يوفق بين القانون الإلهي «الشريعة» والتأمل العقلي «الفلسفة » ، ويقرر وحدة المقصد والهدف والغاية للاثنين .. فكل منهما : الشريعة والفلسفة رفيقة وأخت وشقيقة للأخرى. ذلك لأن الحقيقة واحدة .. كل ما هنالك أننا نسعى إليها ونفسرها على أنحاء

مختلفة.. فالشرع يرد بالحق.. والنظر العقلي يؤدي إلى الحق ، وعلى ذلك يكون ما يأتي به النظر العقلي موافقا لما ورد به الشرع .

جوهر النظرية – إذا – هو أنه لا يوجد تعارض بين الدين والفلسفة بل يجب ألا يوجد ؛ فالفلسفة تفحص كل ما جاء في الشرع ، فإن أدركته استوى الأمر ، وإن لم تدركه أعلنت قصور العقل الإنساني عن أمر يدركه الشرع وحده . ولهذا .. فالشرائع ضرورية للفلاسفة .. وللفلاسفة وحدهم القدرة على عرض ما في الشرائع من معان باطنة .

وبالطبع .. تقابل نظرية ابن رشد (1126-1198) بالرفض ؛ فالعقول وقد أغلقت على مفاهيم معينة ..استبعدت احتمال أي اتفاق بين الدين والفلسفة ، لكن على الرغم من هذا سرت هذه النظرية في الفكر العالمي كالنار في الهشيم ، ووجدت من يقف أمامها تلميذا صاغرا في الغرب والشرق ، فيظهر أثرها في الفلسفة اليهودية والأخرى المسيحية كما تذهب مؤلفات الأساتذة : «أرنست رينان» و «آسين بلاسيوس» و«جوتييه» و «دي بور» و «كارادي فو» و « خثالث بالنيثا» و «الأب قنواتي» و«جميل صليبا» و« فرح أنطون» و«يوحنا قمير» و«حنا الفاخوري» و«خليل الجر» و«عبد الرحمن بدوي» و«محمود قاسم» و«محمد يوسف موسى» و«محمد عاطف العراقي» و«محمد عمارة» .

ففي الفلسفة اليهودية نجد مؤسسها : «موسى بن ميمون» (1204– 1135) الذي يلقب بموسى الثاني أو رئيس الملة اليهودية أو بالعبرية «موشا هرمانة » ، أي موسى زمانه يتأثر في تأسيسه للفلسفة اليهودية بآراء أستاذه ابن رشد حتى إن أهم كتبه (دلالة الحائرين) الذي يتضمن التوفيق بين العقيدة الموسوية والفلسفة .. يقلد ابن رشد .. ولم ينته تأثير ابن رشد عند أبي الفلسفة اليهودية ، وإنما امتد إلى تلاميذه وأتباعه من الملة اليهودية ؛ مما جعل بعض الكتابات الأجنبية تبالغ حيث تقول : إن

اليهود هم الورثة الحقيقيون لفكر ابن رشد ، وقد أثارت هذه السيطرة الرشدية غضب رجال الدين اليهودي . وبسببها حكمت محاكم مونبلييه على مؤلفات ابن رشد بالحرق وحرمت تدريس الفلسفة اليهودية – في مناطق أخرى – لمن يقل عمره عن العشرين عام 1305 بسبب الرشدية أيضا . وعلى الرغم من هذا لم ينته أثر ابن رشد في الفلسفة اليهودية ، خاصة وأن «ابن ميمون» أقام مدرسته بالإسكندرية – بعد فراره من مسقط رأسه قرطبة – علم فيها اليهود فلسفته القائمة على التوفيق بين العقيدة والفلسفة ، وهذه المدرسة هي النواة الحقيقية للجامعة العبرية ، والتي أصبحت مركزا للبحوث والعلوم اليهودية .

وفي الفلسفة المسيحية.. نجد أكبر فلاسفتها «القديس توما الأكويني» (1225–1274) يتبع نظرية ابن رشد في التوفيق بين الفلسفة والدين ، فيحل بعض المشكلات التي كانت قائمة بين الفلسفة واللاهوت . ولعل توفيقه بين الدين والفلسفة هو الذي أسبغ عليه الكثير من النعوت التي أقلها أنه : أكبر الفلاسفة في العصر الوسيط . وقد سلك هذا الفيلسوف العظيم رشدية معتدلة . فاتبع منهاج ابن رشد سرا ، وهاجمه علنا، مسايرة للسلطات الدينية في ذلك الوقت . ولم ينكشف أمر تأثره بابن رشد إلا بعد وفاته ، فقد اعتبر مبتكرا : وفي ذلك يحثنا «رينان» في كتابه (ابن رشد والرشدية) ص 368 حديثا يتفق مع ما جاء في كتاب : (المذهب الرشدي عند القديس توما الإكويني) «لآسين بلاسيوس»، فيؤكد أن القديس «توما الأكويني» كان من أشد خصوم ابن رشد في الظاهر، ولكن يمكن اعتباره تلميذا له في المنهج وفي طريقة التأليف ، ويدلل «بلاسيوس» على التشابه بين الفيلسوفين الكبيرين ، ويذكر أن هذا التأثير قد تم بطريقين : **أحدهما** غير مباشر ؛ حيث اعترف القديس توما الأكويني بأنه أخذ نظرية التوفيق عن «ابن ميمون» ، **والأخير** – كما نعرف – تلميذ لابن رشد ، والآخر مباشر حيث اطلع على هذه النظرية بعد أن ترجمها عن العربية زميله في طائفة الدومينيكان القديس «ريموند مارتان» . وعلى أي

حال لن ينسى تاريخ الفكر فضل وشجاعة القديس توما الأكويني حين قام بهذا العمل الجليل .

ومن عباءة ابن رشد .. خرج عدد كبير من الفلاسفة الأوروبيين متأثرين بالرشدية اللاتينية Latin-Avirroism نسبة إلى صاحبها ابن رشد الذي تعرفه أوروبا باسم Avirrois فيروس .

وانتشار آراء ابن رشد في الفكر العالمي - إبان العصور الوسطى - أثار مخاوف السلطات في باريس ، فاتخذت إجراءات مشددة لتحريم تعليمها في الجامعة دون تنقيح ، واستفحل الأمر لدرجة أن أسقف باريس «اتنيين تامبييه» أصدر بيانا في 1270/12/10 ضمنه ثلاث عشرة رشدية تستوجب الحظر والمنع ، ولم يقتصر الأمر على باريس ، بل وصل إلى إيطاليا وغيرها ، حيث تسربت أفكار ابن رشد إلى الأوساط العلمية ، وتجاوزتها إلى فئات الشعب تخاطب فيهم ملكة العقل وتدعوهم إلى إعادة النظر بأن الفلسفة ليست رجسا من عمل الشيطان ، وإنما هي علم يتفق مع الدين ، مما أثار محاكم التفتيش في أوروبا .

لكن هذه المواقف المناهضة للفلسفة الرشدية إبان العصور الوسطى، لم تستمر طويلا ، فلم يأت القرن الرابع عشر حتى صارت الرشدية المرجع والمصدر لكل باحث ودارس ، وحتى قيل : إنه لما أراد «لويس الحادي عشر» ملك فرنسا إصلاح التعليم بفرنسا عام 1473 طلب من الأساتذة اتباع تعاليم ابن رشد .

ولعل تجديد ابن رشد في الإسلام يتضح في واحد من مؤلفاته الكثيرة ، وهو كتاب : (فصل المقال وتقرير ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) . نقرأ بعض ما كتبه في العرض القيم الذي كتبه «الدكتور عبد الرحمن بدوي» أو غيره من المفكرين. من جملة ما جاء فيه أن أبا الوليد محمد بن رشد ، أكبر المفكرين العرب أثرا في الحضارة الأوروبية بفضل شروحه العظيمة على «أرسطوطاليس» . وقد قصد فيه

إلى بيان الصلة بين الفلسفة والشريعة . وكان الدافع إليه ما كان يثار في ذلك العصر من مساجلات في الشرق أو في الغرب حول تحديد هذه الصلة ، مساجلات اتخذت في بعض الأحيان صورا عنيفة ، خصوصا في الأندلس ؛ حيث كانت الأحوال السياسية تدفع بعض الحاسدين إلى الانتقام من خصومهم بإثارة العامة ضدهم واكتساب تأييد السلطان وهو الحريص على ترضية العامة في مثل هذه المواقف .

وكانت مؤلفات الغزالي قد بدأت تحدث أثرها في المشرق والمغرب على السواء ، والغزالي قد وقف موقفا غريبا : فقد عني بالفلسفة ، ولكنه هاجم الفلاسفة هجوما عنيفا في كتاب (تهافت الفلاسفة) ، وعني بالشريعة والتصوف حتى بدا في عيون الناس أنه حجة في الدين ، فتولد عن هذا كله تيار انتشر ببطء ، ولكنه فعال ما لبث كلما انتشر أن بولغ فيه أو بالأحرى في الجانب السلبي منه ؛ حتى كاد يخيل لعامة الناس أن الفلسفة تعارض الدين ، وهذا الرأي في بيئة ملتهبة الإحساس الديني بتأثير النزاع المسلح المستمر بين المسلمين والنصارى في الأندلس ، كان من شأنه أن يحدث هزة شديدة ، فاستغله الفقهاء من خصوم الفلاسفة . وكان طبيعيا إذا : أن ينبري الفلاسفة للدفاع عن أنفسهم وبيان أنه ليس ثم تعارض بين العقل والإيمان ، بين الفلسفة والدين . فجاء «ابن طفيل» في قصة (حي بن يقظان) ليثبت الاتفاق بين الفلسفة وبين الدين ، ولكنه لجأ إلى الرمز ، ولم يفصل القول في حل المشكلة . لهذا جاء ابن رشد فعالجها في ثلاث رسائل هي أولا : (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ثم في كتاب : (الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة) ثم: (ضميمة) لما تناوله في الرسالة الأولى تتعلق بالعلم القديم ، أي علم الله منذ الأزل بما سيقع من حوادث .

بدأ ابن رشد فعرف الفلسفة بأنها : النظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، أعني من جهة ما هي مصنوعات أي مخلوقات . وبعبارة أبسط يقول : إن الفلسفة هي البحث عن الموجودات من حيث هي تدل على موجد لها .

ومن الواضح أنه : كلما كانت المعرفة بخلق الموجودات أتم ، كانت المعرفة بخالقها أتم. والشرع يدعونا إلى النظر في الموجودات ، وحث على ذلك في كثير من آيات الكتاب الكريم ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[1] ، ففي هذه الآية حث على وجوب استعمال القياس العقلي ، أو العقلي والشرعي معا ، ومثل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾[2] وفيها حث على النظر في جميع الموجودات ؛ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[3] إلى غير ذلك من آيات لا تحصى، فيها النص على وجوب استعمال العقل في النظر إلى الموجودات ، وعلى البحث في مخلوقات الله والتفكر في الخلق توصلا إلى تمام العلم بالخالق .

فما دام الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها - فكأنه قد أوجب علينا أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي ، وبأتم أنواع النظر وهو البرهان العقلي المنطقي . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الضروري على من ينظر بالنظر العقلي أن يتقدم فيعلم أنواع البرهان وشروطه والقياس الصحيح والفاسد منه ، وبالجملة أن يعلم المنطق العلمي حتى يستطيع استخدامه في النظر العقلي إلى الموجودات .

ولا وجه للاحتجاج هنا بأن هذا النوع من النظر في القياس العقلي بدعة ، إذ لم يكن في صدر الإسلام ، وإلا لكان النظر في القياس الفقهي بدعة أيضا ؛ لأنه استنبط بعد الصدر الأول ؛ والفقهاء لا يرونه بدعة ، بل بالعكس يرونه أحد مصادر التشريع الأربعة وهي : الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

(١) الحشر : ٢ .
(٢) الأعراف : ١٨٥ .
(٣) آل عمران : ١٩١ .

وهنا قد يقال أيضا : ولكن الذي وضع المنطق – أرسطو – ليس من المسلمين . وابن رشد يرد على هذا فيقول إنه من العسير بل من غير الممكن أن يفى واحد من الناس من تلقائه بمعرفة المنطق بجميع أنواعه ، بل لابد أن يستعين المتأخر بالمتقدم ، سواء كان المتقدم ممن يشاركنا في الملة أو كان لا يشاركنا ، لأن الصحة في المنطق تتوقف على العقل ولا تعتبر فيها المشاركة في الدين . لهذا .. يجب علينا أن نستفيد من كتب القدماء من غير المسلمين ممن بحثوا في المنطق ، ووضعوا قواعد البرهان والقياس العقلى ؛ إذ بهذه الاستفادة تم لنا الأداة التى نستغيث بها في تحصيل ما حثنا الشرع على تحصيله من العلم بالموجودات للدلالة بها على موجدها تعالى .

ويخلص ابن رشد من هذا كله إلى إثبات وجوب معرفة المنطق العقلي ، حسبما انتهى إليه علماء هذا العلم : مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ومن ناحية أخرى ، فإن طباع الناس في الاقتناع متفاضلة متنوعة : فمنهم من يصدق بالبرهان ، ومنهم من يصدق بالأقاويل الجدلية تصديق صاحب البرهان – إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك – ومنهم من يصدق صاحب البرهان بالأقاويل البرهانية . وعلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾[1]. ففي هذه الآية إشارة إلى الطرق الثلاث: البرهان ، والقول الخطابي ، والقول الجدلي .

ولهذا .. فإنا نعلم معشر المسلمين علما قاطعا أن النظر العقلى بالبرهان العقلى لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحق لا يضاد بالحق ، بل يوافقه ويشهد عليه، وإلا لو كان يخالفه لما دعانا الشارع إلى ذلك وحثنا عليه .

فالفكرة الرئيسية في رسالة ابن رشد هذه هى : أن النظر العقلى بالبرهان العقلى يؤدي إلى الحق ، والشرع ورد بالحق ، والحق لا يتعدد ولا يضاد الحق . وعلى ذلك ، فمن الضروري أن يكون ما يأتي به النظر العقلي موافقا لما ورد به الشرع .

(١) النحل : ١٢٥ .

والأمر بعد هذا واحد من اثنين : فإما أن يكون ما أتى به البرهان العقلي سكت عنه الشرع ، أو يكون الشرع قد ذكره . فإن كان ما سكت عنه الشرع فلا تعارض هناك ، وإن كان مما ذكره الشرع فإما أن يكون ظاهره موافقا لما أدى إليه البرهان ، أو مخالفا ، فإن كان مخالفا فعلينا تأويله ، أي : تأويل لفظ الشرع ، وذلك بإخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير إخلال بما جرى عليه لسان العرب في المجاز ، وحينئذ سيتبين أن المخالفة كانت في الظاهر فحسب . ولقد أجمع المسلمون على أنه لا يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل ، والمشكلة بعد هذا في : أي المسائل حمل على ظواهرها ، وأيها تؤول ؟ وأول حل يتبادر إلى الذهن هو القول بأن ما أجمع عليه المسلمون في كلتا الحالتين هو الأولى بالاعتبار. ولكن الحل ليس بهذه البساطة؛ لأن انعقاد الإجماع بكل شروطه أمر عسير جدا إن لم يكن مستحيلا . ولهذا .. يرد ابن رشد على الغزالي فيما أخذه على الفلاسفة من آراء ظن هو- أي الغزالي- أنهم بها خالفوا الشرع، وأهمها مسألتان: **الأولى** أن الغزالي نسب إلى الفلاسفة أنهم يقولون إن الله لا يعلم الجزئيات، **والثانية** أنهم يقولون إن العالم قديم . وينفي ابن رشد عن الفلاسفة التهمة الأولى بقوله أن إطلاق العلم على الإنسان غير إطلاقه فيما يتعلق بالباري تعالى ، فعلم الباري لا يجوز أن يوصف بأنه كلي أو جزئي فلا معنى للاختلاف في هذه المسألة ، أعني في تكفير الفلاسفة بها أو عدم تكفيرهم ؛ لأن المقصد مختلف في الحالتين ، بل علم الله علم خاص يحيط بكل شيء ، كذلك الأمر في مسألة قدم العالم ، أي وجوده منذ الأزل ، فالاختلاف فيها راجع أيضا إلى التسمية ، فالفلاسفة ليسوا متفقين على رأي في هذه المسألة ، كذلك لو تصفحنا من جهة أخرى ظاهر الشرع وجدنا أن صورة العالم هي المحدثة . أما نفس الوجود والزمان فمستمر من الطرفين ، أعني أنه منذ الأزل ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ**

أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[1] فهذه الآية تقتضي بظاهرها أنه كان ثمة وجود قبل هذا الوجود– وهو: العرش والماء، وزمان قبل هذا الزمان الذي هو حركة الفلك، وكذلك من حيث الأبد، أي استمرار الوجود أبدا، بدليل الآية: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾[2].

وينتهى ابن رشد إلى القول بأن الشرع في هذا على ثلاث مراتب: أمور لا يجوز فيها التأويل وهى المبادئ، وأمور ليست بمبادئ يجوز فيها التأويل، وأمور ثالثة بين بين.

والخلاصة إذا: أن طرق الإقناع ثلاث: البرهانية، والخطابية، والجدلية.

وليس في طباع الناس كلهم أن يقبلوا الطرق البرهانية؛ لأنها تحتاج إلى استعداد ذهني وتحصيل خاص. ولكن أغلبهم يكتفون بالطرق الخطابية، وبعضهم – وهم قلة – يطلبون الطرق الجدلية، وهم علماء التوحيد. أما الطرق البرهانية فلا تصلح إلا لأهل الفلسفة. وعلى هذا .. فالناس في الشريعة على ثلاثة أصناف: صنف ليسوا من أهل التأويل اليقينى، وهؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة أي صناعة الحكمة أعنى الفلسفة. وهذا التأويل العقلي البرهاني ليس ينبغي أن يصرح به لأهل الجدل، فضلا عن الجمهور.

ويلح ابن رشد في توكيد هذا المعنى، أعنى: صرف الجمهور عن كتب التأويل اليقينى، لأنها للخاصة من أهل الفلسفة وحدهم، هم الذين يفهمونها ويدركون حقائقها. أما الجمهور فلا شأن له بها، وكذلك أهل الجدل من الفقهاء والمتكلمين لا شأن لهم بها.

وهكذا.. ينتهي رأي ابن رشد وغيره من المفكرين إلى بيان أن «الفلسفة والشريعة متفقتان؛ لأن كلتيهما تقرر الحق، والحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له».

* * *

(١) هود: ٧.

(٢) إبراهيم: ٤٨.

الشاطبي

ابن شاطبة الأندلسية ، «القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي» أحد مجددي القرن السادس الهجري ، وهو في الوقت نفسه واحد من العلماء الصالحين الذين تركوا بلادهم ، واختاروا مصر ليتخذوا منها مقرا لحياتهم ، ومثوى لرفاتهم ، ومنطلقا لعلمهم ، وأعداد هؤلاء الصالحين الذين شرفت مصر باستقبالهم أعداد ضخمة . ومصر دائما تفتح ذراعيها لكل من قصدها ، خاصة إذا كان من أولياء الله الصالحين ، فلن يجد غيرها مكانا أكثر أمنا وأمانا ، ولن يجد أفضل من ناسها ترحيبا وتقديرا . والشيخ القاسم الشاطبي أحد هؤلاء الصالحين الذين تركوا مواطنهم الأصلية وجاءوا إلى مصر ، حيث وفد من بلاد الأندلس نازحا إلى مصر . وتكون الإسكندرية هي المدينة التي تستقبله ، فلا يتركها ويستقر فيها حتى الوفاة . ولم تكن الإسكندرية بأقل وفاء لمن زارها وفضلها عن مدن الدنيا ، فقد خصصت لهذا الشيخ الصالح واحدا من أحيائها الكبيرة ، وهو (حي الشاطبي) لينسب إليه ، يتوسطه مسجد باسمه . يضم ضريحا لرفاته الطاهر .

ولقد اجتمعت في اسم الشيخ الشاطبي بعض سمات الثقافة العربية ، وقدرتها على الأخذ والعطاء ، التأثير والتأثر . فإذا كان اسمه هو القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي . فإن ذلك يعني دلالة اللغة العربية على الاستيعاب من ناحية ، وقدرتها على الامتداد بين الأمم والشعوب من ناحية أخرى . فكلمة «فيره» – بكسر الفاء وسكون الياء ، وتشديد الراء مع ضمها – معناها الجديد ، والرعيني نسبة إلى رعين باليمن ، والشاطبي نسبة إلى مدينة شاطبة في بلاد الأندلس ، والقاسم على اسم

ابن النبي – ﷺ – فانظر كم من الدلالات والمعاني يحملها هذا الاسم في لغتنا العربية، وهو أمر قد لا يتوافر كثيرا في أي لغة من اللغات الأخرى .

ولد الشاطبي كغيره من آلاف المواليد سنة 538هـ بمدينة شاطبة بالأندلس . صحيحا سليما ، إلا أنه لسبب أو لآخر ، فقد بصره وهو لم يزل طفلا صغيرا . فلما شب لم يكن أمامه غير تعلم علوم الدين . بادئا بحفظ القرآن الكريم ، والحديث الشريف . متقنا للقراءات في فترة وجيزة ، أذهلت كل من عرفه من معلميه وأقاربه الذين نصحوه بالسفر إلى مدينة بلنسية القريبة من شاطبة . وهي مدينة تموج بالأحداث الوطنية ، وبالتيارات الفكرية ، وتمتلئ بالعلماء والفقهاء ، خاصة وأن الثقافة العربية لم تكن قد غربت بعد عن الأندلس ، بل كانت لا تزال عزيزة قوية.

في هذه المدينة الأندلسية «بلنسية» ذات التاريخ العربي المجيد درس الشاطبي الحديث على أصوله ، والنحو والأدب والفقه والتفسير في أمهات كتبه . يعاونه في سرعة التحصيل واتساعه استعداد خاص لتقبل العلوم ، وذكاء خارق لالتقاط ما يفيده ، وملاحظة حادة لتمييز الأصيل من الدخيل .. وغيرها من سمات هيئته للتميز والنبوغ والتفرد بين طلاب العلم .. وما هي إلا فترة غير طويلة إلا وأصبح الشاطبي إماما في النحو واللغة ، وراوية للشعر ، إلى جانب كونه فقيها محدثا ، له وجهات نظر يحترمها غيره من العلماء .

وطبيعي .. وقد أصبح هذا الشيخ الصالح على هذا النحو من العلم والمعرفة والتفقه ، أن يقوم بمسئولية الخطابة في مساجد مدينة بلنسية ، ويتجمع حوله الناس لما لمسوه منه من محجة وقوة بيان ، ويقتنع هو بما يؤدى من رسالة . لكنه سرعان ما فر من هذه المسئولية ؛ محتجا على ما كان الأمراء يلزمون به الخطباء من ذكرهم على المنابر بأوصاف لم يرها الشاطبي سائغة ولا مشروعة، وإنما هو تدخل في باب النفاق من المادح ، والرهبة والخوف من الممدوح .

ولهذه الأسباب وغيرها .. رحل الشاطبي عن بلاده ، وهو في الرابعة والثلاثين قاصدا مصر والإسكندرية تحديدا كما رأينا ، مع أنه ظاهريا أعلن أنه يغادرها طلبا للحج .

وفي ذلك يقول «السبكي» : «ولست أدري إن كان الشاطبي قد أتم فريضة الحج أو لم يتمها .. لكنه على أية حال ألقى عصا التيار في مصر مستوفيا فيها حظه من الثقافة التي تتصل بالقرآن ».

وبديهي .. أن تكون الإسكندرية هي أول المدن الثقافية المصرية التي يدخلها بعد رحلته من الشمال الإفريقي . وكانت هذه المدينة وقتئذ زاخرة بالعلماء والفقهاء وطلاب العلم . وكان أكبر علمائها في ذلك الوقت : الإمام الحافظ «صدر الدين السلفي الأصفهاني» ، فطلب اللقاء به أملا في أن يستوفي حظه من علم الحديث وتفسيره. وما هي إلا فترة قصيرة حتى ذاع اسمه ، وعلا صيته ، بين تلاميذ الإمام السلفي ومدرسته ، إلى درجة أنه كان يعيد الدرس على زملائه في غياب أستاذه . ولم تكد تمر بضع سنوات حتى أصبح الشاطبي شيخا لمدرسة أسسها له «القاضي الفاضل» تحت اسم (المدرسة الفاضلية) . تقديرا لعلم الشاطبي من ناحية ، وتخليدا لاسم مؤسسها من ناحية أخرى ، ولكنها على أي حال كانت من الجوانب الإيجابية في ذلك الزمن .

والجدير بالذكر .. أن كل من تناول شخصية الإمام الشاطبي بالترجمة ، أطنبوا في وصف مواهبه . فقد قالوا عنه بأنه : أعجوبة أهل زمانه في الذكاء وسرعة البديهة، فلا يرتاب أحد مبصر لذكائه ؛ فلا يبدو منه ما يدل على العمى . وقالوا أيضا عن زهده وورعه بأنه كان عابدا مخلصا فيما يقول ويعمل ، منقطعا للعلم والعمل ، يتجنب فضول الكلام ، غير ناطق إلا بما تدعو إليه الضرورة . وقالوا في طهره

ونظافته وحسن مظهره بأنه كان لا يجلس للقراءة إلا على طهارة ، وفي هيئته جلال ، وفي أحاديثه خشوع واستكانة، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوه .

وأما عن خلقه وعزة نفسه وترفعه عن الصغائر : فيحدثنا ابن شامة قائلا : «حكي أن الأمير «عز الدين» بعث إلى الشاطبي يدعوه للحضور عنده .فغضب من هذه المعاملة ، وشعر بأنها إهانة . إذ كيف يعامل الأمراء علماء الدين بهذا الاستهتار ، فبعث إليه بشعر مع تلميذه «عثمان بن عمر» قال فيها :

قل للأمير نصيحة — لا تركنن إلى فقيه

إن الفقيه إذا أتى — أبوابكم لا خير فيه

وقد تتلمذ على يدي الشاطبي تلاميذ كثيرون يتقدمهم « الشهاوي » و«ابن الحاجب» و«ابن شامة» . وقد ظل خادما للقرآن ناشرا للعلم حتى توفي عام 594 هـ ، ودفن بالإسكندرية في الحي المعروف باسمه حتى الآن .

* * *

أبو الفرج الجـوزي

«جمال الدين بن عبد الرحمن بن محمـد الجوزي» المنتهى نـسبه إلى أول الخلفـاء أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - والمعـروف في التـاريخ الإسـلامى «بـأبي الفـرج الجوزي القرشي» يعتبر من مجددي القرن السادس الهجري حيث ولد عام 514هـ، وتوفي عام 597هـ، وكما يقول عنه مؤرخـوه وفي مقـدمتهم : الـشيخ «عبـد المتعـال الصعيدي»: «كان شديد التعصب للمذهب الحنبلى حتى نال ما ناله من الأذى» حفظ القرآن، وطلب العلم على أيدي كبار علماء زمانه، ولما تحقق له ذلك اشتغل بـالوعظ على الرغم من حداثة سنه . وكان الناس يرتاحون إلى أسـلوبه وطريقتـه في الـوعظ، فكانوا يقصدونه من كل فج لسماعه، فاشتهر بهذا أمره بينهم، وذاع صيته بين العامة والخاصة، وعظم شأنه في عهد الوزير «أبو هبيرة»، ولما ولي المستنجد بـالله الـملك خلع عليه خلعة مع الشيخ عبد القادر وأمثاله، وأذن لهـم في الجلوس بجامع القصر، فتكلم أبو الفرج في الوعظ، واحتشد القوم على مجلسه، كما كـانوا يفعلـون في كـل مجلس لهم، وكان عددهم يتراوح على الدوام بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا .

ولما ولي المستضيء قوي اتصال أبي الفـرج بـه، وقـد ألـف كتـاب : (المـصباح المضيء في خلافة المستضيء)، ثم كتاب : (النصر على مصر) بمناسـبة عـودة الخطبـة للعباسيين بمصر وانقضاء عهد الفاطميين، وقد حظى بهذا عند المستـضيء وحـصل له من القبول وحضور الملوك مجالسه ما لا يكاد يوصف، وقد تكلم يوم عاشوراء سنة 574هـ - 1178م، وكان أمير المؤمنين حاضرا مجلسه، فقال له أثنـاء وعظـه : «لـو أنني مثلت بين يدي السدة الشريفة[1] لقلت : «يا أمير المؤمنين، كن لله سـبحانه مـع

(١) السدة : ما يجلس عليه كالمنبر ونحوه .

حاجتك إليه ، كما كان لك مع غناه عنك ، إنه لم يجعل أحدا فوقك ، فلا ترض أن يكون أحد أشكر له منك » . فتصدق أمير المؤمنين يومئذ بصدقات كثيرة ، وأطلق بعض المحبوسين ، وتقدم في هذه السنة بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، وحصل لأتباع مذهبه تعظيم زائد ، فجعل الناس يقولون لأبي الفرج : هذا كله بسببك ، فإنه ما ارتفع هذا المذهب عند السلطان إلا بسماع كلامك .

وكان أبو الفرج كثير التأليف ، ولقد ذكروا أنه كان يكتب في اليوم أربع كراريس ، وكان له في كل علم مشاركة ، وقد سئل عن عدد مصنفاته فقال : زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفا . ومن هذه المصنفات ما هو عشرون مجلدا ، ومنها ما هو كراس واحد ، وكان كثير الاطلاع على مصنفات الناس ، حسن التبويب والترتيب ، ومن مصنفاته : (المغني في التفسير) ، (زاد المسير في علم التفسير) ، و(عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ) ، إلى غير هذا من آثاره الفكرية التي أشار إليها مؤرخوه من العلماء العرب مع الأجانب ، خاصة ما سجله هؤلاء الأجانب في دائرة المعارف الإسلامية ، وتأثر بها بعض الدارسين العرب . ولعلنا نقرأ معا ما كتبه «الشيخ عبد المتعال الصعيدي» :

« كانت حياة أبي الفرج في هذا ، حياة واعظ قضاها في أمر الناس بالتقوى ، وحثهم على القيام بالطاعات ، وترك المحرمات ، وقد رضي الناس بهذا منه ، ورضي الملوك أيضا ؛ لأنه كان يحث الناس في وعظه على لزوم الجماعة ، وعدم الخروج على الطاعة ، وهذا كان أقصى ما يطلبه الملوك من واعظ مشهور ملك عقول الناس ، واستهوى بوعظه أفئدتهم وقد أفاد أبو الفرج بهذا كثيرا في دنياه ، واستفاد كثيرا لأهل مذهبه ، ولا شيء عليه أن يستفيد من هذه الفوائد لنفسه وأتباعه ؛ لأن هذا يوافق نظره إلى الدنيا على ما سيأتي في الكلام على كتابه : (تلبيس إبليس) ولكن ما كان يأخذه منهم جعله يغضي في وعظه لهم عن مصارحتهم بما كان يجب أن

يصارحوا به ، وهو قيام حكمهم على الاستبداد ، وعدم أخذهم فيه بالشورى ، وغفلتهم عن النهوض بالرعية ، وإهمالهم العمل على استعادة ما ضاع من مجد الإسلام ، واسترداد ما ذهب من حضارته ، قبل أن يسبقه غيره في ميدان الحضارة ، ويتقدم عليه في العلوم والمعارف ، فلا يكتفي في وعظه للملك بأن يطلب منه أن يكون شكره لله فوق شكر غيره ، لأنه لم يجعل أحدا فوقه ، فلا يفهم الملك من هذا إلا أنه يطلب منه أن يتصدق كثيرا ، وأن يطلق بعض المحبوسين ، وأن يقوم بعمل لوح ينصب على قبر الإمام أحمد بن حنبل ، مع أن هذا الملك لم يكن فوق الناس جميعا كما ذكر أبو الفرج ، وإنما كان يعيش سجينا في بغداد ، وقد ضاعت ممالكه باستيلاء من استولى عليها من السلجوقيين وغيرهم ، ولم يكن إلا ملكا صوريا لا حول له ولا قوة ، فكلمة أبي الفرج هذه إما غفلة عن هذه الحقيقة ، وإما ملق ومداهنة لا يغنيان من الحقيقة شيئا » .

كذلك .. يضيف الشيخ عبد المتعال الصعيدي : «وقد كان مع هذا في أبي الفرج من التشدد في الدين ما في غيره من أتباع ابن حنبل ، فكان يذم التأويل في الدين ، وينظر بعين البغض إلى الفرق التي خالفت سنة السلف في ترك التأويل ، ولا يرضى عن الأشعرية الذين حاولوا أن يقفوا في ذلك موقفا وسطا بين المعتزلة والقدامى من أهل السنة ، فلم يصل في وعظه إلى السمو الذي يداوي جراح هذه الفرقة الدينية . وينشر التسامح بينهم في خلافاتهم . وقد كان عليه أن يستغل انقياد الجماهير له في ذلك الغرض النبيل . ليجمع بين فرق المسلمين ، ويزيل ما بينهم من تشاحن وتخاصم . وقد حكي أنه وقع في عهده نزاع ببغداد بين أهل السنة والشيعة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي ، ووقع اتفاق الفريقين بما يقوله أبو الفرج في ذلك . فأقاما من يسأله عنه وهو على الكرسي في مجلس وعظه ، فقال على البديهة : أفضلهما من كانت ابنته تحته . ونزل في الحال حتى لا يراجع فيما قال ، فكل من الفريقين احتج بها لنفسه .

وما كان لأبي الفرج أن يتهرب عن الجواب الصريح في هذه المسألة ، ولكن تهربه بهذا الشكل يدل على مبلغ حرصه على إرضاء تلك الجماهير المنقادة له في وعظه، وأنه كان يسلك فيه مسلكا لا يتعدى حثهم على التقوى ، وأنها هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وما إلى هذا من الأمور التي لا يزال الوعاظ يدورون في دائرتها ، ولا يكادون يتعدونها في وعظهم ، حتى مج الناس أسلوبهم في الوعظ ، وصاروا يسمعونه فلا يتأثرون به ؛ لأنه كلام يسمعونه كل يوم ، ولا يصل إلى علاج النكسات الرجعية التي وقعوا فيها ، وكانت السبب في ضياع مجدهم ، وتأخرهم في دنياهم وأخراهم » .

ومن ظاهر قول الشيخ الصعيدي ، يمكن القول بأنه : لو أن أبا الفرج لم يؤثر في ذلك إرضاء أهل السنة والشيعة للامهم على الاشتغال بهذه المسألة التافهة ، لأنها من المسائل التي لا تقدم ولا تؤخر في الدين ، ومع هذا فرقت كلمة المسلمين ، وجعلتهم فريقين يعادي بعضهم بعضا ، فيكون الاشتغال بها حراما وإثما ؛ لأنه يؤدي إلى استمرار النزاع بين المسلمين ، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الأفضل من أبي بكر وعلي ، وهو الذي سيتولى حسابهما ، وقد مضى أمرهما وانتهى ، ومضى الخلاف بينهما على الخلافة في هدوء ورفق ، لم يؤد إلى تفريق كلمة المسلمين ، وكان لأبي بكر رأيه في أنه قام بالخلافة على رضا واختيار من الناس ، وكان لعلي رأيه في أنه أحق بها منه لقربه من النبي – ﷺ – ، ولكنه مع هذا عاد فبايعه حذرا من تفريق كلمة المسلمين ، واحتفظ برأيه لنفسه ، ولم يحاول أن يحمل غيره عليه بوسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى تفريق الكلمة ، ولا بأس علينا في أن نرى في ذلك رأيه ، ولكن لا يحق لنا أن نبالغ في ذلك ، مع أنه هو نفسه لم يبالغ فيه ، فإذا بالغنا فيه نكون مخالفين له ، ولا يصح أن يكون من شيعته من يوافق في رأيه ثم يخالفه في حد التمسك به ، لأنه لم يفرق به كلمة المسلمين ، فيجب أن نحافظ مثله على جمع كلمتهم .

إلى أن يقول – أي : الشيخ الصعيدي : « لكني لم أذكر أبا الفرج هنا لشيء من ذلك كله ، لأنه لا يستحق به أن يذكر بين مجددي هذا القرن ، ولكني ذكرته لموقف له من أسمى مواقف التجديد في كتابه : (تلبيس إبليس) فقد وقف فيه مع الصوفية موقفا يجب أن يذكر له في هذه الناحية من التجديد ، إذ وفى القول حقه في أمرهم ، ونطق بحكم الدين في تصوفهم ، وكان في هذا صريحا لا يخشى طغيان سلطانهم في هذا القرن على العامة وأشباه العامة من المسلمين ، على عكس حاله فيما سبق » .

ثم نعود إلى كتابات أبي الفرج الجوزي نفسه في هذا الصدد لنجده قد أبطل أولا نسبة تصوفهم إلى أهل الصفة من أصحاب النبي – ﷺ – فذكر **أولا** : أن أهل الصفة إنما قعدوا في المسجد ، وأكلوا من الصدقة بحكم الضرورة ؛ لأنهم كانوا فقراء يقدمون على المدينة ، ولا أهل لهم ولا مال ، فبنى لهم النبي – ﷺ – صفة في مسجده ليأووا إليها ، ويناموا فيها . فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا من صفتهم يطلبون الدنيا التي فتحت لهم .

ثم ذكر ثانيا : أن الأولين منهم ذكروا أن التصوف عندهم هو رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق والفضيلة ، من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الآخرة ، ولكن إبليس لبس عليهم في أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم ، وكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني ، فزاد تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين منهم كل التمكن .

فأول ما لبس عليهم أنه صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود العمل ، فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات ، فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة ، فرفضوا ما يصلح أبدانهم ، وشبهوا المال بالعقارب ، ونسوا

أنه خلق للمصالح ، وبالغوا في الحملة على النفوس ، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة ، ولكنهم على غير الجادة .

ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوساوس والخطرات ، وصنفوا لهم في ذلك ، مثل : «الحارث المحاسبي» ، وجاء آخرون ، فذهبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها ، من الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق ، وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة ، ثم ما زال الأمر ينمى ، والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ، ويتكلمون بواقعاتهم ، ولم يزل بهم البعد عن العلماء حتى رأوا ما هم فيه أو في العلوم ، وسموه : العلم الباطن ، وجعلوا علم الشريعة : العلم الظاهر ، ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى عشق الحق والهيمان فيه ، فكأنهم تخيلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به ، وهؤلاء بين الكفر والبدعة ، ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق ، حتى فسدت عقائدهم ، فمنهم من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا ، وجاء «أبو عبد الرحمن السلمي» فصنف لهم كتاب: (السنن) ، وجمع لهم حقائق التفسير ، فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم ، وصنف لهم «أبو النصر السراج» كتابا سماه : (لمع الصوفية) ذكر فيه كثيرا من الاعتقاد القبيح والكلام المرذول ، وصنف لهم «أبو طالب المكي» كتاب : (قوت القلوب) فذكر فيه الأحاديث الباطلة ، وما لا يستمد فيه إلى أصل من الأصول الصحيحة ، وردد فيه قول : - قال بعض المكاشفين - وهذا كلام فارغ لا يصح التعويل عليه ، وصنف لهم «أبو نعيم الأصبهاني» كتاب : (الحلية) وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، وصنف لهم «عبد الكريم بن هوزان القشيري» كتاب : (الرسالة) فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء ، وصنف لهم «أبو حامد الغزالي» كتاب : (الإحياء) فجاراهم في كثير من أحوالهم ، حتى ذكر أن فقد المال أفضل من وجوده وإن صرف

إلى الخيرات ، لأن أقل ما فيه الاشتغال بإصلاحه عن ذكر الله عز وجل ، ثم أباح لهم السماع بأشياء نزل فيها عن رتبته في الفهم والعلم .

ثم ذكر **ثالثا** : أن التصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ، وأنه يدل على الفرق بينهما : أن الزهد لم يذمه أحد ، وقد ذموا التصوف ، ولكن إبليس قد لبس على الزهاد أيضا ، لأنهم سمعوا في القرآن والحديث ذم الدنيا ، فلبس عليهم إبليس بأنهم لا ينجون في الآخرة إلا بترك الدنيا والفرار منها ، فخرجوا على وجوههم إلى الجبال، وبعدوا عن الجمعة والجماعة ومجالس العلم ، حتى يصير الواحد منهم كالوحش ، ويخيل إليه أن هذا هو الزهد الحقيقي ، وبهذا أعرضوا عن العلم اشتغالا بالزهد ، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأن الزاهد لا يتعدى نفعه عتبة بابه ، والعالم نفعه متعد إلى غيره ، وكم رد إلى الصواب من متعبد ، وكذلك ظنوا أن الزهد ترك المباحات ، فمنهم من لا يزيد على خبز الشعير ، ومنهم من لا يذوق الفاكهة ، ومنهم من يقلل المطعم حتى ييبس بدنه ، ويعذب نفسه بلبس الصوف ويمنعها الماء البارد ، ولم تكن هذه طريقة الرسول - ﷺ - ، ولا طريقة أصحابه ، وإنما كانوا يجوعون إذا لم يجدوا شيئا ، فإذا وجدوا أكلوا ، وكان النبي - ﷺ - يأكل اللحم ويحبه ، ويأكل الدجاج ، ويحب الحلوى ، وقد كان رجل يقول : أنا لا آكل الخبيص[1] لأني لا أقوم بشكره ، فقال الحسن البصري : هذا رجل أحمق ، وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ ..

وكان سفيان الثوري إذا سافر حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج[2] ، ولما تغالى أولئك الزهاد ومن تبعهم من الصوفية في ترك المباحات والتقليل من الطعام جعلوا ذلك شرطا فيمن يريد الدخول في زمرتهم من الشبان والمبتدئين ، مع أنه من أضر الأشياء على الشبان الجوع ، فإن الشيوخ الكهول يصبرون عليه ، أما الشبان

---

(١) الخبيص : حلوى من التمر والسمن .

(٢) الفالوذج : حلوى من الدقيق والعسل .

فإنهم أقدر على هضم الطعام ، فلا يمكنهم أن يصبروا عليه ، فإذا لم تجد معدتهم الغذاء أخذت من الفضول المجتمعة في البدن ، فتغذي الجسم به وتفسده .

ثم ذكر أن إبليس كان يلبس على المتقدمين من الصوفية لصدقهم في الزهد ، فيريهم عيب المال ويخوفهم من شره ، فيتجردون من أموالهم ، ويجلسون على بساط الفقر ، وكانت مقاصدهم صالحة ، إلا أن أفعالهم في ذلك خطأ لقلة العلم ، وهذا الفعل لا يلام صاحبه عليه إذا كان يرجع إلى كفاية قد ادخرها لنفسه ، أو كانت له صناعة يستغني بها عن الناس ، أو كان المال عن شبهة فتصدق به ، فأما إذا أخرج المال الحلال كله ثم احتاج إلى ما في أيدي الناس وأفقر عياله ، فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم ، أو يأخذ من أرآب الظلم والشبهات ، وهذا هو الفعل المذموم المنهي عنه ، وقد ذكر الحارث المحاسبي في هذا كلاما كثيرا ، وشيده أبو حامد الغزالي ونصره، والحارث فيه أعذر من أبي حامد ، لأن أبا حامد كان أفقه ، ولكن دخوله في التصوف أوجب عليه نصرة ما دخل فيه ، وعنده أنه ينبغي للمريد أن يخرج من ماله حتى لا يبقى له إلا قدر ضرورته ، فما بقي له درهم يلتفت إليه قلبه، فهو محجوب عن الله عز وجل ، وهذا كله خلاف الشرع والعقل ، وسوء فهم للمراد من المال ، لأن الله قد عظم قدره وأمر بحفظه ، إذ جعله قواما للآدمي ، وما جعل قواما للآدمي الشريف فهو شريف ، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا** ﴾[1]. وقد صح عن رسول الله – ﷺ – أنه نهى عن إضاعة المال ، وقال لسعد : « **لأن تترك ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس** » ، ولا ينكر أنه يخاف من فتنة المال ، وأن جمعه من غير وجهه يعز ، فمن اقتصر على كسب البلغة[2] من حلها لهذا أمر لابد منه ، وأما من قصد جمعه

(١) النساء : ٥ .

(٢) البلغة : ما يكفي لسد الحاجة .

والاستكثار منه بطريق الحلال فينظر في مقصوده ، فإن قصد به المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود ، وإن قصد إعفاف نفسه ومن تلزمه نفقته ، وادخر لحوادث زمانه ، وقصد التوسعة على الإخوان وإغناء الفقراء وفعل المصالح ، أثيب على قصده ، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات .

وذكر أن الفقر مرض ، فمن ابتلي به فصبر عليه ، أثيب على صبره ، ولهذا يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، لمكان صبرهم على البلاء ، أما المال فهو نعمة ، والنعمة تحتاج إلى شكر ، والغني وإن تعب فهو كالمفتي والمجاهد ، والفقير كالمعتزل في زاوية ، فهو في أمن أكثر من المفتي والمجاهد .

وأيضا ذكر أن هذا كان حال المتقدمين من الصوفية كانوا يخرجون من أموالهم زهدا فيها ، فقصدوا الخير بذلك ، ولكنهم غلطوا في الفعل ، فأما متأخروهم فقد مالوا إلى الدنيا وجمع المال من أي وجه كان. فمنهم من يقدر على الكسب ولا يعمل، ويجلس في الرباط أو المسجد ، ويعتمد على صدقات الناس ، وقلبه معلق بطرق الباب ، ومنهم من يخرج فيقصد بيوت كبار الظلمة ، ولا يتورع عن طلب ما يريده من أموالهم ، وقد دخل بعض الصوفية على أمير منهم فوعظه فأعطاه شيئا فقبله ، فقال له الأمير : كلنا صيادون ، وإنما الشباك تختلف .

ثم ذكر أبو الفرج كثيرا غير هذا في الكلام عن الصوفية ، وكله كلام جيد يدل على عقلية مستنيرة في هذه الناحية من التجديد ، ولكن السيل كان جارفا ؛ لأن العامة كانت تتهافت على أولئك المتصوفة ، وكان هو رجعيا جامدا فيما عدا هذه الناحية من التجديد ، فكان في العقائد يرى الوقوف عند ظواهر النصوص ، ويكره الخوض في علم الكلام ، ويذهب في هذا مذهب الشافعي وابن حنبل وغيرهما من السلف ، وينقل عن الشافعي أنه كان يقول : «لأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك ، خير له من أن ينظر في الكلام » وينقل عن ابن حنبل أنه كان يقول : «لا يفلح

صاحب كلام أبدا ، علماء الكلام زنادقة» . وكان مع هـذا عـلى صـلة حـسنة بأولئـك الملوك والأمراء الذين كان يأخذ على المتصوفة الاتصال بهم، كما سبق في تاريخ حياته، فلم يسع في إصلاح حكمهم ، ولم يجتهد في جعله حكما شوريا لا استبداد فيـه ، فكـل هذا ونحوه قلل من شأن نزعته التجديدية في التصوف ، ولم يجعل لهذا أثرا في القـضاء على نزعاته الرجعية ، ولا في منع المسلمين من الوقـوع في الوهـدة التـي يجـرهم إليهـا أولئك المتصوفة .

وهكذا .. كان مجددنا أبو الفرج الجوزي مجتهدا وجادا في أقواله وأفعاله . ولهذا ولغيره اعتبره مؤرخوه ونقاده من مجددي القرن السادس الهجري .

❊ ❊ ❊

الزمخشري

«في هذا الفصل ، نحن ضيوف على مادة فكر أحد مجددي القرن السادس الهجري، وهو «أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري» ، وقبل التعرف على دوره التجديدي سواء في الفقه أو الأدب أو علم الكلام أو غيرها ، نسجل بعضا من الصورة القلمية التي كتبها الإمام الشيخ «محمد أبو زهرة» . فما أجملها من صورة حيث تكون بقلم مجدد من المحدثين ، عن مجدد من الأقدمين حيث يعرف قدر من سبقوه في العلم والفضل . يقول الإمام «أبو زهرة» في دراسة كان قد كتبها عن الزمخشري (بمجلة العربي الكويتية) : كان الداخل إلى البيت الحرام في الثلث الأول من القرن السادس الهجري يجد رجلا قد التف حوله طلاب الأدب ، ورواة الشعر ، ونقلة المواعظ ، وطلاب التفسير ، وسائر علوم القرآن والحديث . وقد كان ذلك الرجل القوي في إيمانه ، الغزير في علمه ، النافذ في بصيرته .. ضعيفا في بدنه ، قد قطعت إحدى رجليه ، فاستعاض عنها بخشبة تشبه الرجل ، وإذا سار بها سترها بثوبه الفضفاض ، فيظنه الناس أعرج، ولا يظنونه مقطوع الرجل ، وكان يفعل ذلك سترا للعاهة ، واستعلاء على الضعف البدني ، ودفعا للريبة ، وتجملا أمام الناس .

ثم نمضي مع هذه الدراسة وغيرها ، مما كتب عن هذا المجدد العظيم ، فنراه وقد اختار بيت الله الحرام كمجاور دائم لهذا البيت العتيق ، ليستمر على ذلك شطرا كبيرا من حياته .. ولتواجده على هذا النحو . ولذلك أطلقوا عليه هناك : «جار الله» أو مجاور البيت الحرام ، وكان طلاب العلم والمعرفة يلتفون حوله لعبقرية أدركوها عنده ، واستعداد دائم لإجابة أي سؤال أو استفسار يوجهونه إليه ، وكأنه البحر

الزاخر لكل كلام العرب، أو الحكيم المستنير الذي ينشر الحكمة والموعظة في مجالسه، أو المتكلم الذي تجيء إليه الحجج مسترسلة دون انقطاع عند الجدل والمناقشة ، أو المفسر للقرآن الكريم الذي يلمح الإشارات البيانية في آياته بذوق مرهف ، وأفق واسع ، وإيمان واضح .. وغير ذلك مما يرد في هذه الآيات الكريمة من المعنى واللفظ معا ، وبعقل مدرك ينفذ إلى اللب ، ولا يقف عند الغلاف ، وبقلب مؤمن يخشع أمام الحقائق القرآنية ، وتضيء في قلبه التجليات الربانية وهو يقرأ ويتفهم .

والآن .. هل نحن في حاجة إلى التعرف على ذلك الإمام من لوحة حياته التى تقول إنه ولد سنة 463هـ بقرية زمخشر وهي من قرى خوارزم ؟ولعل هذه القرية ما كانت لتذكر على لسان أحد من غير أهل القرى التى تجاورها ، ولكنها الآن تذكر في الشرق والغرب ، وفي عدة لغات غير العربية ، لأنها شرفت بنسبة «أبي القاسم جار الله الزمخشري» إليها ، فبعد أن كانت نكرة صارت مشهورة ، حتى إنها في الحقيقة لجديرة بأن تنسب إليه ولا ينسب هو إليها ، إذ هي عرفت به ، ولم يعرف هو بها .

ولم يعرف شيء عن أبيه ، ولكن عرفت أمه بالتقوى والرحمة ، والعطف على صغار الطير ، ولنسق لك كلامه في سبب قطع رجله ، وقد سئل عن ذلك ، فقال بشيء من الصراحة والوضوح الذي لا يفتقر إليه هذا المجدد : « دعاء الوالدة ، وذلك أني أمسكت عصفورا ، في يوم من أيام الصبا الأولى ، وربطت برجله خيطا فأفلت من يدي ، ودخل خرقا [ثقب في الحائط] فجذبته فانقطعت رجله ، فتألمت له والدتي . وقالت : قطع الله رجلك ، كما قطعت رجله . فلما رحلت إلى بخارى في طلب العلم ، سقطت عن الدابة في أثناء الطريق ، فانكسرت رجلي وأصابني من الألم ما أوجب قطعها .

إن هذه القصة لتنبئ عن أمرين ، أولهما : رقة قلب أمه ، ولطف شفقتها وشدة تأثرها من رؤية مواطن الألم أيا كان موضعه ، والرحمة من صفات المؤمن المخلص – وثانيهما : أن الزمخشري مع أنه معتزلي يرد الأمور إلى أسبابها ، فقد كان لفرط إيمانه

بقدر الله تعالى ، وبأن كل شيء بقدر مقدور ، يعتقد أن استجابة الله تعالى للدعاء لها شأنها في سير الأقدار ، وفيما يكتبه سبحانه وتعالى لعباده من غير تغيير ولا تبديل في علمه أو إرادته أو قدره .

وهكذا .. ترى هذا المجدد وقد شاقه العلم ، وهنا آوى إلى العلم في تلك البلاد النائية من أرض الإسلام ، وانتقل بفضله الأدب من ربوع الكوفة والبصرة وبغداد إلى همذان والري وخوارزم ، وذخرت اللغة العربية في القرنين : الخامس والسادس بذخائر الفكر الإسلامي والفلسفي التي أنتجها العلماء الذين نشئوا وعاشوا في تلك البلاد ، وأنتجوا ، وأخرجوا النفائس والموسوعات في الفقه والتفسير واللغة والأدب.

لقد خرج من هذه البلاد أفذاذ العلماء والأدباء «كبديع الزمان الهمذاني ، والخوارزمي» ، وخرج منها الفقهاء والمفسرون أمثال : «الشيرازي» صاحب كتاب (المهذب) في الفقه المقارن ، و«الفخر الرازي» بحر العلم ، و«الغزالي» صاحب الحكمة ، وخرج منها علماء في شتى العلوم ، «كالشهرستاني» ، صاحب (الملل والنحل) و«أبو الريحان البيروني» المؤرخ والرياضي والفيلسوف .

انتقل الزمخشري من بلدة زمخشر إلى بخارى ، وهناك تلقى الفقه الحنفي من أئمته بها ، وكان لفقهاء الحنفية بتلك البلاد النائية - مقام في الفقه والجدل والأصول، وحسبي تعريفا بمقامهم أن يكون من بينهم شمس الأئمة «الحلواني» وتلميذه شمس الأئمة « الرضي » شارح كتاب محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة .

تلقى الزمخشري الحديث عن أئمة المحدثين في بخارى ، ثم تلقى الأدب واستحفظ الرواية على كبار الرواة بها ، وهكذا .. أخذ من كل دوحة من دوحات العلم أطيب ما تحمل من ثمار ، وأينع ما فيها من زهر ، حتى إذا تغذى أكمل الغذاء ،

وتمثل الغذاء في نفسه علما ناجحا مشرقا . أخذ يكتب في علوم مختلفة ، فكتب في شرح السنة وروايتها كتابه (الفائق) ، وهو فائق حقا ، وكتب في البلاغة كتاب (أساس البلاغة) ، وهو معجم لاستعمالات العرب وليس للكلمات فقط ، وكتاب (جواهر اللغة) وكتاب (مقدمة الأدب) . وقد أحصى ياقوت في معجمه عددا كبيرا من كتبه ، فيرجع إليه . ولعل أكثرها ذكرا وأبقاها أثرا كتابه (الكشاف) ، الذي يعتبر مرجعا ومصدرا للباحثين والدارسين ؛ حيث يعطي الزمخشري كتابه هذا من العناية ما لم يعطه كتبه الأخرى ، ذلك لأن مقام التفسير جليل خطير ، وهو مرتقى صعب لا يجرؤ عليه إلا من اجتمعت عنده ملكات في علم البيان وذوقه ، ونال من علوم القرآن والسنة أوفى قدر ، ومن حياة النبي الأمين - ﷺ - وسيرته بأكبر حظ ، وله مع ذلك عقل يلمع ، وقلب منير ، ونفس تحس . ولعل من الخير أن نترك الكلمة له ليعرفنا أوصاف المفسر ، فقد قال رضي الله عنه : « لا يفوض على شيء من تلك الحقائق أي : معاني القرآن إلا رجل برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعاني وعلم البيان .. وحرص على استيضاح معجزة رسول الله - ﷺ - بعد أن تكون أخذا من سائر العلوم ، جامعا بين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، وقد رجع زمانا ورجع إليه ورد ورد عليه ... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها ، لاكزا جاسيا ، ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر .. قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويوصف » .

هذه صفات - في رأيه - من يتصدى لتفسير القرآن ليتعرف مواضع إعجازه ، وأسرار بلاغته ، ولقد كان يحسب أنه ليس من فرسان هذا الميدان ، ولذلك لم يفكر في سلوك ذلك المسلك الذي قد تتقاصر عنه همته .

ولكنه كان يذاكر المعتزلة من إخوانه في معاني القرآن ، وهم من كـانوا يجمعـون بين علم العربية والأصول الدينية ، فطلبوا إليه أن يكتب لهـم تفـسيرا يكـشف عـن أسرار التنزيل بعد أن تبين لهم أنه بهذا الأمر جدير ، لما كان يلقيه مـن تفـسير لآيـات كان يثير إعجابهم .

ولا عجب في ذلك ، على اعتبار أنه كان واسع العلم غزير المعرفة ، ومـع ذلـك يستعفي لعظم أمره ، وبعد إلحاح شديد أملى عليهم تفـسير سـورة البقـرة ، واكتفـى بذلك ليكون تفسيره مثالا يحتذى ومنهاجا ينتهجونه . وقد أسهب في تفـسير سـورة البقرة الذي أملاه . وقد اكتفى به وخصوصا أن الشيخوخة قد سارعت إليـه . وقـد حدث ما حرك همته ، ليتم ما ابتدأ ، ذلك أنه وهو يعاود الذهاب إلى المجاورة لبيـت الله الحرام ، كلما مر على طائفة من أهل العلم وجد عندها شوقا لتقرأ ما أملاه .. ولـما حل بمكة : حرم الله الآمن ، وجد «الشريف الحسيني أبا الحسن علي بن حمزة» ، ولـه في قلبه التقدير والمكانة ، فذكر له أنه كان يحدث نفسه في مدة غيبته عن الحجـاز بـأن يقطع الفيافي ويفد عليه بخوارزم ليتوصل إلى ذلك الجزء مـن تفـسير القـرآن الـذي أملاه ، ويخاطبه في إتمام ما بدأ .

وغير الشريف الحسيني كثير من العلماء والفقهـاء كـانوا يتطلعـون إلى سـماعه ؛ ولهذا لم يجد بدا من أن يتمم ما بدأ ، ولكن أنى له من قوة البدن ما يـتمم البقيـة عـلى منهاج ما ابتدأ ، وقد دخل في العشر السابعة . ويقـول فيهـا : «نـاهزت العـشر التـي سمتها العرب دقاقة الرقاب ، فأخذت في طريقة أخصر من الأولى ، مع ضمان الكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر » .

لقد أتم التفسير في أقل من سنتين ، وهو يجاور بيت الله ، ويقـرب مـن صـديقه الشريف ، ويقول في ذلك : « وما هي إلا آية من آيات هـذا البيـت المحـرم ، وبركـة أفيضت علي من بركات هذا الحرم المعظم » .

لقد اتسم تفسير الزمخشري بسمات لم توجد في غيره ؛ فهو يعرف أسرار البلاغة في القرآن وأوجه إعجازه ، ويسبق إلى مدارك كانت بكرا لم يسبقه أحد إليها ، ومن جاء بعده من الذين كتبوا في التفسير البياني ، قبسوا منه الكثير ، ومنهم من اتبعه اتباعا وإن لم يبلغ شأوه ، إذ كان الفرق بين الفكرة الأصلية والمحاكية واضحا ، وما بلغ أحد في تفسير ، مبلغ الزمخشري في تعبيره .

وكان يذكر المعنى ابتداء ، ثم يذكر المناقشة حوله بقوله : فإن قلت .. ثم يجيب فيقول : قلت .. وإن ذلك هو المنهاج الذي ابتدأ في سورة البقرة ، وهو التزام للجدل الذي اتصف به المعتزلة وكانوا فيه بارعين .

والكتاب كان مفصل التفسير في البقرة ، وكان مجملا فيما وراءها ، وقد ذكر هو السبب ، وهو : أنه كتب الأول في قوته ، والثاني في شيخوخته ، ولأنه أراد أن ينتهي قبل أن يسبق إليه القدر . إذ صار يحسب أن وجوب الإتمام لم يكن وجوبا متراخيا ، بل كان الوجوب على الفور .

ومن الغريب .. أن الذين حاكوه أو قلدوه ، يجملون فيما أجمل ويفصلون فيما فصل ، وقد وجد عنده العذر ، ولا معذرة عندهم إلا أن يكون ضعف الهمة ، وضيق الذراع ، وقصور الباع . وهي خصال نجى الله منها هذا المجدد طوال حياته .

في هذا العصر الذي عاش فيه الزمخشري، كثرت كتابات المقامات، فكانت فيه : مقامات بديع الزمان الهمذاني، ومقامات الخوارزمي ... وغيرهما ، وكانت الكتابات الأدبية في ذلك الإبان ليست مرسلة ، ولكنها كانت مسجوعة ، فالنثر الفني السائد فيه السجع، ولم يكن لمثل الزمخشري، الحجة في اللغة، والكاتب المبدع، إلا أن يخوض مع الخائضين ، ولكنه في كتاباته الفنية المسجوعة ، لا يتجه إلى اللفظ من غير تجويد المعنى ، فما كان كغيره لا عمل له إلا النثر والكتابة، بل كان العالم الأصولي ، والفقيه، والمتكلم . فعنده ثروة المعاني قبل ثروة الألفاظ ، وتجاربه التي اكتسبها من رحلاته إلى

طلب العلم ، وإلى طلب جوار البيت المحرم ، قد أكسبته آفاقا في التفكير قفزت منها معرفة العلمية ، فكان نثره حكما جيدة مرسلة . وله في ذلك رسائل محكمة المبنى والنسج ، وفيها المعاني البكر والألفاظ الجزلة ، فكانت كعروس جميلة في ثوب العرس . ومن هذه الرسائل : (أطواق الذهب) ، و(الكلم النوابغ في المواعظ) ، و(نصائح الكبار)، و(نصائح الصغار)، و(مقامات في المواعظ)، و(نزهة المستأنس)، و(الرسالة الناصحة) ، و(ربيع الأبرار) ، وديوان خطب ، وديوان رسائل ، وغير ذلك من رسائل أخوية تضمنت معاني حكيمة .

ولنقبض قبضة من كتابه : (أطواق الذهب) تدل على سائر كتابته ، فقد جاء فيها في تغير الناس والأزمان ، «الدنيا أدوار والناس أطوار ، فالبس لكل يوم بحسب ما فيه من الطوارق ، وجالس كل قوم بقدر ما لهم من الطرائق ، فلن تجري الأيام على أبنيتك ، ولن تنزل الأيام على قضيتك » .

ويقول : « لا أحدثك عن بلد الشوم ، ذلك بلد الوالي الغشوم ، فإياك وبلد الجور وإن كنت أعز من بيضة البلد ، وأحظى أهله بالمال المثمر والولد » .

والزمخشري لم يعش على مائدة الأمراء والحكام ، ولذا لم يرض أن تكون آراء العلماء تابعة لأهواء الأمراء . ويقول في ذلك : « ما لعلماء السوء جمعوا عزائم الشرع ودونوها ، ثم رخصوا فيها لأمراء السوء وهونوها ، إنما حفظوا وعلقوا وصفقوا وحلقوا ليقمروا (يجمعوا) المال ، وييسروا » .

ويقول في بث روح الهمة : « لا تقنع بالشرف التالد ، فذلك الشرف للوالد ، واضمم إلى التالد طريفا ، حتى تكون بهما شريفا ولا تدل بشرف أبيك ، ما لم تدل عليه بشرف فيك » .

وهكذا .. نجد المعاني الكريمة في الألفاظ الحلوة والأساليب الرصينة . تطل علينا من أسلوبه العذب الجميل .

وقبل أن نغادر تلك الرياض الجميلة من آثار الزمخشري ، لابد أن نسجل حقيقتين :

إحداهما – أن هذا العالم الجليل لم يعرف أنه تملق أميرا ، ولم يؤثر عنه في كتاباته أنه مدح حاكما ، أو سخر قلمه لخدمة حاكم ، وأن المتتبع لرسائله إلى أصدقائه لا يجد فيها إلا عبير المودة ، وعرف الإخاء ، وروحانية الصداقة ، ولا يجد فيها ازدلافا لأمير قط .

الحقيقة الثانية – أنه كان شجاعا ، لا أمام الحاكم فقط ، بل أمام العلماء ، ارتضى أن يكون معتزليا في اعتقاده وقت أن كان مذهب المعتزلة في ذلك الوقت مضطهدا من الحكام ، مستنكرا من العلماء ، مزدريا من العامة ، فما جبن عن إعلانه ، والدفاع عنه والدعوة إليه . وقد اعتبر بعض العلماء من هناته في تفسيره حشره مذهب أهل الاعتزال فيه ، ولكن مع ذلك أجمع العلماء على أن ذلك لم يذهب بسلامة جوهره ، واشتماله على اللآلئ الفائقة .

ولقد كان لفرط شجاعته.. إذا استأذن على أحد قال للآذن: قل بالباب محمود المعتزلي.

ولفرط شجاعته ، كان يعلن أن القرآن مخلوق ، وهو رأي المعتزلة ، حتى لقد هم في افتتاحية كتابه التفسير أن يقول : «الحمد لله الذي خلق القرآن ... » ولكن أصحابه نهوه عن ذلك . وقالوا له : إن فعلت نفر الناس منه فلم ينتفعوا به . وعندئذ تطامن المعتزلي التقي النافع الذي يرجو الخير للناس ، وقبل أن يكتب في الافتتاحية : « الحمد لله الذي أنزل القرآن » .

والآن .. قد مضى الزمخشري إلى ربه ، وبعد ما يقرب من ثمانمائة سنة وخمسين من موته يتذاكر الناس فكره ، كأنه حاضر بينهم ، وهكذا .. كل شيء إنساني يفنى إلا ما تسجله المواهب ، وما تسجله النفس الحرة الطيبة ، والعقل المشرق المستقيم ، ومجددنا هذا أصدق مثل وأقوى دليل على ذلك .

* * *

فخر الدين الرازي

فخر الدين محمد بن عمر الحسين التميمي البكري الرازي ، من مجـددي القـرن السادس الهجري ، المولود عام 543 هـ ، والمتوفى عام 606 هـ بمدينة هراة .

بدأ في تعلم اللغة العربية وأجادها ؛ حتى يتعرف عـلى فقههـا وتعـاليم دينهـا ، وعلم الكلام الذي برع فيه المسلمون إلى جانب الحكمة ، وأراد أن يتبحـر في العلـوم الدينية والعقلية، فتوجه إلى خـوارزم التـي كانـت في العـصر الوسـيط قبلـة للعلـماء والفقهاء ، وجرى بينه وبين أهلها مناقشات ومحاولات ، جميعها تدور حول المذاهب والمعتقدات ؛ حيث كان أشـعريا في التفكـير ، شـافعيا في المـذهب ، فـأخرجوه مـن خوارزم بسبب ذلك ، فقصد إلى بلاد ما وراء النهـر ؛ فجـرى لـه مثـل مـا جـرى في خوارزم لنقاشه وجداله . فعاد إلى مسقط رأسه الري وكان بها طبيب ماهر ذو ثـروة هائلة ، وكان له ابنتان ، وللرازي ولدان ، فزوجهما منهما . فلـما مـات هـذا الطبيـب آلت ثروته إلى بنتيه ، وبالتالي إلى ولدي الرازي ، وبذلك اتسعت ثروتـه ، واسـتطاع مواصلة السفر الذي كـان يمنعـه عنـه قلـة مالـه ، وفي واحـدة مـن أسـفاره اتـصل بصاحب مدينة غزنة وعامله في جملة من أمواله ، ليحصل من هذه العلاقة عـلى مـال وفير ليعود إلى خراسان ويتصل بسلطانها المعـروف «بخـوارزم شـاه» الـذي أكرمـه ووضعه في أسمى المراتب والمراكز .

وإلى جانب الحرص على تنمية أموالـه ، حيـث كـان يعتقـد أنـه بهـذه الأمـوال يستطيع أن يحقق الكثير من الأغراض العلمية إلى درجة أن ابن خلكان ذكـر عنـه في كتابه : (وفيات الأعيان) أن «فخر الدين الرازي» فـاق أهـل زمانـه في علـم الكـلام

والعلوم العقلية ، وعلوم الأوائل ، وأن له تصانيف مفيدة في جوانب كثيرة ، منها : تفسير القرآن الكريم حيث أحصى فيه كل غريب وعجيب، ومنها أيضا: علم الكلام، ومنها : علم أصول الفقه ، ومنها : الحكمة وشرح عيونها ، ثم منها في الطب حيث قام بشرح كتاب (القانون) لابن سينا، وأخيرا منها : في الفقه حيث شرح الوجيز، وغير ذلك من كتب ومؤلفات قام بوضعها في العلوم والفنون ، وكلها كما يذكر ابن خلكان ممتعة ومنتشرة ، حيث اشتغل بها الناس وقاموا بقراءتها رافضين بذلك كتب المستقدمين عليه، فكان أول من اخترع نظام الترتيب في الكتب، وذلك مما وضع وكتب ، فأتى بما لم يسبقه فيه أحد من العلماء .

كذلك يسجل الطبري في تاريخه أن الرازي تميز عن القدماء في الفقه وعلم الأصول والكلام والحكمة ، وأنه استطاع بما لديه من علم الرد على ابن سينا في إشاراته، هذا إلى جانب أنه طلب العمل في الكيمياء وضيع في تجاربها ومعاملها المال الكثير .

وللشيخ «عبد المتعال الصعيدي» رأي في مسألة تجديد الرازي في الإسلام مؤداه: أنه كان في العقائد مقلدا للأشعري ، وفي الفقه مقلدا للشافعي ، ولكنه كان يخالف أشعرية زمانه في تجافيهم النظر في الفلسفة، وعدم تأثرهم بمنهجها في البحث والتفكير . جمع بين الفلسفة وعلم الكلام ، ولعله كان أول من استخدم في علم الكلام كثيرا من مفردات الفلسفة وتعبيراتها مثل ذكر الجواهر والأعراض .. وغير ذلك من مسائلها ، فأخضع بذلك الفلسفة لعلم الكلام ، حتى صارت الفلسفة من أتباع هذا العلم الديني ، ولم تعد تدرس دراسة خاصة بها كما كانت قبل ذلك .

وفي ذلك .. ذكر ابن خلدون في مقدمته بأن المتكلمين الذين جاءوا بعد الغزالي خلطوا علم الكلام بمسائل الفلسفة ، فصارت كأنها فن واحد ضاربا مثلا بما فعله فخر الدين الرازي في كتابه المعروف بالحكم المشرقية ، ليقلده كل من جاء بعده من علماء الكلام. وبهذا يكون الرازي أول من اهتم بجمع معارف المتقدمين وتلخيصها،

وأول من أذاع الطريقة التقريرية الفلسفية في سائر العلوم من تفسير ونحو وبلاغة ؛ حيث اختصر كتابي «عبد القاهر الجرجاني» في البلاغة وهما : (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) في كتاب واحد اهتم فيه بالطريقة التقريرية في الفلسفة ، بخلاف الطريقة الأدبية التي اهتم بها عبد القاهر في كتابيه . فكان فخر الدين الرازي أول من أظهر الطريقة التقريرية في علوم البلاغة .

إلا أن هذه الطريقة التي كتب بها فخر الدين الرازي كتبه ، كانت على خلاف ما صار بعدها ؛ لأنها كانت في أول نشأتها ، وكان الأسلوب العربي لا يزال له قوته وسلطانه، فلم يكن فيها من الحشو والتعقيد وسوء التأليف ما صارت إليه بعد ذلك. ومع ذلك .. لم يكن الرازي إلا نادما في آخر الأمر.حيث نقل عنه بعض المؤرخين أنه اختبر الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فلم ير فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدها في القرآن الكريم .

وهنا يعلق «الأستاذ الصعيدي» قائلا: «لكن هذا لم يمنع من أتى بعد فخر الدين الرازي من المضي في هذه الطريقة التقريرية في التعليم والتأليف حتى غزت الفلسفة النظرية سائر علومنا ، وقلبت أوضاع سائر العلوم عندنا ، وضاعت بها عزة كثير من هذه العلوم كعلمي : النحو والبلاغة ، فرجعت بها إلى الوراء ، وكان الرازي هو أول من سن هذه السنة لمن بعده ».

إلا أن ابن خلكان يذكر في كتابه (وفيات الأعيان) أنه كان لفخر الدين الرازي يد بيضاء ، وأنه كان يعظ بالعربية والفارسية ، وكان يلحقه الوجد أحيانا فيكثر من البكاء ، وكان مجلسه بمدينة هراة يحضره أرباب المذاهب والمعتقدات ، فيسألونه ، فكان يجيب كل سائل بأحسن ما يستطيع ، وقد رجع بسببه كثير من الطوائف التي كانت تتحامى التأويل إلى مذهب الأشعرية . ولعل هذا هو التجديد الذي يعنيه الذين اختاروه واحدا من مجددي القرن السادس الهجري .

وبعد ، فإن غاية ما يقال في مجددنا فخر الدين الرازي ، أنه أراد أن يمثل في القرن السادس الهجري ما كان يمثله قبله حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في القرن الخامس الهجري ، فندم مثله على انشغاله بالعلوم العقلية والفلسفية حتى إنه قال : «.. ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا ...» .



القرن السابع



1 - ابن الصباغ

2 - القرطبي

3 - ابن الأثير

4 - ابن الفارض

5 - الواسطي

6 - ابن عربي

7 - أبو الحجاج الأقصري

8 - أبو السعود بن أبي العشائر

9 - ابن الحاجب

10 - ابن البيطار

11 - أبو الحسن الشاذلي

12 - العز بن عبد السلام

13 - ابن أبي أصيبعة

14 - ابن سبعين

15 - جلال الدين الرومي

16 - نصير الدين الطوسي

17 - أحمد البدوي

18 - مرزوق اليماني

19 - القباري

20 - القزويني

21 - المرسي أبو العباس

22 - ابن النفيس

23 - البيضاوي

24 - البوصيري

25 - الديريني

26 - ابن دقيق العيد

27 - ابن عطاء الله السكندري

28 - تقي الدين بن تيمية

7

هـذا القـرن

وتبدأ المائة الهجرية السابعة بعام 1204 ميلادية ، ونظرة شاملة إلى أحـوال هـذا القرن السابع تؤكد أن النواحي السياسية والاجتماعيـة ازدادت سـوءا ، وأن الدولـة الإسلامية أصبحت اسما بلا مضمون بعد ضياع الكثير من أراضيها في الـشرق أو في الغرب ؛ حيث لم يبق ما يحافظ عليها سـوى مـصر في عـصر المماليـك ، ومملكـة بنـي الأحمر بغرناطة ، وتضاعف انهيار هذه الدولـة الإسـلامية بـسقوط بغـداد في أيـدي التتار ... وكان لابد أن يحدث كل هذا في ظل هذه الحروب المشتعلة فيها بين إمارات الدولة الإسلامية وممالكها ، فيشغلها عن الأخطار المحدقة بها شرقـا حيـث التتـار ، وغربا حيث ممالك أوروبا المحيطة بالأندلس التـي تتحفـز لاسـترداد أراضـيها مـن المسلمين . ولم يستطع أن يقف أمام هذا الزحف التتاري على الـشرق الإسـلامى إلا مصر في الشرق ؛ حيث وقف سلطانها «قطز» أمام زحف التتار ، أو بني الأحمر الذي ضم ما بقي من الأندلس للمسلمين مكونا دولة بني الأحمر في مواجهة الفرنجة.

ويضاف إلى ذلك : أن الحالة العلمية كانـت سـيئة أيـضا ، فلـيس هنـاك تقـدم علمي يذكر ، وليس هناك إعمال للعقل حتى ينـتج ويبتكـر ، وإنـما كـل مـا هنالـك تلخيص لما ترك الأجداد ، وطبيعي أن يزيد العداء للفلـسفة ورجالهـا حتـى أصـبح الأخذ بها يتم خفية ، حتى لا يتعرض من يطلبها للسجن أو النفي أو القتل .

كذلك ساءت الأحوال الدينية ، فقـد تـضاعف جمـود المـسلمين العقائـدي إلى جانب جمودهم الفقهي ، وزاد نفوذ الصوفية ، خاصة بعد ظهور قطبيهـا الكبـيرين : «السيد أحمـد البدوي» والسـيد « إبراهيم الدسوقي » في أوساط العامـة ، وظهـور

«ابن عربي» و«جلال الدين الرومي» في الأوساط العلمية ، وبالتالي .. زاد نفوذ الدولة الباطنية ، وزاد خضوع العلماء لهذه الاتجاهات الصوفية ، والأكثر شيوعا ، ومنها الرهبنة في الإسلام ، والانصراف عن العمل .

أحداث كثيرة كلها تدل على الانهيار التام في الأحوال ؛ الأمر الذي كان يتطلب مجددا إسلاميا يصلح ما أفسده السابقون ، وفي الوقت نفسه يدرك التحول الخطير الذي كان يحدث في التفكير العالمي بعد الثورة على الاتجاه النظري المحض في العلم والفلسفة ، هذه الثورة التي مهد لها «روجر بيكون» - الذي استفاد من الفلسفة الإسلامية لأوروبا - طريق السيادة على العالم حين نبهها إلى فائدة العلم التجريبي . **أقول** : إن المسلمين كانوا في حاجة إلى مجدد يدرك خطورة هذا التحول ليسير بالمسلمين في الطريق الصحيح، مجدد يصلح حال الأمة ويعلو على الخلافات الطائفية التي لا يقرها الإسلام ، وينبه إلى الحقد الأوروبي الممض على الإسلام في القرون الوسطى ، ويخرج العالم الإسلامي من هذه الخانقاوات الصوفية ، ويحميه من جهل واستبداد، وتسلط حكام، جهلا بالذي كان أخطر عليه من الطامعين فيه من الخارج.

صحيح .. لقد ظهر في هذا القرن مجددون ، ولكن كان تفاقم المشكلات يمنع وصول كلماتهم إلى قلوب المسلمين ، ولا أدل على ذلك من أن فقيها عالما مفكرا مثل «ابن تيمية» يقضي معظم سنوات حياته في السجن إلى أن يموت فيه ؛ بسبب جهاده من أجل وصول كلمته .. ويظهر «ابن دقيق العيد» الذي قام بشيء من الإصلاح ، ويظهر «العز بن عبد السلام» الفقيه العالم و«الإمام القرطبي» صاحب التفسير العظيم، و«ابن الحاجب» اللغوي الكبير ، و«عمر بن الفارض» الشاعر : سلطان العاشقين .

هذا إلى جانب ظهور «محيي الدين بن عربي» وتفكيره الراقي في الصوفية ، وتأثيره فيمن بعده من فلاسفة على مدى قرنين ، حتى إن «دانتي» نقل عنه تصوراته في الكوميديا الإلهية .

باختصار .. لم يكن في هذا القرن أية ميزة سوى تواجد هذه السلسلة الكريمة من المجددين من علماء وأدباء ولغويين وفقهاء .. وغيرهم ممن جعلوا لحياة الذين يتصلون بهم معنى، بل وأثروا الحياة العلمية والفكرية والدينية، من خلال أفكارهم، على الرغم من صعوبة وصول هذه الأفكار إلى من يريدها .

أقول : إن هؤلاء المجددين كانوا حقا وصدقا مفخرة لهذا القرن أو أي قرن . ولكن هيهات أن تصل أفكارهم إلى جمهور المسلمين ! ولعل الصفحات التالية، تقدم لنا التعليل الثقافي المطلوب لهذه المعادلة الصعبة !

ابن الصباغ

شيخ التصوف المصري في القرن السابع الهجري ، أو الحسن بن الصباغ القوصي، حيث توفي عام 612 هـ ، ولهذا فهو من مجددي هذا القرن ، ومن اسمه نستدل على بعض جوانب شخصيته في المجالين : العلمي والاجتماعي .

ففي المجال العلمي : نجد أنه ينتسب إلى مدينة قوص بصعيد مصر وهي- كما يقرر المؤرخون والجغرافيون ، وفي مقدمتهم الشريف الإدريسى- أنها كانت عاصمة فعلية للصعيد منذ عصر الدولة الفاطمية إلى أواخر حكم المماليك لمصر . وقد كانت لهذه المدينة مكانة عظيمة على امتداد هذين العصرين : الفاطمي والمملوكي ، في نواح كثيرة ، منها : الدينية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، إلى درجة أنها كانت تقف على قدم المساواة مع حواضر الدولة الإسلامية وعواصمها ، مثل : القاهرة ، والإسكندرية ، ودمشق، وحلب ، وبغداد .. وغيرها .

وكما يذكر الباحث «محمد عبده الحجاجي» في كتابه : (شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر الإسلامي) : أن الرحالة والجغرافيين العرب قد صوروا عظمة مدينة قوص فأفاضوا في وصف جوامعها ، ومدارسها المختلفة التي كانت إبان تلك الفترة منارا للثقافة ، ومشعلا للعلم ، وملتقى للمعارف التي يقصدها الباحثون والدارسون وطلاب العلم من كل صوب وحدب .

ومثل هذا التقدم الذي حققته هذه المدينة في ميدان العلم ، حققت تقدما في ميدان الاقتصاد ، فحفلت بالأسواق العديدة ، والمتاجر الكبيرة ، وامتهن أهلها الحرف والصناعات ، كالنسيج ، والحياكة ، والصباغة .

وطبيعي .. أن يكون نتيجة هذا التقدم والازدهار الذي عاشته هـذه المدينـة أن تكون ملتقى للعديد من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية ، ووجهة لأهـل التجـارة والصناعات الخفيفة من مختلف البلاد .

وطبيعي أيضا .. أن يتأثر أهلها بهذا التقدم العلمي والاقتصادي الذي ترك أثره – ولاشك – على الناحية الاجتماعية . ويكون من بين هؤلاء : شيخنا أبو الحسن بن الصباغ القوصي. فنراه يستفيد من هذا المناخ العلمي – سواء من أهله في المدينة نفسها ، أو من الوافدين عليها من الحواضر الإسلامية المختلفة – استفادة مباشرة ، أو غير مباشرة .

وأما عن بقية اسمه «ابن الصباغ» فنسبة إلى صباغة المنسوجات التي اشـتهر بهـا والده بين بلدان الصعيد .. ومن العجيب : أن أبا الحسن – وهو الابن الأكبر ، الذي كان يفترض أن يرث هذه المهنة عن والده – كان لا يقبل عليها ، وإذا كان يـصاحب والده فـي الذهـاب إلى المصبغـة فإنمـا ذلك امتثـالا لطاعة والده . أما عنه فقد كـان يتحين الفرص للهروب منها إلى حلقات الوعظ والدرس التـي كـان يقيمهـا رجـال التصوف وعلماء الدين بمدينة «قوص». ولعل والده قد لاحظ ذلـك كثـيرا ، فكـان يحزن لانصراف ابنه عن هذه الصنعة التي يود أن يورثها له . إلى أن كان هذه الحادثـة التي يرويها «محمد عبده الحجاجي» في كتابه فيذكر: «أنه بينما كـان جميـع العـاملين في حانوت الصباغة غارقين في عملهم إذ بأبي الحسن يأخذ جميع المنسوجات والملابـس المطلوب صباغتها، ويطرحها في وعاء واحد معد للون واحد من الصباغة، ويلمحـه والده، فيصيح فيه ناهرا إياه وقائلا: لقد أتلفت ثيـاب النـاس ، قاصـدا هـذه الثيـاب المراد صباغتها، فيخرج المنسوجات والأثواب من الوعاء ليظهر أن كل ثوب قد أخذ اللون الذي أراده صاحبه ! ويقف الوالد وأبناؤه والعمال مـأخوذين أمـام مـا رأوا ! وهنا يتركونه لحاله بعد أن تأكد لهم ما هو مائل إليـه مـن سـلوك الطـرق الـصوفية ،

لتبدأ شهرته من هذه الواقعة : الصباغ ، وتنتقل هذه الواقعة من مكان لآخر ويذاع حديث الصباغ على أنه من الصالحين ..».

ويشب ابن الصباغ في هذه البيئة المتميزة عما حولها في صعيد مصر ، يضاف إلى ذلك أنه وجد في أسرة على بسطة من الرزق، حتى إذا مر قطب الصعيد: «عبد الرحيم القنائى» بالمدينة كان الصباغ أول من رحب به ، وتحمس له ، وأخذ عنه . ولعل القنائى قد أدرك فيه هذا الولع بالمعرفة ، والحب للطريق الصوفي الذي ألهمه الله إياه، فقربه إليه ، وأفاض عليه من علمه وفتوحاته حتى نضج فيما بدأ وأحب ، إلى درجة أن أستاذه القنائى قال عنه ذات يوم : «لقد دخل أبو الحسن الصباغ من باب ما دخلناه»، قاصدا أنه اتبع الطريق الصحيح للصوفية .

ولعل عبد الرحيم القنائى كان ينزله منزلة .. خاصة بين تلاميذه وأتباعه ، وإلا فما معنى أن يقول عنه : «لو لم يكن من أصحابي إلا الشيخ أبو الحسن الصباغ لكفى من سائر الأمم . ولئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم» . ومعنى هذه العبارة التى سجلها الأدفوي في كتابه (الطالع السعيد) : أنه لو اقتصر كل أصحابه وتلاميذه ومريديه على ابن الصباغ وحده لكان ذلك يكفيه ، فهو كرجل واحد أعز من كل النفائس الممكنة» ، وهذا تقدير من شيخه ليس بعده تقدير.

وطبيعى .. أن يكون لهذا التقدير من القنائى صداه عند الصباغ ، فنراه- كما يسجل المؤرخون- يهجر رباطه بمدينة «قوص» ليقيم في رباط أستاذه القنائى بمدينة «قنا» بعد وفاته . ويبقى فيه بقية حياته مضطلعا بنشر تعاليم الصوفية في صعيد مصر، فيلتف حوله الناس ، يأخذون على يديه المعارف ، ويغترفون من فيض علمه ، وانتقلت إليه رئاسة تربية المريدين بعد القنائي ، فكان في ذلك خير خلف لأعظم سلف .

وكان في تربيته وتعليمه لتلاميذه ومريديه مثلا طيبا للغيرة على الدين ، ورفض البدع والأباطيل ، ولعل التاريخ يذكر له أنه قد حارب الشيعة الذين يتغلغلون في

مختلف مدن صعيد مصر فرارا من اضطهاد الأيوبيين ، وحارب في عنف معتقداتهم الباطنية ، وكان له دور فعال في إخماد نار الفتنة التى اشتعل أوارها بين المسلمين والنصارى في إقليم قوص ، إلى جانب ذلك كله أنه كان داعيا للخير قيما على الأخلاق ، ناهيا عن الفحشاء والمنكر ، وغير ذلك من الفضائل .

وهكذا .. وعاش ابن الصباغ حياة حافلة بالعلم والتصوف ، إلى أن مرض في أخريات أيامه، فكان يعوده التلاميذ والمريدون والأصحاب المقربون، فكانوا يلقونه على حالة من التصوف والرضا بقضاء الله ، والتشوق إلى ملاقاته عز وجل . حتى إن أحدهم سمعه ، كما يذكر الأدفوي في كتابه (الطالع السعيد) يهمس وكأنه يحدث نفسه قائلا : «سألت ما الذي بي فقيل لي : ابتليناك بالفقر فلم تشك ، وأفضنا عليك النعم فلم تشغلك عنا ، وما بقي إلا مقام أهل الابتلاء لتكون حجة على أهل البلاء..» . وكان هذا هو حاله حتى فاضت روحه في عام 612 هـ .

مات هذا الشيخ الطيب تاركا مذهبا يقوم في جانبه النظري على الحب الإلهي ووحدة الوجود ، وقد روي عنه من الأشعار في الحب الإلهي :

بقائي فناء في بقائي من الهوى	**فيا ويح قلبي في فناء بقاؤه**
وجودي فناء في فناء فإنني	**مع الأنس يأتيني هنيئا بلاؤه**
فيا من دعا المحبوب سرا بسره	**أتاك المنى يوما أتاك فناؤه**

ومما روي عنه أشعار في وحدة الوجود ، حيث يقول :

تسرمد وقتي فيك فهو مسرمد	**وأفنيتني عني فعدت مجردا**
وكلي بكل وصل محقق	**حقائق حق في دوام تخلدا**
تفرد أمري فانفردت بغربتي	**فصرت غريبا في البرية أوحدا**

وكما يذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» في موسوعته الصوفية : أن هذا الشيخ لم يجد اضطهادا له بسبب مذهبه في وحدة الوجود كالذي تعرض له من قبل الشيخ «ابن عربي» ، لأن طريقته عن التصوف يقول فيها : ليس لأحد على في هذا الطريق منة إلا الله ورسوله ... وفي تعليمه للمريد يقول : لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية من الله عز وجل ، ولن يصفو بالك إلا بخدمة الأولياء، ولن تكون لك حالة شريفة، إلا بملازمة الموافقة ، ومعانقة الأدب ، وأداء الفرائض، وصحبة الصالحين ، وخدمة الصادقين . والذاكر لله تعالى لا يقوم له في ذكره عوض ، والعارف من توافقه معرفته في الأوامر ولا تخالفه في شيء من أحواله ، والسنة التي لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هي : الزهد في الدنيا ، وسخاوة النفس ، ونصيحة الخلق . ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه . وعلامة محبة العبد لله أن لا يؤثر عليه شيئا سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار ، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار ، والسعيد من أعطاه الله قلبا وبصرا معبرا ، وأذنا تسمع من الله ، ونفسا تنشط في خدمة الله..».



القرطبي

انصرف جهد الإمام القرطبي : أحد مجددي القرن السابع الهجري إلى فكرة متحضرة مؤداها : أن التطور والاتساع في انتشار كتاب الله الكريم ، لابد أن يواكبه جهد متزايد في مجال تيسير فهم معاني وأهداف هذا الكتاب ، لجمهور المسلمين وعامتهم ، فضلا عن خاصتهم ، وذلك لمساعدتهم على حسن تدبر معانيه وإدراك أهدافه ، ومن ثم تلاوته حق التلاوة .

لقد وصف حجة الإسلام الإمام : «أبو حامد الغزالي» شروط هذه التلاوة الحقة فقال : «تلاوة يشترك فيها اللسان والعقل والقلب .. فحظ اللسان من هذه التلاوة تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل منها تدبر المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ بما في هذا الكتاب الكريم من زجر وأمر ونهي .. فاللسان يرتل ، والعقل يتدبر ، والقلب يتعظ ..».

ومن هنا .. أصبح على المسلمين في كل مكان وزمان أن يكثروا من تلاوة آيات هذا الكتاب الكريم ويتدبروا معانيه ، ويفسروها للناس ، حتى يدرك قراؤه ، ومرتلوه ، والآخذون بأحكامه معانيه وأهدافه ، ومراميه ومقاصده .

ولذلك .. فإن بين هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم مهمة تفسير أحكام القرآن الكريم في العصر الوسيط «أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي» ، صاحب (تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم) .

والحق أن المؤرخين لا يعرفون تأريخا محددا لميلاد هذا العلامة المفسر ، وإن كانت الآراء قد أجمعت على أنه ولد في قرطبة - إحدى مدن الأندلس - مابين عام

580 هـ حتى عام 595هـ ، إلا أنهم حددوا تأريخا لوفاته بمنية ابن خصيب «مدينة المنيا» الآن بالوجه القبلي في مصر كما يقرر «الزركلي» في كتابه (الأعلام) بأنه رحل من قرطبة بالأندلس إلى بلاد المشرق في عصر ملوك الطوائف ، واستقر بمنية ابن خصيب إلى أن توفي ليلة الاثنين التاسع من شوال عام 617 هـ الموافق عام 1273 ميلادية ، ودفن في هذه المدينة من صعيد مصر .

ويتفق مع كتاب (الأعلام) للزركلي ، كتاب (نفح الطيب) «للمقري» في جزئه الثاني الخاص بالتعريف بمن رحل عن بلاد الأندلس إلى بلاد المشرق ، ومنهم القرطبي رضي الله عنه .

ويرى كل من «ابن فرحون» في (الديباج المذهب في معرفة أعلام المذهب – أي مذهب مالك) ، و«المقري» في كتاب (نفح الطيب) أن القرطبي كان من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين ، الورعين الزاهدين في الدنيا ، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه ، وعبادة ، وتصنيف .

ومن أبرز مؤلفاته (تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم) .

وهو كتاب كبير يحتوي على عدة مجلدات ، بعض المؤرخين يذكرون أنها خمسة عشر ، وآخرهم الأستاذ «توفيق الحكيم» الذي أعد كتابا تحت عنوان : (مختارات من تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن) ذكر أنها عشرون مجلدا . وهذا التفسير الذي قام به القرطبي يعد من أجل التفاسير وأعظمها نفعا، أسقط منه القصص والتواريخ، أثبت بدلا منها أحكام القرآن، واستنبط أدلته، وذكر القراءات ، والإعراب والناسخ والمنسوخ ... وغيرها . وسوف نعود إلى منهجه في هذا الكتاب وموضوعاته بعد أن نذكر بقية كتب ومؤلفات هذا العلامة الكبير ، ومنها : كتاب (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) وكتاب (التذكرة بأمور الآخرة) وكتاب (شرح التقصى) وكتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة ، ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة) . والذي قال عنه

ابن فرحون بأنه لم يقف على تأليف كتاب أحسن منه في بابه وموضوعه . وله أرجوزة جمع فيها أسماء النبي -ﷺ- وله تواليف وتعاليق مفيدة .

ومن سمات القرطبي : هذا المفسر الكبير أنه كان مطرحا للتكلف ، فلا يتصنع ولا يتكلف في أمر من الأمور ، وإنما كان رجلا بسيطا متواضعا يمشي بين الناس كما تذكر الروايات التاريخية : بثوب واحد ، وعلى رأسه طاقيته ، لا يغيرهما قط إلا لغرض النظافة ، أو عندما تبليان .

وعن كتابه (الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان) يقول في تقدمته: «إنه الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاء معارضته، وأعيت الأولياء مناقضته ، وأخرست البلغاء مشاكلته ، فلا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. جعل أمثاله عبرا لمن تدبرها . وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار فقال تعالى : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾(1) خاطب به أولياء الله ففهموا ، وبين لهم فيه مراده فعلموا ..» .

وعن تفسيره للقرآن يقول القرطبي : «رأيت أن أشتغل به مدى عمري ، وأستفرغ فيه منتي ، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا ، يتضمن من التفسير واللغات ، والإعراب والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما تذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعا بين معانيهما ، ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ، ومن تبعهم من الخلف ، وعملته تذكرة لنفسي ، وذخيرة ليوم رمسي ، وعملا صالحا بعد موتي ..».

---

(1) الأنعام : ٣٨ .

ويسجل في منهجه لهذا التفسير العظيم شرطا مهما هو إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث على مصنفيها ، حيث يقول : «من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ؛ حيث لا يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا ، لا يعرف الصحيح من السقيم . ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جمل من ذلك ... وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين ، إلا ما لابد ولا غنى عنه للتبيين والتوضيح . فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين مسائل يتبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول، والتفسير الغريب والحكم . فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل» .

وهكذا .. كان منهجه - رضى الله عنه - في التفسير الذي أنفق فيه سنوات من عمره ، حتى توفي في (مدينة المنيا الآن) ، وله فيها مقام يعرف باسمه .

* * *

ابن الأثـير

«ابن الأثير» : يطلق هذا الاسم على ثلاثة إخوة من جزيرة ابـن عمـر هـم مـن أشهر علماء العرب ومؤلفيهم .

1- أكبرهم «مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد»، ولد عام 544 هـ (1149م) وتوفي بالموصل عام 606 هـ (1310م). أما فيما يتصل بتاريخ حياته ، فقـد درس النحو على يد «ابن الدهان» في الموصل ، والحديث في بغداد، ثـم اتـصل بخدمـة الأمير «قيماز» الذي كان يحكم البلاد مدة طويلة من قبل «سيف الدين غـازي»، وتولى ديوان رسائل خليفتى غازي «مسعود بن مودود» و«نـور الـدين أرسـلان شاه» . على أن أخاه يحدثنا بأنه تردد في قبول هذا المنـصب الرفيـع ، ولم يقبلـه إلا نزولا على إرادة «نور الدين» ؛ ثم عرض له مرض كف يديـه ورجليـه ، ويقـول «ابن خلكان» : إنه ألف معظم كتبه ، إن لم يكن كلهـا ، وهـو عـلى هـذه الحـال. وجعل من منزله رباطا للمتصوفة .

2- وولد الأخ الثاني «عز الدين أبو الحسن على بن محمد» عام 555 هـ في الجزيـرة ، وتوفي في الموصل عام 630 هـ ، أي : إنه من مجددي القرن السابع الهجري وهـو صاحب الكتاب المشهور (الكامل في التاريخ) الذي يستـشهد بـه كثـيرا في هـذه الدائرة ، وصنف كذلك تاريخا لأتابكة الموصل ، كـما صـنف معجـما مرتبـا عـلى حروف الهجاء عن الصحابة ، عنوانه : (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ولخـص كتاب (الأنساب) «للسمعاني» بعنوان : (لب اللباب)، وجـاء الـسيوطى بـدوره فوضع مختصرا لهذا الكتاب عنوانه : «لب اللباب» . وأهم مؤلفاته جميعا كتابه في التاريخ الذي انتهى بحوادث عام 628 هـ ؛ وهو مصنف له قيمة عظيمة .

وتلقى عز الدين العلم في الموصل وفي بغداد ، كما رحل إلى بلاد الشام ، ووقف بقية حياته على العلم الذي انقطع له .

3- وولد الأخ الثالث «ضياء الدين أبو الفتح نصر الله» عام 558 هـ في الجزيرة وتوفي عام 637 هـ ببغداد . وترجع شهرته على الأخص إلى أنه كان من أصحاب الأساليب . أما كتابه في البلاغة (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) فيعد من أهم المراجع في العالم الإسلامي ، وقد ذكر مؤلفاته الأخرى «ابن خلكان وبروكلمان» . وهو على خلاف أخيه المؤرخ ، عاش عيشة كلها نشاط وحركة ؛ قدمه «القاضي الفاضل» إلى «صلاح الدين» ، واتصل بخدمته عام 587 هـ وسرعان ما أصبح وزير الملك «الأفضل بن صلاح الدين» . ولما انتزعت دمشق من الملك الأفضل فر «ضياء الدين» بكل مشقة إلى مصر في صندوق مقفل. وظل مختفيا حتى استقر الملك الأفضل في سميساط التي عوض بها عن ملكه السابق . ولكن ضياء الدين لم يمكث بها سوى مدة قصيرة ، ثم اتصل بخدمة صاحب حلب ، ولم يطل مقامه هناك فغادرها سعيا وراء حظه إلى الموصل ، ثم إلى إربل .

كتب الإنشاء لصاحب الموصل «ناصر الدين محمود» . وتوفي أثناء إحدى رحلاته لبغداد . أما ولده «شرف الدين محمد» ، فقد كان أيضا مؤلفا . توفي في ريعان شبابه عام 622 هـ (1225م).

إذا .. الأخ الأوسط واسمه «عز الدين أبو الحسن علي بن محمد» هو ابن الأثير الذي نقصده على الأرجح ، وهو من مجددي القرن السابع . وقد أخذ ابن الأثير عن شيوخ عصره بالجزيرة والعراق والشام ، فسمع بالموصل من خطيبها «أبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسى» ، وسمع ببغداد من «أبي القاسم يعيش بن صدفة» الفقيه الشافعي و«أبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصوفي» ، وسمع بدمشق من زين الأمناء وغيره .

وعاش ابن الأثير منقطعا إلى العلم تحصيلا وتدريسا وتصنيفا ، وربما استفسره صاحب الموصل في بعض الشئون السياسية لدى أولي الأمر ببغداد ، كما يؤخذ من قول ابن خلكان : «وقدم بغداد مرارا حاجا ورسولا من صاحب الموصل » .

وقد روى عن ابن الأثير غير واحد من جلة العلماء : فابن خلكان يصرح بأنه عندما لقيه في صباه بحلب لازمه وتردد عليه، ويقول في ترجمته «أبو محمد التستري»: «وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه ...» . وممن روى عنه أيضا «الشرف بن عساكر وسنقر القضاعى» اللذان يقول فيهما صاحب (طبقات الشافعية الكبرى) : «إنهما من أشياخ أشياخه».

ولاشك أن كتاب (الكامل) الذي يقع في اثنى عشر جزءا أجل تصانيف ابن الأثير وأشهرها، وكان كل اعتماده في الأجزاء السبعة الأولى منه على الطبري، وقد اختصر الطبري فحذف الأسانيد وترك الإسهاب ، واكتفى بالرواية الواحدة ، على أن ذلك لم يمنعه من أن يستمد من مصادر أخرى: «المبرد والبلاذري والمسعودي» ما ترك الطبري عن قصد أو غير قصد ، وذلك مثل أيام العرب قبل الإسلام والوقائع بين قيس وتغلب في القرن الأول الهجري ، وغزو العرب السند ، ... إلخ .

وأما بقية أجزاء الكتاب فقد انتفع ابن الأثير في تأليفها بكل المصادر العربية التى وصلت إلى يده ، لذلك يعتبر كتابه بحق : خلاصة وافية لما كتب المسلمون في تاريخهم السياسي حتى سنة 628 هـ .

وبعد : فابن الأثير مؤرخ يمتاز بشدة التثبت فيما ينقل ، بل قد يسمو أحيانا إلى نقد المصادر التى يستمد منها ، وله استدراكات وجيهة على الطبري والشهرستاني وغيرهما من العلماء والمؤرخين الذين نقل عنهم .

ولهذا ولغيره من أسباب كثيرة .. اعتبره المؤرخون من مجددي القرن السابع الهجري .

❋ ❋ ❋

ابن الفـارض

عمر بن الفارض : سلطان العاشقين ، وإمام الزاهدين ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري .

وفي هذه الصفحات القليلـة ربما نستشعر معنى الزهد في متاع الدنيا بما فيهـا من جاه وسلطان ، فما الدنيا كما يقـول القـرآن الكـريم : ﴿ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[1] ، ونستشعر أيضا معنى قوة النفس عندما تقوى على النفس ذاتها ، فتترفع عما يشينها ويخجلها ، فلا فائدة لإنسان يخسر نفسه حتى ولو كسب العالم ، ونستشعر فيها كذلك معنى الولاء للإنسان ... أي إنسان من أي عقيدة أو جنس أو لون .. فالكل أبناء آدم ، وآدم من تراب ..

هذه المعاني جميعها يمكن أن نلتقي بها عند الحديث عن هذا الرجل الـصالح .. عمر بن الفارض .

وعمر بن الفارض أو : سلطان العاشقين كما يحلو أن يلقبه دارسوه ومؤرخوه.. كان شاعرا صادق الحس ، رقيق النفس ، مرهـف الـشعور . وكـان إلى جانـب هـذه الصفات التي اجتمعت لديه صوفيا من أصحاب الرياضات والمجاهدات الروحية ، وكان مع هذا كله محبا ، امتلأ قلبه بأعمق معـاني الحـب ، وتعلقـت جوانحـه بـأروع آيات الجمال ، وكانت حياته الروحية مرآة صادقة انعكست على صفحاتها كل ما كان يحتدم في باطنه في انفعالات عميقة ، وما فاض به قلبـه مـن عواطـف شريفـة ، ومـا امتلأت به نفسه من أحاسيس صادقة .

---

(١) الحديد : ٢٠ .

ولم يكن محبوب الشاعر الصوفي عمر بن الفارض الذي تغنى بحبه ، ورتل أنشودته ترتيلا طويلا ، وسبح بجمال ذاته وصفاته تسبيحا جميلا ... لم يكن مخلوقا من هذه المخلوقات، أو بشرا إنسيا أفاضت في وصفه كتب الأدب والأدباء ، وفاضت بتصوير صفاته القصائد الطوال أو القصار، وإنما كان حبه منصرفا جملة وتفصيلا إلى الذات الإلهية .

لقد انتهى سلطان العاشقين عمر بن الفارض إلى أقصى ما ينتهي إليه عاشق في حبه للذات الإلهية ، فأعانه شعره على التعبير عن هذا الحب تعبيرا صادقا رائعا ، هو أدل ما يكون على شوقه ورقة مشاعره ، وما لهذا الحب الإلهي من دوافع ، وما له من منازع ، وما عليه من معان .. وما ينتهي إليه من نتائج روحية سامية .

هذا الشاعر الصوفي الذي اتخذ من هذا الحب الإلهي مصدر إلهام لأحاسيسه وأفكاره وتصوراته ، حتى لقب بسلطان العاشقين . ولد بالقاهرة في مصر سنة ست وسبعين وخمسمائة للهجرة . وعاش في رعاية أبيه الذي كان يشغل منصبا كبيرا عند الملك العزيز . وما زال يرعى ابنه بالعلم والدرس صغيرا ، وينشئه على التقوى والصلاح غلاما يافعا ، حتى إذا صار في عمر الشباب دفعه إلى الاشتغال بالفقه ثم حبب إليه أن يسلك طريق الصوفية ، وأن يتزهد ويتجرد ، وأن ينظر إلى الدنيا على أنها حقا وصدقا متاع الغرور .

حتى إن أغلب الدراسات التي عنيت بترجمة حياة هذا الشاعر الصوفي - وفي مقدمتها دراسة كل من الدكتور «محمد مصطفى حلمي»، والدكتور «سعد عبد العزيز» - ترجعان هذه الشفافية، والعلم الواسع، والورع المنقطع النظير، وغيرها من سمات تميز بها عمر بن الفارض إلى هذه النشأة الأولى التي وجهها هذا الوالد المثقف .

بل إن هناك من الدراسات التي تربط بين هذه النشأة وبين ما أخذ ابن الفارض به نفسه من شدة ، حيث كان يمارس حياته الجديدة بالتوجه إلى جبل المقطم بالقاهرة

والاستقرار فيه بوادي المستضعفين ، حيث كان يخلو بنفسه خلوة تامة ، ويصوم فيها عن الطعام والشراب والكلام عدة أيام قد تبلغ العشرة ، ثم يعود بعدها ليستأنف حياته العملية من جديد .

وعلى هذا النحو .. كانت رياضة ابن الفارض الروحية التي ظل يقوم بها بانتظام وعلى الدوام من الشباب إلى الممات .

وإذا كان لموطنه المتمثل في بيته وأسرته دخل كبير في نشأته ، فإن لموطنه الكبير - المتمثل في مصر وعلمائها وفقهائها ، وما كان يجري فيها وقتئذ من أحداث - دخلا أكبر وأهم .

لقد عاش هذا الشاعر الصوفي في عصر كله قلق واضطراب ، بسبب ما كان ينشب من حروب صليبية تسببت في إجهاد مصر اقتصاديا على مدى سنوات طوال ، وقد كان لهذا أثره أيضا على الحياة الفكرية في ذلك الوقت ، حيث اتخذت طابعا دينيا يمتاز بنزعته الروحية الصوفية ، وبالتالي .. صار التصوف نوعا من السمو الروحي والطريق الذي يدفع الإنسان إلى التجرد من آثار العصبيات الدينية والطائفية ، حيث أصبح لا مكان لهذه العصبيات بين أبناء الوطن الواحد الذي ينبغي أن تتضافر جهودهم في مواجهة خطر يتهددهم جميعا .

هذا إلى جانب أن روح هذا العصر بوجه عام قد انعكست على مذاهب الصوفية التي كانت سائدة وقتئذ في غير مصر ، ومنها مذهب : (وحدة الوجود) الذي نادى به المفكر العربي المسلم «محيي الدين بن عربي» كما رأينا من قبل ، ومنها أيضا (الحكمة الإشراقية) التي نادى بها أيضا السهروردي .. وكانت نظرة هذين المذهبين تفصح عن احترام الأديان الأخرى غير الإسلام ، لأن الدين لله ، وأن الله سبحانه وتعالى هو خالق الجميع . وأن الغاية التي يسعى إلى تحقيقها أي دين سماوي تتمثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن كل نفس بما كسبت رهينة ، وفي ضوء ذلك التفسير استطاع المصريون أن يتفوقوا على ظروفهم ، وأن يتخذوا من

التصوف وسيلة لرياضة النفوس على التسامي والتسامح والترفع عن الصغائر . والالتزام بالنظرة الواحدية للأديان .. ذلك أن الأديان إن اختلفت في شعائرها وطقوسها وأشكالها ، إلا أنها تتفق جميعا في أهدافها وغاياتها .

ويقرر الدكتور «سعد عبد العزيز» اتصال ابن الفارض بمحيى الدين بن عربي، وتأثره بفلسفته التى تنادي بوحدة الوجود ، كما أخذ عن السهروردي حكمته في الإشراق التى تقوم على نظرية الفيض الإلهى حيث يقول : «فعند ابن الفارض أن المتصوف يتحرق شوقا إلى معرفة الحقيقة العليا، والنور الأسمى ، وما يصدر عنه ، فالشوق هنا إنما هو الدافع الذي يدفع المرء إلى الاتصال بخالقه . حتى يرى في جواره ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من مشاهدة النور الحق ، والانغماس في أمواجه، فإذا خلصت النفوس من كل ما يعلق بها من أدران وشوائب، فإنه في مقدورها أن تكشف كل ما يجري وراء الحجب من خفايا وأسرار..».

وبهذا التفكير .. ذاع صيت سلطان العاشقين عمر بن الفارض في العالم الإسلامى، وطبقت شهرته الآفاق كشاعر متصوف له نظر فلسفى ، إلى درجة أن الملك الكامل كان ذات يوم يتجاذب أطراف الحديث مع نخبة من علماء وفقهاء وأدباء زمانه ، فجرى بينهم على غير قصد ذكر عمر بن الفارض بهذه الكيفية التى شدت إليه انتباه العالم الإسلامى ، وقد أخذ الحاضرون في مجلس الملك يذكرون مآثره أمام الملك، سواء في الشعر أو في التصوف أو في الفلسفة، ويذكرون أيضا زهده في الدنيا ، وعزوفه عن مغرياتها ، واختياره الاختلاء بنفسه بعيدا عن البشر ، حتى يتمكن من مضاعفة التعبد صياما وقياما ، تطهيرا لنفسه من كل الأدران والشوائب حتى يتقرب إلى الله .

وينصت الملك الكامل مهتما إلى كل هذا ليصيح قائلا : «مثل هذا الصالح العظيم يكون في زماني ولا أزوره . لابد لي من رؤيته وزيارته» ، وينهض متجها إلى الأزهر الشريف في جماعة من أمرائه لهذا القصد .

ولم يكد ابن الفارض يحس بقدوم هذا الركب الملكي قاصدا زيارته ، يتأكد له هذا الأمر ، بدخولهم من الباب الرئيسى للأزهر .. حتى يتحاشى لقاءهم ، ويخرج من باب آخر ، ولا يبيت ليلته بالقاهرة ، حيث يغادرها إلى الإسكندرية ، رغبة منه في عدم إتمام هذا اللقاء زاهدا في كل ما ينتج عنه من مكاسب أو فوائد .

وفي الإسكندرية ، يعيش هذا الصوفي الجليل بجوار منارها عيشة الكفاف ، حتى يستقر به المقام في مسجد أقيم هناك عاكفا على قراءاته وكتاباته وتعبده .ويقال إنه في هذا المسجد الصغير كتب قصيدته المشهورة التي سماها «التائية الكبرى» وهي المتضمنة لطبيعة تصوفه وفلسفته ونظريته في الحب الإلهي .

غير أن هذا الشاعر الصوفي لا يطيب له المقام طويلا بالإسكندرية بعد أن أصابته العلة وهو بعيد عن مسقط رأسه القاهرة ، هذه العلة دفعته دفعا إلى العودة إلى القاهرة التي لا يستطيع فراقها أكثر من ذلك ، وفي ظروف حالته الصحية الأخيرة .

وبالفعل .. عاد إلى القاهرة ، ولكن كان مريضا ، ويبدو أن العلة قد تمكنت منه إلى درجة أنه ظل ملازما للفراش ، حتى إذا بلغ الملك الكامل نبأ مرضه ، راح يستأذنه في زيارته مع طبيبه الخاص ، فلم يجد من ابن الفارض إلا الاعتذار والشكر .

لكن المرض تشتد وطأته على الجسد العليل ، والملك يعود مرة ثانية طالبا الاستئذان له بالزيارة ، فيشكره معتذرا ، وهنا يجعل الملك مبعوثه يستأذن عمر بن الفارض في إقامة ضريح له يلائم مقامه الجليل ، فيشكر له هذا الكرم . وظل في مكانه لا يبارحه حتى وافته منيته . فيدفن هناك تحت سفح المقطم ، كغيره من أبناء الشعب الصالحين .

* * *

الواسـطي

مؤسس الطرق الصوفية المعروفة بالرفاعية في مصر : العارف بـالله «أبـو الفـتح الواسطي» ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث ولد بالعراق في النـصف الثاني من القرن السادس وتوفي عام 632 هجرية .

وقبل التعرض لشخصية وأفكار أبي الفتح الواسطى : مؤسس الطرق الصوفية بمصر ، وجد القطب «إبراهيم الدسوقى» صاحب الطريقة الدسوقية بمصر ، وهـى الطريقة الصوفية المحلية بها ... ينبغى أن نلقى ضوءا على هذه الطـرق التـى انتـسب إليها الكثيرون في القرن الهجري السابع ، فقيل : إنه قرن الطرق الصوفية بوجه عام، فما مداه ؟ وما تأثيره على وجه الحياة السياسية والاجتماعيـة والاقتـصادية والفكريـة بمصر تحديدا ؟

الحق .. أن بعـض العلـماء والبـاحثين العـرب قرنـوا انتـشار الطـرق الـصوفية بتدهور الحالة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بوجه عـام ، وإذا نظرنـا إلى القـرن السابع تحديدا في مصر ، نجد أن هناك بالفعل تدهورا في هـذه الأحـوال جميعـا ، فـما تفسير ذلك ؟

لعل أحد الباحثين الأجانب ، أشار إلى ذلك بوجه عـام ؛ حيـث رأى أن ذيـوع التصوف يصحبه تدهور في الحضارات . ويضرب مثلا على ذلك بما حـدث في الهنـد القديمـة ، وفي العـالم الرومـاني والإغريقـى ، وفي القـرون الوسـطى في ألمانيـا ، وفي القرنين : السادس عـشر والـسابع عـشر الميلاديـين في فرنـسا ، فقـد خبـت الرغبـة الصحيحة في الحياة لدى بعض الموهوبين ذوي العقول النبيلـة ، والمـشاعر المرهفـة ؛

حيث انقطع الرجاء في حياة مستقلة ممتعة . إن كره هؤلاء للعالم المادي والحضارات يأخذ بمجامع قلوبهم ، وإن رغبتهم في الخير المطلق تدفعهم بلا رحمة إلى التمرد لتخليص أنفسهم وحريتهم من هذا العالم والحضارة والمجتمع .

ويتفق مع هذه النظرة التي ترى أن انتشار الطرق الصوفية يقترن بتدهور في الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عدد من الباحثين ، في مقدمتهم الدكتور «عامر النجار» ، حيث رأى أن التصوف العلمي – أي : تصوف أصحاب الطرق الصوفية – جاء مواكبا لضعف الحضارة الإسلامية . ويتفق هذا مع الدكتور «سعيد عبد الفتاح عاشور» الذي رأى من قبل أن الرغبة في العزلة والعودة إلى الله لا تقوى إلا في ظلال الضعف : فقليل من الناس يتذكر «الله» في قوته وصحته وشبابه وثرائه ، وكثير منهم يذكرون الله في ضعفهم ومرضهم وشيخوختهم وفقرهم . ولهذا.. يقرر الدكتور عامر النجار أن تصوف الطرق الصوفية قد ازدهر ونما في عصور ضعف الأمة الإسلامية في القرن السابع الهجري ، ومن عجيب الأمور .. أن الحكام في هذا القرن كانوا يشجعون المصريين على ذلك ، ويتركونهم ينضمون إلى الطرق الصوفية كما يريدون ، حتى ينشغلوا عن فساد هؤلاء الحكام . ولهذا .. كان القرن السابع الهجري أكثر القرون اضمحلالا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، مع أنه كان أكثرها تميزا بوجود الطرق الصوفية ، وظهور عدد من العلماء والأولياء الصالحين ؛ حيث ظهرت الطرق الصوفية والبدوية والشاذلية والدسوقية ، وقويت طريقتا : الرفاعية والقادرية إلى جانب ظهور عدد من المجددين على امتداد العالم الإسلامي .

وإذا كان للشيخ أحمد الرفاعي فضل في نشر حركة الصوفية من العراق إلى كل أرجاء العالم الإسلامي ، فقد كانت هناك شخصيات تتلمذت على يديه بالعراق ، وصار لها الفضل أيضا في نشر هذه الصوفية في العالم الإسلامي، من هذه الشخصيات البارزة في تاريخ هذه الطرق . شخصية الشيخ أبي الفتح الواسطي ، مؤسس الطرق

الصوفية بمصر على وجه التخصيص ، حيث وفد إلى مصر من العراق ، وأقام بالإسكندرية ، وبشر بها .

وكما يرى الدكتور «عامر النجار» في كتابه : (الطرق الصوفية في مصر .. نشأتها ونظمها وتطورها) أن هذه الشخصيات الصوفية كانت وراء دفعة ونمو حركة الطرق الصوفية في مصر في القرن السابع الهجري ، إما بطريق مباشر أو بغير مباشر . وفي مقدمة هذه الشخصيات : «عبد السلام بن مشيش» ، و«أبو مدين التلمساني» المتوفى عام 594 هجرية هو أستاذ «عبد الرازق الجزولي» ، والجزولي هو شيخ ومعلم كل من «عبد الرحيم القنائي» ، و«أبي الحجاج الأقصري» ، وهما من أقطاب التصوف في مصر ، كما أن أبا مدين التلمساني، أستاذ وشيخ عبد السلام بن مشيش، وأستاذ ومربي «أبي الحسن الشاذلي» صاحب الطريقة الشاذلية بمصر ، والذي سيأتي الحديث عنه في الصفحات التالية من هذا الكتاب .

وقد توفي الواسطي بمدينة الإسكندرية ، ودفن بها حوالي عام 632 هجرية.

وطبيعي .. أن يظل مكان الواسطي في زعامة الطرق الصوفية شاغرا . إلى أن يختار من بعده «السيد أحمد البدوي» صاحب الطريقة البدوية المعروفة ، أو كما يسجل الأستاذ «علي سالم عمار» في كتابه عن أبي الحسن الشاذلي حيث يقول : «إنه لما وصل خبر وفاة الواسطي إلى خلفاء الرفاعي بالعراق : مركز الدعوة والطريقة الرفاعية ، وقع اختيارهم على السيد أحمد البدوي ليخلفه في الزعامة بمصر ، فوصل مبعوثا من المدرسة الرفاعية إلى الإسكندرية سنة 635 هجرية ، وفي هذا تقدير كبير لمركز الواسطي ومكانته ... » .

والجدير بالذكر .. أن «السيدة فاطمة» أم السيد «إبراهيم الدسوقي» صاحب الطريقة الدسوقية أو البرهامية .. هي ابنة الشيخ أبي الفتح الواسطي ، الذي أدى دورا كبيرا في التخطيط لإقامة واستمرار الطرق الصوفية في مصر . ويرى المؤرخون

أن أبا الفتح قد تصور - إن لم يكن قد خطط - أن يكون حفيده السيد إبراهيم الدسوقي شيخا كبيرا كمثل شيخه الأكبر : السيد «أحمد الرفاعي» .

ومن هنا.. يمكن القول اتفاقا مع المؤرخين لهذه الطرق بأن أبا الفتح الواسطي، وأبا مدين التلمساني ، وعبد السلام بن مشيش كان لهم الأثر في بذر حركة الطرق الصوفية ونموها وازدهارها ، وانطلاقها في القرن السابع الهجري - قرن التصوف في مصر - حيث ازدهرت حركة الطرق الصوفية كما رأينا ، ولاقت تشجيعا من الحكام . وفي هذا القرن أيضا ظهر أهم أعلام الصوفية .

والجدير بالذكر .. أيضا أن الواسطي - وهو من مواليد بلدة واسطة بالعراق ، والذي توفي بالإسكندرية عام 632هـ قد لاقى التقدير والتكريم من أهل مصر ؛ فبنوا له مسجدا بالإسكندرية ، وضريحا لقبره يزار .

ذلك ؛ لأن مصر لم تنس كعادتها الذين أعطوا حتى ولو كانوا من البلاد العربية الشقيقة . بل إنها تنزلهم منزلة أبنائها ، لا فرق بينهم . ولهذا وغيره من الأسباب ، نجد الصالحين يهرعون إليها من المغرب والمشرق .. الكل يريد أن يعيش فيها ، ويدفن في ترابها .

* * *

ابن عربي

أبو بكر محمد بن على بن عربي ، الشهير باسم : محيي الدين بن عربي ، والمعروف بمذهبه في وحدة الوجود ، والملقب بالشيخ الأكبر ، أحد مجددي القرن السابع الهجري ، والذي كان في معاملاته ظاهريا ، وفي عقائده باطنيا ، والذي بلغت مؤلفاته المائتين ، أشهرها كتاباه : (الفتوحات المكية) و(نصوص الحكم) ، حيث عبر فيهما عن مذهبه الصوفي في وحدة الوجود ، ووحدة الأديان ، والحقيقة المحمدية ، تعبيرا يمتزج فيه النظر الفلسفي ، بالذوق الصوفي ، ومن هذه المؤلفات المائتين مؤلفات فلسفية وأدبية يتقدم الأخيرة منها ديوانه الشعري (ترجمان الأشواق) ، وهو تصوير رمزي لأشواقه في الحب الإلهي .

لقد نظر هذا المجدد إلى سلوك الصوفية ، فوجده يتجنب الشهوات والملذات ، ويرمي إلى طهارة الجسم وصفاء النفس ، وهو أسلوب عمل وتأمل : عمل يقوم على المجاهدة والمجالدة وبذل النفس والمال في سبيل الله ، وتأمل في آياته الله وأسرار الكون وهو أخيرا : فقد وجود.. فقد للعاجل ، ووجود للآجل .. فقد للفاني ووجود للباقي .. فقد للعبد . ووجود للرب . فوجد هذه الصوفية ذات مبادئ وأفكار كلها تسمو بالإنسان .

ولقد نظر إلى عقائد الصوفيين التي كانت حتى أيامه كامنة ضمنا في أقوال مشايخها وأقطابها ، وسأل نفسه : لماذا لا تتخذ هذه العقائد شكلا صريحا ؟ . وحين استطاع الإجابة عن هذا السؤال أصبح الشارح الأعظم للصوفية ؛ فمن خلاله استطاع العبد الباطن للإسلام أن يعبر عن نفسه بصراحة .

إذا .. فأهمية ابن عربي ومجالات تجديده كما يذكر الدكتور «سيد حسين نصر» تكمن في صياغته للمعتقدات الصوفية وجعلها صريحة . هذه الصياغة التي تدل على حاجة البيئة التي كانت موجهة إليها ، ذلك أن الحاجة للإيضاح لا تزداد مع توافر المعرفة للإنسان ، بل إنها لتصبح ضرورية بقدر جهل الإنسان وفقدانه للقدرة على الفهم المباشر للأشياء .. كذلك .. كلما ابتعد التمدن الإسلامي عن منبع الوحي ازدادت الحاجة إلى الإيضاح. لقد كان مجرد الإشارة أو التلميح كافيا بالنسبة للأجيال الأولى لفهم المعاني الباطنية للأشياء . لكن أهل القرون اللاحقة باتوا في حاجة إلى الإيضاح المسهب . ومن هنا ، من خلال ابن عربي قدمت الباطنية الإسلامية العقائد التي استطاعت وحدها أن تضمن صيانة التراث الصوفي في أوساط قوم كانوا دائما عرضة لخطر الضلال بسبب الاستدلال غير الصحيح ، حتى إن ما كان يعرف بالحقيقة الباطنية للتصوف اتخذ على يد ابن عربي شكلا جعله يتحكم في الحياة الروحية والعقلية في الإسلام ، وتلك هي أهمية ابن عربي ومجال تجديده .

وللتأكيد على جانب من تجديده ، نقرأ معا عرض أهم مؤلفاته وهو كتاب : (الفتوحات المكية) هذا الكتاب فتح الله به على الشيخ محيي الدين بن عربي «مؤلف يحتوي على أربعة مجلدات كبار تقع في أكثر من ثلاثة آلاف صفحة » ، ويندر من يمكنه أن يلم بهذا الكتاب في فصل أو في جملة فصول ، لأنه - والحق يقال - كالبحر الزاخر في علوم الحقائق والتصوف، وأحكام الشريعة ممتزج بعضها ببعض. ولا ريب في أن هذا الكتاب قد ألف بإلهام ، ولا يمكننا أن نتعرض لتفسير بعض ما جاء فيه من الآراء نثرا وشعرا مما انقسم جمهور المسلمين بسببه فرقا ، فمن قائل : إن المؤلف له شطحات ، ومن قائل : إنه كتب ما أراد برموز وألغاز ، يدركها أربابها للوهلة الأولى.

ومن قوله شعرا في مفتتح الكتاب : البيتان المشهوران اللذان يحتج بهما قوم من الفريق الأول وهو قوله :

الرب حق والعبد حق   يا ليت شعري من المكلف؟

إن قلت عبد ، فذاك سمت   أو قلت رب أنى يكلف !

ومن الفصول المهمة في هذا الكتاب ، الفصل : «في علم الحق وعلم الأحوال وعلم الأسرار» ، وفصل في : «اعتقاد أهل الاختصاص» ، وفصل في : «معرفة الروح».

ويقرر محيي الدين في فاتحة كتابه : أنه قبل بدايته في تأليف هذا الكتاب قد كلف بوضعه من ذي مقام عظيم ، ثم قال : «ثم أظهرت أسرارا وقصصت أخبارا لا يسع الوقت إيرادها ، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها فتركتها موقوفة على رأس منبعها ، خوفا من وضع الحكمة في غير موضعها ».

وبجانب الفصول التي ضمنتها الأسرار والرموز ، فصول جلية ظاهرة في أحكام الشرع مثل : فصل الوضوء وأحكامه ، وأسرار الطهارة ، وأفعال الصلاة ، بتوسع وإسهاب لا مثيل لهما في أي كتاب آخر من كتب هذا العلم .

وتكلم في الجزء الثاني عن : منازل الأولياء ، ومقام أهل المجالس وحديثهم ونجواهم ، وفي حظ الرسل من ربهم ومقامهم من مقام الأنبياء ، ومقام الأنبياء من الأولياء ، وفي هذا الفصل تفصيل بين نبوة الشرائع والنبوة المطلقة ، فهم من الأولياء إذا كانوا أنبياء شريعة من الدرجة الثالثة ، وإن كانوا في النبوة اللغوية فهم في الدرجة الثانية، وأن الأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرته في مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة: الهوى، والنفس ، والدنيا ، والشيطان . والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبي .

ومن الرسل من لهم خصائص على أمتهم ، ومنهم من لا يختصهم الله بشيء دون أمته ، وكذلك الأولياء فيهم أنبياء أي خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الإلهي ، ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ، ولهذا قال في نبي

الشرائع :﴿ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [1] . أي ما هو ذوقك يا موسى مع كونه كليم الله، فخرق السفينة ، وقتل الغلام حكما ، وإقامة الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهي ، كخسف البلاد على يدي جبريل ومن كان من الملائكة ، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمنين من الملائكة ، وأنبياؤهم منهم بمنزلة الرسل من الأنبياء .

وبعد أن أفاض المؤلف في تفصيل النبوة وأسرارها وأحكامها، تكلم في: الحب، والسكر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والتقوى ، ومقامي الخوف والرجاء ، والفرق بين الشهوة والإرادة ، وشهوة الدنيا وشهوة الجنة ، والفرق بين اللذة والشهوة ، ومقام الخشوع والقناعة ، والتوكل واليقين ، ومقام الذكر وأسراره ، والفكر وأسراره .

ثم تكلم في أسماء الله الباطن منها والظاهر ، وفي الأسماء على العموم ، وانتقل إلى الكلام في حضور القلب بتواتر البرهان ، ومنزل الحوض وأسراره من المقام المحمدي ، ومنزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية .

وفي الجزء الثالث من الكتاب أفاض المؤلف في الكلام على الحضرة الموسوية والحضرة المحمدية ، وتكلم على منزل الإمام الذي على يسار القطب ، وهو منزل أبي مدين أحد أئمة الصوفية بالأندلس وهو ممن لم يلقهم محيي الدين .

ثم تكلم على : المهدي المنتظر ، وفي معرفة نزول وزرائه ، فقال في هذا الجزء : «اعلم أن لله خليفة يخرج وقد امتلأت جورا وظلما ، فيملؤها قسطا وعدلا ، لو لم يبق من الدنيا يوم واحد ، طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة الرسول يواطئ اسمه اسم رسول الله ، يبايع الناس بين الركن والمقام ، وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف ، أسعد الناس به أهل الكوفة ، يقسم المال بالتسوية ، ويعدل في الرعية ، ويفصل في القضية ، يمسى جاهلا بخيلا جبانا ، فيصبح أعلم الناس وأكرمهم وأشجعهم ، يمشي النصر بين يديه ، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا ، يصلحه الله في

(١) الكهف : ٦٨ .

ليلة بفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين ألفا من ولد إسحاق ، يشهد الملحمة العظمى ، مأدبة الله بمرج عكا ، يبيد الظلم وأهله ، يرفع المذاهب من الأرض ، يفرح به العامة أكثر من الخاصة ، ويبايعه العارفون بالله من أجل الحقائق عن شهود وكشف ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء ، ينزل عليه عيسى ابن مريم بالمنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين ، متكئا على ملكين، يقطر رأسه ماء مثل الجمان ، يتحدر كأنما خرج من دماس ويقبض الله المهدي إليه طاهرا مطهرا ، وفي زمانه يقتل «السفياني» عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بجيشه في البيداء بين المدينة ومكة».

ثم تكلم المؤلف في العرش والهواء والفلك والبرزخ ، وفي معرفة الأمة البهيمية.

أما الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب النفيس ، فبدأه بمعرفة منزلة الميت ، والحي ليس له إلى رؤيته سبيل ، ومعظم هذا الجزء في تفاسير أحاديث قدسية منسوبة إلى الله عز وجل مثل :

1- «من دعاني فقد أدى حق عبوديته ، ومن أنصف نفسه فقد أنصفني».
2- «من سألني فما خرج من قضائي ، ومن لم يسألني فما خرج من قضائي».
3- «أسمائي حجاب عليك ، فإن رفعتها وصلت إلي».
4- «أحبك للبقاء معي ، وتحب الرجوع إلى أهلك».

وهذا الجزء الرابع كالأجزاء الثلاثة السابقة بحر زاخر في الحكمة الإلهية ، والفلسفة الشرعية ، وذكر الأسباب والنتائج والأسرار الباطنية والألغاز العليا في الكون والخليقة والشريعة والوحي والإلهام والولاية والقطبانية .

ولا يليق بعالم أو متصوف أو أديب أن يبقى دون إلمام بهذا الكتاب الذي يعد فريدا في بابه في سائر اللغات .

أما قبر الشيخ العظيم فقد اكتشفه في الشام «السلطان سليم الأول العثماني» ، ويذكرون أن الشيخ كان قد ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه ونصها: «عندما يدخل السين في الشين يكشف عن قبر محيي الدين»، والمقصود بذلك عند دخول السلطان سليم بلاد الشام يكشف قبر هذا الحكيم .

كذلك لمحيي الدين بن عربي مناجاة ، هذا نصها :

قال محيي الدين : « رأيت في منامي كأني أدخلت الجنة ، ولم أكن رأيت نارا ولا حشرا ولا حسابا ولا شيئا من أهوال القيامة ، ووجدت في نفسى راحة عظيمة، فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال ، وأن نفسى ادعت فوق حالها من جهة ما أعطاها الله من العلم ، ولو كانت متحققة بالحق تحققا عقليا مقدسا إلهيا يغنيها عنها لم تلتذ بدخول الجنة ، فأرادت أن تقيم على الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الإنسانية ومراتبها ، فلم أسمع لها ، ودارت بيني وبينها المحاسبة أو المناجاة الآتية :

ابن العربي : يا نفس ، لا أتركنك على دعواك حتى أعرض أحوالك على كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ – ، فإن وافقت ذلك سلمت لك ، وإن وجدتك دون ذلك فأنا ألطف بك وأرحمك بأن أمشى بك على أحوال أهل الصفة وعلى أحوال الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، فإن قصرت عن شأوهم فالنار أولى بك .

نفسه : أما النبي – ﷺ – فلا أعرض حالي مع حاله أدبا معه ، وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم ، ولكن حبك من دون القرآن والنبوة فخذ معي في مراتب الولاية ، وأنا المنقادة السميعة السهلة المطيعة .

ابن العربي : أخرجي أسنى ما تدعين ، وأعلا ما تحفظين ، وأنا أعرض أولا حال أهل الصفة .

نفسه : قل !

ابن العربي : كان سبعون من أهل الصفة يـصلون في ثـوب ، فمـنهم مـن يبلـغ ركبتيه ، ومنهم أسفل من ذلك ، والله مـا اجتمـع لهـم ثوبـان ، ولا حـضر لهـم مـن الأطعمة لونان ، ناشدتك الله يا نفس ، فهل أنت أفقر منهم ؟

نفسه: لا .

ابن العربي – فلست إذا منهم ، استحي من الله وارجعي على عقبك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء!

نفسه: علي بغيرهم فليس لي هنا قدم.

ابن العربي : قال عمار بن ياسر وهو يسير على شط الفرات : «اللهم لو أعلـم أن أرضى لك عنى أن أتردى فأسقط فعلت ، ولو علمت أن أرضى لك عنى أن ألقى في هذا فأغرق فيـه فعـلت . ناشـدتك الله يا نفس ، هـل خطر لك هذا قط في رضى الله لا تبغين به بدلا ؟

نفسه : لا والله ، فانتقل بي عن هذا !

ابن العربي : هذا عمر بن الخطاب لما أسلم قال لـه النبـى – ﷺ – : «يـا عمـر ، استره »قال رضى الله عنه : «والـذي بعثـك بـالحق لأعلننـه كـما أعلنـت الـشرك » ! «ناشدتك الله يا نفس هل قمت لي قط في دين الله تعالى حاميـة عنـه في مـوطن دونـه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه » ؟

نفسه : الله ، وإنما قاربت هذا المقام ، ولكن بسياسة وطنت بها نفـوس الأعـداء بحيث إن غلب على ظني الأمن والعافية في دمي .

ابن العربي : فارجعي !

نفسه : نعم ، هات غيره .

ابن العربي : كان عثمان بن عفان يطعـم النـاس طعـام الإمـارة ، ويـدخل بيتـه فيأكل الخبز والزيت ، هل فعلت هذا مع أصحابك قط؟ آثـرتهم بـاللطيف وقنعـت بالخشن .

نفسه : لا والله ، بل كنت على أحد وجهين معهم ، إن لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركتهم فيه ، وإن كان عندي أرق منه أكلت وحدي ذلك ، مثل الحلو ، وأقول هذا غذاء لين وألبس على نفسي بهذه الترهات حتى لا أتنغص به عند أكله ، وأقول هؤلاء الإخوان في مقام التربية ، فينبغي أن لا أزرع حب الشهوات في قلوبهم بإطعامهم مثل هذا ، ومقامي لا يؤثر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولي إياه فآكله على هذه الحال وقد عميت عن مطالبة الحق ، في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم في خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولاشك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته ، وإنما فعله بعد التمليك .

ابن العربي : بارك الله فيك يا نفس ، إذ أنصفتني .
نفسه : الحق أحق أن يتبع ..هات غيره .

ابن العربي : هذا الإمام علي كان إذا أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمثل في محرابه قابضا على لحيته ويبكي بكاء الحزين وهو يتضرع بقوله : «ياربنا!» ثم يخاطب الدنيا بقوله : «غري غيري ، واخدعي سواي ، فقد تبت عنك ثلاثا ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كثير ، أواه ! من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » ، فهل صاحبت هذه الحال استصحاب هذا الإمام؟

نفسه : لا والله ، إنما هي بوارق تلمع ، وأهلة تطلع ، في أوقات دون أوقات ، والغالب الشتات ، لولا أني أريد أن أقف منك على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة .

ابن العربي : هذا الذي بشرت غير ما مرة أنك في مقامه : أبو بكر الصديق رضي الله عنه خرج حين توفي رسول الله - ﷺ - وعمر يكلم الناس ثم قال بعد أن تشهد : «أما بعد ، فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فإن الله حي لا يموت!». ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ**

﴿ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾[1]. فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ، ناشدتك الله يا نفس ، هل حصلت بالسر الذي تدعينه أنه قد حصل لك من الحق حالا ومقاما من تعظيم الله ما علمت به تعظيم من عظمة الله من جهة تعظيم الله إياه ؟

نفسه : لا والله يا ولي ، إنما أنا بين فناء وبقاء ، وتلاش وانتعاش، وإقبال وإدبار ووصول ورجوع ، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذي خرج من فم الصديق حتى نبهتني عليه ، فانتقل بي عن هذا المقام فقد قصم ظهري .

ابن العربي : إن النبى – ﷺ – عاش في البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر لما أثر شريط السرير في جنبه، فقال عمر : تذكرت كسرى وقيصر، فقال النبى : – ﷺ – أما ترضى أن تكون له الدنيا ولنا الآخرة ؟ «أين أنت يا نفس من قول سلمان الفارسى حيث ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى فقال : إن الذي أعطاكموه وفتحه عليكم وخولكم لمسك خزائنه ومحمد – ﷺ – حى ، ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مدمن الطعام، بم ذاك يا أخا بنى عبس؟.. فانظري يا نفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبى – ﷺ – وتعريفه وتقريعه بقوله : «بم ذاك ؟» ثم إنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرفعة لكانت كلها لرسول الله – ﷺ – وهذه حالته في دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة أن تنال فيها راحة ولا توسعا، هذا وقد رأى أثر حبل القربة في عنقها من حمل الماء وأثر الرحى من الطحين في يديها ، وجاءه السبى فلم ير أن يعطيها خادما يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذي نزل بها ، وأعطاها بدل ذلك تسبيحا وتحميدا وتكبيرا ، وقال : هو خير لكم ، فأين أنت يا نفس وهذا العارف فلا الحق رضيها لنبيه ولا النبى – ﷺ – رضيها لابنته ووصيه . فهل قنعت يا نفس بعد إن لم تجدي لك قدما مع أحد من الصالحين ؟ . فمن اتبعت؟ وبمن تأسيت ؟ » .

(١) آل عمران : ١٤٤ .

نفسه : اتبعت هواي ، فتأسيت بشيطان مدع في المعرفة ، مكب على الدنيا مثلي، فأثمر لي الدعوى ، وعراني من ملابس التقوى ، وأنا أتـوب إلى الله وأتـضرع إليـه في الوفاء والعدل والميزان !

وبعد أن استرسل محيي الدين بن عربي ختم مناجاته بقوله لنفسه :

ابن العربي : فهذا يا نفس مـن بعـض أخبـار الـذي أحببتـه لله وفي الله ، ولـولا خشية التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله مـن سـادات التـابعين ، ولكنـك قنعت بهذا القدر ، فالتزمي طاعة الله وطاعة رسوله - ﷺ -

قال محيي الدين بن العربي : «فأسلمت إسلاما جديدا- يقصد نفسه – الله يثبتها عليه ، وأخذت منها العهود التي أخذ النبي - ﷺ - على نساء المؤمنـات ، فالتزمـت ذلك كله عارفة قدر ذلك وما لها في الوفاء به ، وما عليها من الرجوع عنه ».

وهكذا .. كان مجددنا الشاعر الصوفي المفكر : محيي الدين بن عـربي في مناجاتـه وتجلياته .

❊ ❊ ❊

أبو الحجاج الأقصري

من بغداد بالعراق ، وفد إلى مصر الرجل الصالح : «يوسف بن عبد الرحيم ابن غزي » الشهير بأبي الحجاج الأقصري ليختار مدينة الأقصر مقرا له ولأتباعه ، وليكون واحدا من مجددي القرن السابع الهجري .. ولكن قبل التعرف عليه ، نسجل هذه السطور .

لم يدخل الإسلام الأمم والممالك بحد السيف على ما يزعم أعداؤه ، وإنما دخلوه بالحجة والإقناع ، الحجة بما أتى به من مبادئ وقيم تسمو بالحياة الإنسانية، والإقناع بأن هذا الدين ما جاء إلا لخير الإنسان ونفعه في كل ما دعا إليه من تعاليم وتوجيهات ، أو في كل ما نهى عنه من شرور وآثام .

ولو أن الإسلام كان على هذه الصورة التي رسمها له أعداؤه لما انتشر ، والأكثر لما استقر في القلوب ورسخ في النفوس . وازداد قرنا بعد قرن ، واتسعت رقعته حتى في أمم لم تكن في الحسبان ، فالذي يحصي عدد المسلمين في البلاد الأوروبية والأمريكية والآسيوية اليوم يجدهم وقد تضاعفوا عشرات المرات قبل هذا القرن ، وهو ما يؤكد أن هذا الدين لديه من إمكانية الحجة والإقناع بشكل يجعل الآخرين يدخلون فيه أفواجا على الرغم مما يوجه إليه من افتراءات ، وما يمر به من محن .

ولعل قدرة هذا الدين على الحجة والإقناع ، مضافا إلى ذلك مواكبته لكل زمان ومكان ، جعلته يسود وينتشر بهذا الشكل السلمي ، البعيد عن العنف وإراقة الدماء.

فمن فضائل هذا الدين أنه لا يكره أحدا على الدخول فيه عنوة واقتدارا ، فلا مانع من أن يظل الناس على دينهم ، وأن تظل بعض الأماكن حتى في بلاد الإسلام على دينها ، بعد ظهور الإسلام بمئات السنين ، إلى أن يأتي اليوم الذي يرى فيه أهل هذه الأماكن ، أن الإسلام دين أولى بأن يتبع ، وذلك بالحجة والإقناع ، لا بالقوة والإجبار ؛ فالله عز وجل لم يكره الناس في قرآنه الكريم على أن يؤمنوا ، وإنما دعاهم إلى إعمال العقل فيما يؤمنون به ، والله عز وجل لم يقدم ذاته في ألغاز وأساطير ، وإنما جعل معرفتنا به سبحانه من خلال صنعه في خلقه ، وهذا ما يؤكده كتاب الإسلام : «القرآن الكريم» .

ولهذا وغيره .. لا نجد غرابة في أن يظل بعض الناس في دور الإسلام وبلاده على دينهم . ومتى؟ في أوج عظمة الإسلام وحضارته في العصور الوسطى .

وهذا هو إقليم «طيبة» (الأقصر الآن) بالصعيد خير مثال على ما سبق ، فكما يسجل المؤرخون أن هذا الإقليم بمصر قد بقي على دينه المسيحي حتى بعد ظهور الإسلام بأكثر من ستة قرون ، مع أن مصر دخلت حظيرة الإسلام منذ بداية القرن الهجري الأول ، على ما رأينا من قبل في الفصول السابقة . ومع هذا .. لم يحدث لأهلها أي سوء ممن يحيطون بهم من المسلمين الذين دخلوا في الإسلام ، حتى إذا قيض الله عز وجل من يحبب الإسلام إليهم ، دخلوه مختارين بدون إذعان .

لقد وفد الرجل الصالح «يوسف بن عبد الرحيم بن غزي» المعروف بأبي الحجاج الأقصري (نسبة إلى مدينة الأقصر) من بغداد التي ولد بها إلى هذا الإقليم من صعيد مصر الأعلى ، حيث لم تكن وفادتاه من مسقط رأسه بغداد : حاضرة الخلافة العباسية في عهد الخليفة العباسي «المقتفي بأمر الله» بمحض المصادفة ، بل كانت له في هذه الوفادة رسالة وجب عليها أداؤها – كما يذكر الباحث «محمد عبده الحجاجي» في كتابه : (شخصيات صوفية في صعيد مصر) بعد مراجعة لعدد من

الكتب القديمة في مقدمتها (وفيات الأعيان) لابن خلكان ، و(الكامل) لابن الأثير و(الطالع السعيد) للإدفوي ، وكلها تجمع على أن العارف بالله أبا الحجاج الأقصري قد ترك أثرا عظيما في الأقصر أو : طيبة القديمة سيظل خالدا على مر الزمن ، وهو جهده في نشر الدين الإسلامي بهذا الإقليم ، إذ استطاع أن يغير وجه الحياة في هذه المدينة التي كانت أكبر معقل للكهنوتية منذ فجر التاريخ ، وذلك بنشره الإسلام بين ربوعها ؛ حيث أسلم على يديه الكثير من الرهبان المسيحيين طوعا لا كرها ، وعلى رأسهم «الراهبة ترزة» بنت القيصر ، التي كانت تمثل دعامة قوية من دعائم الدين المسيحي في صعيد مصر ، كما أنه احترم من بقي على دينه المسيحي . وعاش المسلمون والأقباط جنبا إلى جنب في أخوة صادقة تفيض بالمحبة والإخاء، شعارهم: [الدين لله والأقصر للجميع- مسلمين ومسيحيين-] كل ذلك كان بفضل سماحة هذا الرجل الصالح «أبي الحجاج الأقصري» ، ولين جانبه ، وواسع أفقه .

ولا يقل موقفه من هذه المعتقدات التي تفرق بين المسلمين شيعا وأحزابا ، ودوره في القضاء عليها بصعيد مصر ، عن موقفه ودوره في نشر الإسلام في هذه البقعة من مصر . كان ذلك حين رفض كل الآراء والمعتقدات التي من شأنها المساس بسماحة الإسلام الحقيقية ، حين وقف في وجه الشيعة والآراء الباطنية في الصعيد . بعد سقوط الدولة الفاطمية ، ذلك .. لأن أبا الحجاج الأقصري كان سنيا متشددا، ترك أهله وعشيرته ووطنه في بغداد ، حينما انتشرت هذه الفئة واستكبرت ، وأتت بتفسيرات كثيرة ليست لصالح المسلمين . في هذا الإقليم لم يقف منها موقفا سلبيا ، بل حارب دعاتها ومعتنقيها ، ورماهم بالفسوق والعصيان .

ولا تقتصر جهود هذا الشيخ الصالح على هذين الأمرين فحسب ، بل نجد له جهودا متعددة في دفاعه عن الفضيلة ، ومحاربته للبدع والمنكرات ، مما كان له كبير الأثر في ازدهار هذا الإقليم الذي اختاره مستقرا له ، حتى خرج بمجتمع الأقصر

من حياة الخمول والتخلف إلى السعي المتواصل في الدنيا من أجل الآخرة ، فهو من هؤلاء الصوفية الذين يجمعون بين العبادة الحقة والإصلاح الاجتماعي .

وظل أبو الحجاج الأقصري على هذا النحو إلى أن كانت وفاته عام 462 هـ عن عمر يزيد على التسعين عاما . فيكون يوم وفاته مشهودا في الصعيد ، حين تقاطر الناس من كل بلاد الصعيد لتوديعه إلى مثواه الأخير ، حيث دفن بضريحه الكائن بجوار معبد آمون الشهير بالأقصر .

مات هذا الشيخ الصالح بعد أن حفلت حياته بجلائل الأمور ، وفي الوقت نفسه عاصر الصراع الدائر في مصر والشام بين المسلمين والصليبيين ، كما أنه لمس بدء تحرك جحافل المغول الذين أخذوا يتخطفون البلاد الإسلامية في عهد الخليفة العباسي «المعتصم بالله» ، الذي قتل بعد سقوط بغداد . فكان هذا الشيخ «أبو الحجاج الأقصري» يأسى لحال المسلمين ، وما آلت إليه أمورهم بسبب حرصهم على متاع الدنيا أكثر من الآخرة .

ولأبي الحجاج الكثير من الآثار العلمية، غير أنه لم يتيسر للباحثين العثور عليها، كما يذكرون في أبحاثهم ، ولكن النزر القليل من هذه الأبحاث يكفي لمعرفة منهجه وأسلوبه في الدنيا والدين . ومن هذه الآثار العلمية التي أمكن الحصول عليها : (منظومته في علم التوحيد) ، التي ضمنها تسعة وتسعين بابا ، وهي تقع في ثلاثمائة وألف بيت من الشعر ، دافع فيها عن العقائد الإيمانية دفاعا مجيدا ، حيث استهلها بقوله :

الحمد لله العلي الصمد الأول الآخر لا بأمد

وقد تحدث فيها عن ذات الله عز وجل وصفاته ، والدار الآخرة ، والبعث ، والنشور ، والجنة والنار ، كما تعرض فيها للإمامة والخلافة وشروطهما ، وغيرها من

موضوعات الدين والدنيا بشكل يكشف عن سعة أفقه ، وغزارة معرفته بالعلوم الكلامية وغير الكلامية .

ومن آثاره العلمية أيضا: كتاباته التي تركها كأقوال مأثورة في الصوفية، ومنها: «من ذاق طعم الأنس بالله تعالى نسى إساءاته وإحسانه، ومهما يكن الحس ومدركات الحس فالعقل هنا مخبول ، وإذا لم يبق حس ولا محسوس انطلق العقل » .

لكن الذي يبقى خالدا من هذا الرجل الصوفي هو منهجه في التربية ، إذ كان من هؤلاء الصالحين الذين أحسنوا تربية التلاميذ والمريدين وفق منهج خاص ، وطريق واضح ، فكان يرى أن للمريد أدبا مع شيخه ، وأدبا مع زميله ، وأدبا مع غيرهما ، ولهذا يقر مؤرخوه أن له مدرسة واضحة المعالم في صعيد مصر ، اتسعت للكثيرين ممن أرادوا التأديب بأدبه وسلوك نهجه في التصوف .

فكما يقول «الإدفوي» في كتابه : (الطالع السعيد) عن هذا الرجل الصالح أبي الحجاج الأقصري وأثره في التصوف : « إنه تخرج على يديه سادات وأكابر ، نطقت بمناقبهم ألسنة الأقلام ، وأفواه المحابر ، ممن له فضل بارع ، وباع في الكرامات واسع ... » .

رحم الله شيخنا أبا الحجاج الأقصري ، وجزاه عن جهده عظيم الثواب ، فقد كان حقا وصدقا رجلا صالحا في كل مراحل حياته .



أبو السعود بن أبي العشائر

أبو السعود بن أبي العشائر : واحد من مجددي القرن السابع للهجرة .. وفد من العراق الشقيق إلى مصر ؛ ليتخذ منها مقرا يعيش فيه حتى وفاته .

ولعل سيرة حياة هذا الرجل الصالح تؤكد - بصورة أو بأخرى - جملة من الحقائق التى في مقدمتها : أن العالم العربي توحدت أجزاؤه منذ ظهور الدعوة المحمدية في شبه الجزيرة العربية ، حتى أصبح هذا العالم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . وأن هذا التوحد قائم - على الرغم مما يحدث من انقسامات سياسية- ما قام لهذا العالم دين واحد ، ولغة واحدة، ومصالح مشترك ، وإلا فما معنى أن نرى هذا الرجل الصوفي الصالح «أبا السعود ابن أبي العشائر» المنصرف تماما إلى عبادة ربه ، صياما وقياما ، وتفكرا وتأملا، يترك بلدته «باذبين» في العراق ، قاصدا دمياط بمصر ، ليقف بين صفوف أبنائها مجاهدا ضد قوى البغى والعدوان ، بكل ما أوتي من حول وقوة ، غير عابئ بما يربطه ببلده بالعراق من ارتباطات ، كل ما يهمه أن ينصر أخاه في الدين واللغة والمصالح المشتركة ضد هؤلاء الذين أتوا إليه من الغرب الأوروبي للقضاء عليه .. إن هذا الرجل الصالح يدرك تماما أن ما يصيب مصر تتأثر له الأمة العربية كلها حتى في أطرافها المتباعدة .

يضاف إلى هذه الحقيقة أمر آخر ، لعله يتصل بسلوكيات رجل التصوف الحقيقى ، المستمد من سلوكيات رجال الصوفية الحقيقيين الذين كانوا يرفضون أن تكون الصوفية انصرافا كليا عن الحياة بكل ما فيها ، أو رفضا بكل ما يتعلق بها من مسئوليات والتزامات ، تفرضها بالضرورة طبيعة الحياة نفسها ، الدائمة التجدد

والتغير ، لا أن يعتزل الناس ويعيش في خلوة معتمدا على غيره في طعامه وشرابه ، ومحاطا بالدراويش والمهاويس الذين يعيشون أيضا عالة على غيرهم ، ظنا منهم أن هذا هو الطريق الصحيح للصوفية ! وغير ذلك من صور خاطئة تسيء إلى الصوفية ورجالها الأوائل أكبر إساءة .. هؤلاء الرجال الصالحون الذين رأوا أن التصوف عمل بغير توقف ، وجهد بغير كلل ، إلى جانب أنه عبادة وتأمل ، لا يصرف أحد المنتمين إليه عن الاعتماد على نفسه ، والاستكفاء بعمل يده ، وإلا فما معنى أن يخرج هذا الرجل الصوفي الصالح أبو السعود بن أبي العشائر في كوكبة من أتباعه ومريديه؛ لينضم إلى صفوف المجاهدين في بلد غير بلده ، ويقطع آلاف الأميال والفراسخ ؟! إلا لإيمانه بأن صوفيته لا تمنعه من مزاولة ألوان الحياة ، ومنها الدفاع عن بلد يربطه به رباط الدين واللغة والمصالح المشتركة .

يضاف إلى هاتين الحقيقتين الباهرتين : أن مصر خاصة كانت منذ مئات السنين – كما هي اليوم– قلب العروبة النابض، وأن ما يصيب هذا القلب من أذى يشل بصورة أو بأخرى بقية بلدان هذه الأمة العربية .. وإلا فما معنى أن ينهض هذا الرجل الصوفي الصالح من إحدى قرى العراق النائية ملبيا نداء الدفاع عن مصر؟!.. وأين ؟! في دمياط . لو لم يع حتى بصورة خام أو حنينية أن مصر تمثل هذا القلب النابض لهذه الأمة التي يراد لها الانقسام ، منذ أن كانت خير أمة أخرجت للناس .

هذا الرجل الصالح : أبو السعود بن أبي العشائر الباذبيني القادم من العراق ليدفن عام 644هـ بسفح المقطم في القاهرة بمصر ، بالقرب من مدفن «ابن عطاء الله السكندري» ، ولد ببلدة باذبين القريبة من مدينة واسط بالعراق ، وجاء مصر في عهد «الملك الكامل» ابن «الملك العادل الأيوبي» ، في وقت كانت جيوش الصليبيين تدق أبواب مصر .

وفي ذلك .. يسجل «الذهبي» في تاريخه أن : جيوش الفرنجة جاءت إلى ثغر دمياط في مائتي مركب محملة بالجنود والعتاد ، ونادى «الملك الكامل» في القاهرة بأن

النفير عام ، «أي التعبئة العامة» معلنا الجهاد في بلاد الإسلام ، لذلك لم ير الشيخ أبو السعود بن أبي العشائر بدا من التوجه إلى مصر ، والانخراط في صفوف المجاهدين .

وتذكر المصادر التاريخية : أن الشيخ أبا السعود قد أبلى بلاء حسنا في المعارك التي دارت بين المجاهدين من مصر والمعتدين من الفرنجة . وإن لم تذكر بعض هذه المصادر التاريخية الدور الذي قام به الشيخ أبو السعود على وجه التحديد ، غير أن البعض الآخر من المصادر- وخاصة الحديثة - حددت هذا الدور اعتمادا على ما جاء في كتابي : (السلوك) للمقريزي و(بدائع الزهور) لابن إياس ، بأن دور الشيخ أبي السعود كان هو التوعية الدينية ، والحث على الجهاد في سبيل الله ، حتى إنه لم يرجع إلى القاهرة إلا بعد رحيل الصليبيين عن دمياط ، بعد أن عقدوا صلحا مع «الملك الكامل» .

ولا يستهان بدور التوعية الدينية التي قام بها الشيخ أبو السعود في مثل هذه المعارك القائمة أساسا على العقيدة والدين بين الطرفين ، فهو دور واسع المدى ، عميق الأثر في الحرب الحديثة والقديمة معا ، ولا يستطيع أن يقوم به إلا من أوتي القدرة على الإقناع بالحجة والدليل ، وهو ما يعرف حديثا برفع الروح المعنوية لدى القوات المتحاربة كجبهة مقاتلة تستطيع أن تستعيد الأرض ، وتصون العرض .

أما كيف كان هذا الرجل الصالح؟ وماذا عن جهوده في إعلاء كلمة الإسلام . فقد أفاضت في ذلك كتب السير والتراجم، ومنها: (الكواكب السيارة) لابن الزيات، و(الطبقات الكبرى) للشعراني ، و(تحفة الأحباب) للسخاوي ... وغيرها من كتب سجلت أن الإمام الرفاعي : مؤسس الطرق الصوفية بالعراق بشر بمجيئه ، وبأنه سوف ينشأ على العبادة والمحافظة على تعاليم الإسلام ، وبأنه سيكون من المنافحين والمدافعين عن هذا الدين .

وأما عن مكانتـه في القـاهرة ومـصر عامـة ، فيـذكر «ابـن الزيـات» في كتابـه : (الكواكب السيارة) أن إمام القاهرة «أبا العباس القراباغي» كان إذا سئل من أتباعـه ومريديه وعن الذي سيحل في قيادة السفينة مـن بعـده ؟ أجـاب قـائلا : « لـيس في الجماعة من يجلس مكاني ، إنما يجلس مكاني رجل يأتي من العراق من بـلاط واسـط . فيدخل هنا ، ويصلي صلاة الجماعـة ، ويجلـس بهـذا المكـان ، ويأخـذ العهـد ويـربي المريدين لدين الله على الإيمان والتقوى » .

وقد صدقت نبوءة كل من «الإمام الرفاعي» و«الإمام القراباغي» ، فما إن مات الأخير ، ونظر أصحابه وأتباعه إلى من سيخلفه ، حتى جاء هذا الرجل الصالح مـن العراق ومعه أصحابه ، ليؤذن أذان الظهر داعيا الحاضرين إلى الصلاة . وليكون هـو الإمام الصوفي المنتظر .

وعن آثاره وأخباره : يحدثنا «الشعراني» أحد المجددين في (طبقاته الكبرى) بأن الشيخ أبا السعود كان من أجلاء مشايخ مصر ، وعظماء أئمتها . وأن «الملك الكامل» وكذا السلطان «نجم الدين الأيوبي» كانا يسعيان لزيارته في زاويته ببـاب القنطـرة – ومكانه الآن : باب الشعرية – كما كان الأعيان وكبار رجال الدولة يسعون إليه طلبـا لعلمه وفضله ، وتبركا به كرجل من الصالحين .

ومن مأثور حديث الشيخ أبي السعود هذا القول : «كيف يصح لعابد أن يخلص في عبادته وهو غير عالم بآفاتها ، فإن الهوى روحهـا ، والـشيطان خادمهـا ، والـشرك مركون في طبعها ، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول في خلقتها ، وسـوء الظـن وما ينتج عن الكبر وقلة الاحترام سمتها ، ومحبة الصيت والاشتهار حياتها .. فكيف يقرب عبد من مولاه عز وجل مع بقاء هذه الآفات ومصالحتها ؟!» .

* * *

ابن الحاجب

ورد في رأي أحد أبناء اللغة العربية المخلصين : جمال الدين أبو عمرو عثمان ابن عمر بن بكر بن يونس الملقب بابن الحاجب أحد مجددي القرن السابع الهجري بأن حياة كل لغة تتلخص في أمرين: ماض له احترامه وقداسته، وحاضر له حاجاته ومتطلباته . وإذا وقفت اللغة عند الماضي وحده كتب عليها الجمود والركود ، وإذا شغلت بالحاضر فحسب ، فقدت أخص خصائصها من الاطراد والاستقراء ، وأصبحت وليدة الهوى والمصادفة ، وأدت إلى كثير من البلبلة .

ولغتنا العربية في كل زمان يعتد أبناؤها بماضيها وحاضرها ، فيتباهون بتراثها الخالد ، ويحرصون في الوقت نفسه على تنميته وتغذيته حتى يواكب الزمن . حتى أصبحت هذه اللغة على أيدي أبنائها المخلصين تمقت الجمود ، وتأبى الفطرة وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه الحاجة . مبدؤها في ذلك مبدأ إسلامي خالص، وهو : لا إفراط ولا تفريط .

ومن بين أبناء اللغة العربية المخلصين لها «ابن الحاجب» جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس : عالم اللغة في القرن السابع الهجري . حيث كانت كتاباته ترى أن للغة العربية ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

فماضيها تراث أدبي من نثر وشعر ، وتراث فكري من علم ودين وفلسفة. وعلى أبناء هذه اللغة مراعاة هذا التراث وتعهده ، وتوجيه النظر إليه ، والدعوة إلى إحيائه.. والأهم استخلاص ما يلائم الزمن ويتماشى معه من هذا التراث . وحاضرها عمل دائم على تطورها ، ومستقبلها أمل في تقدمها حتى تواكب متغيرات المستقبل .

وعلى الرغم من أن ابن الحاجب يقرر أن اللغة العربية لغة حية معبرة ، فإنه في الوقت نفسه يرى أن في الماضى اللغوي عصور ضعف وعصور قوة ، عصور ركود وعصور ازدهار . وتساءل : هل ينبغي علينا نحن أبناء هذه اللغة الوقوف عند القرنين: الثاني والثالث للهجرة أم نتجاوزهما؟ وانتهى إلى القول بأنه ينبغي ألا نقف، بل علينا الاجتهاد ، ذلك لأن اللغة العربية وهي لغة القرآن الكريم - تتطلب منا الاجتهاد حتى تواكب الزمن الذي توجد فيه ، وهو جانب من تجديد هذا العالم اللغوي .

وأما حاضر اللغة كما يراه ابن الحاجب فهو ما تعيشه من مستحدثات ، وما تواجه من مشكلات ، وما تضطلع به من الأعباء ، وما تعبر عنه من الأمور .. حاضر اللغة باختصار هو الحياة في شتى مظاهرها .

والحق أن هذه الرؤية لابن الحاجب ، المأخوذة من كتاباته – بتصرف- رؤية متقدمة على زمانه . لعلها تتفق مع أقوال علماء اللغة في بداية القرن الخامس الهجري، حيث يرون أن اللغة العربية تمتاز عن اللغات اليونانية واللاتينية غربا ، والسنسكريتية والبهلاوية شرقا، وعمرت بمرونتها واشتقاقها حتى استطاعت أن تيسر في الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى ، وأن تؤدي وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة ، مما يشعرنا بأنا نملك حقا لغة نستطيع أن نتصرف فيها ، كما كان يملكها قديما أبناء العروبة في الجاهلية ، ويستخدمونها على حسب ما تقضي به حياتهم وظروفهم .

ونواصل التفكير مع ابن الحاجب ، هذا العالم النحوي المجدد اللغوي لنتعرف عليه وعلى بعض أعماله ، فنجده مصريا ، ولد بصعيد مصر ، وبالتحديد في «إسنا» في الأيام الأخيرة من عام 570 هـ . حيث كان أبوه حاجبا للأمير الكردي «عز الدين موسك الصلاحي» .

حفظ القرآن في القاهرة ، ودرس العلوم المتصلة به كالفقه وأصوله على مذهب الإمام مالك ، إلى جانب دراسته المستفيضة للنحو ، والأدب : شعره ونثره . وكان أهم شيوخه : «الإمام الشاطبي» ، و«الفقيه أبو منصور الأبياري» ... وغيرهما .

رحل من مصر إلى دمشق ، وقضى بها مدة طويلة يلقي دروسه على الناس في الزاوية المالكية بالجامع الأموي ، وكان له طلاب كثيرون ، وعمود ينتسب إليه في هذا الجامع العتيق . ثم عاد إلى القاهرة ليلقي دروسه في الفقه وأصوله بمساجدها، وأخيرا ينتقل إلى الإسكندرية ، ويظل بها حتى وفاته في 26 شوال من عام 646 هجرية .

وأعمال ابن الحاجب أغلبها في الفقه والنحو والعروض . إلا أنه اشتهر بالنحو بوجه خاص ، وهو في هذا الميدان - بالذات - يختلف من عدة وجوه عن أسلافه، كما كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية في مصر، وعقائدها في المغرب . ومؤلفاته واضحة الأسلوب لا تحتاج إلى تفسير . ولعل منها ما يدرس حتى الآن بالأزهر الشريف . من هذه المؤلفات :

- الكافية : وهو كتيب في النحو العربي ، يعد من الأصول في هذا العلم ، وقد طبع عدة مرات بالقاهرة ، وشرح بالآستانة .
- الشافية : وهو كتيب آخر في علم الصرف ، يرجع إليه كل دارس أو باحث في هذا العلم . طبع عام 1805 ، وبالآستانة عام 1850، ونشر في ليبسك عام 1878م .
- «المقصد الجليل في علم الخليل» : وهو منظومة شعرية من بحر البسيط في العروض ، تعين الباحث في أصول هذا العلم .
- «الأمالي» : وهي فصول عن القرآن الكريم ، وتركيباته اللغوية العظيمة . ومختارات من شعر أبي الطيب المتنبي .

- «القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة» : وعنوانها يدل على مضمونها الذي يهتم بالأسماء المؤنثة في اللغة .
- «رسالة في العشر» : وهو بحث صغير في استعمال كلمة «عشر» بضم العين وتسكين الشين - مع الصفتين : «أول» و«آخر».
- «منتهى السؤال والأمل في علمي الأصول والجدل » : وهو بحث مهم في أصول مذهب الإمام مالك ، يوضح دعائم وأسس هذا المذهب ، والاختلاف بينها وبين المذاهب الأخرى .
- «مختصر المنتهى» : ويعرف بالمختصر الأصولي ، وهو موجز للكتاب السابق مع شرح لعضد الدين الأبجي ، وحواش للتفتازاني ، والجرجاني . وقد علق على حاشية الجرجاني «الحسن الهروي» .
- «مختصر في الفروع» أو «جامع الأمهات» : ويعرف بالمختصر الفرعي . وهو موجز في الفقه المالكي مع التوضيح .. وقد قلد هذا الكتاب مؤلفون كثيرون وغيرهما من الأعمال الجادة .

وغير ذلك من مؤلفات وكتابات ، من خلالها اعتبر المؤرخون ابن الحاجب من مجددي القرن السابع الهجري .

* * *

ابن البيطار

«أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين بن البيطار المالقي» عالم الدواء والأعشاب المشهور في التاريخ الإسلامي ، يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ؛ لابتداعه : علم الدواء من الأعشاب للعلاج ، والذي ينتسب إلى أسرة ابن البيطار المعروفة في مالقة إحدى مدن الأندلس الإسلامية ، والمولود في الربع الأخير من القرن السادس الهجري ، والذي تلقى في هذه المدينة الأندلسية بداية تعليمه حتى انتقل منها إلى بعض المدن العربية حتى توفي بدمشق عام 646 هـ .

وتبدأ قصته مع الدواء حسبما تذكرها دائرة المعارف الإسلامية منذ أن كان يجمع النباتات من رياض إشبيلية في الأندلس ، ويتأمله صورة ولونا وتكوينا إلى أن رحل عن الأندلس إلى شمال إفريقيا ، وبالتحديد مراكش والجزائر وتونس ليبقى هناك فترة قصيرة ، من بعدها ينتقل إلى مصر حيث يتعلم على أيدي علمائها ، ويكون من بين تلاميذه ابن أبي أصيبعة أحد المجددين ، وفي مصر يلتقي بالملك الكامل الأيوبي الذي يهيئ له سبل التقدم في علمه .. إلى آخر ما كتب الأستاذ «رأفت الخياط» بكتابه (الأبناء العظام) .

واستقام المقام لابن البيطار في خدمة الملك الكامل ، بعد أن صدر قرار بتعيينه رئيسا للعشابين .. وهو منصب يتساوى اليوم مع لقب «نقيب الصيادلة» .

وواضح أن ابن البيطار كان يمارس عمله بأمانة وإخلاص ، إلا أن بعض المتاعب جاءته من بعض الذين ما كان يتصور أنهم سيكونون مصدرا لها .

فقد جاءه يوما صديقه صاحب الشرطة ..وطلب منه في ريبة أن يغلق دونهما الباب .. لأنه يريد أن يطلعه على بعض الأسرار .. ورحب ابن البيطار بصديقه صاحب الشرطة .. وتأهب لسماع ما عنده من أسرار .. ولكن صاحب الشرطة مهد لحديثه بعتاب وجهه لابن البيطار ، لأنه أطاح بقريب له من البيمارستان فقاطعه ابن البيطار في غضب : «تقصد ذلك الفتى الغر الذي كان يتلاعب بالمهنة المقدسة .. ويبيع الوهم للراغبين والقادرين على دفع الثمن ؟! وابتسم صاحب الشرطة قائلا : إنه لم يكن يبيع وهما .. بل كان يحضر لنا أعشابا تسعدنا ، وتجعل أوقاتنا كلها نشوة وبهجة .. وابتسم ابن البيطار قائلا : «يبدو أنك كنت واحدا من زبائنه» .. وراح يتأمل ملامح الغضب على وجه صاحب الشرطة .. ثم قال في حزم : «إذا كنت تهدف من وراء كلامك هذا .. أن أصنع لك شيئا من هذه الأعشاب .. فاعلم أنني لن أفعل» .. وهنا فاجأه صاحب الشرطة قائلا : «ولكنني علمت أنك صنعت مثلها للملك» ! وهنا وقف ابن البيطار .. متجاهلا واجب الضيافة لمثل صاحب الشرطة وقال : «هذا كذب .. لا الملك طلب ولا أنا صنعت ، ولن أصنعها لأحد مهما كان موقعه في السلطة» ، وأدرك صاحب الشرطة أنه أمام رجل صلب لا يلين .. فنهض خارجا وهو يتوعد ابن البيطار: «إذا.. اسمعها مني للمرة الثانية..لن أتركها لك !».

كان ابن البيطار قد بلغ من التمكن من العلم ما يجعله أكبر بكثير من أن يلجأ إلى مثل هذه الصغائر ، ويسخر علمه لخدمة نزوات طلاب اللذة ، ورجال السلطة .. وكان عليه أن يبلغ الملك الكامل بكل شيء حدث .. ولكن خلقه وكبرياءه العلمي منعاه أن يفعل ، فقد رأى ابن البيطار العالم أنه لا ينبغي أن يكشف سرا ائتمنه عليه أحد مرضاه .. وأبى عليه كبرياؤه العلمي .. أن يحتسب عند الملك الكامل ..حماية من أي نوع ، وهذا ما نجاه من شرور صاحب الشرطة .

وكانت المفاجأة ...

حين أطلعه الملك نفسه .. وهما في رحلة معا إلى الشام عن كل ما رواه له صاحب الشرطة .. وقال لابن البيطار :

«لقد ازداد احترامي لك .. وتضاعف تقديري لعلمك وخلقك ونبلك ، وتأكد أيها العالم الجليل .. أنه لمما يشرفني ويشرف مملكتي أن يكون من بين مواطنيها عالم عظيم مثلك .. يحمل كل هذا الخلق .. كما يحمل كل هذه الثقة بنفسه .. ويحترم علمه كل هذا الاحترام . وعلى كل حال .. لقد أمرت صاحب الشرطة ألا يتعرض لك بعد اليوم .. ولو حاول مضايقتك .. فعليك أن تخطرني في الحال ..».

ثم تلفت الملك إلى فتى يقف بالقرب منهما .. وقال لابن البيطار : «لك عندي مفاجأة .. تعال يا ابن أبي أصيبعة .. وقبل يد أستاذك !! » وأسرع الفتى يقبل يد ابن البيطار الذي سحبها بسرعة ورفض أن يقبلها الفتى .. بينما أردف الملك : « إن ابن أبي أصيبعه مهتم بالعلم وهو من هواة الرسم ، ولقد حدثتني من قبل عن حاجتك لرسام يرسم لك الزهور والنباتات التي تقوم بدراستها .. والفتى كما قلت يجيد الرسم .. وعليك أن تختبره .. فإذا أصاب .. فيصحبك في معملك ولتكلفه بما شئت من أعمال ..».

وقد انبهر «ابن أبي أصيبعة » بشخصية ابن البيطار حتى إنه قال عنه : في (عيون الأبناء) : «رأيت من حسن عشرته وكمال مروءته وغزارة علمه ودرايته ما يفوق الوصف .. كان أوحد زمانه وعلامة وقته في معرفة النباتات ، ونعت أسمائها على اختلافها وتنوعها ».

ويستطرد الأستاذ «رأفت الخياط» عن ابن البيطار فيقول : «يعتبر ابن البيطار هو أول عالم يستخدم فن الرسم في تسجيل أشكال وألوان النباتات .. وحفظها في سجل للاستعانة بها كمراجع للباحثين والدارسين ، كان يقوم بنفسه برسم كل ما تقع عليه عيناه من نادر النباتات .. والأعشاب، ولكنه أمام كثرة وتشعب مسئولياته،

ترك هذه المهنة لابن أبي أصيبعة ، لكي يتفرغ هو تماما للمهمة التي أضافت إلى مصنفات ابن البيطار قيمة فنية فوق ما احتوت من جوامع المفردات .

ومن الإضافات العظيمة التي أضافها ابن البيطار أن جعل من علم الصيدلة بمعناه العصري ، وعلم الطب : فنين متلازمين يكمل كل منهما الآخر ، ولعله كان أول صيدلي يبتكر الخدمة السريرية للمريض ، فالصيدلة وإن كانت تابعة للطب .. إلا أن ابن البيطار شكل منهما جسما لطائر واحد لا يستطيع الطيران إلا بجناحيه .

وبعد أن مات الملك الكامل ، خلفه الملك الصالح نجم الدين الذي استبقى ابن البيطار في خدمته ، وقت أن كان يقيم في دمشق مواصلا أبحاثه وتجاربه واكتشافاته .

وكان من الممكن أن تحظى كل اكتشافات ابن البيطار باهتمام عالمي أوسع ، لولا أن الحروب الصليبية كانت قد بدأت على النحو المعروف .. وانقطع أخذ الغرب عن العرب .

ومات ابن البيطار سنة 646هـ سنة 1248م بعد أن ترك وراءه مؤلفين عظيمين:

- «المغني في الأدوية المفردة» ، وهو يعالج المادة الطبية .
- «الجامع في الأدوية المفردة » ، وهو عبارة عن مجموعة من الأدوية البسيطة ، كتب أوصافها بالعربية واليونانية ، وفي هذا الكتاب الذي يعتبر أقدم مؤلف من نوعه في التاريخ ، ذكر ابن البيطار فيه مالا يقل عن 1400مادة نصفها من مبتكراته .. وقد طبعت ترجمات لكتب البيطار باللاتينية تحت عنوان : «الأدوية المبسطة» أواخر 1758م في مدينة «كريمونا».

* * *

أبو الحسن الشاذلي

«أبو الحسن الشاذلي» من مجددي القرن السابع الهجري ، واشتهر بأنه : إمام الطريقة الشاذلية المعروفة في العالم العربي ، واسمه كما ورد في كتاب « الطبقات والسير» هو «علي بن عبد الله عبد الجبار» الذي ينتهي نسبه إلى جده الإمام الحسن ابن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما . ولد بقرية «غمارة» التابعة لمدينة سبتة المغربية عام 593 هـ . وبها نشأ وتلقى بداية تعليمه . ومن هذه القرية المغربية الصغيرة انطلق أبو الحسن الشاذلي على غيرها من بلدان المغرب لينتقل إلى المشرق ، حيث سافر إلى العراق ، وهناك التقى «بأبي الفتح الواسطي » عام 618 هـ وكان للقائه بالواسطي أثر كبير في حياته ، فحين اجتمع الشاذلي بهذا القطب العراقي الكبير قال له : «جئت العراق لألتقي بقطبها». وهنا رد عليه الواسطي : «أتطلب القطب بالعراق، والقطب ببلدك المغرب ؟» . ورجع إلى المغرب ، والتقى بقطب زمانه « أبي محمد عبد السلام ابن مشيش » ، شيخه فيما بعد ، وأستاذه الروحي ، وموجه حياته .

صحب أبو الحسن الشاذلي شيخه ابن مشيش فترة من الزمن استطاع فيها أن يستفيد من علمه الغزير ، وذات يوم قال له ابن مشيش :«يا علي ، ارتحل إلى إفريقيا ، واسكن بها بلدا تسمى (شاذلة) ، فإن الله سبحانه وتعالى يسميك الشاذلي .. وبعد ذلك تنتقل إلى تونس ويؤتى إليك من قبل السلطة ، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد المشرق وترث فيها القطبانية » .

وصدع الشاذلي لأمر أستاذه «ابن مشيش» ، وارتحل إلى شاذلة . وفي غار بجبل زغوان بتونس ، مطل على شاذلة ، سكن أبو الحسن الشاذلي ، وشغل بالعبادة واصلا

الليل بالنهار في صلاة وصيام . وطالت إقامته بهذه القرية «شاذلة» حتى اشتهر وذاع صيته .. وعرف منذ ذلك الحين باسم: الشاذلي .. وبدأ الناس يقصدونه - كما يسجل الأستاذ الدكتور «عامر النجار» في كتابه (الطرق الصوفية في مصر) حتى إنه اضطر للخروج من رباطه إلى أعلى الجبل متخذا له دارا بمدينة تونس .

وهكذا أصبحت دروس أبي الحسن الشاذلي ومواعظه وتعاليمه من الأمور التي يحرص عليها مئات المريدين والتلاميذ، وبدأت مجالس علمه تتعدد وتتسع، فكان إذا جلس للدرس التف حوله المريدون والأتباع، وإذا سار مشى في ركبه الكثيرون أيضا.

ولعله بسبب هذا الأمر، استهدف لكيد الحاقدين عليه ودسائسهم ، وفي مقدمة هؤلاء قاضي القضاة بمدينة تونس «أبو القاسم بن البراء» الذي كاد له ودس عند سلطان تونس وقتئذ ، متهما إياه بأنه جاسوس فاطمي جاء من المغرب ليتآمر عليه ، مستندا في ذلك إلى نسبه الذي ينتهي إلى الحسن بن علي وفاطمة الزهراء رضوان الله عليهم .

وقد انطلت هذه الفرية على السلطان، وخاصة أن تونس كانت من قبل فاطمية، وأن كلمة «قطب» يمكن أن تخفي وراءها معنى الإمام الفاطمي .

ويبدو أن هذه المكيدة قد احتلت جزءا كبيرا من اهتمام المؤرخين لأبي الحسن الشاذلي : قدامى ومحدثين ، وإلا فما معنى أن يحدثنا عنها ابن الصباغ في رأي نقله بتصرف الدكتور «عامر النجار» - من كتابيه (درة الأسرار) و(المفاخر العلية) ؟! يقول ابن الصباغ : «إن ابن البراء أبلغ السلطان قائلا له : إن رجلا من أهل شاذلة ، سراق الحمير ، يدعي الشرف ،ويدعي أنه الفاطمي ، ويشوش عليك في بلادك» .. واتهمه بالكفر والزندقة .

وهنا أمر السلطان بأن يعقد مجلس يحضره الشاذلي ، ونفر من العلماء والفقهاء ليناقشوه أو ليحاكموه ، وليسألوا عن نسبه مرارا وتكرارا، والشيخ يجيب بما هو

الحق.. وبأنه بالفعل ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن بن علي رضى الله عنهما . وسألوه عن علوم الدين والفقه فوجدوه عالما فقيها ، وأذهل الحاضرين بحسن إجاباته . وبأنه ليس كما قال ابن البراء مزيفا أو مدعيا . ويسألونه عن المريدين والتلاميذ الذين يلتفون حوله ، فتأتي إجاباته بما يفيد أن هؤلاء لا خطر منهم ، وأنهم التفوا حوله للتفقه في الدين والتبحر في العلم ، وظلوا يسألونه ويسألونه ويجيبهم بما يؤكد أن الرجل بريء من كل ما نسب إليه . وعندئذ طلب منهم السلطان أن يكفوا عن تساؤلاتهم قائلا : «دعوه .. هذا رجل من أكابر الأولياء الصالحين» . فيرد ابن البراء موجها حديثه إلى السلطان ليثيره : «والله إن تركته ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجنك من أظهرهم . فإنهم مجتمعون على بابك» ، لكن السلطان - الذي تأكد من علم وتقى أبي الحسن الشاذلي - لا يهتم بقول قاضيه . آمرا العلماء أن ينصرفوا ، ليلبث مع هذا الرجل الصالح وقتا طيبا . وينضم إلى مجلسهما أخو السلطان ، وكان كثير الاعتقاد في الشيخ ، وما إن ينتهي مجلس السلطان حتى يصحبه إلى داره .

لكن على الرغم من ثقة السلطان ، وتكريم أخيه .. أدرك أبو الحسن الشاذلي أن دس وكيد قاضى القضاة لن ينتهيا ، وهنا فكر في البعد عن تونس إيثارا للسلامة ، وتجنبا لما قد يحدث وينسبه إليه . ويعلم السلطان بذلك فيغضب ، ويستدعي أبا الحسن الشاذلي مرة ثانية ليثنيه عن عزمه قائلا : أي شيء يسمع به عن إقليمنا .. أنه أتاه ولي من أولياء الله الصالحين فضاق عليه الإقليم حتى خرج فارا بنفسه !! فيرد الشاذلي : «ما خرجت إلا بنية الحج ، وإذا قضى الله حاجتي أعود إلى إقليمكم تونس إن شاء الله تعالى » .. فيسمح له بالخروج مادام سوف يعود.

لكن ابن البراء وقد أكلت الغيرة والحقد قلبه يكيد مكيدة أخرى خارج تونس لأبي الحسن الشاذلي ، حيث أرسل إلى سلطان مصر الكامل محمد الأيوبي رسولا يحمل رسالة منه يقول فيها : «إن هذا الواصل إليكم - حيث سيمر على مصر في طريقه للحج - أفسد علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم ».

ولم يكد الشاذلي يصل إلى الإسكندرية حتى يقبض عليه ويرسل في حراسة مشددة إلى مقر السلطان ، ليعقد من جديد مجلسا للقضاء والعلماء والفقهاء يحاكمون فيه هذا الوافد الذي جاء من المغرب ليفسد على المصريين بلادهم . لكن تحدث المفاجأة حيث يكتشف السلطان في مجلسه بأن الرجل على علم وتقوى وإيمان ، وأنه ليس كما وصفه قاضي قضاة تونس ، وبأنه ما جاء إلى الإسكندرية إلا للمرور عليها في طريقه للحج لا أكثر ولا أقل ، ويشعر السلطان بأنها مكيدة دبرها قاضي قضاة تونس لحاجة في نفسه ، فيعتذر لأبي الحسن الشاذلي ، ويكرم وفادته حتى يواصل طريقه إلى الحج .

ويؤدي أبو الحسن الشاذلي فريضة الحج ، ليعود إلى تونس كما وعد سلطانها ، ويمكث عامين يلتقي خلالهما بتلميذه وخليفته أبي العباس المرسي . وخلال هذين العامين أنهى كل أموره في تونس ، وأعد نفسه للسفر إلى الإسكندرية يرافقه تلميذه أبو العباس المرسي ونفر من أتباعه الذين كانوا يتزايدون كلما مر على مدينة من المدن في طريقه إلى الإسكندرية .

وفي الإسكندرية يستقر بالقرب من كوم الدكة ببرج من أبراج السور أوقفه السلطان عليه وعلى ذريته . ليبدأ دروسه داعيا إلى اتباع طريقته، متخذا مسجد العطارين مكانا يعقد فيه مجالسه ليظل في هذه المدينة ما يقرب من الأربعة عشر عاما، إلى أن يتوفى وهو في طريقه إلى الحج .

وعلى الرغم من أن أبا الحسن الشاذلي لم يترك آثارا مكتوبة - حيث كان يعتبر آثاره في تلاميذه من بعده - وذلك حين سئل : «لم لم تضع الكتب ؟ فأجاب : كتبي أصحابي» .. كما أن للشاذلي إشارات لطيفة لبعض آيات القرآن الكريم ، تعد بمثابة تفسير صوفي لهذه الآيات ، وقد نبه إليها الشيخ الإمام الدكتور «عبد الحليم محمود» في كتابه عن أبي الحسن الشاذلي .

ففي حديثه عن إشارات الصوفية ، ومن بينهم أبو الحسن الشاذلي نبه الدكتور عبد الحليم محمود بقوله : «ينبغي أن نلاحظ أن هذه الإشارات لا تتعارض مع التفسير المألوف ، فهي إشارات وليست تفسيرات . ومن أجل ذلك ، فإنه لا تعارض بين الصوفية والمفسرين » .

وكما يرى مؤرخو التصوف أن أهم القضايا التي يصر عليها النقاد لقبول هذا الفهم ألا يدعي الصوفي أولوية هذا الفهم بالصدق مع استبعاد المعاني الأخرى ، بل لابد من التسليم أولا بالتفسير الظاهري ، أو بالمعنى الحرفي ، ولا ضير بعد ذلك أن نذكر معاني أخرى تتكشف للنفس الصافية ، فإن هذا ثمرة الإيمان .

وإذا كان علماء الظاهر يختلفون في تفسيراتهم ومهمتهم واجتهاداتهم - ويعد اختلافهم رحمة - فإن اختلاف أهل الحقائق رحمة أيضا ، لأن كل واحد يتكلم من حيث دقته ، ويجيب من حيث حاله ، ويشير من حيث وجده ، فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات وأرباب القلوب والمريدين والمتحققين فائدة من كلامهم .

ولذلك .. يرى الدكتور «عامر النجار» في كتابه (الطرق الصوفية في مصر) « أن هذه الإشارات الصوفية فيها إثراء روحي ، ولون من ألوان الكشف عن الإعجاز القرآني، طالما أن الصوفي يؤمن بالتفسير الظاهري للقرآن ، ولا يرى أن إشاراته تقوم مقام هذا التفسير الظاهري ، فهي مجرد إشارات لا أكثر ولا أقل ، وإن كان فيها إثراء روحي مشرق المضمون ، ونفحة إلهية جميلة .. وبهذا الأسلوب الإشراقي الصوفي فسر أبو الحسن الشاذلي آيات من القرآن الكريم .

مثلا : فسر آية : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾[1] على هذا النحو : يقال للولي وما تلك بيمينك أيها الولي ؟ فيقول : هي دنياي أنفق منها على نفسي وأهلي وإخواني. فيقال له : ألقها . فيلقيها ، فيجدها حية تسعى في هلاك قابضها ، فيأخذ

(١) طه : ١٧ .

حذره منها ، فإذا حذر منها يقال له : خذها ولا تخف ، فكما ألقاها أولا بإذن حال بدايته ، فذلك بإذن حال نهايته .

بقي في الحديث عن شخصية هذا الإمام الصوفي الكبير : أبي الحسن الشاذلي الحديث عن أحزابه المشهورة ، والحق أن أحزاب أبي الحسن الشاذلي - كما يقرر مؤرخوه - تكشف عن طاقة روحية هائلة ، وقدرة خلاقة على التعبير عن الومضات الروحية ، والإشراقات ، والجوانب الانفعالية الإنسانية . كما تكشف عن إبداع فني جميل ، ولعل **حزب البر** هو أجمل أحزاب الشاذلي ، الأمر الذي جعل الدكتور «زكي مبارك» يقول عنه : إنها خير ما أنتجت القرائح لما فيها من قوة المعنى ، وطرافة الخيال.. إن فقرات هذا الحزب تحتوي على دقائق الأسرار والإشارات التي لا يفهمهما إلا كبار الحكماء .

ولعل قصة انتهاء حياة هذا الصوفي الكبير تدل دلالة واضحة على شفافية نفسه، فكما يقول الشيخ «ياقوت العرش»، نقلا عن شيخه أبي العباس المرسى، تلميذ أبي الحسن الشاذلي : إن أبا الحسن كان يحج في كل سنة ، فيجعل طريقه صعيد مصر ، وقد حدث في حجته الأخيرة سنة 656 هـ ، أن طلب من خادمه أن يستصحب معه فأسا وقفة وخيوطا وبقية ما يجهز به الميت ، وقد عجب خادمه لهذا الطلب الذي لم يتعوده من قبل ، فسأله عن السبب . وأجابه الشاذلي إجابة مقتضبة قائلا : عند حميثري الخبر اليقين .

ووصل الإمام الشاذلي إلى حميثري وهي بلدة على ساحل البحر الأحمر ، وهناك اغتسل وصلى ركعتين، بعدهما فارقته الحياة ليدفن في المكان الذي صلى فيه بحميثري بمحافظة البحر الأحمر .

ويقول «ابن بطوطة» في رحلاته : وقد زرت قبر الإمام الشاذلي ، وعليه قبة مكتوب عليها اسمه ونسبه الذي ينتهي إلى الإمام الحسن ابن الإمام علي رضي الله عنهما .

ويبقى أن نذكر استنادا إلى كتابات مؤرخي الشاذلي أن تاريخه يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الحركة الفكرية، وتاريخ التصوف في القرنين: السادس والسابع الهجريين. فهما القرنان اللذان انتشر فيهما التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساسا لفهم الدين الإسلامي فهما روحيا. بعد أن ظلوا يناضلونه وقتا طويلا، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله هي التفرغ لعبادته، والفناء في حبه، والاتصال به عن طريق تصفية القلب والسمو بالنفس والروح، وترك المتصوفة جانبا وسائر الفقهاء وعلماء الكلام من اعتمادهم على المنطق الجاف والجدل العقيم لإثبات وجود الله، وبيان قدرته سبحانه وتعالى.

في هذين القرنين: ظهرت الطرق الصوفية، ومنها الطريقة الشاذلية، وكثر بالتالي أتباعها من المتطلعين إلى حياة روحية تعتمد في أساسها ومثلها الأخلاقية العليا على أصول الإسلام وتعاليمه، وعلى القواعد التي يعتمد عليها ويعترف بها أهل السنة وهي: القرآن الكريم والحديث الشريف، حتى إن من أتباع هذه الطريقة الشاذلية «ابن عطاء الله السكندري» الذي يجمع بين الشريعة والطريقة، والذي يعتبر مع الشاذلي من المجددين في التفكير الإسلامي .. إذ كانت أقوالهم وأفعالهم تقرب من إشارات الصوفية وتفسيرات أهل الظاهر من العلماء والأئمة.

* * *

العز بن عبد السلام

للحياة الفاضلة مقومات وسمات ، قيم ومبادئ ، أهداف ومثل .. فيها تكون سلامة النفس والحس ، سعة العقل والعلم ، استقامة التصرف والعمل ، قوة العقيدة واليقين .

هذه المعاني أو أكثرها كان يتحلى بها الرجل الصالح ، والإمام المجتهد ، سلطان العلماء ، مجدد القرن السابع الهجري : العز عبد العزيز بن عبد السلام : رجل العروبة والإسلام وبطل دمشق والقاهرة .

ولد هذا الإمام العظيم سنة سبع وسبعين وخمسمائة في دمشق ، أو الشام كما يطلق عليها أحيانا . ونشأ بين ربوعها وأهلها ، وتعلم على أيدي علمائها وفقهائها ، فحفظ القرآن الكريم ، وأتقن الحديث وأدرك تفسيرهما ، وصال في العلوم الشرعية، فعرف الكثير من مخبوئها الذي هو كنوز تصلح زادا للحياة الاجتماعية وقتئذ وتحول إلى مهنة التدريس ثم الفتوى . وظل في مسقط رأسه : دمشق ، حتى رحل عنها إلى القاهرة – كما سنرى – ليتوفى بها عام ستين وستمائة للهجرة .

كان الإمام العز منذ فجر شبابه : قوي الشخصية ، عميق الإيمان ، موصول العمل، موفور النشاط ، زاهدا ، تقيا ، شديد الغيرة على دينه وتعاليم ربه ، صادق الكلمة في مواطن النصح والتوجيه ، شديد المراس في مواقف الحق والصراحة ، لينا في مواطن الرقة والتواضع ، حتى صدقت عليه كلمة فيلسوف الإسلام : «محمد إقبال» ، حيث قال عنه : «إنه ناعم كالحرير إذا كان في حلقة إخوانه ومريديه وتلاميذه ، وهو كالفولاذ إذا دارت المعركة بين الحق والباطل..».

ولقد عاش الإمام العز في فترة عصيبة من تاريخ المسلمين ، تعرضوا فيها لبلاء أطبق عليهم من كل جانب ، لأن البعض منهم قد تهاون في أمر دينه ، والبعض الآخر عمل في فريق شملهم ، حتى أصبحوا شعوبا وأمما ، شيعا وأحزابا ، بعد أن كانوا أمة واحدة تجمعها كلمة : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس . أما وقد صار حالهم على هذا المنوال ، فقد سلط عليهم من الغرب عدو يضمر الحقد الكظيم على العروبة والإسلام، وهو ما يمثله الصليبيون، ومن الشرق عدو لا يرحم ولا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه متمثلا في التتار . هذا إلى جانب عدد يعيش بين ظهرانيهم تواطئوا مع هؤلاء وهؤلاء ، فباعوا الوطن والعقيدة والنفس .

كان الإمام العز ، كلما تجددت لأولئك الغزاة محاولة أو هجمة على بلاد الإسلام والعروبة ثار ، وأخذ يحرض الجموع المؤمنة ، ويذكرهم بمجد هذا الدين الحنيف وإعلاء كلمته .. وحثهم على المبادرة إلى الجهاد والنضال .. وكانت له في ذلك مواقف مشهودة .

لقد حدث أن سيطر على دمشق - أثناء تواجده بها - أمير متخاذل ، يدعى : «إسماعيل بن العادل» ، اختار الضعف أسلوبا لحياته ، والذلة منهجا لحكمه ، والتآمر وسيلة يحقق بها أطماع نفسه - كان هذا الأمير المتخاذل الضعيف المتآمر يتولى أمر دمشق من قبل السلطان «نجم الدين أيوب» ، الذي كان يواجه هجمات الإفرنج في ذلك الوقت ، وكان من الطبيعي أن يتعاون هذا الأمير مع هذا السلطان على رد هؤلاء الغزاة ، إلا أن ما حدث من هذا الأمير كان غير ذلك ، فنراه يتواطأ مع الإفرنج ضد نجم الدين حين ينجو بحياته ، وليكون الصديق الوفي الفائز بالنصيب الأكبر يوم توزيع الغنائم ، بل وصل الأمر من هذا الأمير أن أباح للإفرنج شراء السلاح والمؤن من دمشق ، سلاحا يوجه إلى قلب إخوة الإسلام والعروبة !

عندئذ ثار الإمام العز وغضب ، ولم يخش البطش والجبروت ، ولم يخفه. وكان خطيبا لجامع دمشق حينئذ ، فكانت كل خطبة له يندد فيها بالخيانة ، وينادي بحرمة التعاون مع الإفرنج في أي شيء مادام المسلمون في حالة حرب وقتال معهم . لقد أعلن

الإمام العز من فوق المنبر قائلا : «اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد يعز فيه أولياؤك ، ويذل فيه أعداؤك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك وغضبك ..».

ولم يكتف بذلك ، وإنما قام يطوف بين الناس يمنعهم من التعامل مع الأعداء ، ومن يساندهم.. مهما كانت حاجاتهم.. مرددا على مسامعهم: « يحرم عليكم مبايعتهم إذا كنتم تتحققون ، إنهم إنما يشترون السلاح ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين..».

وتتوالى الأيام والإمام العز بن عبد السلام يزداد تألقا وسطوعا حتى وإن كابد العزل والنفي والتشريد .. ويزداد قربا من الناس ، وبعدا عن حكامهم من المتخاذلين والخونة . ويزداد تمسكا بما ينادي به من إعلاء كلمة الحق والدين . فيزداد اضطهاد الحكام له ، ويتضاعف كلما رأوه يثابر على أداء رسالته حتى رأينا معاني البطولة التي تجلت فيه شابا فتيا لم تتركه كهلا ولا شيخا . بل صاحبته بقية عمره الذي زاد على الثمانين عاما ، حتى وإن وهن جسده على مر هذه السنين ، فإن همته ظلت كما هي قوية فتية .

فها هو ذا في شيخوخته ، يشن حملة شعواء على الملوك والسلاطين المتزمتين ، حين يرى حاكما مترفا في يوم عيد يسرف في تعاليه وتجمله وأبهته .ويخرج بين عسكره ووجهاء قومه في زينته .. ليقبل الناس الأرض بين يديه .. هنا يغضب الإمام العز، ويتعمد أن ينادي هذا الحاكم باسمه مجردا وينصحه بأن يصلح المفاسد الموجودة في جهاز حكمه فيرد عليه الحاكم معتذرا : «هذا ما عملته ، هذا من زمان أبي» ، «فيقول له العز معترضا : «أأنت من الذين يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(1) .

وينتهي هذا الموقف العاصف بين الحاكم والإمام ليقول له أحد تلاميذه: «لـم فعلت هذا مع الحاكم» ، فيرد الإمام العز قائلا : «رأيته يا بني في تلك العظمة ،

(1) الزخرف : ٢٣ .

فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه» ،. «فقال التلميذ :«أما خفته يا إمامنا ؟ «فأجاب الإمام العز : «والله يا بني ، لقد استحضرت هيبة الله عز وجل يوم اللقاء ؛ فصار هذا الحاكم أمامي كالقط..»».

وكان الإمام العز بن عبد السلام .. رجلا يقدس الحق ويخضع له ، ويسارع بالعودة إليه إذا تبين له خطأ وقع فيه أو انحراف مال إليه ، وتلك سمة من سمات أخلاق العلماء في كل عصر وفي كل مكان . الموضوعية في محاسبة الرأي حتى ولو كان هذا الرأي له ، والرجوع عنه إذا وجده يجانب الحقيقة . فلا شيء يهم العالم في أي مجال من المجالات سوى الحقيقة وتوضيحها للناس . وكلما اقترب العالم من الحقيقة ازداد موضوعية ، وبالتالي ازداد احترام الناس له .

وهكذا .. كان إمامنا العز بن عبد السلام .. لقد حدث أنه أفتى ذات مرة بأمر من الأمور ، ولعله اجتهد في ذلك وأخلص وراعى أمر ربه كعادته دائما فيما أفتى ، وعلى الرغم من هذا ، فقد ظهر له خطأ في رأيه ، وهنا لم يكابر أو يعاند ، ولم يتردد أو يتراجع في إعلان الحقيقة ولو كانت تسبب له - كشيخ للإسلام - حرجا ، بل على العكس ، أخذ ينادي بين الناس على نفسه قائلا : « من أفتى له العز بن عبد السلام بكذا وكذا، فلا يعمل به ، فإنه أخطأ .. والله على ما أقول عليم وشهيد..»».

هذا الطراز من العلماء الذي يعامل نفسه بموضوعية كما يعامل غيره من الناس، لابد أن يكون بين الناس ذا هيبة ووقار . هذا إلى جانب أن إيمانه العميق ، وعلمه الواسع قد أشاعا على ملامحه سمتا يرغم الآخرين خشيته وإجلاله . لقد كان يقيم في دار اختارها لنفسه خارج القاهرة مع أهله ، وذات ليلة جاء إليه نائب السلطان ، وكان من أمراء المماليك ، مصحوبا بجماعة من الأمراء وكبار رجال الدولة والجند ، يريدون الاعتداء عليه ، والبطش به في هدأة الليل ، إلى درجة أن هذا المملوك الكبير جاءه شاهرا سيفه ومن خلفه أتباعه ورجاله وجنده ، فاعلين ما فعله قائدهم ، حتى يمعنوا في تخويفه ، وكسر شكيمته . ترى ماذا يكون تصرف

رجل أعزل مسن يعيش في الخلاء ؟ لقد أقبل عليهم في ثبات ورباطة جأش ، وقال لهم بصوت عميق قوي مؤثر : «أهلا بضيوفنا!» . عندئذ انبهر المماليك وكبيرهم بقوة شخصية هذا الإمام ، وسطوع روحه ويبست أيديهم على سيوفهم وتجمدت ، ولم يجدوا ما يفعلونه إزاء هذا الموقف غير المتوقع إلا أن يطلبوا منه العفو والدعوات .

ولعل ظروف وفاته تشير إلى ما كان عليه من إخلاص وأمانة .. علم وعمل .. جهاد وكفاح .. تقوى وصلاح .. لقد انتهت حياته أثناء إلقاء درسه بين تلاميذه ومريديه أثناء تفسيره لقول الحق : ﴿ **ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾[1] .

وفي وداعه إلى مثواه الأخير ، خرجت مصر كلها تشيعه ، فخرج النساء والرجال والأطفال ، وأمر السلطان - الذي كان أفتى بعدم صلاحيته لأنه مملوك - أن يحمل الأمراء نعش هذا الشيخ العظيم . بل اشترك معهم في ذلك .. تقديرا لعلمه وصدقه وتقواه . وفي مسقط رأسه دمشق وما يجاورها من المدن أقيمت له جنازة ضخمة وصلوا عليه صلاة الغائب .

واستقر جثمان هذا الإمام العظيم في مثواه الأخير تحت سفح المقطم ، وعاد السلطان بيبرس إلى قصر ملكه يتنفس الصعداء ، ويقول : «الآن .. قد استقر أمري في الملك ، لأن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا .. لخرجوا علي وانتزعوا الملك مني ..».

لقد كان الإمام العز بن عبد السلام سلطانا فوق السلاطين .. وكان حقا وصدقا سلطان العلماء ، ومن أفضل المجددين في الإسلام .



(١) النور : ٣٥ .

ابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي: أحد مجددي القرن السابع الهجري ، المولود بدمشق عام 595 هـ ، عاش أغلب سنوات عمره بالقاهرة حتى توفي بها عام 668 هـ ، حيث تعلم الطب فيها ، وكان من أساتذته «ابن البيطار» أول عالم دواء (صيدلي) في العصور الوسطى .

وترجع أهمية ابن أبي أصيبعة إلى جانب طبه هو تأريخه للأطباء العرب في واحد من كتبه هو : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) الذي نشره في القاهرة ليصبح أهم مصدر للحديث عن أربعمائة طبيب في الحضارة الإسلامية . كما برز في علاج الكحالة ، أي : مرض العيون ... وغيره من الأمراض .

وترجمة حياة ابن أبي أصيبعة لا تعرف إلا من إشاراته القصيرة الواردة في كتابه العظيم «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» . كان جده خليفة بن يونس الخزرجي المتوفى عام 562 هـ من أتباع صلاح الدين وكان أميرا وقائدا في خدمة عمه شيركوه. وولد ابنه الأكبر «سديد الدين القاسم» في القاهرة عام 575 هـ ، وولد ابنه الأصغر «رشيد الدين علي» في حلب وأصبح الاثنان من الأطباء المبرزين . وكانت دراسة الطب مزدهرة بنوع خاص في مصر والشام ، حيث أسس حكام قادرون (أمثال: نور الدين بن زنكي وصلاح الدين) البيمارستانات في دمشق والقاهرة ، وشجعوا دراسة الطب ورجاله بكل الوسائل الممكنة .وكان من بين العلماء الأعلام الذين وفدوا من بغداد إلى دمشق والقاهرة «عبد اللطيف بن يوسف» الذي أصبح صديقا حميما لخليفة ابن يونس الخزرجي جد ابن أبي أصيبعة والذي درس لولديه اللذين كانا يطلبان

العلم، كذلك على الفيلسوف الطبيب اليهودي «موسى بن ميمون». وقد درس والد ابن أبي أصيبعة القاسم «الكحالة» على يد «أبي حجاج يوسف السبتي» في البيمارستان الناصري بالقاهرة وأصبح كحالا شهيرا . وفي عام 606 هـ أبرأ «الملك العادل سيف الدين» من رمد شديد. والتحق منذ ذلك الحين ببلاط سلاطين الشام ، وعين ناظرا للكحالين ، وتوفي في دمشق عام 649 هـ . وكان ابنه أحمد – الذي ولد في حدود عام 595 هـ في القاهرة ، والذي لقب باسم جده «ابن أصيبعة» – شابا موهوبا درس فيما بعد دراسة عملية وعلمية قيمة في البيمارستان النوري، وتلقى الطب على «رضى الدين الرحبي» و«شمس الدين الكلي» . وابن البيطار مؤلف (جامع المفردات) ، وخاصة مهذب الدين مؤلف (جامع المفردات) ، وخاصة «مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار» (توفي عام 628 هـ) الذي أنشأ مدرسة ممتازة من الأطباء ، وكان له فضل عظيم على دراسة الطب في عصره . وكان زميله في البيمارستان الطبيب اليهودي «عمران بن صدفة» الذي كانت لديه مكتبة غنية بالكتب الطبية . وكانت سنوات دراسة ابن أبي أصيبعة على هذين الأستاذين محببة إلى نفسه ، ومن المحتمل أنه استغل إلى حد كبير كتب ابن صدفة في تأليف تاريخه . وكان ابن أبي أصيبعة يقوم حينا من الزمن بالكحالة في البيمارستان الناصري بالقاهرة حيث استفاد من دروس «السديد ابن أبي البيان الإسرائيلي» ، الطبيب والعالم بالأقراباذين ، وهو مؤلف كتاب الأقراباذين المعروف بـ : الدستور البيمارستاني. « وعلى هذا النحو استطاع ابن أبي أصيبعة أن يحذق الطب من ناحيته العملية ، كما كان في الوقت نفسه يكتب تاريخه المعروف عن الأطباء . وتمت أول نسخة من هذا الكتاب في حدود عام 640 هـ ، ومنذ ذلك الحين أضاف المؤلف عدة زيادات وصلت بالتراجم إلى عام 667 هـ ، أي قبل وفاة المؤلف بعام واحد ، ولهذا السبب تختلف النسخ المخطوطة الموجودة فيما بينها اختلافا بينا ، ولم يكن ابن أبي أصيبعة كاتبا مجيدا ، كما ينقص كتابه في بعض الأحيان الإصابة في النقد، وقد جعلت كثرة ما أورده من الشعر – ومعظمه – رديء

- دراسة هذا الكتاب من الصعوبة بمكان . على أن لابن أبي أصيبعة فضلا عظيما بما جمعه من أخبار فاق فيها غيره في التاريخ الطبي والعلمي للقرون الوسطى في الشرق. وقد أمدنا فوق ذلك بشيء عن الطب الهندي واليوناني لم يكن ليصل إلينا بدونه ، كما أمدنا بتفاصيل وافية عن الحياة الاجتماعية والعلمية في العالم الإسلامي . لذلك أصبح كتابه مصدرا عظيم الأهمية مكملا لما كتبه عظماء المؤرخين المسلمين في التواريخ العامة . ويحتوي كتابه على : نبذ كثيرة أخذت من كتب أخرى فقدت منذ أمد بعيد ، مثال ذلك: نبذ من كتب جالينوس الطبيب اليوناني المشهور ، وحنين النصراني وابنه إسحاق ، وعبيد الله بن جبرائيل بن بختيشوع. ومن المسلمين ابن جلجل ، والمبشر بن فاتك ، والدخوار ... وكثيرون غيرهم .

ومن الواضح ... أن ابن أبي أصيبعة قد ترجم لأطبائه تراجم دقيقة ، وأن ما أثبته من الكتب بلغ من الثقة حدا كبيرا . وهذه الكتب الوفيرة التى أثبتها في آخر كل ترجمة من الأربعمائة ترجمة التى كتبها عن رجال الطب في العصر الإسلامى تعطينا فكرة صحيحة عن هذا الإنتاج العلمى العظيم لكثير من هؤلاء العلماء ، وما وصلوا إليه في بعض الأحيان من المعرفة الشاملة العجيبة . وقد اعتمد الكتابان الموثوق بهما اللذان كتبا عن الطب الإسلامى باللغات الأوروبية وهما : كتاب (فستنفلد) بالألمانية ، وكتاب (لكلرك) بالفرنسية ، كل الاعتماد على مصنف ابن أبي أصيبعة (عيون الأنباء) . وقد بدأ بترجمة هذا المصنف مع التعليق عليه كثير من العلماء ، ولكنهم لم يسيروا في الترجمة إلا بضع صفحات ، مع أن الأطباء والمؤرخين الذين يكتبون في التاريخ العام عن الشرق في أشد الحاجة إلى مثل هذه الترجمة .

ونستدل من أقوال ابن أبي أصيبعة نفسه : أنه ألف ثلاثة كتب أخرى ، ولكنها لم تصل إلى أيدينا ، وهى : كتاب (حكايات الأطباء في علاجات الأدواء) . وكتاب (إصابات المنجمين) ، وكتاب (التجارب والفوائد) ... وغيرها .

* * *

ابن سبعين

عالم مدينة سبتة بالأندلس : ابن سبعين. يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري كفيلسوف صوفي يتميز تصوفه بنوعية فكرية معينة لعلها في إمكانية التصوف العقلي، هذا التصوف العقلي المبني على فكرة الفيض التي تبدو عند ابن سبعين المفكر النقادة الذي لم يدرس بعد دراسة كافية ولائقة به ، وعلى الرغم مما في آرائه من حصافة وفراسة، وفي أفكاره من عمق ودقة . إن أكبر مصدر نعتمد عليه حتى اليوم في تعرف نظرياته هو «المراسلات» التي دارت بينه وبين الإمبراطور «فردريك الثاني» حاكم صقلية المتوفى سنة 1250 م . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة إلى أن اهتدى إليها المستشرق الإيطالي «إمري» سنة 1853م ، في مخطوطة من مخطوطات أكسفورد تحت عنوان :«الرسائل الصقلية » . وبعده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها في الصحيفة الآسيوية الفرنسية المستشرق الدنمركي المشهور «مهرن». وقد وقف علماؤنا العرب وفي مقدمتهم «الدكتور بيومي مدكور» منذ زمن على هذه المخطوطة، فوجدوها مملوءة بالمعلومات والملاحظات الدقيقة ، وكان نشر نصها في باريس عام 1943م .

وكلنا يعلم ما كان عليه فردريك الثاني من : رغبة في العلم وحب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه إلى مفكري الإسلام أربعة أسئلة أجاب عنها ابن سبعين عالم مدينة سبتة ، وهي : قدم العالم ، والمقولات العشر ، وما وراء الطبيعة في غايته ومبادئه ، وطبيعة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماما المشاكل المهمة التي كانت تشغل المفكرين عامة ، وتلاميذ أرسطو على الخصوص في ذلك العصر . وقد أجاب عنها ابن سبعين إجابة موسعة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ، وفي مقدور

من يرجع إليها معتمدا على بعض المصادر الأخرى، وخاصة كتابه: (مالا بد للعارف منه) أن يكون فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية .

ولسنا هنا بصدد هذا العرض المطول ، ونكتفي بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوع فلسفته . فالله في رأي ابن سبعين أصل العقول المتصرفة في الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والإنعام ، والعقل الفعال يدبر شئون الأرض ، ويمد الكائنات بصورها الثابتة ، فهو مصدر النفوس البشرية على الإطلاق . وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهي ميالة دائما إلى الاتصال به ، ولا يحول دونها إلا أدران الجسم وشهواته . فإذا ما تفرغ الإنسان للدراسة والنظر ، فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال .

هذه النظرية - كما ترى - تكرار حرفي لما قاله الفارابي وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطي كسابقيه من فلاسفة الإسلام ، وإن كان ينقدهم نقدا مرا . وقد أقام تصوفا عقليا على أساس فلسفي ، فهو صوفي على طريقة الفلاسفة ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والإلهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية . فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما «الحلاج» ، ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطا روحيا معنويا .

إذا .. فتصوف ابن سبعين ومن قبله السهروردي مؤسس على دعائم فلسفية . وفي رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائنا آخر واجب الوجود بذاته ليمنحه الوجود ، ويفيض عليه بالخلق والإبداع ، وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ، فهو موجود أزلا بنفسه ودون حاجة إلى أي موجد آخر ، وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لعلمه وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذا عرضي وبالتبعية . وعلى هذا .. ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسع والمجاز .

هذه هي نظرية وحدة الوجود التي اعتنقها جماعة من الصوفية ، حيث تكونت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، وانتشرت بعد ذلك في بلاد الأندلس والمشرق . ومن أكبر أنصارها : «محيي الدين بن عربي» المتوفى 1240م و«جلال الدين الرومي» المتوفى سنة 1273م ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس والعرب، ويصعد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ إلى الفارابي .

وإذا كان الله هو الموجود ، وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى ؛ وهنا يختلط التصوف بالفلسفة اختلاطا كبيرا . فكأن مذهب المشائين من العرب لما حورب في شخص الفلاسفة وجد ملجأ لدى الصوفية ، وكثير من الأفكار الفلسفية الممقوتة تبناها المتصوفة ، وأبرزوها في صور أخرى مقبولة ولو إلى حين . وفي رأينا : أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ التفكير الفلسفي الإسلامي في العصور الأخيرة دراسة كاملة ، منعزلا عما كتبه المتصوفة وعلماء الكلام .

بيد أن الصوفية بدورهم لم يسلموا من شرور الفلسفة وويلاتها، وما إن تفلسفوا حتى أضحوا عرضة للمحاربة والانتقام. «فالسهروردي» قتل بأمر «صلاح الدين»، و«ابن سبعين» انتحر في مكة بسبب مهاجمات وجهت إليه في الغالب، واتهم معاصره ابن عربي بالإلحاد والزندقة من كثير من أهل السنة ، كذلك كان مصير «الحلاج» ... وغيرهم من فلاسفة المتصوفة .

* * *

جلال الدين الرومي

محمد بن محمد بن حسين الخطيبي البكري المعروف في التاريخ الإسلامي بمولانا «جلال الدين الرومي» من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث كانت ولادته عام 604هـ في بلخ ، ووفاته عام 672هـ بقونية التركية ، والذي يعتبر أكبر شعراء الصوفية الإيرانيين .

كانت أولى خطواته العلمية على يد والده الملقب بـ «بهاء الدين» وكان من أكبر رجال الصوفية ، وخليفة للشيخ «نجم الدين كبرى» . ولم يكتف بما تلقاه عن والده من العلم أو في مسقط رأسه بلخ ، وإنما رحل إلى بلاد كثيرة طلبا للعلم ، ونشرا لما حصله من علوم ومعارف . وفي أثناء هذا الترحال التقى في قونية بأستاذه ومرشده الصوفي الكبير «شمس الدين التبريزي» ، هذا الصوفي كان له أكبر الأثر على حياته الروحية ، والمذهب الصوفي الذي تبناه ، إلى درجة أنه جعل عنوان ديوانه منتسبا إلى هذا المرشد الذي علمه «ديوان شمس الدين التبريزي» .

ولم يقتصر جهده الأدبي والعلمي على هذا الديوان ، وإنما له العديد من المؤلفات الشعرية والنثرية المصطبغة بالصبغة الروحية ، ومنها كتابه المنثور وعنوانه : (فيه ما فيه) الذي ترجم إلى عدة لغات أجنبية ، واهتم به نفر من المستشرقين ، هذا بالطبع إلى جانب مؤلفات أخرى أهمها : ديوانه الكبير (مثنوي) الذي يعتبر أعظم آثاره ، وأهم كتاب في التصوف الإيراني ، حيث يقع في ستة مجلدات من الحجم الكبير والصفحات الكثيرة ، والمادة الغزيرة شعرا ، حيث يضم ما يقرب من الثلاثين ألف بيت شعر من بحر الرمل ، كأعظم ما كتب في الشعر .

هذا الديوان يعد من أروع كلاسيكيات الآداب الفارسية الإسلامية الروحية ، إن لم يكن أروعها جميعا . وعلى الرغم من أن هذا الديوان كتب في القرن السابع الهجري ، إلا أنه لم يفقد جدته ، فلا يزال القارئ المعاصر يجد فيه أفكارا جديدة ، وذلك فيما يصادفه من مشاكل في تعامله مع نفسه ثم مع المجتمع، أو في التسامي فوق صراع الحياة ومتطلبات العيش . وفي هذا الديوان بالذات قدم مولانا جلال الدين الرومي عالمه الخاص ، ومحاولته الرائدة لصب المعارف الإسلامية الأخرى ، فأخذ منه كل عصر زاده من المعرفة ، ومن السمو الروحي ، وتعرف عليه العالم : شرقه وغربه ، عربا أو أجانب من خلال ترجماته ، فعرف منه روح الإسلام السمحة العظيمة ذات البعد الإنساني الواضح ، التي تترفع عن التعصب وضيق الأفق .

كذلك .. فإن هذا الديوان ليس نصا صوفيا خالصا كما كان يشاع في العديد من الكتابات، بل هو نص متعدد الجوانب والمستويات، يهتم بتربية الإنسان على الأرض، قبل أن يصله بأسباب السماء ، ولعل ذلك جعل بعض المؤرخين والعلماء يعتبرونه من المجددين في الإسلام ؛ لأنه أتى بعمل إبداعي روحي ، يرتبط بالإسلام دينا ودنيا ، وهو ما جعله – ككتاب – يقرأ أكثر من مرة ، شأنه في ذلك شأن الكلاسيكيات العالمية التي لا تذهب جدتها بمرور الزمن ولا تفقد قيمتها على مر العصور .

ولعل ذلك أيضا جعل له أتباعا ومريدين كثيرين في إيران والهند وتركيا والعراق ، ومنهم تتألف طريقته الصوفية المعروفة باسم «المولوية». هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن هذا الديوان وغيره من كتابات مولانا «جلال الدين الرومي» جعلته من أكبر شعراء الحب في التصوف الإيراني . فالحب عنده دواء كبريائنا ، وفتنتنا بأنفسنا ، وطبيب ضعفنا، ومخلصنا من أثرتنا ، والعوالم الظاهرة في رأيه وجود وهمي ، أما وجود الله فهو الوجود الحقيقي ، وأن كل ذرة موجودة في العالم هي مظهر لصفة إلهية ، بل إن الإنسان نفسه هو المظهر الجامع لكل الصفات الإلهية . وغير ذلك مما سنتبينه في منهجه .

وهذا المنهج في التصوف ، وأساسه كما يذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» العشق الإلهي الذي يبلغ حد الجذب ، فيكون الترقي في مدارج الكمال .

هذا باختصار شديد : الإشارة إلى منهجه . وأما فلسفته في التصوف أساسها : وحدة الوجود ، تلك التي تلخصها قصته عن الأستاذ والتلميذ الذي كان في عينيه حول . حيث أمره الأستاذ أن يحضر زجاجة من إحدى الحجرات ، فعاد إليه وسأله أي الزجاجتين، لأنه اعتقد أن هناك زجاجتين ، وليس زجاجة واحدة . لكن الأستاذ أكد له أنه لا توجد غير زجاجة واحدة ، والتلميذ أكد من جانبه أنه توجد زجاجتان، وطالت المناقشة حول هذا الأمر، وهنا لم يجد الأستاذ معدلا من أن يطلب إليه أن يكسر إحدى الزجاجتين اللتين يراهما ، ويحضر الأخرى . فلما كسر التلميذ الزجاجة لم يجد أن هناك زجاجة أخرى كما كان يعتقد ويتوهم ، بسبب بصره الذي به حول . وعلم أن أستاذه كان على حق .. وهنا يقول الرومي : إن مضمون قصته هو نفسه مضمون الآية الكريمة التي تقول : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾(١) . ثم يضرب مثلا مذكرا إيانا بعداوة اليهود للمسيحيين ، وعداوة المسيحيين لليهود ، ثم يقول : «كلاهما مظهر لأنوار الله» . فالناظر لأحدهما بالعداوة، وللآخر بالحب يشبه الأحول الذي يرى الشيء شيئين ، والحقيقة حقيقتين ، ويضرب مثلا بأنه في الحقيقة ليس عيسى إلا روح موسى ، وليس موسى إلا روح عيسى .

كذلك .. فإن للرومي فلسفة في الصلة بين الروح أو القلب والعقل .. والوصول إلى الحق له طريقان ، طريق الروح أو القلب والعقل . ويقول : عليك أن تقبل أوامر الروح ، ويقول : لا تحسب كل وسوسة بحثا وفكرا ، ولا تعتقد كل شيء صحيحا ، ولا تجعل لروحك سجنا وعذابا ، ولا تجعلها رهينة للنفس التي تأكل

(١) البقرة : ٢٨٥ .

وتشرب فقط ، ويقول : اجلسوا في المشهد المقدس بالحضور القلبي ، وإذا رأيت الروح واعظا ومذكرا فلا تكن وراء الستار ، بل اسمع من الروح ، ويقول : افتح عينيك لترى بنور العقل أن في كل ورقة شجرة ، وكل حبة نبات آثار تدل على أنه واحد لا شريك له ، العقل أعز من كل شيء وهو المفتاح والمصباح ، والعقل يهدي إلى الرشد ، ويأتي بالنصر في المعارك ، ويستدل به على وجود الله سبحانه وتعالى ، إلا أن هذا العقل منه : واصل ، ومنه ضال ، وكلاهما يطلق عليهما العقل . وعليك أن تعرف تفاوت العقول واختلافها. ولو كان هذا العقل كافيا لمعرفة الحقائق الدينية لكان «فخر الدين الرازي» أكبر العارفين . وأولئك أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أعمق الناس علما ، وأقلهم تكلفا ، ولم يقرأوا كتاب حكمة ، ولم يتلقوا درس فلسفة .

ثم يتساءل مولانا جلال الدين الرومي : إلى متى العكوف على الفلسفة اليونانية والحكمة المادية ؟! .. هذه الفلسفة تباعد بين الإنسان والحقيقة وقفا ، وتورث الأخذ بالألفاظ والقشور .

ويقول مولانا جلال الدين الرومي في أولياء الله الصالحين : «إنهم وصلوا ، ونالوا الكرامات؛ لأنهم سيطروا على نفوسهم بعقولهم ، ووجهوا عقولهم إلى الأنوار فأخذوا منها . ويقول في أطباء الروح : « هم تلاميذ الرحمن سبحانه وتعالى : انفلقت لنا البحار ، وتفجرت العيون من الأحجار » . ويقول : « إذا كنت منهمكا في الشهوات، فإبصارك مظلم ، ولا أمل لهدايتك ، ومن قتلت فيه شهوات الحس يكون له ذوق روحي يدرك به النور والحق ، والحياة الروحية تحتاج للحرارة والماء ، وحرارتها الدمع ، وماؤها لهيب القلب ولوعة الشوق إلى المبادئ العالية » .

ويقول عن كتابه الضخم (مثنوي) : « إنه أصل أصول الدين في كشف أسرار الوصول واليقين ، وهو فقه الله الأكبر ، وشرع الله الأزهر ، وبرهان الله الأظهر

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[1] . يشرق إشراقا أنور من الإصباح ، وهو جنان الجنان ذو العيون والأغصان ، منها عين تسمى عند أبناء السبيل سلسبيلا ، وعند أصحاب المقامات والكرامات خير مقاما وأحسن مقيلا .. وإنه شفاء الصدور وجلاء الأحزان وكشاف القرآن ، وسعة الأرزاق ، وتطييب الأخلاق » .

إلى آخر مقدمته لكتابه بأسلوب زمانه من السجع ، وبفكر أهل الصوفية العقلانيين ، ولهذا ولغيره .. اعتبر من مجددي الإسلام .

* * *

(١) النور : ٣٥ .

نصير الدين الطوسي

«نصير الدين الطوسى» : فيلسوف فارسى ، يعتـبر مـن مجـددي القـرن الـسابع الهجري ، حيث ولد في مدينة مراغة قرب نيسابور عام 597 هـ ، وتوفي في بغداد عام 672 هـ بعد أن نزح إليها في مقتبل عمره وعاش بها ، وحتـى لـو تنقـل منهـا ، فقـد كانت تنقلاته إلى أقطار الأمة العربية ليتزود بالثقافات العربية الإسلامية .

هذا المجدد كان له شأن عظيم في العلوم العقلية الفلسفية ، وإلى جانبها كان لـه شأن آخر في الرياضيات والفلك والأرصاد ، ولذلك .. فإنه وقد حصل الكثـير مـن المعارف من الحضارة الإسلامية ، فإنه في المقابل أعطى الكثير من المعـارف ، يتـضح ذلك من إنشاءاته العلمية الواضحة ، والأخرى الفكرية الجليلة النفع ، فقـد أنـشأ في مسقط رأسه (مدينة مراغة) مرصدا عظيما ، وكون خزانة ضخمة من الكتب العربيـة الإسلامية التي نهبت من روافد الأمة العربية الإسلامية في بغـداد والـشام والجزيـرة العربية في عصر التتار ، (وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل) ، وعـين منجمـين لرصـد الكواكب والنجوم ، وأوقف لهؤلاء المنجمين أوقافا يعيشون منها .

كانت لهذا المجدد منزلة كبرى في تاريخ الحياة العقلية والفلسفة الإسلامية ليس في البلدان العربية التي عاش فيها ، وتثقف منها ، بل أيضا عند الفرس حيث اعتبروه من كبار فلاسفتهم ومفكريهم وعلمائهم الـذين كتبـوا بالعربيـة وأثرهـا عـلى لغـتهم الفارسية التي لم يلجأ إليها إلا في القليل النادر لشرح بعض المعاني الفلسفية وتبـسيط بعض الحقـائق العلميـة ، ولـذلك يعـده المؤرخـون والعلـماء مـن طـراز الفلاسـفة والمفكرين والعلماء الكبار من أمثال : ابن سينا ، وأبي الريحان البيروني ، وفخر الدين

الرازي، وصدر الدين الشيرازي، وغيرهم ممن لهم إسهامات عظيمة في بناء الحضارة العربية الإسلامية . وذلك لآثاره الفكرية التي بدت في مصنفات كثيرة منها في الفلسفة (تجريد العقائد) الذي يعرف باسم «تجريد الكلام» وهو كتاب شرحه وحققه بعد ذلك تلميذه «عبد الرازق اللاعجي» ونشره تحت عنوان : (شوارق الإلهام) ، وفي علم المنطق كتاب (أساس الاقتباس)، وفي التصوف (أخلاق ناصري) إلى جانب كتاب آخر عنوانه : (أوصاف الأشراف)، وفي الهندسة (تحرير أصول إقليدس)، وفي علم الهيئة (تحرير المجسطي)، وفي (الجبر والمقابلة) و(المتوسطات الهندسية) و(التذكرة في علم الهيئة) ، و(تحرير كتاب المناظر) ، و(تحرير الطلوع والغروب) ، و(تحرير المفروضات) ، و(ظاهرات الفلك) .

ولم يقتصر جهد هذا المجدد على بعض ما ذكرناه من آثار فلسفته وعلمه كأمثلة، وإنما له إسهامات أخرى في أمهات الأعمال لكبار العلماء والفلاسفة المسلمين حيث قام بشرح : (الإشارات) «لابن سينا»، و(تلخيص المحصل) «للفخر الرازي» و(بقاء النفس بعد تحلل أو بوار البدن) ، و(إثباتات العقل)، وغيرها من الأعمال الخالدة للعلماء والفلاسفة المسلمين السابقين عليه .

ومن الملامح والسمات الأساسية في شخصية وفكر هذا المجدد أنه كان متصلا بالشيعة ، وخاصة في جانب منها هو الإسماعيلية ، حيث كان على اتصال وثيق بكبار رجالاتها . وربما يكون ذلك لطبيعة مولده في فارس ، ثم انتقاله إلى بغداد في العراق وكلتاهما تعج بأتباع الشيعة إلا أن هذا الاتصال لم يؤثر في أحكامه العلمية والفكرية.

ولعل في قصة اتصاله بالتتار وزعيمهم «هولاكو» وعمله معه من الجوانب الإيجابية عند هذا المجدد . فقد أفاد هذا الاتصال الإسلام ولم يجلب له الضرر ، هذه القصة تبدأ من بعد استيلاء هولاكو زعيم التتار على بغداد، حيث وجد نفسه ملكا على شعوب من المسلمين تفوق التتر في علومها وحضارتها ، ووجد دولته في حاجة إلى

من يقوم بتدبيرها على أصول الحضارة الإسلامية من علماء المسلمين وحكمائهم ، ولم يجد أقدر على هذا من «نصير الدين الطوسى» ، فاتخذه حكيما ووزيرا، واصطفاه ناصحا ومشيرا ، وكان يطيعه فيما يشير به عليه ، ويعرف فضل ما امتاز به من العلوم، وهو ملك وثني غير متحضر، بينما كان ملوك المسلمين المعاصرون له في مصر وغيرها يتنكرون لهذه العلوم ، ويحاربون من يشتغل بها من المسلمين .

فاستغل نصير الدين الطوسي حاجة هولاكو إليه في نفع الإسلام والمسلمين ، وأخذ يجمع ما نهب من الكتب الإسلامية بعد سقوط بغداد بيد التتر، وابتنى لها خزانة عظيمة بمدينة مراغة ، كانت تحتوي على أكثر من 400.000 مجلد ، ولولا اهتمامه بجمعها لتلفت عند من لا يعرف قدرها من التتر وغيرهم ، وهذا ما حصل للمسلمين من النفع به في هذه المحنة التي نزلت بهم ، فأحيا ما ذهب من آمالهم ، واسترد ما ضاع من كرامتهم ، وانتفع بجاهه عند هولاكو كثير منهم وخصوصا الشيعة والعلويين والحكماء ومن إليهم ، فكان يبرهم ويقضي حوائجهم ويحمي أوقافهم ، لأنه كان على عقيدة الشيعة .

ثم أراد نصير الدين أن يبني مرصدا عظيما بمدينة مراغة ، فأقنع هولاكو بفائدته حتى بذل في بنائه ما لا يحصى من الأموال ، وقد جمع نصير الدين لبنائه جماعة من الحكماء ، منهم : المؤيد العرضي من دمشق ، والفخر المراغي من الموصل ، والفخر الخلاطي من تفليس : وابتدأ بناءه سنة 657 هـ - (1258م) . وقد سافر إلى بغداد في آخر أيام حياته ومعه كثير من تلامذته وأصحابه . فأقام بها عدة أشهر. ثم توفي بها سنة 672 هـ - (1273م). ودفن في مشهد موسى الكاظم .

وهكذا .. لم يمت نصير الدين إلا بعد أن جدد ما بلي في دولة التتر من العلوم الإسلامية ، وأحيا ما مات من آمال المسلمين بها ، وفتح الباب بعده لمن عمل على إدخال الإسلام في قلوب هؤلاء التتر ، ليكون لهم فتح ما فتحوا من بلاده ، ويكون

له فتح ما فتح من قلوبهم ، ومن يجدد للإسلام كرامته إلى ذلك الحد بعد أن ذهبت في هذا القرن .. ولهذا كان أولى من غيره بأن يكون هو المجدد فيه . لأن الانتصار على التتر لم يكن في الحقيقة يردهم عن الشام في موقعة عين جالوت .وإنما كان يفتح قلوبهم إلى الإسلام وهدايتهم له ، فبهذا غلب الإسلام عليهم بعد أن غلبوه ، وأخضعهم لسلطانه الديني بعد أن أخضعوه لسلطانهم الدنيوي . وسلطان الدين أعلى شأنا وأعظم قدرا .

وقبل أن نختم الحديث عن هذا المجدد ، تجدر الإشارة إلى أمرين لمؤرخيه ، **أولهما** : يدور حول المنهج الذي اتبعه ، **والثاني** : يدور حول تجديده في الفكر الإسلامي .. وقد جرى نصير الدين على طريقة الفخر الرازي في الجمع بين الفلسفة وعلم الكلام . وألف في هذا كتابا موجزا سماه : (تجريد العقائد) ورتبه على ستة مقاصد : **الأول** في الأمور العامة ، **والثاني** في الجواهر والأعراض ، **والثالث** في إثبات الصانع وصفاته ، و**الرابع** في النبوة ، **والخامس** في الإمامة ، **والسادس** في المعاد . وهو كتاب موجز عليه شروح وحواش كثيرة لمن أتى بعد من العلماء ؛ ولكن نصير الدين كان أخلص للفلسفة من الفخر الرازي ، لأنه كان من الشيعة المتأثرين بمذهب المعتزلة ، والفخر الرازي كان من الأشعرية الذين ورثوا مذهب أهل السنة؛ ومذهب أهل السنة يتحرز من الفلسفة ، ولا يلين لها كما يلين مذهب المعتزلة ، ولهذا لم ترض طريقة نصير الدين من أتى بعده من أهل السنة ، ورضوا بطريقة الفخر الرازي ، لأنها تبحث مسائل الفلسفة في علم الكلام لإبطالها والرد عليها ، وإن كان بعضهم لم يرض عن هذا أيضا ، ورأى تحريم الاشتغال بالفلسفة مطلقا .

وعن تجديده في الإسلام ، فإنه رغم إسهاماته في هذا المجال ، إلا أنه لم يصل إلى المطلوب من المجدد في هذا القرن ، لأن غاية ما وصل إليه المحافظة على تراث المسلمين القديم في العلم والفلسفة ، فلم يحاول في الفلسفة ما حاوله فلاسفة أوروبا في هذا القرن ، مما كان مبدأ تحول خطير في الفلسفة والعلم ، وكان سببا في اتجاههما

إلى غاية جديدة سيكون لها أثر كبير في العالم ، وقد يعذر نصير الدين في تقصيره عن الوصول إلى ذلك ؛ لأنه نهض به ، وعوامل اليأس تحيط به من كل جانب ، ويكفيه أنه قام بذلك في دولة معادية للإسلام والمسلمين ، وهذا إلى أنه كان بعيدا عن مركز ذلك الاتجاه في العلم والفلسفة ، ولم يكن شأنه في هذا كشأن المسلمين الذين بقي لهم ملكهم في مصر والشام والمغرب والأندلس ، وكانوا يجاورون أوروبا التي وقع فيها ذلك الاتجاه الجديد في العلم والفلسفة ، وكان عليهم أن يتنبهوا إليه ويدركوا ما يصيب المسلمين بالتقصير فيه ، ولو فعلوا هذا لساروا بالمسلمين في ركب الحضارة الحديثة ، وجمعوا إلى مجدهم القديم مجدا حديثا .

* * *

السيد أحمد البدوي

هذا الرجل الصالح الذي يعتبر من مجددي القرن السابع الهجري ، جاء إلى مصر فرارا من عسف واستبداد دولة المرابطين للمغرب .. جاء من هذا القطر الشقيق ليستقر في مدينة طنطا بدلتا مصر .

أقبل على هذه المدينة المتواضعة - وقتئذ - من دلتا مصر نشوان مغتبطا .

صحيح .. أن طول السفر ومشقته ، وفيح الصحراء وتراميها ، قد أصابته بالضنى والألم .. بيد أن الغاية النبيلة التي كان يسعى إليها أنسته آلامه وجراحه ، وأفاضت على روحه بالبشر والسرور ، فدخل على هذه المدينة كأنه عابر سبيل طالت به مدة السفر والترحال من مدينة إلى أخرى ، ومن قطر إلى آخر ، فآوى إليها ليستريح ويتزود ، فربما يواصل السفر . ولكنه أبى واستقر ، والتف حوله الأتباع والمريدون من كل صوب وحدب ، ليكونوا فيما بعد طريقة صوفية لا تزال باقية حتى اليوم ، على الرغم مما مضى عليها من السنين والقرون .

هذا الرجل هو : «السيد أحمد البدوي» ، وأما المدينة : فهي طنطا ، عاصمة الغربية بمصر .. ويبقى السؤال : ما الذي جعل ابن المغرب في الشمال الإفريقي يجوب الصحارى والبلاد ، وينتقل من المغرب إلى المشرق ، مرورا بالمدن والأقطار المتعددة ليستقر في هذه المدينة الوادعة ، ويلتف حوله كل الأتباع والمريدين ، وتبقى تعاليمه وكلماته منقوشة داخل الصدور ، حتى وإن مات ودفن في هذه المدينة التي سرعان ما نسبت إليه .. حتى لا يكاد يذكر اسمها إلا ويقفز إلى الذهن ساكنها السيد أحمد البدوي وطريقته الأحمدية ؟

للإجابة عن هذا السؤال وغيره ... نقول :

تتفق روايات وكتابات المؤرخين حول حقيقة ، هي : أن هـذا الرجـل الـصالح من أصل عربي خالص ، انحدر من أشرف وأكرم البيوت العربية ، حيث ينتهي نسبه إلى الإمام «علي بن أبي طالب» كرم الله وجهه ، وقد انتقل أجداده إلى (مدينـة فـاس) المغربية في عصر الدولة الأموية فرارا مـن اضـطهاد «الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي» للعلويين . وفي المغرب ، تزوج هذا الجد الـشريف بابنـة أخ للـسلطان ، فولـدت لـه عليا، الذي تزوج بدوره من امـرأة عاليـة النـسب ، فولـدت لـه سـتة مـن الأبنـاء ، أصغرهم : أحمد .. الذي لقب فيما بعد بالبدوي ، وعرف بصاحب الطريقـة البدويـة أو الأحمدية الشهيرة على مستوى الوطن العربي .

وإذا كان اسمه أحمد بن علي حتى ينتهي نسبه إلى «علي الهادي بن محمـد الجـواد ابن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمـد البـاقر بـن عـلي زيـن العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب» رضوان الله عليهم .. فإن اسـمه يتـضمن تسعة أئمة من الأئمة الاثني عشر المعروفين في المذهب الشيعي ، وأن نسبه ينتهـي إلى الإمام الحسين وليس الإمـام الحـسن رضي الله عـنهما . وهـذا عـلى خـلاف مـا هـو معروف من أن صوفية المغرب الذين هم مـن أصـل مغـربي ينتهـي نـسبهم دائـما إلى الحسن كما يقر الدكتور «عامر النجار» في كتابه عـن : (الطـرق الـصوفية في مـصر) ، وكما يقرر الدكتور «علي صافي» في كتابه : (الأدب الصوفي في مصر في القـرن الـسابع الهجري) . بقوله : «وأما صوفية المشرق في العـراق ومـصر والـشام وفـارس وبـلاد خراسان ، فإنهم عودونا الانتساب إلى الإمام الحسين . والسبب في انتساب المـشارقة إلى الإمام الحسين ، والمغاربة إلى الإمام الحـسن راجـع فـيما أعتقـد إلى : أن المـشارقة كانوا كالشيعة في محاولة الوصول إلى الحكم والاستئثار بالسلطة . أما الـذين انتـسبوا إلى الإمام الحسن فكانوا يدعون إلى الخلافة الباطنية غير حافلين بشيء في خلافة أهل

الظاهر ، حيث زعموا : أن الله – سبحانه وتعالى – عقد للحسن الخلافة الباطنية بعد أن تنازل لمعاوية بن أبي سفيان عن الخلافة الظاهرية » .

معنى هذا : أن الذين ينتسبون إلى الإمام الحسين يدعون إلى الخلافة الظاهرية ، في حين أن الذين ينتسبون لأخيه الإمام الحسن وهم المغاربة – يدعون إلى الخلافة الباطنية .

ومعنى هذا أيضا : أن السيد أحمد البدوي إذا كان ولد ونشأ بالمغرب ، فإنه عاد إلى أصوله بالمشرق ، لأنه حسيني النسب ، وهو ما تؤكده لوحة حياته التي صيغت باتفاق جميع المؤرخين ؛ حيث هاجرت أسرة السيد أحمد البدوي – والده «علي» وجميع أشقائه – إلى مكة المكرمة . وقد استغرقت هذه الرحلة من فاس بالمغرب إلى مكة بالحجاز حوالي أربع سنوات ، وقد مروا بمصر في طريقهم ، وعاشوا فيها فترة تقدر بحوالي ثلاث سنوات .

وكما يسجل الدكتور «عامر النجار» في كتابه عن : (الطرق الصوفية بمصر) : «ويقال عن قصة انتقال أسرة السيد أحمد البدوي من فاس إلى مكة : أن أباه عليا جاءه الهاتف في المنام – أن يا علي ، ارحل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة ؛ فإن لنا شأنا – فرحل بأسرته ..» .

ولندع شقيق السيد أحمد البدوي– ويدعى: الشريف حسن– يروي ذلك قائلا: «فما زلنا ننزل على عرب ، ونرحل عن عرب ، فيتلقوننا بالترحيب والإكرام . حتى وصلنا إلى مكة المشرفة في أربع سنوات» .

ويواصل روايته إلى أن يقول : « فلما وصلنا إلى مكة ، وعلم الناس بقدومنا هرعوا إلينا ، وسلموا علينا ، واعتقدوا فينا الخير . وأتى إلينا سلطان مكة وأشرافها، فجاءوا إلينا ، وتعرفوا بنا . وسأل السلطان : أين الشريف أحمد الملثم ؟ اجمعوا بيني – أي السلطان– وبينه ، فإن جدي الرسول– ﷺ– وصفه لي، وأراني صفته في المنام،

وقال لي : يخرج من المغرب ، وهو ابن سبع سنين ، ويدخل مكة وهو ابن أحد عشر عاما . وأشار لي - أي : السلطان - أن أسير إليكم ، وأجتمع بكم ، وأسلم عليكم ، وعلى الشريف أحمد الملثم - أي : أحمد البدوي - وأتبرك به . وقال لي : إنه سيظهر له حال ، وأي حال ويربي المريدين ، يجيء منهم رجال ، وأي رجال . فقال له والدي : إن هذا الولد حديث السن ، ولا يقدر على هذا الحال ! فقال السلطان : أعد ، إن جدي رسول الله - ﷺ - أراني صفته ، ففي أنفه شامة سوداء من كل ناحية أصغر من العدسة ، وهو أقنى الأنف ، صبيح الوجه . فلما حضر أخي أحمد - أي : البدوي - ورآه السلطان عرفه بالصفات فقام إليه واعتنقه وأجلسه إلى جانبه » .

ولعل وصف «الإمام الشعراني» في كتابه (الطبقات الكبرى) يؤكد ما ذهبت إليه هذه الرواية على لسان شقيق السيد أحمد البدوي، حيث يصفه قائلا: «كان غليظ الساقين، طويل الذراعين ، كبير الوجه، أكحل العينين، طويل القامة ، قمحي اللون، وكان في وجهه ثلاث نقط من أثر جدري ، في خده الأيمن واحدة ، وفي الأيسر اثنتان.. أقنى الأنف ، على أنفه شامتان في كل ناحية شامة سوداء أصغر من العدسة، وكان بين عينيه جرح موسى ... » .

ومن هنا .. يتضح أن أسرة السيد أحمد البدوي قد سافرت- أولا - إلى الحجاز، وأما السبب المباشر لذلك فهو لاضطراب الأحوال في بلاد المغرب ؛ إثر قيام دولة المرابطين واضطهادهم لأتباع دولة الموحدين ، ومنهم : أسرة السيد أحمد البدوي، التي استقرت بالحجاز حيث توفي عائلها الشريف (علي بن إبراهيم) ، ودفن هناك . وكانت وفاة هذا العائل نقطة تحول في حياة الابن أحمد البدوي . فقد عكف على العبادة ، وامتنع عن الزواج ، واعتزل الناس ، وعاش في صمت لا يفصح عما يجول في خاطره ، وأصبح في حالة وجد ووله دائمين إلى أن سافر إلى العراق ، حيث رأى رؤيا تأمره بالرحيل إليها .

ولعل هذا هو السبب في رحيله إلى العراق ، أو لعله كما يذهب الدكتور «سعيد عبد الفتاح عاشور» حيث ينبه إلى هذه الرحلة في كتابه عن السيد أحمد البدوي قائلا: «يبدو أن السيد أحمد البدوي أدرك أن مكة - مع عظيم مكانتها - كانت أضيق من أن تتسع لطموحه وآماله - ففكر في الهجرة منها إلى بلد واسع الإمكانات البشرية والمادية » فكانت : مصر .

ومهما يكن السبب ، فالثابت تاريخيا أن السيد أحمد البدوي سافر إلى العراق ، وزار «أم عبدة» مركز الطريقة الرفاعية ، كما زار قبر السيد «عبد القادر الجيلاني» . وفي العراق تشبع بمبادئ كل من القطبين : الرفاعي والجيلاني ، ماضيا في سلوكه من الصمت والصوم ، والقيام ، وقراءة القرآن الكريم . حتى قرر الرحيل إلى طنطا بمصر ، في عهد «الملك الكامل محمد الأيوبي» .

ولم يكن تأثير السيد أحمد البدوي مقصورا على المدينة التي اختارها مقاما لحياته، ومدفنا له بعد مماته ، وهي طنطا ، وإنما امتد تأثيره ، فشمل القطر المصري وغيره من الأقطار الإسلامية ، وذلك عن طريق أتباعه ومريديه الذين انتشروا في شتى البقاع ، والذين عرفوا «بالسطوحية» ، حيث كان قطبهم السيد أحمد البدوي يجلس على سطحِ منزله أثناء لقائه بالمريدين والأتباع . واستمر على هذا النحو حتى توفي عام 675هـ ، ودفن في المكان الذي كان يتعبد فيه بطنطا ، وهو الذي أنشئ عليه المسجد الأحمدي فيما بعد .

* * *

مرزوق اليماني

من اليمن الشقيق ، جاء «مرزوق اليماني» ليستقر في واحد من أحياء القاهرة العريقة واسمه : حي الجمالية ، ويستفيد من علمه الكثيرون ، ويحتل في التاريخ الإسلامي مكانة مجدد في القرن السابع الهجري .

لكن .. لماذا قطع هذا الرجل الصالح هذه المسافات الطويلة حتى يصل إلى المكان الذي عاش فيه ومات ؟ الإجابة تقول : إن لوصول هذا الرجل الصالح إلى مصر سببا ربما لا نتوقعه من رجل من الصوفيين .

ولكى نعرف هذا السبب وغيره ، فلنتأمل سيرة حياة هذا القطب الذي ولد باليمن عام 604هـ .. وتوفي ودفن بمصر سنة 677هـ إنه كان حسينيا نسبا ، حيث ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين رضى الله عنه . شافعيا مذهبا ، حيث اتبع مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، أحمديا طريقة ، حيث سلك طريقة السيد أحمد البدوي .

وتذكر المصادر والمراجع: أن هذا القطب نشأ وترعرع في كنف والدين فقيرين، غير أنه لم يكد يشب عن الطوق ، ويبلغ الحادية عشرة من عمره : حتى صدم بوفاة والديه ، ليتركاه وحيدا في هذه الدنيا . وطبيعى أن تكون لهذه الحادثة أثرها على حياته . فهناك من يرى أنها كانت بمثابة نقطة التحول ؛ إذ لم يطب له العيش باليمن، ومن هنا .. ألحت عليه فكرة الهجرة إلى بلاد الإسلام الواسعة ، تلك التي تموج بالأحداث والمحن الناتجة عن هذه الهجمة الضارية من الصليبيين .

وكما تقرر هذه الكتابات : أن فكرة الجهاد في سبيل الله سيطرت عليه بشكل ملحوظ ، وفي مقدمة هذه الكتابات ما كتبه المقريزي في تأريخه له ، والدكتورة «سعاد

ماهر» في كتابها عن (مساجد مصر) وأوليائها الصالحين .. نعم، لقد كانت هذه الفكرة تراود قلوب الشباب وقتئذ، حيث وقر في النفوس أن الإسلام في خطر، وأن هناك من يريد القضاء عليه، ولذلك وجب الجهاد، فهو فريضة إسلامية.

وفي هذا .. تذكر الدكتورة سعاد ماهر في كتابها قائلة: «إننا لا نشك في أن الرؤيا التي أخذت تلح على «مرزوق اليماني»، وتكررت له ثلاث ليال متتالية، ولم يجد بدا من أن يقصها على جدته التي كانت تكفله بعد الموت المبكر لوالديه، وفحوى هذه الرؤيا، أن شيخا عربيا تدل عليه أمارات الهداية .. يأمره بالانتقال من اليمن إلى مصر ... ».

هذه الرؤيا كانت سببا آخر- بعد الرغبة في الجهاد عن دار الإسلام- ولذلك .. قرر السفر والهجرة بعيدا عن مسقط رأسه باليمن.

وعلى عادة غيره من الصالحين الذين هاجروا من بلدانهم إلى مصر، لم يتوجه إليها مباشرة، بل قصد مكة المكرمة أولا، حيث التقى بعلمائها وفقهائها، وانكب على ما وقع بين يديه من كتب ومراجع، يتزود منها ما شاء الله له أن يتزود من الثقافة والعلم، ولم يكتف بذلك، وإنما أنفق بعض الوقت في الارتحال من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، طلبا للمزيد من المعرفة على أيدي أهل العلم هناك.

وفي المدينة .. سمع الأخبار المؤلمة عن قرب اقتحام الفرنجة الصليبيين للمدينة المنورة، وهو ما أهاج المشاعر، حيث تدنس أقدام هؤلاء الفرنجة أرض مدينة الرسول وهو ما لا يرضاه أي مسلم على الأرض، ففيه اعتداء على المقدسات الإسلامية، وأي اعتداء!

والحق .. أن «صلاح الدين الأيوبي» قد واجه هذا الأمر الجلل بكل حسم وعزم، وهو ما لا ينساه له التاريخ. وإذا عدنا إلى مرزوق اليماني، فإننا نراه كمسلم لم يرض لنفسه أن يظل هكذا غير إيجابي تجاه الأحداث، وهو ما لا يرضاه له دينه،

ولهذا .. أعد نفسه للسفر إلى مصر ؛ لينضم إلى فلول المجاهدين في سبيل الله ضد هذه الهجمات ، كغيره من المتطوعين المسلمين الذين تدافعوا إلى مصر والشام طلبا للتضحية والفداء .

ووصل إلى مصر ، وأصبح له فيها شأن عظيم ، فها هو ذا «الأمير الكامل» ابن شقيق صلاح الدين الأيوبي ، يثق في علمه ويجعله مشرفا على المدرسة الكاملية بالجمالية بالقاهرة ، وهي تعد ثاني مدرسة بعد دمشق التي أسست من قبل لتفسير الحديث الشريف .

وعلى عادة غيره من المتصوفة ، اتخذ مرزوق اليماني خلوة في حي الجمالية ، قريبة من المدرسة الكاملية ، خاصة بعد لقائه بالقطب : أحمد البدوي في القاهرة ، وروايته له الرؤيا التي كان قد رآها باليمن ، والتي كانت سببا في التفكير في السفر . ولم يكد ينتهي من قصته ، حتى قام السيد أحمد البدوي من فوره ، وألبسه العمامة الحمراء ، وأعطاه العهد الوثيق يدا بيد ، فكان ذلك نقطة تحول جديدة في حياة اليماني ، حيث أصبح الخليفة الأول للقطب أحمد البدوي .

لقد كان في لقاء هذين القطبين الكبيرين : أحمد البدوي ، ومرزوق اليماني نفع كبير تحقق على أيديهما للإسلام والمسلمين .

والجدير بالذكر .. أن مرزوقا اليماني تولى قيادة المحمل الذي تتبرع به مصر للسعودية منذ أن وطئت أقدامه أرض مصر حتى وفاته . وذلك بعد حادثة تناقلها الرواة ، مؤداها : أن هذا الجمل أسرع الخطى إليه عندما رآه ، وقد بقي هذا التقليد في ذريته من بعده جيلا بعد جيل ، حتى توقف المحمل .

* * *

القبــاري

الرجل الصالح : «أبو القاسم محمد بـن منـصور بـن يحيـى» الـشهير بالقبـاري السكندري من مجددي القرن السابع الهجري . هذا الرجل كانت له مواقف عظيمة ، قدره أهل زمانه كما احترمها أهل الحكم .. لكن قبل الدخول في تفاصـيل ذلـك ممـا يتصل بحياته تجدر الإشارة إلى خطر انتشار التصوف في القرن الـسابع الـذي عـاش فيه هذا الصوفي حيث ولد عام 587هـ ، ولكي نعرف انتشار هـذا الخطـر لابـد مـن التعرف على الحالة السياسية والعلمية في هذا القرن .

فالحالة السياسية ، يمكن إجمالها في هذا القرن بأنهـا كانـت ضـعيفة إلى حـد كبـير ، بسبب اشتغال الدول الإسلامية بحروبهـا الداخليـة ، الأمـر الـذي جعلهـا غافلـة عـن الأخطار الخارجية التي تهددها من الشرق والغرب على حد سواء، فتسقط بهذه الحروب الداخلية دولة ، وتقوم دولة ، بعد أن يفنى فيها عدد من الدولتين ، ويتبع هـذا مـا يتبعـه من ضعف عام للدولة الإسلامية من الناحية السياسية كما بينا في مقدمة هذا القرن .

وكذلك كانت حالة المسلمين العلمية . فقد اكتفوا بما وصلوا إليه من علومهم ، ولم يهتموا إلا باختصار الكتب المبسوطة التي وضـعها أسـلافهم الأقـدمون . وكـان هذا لا يحصل إلا نادرا فيما قبل هذا القرن . وممن عني بهذا «ابـن الحاجـب» ، الـذي كانت له مختصرات في أصول الفقه والنحو ... وغيرهما . وقد قصد هو وغـيره بهـذا أن يـسهلوا عـلى طـلاب العلـوم الإحاطـة بهـا ، فلـم يكـن همهـم فيهـا إلا سرعـة الاستحضار ، وكـان هـذا تمهيـدا لمـا سيؤول إليـه أمـرهم في العنايـة بـشرح هـذه

المختصرات ، وفقدان ملكة الابتكار في العلوم ، وتأخرهم فيها عن غيرهم . مع أنه كان من المفترض أن يكونوا متقدمين .

يضاعف من انحدار الحالة العلمية بوجه عام في هذا القرن : زيادة العداء للفلسفة ، حتى إنه كان لا يشتغل بها في هذا القرن إلا نفر منهم في حذر وخفية ، لما كان من قوة نفوذ رجال الدين ، خاصة المتصوفة الذين حرم البعض منهم قراءة المنطق والفلسفة . ومن عجيب الأمور .. أن الملوك كانوا يطيعونهم في ذلك . وربما يكون ذلك لسببين : أولهما ظاهري ، وهو العمل على إرضاء رجال الدين . وثانيهما خفي ، وهو الخوف من إعمال العقل الذي يتطلبه الاشتغال بالفلسفة والمنطق والذي لن تكون نتيجته في صالح هؤلاء الملوك .

وطبيعي .. أن يزيد ضعف الحالة العلمية من نفوذ المتصوفة حتى يزيد خضوع العلماء لهم . وكان لظهور أقطاب التصوف - ومنهم السيد أحمد البدوي ، والسيد إبراهيم الدسوقي وغيرهما - أثر كبير على زيادة نفوذ المتصوفة وما يدعون إليه .

ونتيجة لذلك : أن علا شأن أقطاب التصوف على شأن الملوك والعلماء ، حتى أذعن المسلمون لدولة التصوف الباطنية ، أكثر مما أذعنوا لدولهم الظاهرة ؛ لأن دولة الباطنية في نظرهم هي التي تصرف أمور الكون في الحقيقة ، وليس لملوك الدنيا إلا تصرف ظاهر في دولهم . وقد بلغ من هوان أولئك الملوك بإزاء رجال الدولة الباطنية ممن لم يصلوا إلى درجة الأقطاب المعترف بهم وبعلمهم أن يخاطبوهم بما لا يليق ، مما ذكره «المقريزي» في خططه دليلا على أن هؤلاء المتصوفة الصغار كانوا يستخفون عمدا برجالات الدولة من ملوك وأمراء وعمال .

في هذا القرن .. ولد أبو القاسم القباري بالإسكندرية ، ونشأ وترعرع ومات ودفن بها. وكان كغيره من المتصوفة مرهوب الجانب، حتى وإن كان ليس على شاكلة

هؤلاء الذين يستغلون التصوف لمصالحهم الخاصة ؛ حيث كان يختلف عنهم في أنه من الزاهدين في كل شيء ، فلم يكن له بالإسكندرية ولد ولا صاحب ، إذ لم يتزوج طيلة حياته ، ولم ينغمس في نعيم الحياة ومباهجها ، وإنما كان عاكفا عازفا عن كل ذلك . وكما يقول أحد مؤرخيه القدامى ، واسمه «محمد زيتون» : « لم نعرف من أسرته غير والده «منصور» ، وجده «يحيى» ، وأخيه الذي مات بالإسكندرية فورثه الشيخ القباري » .

ويذكر الشيخ الحافظ «صدر الدين السلفي الأصفهاني» في معجمه أن : معنى كلمة القباري هو نسبة إلى ثمرة القبار التي كان الشيخ يفضل أكلها فيقول : « لقد بقي القباري ثلاثة وستين عاما لم يأكل من اللحوم إلا ما يصطاده من البر أو البحر ، ولم يشرب لبنا أو يأكل جبنا .. زهدا وورعا واكتفى بأكل القبار المباح » .

ويصف «ابن العماد» الشيخ القباري في كتابه : (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) بالورع والتقوى ، فيقول عنه : «كان صالحا قانتا منقطع النظير في الورع..» .

وفي هذا المعنى يقول أيضا «المناوي» في كتابه : (الكواكب الدرية) عن الشيخ القباري : « إنه كان زاهدا ، أخلص في العمل ، واجتهد في قطع الأمل ، ومال إلى العزلة ، واستعد للرحلة .. كان كثير الخشوع والخضوع، مشهور الذكر بين الصوفية. يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .. » .

وإذا كانت هذه بعض جوانب حياة هذا الشيخ الصوفي ، فإن سلوكه مع ملوك وحكام زمانه كان من الأمور التي تشد الانتباه ، حيث تحدثنا في ذلك المصادر التاريخية – وفي مقدمتها ما كتبه مؤرخه «محمد زيتون» ، أو ما رواه «ابن المنير» – من: أن الملك نجم الدين أيوب كان يسعى دائما لرضا هذا الشيخ الصوفي ، وأن «الظاهر بيبرس» كان يحرص على زيارته والاستماع إلى وجهات نظره في تسيير أمور

دولته ، وأن السلطان «قايتباي» قام بتكريمه بعد وفاته التي كانت عام 650هـ تقديرا لعلمه وفضله .

ولعل انتساب حي بأكمله في الإسكندرية وهو : حي القباري إليه ، لخير دليل على مكانة هذا الشيخ الجليل . وفي هذا الحي مسجد كبير يحمل اسمه ويتوسطه ضريح يضم رفاته . ويحرص المؤرخون على الإشارة إليه تأكيدا على تخليد ذكرى هذا الرجل الصالح .



القـزويني

من مجددي القرن السابع الهجري : القاضى القزوينى ، الذي يعرفه تاريخ العلم في الإسلام «بأبي عبد الله زكريا بن محمد بن محمود» ، حيث يـصعد نـسبه إلى الإمـام مالك. ولد في قزوين (بين مدينتى رشت وطهران) سنة 605 هـ – 1208 م، ورحـل في شبابه إلى دمشق ، وتعرف إلى «ابن العربي» ، ثـم اسـتقر في العـراق ، فـولي قـضاء واسط والحلة في خلافة المستعصم العباسى . وكان في ذلك المنصب عنـدما سـقطت بغداد في قبضة المغول . وتوفي في السابع من المحرم سنة 682 هـ – 1283 م .

وكان – إلى اشتغاله بالقضاء – معنيـا بالتـأليف في الجغرافيـا والتـاريخ ، وقـد عرف من كتبه فيهما :

الكتاب الأول : عجائب المخلوقات : تكلم فيه عن السماء وما فيها – وهو علم الفلك – فوصف الكواكب والأبراج وحركاتها ، وما يترب عـلى ذلـك مـن فـصول السنة والشهور والأيام . وتكلم عن الأرض وما عليهـا – وهـو مـن قبيـل التـاريخ الطبيعى أو الجغرافيا الطبيعية – فذكر أصل الأرض وطبيعتها ، وكرة الهواء وأصول الرياح وأنواعها . وكرة الماء وما فيها من البحار والجـزر والحيوانـات العجيبـة ، ثـم كرة الأرض – أي اليابس– وما عليها من جماد ونبـات وحيـوان ، ورتـب كـلا مـن الحيوانات والنبات على حروف المعجم .

الكتاب الثاني : آثار البلاد وأخبار العبـاد : في التـاريخ ، ابتـدأه بعـد الديباجـة بثلاث مقدمات :

الأولى في الحاجة الماسة إلى أحداث المدن والقرى . والثانية في خـواص الـبلاد ، وقسمها إلى فصلين :

الأول : في تأثير البلاد في السكان .

الثاني : في تأثير البلاد في النبات والحيوان .

ثم أفاض بعد ذلك في أخبار الأمم الماضية وتراجم كثير من الأولياء والعلماء والسلاطين والشعراء والوزراء والكتاب ... وغيرهم .

الكتاب الثالث : خطط مصر .

الكتاب الرابع : الإرشاد في أخبار قزوين .

شغف بالفلك والطبيعة ، والنبات ، والحيوان ، والجيولوجيا بنوع خاص . ويعتبر كتابه : (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) من أنفس مؤلفاته. كان يوصي بإدامة النظر في عجائب صنع الله ، ولا مراء في أنه كان مستغرقا بالنظر في آيات الله البينات في مصنوعاته ، وغرائب إبداعه في مبتدعاته .مسترشدا بقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴾[1] يقول: «وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحوها ، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه . ومن لم ير من السماء إلا زرقتها ومن الأرض إلا غبرتها ، فهو مشارك للبهائم في ذلك وأدنى حالا منها ، وأشد غفلة ، كما قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ** ﴾[2] إلى أن قال : ﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ** ﴾[3] » يقول : « والمراد من النظر : التفكر في المعقولات ، والنظر في المحسوسات ، والبحث عن حكمتها وتصاريفها ، لتظهر له حقائقها ، فإنها سبب اللذات الدنيوية ، والسعادات الأخروية. ومن أمعن النظر فيها ازداد من الله تعالى : هداية ويقينا، ونورا وتحقيقا. والفكر في المعقولات لا يتأتى إلا لمن له خبرة بالعلوم والرياضيات ، بعد تحسين

(١) ق : ٦ .

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) الأعراف : ١٧٩ .

الأخلاق وتهذيب النفس ، فعند ذلك تتفتح له عين البصيرة . ويرى في كل شيء من العجب ما يعجز عن إدراك بعضها بعضا » .

يقول أبو عبد الله : « لقد حصل لي بطريق السمع والبصر والفكر والنظر حكم عجيبة وخواص غريبة ، فأحببت أن أقيدها لتثبت ، وكرهت الذهول عنها مخافة أن تفلت» . وإنه ليوصى قارئ كتابه بادئ ذي بدء ، بأنه إذا أراد أن يكون على ثقة مما في كتابه ، فليشمر للتجربة ، وإياك أن تفتر أو تمل إذا لم تصب في مرة أو مرتين ، فإن ذلك قد يكون لفقد شرط أو حدوث مانع . فإذا رأيت مغناطيسا لا يجذب الحديد ، فلا تنكر خاصيته ، واصرف عنايتك إلى البحث عن أحواله ، حتى يتضح لك أمره.

ولاشك أن القارئ لكتاب القزويني (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) إنما يتملكه الإكبار والإعجاب بدقة الملاحظة ، والبراعة في العرض ، والسلامة في الاستنتاج والاستقراء ؛ مما يؤيد رأي «روزنتال» في علماء المسلمين ، من أن أعظم نشاط فكري قام به العرب يبدو في حقل المعرفة التجريبية ضمن دائرة ملاحظاتهم واختباراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا عجيبين ، حين يلاحظون ويمحصون وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة ، أو أخذوه من الرواية ، وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة ، وبصفتهم مفكرين مبدعين ، فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة في كثير من العلوم والرياضيات والفلك .

وبدأنا نقرأ ما كتبه العالم الجليل الدكتور «عبد الحليم منتصر» عن «القزويني» ، حيث قدم القزويني لكتابه بمقدمات أربع ، تعتبر دستورا رائعا لكل مشتغل بالعلم عامة وبالعلوم الطبيعية بصفة خاصة ، فضلا عن الإشارة الجامعة فيها إلى موضوعات الكتاب . قال في **المقدمة الأولى** : «لننظر إلى الكواكب وكثرتها ، واختلاف ألوانها ، فإن بعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها يميل إلى البياض ، وبعضها إلى لون الرصاص ، ثم إلى سير الشمس وفلكها مدة سنة ، وطلوعها

وغروبها كل يوم ، لاختلاف الليل والنهار ، ومعرفة الأوقات ، وتمييز وقت المعـاش عن وقت الاستراحة ، ثم إلى جرم القمر ، وكيفية اكتسابه النور من الشمس ، لينوب عنها في الليل ، ثم إلى امتلائه وانمحاقه ، ثم إلى كسوف الشمس وخسوف القمـر ، ثم إلى ما بين السماء والأرض من الشهب والغيـوم والرعـود والـصواعق والأمطـار والثلوج والرياح المختلفة المهاب . ولنتأمل السحاب الكثيف المظلم ، كيـف اجتمـع في جو صاف ، لا كدورة فيه ، وكيف حمل الماء وكيف تتلاعـب بـه الريـاح وتـسوقه وترسله قطرات متلاحقة ، لا تدرك قطرة منها قطرة ، ليصيب وجه الأرض برفـق ، فلو صب صبا لفسد الزرع ، ثم إلى اختلاف الرياح ، فإن منها ما يـسوق الـسحب ، ومنها ما ينشرها ، ومنها ما يجمعها ، ومنها ما يعصرها ، ومنها ما يقتلـع الأشـجار ، ومنها ما يروي الزرع والثمار ، ومنها ما يجففها . ثم لننظر إلى أنـواع المعـادن المودعـة تحت الجبال، منها ما ينطبع كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص.. ومنها مالا ينطبع كالفيروز والياقوت والزبرجد ، وكيفيـة اسـتخراجها وتنقيتهـا ، واتخـاذ الحـلي والآلات والأدوات منهـا ، ثـم إلى معـادن الأرض، كـالنفط والقـير والكبريـت ، وأنـواع النبـات وأصـناف الفواكـه . ثـم لننظـر إلى أصـناف الحيـوان وانقسامها إلى ما يطير ويقوم ويمشى ، وانقسام الماشى إلى ما يمـشى عـلى بطنـه، ومـا يمشى على رجليه ، وما يمشى على أربع ، وإلى أشكالها وألوانها وصـورها وأخلاقهـا وأفعالها كالنمل والعنكبوت والنحل ، وكيف تبني بيوتها ، وتجمع غذاءها وادخارها القوت لوقت الشتاء ، وحذقها في هندستها » . يقول «القزوينـي» : «إن مـن يـشاهد خلية النحل لتزداد حيرته عندما يعلم أنه من عمـل النحـل ، ومـن حيـث إن ذلـك الحيوان الضعيف قد صنع هذه المسدسات المتساوية الأضلاع ، التي عجز عن مثلهـا المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة ، ومن أين لها هذا الشمع الـذي اتخـذت منـه بيوتها المتساوية ، والتي لا تخالف بعضها بعضا كأنها أفرغت في قالب واحـد ، ومـن أين لها هذا العسل الذي أودعته فيها ذخيرة للشتاء ، وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها ،

وأنها تفقد فيه الغذاء ، وكيف اهتدت إلى تغذية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه ، فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه أي شيء».

وجعل القزويني يتابع الدعوة إلى النظر في الأرض ، وكيف كانت قرارا ومكانا لصنوف المعادن والنبات والحيوان ، وإحكام أطرافها بالجبال الشامخات ، تمنعها أن تميد ، وإلى إبداع أوشال المياه ليخرج منها قليلا قليلا فتنفجر منها العيون ، وتجري منها الأنهار ، وإلى خلق اللؤلؤ في صدفة تحت الماء ، وإلى إنبات المرجان في صميم الصخر تحت الماء .

ويتحدث القزويني في **المقدمة الثانية** عن تقسيم المخلوقات، فيقول : «المخلوق، كل ما هو غير الله سبحانه وتعالى ، وهو إما أن يكون قائما بالذات أو قائما بالغير. والقائم بالذات ، إما أن يكون متحيزا أي : يشغل حيزا ، أو لم يكن ، فإن كان متحيزا فهو الجسم ، وإن لم يكن فهو الجوهر الروحاني . ثم يتكلم عن الإدراك للكليات والإدراك للجزئيات ، وعن الأعراض المحسوسة بالحواس الخمس ، فالمحسوسات بالقوة الباصرة كالأضواء والألوان ، وبالقوة السامعة كالأصوات والحروف ، وبالقوة اللامسة (كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والثقل والخفة والصلابة واللين والخشونة والملامسة ، وبالقوة الشامة للطيب والنتن)» .

وفسر القزويني في **مقدمته الثالثة** لكتابه ما يقصده بالغريب، فقال: « هو كل أمر عجيب ، قليل الوقوع ، مخالف لمألوف العادات ، ومعهود المشاهدات كمعجزات الأنبياء ، كانشقاق القمر ، وانفلاق البحر ، وانقلاب العصا ثعبانا ، وكون النار بردا وسلاما، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ومنها الإصابة بالعين، فإن العائن إذا تعجب من شيء كان تعجبه مهلكا للمتعجب منه بخاصية لنفسه لا يوقف عليها. ومنها اختصاص بعض النفوس من الفطرة بأمر غريب، لا يوجد مثله لغيرها، كما ذكر أن في الهند قوما إذا اهتموا بشيء اعتزلوا عن الناس ، وصرفوا همتهم إلى

ذلك الشيء، فيقع على وفق اهتمامهم. ومنها أمور سماوية كانقضاض شهب يستضيء الجو منها ، وسقوط جسم ثقيل من الجو أو سقوط ثلج أو برد في غير أوانه ، ومنها صيرورة اليبس بحرا وصيرروة البحر يبسا، أو وقوع خسف تناحيه من الأرض وخروج ماء أسود منها ، ومنها الزلزلة أو ظهور نبت بأرض لا عهد للناس بوجوده هناك ، ومنها تولد حيوان غريب الشكل لم ير مثله».

وتحدث القزويني في **المقدمة الرابعة** عن تقسيم الموجودات ، فقال : «إن كل موجود سوى الواحد سبحانه مخلوق ، وإن إحصاء الموجودات غير ممكن ، ولكنها منقسمة إلى ما لا نعرف أصلها ، ولا يمكننا النظر فيها ، وإلى ما نعرف جملتها ولا نعرف تفصيلاتها ، ولا يمكننا النظر فيها ، وإلى ما نعرف جملتها ولا نعرف تفصيلها ، وهي منقسمة إلى ما لا يدرك بالبصر ، كالعرش ، والكرسي ، والملائكة، والجن ، والشياطين ... وغيرها فمحال النظر فيها . وأما المدركات بالبصر ، كالسماوات والأرض ، وما بينهما مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها ودورانها ، والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها وبحارها وأنهارها ومعادنها ونباتها وحيوانها . وما بين السماء والأرض وهواء الجو ، مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعودها وبروقها وصواعقها وشهبها وعواصف أرياحها». يقول : «فهذه أجناس المشاهدات، وكل جنس ينقسم إلى أنواع ، وكل نوع إلى أصناف .. وهكذا ».

وقد قسم القزويني كتابه إلى مقالات ، كل مقالة تشمل عدة فصول . وقسم الكون إلى : علوي وسفلي ، وقد عني بالعلوي : ما يتعلق بالسماء من كواكب وبروج ومدارات ومجرات والشمس والقمر . وتحدث عن كواكب الزهرة والمريخ والمشتري وعطارد، وزحل، وعن كسوف الشمس وخسوف القمر. قال عن القمر : «إن جرمه كثيف مظلم ، قابل للضياء إلا القليل منه ، على ما يرى في ظاهره ، فالوجه الذي يواجه الشمس مضيء أبدا » . وقال في خسوف القمر : «إن سببه توسط الأرض بينه وبين الشمس، فيقع في ظل الأرض، ويبقى على سواده الأصلي فيرى منخسفا، وعلى

الخسوف الكلي والخسوف الجزئي للقمر». وربط القزويني بين حركتي المد والجزر وبين تحركات القمر، قال: «إذا صار في أفق من آفاق البحر، أخذ ماؤه في المد مقبلا مع القمر، ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط السماء ذلك الموضع، فإذا صار هناك بلغ المد منتهاه، فإذا انحط القمر من وسط سمائه جزر الماء، ولا يزال كذلك راجعا إلى أن يبلغ القمر مغربه، فعند ذلك يبلغ الجزر منتهاه، فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع، ابتدأ المد مرة ثانية. وهكذا.. فيكون كل يوم وليلة بمقدار مسير القمر فيها، في ذلك البحر مدان وجزران». كما ربط بين زيادة القمر ونقصانه، وبين كثير من الظواهر والمظاهر عند الإنسان والحيوان والأسماك والحشرات والأشجار والفواكه والرياحين، ويقول: «إن هذا الأمر ظاهر عند أهل الطب، وإن ذلك معروف عند أهل الطب، وإن ذلك معروف عند أهل الفلاحة».

وهكذا.. يعدد قدرة الخالق عز وجل فيما خلق... وهي ملاحظات استبق بها القزويني علماء التجريب المحدثين في أوروبا، ولهذا ولغيره من أفكاره.. يعتبر من المجددين.

❊ ❊ ❊

المرسـي أبو العـباس

من مدينة مرسيه بالأندلس العربية في الزمن القديم (إسبانيا) في الزمن الحديث، يفد هذا الرجل الصالح ليستقر بالإسكندرية ، ويكـون واحـدا مـن مجـددي القـرن السابع للهجرة ، كما سنرى من تاريخ ميلاده ووفاته .

وقد كانت أصول طريقته مستمدة من تعـاليم أسـتاذه «أبي الحـسن الـشاذلي» . وهي: تقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، واتبـاع الـسنة في الأقـوال والأفعـال ، والإعراض عن الخلق في الإدبار والإقبال ، والرضا بما قسم الله في القليـل والكثـير، والرجوع إلى الله في السراء والضراء .

وكان كأستاذه «أبي الحـسن الـشاذلي» يـدعو أتباعـه إلى الـسعي للـرزق ، وإلى العمل ، وكان يكره من المريد لطريقته التعطل وسؤال الناس . وكثيرا ما حث أتباعه على الأخذ بأسباب العمل - أيا كان العمل - بشرط أن يكون شريفا .

وكان هو بالنسبة لأستاذه «أبي الحسن الشاذلي» كالشيخ الإمام «محمد عبده» إلى السيد «جمال الدين الأفغاني» .. فقد كـان أبـو العبـاس المـرسي تلميـذا لأبي الحـسن الشاذلي وصفيه ، وصديقه ، بل أكثر من ذلك صهرا لـه ، حيـث تـزوج ابنـة أسـتاذه الشاذلي رضي الله عنهم جميعا .

ذلك هو القطب الصالح أبو العباس المرسى ، الذي أوصى أستاذه أبـو الحـسن الشاذلي أتباعه به قبل أن يموت - لما رأى منه من تقـوى وصـلاح وحـب للخـير - قائلا : « عند مماتي عليكم بأبي العباس المرسي ، فإنه الخليفة من بعدي» .

وأبو العباس المرسى من أسرة عربية ضاربة الجذور في العروبة ، على الرغم من أنه ولد عام 616هـ بمدينة مرسية إحدى مدن «بلنسية» بالأندلس «إسبانيا الآن» حيث ينتهى نسبه إلى الصحابي الجليل «سعد بن عبادة» كبير الأنصار وسيد الخزرج من ناحية ، وقيس بن سعد الذي عين واليا على مصر من قبل أمير المؤمنين على ابن أبي طالب رضى الله عنه .. ولأنه ولد ونشأ في «مرسيه» بالأندلس فقد غلبت عليه تسميته بأبي العباس المرسى، فعرف في كثير من الكتابات باسم «شهاب الدين أبي العباس أحمد بن على الخزرجى الأنصاري المرسى البلنسى » . غير أن هذا الاسم يختصر إلى: «أبي العباس المرسى» ، وهو ما اشتهر به بعد ذلك، حيث انتقل من مسقط رأسه «مرسية» بالأندلس إلى غيرها من البلاد ، وآخرها مصر ، حيث كانت وفاته بها عام 685هـ بعد حياة امتدت إلى تسعة وستين عاما .

أما كيف انتقل من بلدة «مرسية» إلى مصر والإسكندرية ليدفن فيها ، وليكون له أتباع ومريدون ، فإن لذلك قصة – يمكن تبين بعض خيوطها من المادة المفيدة عن هذه الشخصية الصوفية التي كتبها الأستاذ «جمال الدين الشيال» .

تبدأ خيوط هذه القصة حيث كان أبوه «عمر بن على» يعمل تاجرا ، وتبعا لتقاليد التجار وقتئذ كان هذا الأب يريد أن يعد أولاده لاحتراف التجارة من بعده ، حفاظا على أمواله واسمه بين التجار . ولما استكمل أبو العباس المرسى تعليمه ألحقه أبوه بأخيه ، وأصبح الأب يعتمد على ولديه في إدارة تجارته والإشراف على شئونها.

وطبيعى.. أن يكتسب هذا الفتى– الذي أصبح شابا– تجارب من دنيا التجارة ، حيث تفرض على العاملين بها أن يتصلوا بمختلف البيئات والطبقات ، مما يتيح للتاجر فرصة التعرف عن قرب بأخلاق الناس وطباعهم .

ويستمر على هذه الحالة مثابرا على عمله في التجارة ، وفي الوقت نفسه مطلعا على ما يتيسر له من علوم عصره ، حتى يبلغ الرابعة والعشرين ، ويصبح مكلفا ، ويصطحبه والده مع بقية الأسرة : (أمه وأخيه الأكبر) إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

كان من الصعب على هذه الأسرة، أن تسلك في هذه الرحلة الطويلة من مرسية بالأندلس إلى مكة والمدينة بالحجاز طريق البر . عندئذ آثرت أن تسلك طريق البحر، لتستقل سفينة تبحر بهم بحذاء الشاطئ الإفريقي ... ولكنها لم تكد تمضي أياما حتى هبت عليها عاصفة شديدة ، راح بسببها كل من كان على السفينة بما فيهم الأب والأم ، ولم ينج منهم سوى أبي العباس المرسى وأخيه الأكبر ، حيث قدر لهما النجاة ، ووصلا إلى البر سالمين ، ليتخذا طريقهما إلى المشرق ، إلى أن وصلا إلى تونس ، وفيها آثر الإقامة بها الأخ الأكبر ، واتجه إلى مهنته القديمة ، وأما الأخ الأصغر أبو العباس المرسى ، فقد أراد أن يفيد غيره مما حصل من معارف وعلوم ، فاتخذ لذلك دارا متواضعة ، قام فيها بتعليم الصغار والصبية القراءة والكتابة والحساب ، وحفظ القرآن الكريم وتفسيره .

وفي تونس ، يلتقي أبو العباس المرسى بشيخه وأستاذه أبي الحسن الشاذلي ، الذي كان قد سمع بعلمه وفضله وتقواه ، فسعى لمقابلته والجلوس إليه ، والتعلم منه . ويلازمه ملازمة ظله . حتى إذا عزم أبو الحسن الشاذلي مغادرة تونس متجها إلى مصر كان أبو العباس المرسى في صحبته ، حتى وصل معه إلى الإسكندرية . وفي هذا يقول أبو العباس المرسى : «كنت مع الشيخ في السفر ، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذني ضيق شديد ، حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبي الحسن ، فلما أحس بي قال لي : آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل به الأرض ليكمله . ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلفه ، حيث يقول : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1] ما قال في السماء ولا في الجنة ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف . فأنزله سبحانه وتعالى إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته . وأنت أيضا لك قسط من آدم ، كانت بدايتك

(١) البقرة : ٣٠ .

في سماء الروح في جنة التعريف ، فأنزلت إلى الأرض لتعبد الله بالتكليف ، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة الله في أرضه .. » ، وعلق أبو العباس المرسى على ذلك قائلا : « فما انتهى الشيخ أبو الحسن من هذه العبارة حتى شرح الله صدري ، وأذهب عني ما كنت أجده من الضيق والوسواس » .

وعن أبي الحسن الشاذلي تلقى أبو العباس المرسي كيفية الجمع بين الفقه والتصوف ، وهو ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس التصوف التي تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد ، والزهد والعبادة ، ولا تستلزم في كثير من الأحيان المعرفة بالعلوم الظاهرة ، لقد أتقن أبو العباس المرسي العلوم الدينية إتقانا تاما . حتى كان من يتحدث إليه في شيء منها ينصر مطلبه مدركا بأنه لا يحسن إلا هذا العلم . وقد عاونه على طلب التعلم والتبحر فيه كتب كثيرة في التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف اطلع عليها ، حتى عرف بين معاصريه بالتبحر والنبوغ في العلوم الإسلامية ، مع تخصصه ونبوغه في علوم الحقيقة وأصول الطريقة، حتى كان يقول: «شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه » .

ولما تقدمت السن بأبي الحسن الشاذلي وفقد بصره ، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شئون أتباعه، رأى أن يستخلف تلميذه وصفيه وزوج ابنته: أبا العباس المرسى على إدارة شئون دعوته ، فأعلن استخلافه له في حفل جامع بين أتباعه في مسجد العطارين بالإسكندرية ، وقد اضطلع بالقيام بهذه المهمة خير قيام ، فكان يشرف على أتباع الطريقة ، ويلقنهم الدروس ، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم ، ملازما لشيخه وأستاذه أبي الحسن الشاذلي ، حتى إذا كانت سنة 656هـ عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج إلى الحج ومعه نخبة من أتباعه ، يتقدمهم أبو العباس المرسى. وفي الطريق مرض الشيخ مرضا شديدا لم يمهله طويلا حتى مات قبل أن يدخل الأراضي المقدسة ، ليدفنه تلميذه أبو العباس ، ويستأنف رحلة الحج التي من بعدها

يعود إلى الإسكندرية ، ويتخذ مجلس أستاذه وشيخه الراحل ، فيشيع ذكره ، ويشتهر أمره ، ويقصد الناس من كل مكان يسألونه المعرفة ، ويلتمسون منه البركة .

وهكذا .. أصبح معلوما لدى الأتباع والمريدين أن أبا العباس المرسى يتسم بعدة صفات ، منها : عبادة الله كأنه يراه .. وكراهية التكلف والتظاهر بالزهد والمسكنة ، والادعاء والرياء - ومن هذه الصفات أيضا : عزة النفس ، والتعفف عما بأيدي الناس ، والثقة كل الثقة بالله عز وجل ، حتى إنه كان يقول لأتباعه : « والله ما رأيت العزة إلا في رفع الهمة عن الخلق . وما رأيت السلامة في الدنيا إلا بترك الطمع في المخلوقين » . ولهذا كان لا يسعى إلى مقابلة سلطان أو أمير ، ولا يرجو من أي منهما توسطا أو شفاعة ، أو حتى إنه إذا جاءه أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام في حاجة له ، يقول له أبو العباس المرسي : « أنا أطلب لك ذلك من الله .. » .

حضر إليه يوما لزيارة الأمير «علم الدين سنقر» ، وهو مدير السلطنة ، وصاحب الحول والطول في عهد «السلطان قلاوون» ، فما طلب منه أبو العباس المرسى شيئا ، حتى إذا قال له أحد أتباعه : يا سيدي ، اطلب من هذا الأمير أرضا يزرعها أصحابك . فرفض رفضا باتا ، وكان يردد دائما : « اللهم ، اغننا عنهم ، ولا تغننا بهم ، إنك على كل شيء قدير » وأقام أبو العباس في الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة ، حتى توفي ، لم يحاول خلالها أن يزور والي المدينة أو أن يقصده في طلب أو شفاعة ، في الوقت الذي كان الوالي يلح في طلب لقائه والتحدث إليه ، كان دائم الرفض والامتناع عن لقائه . وبقي على هذا الحال من الزهد والتقشف ، والإباء والتعفف ، حتى توفي بالإسكندرية عام 685هـ تاركا بعده عددا من التلاميذ الأفذاذ الذين يتقدمهم : ابن عطاء الله السكندري والبوصيري وابن الحاجب وياقوت العرش .

* * *

ابن النفيس

«علاء الدين أبو العلاء علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المصري بن النفيس» من مجددي القرن السابع الهجري ، من أكبر أطباء العصور الوسطى العرب ، ينتسب إلى سوريا ، حيث ولد بقرية القرشي ، وظل بها حتى بلغ العشرين ، ثم هاجرها إلى مصر ، حتى كانت وفاته عام 687 هـ عن عمر يناهز الثمانين كما يسجل الدكتور «يوسف زيدان» في مقدمة كتاب «رسالة الأعضاء» لابن النفيس ، ذلك الذي حققه حيث نقرأ دراسته عن ابن النفيس ومنهجه وإبداعاته .

ونحن إذا استثنينا تاريخ وفاته، فإنه لم يسجل من وقائع سيرته إلا القليل النادر، وشاهد ذلك : أن ابن أبي أصيبعة ، الذي كان من معاصريه ، لم يذكر ابن النفيس في كتابه عن تاريخ الأطباء . على أنه ولد في دمشق نحو عام607 هـ (1210م) ودرس بها الطب في المستشفى الذي أنشأه «نور الدين بن زنكي» في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وهو المعروف بالبيمارستان النوري . وكان أول أساتذته هو «مهذب الدين عبد الرحيم بن علي» المعروف بالخوار (توفي عام 628 هـ -1230م) الذي جاء من مدرسة ابن التلميذ التي انتقلت من بغداد إلى الشام ، وقام بتعليم عدد كبير من التلاميذ . ودرس ابن النفيس إلى جانب الطب ، النحو والمنطق والفقه ، وأصبح حجة مشهورا في الفقه الشافعي . وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث عين رئيسا لأطباء مصر ، والراجح أنه عمل في المستشفى الناصري. ودرس ابن النفيس الفقه في المدرسة المسرورية بالقاهرة ، وكان حجة مبرزا في اللغة العربية، وموضع التقدير البالغ من معاصره «بهاء الدين محمد بن النحاس» . وتوفي ابن النفيس

بالقاهرة في الحادي والعشرين من ذي القعدة عام 687هـ (18 ديسمبر سنة 1288م) بالغا من العمر نحو ثمانين عاما (بالسنوات القمرية) وورث بيته ومكتبته للمستشفى المنصوري الذي أنشأه السلطان قلاوون ، وكان قد تم بناؤه حديثا (683هـ - 1284م). وكان ابن النفيس في ميدان التأليف على جانب كبير من الأهمية ؛ فقد كان أصلا يشتغل بشرح الكتب وتفسيرها ، ولكنه كان مستقل الفكر واسع المعرفة ، ويقال إنه كتب معظم مصنفاته من ذاكرته دون الرجوع إلى الكتب . وأكبر مصنفاته الطبية (كتاب الشامل في الطب) وكان في ثلثمائة مجلد ، وقد ظل ناقصا لم يتم ، ولم يصل إلينا منه شيء . وله كتاب على جانب كبير من الأهمية في أمراض العين يسمى (كتاب المهذب في الكحل) وهو محفوظ بالفاتيكان . على أن أكثر كتبه انتشارا هو (الموجز) لقانون ابن سينا ، وقد اختصره لأغراض عملية ، طبع لأول مرة عام 1228م ، وقد وضعت شروح وحواش عدة لهذا الكتاب على مر القرون ، وأقبل الأطباء الهنود على دراسته بشغف حتى عهد قريب. ونذكر أول ما نذكر من شروحه: شرحه لمبادئ أبقراط الذي شاع استخدامه في المشرق ، وهو منتشر في كثير من المخطوطات ، وقد طبع في فارس عام 1298هـ (1881م)، وله شرح لأوبئة أبقراط، محفوظ باستانبول، وهناك مجموعة كاملة من الشروح الموسعة لقانون ابن سينا، محفوظة بصفة خاصة في المتحف البريطاني . ويوجد في«ليدن» شرح على كتاب (مسائل في الطب) لـ «حنين ابن إسحاق» ، وقد بقي من كتب ابن النفيس الدينية كتاب في سيرة الرسول هو (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) وهو محفوظ في مكتبة القاهرة ، وكتاب آخر في أصول الحديث هو (مختصر في علم أصول الحديث) . وكتب ابن النفيس في الفقه شرحا على التنبيه «للشيرازي» والظاهر أنه لم يصل إلينا . ويقال إن ابن النفيس كتب في الفلسفة شرحا لكتاب (الإشارات) وآخر لكتاب (الهداية في الحكمة)، لابن سينا، ولم يصل إلينا أي منهما .

واكتشف أخيرا طبيب مصري شاب أن ابن النفيس في كتابه (شـرح تـشريح ابن سينا) (وهو مخطوط لم يطبع بعد) وصف الـدورة الـصغرى أو الـدورة الدمويـة الرئوية وصفا صحيحا يخالف وصف ابن سينا وجالينوس كل المخالفة ، وذلك قبل أن يكتشفها الأوروبيون بثلاثمائة سنة تقريبا .

ولتسجيل جهود ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية قبل غيره مـن العلـماء الأجانب والعرب ، نرجع إلى الصفحات الخاصة بالتحقيق العلمي الممتاز الذي قـام به الدكتور «يوسف زيدان» لابن النفيس ، خاصة بكتابه (رسالة الأعضاء) فأوضـح الكثير من الجوانب الغامضة ، كما أظهر الجوانب الخافية على الكثير من المهتمين بهذا المجدد المسلم، سواء من العرب أو الأجانب. فننقل من هذا الكتاب (بتصرف لا يخل بموضوع المادة الخاصة بهذه الدورة الدموية الرئوية والأخـرى الدمويـة الكـبرى) ، وهو الاكتشاف الذي قامت عليه شهرة ابن النفيس بين معاصرينا ، مع بدايـة الربـع الثاني من القرن العشرين ، فقد كان الطبيب المصري «محيي الدين التطـاوي» في بعثـة علمية لإعداد رسالة الـدكتوراه بجامعـة فرايبـورج الألمانيـة ، فوقـع مـصادفة عـلى مخطوط لابن النفيس بعنوان : (شرح تشريح القانون) فاكتشف بعد سبعة قرون ، أن ابن النفيس هو أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى، فقدم رسـالته للـدكتوراه وأفصح فيها عن هذا الاكتشاف ، فتشكك أساتذته هنـاك ، وأرسـلوا إلى المستـشرق «ماكس مايرهوف» يستفتونه ، فأفتى بعـد حـين بـأن المعلومـات صـحيحة.. فنـال التطاوي مع درجة الدكتوراه ، فضل الكشف عـن هـذه المـسألة ، وبيـان سـبق ابـن النفيس على غيره من الأوروبيين بعدة قرون .

وتفصيل الدورة الدموية الرئوية عنـد ابـن النفـيس ، يمكـن الرجـوع إليـه في العرض الذي قام به ابن النفيس بعنوان: فصل في تشريح القلب .. وفي الاستعراض الذي قام به الدكتور «بول غليونجي» في كتابه القيم الموجز عن ابن النفيس .

وقد أثار هذا الاكتشاف مشكلة مترتبة عليه ، مؤداها : هل مارس ابن النفيس التشريح ؟ وقد جاءت إجابات المستشرقين بالنفي، ثم قدم الدكتور «بول غليونجي» العديد من أدلة الإثبات .. لكن السؤال الأهم هنا : هل عرف ابن النفيس الدورة الدموية الكبرى ؟

وتشير الكتابات الخاصة بعملية اكتشاف الدورة الدموية إلى الدورة الرئوية فقط ، فقد جاءت رسالة التطاوي للدكتوراه بعنوان : «الدورة الدموية الرئوية تبعا للقرشي». ومن خلال ذلك يتضح أن المسألة تخص الدورة (الرئوية) فقط، وهو نفس ما نراه في كتاب «بول غليونجي» عن ابن النفيس بسلسلة أعلام العرب .

وفي مخطوطة ابن النفيس (رسالة الأعضاء) التي حققها الدكتور يوسف زيدان نراه يقول: «والقوى تقوم بأجسام» ويجب أن تكون تلك الأجسام لطيفة جدا ، ليمكن أن تنفذ إلى الأعضاء الطرفية من مبادئ تلك القوى بسرعة ، وهذه الأجسام هي الأرواح ، وهذه الأرواح لاشك أنها تكون سريعة التحلل ، فصحت ضرورة أن يكون في البدن ما يستقل بتوليدها كل وقت ليقوم المتولد منها مقام ما تحلل ، وذلك هو القلب ، وقد جعل في قرب الوسط ، لأنه أولى المواضع بالجور ، وليكون ما صفا منه من الروح متوجها إلى الأعضاء على الوجه العدل » ، ثم يعاود ابن النفيس تفصيل الأمر في رسالته الكاملية ، فيقول ما نصه : « وشاهد القلب في الصدر وبطنه الأيمن مملوء بالدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح في الشرايين إلى الأعضاء، ثم ينبسط فترجع تلك الروح فيه ، وحينئذ ينجذب إليه الهواء من الرئة ، وهي تجذب الهواء من الخارج ، فينفذ بها من الأنف والفم مارا في الحنجرة وقصبة الرئة ، وذلك إذا انقبضت الرئة، وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك الحجاب وعضلات الصدر لها » .

وإذا أضفنا لهذين النصين، بعض نصوص ابن النفيس الواردة في (رسالة الأعضاء) كقوله في بداية الفصل الثامن: «والجوهر الروحي ممتلئ بالهوائية..»، وقوله عن ضرورة حركة الشرايين: «ولولا ذلك، ما كان يمكن أن ينبسط الشريان وينقبض»، وملاحظته في بداية الفصل الخامس عشر: «إن كل ما له دم، فله قلب».

فمن خلال هذه النصوص يمكن لنا أن نضع الصورة المتكاملة لتصور ابن النفيس للدورة الكبرى، فهو بعد أن وضع تصوره للدورة الرئوية؛ حيث يتحرك الدم من القلب إلى الرئة، ثم يعود محملا بالهواء، فهنا لا يقال عنه إنه دم، بل أرواح (إذ الجوهر الروحي هو الممتلئ بالهوائية)، ثم يجتمع الغذاء مع الهواء بهذه الأرواح التي يصفها بأنها (حاملة القوى) وينقبض القلب الذي لابد من وجوده في كل حيوان له دم، فتنتشر هذه الأرواح في الجسم عبر الشرايين، التي تنبسط هي الأخرى وتنقبض ليسهل نفاذ الأرواح إلى الأعضاء الطرفية من القلب (الذي جعل في الوسط، لأنه أولى المواضع بالجور) وبعد ذلك ينبسط القلب، فتعود إليه الأرواح بعد تغذية الأعضاء لتندفع مرة أخرى بعد أن تمتلئ بالهواء والغذاء .. وهكذا ..

وقد وقع ابن النفيس في بعض الأخطاء: منها عدم قدرته على اكتشاف الشعيرات الدموية الواصلة بين الشرايين والأوردة، والتي تحتاج رؤيتها لأدوات لم تكن متوافرة في عصره، ولذلك فهو لم يفطن إلى أن رجوع الدم إنما يكون في الأوردة وليس الشرايين، كما أخطأ في عدم إدراكه لطبيعة امتصاص الغذاء في الخملات المعوية، وقوله إن هذا الامتصاص يكون في الكبد؛ ولذلك قال إن الأوردة المتصلة بالكبد هي التي تحمل الغذاء؛ ومع ذلك، فلقد وضع ابن النفيس تصورا مبتكرا وجديدا للدورة الدموية الكبرى، واستطاع أن يقترب من طبيعة حركة الدم في الجسم، وهي الحركة التي وضع «هارفي» شكلها النهائي في مؤلفه (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان)، وهو المؤلف الذي ظهر سنة 1628

ميلادية، بعد أن كانت مؤلفات ابن النفيس قد ترجمت إلى اللاتينية ، فكانت هذه الترجمات واحدة من الطرق التي تسرب منها الطب العربي إلى الغرب ليستكمل الغرب الأبحاث الطبية ، ويصل إلى ما وصل إليه اليوم .

وهكذا .. يرجع الفضل لابن النفيس في بيان الخطوط العريضة لدورتي الدم في الجسم ، بحيث يضاف اكتشافه للدورة الدموية الكبرى ، لما سبق أن توصل إليه «التطاوي» من معرفة ابن النفيس بالدورة الدموية (الرئوية) ، وبذلك تكتمل الدائرة الخاصة بحركة الدم .. ولكن ، ما السر في سهو «التطاوي» و«ماكس مايرهوف» و«غليونجي»- و من جاء بعدهم - عن معرفة اكتشاف ابن النفيس للدورة الكبرى، واقتصارهم على الحديث عن الدورة الصغرى فحسب ؟ ..... والإجابة عن ذلك بكتاب (رسالة الأعضاء) تكمن فيما يلي :

1- أنهم اعتمدوا فقط على كتاب (شرح تشريح القانون) ، وهو من مؤلفات ابن النفيس المبكرة ، والسابقة على (رسالة الأعضاء) ولم تتح الفرصة للتطاوي ، ولا لغيره ، أن يطلع على تلك المؤلفات التي وضعها ابن النفيس في أخريات حياته .

2- إن ابن النفيس قد اقتصر على وصف الدورة الصغرى في (شرح التشريح) ، لأنه كان يتناول تشريح أعضاء الصدر ، فلم يتجاوز ذلك إلى غيره ، لارتباطه بما ورد أصلا في قانون ابن سينا ؛ ومن هنا التزم ببيان حركة الدم داخل القفص الصدري .. ولعل ابن النفيس لم يكن قد توصل بعد للدورة الكبرى حين كتب شرح التشريح .

❊ ❊ ❊

البيضــاوي

عبد الله بن عمر بن على أبو الخير ناصر الدين البيضاوي : من مجددي القرن السابع الهجري حيث ولد عام 613هـ وتوفي عام 691هـ في تبريز بإيران ، وقد تولى منصب قاضي القضاة في شيراز ، وكان ينتسب للمذهب الشافعي السني .

اشتهر البيضاوي بسعة العلم ، والكتابة في عدة موضوعات منها : تفسير القرآن ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والنحو . كما عرف بالاختصار في تناوله للموضوعات . وكان أهم كتبه : (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) الذي اعتمد فيه على تفسير الزمخشري المعروف بـ (الكشاف) ولكنه توسع كثيرا في التفسير ، مستعينا في ذلك بمصادر أخرى .

ويعتبر أهل السنة أن تفسير البيضاوي أفضل التفاسير ، وله في أنفسهم مكانة عظيمة ؛ حيث يمتاز هذا الكتاب كغيره من كتب البيضاوي بتركيز الكثير من المعلومات في أسلوب مختصر لا إسهاب فيه . على الرغم من أن هذا الكتاب يفصح عن علم واسع ، تشوبه آراء معتزلية – حيث كان البيضاوي كأستاذه «الزمخشري» معتزليا – حاول أن يصوبها ويصححها ، فحينا كان يفندها ، وحينا كان يحذفها . ولكنه كان في بعض الأحيان يبقى عليها ، وكان يقول : أنه طالما رغب في إخراج كتاب يضم خير ما عرفه من أئمة الصحابة وأوثق التابعين ، وأهل التقى والفضل في الزمن الأول هؤلاء هم الذين – بدون شك – على مستوى من العلم والفضل . يشهد لهم ذلك أنه كان يضمن كتابه إشارات إلى ثمرات أبحاث الأسلاف ، فهذا الكتاب شأنه مثل شأن بقية كتبه يحتوي الكثير من الفصول المعتمدة على الأسلاف ، إلا أنه مع ذلك نراه يضيف إليها ، وبالمثل : قراءاته على القراء السبعة المشهورين ،

فيجعلهم ثمانية بعد إضافة يعقوب البصري إلى السبعة . كما يحتوي على القراءات الخاصة لواحد أو لآخر من القراء المعترف بهم ، وكان ثمرة ذلك كتابا ذاع صيته في الأوساط العلمية والفكرية ، ومن ثم طبع عدة طبعات ، وكتب على أجزاء - أو على أجزاء منه - عدة حواش ، وقد أحصى المستشرق الألماني «بروكلمان» منها ثلاثة وثمانين ، ثم ذكر كتابين لفتا النظر إلى المواضع التي عجز البيضاوي عن أن يزيل منها آراء الزمخشري المتأثرة بالمعتزلة لتداخل المعاني .

ومن طبعات تفسير البيضاوي الكثيرة : الطبعة التى قام بها «فليشر» في مجلدين، وقد أعد فهارسها المستشرق «فل» عام 1878م ، ثم طبعة القاهرة عام 1330هـ في أربعة أجزاء يضمها مجلدان ، وعليها شرح الخطيب الكازروني ، وقد قررت على طلبة جامعة الأزهر .

ومن كتب الإمام البيضاوي : كتاب (منهاج الوصول إلى علم الأصول) وكتاب : (الغاية القصوى) وهو رسالة ضافية في علم الفقه ، وكتاب : (لب الألباب في علم الإعراب) في علم النحو ، وكتاب : (مصباح الأرواح) وكتاب : (طوالع الأنوار من مطالع الأنظار) وهو دراسة جادة في علم النحو . هذه الكتب وغيرها كثير ، كتبها البيضاوي باللغة العربية .

وقد كتب البيضاوي أيضا بالفارسية : - لغته - كتبا كثيرة : كتاب (نظام التواريخ) الذي نشر في إيران وحيدرآباد عام 1930م ، وهو يتناول تاريخ العالم حتى سنة 685هـ وغيرها من الكتب ، سواء بالعربية أو الفارسية . تلك التي تعد مراجع أصيلة في البحث في العلوم التى كانت ضمن اهتماماته .

وقد توفي - كما قلنا - عام 691هـ ، وهو التاريخ المتفق عليه عند أغلب المؤرخين والعلماء .. إلا أن أحدهم وهو «اليافعى» سجل هذا التاريخ ، ونقل كما يذكر رواية أخرى تقول أنه توفي عام 716هـ ، وهو ما عارضه المؤرخ «جلال الدين السيوطى» في تأريخه ، مؤكدا أن هذا التأخر في تاريخ الميلاد ربما يكون احتمالا ، ولكنه غير يقين.

* * *

البوصيري

الإمام «شرف الدين أبو عبد الله الصنهاجي» المعروف في التاريخ الإسلامي بالإمام البوصيري : أحد مجددي القرن السابع الهجري ... من أئمة الصوفية ؛ لتبحره في التصوف ، ولسعة معرفته في علوم الدين ، إلى جانب شاعريته التي تميز بها حتى أصبح لا يذكر اسمه إلا وتذكر معه قصيدته الخالدة في مدح الرسول - ﷺ - المعروفة «بنهج البردة» والتي مطلعها :

أمن تذكر جيران بذي سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق في الظلماء من إضم

وسميت هذه القصيدة «بنهج البردة» ؛ لأنها كانت على نهج قصيدة البردة التي أنشدها «كعب بن زهير بن أبي سلمى» في مدح الرسول - ﷺ - والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

ومنها :

نبئت أن رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمول

وأما لماذا سميت قصيدة كعب بن زهير بالبردة ، وقصائد الشعراء الذين جاءوا بعده ومدحوا النبي بنهج البردة؟ فلذلك سبب، هو: أن كعب بن زهير بن أبي سلمى، وقد كان شاعرا مخضرما ، أدرك الجاهلية والإسلام ، هجا الرسول - ﷺ - في واحدة من قصائده ، فأتى تائبا بعد فتح مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ..

وجاء الرسول - ﷺ - منشدا قصيدته المشهورة ، فخلع عليه الرسول - ﷺ - بردته ، وأعطاه إياها .. استحسانا لشعره وإظهارا لعفوه ، ومن هنا سميت قصيدته : «البردة» .

ومن عجيب الأمور .. أن بردة الرسول - ﷺ - كرداء توارثها أبناء كعب ابن زهير ، واحتفظوا بها طوال عصر الخلفاء الراشدين ، إلى أن جاء معاوية بن أبي سفيان فاشتراها من ورثة كعب بن زهير بعشرين ألف درهم ليلبسها بعد أن تولى الخلافة ، وصارت هذه البردة إرثا لخلفاء بني أمية ، فكانوا يلبسونها في المناسبات والأعياد الإسلامية تبركا بصاحبها الرسول - ﷺ - . كما توارث الشعراء اسمها بقصائدهم في مدح الرسول مع تحريف بسيط هو «نهج البردة» أي : على غرار البردة وكان من بينهم «الإمام البوصيري» .

ومن هنا .. ندرك أن البوصيري يجمع إلى تفقهه في الدين البلاغة في القول ، فقد كان شاعرا من الشعراء المجيدين . والدليل : قصيدته نهج البردة وغيرها من قصائد . ولعل هذا يدعونا إلى التعرف عليه أكثر وأكثر .

فهو الشيخ الصالح : شرف الدين أبو عبد الله بن سعيد الصنهاجي المعروف بالبوصيري، نسبة إلى قرية «بوصير» وهي موطن أمه، وأحيانا كان يلقب بالدلاصي، نسبة إلى قرية «دلاص» موطن أبيه .

غير أن نسب البوصيري ينتهي إلى أصول مغربية ، حيث كان أبوه من أحفاد صنهاجي بالمغرب العربي ، حيث يذكر علي مبارك في خططه التوفيقية بأنه من المرجح أن يكون أحد أجداده لأبيه قد وفد إلى مصر مع بربر المغاربة الذين أشار إليهم «ابن حوقل» في كتاباته .

ويذكر « السيوطي » في كتابه : (حسن المحاضرة) أن الإمام شرف الدين أبا عبد الله الصنهاجي المعروف بالبوصيري مغربي الأصل ، بوصيري المنشأ ، وأنه

ولد سنة **608**هـ ، وتوفي سنة **696**هـ وكان كما يقول «الشهاب بن حجر» : « من عجائب الله في النظم والنثر ، وإن لم يكن إلا قصيدته المشهورة نهج البردة لكفاه ذلك فخرا بين الشعراء . لقد ازدادت شهرة هذه القصيدة ، إلى درجة أن الناس كانوا يتدارسونها في البيوت والمساجد ، ودور العلم التي كانت موجودة وقتئذ » .

ولقد بدأ البوصيري حياته في مهنة الكتابة على الجبايات أو الضرائب ، إلا أن عدم أمانة المشتغلين معه جعلته يزهد في الوظائف ، بل ويزهد في مباهج الحياة ومتعها ، حيث رآها كلها إلى زوال لا يبقى إلا العمل الصالح ، فينصرف إلى حياة التصوف والانقطاع للعبادة ، وقد نظم في ذلك شعرا عن موظفي عصره قال فيه :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيهمو حرا أمينا

ولعل ما وصل إليه من تفكير في الحياة وجدواها ، هو الذي جعله يفر إلى الإسكندرية ، ويلتقي بزعيم الصوفية هناك أبي العباس المرسي ، تلميذ الإمام أبي الحسن الشاذلي وخليفته في الطريقة الشاذلية . ويصحبه البوصيري ، ويتتلمذ عليه ، ويكون من مريديه وأتباعه في التصوف .

وهذا ما يشير إليه «علي مبارك» في (خططه التوفيقية) حيث يقول : « كان البوصيري وابن عطاء الله السكندري تلميذين لأبي العباس المرسي . فخلع على البوصيري لسان الشعر فكان بارعا فيه ، وخلع على ابن عطاء الله السكندري لسان النثر فكان مجيدا فيه . وقد لازم البوصيري أستاذه أبا العباس المرسي ، وأخذ عنه العلم والفضل ، ثم نهج بعد ذلك في شعره منهجا متميزا في التصوف ، حيث مدح النبي في نهج البردة وغيرها من قصائد أهمها : الهمزية في المدائح النبوية التي استهلها بقوله :

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما جاوزتها سماء؟

وأخلص في الحب لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ».

ويقال: إن السبب في نظم الإمام البوصيري لقصيدته البردة. هو إصابته بفالج[1] ألم به، وقد أعيا هذا الفالج أطباء عصره فلم يستطيعوا علاجه. ففكر البوصيري في نظم قصيدة يستشفع بها لدى الله ورسوله، وكانت هي قصيدة نهج البردة التي ما إن أتمها حتى برئ تماما من مرضه.

ولذلك .. فإن عددا من النقاد والمؤرخين، يرون أن هذه القصيدة إذا لم يكن عنوانها نهج البردة. فما أحراها أن يكون عنوانها: «البرأة»؛ لأن ناظمها «البوصيري» برئ من مرضه المسمى بالفالج بعد أن أتمها.

ولعل النقاد والمؤرخين يقصدون بذلك أولا: انتساب القصيدة إلى سبب نظمها وهو الشفاعة إلى الله برسوله، وثانيا لتمييزها عن قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى، فتكون بعنوان غير البردة، وهو «البرأة» مع أن البوصيري اختار لها عنوانا قبل نهج البردة هو «الكواكب الدرية في مدح خير البرية» على طريقة أهل زمانه في الكتابة، إلا أن نهج البردة كانت من الشهرة بحيث بقيت في أذهان الناس، إلى درجة أن صاحب القصيدة البوصيري وقراءها قد نسوا هذا العنوان واستقر في الأذهان: نهج البردة.

والجدير بالذكر .. أن النقاد والمؤرخين قد أفاضوا في الحديث عن قصيدة الإمام البوصيري «نهج البردة» متتبعين مراحلها منذ كانت مجرد خاطرة في وجدان صاحبها البوصيري يريد أن يظهرها للوجود. إلى أن أصبحت عملا إبداعيا متكاملا، وضمن هذه المراحل ما يقال: إن البوصيري ظل ينشد متفرقات من أبياتها .. حتى إذا أتى الشطر الأول من بيت: «فمبلغ العلم فيه أنه بشر» فتوقف ولم يستطع أن يستكمله، وظل على هذه الحالة أياما عديدة إلى أن رأى – فيما يرى النائم – النبي ﷺ

(١) الفالج: الشلل الذي يصيب أحد شقي الجسم طولا.

يطلب منه قراءة شطر هذا البيت الذي توقف عندها فقرأها ، وهنا أتمها بعد أن استيقظ قائلا : « وأنه خير خلق الله كلهم» .

فأصبح البيت :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

وتكتمل القصيدة في 180 بيتا ولتكون أعظم قصائده ، وليؤلف على وزنها الشعراء قصائدهم في مدح النبي وفي مقدمتهم في العصر الحديث أمير الشعراء : «أحمد شوقي» .

وهكذا .. عاش البوصيري أديبا صوفيا ، حتى توفي عام 696هـ بالإسكندرية ، ودفن في أرضها ، وأقيم له مسجد باسمه هناك ، بجوار أستاذه : أبي العباس المرسي.

* * *

الديريني

أن يجتمع لإنسان - أي إنسان - التصوف بإشراقاته الراقية ، واللغة بمعرفة أسرارها العالية ، والأدب بتنوع فنونه الرفيعة .. مع التقوى والورع والإيمان ، فلابد أن يكون هذا الإنسان موضع تقدير الناس واحترامهم وحبهم وإجلالهم ، يستوي في ذلك الكبير والصغير ، خاصة الناس أو عامتهم .

ولقد اجتمعت هذه جميعها للرجل الصالح: «عبد العزيز الديريني»، المتصوف، واللغوي، والأديب، تلميذ «أبي الفتح الواسطي»، وامتداد مؤسس الصوفية بالعراق «الإمام أحمد الرفاعي» ، ومعاصر قطبيها بمصر : السيد «أحمد البدوي» ، والسيد «إبراهيم الدسوقي» .

إن لوحة حياة هذا المتصوف الأديب اللغوي الصالح تشير إلى : أنه أحد مجددي القرن السابع الهجري، وأنه أحد مشايخ التصوف المعروفين في مصر بالزهد والورع، والتقوى والإيمان ، أو كما يذكره الإمام الشعراني في طبقاته المشهورة ، والمصنفات الكثيرة، في التفسير والفقه واللغة والتصوف ... وغير ذلك من الأعمال الجليلة...».

فالشيخ عبد العزيز الديريني إلى جانب كونه ملما بعلوم الدين فقيها بأمورها ، عليما بجوانب ديننا الحنيف ، فهو أيضا عالم بأسرار لغتنا العربية : نحوها وصرفها ، قواعدها وبلاغتها ، وبعد ذلك هو أديب مبدع ، له في المجال الأدبي آثار لا تمحى ، فقد عرف عنه نظم الشعر في أغراضه المختلفة ، بشكل يعده نقاد العرب ومؤرخوه في هذه الفترة واحدا من الشعراء المجيدين في الشعر .

إن إجادته للشعر يشير إليها «ابن تغري بردي» في كتابه : (المنهل الصافي) بما يفيد ذلك ، حيث يقول : « .. وللشيخ عبد العزيز الديريني نظم كثير شائع ، منه : منظومته التي ذكر فيها مشايخه الذين أخذ عنهم العلم والفضل» .

ثم يذكر ابن تغري بردي أمثلة لشعره في هذا الصدد ، منه قصيدة مطلعها :

وأذكر الآن رجالا كأنهم يزهو بها الزمان

مشايخي الأئمة الأبرار وإخوتي الأخيار

إلى أن يقول ، وكأنه يشير إلى الفترة التي عاشها من سنوات القرن السابع الهجري ، فيؤرخ لها قائلا :

لم يبق في الستين والستمئة من أشياخنا إلا فئة

ونظرة أخرى إلى لوحة هذا الرجل الصالح، كما تسجلها كتب السير والتراجم، ونقرؤها بأقلام مؤرخيها .. تقول : إن الشيخ عبد العزيز الديريني ولد في قرية صغيرة من قرى مصر في وسط الدلتا ، هي قرية «ديرين» وهي بلدة تقع على بعد كيلو مترين من نبروه بمحافظة الدقهلية ، وإنه عاش عصر المماليك في مصر ، حيث عاصر في آخر أيامه الملك المملوكي «المنصور لاجين» . وكان هذا الملك متدينا ، كثير القيام والصيام ، قليل الأذى والشر ، ولذلك كان من الطبيعي أن يجل العلماء ، ويحترم رجال الدين ، ويقدر المتصوفين منهم خاصة في حق قدرهم ، فكان يسعى إليهم ويطلب ودهم ، وكانوا هم من جانبهم يحضرون مجالسه التي كانت تزخر بألوان من المناقشات الجادة ، والمفيدة حول الدين والدنيا .

كان من هؤلاء العلماء والمتصوفة الذين يتصدرون مجالس «الملك لاجين» .. الشيخ «عبد العزيز الديريني» ولم يكن هذا الشيخ الوقور يسعى إلى هذه المجالس إلا بطلب من لاجين ، وكثيرا – كما يذكر الرواة والمؤرخون – ما طلب إليه هذا الملك الحضور إلى القاهرة للانتفاع بعلمه .

ولقد بلغ تقدير الملك لاجين للشيخ عبد العزيز الـديريني حـدا : أنـه أنـشأ لـه مسجدا سماه باسمه وهو على قيد الحياة ، حتى يتيح له فرصة اللقاء بتلاميذه ومريديه في حلقات علمية وأدبية ، حتى إذا جاء من قريته «ديرين» إلى القاهرة توجه إلى هـذا المسجد المقام حتى الآن بحي الروضة بالقاهرة ، وأقام فيـه وصـلى بالنـاس ، وعقـد حلقاته .. ولذلك عرف هذا المسجد باسمه بعد وفاته إلى اليوم .

وتستطرد كتب التراجم والسير في حديثها عن الشيخ عبـد العزيـز الـديريني ، فتذكر أنه كان كثير العلم ، وواسع الاطلاع ، يصحبه الكثيرون من العلماء والفقهـاء ، ومنهم من انتفع بعلمه وصحبته في مدن وقرى وسط الدلتا ، بجـوار مـسقط رأسـه «ديرين» والتي يعرفها المؤرخون ببلاد الريف ، وفي ذلك يسجل الشعراني في طبقاتـه قائلا : « وكان مقر ومقام الشيخ عبد العزيز الديريني ببلاد الريف – وسط الـدلتا – من أرض مصر – وكان الناس يقصدونه من سـائر الأقطـار العربيـة ، حـاملين إليـه مشاكلهم الفقهية التي يطلبون منه حلا لها » .

وتشير المصادر التاريخية إلى أن الديريني أخذ العلم عن عدد من العلماء والفقهاء ورجال التصوف ، وفي مقدمة هـؤلاء رجـل التـصوف الأكـبر : الإمـام أبـو الفـتح الواسطي ، وفي ذلك يقول الديريني نفسه : لقد أشار سيدي «أحمد الرفـاعي» ، عـلى سيدي «أبي الفتح الواسطي» بالسفر إلى الإسكندرية ، فسافر إليها ، وفيها أخـذ عنـه ناس لا يحصون ، وكنت أنا واحدا منهم ، وكان سيدي أبـو الفـتح الواسـطي مبـتلى بالإنكار عليه ، فـاجتمع علـماء الإسـكندرية وفقهاؤهـا وعقـدوا فـيما بيـنهم وبينـه المجالس العلمية ، فكان يقرعهم الحجة بالحجة . ويسفه قولهم ، ويبين سوء رأيهـم ، ويوضح قلة معرفتهم ، وكان خطيب مسجد العطارين من أشدهم عليه .

وفي إشارة عبد العزيز الديريني ما يوضح أنه في هذا العصر كـان هنـاك اهـتمام بالعلم والعلماء ، على الرغم من تدهور الأحوال السياسية ، فيكفـي أن تحكـم مـصر

بالمماليك وليس بأبنائها ، غير أن الاهتمام بالعلم وأهله كان من سمات هذا العصر ، وإلا فما معنى اهتمام السلاطين أنفسهم بذلك ، واهتمام العلماء المصريين أنفسهم بغيرهم من العلماء العرب؟! وما معنى أن تقام هذه المناقشات بين علماء الإسكندرية وبين أبي الفتح الواسطي القادم بأفكار جديدة من العراق لو لم يكن هناك اهتمام علمي ؟! وربما كان ذلك اهتماما بالدين وعلومه ، فليس هناك ما يلوذ به المصريون إبان المحن غير الرجوع إلى الدين وفهمه فهما صحيحا ، ومعرفة آراء من يأتي بتفسيرات جديدة فيه وهو علم على أي حال .

كذلك تشير المصادر التاريخية إلى كرامات الديريني ، تلك التي تعددها الكتب القديمة . ولعلنا نسجل ما كتبه «ابن تغري بردي» في كتابه : (المنهل الصافي) قائلا : «طلب جماعة من فقراء الصوفية كرامة من الشيخ الديريني ، فقال لهم : « وهل ثمة كرامة أعظم من أن الله تعالى يمسك بنا الأرض ولم يخسفها ، وقد استحققنا الخسف»؟!

وقد توفي عبد العزيز الديريني سنة 697هـ ودفن بمسجده بقرية ديرين بمحافظة الدقهلية ، وهو غير المسجد الموجود بحي الروضة بالقاهرة الذي بناه له السلطان ليصلي فيه الناس بالقاهرة .

❊ ❊ ❊

ابن دقيق العيد

يعتبر تقى الدين بن دقيق العيد من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث ولد هذا العالم الجليل بقوص عام خمس وعشرين وستمائة ، وتوفي عام 702هـ . ونشأ في بيئة علم وفضل، فقد كان أبوه مجد الدين بن دقيق العيد من أعلام المذهب المالكى ، فتفقه الابن على يديه ، ودرس جوانب هذا المذهب الذي يعنى بالحديث ، وتعلم على الإمام العز بن عبد السلام الذي كان شافعيا فتفقه على يديه ، ودرس جوانب المذهب الشافعى الذي كان يعنى بالرأي ، وبذلك اجتمع لديه دراسة المذهب المالكى والمذهب الشافعى ، إلى جانب دراسته للعلوم غير الفقهية على شيوخ وعلماء زمانه حتى نبغ في العلوم العقلية والنقلية معا ، فكان للعلوم جامعا ، وفي فروعها وفنونها وتفصيلاتها بارعا ، ذلك .. هو العالم المجدد تقي الدين بن دقيق العيد .

كان يتسم بشخصية فذة ، تجعل للعلم ورجاله هيبة وتقديرا، فكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، وكان تقديره للإنسان إنما لعلمه وفضله ، وليس لجاهه أو سلطانه ، حتى إذا خاطب من الناس سلطانا منهم أو غير سلطان – ناداه بقوله : «يا إنسان» . أما إذا كان المخاطب فقيها كبيرا ناداه بقوله : « يا فقيه » ولا يسمح بهذه الكلمة إلا لأهل العلم والفضل من أمثاله .

وعلى الرغم من هذا .. فقد كان يجد تقديرا واحتراما من الملوك والسلاطين ؛ فعندما حضر إلى السلطان المملوكى «حسان الدين لاجين» قام إليه السلطان وقبل يده ، وهو يطلب رضاءه ودعواته ، فلم يزد الإمام تقى الدين على أن يقول له: «أرجوها لك بين يدي الله عز وجل» ، إشارة إلى أن هذا الصنيع من السلطان مهما كان لا يمحو المظالم التي يشكو منها الناس ، والتي يعلمها الله وحده الذي بيده

الحساب والعقاب.. وهكذا كان أسلوبه مع سائر الأمراء وكبار رجال الدولة وقتئذ، والسبب : التفاف الناس حوله ، وإنه في غنى عن السلاطين والأمراء .. إلى درجة أنه عندما عرض عليه منصب قاضى القضاة على المذهب الشافعى بمصر ، وهو منصب كان يتمناه أي عالم أو فقيه ، رفضه في إباء شديد ولم يقبله إلا بعد أن قيل له : إن لم تفعل ولوا فلانا أو فلانا، وهما رجلان لا يصلحان لهذا المنصب الحساس ، لسمعتهما التي كانت محل شك ، لما اقترفاه من أخطاء في حق الشعب .

وهنا رأى الإمام تقي الدين بن دقيق العيد أن القبول أصبح واجبا يحتمه عليه أمر دينه ، ومع هذا .. عزل نفسه أكثر من مرة غير آسف . فكانوا في كل مرة يعيدونه بعد تنفيذ ما يطلب ، وهو الرجل الصالح والخير حتى ظل في منصب قاضي القضاة إلى أن توفي عام اثنين وسبعمائة للهجرة . ورب سائل يسأل : ولماذا يرفض إمام على علم مثل ابن دقيق العيد أكبر المناصب ؟ .. أو أنه يعزل نفسه منها بين آونة وأخرى؟

إن السبب الذي تذكره المصادر والروايات هي : أن هذا الإمام كان غير راض عن حالة الحكم في عصره ، ولا عن استئثار أولئك المماليك . وهم الغرباء المجلوبون شراء بالمال بحكم مصر والشام . وليس ببعيد عن ذهنه هذه الفتوى التي أعلنها أستاذه الإمام «العز بن عبد السلام» بعدم شرعية تولي المملوك المشترى حكم بلاد المسلمين ، لهذا ولغيره من أسباب كان الإمام ابن دقيق العيد يأبى المنصب ، وإذا قبله كان يعزل نفسه منه حتى لا يقوم بعزله حاكم لا يعترف به أصلا بحكم الشريعة وكان يضمن قصائده مخبوء نفسه حيث يشير إلى ذلك قائلا :

أهل المناصب في الدنيا ورفعتها — أهل الفضائل مرذولون بتهم
قد أنزلوا لأنام غير جنسهم — منازل الوحش في الإهمال عندهم
فما لهم في توقي ضيرنا نظر — وما لهم في ترقي قدرنا همم

على أن الباحثين يتساءلون : متى كانت شكوى ابن دقيق العيد ؟ هل كانت وهو لا يزال ببلده قوص لا يعرف أولئك الحكام ولا يعرفونه ؟ أم كانت شكواه بعد أن ضرب بقوله – في بلده قوص – عرض الحائط فتركها إلى القاهرة وبلغ فيها ما بلغ من السلطان ، فكان الفساد هو الفساد ، في قوص أو في القاهرة وكانت عواقب ذلك الفساد ذهاب الدنيا عن المسلمين ظاهرة لا تخفى على أحد، وهو ما أدركه وسجله الطبري في القرن الثالث الهجري ، فما بالنا وقد وصلنا إلى القرن السابع للهجرة ، حيث زاد الفساد وتفاقم وصار ينذر بالخطر ؟

والجواب على ذلك في كلمة واحدة : هو كل ذلك ، وهو ما انتهت إليه الأمة الإسلامية من فرقة وتمزق ، وسيادة للأجنبي على أرضها ، حتى ولو كان مملوكا يباع ويشترى ... ولعل الإمام تقي الدين بن دقيق العيد كان قد أدركه اليأس من صلاح الأحوال ، فسلم أمره لله يفعل ما يشاء ، فهو على كل شيء قدير ، وإلا فما معنى قوله في قصيدة طويلة منها :

قد جرحتنا يد أيامنا ... وليس غير الله من آس

فلا ترج الناس في حاجة ... ليسوا بأهل لسوى الياس

ولا ترد شكوى إليهم فلا ... معنى لشكوى إلى قاس

لا رغبة في الدين تحميهم ... عنها ولا حشمة جلاس

فاهرب من الخلق إلى ربهم ... لا خير في الخلطة بالناس

وعلى الرغم من هذا الوضع المتدهور في الأمة الإسلامية ، نجد لابن دقيق العيد لفتات ولوامع تدل على أنه كان من أصحاب النزعات التجديدية في التفكير الإسلامي ، حتى إن عددا من المؤرخين اختاروه واحدا من المجددين في القرن السابع الهجري .

من هذه اللفتات : أنه لما جاء التتار إلى الشام عام ثمانين وستمائة ، ورد مرسوم السلطان إلى القاهرة بعد خروجه للقائهم أن يجتمع العلماء ويقرأوا البخاري ففعلوا ، حتى إذا بقي منه شيء أخروه إلى اليوم التالي ، ولما كان اليوم التالي رأوا ابن دقيق العيد في المسجد ، قال لهم : ما فعلتم ببخاريكم ؟ فقالوا : بقي منه جزء أخرناه لنختمه اليوم . قال لهم :«الفضل الحال من أمس العصر» وهو يعني ما فعلتم ببخاريكم أن ينبه إلى أن النصر قد تم للمسلمين قبل الانتهاء من قراءة البخاري ، وأنه تم بما أمر الله بإعداده من قوة ومن رباط الخيل ، وليس بقراءة أو نحوها من هذا التفكير .

على أن الغالب عند الدارسين والعلماء والفقهاء أن ابن دقيق العيد كان من مجددي الإسلام في القرن السابع الهجري لأمرين: أولهما ما ذكره في مقدمة « شرح الإمام» . من أنه يجب أن يجعل الرأي هو المأموم . والنص هو الإمام ، فترد المذاهب إليه وترد الآراء المنتشرة حتى تقف بين يديه ، ولا يصح أن يجعل الرأي الذي هو فرع للنص أصلا يرد النص إليه بالتكلف والتخيل ، حيث يقول : « ويحمل على أبعد المحامل ، بلطافة الوهم وسعة التخيل ، ويرتكب في تقرير الآراء الصعب ، ويحتمل من التأويلات ما تنفر منه النفوس وتستنكره العقول». والأمر الثاني .. انتصاره لتلك المختصرات المعقدة التي عرفت فيما بعد باسم : المتون . وكان ابن الحاجب وأقرانه من المتأخرين هم أول من سن هذه البدعة في العلوم . وقد اختلف علماء القرن السابع الهجري في أمر هذه المختصرات ، فكان ابن دقيق العديد من أنصارها ، ومن أنصار الاعتماد عليها في التعليم .

ولعله بانتصاره لهذه الطريقة التي قدرت لأولي الغلبة بعده ، وكان أصحابها هم المجددون من المسلمين عبر القرون .. ولعل هذا كان من أسباب اتفاقهم على أنه من مجددي القرن السابع الهجري .. وعن سبب تسمية جده لأبيه «دقيق العيد» كما

يسجل معاصره «الأدفوي» : أن هذا الجد كان عليه في يوم العيد طيلسان شديد البياض ، فقال بعضهم لبعض : كأنه دقيق . فلقب به هو وأبناؤه وأحفاده .

ولعل خير ما نختم به الحديث عن ابن دقيق العيد هو : ما جاء في وصفه على لسان الأدفوي ، حيث يقول : « هو التقي ذاتا ونعتا ، والسالك الطريق التي لا عوج فيها ولا أمتا ، والمحرز من صفات الفضل فنونا مختلفة وأنواعا شتى والمتحلي بالحالتين الحسنيين صمتا وسمتا ..».

ولقد توفي هذا العالم الجليل سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بسفح المقطم ، وكان يوم وفاته يوما مشهودا ، سارع الناس إليه ، حتى وقف جيش من البشر ينتظر الصلاة عليه ، ورثاه جماعة من الأدباء والعلماء بالقاهرة وقوص ، مؤكدين أنه كان صالحا وتقيا عالما ، وفقيها ، أديبا وشاعرا .



ابن عطاء الله السكندري

ابن عطاء الله السكندري : من مجددي القرن السابع الهجري ، حيث توفي عام 709هـ وعاش سنوات طويلة من القرن السادس مزج علوم الباطن بعلوم الظاهر، ولذلك .. فالحديث عنه هو حديث عن قطب من أقطاب الصوفية . أتقن إلى جانب علوم الباطن – التي هي من صميم التصوف – وعلوم الظاهر من شريعة وفقه ، ومع الاثنين كان له اهتمامات أدبية واضحة يستطيع أن يلمحها القارئ لكتاباته من مجرد الصياغة الأدبية الرفيعة المستوى . وأن يكون له تلاميذ ومريدون ليس على مستوى مصر وحدها ، أو العالم العربي فحسب ، وإنما على مستوى العالم الإسلامي كله ..

هذا الصوفي الجليل ، مصري أصيل ، ولد في الإسكندرية ، وبها كانت نشأته وتربيته وتعليمه وتثقيفه على أيدي علمائها وفقهائها ، وعلى قطب الصوفية فيها : أبي العباس المرسى ، شيخ الطرق الصوفية في العالم العربي الإسلامي ، وخليفة مؤسسها أبي الحسن الشاذلي تعلم وتفقه .

وتاريخ ابن عطاء الله السكندري يتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الحركة الفكرية بوجه عام ، وتاريخ التصوف في القرنين : السادس والسابع الهجريين بوجه خاص ، حيث انتشر فيهما التصوف في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساسا لفهم الدين الإسلامي فهما روحيا ، بعد أن ظلوا يناضلون التصوف وقتا طويلا ، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله عز وجل هي التفرغ لعبادته ، والفناء في حبه ، والاتصال به عن طريق تصفية وتنقية القلب من كل أدران الشك، والسمو بالروح والنفس .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الـذي وضـح فكرتهـا ، وصاغها في قالب علمي ، كما أنه كان أول من ترجم لأستاذه أبي العبـاس المـرسى ، ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبي الحسن الشاذلي ، فأسدى لهذه الطريقة ولقطبيها أجل الفوائد ، كما أتاح لأتباعها معرفة الكثير عن هذه الطريقة وعن أقـوال وتعـاليم قطبيها الكبيرين .

لكن ابن عطاء الله السكندري كان نموذجا وحده بين المتصوفة . فقد كان يجمع بين العلمين : علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق ، وكـان - بـشهادة المـؤرخين مـن العلماء والفقهاء - مبرزا في الاثنـين معـا . فكـان بهـذه الـصفة يـستطيع أن يخاطـب الجميع : صوفيين أو غير صوفيين ، غير أن هذا المزيج من علم الظاهر وعلم الباطن لم يأت هكذا فجأة ، بل سبقته خطوات وخطوات .

إن من عجيب الأمور في سيرة هذا العالم الصوفي الجليل : أنه نبغ أول حياتـه في علوم الظاهر ، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طـريقتهم وعلـومهم ، إلى أن أتيحت له الفرصة للتعرف على قطبها أبي العباس المـرسي ، ومنـذ ذلـك التـاريخ آمن بطريقتهم وعلومهم .

لكن كيف كانت البداية في دخول عالم التصوف ؟

لقد بدأ ابن عطاء الله السكندري مريدا بعد أن حصل من العلـم قـدرا وفـيرا ، وقد نبغ في دراسة الفقـه والـشريعة والأدب وعلـوم الظـاهر عامـة . ثـم بعـد فـترة التعارف- التي أشرنا إليها- مع أبي العباس، لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذه ، وبعد وفاة أبي العباس المرسى انتقلت إليه إمامة الطريقة الشاذلية ، فجلـس مجلـس أسـتاذه يفسر القرآن تفسيرا صوفيا ، ويلقي المواعظ والدروس بين أتباع هذه الطريقة .

ومن الإسكندرية- التي ولد فيها ونشأ وتعلم - انتقل إلى القـاهرة . ليتخـذ لـه عمودا من أعمدة الأزهـر الـشريف .يلقـي فيـه دروس الـصوفية ، ويـشرح آدابهـا

وتعاليمها ، فكان - كما تذكر الروايات والمصادر إلى جانب علمه الواسع في الدين عامة والصوفية خاصة - أديبا حلو الحديث ، مشرق العبارة ، مما كان لذلك أكبر الأثر في نفوس سامعيه ، ونفوس قرائه بعد ذلك ؛ ولهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلال .

وطبيعي .. أن يكون عالم هذا شأنه أن يسمع به السلطان المملوكي «حسام الدين لاجين»، فشاقه أن يراه ويستمع إليه ؛ ليتأكد من صدق ما يسمع عنه ، فاستدعاه إلى مقر السلطانية .

وعن خبر هذه المقابلة يسجل ابن عطاء الله السكندري جانبا منها ، وهو الخاص بالمواعظ التي ألقاها في حضرة هذا السلطان . قال : «لما اجتمعت بالسلطان «حسان الدين لاجين» رحمه الله كان على ما عرفت يريد أن يستمع إلي ، والحق أنني سعدت بذلك ، فقد كانت فرصة نادرة أستطيع فيها توصيل ما أشعر به من آراء ، حيث بدأت الحديث معه بقول : «يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، حتى انشرحت قلوب الرعايا بكم .. والرخاء أمر لا يستطيع الملوك والسلاطين تكسبه واستخلاصه كما يكتسبون العدل والجود والعطاء ..» .

فقال السلطان لاجين موجها سؤاله إلى ابن عطاء الله : «وما الشكر الذي تراه؟» .

قال ابن عطاء الله : «شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان».

قال السلطان : « وكيف يكون الشكر في كل واحدة من هذه ؟» .

قال ابن عطاء الله : أما شكر اللسان فهو التحدث بنعم الله سبحانه وتعالى ، حيث قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1] .

---

(١) الضحى : ١١ .

وأما شكر الأركان فمعناه : طاعة الله عز وجل ، حيث قال تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾[1] .

ويبقى شكر الجنان ، وهو الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، حيث قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾[2] .

قال السلطان لاجين : «وما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟» .

قال ابن عطاء الله : «إذا كان ذا علم فبالتوجيه والإرشاد والتبيين ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والعطاء والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه وسلطان فبإظهار العدل فيهم، ودفع الظلم عنهم ، وعدم الإضرار بهم » .

ويسر السلطان لاجين غاية السرور لمقابلة هذا العالم الجليل ، وسماعه منه ما يصلح أمر نفسه حيال الخالق والرعية ، ولعل سبب هذا السرور أسلوب ابن عطاء الله الواضح الصريح المعبر ، المعتمد على الحجة والمنطق ، حتى نفذ إلى قلبه واستحوذ على إعجابه .

ولا يقل أسلوب ابن عطاء الله السكندري في الحكم والأقوال المأثورة .. عن أسلوبه في الحديث والمناقشة ، ولعله بلغ الذروة في كتابه المعروف بالحكم العطائية ، إبداعا وتركيزا .. تحليلا وشرحا . وكان له فيها منهج خاص حيث كان لا يعنى بالمعنى وحده ، ولا بالأسلوب فحسب ، بل كان يعنى أيضا بالبيان ، على اعتبار أن للبيان سحرا خاصا ، لهذا كان يتخذ الألفاظ ذات الجرس الخاص ، والنغم الموسيقي المؤثر ، ومن هنا كان لحكم ابن عطاء الله سحر يؤثر في نفوس سامعيه وقارئيه ، كما يقرر الدكتور «جمال الدين الشيال» .

---

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) النحل : ٥٣ .

ولهذا .. ظل كتاب «الحكم» لابن عطاء الله مصدرا علميا يقرأ قرونا طويلة في الأزهر الشريف ، وفي جامعة الزيتونة بتونس ، وفي جامعة القرويين بفاس . فإلى جانب أنه يقدم جانبا من فكر هذا العالم الصوفي الجليل ، فهو يقدم علما من علوم الصوفية مكتوبا بصيغة أدبية عالية المستوى . يقول في إحدى حكمه عن الله عز وجل، والتي تبين منهجه الفريد ، الذي يراعي التدرج في تفصيل أجزاء هذه الحكمة أو الحقيقة على النحو التالي :

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي أظهر كل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي ظهر بكل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الذي ظهر في كل شيء؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو أظهر من كل شيء؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. وهو أقرب إليك من كل شيء ؟!

كيف يتصور أن يحجبه شيء .. ولولاه ما كان وجود كل شيء ؟!

وهكذا نراه يراعي التدرج في تقديم أجزاء الحقيقة المراد معرفتها.

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله السكندري عن غيره من المتصوفة .. هي : في كونه لم يدخل طريق الصوفية إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة الإسلامية – وهي من علوم الظاهر – ولهذا .. كان يعتز بهذه المعرفة ، على الرغم من خشيته من أن تمنعه الشريعة من مواصلة طريق التصوف أو تمنعه من القربى من شيخه وأستاذه أبي العباس المرسي .

ولعله مر – بسبب ذلك– في أول أمره بفترة قلقة مضطربة ، حيث كانت نفسه تتأرجح بين الطريقين : علوم الظاهر ، وعلوم الباطن . إلى أن أخذ بيده أستاذه

المرسى أبو العباس وأنقذه من هذه الحيرة وذاك القلق ، مشيرا عليه بأنه يمكن أن يجمع بين العلمين معا ، وأن يبرز فيهما أيضا .

ولعل هذه النصيحة من شيخه وأستاذه أبي العباس المرسى كان من نتائجها أن تزودت معارفنا بكتابات عالم جليل يجمع بين علم الظاهر وعلم الباطن في مزج فريد، بحيث لا يزيد أحدهما عن الآخر ، بل نراهما يعاون كل منهما الآخر على بلوغ الحقيقة .

ولقد توفي ابن عطاء الله السكندري بالقاهرة سنة تسع وسبعمائة من الهجرة ، ودفن فيها ، وليس في مسقط رأسه الإسكندرية ، وضريحه معروف بجبانة الإمام الليث ، وله بالإسكندرية مسجد منسوب إليه ، لكن لم يضم رفاته الطاهر .



تقي الدين بن تيمية

الفقيه ، المحدث ، المتكلم ، الناقد ، المحقق : تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني ، أحد مجددي القرن السابع الهجري ، ولد في حران بسوريا ، ولما فر والده من عسف وظلم المغول لجأت أسرته إلى دمشق ، وفيها أقبل الفتى أحمد ابن تيمية على العلوم الإسلامية يحصلها ، وعلى دروس والده وعلماء عصره يتدارسها، وقد كان من الذكاء ، وقوة الحافظة إلى درجة أنه ألم بالفقه والحديث والتفسير والحساب ... وغيرها وهو لم يزل في العاشرة من عمره ، وناظر وناقش وحادث وأفتى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وولي بعض المناصب وعمره واحد وعشرون عاما ، ولقب بمحيي السنة ، وإمام المجتهدين وهو ابن ثلاثين سنة... وكان من التقوى والورع والزهد حتى لم تستغرقه الدنيا وأعراضها ، وكان من الشجاعة والإقدام والجرأة بحيث لم يعرف التملق والنفاق سبيلا إلى سلوكياته وأحكامه ، ولهذا .. كان له خصوم كثيرون كادوا له عند الحكام ؛ فسجن أكثر من مرة حتى في واحدة من مرات سجنه توفي.

ورجل على هذا النحو من التاريخ المجيد مطالب والأمر كذلك بأن يستزيد باستمرار من العلم، أن يدرس ويتأمل ، ويتقن أدوات الجدل وأساليب أهل الكلام. وكان يدرك مقدما أنه سيلقى بلاء كثيرا .

فمن أين يبدأ بعد أن تسلح بعلوم الدين والدنيا ؟.. هل يبدأ من مقولة أن رقي الأمم رهين بأن تعيش في سياج من الأمن والعدل ؟.. لعله يفعل حتى لا يملأ الذعر والرعب القلوب .

على أن تفكيره لم يطل ؛ فقد فرضت المعارك نفسها عليه قبل أن يختار معاركه مع الفساد . وتزداد همومه حيث يظن أنه مسئول أمام الله عن إحياء هذا الدين في عصر تغشاه البدع والضلالات ، والأساطير والخرافات ، وتزداد مسئوليته حيث تتسع حلقته ويكثر تلاميذه ، لقد أحبه تلاميذه فلزموه ، وأحبه شهود حلقته من طلاب علمه فأكبروه .

ولهؤلاء وهؤلاء يدعو إلى مقاومة ما يشوه حقيقة الدين .. يدعوهم إلى العمل على تطهير المجتمع من رذائله ، يدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذا واجب المسلم ، واحترم منه الولاة والأمراء هذا الجهد فهابوه وأكبروه وأقروا كل ما يفعله ، معلنين أنه ينفذ ما يريدون ، إلا أن مكانته عند الولاة ومكانته عند الرعية أثارت حقد بعض العلماء فبدأوا يكيدون له ويدسون . وانتهزوا فرصة نشره لرسالة الحموي والوسطية كي يكيلوا له الاتهامات . وما عاد يشغل دمشق وسوريا غير معارك ابن تيمية وخصومه في وقت كانت جحافل التتار تزحف لتحتل سوريا. عائدين بكل ألوان الفسق والفجور . وأبناء البلاد ممزقون منهزمون ، فارون من تنكيل التتار بهم ولم يبق في دمشق غير نفر قليل ، منهم ابن تيمية الذي استنفر همم الرجال ، وراح يطوف بالطرقات والمساجد يحض الناس على الجهاد، وفي الوقت نفسه يقابل سلطان التتار طالبا منه انسحابا غير مشروط ، وألا يبغي أو يتجبر على المسلمين ، فهذا هو قضاء الإسلام الذي يعتنقه ذلك السلطان التتري كمسلم ، ويعده السلطان التتري بأنه سيسير في الناس سيرة مسلم حسن الإسلام حتى ينسحب هو ورجاله إلى بلاده بفضل جهود ابن تيمية وتمسكه بالحق ، مما ضاعف من مكانته في قلوب الناس جميعا .

وتمضى فترة .. بعدها تهاجم فلول التتار الشام ومصر ، ويتحرك السلطان قلاوون من مصر لطرد هذه الفلول ويعاونه جيش الشام ومعه ابن تيمية ، حتى يلوذ التتار بالفرار وابن تيمية يستنهض القوى صائحا : لا تتركوهم ، ويطاردهم العسكر

حتى يرحلوا جميعا . وماذا كان ينتظر ابن تيمية بعد كل هذه الجهود الدينية والدنيوية في عصر كعصره؟.. لا شيء! سوى السجن.. نعم السجن ، حيث دس له العلماء عند السلطان فسجنه، ولم تشفع له تدخلات شيوخ الحنابلة ولا رفيق نضاله «الأمير سلار»، واجتمع ممثلو مذاهب المالكية والشافعية والحنفية في القاهرة على أن يخرجوه من السجن شرط أن يرجع عما أعلنه منذ سنوات في دمشق عن صفات الله ، ويرفض العدول مفضلا البقاء في السجن على الاعتذار عن أمر لم يعرفه أبدا .

ويخرج من السجن بعد تدخل أمير العرب ، ويبقى في القاهرة بين مؤيديه من أتباع مذهب ابن حنبل ، لكن العلماء إياهم يدبرون له مكيدة أخرى تجعل السلطان «بيبرس» يطلب إعدامه ، فيخففه صديقه حاكم القاهرة «الأمير سلار» إلى السجن . ولا يفرج عنه حتى عاد السلطان قلاوون إلى ملكه ، ويظل في القاهرة منصرفا إلى دروسه لطلابه ، حتى يعود إلى دمشق فيعيد النظر إلى ما كان قد كتبه أو أفتى به ، فيحكمه ويحاول الاجتهاد والتجديد على ضوء مذهب ابن حنبل ومذاهب مالك وأبي حنيفة والشافعي .

لكن خصومه يتربصون به ويدسون له ، فيسجن في قلعة دمشق . ويفرج عنه ويسجن مرة ثانية حيث استغلوا فتواه بمنع زيارة قبر الرسول - ﷺ- ليثيروا عليه العامة والخاصة ، ويودع في السجن من جديد ويبقى فيه عامين حتى تفيض روحه بين جدران سجنه ، ويصمت هذا الفقيه العظيم .. ولا يصمت فكره الذي ما زال يملأ الدنيا علما وفضلا .

ولعلنا نستأنس ببعض ما سجلته دائرة المعارف الإسلامية التي حررتها أقلام علماء أجانب اهتموا بالثقافة الإسلامية ورموزها ، وترجمها إلى العربية عدد من كبار علمائنا ومثقفينا يتقدمهم «الدكتور عبد الحميد يونس والأستاذ إبراهيم زكي خورشيد والأستاذ أحمد الشنتناوي»، حيث سجلت صفحات هذه الدائرة الموسوعية

معلومات مهمة عن ابن تيمية ، نختار منها القليل ، ومنه أن ابن تيمية كان يخالف أئمة الفقهاء في مسائل كثيرة ، مثال ذلك :

- كان يرفض العمل بالتحليل الذي تستطيع به امرأة طلقت طلاقا بائنا أن تتزوج مرة أخرى من زوجها بعد أن يعقد لها على رجل آخر «محلل» على أن يطلقها هذا الرجل بعد ذلك مباشرة .
- هجر المرأة أثناء الطمث باطل .
- المكوس التي لم يرد بها نص في القرآن مقبولة ، والذي يدفعها يعفى من الزكاة .
- ليس من الزندقة أو المروق أن ترى رأيا مخالفا للإجماع .

وطعن كذلك على الرجال الذين يعدون حجة في الإسلام .

فقد هاجم «الغزالي» بشدة. كما هاجم «محيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض» والصوفية بوجه عام . أما فيما يختص بالأول فقد طعن في آرائه الفلسفية التي ضمنها كتابيه : (المنقذ من الضلال) ، و(إحياء علوم الدين) الذي يحوي عددا كبيرا من الأحاديث غير الموثوق بها ، فقال : «المتكلمون والصوفية في واد واحد» ، وحارب في حماسة بالغة الفلسفة اليونانية ومنتحليها من المسلمين ، وعلى الأخص «ابن سينا وابن سبعين» : ألا تؤدي الفلسفة إلى الكفر ؟ ألم تكن في الأغلب مصدر الفرق المختلفة التي نشأت في صدر الإسلام ؟

ولم يتفق علماء المسلمين في سنية ابن تيمية ؛ ومن بين الذين يرمونه بالزندقة – على أقل تقدير– «ابن بطوطة ، وابن حجر الهيتمي وتقي الدين السبكي وابنه عبد الوهاب ، وعز الدين بن جماعة وأبو حيان الظاهري الأندلسي» ... وغيرهم، ومع ذلك فربما كان عدد الذين يمدحونه أكثر من عدد الذين يذمونه ، فمن بين الذين يمتدحونه : تلميذه ابن قيم الجوزية ، والذهبي ، وابن قدامة ، والصرصري الصوفي ، وابن الوردي ، وإبراهيم الكوراني ، وعلي القاري الهروي ، ومحمود الآلوسي» ... وغيرهم .

ونحن نعلم أن مؤسس الوهابية اتصل بعلماء دمشق الحنابلة ، فمن الطبيعي أن يكون قد استفاد من مؤلفاتهم ، وعلى الأخص من تعاليم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية . وأصول هذا المذهب الجديد هي التي كان يحارب من أجلها ابن تيمية المتكلم الحنبلي طيلة حياته ، وانتهى إلينا من بين آثار ابن تيمية الخمسمائة التي يقال إنه صنفها أكثر من ستين مصنفا هي :

1- رسالة الفرقان بين الحق والباطل.

2- معارج الوصول . (وهو تفنيد لقول الفلاسفة والقرامطة الذين يذهبون إلى أن الأنبياء قد يكذبون في بعض الأحيان) .

3- التبيان في نزول القرآن .

4- الوصية في الدين والدنيا (ويطلق عليه «الوصية الصغرى») .

5- رسالة في النية في العبادات .

6- رسالة العرض : هل هو كري أم لا ؟

7- الوصية الكبرى .

8- الإرادة والأمر .

9- العقيدة الواسطية .

10- المناظرة في العقيدة الواسطية .

11- العقيدة الحموية الكبرى .

12- رسالة في الاستغاثة .

13- الإكليل في المتشابه والتأويل .

14- رسالة الحلال .

15- رسالة في زيارة بيت المقدس .

16- رسالة في مراتب الإرادة .

17- رسالة في القضاء والقدر .

18- رسالة في الاحتجاج بالقدر .

19- رسالة في درجات اليقين .

20- كتاب بيان الهدى من الضلال في أمر الهلال .

21- رسالة في سنة الجمعة .

22- تفسير المعوذتين .

23- رسالة في العقود المحرمة .

24- رسالة في معنى القياس .

25- رسالة في السماع والرقص .

26- رسالة في الكلام على الفطرة .

27- رسالة في الأجوبة عن أحاديث القصاص .

28- رسالة في رفع الحنفي يديه في الصلاة .

29- كتاب مناسك الحج .

30- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

31- الواسطة بين الخلق والحق .

32- رفع الملام عن الأئمة الأعلام .

33- كتاب التوسل والوسيلة .

34- كتاب جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من : أن ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[1] ... تعدل ثلث القرآن .

35- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (وهو في الرد على رسالة بولس أسقف صيدا وأنطاكية) .

---

(١) الإخلاص : ١ .

36- الرسالة البعلبكية .

37- الجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبوية .

38- تفسير سورة النور .

39- كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول .

40- تخجيل أهل الإنجيل . (وهو رد على النصرانية) .

41- المسألة النصيرية . (وهي فتوى ضد النصيرية في الشام) .

42- العقيدة التدمرية .

43- اقتضاء الصراط المستقيم ومجانبة أصحاب الجحيم . (وهو في الرد على اليهـود والنصارى) .

44- جواب عن لو .

45- كتاب الرد على النصارى.

46- مسألة الكنائس .

47- الكلام على حقيقة الإسلام والإيمان .

48- العقيدة المراكشية .

49- مسألة «العلو» في التحدث عن الله .

50- نقد تأسيس الجهمية .

51- رسالة في سجود القرآن .

52- رسالة في سجود السهو .

53- رسالة في أوقات النهي والنزاع في ذوات الأسباب ... وغيرها .

54- كتاب في أصول الفقه .

55- كتاب الفرق المبين بين الطلاق واليمين .

56- مسألة الحلف بالطلاق .

57- الفتاوى .

58- كتاب السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية .

59- جوامع الكلم الطيب في الأدعية والأذكار .

60- رسالة العبودية .

61- رسالة زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور .

62- رسالة المظالم المشتركة .

63- الحسبة في الإسلام .

❊ ❊ ❊



القرن الثامن

1 – ابـــــن منظـــــور

2 – ابـــن قـــيم الجوزيـــة

3 – ابــن هــشام الأنــصاري

4 – ابـــــن بطوطـــــة

5 – الــشـــــــاطــبـي

6 – الذهـــــــــــبي

7 – أبــو القاســم الطهطــاوي

8 – التفتـــــــــــازاني

9 – البلقـــــــــــيني

10 – ابــــن خلـــــدون

8

هذا القــرن

نحن الآن وجها لوجه مع سنوات القرن الثامن الهجري ، وهو عصر يمتد مـن عام 1301 إلى 1397 الميلادي ، كما أنه عصر كانت فيه الدولة الإسلامية قـد تمزقـت إلى دويلات ، وكان التتار على الرغم من هزيمتهم في عين جالوت هزيمة منكرة على أيدي «قطز» والمماليك ، إلا أنهم مازالوا يغيرون على الـشام وسـوريا ، والـصليبيون مازالوا يطمعون في أرض المسلمين ، والولاة والحكام يرتشون ويبطشون ، والعلـماء ينافقون في أرض المـسلمين طمعـا في الجـاه والـسلطان... **باختـصار**.. هــو عــصر استشرى فيه الفساد وعـم ، فـدور اللهـو والحانـات أصـبحت أكثـر مـن المـدارس والمساجد ، والمـشعوذون والمتـسبون كـذبا إلى الـصوفية يبهـرون العامـة ويـؤثرون عليهم، والأمراء وكلهم من المماليك المجلوبين، هؤلاء الذين لهم قانون سري خاص توارثوه عن «جنكيزخان» ، والشيعة يعتصمون بالجبال في انتظار إمـامهم الغائـب ، والعامة يلتمسون العدل والبركة من الأضرحة ويكتبون إلى مـن في القبـور مظـالمهم وشكواهم من الحكام والمسئولين ، والحياة العقلية مزدحمة بكـل مـا لا يرضـاه عـالم ولا فقيه ولا حتى إنسان عاقل ... فنفوذ أدعياء الـصوفية والـشيعة أصـبح هـائلا ، ودارسو الفلسفة يستدلون على وجـود الله بأدلـة الفلـسفة اليونانيـة ... فيـا لـه مـن عصر!! ، ويا لها من مهمة التي يقوم بها المجددون !!

كذلك كانت حالة المسلمين في أقطار المغرب والأندلس،أسوأ حالا منها في بلاد المشرق ، ففي المغرب كانت الدولة من الضعف ؛ بحيث لا تقدر على مهاجمة أعدائها

من ملوك إسبانيا والبرتغال ، وإنما كانت تدفعهم عما بقي للمسلمين في الأندلس ، فتتمكن حينا من دفعهم ، وتعجز حينا آخر عن ردهم ، وكانت دولة بني الأحمر بغرناطة هي البقية الباقية للمسلمين في الأندلس ، ولكنها لم تكن تستطيع وحدها الدفاع عن البلاد ، بل كانت تستعين بدولة بني مرين بمراكش ، حتى ضعفت هذه الدولة بفعل الصراعات والانقسامات ؛ فأصبحت عاجزة عن مناصرة شقيقاتها من بلدان المغرب العربي .

لقد بلغ ضعف المسلمين في هذه الفترة حدا وصل إلى أنهم كانوا يستعينون بالفرنجة بين جندهم . ظنا منهم أن هؤلاء الفرنجة أعرف بشئون وفنون الحرب أكثر من غيرهم ، وأقوى وأشد في تحمل الشدائد والنزال .

ولم تكن الحالة العلمية بأفضل من هذه الحالة السياسية لدى المسلمين . وكما قلنا ازدادوا بعدا عن العلوم الفلسفية التي من شأنها النهوض بهم ، والجامدين من رجال الدين . والطامة الكبرى أن ملوك المسلمين وأمراءهم ، بل ورجال الدين كانوا يخضعون لهؤلاء الجهلة والمدعين من المتصوفة ، ويبالغون في تقديرهم واحترامهم وتعظيمهم ونفاقهم . وطبيعي والأمر كذلك أن يزداد النفور من العلوم العقلية ، وأعني بها العلوم الفلسفية ، وطبيعي أيضا أن تضعف همم العلماء ، وتفتر عزائمهم التي كانت تحملهم على الابتكار في العلم ، أو تغريهم على الوصول إلى حقائق الأشياء ، بل وظهر فيهم الميل الشديد إلى الاقتصار على معارف السابقين من العلماء في القرون الماضية .

ولا تقل الحالة الدينية والأخرى الاجتماعية سوءا عن الحالتين : السياسية والعلمية ، فالحالة الدينية استمرت على جمودها عند الفكر الأشعري ، والحالة الاجتماعية ساءت بسبب أن الملوك الجهلة من المماليك والأتراك المسيطرين على بعض بلاد المسلمين - خاصة العربية - كانوا لا يشعرون بشعور رعيتهم ولا تهمهم أحوالهم أو معيشتهم بأي حال من الأحوال .

كذلك نجد أوروبا هي الأخرى ينتابها الضعف ، خاصة وأن دولة الروم بدأت تأخذ طريقها إلى النهاية والزوال ، وبدأت دولها تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ لأن تركيا لم يبق من دولها وممالكها الواسعة سوى مدينة القسطنطينية ، وكذلك كانت روسيا في قبضة التتار ، وضعفت فرنسا ؛ فطمعت فيها إنجلترا التي استولت عليها بعد حرب طويلة .

وكما يقرر المؤرخون أن الإنجليز ازدادوا قوة ومنعة ، خاصة وأنهم استطاعوا أن يحلوا بعض المشاكل المتصلة بالصراعات الدينية ، وأن يظهر من بينهم العلماء الذين يعلنون بعد ذلك الثورة الصناعية .

ولذلك كله .. يمكن تبين أن المجددين في هذا القرن من المسلمين هم الذين يستطيعون أن ينفضوا عن أنفسهم غبار التقليد في العلم والدين ، ويدركوا مدى ما وصلت إليه الحركة العلمية في العالم ، ويعرفوا خطورة الاتجاه إلى الحفظ والاختصار والمتون ومتن المتون ، ولاسيما في العلوم الفلسفية أو خلط العلوم بعضها ببعض كما كان سائدا في هذا القرن ... خلط الفلسفة بعلم الكلام .

وعلى الرغم من سوء هذه الحالة التي كانت تمر بالمسلمين ، فقد برز من بينهم أفذاذ : الواحد منهم يماثل عصرا بأكمله ، وأخص بذلك «ابن خلدون» الذي سبق بالفعل عصره وبقية العصور التالية ؛ حيث استحدث نظريات في فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد ، وكان سابقا ومعلما لعلماء أوروبا قرونا عدة . كذلك هناك أيضا «ابن بطوطة» هذا الرحالة المغربي الذي سبق غيره من الرحالة الأوروبيين، واكتشف بقاعا جديدة في العالم، وهناك أيضا علماء وفقهاء يمثلهم «عمر سراج الدين البلقيني» و«ابن هشام الأنصاري» ، و«أبو إسحق الشاطبي»... وهو ما تتعرض له الصفحات التالية بالإشارة إلى كل منهم في إطار حركة التجديد في التفكير الإسلامي .

ابن منظــور

ابن منظور من مجددي القرن الثامن الهجري ، حيث ولد عام630هـ وتوفي عام 718هـ ، والمعـروف في التـاريخ الإسلامي باسـم : محمـد بن جـلال الـدين المكـرم ابن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن المكرم بن محمد بن منظور ابن رويفع الأنصاري ، من بني مالك .

اشتهر بنسبته إلى جده السابع : منظور ، إذ عنده يقف أكثر من ترجمـوا لـه ، ثـم يرفعونه بعد ذلك إلى رويفع جده الأعلى. لم يذكر هذه السلسلة متصلة غير ابن منظور نفسه نقلا عن جده الأدنى نجيب الدين فقال في قاموسه (لسان العرب) «جـرب» : «رويفع بن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار» «كما رأيته بخـط جـدي نجيـب الدين والد المكرم » ، ثم مضى يذكر النسب على النحو الذي مر بك .

وعلى حين لم يذكر حول هذا النص المكتوب بخط الجد خلاف ما حول الأسماء. ذكر السيوطي في كتابه (البغية) شيئا من هذا الخلاف ، ويكاد يكون هو الوحيـد مـن بين المترجمين المعتد بهم في هذا الصدد الـذي اسـتطرد في سرد نـسب صـاحب هـذه الترجمة إلى أن بلغ به جده منظورا ، فنجده ينقل «محمد بن المكـرم بـن عـلي - وقيـل رضوان» كما نجده لا يذكر ابن «حبقة» و«منظور» محمدا ، وقد تكون هـذه الأخـيرة على سبيل الاختصار ، ولكن الأولى تلفت النظر لانفراد السيوطي بهـا ولخلـو نـص الجد منها ، ورويفع هذا الذي ينتـسب إليـه ابـن منظـور نـزل مـصر وولاه معاويـة طرابلس ؛ أمره عليها سنة 46 هـ ، وفي سنة 47 هـ خرج رويفـع فغـزا إفريقيـة ، ثـم عاد من سنته .

ويذكر ياقوت في كتابه (معجم البلدان) في رسم (جربة) نقلا عن «حنش الصنعاني» يقول : «غزونا مع «رويفع بن ثابت» قرية بالمغرب يقال لها : جربة ، فقام فينا خطيبا فقال : « أيها الناس ، لا أقول لكم إلا ما سمعته من رسول الله - ﷺ - يقوله لنا يوم خيبر ، فإنه قام فينا خطيبا ، فقال : «**لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ما زرعه غيره** » . يعني إتيان النساء الحبالى .

ويقول «ابن عبد البر» في كتابه (الاستيعاب) إنه - أعني : رويفعا - مات ببرقة، وكان يليها من قبل مسلمة بن مخلد .

ويزيد ابن منظور فيما نقله عن جده ، «وقبره بها » كما يزيد رواية أخرى عن مكان موته فيقول : « وإنه مات بالشام فيما يقال ».

ومحمد هذا ، صاحب هذه الترجمة ، يكنى : أبا الفضل ، ويلقب «جمال الدين» وقد أجمع المترجمون له على أن مولده كان سنة 630 هـ .

وقال ابن شاكر الكتبي في كتابه (فوات الوفيات) «في أولها»، أي أول سنة 630هـ .

وقال السيوطي في كتابه (البغية) وابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة) : «في المحرم» . وقال الصفدي في كتابه (أعيان العصر) : ومولده في أول سنة ثلاثين وستمائة، ثم زاد فقال نقلا عن شيخه «أسير الدين» قال : ولد المذكور يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة . وقد اقتصر الصفدي على هذه الرواية الأخيرة في كتابه (نكت الهميان) وهذا ما ذكره أيضا ابن تغري بردي في كتابه (المنهل الصافي).

ولم يعرض لمكان مولد ابن منظور غير «الزركلي في الأعلام» حيث قال : «ولد بمصر وقيل بطرابلس الغرب » وما نراه نقل ما نقل عن مرجع بل نراه قد اجتهد في الاستنباط ، فالمراجع لم تذكر شيئا صريحا عن البلد الذي ولد فيه ابن منظور.

غير أن المعتمد من هذه المراجع - أعني : «أعيان العصر» و «النكت» و «الفوات» و «الدرر» و «المنهل الصافي» و «البغية» - تقول : «إنه خدم بديوان الإنشاء بمصر وولي قضاء طرابلس الغرب . ولعل هذه العبارة هي التي أوحت بهذا الاستنباط يرى فيها كل رأيه .

ولكنا إذا قرأنا لابن منظور مقدمة كتابه (نثار الأزهار) الذي اختصر فيه كتاب (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) لشرف الدين أحمد ابن يوسف التيفاشى ، نجده يقول: «وكنت في أيام الوالد - رحمه الله - أرى تردد الفضلاء إليه ، وتهافت الأدباء عليه ، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي العبسي في جملتهم ، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ، ولا أشاركهم فيما يلقونه ، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتابا صنفه أفنى فيه عمره، واستغرق دهره ، وأنه سماه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) وأنه لم يجتمع ما جمعه فيه كتاب ... وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه . وتوفي الوالد - رحمه الله - سنة خمس وأربعين وستمائة ، وشغلت عن الكتاب ، وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة . فلقد كانت وفاة التيفاشي سنة 651 هـ » .

إن ابن منظور في هذا الذي أورده يشير إلى مركز أبيه في مصر ، ويشير إلى مدة استقراره بها تلك المدة التي امتدت بعد أن ولي الإنشاء بمصر إلى أن مات .

وفي تلك المدة كان يختلف إليه التيفاشي وغيره ، ونحن نعرف أن ابن منظور ولد سنة 630 هـ ، وعرفنا من تصريحه هذا الذي مر أن أباه مات سنة 645 هـ ، ومن هنا نفيد أن عمر منظور كان يوم أن مات أبوه نحوا من خمسة عشر عاما . من هنا نستطيع أن نجد ما يفيد - دون قطع - أن ميلاد ابن منظور كان بمصر .

والذين يقولون إن مولده كان بطرابلس ، يذكرون اختلاف أبيه إليها لولاية قضائها ، ولا يجدون ما يدفع أن يكون ميلاد منظور سبق مجيء الأب إلى مصر ، فالأمر

كما يحتمل الأولى يحتمل الثانية . ولكننا إلى الأولى نميل لهذا الذي ذكره ابن منظور عن طفولته .

وليس عندنا بعد هذا الكثير عن تنشئة ابن منظور ، ولكننا نكاد نلمح شيئا في تلك الكلمة التي قدم بها لكتابه (نثار الأزهار) . فلقد عرفنا بطفولته وأنها كانت طفولة مشغولة بالعلم والتحصيل ، وعلى ما كان عليه الأب وكان عليه الجد نشأ ابن منظور ، حيث جذبته هذه الحركة العلمية التي صخب بها بيته منذ أن نشأ . ولقد كان في هذا البيت قبل ابن منظور جده الأول نجيب الدين والد المكرم ، وقد ذكر لنا ابن منظور نقله عما يتصل بسلسلة نسب هذا البيت ، وحدثتك أنا حديث الأب أو بعضه وحسبه أنه كان يلقب بـ : جلال الدين .

وبعد هذا الذي ذكره ابن منظور عن تطلعه إلى التحصيل يذكر لنا الذين حدثونا عنه شيوخا له سمع منهم لا يكادون يختلفون فيهم ، هم : « ابن المقبر ومرتضى ابن حاتم، وعبد الرحمن بن الطفيل ، ويوسف بن المخيلي » ، والغريب أن ابن منظور لم يعرض لواحد منهم بتعريف أو إشارة ، وهو يستطرد في ثنايا المواد اللغوية . كما أنه لم يفسح لهم مكانا في مقدمته التي قدم بها «اللسان» ، والتي كانت تتسع لهذا دون غيرها من مقدمات أخرى كثيرة قدم بها كتبا اختصرها .

وابن منظور الذي أهمل شيوخه لم يهمله تلاميذه ، فالمؤرخون لابن منظور يذكرون من بينهم «السبكي والذهبي» .

يقول الصفدي في (أعيان العصر) و (النكت) : وكتب عنه شيخنا شمس الدين الذهبي ، ويزيد السيوطي واحدا آخر فيقول في (البغية) : وروى عنه السبكي والذهبي . وما من شك في أن الذهبي أفرد لشيخه ابن منظور مكانا في تاريخه ، أشار إلى ذلك الصفدي في «أعيان العصر» «والسيوطي» في (البغية) ، وتكاد تكون المراجع جميعها تقول عن الذهبي ، على الرغم من إهمال بعضها الإشارة إلى ذلك . ونقرأ في

هذا الذي خص به الذهبي أستاذه الإنصاف له حين يقول عنه : تفرد في العوالي وكان عارفا بالنحو واللغة والكتابة .

وبعد هذين التلميذين نجد ذكرا لثالث ، هو «قطب الدين» ، ولد ابن منظور هذا، وكان قطب الدين كاتب الإنشاء بمصر . وذكروا له أنه روى عن أبيه شيئا .

والغريب أن «ابن تغري بردي» لم يشر إلى ابن منظور في كتابه (النجوم الزاهرة) عند ذكر وفيات سنة 711 هـ ، على حين أفرد له ترجمة في كتابه (المنهل الصافي) ، وكان كل ما كتبه عنه المقريزي في «السلوك» : «... ومات جمال الدين أبو الفضل محمد بن الشيخ جلال الدين المكرم بن علي في الثالث عشر من المحرم عن بضع وثمانين سنة ودفن بالقرافة ، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية ورؤساء القاهرة وأوائل كتاب الإنشاء ، ومن رواة الحديث » .

وقد دخل علينا المقريزي بهذا القليل الذي رواه عن ابن منظور بجديدين :

أولهما : أنه جعل وفاته في المحرم وفي ثالث عشرة ، على حين جعلها من ترجموا لابن منظور جميعا في شعبان .

وثاني الجديدين : أنه كان شافعيا ، وكان هذا يعني أن يترجم له تاج الدين السبكي في طبقاته ، وابن منظور أستاذ والده ، ولكنا لم نجد لابن منظور ذكرا في طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي .

وما نظن أنه كان للمقريزي مرجع نقل عنه غير الذهبي ثم الصفدي من بعده ، لكنا نراه يذكر ما لم يذكراه وما لم يذكره معاصر له وهو «ابن حجر» .

وتكاد مؤلفات ابن منظور تملي علينا نهجه وتحدد غرضه . يقول الصفدي في «أعيان العصر» : « واختصر كتبا وكان كثير النسخ ذا خط حسن ، وله أدب ونظم ونثر» . ويقول آخر : «وكان فاضلا وعنده تشيع بلا رفض ، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة وأتى بها يخجل النجوم الزاهرة ، وله شعر غامض على معانيه وأبهج به نفس

من يعـانيه . وكان قـادرا على الكتابة لا يمـل من مواصلتهـا ولا يولي عن مناضـلتها . لا أعرف في الأدب وغيره كتابا بطوله إلا وقـد اختـصره، وروق عنقـوده واعتـصره ، تفرد بهذه الخاصة البديعة ، وكانت همته بذلك في بدر الزمان وشيعة ».

ويقول ابن حجر : وكان مغرما باختصار كتب الأدب المطولة والتواريخ ، وكـان لا يمل من ذلك . وينقل الصفدي عن ولده - أي : ولد ابن منظور قطب الـدين - أن والده- أي ابن منظور- ترك بخطه خمسمائة مجلد في كثير من ألوان المعرفة، ولهذا ولغيره من أسباب اختاره عدد من المؤرخين واحدا من مجددي القرن الثامن الهجري .



ابن قيم الجوزية

اتفق معظم العلماء والمؤرخين على أن «محمد بن قيم الجوزية » من مجددي القرن الثامن الهجري ، فقد ولد عام 691 هـ ، وتوفي عام 751 هـ .

ولعل اسمه المعروف به «ابن قيم الجوزية» راجع إلى أنه كان ابنا للقيم على المدرسة الجوزية بدمشق في سوريا ، وقد كان - كما يذكر الدكتور «عوض الله حجازي» كمصدر يرجع إليه الأستاذ/ «عبد الله بن سعد الرويشد» في كتابه : (قادة الفكر الإسلامي) .

إن ابن القيم من ألمع تلاميذ ابن تيمية ، ويعتبر تفكيره امتدادا للحركة الإصلاحية السلفية الواسعة التى أقام صرحها شيخه ، فقد كان الوارث لذلك التراث العلمى الضخم الذي خلفه ابن تيمية ، فعمل على تنظيمه وتبويبه ونشره ، ونصب نفسه مدافعا عن آرائه في حماس لا مزيد عليه ، وإن كان يخالفه أحيانا في بعض النظريات والفتاوى .

وابن القيم هو : محمد بن أبي بكر الدمشقى الملقب بشمس الدين ، والمكنى بأبي عبد الله ، كان أبوه قيما ومديرا لشؤون المدرسة المعروفة بالجوزية نسبة إلى مؤسسها «محيى الدين بن الجوزي» ، ومن هنا اشتهر مجددنا باسم ابن قيم الجوزية أو ابن القيم . وكانت أسرته أسرة علم وفضل .

ولد ابن القيم بدمشق في 7 من شهر صفر 691 هـ ، ونشأ متأثرا ببيئته العلمية ، فاندفع منذ نعومة أظفاره إلى تحصيل العلم ، حيث وجد السبيل ممهدا أمامه ، فتثقف ثقافة عامة في جميع أنواع العلوم ، وشاملة في جميع نواحى التفكير في زمانه ، واتصل بكبار العلماء ، فدرس عليهم التفسير والأصول وعلم الكلام والفقه والعربية

وغيرها من العلوم ، وقد قال تلميذه «عبد الرحمن بن رجب» صاحب كتاب (طبقات الحنابلة) في هذا الصدد : « تفنن ابن القيم في علوم الإسلام ، فكان عارفا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين إليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط لا يلحق في ذلك، وبالعربية له فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام ... وغير ذلك » . وهو لم يقتصر على الأخذ عن الشيوخ ، بل أقبل على قراءة كل ما وقعت عليه يده من التصانيف رغم كثرتها ، إذ كان ولوعا بالمطالعة ، صبورا عليها ، صاحب رغبة صادقة في اقتناء الكتب ، وقد حدث بهذا ابن حجر في كتابه (الدرر الكامنة) فقال : «كان مغرما بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا» . وهكذا وفر لنفسه وسائل دراسة العلوم حتى ألم بجميعها ، واطلع على كل ما بذله علماء الإسلام من محاولات التوفيق بين الدين والعقل وحل المشكلات الاعتقادية .

تتلمذ ابن القيم على المصلح الكبير ومحيى السنة : «أحمد تقى الدين بن تيمية» واتخذه مثلا أعلى ، فلازمه منذ سنة 712 هـ حين عاد من مصر إلى دمشق حتى وفاة أستاذه سنة 728 هـ . وأخذ عنه علما جما واقتبس منه اتجاهه الحر في البحث ، واتبع مذهبه ، ونهج منهجه في مقاومة الطوائف المنحرفة عن عقيدة السلف . وقد جرت عليه هذه الصحبة وهذا الاتحاد في الاتجاه عنتا ومحنا أصابه منها ما أصابه شيخه من أذى واعتقال .

كذلك تأثر ابن القيم بكثير من علماء عصره ، لكنه لم يتأثر بواحد منهم مثلما تأثر بشيخه ابن تيمية الذي كان يحله محل والده ، يوجهه ويرسم له المناهج القويمة ، ويسدي إليه النصائح الرشيدة . من ذلك ما ذكره ابن القيم معبرا عن تأثره هذا : «ما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعى بوصية شيخى عندما قال لي : لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل الإسفنجة فيتشربها فلا ينضج إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهره ولا تستقر فيه ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ».

تشبع ابن القيم بآراء أستاذه الجريئة ، واقتنع بمبادئه الإصلاحية السلفية ، وتألم مثله بما كان يشاهده في عصره من الضلال والشرك ، ومن انحلال اجتماعي وسياسي، وتناحر مذهبي وطائفي جعل المسلمين في حال تشتت وفوضى ، فانطلق يؤيده في كفاحه الإصلاحي في حياته ، ويواصل تحقيق أهدافه بعد مماته ، وكانت هناك وحدة في الاتجاه ، واتفاق في المقاصد والأغراض ، فدعا مثل أستاذه إلى التحرر الفكري ونبذ التقليد ، وبين أن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه لكل من وجدت فيه الأهلية وتوافرت لديه أدواته ، كما دعا إلى الوحدة وجمع الكلمة بالرجوع إلى الكتاب والسنة وتحكيمهما في كل اختلاف واقع بين المذاهب ، وبذلك يقع اختيار ما هو الأحسن والأوفق .

اكتسب ابن القيم من شيخه ، قوة في الجدل ، وإقامة الحجة ، غير أنه كان هادئا صبورا في جداله ومعارضاته على خلاف ما عرفت من حدة وثورة في شيخه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابن تيمية كان زعيم هذه الحركة الإصلاحية وحامل لوائها ، فاشتد النزاع بينه وبين خصومه مما ألجأ كلا من الطرفين إلى أن يستغل ما يملك من جهد للإطاحة بالآخر ، فلما خلفه ابن القيم كان النزاع قد فترت حدته وخفت وطأته ؛ لأن فكرة الإصلاح وجدت سبيلها إلى الأنفس ، وحصلت على مناصرين عديدين ، فصارت تعتمد على الهدوء والاتزان .

وعن مذهب ابن القيم يسجل الأستاذ «الرويشد» راجعا إلى بعض المصادر الإسلامية المهمة ، فيذكر أن ابن القيم كان كأستاذه لم يتعصب لمذهب الحنابلة ، وإن كانت نزعته حنبلية ، فهو يتبع الحق ويسير معه حيث سارت ركائبه ، ومن شواهد هذا أنه بعد ما تعرض لآراء الفقهاء في توزيع الزكاة وخمس الغنائم، أيد مذهب مالك وأهل المدينة الذي يرى أن يكون الإعطاء في الأصناف المذكورة في آيتي الزكاة والغنيمة ، ولا تجب القسمة عليهم جميعا ولا التسوية بينهم فيها ، وفي ذلك يقول

محتجا لرأيه : « ومن تأمل النصوص وعمل الرسول - ﷺ - وخلفائه وجدها تدل على قول أهل المدينة ، فالرسول كان يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام ، ويعين الأخماس في أهلها مقدما الأهم فالمهم ، فيزوج منه عازبهم ، ويقضي منه ديونهم ، ويعين ذا الحاجة منهم ، ويعطي عازبهم حظا ، ومتزوجهم حظين ، فقد ثبت في الصحيح أنه - ﷺ - قسم يوم حنين في المؤلفة قلوبهم من الفيء ، ولم يعط الأنصار شيئا ، فعتبوا عليه ، فقال لهم : ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتنطلقون برسول الله - ﷺ - تقودونه إلى رحالكم ، فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » .

وعن عوف بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتاه الفيء قسمه من يومه ، فأعطى ذا الأهل حظين وأعطى العزب حظا ، فلم يكن الرسول ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية ولا على التفضيل ، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة .

وكما أنه لم يتعصب لمذهب الحنابلة كان لا يتعصب أيضا لآراء أستاذه ؛ حيث كان يعارضها في قوة ودقة إن بدت له ضعيفة المستند لا تتوافق مع الفهم السديد في رأيه .

ولقد عاش ابن القيم في عصر ضعفت فيه شوكة المسلمين ، نتيجة للخلافات والاضطرابات التي جعلتهم متفرقين ، وأدرك أنه لا تتأتى لهم النجاة من هذا الانحلال إلا بجمع صفوفهم تحت راية واحدة ، وإزالة ما بين هذه الفرق المتعددة من خلاف في الآراء ، ورأى مثل أستاذه : أن خير طريق يحقق هذا هو العودة بالأحكام إلى ما كان عليه السلف الصالح من تحكيم الكتاب والسنة ، ونبذ التقليد الذي قضى على التحرر الفكري ، ومحاربة التلاعب بالدين عن طريق ما يسمى بالحيل، وتفهم روح الشريعة بما يتناسب ومقاصد الشرع ، إذ كان يرى أنه أهدى

الفرق سبيلا ، وأفضل الناس بعد الأنبياء هم أصحاب رسول - ﷺ - ، والتابعون لهم ، وتابعو التابعين ، وأن معرفة أعمالهم وأقوالهم في علوم الدين خير وأنفع ؛ لاتصالهم بالرسول - ﷺ - أو قرب عهدهم به .

وقد انتحى ابن القيم في طريقته الاجتهادية نفس المنحى الذي انتحاه ابن حنبل، وابن تيمية ، فرأى أن الكتاب والسنة هما الأصلان الأولان للاستنباط ، ولا يجوز تجاوزهما إلى غيرهما مادام يوجد الحكم فيهما، واستدل على هذا بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا** ﴾[1]، واعتبر الإجماع في المرتبة الثالثة ، ويرى أنه عدم العلم بالمخالف منهم ، أما الإجماع بمعنى اتفاق مجتهدي الأمة على الحكم فقد استبعد وجوده .

واعتمد القياس ، واستدل عليه بكتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما ، وباستعمال القرآن له في غير موضع ، مثل قياسه الخلق الجديد الذي أنكره الكفار على خلق السماوات والأرض : ﴿ **لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ** ﴾[2] وبوروده في السنة ، ومن ذلك حديث عمر رضي الله عنه عندما قال للرسول : «صنعت اليوم يا رسول الله أمرا عظيما : قبلت وأنا صائم ؟ فقال له الرسول : «**أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟**» فقلت : لا بأس بذلك . فقال : «**فصم**»[3] .

وأخذ بالمصلحة المرسلة حيث لا نص ، ومن هذا قوله بإلزام الصناع القيام بعملهم إن امتنعوا . وقال بسد الذرائع ، وبالغ في الاعتداد به ، واستدل له بعديد من

(١) الأحزاب : ٣٦.
(2) غافر : ٥٧ .
(3) أبو داود / باب الصوم / ٣٣ .

الأدلة ، منها أن الشارع نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه ، أو يستام على سومه ، أو يبيع على بيعه ، وما ذلك إلا لأنه ذريعة إلى التباغض .

وقرر أن العرف له تأثير عظيم في كثير من أحكام التشريع الإسلامي ، وأن الدعاوى قد يؤيدها العرف ، وما يؤيده منها فهو أقرب للحق من غيره ، وأنه يجري مجرى اللفظ في عديد من المواضع ، فأجاز للإنسان ذبح شاة غيره وقد أشرفت على الهلاك حفظا لماليته ، وقد رمى المخالف في ذلك بالجمود حيث قال : «ولم يعلم هذا اليابس أن التصرف في ملك الغير إنما حرمه الله لما فيه من الإضرار به . وترك التصرف هنا هو الإضرار بعينه » .

وزيادة على تنقيحه وترتيبه لكتب أستاذه ابن تيمية ، ألف ابن القيم عديدا من الكتب أوصلها بعضهم إلى ستة وستين في موضوعات مختلفة ، وهي تدل على ثقافته الواسعة ، وإلمامه بكثير من علوم عصره إلمام المتخصص المتبحر ، حتى إن المطالع لكتبه يتملكه العجب من متانة الأسلوب ، وحسن الديباجة ، وعمق النظر ، وحرية التفكير ، وسعة الاطلاع ، وكان في أسلوبه طويل النفس يذكر المسألة الواحدة فيشبعها بحثا وتمحيصا ، ويقيم عليها الأدلة العقلية والنقلية . وكانت طريقته في أكثر بحوثه أن يذكر النص أولا فيجعله أساسا لبحثه ، ثم يشرع في استنتاج المسائل منه . وبهذا خالف غيره من المؤلفين الذين كانوا يعرضون المسألة ثم يؤيدونها بالدليل .

وأشهر تآليفه – في التفسير :

1– في البيان في أقسام القرآن : تفسير المعوذتين ، تفسير الفاتحة .

2– في الحديث : كتاب تهذيب السنن لأبي داود ، الوابل الصيب من الكلم الطيب ، الداعي إلى أشرف المساعي .

3– في الفقه وأصوله : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، الصلاة وأحكام تاركيها ، تحفة المودود وأحكام المولود .

4- في الوعظ والإرشاد : مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، طريق الهجرتين وباب السعادتين .

5- في علم الكلام : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، الكافية في الانتصار للفرقة الناجية ، هداية الحيارى من اليهود والنصارى .

6- في السيرة النبوية : زاد المعاد في سيرة خير العباد .

ويبدو أن ابن القيم من خلال تآليفه كان مفسرا ، محدثا ، فقيها ، متكلما ، مؤرخا أديبا ، لغويا ، مطلعا على كتب الأديان السابقة من يهودية ومسيحية وغيرهما ، كما كان محيطا بما يمكنه من رد شبهات أهل الزيغ عن التعاليم الإسلامية الصحيحة .

ولهذا ولغيره من أسباب .. اعتبر المؤرخون ابن القيم الجوزية من مجددي القرن الثامن الهجري .



ابن هشام الأنصاري

ابن هشام الأنصاري : أحد مجددي القرن الثامن الهجري ، وأحد الصالحين القلائل الذين يجمعون بين الفقه في الدين والتفقه في اللغة . فإلى جانب اهتمامه البارز بالقضايا الفقهية على المذهبين: الشافعى والحنبلى، وكتابته عددا من المؤلفات في شرح هذين المذهبين ، فإنه قد عنى عناية فائقة بعلم النحو ، الأمر الذي جعل العلامة «عبد الرحمن بن خلدون» يذكره في مقدمته الشهيرة على أنه من المراجع الموثوق بها في هذا العلم على وجه التحديد ، ومفضلا إياه على الكثيرين من علماء النحو ، وفي مقدمتهم سيبويه ، للدور الجليل الذي قام به في عملية تيسير النحو بشكل يضمن سلامة اللغة العربية ، وفي الوقت نفسه يؤكد ثراءها وجلالها ، وسعة استخداماتها .

وابن هشام الأنصاري من مواليد القاهرة ، حيث ولد سنة ثمان وسبعائة . ونشأ بها ، وتلقى دراسته الأولى في دور العلم المتاحة وقتئذ ، فالتحق بمكاتب تحفيظ القرآن الملحقة بالمدارس ، والخانقاوات المنتشرة في ذلك الوقت . حيث تعلم شيئا من العلوم الدينية إلى جانب إتمامه حفظ القرآن الكريم وهو لم يزل صبيا صغيرا ، بل وأتقن إلى حد كبير قواعد اللغة العربية إتقانا شد انتباه أساتذته ، خاصة وهو في هذه السن المبكرة . حتى إذا أتم المرحلة التمهيدية في التعليم التحق بالمدارس التى تطور تعليمه فيها ، فدرس أصول الدين ، كالفقه والحديث والتفسير وكذا علوم اللغة كالنحو والصرف والبيان ، فضلا عن دراساته العقلية للفلسفة ، والمنطق ، وعلم الكلام .

وكما تسجل الدكتورة «سعاد ماهر» في تأريخها لمسجد هذا الرجل الصالح ، بالإشارة إلى تاريخ حياة هذا العالم الفقيه ، بأن حياته العلمية كانت حافلة بألوان من

النشاط الفكري ، إذ لم يقتصر جهده على التدريس بمدارس مصر فحسب ، بل تجاوزها إلى غيرها من مراكز العلم والثقافة في البلاد العربية. فرحل إلى مكة، وجاور بها ، وقرأ ودرس كتاب سيبويه عدة مرات ، واطلع على غيره من كتب علماء اللغة ، إلى جانب لقاءاته بعدد من علماء الأمة الإسلامية وقتئذ .

لقد أقام ابن هشام في مكة لغرض العلم والدين سنة كاملة ، قام فيها بتأليف كتاب في الإعراب ، ورجع إلى مصر ليبقى بها سنتين أو ثلاثا ، يعود بعدها مجاورا في مكة ، حيث اطلع على كل ما كتب في علوم اللغة من نحو وصرف وبيان ، وقد أعانته هذه الاطلاعات الواسعة على ما أنتجه العقل في كل هذه المناحي اللغوية .. على تأليف كتابه : (المغني).

وطبيعي.. وقد ولد ابن هشام ونشأ حياته في مصر أن يتزوج منها، وينجب عددا من الأبناء ، يشتهر منهم ومن أحفاده العلماء والفقهاء والأدباء ، وأن يتتلمذ على يديه وعلى أيدي أبنائه كثير من العلماء والفقهاء والأدباء ، حتى أصبح مألوفا أن يقال عنه وعن ذريته في الكتابات القديمة : «هكذا ظلت غرسة العلم التي استنبتها ابن هشام بكده وكدحه في أسرته .. يتوالى على العناية بها من بعد أبناؤه وأحفاده إلى زمن غير قصير ، ويستظل بها طلاب العلم والمعرفة في أكثر من جيل وأكثر من مكان ».

والحق أن ابن هشام قد أخذ عن شيوخه وأساتذته ، سواء في مصر أو في الحجاز– الشيء الكثير ، فقد انتفع بما لديهم من علوم العصر وفنونه ، وكان ما انتفع به خير عدة ، وأصلح ذخيرة ، انتفع بها في حياته العلمية والفقهية ، فأثبت تفوقه وتقدمه عن جدارة ، حيث بز علماء وفقهاء عصره في القاهرة وفي مكة ، سواء في الفقه اللغوي أو الديني ، أو التأليف ، أو التدريس .

ففي الفقه يحدثنا «ابن إياس» عن جهود ابن هشام ، فيذكر أنه كان شافعي المذهب ، حيث نشأ وتربى على هذا المذهب ، ودرس الفقه الشافعي عندما كان يقرأ

(الحاوي الصغير) للإمام الشافعي ، كذلك كان يدرس التفسير على المذهب الشافعي ، وله في ذلك كتابات وتلاميذ .

غير أن ابن هشام لم يقتصر في دراسته على المذهب الشافعى ، فقد انتقل إلى المذهب الحنبلى قبل وفاته بسنوات قليلة ، وله في ذلك كتابات ودروس كثيرة ، وربما لو طال به الزمن لكانت تتساوى مع كتاباته ودروسه في الفقه الشافعى ، الذي أنفق في قراءته وتأمله وتفسيراته الجانب الأكبر من حياته - ومع قصر الفترة التي اهتم فيها بالفقه الحنبلي نراه قد استفاد وأفاد من كان بعده .

وفي علوم اللغة لا يقل إسهامه فيها عن الإسهام في العلوم الفقهية .. وقد كان ابن هشام موضع تقدير معاصريه من العلماء والمؤرخين لما قدمه في هذا المجال من جديد بز به السابقين من النحاة .

لقد قال عنه السبكي : «إنه نحوي هذا العصر».

ولقبه الصفدي «بشيخ النحاة» .. وترجم له «ابن مفلح المقدس» فقال : «إن ذكر ابن هشام سار في الآفاق ، وانتهت إليه مشيخة النحو في الدار المصرية ، وأنه كان متفردا في هذا الفن على وجه التخصيص ».

وقال عنه «ابن تغري بردي» : «وأما العربية فكان من المشار إليها فيها ، والمعمول على كلامه عنها ، وهو فارسها ، ومالك زمامها ، وله فيها التصانيف المفيدة الجيدة».

يصفه «ابن حجر» بأنه كان فاضلا ، متواضعا ، تقيا ، صالحا ، ثم يقول عنه : «إن ابن هشام الأنصاري انفرد دون غيره من أبناء زمانه بالفوائد الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحقيقات البالغة ، والاطلاعات المفرطة ، والاقتدار على التصرف والكلام ..».

وذكره السيوطي فقال : «كان أوحد عصره في تحقيق النحو ، وكان صالحا خيرا دينا ...» .

وترجع الدكتورة سعاد ماهر تفوق ابن هشام الأنصاري في النحو إلى استفادته من عدد من العلماء والفقهاء فتقول : «لقد درس ابن هشام العربية على «ابن المرحل» الذي كان إماما في النحو ، مدققا فيه ، عارفا باللغة وعلم البيان والقراءات .. وعلى «الشيخ تاج الدين الفاكهاني» الحديث ، والفقه ، والأصول العربية والأدب ، وسمع من «الشيخ شمس الدين بن السراج» الذي وصفه ابن الجزري بأنه كان ينقل القراءات نقلا جيدا ، وإليه انتهت الرياسة في تجديد الكتابة (الخط) وإسناد القراءات بالديار المصرية .

كذلك تفقه في الحديث على يد قاضي القضاة «بدر الدين بن جماعة» الذي كان محدثا فقيها ، كما حضر دروس «الشيخ تاج الدين التبريزي» ، الذي يقول عنه الإسنوي: «إنه كان مطلعا على غالب الفنون والفقه والنحو والحساب والفرائض».

وعن تحول ابن هشام عن مذهبه الشافعي إلى المذهب الحنبلي ، تقول الدكتورة سعاد ماهر : « إن ابن هشام لم يكن الفقيه الوحيد الذي تنقل من مذهب إلى آخر ، فهناك «الشيخ أبو حيان المالكي» الذي تحول إلى المذهب الشافعي ، فلما سئل عن السبب في ذلك أجاب : «بحسب البلدة» . وغيره كثير من العلماء والفقهاء ، مثل «الشيخ ابن مالك المالكي» الذي تحول إلى المذهب الشافعي ، و«ابن الدهان البغدادي» الذي تفقه على مذهب أبي حنيفة أولا ثم انتقل إلى مذهب الشافعي لما تولى تدريس النحو بالمدرسة النظامية في بغداد ، التي ينص واقفها على أن يكون واجبا على من يتولى تدريس النحو بها أن يكون شافعيا ..».

ولم يقتصر تقدير ابن هشام العلمي على معاصريه ، أو على من جاء بعده من العلماء المصريين بمئات السنين ، بل إن تقديره امتد ليعرفه قراء ابن خلدون من الأجانب، حيث ذكره في مقدمته فقال: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : ابن هشام النحوي الأنصاري .. أنحى من سيبويه ..».

ويضيف ابن خلدون عند حديثه عن كتابه (مغني اللبيب) لابن هشام قائلا : «فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ، وموفور بضاعته ..».

وهكذا .. كانت شخصية ابن هشام الفقيه النحوي .. شخصية تجمع بين التفقه في العلوم الدينية إلى جانب التفقه في العلوم اللغوية ، فكان موضع احترام علماء وفقهاء زمانه ، وظل كذلك إلى أن توفاه الله في عام واحد وستين وسبعمائة للهجرة ، فيقام له ضريح شأنه شأن الأولياء الصالحين في مواجهة باب النصر خارج سور القاهرة القديم ، يعرف بضريح الإمام الصالح ابن هشام الأنصاري .



ابن بطوطة

محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم الطنجي الشهير بابن بطوطة: أحد مجددي القرن الثامن الهجري ، حيث ولد عام 703 هـ (24 فبراير 1304م) في طنجة . بدأ بالحج إلى مكة عام 725 هـ (1325م) عن طريق شمال إفريقية ، فمصر العليا، فالبحر الأحمر ، ولم يستطع أن يجد هناك وسيلة آمنة لعبور البحر ؛ فعاد أدراجه ، ووصل إلى غايته عن طريق الشام وفلسطين ، ومن مكة اخترق العراق ، ثم زار بلاد العجم ، كما زار الموصل وديار بكر ، وزار مكة للمرة الثانية وقضى فيها عامى 729 و 730هـ، وذهبت به رحلة ثالثة إلى جنوبي بلاد العرب فإفريقية الشرقية ، وعاد منها إلى الخليج الفارسى ، ومن هرمز رجع إلى مكة ثم عاد إلى آسيا الصغرى وبلاد القرم عن طريق مصر والشام ، وزار القسطنطينية في حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزبك . ومن الفلجا اخترق خوارزم وبخارى وأفغانستان في طريقه إلى الهند ، وولي القضاء في دهلي ، واشترك بعد عامين في بعثة سياسية إلى الصين ، ولكنه لم يصل إلا إلى جزائر المالديف Maldives حيث ولي القضاء مدة عام ونصف عام ، وذهب من هناك إلى الصين عن طريق جزيرة سيلان والبنغال والهند الأقصى ، وليس من المحقق أنه تجاوز زيتون Zaitun وكانتون Canton . ثم رجع إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سومطرة ونزل إلى البر في المحرم 748 هـ عند ظفار ، وبعد رحلة في بلاد العجم والشام وما بين النهرين قام من مصر إلى مكة لأداء فريضة الحج للمرة الرابعة، ثم عاد فاخترق شمال إفريقية ، ودخل مدينة فاس في شعبان عام 750 هـ ، وبعد أن مكث فيها مدة طويلة ذهب إلى غرناطة . وقادته رحلته الأخيرة الطويلة إلى بلاد السودان بإفريقية عام 753 – 754 هـ : فزار تمبكتو ومالي ، ثم رجع إلى مراكش عن طريق واحتي غات وتوات ؛ وهناك أملى أخبار رحلته على العالم «محمد بن محمد

ابن جزي» فكتبها ابن جزي في أسلوب أدبي تأثر فيه كثيرا بكتاب ابن جبير ، ومات ابن جزي عام 757 هـ .

هذا بعض ما سجلته دائرة المعارف الإسلامية في تناولها للمادة الخاصة بالرحالة المغربي ابن بطوطة.. وتوضيحا لما جاء في هذه المادة الموسوعية، لعلنا نستأنس بما كتبه المؤرخ الإسلامى الدكتور «محمد مصطفى زيادة» من تعليق يدور حول ما كتب في دائرة المعارف ، وبالتالي يدور حول هذه الشخصية ، فنتبين أن ابن بطوطة توفي سنة 770 هـ (1368- 1369م) ، وأن اسمه موجود حتى الآن بمراكش ، وأن له بمدينة الإسكندرية ، التى زارها ابن بطوطة، في أول سفرة له، طريقا سمى باسمه. ثم إنه لما كان ابن بطوطة لواتيا أولا، طنجيا ثانيا، فإن موطنه الأصلى بلاد برقة، قرب الحدود المصرية الغربية ، حيث كانت مساكن قبيلة لواتة ، إبان ظهورها بكتب التاريخ .

ولقد أنجبت أسرة ابن بطوطة عدة قضاة ، منهم الرحالة نفسه ، وابن عم له كان قاضيا بمدينة أندة ، بين إشبيلية ومالقة بالأندلس الإسلامية . فابن بطوطة إذا وليد أسرة عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية، أي: الدينية ، وهو- على حد التعبير الأوروبي- من أبناء الطبقة الدينية العليا ، في المجتمع الإسلامى في القرون الوسطى. ولذا .. فالراجح أنه درس العلوم الدينية ، وتفقه فيها ، يضاف إلى هذا أنه تعلم الأدب ، ومارس الشعر ، ودرس اللغة الفارسية ، كل ذلك في بطن مجلدات كتابه . الذي حققه فيما بعد الدكتور «عبد الهادي التازي» .

وفي سن الحادية والعشرين سافر ابن بطوطة وحده من طنجة ، في الثاني من رجب 725 هـ (14 يونيه 1325 م) لأداء فريضة الحج ، فاتخذ طريق الحج المعتاد من بلاد المغرب ولحق بقافلة غرضها الحج مثله . ويظهر أن علمه وتدينه قرب إليه قلوب أفراد القافلة ، فعينوه قاضيا عليهم قبيل مسيرهم من تونس .

زار ابن بطوطة قاضى الإسكندرية عندما وصلها، ونزل ضيفا على أحد علمائها، المسمى : «برهان الدين» ، ثلاثة أيام ، من مدة إقامته هناك . ولقد توسم فيه برهان الدين حب التجوال ، وأوصاه إذا ذهب إلى الهند ، أو السند ، أو الصين أن يزور

أفرادا سماهم له ، ويظهر أن أطراف هذا الحديث المبروك حركت في قلب الشاب ابن بطوطة عزما على زيارة جميع البلاد الإسلامية ، وأن هذا العزم قوى عزم نفسه ، بعد تجاربه أثناء السفر إلى مكة، ذلك أنه زار في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين، وكان مقيما بقرية قبالة بلدة فوه على النيل ، فرأى في منامه – وهو عنده – أنه زار مكة واليمن والهند على جناحى طائر أخضر: وقد قص رحالة المستقبل رؤياه على الشيخ، ففسرها بأنه سيزور مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند . ومما قوى عزم ابن بطوطة أيضا أنه لم يستطع الذهاب إلى مكة عن طريق عيذاب المصرية ، فاضطر إلى السفر إلى مكة مع الركب الدمشقي .

وحدث أنه وصل دمشق قبل قيام الركب بشهور ، فصرف وقته في زيارة الشام جميعها ، حتى حدود آسيا الصغرى ، وذاق حلاوة السفر والتجوال لغير غرض سوى الاستطلاع والاستمتاع .

ليس بغريب إذا .. أن يغرم ابن بطوطة بالتجوال والترحال بعدما سمع من عالم الإسكندرية وشيخ فوه ما سمع ، وبعد ما رأى من أرض الشام ما رأى ، وأن يزيد هذا الغرام كلما زاد هو في أسفاره ، لاسيما وأن مركزه الدينى سهل عليه كثيرا من عثرات التنقل ووعثاء السفر ، لأنه كان موضع التجلة والاحترام ، في معظم الأمكنة التي حل بها .

ويتجلى حب الاستطلاع الذي حمل ابن بطوطة إلى الأماكن النائية كالهند والصين ، فيما ورد في كتابه عن هذين البلدين ، كما يتجلى أيضا اهتمامه برجال الدين وأمور الدين في كل صحيفة من كتابه . وهذا كله يميز كتاب (تحفة النظار) عن كتب الرحلات ، فإنه ليس كتابا وصفيا للبلاد والجبال والأنهار التى رآها ابن بطوطة ، بل هو عبارة عن مجموعة من الصور التى امتزجت بالتاريخ الاجتماعى في الإسلام أكثر منه كتابا في تقويم البلدان التقليدي ، ولعل هذا هو التجديد الذي أتى به ابن بطوطة.

* * *

الشاطبي

ابن غرناطة بالأندلس المسلمة ، إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي، أحد مجددي القرن الثامن الهجري. الذي كان يشتهر في التاريخ الإسلامي بأبي إسحق الشاطبي ، كما كان يعرف في مجال العقيدة والدين ، والتفكير الإسلامي بوجه عام بأنه كان محدثا ، فقيها ، لغويا ، مربيا ، فقد جمع كل هذه الجوانب في شخصيته التي قلما تجتمع لرجل واحد . هذا إلى جانب أنه برع في كل جانب من هذه الجوانب . ففي مجال الحديث كان دقيقا محددا لا يتحدث في شيء إلا وهو مدرك تماما مصادره في مظانها الأولى ، وفي مجال الفقه كان لا يعمل إلا وهو واثق تماما مما يعمل في تفقيه الناس ، وفي مجال اللغة وبحثها كان يجول في بحارها مستخرجا لآلئها من مخزونها الثري بكل عزيز وجميل ، وفي مجال التربية لعله كان متفردا متميزا عن علماء وفقهاء عصره في أنه أتى بجديد في مجالها كما سنرى بعد قليل.

هذا العالم والفقيه المتعدد الجوانب عاش في غرناطة ، ولعله قضى جانبا من حياته في مدينة شاطبة بالأندلس، ولذلك نسب إليها على غرار عالم آخر هو «القاسم ابن فيره» الذي سبق الحديث عنه في هذه الصفحات ، وفي غرناطة تلقى العلم على أيدي عدد من علماء زمانه الموجودين بالأندلس ويتقدمهم : التلمساني ، والسبتى ، وغيرهما، واستفاد من بعض خصائص وسمات الثقافة العربية الإسلامية، وقدرتها على الأخذ والعطاء ، التأثير والتأثر، وعلى هذا .. فلم يقتصر على ما تلقاه من العلم ، بل اجتهد في طلب المزيد منه سواء من الأندلس، أو مما حولها من الحواضر الإسلامية وقتئذ، تلك التى كانت تعج بالعلم والعلماء.. حتى أصبح من كبار العلماء، بالصورة التي جعلته يستطيع أن يناقش كبار الأئمة والعلماء في الكثير من الموضوعات التي

تهم معاصريه ، ولهذا .. أصبح بيته ملتقى لكل صاحب حاجة في الفقه أو في اللغة أو التربية أو في الحديث الشريف وتفسيره .. وأصبح من أكبر علماء وأئمة الأندلس .. وذلك لحرصه الشديد على اتباع الكتاب والسنة ، واقتدائه بما جاء عن الصحابة والتابعين وتابع التابعين . وفي الوقت نفسه كان رافضا للبدع والشبهات تلك التى تضلل المسلمين وتصرفهم عن أمر دينهم الحقيقى والأكثر تقسيماتهم إلى شيع وأحزاب ، وهو ما ينهى عنه ديننا الذي قام على الوحدة والتماسك في أمة واحدة .

ولعل حرصه الشديد على اتباع أمر ديننا ، وإنهائه عن اتباع البدع والشبهات قد تسبب عنه الكثير من الخلافات مع بعض الأئمة الذين كانوا يتساهلون في السماح بها والموافقة – أحيانا – عليها إرضاء للعامة ، حيث لم يسلك أسلوب هذا النفر من الأئمة والعلماء . ولعله في ذلك كان يسلك مسلك علماء المسلمين الأوائل ، الذين كانوا يرفضون مسايرة العامة ، والعمل على توجيههم إلى أمر دينهم الصحيح ..

وتأسيسا على ذلك .. فقد كان الشاطبي لا يأخذ الفقه إلا من الكتب الموثقة ، ولعله أشار إلى شيء من ذلك في كتابه «الموافقات» حيث قال مخاطبا غيره : «وأما ما ذكرتم من عدم اعتمادي على التآليف المتأخرة ، فليس ذلك مني محض رأي ، ولكنني اعتمدته بحسب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع المتأخرين ، كابن البشير وابن الحاجب ومن بعدهما . ولأن بعض من لقيته من العلماء أوصاني بالتحامي عن كتب المتأخرين ، وأتى بعبارة خشنة ، ولكنها محض النصيحة ، والتساهل في النقل عن كل كتاب جاءه لا يحتمله دين الله ، ومثلما إذا عمل الناس بقول ضعيف ، ونقل عن بعض الأصحاب : لا تجوز مخالفته ، وذلك مشعر بالتساهل جدا ، ونص ذلك القول لا يوجد لأحد من العلماء فيما أعلم ..».

وتستوقفنا من هذه الإشارة قوله : «وأتى بعبارة خشنة» ، والتي نقلها عن صاحبه «أبي العباس القباب»– كما يذكر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» – حيث

يقول مجددنا الشاطبي : إن ابن بشير وابن شاس ومن بعدهما أفسدوا الفقه ، وكان يقول أي الشاطبي : شأني في عدم الاعتماد على التقاليد المتأخرة ، إما للجهل بمؤلفها أو لتأخر أزمنتهم جدا ، فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا أقتنيه، وعمدتي- أي : مصادري الأساسية - كتب الأقدمين من المشاهير ».

وهكذا .. كان لهذه النزعة الإصلاحية عند الشاطبي أثرها في كتابين من كتبه ، وهما : كتاب (الموافقات) ، وكتاب (الاعتصام). فأما كتاب «الموافقات» فهو في علم أصول الفقه ، وهو يقوم على ركنين : **أولهما** علم اللغة التي نزلت الشريعة بها ، **وثانيهما** علم أسرار الشريعة ومقاصدها ، وقد اهتم الذين ألفوا في علم أصول الفقه بالركن الأول وهو علم اللغة ، ولكنهم أهملوا الكلام على الركن الثاني باستثناء إشارات إليه في باب القياس . فلما وضع الشاطبي كتاب «الموافقات» سلك في هذا العلم مسلكا جديدا : أبى أن يدور فيه مثل الذين داروا : من قبله ، ومن عاصره فاهتم بهذا الركن الثاني ، وقسم الشريعة إلى أربعة أنواع ، ثم أخذ يفصل كل نوع منها ، وأضاف إليها مقاصد المكلف في التكليف ، وبسط هذا الجانب من العلم في اثنتين وستين مسألة ، وتسعة وأربعين فصلا ، مبينا كيف كانت الشريعة مبنية على مراعاة مصالح الناس ، وأنها نظام عام لجميع البشر دائم وأبدي ، حتى لو فرض بقاء الدنيا إلى غير نهاية .

وهذه الناحية من التجديد لها قيمة عظيمة ؛ لأنها تقضي على جمود الذين يفتون في الشريعة عند دلالة النصوص في ذاتها ، ويغفلون النظر في مقاصدها وأهدافها وأغراضها. وبهذا.. يكون للشاطبي ذلك الفضل الكبير بالطبع بعد الإمام الشافعي؛ لأنه سبق العصر الحديث بمراعاة ما يسمى بروح الشريعة أو روح القانون ، وذلك في اهتمامه بمقاصد الشريعة وأهدافها وأغراضها .

وأما الكتاب الثاني «الاعتصام» فهو في نقد الحياة الدينية الاجتماعية بين المسلمين ، وبيان ما دخل فيها من البدع المذمومة ، ولاسيما البدع الدينية ، كالتزام المصلين في البقاء بعد الصلاة لقراءة الأذكار والأدعية حتى كادت أن تكون شعارا من شعائر الدين . وقد ذهب في ذلك إلى أن ذلك بدعة ، وكل بدعة في الدين مذمومة فهي ضلالة لا يحسن اتباعها .

وقد تناول بالنقد أمرين على جانب كبير من الأهمية .

أولهما : مذهبه في إحداث «الربط»، وهي بخلاف «الربط» التزام سكناها بقصد الانقطاع للعبادة ، وهي أيضا بخلاف «الربط» من الحصون والقصور التي كانت تبنى بقصد الرباط فيها ، لأن هذه الربط تدخل في وظيفة الجهاد ، وهو أصل من أصول الدين المعروفة ، فلا يمكن أن يقال عنها بدعة من البدع ، بخلاف الانقطاع للعبادة في تلك «الربط» ، وقد ذكر الشاطبي أن أصحابها يتعلقون ويتمسكون فيها بالصفة التي كانت في مسجد النبي - ﷺ - ، ليجتمع فيها فقراء المهاجرين ، ثم رد على ذلك بأن حالة اجتماع فقراء المهاجرين بمسجد النبي الكريم كانت حالة «ضرورة» كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ **لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ** ﴾[1] ، فإنه قال سبحانه وتعالى : «اخرجوا» ولم يقل «خرجوا» ، فهم قد أخرجوا من ديارهم وأموالهم اضطرارا ولم يمكنهم بناء دور بالمدينة بعد الهجرة إليها لفقرهم . فآواهم النبي - ﷺ - في مسجده ولا يجوز التعلق بهذه الصفة.

والشاطبي هنا لا يخالف إلا في بناء الربط والزوايا للانقطاع للعبادة ، أما الانقطاع للعبادة في مسجد أو منزل فلا يعارضه ، بدليل إقراره لما كان عليه سلف هذه الطائفة من الزهد والانقطاع للعبادة في غير هذه الربط وهذه الزوايا .

(١) الحشر : ٨ .

وثانيهما : مذهبه في علم الكلام ، فقد ذهب مذهب كل من ابن تيمية وابن قيم الجوزية حيث يكون مجددا في ناحية الفقه وأصوله ، وإن كان دونهما في ذلك وجامد بل ومتشدد في العقائد .

يضاف إلى ذلك موقف تجديدي ينسب إلى الشاطبي ، ويحسب له في ميزان التجديد في الإسلام أراه جديرا بالاهتمام إلى جانب ما أشار إليه الأستاذ الصعيدي ، هذا الجانب يتعلق باحتواء كتاب «الموافقات» ، وهو جانب على قدر كبير من الأهمية وهو الخاص بالتربية والتعليم ، حيث جاء ببحث مهم في التوجيه المهني ، مبينا ضرورة العناية بالغرائز والميول والاستعدادات التي فطر عليها كل صبي في مقتبل العمر ، وإعداده للمهنة التي يصلح للعمل بها ، وربما يبرز فيها . فيكون له شأن في المستقبل .. ولعل هذا الجانب من تفكير الشاطبي يمكن أن يقال عنه باطمئنان : إن صاحبه كان سابقا أصحاب نظريات التربية وعلم النفس من المحدثين ، الذين اهتموا بوضع الفرد المناسب في المكان الذي يمكن أن يفيد منه المجتمع ، والذي يتوافق مع قدراته وإمكاناته ، ولن يتأتى ذلك إلا بالعناية بالغرائز والميول والاستعدادات الفطرية التي نبه إليها الشاطبي قبلهم بأكثر من سبعة قرون .



الذهبـي

مؤرخ الإسلام وفقيهه : الحافظ شمس الدين الذهبى ، واسمه : شمس الـدين ابن محمد بن أحمد بن عثمان بن فايماز الفارقي الدمشقي ، من مجـددي القـرن الثـامن للهجرة ، حيث عاش ومات ما بين عامي 673 هـ ، 748 هـ .

ولعل شـهرته – كمـؤرخ – كانـت بـسبب سـفره العظـيم وعنوانـه : (تـاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) تحقيق الأستاذ «محمـد محمـود حمـدان» ، هـذا السفر يتفرع إلى عدة مجلدات تنقسم إلى قسمين رئيسيين : **أحدهما** تدور مادة مجلداته حول المغازي الكـبرى في بـدء الإسـلام وظهـوره ، باعتبارهـا مـن الحـوادث التـى اشتملت عليها السنوات الأولى من التاريخ الهجري للإسلام ، **والقسم الثـاني** يـدور حول أحداث السيرة النبوية الشريفة ، عـلى اعتبـار أن تـاريخ وفـاة النبـى – ﷺ – ، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى كانت سنة إحدى عشرة للهجرة كما هو معروف أي : بعـد حدوث هذه المغازي.

وقبل أن نتعرف على بقية مؤلفاته ومنها كتـاب (الكبـائر) لنـا أن نتعـرف عـلى مؤلفها الحـافظ الـذهبى ، حيـث نقـرأ مـا كتبـه محقـق الكتـابين (تـاريخ الإسـلام) و(الكبائر) الأستاذ «محمد محمـود حمـدان» ، حيـث يـسجل أن مولـد الـذهبي كـان بدمشق ؛ ولذلك فاسمه نسب إليها «الدمشقي».

ونشأ الذهبى – في الربع الأخير من القرن السابع الهجـري – نـشأة يـسرت لـه طلب العلم وحببته إليه وأعانته عليه ، فكان بين أهل بيته وذوي قرابتـه غـير واحـد ممن يعنون بطلب الحديث ويحضرون مجالس السماع للسلف الـصالح ويـروون عـن الشيوخ ، منهم عمته «ست الأهل بنت عـثمان» (653– 729 هــ) وقـد أرضـعته في

طفولته ، وكانت تطلب الحديث وترويه ، وأجاز لها جماعة من الشيوخ الذين روى عنهم الذهبى فيما بعد ، كما روى هو عنها . ومنهم خاله «على بن سنجر بن عبد الله الموصلى» ، ثم الدمشقى ، (658 – 736هـ) ، وقد سمع مع الذهبي ببعلبك من التاج عبد الخالق ، وروى عنه الذهبي أيضا.

وبدأ الذهبي تحصيله وهو في نحو الخامسة من عمره ، حيث التحق بمكتب أحد المؤدبين بدمشق ؛ وهو «علاء الدين على بن محمد الحلبي» المعروف بالبصبص ؛ فمكث به أربعة أعوام ، عرف فيها قدرا من علوم الدين واللغة والأدب ، ثم نشط لحفظ القرآن الكريم ، فلزم «الشيخ مسعود بن عبد الله الصالحي» المقرئ الذي لقنه القرآن ، وقد جرد عليه الذهبي نحوا من أربعين ختمة .

وفي سنة 691 هـ كان الذهبى قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وانفتح أمامه باب العلم واسعا ؛ فانصرف إلى دراسة القراءات وطلب الحديث . أما القراءات فقد بدأ دراستها على «الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن داود بن ظافر العسقلاني» ، ثم الدمشقي ، المشهور بالفاضلي ؛ شيخ القراء. وفي الوقت نفسه كان يشرع بالجمع الكبير على الشيخ «أبي إسحاق إبراهيم بن غالي بن شاور» الحميري الشافعي ، نزيل دمشق وشيخ الإقراء بالتربة الأشرفية ومن أعيان القراء .

وقد جمع الذهبي ، كما يقول تلميذه : «الحافظ الحسيني» ، القراءات السبع على الشيخ «عبد الله بن جبريل المصري» ، نزيل دمشق فقرأ عليه ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني ، وكتاب (حرز الأماني) لأبي القاسم الشاطبي .

وذكر الذهبي في معجم شيوخه أنه قرأ كتاب (المبهج في القراءات السبع) لسبط «الشيخ أبي منصور الخياط البغدادي» ، و(السبعة) «لابن مجاهد» ، وغيرهما ، على شيخه «أبي حفص عمر بن القواس» المتوفى سنة 698 هـ ، وسمع (الشاطبية) من غير واحد من القراء .

وأما الحديث فقد وجد فيه بغيته فأوى إليه وطال اشتغاله به، ووقف عليه عمره كله، وسمع ما لا يحصى كثره من الكتب والأجزاء، ولقي الجم الغفير من الشيوخ والشيخات، وتعددت رحلاته في طلب السماع، فزار كثيرا من مدن الشام، ورحل إلى فلسطين ومصر والحجاز، وقد بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم أو أجازوا له نيفا وألف شيخ، سردهم في (معجم الشيوخ الكبير)، وذكر جماعة منهم في خاتمة كتابه (تذكرة الحفاظ).

وفي سنة 703 هـ أسند إليه أمر الخطابة بمسجد كفر بطنا، وهي قرية مشهورة في غوطة دمشق، وكانت مسقط رأسه، فأقام بها حتى سنة 718 هـ. وخلال هذه الفترة انصرف إلى القراءة والتأليف إلى جانب قيامه بالتدريس.

وقد بدأ بتلخيص عدد كبير من أمهات الكتب في التاريخ، وتراجم الرجال التي أفاد منها عندما شرع في تأليف كتابه الكبير (تاريخ الإسلام) في هذه الفترة نفسها، وقد استغرق تأليفه ما يربو على عشر سنوات.

وفي سنة 718 هـ أسندت إليه مشيخة دار الحديث بتربة أم الملك الصالح، وكانت من كبريات دور الحديث في دمشق، فأقام بها واتخذها سكنا له إلى آخر حياته، وفيها توافر على التأليف، فأنجز الكثير من كتبه ومصنفاته الكبار، حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفا كما قال عنه الحافظ «ابن حجر».

وسطع نجم الذهبي في سماء دمشق، واستفاضت شهرته، وشهد له معاصروه من شيوخه وتلاميذه بالامتياز والنبوغ، وتعاظمت مكانته العلمية، وقصده طلاب العلم من كل مكان، ونادته السؤالات من كل ناد، ورغب الناس في كتبه وتداولوها قراءة ونسخا وسماعا. وتوالى اختياره ليتصدر أكبر دور الحديث ومدارسه في دمشق، وقد ولي منها مشيخة دار الحديث الظاهرية، والنفيسية، والفاضلية والتنكزية، فضلا عن تربة أم الملك الصالح. وقد ظل يجمع بينها ويباشر التدريس والإقراء فيها إلى حين وفاته.

وقد روى «الصلاح الصفدي» في ترجمته للذهبي من كتابه (نكت الهميان) قال: «أخبرني العلامة قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن علي السبكي الشافعي قال: عدته ليلة أن مات، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال: في السياق. وكان قد أصيب - رحمه الله تعالى - قبل موته بأربع سنين أو أكثر، بماء نزل في عينيه، فكان يتأذى ويغضب إذا قيل له: لو قدحت هذا لرجع إليك بصرك، ويقول: ليس هذا بماء، وأنا أعرف بنفسي، لأنني ما زال بصري ينقص قليلا قليلا إلى أن تكامل عدمه».

وتوفي الحافظ الذهبي ليلة الاثنين ثالث شهر من ذي القعدة سنة 748 هـ. وعملا بطاعة الله عز وجل وقوله في كتابه الكريم:

﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾[1]، وقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[2].

وإزاء هذا الأمر الصريح من الله سبحانه وتعالى إلى عباده المؤمنين باجتناب الكبائر، فقد اهتم علماء المسلمين منذ عهد بعيد بتبيين هذه الكبائر وتحديدها تحديدا دقيقا، في ضوء ما ورد عنها في القرآن الكريم، وفي أحاديث النبي - ﷺ - ووضعوا في ذلك كتبا وصل إلينا بعضها، وطوى الزمن البعض الآخر، ومن أهم الكتب التي وصلتنا كتاب (الكبائر) من تأليف مؤرخ الإسلام المحدث الحافظ أبي عبد الله الذهبي.

وقد سبق طبع هذا الكتاب لأول مرة منذ أكثر من خمسين سنة اعتمادا على نسخة سقيمة وغير موثقة ومشكوك في نسبتها إلى المؤلف. إلا أنه نظرا لأهمية الكتاب من الناحية الدينية، ولارتباطه باسم مؤلفه الحافظ الذهبي من ناحية أخرى، فقد لقي الكتاب إقبالا شديدا من القراء، واستحوذ على عقول العامة

(١) النساء: ٣١.

(2) النجم: ٣٢.

والخاصة على السواء ، حتى لقد أعيد طبعه عشرات المرات نقلا عن طبعته الأولى التي تفتقر إلى التحقيق العلمي السليم .

وقد قامت الدار المصرية اللبنانية بإصدار كتاب (الكبائر) في نشرة جديدة علمية ومحققة تحقيقا على أكبر قدر من الدقة والإحاطة واستيفاء عناصر التوثيق الذي تقتضيه قواعد نصوص التراث ، وذلك بالاعتماد على نسخ الكتب المخطوطة بدار الكتب المصرية ، وبالمقابلة على نسخ أخرى مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة . وقد قام بتحقيق هذه النشرة العلمية وقدم لها وعلق عليها وخرج أحاديثها ، ووضع فهارسها الأستاذ / «محمد محمود حمدان» ، حيث اعتمد هذا الفصل عن مجددنا المؤرخ شمس الدين الذهبي ، سواء في التعريف به، أو في الاطلاع على مؤلفاته ، وأهمها : (تاريخ الإسلام) و(الكبائر).



أبو القاسم الطهطاوي

« الرجل الصالح : أبو القاسم الطهطاوي ، أحد مجددي القرن الثامن الهجري. قبل الإشارة إلى سيرته ودوره ، نشير إلى كل من علمى : الظاهر والباطن ، ليتضح لنا هذا الدور الذي تميز به عن غيره من كبار رجال الصوفية .

وللعلم بالشيء أساليب وطرق ، فهناك العلم بالنقل ، وهو العلم المعروف . ويتأتى للمرء بالرجوع إلى معارف من سبقوه... ينقل منها ما شاء له النقل ، شريطة أن يرجع المصادر إلى أصحابها .

وهذا العلم، ينشأ من كون المعرفة تراكمية ، بمعنى : أن معارفنا كخلف مستقاة من معارف السابقين علينا من السلف ، وبهذا يتوارث العلم الخلف عن السلف ، ولا يمنع هذا النقل عن السلف ، من إضافات للخلف ، يضيفونها إلى ما تركه السابقون ، كل حسب جهده وتفكيره ورؤيته لما بين يديه من مادة علمية تركها السابقون ، وبهذا تتراكم المعارف الإنسانية جيلا بعد جيل ، في تسلسل يحفظ لكل حقوقه فيما أضاف ، وليس هناك إنسان لا يعتمد على معارف من سبقوه إلا آدم عليه السلام ، حيث لم يسبقه بشر ينقل عنه المعارف العلمية .

وهناك العلم بالعقل ، وهذا يعتمد على العلم بالنقل ، فيتأمل المرء ما تركه السابقون ويتدبره ، ويحلله ، وينتهى إلى نتائج تختلف عما سبقوه ، ويكون ذلك بإعمال عقله ، وهو بذلك يرتقى بعلم السابقين ويطوره ويضفى عليه من ذاته أحكاما ونتائج جديدة ، طبقا لخطوات علمية مشروعة ، يقرها العقل الإنساني .

وهذا العلم مشروع حتى في تفكيرنا الإسلامي ، ذلك ؛ لأنه يعتمد أساسا على العقل وتفكيره ، والتفكير فريضة من فرائض الإسلام ، به أمرنا الله عز وجل في

آيات كثيرة تدعو إلى إعمال العقل وتدبيره ، حتى في شأن التعرف على الله عز وجل والإيمان به ، فلم يقدم ذاته سبحانه وتعالى في ألغاز وأساطير ، وإنما قدمها في تأمل صنعه في خلقه وتدبر ذلك ، ولعل هذا هو الإيمان الذي يطلب من المسلم أن يهتدي إلى الله بعقله وتفكيره ، لا أن يكون الإيمان تلقينا بغير علم أو وعي أو فهم ، ولهذا يقولون : إن عبادة العالم خير وأنفع من عبادة الجاهل . إذ إن الأول يعمل تفكيره ، وإذا اهتدى فإنه يهتدي عن اقتناع لا يداخله شك أو ريبة .

كذلك هناك العلم عن طريق القلب وشفافيته ، وهو لا يتأتى بالدرس على الآخرين ، أو النقل عنهم ، وإنما يهبه الله عز وجل في قلب من يشاء من عباده ، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم ، لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده ، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل في قلب من شاء من عباده ، ولعل هذا هو أعلى مراتب العلم ؛ لأنه هبة إلهية للذين يستحقونها من عباده ، هؤلاء الذين أخلصوا لله عز وجل ، ولم يشغلهم عنه سبحانه أي من شواغل الحياة الدنيا ، وانصرفوا عن الدنيا وزهدوا فيها، وهذا النوع من العلم لا يتأتى إلا للأولياء الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأكبر مثل على ذلك هو الخضر عليه السلام ، الذي يلم علما وهبه الله عز وجل له في قلبه دون غيره .

وطبيعي .. أن يكون لهذا العلم درجات حسب قرب العبد من ربه عز وجل .

ويبدو أن علم الشيخ الصالح «أبي القاسم الطهطاوي» من هذا النوع الأخير ، وإلا فما معنى أن يذكر عنه مؤرخوه - وفي مقدمتهم : «أحمد رافع الطهطاوي» - في كتابه : (الثغر الباسم في مناقب سيدي أبي القاسم) و«محمد عبده الحجاجي» في كتابه: (شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر الإسلامي) بأنه لم يتلق درسا ولا علما من أحد ، وأنه لم يجلس حول عالم أو فقيه يأخذ على يديه علوم العقيدة والدين ، ولكنه استهل حياته سائحا هائما في الجبل المقابل للبلدة التي اختارها

مستقرا له : «طهطا» والمعروف بجبل «الساهرة» ، والذي يقع في الجانب الشرقي من هذه المدينة.. بمحافظة سوهاج ... وأنه كان يستمر في سياحاته الروحية شهورا طوالا ، ولا يأكل إلا من عشب الأرض ، وينتقل من مكان إلى مكان ، متدبرا في صنع الله ، ولا يفتر لسانه عن ذكره ، حتى يقول كل من «أحمد رافع» و«الحجاجي» : « وذات يوم حينما فرغ من صلاته وجد شخصا واقفا خلفه ومعه طعام ، فقدمه إليه وقال له : كل وارجع إلى بلدك . فقد أذن لك في الأكل ، وحان وقتك . فقال له أبو القاسم : من أنت ؟ فقال له الرجل : أنا أخوك الخضر . فأكل ، وشرب من تلك العين التي كانت بجواره ، ومن ثم بدأت شهرته تتسع ، وبدأ نجمه يتألق كعلم من أعلام التصوف الإسلامي في القرن الثامن الهجري . وقد أيده الله سبحانه وتعالى بالكرامات ، وأجرى على لسانه الحكم ونوابغ الكلم ، ورفع له المكانة من الخلق ، وملأ الصدور من هيبته ووقاره ... فقصد الناس من مختلف مدن الصعيد للتبرك به ، ومن ناحية ثانية كان رضى الله عنه لا يستقر في مكان أو بلد ؛ حيث كان يتجول ويسيح في مختلف مدن الصعيد ، وخاصة قنا التي كان يزورها باستمرار ، حيث يوجد قبر أستاذه : «عبد الرحيم القنائي» .

ويذكر مؤرخو هذا الشيخ الصالح : أنه تعرض للكثير من الإنكار من علماء عصره ، ومن جملة ما يقوله عنه الإمام العالم المعني «شمس الدين الراعي» : «.. وقد حضر إليه جماعة من أكابر علماء مصر ، من جملتهم الإمام المفتي ، أحد المجددين في المائة الثامنة للهجرة : «سراج الدين البلقيني» بقصد السلام عليه ، واختبار حاله ، وأضمر كل من الحاضرين حاجة في نفسه ، فتحدثوا معه ، ثم سألوه عن علوم كثيرة وهو يجيبهم عنها ، ثم سكتوا . فتكلم أبو القاسم الطهطاوي بكلام عظيم لم يفهم منه الحاضرون إلا اليسير ، فنظر بعضهم إلى بعض كالمنكرين عليه في هذا العلم . فنظر هو إليهم ، وأنشد قائلا :

وما علمنا نقل ولا بدراسة ... ولكن به الأنوار ضاءت من القلب

فقاموا جميعا احتراما له ، وسألوه الدعاء فدعا لهم ، وكاشف لكل منهم ما أضمره في نفسه ... » .

وقد عاش هذا الشيخ الصالح - كما يذكر مؤرخه «أحمد رافع» - حياة لا تعرف الفتور أو الكسل ، بل كان دائما يسعى إلى بناء الفرد الصالح المؤمن بالله حق الإيمان ، حتى توفي في مستهل المحرم من عام 762 في عصر السلطان المملوكي «قلاوون» عن عمر يناهز التسعين عاما . ليدفن في زاوية أنشأها في حياته بمدينة طهطا التي نسب إليها ، وصار له فيها أولاد وأحفاد كثيرون ، من بينهم : رائد النهضة الفكرية في العصر الحديث «رفاعة رافع الطهطاوي» أحد أحفاد أحفاده .

ولم يترك هذا الشيخ الصالح آثارا علمية مكتوبة ، اللهم إلا أقواله وحكمه التي استقرت في قلوب تلاميذه ومريديه على مر السنين ، والتي سجلها هؤلاء المريدون والتلاميذ في كتابات عنه . ومن بين هذه الأقوال أقواله في علوم الطريق ، والتي تدل على قدمه الراسخة في ميدان التصوف ، وكذلك حكمه التي يقول عنها بأنها تنطلق على قلوب العارفين بلسان التصديق ، وفي قلوب العباد بلسان التوفيق ، وفي قلوب الموحدين بلسان التذكير ، وفي قلوب المحبين بلسان الشوق .. » .



التفتـازاني

«سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني» ، المشهور في التاريخ الإسلامي باسم «التفتازاني» مجردا ، نسبة إلى مسقط رأسه «تفتازان» وهي قرية كبيرة من أعمال خراسان قريبة من مدينة «نسا» موطن عدد من العلماء والفقهاء .. هذا العالم الجليل المشهور في البلاغة والمنطق والميتافيزيقا أي : ما وراء الطبيعة ، وعلوم الكلام والفقه والنحو والأصول والتفسير وفقه اللغة .. وغيرها . يعتبر التفتازاني من مجددي القرن الثامن الهجري حيث ولد عام 722هـ وتوفي عام 792هـ .

أخذ العلم على العالم الحجة : «عضد الدين الإيجي» ثم قطب الدين : «الرازي» وبعد أن تحقق له قدر عظيم من العلم ، بدأ في ممارسة الوعظ والفتوى والتأليف ، حيث تزودنا دائرة المعارف الإسلامية بثبت كامل عن مؤلفاته وتواريخ وأماكن تأليفها، حيث كان هذا المجدد دائم الترحال . وكان أول هذه المؤلفات هي: (المطول) و(المختصر) و(المعاني) و(التلويح) وغيرها من الكتب كما سيأتي في آثاره المتنوعة .

وقد عرف «عبد الرحمن بن خلدون» فضل التفتازاني عندما اطلع على مؤلفاته المطبوعة بمصر ، فذكره في مقدمته ذكرا طيبا ، كما أثنى عليه المستشرق الفرنسي : «دي سلان» .

والآن .. هل نحن في حاجة إلى المزيد من المعرفة عن هذا المجدد ، وجوانب من فكره المتنوع ؟ فلنرجع إلى هذه الجوانب ، **وأولها** : تدور [حول النحو] وفي مقدمتها كتابا : (شرح التصريف العربي) الذي تحدث عنه «بروكلمان» في تاريخه حديثا طيبا إلى جانب القيام بترجمته في أكثر من لغة ، كما يذكر المستشرق «ناليتو» ، والكتاب

الثاني في النحو بعنوان (إرشاد الهادي) وله مخطوطة في فيينا ، ويذكر «حاجي خليفة» عدة شروح لهذا الكتاب منها : شرح محمد بن علي الجرجاني ، وشرح شمس الدين محمد بن محمد البخاري ، ومخطوطته الأصلية محفوظة في الإسكوريال بإسبانيا .

والجانب الثاني من آثار التفتازاني ويدور [حول البلاغة] ، ويتصل من قريب أو من بعيد بالبيان المعول عليه لهذا الفن الوارد في القسم الثالث من كتاب (مفاتيح العلوم) للسكاكي ، واثنان منهما شرحان على كتاب : (تلخيص المفتاح) «للقزويني» المعروف بخطيب دمشق . وعلى هذا .. فكتب التفتازاني في البلاغة ينقد منها ثلاثة كتب : (المطول) و(مختصر المعاني) و(شرح القسم الثالث من مفتاح العلوم) .

والجانب الثالث يدور [حول المنطق] ، وأهم كتبه : كتاب (شرح الرسالة الشمسية) وهو شرح لرسالة الكانتي في المنطق كما يذكر المستشرق الألماني «بروكلمان» وتبعه في ذلك العرب ، والكتاب الثاني : (تهذيب المنطق والكلام) والثالث كتاب : (شرح العقائد النسفية) وهو شرح لكتاب عمر بن محمد النسفي في عقيدة المسلمين .

والجانب الرابع من تفكير التفتازاني ، يدور [حول ما وراء الطبيعة] . ومن أهم كتبه : كتاب (المقاصد) وهو موجز في : ما وراء الطبيعة والكلام أتمه المؤلف وشرحه في سمرقند ، وكتاب : (في الرد على ابن عربي) وبالتحديد : الرد على كتاب : (نصوص الحكم) «لابن عربي» . وهذا الكتاب الخاص بالرد ، مخطوطته موجودة في برلين .

والجانب الخامس يدور [حول الأصول] ، ومن أهم كتبه : (التلويح إلى كشف حقائق التنقيح] وهو شرح كتاب : (تنقيح الأصول) لصدر الشريعة الصغير : «عبيد الله بن مسعود المحبوبي» ، وكتاب : (شرح المختصر في الأصول) وهو شرح على كتابي كل من : الإبجي ، وابن الحاجب .

والجانب السادس ، ويدور [حول الفقه] بوجه عام ، ومن أهم كتبه : (المفتاح) في فروع الفقه الشافعي ، إلى جانب ذلك مجموعة من الفتاوى في فروع الفقه الحنفي، وكتاب (اختصار شرح الجامع الكبير) وهو تلخيص موجز مع الشرح لكتاب: (الجامع الكبير) للإمام الشافعي، ومخطوطة هذين الكتابين موجودة في برلين والهند .

والجانب السابع ، وتدور مادته [حول التفسير] ، ومن أهم كتبه : (كشف الأسرار وعدة الأبرار) وهو تفسير للقرآن الكريم باللغة الفارسية ، (شرح على الكشاف) وهو تعليقات على شرح «الزمخشري» وتشمل هذه التعليقات من سورة البقرة إلى سورة هود ، ومن سورة الزمر إلى سورة الطلاق من القرآن الكريم .

والجانب الثامن والأخير من أعمال التفتازاني هو : [حول اللغة] ، ومن أهم كتبه : (النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ) وهو شرح على ذخيرة الزمخشري الموسومة بالكلم النوابغ ، وكتاب : (ترجمة نثرية) باللغة التركية لديوان «سعدي الشيرازي» المعروف بالبستان .

هذه الجوانب من تفكير الإمام التفتازاني تعتبر المصادر الأولى لكل ما كتبه العلماء والفقهاء ، أو المصادر العمدة للثقافة العربية الإسلامية . والمدهش أن أغلب مخطوطاتها محفوظة في المكتبات العالمية في ألمانيا وإسبانيا وفرنسا ، وأنها تجد عناية خاصة من المستشرقين خاصة «بروكلمان» حيث يعتبرها الأساس للعلم الذي اشتملت عليه . هذا بالطبع إلى جانب الاهتمام بها في ثقافتنا العربية ، سواء بالتأثير بها أو بالتعليق عليها . يستوي في ذلك ما قدمه العلماء والفقهاء والأدباء : «قدماء ومحدثين» ولذلك .. يعد التفتازاني من مجددي القرن الثامن الهجري .

* * *

البلقيني

أبو حفص عمر بن رسلان بن نصير البلقيني ، عالم وفقيه . اختلف المؤرخون والعلماء في أمر تجديده في الإسلام ، وتساءلوا : هل هو بالفعل أحد المجددين في القرن الثامن الهجري ، أم أنه غير ذلك ؟

فكما سبق أن ذكرنا أن للتجديد في الإسلام شروطا ومواصفات اصطلح عليها علماء الدين وفقهاؤه ، في مقدمتها ألا يقصد بالتجديد فرقة دون فرقة ، أو مذهبا دون آخر .. بل يهدف القائل بالتجديد إلى خير المسلمين ، كما يقصد أن ينهض بهم جميعا ، ليجمع بينهم على غاية من التجديد ، ويجعل كلمتهم واحدة فيما يقصده من النهوض بهم ، ولا يصح أن يكون لمذهب المجدد في الدين أثر في غايته من التجديد ، ولا فيما يرمي إليه من النهوض بالمسلمين .

ولذلك .. رأى العلماء والفقهاء أن من تصير غايته هي التجديد بهذه المعاني جميعها لا يضره بعد هذا أن يكون سنيا ، أو شيعيا ، أو غير ذلك من فرق المسلمين . لأنه في دعوته إلى التجديد . إن كان جادا وصادقا ينسى مذهبه الديني ولا ينظر إلا إلى أنه مسلم لا غير .

ولذلك .. فإن الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» يناقش مسألة أحقية البلقيني بلقب المجدد فيقول : «ولا يذكر من ذهب إلى أن البلقيني كان مجدد القرن الثامن إلا أنه بلغ رتبة الاجتهاد ، وكان له ترجيحات في مذهب الشافعي خلاف ما رجحه النووي ، واختيارات خارجة عن هذا المذهب ، ومن هذا أنه : أفتى بجواز إخراج الفلوس في الزكاة ، وقال إنه خارج عن المذهب الشافعي وقد قيل : إن ثلاثة من العلماء : العراقي ، والبلقيني ، وابن الملقني كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس

القرن الثامن الهجري : العراقي في معرفة الحديث وفنونه ، والبلقيني في ا لتوسع في معرفة مذهب الشافعي ، وابن الملقني في كثرة التصانيف ».

ويستطرد الشيخ عبد المتعال الصعيدي في مناقشة هذا الأمر حتى يقول : «والحقيقة أن مثل البلقيني لا يصح أن يكون مجددا ، لأن أمره لا يتجاوز التوسع في معرفة مذهب الشافعي ، وإذا كان له فيه ترجيحات تخالف ترجيحات النووي فإنها لا تقربه من ذلك ، كما لم تقرب النووي من رتبة التجديد في ترجيحاته ؛ لأن كلا منهما كان يرجح في دائرة تقليده لمذهب الشافعي فلا تبلغ به أن يكون مجتهدا أو مجددا . ويؤكد الشيخ عبد المتعال الصعيدي على رأيه هذا قائلا : «كذلك ، إن اختيارات البلقيني الخارجة عن المذهب الشافعي لا تبلغ به أن يكون مجتهدا أو مجددا؛ لأنها كانت مثل فتاويه بجواز إخراج الفلوس في الزكاة ، وإزالة المنكرات ، وإبطال المكوس والحانات».

ولكن على الرغم من أن الشيخ عبد المتعال الصعيدي رأى ذلك ، فإنه هو نفسه يعتبر البلقيني أحد مجددي القرن الثامن الهجري في كتابه «المجددون في الإسلام» ، ولعل الشيخ الصعيدي - وهو من كبار علماء الأزهر - قد اعتبره من المجددين في الإسلام - برغم ما يرى - تأثرا بما ذكره السيوطي بكتابه «حسن المحاضرة» حيث يقول- أي السيوطي- عن البلقيني: «سمعت ولده - أي ولد البلقيني . يقول : ذكر الشيخ «كمال الدين الدميري» أن بعض الأولياء قال له : إن الله يبعث على رأس كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها بدئت بعمر وختمت بعمر . يعني عمر ابن عبد العزيز ، وعمر البلقيني ».

ويقول السيوطي أيضا : «ومن اللطائف : أن شطر المبعوثين على رءوس القرون الماضية مصريون : عمر بن عبد العزيز في الأولى ، والشافعي في الثانية ، وابن دقيق العيد في السابعة ، والبلقيني في الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة عام التاسعة من أهل مصر ».

وها هو البلقيني من قرية بلقينة التابعة لمحافظة الغربية بمصر ، وهنا تصدق نبوءة السيوطي في أن يكون عمر البلقيني على رأس المائة الثامنة .

وعلى أي حال .. يمكن اعتبار البلقيني من مجددي القرن الثامن الهجري اتفاقا مع ما جاء في كتاب «المجددون في الإسلام» للشيخ عبد المتعال الصعيدي أو كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي وغيرهما من كتب للعلماء والمؤرخين . يبقى التعرف على البلقيني نفسه ، حيث تطالعنا لوحة حياته فتذكر أن عمر سراج الدين البلقيني هو عمر بن رسلان بن نصير البلقيني .

ولد بقرية بلقينة عام 724 هـ التابعة لمحافظة الغربية الآن ، وحفظ القرآن وصلى به وهو لم يزل طفلا في السابعة من عمره ، وأتبع ذلك بحفظ الكثير من المتون الخاصة بالنحو والفقه والتفسير .

جاء به أبوه إلى القاهرة وهو في الثانية عشرة من عمره ، وجعله يعرض ما يحفظه من القرآن والحديث ، وما يعرفه من الفقه والنحو والتفسير على جماعة من علمائها ، فبهرهم بذكائه ، وكثرة محفوظه ، وسرعة فهمه ، إلى درجة أن هؤلاء العلماء طلبوا من والده أن يظل ابنه في القاهرة حيث العلماء والفقهاء حتى ينمي استعداده للعلم.

واستقرت أسرة البلقيني في القاهرة ، وأخذ ابنها عمر ينهل العلم من علمائها ، فتلقى الفقه على يد الشيخ السبكي، والنحو على ابن حيان، والحديث على ابن القماح. وظل على هذه الحال حتى إذا نال قدرا من العلوم والمعارف اشتغل بالتدريس ، وفيه برع في الفقه والحديث والأصول وما إليها من العلوم الدينية والعربية ، وكان فيها جميعا من قوة الحافظة وشدة الذكاء ما لم تشاهده حلقات التدريس من قبل . حتى اشتهر اسمه ، وذاع صيته ، حيث اجتمع في دروسه فقهاء المذاهب الأربعة برغم أنه كان أحفظ الناس لمذهب الإمام الشافعي ، وكان يتكلم في الحديث الواحد من أول

النهار إلى ما بعد الظهر ، وأحيانا يصلي بالحاضرين العصر ، والبلقيني لم يفرغ بعد من حديثه .

وكان من العلم والفضل بحيث اختير لقضاء الشام خلفا للسبكي ، وباشر هذا العمل ما يقرب من السنة ، وفيها أنصفه بعض العلماء كابن كثير الذي قال عنه : «أذكرتنا بسمت ابن تيمية» . وكافي شيخ الجبل الذي قال له : « ما رأيت بعد ابن تيمية أحفظ منك للحديث».

ثم عاد البلقيني إلى مصر ليتولى فيها منصب قاضى قضاتها ، وليظل بعد ذلك في هذا المنصب سنوات ، حتى حين يتركه يظل متقدما على قضاة مصر ، لأن كثيرا منهم إما كان من تلاميذه المباشرين ، وإما من التلاميذ غير المباشرين الذين أخذوا العلم عن طريق المباشرين .

وإلى جانب علمه وفضله الذي شهد له بهما علماء مصر والشام اشتهر بين الناس بالإيمان والتقوى ، فكان نموذجا وحده لرجل العلم والدين . واستمر على هذه الحال : يعظ ، ويفتي ، ويجتهد ، ويجدد ، ومن قبل يعلم ويثقف ، حتى كانت وفاته عام 805 هـ ليضمه تراب مصر التي أنجبته .



ابن خلدون

ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون ؛ اعتبره العلماء في مقدمة مجددي القرن الثامن الهجري ؛ لما أوجده من تجديد في مجالات عدة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ، وهو ما اعترف به الأجانب قبل العرب ؛ حيث قال «كارادوفو» في مؤلفه : (مفكرو الإسلام) عنه : «أنجبت إفريقية الإسلامية عالما اجتماعيا من الطبقة الأولى ، هو شخص ابن خلدون الذي لم يعرف من قبله عالم أوتي تصورا عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره ، فإن أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها ، وكيفية تأسيس الدول ، وما تدخل فيه من الأطوار ونوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها ، كل ذلك كان من الأبحاث التى خاض فيها في مقدمته، ولم نجد في أوروبا إلا في القرن الثامن عشر أناسا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ . وكان ابن خلدون في العقل والإدراك الأوروبي أستاذا «لمونتسكيو» وهو دون شك : الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين».

بهذه الروح تحدث مستشرقو أوروبا عن مؤرخنا وعالم الاجتماع والاقتصاد الذي ظل مخطوطه المسمى بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ، ومقدمته حبيس المخطوطات بالنسبة لنا كعرب ومسلمين إلى أن حل القرن التاسع عشر الميلادي فطبعت مقدمته في المطبعة الأميرية ببولاق ، وأعقبها بعد ذلك بعشر سنوات طبع تاريخه كله في سبعة مجلدات ، على الرغم من أن المطبعة الأوروبية كانت قد أخرجت هذه المقدمة قبل ذلك بسنوات، كما نشر «نويل دوفرجيز» قبل ذلك ما أورده ابن خلدون. من أخبار بني الأغلب منها على إفريقية وصقلية ، وبقية أخبار صقلية إلى وقت استيلاء الإفرنج عليها، وأرفق بما نشره ترجمة بالفرنسية، ثم طبع «البارون

دي سلان» الجزأين : السادس والسابع بعنوان : (المغرب في تاريخ الدولة الإسلامية) ، حيث تناول فيهما ابن خلدون تاريخ البربر .

هذا هو الاهتمام بعالم الاجتماع وفلسفة التاريخ : عبد الرحمن بن خلدون كما أورده العلماء الأجانب الذي ولد عام 734 هجرية ، وانتقل إلى أقطار العالم الإسلامي ، وفيها : مصر والسعودية والمغرب والأندلس .

ونسارع الخطى ، فنحن على موعد مع بقية تاريخ العلامة العربي عبد الرحمن بن خلدون ، الذي ولد بتونس في مايو عام 1332م ، وتوفي بالقاهرة في السادس عشر من مارس عام 1406م حتى نتعرف على ملامح وقسمات جديدة من هذا الدور الخالد في فروع ثلاثة هي : الاقتصاد والتاريخ والاجتماع .

- ففي الاقتصاد استبق ابن خلدون ولو بصورة خام أو حنينية الأفكار والنظريات الحديثة .. التي قدمها علماء الاقتصاد الحديث وفي مقدمتهم : «آدم سميث» ، و«ريكاردو» ، و«مالتس» ... وغيرهم من رواد الاقتصاد الحر والموجه .

إن أول ما يستوقفنا في مقدمته الشهيرة نظريته في العمل والقيمة التي يوضحها. فيقول: «إن قيمة العمل تقاس بكميته». وهو نفس ما قرره- بعد ذلك بخمسة قرون - «ماركس» وظن أتباعه أن مفكرهم جاء بجديد في علم الاقتصاد !

ويرتفع ابن خلدون في تمجيد قيمة العمل إلى حد يجعله وحده مصدرا لكل قيمة وإنتاج ، فيقول : «لابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول» ، ثم يتوج بحثه في هذا الميدان بعبارة هي : «إن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية ..» . ويلاحظ هنا تحفظه حين قال «أو أكثرها» حيث تبدو دقته واضحة جلية . على عكس ماركس الذي اندفع - في كتابه (رأس المال)- ورد كل قيمة إلى العمل ، ولم يراع الفوارق والأحوال الاستثنائية .

وكذلك حدثنا ابن خلدون في «مقدمته» عن الأسعار حديث الخبير في فصل عنوانه : «أسعار المدن» ، مبينا لماذا ترتفع الأسعار ولماذا تنخفض .. وهو ما استفاد منه- ولاشك- علماء الاقتصاد الحديث، وفي مقدمتهم «آدم سميث» و«ريكاردو».

- وإذا كانت هذه هي بعض من إسهامات ابن خلدون في مجال الاقتصاد الحديث . فإن إسهاماته في مجال التاريخ أكبر وأضخم وأشمل. ويكفي أن نقول بإيجاز : إن علما جديدا استحدثه هو : فلسفة التاريخ . وقال عنه في ثقة واعتزاز : «إنه فرع فلسفي جديد ، لم يخطر على قلب أرسطو».

ويعرض لنا خطوات منهج هذا العلم الجديد ، وفيه يرى أن المؤرخ الصحيح : «محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبيت ..» إلى أن يقول : «فالحديث التاريخي- إذا- ليس بسيطا ، بل هو ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والجوانب يحتاج تفسيرها إلى الكثير من الحذر ... ».

وبذلك .. يبني ابن خلدون نظرية جديدة لم يسبقه فيها أحد في التاريخ . ويتأثر به بعد ثلاثة قرون العلامة الإيطالي «فيكو» في كتابه (العلم الحديث) و«ويشايع» و«فيكو» «في بحوثه ليسينج» و«هردر» و«كانط» بألمانيا و«فولتير» و«كوندرسيه» «بفرنسا» و «هربرت سبنسر» بإنجلترا ، وهؤلاء جميعا تتلمذوا على فكر ابن خلدون.

- يبقى بعد ذلك دور ابن خلدون في بناء علم الاجتماع .. ودوره هنا هو دور المؤسس والمنشئ لهذا الفرع ، وقد تحدث عن هذا الدور العظيم علماء عرب وأجانب ، في مقدمتهم : الدكتور «على عبد الواحد وافي» . والدكتور «عبد العزيز عزت» حديثا لا يترك مجالا لتفصيل آخر . اللهم إلا التأكيد على أنه المنشئ، والمؤسس لهذا العلم ، وأن «فيكو» الإيطالي و«كتليه» البلجيكي و«أوجست» و«كونط» و«إميل دور كايم» الفرنسيين كانوا جميعهم تلاميذ على فكر ابن خلدون.

هل نحن في حاجة إلى تفصيل تسمح به هذه الصفحات بعد هذه الإشارات السريعة إلى دور ابن خلدون في بناء الحضارة الإنسانية ؟ .

ربما .

لعلنا نرجع إليه ... إلى ابن خلدون نفسه . حين قرر أن يضع كتابا في التاريخ يأخذ فيه بمنهج علمي جديد ، حيث يقول : «فأنشأت في التاريخ كتابا ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا ، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا ، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا .. وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض في الاجتماع الإنساني في العوارض الذاتية ما يمتعك بعلل الكون وأسبابها ، ويعرفك كيف دخل أهل هذه الدول من أبوابها ...» ، ثم يبدأ بعد ذلك يطالعنا بمزايا كتابه فيقول : «ولم أترك شيئا في أولية الأجيال والدول ، وتعاصر الأمم الأول ، وأسباب التصرف والحول في القرون الخالية والملل ، وما يعرض في العمران من دولة وملة ، ومدينة وحلة ، وعزة وذلة ، وكثرة وقلة ، وعلم وصناعة ، وكسب وإضاعة، وأحوال متقلبة مشاعة ، وبدو وحضر ، وواقع ومنتظر، إلا واستوعبت جمله ، وأوضحت براهينه وعالمه . فجاء هذا الكتاب فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة ، والحكم المحجوبة القريبة ».

ويشير الدكتور «راشد البراوي» إلى أن هذا الكتاب ينقسم إلى الأقسام الثلاثة فنطالعه ، فنجده يتضمن :

1- «**المقدمة**» في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والإلمام بمغالطات المؤرخين، «**الكتاب الأول**» في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ، وما إلى ذلك من العلل والأسباب . وكلا الاثنين يعرفان الآن باسم «مقدمة ابن خلدون» التي ترجع إليها شهرته كواضع فلسفة في تفسير التاريخ ، أو كواضع قوانين حركة التاريخ أو المجتمع الإنساني .

2- «**والكتاب الثاني**» في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى عهده ، وفيه الإلمام ببعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم مثل: النبط والسريان والفرس وبني إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجة . وهذه الأخبار التي يشير إليها لا تشغل إلا جزءا يسيرا من الكتاب الثاني في حدود ربعه . أما الثلاثة الأرباع الباقية فتناول فيها «الدول الإسلامية والدول التي اتصلت بها في عصور الإسلام. فتكلم عن ظهور الإسلام وحياة الرسول- ﷺ-، وعصر الخلفاء الراشدين ، وعصر بني أمية ، وعصر بني العباس ، وتاريخ الفاطميين ، والقرامطة ، وتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى مبدأ دولة بني الأحمر في غرناطة ، ودولة الإسلام في صقلية ، وتاريخ الممالك النصرانية في إسبانيا ، وتاريخ بني بويه ، وبني سكتكين ، والترك والسلاجقة والحروب الصليبية ودول المماليك في مصر ، كما يرى الدكتور «على عبد الواحد» أن هدف ابن خلدون في مبدأ الأمر كاد أن يقتصر على المغرب ، ثم عدل عن هدفه بعد ذلك ، وفي هذا يقول أي : الدكتور وافي : «ولم يك في عزم ابن خلدون حينما بدأ كتابة مؤلفه أن يؤرخ للأمم الإسلامية في المشرق ولا يؤرخ للأمم التي اتصلت بها .. ولكنه آثر فيما بعد أن يكون تاريخه عاما شاملا لهذه الأمم ».

3- «**الكتاب الثالث** » في أخبار البربر ، وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب ، خاصة من الملك والدول .

أما عن العنوان الذي اختاره لمؤلفه ، فالسبب فيه حسب قوله : « ولما كان مشتملا على أخبار العرب والبربر ، من أهل المدن والوبر ، والإلمام بمن عاصر من الدول الكبرى ، وأفصح بالذكر والصبر ، في مبتدأ الأحوال وما بعدها من الخبر ، سميته : (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ».

أما عن المصادر التى اعتمد عليها ابن خلدون فنقول : إنه بالنسبة إلى القسم الخاص بالأمم والدول قبل ظهور الإسلام ، اعتمد على ما كتبه المسلمون من أمثال : الطبري والمسعودي ومحمد وابن إسحاق وابن عساكر وابن سعيد ، وعلى ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء والرسل الأقدمين ، أو ما ينقله زعماء المفسرين من تفسير ومن أخبار من ذكر دولهم وحروبهم ، ناقلين ذلك عن السلف من التابعين . ومن مصادره أيضا التوراة والإسرائيليات ، نجده أيضا ينقل روايات وأخبارا عن «هروشيوس» مؤرخ الروم حسب تعبيره ، والمقصود به : هيرودوت ، غير أنه ينبغي أن نلاحظ هنا أنه – على حد قوله في الكتاب الثاني – لا يعول على أساطير القصص وكتب بدء الخليفة ، كما يبدي تشككا في بعض ما أورده المؤرخون الآخرون من أنباء وأحداث تلك العصور .

أما عن القسم الخاص بظهور الإسلام والدول الإسلامية بالمشرق ، فاعتمد على المصادر العربية مثل : الطبري والمسعودي وابن إسحاق وابن سعيد والواقدي.. وغيرهم، وإن حاول مناقشة بعض رواياتهم وتصحيح بعض ما وقعوا فيه من الأخطاء . وكان يختار بالنسبة إلى فترة معينة المصدر الذي يراه أجدر من غيره بالاطمئنان إليه ، ولهذا يحدثنا مثلا في نهاية الحديث عن الفترة الممتدة من النبوة حتى انتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، أنه اعتمد على ما كتبه ابن جرير الطبري .

وإذا انتقلنا إلى القسم الذي تناول فيه بلاد المغرب وتاريخ المسلمين في إسبانيا والممالك المسيحية فيها ، وحكم المسلمين في صقلية ، فإنه يرجع إلى مصادر اطلع عليها بنفسه ولم تكن متاحة لمن سبقه من المؤرخين ، وبعضها لم يصل إلينا ، كذلك استمد بعض المعلومات من مشاهداته ومن روايات وصلت إليه عن طريق السماع من روايتها أو كانت متداولة في أيامه .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية : أما مؤلفه في « تاريخ البربر » فيعد مصدرا عظيم القيمة عن كل ما يتعلق بحياة القبائل العربية والبربرية .

وتاريخ هذه البلاد في العصور الوسطى، هو ثمرة خمسين عاما (النصف الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي) قضاها المؤلف في مشاهدة الحوادث عن كثب ، وفي دراسة كتب التاريخ ووثائق عصره السياسية والرسمية دراسة واسعة .

وألحق ابن خلدون بمؤلفه في التاريخ . سيرة لحياته ، جعل عنوانها : « كتاب التعريف بابن خلدون» . في هذا التعريف يروي ابن خلدون تطورات حياته ، والتجارب التي مرت به ، وهو في حديثه عن نفسه يصف لنا أحوال المجتمعات والنظم التي اتصل بها والأحداث المهمة التي أثرت في مجرى حياته ، ويزودنا بسير معظم الأشخاص الذين ذكرهم ، ويمدنا ببيانات عنهم هي وليدة المعرفة الشخصية والاتصال . كذلك يتضمن «التعريف» مجموعة من التقارير الرسمية التي كان يتبادلها الملوك والسلاطين . ولما كان ابن خلدون قد ولي القضاء في مصر ، لهذا .. فإن حديثه عن تلك التجرية يصور ما كان يسود القضاء آنذاك من تخلف وجمود وفساد .

ويلاحظ أن ابن خلدون - وهو يروي قصة حياته - يذكر علاقاته بمختلف الأمراء والحكام ، ومغامراته ومؤامراته .. وإن حاول تفسيرها وتبرير مواقفه في كل حالة . إن «التعريف» صورة قلمية للعصر الذي عاش فيه كاتبه ابن خلدون ، وهي صورة تنبض بالحياة والدينامية .

وبعد ... فهذه مجرد إشارة إلى فخر الحضارة العربية الإسلامية العلامة : عبد الرحمن بن خلدون ... الذي صنع مع غيره ممن رأينا في فصول سابقة مكونات هذه الحضارة التي انتفعت بها البشرية كلها .

* * *

القرن التاسع



1 – القلقشندي

2 – ابن الوزير

3 – المقريزي

4 – ابن حجر العسقلاني

5 – ألوغ بن شاه رخ

6 – السيوطي

7 – زكريا الأنصاري



هـذا القرن

يبدأ القرن التاسـع الهجـري في عـام 1398 ، لينتهـي في عـام1491 في التقـويم الميلادي ، ولا يقل هذا القرن سـوءا عـن سـابقه ، سـواء في الأحـوال الـسياسية أو الاجتماعية أو الثقافية أو العلمية أو حتى الدينية .

ففي الحالة السياسية : على الرغم من أن التاريخ يـسجل بأنـه كـان للمـسلمين دول في المشرق ، وأخرى في المغرب . فالدول الإسلامية التي كانت في المشرق منها : الدولة التيمورية ، تلك التي أنشأها «تيمورلنك» ، ومكانها كان فـيما بـين النهـرين ، وخوارزم ، وخراسان ، وتركستان ، إلى جانب الدولة العثمانية التركية وتشمل : آسيا الصغرى والبلقان بعد استيلاء تركيـا عليـهما . ثـم دولـة المماليـك بمـصر والـشام ، وبعض دول الجزيرة العربية .

وأما الدولة الإسلامية في المغرب والأندلس فكانت تشمل : دولـة بنـي مـرين بالمغرب الأقصى ، وفي الأندلس كانـت هنـاك دولـة بنـي الأحمـر ، وبعـض المنـاطق الأندلسية التي كانت تتبع المسلمين على الأقل من الناحية الشكلية .

وطبيعي أن تكون دول الإسلام في المشرق على شيء مـن القـوة أكثـر مـن دول الإسلام في المغرب والأندلس ، ذلك لأن الأولى كانت تضم الـدول ذات التـدريب القتالي ، وعلى وجه الخصوص الدولة التيمورية والدولة الخوارزمية ؛ حيث خاضت هاتـان الـدولتان العديـد مـن الحـروب ، بيـنما نجـد أن دول الإسـلام في المغـرب والأندلس لم تكن على هذه القوة .

إلا أن الدولتين : المشرقية والمغربية تتفقان في ظاهرة واحدة هي : أن عوامل التفكك والتمزق والانحلال والفساد كانت واحدة ، ويكفي أن نضرب مثلا يؤكد ذلك ، هذا المثال يسجل لنا تاريخيا بأن خفيرا كان راعيا للغنم في ببا التابعة لبني سويف بمصر ، أراد أن يتوسع في رزقه فسافر إلى القاهرة ، ولم يجد بها عملا سوى القيام بخدمة أصحاب بعض المهن مثل : الطباخين أو الجزارين ، ولكنه بأسلوب أو بآخر استطاع أن يكون ثروة تنبهت لها حكومة المماليك . فطلبوا منه عونا ماليا يفي بصرف مرتبات المماليك في الحكومة ، ففعل حتى استطاعت الحكومة أن تصرف هذه المرتبات من مال هذا الرجل الذي كان في الأصل خادما لبعض أصحاب المهن... وما هي إلا فترة من الزمن فيها استفحل أمره بسبب ثروته ، وهنا فكر الوالي وقتئذ أن يختاره ضمن وزرائه . وهكذا أصبح هذا الخادم وزيرا . هذا المثال وغيره من الأمثلة ربما هو الذي جعل السخاوي يسجل في كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) فيقول عن الوالي وقتئذ : «إنه لم يعلم واليا أوضع منه ، مع كثرة الولاة من الأوباش في هذا القرن ، وإنه لم يتحول فيها عن عاميته مثقال ذرة ، ولم يتطبع بما ينصرف به عنها مقدار خردلة ، وإنه كان يبالغ في الظلم والعسف والاستخفاف بالناس».

يضاف إلى هذا الفساد السياسى فساد آخر يتصل بالدين ؛ حيث ازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية ، وحيث كان الولاة والملوك يبالغون في احترامهم وتقديرهم والخضوع لهم ، وذلك لازدياد اعتقاد العامة بهم وتقديسهم ، فكان هؤلاء الولاة والحكام يبالغون في الخضوع لأصحاب الطرق الصوفية حتى يكسبوا رضا هؤلاء العامة .

وكان من نتيجة ذلك أن تسوء الحالة الاجتماعية ويزداد شقاء الرعية ، ولاسيما في دولة المماليك بمصر ؛ لأن حكامها كانوا من جنس غير جنسها ، إذ كانوا من الترك والجركس الذين أبوا أن يندمجوا في الرعية الوطنية ، بل استمروا محافظين على

خصائصهم التي جاءوا بها إلى مصر أو غيرها مترفعين على أبناء الشعب من الفلاحين وأصحاب الحرف ، ولم يكن التقدير الذي يؤدي إلى الترف والفن إلا لمن ينتمي للترك أو الجركس ، أو لأتباع الطرق الصوفية ، وأما بقية فئات الشعب ، فيعيشون في ضنك وإهانات وفقر ومظالم متلاحقة ، ولا تقدير لهم سوى أنهم الفلاحون أو العبيد عمال الأرض الزراعية ... مع أنهم في الحقيقة هم الأسياد أصحاب هذه الأرض ، كذلك لم تكن الحالة العلمية بأفضل من الحالتين : السياسية والاجتماعية . وكان لكل دولة من الدول الإسلامية صبغتها التي تميزها عن الأخرى، فكانت الدولة التيمورية أقوى أثرا ؛ لأن علماءها كانوا يجمعون بين ما ينتج عن العقل والنقل . وكانت الحركة العلمية في الدولة العثمانية التركية متأثرة هي الأخرى بالحركة العلمية للدولة التيمورية ، ولا تزيد بقية الدول الإسلامية عن ذلك؛ مما نتج عنه ضعف علماء المسلمين في هذا القرن . وازداد انصرافهم عن الاشتغال بالعلم ، وكيف يكون الاهتمام بالعلم ورجاله ، في وقت ازداد فيه نفوذ وطغيان جهل المتصوفة ، حتى صار جهلهم علما لدنيا يعلو على علم غيرهم .

يحدث هذا في دار الإسلام في وقت تتقدم فيه أوروبا وتتطور ، حتى تدخل عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي بعد قليل كما سنرى . وإذا قارنا بين أحوال المسلمين في هذا القرن وأحوال أوروبا ، وجدنا في أوروبا تطورا ونهضة بينما نجد في المسلمين جمودا وتأخرا . حتى ما كان لذلك أثره في غفلة المسلمين في هذا القرن عما كان يحدث في أوروبا من نهضة شملت كل جوانب الحياة . وكانت الطامة الكبرى بالنسبة للمسلمين في هذا القرن هي في عدم تقديرهم لما تقوم به أوروبا الغربية في بلاد الأندلس والمغرب ؛ مما سيكون له أسوأ الأثر في القرون التالية .

وطبيعي .. وقد وصلت دول دار الإسلام إلى هذا الحد من التدهور أن تحتاج إلى مجددين يصلحون من أمر أبناء الإسلام ، ويقفون ضد ما يحدث من فساد بسبب

استشراء نفوذ أتباع الصوفية. فظهر المؤرخ والعالم «جلال الدين السيوطي»، وقاضي القضاة «زكريا الأنصاري» في مصر ، كما ظهر في اليمن «ابن الوزير» ، ولكن ما الذي يفعله هؤلاء أو غيرهم في العصر الوسيط بما فيه من صعوبة في وسائل الاتصال والانتقال ؟ ماذا يفعلون في هذه الدولة المترامية الأطراف شرقا وغربا !؟ ولهذا يظل التدهور والاضمحلال سائدا زمنا طويلا .

القلقشـندي

«أبو العباس شهاب الدين أحمـد القلقـشندي» .. مـن مجـددي القـرن التاسـع الهجري، ويعرفه التاريخ الإسلامي بصاحب مجلـدات (صـبح الأعـشى في صـناعة الإنشا) ، وهي دائرة معارف أورد فيها كل ما يحتاجه الكتاب من الفنـون والعلـوم . هذا إلى جانب كونها تسجل ما يعرفه عـن عـصره ، ولـه قيمتـه الكبـيرة فـيما يتـصل بتاريخ مصر والشام . وقبل الحديث عنها وعن صاحبها نشير إلى قيمـة الموسـوعات كعمل فكري جديد .

لقد كان للعرب المسلمين الأقدمين سبق في كتابة الموسوعات ودوائـر المعـارف على غيرهم من الأمم ذات الحضارات : قديمها وحديثها ، وهذا النوع من الكتابات دليل على دورهم في حركة التنوير بوجه عام .

ففي تاريخ الفكر الإسلامي ، لم يكد يمضي عـلى الرسـالة المحمديـة قـرن مـن الزمان ؛ حيث نشطت حركة التجميـع لأطـراف المعـارف ، ومعهـا حركـة واسـعة للتقنين العلمي.. وكان ذلـك ملحوظـا في علـوم اللغـة والفقـه ، ثـم نقـل ثقافـات الآخرين وتمثلها . حتى إذا جـاء القـرن العـاشر وامتـداده في القـرن الحـادي عـشر الميلادي (الرابع الهجري والخامس الهجري) . حتـى بلـغ التنـوير ذروتـه ، فكانـت رسائل إخوان الصفا بمثابة الموسوعة أو دائرة المعارف .. التي هي عادة رمز يشير إلى التنوير من ناحية جمع المعلومات ، وكانت الفلسفة الإسلامية بـما تتـضمنه مـن جمـع لأطراف المعارف وتأملها وتحليلها قد بلغت ذروتها عند الفـارابي وابـن سـينا .. ممـا يشير إلى سلطان العقل وسيطرته – وقتئذ – على جمع المعارف .

وكان مع الفلسفة في تلك الإشارات التنويرية إلى سلطان العقل حركة قوية في النقد الأدبي ، لأننا إذا قلنا «النقد الأدبي» للعرب الأقدمين فكأننا قلنا : إنه العقل بتحليلاته العلمية التي لم يكن الركون إلى مسألة (أحكام الذوق) فيها إلا بمثابة الحلية الصغيرة التي توضع على الثوب العريض . وحتى الشعر ذاته ، فقد غلبت عليه هذه النظرة التي تطمح إلى تجميع المعارف والسيطرة عليها وتأملها وتحليلها ، وكأنها بذلك تريد أن تجمع الكون كله في حبة رمل ، فكانت نظرة الشعراء ، وفي مقدمتهم «أبو العلاء المعري» تطل على الإنسان من أعلى لتسبر أغواره ، وتكشف حقيقته .

وأبو العباس القلقشندي صاحب (موسوعة صبح الأعشى) الذي عاش ومات بين القرنين الهجريين : الثامن والتاسع (756– 821) للهجرة كان واحدا من هؤلاء العرب المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة جليلة ، هي الإسهام بنصيب في بناء الثقافة العربية الإسلامية من خلال كتاباته المتعددة ، وأبرزها موسوعته : (صبح الأعشى) ، التي لا يخلو عمل فكري في الثقافة الإسلامية إلا ويرجع إليها ، متزودا منها بالكثير من المعارف التي سبق غيره في تجميعها والسيطرة عليها .

وعلى الرغم من أهمية القلقشندي وموسوعته وبقية كتبه، فإنه لا يحظى من الكتاب والمؤرخين بحظ كبير في التأريخ له أو الكتابة عنه ، سواء الأقدمون أو المحدثون .

فمن الأقدمين نجد هناك إشارات إلى تاريخ وفاته عام 821 هـ سجلها كل من: المقريزي ، وابن حجر ، والعيني ، والسخاوي .. ولعل أوسع ترجمة كانت عن القلقشندي كتبها السخاوي في كتابه (الضوء اللامع) ، ومع هذا تستوعبها سطور قليلة قال فيها : «هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله الشهاب بن الجمال الفزاري القلقشندي » (إشارة إلى بلدة قلقشندة الموجودة الآن بالقليوبية) ، ثم القاهري (إشارة إلى عمله في مدينة القاهرة) الشافعي (إشارة إلى انتسابه إلى المذهب الشافعي)، والد النجم (إشارة إلى ابنه العالم الفقيه الذي اشتهر أمره فيما بعد ..).

ويضيف السخاوي إلى هذه السطور التى توضح نسبه سطورا أخرى : «ولد سنة 756 هـ ، واشتغل بالفقه وغيره ، وسمع من ابن الشيخة .. وكتب في الإنشاء ، وناب في الحكم ، وبرع في الأدب والفقه ، وشرح قطعا من جامع المختصرات ، وكتب صبح الأعشى في أربعة مجلدات (الثابت أنها سبعة كما قرر المحققون من بعد ، وفي مقدمتهم الأستاذ إبراهيم الإبياري، والدكتور عبد اللطيف حمزة وليست أربعة). وهذا الكتاب يقصد : (صبح الأعشى) جمع فيه فأوعى ، وكان يستحضر أكثر ذلك من جامع المختصرات والحاوي ، وكتاب في أنساب العرب .. ومات يوم السبت العاشر من جمادى عام 821 هـ ، وعمره خمسة وستون عاما .. بعد أن برع في العربية، وعرف الفرائض ، وشارك في الفقه ، وسمع الحديث ، ونظم الشعر ، وكتب النثر..».

هكذا .. أرخ السخاوي بهذه الكلمات القليلة للقلقشندي ، هذا العالم الجليل الذي خدم الدين والأدب والعلم أجل الخدمات ، وهكذا يشير إلى موسوعته (صبح الأعشى) إشارة تدل دلالة صريحة على أنه لم يطلع عليها ، ولم يقف على محتواها ، وأكبر دليل على ذلك أنه أخطأ حتى في عدد مجلداتها فهى في الحقيقة سبعة كما يقرر المحقق الكبير «إبراهيم الإبياري» في تقدمته لتحقيق كتاب (نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي) ، وهو كتاب جليل النفع يأتي في المرتبة الثانية بعد كتابه «صبح الأعشى» الذي اشتهر به ، والموجود الآن بدار الكتب في سبعة مجلدات كاملة غير منقوصة .

ومراحل حياة القلقشندي يمكن تركيزها في ثلاث مراحل مهمة ، من هذه الصفحات التى اهتمت به ، سواء فيما كتبه الأستاذ الإبياري في مقدماته الضافية لكتاب (نهاية الأرب) أو ما سجله الدكتور «عبد اللطيف حمزة» عن القلقشندي في سلسلة أعلام العرب . والحق أن الإبياري وحمزة قد أنصفا هذا الرجل أكثر مما أنصفه معاصروه ، وفي مقدمتهم : السخاوي ، وابن حجر ، والمقريزي ، والعيني .. هذه المراحل الثلاث هي :

- **مرحلة النشأة والتعليم** : حيث نشأ أبو العباس القلقشندي نشأة علمية سليمة ، وتربى تربية إسلامية صحيحة في بيت علم وفضل ، إلى أن توجه إلى الإسكندرية طلبا للعلم ، وأقام بها سنوات ، وفيها التقى بمشاهير العلماء التي كانت الإسكندرية تغص بهم ، وظل متلقيا للعلم والفقه والأدب والحديث والتفسير حتى أجازه شيخ الإسكندرية وقتئذ «سراج الدين بن أبي الحسن» ، المشهور (بابن الملقن) .. بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي ، كما أجاز له (ابن الملقن) الرواية على الكتب الصحاح الستة ، ومسند الشافعي ، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل ... وغيرها من الكتب التي هي أصول الفقه الإسلامي ، ولا يجوز لعالم أن يقوم بالفتوى إلا إذا كان قد درسها وهضمها وتمثلها .

- **أما المرحلة الثانية من مراحل حياة القلقشندي** : فهي مرحلة التفقه والتدريس والتأليف ، حيث عمل بالتدريس ، وانتفع به الكثيرون ، وتفقه في العقيدة والدين، وكان في ذلك من أهل الاجتهاد ، حيث حاول أن يضع لعلم الفقه أصولا وقواعد . وقد أنتج في هذه المرحلة الثانية من حياته كتبا في الفقه ، أهمها : «شرح لجامع المختصرات في فروع الشافعية » ، و«شرح الحاوي الصغير في الفروع» للقزويني ، وكتبا أخرى في الأدب ، أهمها : (حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم) ، و«شرح قصيدة بانت سعاد «لكعب بن زهير» وغيرها ، حتى استطاع القلقشندي أن يستفيد من هذه المرحلة ويفيد ، وتعد هذه المرحلة امتدادا لمرحلة النشأة التعليمية ، وبداية للمرحلة التالية التي تركت أجل الأعمال للثقافة الإسلامية .

- **المرحلة الثالثة** : وهي مرحلة تولى فيها كتابة الإنشاء في الديوان ؛ حيث اختاره السلطان لذلك ، فأسفر عن ذكاء ملحوظ ، وقريحة فذة أنتجت طائفة من الكتب، منها : كتاب أو موسوعة «صبح الأعشى» ، الذي استغرق في وضعه ما يقرب من

العشرين عاما ، وكتب أخرى في العلم بأنساب العرب ، وأهمها كتاب «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» الذي وضعه بعد موسوعة «صبح الأعشى» كما يقرر المحققون المحدثون . وقد اشتملت مقدمة كتاب «نهاية الأرب» على خمسة فصول ، هي بحق خير زاد لمن يريد التعرف على أنساب العرب وقبائلهم المتعددة، واشتملت خاتمته على خمسة فصول أخرى اهتمت بديانات العرب قبل الإسلام ومفاخراتهم ، والحروب الواقعة بينهم وأسواقهم وعاداتهم وتقاليدهم .

ولعل القلقشندي نفسه كان يدرك قيمة هذا الكتاب ، فقد رغب تعميم الفائدة منه وتقريبها إلى عدد أكبر من القراء ، فاختصر هذه الموسوعة الضخمة المسماة «صبح الأعشى» إلى مختصر أطلق عليه «ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر» تحسبا منه بأن من القراء من لا يقوى على قراءة هذه الموسوعة الضخمة ، ولا يصبر على هذه القراءة . ومن أراد واستطاع فعليه بمجلدات الموسوعة. وهكذا رأى القلقشندي مبكرا أن يعمل العالم أو المؤلف حسابه لهاتين الطائفتين من القراء في وقت واحد ..

كما يقرر مؤرخو القلقشندي ومحققوه أن كتاب « صبح الأعشى» هو أهم وأخطر كتب القلقشندي على الإطلاق . وهو الكتاب الذي يعرف به عبر العصور ، ويشتهر به ويذكر بين المؤلفين ، فلا يمر اسم القلشندي في مجال من مجالات الفقه الديني أو العلم أو الأدب إلا ويطرأ على الذهن أنه مؤلف «صبح الأعشى» وكفى . والنادر من القراء الذين يعرفونه بأنه مؤلف نهاية الأرب ، أو قلائد الجمان ، أو شارح مسند الشافعي ، أو ابن حنبل . بل إن معرفته ترتبط بتأليفه هذه الموسوعة الضخمة «صبح الأعشى».

ويذكر الدكتور «عبد اللطيف حمزة» إشارة إلى قيمة هذا الكتاب فيقول: «..وفي أوائل القرن العشرين طالعتنا دار الكتب المصرية بأول جزء من هذا الكتاب الكبير ، أو الموسوعة العظيمة ، فهال الناس جميعا ما اشتمل عليه هذا الجزء من العلم والفائدة ، وشجع ذلك دار الكتب على المضي في نشره بالطرق العلمية السليمة ..».

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية بهذا الصنيع أن تسدي للثقافة العربية الإسلامية جليل الخدمات عن طريق نشرها لهذه الموسوعة العلمية الأدبية للقلقشندي.

إن هذا العلم من أعلام الفكر الإسلامي لا يحظى من أبناء وطنه بالاهتمام الجدير به ، اللهم إلا ما قامت به جامعة بنها في عام 1985م من عقد ندوة علمية حوله كواحد من أعلام محافظة القليوبية ، والتي فيها رفاته ، ومسجده هناك في بلدته قلقشندة التي انتسب إليها .

* * *

ابن الوزير

«محمد بن إبراهيم بن الوزير بن علي» المعروف في التاريخ الإسلامي بابن الوزير اليمني ، من مجددي الإسلام في القرن التاسع الهجري ، كان من أئمة الزيدية الذين ينتهي نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد كان لهؤلاء تاريخ قديم في اليمن ؛ لأنهم كانوا يؤمنون بإمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان رضى الله عنهم أجمعين ، ولا يغالون في أمر الصحابة كما يغالي غيرهم من أتباع وأئمة المذهب الشيعي ، بل كانوا يحترمون هؤلاء الخلفاء الثلاثة ويجلوهم إجلالهم للإمام علي وبنيه رضى الله عنهم .. ومع ذلك كان لهم مذهبهم الخاص ، يتعصبون له ويقلدونه كما يفعل غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى : شيعية أو سنية .

درس هذا المجدد – الذي ولد عام 775 هـ – العلوم والفقه على أيدي الذين سبقوه إلى العلم والفضل ، فقرأ العربية على أخيه الإمام الهادي من علماء اليمن البارزين ، وقرأ علم الكلام على القاضى علي بن عبد الله ، ودرس أصول الفقه والتفسير والحديث على كبار علماء اليمن حتى أجاد ما تيسر له الاطلاع عليه من العلوم . وحتى اشتهر بين علماء عصره بمعرفة الكثير من جوانب العلوم .

ومما يذكر لهذا المجدد وهو في الأصل ينتسب إلى أئمة الزيدية . أنه كان شديد الميل لأهل السنة على خلاف أهل مذهبه الشيعي، حيث كان لا يتقيد بالتقليد الشيعي بل يؤثر الكتاب والسنة ، ولا يتقيد بأي مذهب من المذاهب الشيعية التقليدية .

ويذكر أيضا عن هذا المجدد : أنه حين قصد مكة للتزود بعلم علمائها ، حيث قرأ الحديث على «ابن ظهيرة» أحد علماء مكة ، والذي عرف لهذا المجدد قدره

فاعتبره عالما مثله ، وقد قال له يوما : «لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات ، ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم بن الوزير أو شقيقه الهادي » تأكيدا لمدى تقديره واحترامه لعلمه وفضله .

وكما يذكر مؤرخوه أن ابن الوزير كان في علمه مجتهدا غير مقلد ، حتى كان يزاحم الأئمة الأربعة وأتباعهم في اجتهاداتهم ، ويجادل أئمة الأشعرية والمعتزلة فيما يقولونه ، حتى كان أهل مذهبه من الزيدية يثورون عليه ثورة بعد أخرى ، فلا يؤثر هذا في تمسكه بما يؤمن ، بل يزداد إصرارا على التمسك بالكتاب والسنة ، ولو أدى ذلك إلى مخالفة مذهب أجداده من الزيدية . وقد كان على قناعة بأنه بهذا الأسلوب لا يرى بأنه يخرج بمسلكه هذا عن أصول أئمة الزيدية . وكذلك كان يغضب من قول حساده بأنه موال لأهل السنة ، وأنه بذلك يخالف إسلامه ، وكان يدافع عن نفسه شعرا ، فيقول :

ديني كأهل البيت دينا قيما … متنزها عن كل معتقد ردي
ويشك في ذوي الجهالة والعمى … والشمس لا تبدو لعين الأرمد
إني أحب محمدا فوق الورى … وبه كما فعل الأوائل أقتدي
وأحب آل محمد نفسي الفدى … لهم فما أحد كأهل محمد
ولهم فضائل لست أحصي عدها … من رام عد الشهب لم تتعدد
سنوا متابعة النبي ولم يكن … لهم غرام بالمذاهب عن يد

ولعل ذلك ما يفسر اختلافه عن أسلافه من الزيدية ، يضاف إلى ذلك أيضا أن ابن الوزير كان يعد من أتباع مدرسة ابن حزم وابن تيمية ، فلم يكن مقبلا على الخوض في علم الكلام ، بل كان يرى أن ترك الخوض فيما لا تمس الحاجة إليه أفضل من هذا العلم ، كذلك كان ينتقد سلوك المصنفين حيث يقتصر المصنف لمذهب

واحد في الضعيف والقوي ، والدقيق والمجلي ، مع أنه لا يلزم أن يكون الصواب في جميع الموضوعات ، إلا ما حصل فيه أحد الإجماعات القاطعة من الأئمة الكبار ، وهو يعني بذلك أئمة أهل البيت ، لأنه لم يتخلص من مذهبهم ؛ فكان شأنه في ذلك شأن ابن حزم وابن تيمية .

ولابن الوزير اليمني مؤلفات تنحو نحوا تجديديا ، وهو ما يقصد إليه كتاب عنوانه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) ، مع أن القرآن فيه كثير من الأساليب المنطقية وإن كانت موضوعة في قوالب تتفق مع بلاغة اللغة العربية ، وله أيضا كتاب (العواصم والقواصم) وهو كتاب من أربعة مجلدات ، ومنها كتاب (إيثار الحق في رد الخلافات إلى المذهب الحق) وكتاب (القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاء به من شرائع) ، وكتاب (تنقيح الأنظار في علوم الآثار) وكتاب (نصر الأعيان على شر العميان) رد فيه على أبي العلاء المعري ، ويأخذ عليه ما كان يشاع عنه من غير تحر ولا تثبت ، وقد أشار إلى ذلك عدد من نقاد ومؤرخي أبي العلاء المعري .

إلا أن ما يؤخذ على ابن الوزير – على الرغم من علمه – نظرته إلى العلوم غير الدينية من علوم الفلك والطبائع والطب والهندسة والحساب والجبر إلى جانب العلوم الفلسفية. فقد اعتبرها غير مطلوبة مبررا ذلك بأن هذه العلوم لم يقرر الشرع بوجوب معرفتها ، ولم يدع إلى تعلمها !! ومصدر الخطأ هنا أن هذا المجدد لا يعنى إلا بأمر الآخرة فحسب ، مع أن الإسلام كما هو معروف يعنى بالآخرة والدنيا معا ، وأن هذه العلوم ضرورية للمسلمين في دنياهم . وقد تأثر في هذا بابن تيمية .

وقد ظل ابن الوزير اليمني على اجتهاده حتى كانت وفاته في عام 840 هجرية بعد أن اعتزل الناس وتفرغ تماما للعبادة ، وكأنه يذكرنا بحجة الإسلام الإمام الغزالي في آخر أيام حياته .

* * *

المقــريزي

«تقى الدين أحمد بن على المقريزي» : يعتبر من مجددي القرن التاسـع الهجـري ؛ حيث كان نموذجا فذا للمؤرخين الذين أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لبنائه المنهجى في كتابة التاريخ في ثلاثة جوانب رئيسية: **أولها** تعليمه الذي شغل أساس هذا البناء، **والثاني** تجربته التى اكتسبها من الوظائف التى اضطلع بها، **والثالث** كونه شاهد عيان على أحوال دولة كانت عظمى، وبدأت تنتقل إلى التدهور.

ولقد بلغت أهمية هذا المؤرخ ليس لكونه عميد المؤرخين أو كونه أستاذا لابن بردي وابن إياس ، ولكن للثقة التى تتسم بها كتاباته التاريخية حتى قيل إنه لا يكتمل بحث أي دارس في تاريخ القاهرة إلا بالرجوع إلى كتاب مهم جدا عن تاريخها ، عنوانه : «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ، وهو الكتاب المشهور باسم «الخطط» لهذا المؤرخ العظيم ، حيث توافر على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع وميادين إلى دروب وقياسر وحمامات ، إلى رباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدولة ونظم الحكم في مختلف العصور .

ولعل مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب تشى بالكثير مما نريد أن نعرفه عن شخصية هذا المؤرخ الخالد ، لما اكتنف هذه الشخصية من منحنيات ذكرها البعض إما قصدا للإساءة إلى هذا المؤرخ ، أو عن غير قصد ، حيث جاءت في سياق الحديث عنه .. والأمران معا يتطلبان التوضيح الذي ربما نوفق في تقديمه ، هذه العبارة التى جاءت في مقدمة أو افتتاحية هذا الكتاب ، والتى تزيل الكثير من اللبس والغموض حول أصالته العربية والتى تقول : «وكانت مصر هى مسقط رأسى ، وملعب أترابي ، ومجمع ناسي ، ومغني عشيرتي وحاميتي ، وموطن خاصتي وعامتي » .

لكن قبل التعرض لما وراء هذه العبارة من دلالات ومعان ، أسباب وعلل ، نتعرف على شخصية صاحبها .

إنه أحمد بن علي المقريزي ، ولد عام 1364 ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بالقاهرة ، في أسرة معروفة أجيالها بالعلم ، أو في بعلبك بلبنان .. أو في هذا الحي من القاهرة. أي: أنه شهد حوادث عصره من رواية أبناء الفئة المثقفة من الطبقة الوسطى – على حد قول المصلح الاجتماعي المعاصر – أما هذه الحوادث فهي في مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول في دولة مملوكية ، ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجاد ماضية ، ملأت عين التاريخ في الشرق والغرب . ومن نافذته الفكرية شهد المقريزي الكثير من هذه الحوادث طوال عشرين عاما ، هي عمر طفولته وصباه، وبدايات شبابه .

وإبان هذه الحوادث المتقلبة عكف المقريزي – طفلا وصبيا وشابا – على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهي دراسة علوم الدين ، وحفظ القرآن ، ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل : تاريخ العمران ، وتقويم البلدان ، والأدب ، والحساب .

غير أن نظرة متفقة مع رأي الدكتور «محمد مصطفى زيادة» إلى أعماله التأليفية تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من الحوادث المضطربة ، مثله في ذلك مثل أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» ، الذي رأى ما رأى بإسبانيا الإسلامية ، والشمال الإفريقي من تفكك وفساد وفتنة وانحلال ، فألهمه ذلك إلى تأليف تاريخه المسمى بكتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر).

لقد تكررت هذه النغمة في مؤلفات المقريزي لأسباب كثيرة ، **أولها** تلمذته المباشرة على العلامة ابن خلدون ، **وثانيها** المحيط المملوكي الذي عاش وانغمس فيه، **وثالثها** أن أسرة المقريزي جاءت إلى مصر حديثا في حياة أبيه من موطنها في بعلبك بلبنان ، ولابد أن أحاديث هذه الأسرة امتلأت بوصف خصائص الحياة

المصرية الجديدة ومقارنتها بالحياة اللبنانية ، فتولدت عند مؤرخنا المقريزي روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته وصباه وشبابه .

وهناك تأكيدات على أن هذا المؤرخ ينتسب إلى لبنان ، أو أن مسقط رأسه هناك. فكما يسجل الدكتور «محمد مصطفى زيادة» في حديثه عن هذا المؤرخ الخالد ، بأن اسمه يرجع إلى حارة مقريز في بعلبك بلبنان ، ولا يسع الدكتور زيادة إلا أن يشير – في هذا الصدد – إلى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم «المقريزي» في اللغة الإيطالية ، حيث يطلق على جهة بإيطاليا قريبة من عاصمتها روما ، مما يحتمل معه أن تكون حارة «مقريز» البعلبكية هي سكن لجالية من الجاليات الإيطالية الكثيرة التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى أيام الحرب الصليبية ، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوروبية من الشرق .

ولكن الدكتور زيادة يحقق هذه المسألة تحقيقا علميا ، خلاصته : أنه لا ينبغي أن يتسرب إلى الذهن أن المقريزي من سلالة إيطالية، لأن أباه وأسلافه معروفون، فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة ، وينتسب إلى الفاطميين على حد قوله في الحديث عن نفسه ، وجده لأمه من المحدثين الأحناف الكبار ، هذا إلى جانب أن المقريزي جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم ، وهو ما لا ينتظر أن تشتغل به أسرة أجنبية التي عادة ما يشتغل أبناؤها في المهن والصناعات والحرف والتجارة . وثمة دليل على أصالة المقريزي العربية الإسلامية ، هو أن المؤرخ «السخاوي» الذي اشتهر بتعقب أخبار السابقين والمعاصرين لم يذكر شيئا عن هذا الاحتمال ، مع ما هو معروف عن السخاوي من الغرام بالبحث في أصول الناس وأسرارهم إلى درجة المبالغة في الأصول ، ولا سيما أهل صناعته من المؤرخين .

وبحكم طبقته واعتباره من أهل العلم ، وهي المهنة المميزة لهذه الطبقة عن طبقة أهل السيف وهم المماليك ... التحق المقريزي بالخدمة الحكومية في ديوان الإنشاء بالقلعة وهو الديوان الذي يقابله في العصر الحاضر : وزارة الخارجية ،

فعمل كاتبا به ، وهي وظيفة لا يبلغها إلا أصحاب المؤهلات العالية ، والموهبة والتفوق في اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان .

بعد ذلك اختير قاضيا شافعيا ، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الحنفية الذي نشأ فيه ، ثم أصبح إماما لجامع الحاكم الفاطمى ، ثم مدرسا للحديث والتفسير بالمدرسة المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها أستاذ كرسى بالجامعة . ويبدو أن هذه الوظيفة كانت بتوصية من أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» للسلطان برقوق .

لكن لم يستمر في هذه الوظائف التى تدور في فلك الدين والعقيدة ، إذ انتقل إلى وظيفة الحسبة ، حين عينه «السلطان برقوق» محتسبا للقاهرة والوجه البحري ، فانتقل بذلك من المشتغلين بالفقه والدين والتعليم ، إلى دائرة الإدارة والاختلاط بالناس ، حيث الأسواق والأسعار والموازين والنقود والشوارع وتنظيم الحركة بها . مع الإشراف على المدارس والعناية بالمساجد والحمامات والوكالات ، ومراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمهندسين والمعلمين والمعماريين، يضاف إلى كل ذلك مراقبة الباعة الجائلين والمتعطلين والشحاذين ... وغيرها من وظائف تشترط فيمن يتولاها الكفاءة والدقة والعدل والنزاهة في الحكم ، والأمانة في تطبيق الأحكام الشرعية .

غير أن المقريزي تنحى عن وظيفة «المحتسب» ، إذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته ، وصرفته عن القراءة ، وتطلبت منه الجلوس على أريكة المحتسب للفصل بين الناس وحل مشاكلهم ليعود إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق مدرسا للحديث والتفسير بالمدرستين : الإقبالية والأشرفية بدمشق في سوريا ، ثم قاضيا بها ، وهى وظيفة اعتذر عن قبولها ، حيث سئم الوظيفة وما يتبعها من مسئوليات تصرفه عن العلم والتفقه فيه ، والتأليف والكتابة ، بل والتأريخ وهي أعمال نذر نفسه لها جميعا .

ولعله كتب في هذه الفترة كتاب السيرة النبوية بعنوان : (إمتاع الأسماع بما للرسول من أبناء وحفدة وأخوال وأتباع) الذي استهله قائلا : «إنه غير جميل أن يتصدى للتدريس والإفتاء ، والجلوس للحكم بين الناس ، والفصل في قضاياهم.. من يجهل من أحوال رسول الله ، وجميل سيرته ما لا غنى عن معرفته» . وكتب أيضا - إبان تواجده بدمشق- كتابا آخر في التاريخ الإسلامى، عنوانه: (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) ، وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التي بنى عليها أستاذه «عبد الرحمن بن خلدون» معظم نظرياته في فلسفة التاريخ .

ويعود إلى القاهرة حيث ينصرف إلى التدريس والتأليف . وكما يقول الدكتور «زيادة» في تأريخه للمقريزي بأنه حج إلى بيت الله الحرام ليفصل بين مرحلتين من حياته، ليقضى هناك بمكة خمسة أعوام اشتغل خلالها بتدريس الحديث وتفسيره ، ولعله قام بتأليف عدد من الكتب في هذه الفترة ، منها (الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام) و(ضوء الساري في معرفة تميم الداري) و(التبر المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك) وغيرها من كتب صغيرة تعنى بتاريخ العرب وأخبارهم .

ويرحل عن مكة عائدا إلى القاهرة ، حيث يستقر فيها بقية حياته في حارة «برجوان» التى كان يفاخر بها على سائر حارات القاهرة ، ليجعل من داره مكانا للتدريس والتأليف ، حيث بدأ كتابة مؤلفه الأشهر في تاريخ القاهرة المعروف باسم: (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو الكتاب باسم (الخطط المقريزية) وسمى بالخطط لأنه اعتنى بدراسة معالم القاهرة من حارات وشوارع ورباع وأسواق ومدارس ومستشفيات ومساجد ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم لرجال الدولة ونظم الحكم .

وزادت مؤلفاته الكبرى والصغرى على المائة كتاب ، ولعل من أهمها بعد كتاب «الخطط» وكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» كتابين : الأول منهما (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) الذي أرجع فيه أمر التنافس على الخلافة

الإسلامية بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية. والكتاب الثاني هو (إغاثة الأمة بكشف الغمة) الذي تناول فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى زمنه ، مما أدى إلى انتشار الأمراض ، وأهمها الطواعين ، وأرجع كل ذلك إلى سوء تدبير الملوك والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، وهو تخريج اقتصادي لم يسبق إليه أحد من المؤلفين قبله .

ويظل على هذا النحو مؤلفا وفقيها ومؤرخا ومفسرا حتى يلقى ربه ، حيث يلفظ أنفاسه الأخيرة بالقاهرة ، التي أحبها وتغنى بكل شبر فيها ، وكان ذلك عام 845 هجرية الموافق 1442 ميلادية. ليقول عنه اثنان من المؤرخين المعاصرين **أولهما** : الدكتور محمد مصطفى زيادة : إن المقريزي يعتبر عميد المؤرخين السابقين من ابن عبد الحكم إلى الجبرتي .. ذلك أن مؤلفات هذا المؤرخ الفذ من جهة ، وفكرة التاريخ عنده من جهة ثانية ، ورؤيته التحليلية للظواهر التاريخية ومنهجه في الكتابة التاريخية من جهة ثالثة .. تجعله جديرا بهذه المكانة حقا ، حيث كان مؤرخا موهوبا ؛ ومفكرا فذا ، وناقدا لاذعا في تعليقاته على أحوال البلاد والعباد في ذلك الزمان ، كما كان على وعي كامل بما طرحه ابن خلدون من أفكار في فلسفة التاريخ ، وقد تمكن المقريزي من تطبيق آراء ابن خلدون على نحو لم يستطع ابن خلدون نفسه أن يفعله .

والمؤرخ الثاني هو الدكتور «قاسم عبده قاسم» الذي يقول عنه : «تكشف كتابات المقريزي عن أنه كان رجلا موسوعي المعرفة ، ملما بمعظم علوم عصره ، فقد قال عنه السخاوي: كان ملما بمذاهب أهل الكتاب حتى كان أفاضلهم يترددون عليه للاستفادة منه ، ومن ناحية أخرى تتلمذ المقريزي على ابن خلدون عندما جاء إلى القاهرة في أواخر القرن الثامن الهجري : الرابع عشر الميلادي . وبدأ عقد حلقاته الدراسية التي طرح فيها آراءه وأفكاره حول التاريخ ، والتي جمعها في مقدمته وتأثر بها تلاميذه ، ومنهم المقريزي .

* * *

ابن حجـر العسقـلاني

أحد مجددي القرن التاسع الهجري والمعـروف في التـاريخ الإسـلامي باســم : «ابن حجر العسقلاني» واسمه كاملا: أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد شهاب الدين أبو الفضل الكناني العـسقلاني المـصري القـاهري : حجـة مـشهور في الحديث ، ومؤرخ وفقيه شافعي ، ولد في الثاني عشر من شـعبان عـام 773 هــ (18 فبراير عام 1372 م) في مصر القديمة ، وفقد والديه في سن مبكرة جدا ، وكـان أبـوه عالما مبرزا يصدر الفتاوى ويقوم بالتدريس ، ونشأ ابن حجر في كنـف زكـي الـدين الخروبي ، وهو من كبار التجار . وما إن بلغ التاسعة حتـى كـان قـد حفـظ القـرآن ، وسرعان ما أجاد بسائط الفقه والنحو ، ودرس مدة طويلـة مـن الـزمن عـلى أعظـم علماء عصره . مثال ذلك : أنه درس الحديث والفقه على البلقيني ، وابن الملقن المتوفى عام 704هـ ، وعز الدين بن جماعة ، والقراءات على التنوخي ؛ واللغة وفقههـا عـلى محب الدين بن هشام المتوفى عام 799 هـ ، والفيروز آبادي . ولما كان ابن حجر يميل إلى الحديث؛ فقد وقف حياته على دراسته مند عام 793 هـ (أوائل ديسمبر 1390م). ولذلك قام بعدة رحلات في مصر والشام والحجاز والـيمن كانـت سـببا في اتـصاله بكثير من الفقهاء والأدباء : ودرس الحديث عشر سنوات متصلة عـلى «زيـن الـدين العراقي» المتوفى عام 806 هـ ، وقد أذن له معظم شيوخه في إصدار الفتاوى والقيـام بالتدريس ، ورفض منصبا قضائيا عرض عليه عدة مرات ، ولكنه قبـل أخـيرا بعـد رجاء صديقه قاضي القضاة «جمال الدين البلقيني» أن يكون نائبا له ؛ وفي المحرم عام 827 هـ (ديسمبر 1423 م) عين قاضيا للقضاة . وظل في هذا المنصب نحـو إحـدى وعشرين سنة ، وصرف عنه في خلال هذه المدة مرات وأعيد إليـه مـرات . وكـان في

أثناء ذلك يقوم بالتدريس في عدة مساجد ومدارس (ذكر السخاوي عشرة منها) وحاضر في التفسير والحديث والفقه ، وكانت دروس ابن حجر الملقب «بحافظ عصره» يحضرها - بشغف- العلماء المتخصصون أنفسهم ؛ وكان كذلك مفتي دار العدل وشيخا للبيبرسية ، وكان خطيبا في الأزهر ثم في جامع عمرو ، ثم عين أمينا لمكتبة القبة المحمودية .

وأجاد ابن حجر في فني: النثر والشعر، وأظهر نشاطا كبيرا في التأليف . وكانت كتبه التي كان عدد منها عظيم الأهمية في دراسة الإسلام ، كثيرا ما يتهافت الناس عليها حتى في حياته ، وخاصة شرحه المسمى (فتح الباري في شرح البخاري) (بولاق 1300-1301هـ) الذي بيع بثلثمائة دينار . ونذكر من كتبه التي تزيد على المائة والخمسين ما يأتي :

(الإصابة في تمييز الصحابة) ، و(تهذيب التهذيب) ، (تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة)، (القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد)، (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) ، (في علم الحديث) ، (نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر)، (نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر) ، (الدرر الكافية في أعيان المائة الثانية) ، (إنباء الغمر بأنباء العمر) و(رفع الإصر عن قضاة مصر)، و(طوالع التأسيس في معالي ابن إدريس) ، وديوانه (غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر) ، وتوجد تفصيلات أخرى عن هذه المؤلفات في كتاب بروكلمان المعروف الذي ذكر فيه عدة مؤلفات أخرى .

وتوفي ابن حجر العسقلاني عام 853 هـ ، وكتب تلميذه «السخاوي» سيرته تحت عنوان : (الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر).

* * *

ألوغ بن شاه رخ

في البحث حول والي سمرقند «ألوغ بن شاه رخ» ، بالرجوع إلى تاريخه ، تدور في الخاطر عدة ملاحظات ، منها : أنه من عظمة الإسلام كدين ، أنه لم يقتصر على المواطن التي ظهر فيها : تلك التي ولد فيها وعاش وبعث نبيه – ﷺ – في مكة والمدينة ، أو حتى في شبه الجزيرة العربية أو ما يجاورها من بلدان عرفت فيما بعد بالعالم العربي .. وإنما امتد إلى غيره من الأمم والشعوب شرقا أو غربا ، شمالا أو جنوبا من مجموعها تكون ما سمي بالعالم الإسلامي ، ومن هذه الأمم : سمرقند وما يجاورها من أمم القارة الآسيوية .

ومنها : أننا قلنا – ونقول من قبل ومن بعد – إن الملوك شأنهم شأن سائر البشر فيهم الصالح الذي يبني ويشيد، كما فيهم غير ذلك ممن يهدم ويبدد. في النوعية الأولى من ينشر العدل والإنصاف ، ومن الثانية من يقر الجور والظلم .. وألوغ بن شاه رخ من هذه النوعية الثانية كما تشي به صفحات من تاريخه .

ثم من هذه الملاحظات ، هذه الملاحظة التي تتصل بالسابقة وهي : إن كان الولاة والملوك والأباطرة كسائر البشر ، ففيهم الصالح كما فيهم الطالح . وعلى هذا فقد اصطلح بعض العلماء والمؤرخين الثقات ، وأقروا فيما بينهم على أن يكون من بين هؤلاء الملوك والولاة مجددون في الإسلام كما رأينا من قبل ، وكما سنرى من بعد. مستندين إلى أن هؤلاء الملوك والأمراء شأنهم شأن غيرهم ، قد أضافوا جديدا إلى التفكير الإسلامي ، سواء في العقيدة والدين أو في غيرها من جوانب الحياة الإسلامية التي من مجموع ذلك تكونت الحضارة العربية الإسلامية .. ومن هؤلاء :

ألوغ بن شاه رخ والي سمرقند الذي عده عدد من العلماء والمؤرخين القدامى والمحدثين – وفي مقدمتهم من المحدثين الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» مستندا إلى ما قاله السابقون – أحد مجددي القرن التاسع الهجري ، حيث ولد عام 790هـ ، وتوفي عام 851هـ ، وبين ميلاده ووفاته نلمح بعض الجوانب الإصلاحية التي تبرز إضافة إلى مجموع المجددين في الإسلام .. فقد شغف منذ صغره بالعلوم الفلسفية والرياضية ، فتعلمها على من بقي مشتغلا بها في أممهم . ومن أجل ذلك ، سافر إلى الدولة العثمانية التركية ، فأخذ العلم من علمائها وبرع في ذلك ، حتى إن بعض العلماء رجع إليه خاصة في العلوم الرياضية والفلكية .

وكان مع ذلك بارعا في غيرها من العلوم حتى وصفه صاحب كتاب : (شذرات الذهب) «ابن العماد» بأنه كان «فريد دهره ، ووحيد عصره في العلوم العقلية ، والهيئة الهندسية ، حيث كان صاحب علم غزير وفضل وفير واطلاع كبير ، وباع واسع ، إلى جانب مشاركة جيدة إلى الغاية في فقه الحنفية والأصلين : – أصل الفقه ، وأصل العقائد – والمعاني والبيان والعربية والتاريخ ، وأيام العرب » .

ثم ذكر صاحب (شذرات الذهب) «ابن العماد» « أنه – أي : ألوغ بن شاه رخ – سأل بعض حاشيته عما يقول الناس فيه ، وألح عليهم في سؤاله ، فأخبروه بأن بعض الناس يقولون عنه إنه لا يحفظ القرآن الكريم ، فدخل قصره ، وعكف فيه معتزلا ستة أشهر حتى أتم حفظ القرآن .. » .

وكان ألوغ قد تولى حكم سمرقند بعد والده شاه رخ ، ومكث في ولايتها فترة قصيرة ، فيها كان يقرب إليه العلماء ، ويجالسهم ويناقشهم ، ويكثر من تقديرهم وبرهم ، وقد أراد أن ينشئ مرصدا عظيما بسمرقند ، فجمع علماء عصره المشهود لهم بالبراعة في هذا العلم ، وأغدق عليهم الأموال ، حتى جاء إليه علماء الهيئة والهندسة من البلاد البعيدة . وهو مع ذلك كان يبحث عمن يسمع به من علماء عصره ويرسل إليه طالبا معاونته العلمية ، ولعل الذي حمله إلى بناء هذا المرصد : أنه أراد أن يرصد

الكواكب ، بعد أن رأى خللا في إرصاد المتقدمين ، فأراد أن يبني مرصدا أتقن وأجود من كل ما سبقه من المراصد ، وقد كان هذا المرصد الذي أنشأه ألوغ يمتاز عن غيره في دقته في الرصد .

لكن هذا الحاكم المجدد ، صادفت حياته محنة قاسية ، هذه المحنة كانت في أحد أولاده ويدعى : عبد اللطيف . الذي طلب منه والده : ألوغ ، أن يتولى ولاية هراة ، فلم يجبه على ذلك ، فولاه ولاية بلخ ، فذهب إليها وهو كاره لها . وما يذكره مؤرخو ألوغ بن شاه رخ أنه كان حريصا ممسكا لا يغدق المال الكثير على أمرائه وحاشيته ، كما يفعل غيره من الملوك الذين لا يبالون بمصلحة رعاياهم ، في الوقت الذي لا يتحرجون فيه من الإنفاق على المقربين إليهم من الحكام من الأمراء والحاشية ، ولذلك .. فقد كرهه هؤلاء الأمراء والحاشية ، وأوعزوا إلى ابنه عبد اللطيف أن يخرج على أبيه ، حيث كان في نفسه ما كان في نفوسهم فانتهزها فرصة ، وأعلن الحرب عليه ، ولكن أمراءه وحاشيته خانوه حين التقى جيشه بجيش ابنه ، حيث انضم كثير منهم إلى ابنه ، تاركين إياه في جماعة قليلة العدد ، فانهزم من ابنه الذي تولى الملك بعده عنوة . ولما ضاق عليه الأمر ذهب إلى ابنه ، ودخل في طاعته ، ورضي أن يعيش كآحاد الناس تحت حكمه !

لكن يبدو أن النكبات كانت تحاصر هذا المجدد ؛ حيث كانت النكبة الثانية في قتل ابن آخر اسمه : عبد العزيز على يد ابنه عبد اللطيف في حضور الوالد ، فلم يطق هذا الوالد المنكوب في ولده المقيم في سمرقند ، وطلب من ابنه عبد اللطيف أن يأذن له في الخروج إلى الحج ، فخرج من سمرقند ، ولم يبتعد عنها مسافة يوم أو يومين ، وكان بعض أمراء السوء الذين يحيطون بابنه قد أوعزوا إليه الشر محذرين إياه مما قد يفعله والده ، فأرسل إليه من قتله وهو في طريقه إلى الحج وكان ذلك سنة 853هـ ، أي بعد سنتين من توليه الملك على سمرقند حيث تولى ملكها عام 851هـ ولو أنه

لبث في ملكه على سمرقند بعضا من الوقت لأحدث فيها تجديدا وتقدما أكثر مما أحدثه وهو مجرد أمير في حياة أبيه شاه رخ . ولكن قصر مدة ملكه لم تجعله يحقق ما كان يخطط له ويفكر فيه .

هذا الملك العظيم ألوغ شاه رخ في رأي الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» أحق بأن يكون من مجددي القرن التاسع الهجري أكثر من هؤلاء الجامدين من الفقهاء ، وبعض غلاة الصوفية . إذ كان ما قام به وصنعه في بلاده ، قريبا مما كان يجري في أوروبا وقتئذ من نهضة علمية ، وكان جديرا بأن يسير بالمسلمين في طريق النهضة لو كان الذي بعده يبني على أساس ما صنعه ، كما كان يحدث في أوروبا . وهذه آفة من آفات العالم العربي الإسلامي أن المسئول الجديد لا يعبأ كثيرا بما صنع الذي قبله من بناء ، بل يهدم اللاحق ويبدد ما أسسه السابق ، ظنا منه أن ذلك يصنع المجد الذي ينسب إليه دون غيره .



السـيوطي

المؤرخ والعالم والفقيه : جلال الدين السيوطى ، أحـد مجـددي القـرن التاسـع الهجري ، وأحد صناع الحركة الموسوعية في الثقافة العربيـة الإسـلامية التـى كانـت تنشط إذا ما مر بالعالم الإسلامى محنة من المحن التى يمتحن بها ، وهنا يهرع المؤلفون إلى جمع المعارف التى حصلها السابقون حتى يستفيد منها اللاحقـون . وقـد حـدث هذا حين كانت محنة المسلمين في الأندلس في أواخر القرن الثامن الهجـري بـسنوات قليلة ، وبالتحديد في سنة سبع وتسعين وثمانمائة ، يوم أن خرج المسلمون من إسبانيا، وانقطعت عن العرب كل السبل إلى وصل تقدمهم ، أو الاستمرار فيما بدءوا .

وقد سبق محنة سقوط غرناطـة العربيـة في الأنـدلس ، وزوال الـسيادة العربيـة في الغرب محنة أخرى في الشرق ، حين سقطت بغداد في أيدي المغول سـنة سـت وخمـسين وستمائة (656 هـ)، وانتهت بدخول العثمانيين سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة (923هـ). وهذه الفترة التى امتدت إلى ما يقرب من ثلاثة قرون سميت بالعـصر المغـولي ، وذلـك بسيادة المغول للرقعة العربية من حدود الهند شرقا إلى حدود سوريا غربا .

وكما بطش المغول بالمسلمين في الشرق بطـش الإسـبان بهـم في الغـرب ، ومـن ضمن ما صنعوا إحراقهم المكتبات العربية ، وإتيانهم عـلى الكتـب .. ونفـس الأمـر فعله الإسبان في الغرب ، حيث أحرقوا وأبادوا عشرات الآلاف من الكتب العربية، والتاريخ يذكر ما فعله الكاردينال «زيمتسى» في آخر القرن التاسـع بمكتبـة غرناطـة حين حرم الوجود الثقافي من ثمانين ألف مجلد .

وبسبب هذا العسف الذي لحق المسلمين في الشرق العربي على أيدي المغـول في بغداد ، والغرب الأندلسي على أيدي الإسـبان في غرناطـة ، هـاجرت الجمـوع مـن

الغرب والشرق إلى مصر، التي لم تكن قد امتدت إليها محنة الغرب الإسباني أو الشرق المغولي ، فهاجر إليها العلماء ، حيث لا إسبان ولا مغول ، وكان من بين هؤلاء عدد من المؤرخين في مصر والشام ، عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية ، نذكر منهم : ابن خلكان (681 هـ) صاحب وفيات الأعيان ، وابن أبي أصيبعة ، (668 هـ) صاحب طبقات الأطباء ، وصلاح الدين الصفدي (764 هـ) صاحب الوافي بالوفيات ، وأبا الفدا (732هـ) صاحب المختصر في أخبار البشر ، والذهبي (748 هـ) صاحب تاريخ الإسلام ، وابن شاكر الكتبي (754 هـ) صاحب كتاب (فوات الوفيات) ، وابن حجر العسقلاني (852 هـ) صاحب الدرر الكامنة ، والمقريزي (845 هـ) صاحب الخطط ... وغيرهم .

وظهرت نتيجة أخرى لهذه المحنة التي ألمت بالعالم العربي - غربه وشرقه - بدت في لهفة المؤلفين على الجمع الموسوعي ، حتى أصبح هذا العصر يسمى بعصر الموسوعات أو عصر المجاميع . حيث خاف العلماء على اللغة والأدب من الضياع ، فاستكثروا من المعاجم . ولا عجب في ذلك ، حيث أحس الناس وقتئذ - بانطواء صفحات ، وزوال معالم ، وذهاب تاريخ فيما بين عشية وضحاها .

ومن أصحاب هذه الموسوعات والمجاميع والمعاجم : ابن منظور (711 هـ) صاحب لسان العرب ، والوطواط (718 هـ) صاحب نهاية الأرب ، وابن فضل الله العمري (748 هـ) صاحب مسالك الأبصار ، والفيروزآبادي (817 هـ) صاحب القاموس المحيط ، والقلقشندي (821 هـ) صاحب موسوعة صبح الأعشى .

وفي ظل هذه المحنة التي شملت العالم العربي : شرقه وغربه ، وتلك اللهفة الحافزة لجمع المعارف والمعلومات ، وتلك الغيرة الشديدة على تسجيل الأحداث وتحليلها - نشأ المؤرخ والعالم والفقيه جلال الدين السيوطي (849 هـ) وعاش ومات ، وأرخ لنفسه قائلا : «... وأما جدي الأعلى «همام الدين» فكان من أهل

الحقيقة ومشايخ الطرق الصوفية . وقد بنى مدرسة بأسيوط وأوقف عليها أوقافا . وكان مولدي – بالقاهرة– بعد المغرب ليلة الأحد ، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، وحملت في حياة أبي إلى الشيخ «محمد المجذوب» ، وكان من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسى بالقاهرة .. ونشأت يتيما ، فحفظت القرآن ولي من العمر دون ثماني سنوات . ثم حفظت (العمدة) ، و(منهاج الفقه) و(الأصول) ، و(ألفية ابن مالك) . وشرعت في الاشتغال بالعلم من مستهل سنة 864 هـ ، فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن علامة زمانه «الشيخ شهاب الدين الشارمساحي» ، الذي يقال إنه بلغ السن العالية ، وجاوز المائة بكثير .. وأجزت بتدريس العربية في مستهل سنة 866 هـ ، وألفت في هذه السنة . وكان أول شيء ألفته : شرح الاستعاذة والبسملة ، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام : «علم الدين البلقيني» ، فكتب عليه تقريظا . ولازمته في الفقه إلى أن مات ، وأجزت بالتدريس والإفتاء من سنة 876 هـ .. ثم لزمت شيخ الإسلام : «شرف الدين المناوي» ، فقرأت عليه قطعة من (المنهاج) وسمعته عليه في التقسيم ، وسمعت دروسا من شرح البهجة وحاشية عليها من تفسير البيضاوي. ولزمت في الحديث والعربية ، شيخنا الإمام العلامة «تقي الدين الشبلي الحنفي» فواظبته أربع سنين ، وكتب لي تقريظا على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية ، وكان من تأليفي ، وشهد لي غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه . ورجع إلى قولي مجردا في حديث ، فإنه أورد في حاشيته على الشفاء حديث ابن أبي الجمراء في الإسراء وعزاه إلى تخريج ابن ماجه ، فاحتجت إلى إيراده بسنده ، فكشفت ابن ماجه في مظنته فلم أجده ، فمررت على الكتاب – ثلاث مرات – فلم أجده ، ورأيته في معجم الصحابة لابن قانع ، فجئت إلى الشيخ وأخبرته ، فبمجرد ما أن سمع مني ذلك أخذ نسخته ، وأخذ القلم ، فضرب على لفظ ابن ماجه ، فأعظمت ذلك وهبته لعظم منزلة الشيخ في قلبي واحتقاره في نفسي ..

«ولزمت شيخنا العلامة «محيي الدين الكافيجي» أربع عشرة سنة ، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعاني وغير ذلك ، وكتب لي إجازة عظيمة . وحضرت عند الشيخ «سيف الدين الحنفي» دروسا عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه ، وتلخيص المفتاح والعضد . وشرعت في التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة ، وبلغت مؤلفاتي حتى الآن ثلاثمائة كتاب ، سوى ما غسلته ورجعت عنه. وسافرت بحمد الله إلى بلاد : الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب . ولما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها : أن أصل في الفقه إلى مرتبة شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

«وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين ، ورأيت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع على طريقة البلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة... والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة- سوى الفقه والنقول - التي اطلعت عليها فيها - لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد شيوخي، فضلا عمن دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي فيه أوسع نظرا وأطول باعا . ودون هذه السبعة في المعرفة : أصول الفقه ، والجدل ، والتصريف. ودونها الإنشاء والتوسل والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما علم الحساب فهو أعسر شيء علي ، وأبعده من ذهني ..

«وقد كملت عندي الآن آلات الجهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا . وقد أزف الرحيل ، وبدأ الشيب ، وذهب أطيب العمر ، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية القياسية ومداركها ، ونقوضها ، وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها .. لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي ..

«وقد كنت في مبادئ الطلب قد قرأت شيئا في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهيته في قلبي ، وسمعت أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته .. فعوضني الله عنه علم الحديث، الذي هو أشرف العلوم. وأما مشايخي في الرواية سمعا وإجازة فكثيرون... عددتهم نحو مائة وخمسين .. وهذه أسماء مصنفاتي ...» .. وبدأ في تصنيف كتبه .

وقد أحصى «بروكلمان» نحو خمسة عشر وأربعمائة مؤلف. كما أحصى له «حاجي خليفة» في كتابه : (كشف الظنون) نحو ستة وسبعين وخمسمائة كتاب ، ومن قبل أحصى له ابن إياس في تاريخه بأن كتبه بلغت الستمائة ، وأحصى له الشعراني في ذيل طبقاته أربعمائة وستين مؤلفا .

ويعلق الأستاذ «أحمد الأبياري» على كثرة مؤلفات السيوطي قائلا : إذا عرفنا هذا نكاد نفهم كيف اتسعت الأعوام الخمسة والأربعون التي عكف فيها السيوطي على العبادة والتأليف.. لهذا العدد من الكتب فهو قد بدأ التأليف- كما يقول في ترجمته لنفسه - عام 866 هـ ، وكانت وفاته عام 911 هـ .. فإننا لا نستكثرها عليه ..

وقد عاش السيوطي عظيما ، يعف عما في أيدي الأمراء والوزراء ، وسعى إليه هؤلاء الأمراء والوزراء . وعز في أنفسهم حين عز نفسه . وحسبك عنه أنه لما مات عام 911 هـ لم يتعرض أحد لتركته ، مع أن زمانه كان زمن جور ، وإليك ما قاله «جمال الدين الشبلي» في كتابه (السنا الباهر بتكميل النور السافر): «دفن جلال الدين السيوطي في قبر والده ، وعمل له «الأمير قرقماش» .. صندوقا من خشب ، وسترا أسود مطرزا بالأبيض بآية الكرسي ، وصار ضريحه مقصودا بالزيارة للتبرك ».

ويقول الشعراني في ذيل طبقاته : «ولما جئت إلى مصر قبيل موت السيوطي اجتمعت به مرة واحدة تبركا ، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعي موته . إلى أن يقول : «مات جلال الدين السيوطي رضي الله عنه في ليلة الجمعة عام 911 هـ ، وكان له مشهد عظيم ».

وقد حقق العلامة «أحمد تيمور» مكان قبره في كتيب صغير بعنوان : (قبر الإمام السيوطي) ، وتحقيق موضعه ، فانتهى إلى أنه في المكان المعـروف عنـد العامـة ببوابـة السيدة عائشة . حيث يقول : «وقبره مشهور عند أهـل هـذه الناحيـة ، الخلـف عـن السلف ، من زمان وفاته إلى اليـوم ، ويرجـع الفـضل في حفظـه إلى حـسن اعتقــاد الناس فيه ، وقصدهم إياه بالزيارة كل حين ، ويقيمون له مولدا كل سنة في النـصف من شـعبان .



زكريا الأنصاري

الحديث عن : زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري ، المعروف في كتب السير والتراجم بالقاضي زكريا الأنصاري ، والذي كان في مقدمة المجددين في الإسلام على رأس المائة التاسعة للهجرة ، يجرنا للحديث عن أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن عالم الدين كان لا يقتصر - في علمه - على علوم الدين ومنها: الفقه والتفسير والحديث فحسب ، بل كان شبيها بأجداده العرب الأقدمين ، عالما شاملا . فإلى جانب علمه بالدين نراه يهتم بعلوم أخرى فلا يقتصر اهتمامه بعلوم لها اتصال بالدين ، كالنحو ، والصرف ، واللغة ، والمعاني ، والبيان والبديع ، والفلسفة، والمنطق ، والتصوف.. بل امتد كذلك إلى علوم أخرى، كالطب والحساب والجبر والمقابلة ، والهيئة والفرائض والهندسة ، وغيرها من العلوم المدنية التى كان أسلافنا من العرب الأقدمين يدرسونها ويتوافدون عليها ، إلى درجة أن الجامع الأزهر منذ أنشئ اهتم بها وقام بتدريسها .

ولو أن اهتمام الأزهريين بهذا المنهج العلمى الشامل قد استمر لظهر من علماء الأزهر علماء في الطب والهندسة والرياضيات ... وغيرها من العلوم غير الدينية . لكن في الوقت الذي أهمل فيه الأزهر هذا المنهج الشامل كانت أوروبا تستعد لنهضتها الحديثة ، وعدتها في ذلك ما أخذته عن العرب الأقدمين ، من أصحاب هذا المنهج الشامل الذي كان يمثلهم الفارابي وقبله الكندي وابن سينا ، وابن رشد والرازي وابن الهيثم وابن حيان ... وغيرهم ممن كان الواحد منهم يتقن الطب أو الهندسة أو الرياضيات أو الفلسفة أو حتى الموسيقى والألحان ، إلى جانب إتقانه للحديث والفقه والتفسير .

أقول : لو أن الأزهر استمر على منهجه الذي كان متبعا حتى القرن التاسع مثلا، الذي عاش فيه القاضي زكريا الأنصاري ، لكان للأزهر اليوم شأن آخر .. لكن الذي حدث أن الأزهر بعد ذلك رأى الاقتصار على العلوم الدينية والشرعية وما يتصل بها من فقه ولغة وأدب ونحو . وإذا امتد اهتمامه إلى غير ذلك من علوم . فإن اهتمامه يكون سطحيا بسيطا لا يغني .

ويبدو أن اهتمام رجل الدين بهذا المنهج العلمي الشامل كان له أكبر النتائج - على الأقل - المستمد حتى من حضارتنا العربية ، وإلا فما معنى العودة إلى الاهتمام بهذا المنهج الشامل لرجل الدين ، بحيث يأخذ شكل المعارف الموسوعية الجامعة ؟!

لقد طورت جامعة الأزهر في نهايات القرن الرابع عشر الهجري وستينيات القرن العشرين لتغطي هذا الاهتمام وتقوم به ، حيث أنشئت بهذه الجامعة كليات علمية كالطب ، والهندسة ، والتجارة ، والزراعة ، واللغات الأجنبية ، وغيرها من الكليات ذات الاهتمام بعلوم الدنيا - وكأن الأزهر يعود إلى سابق منهجه الشامل - وهي عودة محمودة لا يختلف في فائدتها أحد يهمه أمر الدين الإسلامي ، وكيف يكون رجاله على علم بعلوم الدين والدنيا معا .

ولعل في سيرة القاضي «زكريا الأنصاري» خير مثال على ذلك ، فنراه ينشأ على حفظ القرآن الكريم في قريته «سنيكة» التابعة لمحافظة الشرقية . التي ولد فيها عام 826 هـ . فلا يكتفي بذلك. وإنما يتجه إلى دراسة (مختصر التبريزي) في الفقه . لينتقل من الشرقية إلى القاهرة ، حيث يلتحق بالجامع الأزهر ، فيأخذ الفقه عن القاياتي ، والعلم عن البلقيني والتفسير عن شيخ الإسلام ابن حجر والنحو عن الشمني وابن همام . ولا يكتفي بهذا القدر من العلوم التي تؤهله لأن يكون عارفا أو عالما بدينه الإسلامي ، وإنما يتجاوزه ، فيدرس علوما منها : الصرف ، والأصول واللغة ، والهيئة ، والهندسة ، والميقات ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، وعلم الحرف، والتصوف ... وغيرها .

ولم يزل هذا المجدد مشتغلا بطلب العلم على طريقة جميلة من التواضع وحسن العشرة ، والأدب والعفة ، والابتعاد عن زخرفة الحياة ، مع شرف النفس ، ورجاحة العقل ، وسعة الصدر والاحتمال والصبر حتى أذن له شيوخه في الإقراء والإفتاء.

ثم ينتقل القاضي زكريا الأنصاري إلى مرحلة جديدة من حياته ، حيث يتصدى للتدريس في حياة الكثيرين من شيوخه وأساتذته ، وينتفع به طلاب العلم جيلا بعد جيل ، بل ويستطيع أن يسهم إلى حد كبير في تدريس بعض العلوم المتصلة بالحياة أو يضع مناهج لها ، ومن هذه العلوم : التصريف ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، والمنطق ، والتصوف ، والفرائض ، والحساب ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ... وغير ذلك من العلوم التي كانت تدرس وقتئذ بالأزهر ، ولم يكن الأزهريون قد أهملوها ونظروا إليها نظرة أقل من نظرتهم إلى العلوم الدينية المحضة ، بدعوى التخصص فيها .

وطبيعي والأمر كذلك .. أن يعلو قدر هذا العالم المجدد المستنير ، وذلك بما حازه من علوم أفاد بها غيره ، وطبيعي أيضا أن يولى المناصب المرموقة كالتدريس في مقام الإمام الشافعي ، وهو أرفع منصب علمي وقتئذ ، ثم يتولى ويشرف على مدارس وخانقاوات صوفية . إلى أن يتولى منصب قاضي قضاة مصر الذي يعادل منصب وزير العدل الآن بعد امتناع عنه كثيرا ، وتعفف أكثر .

يمارس القاضي زكريا الأنصاري العمل في القضاء ، ويكون في عمله قدوة ومثلا لمن يجيء بعده في هذا المنصب الحساس ، ويستمر فيه مدة ولاية السلطان الأشرف قايتباي ، ويستمر بعد هذا العهد دون توقف منه أو إيقاف من السلطان إلى أن يكف بصره، فيستبعد بسبب آفة العمى. ولكنه بالرغم من ذلك يواصل التدريس والإفتاء في أمور الدين والدنيا والتصنيف في الأدب والثقافة .. ولهذه الجهود يعد القاضي زكريا الأنصاري أحد مجددي القرن التاسع الهجري– لشهرة الانتفاع به ، وكثرة تصانيفه ، واحتياج أغلب الناس إليها فيما يتعلق بأمر دينهم ودنياهم .

ولا ريب أن هذا المجدد قد أسهم في أمـور كثـيرة في مقـدمتها أمـران جـديران بالاعتبار :

الأمر الأول : أن الجامع الأزهر في عهده لم يكن يضيق بدراسـة علـوم الهندسـة والطب والرياضيات ، وما إليها من العلـوم بمعناهـا الـدقيق ؛ لأن القـاضي زكريـا تعلمها ، ثم اشتغل بتدريسها والتأليف فيها ، ولا غرو في ذلـك ، فقـد كـان الجـامع الأزهر أكبر معهد على مستوى العالم العربي ، ولذلك كان لعلمائـه وطلابـه رغبـة في تحصيل كل العلوم ، وكانت لهم همم كبيرة في ذلك .

والأمر الثاني : (الذي تيسر بفضل وجود هـذا المجـدد) : أن هـذه العلـوم غـير الدينية قد تبسطت وتيسرت حتى أمكن تدريـسها لطـلاب العلـم بـالأزهر بعـد أن كانت دراستها مقصورة عـلى عبقريـات الحـضارة العربيـة الإسـلامية مـن أمثـال : الكندي والرازي وابن سينا ... وغيرهم من الفلاسفة .

ويظل هذا المجدد مواصلا طريق العلم : مدرسـا وقاضـيا وصـاحب فتـوى ، حتى يتوفى عام 925 هـ ، ويدفن بالقاهرة بمسجد الإمام الشافعي .

❊ ❊ ❊



1 – سليمان القانوني

2 – الإمام الشعراني

3 – البركوي

4 – الرملي

1

هذا القـرن

يبدأ القرن العاشر الهجري سنة 1496 وينتهـي سـنة 1591، ذلـك في التقـويم الميلادي ، وفيه كان المسلمون على شيء من القوة ، حيث ضمت دولتهم ثلاث دول: واحدة في الغرب ، واثنتان في الشرق .

فأما الدولة الإسلامية التي كانت في الغرب فهي الدولة العثمانية التركية ، تلـك التي تولى زمام الحكم فيها بعد السلطان «محمد الفاتح» أولاده وأحفاده ممن تفـاوتوا بين القوة والضعف ، إلا أن هذه الدولة العثمانية التركية مثلت في النهاية أكبر وأقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت ، فقد ضمت في حـدودها الدولـة الـصفوية بفـارس ، وانتزعت العراق من هذه الدولة الصفوية ، وضمت مصر بعد القتال مـع المماليـك ، كما استولت هذه الدولة العثمانية التركية عـلى بـلاد الـصرب والمجـر وبلغاريـا ، إلى جانب استيلائها على الجزائر وغيرها من دول المغرب العربي ، وفي المشرق اسـتولت على اليمن وغيره من دول الخليج في النظام الحديث ، وكان ذلك في عهد «الـسلطان سليمان القانوني» الذي خلفه ابنه «سليم الثاني» الـذي تـم في عهـده الاسـتيلاء عـلى مدينة تونس ، وفي عهده توثقت العلاقات مع الدول الأوروبية التي لم يتم الاستيلاء عليها خاصة فرنسا وإنجلترا .

وأما الدولتان اللتان كانتا في الشرق **فأولاهما** الدولة الصفوية ببلاد فارس التـي اتسعت حتى شملت جميع بـلاد فـارس والعـراق وامتـدت إلى أجـزاء مـن الخلـيج الفارسى ، إلى بحر الخزر . وكانت العلاقات سيئة بين هذه الدولة الصفوية والدولـة العثمانية التركية طوال هذا القرن لسبب رئيـسى غـير الرغبـة في الاسـتيلاء ، هـو أن الدولة الصفوية شيعية ، بينما الدولة العثمانية التركية فقد كانت سنية .

والدولة الثانية في الشرق : فقد كانت الدولة المغولية ببلاد الهند ، تلك التي أنشأها «بابرشاه» من أحفاد «تيمورلنك» .

هذا عن الحالة السياسية لبلاد المسلمين في هذا القرن العاشر ، أما عن الحالة العلمية فلم تكن على مستوى الحالة السياسية ، حيث عم الجهل ، ومعاداة العلوم الفلسفية ، كما أضيف إلى الجهل بالعلوم ومعاداة الفلسفة معاداتهم للعلوم الأدبية ؛ حيث طغت على الألسنة الخاصة بعد أن تم استيلاء الدولة العثمانية التركية على معظم البلاد العربية ، واستخدامها للغة التركية لغة للحياة ، سواء على ألسنة العامة أو في الدواوين الرسمية .

ولعل ما وصلت إليه الحالة العلمية وقتئذ من سوء ، أجمله صاحب كتاب (العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم) حيث سجل : «ولعمري إن ذلك يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات ؛ لأن المعارف عندهم خرافات ، فقد انتهينا إلى زمان يرون فيه الأدب عيبا ، ويعدون الاهتمام بالفنون ذنبا ، وقد سل السيف على من تحلى بالفضائل وتقدم على أقرانه ... فالتبس الدر بالزجاج ، واشتبه العذب بالأجاج ، وضاع طيف خيال ، أو ضيفا على شرف ارتحال ، وضعف أساس العلم وبنيانه ، وتضعضعت أركانه وخمدت ناره ...».

هذا بالطبع .. إلى جانب تأثير جهلة المتصوفة حتى خضع بعض علماء هذا القرن لأولئك المتصوفة .

كذلك ساءت الحالة الاجتماعية بين المسلمين حتى صارت - كما يقول المؤرخون - أسوأ منها في القرن الماضي. ولذلك أسباب وعلل في مقدمتها : أن الدولة العثمانية التركية التي سيطرت على أغلب البلاد الإسلامية كانت تعامل الرعايا كأنهم عبيد لها . وتنظر إلى ما في أيديهم على أنه ليس من حقهم ، وإنما هو من حق الدولة الذي يئول إلى مواطنيها من الأتراك حتى إن «السلطان سليمان القانوني» اعتبر نفسه هو المالك الحر لجميع أراضي البلاد التابعة للدولة العثمانية التركية .

وليست الدولة . وطبيعي أن يوزعها كإقطاعات على الوجهاء والرؤساء من الأتراك.. وكان كل ذلك على حساب الملاك الحقيقيين غير الأتراك ، بل وصلت الحالة الاجتماعية من السوء : أن السلطان إذا خاطب الرعية لا يوجه الخطاب إليهم، بل يوجهه إلى ولاته قائلا : «بلغوا عبيد بابنا العالي» .

وهذه الدولة العثمانية التركية هى التى ابتدعت تقسيم الأمة إلى طبقتين : «الأشراف» و«العامة» من كل أفراد الشعب، كما أنها هى التى ابتدعت نظام الألقاب مثل : البيك والباشا أو عندما يخاطب هذا أو ذاك فإنما يقال له يا صاحب العزة أو السعادة . وأما بقية أفراد الشعب فمخاطبتهم بـ : «يا رجل أو يا ولد».

وإزاء هذه الأمور .. ساءت الحالة الاجتماعية ووصلت إلى درجة من الانحطاط لم تصلها في أي عصر من عصور الدولة الإسلامية التى قامت على المساواة وتذويب الفوارق ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى .

وفي المقابل .. نجد في أوروبا تقدما وتطورا في النواحى السياسية والاجتماعية وحتى الدينية يفوق بكثير ما كان حادثا في الدولة الإسلامية ، ومن هذه الدول الأوروبية كانت إسبانيا وفرنسا وإنجلترا وبقية الدول الأوروبية الغربية ، ولذلك .. لم يكن غريبا أن تتخلص تماما إسبانيا من الحكم العربي وتسقط غرناطة وغيرها من المدن العربية في قلب إسبانيا ، وتزول حضارة العرب بطرد العرب ، بعد الاستفادة مما صنعوه في إسبانيا .

وهكذا .. صار المسلمون يبحثون عن أمجادهم الغابرة في القرون السابقة ، في علوم الفقه ، ومنهم من وجد ذلك في فقه «شمس الدين الرملى» الذي كان يقال له : (الشافعى الصغير) لبراعته في عرض فقه هذا المجدد ، إلى جانب اعتبار «سليمان القانوني» مجددا آخر لما قام به من إصلاح في إدخال بعض التجديدات الإيجابية في القانون ، التى استحق بسببها لقب القانوي لما استحدثه من إصلاحات قانونية ، كما سنرى عند الحديث عنه كأحد المجددين في هذا القرن .

سليمان القانوني

من أبرز مجددي القرن العاشر الهجري : السلطان سليمان الأول ، أو كما اشتهر في التاريخ بسليمان القانوني . هذا السلطان خلف أباه السلطان سليم الأول عام 1520م في الإمبراطورية العثمانية التركية التي كانت في أوج عظمتها، وواصل فتوحات أبيه في البلقان ، فاستولى على بلجراد في يوغوسلافيا ، وطرد الفرسان من رودس ، وأوقع هزيمة ساحقة بالهنغاريين في معركة موهاك عام 1526م ، وحاصر فيينا بالنمسا عام 1541م ، وكان قد تحالف مع «فرنسيس الأول» ملك فرنسا عام 1536 م ضد النمسا .

جعل الأسطول التركي مصدر رهبة للأوروبيين في البحر المتوسط ، وإن كان قد فشل في الاستيلاء على مالطة ، وشن عدة حروب ضد فارس كان النصر فيها حليفه ، ويذكر أن حكمه اتسم بالعدل والاعتدال بوجه عام ، وكان محبا للثقافة ينفق بسخاء على رجالها .

لقب هذا السلطان بالقانوني ؛ لأنه جدد كثيرا من الأنظمة في الدولة العثمانية ، فأدخل تجديدات في نظام العلماء والمدرسين ، وفي أقسام الشرطة والجيش وغير هذا من جوانب الإصلاحات في الدولة ، وخاصة العمرانية ، فأنشأ مسجدا عظيما كان يعرف باسمه في إستانبول ، وأنشأ إلى جواره عددا من المدارس لتدريس العلوم المختلفة من علوم الأديان إلى الرياضيات ، وكذلك علوم الطب فأنشأ مدرسة للطب لم يكن لها في أوروبا مثيل ، كما يذكر «جودت باشا» في تأريخه .

هذا السلطان العثماني اعتبره بعض العلماء من مجددي القرن العاشر الهجري ، لما قام به من تجديد وإصلاح في القانون .

ومن أهم هذه التجديدات التي أشار إليها المؤرخون : إصلاح القضاء ؛ حيث كان القضاء في الدولة العثمانية التركية المترامية الأطراف لا يجري على مذهب واحد ، بل كان يجري على المذاهب الأربعة في البلد الواحد . فكان في ولاية مصر يجري القضاء على المذاهب الأربعة فكان فيها أربعة قضاة بعدد المذاهب الأربعة ، يحكمون بأحكام مختلفة بين الناس ، فيضرب أمرهم باختلاف تلك الأحكام . وهنا أبطل هذا النظام القانوني بمصر ، وعزل قاضي القضاة : الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي من المصريين ، وولى قضاة أتراك يعملون وفق مذهب واحد يقوم بجانبهم قضاة مصريون يترجمون بينهم وبين أصحاب القضايا من المتنازعين أمام المحاكم .

كذلك .. أدخل بعض التجديدات في نظام المحاكم ، ومنها : كتابة عقد الزواج في بيت القاضي أو نائبه ، وذلك في المدن أو الأرياف ، وإقرار دفع قدر من المال في نظير تدوين وثائق الزواج والطلاق في دفاتر تحفظ في المحاكم لأول مرة بمصر، حتى يرجع إليها عند التقاضي .. وغير ذلك من التجديدات التي كان القصد منها ضبط الأمور التي يكثر فيها منازعات بين الناس ، حتى يرجع إليها في نزاعهم ، لتحري العدل في الحكم بينهم .

إلا أن هذا لم يعجب أنصار الجمود على القديم من علماء مصر ، فعارضوه باسم الدين وثار معهم العامة وأشباه العامة ، بل ثار معهم النساء ممن كن يتمتعن في مصر بما لا يتمتع به التركيات مثل : الخروج إلى الأسواق ودور اللهو وزيارة الأهل والأقارب ، والذهاب إلى الحمامات فمنعهن من هذا كله .. وكان هذا وغيره سببا في اشتراكهن في المعارضة والثورة على هذه القوانين . مع العلماء الثائرين .

ولو أن أولئك العلماء ثاروا على حرمانهم من المناصب العليا في القضاء، أو غضبوا لرفع درجات الترك فوق درجاتهم ، لكان لهم الحق في الثورة ، ولكنهم للأسف ثاروا على التجديدات في القوانين التي أصدرها السلطان سليمان القانوني، وحكموا بأنها مخالفة للدين ، وقالوا للقاضي التركي بمصر : «أبطلتم سنة الرسول - ﷺ - ، وصرتم تأخذون على زواج البكر ستين نصفا ، وعلى زواج الثيب ثلاثين نصفا ، وهذا يخالف الشرع الشريف الذي كان يعقد على خاتم فضة فقط ، أو ستة أنصاف ، أو حتى على آية من كتاب الله تعالى ».

ولم يستطع القاضي أن يرد ؛ لأنه لم يكن يعرف الشرع ، واكتفى بالقول : «هذا أمر السلطان ولا يمكن أن أخالفه» فقالوا له : «هذا كفر لا تصح الطاعة فيه » .. واحتدم الموقف وخرج العلماء غاضبين . واعتصموا بالأزهر الشريف ، وأبلغوا علماءه وطلابه تفاصيل ما جرى . فأضربوا عن الدروس ، وأغلقوا المساجد والزوايا احتجاجا على هذا الوالي وسلطانه .. وهنا استرضاهم الوالي بأمر من السلطان واستمالهم إليه ، وقضى على هذه الفتنة في مهدها ليواصل هذا السلطان تجديداته القانونية التي أضافت جديدا إلى قوانين الإمبراطورية العثمانية التركية المترامية الأطراف .

❊ ❊ ❊

الإمام الشعـراني

يعتبر الإمام الشعراني من مجددي القرن العاشر الهجري ، حيث توفي عام 972هـ وقبل الحديث عنه ، ينبغى الإشارة إلى أن لكل دين نزعة إلى الظاهر ، تمثلها شرائعه وعباداته وشعائره المحسوسة ، ونزعة أخرى إلى الباطن ، أي إلى المضامين العميقة الروحية التي يحجبها الحس .

هكذا أشار الإمام الشعراني إلى هاتين النزعتين ، واتفق على تواجدهما الفلاسفة من الأجانب والمسلمين .. والتصوف الإسلامي في حقيقة أمره محاولة لتجاوز الشعائر والطقوس المحسوسة لأي دين ، لكي تواجه النفس في أعماقها شحنات روحية تربطها بالجهد الخلاق ، وتدلف بها في بحار أنوار القدس الغامرة لتسبح في ينبوع النور ، وتنعم بالتواجد في جلال الحضرة الإلهية كما يقول الصوفية .

ولقد أثبت مؤرخو التصوف ، وعلماء الدين وفلاسفته ، أن التصوف ظاهرة عالمية ترتبط بكل دين إذا سلك المعتنقون له طريق المجاهدة الروحية . ولكن جمهرة علماء النفس يرون في هؤلاء المتصوفة صنفا من المرضى النفسيين ، وأن الأعراض التى تظهر عليهم ، وحالة التوتر المصاحبة للجذب الصوفي هى بعينها أعراض المرضى النفسيين نفسها .. ويرد على هذا الرأي الدكتور «محمد على أبو ريان» ، أستاذ الفلسفة وتاريخها بكلية الآداب في كتابه (الحركة الصوفية في الإسلام) قائلا : «يجب أن نفطن إلى مغالطة علماء النفس التى تنطوي على هذا الحكم المتسرع ، وهو أنه لا يكفى أن تتشابه الأعراض الخارجية في هاتين الحالتين (حالة التصوف بما فيه من جذب ، وحالة المرض النفسى) حتى نحكم بأنهما حالة واحدة . ذلك أن ثمة فرقا أساسيا بينهما ، وهو أنه بينما يستطيع الصوفي بقدرته الذاتية العودة إلى حال الصحو

أو الحالة الطبيعية بعد الجذب الصوفي ، نجد أن المريض النفسي يعجز عن شفاء نفسه بنفسه، وقد يستحيل عليه أن يعود إلى الحالة الطبيعية العادية بإرادته الذاتية ».

ومن هذا .. نرى أن التصوف حقيقة اعترف بها العلماء والمؤرخون حتى وإن اختلفوا في بعض أشكاله وتفاصيله ، ونتائجه الخاصة بالفرد ، أو نتائجه العامة بالنسبة للمجتمع .

وإذا كان التصوف حقيقة لها وجودها ما وجدت الأديان ، فإن هناك من اهتم برصدها وتحليلها فكريا ، وتقصي أخبارها وتسجيلها تاريخيا .. ومن الطائفة الثانية الإمام عبد الوهاب الشعراني ، صاحب كتاب (الطبقات الكبرى) التي عنيت بالتاريخ لرجال التصوف بشكل يجعل أي باحث في هذا الجانب لا غنى له عن الرجوع إلى هذه الطبقات ، حتى يمكنه التعرف على الكثيرين من المتصوفة وأحوالهم.

ولم يكن كتاب (الطبقات الكبرى) الذي اشتهر به الإمام الشعراني هو الكتاب الوحيد الذي تركه ، بل إن لهذا الإمام الجليل عددا من الكتب التي أثرت المكتبة الإسلامية ، حيث يذكر «على باشا مبارك» في الخطط التوفيقية أنه رأى منها سبعين كتابا ، منها على سبيل المثال لا الحصر كتب : (الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء الصوفية) ، و(بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق) ، و(درر الغواص من فتاوى الشيخ على الخواص) ، و(القواعد الكشفية في الصفات الإلهية)، و(الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر)، و(المنن الكبرى)، و(لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) ، و (مدارك السالكين إلى رسوم طريق العارفين)، و(مشارف الأنوار) ، و(المنح السنية) ، و(اليواقيت والجواهر في عقائد الأكابر).

وغيرها من كتب قال عنها صاحبها الإمام الشعراني بأن الذي دعاه إلى كتابتها هي الحالة المتردية التي كان عليها التصوف والصوفية في زمانه ، بل وينعي ويعتب

على من توفي من أكابر المشايخ أنهم لم يهتموا بتسجيل فضل التصوف قائلا : «فلما ذهبوا زالت حرمة الطريق وأهلها ، وصار الناس يسخرون بأحدهم ، ويقولون لبعضهم : ما دريتم ما جرى ؟ فلان آخر عمل شيخا . كأنهم لا يسلمون له ما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهواتها ، والتلذذ بمطامعها وملابسها ومناكحها والسعي على تحصليها ..».

ويحذر الإمام الشعراني من قراءة كتب العارفين ، إلا لعالم أو من سلك طريق القوم ، وأما من لم يكن كذلك فلا ينبغي له قراءة شيء منها ، خوفا عليه من إدخال الشبه التي لا يكاد يفطن أن يخرج منها . ومما يقع فيه كثير من الناس قولهم : «يا من يرانا ولا نراه» ، أو «ما في الوجود إلا الله» ونحو ذلك مما لا يجوز التلفظ به ، لما يورثه من الغموض والإبهام عند العوام خاصة ، وكذلك لا يجوز إجماعا - عند أهل السنة - إرادة ذاته سبحانه وتعالى بقول بعضهم شعرا :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنا

أو قولهم :

تمازجت الحقائق بالمعاني ... فصرنا واحدا روحا ومعنى

ولهذا .. فقد دافع الإمام الشعراني عن «محيي الدين بن عربي» وأوضح ما يريد أو ما يهدف إليه من أقواله ، مثل قول ابن عربي : «حدثني ربي عن قلبي أو حدثني ربي عن نفسه بارتفاع الوسائط» قائلا : ليس مراد أو هدف ابن عربي أن الله سبحانه وتعالى كلمه كما كلم الأنبياء . وإنما مراده أن يقول : إن الله سبحانه وتعالى يلهمه على لسان ملك الإلهام بتعريف بعض الأحوال .

ويذكر الدكتور «عبد المنعم الحفني» في موسوعته الصوفية أن كتاب (المنن الكبرى للشعراني) من أفضل وأشرف كتب الأخلاق ، فقد وضح فيه الآداب

الإسلامية، وأن كتابه (الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية) هو طرح لمعتقداته، مما يمكن أن يكون هديا ونبراسا ومثلا حيا للصوفي في الأخلاق، باعتبار أن الرسول - ﷺ - هو المثل الأعلى لكل مسلم، حيث يقول الشعراني في مقدمة هذا الكتاب: «هذا كتاب نفيس لم يسبقني أحد إلى وضع مثله، الباعث لي على تأليفه: ما رأيته من تنافس الإخوان على ما ينقصهم عن دنياهم. ولم أر أحدا يفتش على ما ينقصه من أمور دينه». وفي سبيل الغاية نفسها ألف كتاب (الأنوار القدسية)، وخصصه لتوضيح المناهج الصوفية، والصلات التي تربط الشيخ والمريد بالآداب ككل.

وقد فضح الإمام الشعراني الدجالين والمدعين والمشعوذين من أولئك الذين يدعون انتسابهم للصوفية في كتابه الأشهر (الطبقات الكبرى). ورأى فيهم البلاء والنكبة على الإسلام حين تعقب شيوخ عهده - مظهرا جهلهم وسوء أدبهم. والمرء يعجب لإدراج الشعراني لهؤلاء الذين انتقدهم مع تراجم السلف الصالح، وسرعان ما يزول العجب حين يكتشف أن رغبة الشعراني في ذلك هي إتاحة المقارنة بين هؤلاء المدعين وأولئك من السلف الصالح.

والغريب أن الإمام عبد الوهاب الشعراني من أصل مغربي، فعائلته- كما تذكر المصادر- من تلمسان، وأن الذي جعل أجداده يغادرون تلمسان إلى مصر نبوءة من الصوفي الأكبر «أبو مدين التلمساني»، فغادروا تلمسان إلى صعيد مصر. وغادروا الصعيد ليستقروا بالمنوفية، وبالتحديد في قرية «ساقية أبو شعرة» التي استوطنوها، وولد فيها حفيدهم الإمام عبد الوهاب الشعراني صاحب الطبقات الكبرى عام 898 هـ. وبعد أن توفي والداه وتركاه يتيما ليس له إلا الله نصيرا- كما يقول- سافر إلى القاهرة عام 910 هـ ليقيم فيها بمسجد الغمري مدة سبعة عشرة عاما يتعلم ويعلم، يتهجد ويتعبد. واتصل بصفوة العلماء وقتئذ، وفي مقدمتهم «القاضي زكريا الأنصاري»، والمؤرخ «جلال الدين السيوطي».

أما كيف اندمج الشعراني المريد الشاب القروي ، الذي يعد من وجوه عديدة شخصية نموذجية فريدة في الوسط المدني بالقاهرة . فهذا ما فصله المستشرق الفرنسى الكبير «ريجيس بلاشير» في حديثه عنه في دراسته عن تأسيس القاهرة ، ومن جملة ما قاله عن الشعراني : «ولا ريب في أن غلبة الطابع الريفي على الأحياء المتطرفة من المدينة ، وتوثق العلاقات بين المدينة والريف ، تدعمهما شبكة من الروابط الإنسانية والدينية ذات صبغة شاذلية (نسبة إلى الإمام الشاذلي) .. لا ريب أن هذا كله قد أتاح للشعراني التكيف والاندماج في القاهرة ».

ثم يحدثنا هذا المستشرق الفرنسى بعد ذلك عن الشعراني وشيوخه ، وأهمهم «الشيخ علي الخواص» ، وأستاذه «إبراهيم المتبولي» ، وكلا الرجلين من أتباع الطريقة الشاذلية المعتدلة ، التي تؤمن بضرورة العمل اليدوي كوسيلة لخلق التوازن ، مع التأمل والتفكير . كما تدعو أنصارها من ممارسى الصوفية إلى مزاولة حرفة تضمن لهم مكانا في المجتمع وقتئذ ، وتقيهم من أن يصبحوا عالة عليه.

وهكذا كان للشيخ علي الخواص دكان صغير يبيع فيه الزيت ، كما كان يكسب قوته من نسج الخوص . واشتغل أستاذه إبراهيم المتبولي زمنا ببيع الحمص . أما تلميذه عبد الوهاب الشعراني نفسه فقد اشتغل بالحياكة . وهكذا - كما يقرر هذا المستشرق - نلاحظ لدى الجميع احتراما للعمل الذي اختارته لهم مشيئة الله ، وللنظام الاجتماعي الذي ارتضوه لأنفسهم .. انتظارا لنظام آخر يكون من نصيبهم في الآخرة .. «وهو ما يجعل لاتباع الصوفية معنى إيجابيا» .

وهكذا .. كان الإمام الشعراني عالما محققا له جهوده الصادقة في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى . حتى توفي عام 972 هـ .

***

البركــوي

«زين الدين محمد بن بير علي محيي الدين» المشهور في الكتابات الإسلامية «بالبركوي» من مجددي القرن العاشر الهجري حيث ولد عام 929هـ، وتوفي في مسقط رأسه «بركي» عام 981هـ، وقد كتب عنه المحدثون إلى جانب القدماء فذكروا أنه تربى في بيئة تجل العلم وتقدس تعاليم الإسلام .

وكان أبوه رجلا عالما من أصحاب الزوايا ، فنشأ في كنف أبيه يطلب العلم والمعارف، ويسعى في التحصيل والاستفادة من علماء عصره، وكان ملازما لـ «المولى عبد الرحمن» أحد قضاة العسكر في عهد السلطان «سليمان القانوني» ، ثم اتصل بخدمة الزاهد المرشد «عبد الله القرماني البيراني» ، فخدمه مدة من الزمن ، واستفرغ مجهوده في العبادة والزهد، ثم أمره شيخه المذكور بمدارسة العلوم ، والتصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد حصل بينه وبين «المولى عطاء الله» محبة زائدة ، ومودة شديدة ، فأقبل عليه بحسن الالتفاف ، وبنى مدرسة في قصبة بركي وفوض تدريسها إليه ، وجعل له راتبا كل يوم ستين درهما ، فكان يدرس فيها تارة ويعظ أخرى ، فقصده الناس من كل فج ، واجتمع عليه الطلبة من جميع البلاد ، فانتفع الناس بما كان يلقيه عليهم من دروس الوعظ ، وفي الوقت نفسه انتفع الطلبة بما كان يلقيه عليهم من دروس العلم .

واشتغل أيضا بالتأليف ، فشرح مختصر البيضاوي في النحو ، وألف متنا في علم الفرائض ، وله في الحديث وتفسير القرآن والفقه تعاليق ورسائل ، اخترمته المنية قبل إتمامها ، وهي في هذا النوع من التأليف الذي شغف العلماء به في هذا القرن ، وهو

التأليف الذي لا يتجاوز اختصار كتاب من الكتب المبسوطة ، أو شرح مختصر من المختصرات التي عرفت باسم المتون ، فهو في هذا مثل «شمس الدين الرملي» وغيره من علماء هذا القرن ، فلم يكن لهم إلا معرفة ضعيفة بعلم الفقه وما إليه من العلوم ، التي عكفوا عليها ورضوا بها ، وجمدوا على الأخذ بالتقليد فيها ، فلم يدروا شيئا من حال العالم في هذا القرن ، ولم يعرفوا ما يلزم المسلمين للنهوض بهم بين الأمم ، حتى حلت الكارثة بهم ، وضاعت بلادهم بغفلة علمائهم عما يلزم لرفع شأنهم .

ثم كان من «البركوي» في آخر عمره أن رحل إلى - إسطنبول - ودخل مجلس الوزير «محمد باشا» ، وكلمه في قمع الظلم ودفع المظالم عن البلاد ، وكان شديدا في وعظه له ، لأنه لم يكن يخشى أحدا فيما أخذ به نفسه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخذ يقوم بالوعظ في استانبول ، ويعمل على رفع المظالم عن الرعية ، ولكن وعظه كان يذهب كأنه صرخة في واد ، فلم يتأثر به أحد من عامة الناس وخاصتهم ، لأن الناس سئموا هذا الأسلوب القديم في الوعظ ، وكانوا في حاجة إلى أسلوب جديد لا يكتفي بمحاربة الظلم ، لأنه موقف سلبي لا يؤدي إلى الإصلاح المطلوب للمسلمين ، وإنما يؤدي إليه محاربة جمود العلماء ، وفتح باب الاجتهاد في العلوم ، وكان البركوي من العلماء الجامدين ، ولا يذكر في تاريخه إلا أنه كان لا يرى الاستئجار على تلاوة القرآن وتعليم العلوم .

ويذكر الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» عنه بأنه قد سبق أن «السيد رشيد رضا» وآخرين هم الذين عدوه من المجددين ، وأنه مضى في هذا على مذهبه في إيثار رجال مدرسة ابن تيمية بلقب التجديد ، ولكن البركوي لا يشبه رجال هذه المدرسة ، إلا فيما كان من شدته في إنكار المنكرات ، وأنه لم يكن يخشى في ذلك أحدا من ذوي السلطان في عصره .

* * *

الرملـــي

شمس الدين الرملي .. هو محمد بن أحمد بن حمزة الـرملي أحـد مجـددي القـرن العاشر الهجري . بل كان في مقدمة المجددين في الإسـلام عـلى رأس المائـة العـاشرة الهجرية .

وقبل أن نطوف معا في سيرته كما سـجلتها بعـض الكتابـات ، لنـا أن نتوقـف لحظات عند صورة العالم في القرن العاشر ، متأملين هذا القرن الذي امتـد مـن سـنة 1496 إلى سنة 1591م . حيث كانت الدولة العثمانية التركية أقوى دولـة إسـلامية في العالم ، وكان على رأسها السلطان «بايزيد الثاني»، ابن السلطان «محمد الفاتح» فـاتح القسطنطينية وكان بايزيد هذا ملكا محبا للسلام . فوقفت هذه الدولة في عهـده عنـد الحدود التى فتحها أبـوه . وقـد خـرج عليـه ابنـه سـليم الأول ، فانـضم إلى جـيش الإنكشارية ، فترك له الحكم سنة 1512م ، فقام السلطان سليم بالحكم وابتدأه بقتال الطامعين فيه من إخوتـه وأبنـائهم إلى أن قـضى علـيهم ، ثـم توجـه إلى قتـال الـشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية بفارس ، وانتصر عليه ، واستولى على قاعدة ملكـه تبريز ، وانتزع منه معظم ملكه . ثم توجه إلى قتال المماليك بمصر فحـاربهم وأسـقط دولتهم وانتزع لنفسه الخلافة الصورية من آخر خلفاء بني العباس بمصر .

وبعد أن توفي السلطان سليم الأول خلفه ابنـه الـسلطان سـليمان القـانوني وفي عهده وصلت الدولة إلى أوج عظمتها ، حيث استولت عـلى بـلاد الـصرب والمجـر وغيرها من بلاد أوروبا الشرقية ، ووصلت فتوحاته إلى النمـسا في أوروبـا الغربيـة ، ثم توجه إلى المغرب العربي ، واليمن في المـشرق العـربي ، وواكـب هـذه الفتوحـات إصلاحات دينية ومدنية ، إلى أن توفي وخلفه ابنه سليم الثاني ، الـذي لم يكـن كأبيـه

السلطان سليمان القانوني من ناحية الصفات التى تمكنه من التوسع والإدارة في هـذه المملكة العظيمة ، ولذلك .. لم يكن هناك من الإنجـازات التـى تنـسب إليـه سـوى استيلائه على مدينة تونس ، وفتح الباب أمـام الـدول الأوروبيـة ، خاصـة فرنـسا . لدخول رعاياها كبمعوثين ، مما كان له كبير الأثر بعـد ذلـك لازديـاد نفـوذهم فيهـا وتوفي ليخلفه ابنه «مراد الثالث» ، الذي بدأ عهده بقتل إخوتـه حتـى لا ينـازعوه في الملـك ، وفي عهـد هـذا الـسلطان زادت الامتيـازات الأجنبيـة في داخـل أراضـيه ، وخاصة فرنسا وإنجلترا وإيطاليا . كما وقعت في عهده بعض الحروب ، خاصـة مـع الدولة الصفوية بفارس ، وانفصلت عنه بعض المناطق الأوروبية مثـل «ترنـسلفانيا» التي أعلنت العصيان عليه بتحريض ومساعدة من النمسا وألمانيا .

وطبيعي ، والأمـر كـذلك.. أن ينقـسم المـسلمون في هـذا الوقـت إلى دولتـين شرقيتين غير الدولة العثمانية التركية . **الأولى** هي الدولة الصفوية بفـارس ، **والثانيـة** هي الدولة المغولية ببلاد الهند ، وأن تضعف بلاد المغرب العـربي حتـى تكـاد بـلاده تسقط في أيدي الإسبانيين والبرتغاليين .

لكن على الرغم من كل شيء ، فإن المسلمين في هذا القرن كانوا عـلى شيء مـن القوة ؛ إذ كانت الدولة العثمانية التركية مرهوبة الجانب بين الأمم الأوروبية ، يقابـل هذه القوة السياسية ضعف في الناحية العلمية ، حيـث تفـشى الجهـل ، وأضـافوا في ذلك عداوتهم للعلوم الأدبية إلى عداوتهم للعلوم الفلـسفية ، وطغـت العاميـة عـلى الفصحى بعد استيلاء الدولة العثمانية على معظم بلاد العرب ، وجعلها اللغة التركية هي اللغة الرسمية في الدواوين الحكومية ، وبهذا ازداد العلم هوانـا أمـام غيبـة لغـة البلاد ، وأمام استشراء نفوذ مدعي التصوف وما يتسمون به – وقتئـذ – مـن جهـل فاضح .

وفي هذا المناخ ، ظهر «شمس الدين الرملي» ليكون أحد المجددين في هذا القرن العاشر الهجري ، حيث ولد عام 919 هجرية بالقاهرة ، وكـان مختلفـا عـن أترابـه ،

وإلا فما معنى أن يذكر الإمام الشعراني في طبقاته الوسطى بأنه صحب هذا المجدد (أي شمس الدين الرملي) منذ كان يحمله على كتفه طفلا صغيرا إلى أن كبر ، وأنه ما رأى طفلا واعيا بدينه ، عارفا عما يغضب ربه ، منصرفا عن اللهو واللعب مثل هذا الطفل ، الذي نشأ على الدين ، والتقوى ، والصيانة ، وحفظ الجوارح ، وطهارة العرض ، ونقاء السريرة . وقد رباه والده فأحسن تربيته .

ويذكر الشعراني : أن هذا الوالد كان يعمل بالتدريس، وعلى يديه تلقى هو أي: الشعراني- العلم - فقد لقن ابنه - شمس الدين - خلاصة علمه وخبرته في : الفقه، والتفسير ، والنحو ، والصرف ، والمعاني ، والبيان ، والتاريخ ، إلى درجة أن الابن استغنى بالوالد وعلمه عن التردد إلى غيره من علماء ذلك العصر الذي امتهن فيه العلم .. وفي ذلك يذكر الإمام الشعراني نقلا عن هذا الوالد - قوله : «تركت محمدا بحمد الله تعالى لا يحتاج إلى أحد من علماء عصره إلا في النادر».

وطبيعي.. وقد كان والده يعمل بمهنة التدريس، فإنه قد احتل المكان الذي كان يشغله هذا الوالد ، ليحضر درسه أكثر تلاميذ والده ، حتى ولو كانوا أكبر سنا منه . وإذا سئل أحد هؤلاء التلاميذ عن السبب الذي يدعوه لملازمة هذا العالم الشاب كما كانوا من قبل يلازمون والده ، رد قائلا : لأني أستفيد منه ما لم يكن لي به علم .

وهكذا .. أصبح مألوفا أن يقصد هذا المجدد طلاب العلم من كل الأقطار العربية والإسلامية . حتى يذيع صيته ، وتعم شهرته ، ويستحق بين أهل زمانه أن يلقب بالشافعي الصغير ، لأنه كان مرجع أهل مصر وغيرها من الأمم في تحرير الفتاوى الفقهية ، وكان مع هذا يتولى منصب إفتاء الشافعية بمصر .

ومن الآثار العلمية لهذا المجدد الصالح : أنه كان من أوائل الذين ابتدعوا أسلوب الحواشي ، وله في ذلك العديد من الحواشي المعتمدة مع السابقين .

والحق أن هذه الطريقة – طريقة الحواشي – على الرغم من مآخذ النقاد عليها ، فإنها كانت وسيلة لتعلق الناس بهذا النوع من التأليف ، إلى درجة أنهم أهملوا النظر في كل كتاب ليس عليه شرح وحاشية وتقرير ، وكان لهذا أثره في ذيوع وانتشار علم هذا المجدد في جميع الأقطار العربية والإسلامية ، حتى صارت كتبه في مقدمة مراجع المذهب الشافعي .

ولهذا وغيره .. كان شمس الدين الرملي يعد مجددا في القرن العاشر ، إذ إنه صار في مقدمة العلماء الذين ينتفع بعلمهم ، وأن كتبه كانت في مقدمة الكتب التي يحتاج إليها الباحث في العلوم الشرعية .

وهكذا .. ظل هذا العالم الصالح المنصرف إلى علمه على عهده بالعلم : بحثا ودرسا وإفتاء .. إلى أن توفي عام 1004هـ ليدفن بمدافن القاهرة .

* * *

القرن
الحادي عشر



1 – الشاه عباس الصفوي

2 – عبد القادر البغدادي

3 – إبراهيم الكوراني

4 – المقبلي

1

هذا القرن

يبدأ هذا القرن : الحادي عشر الهجري الموافق عام 1592 وينتهي في عام 1688 في التقويم الميلادي ، وقد بدأت الدولة العثمانية التركية (كممثلة للعالم الإسلامي في ذلك الوقت) في الانهيار والتقلص وفقدان ما كان لها من قوة وبأس ، كما رأينا في القرن العاشر الهجري . والسبب معروف هو فساد سلاطينها وحكامها وانصرافهم إلى نزواتهم الشخصية غير عابئين بمصالح هذه البلاد الإسلامية التي كانت تحت نفوذهم ، والتي امتدت شرقا وغربا ، فشملت أجزاء من قارة آسيا حيث البلاد الإسلامية والعربية ، وثالثة من إفريقيا حيث بعض البلاد العربية ... فكل هذه البلاد كانت مجرد ولايات تابعة للدولة العثمانية التركية . ويا ليت سلاطينها كانوا يدركون هذه المسئولية التي ألقيت على عاتقهم وهي : قيادة العالم الإسلامي . لكنهم للأسف لم يدركوا ذلك أو يعوه .. وإنما كانوا على العكس من ذلك ، يسيئون إلى الإسلام حتى بتبعيتهم له ، وليس بتولي أمور المسلمين وإدارة شئونهم .

لقد ساءت الأحوال السياسية بدرجة لم يكن لها مثيل من قبل مع وجود هذا القرن الماضي ، فانتشرت في هذا القرن الفتن ، وعم الفساد ، وسادت الفوضى والاضطرابات .. واستمر الحال على هذا النحو ينتقل من سيئ إلى أسوأ ، خاصة وأنه كانت هناك تدخلات في الشئون السياسية من الخارج . فقد كانت في داخل أسر السلاطين عناصر أجنبية كالزوجات والأمهات الأجنبيات ، اللاتي لا يستبعد أن يكن جواسيس يعملن من أجل دولهن الأجنبية .

هذا بالطبع .. إلى جانب موافقة بعض سلاطين الدولة العثمانية التركية على مشاركة بعض العناصر الأجنبية في الحكم كخبراء أو مستشارين ، وقد كان هؤلاء الخبراء والمستشارون ليسوا على مستوى الثقة بهم ؛ حيث كانوا يخدمون البلاد الأجنبية التي أتوا منها .. وهذه البلاد كانت تضمر الكراهية والحقد على دار الإسلام بسبب ما حدث في الحرب الصليبية وفي القسطنطينية ، من انتصارات للمسلمين على أتباع المسيحية الشمالية . ولهذا نتفق مع القائلين بأن هؤلاء الأجانب الذين اشتركوا في إدارة شئون الدولة لم يكونوا على مستوى المسئولية التي اختيروا من أجلها .

يضاف إلى هؤلاء الأجانب من السياسيين المشتركين في إدارة شئون الدولة ، قوات الإنكشارية التي كانت داخل الجيش ، تلك التي دلت الأحداث المضطربة بأنهم وراءها ؛ حيث وصل الأمر إلى أن يكون لهم دخل كبير في تولي السلاطين حكم البلاد أو عزلهم .

وكما انتهى القرن الماضي (العاشر) إلا أن هناك في الشرق دولتين تابعتين للدولة العثمانية التركية ، **إحداهما** هي دولة الصفويين بفارس الشيعية التي استقلت في هذا القرن ، وتولى أمرها الشاه عباس الذي استرد ما استولت عليه الدولة العثمانية التركية ، بل وامتد نفوذه إلى أجزاء أخرى كانت تابعة للأتراك مثل : الموصل وبغداد في العراق ، وقندهار ... وغيرها في أفغانستان .

والدولة الثانية التي كانت ضمن النفوذ العثماني التركي هي المغولية بالهند التي بدأت تنسلخ عن الدولة العثمانية التركية شيئا فشيئا ، فإلى جانب عمل أبنائها في هذا الشأن ، كانت هناك تدخلات من إنجلترا في شئونها ، للسيطرة عليها لتقيم بعد ذلك الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس . حيث بدأت إنجلترا هذا التدخل بوصول أول مندوب لها في شركة الهند الشرقية الإنجليزية ، للاتفاق على

بناء مصانع داخل البلاد .. يعقب ذلك السيطرة الاستعمارية الكاملة في السنوات القادمة على الهند التي انفصلت تماما عن دائرة النفوذ العثماني إلى آخر ذلك من قلاقل وتغيرات في الحالة السياسية شهدتها الهند في هذا القرن .

وبقيت بعض بلاد المغرب العربي مثل : الجزائر وتونس وأجزاء من ليبيا في حكم الدولة العثمانية التركية ، وأما المغرب فقد كان به دولة السعديين التي استقلت بالبلاد ، باستثناء مراكش التي ظلت تابعة بعض الوقت للحكم العثماني التركي .

وعلى الإجمال : يمكن القول بأن الحالة السياسية كانت أسوأ مما كانت عليه في القرن الماضى على الرغم من سوء هذه الحالة في القرن الماضي . إلا أنها في هذا القرن ازدادت سوءا .

وإذا كانت الأحوال السياسية في العالم الإسلامي الذي كانت الدولة العثمانية التركية تتولى السيطرة عليه وحكمه من خلال سلاطين آل عثمان على هذا النحو من السوء ، فلا نستغرب - والأمر كذلك - أن ينعكس ذلك على بقية الأحوال العلمية والدينية والاجتماعية .. فتكون هي الأخرى متدهورة مضمحلة .

لقد ساءت الحالة العلمية في هذا القرن إلى درجة أن يفتي شيخ الإسلام بالدولة العثمانية التركية بإرث ابن العالم لوظيفة والده ، حتى لو لم يكن هذا الابن على علم!! ولم يكن غريبا أن ينحط مستوى شأن العلماء ، وأن ينعكس ذلك على رأي الناس فيهم ، والأخطر هو أن هذا التخلف والتفكير السقيم ينعكس بدوره على العلم ذاته. فلا تقدم ولا تطور ، وإنما جمود وتخلف وتأخر كانت له نتائجه السيئة فيما بعد ، في الوقت الذي ارتفع فيه شأن جهلة المتصوفة حتى صار كبار العلماء يبالغون في الخضوع لهم بشكل متدن سجله صاحب كتاب «خلاصة الأثر».

صحيح أن هناك من فقهاء هذا القرن من أنكر على المتصوفة ما يحوزونه من سلطان ، ولكن إنكارهم كان في الغالب بسبب المنافسة على أمور الدنيا وليس على

أمور الدين . ولهذا .. كان إنكارهم في الغالب على المتفقهين في الـدين ، ولـيس عـلى غيرهم من المتصوفين الأميـين ، خاصـة هـؤلاء المتـصوفة الـذين كـانوا يبـالغون في الفساد والتخلف والجمود ، أو كما يـذكر الأسـتاذ عبـد المتعـال الـصعيدي «الـذين يتخذون اللعب والـرقص دينـا ، خلطوهمـا بالعبـادة ، أوالـذين يخـالطون الرجـال بالنساء ، وما يحدث من هذا الاختلاط من مفاسد».

وطبيعي .. أن تكون الأحوال الاجتماعية هي الأخرى في تدهور مستمر ، تبعـا لهذا المناخ العام الذي سـيطر سياسـيا عـلى العـالم الإسـلامي . فلـيس هنـاك اهـتمام بالفرد.. إنما الاهتمام كل الاهتمام في كل ولاية من الولايات بـالأتراك عـلى حـساب أبناء البلاد الأصليين ، وإذا تبرم واحد منهم فإن مصيره العقاب والعذاب ، أو حتى الموت .

وفي المقابل .. نجد الأقطار الأوروبية في تقدم وتطور مستمر خاصة بعد ظهور مفكرين كبار وعباقرة مثل «ديكارت» وغيره ممن صنعوا لبلادهم الأوروبيـة تقـدما وحضارة ، والذي حرر الفلسفة من القيود اللفظية والمناقشات المدرسية ، وخلـصها من سلطان الكنيسة وابتكر لها منهجا كان هو الأساس لمـا تحقـق مـن نهـضة حديثـة تجاوزت وطنه فرنسا إلى غيرها من البلاد الأوروبية ، بل وكل بلاد العالم .

وعلى الرغم من هذا التخلف الذي أصاب المجتمع الإسلامي في مقتـل، إلا أن هذا القرن لم يعدم أن يكون فيه مجددون .. يتقدمهم «الكـوراني والمقـبلي» ، وغيرهمـا ممن كانت لهم بعض الاجتهادات . ولكن كيف كانت تغطي هذه الاجتهادات العـالم الإسلامي المترامي الأطراف في ظل هذا التدهور السياسي والعلمـي والاجتماعـي ، وقلة أو ندرة وسائل الاتصال بالجماهير ؟!

الشاه عباس الصفوي

على الرغم من أن أكثر الملوك يتصفون عادة بالطغيان والاستبداد ، وأنهم بنص القرآن الكريم : ﴿ **إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا** ﴾[١] إلا أن هناك قلة قليلة جدا منهم يتصفون بالعدل والإنصاف ، ومنهم «الشاه عباس الصفوي» الذي ينتهي نسبه إلى الشاه «إسماعيل الصفوي» مؤسس الدولة الصفوية ببلاد إيران ، حيث كان أهل هذه الدولة على مذهب الشيعة الإمامية ، بينما كانت الدولة العثمانية التركية على مذهب السنة ، فقامت بينهما الحروب التي كانت تنتهي بانتصار الدولة العثمانية إلى أن جاء إسماعيل الصفوي ، ومن بعده أحد أحفاده الشاه عباس الصفوي الذي يعتبره المؤرخون وفي مقدمتهم الشيخ «عبد المتعال الصعيدي» أحد مجددي القرن الحادي عشر الهجري . حيث كان ميلاده عام 966هـ ووفاته عام 1037هـ ، وكان ملكه لا يكاد يتجاوز – في هذا الوقت – بلاد خراسان ، فأخذ يسعى في توسيع هذا الملك، ويستعيد البلاد التي انتزعت منه ، وكان ملكا قوي الجأش ، واسع الحيلة ، فقصد أولا مدينة مشهد ، وكانت قبائل الأزبك من التتر قد استولت عليها ، فاستردها منها، وانتصر عليها بقرب مدينة هراة سنة 1006هـ – 1597م ، ثم أراد أن يتجه إلى محاربة الدولة العثمانية التركية ، ليسترد منها البلاد التي انتزعتها من الدولة الصفوية، ويستولي على ما يمكنه الاستيلاء عليه من بلادها ، ولكنه آثر قبل هذا أن يتجه إلى ناحية الهند ، فاستولى على قندهار ، وقد كانت وقتئذ من المدن الهندية .

---

(١) النمل : ٣٤ .

وكانت الشركة الهندية الإنجليزية قائمة على عهده في بلاد الهند ، ولها فيها مطامع ومآرب ، تتوسل إليها بحسن الحيلة ودهاء السياسة ، فأخذت تجتهد في صرف «الشاه عباس» عن منافستها في بلاد الهند ، حتى تمكنت من عقد محالفة معه ، وصرفته عن مناوأتها في الهند إلى مناوأة الدولة العثمانية ، وإلى مناوأة البرتغاليين المنافسين لها في الهند ، وساعدته في انتزاع جزيرة هرمز في الخليج الفارسي منهم .

ولما تم هذا للشاه عباس ، بدأ يفكر في أمر جنده ، ورأى أنهم ينقصهم النظام والتدريب ، بخلاف عساكر الدولة العثمانية التركية من الإنكشارية ، فرأى أن ينظم جيشه تنظيما أحسن منهم ، وكان قد أدرك ما وصل إليه الجندي الأوروبي من النظام الحديث ، فأراد أن يأخذ جنده بهذا النظام ، وكان أول مسلم اتجه نحو التجديد في النظام الحربي ، ولم ير في الإسلام ما يمنعه من هذا الاتجاه الجديد ، على خلاف أهل الجمود الذين كانوا لا يزالون يغطون في نومهم ، ويتابعون المضى في غفلتهم ، ولم ير حين اتجه هذا الاتجاه بأسا في أن يستعين فيه بمن سبقه إليه من أهل أوروبا ، وبهذا يكون أقرب من غيره إلى فهم رسالة المجدد المسلم في هذا القرن .

فاستعان الشاه عباس الصفوي على هذا برجلين من الإنجليز ، وهما : السير «أنتوني شارلي» ، وأخوه «السير روبرت شارلي» ، وكان الأول قد خرج من إنجلترا ليساعد أحد الأمراء في حربه مع عساكر البابا ، فوصل إليه بعد انتهاء هذه الحرب ، فقصد بلاد إيران مع رفقائه ، وكانوا خمسين فارسا ، فأمر الشاه عباس باستقبالهم وإكرامهم ، وقربهم منه وأجزل لهم العطاء ، ثم استشار «السير أنتوني» فيما ينويه من محاربة الدولة العثمانية التركية ، وفيما يريده من تنظيم جنده قبل البدء في هذه الحرب، فأشار عليه بتعليم جنده مبادئ العلوم العسكرية ، وبمحالفة دول أوروبا على هذه الدولة ، فرضى الشاه عباس بما أشار به ، ومكنه من تنظيم جنده ، فأخذ يدربهم على النظام الحديث ، ويعلمهم ما يلزمهم لإتقان فن الحرب ، حتى كانوا أول جند من المسلمين تدربو على النظام الحديث ، ولما تم هذا للشاه عباس توجه إلى محاربة الدولة

العثمانية التركية ، فانتصر بهذا الجند المدرب على النظام الحديث مع قلته ، وهزم جنود الدولة العثمانية التركية مع كثرتها ، لأنها كانت لا تزال على نظامها القديم ، واسترد في حربه جميع ما انتزعته من بلاده ، وأخذ مدينة بغداد ، ومدينة الموصل ، ومدينة ديار بكر .

وكان السير أنتوني شارلي قد عقد للشاه عباس الصفوي محالفات مع دول أوروبا ، وكانت تميل إلى محالفته على الدولة العثمانية التركية ؛ لأنها كانت أقوى الدول الإسلامية ، وكانت مسئولة عن كثير من بلاد أوروبا ، فأخذ كثير من الأوروبيين يقصدون بلاد إيران للتجارة وغيرها، وكان الشاه عباس يكرمهم، ويأمر أهل دولته باحترامهم ، ولا يأخذ رسوما على بضائعهم، ورحل إلى إيران أيضا قوم من الأرمن ، فكان يقربهم منه ويساعدهم ، حتى صاروا أصحاب المتاجر والصناعات في بلاد إيران ، وكان السير روبرت شارلي من أعظم المقربين إليه ، حتى صار بيته ملاذ النازحين إلى إيران من جميع الأقطار ، وقد أهدى إليه الشاه فتاة جركسية ، فتزوجها وكان له أولاد منها ، وبهذا كله ، وجد المسيحيون الأوروبيون في بلاده من التسامح الديني ما لم يجدوه في غير إيران ، وإن كان السلطان «سليمان القانوني» قد تساهل بعض التساهل معهم قبل هذا في بلاد الدولة العثمانية التركية . وقد أدى هذا إلى رواج سوق التجارة في بلاد إيران، فكثرت الأموال في أيدي أهلها، وحسنت أحوالهم ، وعظمت قوتهم ، وكانت مدة حكم الشاه عباس لهم ثلاثا وأربعين سنة ، وقد توفي سنة 1037هـ - 1628م .

وإذا كان الشاه عباس الصفوي ، وفي رأي بعض المؤرخين والعلماء ومنهم الشيخ عبد المتعال الصعيدي أقرب إلى فهم رسالة المجدد المسلم في هذا القرن من غيره من المسلمين . فإنه يؤخذ عليه أنه لم يأخذ بلاده بإصلاح شامل ، ينهض بها نهضة حديثة ، كما نهض بجنده وأخذهم بذلك النظام الحديث، فلم يقم بنشر التعليم الحديث في بلاده ، ولم يصلح من نظام الحكم فيها ، بل ترك كل شيء فيها يسير على

نهجه القديم ، وكان هو أيضا يسير على ذلك النهج ، ومن ذلك : أن قبائل التتار كانت قد عادت إلى الهجوم على خراسان ، فأرسل إليها جيشا ردها على أعقابها ، وحدث في أثناء قتالهم معها أن المنجمين رأوا أن الشاه سيقع في خطر عظيم إذا استمر في الحكم ، فأذعن لما رأوه من ذلك ، واعتزل الملك في الحال ، وانقطع في قصره يفكر في هذا الأمر، حتى يكون مثل غيره من الناس ولا يصيبه ضرر، وجاءت حاشيته برجل من العامة فجعلوه ملكا ثلاثة أيام ، فأمر ونهى في هذه المدة ، ولم يعص له فيها أحد أمرا ولا نهيا ، فلما انقضت قاموا عليه وقتلوه شر قتلة ، وأعادوا الشاه عباسا إلى مثل ما كان عليه بعد أن اطمأنت النفوس ، وحكم المنجمون بأن الخطر قد زال . وهذه الحادثة كانت قبل تفكيره في أخذ جنده بذلك النظام الحديث ، وقبل اتصاله على نحو ما سبق بالأوروبيين ، ولكنها تدل على مقدار ما كانت عليه بلاده من الجهل ، وعلى أنها كانت أيضا في أشد الحاجة إلى الإصلاح ، وكان لهذا أثره بعد انتزاعهم جزيرة هرمز من البرتغاليين ، وكانت أعظم جزيرة بالخليج الفارسى ، وقد أنشأ البرتغاليون بها كثيرا من المعامل الصناعية ، فزادت ثروتها ، ونهضت نهضة عظيمة ، فعقد الشاه عباس محالفة مع الشركة الإنجليزية بالهند على أن يساعدوه على إخراج البرتغاليين من هذه الجزيرة ، ويعطيهم إعانة مالية كل سنة ، فساعدته هذه الشركة على انتزاعها من البرتغاليين ، وكانت تريد القضاء على نفوذهم في هذه البلاد، لأنهم كانوا ينافسونهم في الهند ، فلما استولى الشاه عباس على هذه الجزيرة ، لم يجد من أبناء بلاده من يحسن القيام على هذه المعامل ، فتعطلت عن العمل ، وساءت بذلك حالة هذه الجزيرة ، وكان لذلك أيضا أثره في حال بلاد إيران بعد وفاة الشاه عباس ، لأنها أخذت بعده في الضعف ، وعادت إلى مثل ما كانت عليه من الاضطراب وعدم الاستقرار .

وكذلك يؤخذ على مجددنا الشاه عباس الصفوي : أنه مع ذلك التسامح الديني الذي أظهره للأوروبيين مضى على خلافه مع إخوانه المسلمين السنيين ، ووقع في

حروب طويلة مع الدولة العثمانية التركية ، آثر المضى فيها بتأثير رجال الشركة الإنجليزية بالهند ، ولم يكونوا يقصدون بها مصلحته ، بل كانوا يقصدون أن يقع في هذه الحروب الطويلة ليضعفوه بها، ويضعفوا الدولة العثمانية التركية معه، ويصرفوه عن منافستهم في بلاد الهند ، حتى إذا تمكنوا من تنفيذ مآربهم في البلاد الهندية ، وتم لهم الاستيلاء عليها ، عادوا إلى تنفيذ مطامعهم في بلاد إيران ، وفي بلاد الدولة العثمانية التركية ، ولم يكن أولئك الأوروبيون الذين قصدوا بلاده للتجارة ونحوها إلا طليعة لاستعمارها ، وهي عادة الأوروبيين في كل بلد قصدوا استعماره ؛ لأن أولئك الأوروبيين لم يكونوا إلا جواسيس لدولهم ، يسعون في نشر الفتنة في كل بلد دخلوه ، ليفرقوا أهله إلى شيع وأحزاب ، ويهيئوا لدولهم أن يتدخلوا في شئونهم ، ويستولوا على بلادهم ، وكان على الشاه عباس أن يدرك هذا كله ، بعد أن وصل الأوروبيون من طريق رأس الرجاء الصالح إلى بلاد الهند ، واستولوا على ما استولوا عليه في طريقهم من البلاد الإسلامية ، وكان خطرهم في هذا واضحا لكل ذي عينين، ولكن الشاه عباسا ورجال الدين في بلاده أعماهم التعصب المذهبي عن هذا الخطر ، كما أعمى أمثالهم في الدولة العثمانية التركية ، فمضى الفريقان يتحاربان بتأثير ذلك التعصب المذهبي المذموم ، وهم لا يدرون ما تخبئه لهم الأيام ، ولا يعلمون أنه لا يستفيد من هذا إلا عدوهم الذي يتربص بهم ، ويعمل على إثارة الفتنة بينهم ، ويعين ضعيفهم على قويهم ، ليضعفوا جميعا بعدم اتحادهم ، ويسهل عليه أن يظفر بهم في آخر الأمر .



عبد القادر البغدادي

صاحب موسوعة : (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) « عبد القادر ابن عمر البغدادي» من مجددي القرن الحادي عشر الهجري .. ولد ببغداد ، ودرس بعد ذلك بالأزهر في القاهرة التي عاش فيها إلى أن مات .. وفي حياته كان متقنا للغة العربية إتقانا عز على أبناء عصره ، وإلى جانبها أتقن الفارسية والتركية ، وقد منحته معرفته للغات الثلاث خاصية جعلته يتميز عن غيره في المقارنة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات بعد أن أدرك ثراءها .. ولعل ذلك ما اكتسبه من أجداده العرب المسلمين .

فيبدو أن أجدادنا العرب المسلمين قد آمنوا بالحكمة القائلة : «العلم صيد ، والكتابة قيد ، وإذا ضاع القيد ذهب الصيد» ، وإلا فما معنى أن تقوم حضارتهم على الكلمة المكتوبة بشكل مبهر شد انتباه أبناء الحضارات الأخرى ، فسارعوا إلى قراءة وتحقيق هذه الكلمة المكتوبة ، ولقوا الكثير من الصعوبات التي يلاقيها القارئ بغير لسانه ؟! .. صحيح أن الرواية الشفوية كانت أول محاولة لنقل الثقافة العربية . واقترن نقل هذه الرواية منذ اللحظة الأولى بالحرص والدقة والأمانة كسمات تضاعفت بعد الإسلام الذي دعا صراحة إلى الحرص البالغ والدقة الكاملة والأمانة الملحوظة في نقل نصوص كتاب الله ، وكثير من نصوص السنة ، فالتزم القوم بالحرص الشديد والدقة الأشد والأمانة المتناهية حين يروون شواهد التشريع في دينهم أو حين يروون بعض أشعارهم ووقائعهم ومآثرهم : جاهلية كانت أو إسلامية . ثم كانت الكلمة المكتوبة بعد ذلك مقيدة مسجلة ، مدونة لكل ما يروونه من أحداث وتشريعات ومآثر وأشعار وأمثال .

وليس صدفة– إذا– أن تكون الكتابة بالنسبة للعرب من صنع الإسلام ، وإلا فما معنى أن يشترط النبي – ﷺ – أن تكون الفدية من الأسرى في أعقاب غزوة بدر نظير أن يعلم الأسير الكتابة لعشرة من المسلمين ، وأن يكون زيد بن ثابت كاتب رسول الله ، وزهاء أربعين كاتبا من هؤلاء الذين علمهم أسرى المشركين ، والأكثر أن يكون القرآن الكريم أول نص عربي إسلامي مكتوب وصل إلينا نتيجة لتعلم الكتابة التي سعى إليها النبي – ﷺ – ؟!

ولعل هذا السلوك المتحضر يصبح هديا للبعض من الذين رضوا بجهلهم ورضي الجهل بهم ممن يرون اليوم أن الاستفادة من الفكر العالمي تحمل الشرور إن لم تبعث على الضلالة ؛ وتتسع رقعة الدولة الإسلامية في العصر الأموي مما يؤدي إلى اختلاط العرب بالأعاجم ، وهو ما يؤدي بدوره إلى خشية إفساد اللسان العربي . وهنا بدأ التفكير في تصحيح هذا اللسان وضبطه بتأليف كتب النحو . وفي الجانب الآخر تثور الفتن وتتفرع المذاهب وتكثر الفتاوى ؛ فكان التفكير في وضع كتب في الدين إليها يرجع القوم في أمور دينهم بعيدا عن الأهواء الشخصية والنوازع السياسية والميول العصبية فيدونون الحديث النبوي الشريف، ويجتهدون في استخراج الصحيح فيه من غير الصحيح .

وتنهض الدولة العباسية ، ومعها تنهض الكلمة المكتوبة في جوانب الحياة العربية إلى جوار الجانب الأعظم وهو الدين . وتظهر الكتب محتفظة بالطابع الذي غلب على المؤلفين ، وفي مدار هذه الكلمة المكتوبة تظهر الدعوة إلى تجديد أسلوب الحياة في أمم هذه الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط عن طريق نقل فكر وعلم الحضارة اليونانية ، ويكون تدوين ما تركته الحضارة اليونانية سبيلا إلى تجديد شباب الحضارة الإسلامية ، وجعلها منارة للحضارة الأوروبية الحديثة في سعيها المتلمس إلى التقدم والازدهار .

وتتوالى العصور وتتبدل الحواضر ، وتبدأ عملية الأفول الحضاري للعرب ، ونفتقد الكثير مما تركه الأجداد .. حتى نكون في عصر تطاحن بين الدولة الصفوية الفارسية والدولة العثمانية التركية على بغداد . وفي هذا الوقت تتفتح كرامة الشاب الصغير «عبد القادر البغدادي» على ما أصاب بعض الكتب العربية النادرة من تلف وضياع . وهنا تشغله فكرة ويحدوه أمل هو أن يؤرخ لشوارد ثقافتنا العربية حتى يحفظها من الزوال . وينتج عن هذا التفكير وذاك الطموح كتاب ضخم يحمل عنوانا واحدا يتكرر على أحد عشر مجلدا هو كتاب (خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) . يحققه الأستاذ «عبد السلام هارون» في ثلاثة عشر مجلدا مضيفا مجلدين كفهارس فنية لهذه الموسوعة .

ولا يختلف أحد مع الأستاذ «عبد السلام هارون» في تأكيداته المتكررة على أن هذه المجلدات تتضمن كنزا عظيما من كنوز التراث العربي في جميع جوانب الثقافة الأدبية واللغوية والعمرانية والدينية . وأن هذا الكنز كان في حاجة ملحة إلى نفض مكامنه وإبراز ما به من ركائز وجواهر نفيسة . وأن مؤلفها عبد القادر البغدادي قد هيأه القدر لأن يحفظ لنا غوالي من تراثنا كانت عرضة للضياع إلى آخر الأبد . فاستطاع أن ينقذ ما وصل إلينا عن طريقه بعد أن ضاعت أصوله في غياهب النسيان.

ولاشك أن هذه المجلدات قد خلدت اسم البغدادي ؛ حيث تعتبر أعلى موسوعات التراث العربي . فقد شحنها بالنصوص النادرة ، وحفظ لنا فيها بقايا من كتب قد فقدت أو اندثرت مع عناية حازمة بالنقد والتحقيق بكل ما توردده صفحاتها. هذا إلى جانب سرد للكثير من أمثال العرب وبيان معانيها ومضاربها وأصولها وحشد للغات القبائل ولهجاتها ، مع حرص على إيراد أخبار العرب وذكر أيامهم في الجاهلية والإسلام . هذا إلى جانب العناية الكاملة بالمقصد الأول وهو تحقيق المسائل النحوية واستيعاب دراستها مع الاعتماد على أمهات النحو ومطولاته

في علاج علمي نقدي يدعو إلى الإعجاب والدهشة والتساؤل عن كل هذا الصبر والإصرار !

إن نظرة واحدة إلى هذا الثبت العلمي الذي اعتمد عليه البغدادي في تأليفه تكفي للحكم على ما بذل من جهد ضخم وصادق . فالمؤلف- وهو بالطبع ليس من مؤلفي هذا الزمان الذين يذيلون كتبهم بحشد من المراجع والمصادر بشتى اللغات التي لا يتقنونها. وتكون المفاجأة حيث يصبح ما يذكرونه من مراجع ومصادر لا صلة لها بما يؤلفونه من قريب أو من بعيد - فالمؤلف البغدادي هنا صادق ، وصدقه تلمسه فيما تقرأ له في مجلداته . إنه - مثلا - حين يرجع إلى دفاتر أشعار العرب ودواوينهم ومجاميعهم وإلى فن الأدب بوجه عام ، ترى صدى لما يرجع إليه فيما يكتب. كذلك حين يرجع إلى كتب السيرة النبوية وسيرة الصحابة وأنساب العرب وطبقات شعرائهم ، أو حين يرجع إلى كتب اللغة وأغلاط اللغويين وإشكالاتهم ، أو حين يرجع إلى كتب التاريخ والأمثال والأماكن والبلدان .. فإنك واجد صدى لما يرجع إليه في كل ما يكتب ، مما يضاعف من الإحساس بصدقه وأمانته ودقته من ناحية ، كما يدفع المرء للحكم بأن ما قام به بمفرده عمل ضخم تعجز عنه لجان هذا الزمان .

إن مجلدات هذه الموسوعة الكبيرة في أحجامها الهائلة وفي كيفها ، المتضمنة للكثير من جوانب المعرفة الإنسانية والمنسوبة لصاحبها عبد القادر البغدادي تضم فيما تضم العديد من الكتب والنصوص العربية النادرة ، التي اندثرت أو بادت أو تلفت . حتى لم يعد لها وجود إلا بين صفحات هذه الموسوعة التي نعرفها اليوم بخزانة الأدب البغدادي .. هذه الموسوعة الضخمة كيف جمع صاحبها البغدادي مادتها ونسق فيما بينها ؟!.. والأكثر كيف تحولت إلى عمل مؤلف من حق صاحبه أن يضع عليه كلمة «تأليف» بدلا من كلمة جمع ؟! .. وقبل الإجابة عن هذا السؤال من حق البغدادي ومن سبقه من العرب الذين اتجهوا إلى العمل الموسوعي الإشادة

بجهودهم . ذلك أن ظهور مثل هذه الأعمال الموسوعية في أمة من الأمم يدل دلالة واضحة على نضج ثقافتها واتساع آفاق المعرفة أمامها . ولعل هذا يرجع إلى شعور أبناء هذه الأمة بوجوب جمع المعرفة لأبناء لغتهم وتبويبها ، بحيث يسهل الاطلاع عليها . وهذا ما فعله أرسطو منذ أكثر من خمسة وعشرين قرنا . ومن بعد ذلك جاء العرب فبدأوا ترتيب معارفهم على أساسين : **أولهما** أساس معارف الأمم السابقة **والثاني** أساس معارفهم الخاصة .. فبدأ الجاحظ منذ أكثر من عشرة قرون في جمع المعارف ، فترجم عن أرسطو وزاد عليه كثيرا من تجاربه الخاصة بعلم العرب وتراثهم ، وبوب ورتب كل ذلك فيما عرفناه بكتاب (الحيوان) . وبعد الجاحظ ظل العرب قرونا يجمعون معارفهم على مدى العصور حسب إمكانات العصر واحتياجات إنسانه.. إلى أن جاء القرن الرابع عشر الميلادي .. فإذا حركة موسوعية خاصة تجمع تراث العرب من شتى النواحي ، فها هي كتب عن اللغة ، وأخرى عن التاريخ، وثالثة عن الأدب. كلها تظهر بشكل موسوعي، فظهر ابن منظور والنويري والقلقشندي .. ومن بعدهم كان البغدادي عليه أن يواصل هذه الرسالة . فاتجه طموحه إلى رصد الكثير من المعارف الإنسانية بشكل يضبط اللسان العربي ويصححه كما يحافظ على التراث العربي ويخلده .. أن يتناول كتاب (شواهد شرح الرضى لكافية ابن الحاجب) بالشرح والتعليق . وكتاب (الكافية) قام بوضعه ابن الحاجب ، وشرحه بعد ذلك ابن الرضى في عدد من الصفحات التي تزيد على الثمانمائة ، متضمنا عددا من الشواهد بلغت 957 شاهدا . تناولها البغدادي بالشرح والتحقيق والتعليق والتأليف لتصير فيما بعد أحد عشر مجلدا تحمل عنوان : خزانة الأدب .

وقد ساعد البغدادي على ذلك كونه عالما في اللغات والأدب . فهو في تناوله لقضايا النحو التي يشرحها ويحققها في كتاب الكافية يرصد شتى المعارف الإنسانية. فعلى سبيل المثال : إذا كان الأمر يتعلق بأبيات من الشعر فحص عن قائليها. حتى

يعزو كل بيت إلى قائله ، وينسبه إلى قبيلته أو فصيلته ، ويفرز الإسلامي من الجاهلي ، والصحابي عن التابعي . وإذا كان بيت الشعر - موضوع الشرح - ضمن قصيدة نادرة فإنه يوردها كاملة ويشرح غريبها ويورد سببها ومنشأها ، متوخيا في ذلك تصحيح اللسان وضبطه حتى يعم النفع . إن البغدادي مع عنايته بالمقصد الأول وهو : شرح شواهد كتاب الكافية للرضى ، يسرد الكثير من المعارف الإنسانية من أمثال العرب ولغات القبائل ولهجاتها وتاريخ البلدان وتراجم الشخصيات ، مستطردا في ذلك إلى ذكر أخبار العرب وذكر مآثرهم في الجاهلية والإسلام . وفي سبيل تحقيق كل ذلك يتكون الكثير من المعارف الإنسانية المتعددة الجوانب ، والتي في مجموعها تكون موسوعة ضخمة للتراث العربي . وهو بهذا العمل خرج من نطاق التحقيق والجمع إلى مجال التأليف والإبداع .

وموسوعة البغدادي كنص من النصوص القديمة ، كيف تستثمرها العقول الجديدة ؟ صحيح أن من يدخل هذه الموسوعة ذات الثلاثة عشر مجلدا ، تائه مفقود لما تحويه من معارف متعددة على غير ترتيب ، لكن الخارج منها مستفيد مولود لما يحصله من معارف متجددة على غير حصر : معارف ومعلومات وأبحاث ودراسات وموضوعات .. غزيرة كالضوء المنتشر ، ممتلئة كالسحاب الثقال ، عظيمة عظمة من أرخت لهم من بناة الحضارة العربية الإسلامية .

إن قراءة هذه الموسوعة - على اختلاف جوانبها - تحقق الكثير من الفوائد ، فالجوانب الدينية تزود القارئ بشحنة روحانية مصدرها مبادئ وقيم هذا الدين الحنيف ، والجوانب التاريخية ترسم صورا وأشكالا من الحياة العربية القديمة في مراحلها المتتالية ، وجوانب الترجمة للأعلام والعظماء تعطي ألوانا عالية من الحياة القوية البارزة عند العرب الأقدمين، والجوانب الأدبية توسع دائرة الشعور وتكشف لنا عن مواطن الجمال في ثقافتنا ، والجوانب الفلسفية تنبه البصيرة وتوقظ ملكة الاستقصاء إلى غير ذلك من جوانب تنمي لدى القارئ فضيلة البحث الحر، والأكثر

تحضره إلى حمل أمانة وجوده العربي الأصيل في زماننا الذي يموج – أحيانا – بالزيف والسطحية والادعاء؛ حتى أصبحت هذه النقائص في التفكير عملة رائجة للتداول وطريقا مضمونا للنجاح .

هل نحن في حاجة إلى تفصيل ؟ إذا شئنا مزيدا ، فلنصاحب أولا البغدادي في رحلة سريعة داخل موسوعته ، ولنكشف ثانيا عن نوادر الكتب العربية ، ولنتأمل ثالثا الفهارس التحليلية .

إن أول ما يلتمع أمامنا في رحلتنا مع البغدادي : استشهاده في شرحه بآيات من القرآن الكريم . لضبطه اللسان العربي ، وهو في ذلك لا يحاول أن يخلع على الآيات التي أوردها معنى يريده ، أو يكلفها غايات لا تريدها بل تركها وحدها إلى معانيها وغاياتها النبيلة والجليلة . فإذا نحن أمام صرح لغوي هائل أقامه القرآن لحساب تقويم لغة الإنسان العربي وضبط لسانه ، وبعد آيات القرآن تأتي الأحاديث النبوية مستلهما إياها في ضبط هذا اللسان ، واجدا منها الفيض الذي لا ينضب والعون الذي لا يخذل، وكأن هذه الأحاديث ما قيلت إلا لتوضيح القضايا اللغوية وحل إشكالاتها ، وهو باستشهاده بالآيات والأحاديث لا تستغرقه اللغويات ، وإنما يتجاوزها إلى تقديم المعارف والمعلومات .

هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ بالقطع لا . فهذه كتب أدار حولها البغدادي أبحاثه، فيها يطوف الأرض العربية من أقصاها إلى أدناها ، ويحلق في سموات للفكر نعرفها وأخرى لا نعرفها ، فهذا كتاب لسيبويه تدور حوله كتب بلغ عددها 26 كتابا، وهذا كتاب للزمخشري تدور حوله كتب بلغ عددها 24 كتابا . وثالث عنوانه : إيضاح للأشعري يدور حوله 13 كتابا ، ورابع للزجاجي هو الجمل يدور حوله 13 كتابا، وهكذا ثم هؤلاء شعراء وعظماء نجد أنفسنا نطوف معهم ونذهب آنا إلى القرن الأول الهجري وآنا إلى القرن الميلادي وآنا إلى ما قبل الهجرة والميلاد .. طبقات من فحول

الشعراء يمثلون عصور الشعر العربي من جاهليين إلى مخضرمين إلى متقدمين إلى محدثين ، ومن الأعلام ملوك العرب ورؤساؤهم وإلى قبائلهم العربية نتقدم لنتعرف على تكوينها ومنشئها ، ثم إلى الحضارة العربية الإسلامية سماتها وقسماتها من نظم اجتماعية وسياسية ومالية وخلقية وعادات وتقاليد : ولا ينسى البغدادي أن يذكرنا بأيام العرب المجيدة ومآثرهم الخالدة ، ثم رحلات إلى بلدان وعواصم الحضارة الإسلامية ، خطوة تقربنا من بخارى ، وأخرى تنقلنا إلى بغداد ، وثالثة إلى أرجاء الشام ، ورابعة إلى القيروان ، وخطوات أخرى إلى الكوفة وهمذان وصنعاء والقاهرة... وغيرها.

وقد يستوقفنا في استشهادات البغدادي بالكتب أمر على جانب كبير من الأهمية، هو أنه : حين سجل لأسماء كتب انقرضت ، حفظ لنا تراثا غاليا . في مقدمة هذه الكتب كتاب (تأبط شرا) الشاعر القديم وديوان زهير بن أبي سلمى وكتاب اللغة للمتنبي وشرح ديوان أبي تمام لابن المستوفي في عشرة مجلدات ، والفهرست لابن النديم بخطه ، والنصوص لابن سعيد السكري ، وهو كتاب تماثل نصوصه كتاب (النصوص) للجاحظ الذي ضاع إلى الأبد ، و(الدرهم والدينار) لأبي هلال العسكري ... وغيرها عشرات من الكتب اندثرت وانقرضت ، ولكن البغدادي حفظ لنا أسماءها وشيئا من مضمونها ، فحفظ لنا بالتالي منابع وأصول الثقافة العربية الإسلامية ، والتي إن وجد بعضها مخطوطا في أي مكتبة في العالم لكان كفيلا بحل مشكلات الأخطاء التي تتسرب إلى النسخ المطبوعة .

ولا ينتهي المرء من الطواف مع البغدادي في موسوعته بما تضمنته من معارف متنوعة ، وحفظ لتراث منقرض مفقود دون أن يذكر بالثناء ذلك الجهد الفذ الذي بذله الأستاذ عبد السلام هارون ، سواء في تحقيقها في أحد عشر مجلدا ، تحقيقا قربها من روح العصر أو بإضافة مجلدين كبيرين كفهارس تحليلية، هما المجلدان: الثاني عشر

والثالث عشر . إن هذه الفهارس تمكن القارئ المعاصر من الانتفاع بكل ما جاء في هذه الموسوعة من معارف . فبدون هذه الفهارس التحليلية تصبح قراءة كتب التراث - التي لم تجر في غالب الأمر على مناهج علمية منسقة - قراءة عسيرة كل العسر تحفها المشقة والعناء .

إن هذه الفهارس التحليلية تكشف عما في باطن كتب التراث من أسرار وخفايا يصعب الاهتداء إليها للوهلة الأولى ، هذا إلى جانب كون هذه الفهارس معيارا دقيقا توزن به صحة نصوصها بمقابلة ما فيها من نظائر وأشباه بها تكشف عن خطأ المؤلف والمحقق على حد سواء ، ولعل الأستاذ عبد السلام هارون في عمله هذا كان مدركا أن عصرنا المعقد في حاجة إلى اختزال الوقت ، فقد يقتضى البحث عن واقعة أن ينفض الباحث كتابا من عشرين مجلدا للعثور على ما يبتغيه . ومن هنا يمكن القول بأن ما هدف إليه المحقق من وضع فهارس موسوعة (خزانة الأدب) قد أتى بثمرته ، حيث سهل الكثير من الصعوبات التي يقابلها قارئ هذه الموسوعة .

وبعد .. فهذه مجرد انطباعات عاشق للعمل الصالح الذي يتركه الأجداد ويحترمه الأبناء في تعاملهم إياه ، لا تزعم أنها قد أوفت على الغاية أو شارفت على الغرض بقدر ما تقر وتؤكد بأنها هوامش لجهد عظيم من المؤلف عبد القادر البغدادي ، والمحقق الكبير عبد السلام هارون الذي أتاح للمعاصرين الرجوع لتراث الأجداد .

* * *

إبراهيم الكوراني

يعتبر الكوراني في مقدمة مجددي القرن الحادي عشر الهجري . هذا القرن لم يتميز بكثرة مجدديه ، فيبدو أن حالة التفكك التي كانت تسود العالم الإسلامي في المشرق خاصة ، قد ألقت بظلالها على التجديد في الفكر ، فلم يتميز هذا القرن كغيره من القرون الهجرية بكثرة في المجددين ، وإنما أصبح عددهم يقل عن عدد أصابع اليد نتيجة لهذه الحالة .

ومن بين هؤلاء القلة من المجددين ، نجد الكوراني الذي ولد سنة 1025 هجرية في بلاد الكرد ليتعلم في هذه البلاد على أيدي مشايخها ، حيث لم يترك شيئا من العلوم إلا حصل عليه باستثناء علمي: التصوف والحديث - حيث يذكر الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» ... وغيره من العلماء والمؤرخين . وقد حصل على العلم والمعرفة ببلاد العرب بعد سفره إليها ، تاركا مسقط رأسه في بلاد الكرد واسمها «شهران».

وكغيره من المسلمين ، ترك بلاده بغرض فريضة الحج . فمر على بغداد ليقيم فيها سنتين كاملتين ، وبعدها توجه إلى بلاد الشام ليقيم فيها أربع سنوات ، إلى أن توجه إلى المدينة المنورة وأقام بها بقية حياته حتى كانت وفاته عام 1101 هجرية .

وطبيعي .. أن يستفيد من علوم هذه الأقطار التي مر عليها ، ويأخذ ما تيسر له من العلم على أيدي العلماء الموجودين وقتئذ ، ليشبع نهمه من الثقافة . وكانت نتيجة ذلك أن يترك آثارا فكرية كثيرة، منها: شرحان كان قد قرأهما على شيخه «القشاش»، هذا إلى جانب آثار فكرية أخرى منها «مسلك الاعتدال إلى آية خلق الأفعال» و«مسلك السداد وإعمال الفكر والروايات» و«إفاضة العلام في تحقيق مسألة الكلام»

و«تنبيه العقول على تنزيه الصوفية عن اعتقاد التجسيم والعينية والاتحاد والحلول» و«إتحاف الخلف بعقيدة السلف» .. إلى آخر هذه المصنفات التي يسجلها الثبت الخاص به .

ويذكر عن الكوراني بأنه كان سلفي الفكر والعقيدة ، وأنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأنه كان يدافع أيضا عما وقع من كلمات في الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية . إلا أن ذلك رأي متناقض يخالف أوله آخره ؛ لأن أخذ الكوراني عما وقع في كلمات الصوفية مما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية يجعله من مدرسة الغزالي التي كانت تنكر عليها مدرسة ابن تيمية ؛ لأنها لم تكن ترى تأويل الحلول أو الاتحاد من كلام الصوفية ، بل كانت تؤاخذهم بهذا الظاهر ، وتحكم بكفرهم من أجله ، بل كانت تنكر ما هو أخف من هذا من بدع الصوفية في مقاماتهم وأذواقهم وسماعهم ، وغير ذلك من أحوالهم ، وما كانت ترى إلا الزهد الذي كان عليه الصوفية ، قبل أن يقعوا في هذه البدع .

ولهذا .. يمكن القول بأن الكوراني كان بعيدا عن مدرسة ابن تيمية ؛ حيث كان يتعلق بالفروع السابقة اعتناقه لمذهب الشافعي ، ولم يقل عنه أنه خرج عن شيء من هذا المذهب الشافعي .

وهذا بخلاف مدرسة ابن تيمية ، التي كان أفرادها لا يتقيدون في كثير من المسائل الخاصة بالمذاهب الأربعة التي تعلق بها غيرهم .

ومع ذلك .. فالكوراني يمتاز عن غيره - كما يقرر مؤرخوه - من علماء هذا القرن؛ إذ كانوا في غفلة عن حال العالم في عصرهم ، وعما أصاب المسلمين في المشرق من تأخر في العلوم التي نهض بها أجدادهم من العرب الأقدمين ، وعما وصلت إليه أوروبا من التقدم الذي كان على حساب حضارة المسلمين في العصر الوسيط حتى أمكنها أن تصل إلى رأس الرجاء الصالح . وكان معها من القوة التي وصلت إليها

بالعلم ما أمكنها بقليل من الجهد أن تستولي على الممالك الإسلامية بسواحل إفريقية، وأن تصل إلى الهند وتستولي على بعض منها ، وتوشك أن تستولى عليها كلها وتستأثر بخيراتها دون غيرها .

وتأسيسا على ذلك ، فالكوراني وغيره حين غفلوا عـن ذلـك كلـه ، لم يـدركوا الرسالة التي يجب أن يقوم بها المجدد المسلم ، على الرغم من أنه اجتهد وجدد إلا أن اجتهاده وتجديده لم يصل إلى مستحقيه .



المقبلي

يزخر التاريخ العربي الإسلامى بعدد من العلماء والفقهاء واللغويين والأدباء من أبناء اليمن ، الذين أضافوا إلى تجديد الفكر الدينى إضافات لها تقديرها العلمى والتاريخى ، حتى كانت أعمالهم لا غنى عنها في بناء هذا الصرح الهائل من التجديد في الإسلام طوال الخمسة عشر قرنا من الهجرة ، كجانب مطلوب لحل بعض المشكلات التى طرأت مع انتشار الإسلام ، واتساع رقعته في حضارة عربية إسلامية متماسكة نبيلة ممتدة من الأندلس غربا إلى الصين شرقا ، ومن السودان جنوبا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا ، وازدادت الحاجة إلى التفكير في تجديد الفكر الدينى مع تغير الأزمنة وبعدها عن النبوة والعصور الإسلامية الأولى ؛ الأمر الذي جعل رجالا من المجددين على رأس كل مائة عام ضرورة ملحة ، تتطلبها حاجة المجتمع الإسلامي الذي يتسع ويمتد في الممالك والشعوب .

ولهذا .. فقد ظهر في اليمن كما ظهر في مصر أو العراق أو شبه الجزيرة العربية ، بل وفي الأقطار الإسلامية شرقا وغربا مجددون في أي قرن من القرون يقومون بهذه المهمة ، وأعنى بها التجديد . وقدمت اليمن نماذج للمجددين فيها «ابن الوزير اليمني» و«الشوكاني» و«المقبلي» الذين تهتم بهم الآن هذه الصفحات .

إذن.. فالمقبلى واسمه: صالح بن مهدي المقبلى اليمنى واحد ممن اختارهم المؤرخون العلماء ضمن المجددين في القرن الحادي عشر الهجري ؛ حيث ولد وعاش ومات في الفترة ما بين عام 1048، 1108هـ، كما نشأ وتعلم في قريته «المقبل» وتنقل في بقية القرى والمدن اليمنية طلبا للعلم، وتحقيق المزيد منه ، وأهمها مدينة صنعاء التى كانت تعج وقتئذ بالعشرات من العلماء والفقهاء ، وعلى أيديهم أخذ مجددنا المقبلي العلم والفقه ... وغير ذلك .

ويبدو أن الذين علموه كانوا على مذهب أهل السنة المناهض للمذهب الشيعي، ومن هنا بدأت مشاكله ، سواء في موطنه اليمني أو في غيره من الأقطار الإسلامية .

لقد كانت طوائف وفئات كثيرة في اليمن تتبع بوجه عام مذهب الزيدية الشيعي ، ومن هؤلاء من كان يبالغ في الانتماء إلى فرقة من الفرق وهي «الجارودية» ، تلك التي كان مريدوها يتبعون «أبو الجارود» ، وكانت هذه الفرقة من غلاة الشيعة الذين يختلفون في السلوكيات والأساليب ، وربما في تأدية الشعائر اختلافات جوهرية ، مع ما تربى عليه المقبلى من اتجاهات علمية تنتمي إلى أهل السنة . ومع مرور الوقت وزيادة الاحتكاكات بين السنة والشيعة تضاعفت الاختلافات وتضخمت ، وبالغ أتباع الجارودية الشيعية في ممارساتهم وأساليبهم غير المرضى عنها من أهل السنة ، حتى أوشكت أن تكون ثورة على المقبلي والاتجاه السني الذي كان يتبعه ، وأصبح لا مناص ولا مفر من المواجهة الحادة بين الطرفين . فالمقبلي يؤمن بإمامة أبي بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما ويعتبرها حقا لهما نظرا لجهادهما ودورهما العظيم في بناء الدولة الإسلامية منذ وقوفهما إلى جانب النبي – ﷺ – ودفاعهما عن دعوته في الحرب أو السلام ، بينما أتباع الجارودية الشيعية يرون غير ذلك . إنهم – باختصار – يعتقدون أن الإمامة كانت من حق علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مستندين إلى قول النبي– ﷺ– : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، بمعنى أن صلته بالنبي – ﷺ – هي الأكثر قربا وتماسكا ، كصلة أخوة موسى عليه السلام من أخيه هارون ، بمعنى عصري أنه أي : الإمام على كان يمثل الرجل الثاني بعد النبي – ﷺ – ، متناسين بذلك فضل «أبي بكر الصديق» و«الفاروق عمر» وجهادهما من أجل انتشار الدعوة ، وبناء الدولة الإسلامية على النحو الذي كان له أثره فيما بعد . وليس ذلك يعتبر إنكارا للدور الذي قام به الإمام علي كرم الله وجهه، وإنما استرداد لكل صاحب حق حقه .

وطبيعي والأمر كذلك .. أن تزداد شقة الخلاف وتتسع بين المقبلي – وهو من أتباع المذهب السني – وبين أتباع الجارودية الشيعية ، خاصة حين رأوه يعارضهم ولا يتبع تقليدهم في مناقشاته ومساجلاته ، التي تنتهي بتنديده بما يعتقدون ويؤمنون، سالكا طريقا مغايرا لهم ، لعله طريق الاعتدال والتقريب بين أتباع السنة والشيعة على اعتبار أنهما ينتميان إلى دين واحد هو الإسلام ، الذي لا يفرق بين أتباعه سنة أو شيعة ؛ حيث يعيشان في ظله منذ مئات السنين . لكن للأسف يزداد الخلاف بين الطرفين بصورة لا يحتملها المقبلي ؛ مما اضطره إلى ترك اليمن بالسفر إلى خارجها قاصدا اللجوء إلى مكة التي تستوعب كل التيارات والاتجاهات.

لكن يبدو أن المشاكل والأزمات كانت تلازم مجددنا المقبلي ، خاصة وأنه كان يتسم بسمة لعلها كانت السبب فيما يلحقه من أذى ومتاعب .. وأعني : حدته في النقاش ، خاصة لو كان يدرك أن الحق فيما يقول ويعلم . عندئذ لا يكون لديه صبر أو رفق أو لين . ولعله احتد في نقاشه مع علماء مكة الذين لم يصبروا عليه طويلا ، ولم يتقبلوا آراءه التجديدية خاصة في مسألة التقريب بين السنة والشيعة بصدر رحب ، بل بالرفض والمعارضة ، والغضب عليه حتى ينتهي الأمر باتهامه بالمروق والزندقة، وأحيانا بالإلحاد !! مبررين غضبهم عليه لمخالفته لشيعة الإمام علي رضى الله عنه ونفر من السلف الصالح من الصحابة والتابعين .. على الرغم من أنه كان يسلك مسلك هذا السلف الصالح ، وما هجرته وبعده وغربته عن وطنه اليمن إلا بسبب التمسك باتباع هذا السلف الصالح ، ولعله وهو في سبيل ذلك كان يكثر أحيانا من الحط على المعتزلة في موضوعاتهم الكلامية ، وعلى الأشعرية والصوفية في بعض ما كانوا يقولون ، والأكثر على المحدثين من العلماء والفقهاء ، ولا يبالي فيما يناقش أو يسلك لومة لائم إذا كان ذلك في سبيل الرجوع إلى الحق .. وغير ذلك من تصرفات لم يقبلها أهل مكة وعلماؤها المتعصبون . فرفعوا أمره إلى السلطان في استنبول مطالبين باستبعاده من مكة؛ لخروجه على ما يعتقدون . إلا أن السلطان لم يتسرع في

تنفيذ ما يطلبون ؛ حيث رأى في تحري الحقيقة أفضل أيا كانت النتائج . فالأمر يتعلق باتهام مسلم بالزندقة في عقيدته ، وهنا أرسل نفرا من رجاله الذين يثق في أحكامهم ليتحروا هذه الحقيقة ويعودوا إليه بالخبر اليقين .

كانت المفاجأة حين عاد هؤلاء إلى استنبول ، وأبلغوا السلطان أنه ليس هناك ما يعيب المقبلي ، وأن كل ما يدعو إليه هو من صميم الإسلام ، وخاصة الدعوة إلى عدم الفرقة أو الانقسام بين السنة والشيعة ، وأنه على العكس أشد الناس حرصا وتمسكا بعقيدته ودينه . فقط لا يعيبه شيء سوى حدته في النقاش ، تلك التي ألبت عليه القوم في مكة أو في غيرها . لكن في غير ذلك فإن كل ما يصدر عنه هو العمل الجميل الذي هو في مصلحة الإسلام . فاقتنع السلطان بما سمع من رجاله ، ولم ينفذ ما طلبه منه أهل مكة من استبعاد المقبلي عن مكة . بل وتحول أهل مكة إلى الترحيب به ، وعدم التآمر عليه ، حيث لم يجدوا سببا حقيقيا يدعو للتخلص منه ، بعد أن أقر السلطان بقاءه بينهم .

وفي هذا السياق يذهب الأستاذ «عبد المتعال الصعيدي» إلى أن المقبلي قد نشأ في بيئة الزيدية من الشيعة باليمن ، بالضبط كما نشأ من قبل ابن الوزير اليمني ، وكان متأثرا به فيما أخذ به نفسه من إيثار التمسك بالكتاب والسنة على التقليد ، حتى إنه تأثر به في تسميته كتابه الذي أظهر فيه آراءه في ذلك وهو كتاب «العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ»، فهذه التسمية مأخوذة من كتاب ابن الوزير وعنوانه: «إيثار الحق على الخلق » ، أي : أن الغرض من الكتابين واحد وهو إيثار الاجتهاد في الأصول والفروع بالرجوع إلى الكتاب والسنة أكثر من تقليد المذاهب التي جمد عليها أصحابها ، ولم يبيحوا لأنفسهم الخروج على أحكامها ، حتى لو كان الحق الذي يؤيده الكتاب والسنة على خلافها .

وعلى هذا .. يمكن القول اتفاقا مع رأي الأستاذ الصعيدي وغيره من العلماء والمؤرخين أن المقبلي كان من مدرسة ابن الوزير ، الذي كان في الأصل من مدرسة

ابن تيمية، وما عرف عنها من التعصب لعقيدة السلف في الأصول والفروع ، وذلك مذهب من المذاهب ، فالتعصب له مثل التعصب لغيره من المذاهب ، وإنما تمتاز هذه المدرسة بخروجها على جمود جمهور المسلمين على مذهب الأشعري في العقائد ، وعلى المذاهب الأربعة المشهورة في الفقه ، فكان عندها - بهذا - بعض من الحرية الفكرية ، ولكنها تتعصب مع هذا لمذهبها ، وترى أن الفرقة الناجية هي الآخذة بالكتاب والسنة من غير تأويل ، فلا تعذر غيرها من الفرق في تقليدها لمذاهبها، مع أنها لم تخرج أيضا من دائرة التقليد إلا قليلا ، لأنها لا تبيح الخروج من مذهب السلف في الأصول والفروع ، إلى مذاهب أخرى غير تلك المذاهب التي جمد عليها أصحابها ، إلى مذاهب يقتضيها ذوق العصر الحديث الذي يتسم بمرونة دينة لا توجد عند الجامدين على تلك المذاهب ، ولا عند الجاحدين على مذاهب السلف . فإن الذي يحاول ذلك في العصر الحديث يجد من هؤلاء الجامدين نفورا ورفضا واعتراضا شديدا ، يصل إلى حد الطعن في العقيدة ، وإثارة أصحاب السلطان على آخذه بالقوة ، مع أنه قد يكون على حق .

وهكذا .. وقعت مدرسة ابن تيمية فيما وقع غيرها فيه من الجمود ، حتى صارت ترى لها اختصاصا بالكتاب والسنة دون غيرها ، ولا ترى لغيرها حقا في أن يجتهد فيهما بما يراه أحسن وأفضل من اجتهادها ، مع أن الاجتهاد فيهما - الكتاب والسنة - حق لجميع المسلمين ، ولا يمكن أن يكون مقصورا على ابن تيمية أو مدرسته .. وتأسيسا على ذلك فإن ما أخذ على الكوراني من وقوفه عند الحد الفاصل بين أنصار المتمسكين بالكتاب والسنة ، والجاحدين على مذهب الأشعري في العقائد ومذاهب غيره في الفروع أخذ على المقبلي من مآخذ . ولكن على الرغم من ذلك فقد كان المقبلي واحدا من المجددين في التاريخ الإسلامي لما قدم من الأعمال والاجتهادات ، والتي كان أبرزها محاولة التقريب بين المسلمين : سنة وشيعة تحت مظلة واحدة هي الإسلام.

* * *

القرن الثاني عشر



1 - ولـــي الله الـــدهلري

2 - نـــادر خـــان شـــاه

3 - محمد بن عبـد الوهـاب

4 - الزبيـــــــــــــدي

1

هذا القــرن

يبدأ هذا القرن (الثاني عشر الهجـري) مـن سـنة 1689 وينتهـى في سـنة 1785 في التقويم الميلادي ، وقد تمت فيه أحداث كثيرة ، وتحولات كبرى ، إلى جانب اختراعات جديدة تخدم البشرية في سعيها المستمر نحو التقدم والتطور ، وعمل الإنسانية الفطـري على جعل الحياة أكثر احتمالا وقبولا ، وذلك بما تأتي به القرائح من أفكار تمـس جوانـب الحياة اليومية . وكما سنرى أن هذه الاختراعات التـى ظهـرت في هـذا القـرن الهجـري (الثاني عشر) لم تكن عربية أو إسلامية ، وإنما كانت كلها من نصيب الـدول الأوروبيـة التى بدأت منذ القرون السابقة في التقدم العلمى ، والذي تم للأسف ، بفضل ما وصل إليه العرب المسلمون من تقدم ونظريات كما رأينا في القـرون المتقدمـة ، ومـا نـتج عـن ذلك من حضارة عربية إسلامية متماسكة ونبيلة . أما في هذا القرن الثاني عشر الهجـري فإن العالم العربي والعالم الإسلامى كانا يغطان في سبات عميق يفصله عما يحـدث حولـه من أحداث، وهو مـا سـنراه في الـسطور التاليـة، فنبـدأ بـالأحوال الـسياسية في العـالم الإسلامى ، ونتبعه بالأحوال العلمية والاجتماعية والدينية ، وذلك وفـق المـنهج الـذي اعتمدناه في النظر على أحوال العالم الإسلامي نظرة شاملة وسريعة .

بالنظر إلى الحالة السياسية للعالم الإسلامى في القرن الثـاني عـشر : نجـدها كـما كانت – تقريبا– في القرن الماضى ، حيث يضم ثلاث دول كبرى تـضم كـل واحـدة منها مجموعة من الكيانات السياسية ، هى الدولة العثمانيـة في تركيـا ومـا يجاورهـا ، والدولة الصفوية في فارس وما يجاورها ، والدولة المغولية في الهند وما يجاورها ، هذا إلى جانب دول العالم العربي وفي مقدمتها مصر والجزيرة العربية ، والمغرب والجزائـر وتونس وليبيا ... وغيرها .

فالدولة العثمانية التركية أصابها الوهن والضعف بسبب الصراعات والانقسامات من ناحية ، وتألب أوروبا عليها من ناحية أخرى ، إلى درجة أنها استولت على بعض أملاكها . وكما يذكر المؤرخون أن السبب المباشر في ذلك هو ضعف سلاطين بني عثمان ، وازدياد نفوذ الإنكشارية الذين وصل الأمر بهم ، أنهم كانوا يولون المسئولين بالدولة ويعزلونهم ، في الوقت الذي يتسمون به - أي هؤلاء الإنكشارية- بالجهل والغباء والغطرسة، وفوق ذلك كله اللامبالاة؛ حيث لا يهمهم أمر إصلاح الوطن ؛ لأنه ببساطة غير أوطانهم حيث هم غرباء . وغاية ما كانوا يفعلونه في شأن الإصلاح السياسى هو الجمود والوقوف محلك سر ، ويوحي الواحد المسئول منهم أن الخروج على القديم إلحاد وكفر !! وزادت الحالة السياسية تفاقما بنشوب الحرب بين الدولة العثمانية ودول روسيا والنمسا وبولونيا ، لتنتهي هذه الحروب بمعاهدة يقتطع بمقتضاها أجزاء من الدولة التركية ، ولتزيد أطماع أوروبا فيها بعد ذلك، ليبدأ ما يسمى بالاستعمار السياسي لأجزاء من الدولة العثمانية التركية .

والدولة الثانية هي الصفوية في فارس التي ضعفت شوكتها شيئا فشيئا إلى درجة أن فلولا من الأفغان يقودهم أحد أمرائها استولوا على أغلب بلادها ، وبقوا فيها إلى أن قضى عليهم «نادر خان شاه» والذي نادى بنفسه ملكا على مملكة تمتد من فارس إلى بلاد الهند ، ويدخل ضمن نفوذها بعض الأقاليم التي منها بخارى وأفغانستان . وقد استعان في ذلك بالإنجليز ليمدوه بالأسلحة الحديثة ، إلى جانب اعتداله وتسامحه ، الأمر الذي استقرت في عهده الدولة الفارسية ، ليتغير حالها بعد وفاته .

والدولة الثالثة المغولية بالهند ، لا يقل حالها من الاضطرابات والفتن عن سابقتيها إن لم يزد ، حيث طمع فيها الهندوس يريدون حكم الهند ، وكان بالطبع للشركة الهندية الإنجليزية يد في هذه الاضطرابات والفتن بين المسلمين والهندوس ،

وهنا استنجد المسلمون بالملك نادر شاه ملك فارس ، الذي أوقف هذه الاضطرابات والفتن خصوصا بعد استيلائه على «دهلي» . ولكنه - لاعتداله - أبقى ملكها المسلم الهندي محمد شاه مكتفيا بمساندته من بعيد . لكن هذا الملك محمد شاه ومن جاءوا بعده من الملوك كانوا من الضعف والوهن ، مما جعل الشركة الشرقية الإنجليزية الهندية تسيطر على الحكم بعد انقسامها إلى ولايات . لينتهي حكم الملوك المغول لتظل السيطرة والحكم للشركة الشرقية الإنجليزية الهندية حتى تنتقل إلى بريطانيا نفسها وبداية استعمار الهند عام 1866 .

وأما دول المغرب فقد ساء حالها في ظل حكم السعديين لمراكش ، حتى ولو كانت الجزائر وتونس وطرابلس تابعة للدولة العثمانية . فقد عم الفساد ، وسادت الفوضى دول المغرب العربي . والأمر نفسه كان في بقية الدول العربية الإسلامية في المشرق .

وإذا ما انتقلنا إلى الحالة العلمية في العالم الإسلامي في هذا القرن نجدها ازدادت فسادا واضمحلالا وجمودا إلى درجة أن إنشاء مطبعة جسد أزمة كبيرة في إستانبول حيث اعتبرت هذا العمل رجسا من عمل الشيطان . وهنا طلب السلطان العثماني التركي من شيخ الإسلام أن يصدر فتوى ينفي فيها ذلك ، ففعل ولكن على أن لا يطبع فيها القرآن الكريم أو الحديث أو التفسير أو الفقه أو علم الكلام على اعتبار أنها كتب دينية لا يصح ولا يجوز أن تطبع في هذه الآلات النجسة ، والتي هي رجس من عمل الشيطان . ولم تكن حالة مصر العلمية بأفضل من حالة تركيا ، حيث كان علماء الأزهر لا يقلون جمودا أو تنطعا عن غيرهم في إستانبول . ولهذا يمكن القول - اتفاقا مع المؤرخين - بأن العلم في هذا القرن كان ضعيفا ، وهان على الناس العلماء ، على الرغم من أنه كان من بينهم علماء أجلاء خاصة في الأزهر وعلى رأسهم الشيخ «عبد الله الشرقاوي» .

وإذا كان العلم على هذا النحو من الوهن والضعف، فبديهي أن تنشط الوسائل المتخلفة التي يرفضها العلم بمعناه الحقيقي ، وأهمها الطرق الصوفية المتخلفة . خاصة المدعين فيها فيعلو شأن شاربي الخمور الذين تتهافت على مجالسهم النساء . والعجيب أن العلماء ينقلون عنهم الأخبار، والملوك والولاة يطلبون منهم الشفاعة!! وقد وصل الأمر أن أحد مدعي الصوفية كان يمشي في الشوارع عاريا مكشوف الرأس والسوأتين ، كما يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي ، فيعتقد أهل مصر فيه الولاية ، حتى إذا تستر بلباس ولزم البيت اعتبر قطبا ، يقبل عليه الرجال والنساء للتبرك به . ومشهد آخر لازال شاهده أو قبره موجودا في إحدى قرى الصعيد، وبالتحديد بمحافظة المنيا شرقي النيل وتسمى : «قرية الشيخ تمي» حيث اتفق اثنان من الساخرين على دفن حمار وأقاموا له قبرا وشاهدا باسم الشيخ هند ، وقالا بأنه من الأولياء الصالحين . فأقبل الناس على زيارته والتبرك به والقسم باسمه . إلى أن اختلف الشريكان في شأن المال الذي يأتي من النذور لهذا الولي المزعوم ، فأقسم أحدهما باسمه ، فذكره الآخر بأن قسمه لا يجوز ، وذكره قائلا : إنه حمار دفناه معا ، ولا يعرف سره إلا كلانا !

وتزداد هذه الحالة تفاقما إلى درجة أن يصل الأمر بالمسلمين في هذا القرن أن يعتقدوا في عنزة ادعى أحد خدمة وحراس المشهد النفيسي بمصر أن السيدة نفيسة رضي الله عنها أوصت بها خيرا كما ادعى صاحبها !! وهنا نسب الناس إلى هذه العنزة الكرامات وكانت النساء أكثر من الرجال اعتقادا فيها ، فكن يرسلن إليها القلائد والأطواق والحلي الذهبية ، والمأكولات والحلويات الفاخرة والهدايا الثمينة طلبا في رضاها والتبرك بها .. إلى أن أمر الأمير «عبد الرحمن كتخدا» بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها من غير أن يخبره حتى يعرف تأثير أكل لحم هذه العنزة المقدسة ولما سأله أجاب : لا شيء ، لحم عادي ليس له مذاق مختلف عن غيره . وهنا أمر

الأمير بوضع جلدها على عمامته ، وأمر أصحاب الطبول بالسير به في شوارع القاهرة للتشهير به ، منعا للناس عما يفعلونه .

هذه الصور بالطبع لها علاقة بالحالة الاجتماعية التي ساءت إلى درجة كبيرة ، وعم الجهل والفقر والمرض ، دون علاج .

وكذا الحالة الدينية حيث ازداد نفوذ رجال الصوفية ، خاصة الجهلة والمدعين منهم كما قلنا من قبل . فعم الجمود ، وسادت الأساليب اللاعقلية ، وانتشرت الشعوذة وغيرها من الأساليب المتخلفة .

يحدث هذا في العالم الإسلامي في وقت تتقدم فيه أوروبا علميا واجتماعيا وسياسيا وفكريا وثقافيا . لتبدأ في اختراعاتها التي حولت العصر فيها إلى عصر التصنيع والاختراع .. وما استتبعه من تقدم تقني وتطور مذهل .

ولي الله الدهلري

ولي الله أحمد شاه الدهلري : من مجددي القرن الثاني عشر الهجري ، حيث ولـد عام 1114 وتوفي 1180 هجرية حسبما يقول مؤرخوه ودوائر المعارف والموسوعات الإسلامية ، تلك التى ترصد مؤلفاته الكثيرة ، ومنها : (الإنـصاف في بيـان أسـباب الخلاف) و(رسائل الدهلري) و(شرح تراجم أبواب صحيح البخاري) و(عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد) و(فتح الخبير بما لابد من حفظه في علـم التفـسير)، إلى جانب رسالته (الاجتهاد والتقليد) و(فتح الخبير بما لابد من حفظه في علم التفسير)، إلى جانب رسالته المهمة وعنوانها : (التفهيمات الإلهية) تلك التـى دافـع فيهـا دفاعـا مجيدا عن ابن تيميـة قـائلا : «والـذي أعتقـده ، وأحـب أن يعتقـده جميـع المـسلمين وخاصة علماء الإسلام من حملة الكتاب والسنة والفقه ، الذائدين عـن عقيـدة أهـل السنة والحديث ، أنهم عدول بتعديل النبى – ﷺ – ، حيث قال بحمل هذا العلم من كل خلف عدوله– وإن كان قد تكلم فيهم بما لا يرتضيه هذا المعتقد ، إذ كان قـولهم ذلك غير مردود عليهم بنص الكتاب والسنة والإجماع ، وكان قولهم ذلـك محـتملا ، وكان مجالا ومساغا للخوض فيه ، سـواء كـان قـولهم ذلـك في أصـول الـدين أو في الأبحاث الفقهية أو في الحقائق العاطفية أو الوجدانية . وعلى هذا الأصل اعتقدنا في شيخ الإسلام ابن تيمية.. رحمه الله تعالى ، فإنا قد تحققنا من حالة أنه عالم بكتاب الله، وأستاذ في النحو واللغة ، ومحرر لمذهب الحنابلة : فروعه وأصوله ، حاد الـذكاء ، ذو لسان وبلاغة في الدفاع عن أهل السنة ، ولم يعرف عنه فسق ولا بدعة ..

فمثل هذا الشيخ نادر الوجود في العالم ، وقد يطبق أن يلحـق شـأوه في تحريـره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ، ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى ، وإن كـان تـضييقه ذلك ناشئا من اجتهاد ومناقشة بين العلماء ..» .

ويعلق الأستاذ عبد المتعال الصعيدى على هذا النص للدهلوى قائلا : «وبهذا يكون ولى الله الدهلوى من أتباع مدرسة ابن تيمية ؛ لأن قوله فيه لم يؤثر أو يعرف عنه فسق ولا بدعة ، اللهم إلا هذه الأمور التى ضيق عليه لأجلها - يشعر بأنه لم يكن متشيعا له فيها كل التشيع ، وإن ذكر أنه ليس شيء مما أخذ عليه إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ..».

وعلى أن كتابه (القول الجميل فى بيان سواء السبيل) يقصد منه بيان أصول طرق الصوفية الأربعة وهى : النقشبندية والمحددية والجشتية والجيلانية ؛ حيث عنى هذا الكتاب ببيان أصولها ، وذكر فى دفاعه السابق عن ابن تيمية ، ما سماه بالحقائق العاطفية أو الوجدانية ، وهى الحقائق التى يدركها المتصوفة بذوقهم ، وكل هذا لا تؤمن به مدرسة ابن تيمية . وهنا .. فإن جمع الدهلوى بينهما هو كالجمع بين النقيضين ، ولعل إيمانه بتلك الطرق الصوفية يجعل بعض العلماء وفى مقدمتهم الأستاذ الصعيدى يرى أن ذلك يبعده كثيرا عن أن يكون من مجددى القرن الثانى عشر الهجرى مخالفا بذلك غيره من جمهرة العلماء المؤرخين ، وعلى الرغم من ذلك يعتبره من المجددين فى كتابه .

إن اتباع الدهلوى لمدرسة ابن تيمية لا يذكر له فى هذا القرن . لأن هذا التقليد أو الاتباع لهذه المدرسة قد تحول إلى جمود أشد من جمود الجمهور الذين تخرج عليهم.. بل لعله ينظر في الكتاب والسنة نظرة جديدة تلائم العصر الحديث ، ويتفق مع تحرر العقول من جمود العصر القديم ويكون فيه من اللين والتسامح ما يرفع عن المسلمين إصرهم وأغلالهم ، ويفتح لهم أبواب النهضة والتقدم .

وهكذا .. ما كان لولى الله الدهلوى أن يجهل ما وصل إليه العلم فى العصر الحديث ، وقد كان من أبناء الهند الذين رأوا ما جره الجمود على أهله من التأخر ، وما أوقعهم فيه من الخلاف الذى أطمع فيهم رجال الشركة الإنجليزية ، وجعل هذه الشركة الاستعمارية تلعب بعقولهم وتستولى على بلادهم وتنتصر بأساليب العلم الحديث على جمودهم وتخلفهم .. كل هذا وعلماؤهم غافلون عن هذا الخطر الجديد ، لاهون في قضايا الخلاف بين ابن تيمية وغيره .

* * *

نادر خان شاه

نادر خان شاه : من مجددي القرن الثاني عشر الهجري ، حيث ولد عام 1099 هجرية في وقت كانت خراسان وهي بلاده تعج بالفوضى ، وذلك بسبب القائمين على أمرها من ناحية ، وهجوم من الخارج للتتار من ناحية أخرى ، فأخذ يقاوم هذه الأحوال المتردية في بلاده وقتئذ ، وتبع ذلك تغير كان يطرأ عليه فإذا ما حقق نصرا قابله من ناحية أخرى هزيمة ، وإذا ما دبت القوة لديه تحولت إلى ضعف ، فحينا يتم أسره ، وحينا يعمل في خدمة سلطان البلاد ، بل في بعض الأحيان كان يكون جماعة من أشد الرجال ومشاغبيهم ، سببت الخوف للناس وهو أمر ذاع صيته ، واشتهر أمره ، حتى خافه الناس ، فعلم بأمره سلطان خراسان فدعاه ليستعين به في مقاومته هجوم فلول التتر . ولم يدم هذا الحال من الود بينه وبين السلطان ؛ إذ سرعان ما اختلفا وتم استبعاده وعزله ، فعاد إلى ما كان عليه ، ولكنه كان أكثر قوة وخبرة ، إلى درجة أن الحكومة بدأت تخشاه وتحسب له ألف حساب ، خاصة بعد أن ضعفت شوكتها وتمت سيطرة الأفغان عليها إلى درجة أن ابن السلطان وكان يدعى « تهما سب ميرزا» سعى إليه أي : إلى نادر شاه ، ليساعده على استرداد ملك أبيه من الأفغان، فانضم إليه نادر خان شاه وأصبح من أكبر قادته ومعاونيه في هذا العمل الذي بمقتضاه تستمر الدولة الصفوية في إيران ويكون آخر ملوكها «تهما سب ميرزا» بفضل معاونة نادر شاه .

من ناحية أخرى .. كانت الدولة العثمانية في تركيا ترنو بنظرها للسيطرة على إيران بعد ما دب الوهن والضعف في الدولة الصفوية . وهنا اتفقت مع روسيا على

أمر يتم بمتقضاه تقسيم إيران بعد انتهاء الدولة الصفوية وسيطرة الأفغان عليها فأخذ جيشا من كلتا الدولتين : الدولة العثمانية والأخرى الروسية ، في التقدم للاستيلاء على ما تم الاتفاق عليه بينهما .

وفي محاولة لاسترداد ملكه ونفوذه في إيران سعى «تهما سب ميرزا» إلى كل من الدولتين واتفق معهما على الاستيلاء على ما يريدان من إيران في مقابل أن يردا إليه بقية البلاد ، وقد وافقت على ذلك روسيا ، ورفضت الدولة العثمانية . وكان نادر شاه وراء هذه الاتفاقات بين الأطراف الثلاثة .

وهنا عقد «تهما سب ميرزا» معاهدة مع روسيا بمقتضاها أن تترك له الدولة العثمانية الولايات الشمالية الإيرانية بعد تحريرها من الأفغان . فلما رأت الدولة العثمانية نجاح هذا السلطان بمعاونة نادر شاه في اتفاقه مع الروس ، رأت أن ترضى بما عرضه عليها من قبل ، وتركت له قليلا من بلاد إيران التي حررتها من الأفغان ليتم للسلطان «تهما سب ميرزا» - بمعاونة نادر شاه - استرداد السيطرة على أجزاء كثيرة من إيران ، والأكثر من ذلك فقد أرسل هذا السلطان معاونه وحليفه على استرداد ملكه : نادر شاه إلى بلاد خراسان فأخضعها ، واسترد أصفهان التي كانت تحت سيطرة خراسان .. وبذلك جلس «تهما سب ميرزا» على عرش آبائه بمعاونة نادر شاه الذي أصبح الحاكم الفعلي لإيران مكافأة له على معاونته الإيجابية وازدادت سيطرته ونفوذه ؛ أي نادر شاه - بعد أن هزم الدولة العثمانية التركية التي عادت للهجوم على بلاد إيران مع أكبر هزيمة .

لكن أثناء الحرب مع الدولة العثمانية والانتصار عليها شن الأفغان هجوما على إيران ، فسار إليهم نادر شاه وهزمهم . في هذه الأثناء زين مستشارو السوء للسلطان «تهما سب ميرزا» أن يعاود الهجوم على الدولة العثمانية دون نادر شاه ففعل ذلك غير مدرك للعواقب ، خاصة وأن معاونه وقائد جيوشه نادر شاه كان مشغولا في حربه

مع الأفغان ، فأشار إليه مستشارو السوء وأعوانه أن يتخلص منه ؛ أي: من نادر شاه ويعين بدلا منه ابنه الطفل «عباس ميرزا» على أن يكون السلطان وصيا عليه . ناكرا بذلك كل ما فعله نادر شاه من أجله من معاونة لاسترداد ملك أجداده . وهو ما لم ينسه أو ينكره الإيرانيون الذين انتهزوا فرصة وفاة الطفل «عباس ميرزا» ليقيموا نادر شاه ملكا عليهم بعد أن حررهم من حكم الأفغانيين والأتراك والروس . فقبل منهم ذلك بشرط أن يتركوا التعصب ضد أهل السنة ، ولا يبالغوا في التمسك بالمذهب الشيعي الذي كانوا عليه في عصر الدولة الصفوية السابقة . فقبل منهم البعض هذا الشرط ، ولم يقبله البعض الآخر حيث ظلوا على مغالاتهم في الانتساب للشيعة .

وكان أول ما فعله نادر شاه بعد أن استقام له الأمر وأصبح ملكا على إيران هو الدعوة إلى الوحدة بين الإيرانيين سنة وشيعة ، الأمر الذي يدعو إليه الإسلام ، وأنه لا فضل لشيعي على سني إلا بالتقوى والعمل الصالح على اعتبار أن الذين ينتمون للسنة وللشيعة هم في نهاية الأمر مسلمون . وأن الخلاف بينهم يمزق وحدة هؤلاء المسلمين .

إلا أن الأمر الذي يحسب لهذا المجدد نادر شاه إلى جانب محاولاته المبكرة للتقريب بين السنة والشيعة يتجسد في مسلكه أسلوب العلوم الحديثة في إدارة الدولة وتطورها ، وفي ذلك استعان ببعض علوم وتجارب الدولة الأجنبية عملا بأمر دينه الذي يدعو صراحة إلى أخذ العلم حتى لو كان في آخر الدنيا ، وأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها هو أحق الناس بها . فاستعان بالإنجليز في الحصول على الأسلحة الحديثة ، وأقام ببلاده معامل لصنعها ؛ حتى يصبح له جيش قوي على النظم الحديثة ، فتح به قندهار الأفغانية ، وسار به إلى الهند فاستولى عليها بلدا تلو آخر ، وانتصر على بلاد بخارى وعقد معها اتفاقية كالتي عقدها مع بلاد الهند ،

وتقدم إلى بلاد خوارزم وفتحها .. وهكذا تم لنادر خان شاه ما لم يتم لواحد من ملوك وسلاطين الدولة الصفوية في إيران .

ومع كل هذه الانتصارات لم يستطع أن يقنع أهل الشيعة بعدم المغالاة في تشيعهم ، وكان ذلك سببا في اختلافه مع أئمة المذهب الشيعي ، فثارت عليه أشياع وأتباع من هذا المذهب ، وتآمروا عليه وقتلوه عام 1160 هجرية .

وعلى هذا .. فإن الجانب التجديدي في تفكير نادر شاه يراه الأستاذ عبد المتعال الصعيدي وغيره من المؤرخين في سعيه الجاد في نشر العلوم والمعارف الحديثة بين الإيرانيين ، وتدريب جيشه على النظم الحديثة ، والأهم من ذلك هو دأبه في التقريب بين أهل السنة وأهل الشيعة . وغير ذلك مما يجعله أقرب إلى فهم رسالة التجديد الإسلامي في القرن الثاني عشر ، وأن يكون في طليعة المتفقهين فيه ، خاصة في مسألة التقريب بين السنة والشيعة ومحاولاته في ذلك ، الأمر الذي يحفظه له التاريخ الإسلامي .



محمد بن عبد الوهاب

نحن على موعد مع أحد مجددي القرن الثاني عشر للهجرة ، مجدد أحدثت أفكاره ودعاويه - ولا تزال- دويا هائلا يمتد إلى أيامنا هذه . هذا المجدد هو : محمد ابن عبد الوهاب بن سليمان بن على . ولعلنا نسترشد في حديثنا عن هذا المجدد بما كتبه الأستاذ « عبد الله بن سعد الرويشد » وغيره من المؤرخين ، فنسجل بأن محمد ابن عبد الوهاب، من سلالة عربية خالصة ، يمتد نسبها إلى تميم ، ثم إلى نزار بن معد ابن عدنان ، وهو إمام الدعوة السلفية الحديثة ، والمجدد للعقيدة الإسلامية التي كان يراها هى السليمة .

ولد في بلدة (العيينة) بنجد ، قريبا من الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية (1115هـ: 1703م) ، في بيت توارث بنوه العلم والتقى كابرا عن كابر؛ فقد كان أبوه عبد الوهاب عالم بلدته وقاضيها ، وكذلك كان جده سليمان من قبله ؛ ولهذا نشأ الابن نشأة صالحة ، ثم أخذ يتلقى عن أبيه علوم الدين من تفسير وحديث وفقه، وعلوم اللغة من نحو وصرف وغيرهما ، وأكثر من القراءة والاطلاع على الكتب المتداولة بين الناس في ذلك العهد ، وكان ذكيا ألمعيا ، ينفذ بذهنه وعقله إلى ما وراء النصوص المدونة ، ويميز بين الحق منها والبهرج ، فلم يجد فيها قرأ ما يعادل كتب ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، فأعجب بها ومال إليها ، ورأى كثيرا مما نعاه ابن تيمية على أهل عصره من البدع والضلالات ، والمروق عن الدين ومظاهر الشرك ماثلا أمام عينيه ، في معتقدات قومه وأعمالهم ، لاسيما العامة منهم . فهو إذا من الذين تأثروا بمدرسة ابن تيمية ، وتخرجوا فيها على الرغم من طول العهد بينهما، حيث مضت بينهما خمسة قرون . ولقد كان لآراء ابن تيمية وابن القيم أكبر الأثر في توجيه ابن عبد الوهاب ، والتأثير على حياته .

وتطلع محمد بن عبد الوهاب إلى أفق أرحب ، فذهب إلى مكة المكرمة حاجا لله تعالى ، وملتمسا فيها من العلماء ، ما يشفي غلته ، ويروي ظمأه ، ويظهر أنه لم يظفر بما كان يتمناه ، فرحل إلى المدينة المنورة ، والتقى هناك بالشيخ «عبد الله بن إبراهيم ابن سيف» ، وهو عالم من أهالي نجد ، أقام بالمدينة ، فأخذ ابن عبد الوهاب عنه ، كما أخذ عن عالم مقيم آخر هو الشيخ «محمد بن حياة السندي» .

ولم تكن هذه النفس الطلعة لتقنع بما يعتقد الناس أن فيه كفاية وعناء ، بل لابد لها من أن تنشد الكمال ، وتسعى إليه ، وتستهين الصعاب ، وتركب الأهوال ، وتعتصم بالصبر ، وتطلب الحقيقة في مظانها الأول ، لعلها تظفر بشيء منها ، وهكذا كان شأن الشيخ ، فلم يجد بدا من الرحلة إلى بعض العواصم الإسلامية ، التي اشتهرت بكثرة العلماء ، وتوارثت البحث في مسائل الدين وعقائده ، فرحل إلى العراق ، ونزل ببلدة الزبير من أعمال البصرة ، وأخذ عن أحد فقهائها الشيخ «محمد المجموعي» ، ولكنه لم يقنع بالسماع والحفظ ، بل ما برح يناقش ويحاول ويفحص ويوازن بين ما يلقى إليه ، وما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فيجد فيما يقوله العلماء ميلا وانحرافا ، وخروجا على نصوص الدين وتعاليمه ، وساءه ما عليه الناس من خرافات وأباطيل ، فجاهر بآرائه هذه ، فأنكر ونقد كثيرا من بدع الناس وضلالاتهم ، وفساد عقائدهم ، فثار به فريق من جهال البصرة وآذوه ، وخرج منها في وقت الهجير خائفا يترقب ، بلا زاد ولا راحلة ، وما كان الله ليترك مجاهدا في سبيل دينه ، فقيض له رجلا اسمه «أبو حميدان» من أهل الزبير وهي بلدة عراقية أكثر سكانها نجديون فأعانه ، وحمله على دابته حتى بلغ به هذه البلدة ، وفكر ابن عبد الوهاب بعد ذلك في مواصلة الرحلة إلى بلاد الشام ، لعله يجد فيها خيرا مما لقي بالعراق ، ولكن الله أراد أن يريحه من سفر قد لا يحصل منه على فائدة تذكر ، ففقد ما كان معه من مال ، وقفل راجعا إلى بلاد نجد ، ونزل بالأحساء ، وأقام مدة لدى الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي الأحسائي من رجال الدين والعلم

بها ، وكان والد الإمام قد انتقل من العيينة إلى حريملاء بعد نزاع نشب بينه وبين حاكم قريته «محمد بن حمد بن معمر» أدى إلى عزله عن قضائها ، فرحل الإمام إلى أبيه ، وأقام معه في بلدته الجديدة .

أكب ابن عبد ا لوهاب، وهو طالب ، على كتب السنة ، ومسانيد الأئمة ، وعني بصحيحي الإمامين : البخاري ومسلم ، وبسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ومسند الشافعي وأحمد ، وموطأ مالك ، وبكتب شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، كما درس علوم السيرة واللغة والفقه الحنبلي ، وألم بثقافة عصره في جميع علوم الدين والعربية ، حتى صار مصدرا علميا واسعا في مختلف المعارف الإسلامية والعلوم الشرعية .

وبدأ ابن عبد الوهاب دعوته من حريملاء ولم تلق هناك نجاحا يذكر ، ولكنه لم ييأس ولم يقنط، وظل يدرس ويرشد ويقضي حتى مات والده عام 1153هـ – 1740م، وهنا أعلن دعوته . وجد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فتبعه بعض أهلها فأيدوه ، ولكنه كان بحريملاء قبيلة يتبعها جماعة من الجهال يعيشون في الأرض فسادا، ويجاهرون بالفسق والمعاصي ، فهتف الشيخ بهم ونادى بوجوب ردعهم ، وتنفيذ حكم الشرع فيهم ، فأضمروا له البغضاء ، وحاولوا الفتك به فحماه الله منهم وردهم على أعقابهم ، وهكذا لم يطب له المقام بحريملاء بعد هذا الحادث ، فانتقل إلى مسقط رأسه العيينة، وتلقاه أميرها «عثمان بن محمد بن معمر» بالترحيب، وعاونه في دعوته ، وتوثقت بينهما أواصر الثقة والمحبة ، خصوصا بعد أن أصهر الشيخ إلى أسرته ، وقد تبعه كثير من الأهالي ، ثم شرع في تنفيذ مبادئه عمليا ، فاستأجر أناسا ليقوموا بقطع الأشجار التي يعظمها العامة، ثم خرج بنفسه إلى أكبرها فقطعها، ولابد للشيخ أن يمضي في طريقه، بلا وجل ولا تردد، فاتجه بنفسه إلى قبر (زيد بن الخطاب) رضي الله عنه بقرية الجبيلة وأعد العدة لهدمه ، واستعان بالأمير عثمان لحمايته ، فاستجاب له ، ولكنه أبى أن يتولى الهدم هو أو أحد رجاله ، فتقدم الشيخ وهدمه

بنفسه حتى أتى عليه ، ومضى في سياسته العملية فأقام حد الزنا ، ونفذ أحكام الشريعة ومن ثم اشتهر أمره ، وعظمت هيبته ، وأقبل كثير من الناس على مبايعته، مؤيدين للدعوة السلفية ومعاهدين .

وبينما كانت الدعوة تشق طريقها إلى القلوب الصلدة فتصدعها ، وإلى العقول الضالة فتردعها ، فتروي عطشها ، وتجلو صدأ الجهالة الذي ران عليها ، نرى «محمد ابن عريعر الحميدي» حاكم الأحساء والقطيف ، ينذر الأمير عثمان بن معمر بالثورة عليه ، وقطع الخراج عنه إن لم يقتل الشيخ ، ويقضي على دعوته ، ويتخاذل عثمان ويأمر الشيخ بالخروج من بلده ، فغادر الشيخ العيينة متوجها إلى الدرعية .

نزل محمد بن عبد الوهاب بالدرعية عام 1158هـ في بيت رجل فاضل يسمى «محمد بن سويلم العريني» ، فآواه وأكرم وفادته ، ولكنه كتم أمره ، خوفا من بطش الأمير «محمد بن سعود» مؤسس الدولة السعودية الأول ورجاله ، ظنا منه أن الأمير يأبى تعريض بلاده لانقسام ديني وفتنة تعكر صفو الأمن فيها ، وأخذ الشيخ يبث دعوته سرا ، ثم لم يلبث أن جهر بها حين استطاع أعوان الشيخ - ومن أهمهم أخوا الأمير : مشاري وثنيان ، وزوجة الأمير موخي بنت أبي رطبان - أن يقنعوا الأمير بمناصرته وتأييده ، فأقبل عليه وبايعه على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله ، وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء ، ومن ثم تظاهر وتضافر الدين والسياسة ، ودخلت الحركة في طور جديد ، اشتد فيه ساعد ابن عبد الوهاب وتابعه أهل الدرعية ، وكانوا له أنصارا وأعوانا . وبدأ الشيخ يراسل ذوي الرأي في البلاد النجدية من قضاة وعلماء وأعيان ، فاستجاب بعضهم ، وصد عنه كثير منهم ، ورموه بالجهالة والمروق وغير ذلك من النقائص ، وأنذروا به ، وبدأوا يعدون العدة للفتك به وتمزيق حركته ، ولم يكن بد حينذاك من الجهاد وامتشاق الحسام ، فاندلعت الحرب في بلاد نجد ، واتخذت أدوارا عدة واستشهد فيها كثير من بينهم أبناء الأمير محمد ابن سعود : فيصل وسعود ، ثم توالت الحروب والغزوات ، وتألب الأعداء من كل

جانب إلى أن توفي الأمير ، وتولى ابنه من بعده ، وانتصر على كثير من خصومه ، واستولى على الرياض والقصيم والخرج ونعجان ، وغيرها من البلاد النجدية .

على أن هذه الحروب لم تظل في دائرتها الداخلية الضيقة ، فقد هجم العراقيون وأهل الحجاز على بلاد نجد بتحريض من الأتراك العثمانيين . وكل يدعي الحفاظ على الدين والغيرة على تعاليمه ، فتبلبلت أفكار المسلمين في سائر البلاد ، وقذفت السياسة في هذا الصراع بسيل من الدعاية المغرضة ، وخيل للناس أن ابن عبد الوهاب متنبئ جديد ، يحاول القضاء على الإسلام والتخلص منه ، واستطاعت بذلك أن تؤلب المسلمين عليه في كل مكان ، وتوفي الشيخ رحمه الله في إبان هذه المعارك سنة 1206 هـ 1792 م وله من العمر اثنان وتسعون عاما ، ولما يشهد نهاية هذا الكفاح الخالد ، لكنه رأى مبادئه الإصلاحية ودعوته الإسلامية السلفية تشق طريقها وتسود في جزيرة العرب ، بفضل تأييد آل سعود ، الذين أصبحوا خلفاءه في نشر دعوته إلى يومنا هذا ، والذين بنوا ملكهم على أساس هذه الدعوة السلفية الخالدة . والحقيقة التي تكمن وراء الصراع بين الحق والباطل أن الأتراك الذين اتخذوا من الدين تجارة ، ومن الخلافة الزائفة وسيلة للسيطرة على البلاد الإسلامية قد فزعوا لقيام زعامة دينية ، وقوة وطنية في بلاد نجد قد يكون من ورائها ظهور وعي جديد يزيل الغشاوة عن العيون ويبعث المسلمين إلى انتفاضة قوية تزلزل أركان الحكم التركي الغاشم للشعوب المغلوبة على أمرها ، وينمي بذور الحرية في الأوطان العربية ، ويحيي النزعة الاستقلالية في نفوس أبنائها ، فتنهار تلك الدولة ، ويقضى على نفوذها وسيطرتها ، ومن ثم أخذوا يحشدون القوى ، ويرسلون ولاتهم وعملاءهم لمحاربة النجديين ، والقضاء على حركتهم، ومن ذلك: الحرب التي شنها محمد علي والي مصر على هذه البلاد ، وإذا كانت هذه الحروب قد نالت من النجديين وأثقلت كواهلهم حينا من الدهر، فإنها كانت الصقال الذي شحذ عزائمهم، وحرك هممهم ، وأثار حماستهم للدفاع عن عقيدتهم ، وعن حوزة بلادهم

ونصرة مبادئهم ، وكان لهم الغلبة في آخر المطاف . والسر في نجاح النجديين في حركتهم هذه يرجع إلى قوة الإيمان التي بثها محمد بن عبد الوهاب فيهم، والصمود في سبيل الدعوة ، والاستبسال في الجهاد ، وتعبئة قوى الشعب ، وتعليمه فنون الحرب إلى جانب تعاليم الشريعة ؛ فلقد كان بمنزل الشيخ مدرسة تسمى : وكر التوحيد ، تلقن فيها علوم الدين طرفي النهار ، وفنون الحرب في أوسطه .

قضى الشيخ طوال حياته واعظا مرشدا ، مبينا لأحكام الدين ، حاضا أتباعه ، والعزوف عما ينافي التوحيد من ضلال وبدع وشرك، ومحرضا على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وقد حفظ بعض أحفاده كثيرا من خطبه ، ولقد كان في خطبه يميل إلى مخاطبة قومه باللغة التي يفهمونها ، وكان همه منصرفا إلى المعاني لا إلى العبارات والتأنق في الأساليب ، ولو فعل لأضاع كثيرا من جهده سدى ، فما كانت البيئة النجدية في زمنه تتقبل غير الطريق الذي سار عليه .

ولئن لقيت الدعوة في ابتداء أمرها بعض مقاومة من أعدائها وخصومها الذين تجمعوا لقتالها ، وائتمروا بها ، وفي مقدمتهم الترك ، ومحمد علي باشا ، وبعض شيوخ الجمود الذين حاولوا صدها عن سبيلها ، ومنع الناس من الدخول فيها بما نشروه من أضاليل وأذاعوه من أباطيل ، فإن المنصفين من علماء الشرق والغرب قد أنصفوا الدعوة وصاحبها ، ووفوها حقها من التعظيم والتبجيل ، بعد أن درسوها حق دراستها ، وغاصوا إلى أعماقها ، وأحاطوا بما أنتجته من نتائج عظيمة ، وما أثمرته من ثمار طيبة للإسلام والعرب ؛ ولم يكتف بعضهم بجمل عابرة ، بل حبر في وصفها الفصول الطوال ، ويمكن القول دون تردد أن تقدير الناس لها وإعجابهم بسمو مقاصدها يزداد كلما ازدادوا دراسة لها ، وإحاطة بسيرة مؤسسها باعتبارها أعظم حركة إصلاح ديني واجتماعي ظهرت في الشرق العربي في العصر الحديث ، وهناك ناحية أخرى نرى أن نسجلها في هذه المناسبة وهي: أن معظم العلماء الغربيين المستشرقين الذين كتبوا كثيرا عنها أسهبوا وأطالوا في وصف نتائجها ، لا فرق في

ذلك بين العلماء الإنكليز أو الألمان أو الأمريكان من الباحثين في شئون الشرق والإسلام إلا أنهم اتفقوا في وصفها بأنها حركة البعث الإسلامي ، وطلعة هذه النهضة الكبرى التي تنير آفاق الشرق العربي والإسلامي ، ولما كان كل ما كتبوه ودونوه عن الدعوة وعظمتها يحتاج إلى مجلدات ، فقد اكتفيت بإثبات قسم منه للدلالة على الكل ، وقد بدأت بتسجيل أقوال علماء الشرق الإسلامي أتبعته بأقوال علماء الغرب عملا بالقول المأثور : «ما لا يدرك كله لا يترك كله» .

ويرصد «الأستاذ الرويشد» بعض الآراء قائلا : وهناك أصوات منصفة من مصر المسلمة تؤيد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب يتقدمها رأي الشيخ الإمام محمد عبده .

فيقول الشيخ «حافظ وهبه» في كتابه (خمسون عاما في جزيرة العرب) وهو يتحدث عن طلبة العلم في الأزهر : إنه سمع الشيخ الإمام محمد عبده مفتي مصر يثنى في دروسه بالأزهر على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويلقبه بالمصلح العربي ، ويلقى تبعة وقف دعوته الإصلاحية على الأتراك ، وعلى محمد على الألباني لجهلهم ومسايرتهم لعلماء عصره ممن ساروا على سن من سبقهم من مؤيدي البدع والخرافات ومجافاة حقائق الإسلام .

كذلك رأى تلميذ الشيخ الإمام ومؤرخه السيد «محمد رشيد رضا» مسجلا ذلك فيما كتب حيث قال في التعريف بكتاب «صيانة الإنسان» بعد أن أنكر نشر البدع، بسبب ضعف العلم والعمل بالكتاب والسنة ، ونصر الحكام لأهلها ، وتأييدهم العميق لها، قال رحمه الله ما نصه: «الشيخ محمد بن عبد الوهاب- النجدي- من هؤلاء العدول المجددين ، قام يدعو إلى تجريد التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده بما شرعه في كتابه وعلى لسان رسوله خاتم النبيين - ﷺ - ، وترك البدع والمعاصي ، وإقامة شعائر الإسلام ، وتعظيم حرماته المنتهكة . فنهضت لمناهضته واضطهاده القوى الثلاث : قوة الدولة والحكام ، وقوة أنصارها من علماء النفاق ، وقوة عوام الطغاة ، وكان أقوى سلاحهم في الرد عليه أنه خالف جمهور المسلمين» .

ورأى الدكتور طه حسين : قال : إن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثاني عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطرته أن يهتم بأمرها ، وأحدثت فيها آثارا خطيرة هان شأنها بعض الشيء ، ولكنها عادت فاشتدت في هذه الأيام ، وأخذت تؤثر لا في الجزيرة وحدها ، بل في علاقاتها بالأمم الأوروبية ، هذه الحركة التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد ... ثم ذكر نزرا يسيرا عن نشأة الشيخ ورحلاته العلمية ودعوته إلى أن قال : قلت : إن هذه الدعوة الجديدة قديمة معنى ، والواقع أنها جديدة بالنسبة إلى المعاصرين ، ولكنها قديمة في حقيقة الأمر ؛ لأنها ليست إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من شوائب الشرك والوثنية ، نعم هي الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبي محمد - ﷺ - خالصا لله ، ملغيا كل واسط بين الله وبين الناس ، هي إحياء للإسلام العربي ، وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب ، فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية في العقيدة والسيرة ، إلى أن قال : ولولا أن الترك وبعض الجهلاء اجتمعوا على حرب هذه الدعوة وحاربوها في دارها بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو جدا أن توحد هذه الدعوة العرب في القرن الثاني عشر والثالث عشر الهجري، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول الهجري على يد رسول الله - ﷺ - .

كذلك تناول الأستاذ «عباس محمود العقاد» في كتابه (الإسلام في القرن العشرين) حركة الإصلاح ، وقال ما نصه : وظاهر من سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه لقي في دعوته عنتا ، فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع ، والتماس المصالح بغير أسبابها ،

وإتيان المسالك من غير أبوابها ، وقد أغبر على البادية زمن كانوا يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ، ويدعون توسلا بأباطيل السحرة والدجالين في الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنها صرفتهم عن البدع والخرافات والأباطيل والشعوذة ، وقال أيضا – وهو يتكلم عن كتاب التوحيد تأليف الإمام – ما يلي : إن الكتاب الذي تضمن دعوة الشيخ ، وفيه يحصي الشيخ الذنوب التي تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأولياء، ومن الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك: اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية ، والتبرك بالشجر والحجر والذبح لغير الله ، والنذر لغير الله ، والاستعانة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو في عبادة الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التي تحرم الاستسقاء بالأنواء ، وأنكر على الصوفية تأويلاتهم وخوارقهم ، وكان الشيخ ينكر الغلو ، ويستشهد بقول الرسول – ﷺ – «**إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» . وقوله عليه الصلاة والسلام : « **ألا هلك المتنطعون** »(1) .

وكذلك كانت هناك أصوات من الشام تؤيد هذه الدعوة والداعية وتباركها ، حيث انتهت المشيخة العليا في بلاد الشام في أوائل هذا القرن إلى الشيوخ الأجلاء : الشيخ جمال الدين القاسمي، والشيخ عبد الرازق البيطار ، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ محمد كامل القصاب، الذين درسوا حركة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأعجبوا بها وقدروها قدرها ، ورأوا أنها على حق وصواب ، فنشروها في المجتمع الشامي ، وبذروا بذورها ، فأثمرت أطيب الثمار ، وأنتجت أبرك النتائج ، والمتفق

(1) مسلم : علم 7 .

عليه بين الباحثين في تاريخ الحركة التجديدية التي سبقت بها سورية الأقطار العربية أنها نفحة من نفحات دعوة ابن عبد الوهاب الوطنية ، وثمرة من ثمارها : عنها انبثقت ومن رياضها نفذت، وحاكمت الحركة التركية زعيم الحركة وعميدها الشيخ جمال الدين القاسمي وأحالته إلى القضاء بتهمة العمل على نشر دعوة ابن عبد الوهاب وذلك عام 1324هـ 1908م فبرأه القضاء ، وألف بعض علماء الشام الكتب في تأييدها ، وعملوا على نشرها وإذاعتها بشتى الوسائل التي كانت معروفة في القرن الماضي مما ساعد في نمو النهضة الجديدة ونجاحها .

وإلى جانب هذه الآراء العربية .. كانت هناك آراء أجنبية تلقي الضوء على الحركة الوهابية وصاحبها محمد بن عبد الوهاب ؛ مما جعل لهذا المجدد صدى في الداخل والخارج على الرغم من أن هناك الذين أبدوا ملاحظات عليها .



الزبيـــدي

الزبيدي صاحب (تاج العروس) واسمه «محمد مرتضى الزبيدي» ، الذي ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ، يعتبر من مجددي الإسلام في القرن الثاني عشر الهجري ، ولد بالهند ، ونشأ وتربى وشب حتى العشرين من عمره في مدينة زبيد التى إليها ينتسب ، هذه المدينة التى كانت من أهم وأكبر مدن تهامة باليمن حيث كان يوجد فيها أهم مراكز العلم والتجارة . ليغادرها إلى القاهرة التى بقى فيها حتى وفاته عام 1205هـ ؛ حيث كتب بها كل مؤلفاته وفي مقدمتها : (تاج العروس) .

هذا المجدد كان واحدا من خمسة أخذوا على عاتقهم مهمة بعث اليقظة الإسلامية في العصر الحديث وهم : عبد القادر البغدادي صاحب (موسوعة خزانة الأدب) ، والجبرتي الكبير والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ، ومحمد بن عبد الوهاب بالجزيرة العربية ، والشوكاني ، وخامسهم الزبيدي الذي كان من نصيبه بعث التراث اللغوي ، والدينى ، وعلوم العربية والإسلام ، والذي حرص على إحياء ما كان خافيا على الناس في مؤلفاته ، أو في لقاءاته ومجالسه مع معاصريه .

كانت الرغبة الصادقة المخلصة لهؤلاء الخمسة أن يدخلوا الأمة الإسلامية في عصر النهضة بعد طوال سبات وغفلة عن إرث أسلافهم من العرب والمسلمين العظام . خاصة في الفترة ما بين منتصفى القرنين الهجريين : الحادي عشر والثاني عشر، ويقابلهما في التاريخ الميلادي الفترة ما بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن التاسع عشر ؛ حيث قام كل واحد منهم بنصيب ، فدوت أسماؤهم في أرجاء العالم الإسلامي مؤذنة بيقظة جديدة ، قوامها: إحياء علم الأمة ولغتها وثقافتها ،

واستعادة سيطرة الأمة على أسباب حضارتها الإسلامية القديمة ، والإرادة في بعثها بعثا جديدا دون شعور أو إدراك أو علم مستبين بالذي كان يجري خارج الأمة الإسلامية من يقظة ونهضة أوروبية ، تتكئ اتكاء شديدا على ما كان في الإسلام من العلم المسطور في بطون الكتب ، أو على العلم الحى في صدور العلماء ، والذي كان رجال الاستشراق والتبشير يتلقفونه من أحاديث هؤلاء العلماء المسلمين «ولقد نجم عن ذلك يقظتان متقابلتان ، إحداهما عربية إسلامية ، والأخرى أوروبية مسيحية ، كان الفرق بينهما أن اليقظة العربية الإسلامية التى كان هؤلاء الخمسة يعملون من أجلها كانت يقظة هادئة سليمة الطوية ، منبعثة من داخل الأمة الإسلامية ، وليس لها هدف إلا استعادة شباب هذه الأمة ونضرتها في حدود الإسلام .. بينما كانت اليقظة الأوروبية المسيحية متفجرة بحقد قديم ومكظوم ، مصدره في عقدتهم المتجسدة في انتصار المسلمين عليهم في الحرب الصليبية إلى جانب فتح القسطنطينية والاستيلاء على الأندلس فكانت هذه اليقظة الأوروبية شيمتها السطو والسرقة ، وهدفها الغدر والعدوان ، وأسلوبها الحيلة والمكر ، لإعداد العدة لاختراق دار الإسلام ، بالدهاء والخداع .. وهكذا كما ترى- عزيزي القارئ- هما يقظتان كانتا في زمن واحد : إحداهما طبيعتها الرفق والنبل ، والأخرى طبيعتها الغدر والعدوان.

ومن هنا .. كانت قيمة وأهمية الزبيدي كواحد من هؤلاء الخمسة الذين تحملوا عبء هذه اليقظة الوليدة التي لو كانت قد استمرت دون تدخل من اليقظة الأخرى فيما عرف بالاستعمار لكان لها شأن آخر ، ولكانت قد أنقذت الأقطار العربية والإسلامية من استعمار واحتلال بقي جاثما على الصدور عشرات السنين . أقول هنا: تبرز قيمة وأهمية هذا المجدد ومسئوليته مع رفاقه الخمسة عن قيام هذه اليقظة الإسلامية الوليدة وجهده حين قام بتأليف مائة كتاب وسبعة كتب غير مجلدات (تاج العروس) ، وبالنظر إلى نوعيات هذه الكتب نجد منها المعاجم اللغوية

والرسائل الأدبية والشروح على التحقيقات والحكم والعقائد ، وكلها تدور حول اللغة العربية وآدابها ، إلى جانب الثقافة الإسلامية .

هل نحن في حاجة إلى مزيد عن هذا المجدد ، والكتاب الذي عرف به في التاريخ الثقافي للإسلام وهو (تاج العروس من جواهر القاموس) ربما نتبين شيئا من ذلك في واحدة من المقالات التي كتبتها بالأهرام منذ فترة تحت عنوان: «تاج العروس والاهتمام بتراث الأجداد» كصدى لما أحدثه هذا الكتاب الضخم من أثر في نفس واحد من أحفاده المعاصرين- كاتب هذه الصفحات - وهذا هو نص المقال:

« رحلة ممتعة طولها أيام وليال قضيتها مع ما يقرب من الثلاثين مجلدا من القطع الكبير تحمل عنوانا واحدا هو «تاج العروس من جواهر القاموس» لكاتبه محمد مرتضى الحسيني الزبيدي اليمني ، في طبعته الثالثة التي ينهض المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت بنشره وإصداره بعد أن قام بتحقيقه والتعليق عليه من لفيف من صفوة علماء اللغة والأدب ، وتحقيق التراث بمصر في مقدمتهم الأساتذة والدكاترة : «عبد الستار أحمد فراج ، وعبد الكريم العزباوي ، وعبد العليم الطحاوي، ومصطفى حجازي ، وحسين نصار ، وعبد السلام هارون، وعبد العزيز مطر ، وإبراهيم الترزي ، وعبد الفتاح الحلو ، ومحمود الطناحي » ... وغيرهم ممن ضبطوا صفحاته وراجعوها ؛ لتكون على النحو الذي هي عليه الآن .

والحق .. أعترف الآن بفضل من نبهني إلى قيمة هذا الكتاب وهو الصديق الدكتور «سليمان العسكري» رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية ، حيث كان حديثه عنه هو أشبه بحديث من طب لمن حب أمرا جعلني كدت أن أغامر - وما أكثر المغامرات غير المحسوبة في شراء الكتب - فأهم بشرائه من معرض الكتاب الدولي بالكويت. غير عابئ بما ينتج عن ذلك من نتائج غير طيبة أولها ما أتكبده من مال قيمة لسعره ، وثانيها ما تقرره الجمارك من رسوم حيث يتضاعف وزنه ، عما هو مسموح به لي في السفر ، فضلا عن احتمال اعتقاد أحدهم بعد اكتشاف عبقري بأن

الزبيدي رحمه الله واحد من الممنوعين من دخول مصر ، وأنه يجب التحصن ضد ثقافته .. وتعقلت وتريثت وانتظرت حتى تأتي فرصة أخرى .

وكان معرض القاهرة الدولي للكتاب ، وكانت الفرصة حيث شدني «تاج العروس» شدا لم أستطع مقاومته ، وناغمت مادته الجميلة الغزيرة كل ما لدي من حواس ومشاعر ، فلم أجد مناصا ولا معدلا من اقتناء هذا السفر الضخم مهما كان ترددي الناتج عن المفاضلة بينه وبين عشرات الكتب الأخرى التي يمكن اقتناؤها بما يعادل خمس قيمته .

وأحوز «تاج العروس» وكأني أحوز ثروة هائلة ، وهل هناك ثروة أعز وأكرم بالنسبة لي من حيازة كتاب يتضمن ثقافة جادة وذخيرة من المعارف ؟! هل هناك أفضل من الاهتمام بهذا التراث الضخم الذي آل إلينا من أجدادنا صانعي الثقافة العربية الإسلامية؟! وهل هناك ما يمكن أن أقف أمامه وقفة الإكبار والإجلال رافعا رأسي في اعتزاز وكبرياء أفضل من هذا المجد الحضاري الذي لا يبلى للأجداد ؟!

وأخلو إلى «تاج العروس» وتخلو مجلداته وصفحاته إلي ، وأنصرف عما حولي ولا أشعر إلا بما يشبه هاتفا يقول : سحقا لهؤلاء الذين ينبذون تراث أجدادهم ، سحقا للذين يريدون هدم هذا الصرح العظيم بتهاونهم فيه ، سحقا للذين يبددونه يمينا ويسارا ليلتقطه غيرنا ويستفيد منه من الأجانب ، سحقا لمن هو أسوأ خلفا لأعظم سلف !!

وها هو تاج العروس وما يتضمنه من مادة غزيرة ، لأصدق شاهد وأكبر دليل على ما أجمع عليه المختصون في دراسة اللغات من أن لغتنا العربية تتمتع بعدة مقومات تؤهلها للبقاء والاستمرار في أداء مهمتها ، فهي تمتاز بالغزارة والغنى ، بالقوة والشموخ ، بالصلابة والمرونة ، بالثبات والتغير ، بالتطور والتقدم ، بمواجهة صروف الدهر وأعداء الحياة ، هي باختصار : تتمتع دون غيرها من لغات الدنيا بحيوية دائمة رغم تاريخها الطويل .

أقول : أخلو إلى تاج العروس ، وتخلو مادته إلي ، وأول ما تمتد إليه حواسي هي هذه التقدمة الضافية في المجلد الأول ، تلك التي كتبها المحقق الكبير الأستاذ «عبد الستار أحمد فراج» والتي يصدرها بقوله : إن تاج العروس الذي تنشره دولة الكويت من أعظم كتب التراث العربي ، وأهمها شأنا وأبقاها أثرا محمودا ، وإن صاحبه الزبيدي قد أخلص فيه كل الإخلاص ، واجتهد كل الاجتهاد ، وأحسن غاية الإحسان.

وأعلق على قول هذا المحقق الكبير ، بعد الوقوف على مادة هذا الكتاب : لقد أجملت فأحسنت ؛ فما أجده بين يدي الآن يعد بحق : ذخيرة ثقافية يناسبها هذا القول وأكثر منه . ولا عجب .. فما أوردته هذه التقدمة أو ما سجله الزبيدي نفسه في فاتحة كتابه من رصد للمراجع والمصادر العربية والإسلامية التي رجع إليها والتي تعد بالمئات وتشغل صفحات طوالا ، مما يؤكد بصورة أو بأخرى ثراء لغتنا العربية وجدية وإخلاص أبنائها .

والسؤال الآن : ما الذي دعا الزبيدي إلى تأليف هذا الكتاب الذي يتضمن هذا العدد الكبير من المجلدات ، وينفق في تأليفه وكتابته أكثر من أربعة عشر عاما أو يزيد ؛ ليسلم مسوداته بعد ذلك إلى تلاميذه ؛ حتى يقوموا بمراجعتها وتبييضها على نحو ظهر عليه في القرن الثاني عشر الهجري ، ثم ليقوم أحفاده من مصر والكويت بتحقيقه ونشره منذ أكثر من قرنين ؟

إن لذلك قصة خلاصتها : أنه عندما انتهى مطاف الفيروزآبادي صاحب القاموس المحيط ، إلى زبيد باليمن ليعيش فيها ، وبموت صاحبه في القرن التاسع الهجري زاد الاهتمام بقاموسه ، وكثر ناقلوه وذاع صيت صاحبه الفيروزآبادي ، كما كثر قراؤه ، ومع كل ذلك زادت الحاجة إلى شرح مادة هذا القاموس حتى جاء الزبيدي أحد أبناء زبيد باليمن في القرن الثاني عشر ، وكان وقتها لم يتجاوز العشرين من العمر فبدأت فكرة شرح قاموس الفيروزآبادي تلح عليه وتشغله حتى إذا جاء

إلى مصر عام 1167هـ ليستغرق في تأليفه سبع سنوات ، ولتتوالى بعد ذلك أجزاؤه التي أتمها في أكثر من سبع سنوات أخرى لينتهي تماما من وضع كتاب (تاج العروس من جواهر القاموس) عام 1188هـ وهكذا بدأ الزبيدي وانتهى من تأليف كتابه بمصر ، ويوم أن تم له ذلك أقام احتفالا كبيرا دعا إليه كبار علماء مصر وشيوخها كما يسجل تلميذه «عبد الرحمن الجبرتي» في تاريخه لأستاذه .

والحق .. أن هذه الطبعة الثالثة التي بين أيدينا الآن من تاج العروس قد تطلبت الكثير من الجهد والعناء من محققيها ؛ بسبب البحث العلمي الدقيق للتعرف بما للزبيدي في شرحه وما للفيروزآبادي في قاموسه ، ففي النسخة الأصلية التي كانت بخط الزبيدي كان يضع فوق كلمات القاموس خطا يميزها عما يقوم به هو من شرح، معتمدا على أمهات المصادر العربية والإسلامية ، ولما بدأ تلاميذه تبييض ما كتبه أستاذهم الزبيدي بخطه ، جعلوا كلمات القاموس باللون الأحمر ، وشرح الزبيدي باللون الأسود ، وحين طبع تاج العروس رأى طابعوه أن تكون كلمات صاحب القاموس بين قوسين وشرح الزبيدي مطلقا بغير أقواس ، وهنا كانت الصعوبة التي واجهها المحققون لتاج العروس في طبعته الثالثة ، في حين أنه حين طبع الطبعة الثانية زالت بعض هذه الأقواس التي تفصل بين كلام القاموس وشرحه ، واختلط هذا بذلك في كثير من الصفحات . وأصبح من الصعب معرفة ما للفيروزآبادي وما للزبيدي ، وهذا يتطلب جهدا في الفحص ، يضاف إليه مراجعة المصادر التي رجع إليها كل من الفيروزآبادي والزبيدي .

وهذه السطور لا تزعم لنفسها بأنها أعطت مجلدات تاج العروس حقها من النقد والتقييم ، وكيف يمكن تحقيق ذلك لمادة غطت أكثر من الخمسة عشر ألف صفحة من القطع الكبير ؟! .. وحسبنا أيضا أن ننوه بقيمة تحقيق مثل هذه الأعمال الجادة في ثقافتنا العربية .

* * *

ختـــام

وبعد .. ففي هذه اللحظات التي أطوي فيها صفحات الجزء الثاني من هذه الموسوعة ، والذي يمتد زمنيا لستة قرون هجرية ، تبدأ من القرن السادس الهجري حتى القرن الثاني عشر ، متضمنا عددا كبيرا من الأئمة والمفكرين والعلماء والفقهاء يمثلون كل جوانب الفكر والعلم والفقه والأدب واللغة .. أقول في الوقت الذي أطوي فيه صفحات هذا الجزء الثاني ، وأضع اللمسات النهائية ، وأجمع مجلدات وكتب ودوريات ومجلدات وقصاصات ، والتي إليها يرجع الفضل كله في إتمام هذا الجزء الثاني ، بل وما سبقه في الجزء الأول .. أحس أنني أودع أئمة وشيوخا وأساتذة لي وللملايين المسلمين غيري ، أسهموا بدم القلب ووهج الفكر ، وصلابة الفولاذ .. في تقديم الإجابات التي ترد على تساؤلات المسلم ، تلك التي تنشأ مع تطور الحياة وتغيرها في زمانهم .

ومع أنني أدرك الآن أنني أودعهم ، إلا أنني لا أشك لحظة في أنني قد اقتربت من فكرهم ، وعشت معهم ولهم أياما وليالي ، بل شهورا وسنوات ، فاستفدت منهم، وكم كانت صحبتهم عظيمة ومباركة ، ضاعفت من تعلقي بهم وحبي لهم . لذلك .. أجد نفسي – أحيانا – أناجيهم واحدا واحدا ، وكأني أراهم وأسمعهم ، فأدير معهم حوارا تطل منه الكثير من القضايا ، التي تشغل فكرنا الإسلامي في حياتنا المعاصرة ، كما شغلت الأجداد في الحياة الماضية .

وهذه الصفحات التي بين يدي القارئ الآن ، والتي أنفقت من أجلها الأيام والليالي .. الشهور والسنوات ، أرجو أن تكون عملا صالحا يفيد الإنسان المسلم .

وإذا ما شاب هذا العمل بعض القصور ، الناشئ من بعض الغفلة أو النسيان، فأرجو أن أتبين ذلك فيما بعد ، حتى يتم استدراكه ، وحتى يخرج العمل الخاص بأعلام التجديد في الإسلام بالصورة اللائقة التي نتمناها جميعا .. ذلك ؛ لأنني أعتبر هذا الجزء الثاني من هذه الموسوعة ، وقبله : الجزء الأول مناسبة للحوار بين القارئ وصاحب هذه السطور . آملا في الوصول إلى الصيغة المناسبة أو النغمة الصحيحة التي نودها ونرجوها لموضوع التجديد في الإسلام .. على اعتبار أن هذا الموضوع في أساسه ومعناه ، هو أرقى وأسمى حركات التفكير الإسلامية .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر 2008

المراجـــع

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية
- الإصابة في تمييز الصحابة — لابن حجر
- السيرة النبوية — لابن هشام
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب — للسخاوي
- بدائع الزهور في وقائع الدهور — لابن إياس
- الممالك والمسالك — لابن حوقل
- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة — لابن تغري بردي
- تاريخ الرسل والملوك — لابن جرير الطبري
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة — لابن حجر
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة — لابن الزيات
- الطبقات — لابن سعد
- فتوح مصر وأخبارها — لابن عبد الحكم
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب — لابن العماد
- العقد الفريد — لابن عبد البر
- تاريخ المسلمين — لابن العميد
- عيون الأخبار — لابن قتيبة
- البداية والنهاية — لابن كثير
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار — لابن فضل الله العمري

- الأغاني	للأصفهاني
- السنن الكبرى	للبيهقي
- إغاثة الأمة بكشف الغمة	للمقريزي
- الخطط والآثار	للمقريزي
- السلوك لمعرفة دول الملوك	للشعراني
- الطبقات الكبرى	للشعراني
- الطبقات الصغرى	للشعراني
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية	للمناوي
- مروج الذهب	للمسعودي
- مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع	لياقوت الحموي
- البلدان	لليعقوبي
- رسائل بين الإمامين: مالك والليث بن سعد	لأحمد كمال أبو المجد
- أبو الحسن الأشعري	دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- تاريخ الخلفاء	لجلال الدين السيوطي
- حسن المحاضرة	لجلال الدين السيوطي
- الشفاء	لابن سينا
- القانون	لابن سينا
- الكتاب الذهبي .. إعداد جامعة الدول العربية عام 1952	عن ابن سينا
- المنقذ من الضلال	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
- تهافت الفلاسفة	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
- تهافت التهافت	لابن رشد

– فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال	لابن رشد
– طوق الحمامة	لابن حزم
– نزهة المشتاق	للشريف الإدريسي
– الموسوعة الجغرافية	للشريف الإدريسي
– روض الأنس ونزهة النفس	للشريف الإدريسي
– الفتوحات المكية	لمحيي الدين بن عربي
– نصوص الحكم	لمحيي الدين بن عربي
– المقدمة	لعبد الرحمن بن خلدون
– العبر وديوان المبتدأ والخبر	لعبد الرحمن بن خلدون
– صبح الأعشى	للقلقشندي
– الإنصاف في بيان أسباب الخلاف	للدهلري
– الرسائل	للدهلري
– شرح أبواب صحيح البخاري	للدهلري
– التفهمات الإلهية	للدهلري
– القول الجميل في بيان سواء السبيل	للدهلري
– السيل الجرار على حدائق الأزهار	للشوكاني
– القول المفيد في حكم التقليد	للشوكاني
– المسند	أحمد بن حنبل
– المأمون : عالم من العلماء وأديب مع الأدباء	لجمال الدين سرور
– الفهرست	لابن النديم
– ابن سينا فيلسوف لا ينسى	لجور وانو
– مؤلفات ابن تيمية	

– مشكاة الأنوار	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
– الكشف في مناهج الأدلة في عقائد الملة	لابن رشد
– الفصل في الملل والأهواء والنحل	لابن حزم
– الأخلاق والسير في مداواة النفوس	لابن حزم
– مناجاة	لمحيي الدين بن عربي
– المدينة الفاضلة	لأبي نصر الفارابي
– تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن	للقرطبي
– وفيات الأعيان	لابن خلكان
– الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني
– الهند	للبيروني
– الصيادلة	للبيروني
– لسان العرب	لابن منظور
– نهاية الأرب	للوطواط
– الموطأ	للإمام مالك
– الأم	للإمام الشافعي
– إسلاميات الدكتور محمد حسين هيكل	لسامح كريم
– شرح موطأ مالك	للشيباني
– رحلات ابن بطوطة	تحقيق الدكتور عبد الهادي الغازي
– الموافقات	للشاطبي الغرناطي
– الاعتصام	للشاطبي الغرناطي
– إسلاميات طه حسين	لسامح كريم
– إسلاميات العقاد	لسامح كريم

- إسلاميات أحمد أمين — لسامح كريم
- محمد الرسول البشر — لتوفيق الحكيم
- المجددون في الإسلام — لعبد المتعال الصعيدي
- فلاسفة الإسلام — للدكتور . سعد عبد العزيز
- المؤلفات الإسلامية — لعبد الرحمن الشرقاوي
- محمد رسول الله والذين معه — لعبد الحميد جودة السحار
- حوار لا مواجهة — للدكتور . أحمد كمال أبو المجد
- فلاسفة العرب — للدكتور . محمد لطفي جمعة
- قادة الفكر الإسلامي — للدكتور . راشد البراوي
- الفلسفة الإسلامية — للدكتور . عبد الرحمن بدوي
- الفلسفة المسيحية — للدكتور . عبد الرحمن بدوي
- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي — للدكتور . عبد الرحمن بدوي
- إسلاميات توفيق الحكيم — إعداد الدكتور عبد الرحمن بدوي
  لسامح كريم
- الكافية في النحو — لابن الحاجب
- الإمام عبد الحليم محمود — لمحمد شلبي
- ثلاثة حكماء مسلمين — للدكتور . سيد حسين نصر
- مفكرو الإسلام — لكارادوفو
- أعلام الإسكندرية — للدكتور . جمال الدين الشيال
- السحار والفكر الإسلامي — لمأمون غريب
- جمال الدين الأفغاني — لعبد الرحمن الرافعي
- عبقري الإصلاح والتعليم : محمد عبده — لعباس محمود العقاد

- أم القرى لعبد الرحمن الكواكبي
- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي
- الأعمال الكاملة للكواكبي تحقيق د. محمد عمارة
- الرحالة ك لعباس محمود العقاد
- الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي
- الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق
- أيام لها تاريخ لأحمد بهاء الدين
- الإسلام والخلافة في العصر الحديث للدكتور . محمد ضياء الدين الريس
- من هنا نبدأ لخالد محمد خالد
- رجال حول الرسول لخالد محمد خالد
- أفكار في القمة لخالد محمد خالد
- حديث رمضان للإمام مصطفى المراغي
- محاضرات في الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق
- الفكر الإسلامي للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
- الفلسفة الإسلامية للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
- الإسلام في شبه القارة الهندية للدكتور عبد المنعم النمر
- مالك بن أنس لأمين الخولي
- المجددون في الإسلام (فى أربعة قرون) لأمين الخولي
- تقديم كتاب : ذو القرنين لأبي الكلام آزاد لأحمد حسن الباقوري
- أبو الكلام آزاد للدكتور . عبد المنعم النمر
- كتابات العبادي التاريخية للدكتور جمال الدين الشيال
- ابن بطوطة للدكتور . محمد مصطفى زيادة

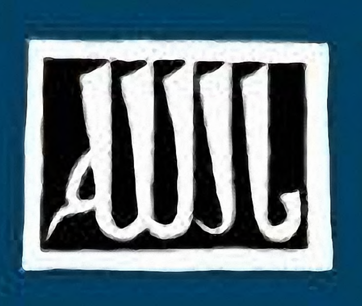
- معاني القرآن بين الرواية والدراية لأحمد حسن الباقوري
- قطوف من أدب النبوة لأحمد حسن الباقوري
- من أعلام العصر كيف عرفت هؤلاء ؟ للدكتور . محمد رجب البيومي
- مواقف الغزالي من قضية تخلف المسلمين للباحث إبراهيم طلبة حسين
- الخصائص الفنية لمقالات الشيخ الغزالي للباحث خالد كمال
- الشيخ الغزالي : شاهد على العصر للباحث الدكتور محمد مورو
- من هنا نعلم للشيخ محمد الغزالي
- أعمال ومواقف الغزالي دراسة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
- أجزاء معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي
- مصريون معاصرون للدكتور محمد الجوادي
- الشعراوي مفكرا لمحمود مهدي
- عمر بن عبد العزيز دراسة للدكتور وليد قمحاوي
- الخطط التوفيقية لعلي مبارك
- أدب مصر الفاطمية للدكتور . محمد كامل حسين
- الطرق الصوفية في مصر للدكتور . عامر النجار
- الحركة الصوفية في الإسلام للدكتور . محمد علي أبو ريان
- الأعلام للزركلي
- عظماء الإسلام لحسن النشار
- محمد عبده للدكتور . عثمان أمين
- الفلسفة الأخلاقية في القرآن للدكتور . محمد عبد الله دراز
- المدخل إلى القرآن الكريم .. عرض تحليلي مقارن للدكتور . محمد عبد الله دراز
- مؤلفات أبي الأعلى المودودي

- مؤلفات أبي الحسن الندوي
- مؤلفات وحيد الدين خان
- تاج العروس — للزبيدي
- تجريد العقائد — لنصير الدين الطوسي
- الشامل في الطب — لابن النفيس
- رسالة في الأعضاء — للدكتور يوسف زيدان
- الحكمة — لابن عطاء الله السكندري
- الأبناء العظام — لرأفت الخياط
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء — لابن أبي أصيبعة
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب — لعبد القادر البنداري
- اتباع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأتباع — للمقريزي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب — للقلقشندي
- مؤلفات عبد الحميد جودة السحار الإسلامية
- التيار الإسلامي في قصص السحار — للدكتور صفوت يوسف زيد
- أحمد بن حنبل — دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- الإبانة — لأبي الحسن الأشعري
- اللمع — لأبي الحسن الأشعري
- مصطفى عبد الرازق — دراسة للدكتور عثمان أمين
- مساجد مصر — للدكتورة. سعاد ماهر
- حول التجديد في الفكر الإسلامي — مقال بالمصور للدكتور عبد المعطي بيومي
- دائرة المعارف الإسلامية المترجمة

- الموسوعة العربية الميسرة
- الشريف الإدريسي دراسة لمحمد عبد الله عنان
- مقالات التجديد في الإسلام من عام 1987 حتى عام 2006 لسامح كريم
- دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي
- مناهج تجديد لأمين الخولي
- مع النبي في رمضان
- قمم وأفكار إسلامية لسامح كريم
- أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر لسامح كريم
- أعداد من مجلة العربي الكويتية
- أعداد من مجلة تراث الإنسانية
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم لأنور الجندي
- الشيخ المراغي بأقلام الكتاب إعداد أبو الوفا المراغي
- فجر الإسلام لأحمد أمين
- قادة الفكر الإسلامي لعبد الله بن سعد الرويشيد
- شخصيات صوفية من صعيد مصر في العصر الإسلامي
- الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد
- البغية للسيوطي
- معجم البلدان لياقوت الحموي
- نثار الأزهار لابن منظور
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن الأثير

- الكامل	للمبرد
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام للذهبي	تحقيق لمحمد محمود حمدان
- الكبائر للذهبي	تحقيق لمحمد محمود حمدان
- عصر محمد علي	لعبد الرحمن الرافعي
- مخطوط للدكتوراه عن محب الدين الخطيب	لمحمود فوزي محمود
- بحث عن محب الدين الخطيب	للدكتورة سهيلة البرماوي
- الطهطاوي قبل قاسم أمين في الكتابة عن تحرير المرأة	بحث للدكتور محمد محمود الدش
- الأوزاعي إمام أهل الشام	بحث للدكتور زهدي يكن
- ابن طفيل	بحث لمحمد عبد الله عنان
- الإمام مسلم	بحث للشيخ محمد أبو زهرة
- الطبري	بحث لمحمد خليفة القوسي
- القزويني	بحث للدكتور عبد الحليم منتصر
- الماتريدي	بحث للدكتور فتح الله خليف
- توجيهات الشيخ شلتوت	للإمام محمود شلتوت
- مذكرات القرضاوي	لبدر محمد بدر

* * *



موسوعة اعلام

المجددين في الإسلام

من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر للهجرة

سامح كريم

الجزء الثالث

مكتبة الدار العربية للكتاب

تقديــم

بعد رحلة زمنية ، طولها اثنا عشر قرنا هجريا ، في صحبة مباركة مـع العـشرات من العلماء والأئمة والمفكرين والمـصلحين والحكـام ... وغـيرهم ، مـن أعظـم مـن أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية ، ممن يشكلون : (أعلام المجددين في الإسلام) ، والذين غطت أعمالهم واجتهاداتهم وتجديداتهم في الفكر الإسلامى الجزءين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، لنكون معا على أبواب المجلد الثالث ، ومـا يتـضمنه مـن مجددي الإسلام في القرون الهجرية : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عـشر.. بعد هـذه الرحلة المباركة ، يبقى هنـاك سـؤال يطـرح نفسـه وهــو : مـاذا اسـتفاد الإسلام من التجديد الذي قام به هؤلاء المجددون في الإسلام ؟ أو بمعنى آخر: ماذا تستفيد الحياة المعاصرة ممـا قدمـه مجـددو القـرون الخمـسة عـشر الهجريـة للإسـلام ولأبنائه ؟

هذا السؤال المطروح ، سواء بمعناه الأول أو بمعناه الثاني ، توقف أمامـه عـدد من المفكرين والمؤرخين ، وربما تتوقف أنـت عزيـزي القـارئ أمامـه بعـد قراءتـك لتجديد واجتهاد وعمل مواقف هؤلاء المجددين ، طـوال هـذه القـرون الإسـلامية الماضية، وهو نفس الأمر الذي ساورني أثناء قراءتي لهذه الأعداد الضخمة من الكتب التى اهتمت بموضوع التجديد في الإسلام . وقد سـبقنى – كـما قلـت – مؤرخـون ومفكرون أجلاء ، منهم أحد مجددي الفكر الإسلامى في العصر الحـديث : الراحـل «أمين الخولي» فيما كتب عن التجديد ورجاله في الأربعة قرون الهجرية الأولى ، فقال: «عقدت هذا الفصل – أي : الفصل الذي كتبه – لأجمع فيه متفرق المعـالم والمنـارات الإسلامية التطورية ، فأزيد الوعي لها والانتباه إليها ، وأرجو قرب الاستفادة منهـا ،

وخاصة حين أضم إلى جميع متفرقها تنسيق متشابهها ، والمشترك فيها ، وذلك إذ أشير إلى ما تفيد الجوانب المختلفة من حياة اليوم ، بهذه القدوات الكريمة » .

وهكذا .. رأى الأستاذ أمين الخولي ، أن ما يفيد الحياة المعاصرة في جوانب منها: الجوانب الدينية ، والأخرى الخلقية ، والثالثة العلمية ، والرابعة هي التي تنفع الحياة العملية الاجتماعية .

ففى الجوانب الدينية : قدم المجددون ظاهرة التسامح الدينى الرحب الأفق ، المسالم المتواد البار .. الذي يمثله هؤلاء المجددون ، وعلى وجه خاص ما قدمه المجدد : أبو الحسن الأشعري حين شهد على نفسه في مواجهة غيره ، أو تسامح الخليفة عمر بن عبد العزيز حين كان يناقش معارضيه ومخالفيه ، على الرغم من خروجهم على الدولة .

هذا التسامح من هؤلاء المجددين بجوه الرحب ، وقلبه السليم .. خير ما تستفيد منه الحياة المعاصرة من عمل يقرب بين المسلمين على اختلاف فئاتهم وفرقهم، وذلك تمكينا لهم في مواجهة ما حولهم من تحديات .

ومع التسامح ، قدم المجددون للحياة الدينية حرية الاعتقاد ، وحق الفهم الصحيح للدين ، وهو ما صنعه المجدد «عمر بن عبد العزيز» حين اعترف وأقر لمخالفيه السياسيين الخارجين على أسرته ودولتهم بحرية العقيدة ، ويضمن ذلك لهم، بل ويدعوهم لمناقشته في جو من التسامح .

كذلك .. مما قدمه المجددون للحياة الدينية من فهم الدين على حقيقته التى هى إصلاح الحياة ودفع لها في طريق الخير .. ذلك الفهم الحيوي الذي يدفع عن الدين شر الادعاءات والافتراءات والأباطيل الناتجة عن الذين لم يحسنوا فهم الإسلام ؛ فمالوا به وجنحوا إلى ما هو بعيد عن روحه العملية والحيوية الحقيقية .

وقدم المجددون للحياة الخلقية المعاصرة الكثير من المعاني في كيفية التعامل بسلامة صدر ، ونقاء روح ، مما يلتمس منه الخلق السمح الطيب الذي يعف عن

الخصومة ، ويتسم بالمعاملة الطيبة ، ويتنزه عن الأحقاد . ومثال ذلك : مـا رأينـاه في سلوكيات بعض المجددين في معـاملتهم لمخـالفيهم ؛ حيـث قـدموا أسـمى وأرقـى وأرفع ما في الحياة الخلقية من قيم ومبادئ وقدوات .

وقدم المجددون للحياة العلمية والتعليمية مبادئ وقـيما وأسـسا ، منهـا : سـعة الأفق في تمثل دائرة المعارف البشرية ، ومنها : إجلال العلم وتقديمه على كـل شيء ، وذلك لفهمهم لأهميته ؛ حيث إنه وسيلة الدنيا ووسيلة الآخـرة عـلى مـا يقـررون ، ومنها أيضا : تصحيح مناهج التفكير العلمي الذي لا يتقدم العلم إلا به ، ثم منهـا : النفور والتنفير من التقليد الأعمى للآخرين ؛ حيث ينبغي أن يكون التفكير نابعا من عقل وقلب الإنسان المسلم .

كذلك .. قدم المجددون للحياة العملية نماذج عظيمة من سـلامة العلاقـة بـين الدين والحياة العملية : سلامة صحية واضحة كل الوضوح ، فلا يخالجنا أي شـعور بانفصام الحياة الدينية عن الحياة العملية التي يحياها الفرد ويتعامل معهـا .. فمـثلا : كان الإمام الشافعي - أحد أئمة مذاهب الإسـلام الأربعـة ، عـلى اعتبـار أنـه رأس المذهب الـشافعي ، وأحـد المجـددين في الإسـلام - يـشجع عـلى الرمايـة كرياضـة موجودة في الحياة ، بل ويدفع للمتفوق فيها من ماله الخاص . فيكون هـذا الاهـتمام من الشافعي رضى الله عنه خير توجيه مـن أصـحاب العلـم الـديني ، وذلـك حـين يسهمون في تنشيط الحياة العملية بالفعل والمشاركة ، وليس بالقول أو التنبيه .

وقدم المجددون للحياة الفنية والأدبية الكثير ، فنرى مـن سـلوكياتهم .. وهـم أمثـلة ونمـاذج ، وقدوة في الصلاح والتقوى .. من رقـة النفس ، ورفاهة الـشعور ما لا يكاد نجـده عنـد كبـار الأدباء والفـنانين في أحـدث العصـور . وهـا هـو عمـر ابن عبد العزيز رضى الله عنه كان يضطرب اضطرابا واضحا عند سماع صوت جميل، ويبكي من ذلك حتى تبل دموعه لحيتـه ، ولا يلـوم أحـدا مـن قـضاته وعمالـه عـلى إسرافه المنفعل في الموسيقى والغناء .

وبهذا التفتح ، وتلك الاستنارة بالنسبة للفن : موسيقى وغناء ، نجد ما يماثله أيضا في الأدب: شعره ونثره، بل إن بعضهم كان من أصحاب الطاقات الشعرية العظيمة مثل الشافعى رضى الله عنه ، فإلى جانب محبته لسماع الشعر وطربه للجيد منه ، فقد كان هو نفسه شاعرا، صاحب ديوان في الشعر، حتى لقب بالإمام الشاعر. وهذا هو «عمر بن الفارض» : سلطان العاشقين ، له من الشعر ما استقر على مر السنين والعصور، وهذا هو «ابن عطاء الله السكندري» له في النثر البليغ ما يطاول وينازع الشعر في الروعة والجمال ، وذلك فيما أورده من حكمه المشهورة .

وهكذا .. يضع هؤلاء المجددون مثل غيرهم من العلماء والأدباء والمفكرين الأساس السليم والصحيح لمثل هذه المنازع الإنسانية ، البعيدة عن الانحراف والخطأ ، ويجعلون من أنفسهم - وهم الهداة في الدين - هداة للشباب ، فيقولون لهم القول المتفهم لواقع الحياة ، القادر على حسن التوجيه توجيها يقبلونه منهم ، حيث لا يتزمتون ولا يحاربون الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان .

بل إن ما قدمه بعض المجددين في الأدب والفن ومكانتهما في الحياة ، « ما يرأب هذا التصدع الذي تتعرض له الحياة المعاصرة » على حد تعبير الأستاذ «أمين الخولي»- وهذا التعبير حق ؛ إذ إنه حين تجتهد الدولة في إيجاد ألوان من النشاطات الأدبية والفنية يقرر أصحاب القول الدينى حرمة هذه النشاطات ، فيضيع الشباب بين هذين الاتجاهين المتقابلين ، وينتهون إلى ما يحبون في غير اتزان ولا تماسك .. ياليت أصحاب القول الدينى يرجعون في هذا الصدد - إلى بعض المجددين في الإسلام المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، يرجعون إلى خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ، أو الإمام الشاعر الشافعى ، أو الصوفي الحكيم ابن عطاء الله السكندري ليروا منهم يسرا يفتقدونه في أقوالهم .

وغير ذلك من أوجه وجوانب الإصلاح الواعى المفيد يستطيع تجديد الفكر الإسلامى تقديمها لحياتنا المعاصرة ، ولهذا ولغيره من أسباب لم يقتصر التجديد في الإسلام على علماء الدين من فقهاء وأئمة وشيوخ فحسب ، بل شمل أيضا علماء في

الحياة بمعناها الرحـب المتسع ؛ فكـانوا إلى جانـب علـماء الـدين علـماء في التـاريخ والجغرافيا والطـب والفلـك والاجـتماع والفلـسفة والاقتـصاد والـسياسة والأدب واللغة .. وغيرها من العلوم التى من مجموعها تكونت منظومة الحضارة الإسـلامية على أيدي هؤلاء المجددين من أبناء الإسلام . فاعتبر الحـاكم المـسلم الـذي يحـدث نهضة وتقدما وتطورا يؤدي إلى الرخاء في بلده من المجددين ، كما رأينا في الجـزءين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، وهو ما يظهر بصورة واضحة في هذا الجزء الثالث الذي بين أيدينا . ذلك لأن التجديد في التفكير الدينى ينبغى أن يتماشـى مـع طبيعـة الحياة ، الدائمة التغير بكل ما فيها من أنـشطة ، ولابـد أن تواكـب حركـة التجديـد حركة الحياة في سعيها المستمر ومسيرتها الواثقة .

والسؤال الآن، يدور حول ما يتضمنه الجزء الثالث من ملامح وإشارات. إن نظرة واحدة إلى هذا الجزء الذي بين أيدينا والذي يـشتمل عـلى ثلاثـة قـرون هجريـة هـى: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، تكفى وتزيـد للدلالـة عـلى أن هنـاك هجمـة كانت على الإسلام من أعداء الإسلام ، سواء المستعمرين أو المبشرين أو المستـشرقين ، أو حتى السياسيين وفي مقدمتهم الرئيس الأمريكى السابق بوش كما ذكرنا بدليل زيادة عـدد المجددين، خاصة في القرن الرابع عشر الهجري لمواجهة هذه الهجمة المستمرة حتى كتابـة هذه السطور – شوال 1429 هجرية في شهر أكتوبر 2008 ميلادية ، – هجمة يتعـرض لها هذا الدين ، وفي المقابل : نجد هذا الدين قادرا على مواجهة كل التحديات ، وذلـك بتفكير أبنائه من المجددين منذ ظهر هذا الدين إلى اليوم .

إن أول ما يستوقفنا في هذا الجزء من الموسـوعة ظهـور عـدد مـن المـصلحين ، يتقدمهم : «جمال الدين الأفغاني والـشيخ محمـد عبـده وعبـد الـرحمن الكـواكبى» ، وسبق هؤلاء المصلحين رجال فكروا في بعث اليقظة في الأقطار الإسلامية والعربيـة بعد طول سبات في عصور التخلف والانحطـاط . رجـال هـذه اليقظـة يتقـدمهم : «الشوكاني والزبيدي، وبعـد ذلـك الطهطـاوي» : رائـد النهـضة الثقافيـة ، كـذلك يستوقفنا حكام أحدثوا نهضة في بلدانهم، يتقدمهم: «محمد علي» رائد النهضة الحديثة

في مصر، والملك «عبد العزيز آل سعود» صاحب النهضة الحديثة في شبه الجزيرة العربية ، والذي أنشأ المملكة العربية السعودية المنتسبة إلى اسمه ، تأكيدا لما صنعه من ازدهار وتقدم في بلده، كذلك يستوقفنا ظهور عدد من المجددين في شبه الجزيرة الهندية ، ممن حافظوا بجهودهم على ثوابت الإسلام واستمراريتها ، ويتقدمهم «مولانا أبو الكلام آزاد والشاعر محمد إقبال وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ووحيد الدين خان» ، وظهور طائفة من المجددين غير الأزهريين في مصر والبلاد العربية ممن أخذوا على عاتقهم مهمة إعادة كتابة التاريخ الإسلامى بصورة يفهمها أبناء الإسلام ، وفي الوقت نفسه تدافع عن الإسلام مما أحدثته كتابات غير المسلمين من افتراءات وأباطيل ، ويتقدمهم : «طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادي» ، وواكبهم في ذلك «العقاد والدكتور هيكل وأمين الخولي وكرد على» ، وغير هؤلاء من الرواد ، تبعهم في ذلك أجيال يمثلها «مالك بن نبى والشرقاوي وخالد محمد خالد والسحار» ... وغيرهم ممن قدموا صورة حقيقية للإسلام .

كذلك ظهرت طائفة من علماء الأزهر المستنيرين من تلاميذ الإمام محمد عبده ، ويتقدمهم : الأئمة الثلاثة : «مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت» .. وغيرهم من الأزهريين الذين عملوا من أجل إصلاح الأزهر . كذلك ظهرت طائفة من الدعاة الذين قربوا الإسلام بتعاليمه إلى الناس ، ويتقدمهم : «الباقوري والغزالي والشعراوي والقرضاوي» .

وغير ذلك من جوانب تضمنها هذا الجزء الذي بين أيدينا ؛ ليتم بذلك تغطية القرون الهجرية الخمسة عشر قدر الاستطاعة والإمكان .

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – أكتوبر 2008



القرن الثالث عشر

1 - محمد بن علي الشوكاني

2 - الشيخ حسن العطار

3 - محمد علي

4 - رفاعة رافع الطهطاوي

5 - جمال الدين الأفغاني

6 - أحمد خان

7 - عبد الرحمن الكواكبي

8 - محمد عبده

هـذا القـرن

يبدأ القرن الثالث عشر الهجري سنة 1786 ، وينتهي سنة 1883 حسب التقـويم الميلادي ، وهو قرن تمت فيه بعض الأحداث والتغيرات والتحـولات في العـالم كلـه بوجه عام ، والعالم العربي ، والعالم الإسلامي بوجه خاص ، كـان مـن أوضـح هـذه الأحداث والتغيرات والتحولات في الجانب الـسياسي ، بـشكل اسـتمر إلى مـا بعـد ذلك على امتداد أكثر من قرن من الزمان .

لقد تفرع العالم العـربي والإسـلامي مـن الناحيـة الـسياسية إلى أربعـة كيانـات دولية، هي : الدولة العثمانية التركية ، ودولة السعديين بمراكش ، واستحدثت دولـة جديدة هي الدولة الفجارية بفارس كبديل للدولة الصفوية ، والدولة الرابعـة التـي أصبح لها وزن دولي هي : الدولة المصرية بقيادة الوالي محمد علي . وخرجت من هـذا التوزيع الدولي الذي تم : الدولة المغولية بالهنـد بعـد أن انتهـى نفـوذ المغـول عقـب الضعف الذي أصابهم في القرن الماضي ؛ نتيجة للصراعات والانقسامات التي تمـت بين حكامها من ناحية ، ومواصـلة الـشركة الـشرقية الإنجليزيـة في الهنـد مـساعيها وحيلها للقضاء على النفوذ المغولي في الهند ، وبالفعل .. انتهى نفوذ الدولة المغوليـة ، لينتقل إلى الحكومة البريطانية ليبدأ الاستعمار البريطاني للهند من ناحية أخرى .

ومن هنا ، يمكن القول بزوال دولة المغول الإسلامية التي كان يحكمها ملك أو سلطان يدين بالإسلام ؛ لتصبح الهند مجرد مستعمرة بريطانية أكثر من قرن .

ويبقى بعد ذلك التعرف على الحالة السياسية للعالم الإسلامي، وفق هذا التشكيل السياسي الجديد ، ثم الحالة العلمية ، وبعدهما الحالة الدينية ، والاجتماعية .

وفي الجانب الآخر .. نجد أوروبا قد وصلت أوج تقدمها وازدهارها ، حتى صارت وحدها هي المسيطرة على العالم الإسلامي ، توجهه كما تشاء وفق مصالحها، إلى درجة أن انقسم هذا العالم الإسلامي بين دولتين أوروبيتين هما : إنجلترا وفرنسا ، وكأن هذا العالم أصبح إرثا لهاتين الدولتين ، والدول الأوروبية الأخرى التي تشايعهما . وهو ما عرفناه بعد ذلك بالاستعمار الأوروبي للدول العربية والإسلامية. ولعلنا نتبين ذلك في الحديث عن هذه الدول الأربع الجديدة .

بالنسبة للدولة العثمانية التركية : فقد ضعفت ؛ نتيجة الصراعات والانقسامات التي حدثت في القرن الماضي ، إلى درجة أن هذا الضعف جعل أوروبا تفكر في تقسيمها إلى ولايات . ولكنها عدلت عن ذلك ، ورأت أن تستفيد من تماسكها بدلا من هذا التقسيم ، فبدأت كل دولة أوروبية تنتزع ما يمكنها انتزاعه في غفلة من الدول الأخرى . فالدولة العثمانية التركية أصبحت في نظر الأوروبيين مثل الرجل المريض الذي لا يرجى شفاؤه ؛ لأن أعداءه من الأوروبيين يعملون على بقائه مريضا . وإن السبيل إلى ذلك : إثارة الفتن والصراعات بين أبنائها ، حتى فقدت الدولة العثمانية في هذا القرن معظم أملاكها في أوروبا ، كما فقدت الجزائر والمغرب بعد استيلاء فرنسا عليهما ، أعقب ذلك استيلاء فرنسا على تونس ، وأما مصر فقد حاولت فرنسا استعمارها من خلال الحملة الفرنسية التي استمرت ثلاثة أعوام من بعدها أجبرت على الرحيل ، لتبدأ بريطانيا في احتلالها في نهاية هذا القرن بعد هزيمة العرابيين وإخفاق الثورة العرابية .

والدولة الفجارية التي قامت على أنقاض الصفويين بفارس ، فقد كانت تعاني الفساد نفسه الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية التركية ، وكان لدولتي روسيا وإنجلترا أطماع في بلادها ؛ فقامت حروب بينها وبينهما ، كانت تنتهي بانتصار الدولتين الأوروبيتين .

وأما دولة السعديين في مراكش ، فإنها كانت في أسوأ الأحوال ؛ لأن فرنسا فصلت بينها وبقية البلاد المغربية باستيلائها على أجزاء من المغرب ، واستعمار كل من الجزائر وتونس والمغرب بعد ذلك ؛ مما ساعد على ضعف واضمحلال هذه الدولة وزوالها بعد ذلك .

وأما الدولة المصرية بقيادة محمد علي الذي قام بإصلاحات كثيرة ، تمكن بها من إنشاء الدولة الحديثة بكل مفهومها المعروف ، لكن كولاية من ولايات الدولة العثمانية التركية ؛ مما جعل إنجلترا تسعى إلى الدولة العثمانية لتعزله ، أي : محمد علي عن مصر ؛ لأنها رأت فيه معارضة لأطماعها ، إلا أن أهل مصر تمسكوا به ؛ حيث كان أقوى شخصية إسلامية في هذا القرن . لكن إصلاحاته ذهبت بوفاته ؛ حيث لم يحافظ عليها خلفاؤه ، لتبدأ مصر مرحلة جديدة من التأخر والفساد كبقية بلاد العالم الإسلامي الذي يبدو أنه كتب عليه التخلف والتأخر .

وأما عن الحالة العلمية : فقد انحطت مثلما حدث في الحالة السياسية ، خاصة وأن العلم المستخدم كان قديما باليا لا فائدة فيه ولا جدوى منه ، هو باختصار : علم لا يناسب العصر الحديث بكل إنجازاته واختراعاته في كل المجالات . بل بقي العلم في العالم الإسلامي جامدا متخلفا متأخرا ، لا أمل في تقدمه إلا بعد مرور عشرات السنين .

ولا تقل الحالة الدينية سوءا عن الحالة العلمية . وقد بلغ أمر المتصوفة في هذا القرن : أن الحاكم كان يرجع إلى نقيبهم في اتخاذ القرارات السياسية والدينية ، إلى درجة أن منصب شيخ الأزهر كان لا يتم إلا بموافقتهم .

يحدث هذا الفساد والتخلف في العالم الإسلامي ، بينما نجد أوروبا قد بلغت أوج ازدهارها ، وصارت هي وحدها التي تقود العالم وتديره وفق سياساتها ، وكان أظهر دولها في القيام بذلك إنجلترا ثم فرنسا وألمانيا وإيطاليا وروسيا . إذا ، فموقف

أوروبا في القرن الثالث عشر الهجري يماثل موقف الولايات المتحدة الأمريكية في إدارتها للعالم الآن بالصورة التي تريدها ، ولا مانع إن كانت إرادتها ضد إرادة الشعوب . والغريب أن التقدم العلمي في أوروبا كان يسير جنبا إلى جنب مع التقدم السياسى ، حتى أدى تقدمها العلمي إلى وجود الاختراعات الحديثة مثل : التليفون والفونوغراف .. وغير ذلك من الاختراعات التي تخدم البشرية في سلمها أو في حربها .

وقد استوقف المسلمين هذا التقدم الحادث في أوروبا الذي يقابله تأخر في العالم الإسلامي ، وهنا شعروا بالخطر ، وأنه لابد لهم من تقليد أوروبا في علومها وأنظمتها التي نهضت بها . بل رأوا أن الخطر هو في تقليد أوروبا في هذا الجديد ؛ لأنه يؤدي إلى ضياع الدين والدولة معا، ويصبح العالم الإسلامي مجرد تابع لأوروبا، أو بمعنى آخر أن التجديد الأوروبي خطر على الدولة والدين .

وعلى الرغم من أن الأحوال السياسية والدينية والعلمية ، وتتبعهم الحالة الاجتماعية ، على هذا المستوى الهابط والمتدني ، وأن العالم الإسلامي كان متخلفا متقوقعا ، إلا أنه مع ذلك ظهرت مجموعة من المجددين في هذا القرن يتقدمهم ، محمد علي الشوكاني كرجل دين ، وحسن العطار أحد شيوخ الأزهر الذي كان يجمع بين العلم والدين ، ومحمد علي باشا صاحب النهضة المصرية الحديثة ، ورفاعة رافع الطهطاوي : رائد اليقظة والاستنارة ، وجمال الدين الأفغاني : الثائر الذي نقل الثورة إلى كل الأمة الإسلامية ، وأحمد خان السياسى الذي صنع الكثير لأمته الهندية ، وعبد الرحمن الكواكبي : الثائر السوري صاحب كتاب (أم القرى) ، والشيخ الإمام محمد عبده : رائد الإصلاح والتعليم ؛ حيث أثار هؤلاء بتجديدهم النظر إلى بعض المسائل المحتدمة ، خاصة تلك التي أثيرت بين الحكام وشعوبهم ، محاولين تقديم بعض الحلول لها ، كل حسب قدراته وإمكاناته .

محمد بن علي الشـــوكاني

محمد بن علي الخولاني الشوكاني الزيدي اليمني : من المجددين في القرن الثالث عشر الهجري والذي ولد عام 1172هـ وتوفي عام 1250هـ - من الأسماء التـي دوت في أرجاء العالم الإسلامي مؤذنة بيقظة جديدة ، وإحياء لعلم الأمة ولغتها وثقافتها ، واستعادة لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمـة ، وإرادة لبعثهـا بعثـا جديدا ، دون شعور واضح أو علـم مـستبين بالـذي كـان يجـري في ديـار المـسيحية الشمالية (التي هي غير المسيحية الشرقية) من يقظة ونهضة وبعث جديـد ، ونـصيحة وتنبيه للإنـسان العـربي . لا تنظـر إلى الفـرق الهائـل الكـائن بـين الـشمال المـسيحي والجنوب الإسلامي ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة ، والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم ، بل أكثـر من ذلك ، فإن اليقظة الأوروبية كانت بعد في أول الطريق ، وتتكئ اتكاء شديدا على ما كان عند العرب من العلم المسطور في الكتب برموزه التي تحتاج إلى استبانة وفهم، وعلى العلم الحي الذي كان عند أهل دار الإسلام ، وكان الفرق بين اليقظتين يومئـذ هو : أن يقظة العرب كانت هادئة سليمة الطوية منبعثة من داخلها ، ليس لهـا هـدف إلا استعادة شبابها ونضرتها في حدود الإسلام ، وإن كانت قبل ذلك يقظـة متباعـدة الديار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصـل ، وشـبكة الالتئـام . وأما يقظة الأوروبيين فقد كانت متفجرة بحقد كظيم على مـا حـدث لأوروبـا عـلى أيدي صلاح الدين في الحروب الـصليبية ، أو محمـد الفـاتح في القـسطنطينية أو مـا حدث في الأندلس . فكان الحقد مكظوما ، شيمته السطو الخفـي ، وشـملها مجتمـع

بالضغينة الدفينة المتنامية ، وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والخداع والمكر.

هذا وغيره ، كان يملأ قلب «الشوكاني» ويسترجعه ليل نهار ، فخلع عن نفسه صفة التقليد ، وفتح لنفسه باب الاجتهاد . ألف كتاب : (السيل الجرار على حدائق الأزهار) فلم يقيد نفسه فيه بمذهب الزيدية ، بل صحح ما أداه إليه اجتهاده بالأدلة، واستبعد ما لم يقم عليه دليل ، فثار عليه أهل مذهبه من الزيدية ، وغالبيتهم من المقلدين الجامدين على التعصب لمذهبهم في الأصول والفروع ، فكان يقارعهم بالدليل والحجة من الكتاب والسنة ، وكلما زادوا ثورة عليه ، زاد في تمسكه بمنهجه ، حتى ألف رسالة عنوانها : (القول المفيد في حكم التقليد) ذهب فيها إلى ذم التقليد وتحريمه ؛ فزاد ذلك في تعصبهم عليه ، حتى رموه بأنه يريد هدم مذهب آل البيت ، فقامت بسبب ذلك فتنة في صنعاء باليمن بين خصومه وأنصاره ، وقد رد عليهم بأنه يقف موقفا واحدا من جميع المذاهب ، ولا يخص مذهب الزيدية بتحريم التقليد فيه، والخلاف في المسائل العلمية الظنية مطلوب .

إلا أن ما يؤخذ على الشوكاني في هذا القرن (الثالث عشر الهجري) ما أخذ في القرون السابقة على مدرسة «ابن تيمية» ، حيث تبالغ في التعصب له ، حتى تقع بذلك في تقليده في كل ما ذهب إليه ، ولا يكون هناك فرق بينها ومن يقلد ، وقد حمل هذه المدرسة على الوقوف عند المسائل التي أثارها في الفروع ، يدافعون عنها بما كان يدافع به ، ويرددونه قرنا بعد قرن ، كأنه ليس هناك مسائل غيرها يجب أن تخالف فيها المذاهب المشهورة ، كما خالفها ابن تيمية ولم يعبأ باتفاقهم عليها ، وبلغ من جمود هذه المدرسة أنها تكاد تكون أشد من غيرها على من يحاول في هذا ما حاول ابن تيمية ، ولا شك أن هذا يرجع إلى الجمود في ظواهر النصوص ، وكراهة منهج التأويل فيها ؛ مما أورث هذه المدرسة جمودا في العقائد لم يلبث أن أوقعه في الجمود

في الفروع ، حتى إنهم (أي : أتباع هذه المدرسة التيمية) يقلدون مذهب « أحمد ابن حنبل » ، كما يقلد غيرهم مذاهب «أبي حنيفة ومالك والشافعي» ، ولا يقلدون ابن تيمية إلا فيما ذهب إليه من إنكار التوسل بغير الله تعالى ، ومن إنكار زيارة القبور للتبرك بأصحابها .

وكان لهذا أثره في الشوكاني ، حين وقف في هذا القرن ذلك الموقف ، ولم يختلف فيه حاله عن حال ابن تيمية في القرن السابع الهجري ، مع أنه قد مضى على ابن تيمية نحو ستة قرون، واستحدثت في هذا القرن أمور كتلك التي أشرنا إليها في بداية الحديث عن هذا المجدد ، كما تنبه لها من المجددين من تأثر بها ، ولم يغال في أمر ابن تيمية كما غالت فيه مدرسته ، من أمثال السيد جمال الدين الأفغاني وأحمد خان الهندي ، وغيرهما من رجال المدرسة الحديثة في الإصلاح ، وهي مدرسة ترفع من شأن ابن تيمية ، ولكنها لا تغالي في أمره .

وعلى الرغم من تمسكه بآراء ابن تيمية ، إلا أنه أي : الشوكاني مع ذلك ، اعتبر من المجددين في الإسلام ؛ حيث كان عالما مبرزا قصده الكثيرون للأخذ عنه ، حتى طار صيته في جميع البلاد ، وانتفع من علمه كثير من الناس مما جعله واحدا ممن كان على رأس المائة عام . كما يقرر بعض المؤرخين والعلماء ، ومنهم العلامة الراحل : «محمود محمد شاكر» ، وإشارته إلى ذلك في كتابه : (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) .

❋ ❋ ❋

الشيخ حسن العطار

الشيخ حسن العطار : من مجددي القرن الثالث عشر للهجرة، فقد عاش ما بين عام 1180هـ حتى عام 1250هـ ، والذي يوافق القرن الثامن عشر الميلادي . وكما يسجل مؤرخ مصر : « عبد الرحمن الجبرتي » فيما كتب عن هذه الفترة التي كانت تحت الحكم العثماني ، والتي عاشها الشيخ حسن العطار : أن العطار كان من أسرة اشتغل عائلها بالتجارة ، وعلى الأخص : تجارة العطارة ، ولهذا لقب بالعطار ؛ حيث لم تكن تعرف الأرض الزراعية ولا الفلاحة . وعلى الرغم من ذلك ، فقد أدرك العطار - بوعيه ومشاهداته - نظام ملكية الأرض التى كان قدرها قليلا في يد الفلاحين ، أولئك الذين كانوا مثقلين بالضرائب والإتاوات التي يدفعونها - وقتئذ - للملتزم الذي كان يأخذ القرى التزاما ، ويتصرف فيها تصرف المالك في ملكه ، على أن يلتزم بدفع ضرائبها إلى الحكومة ، ويتولى هو بنفسه جباية المال من الفلاحين، وكان هذا النظام يعرض على الأهالي المقتدرين بطريق المزايدة لمن يدفع له ثمنا أكبر من أصحاب النفوذ والقوة من القادرين على الجباية ، وبعد أن كان هذا الالتزام لمدة معينة ، صار يعطى للملتزمين مدى الحياة على أن ينتقل إلى ورثتهم من بعدهم ، متى دفعوا الإتاوة للحكومة .

هذه الجوانب السلبية عاشها العطار وتأثر لها ، على الرغم من أنه كان بعيدا عنها ؛ حيث عمل أجداده بالتجارة في القاهرة . ولكن كيف لا يتأثر لها ؟ وهي التي استوقفت الرحالة الفرنسي ، فوصفها بقوله : « والفلاحون كانوا آلات مأجورة ، لا يترك لهم للمعاش إلا ما يقيهم من الموت ، وما يحصدونه من أرز وقمح يذهب إلى موائد السادة ... » .

ولا يقل حال الصناعات عن حال الزراعة في العصر الذي ولد فيه حسن العطار . ويكفي القول : بأن الأتراك أخذوا معهم أمهر وأفضل أصحاب الحرف والصناعات في مصر ؛ ليعملوا في تركيا على تحسين وترقية بل واستحداث صناعات لم يكن يعرفها الأتراك وقتئذ . ولهذا ، ولغيره فقد انحدر هذا الجانب في مصر وتدهور ، يضاف إلى ذلك جانب التجارة ، وما آل إليه من ضرائب وإتاوات ؛ جعلت الكبار من التجار يهربون من القاهرة التي كانت مقرهم ، إلى غيرها من قرى ومدن الأقاليم ، أو الكف تماما عن العمل التجاري الذي لم يعد عليهم بأي ربح أو عائد بعد استنزاف الملتزمين ورجال الحكومة لريعه .

ويضاف إلى ذلك : الخرافات والأوهام والخزعبلات التي اشتهرت في المجتمع المصري ، وليس هذا بغريب على مجتمع مريض ، جاهل ، فقير أن يسلم من هذا التفكير اللاعقلي . ولعل ذلك يجعلنا ننظر إلى الحياة العقلية بوجه عام في هذه الفترة التي عاش فيها الشيخ حسن العطار ؛ حيث لم تكن على غرار ما قبلها بقرنين من التخلف العقلي ، والتأخر الفكري الذي ظهر في البلاد بصورة واضحة ، فلقد ضاعت تلك البقية الباقية من الحركة الفكرية والعلمية والأدبية التي كانت سائدة في عصر دولتي : المماليك البحرية والشراكسة . وبلغ من سوء حال الأدب في ذلك العصر : أنه لم ينبغ في البلاد شاعر واحد يستحق أن يشار إليه . واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من العلماء والشيوخ الذين اهتموا بالشروح والتفاسير والتعليقات والتقارير ، بدلا من الابتكارات . ومن عجائب الأمور في هذا المجال بالذات : أن ما حدث في القرون الثلاثة للاحتلال العثماني: أن اللغة التركية لم تستطع أن تنافس اللغة العربية أو تطردها من أوطانها المحتلة احتلالا عثمانيا ، ولكنها استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربي عن أصحابه ؛ حيث هبطت ملكة التعبير عند الكثير من الأدباء والمؤلفين ، واستحالت الأصالة الفكرية إلى ضحالة ، كما

جمدت القرائح العربية ، ولم يعد إليها ذلك الخصب والنماء والبريق الذي عهدناه في عهود القوة العربية ، وهبط مستوى التأليف المبتكر إلى أسفل درك من الجدل العقيم، والتعليق السقيم . ومن هنا لم يظهر في القرن الثاني عشر ، والذي ظهر في جزء منه «الشيخ حسن العطار» إلا قلة نادرة من أمثال «الزبيدي» صاحب : (تاج العروس).

والواقع .. أنه لولا وجود الأزهر الشريف - على الرغم مما فيه من تخلف وجمود في مواد الدراسة - يقضى تماما على الحياة الفكرية بمصر ؛ فقد كان الشيوخ الذين يتخرجون فيه مبعث ذلك البصيص من النور في البلاد ، وكانت الكتب الأزهرية - على الرغم من عقم مناهجها - مثارا لانشغالات ذهنية ، وإن كانت العلوم العقلية والرياضية والطبيعية قد تم هجرها تماما ، باستثناء قلة قليلة جدا ممن يعرفون العلوم الرياضية .

وكان الشيخ حسن العطار من هذه القلة الأزهرية القليلة جدا ، والتي أدركت ضرورة العلوم العقلية والطبيعية ؛ حيث كان صاحب فضل في التنبيه إلى قيمة العلوم الطبيعية ، وإلى ضرورة إدخال العلوم العصرية المستخدمة في أوروبا ، وله في ذلك العبارة المأثورة التي يحفظها له تاريخنا العلمي والثقافي ، والتي يقول فيها : «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس بها» ولعل هذه العبارة وغيرها من عبارات وصفحات ترهص إلى هذا التغيير والتجديد ، جعلنا متفقين مع عدد من العلماء والمؤرخين على اعتبار أن هذا الشيخ الأزهري من المجددين في زمانه.

والحق ، أن اتصال الشيخ حسن العطار ببعض علماء الحملة الفرنسية ، قد أفاد عقليته المتحررة ، كما أن اطلاعه على كتبهم وآلاتهم التي حملوها إلى مصر معهم قد أكدت قيمة العلم والتجربة ، وعلى ما يقرره «علي مبارك» في الجزء الرابع من :

الخطط التوفيقية ، من أن الشيخ حسن العطار كان منبهرا مما وصلت إليه الأمة الفرنسية من المعارف والعلوم ، ومن كثرة كتبهم ، ومن طرق الاستفادة منها ، وقد تمنى لمصر وللعالم العربي أن تصل إلى ما وصلت إليه هذه الأمة الفرنسية .

والآن ، بعد التعرف على الأحوال التي يمر بها زمان الشيخ حسن العطار ، وما قبل زمانه بقليل . هل نحن في حاجة إلى مزيد من التعرف على هذا الشيخ الأزهري المستنير ؟ لو كان الأمر بالإيجاب ، فلننظر إلى سيرة حياته ، فنجده قد ولد - كما ذكرنا - عام 1180هـ الموافق 1766م بالقاهرة ، وكان أهله من المغرب ، فانتقلوا إلى مصر ، وكان أبوه عطارا ؛ ومن هنا جاءه هذا اللقب ؛ لأن اسم هذا الأب كان الشيخ «محمد كتن» ، وكان لهذا الأب ميل شديد إلى بعض من العلوم الطبيعية ، إلا أن انصرافه إلى التجارة ، جعله يبتعد عن هذا الميل ، ولذلك نراه عندما لاحظ من ابنه «حسن» إقبالا على العلم ساعده على تحصيله ، على الرغم من أنه كان يحتاج إلى معاونته في شئونه التجارية ، فكان هذا الابن يتردد على الأزهر ، ويحضر حلقات كبار مشايخه .

وهنا يحدث أمر لم يكن متوقعا هو : مجيء الفرنسيين إلى مصر عام 1798م ، وكان عمر الشيخ حسن العطار - وقتئذ - ثمانية عشر عاما ، فهرب إلى الصعيد خوفا على نفسه من أذاهم ، ثم عاد إلى القاهرة بعد قليل ، حينما اطمأن ، فاتصل ببعض رجال الحملة من العلماء ، حيث أفاد منهم ، واطلع على كتبهم وآلاتهم وتجاربهم العلمية ، فكان ذلك بدء اتجاهه إلى تقدير العلوم والمناداة بضرورتها ، وقد اشتغل في الوقت نفسه بتعليم اللغة العربية لبعض هؤلاء العلماء الفرنسيين ، وهذا ما اعترف به العطار نفسه في رسالة له ، يتحدث فيها عن الكتب والتجارب التي لاحظها عند هؤلاء الفرنسيين قائلا : « وكلها في العلوم الرياضية والطبيعية والأدبية، وأطلعوني على آلات فلكية وهندسية » ومع ذلك فقد اشتغل أثناء هذه

الحملة بالتدريس في الأزهر ، فكان يقرر على طلبته شرح الأزهرية في علم النحو ، حيث يشير إلى ذلك في مقدمة هذه الأزهرية ، ونراه بعد هذا كما يسجل الأستاذ «محمد عبد الغني حسن» في ترجمته له - ولغير ما سبب معروف - يخرج من مصر ، هاربا إلى البلاد الرومية عام 1217هـ ، 1802م مستصحبا كتبه ، كما يشير إلى ما أصاب مصر من الفرنسيين ، ولعل الحوادث التي أعقبت خروج الحملة من مصر قد أرغمته على الفرار من البلاد .

وفي عام 1810م يدخل الشام قادما من بلاد الروم ، فيلتمس من أهل العلم في دمشق قراءة شرح الأزهرية لينتفع بها طالبو العلم ، ويقيم في الشام خمس سنوات ، ثم عاد إلى مصر عام 1815م بعد أن غاب عنها ثلاثة عشر عاما ، قضاها في التجوال والترحال ؛ حيث كانت الأمور في مصر قد استقرت ، بعد أن صارت ولايتها لمحمد علي ، فعاد العطار إلى التدريس بالأزهر مرة ثانية .

وفي عام 1246هـ الموافق 1830م تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر الشريف ، فأداره على أحسن وجوه التدبير ، وظل في هذا المنصب ، إلى أن توفي عام 1250هـ الموافق 1835م ، وهو شيخ للأزهر .

وقد عرف الشيخ حسن العطار بمؤلفاته الكثيرة ـ منها : حواشيه على كتب النحو والتوحيد والأصول والبلاغة ، كما عرف بأسلوبه الأدبي : نثرا وشعرا ، وعباراته الأنيقة التي كانت تختلف بالطبع عن الأساليب الركيكة لزمانه ، وما قبل زمانه في العصر العثماني ، وله إسهامات عظيمة في الشعر والنثر معا .

أما ميله إلى العلوم الطبيعية والرياضية والفلك والطب ؛ فتدل عليه كتبه ورسائله في كيفية العمل بالاسطورلاب ، والربعين : المقنطر والمجيب ، والطب والتشريح ، وأشكال التأسيس في علم الهندسة ، هذا ما كان عليه في إتقانه رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه .

ولقد امتاز حسن العطار بقراءته العميقة للكتب العربية والمترجمة في زمانه ، ولم يختص بعلم معين أو بفن من الفنون ، ولكنه كان حريصا على الإفادة من كل علـم ، وكان يطرز الكتب التي يقرؤها بهوامش وتعليقات ذكية . وفي ذلك يقـول تلميـذه : «الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي» : « كان للشيخ حسن العطار مـشاركة في كثـير مـن العلوم : كل العلوم حتى الجغرافية ، وله أيـضا هـوامش وجـدتها بـأكثر التـواريخ ، وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب الأجنبية المترجمة ، وكـان له ولوع شديد بسائر المعارف » .

ويبقى في الحديث عن مجددنا في القرن الثالث عشر الشيخ حسن العطار؛ حيث نشير إلى ما أحدثه من حركة إصلاحية داخل الأزهر ، وهي محاولة تعتـبر الأولى مـن نوعها ؛ حيث كان صوته أول الأصوات العربية التـي انطلقـت مـن داخـل الأزهـر منادية بتغيير كتبه وإصلاح برامجه وإدخال العلوم العصرية فيه . صحيح ، لقد سـبقه إلى ذلك صوت مسلم غير عربي هو التركي «أحمد باشا كور» الوالي العثماني بمـصر ، والذي لاحظ نقص مناهج التعليم في الأزهر ، واهتمام أهله بتحصيل الفقه والنحـو والصرف والمنطق ، ونبذهم لعلوم المقاصد كالعلوم الرياضية ، مع ضرورتهـا لتقـدم الأمم وقوتها . ولا يلام هذا الوالي العثماني على أنه اكتفى بإرسال هذه الملاحظة عـلى علوم الأزهر ، ثم اكتفى آخر الأمر بالتقائه بالعالم الرياضى الفلكي : «الشيخ حـسن الجبرتي» - والد مؤرخ مصر الكبير : «عبد الرحمن الجبرتي» - حين تذاكر معه علـوم الرياضة ، ويتعلم معه عمليا صنع المزاول . فما كان ينتظر من مثل هذا الوالي التركـي أن يفعل للأزهر أكثر من ذلـك ، خـصوصا أن اهتماماتـه بـالعلوم الرياضـية كانـت اهتمامات شخصية لم ترق إلى مستوى المصلحة العامة للمسلمين، كما لا يلام «الشيخ عبد الله الشرقاوي» شيخ الجامع الأزهر - وقتئذ - في عهد ولاية هذا الوالي التركـي على مصر ، لإهماله أمر إصلاح الأزهر ونكوصه من إدخال بعض العلـوم العـصرية فيه ؛ فإن الجو لم يكن مهيئا في ذلك الحين لإخراج فكرة الإصلاح إلى حيز التنفيذ.

ولقد حدث ذلك قبل مولد الشيخ حسن العطار ، حيث كانت تتردد فكرة الإصلاح بين جنبات الأزهر ، ولا شك أن الشيخ حسن العطار قد سمع بذلك ، وتأثر به ، كما أثر فيه اتصاله بالفرنسيين - كما ذكرنا - واطلاعه على كتبهم ومشاهداته لتجاربهم وآلاتهم ومعاملهم وأجهزة أرصادهم .

ومن هنا ، قامت في نفسه المتطلعة إلى إصلاح الأزهر ، بل إصلاح البلاد كلها . وما أصدق «علي مبارك» وهو يتحدث عن حسن العطار قائلا : « .. واتصل بناس من الفرنساوية ، فكان يستفيد منهم ، خاصة من أساليبهم المستعملة في بلادهم ، وفي المقابل ، كان يفيدهم بتعليمهم اللغة العربية ويقول : إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . فقد كان يتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة الفرنسية .

وما تحمل عبارة رائد إصلاح من الإيمان والقوة والتطلع مثل ما تحمله هذه العبارة لحسن العطار ؛ حيث كان هذا الرجل أشجع شيوخ زمانه ؛ حين نادى بهذه العبارة التي تعني التغيير والتجديد ، والتي انتبه إليها الوالي «محمد علي» حين كان واليا على مصر ، فسار على ضوء هذه الفكرة فيما أحدثه بمصر من نهضة تعليمية ، وفيما استخدمه من نظام البعثات التعليمية التي أوفدها إلى الخارج ، خاصة : فرنسا وإنجلترا ، وكل هذا كان وفقا لما كان يردده الشيخ حسن العطار من الدعوة إلى التغيير والتجديد .

جانب آخر يضاف إلى إسهامات الشيخ حسن العطار وهو : الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها ، فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك الوقت كالهندسة والطب والصيدلة والألسن ، تعتبر استجابة حقيقية لدعوة هذا الشيخ المستنير وتطلعاته ، ومناداته بحتمية تغيير الأحوال في البلاد ، والكتب التي ترجمت بالمئات في عصر «محمد علي» تعد صدى حقيقيا لأمنيات الشيخ حسن العطار ؛ حين

رأى كتب الفرنسيين في الرياضة والعلوم والآداب . وإذا كان الطهطاوي صاحب فضل في حركة ترجمة الكتب في عصر «محمد علي» فإنه بلا شك قد تأثر في ذلك بآراء شيخه وأستاذه «حسن العطار» ، وسمع منه الكثير الذي كان منه على سبيل المثال : قوله : « ومن سمت به همته إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات ، وعجائب المصنفات انكشفت له حقائق كثيرة من دقائق العلوم ، وتنزهت فكرته - إن كانت سليمة - في رياض الفهوم » .

والعلوم التي كان يقصدها العطار - وذكرها في (حاشية العطار على شرح جمع الجوامع) - ليست علوم الشريعة وعلوم الأزهر التقليدية التي فقد ثقته بها ، وإنما هي علوم الفرنسيين التي اطلع عليها وشاهدها هو والجبرتي الكبير : [والد الجبرتي المؤرخ] - وغيرهما من العلماء إبان الحملة الفرنسية ، ثم واتته الفرصة بأن يؤكد للوالي «محمد علي» ضرورة إرسال البعوث العلمية في طلبها ، ولم يكتف بهذا ، بل أوصى الوالي «محمد علي» بأن يعين لإمامة أعضاء البعثات إلى باريس تلميذه : «رفاعة رافع الطهطاوي» .

ولابد - هنا - من الإشارة إلى أن : طموحات حسن العطار نحو التقدم العلمي والإصلاح بمصر لم تكن تنبؤات ، وإنما كانت توجيهات وتنبيهات ، وفرق كبير بين التنبؤ والتنبيه . فالتنبيه يدل على الإيجابية من صاحبه ، ولم يقصر العطار أن يكون إيجابيا في دعوته ، فحين عجز عن تدريس كتب العلم الحديث في الأزهر ، كان يختص بها نفرا من تلاميذه الأثيرين إلى نفسه ، وتفرغ هو ليقرأ لهم كتب التاريخ والجغرافيا والأدب والطبيعيات وغيرها من الكتب التي كانت محظورة في الأزهر . ويؤكد لنا هذه الحقيقة مرة أخرى ما يصادفه في الخطط التوفيقية «لعلي مبارك» في حديثه عن «الطهطاوي» وأستاذه العطار حيث يقول : « وكان له - رحمه الله - منزلة خاصة عند الشيخ حسن العطار ، فكان يشترك معه في الاطلاع على الكتب الغربية التي لم تتداولها أيدي الأزهريين » .

والذين ينسبون كثيرا من الفضل إلى محمد علي بما استحدثه من نظام البعثات العلمية إلى أوروبا ، ويزعمون له العبقرية في هذا الصنيع ، ينسون فضل الشيخ حسن العطار في توجيه محمد علي إلى هذا السبيل ، فقد كان مقربا منه ، ولا شك أنه سمع منه كثيرا ترديده لنغمة تجديد المعارف وتغيير أحوال البلاد ، فالتقط محمد علي بذكائه هذه الفكرة ، وحورها إلى نظام البعثات وترجمة الكتب وغيرها من أفكار جريئة وجديدة ، كان الفضل فيها يرجع إلى الشيخ حسن العطار . ولكن ما العمل والوثائق الرسمية تغفل دائما فضل أصحاب الفضل من غير الحكام والولاة والسلاطين ، وتحجبهم حتى تفسح المجال لظهور هؤلاء الحكام والولاة والسلاطين على حساب أصحاب الفضل الحقيقيين .



محمد علي

يعتبر المؤرخون وعلماء الدين والمفكرون والكتاب الموضوعيون أن «محمد علي» أحد مجددي القرن الثالث عشر الهجري – الذي عاش بين 1183هـ ، 1265هـ – وفي مقدمتهم المؤرخ الكبير : «عبد الرحمن الرافعي والأستاذ عبد المتعال الصعيدي» ، لما لهذا الوالي من إنجازات شاملة أحدثت نهضة عظيمة في مصر ؛ وذلك حين نقلها– كقطر إسلامي– من التخلف إلى نهضة التحضر والتقدم، ولعلنا نقرأ في ذلك ما كتبه مؤرخ مصر الحديثة «عبد الرحمن الرافعي» فيما سجل بمجلده الضخم عن : (عصر محمد علي) .

فلا جدال في أن محمد علي قد سما بأعماله إلى مصاف عظماء الرجال . وتتمثل لك عظمته من كونه نشأ نشأة متواضعة ، وتدرج من جندي بسيط إلى أن ارتقى عرش مصر، فأسس ملكا عريضا، وغالب دولا كبارا ، وأنشأ دولة عظيمة وحكومة ثابتة وطيدة ، وبعث حضارة زاهرة ، وأنبت ثقافة كان لها الفضل الكبير في نشر لواء العلم والعرفان في وادي النيل .

فالرجل الذي ينشئ كل ذلك ، وكان أميا لم يتلق تعليما عاليا ولا أوليا ، لابد أن يعد بحق من المجددين ، ولولا عظمته وتجديده لما تخطى نشأته الأولى ، وإذا تخطاها فلا يلبث أن يقف عند حد يتناسب مع مرتبته أو مرتبة أقرانه ، ولكن اضطلاعه بالمهمات الكبرى التي أخذها على عاتقه ، وتأسيسه ذلك الملك الضخم رغم ما اعترضه من العقبات ، وبقاء أثره خالدا طوال هذه السنين وإلى ما شاء الله يدل على مبلغ عبقريته .

نعم ، إن العناية الإلهية لاحظته في مختلف أدوار حياته ، وكان لها فضل كبير فيما وصل إليه من عز وسؤدد ، ولكن من من العظماء لم تكن للعناية والأقدار دخل أيما

دخل فيها نالوه من نجاح وتوفيق ؟ ومن من العظماء المجهولين لم يقبر عظمتهم إدبار الحظ وغلبة الأقدار؟ فمع اعتقادنا بها للحظ والعناية الإلهية من الأثر في حياة محمد علي ، لا نشك في أن المواهب التي توافرت لديه كان لها القسط الأكبر في نجاحه وتوفيقه .

وأول تلك المواهب : ذكاؤه الخارق ، وبعد نظره ، وسعة حيلته .

فقد جاء إلى مصر ضابطا صغيرا في الحملة العثمانية التي جردتها تركيا لإخراج الفرنسيين من البلاد ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، فلو كان على ذكاء عادي لانتهى أمره بما انتهى إليه معظم ضباط الجيش التركي ، ولكنه لمح من خلال الأفق ما تتمخض عنه الأمة المصرية من نزوع إلى الحرية ، وما يجيش في صدرها من آمال كبار ، وما تشعر به من سخط على نظام الحكم القديم ، فماشاها في ميولها وسايرها في آمالها ، ورسم لنفسه خطة الوصول إلى عرش مصر من طريق إرادة الشعب ، وهي فكرة مبتكرة بالقياس إلى ذلك العصر ، تدل على ذكاء محمد علي ودهائه وبعد نظره .

ثم تأمل كيف اختط لنفسه طريق الوصول إلى السلطة بين مختلف الأطماع والمنازع المختلفة ، فلقد كان يعمل لهذا الغرض ، وأمامه سلطتان يجب أن يتخلص منهما واحدة بعد الأخرى ، وهما سلطة المماليك : حكام البلد الأقدمين ، وسلطة الوالي التركي الذي كان يمثل حكومة الآستانة ، وكانت هذه الحكومة تعمل على أن تكون لها الكلمة العليا في البلاد بعد أن احتلتها بجيوشها ، ثم كانت أمامه عقبة أخرى وهي : سلطة الجند الأرناءوط وغيرهم من أخلاط السلطنة العثمانية ، فاستطاع محمد علي بدهائه وصبره وذكائه أن يضرب كل سلطة بالأخرى ، وأن يشق لنفسه طريق النجاح والوصول إلى الغاية التي يطمح إليها .

كان «خسرو باشا» (والي مصر سنة 1802) يعمل للتخلص من محمد علي ، فحاربه هذا بالجند ؛ إذ حرضهم على التمرد والمطالبة برواتبهم المتأخرة ، وكانت

نتيجة تلك الحركة سقوط خسرو باشا وطرده من القاهرة ، وكانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ، ولكنه لم يشأ أن يتعجل الوصول إلى السلطة ، بل أخذ نفسه بالصبر والتريث حتى تتهيأ له الظروف الملائمة التي يستقر له فيها الحكم من غير منازع ، فترك رؤساء الجند ينادون «بطاهر باشا» قائمقام ، ولعله كان يتوقع ألا يطول مقامه في الحكم لما اشتهر عنه من الظلم؛ فثار عليه الأتراك الإنكشارية وقتلوه، وخلا منصب الوالي من جديد ، غير أن محمد علي تريث أيضا ولم يتعجل ، وكان الإنكشارية قد اتفقوا على تعيين «أحمد باشا» واليا على مصر ، فلم يرض بهذا التعيين، وتحالف مع الأمراء المماليك على إقصائه وترك السلطة لهم ؛ وألقى في روع كبيرهم «إبراهيم بك» أنه الأحق بولاية مصر ، وبذلك ضرب الأتراك بالمماليك ، ثم ترك هؤلاء يحتملون أمام الشعب مساوئ الحكم ، فما لبثوا أن استهدفوا للثورة التي أقصتهم عن الحكم .

ويدلك على دهائه وأناته : أنه كان في استطاعته أن يثب إلى الحكم بعد سقوط دولة المماليك ، لكنه آثر الانتظار ، واختار للولاية «خورشيد باشا» ، وبقي هو في صف الشعب يدافع عن مطالبه ويتودد إلى زعمائه ، فلما ساءت سيرة خورشيد وكثرت مظالمه ثار عليه الشعب ، وهناك طلب الزعماء من محمد علي أن يقبل منصب الولاية، وألحوا عليه في أن يجيب طلبهم ، فقبل ما عرضوه عليه ، وصار الوالي المختار من الشعب .

واستطاع بذكائه وصدق نظره في الأمور وسعة حيلته ، أن يذلل العقبات التي اعترضته في السنوات الأولى من حكمه ، فتغلب على دسائس الأتراك والإنجليز ومساعي المماليك ، كل ذلك يدلك على مقدرته بل على عبقريته ، وخاصة إذا لاحظت أنه إلى ذلك الحين كان أميا ، إذ من المعروف أنه لم يبدأ في تعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز الأربعين ، وبعد أن تبوأ عرش مصر ، وتخطى العقبات الأولى في حكمه .

ويتجلى لك بعد نظره ورجاحة عقله وأخذه الأمور بالأناة والحكمة : أنه لما اعتزم إدخال النظام الجديد في الجيش المصري لم يغامر بإنفاذ عزمه ، بل انتظر السنين الطوال يتحين الفرص الملائمة لتنفيذ مشروعه ، ولو أنه استعجل الأمر وتسرع لاستهدف لهياج الجنود ، ولشهدت البلاد ثورة من ثورات الجند التي تودي بمراكز الولاة بل توردهم موارد الحتف والهلاك .

والتاريخ يسجل أنه حين عودته من الإسكندرية بعد جلاء الحملة الإنجليزية عن البلاد سنة 1807 كيف ثار الجند في القاهرة وعاثوا في أسواقها فسادا ، وكيف استعمل الحكمة في إخماد ثورتهم . واعتزم من ذلك الحين أن يتخلص من الجيش القديم ، ويحل محله جيش حديث قوامه النظام والطاعة ، ولكنه لم يمض في تحقيق برنامجه إلا حوالي سنة 1819 – 1820 ، وما ذلك إلا لما آنسه من الخطر إذا هو أنفذ مشروعه قبل ذلك الحين ، فمثل هذه الأناة والحكمة وسعة الحيلة لا تصدر إلا عن دهاقين الساسة ذوي الرءوس الكبيرة ، وبهذه الصفات نجح في تأسيس الجيش المصري النظامي . فتأمل كيف انتظر أكثر من اثنتي عشرة سنة قبل أن يبدأ في إنفاذ فكرته ، وكيف أنه عندما بدأ في دور التنفيذ كان شديد الاحتياط بعيد النظر ، فأسس المدرسة الحربية الأولى لتخريج الضباط النظاميين في [أسوان] أي في أقاصى الوجه القبلي ؛ لكي يبدأ بمشروعه بعيدا عن الدسائس والفتن التي كانت القاهرة مسرحا لها .

فبمثل هذا الذكاء وبعد النظر والأناة ، استطاع محمد علي أن يشق لنفسه طريق النجاح ، وهو من هذه الناحية جدير بأن يعلم ساسة الدول وزعماء الأمم كيف يأخذون الأمور بالحكمة والصبر ورجاحة العقل .

ومن مواهبه التي ذللت العقبات في طريقه ، وكفلت له الاضطلاع بالمهمات الجسام : الشجاعة وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، فهذه الصفات كانت من أكبر مميزاته بعد الذكاء وحسن التدبير .

أما عن شجاعته واستخفافه بالمخاطر : فلعلنا نذكر حادثة [برواسطة] وكيف امتنع أهلها عن أداء ما عليهم من الضرائب ، فعرض محمد علي على حاكم [قولة] أن يأخذ على عهدته إجبار أهلها على الإذعان ، وسار إليهم في عشرات من الجند ، وكيف استطاع أن يعتقل أعيان المدينة ويسوقهم إلى [قولة] ، وبذلك أذعن أهل [برواسطة] وأدوا ما عليهم من الخراج ، فهذه الحادثة تدلك على ما جبلت عليه نفس محمد علي من الجرأة ، واقتحام الأخطار ، فلقد كان هدفا لأن يذهب ضحية مغامرته في تلك القرية الثائرة . ولا شك أن تلك الشجاعة التي ظهرت عليه منذ نعومة أظفاره كانت كما أسلفنا من أخص صفاته ، بل هي من أسباب نجاحه في تأسيس ملكه العظيم .

وتتجلى لك شجاعته وقوة عزيمته في إقدامه على الحروب ومواصلته القتال ، على الرغم مما اعترضه من الهزائم والعقبات ، واحتفاظه برباطة جأشه في أشد الأوقات حرجا ، ولو لم تكن الشجاعة وعلو الهمة من أخص مواهبه لاضطربت نفسه ، وتولاها اليأس أمام المخاطر التي استهدف لها في كثير من المواطن .

ففي حرب الوهابيين استهدفت الحملات التي جردها على الحجاز للهزائم والخسائر الفادحة ، وكانت تجيئه في بعض المواطن أنباء مخيفة عما حل بجيشه من الكوارث ، فلم يتزلزل لهذه الأنباء ، بل كان يقابلها بالجلد والثبات وقوة العزيمة ، وكان كلما أخفقت حملة جرد غيرها ، ماضيا في تحقيق غايته . وقد شهد له «الجبرتي»، ولم يكن من مناصريه ، بعلو الهمة لمناسبة الكارثة التي حلت بالجيش المصري في واقعة [الصفراء] فقال عنه : «ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا ، واستمر على همته في تجهيز عساكر أخرى» .

ولو تابعت وقائع الحرب الوهابية ، لتحققت أنه لولا همة محمد علي وقوة إرادته لما استطاع أن يواصل هذه الحرب ثماني سنوات متواليات ، حتى وصل بها إلى نهايتها من الظفر بالوهابيين وبسط نفوذ مصر ، وسلطتها على جزيرة العرب .

وتبدو لك أيضا شجاعة محمد علي في إعلانه الحرب على تركيا وزحفه عليها ، فإن محاربة السلطنة العثمانية - وهي وقتئذ دولة الخلافة وصاحبة الجيوش الجرارة التي لا ينضب معينها - أمر يحتاج إلى حظ كبير من الشجاعة وعلو الهمة ، بل والمجازفة والاستهداف للأخطار ، إذ لو ظفر به السلطان في واقعة من وقائع تلك الحروب الطاحنة ، لكانت دولة محمد علي ، بل حياته عرضة للخطر ، فهذا الإقدام له قيمته في الحكم على شخصيته .

وإذا قال قائل : إن محمد علي إنما حارب تركيا في الوقت الذي بدت عليها فيه أعراض الضعف والهرم ، فماذا نقول عن وقوفه في وجه الدول الأوروبية جمعاء عقب انتصار الجيش المصري في [بيلان وقونية] ، واعتراضه على حرمانه ثمرة انتصاراته ، فإذا رجعت إلى الخطابات التي وجهها إلى مندوبي الدول واعتراضه على تدخلهم ومصارحتهم بعدم النزول على إرادتهم ، تجلى لك مبلغ شجاعته ورباطة جأشه وقوة يقينه . ثم ماذا نقول في تحديه الدول الأوروبية في الحرب التركية الثانية ، عقب انتصاره في واقعة [نصيبين] ورفضه الإذعان لقراراتها ، وطرد سفرائها من مصر ؟! كل ذلك يدل على مبلغ ما تذرع به من شجاعة النفس ومغالبة المصاعب ، وتلك لعمري صفات العبقرية والعظمة .

ومن أخص صفاته التي لازمته طوال حكمه : حبه للعمل وجلده على احتمال أعبائه ، فلم يكن يعرف لنفسه هوادة ، وكان يهتم بدقائق أعمال الحكومة ويراقبها بنفسه ، ولا ينام من الليل إلا قليلا ، وكان يصرف معظم وقته في مراقبة الأعمال والعمال، ويكثر من التجول في الأقاليم ليراقب بنفسه تنفيذ التعليمات التي يصدرها. وبهذه الوسيلة ، كان يبث روح العمل والنشاط في نفوس الموظفين ، ويشعرهم دائما بأن عينه لا تغفل عن مراقبة أعمالهم ، وغني عن البيان أن هذا يستدعي مثابرة وجلدا على العمل ونشاطا لا يعرف الملل أو الكلل ، وهذا النشاط كان أمرا غير مألوف في ملوك الشرق وأمرائه الذين هم في الغالب أميل إلى الدعة والكسل ، والانصراف إلى

الراحة وترك حبل الأمور على غاربها ، والانكباب على الملاهي والملذات ، فمحمد علي كان فذا بين ملوك الشرق وحكامه ، وهو بنشاطه المنقطع النظير قد أعطى الملوك والحكام كافة أحسن مثال للاضطلاع بمهام الأمور . ولقد كان هذا النشاط موضع إعجاب الإفرنج الذين لم يألفوا مثل تلك الحركة المستمرة من حكام الشرق وملوكه، ولقد تعجبوا على الأخص حينما رأوه وهو في سن السبعين يقوم برحلة طويلة شاقة في السودان ، ويتوغل في أصقاعه النائية مستهدفا للمتاعب والأمراض ، متنقلا من جهة إلى أخرى على أتم ما يكون من النشاط واليقظة ، فهذه الحركة وذلك النشاط مع التقدم في السن ، يعطينا فكرة عما غرس في نفسه من علو الهمة وحبه للعمل .

ولا يخفى أن حبه للعمل ويقظته في مراقبة موظفي الحكومة كان لهما فضل كبير في تقدم الأداة الحكومية في عهده ، وبعث روح النشاط في فروعها ، بعد أن كانت الحكومة مصابة بالجمود ، أو بما يشبه الشلل في عهد الحكم التركي وحكم المماليك .

تلك هي الصفات والمواهب التي تكونت منها شخصية محمد علي ، وجعلت منه رجلا عظيما . والآن فلنبحث عن أثر هذه العظمة ونتائجها في ولايته الحكم ؛ لأن من العظماء من تتوافر فيهم صفات العظمة ولكنهم يقصرونها على ذواتهم وأنفسهم ، فلا تنال البلاد منهم ثمرة ما ، بل قد يجلبون عليها النكبات والكوارث ، ومع ذلك يعدون عظماء ، ولكن محمد علي كان من صنف العظماء الذين نالت البلاد على أيديهم كبرى الفوائد .

فهو من الوجهة السياسية كان يرمي إلى إنشاء دولة مصرية مستقلة ، قوية البأس عظيمة السلطان ، منيعة الجانب ، وهي غاية تعد المثل الأعلى للقومية المصرية، ولقد حقق فعلا تلك الغاية ، وجعل من مصر دولة فتية مستقلة تمتد حدودها من [جبال طوروس] شمالا إلى أقاصي السودان جنوبا ، وتشمل مصر وسورية وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الأناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر وسورية

وبلاد العرب وجزيرة كريت وقسما من الأناضول ، ولئن تراجعت حدود مصر طبقا لمعاهدة [لندرة] فقد بقيت حدودها الأصلية سليمة شملت استقلال مصر والسودان وحققت وحدة وادي النيل السياسية والقومية .

وغني عن البيان ، أن تحقيق هذا المشروع العظيم ليس من الهنات الهينات ، ولا ينهض به رجل عادي ، بل يحتاج إلى سياسى كبير من أعظم الرجال همة ودهاء ؛ فإن أي خطأ يبدر منه كان يكفي لإحباط المشروع في خطواته الأولى ، أو هدمه من أساسه بعد تمامه ، ولكن محمد علي أحاط مشروعه بالحذر وبعد النظر والحكمة ، ويكفيك برهانا على بعد نظره في السياسة ، أنه لما عرض عليه مشروع حفر قناة السويس أعرض عنه ، رغم إلحاح بعض الماليين والسياسيين الإفرنج ، إذ رأى أنه سيؤدي إلى تدخل الدول في شئون مصر ، واتجاه الأطماع إليها وجعلها هدفا للدسائس الاستعمارية ؛ مما يفضي إلى ضياع استقلالها ، ومما يؤثر عنه أنه قال في هذا الصدد : «إذا أنا فتحت قناة السويس فسأنشئ بوسفورا ثانيا ، والبوسفور سيؤدي إلى ضياع السلطنة العثمانية ، وبفتح قناة السويس تستهدف مصر للأطماع أكثر مما هي الآن ، ويحيق الخطر بالعمل الذي قمت به وبخلفائي من بعدي » .

ولقد حققت الأيام صدق نظره ، وما كان أجدر خلفاءه أن يعملوا برأيه فلا يغامروا بمستقبل البلاد وينشئوا فيها بسفورا ثانيا أفضى إلى ضياع استقلالها .

إن كفاءة محمد علي كرجل سياسى بعيد النظر ، ظهرت في تأسيس الدولة المصرية المستقلة ، وفي إبعاد اليد الأجنبية عن التدخل في شئونها ، ومن هنا ، جاءته فكرة المعارضة في فتح قناة السويس ، وتبدو هذه الكفاءة أيضا في كونه مع وفرة أعمال الإصلاح والعمران التي تمت على يده ، لم يحمل مصر دينا لدولة أجنبية ، ولم يقع فيما وقع فيه خلفاؤه من مد يد الاستدانة وفتح ثغرات التدخل الأجنبي في شئون البلاد .

ومما يذكر له في هذا الصدد ، أن شركة إنجليزية طلبت إليه أن يأذن لها بإجراء إصلاحات مهمة في ميناء السويس تزيد من اتساعها وتجعلها مرفأ كبيرا ، فأبى أن يجيب الطلب ، وكذلك لم يطمئن إلى مد سكة حديدية بين مصر والسويس على يد شركة إنجليزية أخرى ، وبعد أن اتفق وإياها على إنفاذ المشروع عدل عنه ، خوفا من عواقب امتداد النفوذ البريطاني في مصر .

ففضل محمد علي ليس مقصورا على تحقيق استقلال مصر ، بل هو فوق ذلك قد وضع الدعائم الكفيلة بصيانة ذلك الاستقلال ، ورسم السياسة الحكيمة التي تجعله بمنجاة من المخاطر ، ولو أن خلفاءه حذوا حذوه واتبعوا سياسته ، لما تصدع بناء الاستقلال في عهدهم .

تلك كانت أعمال محمد علي ومقاصده من الجهة السياسية ، أما من الوجهة العمرانية : فقد كان من الرجال ذوي الخطط الواسعة النطاق في الإصلاح ونشر لواء العلم والحضارة في البلاد ، ولا نريد هنا أن نسرد أعماله في هذا الصدد ، فيكفي أن نرجع إلى بقية أعماله لنجده من غير شك : باعث نهضة الإصلاح والعمران في مصر الحديثة .

ومن هذه الأعمال العظيمة : تأسيس حكومة نظامية ، ولم يكن بمصر ثمة حكومة من قبل ، بل كانت هيئة قوامها الخلل والفوضى ، لكن محمد علي أوجد حكومة مستقرة ، لها قواعد وأنظمة ودواوين وإدارات ، وسن لها قوانين ولوائح ، فهو من هذه الوجهة يعد من كبار رجال الدول، ولا شك أن فكرة التنظيم هي ناحية بارزة من نواحي عبقريته ، فهو الذي بث روح النظام في هيئات الحكومة وفروعها ، في الجيش ، والبحرية ، والتعليم ، والشئون الخارجية ، والري ... إلى غير ذلك .

ولكل ذلك ، اعتبر المؤرخون ، ومترجمو سير شخصيات المجددين في الإسلام أن محمد علي واحد من هؤلاء المجددين في العصر الحديث .

*   *   *

رفاعة رافع الطهطاوي

رفاعة رافع الطهطاوي ، من مجددي القرن الثالث عشر الهجري ، حيث ولد عام 1218هـ ، وتوفي عام 1290هـ ، وتجديده كان في : ريادته للنهضة العربية الإسلامية في جوانب عدة ، منذ أن سافر إلى فرنسا وعاد منها ، وقد سيطرت على عقله فكرة مؤداها : الاستفادة من تقدم الغرب في العلم ، متأثرا بالمبدأ الإسلامي الذي يدعو إلى العلم ولو في الصين . وبالفعل عمل على طلب العلم من الغرب ، هذا العلم الذي لا يعتدي على عقيدتنا ، وإنما يصلح من شأننا.

ففي سيرته : نلمحه شابا نشأ نشأة عادية من أبوين فقيرين كأبناء السواد الأعظم من الشعب ، وتلقى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره . ودخل الأزهر كما دخله غيره من المئات والآلاف ، وصار من علماء الأزهر كما صار الكثيرون أيضا . ولكنه تميز عن أقرانه وتفرد بالسبق عليهم ؛ حيث تسامت شخصيته إلى أعلى المراتب . لماذا ؟ لأنه كان يحمل قلبا جسورا وعقلا متوثبا ، وعزيمة ماضية ، وفكرا مقتحما .

وحتى في اختياره إماما للمبعوثين ، مهمته الوعظ والإرشاد لأفراد البعثة ، نراه تحول إلى إمام لنهضة فكرية حديثة .. لماذا ؟ لأنه لم يكتف بالوظيفة التي سافر من أجلها ، بل نراه يرتحل إلى باريس وعيناه على ثقافتها وعلمها ، ومع أخذه من النهضة الأوروبية بأحسن ما فيها ، احتفظ بشخصيته العربية الإسلامية ، ليعود إلى وطنه كامل الثقافة ، صحيح العقيدة ، سليم الوجدان ، معتزما خدمته بما يرضى عقل العالم وقلب الأديب ، وضمير الوطني المفتون بحب بلده ؛ ليزدان به عصر محمد علي ، وتمتد زعامته إلى عصر إسماعيل .

عاش رفاعة في باريس ، ليس كوافد تبهره أضواء الغرب ، كان يـرى ويـسمع، يبحث ويدرس ، يناقش ويسأل ، كان يؤمن بأن الحياة الإنسانية لا تريـد لأعـضائها أن يعيشوا عميا ومعهم أعينهم، أو بكما ومعهم ألسنتهم، أو صما ومعهم آذانهم، كان علامة استفهام دائبة التنقل بين الأشياء حتى يفهمها، وبين الأفكار حتى يستوعبها.

فما الذي كان يهمه من السعي إلى إتقان الفرنسية ؟ غير معرفـة لغـة قـوم حتـى يستفيد من علمهم .

وما الذي كان يعنيه من وراء درس نظام الحكم بفرنـسا ، وترجمـة دسـتورها في كتابه : (تخليص الإبريز) وأن لا يكتفي بذلك بل يعلق على مواد هذا الدستور.. غير ميله الفطري إلى تطبيق مبادئ الحرية والديمقراطية في بلده ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بالصحافة الفرنسية، وقوله عنها: « إن الإنسان يعرف فيها سائر الأخبار المتجددة ، سواء كانت داخلية أو خارجية » .. غير أنه كـان يريد لبلده صحافة جديدة يسهم في تأسيسها وتطويرها في (الوقائع المصرية)، أو مجلة (روضة المدارس) ، أو ينشئها من بعد تلاميذه ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بالتعليم فيستحدث منظومة في التربية والتعليم، يصب فيها عصارة علمه وعمله وفلسفته .. غير أنه كان يريد لأمتـه التقـدم، ولـيس من سبيل آخر إلى ذلك غير التعليم ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بإنشاء مدرسة الألسن ، غير أنه كان يريـد مـد الجسور بين لسانه العربي واللسان الأجنبي ؛ حتى تكون أمته على اتصال دائم بالفكر العالمي ؟!

وما الذي كان يعنيه من الاهتمام بإصلاح النظام القضائي في عـصر إسـماعيل ، وأن يمهد لذلك بتعريب القوانين الفرنسية ، وهي مهمة شاقة تحتاج إلى اطلاع واسع على هذه القوانين ومعرفة عالية بأحكام الـشريعة الإسـلامية . حتـى يمكنـه اختيـار

المصطلحات المطابقة لهذه الشريعة في هـذه القـوانين ، غـير النهـوض بهـذا الجانـب الحيوي من حياتنا ؟!

ثم ما الذي كان يعنيه من وراء دعوته إلى : تعليم المرأة وتثقيفها أسوة بالرجل ، وأن يخصص لذلك كتابا هو : (المرشد الأمين للبنـات والبنـين) فيـه يقـرر وجـوب تعليمها ؛ حتى تقوم بواجباتها ، وليكون هو بحق أول من دعا إلى تحرير المـرأة ، غـير الخروج بهذه المرأة من البؤرة المتخلفة التي عششت فيها قرونا لتسهم مـع الرجـل في بناء المجتمع ؟!

ما الذي كان يعنيه رفاعة من وراء كل ذلك ، وما تفـسيره غـير التنـوير في كـل جوانب حياتنا ؟!

ذلك أن التنوير عند رفاعة كان أملا حلوا تعلق به حتى لـبس ثـوب الحقيقـة ، وخيالا عذبا طاب له أن يسبح فيه حتى اكتسى بكساء الواقع ، وحلما جمـيلا انـشغل به حتى تبدى واضحا جليا في أعمال أبنائه وأحفاده .

مثل التنوير عند ابن صعيد مصر : رفاعة كمثل ثأر قديم من موات حمل الفكـر العربي على الرحيل في عنفوان شـبابه ، فـأرغم آدابـه الخالـدة عـلى الـسير في ركـاب المتثائبين في عصور الانحطاط ، وأجـبر علومـه العظيمـة عـلى التوقـف لتلحـق بهـا وتسبقها فلول المتربصين ، وحول فنونه الرفيعة إلى علب ومواخير بعـد أن أضـاءت إشعاعاتها ظلام العصور الوسطى .

إن الحديث عن الطهطاوي كرائد للنهضة العربية الإسلامية طويل، وله جوانب عدة ، غير أننا في هذه الصفحات نختار جانب دعوتـه إلى تحريـر المـرأة ، مـسايرا في ذلك تعاليم الإسلام ، والتي بسببها مع غيرها نعتبره من المجددين في القرن الثالـث عشر الهجري ، معتمدين في رصد هذه الدعوة على ما كتبـه الـدكتور «محمـد محمـود الدش» فنقرأ ما خلاصته: أن الطهطاوي كان يريد أن تصل دعوته في التربية والتعليم

إلى كل مكان من العالم العربي بحقيقة فكرنا الإسلامي ، الذي يدعو إلى أخذ العلم والاستفادة منه ، حتى ولو كان في الصين ، فكانت دعوته إلى تحرير المرأة العربية أول دعوة في قضية المرأة العربية التي ظلمتها قرون التخلف والظلام ، حتى إنه جعل منها قضية لها أهميتها وخطورتها . ونستطيع أن نلمس ذلك من كتاباته وآثاره ، ومن أهمها في هذا المجال كتاب : (تخليص الإبريز في تلخيص باريس) الذي سجل فيه مشاهداته ودراساته وتجاربه ومقارناته ، إبان رحلته في فرنسا ، فأطلع القارئ العربي لأول مرة على ما يجري في هذه البلاد ومجتمعاتها ومدارسها وجامعاتها ، من : عادات وتقاليد ومناهج وأساليب- وكانت له أثناء ذلك وقفات ، خاصة عن المرأة الغربية ، سجل فيها - منذ وطئت قدماه [مرسيليا] - كل ملاحظاته عنها ، في أسلوب تقريري وعبارات محايدة ، ومقارنة موضوعية بينها والمرأة العربية ، وأحيانا كان يعطي نفسه حق الاستحسان أو الاستهجان هنا وهناك في غير اندفاع أو انفعال .

أما كتابه الثاني الذي يخدم هذه القضية ، فهو : (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيه يسوي في مجال التربية بين البنات والبنين ، ويؤدي إلى هؤلاء وهؤلاء النصائح والوصايا ، ويضرب الأمثال لهم جميعا دون تفرقة ، فيما يجب عليهم أن يتحلوا به وأن يزدانوا من صفات حميدة وخلق قويم . كما يخص الفتاة بوجوب التمسك بالحشمة والحياء ، ولكنه في الوقت نفسه يؤكد فضل المرأة في تربية الأبناء والبنات ، وتنشئتهم على الصلاح والشجاعة والوطنية ، ويضرب في ذلك كله كثيرا من الأمثال، ويروي الطرائف والأخبار من أدب العرب .

كما أن له مقطوعة شعرية في تعليم البنات والبنين ، نشرها في كتاب ثالث هو : (مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية) .

والأفكار السائدة عند رفاعة في قضية المرأة تقوم أساسا على المساواة بين الذكور والإناث في التربية ، منذ دعا إلى تحرير المرأة من الجهل والضلالة وفتح

المدارس لتعليمها ، بل لعله كان يدعو إلى تقديمها في هذا الميدان على الذكور ، لما لهن من آثار معنوية في تربية الأجيال ورعاية الأسرة ، وقد ذكر ذلك صراحة في كتاب : (المرشد الأمين) ، حيث يشير إلى أن تعلم الأدب حسن في الرجال والنساء جميعا ولكنه في النساء أحسن ، لما فيهن من الرقة الطبيعية والمحاسن المعنوية .

فإذا تحررت المرأة من الجهالة بالتعليم ، فقد استطاعت أن تتحرر من البطالة وأضرارها بالخروج إلى العمل، وأن تتحرر من الاحتكار والسجن بالاختلاط والانطلاق، وتكوين الشخصية النسوية وتنميتها ، فتكون زينة المنازل وأنس المجتمعات بثقافتها وأدبها ورقتها ، وتتحرر بذلك من الضرائر وتعدد الزوجات الناجم عن الجهل أو سوء الخلق والأدب ، وتتحرر دون شك من الحجاب .

والذين يرون أن «قاسم أمين» هو أول من دعا إلى تحرير المرأة تحررا كاملا فتملك حرية السعي والاختلاط ، وحرية الانكشاف ورفع الحجاب في حدود الشرع ، يختصرون التاريخ اختصارا مخلا ، فيه ضن وابتسار .

وإذا أردنا أن نرد الحقوق إلى أصحابها ، والأصول إلى أربابها ، فلنتأمل آثار «رفاعة الطهطاوي» وخاصة ما كتبه عن المرأة الغربية دون أن نغفل حساب الزمن في آثار الصيحة الرفاعية والدعوة القاسمية ، وظروف كل منهما .

سبقت الصيحة الرفاعية الدعوة القاسمية بنصف قرن من الزمان لا أقل من ذلك ، ونصف قرن في تلك الظروف شيء ليس هينا ؛ لأن هذه الصيحة كما يقولون كانت في واد ، حين لا حياة لمن تنادي .

ونلمح في أفكار رفاعة للوهلة الأولى إعجابه الصريح بالمرأة الغربية ، وفي كثير من الأمور يثني عليها ثناء طيبا فضلا عن عجبه وإعجابه ، وهو مع ذلك ينكر عليها ما يتنافى مع الدين الحنيف والأخلاق العامة .

فهو يعجب بسفور المرأة الفرنسية : «كشف الوجه والرأس والنحر واليـدين» ، ولكنه ينكر على الباريسية ، خاصة تبرجها الزائد وخلاعة ملبسها .

ويلاحظ أن «جمال النساء وصفاء أبدانهن أعظم في القرى منـه في مدينـة بـاريس، وأن نساء الأرياف أقل تزينا ، كما هي العادة المطردة في سائر بلاد العمران » .

ومن الطريف : أن يذكر رفاعة أن بعض القاهريات يلبسن عـلى أيامـه الـشعر المستعار (الباروكة) .

كما يعجبه أن تشارك المرأة الرجل في ميدان العمل ، في التجارة وغيرها ، ولكنه لا يرضى بأن يكون الرجال «عبيد النساء وتحت أمرهن» .

وينكر أشد الإنكار ما رآه من فجور الزوجات في العائلات الصغيرة والكبيرة ، بينما المرأة في الطبقة المتوسطة متعففة نقية الذيل . وعنده أن المرأة إذا كانت مدللة عند الإفرنج، فإنها كأمتعة البيوت في بلاد الشرق، ولا يرضيه ألا يغار الرجل على امرأته، وهو الصعيدي الذي يفهم أن القتل من وسائل الغيرة على النساء وعفتهن .

وكان أشد ما أعجبه وأثلج صدره أن : « للنساء هناك تآليف عظيمـة ، ومـنهن مترجمات للكتب من لغة إلى أخرى ، مع حسن العبارات وسبكها وجودتها ، ومنهن من يتمثل بإنشائها ومراسلاتها » ، وأن المرأة هنـاك تقـوم بعقلهـا وقريحتهـا وفهمهـا ومعرفتها ، ومن أجل ذلك لا يكتمل الأنس ولا تحلو الجلسة إلا بهـا . وهـي «التـي تحيي الضيوف أصالة ، وزوجها يحيـيهم بالتبعـة » «فـالمرأة لهـا احترامهـا وجلالهـا ، والأنثى دائما في المجالس معظمة أكثر من الرجل بثقافتها واطلاعها ورقتهـا وظهـور شخصيتها » .

وينبغي لنا أن نلاحظ هنا أن الشاب رفاعة ، الذي سـافر إمامـا دينيـا للبعثـة في باريس ، لم يتغير سلوكه ، ولم تتبدل أخلاقه ، وله في ذلك شهادات قوية ، وإنما الذي تغير هو عقله ومنهجه في التفكير ، تبعا لاتساع ثقافته وازدياد تجاربه وتأملاته .

ومن العسير .. أن نعقد مقارنة سليمة بين صيحة رفاعة ودعوة قاسم في قضية المرأة لاعتبارات كثيرة ، ونحن نؤكد ذلك ؛ لأن الظروف بطبيعتها الفكرية والاجتماعية كانت تحول دون أن تصبح صيحته قضية كاملة أو دعوة شاملة ، فالسنوات الخمسون، أو تزيد، حدثت في غضون أحداث كبيرة في البلاد، في جوانب مختلفة من تأريخ حياتها ، لا نشك في أن صيحات رفاعة وتلاميذه كان لها أكبر الأثر في حدوثها .

ونستطيع أن نجمل على عجل هذه الأحداث ؛ فهي : سرعة دوران المطابع على الكتب والصحف ، وإنشاء المدارس بأنواعها للبنين والبنات ، وكثرة العائدين من البعثات بالخارج في أقطار مختلفة ، وتزايد عدد الخريجين والمتعلمين من المدارس الوطنية ، وازدياد الشعور الوطني والقومي وارتفاع حرارته ، وظهور أول مجلس لشورى النواب ، ولمعان زمرة كبيرة من الزعماء والخطباء والكتاب في السياسة والوطنية والاجتماع ، وتجمع المستنيرين من الوطنيين في اتحادات وجمعيات وندوات. كل ذلك كان تمهيدا طيبا للطريق الذي اختطه قاسم أمين لدعوته في قضية المرأة ، وجعلها دعوة واسعة كبيرة .

وفي الوقت الذي كان يقف فيه رفاعة الطهطاوي ، وهو يكاد يكون وحيدا ، حينما رفض الطلب المقدم سنة 1836 بفتح مدارس لتعليم البنات ، نرى أن قاسما كانت تحيط به كوكبة من جلة الدعاة الكبار ، والمؤمنين بحرية المرأة ، من أمثال : «محمد عبده ، وسعد زغلول ، وفتحي زغلول ، ولطفي السيد ، وحافظ إبراهيم ، وأحمد شوقي ، وخليل مطران» . وزاد الدعوة حرارة ، وأكسبها حيوية ونشاطا في صراعها : أنه كان هناك معارضون من أمثال : «محمد فريد وجدي ، وطلعت حرب، ومحمد رشيد رضا» ، على تفاوت في المعارضة واختلاف في أسلوبها وفي عناصرها.

ونستطيع أن نشير أيضا إلى : أن الفترة التي حكم فيها «عباس الأول وسعيد» ، وخنقت أثناءها النهضة التعليمية التي رادها رفاعة ، وراعى بادرتها كانت من العقبات الكبرى التي اعترضت طريق قضية المرأة ، وحالت دون اتصال السير فيها، ولكن رفاعة بعد انتهاء هذه الفترة (1849 – 1863) عاد إلى العمل بخطى كبيرة وعزم شديد ، ومعه نفر في مقدمتهم : «علي مبارك» ، في سبيل تحرير المرأة من قضبان الجهل وأسوار الظلام .

أحسب أن الطهطاوي كان يفهم قضية المرأة وإعطاءها حرية التعليم وحرية السفور وحرية العمل على أنها وحدة متكاملة الجوانب ، بلا تفصيل أو تفريع ، وإنما الذي دعا إلى كثرة التفصيلات والتفريعات هو ذلك الحوار الطويل والجدل العنيف الذي ثار أيام قاسم أمين . وأما الشيخ رفاعة فقد رأى أن مجرد إخراجها من وراء قضبان الحريم ، وتعهدها بالتعليم والتهذيب في المدارس أسوة بالبنين ، كفيل بحل المشكلة من أساسها حلا صحيحا كريما يصحح الأوضاع الاجتماعية الضاربة في الأرض بجذور عميقة ، ويكسب المرأة حرية الحركة والانطلاق .

وحسب رفاعة في هذا المجال أنه دعا قرنا وثلثا إلى تربية الفتاة وتعليمها ، وكافح في هذه السبل كفاحا مجيدا ، في وقت عز فيه تعليم البنين والرجال ، وندر تعليم الصبيان والفتيان ، فأوجد بدعوته من أجل المرأة ثورة جريئة جليلة ، وكفاه فخرا أنه : أول من نبه الأذهان وحرك الأبصار والبصائر بصيحته القوية المجلجلة ، وطرقاته العنيفة الملحة ، التي أفاقت المجتمع العربي من نوم عميق ، وإقامته مذعورا من سباته الطويل ، وقدم بعد ذلك للأجيال الناهضة مدرسة تضم نخبة من التلاميذ الذين ملأوا العصر من بعده ، فتشعبت فروع شجرته الظليلة في الإصلاح على أيديهم ، وحملوا نبراس دعوته ومشعل أفكاره ، وأفكارهم في التربية والتعليم وإحياء التراث المجيد ، ونقل العلوم الحديثة ، وصقل اللغة وتنميتها وإغنائها عن

طريق الصحيفة والكتاب والمدرسة ، فأضاءوا الطريق للبنين والبنات ، بل «للبنات والبنين» .

وأحسب أن الرجل الكبير قد مضى حين مضى عن الدنيا 29 مايو 1873 ، رضى النفس قرير العين ، بهذه المدرسة الفكرية القوية بطريقتها ومنهجها ووسائلها في النقل والنشر ، وبما تركه من ثروة عقلية وفكرية في كتبه الكثيرة التي ألفها وترجمها في العلوم والآداب ، وبهذه المجلة الفنية : (روضة المدارس) التي كانت أغنى صحف عصره ، بما فتحت من صدرها ، للكتاب من علماء وأدباء ومعلمين ومعلمات ، وما كان يخلو من أعدادها من موضوع أو موضوعات تتناول قضية المرأة أو قضية الأسرة أو قضية المجتمع في جرأة وصراحة ، بل ثورة في التناول والتعبير والتطوير .

ولهذا ولغيره ، يعتبر رفاعة رافع الطهطاوي واحدا من المجددين في الإسلام ؛ بسبب ما أوجده في مجتمعه المصري ، بل والمجتمعات العربية من نهضة ويقظة حديثة.

❊ ❊ ❊

جمال الدين الأفغاني

السيد جمال الدين الأفغاني من مجددي القرن الثالث عشر الهجري ، حيث ولد عام 1254هـ في بلده [أسعد أباد] إحدى القرى التابعة لأعمال مدينة [كابل] عاصمة أفغانستان ، وكان والده «السيد صفدر» من سادات كنر الحسينية ، حيث يرتقي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ، كما يتصل هذا النسب بالإمام الترمذي المحدث المشهور ، ومن ارتقاء نسبه إلى الحسين رضي الله عنه جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني .

وكما يسجل المؤرخ الكبير «عبد الرحمن الرافعي» في التعريف به ، فيذكر أنه كان لأسرة جمال الدين الأفغاني منزلة عالية في بلاد الأفغان ، أولا لنسبها الشريف ، وثانيا لمقامها الاجتماعي والسياسى ؛ إذ كانت لهذه الأسرة السيادة والإمارة على جزء كبير من بلاد الأفغان ، تستقل فيه بالحكم ، إلى أن انتزعت منهم هذه الإمارة بفعل أمير الأفغان وقتئذ: «دوست محمد خان» ، فأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أقاربه إلى العاصمة كابل ، وقد كان في الثامنة من عمره . فعني والده بتربيته وتعليمه على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء في بلاده ، وقد وضحت عليه منذ صباه سمات الذكاء ، وقوة الفطرة ، وتوقد القريحة ، فتعلم اللغة العربية مع غيرها ، وتلقى علوم الدين والتاريخ والفلسفة والمنطق والرياضيات، حتى استوى حظه من هذه العلوم ، على أيدي أساتذة وعلماء زمانه ، على الطريقة الإسلامية المشهورة وقتئذ .

واستكمل الغاية من دروسه ، وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره ، ثم سافر إلى الهند ، وأقام سنة وبضعة شهور ، فيها كان يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوروبية ، حيث كانت الهند مستعمرة إنجليزية . فاتسعت مداركه ؛ إذ كان بطبعه

ميالا إلى الأسفار والرحلات ، واستطلاع أحوال الأمم والشعوب والجماعات ، وقد أفادته هذه الخصال بعد ذلك في تكوين عقليته السياسية التي اشتهر بها .

وفي واحدة من أسفاره ، قام بتأدية فريضة الحج ، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة متنقلا في بلاد الحجاز وما يجاورها من البلاد العربية ؛ حتى يتعرف على أحوال هذه البلاد وعادات وتقاليد بل وهموم وآلام شعوبها .

ويعود إلى بلاده الأفغان ، وينتظم في خدمة الدولة في عهد أميرها «دوست محمد خان» ، ويكون أول عمل له هو مرافقته في حملة حربية جددها وأعدها لفتح [هراة] إحدى مدن الأفغان ، وطبيعي أن تكون هذه البداية في عمله لها أثر كبير في حياته بعد ذلك ؛ إذ تعود صاحبها الشجاعة ، واقتحام المخاطر . ومن هنا ، تبدو صفة من صفاته العالية التي امتاز بها وهي : الشجاعة في الفعل والقول ، لأن من يخوض غمار المعارك والحروب تألف نفسه الجرأة والإقدام ، خاصة إذا كان مفطورا على ذلك .

وعلى هذا النحو ، كانت سمات شخصية الأفغاني ، فبدأ جهاده ولم يكن هذا الجهاد مقتصرا على بلاده ، وإنما امتد كذلك إلى أقطار الأمة الإسلامية والأمة العربية؛ حتى أصبحت هذه الأمم مدينة بنهضتها السياسية والفكرية والعلمية يعود الفضل بهذا إلى هذا المجدد : جمال الدين الأفغاني .

لقد ظل الشرق الإسلامي رازحا تحت نير الجمود الفكري ، والتأخر العلمي والاستعباد السياسى ، وبقي في سبات عميق ، إلى أن قيض الله له هذا الرجل ، فنفخ فيه اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وبالعقول أن تفكر وتستيقظ ، وبالأمم والشعوب أن تتطلع إلى الحرية والاستقلال ، فكانت رسالته إلى هذا الشرق مبعث نهضته الحديثة ؛ ولذلك ، فقد وصفه المؤرخون والكتاب – ممن تناولوا سيرة حياته – بباعث نهضة الشرق الإسلامي .

إن رسالة جمال الدين الأفغاني تتلخص في : أنه كان في حياته مصلحا دينيا ، وفيلسوفا حكيما ، وزعيما سياسيا ، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية ، واضطلع بها معا ، فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد الشبيهة برسالة «مارتن لوثر» للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته وترجع به إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التي تسببت في تأخر أتباعه .

ومن الناحية الفكرية : أدى المهمة التي قام بها في أوروبا فلاسفة الفكر من أمثال «جان جاك روسو» ، و«مونتسكيو» ... وغيرهما ، فعمل على تنوير البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد . وفي هذا الجانب بالذات نجده يختلف اختلافا واضحا عن المجدد الذي تأثر به وهو «ابن تيمية» . فلم يقع في مجال تأثيره الكامل مثلما حدث «للشوكاني» كما رأينا في فصل سابق من هذا الكتاب .

ومن الناحية السياسية : برز الأفغاني بروزا لم يتحقق كثيرا لواحد من مجددي الإسلام ، فقد استنهض الهمم ، واستثار النفوس، وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف الأقطار الإسلامية، وقام بمثل العمل الذي اضطلع به زعماء النهضات السياسية الحديثة في الغرب من أمثال «واشنطن، وجاريبالدي، ومازيني»... وغيرهم.

وهكذا ، نرى أن الذي يجمع بين هذه المهام الجليلة التي جمعها الأفغاني ، ويضطلع بها معا ، في وقت اشتدت ظلمة العالم الإسلامي وجهالته، وتفرقت كلمته، وعز فيه النصر ، وتشعبت الأهواء .. وغير ذلك . فهو خليق بأن يتسامى في قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية والخلود ، ويكون بحق هو من بين مجددي الإسلام في القرن الثالث عشر للهجرة . وظل على هذا الحال حتى وفاته عام 1314هـ .

* * *

أحمد خان

أحمد خان : من مجددي القرن الثالث عشر حيث عاش في الفترة بين 1233هـ ، 1316هـ، واشتهر بأنه مصلح تربوي إلى جانب كونه مصلحا سياسيا واجتماعيا، وكان يلقب في كثير من الأحيان بلقب «السير» أي : السيد في أسرة مسلمة قديمة من وجوه الأشراف ، حيث قدم أجداده القدامى من فارس وأفغانستان ، واستقروا في الهند إبان حكم شاه جهان (1628م – 1666م) وأصبحوا وثيقي الصلة ببلاطه: وكانت أمه امرأة راجحة العقل ، أحسنت تعليمه ، ولكن ما تلقاه في المدرسة لم يكن يزيد عما يدرس في أي مكتب . فلما توفي أبوه : «مير متقي» سنة 1838م ، أبطلت الإيرادات المخصصة للمناصب الوهمية في البلاط، فاضطر أحمد خان إلى السعي في طلب الرزق، فدخل في خدمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية بالهند ، وحملته الظروف على أن يقنع بوظيفة كتابية صغيرة في محكمة العدل [بدلهى] : على أنه سرعان ما تمت مكافأته على نشاطه وإحساسه بالواجب ، فرقي إلى وظيفة «منصف» أي : (نائب قاض) .

ومن آثاره الأولى في التأليف : ست رسائل دينية تقوم في معظمها على الدفاع عن مذهب أهل السنة ، وأهم من ذلك : ما نشره في هذه المدة من دراسات تاريخية وأثرية ، وأشهرها كتاب عن : العمائر القديمة والآثار في دلهى وضواحيها عنوانه : (آثار الصناديد) (سنة 1847م) ، وقد ذاع صيت «أحمد خان» بفضل ترجمة كتابه هذا إلى الفرنسية سنة 1861 على يد «كاراسان دي تاسى» وانتخب أحمد خان بعد ذلك بثلاث سنوات عضوا شرفيا بالجمعية الآسيوية الملكية بلندن .

وقد كانت الثورة الهندية المعروفة باسم : «العصيان» (سنة 1857م) هي التي أحدثت في حياته ونظرته التغيير الحاسم الثاني ، ذلك أن نهايتها التعيسة ، وخاصة

بالنسبة للمسلمين الهنود ، هي التي جعلته يستقر على العمل في سبيل مستقبل أبناء وطنه ، وذلك بأن يبذل في المقام الأول الجهود الجادة للتوفيق بين البريطانيين والهنود المسلمين ، الذين كان الإنجليز يعدونهم : عماد العصيان وليس الهندوس : وقد أثبت أحمد ولاءه لحكومته بتدخله الشخصي الذي أنقذ به الجالية الأوروبية في [بجنور] ، وكتب رسالتين في ذلك لتهدئة الخواطر الثائرة ، وألقى فيهما اللوم على الطرفين ، فعنده أن العصيان نشأ من إساءة فهم الشعب الهندي للحكم البريطاني ، وجهل الحكومة بظروف المحكومين .

وقد سما أحمد وارتفع فوق الصخب السياسى ، وسعى إلى الارتفاع بأمته متوسلا بالوسائل الروحية المقتبسة من طريقة الأوروبيين في الحياة أيام القرن التاسع عشر الميلادي .

ففي زيارة لإنجلترا (1869م – 1870م) ، تأثر أحمد تأثرا كبيرا بالمستوى الحضاري الذي بلغه الإنجليز ، فلما عاد إلى الهند بدأ يصدر دورية اسمها (تهذيب الأخلاق) بغية تهذيب أخلاق الجمهور بالتخلص من أهوائه . وكان العمل الثاني الذي حققه ، وهو أروع من الأول ، إنشاءه في سنة 1878 كلية إسلامية إنجليزية شرقية في [عليكرة] على غرار جامعتي : أوكسفورد وكامبردج الإنجليزيتين .

وثالث عمل حققه هو إنشاء : (مؤتمر التعليم الإسلامي) سنة 1886م ، وكان هذا المؤتمر يعقد اجتماعات سنوية في مدن شتى ، ويتيح فرص تبادل الأفكار ونشر الآراء الإصلاحية .

وأحس أحمد خان أن صبغ البلاد بالصبغة العربية يقتضى إعادة النظر في الأفكار الدينية ، وقد احتج في ذلك بقوله في خطبة ألقاها في [لاهور] سنة 1884م : «إننا اليوم ، كما كنا من قبل [عندما اتصل الإسلام اتصالا وثيقا بعالم الأفكار اليونانية] محتاجون إلى علم كلام حديث ، نتوسل به إما إلى دحض مبادئ العلوم الحديثة أو التوهين من أسسها، وإما إلى تبيان أنها تتفق مع أحكام العقيدة الإسلامية»:

على أن الرأي الأخير غلب على أحمد في تفسيره الجديد للإسلام ، حتى أحس الناس بأنه يخدش السمة الخاصة التي يتميز بها هذا الدين ، على الرغم من نواياه المخلصة لمقاومة النزعة العلمانية . وكان الركن الذي يأخذ به في مذهبه في علم الكلام هو مبدأ : «إن فعل الله مطابق لكلمته ، أي القرآن» .

ولقد كان لذلك رد فعل عنيف في محيط العلماء ، فانهالوا عليه باللوم ناعتين إياه بالـ «نجري» أي : (الذي يأخذ بمذهب الدهرية في صورته الأوردية) . وهاجموه بشدة، ولكن دأبه وصلابته وعمله المنزه عن الغرض في سبيل رفعة دينه تغلبا في النهاية على المعارضة . وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر الميلادي أو نحوها ، أصبح أحمد زعيم قومه بلا منازع ، ويتبين ذلك من النصيحة التي أبداها للمسلمين سنة 1887 بألا يشتركوا في المؤتمر القومي ، وأخذت الأغلبية بما أشار به .

وأدى أحمد خان خدمات جليلة لمواطنيه في ميدان الإصلاح الاجتماعي والتعليمي ، ثم إننا يجب ألا نهمل ما كان له من شأن كمصلح ديني : وتعود آراؤه المحددة إلى الظهور بانتظام في كتابات الجيل التالي في صورة مخففة ، على أن أعظم ما أداه أحمد من خير لوطنه هو : أنه رد لمسلمي عصره اليائسين الثقة في أنفسهم . ويعد أحمد ، من هذه الناحية - وليس من ناحية الاشتراكية التي ألصقت به - هو المبشر لدولة باكستان الإسلامية ، تلك التي أنشئت بعد ذلك على أساس من أفكاره . ورجل يكون هو الأساس في تكوين دولة إسلامية لابد أن يكون في طليعة المجددين في القرن الذي يعيش فيه .

ولهذا ولغيره من جهود ، اعتبر أحمد خان من المجددين في الإسلام إبان القرن الثالث عشر ، شأنه شأن معاصره : جمال الدين الأفغاني .

* * *

عبد الرحمن الكواكبي

نحـن علـى موعد مـع فكر الرحـالة (كاف) أو عبـد الرحـمـن الكواكبي.. أحد مجددي القرن الثالث عشر حـيث ولد عام 1271هـ وتوفي عام 1320هـ . ابن [حلب] الشهباء المدينة السورية العريقة، الكواكبي الذي ينتهي نسبه إلى الإمام علي بـن أبي طالـب كرم الله وجهه ، لنمض لحظات في ضيافة هذا المفكـر ضيوفا مباركين.

صحيح أن الدراسات المعاصرة قد اهتمت بالكتابة عن هـذا المفكـر ، فركـزت أغلب اهتمامها على آرائـه التـي وردت في كتابيـه الـشهيرين : (أم القـرى) و(طبـائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) دون أن تدرس عصر الكواكبي . ولهذا ، فقد عنيـت الدراسات التالية عن هذا المفكـر ، وفي مقـدمتها كتـاب عبـد الـرحمن الكـواكبي أو الرحـالة كاف لعمـلاق الفكـر العـربي « عباس محمود العقـاد » والأعـمال الكاملـة لعبد الرحمن الكواكبي التي حققها وقدم لها بدراسة الدكتور «محمد عمارة» . فقدمت الكواكبي كمفكر استبق عصره بأفكاره ، وأضاف إلى الفكر الإسـلامي الكثـير مـن الجوانب التي جلت بعض صفحاته .

مثلا : عن أصل الإيمان بوجـود الله ، يـذكر الكـواكبي في كتابـه : (أم القـرى) قائلا: « إن أصل الإيمان بوجود الصانع الحكيم القدير أمر فطري في البشر ، وأن هذا الأمر لا يحتاجون فيه إلى الرسل ، وإنما حاجتهم إلى الرسل هي في الاهتداء إلى كيفيـة الإيمان بالله كما يجب من التوحيد والتنزيه ... » .

ويؤكد الكواكبي قوله على صفحات : (أم القرى) بقوله : « وهؤلاء قوم نوح ، وقوم إبراهيم ، وجاهلية العرب ، واليهود والنـصارى ، ومجـوس فـارس ، ووثنيـو

الهند والصين وزنوج إفريقيا ، وسائر البشر . كلهم كانوا وما زالوا أهل فطرة دينية، يعرفون الله ، وليس فيهم ما يذكره كليا كما قال عز وجل : ﴿ **وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ** ﴾[1] .

ويستطرد في وجهة نظره هذه فيقول : « ومن تتبع تواريخ الأمم الغابرة وأفكار الأمم الحاضرة ، لا يستريب فيما قررناه من أن آفة البشر الشرك بالله ، وكفى بالقرآن الكريم برهانا فقد قال تعالى : ﴿ **وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ** ﴾[2] .

وبناء على ذلك ، جلت حكمة الله أن يبعث الرسل ، ينقذون الناس من ضلالة الشرك ، وينتشلونهم من وهدة شره في الحياة الدنيا والآخرة ، ويهدونهم إلى رأس الحكمة أي : معرفة الله حق معرفته .

وإذا ما انتقلنا في رحاب فكر الكواكبي إلى كتابه الآخر : (طبائع الاستبداد) تطالعنا فكرة جديدة ، فاقرأ له مثلا : « لقد تضافرت آراء أكثر المحررين السياسيين من الإفرنج على أن الاستبداد السياسي ، متولد من الاستبداد الديني . والبعض القليل منهم يقول : « إن لم يكن هناك توليد ، فلا شك أنهما أخوان أو صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون لتذليل الإنسان » .

وحين يرد الكواكبي على الفريقين يقول عنهم : « إنهم مخطئون في نظرهم إلى الإسلام، وإلى القرآن على وجه الخصوص، ولعلهم يغدرون إذا قالوا: نحن لا ندرك دقائق القرآن نظرا لخفائها علينا ، في طي إشاراته وبلاغته ، وإنما نبني نتيجتنا على مقدمات ما نشاهد عليه المسلمين اليوم من استعانة مستبديهم بالدين » .

(1) الإسراء : 44 .
(2) لقمان : 25 .

وعلى هؤلاء وهؤلاء ، يرد الكواكبي قائلا في كتابه : (طبائع الاستبداد) قائلا: «جاء الإسلام بالحكمة والعزم ، هادما للشرك ، ومحكما لقواعد الحرية السياسية المتوسطة بين الديمقراطية والارستقراطية بأسس التوحيد ، وأظهر الموجود حكومة الخلفاء الراشدين ، التي لم يسمح الزمان بمثال لها بين البشر ؛ فهؤلاء الخلفاء الراشدون قد فهموا معنى القرآن ، وعملوا به واتخذوه إماما ، فأنشأوا حكومة قضت بالتساوي حتى فيما بينهم أنفسهم ، وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشظفها ، وأحدثوا في المسلمين أخوة وروابط هيئة اجتماعية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة » .

ويختم الكواكبي قوله : « القرآن مشحون بتعاليم إماتة الاستبداد ، وإحياء العدل والتساوي في كل آياته » .

ولزيادة التعرف على المواقف التجديدية للكواكبي ، نقرأ معا عرضا لكتابه : (أم القرى) . وعلى الرغم من أن شهرة المفكر الإسلامي الجليل عبد الرحمن الكواكبي ترجع إلى كتابه الأشهر : (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . كما يذهب الكثيرون من المؤرخين والنقاد والدارسين ، إلا أن أصالته الفكرية ترجع إلى كتابه الخالد : (أم القرى) كما يذهب الكثيرون أيضا ، وفي مقدمتهم أستاذنا الراحل الدكتور «أحمد أمين» في كتابه : (زعماء الإصلاح في العصر الحديث) والكاتب المعاصر الدكتور «محمد عمارة» في كتابه : (الأعمال الكاملة) لعبد الرحمن الكواكبي .

وجملة ما يذهب إليه أنصار الرأي الثاني هو : أن كتاب (أم القرى) أهم عمل فكري قدمه عبد الرحمن الكواكبي ، وأنه ليس أسبق في التأليف من كتابه : (طبائع الاستبداد) فحسب ، بل إنه أوسع تفكيرا وأعمق أسلوبا ، فقد تناول الكواكبي في (أم القرى) الكثير من مشكلات العالم الإسلامي بوجه عام، ومشكلات العالم العربي

بوجه خاص منبها إلى الداء ، ومشيرا إلى الدواء . بمنهج علمي غاية في البساطة والوضوح وبعد النظر ، كذلك تبدو إمكانية هذا المفكر في معرفته الموسوعية بتيارات الفكر الإسلامي المختلفة ، وكيف استطاع أن جعل لكل تيار من يمثله ، حين تقمص أدوار من يمثلون هذه التيارات من الشخصيات الإسلامية والعربية . والأكثر ، قام بعقد العديد من المقارنات بين هذه التيارات حين يتبين منها القارئ أن ما يقرره تيار الصوفية غير الذي يقرره تيار الشيعة ، غير الوهابية أو الزيدية أو الشافعية . وهكذا يتعرض لملامح هذه التيارات من خلال حوار بين أطراف يمثلونها .. اجتمعوا في جمعية سرية أقامت مؤتمرا مكانه «أم القرى» [مكة المكرمة] ، بل الأكثر من ذلك ، فإن ما جاء في كتاب أم القرى ، ينهض دليلا على أصالة وعروبة فكر الكواكبي في كتابه الأشهر : (طبائع الاستبداد) الذي قيل عنه إنه متأثر فيه ببعض الكتابات الأجنبية ، استنادا إلى ما جاء في افتتاحيته حيث يذكر أنه نشر مادة كتاب : (طبائع الاستبداد) في صورة أبحاث قائلا : « منها ما درسته ، ومنها ما اقتبسته » . أو بما أشار إليه الكواكبي نفسه في الفصل الأخير من كتابه وعنوانه : «الاستبداد والتخلص منه» حيث نبه إلى أساليب هذا التخلص مذكرا القارئ برأي «الفياري» - يقصد : الفيري فيتريو - المشهور بكتاباته في مثل هذا المجال .

ولهذا ، نذهب مع الرأي القائل بأن كتاب «أم القرى» أهم ما كتبه الكواكبي. وأنه يصلح دليلا مؤكدا على أصالة وعروبة فهم وفكر الكواكبي ، في كل ما كتب وقدم من كتب ومنها كتابه : (طبائع الاستبداد) .

والآن ، هل نحن في حاجة إلى الاقتراب من شخصية الكواكبي قبل الإشارة إلى كتابه : (أم القرى) ؟ لعل ملامح هذه الشخصية تبدو من موقف هذا المفكر من بعض القوى الاجتماعية في عصره، فمثلا: موقفه من استبداد السلطان «عبد الحميد» المتربع على عرشه في قصر [يلدز] نستشعره من قوله : «الاستبداد داء أشد وطأة من الوباء ، وأكبر هولا من الحريق ، وأعظم تخريبا من السيل ، وأذل للنفوس من

السؤال والحاجة .. إذا نزل بقوم سمعت أرواحهم هاتف السماء ينادي : القضاء القضاء » .

كذلك نستشعر موقفه من الخديو «عباس حلمي» حيث يقول : « .. والعقل والتاريخ والعيان كلها تشهد بأن المعين الأول للمستبد هو اللئيم الأعظم في الأمة ، ثم من دونه لؤما ، وهكذا تكون مراتب لؤمهم حسب مراتبهم في التشريفات » .

وموقفه من الأغنياء الحانين هاماتهم للظلم : « ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا ، وأوتاره عملا ، فهم رباط المستبد ، يذلهم فيهنئون ، ولهذا يرسخ الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها ، أما الفقراء فيخافهم المستبد خوف النعجة من الذئاب » .

وموقفه من مفكري الأمة وموجهيها ممن جنحوا إلى النفاق والرياء : « وإذا كان كبار الأمة قد ألفوا النفاق والرياء مرضاة للمستبد الكبير ، فعامة الناس سيألفونهما أيضا حتى يضطر أكثر الناس إلى إباحة الكذب والخداع والنفاق والتذلل وإماتة النفس ، وحتى يصبح من القيم المعترف بها : اعتبار التصاغر أدبا ، والتذلل لطفا ، والتملق فصاحة ، وترك الحقوق سماحة ، وقبول الإهانة تواضعا ، والرضا بالظلم طاعة ، والإقدام تهوسا ، والحمية حماقة ، والشهامة شراسة ، وحرية القول وقاحة ، وحب الوطن جنونا .. » وعن المضللين في الدين وفي مقدمتهم : «أبو الهدي الصيادي» المدبر الأكبر لمؤامرات السلطان عبد الحميد يقول : «والواقع أن الحكام وبطانتهم من العلماء المضللين قد أفسدوا الأديان ، واستخدموها لتحقيق مطامعهم وأهوائهم .. » .

تبقى الإشارة إلى كتاب : (أم القرى) الذي سلك فيه مسلك «أفلاطون» في محاوراته ، فتخيل جمعية سرية عقدت مؤتمرا لها في مكة «أم القرى» وضم هذا المؤتمر 23 مفكرا يمثلون أمم الإسلام وبعض أقليات العالم الإسلامي . وناقش المؤتمرون

داء الأمة الإسلامية ، فلم يجدوا شيئا غير الركود المتفشي في أرجائها ، ومن المحاورات التي تضمنتها جلسات اجتماعات المؤتمرين كان كتاب : (أم القرى) الذي طبع دون أن يوضع عليه اسم الكواكبي ؛ بل اكتفى فقط بوضع اسمه الحركي «السيد الفراتي» . ووصل المؤتمرون إلى أن تأخر المسلمين يعود إلى ثلاثة جوانب رئيسية تتركز في : السياسة والدين والأخلاق . إذا أراد المسلمون تقدما فليصلحوها حيث يقول في مقدمته : « .. وكان من سنة الله في خلقه أن جعل لكل شيء سببا ، فلابد لهذا الخلل - يقصد الخلل الذي عم أمة الإسلام - الطارئ والضعف النازل من أسباب ظاهرية ، غير سر القدر الخفي عن البشر ، فدعت الحمية بعض أفاضل العلماء والسراة والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك ، والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الإسلامية» .

إن كل ما جاء في كتاب : (أم القرى) كان منبها للكثير من العلل التي ابتلي بها العالم الإسلامي ، مشيرا إلى طرق الإصلاح . وهو المنهج نفسه الذي رأيناه في كتابه: (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) . الذي صدر بعد كتاب أم القرى ، والكتابان يجتمعان في فكرتها على القول بتجديد عبد الرحمن الكواكبي .

❊ ❊ ❊

الإمام محمد عبده

في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، فقد ولد عام 1266هـ وتوفي عام 1323هـ. انتقلت زعامة فكر الشرق العربي، إلى الشيخ محمد عبده؛ فقد كان مصلحا دينيا، إلى جانب كونه فيلسوفا اجتماعيا. فهو مصلح ديني يتصل إصلاحه بالتفكير، كما يتصل بالعمل، وهو فيلسوف اجتماعي حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له أن يراه.

ولأن تفكير الشيخ الإمام محمد عبده كان مزيجا من الإصلاح والفلسفة، فقد شهد بزعامته للفكر العربي الكثيرون من المفكرين العرب، وفي مقدمتهم عملاق الفكر العربي «عباس محمود العقاد» حيث يقول: «محمد عبده أول من فك عقال الحرية الفكرية في مصر، وإننا مدينون له بحرية التفكير وحرية الكتابة»، ومن المفكرين الأجانب الكثيرون، وفي مقدمتهم الدكتور «شارلز آدمز» حين يقول: «إن الجهود التي بذلها محمد عبده في سبيل تحرير العقول في مصر والتوفيق بين الدين الإسلامي، وبين ما وصلت إليه المدنية الحديثة، سهلت على الفكر العربي في عصرنا الحاضر سبل التجديد دون أن تنفصم الروابط بين الحاضر والماضي. وليس من شك في أن الجيل الحديث من الكتاب المسلمين يدينون بهذا الفضل للشيخ الإمام».

وهذه الشهادة، أو التي قبلها، أو حتى عشرات الشهادات لا تضيف جديدا إلى معنى الزعامة الفكرية للشيخ الإمام، بقدر ما تضيف من معان يحسها ويدركها كل باحث أو كل دارس للفكر الإسلامي أو الفكر الاجتماعي في عصرنا الحديث.

وفي هذا الإطار أو المزيج بين التفكير الديني ، والتفكير الاجتماعي ، نستطيع التعرف على الفكرة الإسلامية عند الشيخ الإمام محمد عبده . فالإسلام عنده دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى ، وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما **الدعوة الأولى** : فلم يعول فيها الشيخ الإمام إلا على تنبيه العقل البشري ، وتوجيهه إلى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح ، والرجوع إلى ما حواه من النظام والترتيب ، وتعاقب الأسباب والمسببات ؛ ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود ، عالما حكيما قادرا .

فالإسلام في هذه الدعوة كما يقرر الإمام محمد عبده لا يعتمد على شيء سوى على الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نطاقه النظري . ويخاطب الإمام محمد عبده العقل بالقول : « إن الاعتقاد بالله سبحانه وتعالى مقدم على الاعتقاد بالنبوات ، وأنه لا يمكن الإيمان بالله من كلا م الرسول ولا من الكتب المنزلة ، ما لم يسبق ذلك الإيمان بوجود الله ، وبأنه يجوز أن ينزل كتابا وأن يرسل رسولا » .

ويؤكد الإمام محمد عبده وجهة نظره هذه بالقول : «إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به ، هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله ينتقل منه إلى تحصين الإيمان بالرسل ، وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة .. » .

وأما الدعوة الثانية التي يقوم عليها الإسلام في رأي الشيخ الإمام محمد عبده ، فهي التي يحتج فيها الإسلام بخارق للعادة : التصديق برسالة النبي عليه الصلاة والسلام ، وهذا الخارق للعادة، المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن الكريم وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ، وليس من اختراع البشر ، هو : أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم

الكتابة ، ولم يمارس العلم ، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديا الضال ، مقوما للمعوج، كاملا بنظام عام للحياة ، وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ، ولجئوا إلى غير ذلك بالسيوف وسفك الدماء ، واضطهاد المؤمنين به .

هذا الكتاب المبين الذي نزل على سيدنا رسول الله – ﷺ – وكان معجزة للتصديق برسالته ، كان أيضا في رأي الشيخ محمد عبده جامعة من العقل والعلم معا.

وقد أجمل الشيخ محمد عبده رسالته في الإصلاح الديني، وهو ما يمكن اعتباره تجديدا في الفكر الإسلامي حين قال : «ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : **الأول** : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع إلى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لترد من شططه وتقلل من خلطه ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . **والأمر الثاني** : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في المخاطبات الرسمية أو في المراسلات بين الناس .

وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجه الذوق ، وتنكره لغة العرب : **النوع الأول** ما كان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات (ما هو) رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم ، لا في صورته ولا في مادته . **والنوع الثاني** ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون في الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئا في الذوق بعيدا عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعا في عمى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ؛ وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه وذلك : التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال مدة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته ، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل . جهرنا بهذا القول ، والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له ؛ أي عبيد ..

« ولم أكن في كل ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ، ولا أبرح أدعو إلى عقيدتي في الدين، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ؛ لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال ، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان » .

وهكذا ، بين الأستاذ الإمام جوهر رسالته التي قامت على ثلاثة أمور هي : إصلاح الدين ، وإصلاح اللغة والأدب ، وإصلاح السياسة .

وعلى ضوء ما أجمله الشيخ الإمام محمد عبده في رسالته ، رأى مؤرخوه أن الدعامة الأولى لإصلاح الدين هي: إصلاح الأزهر الشريف . وهو ، وإن لم يصل في ذلك إلى ما يريد، فقد اتخذ إلى جانب ذلك وسيلة لإصلاح العقيدة هي تفسير القرآن الكريم ، فقد فسر القرآن في أكثر من مسجد ، فسره في مسجدين ببيروت ، وفي أحد مساجد القاهرة . ودرسه في الأزهر وهو قاض ، ثم وهو مفت ، وحاضر في الجزائر

مفسرا سورة العصر ، وفسر جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ونشر دروسه في التفسير بمجلة (المنار) ، ليقرأه المسلمون قاطبة . ويمتاز تفسير الأستاذ الإمام بأنه عملي يشرح الواقع ويبين سببه ، وبأنه أخلاقي يدعو للعمل على مبادئ الإسلام التي هي منبع السعادة في كل العصور ، وبأنه روحاني يسمو بالنفس إلى العالم العلوي ، وينزه الله عما شاب العقيدة من شرك : كالتشفع بأهل القبور والأولياء . فمبادئ الشيخ الإمام تشبه إلى حد كبير تعاليم محمد بن عبد الوهاب في الرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام ، إلى جانب أنه كان في تفسيره يحيي العواطف ، ويحرك المشاعر ، أكثر من الاستقصاء في بحث المسائل العلمية العقلية متأثرا في ذلك بطبيعة الدين نفسه . وقد استمر في تدريس التفسير في الأزهر الشريف نحو ست سنوات ، وحضره كثير من علية القوم وكبار القضاة والموظفين وشباب الأزهر والمدارس العالية ، وقد أثر الدرس فيهم تأثيرا كبيرا .

لقد تنبه المسلمون بفضل دعوة الإمام محمد عبده ، وشعروا بكيانهم وهبوا من رقدتهم ، وحكموا العقل كما حكموا الدين ، وعرفوا أن باب التجديد لم يغلق ولن يغلق أبدا ، وقد سرت دعوة الإمام الإصلاحية وأفكاره التجديدية في عروق المجتمع المصري وآتت أكلها في كل مجال ، وهي وإن خبت حينا فلم تلبث إلا أن تشتعل نورا يضيء السبيل أمام كل عقل مستنير وفكر حر .

كذلك ، كان للشيخ الإمام محمد عبده رأي واضح في الجانب الديني يسجله الدكتور «عثمان أمين» في دراسته عنه ، هذا الرأي يذهب إلى « أن المسلمين زيفوا تعاليم الإسلام السمحة الواضحة ، وكان يندد بما درج عليه العلماء من «شكلية» قطعية تنبئ عن وسوسة ارتيابية ؛ إذ تجعلهم يسرفون فيفترضون - آليا - أبعد ضروب الاحتمالات ، ويلاحظون - من الخارج - أدق تفاصيل العبادات » .

أما عقائد العامة : فكان الإمام يرى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب ، فهي عند الجمهور عود إلى العقائد الجبرية ، والذهاب إلى أنه لا حرية ولا اختيار للإنسان

فيما يفعل ، وإنما هو مجبر فيما يصدر عنه جبرا محضا ، ولهذا ، لا يؤاخذ على ترك الفرائض واقتراف المعاصي !

وقد وجه هذا المفكر المصلح أعنف هجوم على البدع المذمومة التي كانت منتشرة بين المسلمين في عصره . وقد كتب إبان نفيه في بيروت : « أن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم ، إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا ، نراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الحال إلى مساعدة الدولة ، والإنفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأمم » .

أما في الجانب الاجتماعي للحياة الإسلامية ، فإن الشيخ الإمام محمد عبده يوجه اللوم إلى رجال الفكر في عصره؛ لأنهم لم يقدموا على أي محاولة لإصلاح مجتمع هم أعلم الناس بما يشوبه من عيوب . وكان يدعو الأغنياء إلى بذل المال مساهمة في المشروعات العامة ، ويهيب بالأفراد أن يتضامنوا فيما يعود بالخير على الجماعة .

وإذا كان الشيخ الإمام محمد عبده قد لخص رسالة حياته- كما رأينا- في أمرين: الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد ، ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، فقد لاحظ أن أكثر الناس قد أساءوا فهم المعنى المقصود من الطاعة للسلطة الحاكمة ، فألقوا كل شأن من شئونهم على عاتق الحكومة ، معتقدين أنهم غير ملزمين بأن يعاونوا من جانبهم إلا بدفع الضرائب التي تفرض عليهم ، أما الحكام فلم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الناس لأهوائهم وإذلال الأفراد لسلطانهم ، وجمع الثروة وابتزاز المال ، لإنفاقه في إرضاء شهواتهم ، لا يرعون في ذلك عدلا ولا قانونا ، فكانوا أسوأ مثل يقتدي به الشعب !

ولعلنا نجول مع جوانب من فكر الشيخ الإمام ، فنجده قد ناصر نظرية «حرية الإرادة» مناصرة متصلة لم تنقطع . وكثيرا ما نهض محتجا على «الجبريين» القائلين بأننا لا نستطيع أن نغير شيئا مما كتب علينا في لوح القضاء المحتوم ، ولذلك فلا فائدة من العمل والسعي ، ومن الخير أن نسلم أمورنا إلى المقادير ، تصرفها دون أن نفرض على أنفسنا جهودا مقضيا عليها بالضياع! ويرد الإمام عليهم بقوله: « إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه ، فإن مثل هذا لمن سخف الرأي ، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين» ! ويمضي الفيلسوف في دفاعه عن الحرية وحملته على «الجبر» فيقول : « إن جزءا من أعمالنا منسوب إلى الإرادة ، وذلك ما يسمى «بالكسب» وهو مناط الثواب والعقاب » . وأن المنكرين لحرية الأفعال الإنسانية يحتجون بالآية القرآنية : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾[1] ويفسرونها على معنى : أن الله هو خالق أعمال الإنسان ، لكن الشيخ الإمام محمد عبده لاحظ أن هذه الآية نفسها تقول « .. وما تعملون » : فهي بذلك تفيد نسبة العمل إلى الإنسان .

ولكنهم قد يزعمون أننا إذا حرصنا على إثبات الحرية الإنسانية للإنسان ، فقد رفعنا إرادته إلى مرتبة الإرادة الإلهية ، وهذا يؤدي إلى «الشرك» بالله ، لكن «محمد عبده» يدفع ذلك الاعتراض الأخير على وجه لا يخلو من طرافة ، فيبين أن الإنسان الذي يقترف إثم «الشرك» ليس هو الإنسان الذي يعول على قواه الخاصة ، ويعد نفسه مسيطرا على أهوائها ، مسئولا عن تصرفاتها ، بل المشرك هو ذلك الذي يعتقد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الطبيعية الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة الناس ، ثم إن «المشرك هو من يعظم غير الله مستعينا به فيما لا يقدر الإنسان عليه : كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش ،

(1) الصافات : 96 .

والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله » .

على أن «التوكل» الصحيح لا يعني شيئا آخر سوى الثقة بالله ، مع استعمال الأسباب الطبيعية من أجل غايات ترسمها عقولنا : « فلا نكون متوكلين حق التوكل حتى نستعمل نفوسنا في الوسائل التي توصلنا إلى بلوغ الغاية من أعمالنا ، وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال في طريق الوصول إلى المقصود » .

إن عقيدة «القضاء والقدر» إذا فهمت على الوجه السليم ، وخلصت من شناعة القول بالجبر ، لا يمكن أن يكون لها على الأخلاق إلا أثر حميد : تبعث النفوس على الإقدام والشجاعة ، واحتمال المكاره ، واقتحام الأهوال ، وتبث فيها روح التضحية، وتطبعها على السخاء والثبات ، وبذل ما هو عزيز في سبيل الفكر والعقيدة « والذي يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق ، وتشييد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات البشرية ؟ » .

إن العودة إلى مناصرة عقيدة الحرية هي إذا ، سبيل النجاة للأمة الإسلامية ، والانصراف عن الاعتقاد بالجبر معناه : إيقاظ القوى الأخلاقية ، والتمسك بالعزة القومية ، والحرص على كرامة الإنسان .

وللشيخ الإمام رأي في سياسة الحكم ، خاصة وأن العصر الذي عاش فيه كان مليئا بالأحداث ، مثيرا للخواطر ، فلم يكف المفكر الواعي عن إبداء رأيه في المشكلات العصرية الكبرى ، من سياسية واجتماعية . وقد ناصر محمد عبده – في البداية – النظام الديمقراطي البرلماني . غير أن تتابع الأحداث السياسية في مصر ، وبلاد الشرق العربي ، لم يكن من شأنه : أن يمكن للشيخ الإمام من البقاء على آرائه

الأولى ؛ فإن مساوئ الحكومات ، وجهل الشعب ، والفوضى العقلية ، والانحطاط الأخلاقي الذي ساد البلاد عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وانهيار سياسة «جمال الدين الأفغاني» لتحرير الشعوب الإسلامية من الاستعمار . كل هذه التجارب جعلت المفكر الوطني يرى في الأفق البعيد نموذجا آخر للحكم أكثر ملاءمة لحال البلاد ، وأدنى إلى تحقيق آماله في إصلاح أمرها .

ومنذ ذلك الحين ، اتجهت آراء الشيخ الإمام بالتدريج نحو نظام خاص من «الحكم العادل» ، يخلص البلاد من تلك المساوئ ، ويحقق لها ما تبغيه من نهضة شاملة ، وللإمام في هذا الموضوع كلمة مأثورة هي : «لن ينهض بالشرق إلا حاكم مطلق عادل» .

ومجمل رأي الإمام في هذا الصدد : أن هذا الإصلاح الأخلاقي يجب أن يسبق الإصلاح السياسي ، بل قد يغني عنه ، فكانت وسيلته إلى الإصلاح السياسي هي «التربية القومية» ، وإعداد جيل قادر على القيام بما يعهد إليه من بعث الروح في المجتمع العربي، ولكن بعثا كهذا لا يمكن أن يتم- في رأيه - إلا على يد حاكم قوي ، نزيه ، عادل ، شجاع ، عالم ، حازم ، أصيل الرأي .

وكان يرى أنه ينبغي الشروع في تطهير واسع ، يتناول أهل النفوس الضعيفة ، ومحترفي السياسة والنهازين ، والمتخاذلين ، والمهرجين والديماجوجيين ، فيقصيهم عن مناصب الحكومة ذات المسئولية ؛ فيفسح المجال لأهل الإرادة القوية ، والتصميم الحازم ، والضمير الحي .

وكان يرى أن تمثيل الشعب في المجالس النيابية ، على النمط المعروف في البلاد الغربية ، ليس له معنى ، إلا إذا اجتمعت كلمة الأمة على غاية واحدة ، وإلا إذا بذل المواطنون جهودهم في سبيل المصلحة العامة .

وما دامت الأمة متفرقة ممزقة الأوصال ، مشتتة الأهواء ، وما دامت أحزابها السياسية خاضعة في تصرفاتها لمآربها الشخصية ، وما دام أفراد الطوائف المختلفة يعوزهم الوعي العام ، فالتمثيل النيابي حديث خرافة ساقه الوهم والتقليد .

وفسر محمد عبده أصل الجماعة الإنسانية وطبيعتها ، فميز في ذلك ثلاثة مبادئ أساسية :

أولها : الغريزة الاجتماعية التي تحدث عنها «أرسطو» في كتاب : (السياسة) وهي الغريزة التي تدفع الناس إلى العيش مجتمعين ، وفيلسوفنا العربي على وفاق مع أرسطو في أن الدولة ليست موجودة بالعرف والمواضعة فقط ، وإنما لها جذورها في الطبيعة البشرية .

وثانيها : مقارنة الجماعة بالبدن الحي ، وهي مقارنة شائعة في الكتابات الفلسفية الكلاسيكية .

وثالثها : طابع «الفطرية» في الدين الذي هو لازم للأخلاق وحفظ المجتمع .

جاء في القرآن الكريم : ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾[1] ومعنى هذا عند محمد عبده : « أن الله خلق الناس أمة واحدة ، أي : مرتبطا بعضهم ببعض في المعاش ، لا يسهل على أفرادهم أن يعيشوا في هذه الحياة إلا مجتمعين ، يعاون بعضهم بعضا ، ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض ، فكل واحد يعيش ويحيا بشيء من عمله . لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن كل الوفاء بما يحتاج إليه ، فلابد من انضمام قوى الآخرين على قوته ، فيستعين بهم في بعض شأنه ، كما يستعينون به في بعض شأنهم ، فالإنسان يحس بفطرته أنه محتاج إلى غيره من الأفراد الذين يعيشون في جماعته » .

(1) البقرة : 213 .

والتعاون - فيما يرى الشيخ الإمام - هو الأساس الذي يقوم عليه التماسك الاجتماعي بين الأفراد. وقد دأب الفيلسوف المصلح ، حتى في تفسيره للقرآن الكريم، على التنديد بما يلاحظ عند أكثر أفراد الجماعات من الأنانية أو عدم اللامبالاة ، وهي حالة لابد أن تؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية بين الناس ، وتؤدي بالمجتمع نفسه إلى البوار ، وهو يهيب بكل فرد أن يشعر بأنه جزء من كل ، وأنه عضو عامل في المجتمع الإنساني الكبير ، ويستحث النفوس على الاتحاد والوفاق ، وذلك ببذر بذور تربية أخلاقية جديدة ، هي أبقى أثرا من القوانين التي تفرضها الحكومات ، فإن «الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق وجذوع وجذور هي الأخلاق الفاضلة بمراتبها » ، وبغير الاتحاد والمحبة لا تقوم للأخلاق قائمة . فيجب أن تكون التربية الجديدة تربية اجتماعية مستنيرة، أساسها الإيثار ومحبة الغير : « فالعلم الحقيقي هو الذي يعلم الإنسان من هو ومن معه ، فيتكون من ذلك شعور واحد وروابط واحدة ، هي ما يسمونه بالاتحاد » . لكن هذه التربية الاجتماعية يجب أن تبدأ بالأسرة .

وقد عرف الشيخ الإمام من تجاربه في القضاء وبالمحاكم المصرية أن نحو ثلاثة أرباع القضايا إنما هي بين بعض الأقارب وبعض ، وهذه المنازعات ناشئة عن التباغض ، وحب الوقيعة والنكاية بأفراد الأسرة الواحدة ، وهي مشاعر راجعة إلى نقص التعليم والتربية الاجتماعية. « فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلائق الطبيعية إلى هذا الحد من التصرم ، ونتساءل عن تصرم العلائق الوطنية : هل يمكننا أننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات ، نبحث عن الروابط الخارجية للجامعة الكبرى ؟ » .

والجماعة الإنسانية إذا سارت على سجيتها ، مع توجيهها إلى الخير ، رسخت فيها الفضائل الاجتماعية التي من شأنها أن تقوي في نفوس الناس الشعور بوحدتهم في الأصل والنوع والمصير ، وتبعث فيهم روح الوفاق والتراحم والسلام . بل إن

الشيخ الإمام كتب في (العروة الوثقى) سنة 1884 بأن الفضائل في عالم الإنسان «كالجذبة العامة» (الجاذبية) في العالم الكبير ، فهي تمسك المجتمع وتصونه من البوار.

فكما أن الجاذبية يحفظ بها نظام الكواكب السيارة ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسب بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها - كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الإنساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي إلى أن يأتي أمر الله » .

ولم يكن الشيخ الإمام محمد عبده أحد كبار أئمة الإسلام فحسب ، بل كان أيضا فيلسوفا بأسمى معاني الكلمة وأصدقها ، وضع لهداية العمل مذهبا خصبا ضافيا ، واتخذ من أغلب المسائل الفلسفية موقفا لا تعوزه الأصالة ولا الاستقلال . وكان له - فوق هذا مزاج الفيلسوف الحق الذي يميل في كل ما يعرض له ، إلى التأمل والروية ، وينحي عن ذهنه طغيان الآراء المألوفة المشهورة ، ولا يستسلم لحكم الأمر الواقع ، الذي يذعن له فاترو الهمم أكثر مما ينبغي ، بل كان يسلك الطريق الفلسفي على الأصالة ، ذلك الطريق الأفلاطوني القديم ، الذي جدده «ديكارت» وأعاد بناءه «كانط» ونعني به تغليب «الجواني» على «البراني» ، والنظر إلى الإنسان بعين الروح ، وإخضاع العالم لشرعة العقل .

والشيخ الإمام محمد عبده عصري جدا في فلسفته ، وإنه لشديد القرب منا ، متى راعينا الاتجاهات العامة لفكره ، وسيادة الشعور الأخلاقي على مذهبه .

فإذا استثنينا «الغزالي» ، لم نكد نجد من بين فلاسفة الإسلام أحدا قبل الشيخ الإمام أوتي استعدادا نفسيا كهذا : فبدلا من تلك الثقة المطلقة في قوة العقل (وهي

ثقة تتجلى في كتابات الفارابي وابن سينا وابن رشد) ، نجد عند الشيخ الإمـام محمـد عبده موقفا إنسانيا معتدلا ، فهو لا يغترف من الجدل والمنطق إلا بقدر محدود ، لأنـه كان يرى مع «بسكال» أن «روح الرياضة» لا تكفي وحدها ، ولا غنى لنا عن «روح اللطافة» .

وهكذا .. كان تفكير الشيخ الإمام محمد عبده ، الذي جعله في طليعة المجددين في القرن الثالث عشر الهجري .





القرن الرابع عشر

1 – محمد إقبال

2 – الشيخ طنطاوي جوهري

3 – محمد مصطفى المراغي

4 – مصطفى عبد الرازق

5 – محمد كرد علي

6 – الملك عبد العزيز آل سعود

7 – محمد فريد وجدي

8 – أحمد أمين

9 – عبد الحميد العبادي

10 – محمد عبد الله دراز

11 – أبو الكلام آزاد

12 – عبد الحليم محمود

13 – محمود شلتوت

14 – عباس محمود العقاد

15 – أمين الخولي

16 – علي عبد الرازق

17 – محب الدين الخطيب

18 – طه حسين

19 – مالك بن نبي

20 – عبد الحميد جودة

21 – محمد أبو زهرة



هـذا القـرن

يبدأ هذا القرن (الرابع عشر الهجري) سنة 1884 ، وينتهي عام 1979 في التقويم الميلادي ، ومعنى ذلك : أنه امتد في أربعة أخماس القـرن العـشرين المـيلادي : قـرن التحولات الكبرى والأعمال العظيمة ، والثورات التحررية .

ففـي هـذا القـرن ، تفككـت الكيانـات الدوليـة الكـبرى التـي رأيناهـا في الصفحات السابقة ، تلك الكيانات التي كانت تجمع في الواحد منها مجموعـة مـن الدول ، فلم يبق من هذه الكيانات سوى الدولة العثمانية التركيـة التـي انـسلخت عنها كل الدول التي استولت عليها . وفي هذا القرن ، بدأت الـدول الأوروبيـة في استعمار دول العالم الإسلامي بصورة سافرة ، وتحت دعاوى عديـدة غـير مقنعـة . كـما امتـد احـتلال فرنـسا لأقطـار المغـرب العـربي : تـونس والجزائـر والمغـرب وموريتانيا، إلى جانب احتلالها لـبعض الـدول في المـشرق مثـل : لبنـان وسـوريا وغيرها ، أو كما حدث من احتلال بريطانيا لبعض دول العالم الإسـلامي ، ومنهـا مصر عقب الثورة العرابية وفلسطين وعـدن ... وغيرهـا مـن الـدول التـي نالـت استقلالها بعد عشرات السنين .

كذلك في هذا القرن ، حدثت الثورة البلشفية في أكتوبر عام 1917 التي أعقبهـا انتشار التيار الشيوعي أو الاشتراكية العلمية ، وتحولت روسيا القيـصرية إلى الاتحـاد السوفيتي الذي تبنى النظرية الماركسية ، وطبقها على الـدول التـي تـدور في فلكـه ،

وبظهور هذه النظرية انقسم العالم إلى ثلاث كتل: كتلة غربية، تلك التي تعمل بالنظام الرأسمالي وما فيه من اقتصاد حر ، وذلك في الدول الأوروبية وأمريكا . وكتلة شرقية ويتزعمها الاتحاد السوفيتي . وكتلة ثالثة وسط هي : (كتلة عدم الانحياز) أو الحياد الإيجابي ، مكونة من: مصر والهند ويوغسلافيا وأندونيسيا ، كذلك ظهرت الولايات المتحدة كقوة عظمى تناهض الاتحاد السوفيتي ودول الاتحاد الأوروبي والدول التي تدور في فلكه .

كذلك ، قامت في هذا القرن العديد من الحروب في مقدمتها الحربان العالميتان: الأولى والثانية ، إلى جانب الحروب التي تهمنا كعالم إسلامي ، وأهمها الحرب مع إسرائيل في ثلاث جولات في أعوام (1948 ، 1967 ، 1973) كذلك حرب البوسنة والهرسك ، وتقسيم يوغسلافيا إلى كتلتين ، كما تم التقسيم في شبه القارة الهندية إلى : الهند وباكستان وبنجلاديش إلى آخر هذه الأحداث التي تحتاج إلى عدد من الفصول لرصدها . ونحن هنا نحاول مجرد الإشارة خاصة في الأحداث التي لها دخل بالعالم الإسلامي .

هذه الحالة السياسية في العالم ككل ، والتي قسمته إلى معسكرين : رأسمالي واشتراكي ، واحتلال الدول العظمى كإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا التي احتلت أجزاء من العالم الإسلامي ، والتصرف في هذه الدول المحتلة كما لو كانت ممتلكات لهذه الدول الاستعمارية ، إلى آخر هذه الأوضاع السلبية التي كانت لها انعكاسات على الحالتين : العلمية والاجتماعية ، خاصة بداية هذا القرن . فنجد في الحالة العلمية التخلف واضحا في الجامعات الإسلامية وخاصة الأزهر ، ومحاولات الشيخ الإمام «محمد عبده» لإصلاحه ، ولكن وقف في طريقه بعض الرجعيين والتابعين للسراي الخديوية ؛ حيث كان الخديوي «عباس حلمي» متعاطفا مع هذا الإصلاح ، ولكنه

سرعان ما انقلب عليه ليكون ضده بفعل الـدس والتـآمر الـذي تـولى كـبره بعـض المناهضين للإصلاح . هذا إلى جانب الاستعمار الإنجليزي الذي كان يخشى من هذا الإصلاح .

وعلى الإجمال .. كانت الحالة العلمية في هذا القرن أفضل من مثيلتهـا في القـرن الماضي ، إلا أنها مع ذلك لم تكن على المستوى المطلوب ، خاصة فيما يحدث حول هذا العالم الإسلامي من نهضة وتقدم بل وحضارة أوروبية ، وهو لا يزال في مكانه يحاول الإصلاح العلمي والاجتماعي فووجه بالتحديات والعراقيل . وكان للمتصوفة أكبر نصيب في تعويق حركة الإصلاح في هذا القرن ، فهؤلاء المتصوفة - خاصة في بدايـة هذا القرن - ينشرون بين الناس البدع والخرافات ، ويتاجرون بأصحاب القباب من الأموات ، فتأتيهم الأموال من الجماهير المخدوعة بهـم . وقـد أنكـر الـشيخ الإمـام «محمد عبده» هذه التحركات الصوفية ، ولكن دون جدوى ، خاصة بعد اشتراكه في الثورة العرابية ، والحكم عليه بالنفي إلى بيروت ، ليعود إلى مصر تحت مراقبة مشددة من الإنجليز والسراي .

باختصار .. أقول إنه على الرغم من أن هناك بصيصا مـن التقـدم ، ربـما يجعـل الحكم على هـذا القـرن الرابـع عشـر أفضل من الثالث عشر ، إلا أن هذا التقــدم لم يكن كافيا ، خاصة في وجـود الاحـتلال الأجنبـي ، والـذين يـساندونه مـن حكـام المسلمين .

ومن مظاهر التخلف العلمي : سيطرة مدرسة «ابن تيمية» التـي ظلـت عـلى جمودها في هذا القرن ، ولم تلـن فيـه للتجديـد الـذي دعـا إليـه بعـض المجـددين السابقين وأقربهم لهذا القرن الـسيد «جمـال الـدين الأفغـاني» . خاصـة وأن أتبـاع مدرسة ابن تيمية وفي مقـدمتهم بعـض الإخـوان المـسلمين كـانوا ينظـرون بعـين

العداء إلى آثار الحضارة الأوروبية الحديثة، من الدراجات إلى السيارات .. إلى غير ذلك من آثار هذه الحضارة التي يعادونها دون مبرر، مع أن من مبادئ وقيم الدين الإسلامي الدعوة إلى العلم حتى ولو في الصين، وأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها هو أحق الناس بها، ولم يدع هذا الدين الحنيف مطلقا إلى معاداة العلم وإنجازاته .

أقول: « لكن على الرغم من ذلك، فإننا نجد في هذا القرن الرابع عشر أكبر عدد من المجددين في الإسلام، عدد لم يسبق له مثيل في أي قرن آخر، يتقدمهم بالطبع الشيخ أحمد حسن الباقوري وكتاباته وأحاديثه التي تذهب بعضها إلى التأكيد على أن الإسلام هو حقا وصدقا دين التيسير والمرونة، وهذه خاصية ربما يتميز بها الإسلام عن غيره من الأديان السماوية . وفي المقابل من حكام المسلمين: عاهل المملكة السعودية الملك «عبد العزيز آل سعود» الذي وحد بلادها ونقلها من حياة البداوة إلى حياة المدنية، واستطاع بذكائه الفطري أن يستفيد من العلاقات مع الأجانب دون أن يرتمي في أحضانهم، كذلك نجد من المفكرين: السوري «كرد علي» صاحب كتاب: (الحضارة الإسلامية) الذي سلط الأضواء على قيمها ومبادئها أو « علي عبد الرازق» صاحب كتاب: (الإسلام وأصول الحكم) الذي كان كتابه ضد استغلال الدين لأغراض الحكام وأهدافهم الشخصية، والشيخان: «مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق »، وكيف كان عمل الشيخ المراغي امتدادا حقيقيا لعمل أستاذه الشيخ «محمد عبده» وعمل الشيخ «عبد الرازق» الذي تمثل في بلورة الفلسفة الإسلامية كواحدة من الفلسفات العلمية، والمفكر الجزائري «مالك بن نبي» الذي له اجتهادات فقهية على جانب كبير من الأهمية، والعالم الجليل الشيخ «محمد أبو زهرة» أحد

مشرعي قوانين الإسلام داخل الجامعة المصرية وخارجها ، والدكتور «عبد الله دراز» صاحب الأعمال الفكرية المبكرة . هذا إلى جانب عدد من المجددين المسلمين في الهند يتقدمهم فيلسوف الإسلام : «محمد إقبال ، ومولانا أبو الكلام آزاد ، وأبو الأعلى المودودي ووحيد الدين خان وأبو الحسن الندوي»... وغيرهم .

ولعلنا هنا ، نتوقف عند اثنين من المجددين في القرن الرابع عشر لهما إسهاماتهما التي لا تنكر ، أما الأول فهو الدكتور «طه حسين» صاحب مشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بأسلوب يفهمه المسلم المعاصر ؛ حيث اتفق مع اثنين من زملائه في الجامعة : الأستاذ «عبد الحميد العبادي» الذي رأى أن يؤرخ للإسلام من الناحية السياسية والأستاذ «أحمد أمين» الذي رأى أن يؤرخ للإسلام من الناحية الفكرية والاجتماعية ، وأن يتولى صاحب هذا المشروع أي : الدكتور طه حسين الكتابة عن الحياة الأدبية في الإسلام .. كان هذا المشروع مناهضا لكل ما يريده كل من الاستعمار والاستشراق ، وأداة تنفيذهما التبشير ، وقد تبع ذلك عشرات الكتابات الحديثة من الأجيال التالية . وأما الثاني فهو الأستاذ «عباس محمود العقاد» الذي كتب أكثر من ثلاثين كتابا في الإسلام ، كلها دفاع عن هذا الدين ضد ما يقال عنه من أعدائه وتوضيح لمبادئه وقيمه ، ثم عشرات الكتب الأخرى التي تضمنتها بقية كتبه . باختصار .. كانت كتابات العقاد خير وسيلة للدفاع عن الإسلام ، وتقديمه على النحو الذي يتقبله القارئ المعاصر .

وغير هؤلاء ، نجد محمد فريد وجدي صاحب دائرة معارف القرن العشرين الميلادي ، وأمين الخولي شيخ ورائد جماعة الأمناء ، ومحب الدين الخطيب صاحب المكتبة السلفية والعديد من المؤلفات الفكرية في مصر ، وطنطاوي جوهري أول

عربي طالب بأن تمنح أعماله جائزة نوبل حيث وفقت بين الدين والعلم ، وعبد الحميد جودة السحار صاحب مجلدات « محمد رسول الله والذين معه » التي تقدم الإسلام ونبيه ﷺ وصحابته الأجلاء .

وهكذا .. كان هذا القرن الرابع عشر الهجري غنيا بمجدديه ، على الرغم من التخلف في الجوانب السياسية والعلمية والاجتماعية والدينية ، وهو ما توضحه الصفحات التالية في حديثنا عن المجددين .

❋ ❋ ❋

محمد إقبال

« كن يا بني برعما مزهرا في غصن الملة المحمدية ، وكن زهرة تحيا بنسيم يقبل من ربيع المصطفى ... » .

هكذا تفتحت كرامة الطفل البريئة عند شاعر الباكستان وفيلسوفها : محمد إقبال على مثل هذه الكلمات والمعاني ، من والده ذلك الرجل المتدين . إذا .. ليس صدفة أن ندرك بعد ذلك تمسك إقبال بالدين الإسلامي تمسكا ملك عليه تفكيره ، وجعله يسخر كل جهده لخدمة هذا الدين والوصول به إلى فلسفة للحياة وليس غربة عنها ، مما جعله جديرا بأن يحتل مقام الفيلسوف الإسلامي في الشرق في عالمنا المعاصر ، والفيلسوف الثاني بعد ابن رشد في تاريخ الفكر الإسلامي بوجه عام ، وأن يكون دوره بالنسبة لفكرنا كما يقول الدكتور طه حسين : « كان إقبال هو الذي دعانا لأن نعرف أنفسنا ، ولأن نناضل من أجل حقوقنا وقضايانا .. » .

وها هو إقبال يتأمل مكانة الدين ، فيرى أن الدين ليس تفكيرا جزئيا ، وليس تفكيرا مجردا، ولا شعورا ولا عملا ، بل هو تعبير الإنسان عن كل ما يشعر ويعرف ويدرك، وعلى هذا.. فإنه إذا ما بحثت العلوم الأخرى عن الدين فإن عليها أن تعترف بمركزه الرئيسي ، وحين يتأمل دور الإسلام في عالمنا المعاصر ، يرى أن الإسلام لم يستنفد بعد من إمكاناته ، وأنه لا يزال قادرا على خلق عالم جديد لا يتحكم فيه اللون أو الجنس أو رأس المال أو السلطان ، بل يتحدد بنوع الحياة التي يحياها هذا العالم . ولهذا اعتبر واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد في 1294هـ وتوفي عام 1357هـ .

ويجد إقبال من مبادئ الإسلام السعي الدائم إلى التوفيق بين الدين والدنيا ، بين مطالب البدن ومطالب الروح في وحدة جديدة تسمو على كل شيء ، وأن مجتمع هذا الدين – في رأيه – لا يقوم على المساواة المادية فحسب ، وإنما يقوم على أساس الصفاء الروحي والنفسي ، والملكية الخاصة في أحكام هذا الدين لا تعدو أن تكون أشبه بالأوقاف ، فلا تتهيأ فيه الفرصة لمضاعفة رأس المال على حساب الغير بحيث يصير أصحاب رأس المال المتحكمين في مصائر البشر .

وعن مكانة نبي الإسلام محمد – ﷺ – : يذهب إقبال بأن هذا النبي الكريم يعتبر حلقة الاتصال بين العالم القديم والعالم الحديث ، فمن العالم القديم جاءت رسالته ، وإلى العالم الحديث لا تزال روحه سائدة ملهمة ، وأن هناك حكمة وراء أن يكون محمد صلوات الله عليه خاتم النبيين حيث يقول إقبال في عبارة موجزة : « إن النبوة في الإسلام لتبلغ كمالها الأخير في إدراك الحاجة إلى النبوة نفسها ... » .

ويتأمل إقبال شريعة هذا الدين الحنيف ، ويقوده هذا التأمل إلى معان من الاستنباط والاستدلال والاستنتاج إلى أنه إذا ما فهمت هذه الشريعة الإسلامية حق الفهم ، وطبقت كما يجب أن تطبق ، فإن الحق في العيش يكفل لكل إنسان أن يعيش في إطارها إنسانا بكل ما تعني هذه الكلمة من معان .

ويتساءل إقبال : هل الدين الإسلامي بهذه الصورة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام أمرا ممكنا ؟ ويجيب : نستطيع القول بأن الحياة الدينية من الوجهة العامة تنقسم إلى ثلاثة أطوار : طور الإيمان ، وطور الفكر ، وطور الاستكشاف . ففي الطور الأول تبدو الحياة الدينية صورة من نظام يجب على الأمة بتمامها أن تخضع لأمره خضوعا مطلقا ، ومن غير تحكم العقل في تفهم مراميه البعيدة أو غايته القصوى ، وفي الطور الثاني «الفكر» يتخلى التسليم المطلق عن مكانه للعقل الذي

يأخذ في تفهم هذا النظام وتفهم المصدر البعيد لسنده ، وفي الطور الثالث «الاستكشاف» تزيد الحياة الدينية في طموح الإنسان إلى الاتصال المباشر بالحقيقة القصوى ، وهنا يصبح الدين مسألة تمثل شخصا للحياة والقدرة ، ويكتسب الفرد شخصية حرة لا بالتحلل من قيود الشريعة : ولكن بالكشف عن أصلها البعيد في أعماق شعوره .

وهو بهذا الفهم المستنير للإسلام ، يطمح إلى مجتمع إسلامي أمثل ، يتحرك نحوه الإسلام حيث يقول : « صدقوني أن أوروبا اليوم هي أكبر عائق في طريق الرقي الأخلاقي للإنسان ، على حين أن المسلم مزود بالمبادئ الفكرية العليا التي أتى بها الوحي المنبعث نطقه من أعمق أعماق الحياة » .

ولعله يتساءل بعد ذلك في كتاباته بنفس الطريقة : هل الإسلام يمنح أتباعه الأمن والأمان ؟ ويجيب في نفس الوقت : « هناك درس واحد وعيته من تاريخ المسلمين ، ففي اللحظات الحرجة من تاريخهم كان الإسلام هو الذي أنجى المسلمين » . ولكن كيف ؟ لعله في إجابته يخاطبنا : « إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام ، واستلهمتم المبادئ الحية الدائمة فيه ، فأنتم لا تكونون قد فعلتم أكثر من إعادة تجميع قواكم واستعادة كيانكم المفقود ، الأمر الذي تنقذون به أنفسكم من خراب شامل » .

ونراه يحاور نفسه نثرا وشعرا في مؤلفاته الأحد عشر ، فينبه إلى خطر الغرب على الإسلام ، وينبه إلى خطر العناصر المدمرة داخل الإسلام نفسه ، ويدعو إلى التحرر من الأوهام التي عشناها منذ القرون الوسطى ، والانطلاق من سجن الأفكار والمشاعر التي نسجناها نحن أنفسنا حول أنفسنا بمرور الزمن .

وأخيرا .. يرجع إقبال التخلف الذي أصاب المسلمين إلى سببين : **أولهما** : الانحرافات الفكرية والسياسية والثقافية التي حدثت في الماضي ، **وثانيهما** : الإخلاد

إلى الكسل الذي أوهنت به بعض الصور الدخيلة على الإسلام نفوس المسلمين قد دفعت بهم إلى التعلق بكل أنواع الانحرافات . يضاف إلى هذين السببين **سبب ثالث** عرفناه حديثا وهو : الاستعمار وضرره .

يرفع إقبال الشكوى إلى الله الذي بدا له وكأنه قد تخلى عن المؤمنين .

تحية مباركة لإقبال : الرجل الذي ولد بعد الموت ، وأغمض عينيه لتتفتح ملايين العيون في هذا العالم .

❊ ❊ ❊

الشيخ طنطاوي جوهري

الشيخ طنطاوي جوهري ، من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة، حيث ولد عام 1291هـ الموافق 1870م ، وتوفي عام 1361هـ الموافق 1940م أي: عاش سبعين عاما ، في هذه الفترة قدم الكثير من الإنتاج ، سواء في التدريس بالمدارس الثانوية ، وكليات الأزهر الشريف والجامعة المصرية القديمة ، أو في الكتابات ؛ حيث ترك آثارا فقهية وفكرية وأدبية ستتعرض لها هذه الصفحات .

ولقد بدأت حياته التعليمية في كتاب القرية التى ولد فيها ، وهى قرية «كفر عوض الله حجازي» بمحافظة الشرقية ، وكان في صباه - كما تذكر سيرة حياته - يعمل بالزراعة مع والده ، إلى جانب دراسته في الكتاب ، إلى أن سافر إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف ، ولم يكتف بدراسته في الأزهر ، فأضاف إلى ذلك الالتحاق بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج فيها عام 1893م ، ليعمل مدرسا للفلسفة بالمدارس الثانوية في مدينة دمنهور ، ثم في المدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم مدرسا في كلية دار العلوم ، ثم ينتدب بعد ذلك ، وبالتحديد عام 1912م لتدريس الفلسفة بالجامعة المصرية القديمة الأهلية . وفي هذه الفترة بالذات ، بدأت حياته التأليفية حيث قام بتأليف كتاب : (أين الإنسان) وذلك من مجموع المحاضرات التى كان يلقيها على طلابه بالجامعة ، وفي هذا الكتاب يتعرض لما يدركه العقل الإنساني من تحديات ومشكلات ؛ محاولا أن يبحث لها عن حلول مما يجعل المسافة تتسع بين الإنسان وغيره من المخلوقات ، مع الإشارة إلى تاريخ الفلسفة .

لكن هذه الخطوط العامة لا تكشف لنا بصورة كاملة عن شخصية هذا العالم الجليل ، وأهميته وقيمته في تاريخنا الثقافي . ولعل الأستاذ «رجاء النقاش» يكشف

عن جانب من ذلك فيما كتبه عن هذا العالم (بمجلة الشباب) بمؤسسة الأهرام فيقول : « كان الشيخ طنطاوي جوهري – بطبيعة دراسته في الأزهر ودار العلوم القديمة – لا يعرف لغة أجنبية ، ولكنه أدرك بفهمه العلمي السديد ، وتطلعه إلى المعرفة ضرورة الاهتمام بإحدى اللغات الأجنبية ، فاتجه إلى اللغة الإنجليزية ، ودرسها حتى أتقنها معتمدا في ذلك على جهده الذاتي وإرادته القوية، بعد أن استعان في بداية الأمر ببعض المدرسين ، وقد ساعده إتقانه لهذه اللغة على أن يقوم بترجمة بعض الأشعار والنصوص الأدبية ، مما يدل على أنه قد وصل في إتقانه لهذه اللغة إلى درجة جيدة ، وهذا الاهتمام باللغة الإنجليزية مفهوم عند مفكر يريد أن يتوسع في الدراسة والبحث والمعرفة ، هذا إلى جانب اتجاهه اتجاها آخر غريبا عن الدراسة التي درسها في الأزهر أو في دار العلوم ، فقد اهتم اهتماما واسعا بالرياضيات والعلوم الطبيعية ، واندفع إلى البحث في هذه المجالات العلمية اندفاعا نادرا ، حتى أصبح على معرفة عميقة بعلوم الرياضة والطبيعة ، وقد أثرت عليه هذه الدراسة تأثيرا بالغ الأهمية ... » .

ونضيف إلى ما قاله الأستاذ «رجاء النقاش» ما كتبه الأستاذ «أحمد عطية الله» الذي كان من تلاميذ الشيخ طنطاوي جوهري عن هذا الجانب في شخصيته ، فيقول: « كان للرياضيات والطبيعيات جاذبية غريبة عند الشيخ طنطاوي جوهري ، وقد وضح ذلك في تفسيره للقرآن الكريم ، والذي يقرر في ثناياه مثلا تعليم الكيمياء من الواجبات والفروض ، بل امتد شغفه بالدراسات الطبيعية إلى العلم التطبيقي، فنراه في عام 1930م يرفع مذكرة إلى الحكومة المصرية أثناء غارات الجراد التي اجتاحت البلاد ، فيقترح فيها جمع الجراد لاستخراج زيت منه ، يقول إنه أجود زيت يصلح للطائرات ، كذلك امتد شغفه من الرياضيات والطبيعيات إلى الموسيقى ، باعتبار أنها فرع من فروع الرياضيات ، فكان يقول : إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة ، أي : التي توجد في العقل عن طريق المعادلات الرياضية .

وأورد في تفسيره للقرآن الكريم كثيرا من الحوادث الشخصية التي كانت الموسيقى فيها حافزا له على ارتياد مواطن جديدة من النشاط الذهني ، بل إنه عزا توسعه في تفسير القرآن الكريم وهدفه من تضمين هذا التفسير كثيرا من حقائق العلوم الطبيعية إلى حادثة من الحوادث الفردية التي لعب فيها الفونوغراف دورا في تطوير أفكاره وشحذ عزيمته » .

ويستطرد الأستاذ «أحمد عطية الله» في بحثه عن هذا العالم الجليل قائلا : « كان الشيخ طنطاوي جوهري يتابع ما ينشر في الصحف والمجلات من اكتشافات علمية، ارتبطت في ذهنه بالتطور الحضاري . لذلك ، نراه يقرن بين الجمود والتخلف ، وبين عزوف المسلمين عن العلوم الحديثة . ومن هنا .. قاد دعوته إلى الإصلاح الاجتماعي، قوامها : نشر هذه العلوم ، مؤيدا قوله بالأدلة والبراهين التي لا حصر لها ، مؤكدا أنه لا جفوة بين القرآن الكريم – وهو المصدر الأول للعقيدة – وهذه العلوم ، بل إنه أكد القول بأن القرآن يحث المسلم على طلب العلم بمعناه الشامل ، وطريق ذلك في نظره هو نشر المدارس ، وإنشاء الجامعات الحديثة . وعبر عن ذلك في قصيدة له يقول في بعض أبياتها :

وابنوا المدارس في القرى
والجامعات كما يرى
في كمبردج ولندنا
فزمانها قد حانا

هذه بعض الملامح الشخصية والفكرية للشيخ طنطاوي جوهري ، كما سجلها لنا تلميذه الأستاذ «أحمد عطية الله» .

وقد انعكست هذه الملامح بصورة رائعة في تفسير «الجواهر» الذي كتبه الشيخ طنطاوي جوهري للقرآن الكريم في ستة وعشرين جزءا ، وهو تفسير لا مثيل له بين

كل التفاسير المعروفة ، وقد كتبه بعد أن تجاوز الستين . ويحدثنا هذا العالم الجليل عن تفسيره قائلا : « وبعد أن قطعت زمان الشباب ، وحل بساحتي المشيب ، وأنا أزاول مهنة التعليم وتأليف الكتب ، وجاوزت الستين أخذت أكتب هذا التفسير ، وانكببت على العمل سنتين كاملتين أو يزيد ، فكنت أكتب في اليوم نحو أربعين أو خمسين صفحة ، وعندما أنتهي من ذلك كنت أقوم بالمشى في الحقول حول القاهرة ، حوالي ستة كيلومترات كل يوم » . وقد أتم تفسيره للقرآن حوالي عام 1932م حيث صدرت طبعته الأولى في (6500) صفحة .

هذا التفسير كان يقوم على استخدام الدراسات العلمية الواسعة ، وأيضا التفصيلية في الكيمياء والطبيعيات والرياضيات ، وذلك للكشف عن عظمة الكون الذي خلقه الله وأبدعه . والشيخ طنطاوي جوهري يستخرج ذلك كله من آيات القرآن الكريم ، وهو لا يكتفي بالشرح النظري بل يقرنه بالصور والخرائط التي تشرح الآراء الواردة في التفسير ، والتي تقدم الدليل الثابت على صحتها ، فهو ينشر مثلا عدة صور في تفسيره لسورة الفاتحة التي تثبت معنى الرحمة في هذه العبارة من القرآن الكريم «الرحمن الرحيم» .. فالرحمة خلقها الله في هذا العالم ، فامتدت حتى إلى الحيوانات . ومن الصور التي استعان بها لتفسير معنى الرحمة في قوله تعالى : «الرحمن الرحيم» صورة للدب الأسمر ، حيث كتب تحت الصورة تعليقا يقول فيه : «ليس الدب الأسمر من الحيوانات المؤذية ، ولا هو يهاجم الإنسان إلا في حالتين : الأولى للدفاع عن نفسه ، والثانية للدفاع عن أطفاله . ونراه في الصورة يحمي اثنين من أطفاله ، وينظر حوله ؛ ليتقي ما هو محتمل من خطر قادم » ، ويقدم صورة أخرى لحيوان اسمه «الأوبسوم» ويكتب تعليقا عليها : «الأوبسوم : حيوان أمريكي بري، وهو شديد العطف على صغاره يحملها فوق ظهره أينما سار أو حل ، كما تدل على ذلك هذه الصورة » .

هذه نماذج من الصور التي يستخدمها الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره للقرآن الكريم ، والتي يقول عن اختياره لها : إنه اختارها من بعض المجلات العلمية لنتبين من مشاهدتها عجائب الرحمة الإلهية ، وكيف يتضح بالمشاهدة قول النبي ﷺ في الحديث : « **إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، ادخر منها تسعا وتسعين لعباده في الجنة ، وجعل رحمة واحدة في الأرض ، بها يعيش الإنسان والحيوان ، وتعطف الأمهات على ذريتها** »[1] والصور التي نشاهدها لها أثر في النفوس ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ** ﴾[3] .

كذلك نقرأ في تفسير «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري كلمات بالغة الجمال والتأثير ، منها قوله : « أرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل ، وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعلم .. والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العلم فهي أحق به » .

ويقول : «لن يعرف المسلمون محامد الله عز وجل حتى يقرأوا نظام الطبيعة ؛ لأنه من أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، فإذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة ، وليعقلوها وليفهموا دقائق الكون والتكوين ؛ فلا يتركون علما إلا درسوه ، ولا فنا إلا عرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حق حمده » .

وحين يتحدث عن نفسه ، يقول في مقدمة تفسيره للقرآن الكريم : « خلقت مغرما بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما في السماء والأرض من بهاء وكمال ، وآيات بينات ، وغرائب باهرات .. شمس تدور ، وبدر

(1) ابن ماجة .
(2) النمل : 93 .
(3) فصلت : 53 .

يسير ، ونجم يضيء ، وسحاب يذهب ويجيء ، وبريق يتألق ، وكهرباء تخترق ، ومعدن بهي ، ونبات شتى ، وطير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسري ، وحيوان يجري ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وكتاب من العجائب مستور ، فيه لوح الطبيعة المنشور ، وسقف مرفوع ... إن في ذلك لبهجة لذوي البصائر ، ونورا تبصرة لصادقي السرائر .. » .

ثم نراه يفسر اهتمامه بالعلوم من خلال تفسيره للقرآن الكريم بقوله : « إني لما تأملت الأمة الإسلامية ، وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ، وبعض أجلة العلماء ، عن تلك المعاني معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر في خلق هذه العوالم ، وما أودع الله فيها من الغرائب » .

ولعل هذا الموقف كان دافعا للشيخ طنطاوي جوهري حتى يعكف على تأليف تفسيره للقرآن الكريم ، بهذه الطريقة المتميزة عن غيرها ؛ فيقدم تطورات العلم المختلفة ، ويفسر من خلالها آيات الله الحكيمة ويؤكد : أن ذلك هو طريق النهوض للمسلمين والتوحيد الحقيقي بينهم ، ويعلن ذلك بوضوح حيث يقول : « إني أدعو جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول ، وإلا فكيف يقول الله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[1] ، وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهي : أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات ، والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان ، فإذا أبى المسلمون ما ذكرناه فإني أنذرهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، فليقرأ المسلمون في الشرق والغرب جميع العلوم التي برع فيها الإفرنج .. وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم في الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا عليه .. » .

ثم يدعو علماء المسلمين إلى أن يقفوا بين الناس شارحين لهم : « جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب والمعادن ، وليكثروا من هذا .. » ، ثم

(1) التوبة : 33 .

يقول : أولا يرى علماء المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن هذه العلوم التى تتصل بالكون والحياة غذاء ، وأن علوم الشريعة وهى الأحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ، وهو إذا تناول الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم المطلوب ، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة .. » .

هذا ما يقوله الشيخ طنطاوي جوهري في مقدمة تفسيره للقرآن الكريم ، وهو : تفسير يحث على الاهتمام بالعلم والاكتشاف والمعرفة الواسعة بأسرار هذا الكون ، حتى يحقق المسلمون النهضة والتطور ، ويتخلصوا مما هم فيه من تخلف وفقر وسوء حال ، في وقت تثبت فيه الحضارة الغربية تقدما في كل يوم .

ويشير الأستاذ «رجاء النقاش» في مقاله الضافي إلى ملاحظة مهمة مؤداها أن الشيخ طنطاوي جوهري كان معروفا في البلاد الإسلامية الآسيوية ، وسبب ذلك أن السلطات الاستعمارية كانت تمنع دخول الكتب العربية إلى تلك البلاد باستثناء الكتب الدينية ؛ مما دفع الشيخ طنطاوي جوهري إلى أن يجعل من كتبه المختلفة ، ومن تفسيره للقرآن الكريم على وجه الخصوص موسوعة كاملة ، تضم العلوم العصرية من طبيعية ورياضية واجتماعية ، مع توضيح ذلك كله بالرسوم والخرائط والصور ؛ ولهذا انتشرت كتاباته في هذه البلاد الإسلامية الآسيوية ، وخاصة إندونيسيا . وكان له في هذه البلاد فضل كبير ؛ حيث ساعد على نهضتها ، وفتح أمام أبنائها فرصة التعرف على العلوم الحديثة التي كانوا محرومين منها ومن دراستها أو حتى معرفتها .

وقبل نشر هذا التفسير العظيم ، أصدر الشيخ طنطاوي جوهري مؤلفات عديدة، منها : (ميزان الجواهر في عجائب الكون الباهر) ، و(جواهر العلوم) ، و(نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا) ، و(أين الإنسان) ، و(النظام الإسلامي) ، و(جمال العالم) ، و(نهضة الأمة وحياتها) .

هذا الإنتاج للشيخ طنطاوي ، لو أتيح له من يعيد نشره والاهتمام به كفيل بأن يكون قوة كبيرة في مواجهة الظواهر التي نعاني منها اليوم في مصر ، وبعض أنحاء العالم الإسلامي ، ومنها : التعصب والتطرف والانحراف بالفهم الديني إلى أفكار وآراء لم يدع إليها الإسلام .

إن الشيخ طنطاوي جوهري يرد على ذلك كله في كتاباته ، ويبرهن على خطئه ، ويؤكد بالأدلة الثابتة أن الإسلام هو دين العلم والرحمة والحب والسلام ، وهو دين الدعوة والقوة إلى التفكير والتأمل في أسرار الكون ، والكشف عنها ، والاستفادة الواسعة منها في تحقيق السعادة للإنسان والمجتمع ، ونشر الحب والسلام على الأرض .

إن أي باحث أو دارس أو حتى قارئ، لا يستطيع إذا كان عادلا ومنصفا إلا أن يقول : إن الشيخ طنطاوي جوهري كان واحدا من أعظم العقول التي عرفها الفكر الإسلامي المعاصر ، بل لقد كان واحدا من أعظم العقول الإنسانية في زمانه ، بالإضافة إلى ما اتصفت به نفسه من نبل وصفاء ، وإخلاص وإيمان .. إلى جانب دعوة صادقة إلى التعرف على رسالة الإسلام الحقيقية ، في دعوته إلى مبادئ العدل والسلام .. العلم والمعرفة .. الحرية والديمقراطية .. ولهذا ولغيره من أسباب ، اعتبر الشيخ طنطاوي جوهري من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة .

* * *

الإمام محمد مصطفى المراغي

عندما حصل الشيخ الإمام محمد مصطفى المراغى على شهادة العالمية عام 1904 كان الأزهر الشريف يموج بهذه الروح الجديدة التى أثارها خارج الأزهر السيد «جمال الدين الأفغاني» ، والدعوة إلى الإصلاح داخل الأزهر ، والتى حمل لواءها الشيخ الإمام «محمد عبده» . ولهذا نبتت بذور الإيمان بالإصلاح عند الإمام المراغى. حتى إذا ما ولي مشيخة الأزهر عام 1928 بدأ في وضع الأساس المتين بشكل مقنن. ولعل من أسباب استقالة إمامنا الشيخ المراغى في المرة الأولى في أواخر عام 1929 هذه الرغبة النبيلة في الإصلاح ؛ حيث استقال بسبب تأخر صدور المرسوم الملكي بقانون الأزهر الجديد .

وعندما أعيد اختياره شيخا للأزهر للمرة الثانية عام 1935 أصر على تنفيذ سياسته الإصلاحية التى بدت ملامحها في كلمة استقباله الأولى ؛ حيث استهلها بالقول : «للمسلمين في الأزهر آمال ، ومن الحق أن يتنبه أهله لها» ، وبهذه العقلية الواعية المتفتحة والفهم الواعى لرسالة رجل الدين ، كان الشيخ الإمام المراغى . وكانت فترة توليه من الفترات المزدهرة في تاريخ الأزهر والإسلام . فانظر إلى رأيه يوم اختلف الجمعان حول موقفنا من الحرب العالمية الثانية ، فالبعض يرى أن نساعد الحلفاء إكراما لخاطر المستعمرة بريطانيا العظمى ، والبعض الآخر يرى أن نساعد ألمانيا نكاية في بريطانيا نفسها ، وهنا يعلن الإمام المراغي من موقفه قائلا :

« هذه الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل » . فكان موقفه بمثابة الحسم في هذه القضية وإدراكا لخسارة فادحة تتكبدها مصر في أولادها ، دون أن يقابل ذلك حل لقضيتها الوطنية ، وهذا موقف لا يتخذه إلا رجل يجمع بين إيمان رجل الدين وثقافة رجل السياسة .

وموقف آخر للإمام المراغي تبدو فيه مسئوليته كرجل علم . ففي معرض تفسيره لآيات من سورة «الفرقان» في كتابه : (حديث رمضان) نراه يدعو المسلم إلى الاطلاع على العلم الحديث والتفكير في الكون وأسراره عن طريق العقل ، وليس عن طريق النقل ؛ حيث يقول : « لقد جنى بعض العلماء على المسلمين في الماضى جناية بعيدة الأثر في حياتهم ، جناية صرف الناس عن التفكير في الكون وأسراره ، مع أن هذا لا يتفق مع أغراض القرآن ، فضلا عن أن هذه الدراسات دفع التعمق فيها أمما من أمم العالم ، ومكن لها في الأرض ؛ فاستولت على أمم تفوقها عددا وثروة، واستولت على عروش العز والسلطان ، وأن إهمال هذه الدراسات سلب العزة من أمم كانت خليقة بالعزة بتاريخها ودينها وثروتها ، وإني أنصح قومي وأهلي بتوجيه الجهود إلى الدراسات العلمية » .

وفي التقريب بين القرآن والعلم الحديث الذي بدأ يغزو العقول والقلوب ، نجد للإمام المراغي موقفا إيجابيا جديرا بمكانته الدينية والعلمية في نفس الوقت . فنقرأ صفحات في مجال تفسير لآيات من سورة لقمان في كتابه : (حديث رمضان) منها هذه الفقرة التي يقول فيها : « قرر القرآن الكريم أن الأرض كانت جزءا من السماوات وانفصلت عنها » ، وقرر أيضا أن الله سبحانه وتعالى «استوى إلى السماء وهي دخان» ، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم الحديث . ولقد قال العلماء : إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا ، كل قطعة منها صارت سيارا .

ولا يقل موقفه في التيسير على المسلمين عن هذه المواقف الباهرة ، فقد لاحظ وهو رئيس المحكمة الشرعية العليا أن المحاكم الشرعية تلتزم في قضايا الزواج والطلاق بما جاء به القول الراجح من مذهب أبي حنيفة ، مع أن أحكاما أخرى تحقق التيسير بين المتنازعين ، وفي مقدمتها: الأقوال الراجحة «لابن تيمية» و«ابن القيم» .

ولعلنا نتوسع في الكتابة عن السيرة الذاتية للشيخ الإمام مصطفى المراغي خاصة وأن المكتبة العربية وملفات الصحف تخلو تماما من هذه المادة ، وفي ذلك نقرأ كتابا عنه يضم مقالات لعدد من المفكرين قدمه ابنه فضيلة الشيخ « أبو الوفا المراغي»، كما نقرأ لهذا الابن البار بعض ما كتبه عن والده وعلاقته بالأزهر الشريف، وفي ذلك نتبين أوجه الإصلاح التي قام بها المراغي الذي ولد في قرية [المراغة] من مديرية [سوهاج] بمركز جرجا في شهر ربيع الآخر سنة 1298هـ الموافق مارس سنة 1881م . ولما شب وترعرع ، بدأ حياته في التعليم بحفظ القرآن الكريم على النظام السائد في الريف في القرن الماضى ، ولما أكمل استظهاره أخذ يختلف إلى أحد العلماء في مدينة طهطا التي تجاور المراغة ، ولم يلبث طويلا حتى اتجهت نفسه إلى أن يأتي مصر ليدرس في الأزهر ، وكانت طريقة الدرس فيه إذ ذاك هي الطريقة التي ألفها الناس في جميع مدارس الشرق ومساجده ، فليس هناك نظام يقيد الشخص ويحد من حريته في اختيار الأستاذ وتخير الكتاب الذي يناسبه ، وكان بالأزهر بل في مصر عامة آنئذ حركة فكرية عامة ، رفع منارها المرحوم السيد «جمال الدين الأفغاني» وتلميذه المرحوم الشيخ الإمام «محمد عبده» الذي وجه الأفكار إلى طريق جديد للدرس والبحث وحرية التفكير ، ونبه الأذهان إلى أن تصرف عنها ما يحول دون وصولها للحق ، وأن تعمل على البحث للحقيقة ، وللحقيقة فقط غير متأثرة بشىء وراءها ، ونبه الجامدين الجاهلين إلى مواطن الضعف في نفوسهم ، وإلى أن الإسلام الذي يدينون به يعترف للعقل بالسلطان الكامل ويغذيه وينميه .

كان لهذا الجو الذي عايشه المراغي في بداية حياته الدراسية أكبر الأثر في تكوين عقليته الإسلامية الدينية الحرة التي لا تعرف إلا السعي وراء الحقيقة مهما لاقى في سبيلها من عنت ، وصادفه من صعاب . وقد كان في مستهل شبابه يبدي من الرأي ما كان يثير إعجاب زملائه وهم أكبر منه سنا ، وأقدم منه عهدا بمعايشة حياة الأزهر .

وكان كثيرا في الأزهر إذ ذاك : أن يقدم طالب على دراسة فنون الحكمة وفروع الفلسفة ، ولكن المراغي - كما أسلفنا - كان شغوفا بنشدان الحقيقة وتذوق العلوم التي تغذي العقل وتمد من سلطانه على نواحي الحياة ، وإدراك ما بها ، فلم يبال بالخروج على ما ألف الأزهريون من علوم تداولوها خلفا عن سلف طوال العشرة قرون الماضية ، واتفق هو وبعض أصدقائه على أن يتلقوا عن أحد الشيوخ في منزله علوم الحكمة والفلسفة .

وكان أكبر همه إذ ذاك أن يعتمد على نفسه في تحصيل الدرس وتفهم المسائل ، فكان يبدأ الكتاب على أحد أشياخه ثم يتمه مذاكرة مع أحد زملائه .

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده يقرأ في الأزهر دروس البلاغة والتفسير وكان له طابعه الخاص الذي عرف عنه ، والذي تظهر آثاره في أغلب تلاميذه كما تظهر في مؤلفاته التي يصدر فيها عن تفكير حر خالص، وهنا لازم المراغي الأستاذ في دروسه.

وعلى الرغم من هذه المدة القصيرة التى قضاها المراغى في الأزهر على خلاف ما عهد الناس في طلاب الأزهر إذ ذاك ، تقدم في مستهل عام سنة 1904 لشهادة العالمية وكان موضع إعجاب الأساتذة في لجنة الامتحان وتقديرهم .

بهذه الروح القوية التى كان للعوامل التى أسلفناها أكبر الآثار في تكوينها ، بدأ المراغى حياته قاضيا في مدينة [دنقلة] في نوفمبر 1904 والسودان إذ ذاك بلد يخافه ويخشاه كثير من الناس ، ولكن همة العظيم كانت تنير له من الطريق ما يظلم على غيره ، وتلهمه تذليل ما يعسر تذليله ، وتتلقى من الفيض ما يعده لتزعم الجماهير والجماعات في الناحية التى تهيأ لها ، وكان مع هذه السن الناشئة موضع إجلال الوسط الذي عاش فيه ، وتقدير الأهلين .

وظل في هذا المنصب حتى ديسمبر سنة 1906 ؛ حيث عين قاضيا لمديرية الخرطوم وهو أكبر مركز قضائى في السودان بعد وظيفة قاضى القضاة ، وكان مثال القاضي النزيه الحر التفكير ، حتى استحق ثناء رجال القضاء والمتقاضين معا .

وفي سبتمبر سنة 1907 عين المراغي مفتشا بوزارة الأوقاف بمصر ، ولم يلبث طويلا حتى عين في أغسطس سنة 1908 قاضيا لقضاة السودان ، وفي هذا المنصب بدأت مواهب الأستاذ وكفاءته تظهران في جميع النواحي التي كان له يد فيها .

فقد كان له في الناحية القضائية أكبر الفضل في تنظيم القضاء الشرعي من الناحية القانونية والنظامية ، على وجه يسر على الناس كثيرا مما كانوا يلاقونه من عنت ومشاق أمام جمود بعض النصوص ، وتعقيد طرق التقاضي .

وفي الناحية الاجتماعية ، كان المثل الأعلى لكرامة رجل الدين ، والمحافظة عليها بكل جهده ، وكان له في ذلك مواقف يذكرها ، فيشكرها كل من أدرك عصر الأستاذ في السودان ، واستطاع بفضله ، ورقة محضره ، وحسن تصريفه للأمور أن يكون بحق مطمح أنظار المسلمين عامة في الخرطوم ، وأن يكون لهم الأب البار العطوف الذي يحدب على أبنائه ، ويرعى صالحهم وأن يجعل بيئة الموظفين هناك تفيض غبطة وتطفح بشرا .

واستطاع المراغي أن يبرز شخصية الحاكم الشرعي وقاضي القضاة بإزاء شخصية القابضين على زمام الأمر هناك ، وأن يلائم بين رغبات السلطات في أناة ورقة .

وقد طال المقام به في السودان ، ورأى أنه غير قادر على تحمل الأجواء والأهواء هناك ، وغالبه الحنين إلى بلد احتضنه صغيرا ، فمن الخير أن يرعى وده كبيرا ، فنقل إلى مصر في سبتمبر سنة 1919 بوظيفة رئيس للتفتيش الشرعي ، وبالرغم من قصر المدة التي قضاها في هذه الوظيفة ، فقد استطاع أن يعطي عن طريق البحث الهادئ نماذج من الفكر الرصين ، وكان هذا المنصب باعثا على التفكير في إصلاح القضاء الشرعي في شتى نواحيه ، والعمل على وضع الأسس التي يستطاع بها إدراك هذا الغرض الذي وفق إلى شيء منه أثناء توليته رئاسة المحكمة العليا .

وفي يونيو سنة 1920 عين رئيسا لمحكمة مصر الشرعية ، وظل بها حتى يناير سنة 1921 ، ثم عين عضوا بالمحكمة العليا الشرعية ، وبقي بها حتى ديسمبر سنة 1923 ثم عين رئيسا لمحكمة مصر الشرعية العليا ، فرأى أن الوقت قد حان بعد تلك المناصب التي تولاها عقب رجوعه من السودان ، لأن يقوم بالخطوة الواسعة التي يقتضيها إصلاح القضاء الشرعي على ضوء ما رأى في السودان وفي مصر في تلك الفترة القصيرة ، فكان فاتحة العمل البحث في إصلاح الأحوال الشخصية ، بعد ما ضج الناس وبرموا بالحال الذي كان عليها قانون الأحوال الشخصية ، وجمود القضاة الأمر الذي أفسد من ذمم ، وبدل من علاقات ، فاستطاع أن يأخذ من التشريع الإسلامي من غير تقيد بمذهب معين ما رآه يسد الحاجة ، ويفي بالغرض ، وكان بحكم منصبه عضوا في المجلس الأعلى للأوقاف والمجلس الحسبي العالي ، فاستطاع أن ينفخ من روحه في المجلسين ما رأى من فكر ناضج وتقدير للمصلحة في جو من البحث الحر والرأي الهادئ ، ولا يزال رجال القضاء والمحامون يذكرون للأستاذ تلك المبادئ السامية التي كان يقضي بها ، ولا تزال دستورا لمن خلف من بعده في المحكمة كما يذكرون للأستاذ ما كانوا يلقونه من تبسيط لقواعد العمل وتسهيل لحاجات الخصوم ، وقد تقدم وهو في رئاسة المحكمة العليا للحصول على كرسي في هيئة كبار العلماء برسالة موضوعها: «الأولياء والمحجورون» ، فكان لها في الدوائر العلمية الأزهرية والقضائية أجل موضع وأسمى تقدير ؛ لما اشتملت عليه من بحوث لها أكبر القيمة وأجل الخطر .

وفي مايو 1928 عين شيخا للجامع الأزهر ، فكانت توليته مشيخة الأزهر وهو في تجاربه وسنه أكبر أمارة على إذن الله ببدء عهد الإصلاح لهذا المعهد الذي لعبت به أيدي الهوى عهدا طويلا ، وبعد ما خيمت عليه غواشي الجمود حتى ظن الناس أن لا خلاص منها .

بدأ عمله في الأزهر بالبحث عن العلل التي يشكو منها أهل الأزهر ، وعن العوامل التي يمكن أن يؤدي الأزهر بها رسالته، وهو تلك الجامعة التي تشرئب لها الأبصار في جميع أقطار الأرض ليقتبسوا منها نور الثقافة الإسلامية ، فهداه البحث إلى وضع قانون كفيل بحاجة الأزهريين ، وبالقيام بما يسد حاجاتهم ويضمن بالعمل به تأدية الأزهر رسالته على الأوجه الأوفى ، ولكن تلك الشعلة التي أضاءت ما حولها غشى بها كثير ممن لا يستطيعون أن يسايروا روح الإصلاح وجدت عوامل لم تكن في الحسبان ، فآثر الشيخ أن يدع العمل ويترك لمن يتولى الأزهر القيام بما يمكن نحو إصلاح هذا المعهد ، وبقي قرابة ست سنوات بعيدا عن معهد كان يرجو في قربه كل أمل وينشد كل خير .

ولكن روح الإصلاح التي بعثها الشيخ ، وجذوة الأمل التي أوقدها لم تكن لتخبو رغم ما عمل على إطفائها ، فظل الأزهريون يرنون بأبصارهم نحو ذلك المصلح الكبير ، حتى إذا اختمرت العزيمة قاموا بعنف يطلبون رسول الإصلاح لينقذهم وليدفعهم نحو الطريق السوي في الحياة .

عين الشيخ مرة أخرى عميدا لهذه الجامعة التاريخية في أبريل سنة 1935 فتلقاه الأزهر بما يتلقى به صاحب الأمل الذي يمهد له هذا الأمل الحلو ، ونادوا به رمزا للأزهر لا شيخا للأزهر ، واستطاع في مستهل عمله أن يضع قانونا جامعا لما احتواه قانونه السابق وما رآه بعد تجاربه في تلك السنوات الست جامعا لما احتواه قانونه السابق وما رآه بعد تجاربه في تلك السنوات الست ، واستطاع أن يصدره ليجد منه سندا لما ينشده من إصلاح حرص عليه منذ توليه الأزهر في المرة الأولى .

ورأى أن يساهم الأزهريون بنصيب في البعوث التي ترسل إلى الجامعات الغربية ؛ ليستطيع الأزهر بواسطتها أن يلائم بين هذه الثقافة التي ورثها وبين ما جد في الحياة من ثقافات ليؤدي رسالته على الوجه الأكمل ، كجامعة تعد من أقدم منابع العلم في العالم .

وقد رأى الشيخ أن يتصل بأبنائه الطلبة عن طريق الدرس والتأليف ، فبدأ يدرس أكبر كتاب في أصول الفقه ، ووضع كتابا في اللغة ونموها وطرائق رقيها وعوامل انتشارها ، وناقش بعض الآراء التى ورثها الناس كقضايا مقطوع بصحتها، فكان له في هذا الباب فضل التجديد في الإسلام ، وتحديد الآراء فيما شجر بين العلماء من خلاف ، ويعد هذا الكتاب بحق نموذجا للتفكير الحر والإنصاف في أمور تلقاها الناس بالتقديس والإجلال .

وإذا كانت هذه سطور من سيرة هذا الإمام الجليل ، تلك التى كتبها ابنه الشيخ «أبو الوفا المراغى» . فإن الأمر ينبغى أن يستكمل بمادة تدور حول الشيخ المراغى ودوره في الأزهر الشريف ، وهو دور واسع المدى عميق الأثر جاء ليكمل رسالة أستاذه الإمام محمد عبده ، وفي هذا نرجع إلى ما كتبه ابنه الشيخ أبو الوفا المراغى ؛ لنستخلص منه ملامح هذا الدور متضمنا الإشارة إلى هذا الإصلاح الذي قام به والده الإمام المراغى ؛ حيث ولي مشيخة الأزهر مرتين : الأولى قصيرة ومدتها أربعة عشر شهرا ، والثانية طويلة تبلغ نحو عشر سنين، وكانت الفترة الأولى فترة الغراس، والثانية فترة الازدهار والإيراق والإثمار ، أو كانت الفترة الأولى فترة التخطيط ووضع المشروعات ، والثانية فترة التنفيذ .

ولي الشيخ المراغى الأزهر سنة 1928 ، وكان الأزهر قد وصل إلى حالة خطيرة من الضعف ، وخاصة فيما يتعلق بمستقبل خريجيه ، فقد سلبت منهم الوظائف التى كان لهم أن يشغلوها في الدولة ، وسلبت منهم وظائف التدريس في المدارس بعد إنشاء مدرسة دار العلوم ، ثم وظائف القضاء الشرعى بإنشاء مدرسة القضاء . وأخيرا كادت تسلب منهم وظائف الوعظ ، فقد عزمت وزارة الأوقاف على إنشاء مدرسة خاصة به ، كل ذلك جعل الأزهر وخريجيه يبعدون عن أعمال الدولة ، وينطوون على أنفسهم ويحسون إحساسا مريرا بضآلة حظهم بين إخوانهم خريجى المعاهد الأخرى ، وبحرمانهم من المزايا التي يتمتع بها هؤلاء ، واتسعت الهوة بينهم وبين جماهير الأمة نتيجة لذلك حتى أنكرهم بعض الناس، وكان ذلك سببا في انصراف

الناس عن الأزهر ؛ فلم يعد كثير من المواطنين – وقد أخذ عيونهم بريق المستقبل الخلاب بالمدارس – يفكر في أن يسلك أبناءه في الأزهر ، وحاله على ما وصفناه.

وقد وصف الشيخ المراغي هذه الحالة ردا على سؤال لمحرري مجلة (الهلال) في يونية سنة 1929 : ما هو انتقادكم للأزهر بحالته الراهنة ؟ فقال : «كان الأزهر قديما يسد حاجة البلاد ، لأنه لم يكن يعرف في مصر معهد للتعليم يفضله ، وكان علماؤه إلى زمن محمد علي مجموعة المتعلمين في القطر ، ولم يكن الناس يقرون بالحركة العلمية في الخارج ، ولا يعتقدون أنه في الإمكان أبدع مما في الأزهر ، ولكن انتشار المدارس النظامية وانتشار المطابع والمجلات وحركة الرقي العام في الأمة ، كل هذه كان من شأنها أن تجعل الناس ينظرون إلى علماء الأزهر نظرهم إلى الشخص الذي لا يكفي حاجة الناس ، وأرادت الحكومة أيام «علي باشا مبارك» أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم فلم تجد كفايتها ؛ لأن طريقة التعليم القديمة لم تكن تلائم حالة النشء؛ ولهذا السبب اضطرت الحكومة إلى إنشاء دار العلوم ، وجاءت بالطلبة من الأزهريين أنفسهم ، ومن هذه المدرسة تخرج معلمو اللغة العربية في المدارس الأميرية ، وأرادت الحكومة أيضا أن تصلح القضاء الشرعي فلم تستطع أن تعول على علماء الأزهر ، فاضطرت إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعي ، فهذا الأزهر الذي يختص بدرس الدين واللغة لم تجد الحكومة فيه حاجتها من علماء الدين واللغة ، واحتاجت إلى إنشاء مدرستين خاصتين لهما ، بل لقد أرادت وزارة الأوقاف في العام الماضى إنشاء مدرسة للوعظ والإرشاد ؛ لأنها ظنت أن علماء الأزهر غير قادرين على تأدية هذه المهمة ، وكان لهذه المدرسة مخصصات في ميزانية سنة 1928 فتدخلت أنا ومنعت إنشاءها اعتمادا على أننا نستطيع بإصلاح الأزهر أن نستغني عنها» . ويقول في مذكرته الإصلاحية المشهورة : « ولكن العلماء أخيرا استكانوا إلى الراحة ، وظنوا أنه لا طمع لهم في الاجتهاد ، فأغلقوا أبوابه ، ورضوا بالتقليد وعكفوا على كتب لا يوجد بها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس ؛ فجهلوا الحياة وجهلهم الناس

وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما وجد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم فنقموا على الناس، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له فأصبح الإسلام بلا حملة » .. وهكذا كانت حالة الأزهر إذ ذاك، وكان الشيخ المراغي يألم لها ويود إصلاحها لو أمكنته الظروف، وكان يتصل بالأزهر بأكثر من سبب فهو أحد خريجيه أولا، يغار تمام الغيرة على معهده، وأحد رجال الدين ثانيا، والأزهر حامل لواء الرسالة الإسلامية، ويهم رجل الدين المستنير أن يكون الأزهر نبعا صافيا ومعهدا قادرا على أداء رسالته، ثم هو بعد ذلك متتبع لحركات الأزهر وثوراته في سبيل الإصلاح، عالم بعيوبه . فلما ولي الأزهر حتى كتب مذكرته الإصلاحية المشهورة التي تعتبر بحق دستور الإصلاح في الأزهر الحديث، ووضع قانونا أودعه آراءه وأفكاره وخلاصة تجاربه، وأهم ما جاء فيه تقسيم القسم العالي بالأزهر إلى كليات ثلاث : كلية أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية . وإنشاء قسم للدراسات العليا يسمى : تخصص المادة، ثم بعض المواد في كيفية إدارة الأزهر والإشراف عليه، وهي التي كانت سببا في استقالته سريعا من الأزهر .

كان عهد المراغى الأول في الأزهر قصيرا، ولكنه كان خطيرا بآثاره ونتائجه، خطيرا في تاريخ الشيخ في الأزهر، وخطيرا في تاريخ الأزهر، وفي نفوس الأزهريين فقد كان لآرائه في المذكرة وفي نفس القانون موقعها من نفوس طلاب الأزهر وقلة من علمائه، وتحققوا في صاحبه ما كانوا يسمعونه عنه، فاجتمعت قلوبهم عليه والتفوا حوله حتى إذا قضت الظروف باستقالته تبعته نفوسهم وظلت تهفو إليه قلوبهم، وظل أملهم المرجى، وإمامهم المنتظر، وما تركوا فرصة للتعبير عن تعلقهم به حتى انتهزوها حسبما تسمح الظروف به إذ ذاك، وكانت ظروفا قاسية في أكثر الأحوال، ولاقوا عنتا كثيرا وما آذنت تلك الحال بالتحول حتى قام الأزهريون على بكرة أبيهم وفي مظاهر من العنف والشدة ومن ورائهم الأمة جمعاء، يطالبون

بعودة الشيخ إلى الأزهر ليواصل ما بدأ وينفذ ما صمم ، ولم يجد المسئولون إزاء الإجماع الرائع والتعلق الشديد بدا من النزول على حكمه . فعاد الشيخ إلى الأزهر عودة القائد المظفر والرائد المنتظر ، فاستقرت قلوب الأزهريين واطمأنت نفوسهم وأرادوا التعبير عن ولائهم له والسرور بعودته، فأقاموا لذلك حفلا لتكريمه بأرض المعرض الزراعى بالجزيرة احتشد فيها نحو 15 ألف رجل من جميع الطبقات وسائر الطوائف، وحضره بعض الأمراء ورجال الفكر والسياسة في العالم ، وألقيت فيه خطب ، كما ألقى خطبة من خطبه التاريخية شكر فيها المحتفلين ، وشرح حال المسلمين وما هم في حاجة إليه من وجوه الإصلاح ، وقد صدرت الصحف صباح الحفل تشيد بنظامه وبما ألقى فيه من خطب وقصائد ، وتهنئ الشيخ وتغبطه على مقامه في الأزهر وفي الأمة ، حتى لقد قال بعض رجال الصحافة : لم يشهد العالم لا في أوروبا ولا في مصر حفلا اجتمع له من أسباب الروعة والنجاح ما اجتمع لذلك الحفل .

عاد الشيخ إلى الأزهر مرة ثانية ، وفي تلك المرة يبدأ تاريخ الشيخ في الأزهر كما يبدأ حقبة جديدة في تاريخ الأزهر ، فما من نظام من نظم الإصلاح في الأزهر الآن إلا وهو من عمل الشيخ المراغي ، سواء فيما يتعلق بمستقبل خريجيه أو بعلاقته بالدولة أو الأمة .

ويحسن هنا قبل أن ندخل في تفاصيل العهد الثاني للشيخ ، أن نذكر أن خلفه في المرة الأولى المرحوم الشيخ «الأحمدي الظواهري» اغتنم استقالة الشيخ وما لابسها من ظروف ، فأصدر القانون الذي وضعه الشيخ المراغى بعد أن حذف منه ما كان سببا في استقالة الشيخ المراغى وهى بعض المواد الخاصة بإدارته ونسبه إلى نفسه ، وافتتح كليات الأزهر التى وضع الشيخ المراغى في القانون مشروعها ، وقد نسبها صاحب كتاب : (السياسة والأزهر) إليه خطأ ، ولكن الواقع أن القانون الذي أصدره الشيخ الأحمدي بحذافيره ودعى بقانون سنة 1930 هو قانون الشيخ المراغى الذي وضعه سنة 1928 ، واستقال بسببه من المشيخة للخلاف بينه وبين الملك فؤاد على بعض المواد الخاصة بالإشراف عليه .

بدأ الشيخ المراغي عهده الثاني بإعادة النظر في قانون سنة 1930 وعدل فيه ما أثبتت التجارب وجوب تعديله ثم أخذ في تنفيذه . وكانت الأسباب قد تهيأت لذلك ، وزال من طريقه كثير من العقبات ، وكان للأخطاء التي وقع فيها الشيخ الأحمدي أثر كبير في تحسين العلاقات بين الشيخ وبعض علمائه وخاصة كبار السن منهم الذين كانوا ينظرون إلى الشيخ في عهده الأول نظرة خوف وحذر ، فقد قسا الشيخ الأحمدي في معاملة الأزهريين قسوة شديدة أسخطتهم عليه ، وصرفت عنه من كان يحسن الظن به ، وكان من تصرفاته أنه أصدر قرارا واحدا استغنى به عن اثنين وسبعين مدرسا من مدرسى الأزهر ، وقد دبرت مؤامرات لاغتياله وما أن قارب عهده على الانتهاء حتى كانت قلوب الأزهريين جميعا نارا تلظى بكراهته والسخط عليه، ويتمنون زوال عهده .

وكان الإصلاح في نظر الشيخ المراغي يقوم على ركنين . **الأول** : تخريج العالم الكفء الذي يصلح لتأدية رسالة الأزهر وهي : نشر الدين في مصر وغيرها ، **والثاني**: كفالة المستقبل لخريجي الأزهر ليحتفظوا بكرامتهم ويؤدوا رسالتهم ، وحول هذين الركنين يدور كل ما وضع من إصلاح في قوانينه وميزانيته ، ولتحقيق الركن الأول : فكر في إنشاء الكليات وخصص لكل كلية رسالتها ، ووضع لها منهجها الذي يعد خريجيها إعدادا كاملا لأداء رسالتهم ، فأضاف إلى العلوم التي كانت تدرس في الأزهر علوما رآها ضرورية لإعدادهم ، مما لم يكن يدرس في الأزهر من قبل ، كما أضاف إليها بعض اللغات الأجنبية ، ولتحقيق الركن الثاني بين في القانون حقوق المتخرجين في كل كلية من وظائف الدولة . وكان أخطر ما عمل وأشده دلالة على بعد نظر الشيخ في هذا الصدد أنه وضع في القانون فقرة صغيرة لم يتنبه إلى خطرها أكثر الناس ولم تستبن قيمتها في مستقبل خريجي كليتي : اللغة والشريعة إلا عند تطبيق تلك الفقرة هي «أن خريج كليتي: اللغة والشريعة بالأزهر صالح للتدريس بمدارس الحكومة ، فلما خرجت الكليات خريجيها طالبت بتعيين

بعضهم في مدارس الحكومة ، فثارت ثائرة مدرسة دار العلوم وأنكروا عليه ذلك فقال لهم وللمسئولين : إنني أطلب تنفيذ القانون . فقالوا له : وأين ذلك القانون الذي يعطي الأزهريين ذلك الحق ؟ فأحالهم على تلك الفقرة . وتوترت العلاقة بينه وبين الحكومة إذ ذاك ، وهم بالاستقالة لولا أن تدخلت جهات في الأمر ، وأجيب الشيخ إلى ما طلب ، وعين اثنان من خريجي اللغة العربية بوزارة المعارف ، فكان ذلك إيذانا بانفراج أزمة الأزهريين في الوظائف وانفتاح باب الخير لمستقبلهم ومشاركتهم إخوانهم خريجي المعاهد الحكومية في وظائف الدولة ، وما زال الأزهريون يذكرون للشيخ ذلك الموقف الخطير في تاريخ إصلاح الأزهر .

ولما اطمأن الشيخ إلى تنفيذ القانون ، وانتظمت الدراسات في الكليات ، أخذ يتابع خطواته الإصلاحية التي وضع أساسها في مذكرته وقانونه . وكان من أولى الخطوات : تفكيره في إرسال بعثات أزهرية إلى أوروبا ، وقد لقيت هذه الفكرة من بعض شيوخ الأزهر معارضة نفسية عنيفة ، ولكنها صامتة . فلقد كان الشيخ إذ ذاك أقوى من أن يقف في طريقه معارض ، خصوصا والأزهريون لم ينسوا بعد كيف عاد الشيخ إلى الأزهر مرة ثانية ؟!

ولقد كان الشيخ يخشى نتائج هذه التجربة على سمعة الأزهر ومستقبله . كان يخشى أن يجرف تيار المدنية الأوروبية مبعوثي الأزهر فيسيروا معها ويتأثروا بها في أفكارهم وأخلاقهم . لذلك ، حرص كل الحرص وتروى ما شاء له التروي في اختيار أعضاء تلك البعثة ، وظل يتشاور مع كبار المسئولين في الأزهر في ترشيحهم ، وظل هو يفحص المرشحين متوخيا في ذلك تقدم السن وحسن الخلق ، ليكون ذلك أبعد عن التأثير عليهم ، وبعد مدة تمت الإجراءات لسفرهم ، وودعهم بنفسه على المحطة بخطبة ألمح فيها إلى الغاية منها وإلى ما يساوره من الحيطة والحذر من نتائجها، وتوزع أعضاء البعثة إلى لندن وباريس وألمانيا ، وعاد بعضهم في حياة الشيخ وولي

بعض الأعمال، ولكن لم يحققوا كل آماله فيهم، وكان يعلن ذلك إلى خاصته في أسف، لذلك لم يهتم بأن يرسل بعثات أخرى كما وعد في خطبته في توديع البعثة الأولى .

ثم أخذ الشيخ يتابع خطواته في إصلاح الأزهر ، فأنشأ «قسم الوعظ والإرشاد» ووضع مشروع مباني المدينة الأزهرية التي تجمع كلياته ومعاهده ومكتبته العامة ومساكن الطلبة ، وقد قام بعضها في حياته وأنشأ «لجنة الفتوى بالأزهر» فأصبحت مثابة للمسلمين من سائر أنحاء العالم الإسلامي في شئونهم الدينية .

ولما استقر به المقام في المرة الثانية وتخفف مما كان يشغله من الشئون الإدارية ، أخذ يقرأ كتاب : (التحرير في الأصول) لطلبة كلية الشريعة بطريقة غير مألوفة في تدريسه فلفت أنظار العلماء إليه ، وأقبل بعضهم على دروسه في تقدير وإعجاب . وقد أحيا في عهد مشيخته الثانية سنة علمية قديمة ، وهي : أن يلقى كبار العلماء دروسا للملوك والأمراء ، فأخذ يلقي على الملك فاروق وكبار رجال الدولة وجمهرة من الشعب دروسا في تفسير القرآن الكريم ، في عصور وأمسيات كل جمعة من رمضان مدة عشر سنوات بأسلوب مبتكر في التفسير أثار إعجاب العالم الإسلامي عامة والعلماء منهم خاصة . وقد طبعت تلك الدروس مسلسلة في مجلة الأزهر سنة 1355 وما بعدها ومستقلة في كتب خاصة . وقد حرص الشيخ على لفت رجال الأزهر إلى الجانب الأخلاقي لرجل الدين . وكان بأفعاله وأقواله قدوة لهم في هذا الشأن ، وله في الاحتفاظ بكرامته مواقف يتناقلها المعاصرون في إعجاب وتقدير . وقد شعر الأزهريون بهذه الروح وتحركت في نفوسهم بواعث العزة والكرامة ، وأحسوا بما كان للشيخ من أثر في مكانتهم الأدبية والاجتماعية .

وهنا حقيقة تاريخية مهمة جديرة بالتنبيه والتنويه ، وهي أن تعيين الشيخ المراغى أولا وثانيا في مشيخة الأزهر ، كان بدافع المصلحة العامة والرغبة من المسئولين في إنهاض الأزهر وإصلاح شئونه ، واستجابة لرغبات الأزهريين في تعيينه

ولم يكن تعيينه لسبب سياسى وبتدخل عناصر أجنبية كانت على صلة بالشيخ وببعض أصدقائه السياسيين ، كما صوره خطأ بعض المؤرخين لغرض شخصي دنيء. ومن طرائف ما عمله الشيخ في عهده الأول أنه استبدل بجرايات الأزهريين – وهى مقادير من الخبز يأخذها العلماء والطلاب – نقودا يأخذونها احتفاظا بكراماتهم وصونا لهم عن هذا الوضع الذليل ، وقد لاقى هذا العمل من أكثر الأزهريين ترحيبا وتأييدا ، فطالما تبرموا من هذا الوضع وودوا لو ينقذهم منه مصلح حتى كان الشيخ المراغى ، ويتصل بهذه الناحية ما عمله من إخراج الخزائن الخشبية من داخل الأزهر، وكانت تلك الخزائن بمثابة مخازن للطلاب يختزنون فيها كتبهم وبعض أمتعتهم الخفيفة من أكل وغيره وكانت مأوى لكثير من الحشرات كما كان منظرها وخصوصا البالية منها يؤذي نظر الأجانب ويعطيهم عن الأزهر فكرة غير لائقة . وقد آلم ذلك بعض الأزهريين ، حتى لقد قال بعضهم على سبيل الفكاهات ، لقد خرجت البركة من الأزهر بخروج هذه الخزائن !

وبعد الإشارة إلى دور الشيخ مصطفى المراغى في إصلاح الأزهر ، ربما يكون من المستحسن أن نسجل بيان هذا الإصلاح كما كتبه هذا الإمام الجليل كوثيقة ؛ نظرا لأهميتها حيث جاءت في صورة خطبة قال فيها :

« أحمد الله جل شأنه على ما أولانيه من الكرامة بهذه المنزلة في نفوسكم ، وأشكر لحضرات الداعين المحتفلين برهم وكرمهم وعاطفة الحب الفياض البادية في قولهم وفعلهم ، في شعرهم ونثرهم ، ولحضرات المدعوين تشريفهم واحتمالهم مشقة الحضور الذي أعربوا به عن جميل عطفهم وحبهم ، ويسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لي في صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصى الضعيف واعتبارها كلها موجهة إلى الأزهر الشريف الذي تجلونه جميعا ، وتعتبرونه بحق شيخ المعاهد الإسلامية في مصر وغيرها من البلاد . ولئن دل هذا الاجتماع بالقصد الأول على غرض التكريم فقد دل بالإشارة والتبعية على معان أسمى من غرض التكريم ، دل

على أن الأزهر خرج عن عزلته التى طال أمدها ، ونهض يشارك الأمة في الحياة العامة وملابساتها ، وعزم على الاتصال بها ، ليفيد ويستفيد ، وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكري الذي نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن في الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها . ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول تعليم الحساب والهندسة والتاريخ في الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ، ومنذ أربعين سنة ، قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية في الفلسفة في داره على شرط أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة . والآن تدرس في كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة وتدرس الملل والنحل ، وتقارن الديانات وتعلم لغات أجنبية : شرقية وغربية . ومن الحق أيها السادة علينا أن لا ننسى في هذه المناسبة – والحديث حديث الأزهر والأزهريين – ذلك الكوكب الذي انبثق منه النور الذي نهتدي به في حياة الأزهر العامة ، ويهتدي به علماء الأقطار الإسلامية في فهم روح الإسلام وتعاليمه ، ذلك الرجل الذي نشر الحياة العلمية والنشاط الفكري ، ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم ، وعبد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها ، وصاح بالناس يذكرهم بأن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى ، ومكارم الأخلاق . ذلك الرجل الذي لم تعرفه مصر إلا بعد أن فقدته ، ولم تقدره قدره إلا بعد أن أمعن في التاريخ ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده ، قدس الله روحه وطيب ثراه ، وقد مر على وفاته ثلاثون حولا كاملا ، ومن الوفاء بعد مضى هذه السنين ونحن نتحدث عن الأزهر أن نجعل لذكراه المكان الأول في هذا الحفل، فهو: مشرق النور ، وباعث الحياة ، وعين الماء الصافية التى نلجأ إليها إذا اشتد الظمأ ، والدوحة المباركة التى نأوي إلى ظلها إذا قوي لفح الهجير – والأزهر كما تعلمون أيها السادة هو البيئة التى يدرس فيها الدين الإسلامى الذي أوجد أمما من العدم ، وخلق تحت لوائه مدنية فاضلة ، وكان له هذا الأثر الضخم في الأرض ، فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية

يعدون مقصرين آثمين ، أمام الله وأمام الناس ، إذا هم تهاونوا في أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم إلا إذا فهموا هذا الدين حق فهمه ، وأجادوا معرفة لغته وفهموا روح الاجتماع واستعانوا بمعارف الماضين ، وبمعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه مما هو متصل بالدين : أصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية في البلاد التى لا تعرف اللغة العربية ، هذا كله يحتاج إلى جهود تتوافر عليه ، وإلى التساند التام بين العلماء والطلبة والقائمين على التعليم ، ويحتاج إلى العزم والتصميم على طى مراحل السير في هدوء ونظام ، وجد وصدق نية ، وكمال توجه إلى الله ، وحب للعلم لا يزيد عليه إلا حب الله وحب رسوله ، وللمسلمين في الأزهر آمال ، من الحق أن يتنبه أهله لها.

أولا : تعليم الأمة الإسلامية المتأخرة في المعارف ، وهدايتها إلى أصول الدين وإلى فهم الكتاب والسنة ومعرفة الفقه الإسلامي وتاريخ الإسلام ورجاله ، وقد كثر تطلع هذه الأمم إلى الأزهر في هذه الأيام ، وزاد قاصدوه منها أفرادا وجماعات ، واشتد طلبها لعلماء الأزهر يرحلون إليها لأداء أمانة الدين ، وهي بيانه ونشره .

ثانيا : إثارة كنوز العلم التي خلفها علماء الإسلام في العلوم الدينية والعربية والعقلية ، وهي مجموعة مرتبط بعضها ببعض ، وتاريخها متصل الحلقات ، وقد حاول العلماء كشفها ، فنقلوا عنها وبذلوا جهودا مضنية ، وعرضوا نتائج بعضها الصحيح ، وكثير منها غير صادق ، وعذرهم أنهم لم يدرسوا هذه المجموعة دراسة واحدة على أن بعضها متصل بالآخر كما هو الحال في دراسة الأزهر ، فإذا وفق الله أهل الأزهر إلى التعمق في دراسة هذه المجموعة دراسة وافية قديمة وحديثة ودراسة المعارف المرتبطة بها وأتقنوا طرق العرض الحديثة أمكنهم أن يعرضوا هذه الآثار عرضا صحيحا صادقا بلغة يفهمها أهل العصر الحديث ، وإذ ذاك يكونون أداة اتصال جيدة بين الحاضر والماضي ويطلعون العالم على ما يبهر الأنظار من آثار

الأقدمين ، وأعتقد أن التعليم الأزهري على النحو الذي أشرت إليه هو الذي يرجى لتحقيق هذا الأمل ، وأنه مدخر لأبنائه إن شاء الله .

ثالثا : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضا صحيحا في ثوب نقي خال من الغواشي المشوهة لجماله وخال مما أدخل وزيد فيه ، ومن الفروض المتكلفة التي يأباها الذوق ويمجها طبع اللغة العربية .

رابعا : العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ، ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي تهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، فنشطت أهلها وخلفت فيهم تعصبا يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها ، وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن وجعلتها شيعا في الأصول والفروع . ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ونتج عنه سخف ، مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح : إن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمائم ، وطول اللحى حتى إن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين والسعي لإنشاء مساجد خاصة .

من الخير والحق أن نتدارك هذا ، وأن يعنى العلماء بدراسة القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عبرة وتقدير بما فيها من هداية ودعوة إلى الوحدة ، دراسة من شأنها أن تقوم الرابطة بين العبد وربه ، وتجعل المؤمن رحب الصدر هاشا باشا للحق مستعدا لقبوله ، عطوفا على إخوانه في الإنسانية كارها للبغضاء والشحناء بين

المسلمين . قد أتهم بأني تخيلت فخلت ولا أبالي بهذه التهمة في سبيل رسم الحدود ، ولفت النظر إليها ، وفضل الله واسع ، وقدرته شاملة ، وما ذلك على الله بعزيز .

الآن ، وقد أوضحت بالتقريب آمال المسلمين في الأزهر ، ترون أيها السادة أن العبء على عاتق الأزهر ليس هين الحمل ؛ فإنه في حاجة إلى العون الصادق من كل من يقدر على العون ، إما بالمال أو بالعقل أو بالمعارف والتجارب ، وكل شيء يبذل في طريق تحقيق هذه الآمال إذا أتت الجهود بهذه الثمرات الطيبة المباركة .

أيها السادة : أكرر لكم شكري ، وأبعث من هذا المكان ، وفي هذا الجمع المبارك تحية الأزهر إلى العالم الإسلامي ، وإلى دور العلم ومعاهده .. والسلام عليكم ورحمة الله » .

ولقد اعتبر الشيخ المراغي من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث توفي رحمه الله في 14 رمضان سنة 1364هـ الموافق 22 أغسطس سنة 1945م . ودفن في مقبرة خاصة به بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها .



الشيخ مصطفى عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق ، كان من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1303هـ وتوفي عام 1367هـ . بدأ تعليمه [بالمنيا] ثم سافر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر وحصل على العالمية عام 1908م، وكما يذكر الدكتور «عثمان أمين» في مقاله عنه بأنه أراد أن يسبر غور ثقافته الإسلامية ، لتواجه الثقافة الغربية محتذيا في ذلك حذو أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده ، فدرس اللغة الفرنسية ، وسافر إلى فرنسا ، والتحق في بادئ الأمر (بالسربون) حيث تابع الاستماع إلى المحاضرات المشهورة التى كان يلقيها عالم الاجتماع الفرنسى «إميل دوركايم» Durkheim حينئذ في علم الاجتماع . ثم عين محاضرا للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق بجامعة ليون، تلبية لدعوة الأستاذ «لامبير» أستاذ القانون بتلك الجامعة ، ودعى أيضا ليحاضر في الأدب العربي بكلية الآداب بجامعة ليون خلفا للأستاذ «جاستون فييت» .

واستطاع مصطفى عبد الرازق ، إلى جانب عمله بهاتين الكليتين بجامعة ليون ، أن يعد رسالة للدكتوراه في الفلسفة .

وعاد إلى مصر سنة 1915م ، بعد أن نال حظا موفورا من الثقافة الغربية ، فاختير سكرتيرا عاما للأزهر، ثم مفتشا للمحاكم الشرعية، وكان يعمل في الوقت نفسه بمعاونة عدد من المصريين والأجانب ، على إنشاء جامعة الشعب التى كانت تلقى فيها - إبان الحرب العالمية الأولى - محاضرات عامة في الآداب والعلوم والفنون . وفي تلك الجامعة ألقى مصطفى عبد الرازق سلسلة محاضرات عن الأستاذ الإمام محمد عبده.

وحينما أنشئت الجامعة المصرية رسميا سنة 1925م دعته كلية الآداب بها لإلقاء محاضرات في الفلسفة الإسلامية . وكان من حسن حظ الدكتور «عثمان أمين» كما

أشار إلى ذلك قائلا : « أن أستمع إلى هذه المحاضرات القيمة ، وأن أتتلمذ على ذلك الأستاذ الملهم ، وأن أقدر مع عمق تعليمه لنا وتقديري لنبل أخلاقه . واستطاع الشيخ مصطفى عبد الرازق أن يلفت أنظار الطلاب في تلك الكلية لدراسة الفلسفة الإسلامية التى كانت قد أهملت زمنا طويلا ، وكان أخص ما يميز محاضراته في كلية الآداب تلك الروح العالية التى ألهمتها : روح الروية والتحرر والنزاهة العقلية ، وهى صفات قد اقترنت بالسمات البارزة التي امتازت بها شخصية أستاذنا الأخلاقية ».

كان مصطفى عبد الرازق أول أستاذ للفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة ، ففي محاضراته بكلية الآداب ، تلك المحاضرات التي نشرها بعض تلاميذه بعنوان : «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» رسم الخطوط الأساسية للفلسفة الإسلامية .

وكان وهو يلقي الضوء على جوانب المشكلات الكبرى، يرد - بهدوئه المألوف - على الذين أنكروا على الفكر الإسلامي أصالته . ولقد أدرك الشيخ مصطفى عبد الرازق ببصيرته النافذة أنه ، وإن يكن المسلمون قد تقبلوا في تصورهم عن العالم عناصر مستمدة من الفكر الإغريقي ، إلا أنهم مع ذلك كان لهم منهج «خاص وثقافة مميزة ذات أصالة» ، وأن الفكر الإسلامي الحقيقي لا يلتمس في علم الكلام وفي أصول الفقه الإسلامي . وإلى جانب تقلده لكرسى الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة كان عضوا في هيئة كبار العلماء ، وعضوا في المجمع المصري ، وعضوا في مجمع اللغة العربية .

وقد تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق وزارة الأوقاف أكثر من مرة ، وكان رئيسا للجنة الأوقاف والمعاهد الدينية بمجلس النواب ، وفي سنة 1945 انتخب رئيسا فخريا للجمعية الفلسفية المصرية .

وكان تعيينه شيخا للأزهر خلفا للشيخ المراغي تتويجا لحياته العلمية الحافلة.

ولعلنا نذكر هذه القصة عندما عين شيخا للأزهر : أن هذا المنصب ومن قبله منصب وزارة الأوقاف تحتمان أن يكون صاحبهما حاصلا على الباشوية ، وبالفعل منح رتبة الباشوية . وهنا كتب رسالة للملك مفادها أنه يعتذر حين يرد هذا اللقب لأن لقب شيخ الأزهر الذي ناله لا يعادله أي لقب آخر ، وبهذا كان أول مصري يعتذر عن قبول الباشوية .

وفي هذا المنصب الرفيع، وهو منصب شيخ الإسلام، كان مصطفى عبد الرازق مجددا واسع الأفق ، عمل بجد وحصانة ، طوال الفترة التي تقلد فيها هذا المنصب رغم قصرها ، فبدأ بإدخال اللغات الأجنبية في الأزهر ، وشجع البعثات العلمية إلى الخارج، فأرسل بعثات أزهرية إلى إنجلترا وفرنسا لدراسة اللغة الإنجليزية والفرنسية، بقصد تدريس هاتين اللغتين في الجامعة الإسلامية ، وأرسل مبشرين مسلمين إلى أوغندا كما أرسل أخيرا بعثة من المدرسين إلى الأقطار الحجازية لدراسة العقيدة الإسلامية هناك .

وهكذا ، أراد مصطفى عبد الرازق - الذي كان من خاصة تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده - أن يحقق مبادئ أستاذه تحقيقا علميا بالتوفيق بين الإسلام والحضارة الغربية ، ولقد كافح الشيخ مصطفى كفاحا موصولا لتجديد الجامعة الإسلامية العتيدة التي كانت تضم أكثر من ثلاثين ألف طالب وفدوا إليها من مختلف أقطار الأرض .

لقد كان مصطفى عبد الرازق من خاصة تلاميذ الإمام محمد عبده ، وأقربهم إليه بروحه وعقليته : فقد جمع بين القديم والحديث ، والإسلامي وغير الإسلامي ، والشرقي والغربي ، ثم تمثل كل أولئك في قلبه الكبير وعقله الراجح ، وخرج به إلى الناس في صورة لا عهد لهم بها من قبل : صورة هي من صنع مصطفى عبد الرازق نفسه ، وظل الرجل وفيا لروح أستاذه ، حريصا على تطبيق مبادئه وتعاليمه ، فلم تفته فرصة إلا انتهزها للكتابة في الصحف عن سيرة الإمام وآرائه ووجهته في

الإصلاح ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فألقى عنه سلسلة من المحاضرات في جامعة الشعب ، كما ترجم إلى الفرنسية (رسالة التوحيد) وفوق هذا كله جاهد مصطفى عبد الرازق بقلمه ولسانه وحياته العملية ، لخدمة الدعوة الإصلاحية ، ونشر الحرية الفكرية التي نهض بها الأستاذ الإمام .

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يعتقد أن هنالك شيئا هو فوق العلم وفوق الفن ، وهذا الشيء هو ما يطلق عليه اسم الأخلاق ، وقد كان الفلاسفة الرواقيون يسمونه «فن الحياة» ، وهو أعلى الفنون ؛ لأن موضوعه هو الجمال بمعناه الصحيح ، أي : جمال الروح .

وكان الأستاذ يرى أن الأخلاق ينبغي أن تكون فنا للحياة ، أي أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه وبإزاء الله والناس ، بمعنى أن يكون للإنسان في حياته موقف مقرر وخطة مرسومة ، حتى لا تتجاذبه الأهواء والانفعالات ، فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة كان حكيما . وآية الحكمة هي ما يلازم سلوك الإنسان من ثبات واستقرار، ولكن هذا الثبات- فيما يرى الشيخ مصطفى عبد الرازق- يجب أن يكون في فعل الخير، وليس الخير هو ما يطلبه الجمهور عادة من اللذات أو المال أو الصيت، إنما الخير الذي هو عنده جمال الروح ، هو الحب والسماحة والجود .

ويقول إن هنالك فلسفة جميلة بزغت منذ فجر الفكر الإنساني ، وثبتت على أحداث التاريخ ، وهي فلسفة كرام النفوس ، أولئك الذين عاشوا للعالم كله لا لأنفسهم ، وظلوا على وفاق مع قانون المحبة والسخاء . وكان أول من مارسها أنبياء الشرق ، ثم أذاع تعاليمها كبار المفكرين والحكماء، من سقراط إلى أفلاطون وأرسطو ، ومن أرسطو إلى الرواقيين وأفلوطين ، ومن أفلوطين إلى الفارابي وديكارت، ومن ديكارت إلى كانط وغاندي . وكأن أولئك جميعا كانوا سلالة عظيمة واحدة أنجبت أقطاب الفلسفة الروحية على مدى العصور ، وجميعهم قد

استطاعوا أن يستشفوا جوهر الدين ، وأوغل بعضهم فيه ، فهداهم نظرهم إلى فلسفة عاشوا عليها ، وهذه الفلسفة تتلخص كلها في حالة نفسية يصح أن نطلق عليها الاسم الجميل الذي اختاره ديكارت ، اسم «الأريحية» ، وتلك حال النفوس التي تعطي ولا تأخذ وتسعى إلى إسعاد الغير مهما كابدت من عناء .

وكان الشيخ مصطفى عبد الرازق يقول أيضا : إننا جزء من كل ، وإن واجب الجزء أن يعمل من أجل الكل ، والكل الذي ننتمي إليه هو الإنسانية ، فكان الأستاذ يود أن يتجه نظام التربية إلى تقوية هذا الشعور ، شعور المحبة والتعاطف والتعاون بين أفراد الإنسانية ، وكان يرى أن علاج أمراضنا الاجتماعية يقوم على إصلاح أخلاقي يبث بين الطبقات انسجاما ، ويوجه النفوس إلى الخير المركوز فيها ، وإلى تقوية أواصر الرحمة ، وتزكية عواطف الأريحية ، وتخليص القلوب من أدران الحقد ومن رق الأنانية ، وكان يقول : يجب أن يقوم بناء المجتمع على السماحة والسلام ، أي على الشعور بأننا جميعا أسرة واحدة متآزرة ، أصلها واحد ومصيرها واحد .

فمذهب الأستاذ في الحياة الفاضلة مذهب لا يرمي إلى التشدد والتضييق والحرمان ، بل يدعو إلى السماحة والأريحية والإيثار ، وتلك أخلاق الإسلام ، وفيها أقوى تعبير عن روح البطولة التي تقوم على مجاهدة النفس وصونها من الانحدار في تيار الشر والأنانية . ومصدر هذه الأخلاق مصدر «جواني» ، هو الوحي الأول ، وحي القلب وذلك هو منبع النور الذي يضيء للنفوس الكبار على الخصوص ، ويضيء لكل إنسان يجيء إلى هذه الدنيا . فكان الأستاذ يرى أن المهمة الكبرى للفلسفة هي إزالة كل ما يحاول أن يطفئ هذا النور أو يحجب ضياءه وسناه .

وإذا .. فتجديد الشيخ مصطفى عبد الرازق هو في جوهره تجديد أخلاقي ، يرعى الفن الذي هو أرفع الفنون ، الفن الذي يصور الروح . ولقد لخصه هو نفسه في كلمة أستاذه محمد عبده : « إن الحب في عالم الإنسان كالجذبة العامة في العالم الكبير، فهو الذي يمسك المجتمع ويصونه من البوار » .

فإذا استلهمت النفس البشرية هذه الفلسفة الأخلاقية عرفت أنها لم تولد لتفنى بعد حياة قصيرة على هذه الأرض، ولكنها «هبطت إلينا من المحل الأرفع» كما عبر ابن سينا، وجاءت إلى اللامتناهي، فهي لا تقنع بما دونه مثوى ومآبا، إنها قبس من نور الله، فإلى الله مرجعها في دار الخلود.

إن نغمة هذه الفلسفة نغمة عميقة هادئة، رقيقة، إنها نغمة قد تخطت حدود المكان والزمان، واتسقت مع النغمة الكونية الكبرى التي هي نغمة سخاء وصفاء، وهل هناك أسخى من أن يمارس شيخنا الجليل فلسفته تلك وأن يعيش عليها ؟! وهل هناك أصفى من أن يعلم الناس بسيرته، ومثاله أن المحرك الطبيعي للإنسان إنما هو الأريحية والإحسان ؟!

بعد أن عرفنا شيئا عن فلسفة مصطفى عبد الرازق، قد نتساءل: إلى أي مدى كان الشيخ مصطفى عبد الرازق قادرا في حياته على أن يترسم هذا المثل الأعلى النبيل؟ كانت سريرته جديرة بفلسفته، فضلا عن أن نظراته الجمالية، وإنسانيته وتواضعه قد ساهم في تكوين صورة لرجل أفعم قلبه رحمة ونورا.

يتفق المفكرون المنصفون سواء الشرقيون منهم أو الغربيون على أن مصطفى عبد الرازق كان فيلسوفا على الحقيقة، أو بالأحرى «حكيما»، فإن حياته كلها كانت مفعمة بنوازع الخير ونبالة العواطف وبالتسامح والتواضع وضبط النفس.

وقد توسم الشيخ الإمام محمد عبده هذه الصفات الجميلة في مصطفى عبد الرازق الشاب، فكتب له رسالة يسأل الله فيها أن يديم إخلاصه في القصد وحبه للحق، وأن يشد من أزره لدعوة قومه إلى سبيل الخير والعمل النافع. وقد وضع الشيخ مصطفى عبد الرازق قلمه وصوته وحياته العاملة في خدمة القيم الروحية ومناصرة الحرية الفكرية في العالم الإسلامي، متمما بذلك الحركة التي تولى قيادتها الإمام محمد عبده. ومن دلائل وفاء مصطفى عبد الرازق لأستاذه: أنه أيقظ فينا - في تلاميذه في

الجامعة المصرية - الرغبة في التعرف على مذهب الأستاذ الإمام، وبعث فيهم الشعلة التي تسلمها هو نفسه من أستاذه.

وقد كانت رحمة الأستاذ وسماحته صفتين واضحتين في موقفه من أعدائه - وما كانوا في الحقيقة إلا حاسدين - فلم يكن يفكر قط في إيذائهم وإن دسوا له أو تقولوا عليه؛ ذلك لأن ما انطوت عليه نفسه من مشاعر نبيلة وأفكار سامية لم تدع لناظريه أن يقعا إلا على ما هو حق وخير وجميل، فحقق بذلك القول المأثور: الجمال في أعين الناظرين.

ومن الإنصاف أن نشير إلى جانب من حياة مصطفى عبد الرازق غير مألوف عند شيوخ المسلمين بصفة عامة، والشيوخ الأزهريين بصفة خاصة: ذلك هو الجانب الجمالي في نظرته إلى العالم. وليس عجيبا أن يهمل كتاب السير هذا الجانب من جوانب حياة الشيخ، لأن آخر مناصبه الدينية العالية كان منصب شيخ الجامع الأزهر، وقد جرت أحكام العوام على أن تضع حواجز بين الدين والحياة، وسولت لها الأوهام أن تتخيل تعارضا بين الفن والإسلام. وقد أوضح الشيخ الإمام خطأ هذا الزعم، مبينا أنه ناشئ عن انحراف في فهم طبيعة كل من الفن والدين.

وقد كان للشيخ مصطفى عبد الرازق روح «جمالية بينة»، فهو بالرغم من تحفظه وحيطته الطبيعية كان دائما شغوفا بتوسيع خبرته في الحياة، عاملا على تنمية تفسيره الجمالي لها. وكان تفسيره، خلافا للكثيرين ممن كانت لهم مثل تجاربه، بعيدا عن نوازع الاستهتار، لأن ما في طبعه من رقة ولطافة، وفهم وتعاطف، قد جعله يرى الجمال الذي لا تكشفه عيون المستهترين. وقد عبر مصطفى عبد الرازق عن تجاربه تعبيرا شائقا، ففي بعض رسائله الأولى غير المنشورة وصف باريس وصفا تحدث فيه عن الرسم والموسيقى والنحت والرقص والحدائق الغناء التي تمتزج فيها الابتسامات بالدموع، وهذه الرسائل وحدها كافية لتخليد المفكر الأديب الفنان أكثر مما خلدته محاضراته الجامعية عن الفلسفة والفقه وعلم الكلام.

وتظهرنا لنا سيرة الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه كان متحررا من الزهو والبهرج الكاذب ، فحين عاد من أوروبا بادر إلى ارتداء زيه الأزهري ، ولم يشأ ، حتى حين عين وزيرا للأوقاف ، أن يتخلى عن زيه التقليدي ، فكان في الحقيقة أول وزير معمم عرفته مصر في القرن العشرين !

آثر الشيخ أن يحافظ على طريقة معيشته الإسلامية ، وأبى أن يحتفل مع المحتفلين بمظاهر المدنية الأوروبية والثقافة الغربية ، وليس معنى هذا : أنه أراد أن ينبذ كل ما جاء عن الغرب : فالواقع أن الشيخ قد تمثل أفضل ما في ثقافة الغرب وعاداته خيرا مما تمثلها المتفرنجون الذين يتظاهرون بعلمهم للغرب . وهذا يكشف لنا عن حكمته العميقة وإيمانه بأن المكاسب الحقيقية للروح لا تحتاج إلى أن تدق لها الطبول ، ولأنها مكاسب جوانية ، فقيمتها تنبع من ذاتها .

وقد تجلت حكمته وروحه نفسها في صلواته أيضا ، إذ كان يؤثر أن يقيمها سرا، كما كان شأن أستاذه الشيخ الإمام محمد عبده ، حتى تكون خالصة لله لا يداخلها رياء أو تظاهر بالتقوى .

وقد كان مصطفى عبد الرازق « صاحب نظرية فلسفية » ، هي نظرية التوفيق بين القديم والجديد ، وبين الشرق والغرب ، وقد أعد لها إعدادا قبل أن يعد مثله رجل آخر ، واستطاع أن يحسن أداءها بحكمته وذوقه وتسامحه .

ولقد ذكر «الفارابي» في بعض كتبه : أن الذي يشرع في النظر الفلسفي «ينبغي أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية ، وهي أن يكون جيد الفهم والتصور ، ثم أن يكون محبا بالطبع للصدق وأهله والعدل وأهله ، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه ، وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب ، تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وما جانس ذلك ، وأن يكون كبير النفس عما يشين عند الناس ،

وأن يكون ورعا ، سهل الانقياد للخير والعدل ، عسر الانقياد للشر والجور ، وأن يكون قوي العزيمة على الصواب ، وأن يكون صحيح الاعتقاد لآراء الملة التي نشأ عليها ، متمسكا بالأفعال الفاضلة التي في ملته ، غير مخل بكلها أو بمعظمها » .

وما نظننا مسرفين حين نلاحظ أن هذه الصفات النادرة التي جعلها «المعلم الثاني» صفات للفيلسوف الكامل ، قد تحققت في أجلى صورها عند الشيخ مصطفى عبد الرازق . وإذا كان محمد عبده قد استحق أن يكرمه تلاميذه ومريدوه فوصفوه بصفة «الشيخ الإمام» فقد استحق مصطفى عبد الرازق من جميع من عرفوه أن يلقبوه باللقب الذي ارتضاه الفارابي وهو «الفيلسوف الكامل» .

وكما يقول الدكتور «عثمان أمين» : ستترك فلسفة مصطفى عبد الرازق آثارا مختلفة جدا ، وذلك شأن كل فلسفة تتجه إلى العقل كما تخاطب الشعور ، وتناصر العلم كما تقدس الدين . وقد تبدو صورة هذه الفلسفة غير واضحة المعالم أحيانا ، ولكنها فلسفة قد صيغت من عبير الحياة ونسماتها ، وهذه النسمات تأتي من فوق ، واتجاهاتها بين صريح يحسه أصحاب القلوب » .

صحيح أن هذه الفلسفة قد تلقت بعض نفحاتها من التصوف الإسلامي ومن خطرات الأفغاني ومحمد عبده على الخصوص ، ولكن يبدو مع ذلك أن الروح المبثوثة فيها روح جديدة ، ومن يدري ؟ فلعل المستقبل يقول إن المثل الأعلى الذي كان ينشده الشيخ مصطفى عبد الرازق في حياته قد سبق المثل الواهنة بأشواط بعيدة .

ولهذا ولغيره .. يعتبر الشيخ مصطفى عبد الرازق من المجددين في القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

محمد كرد علي

عالمنا الجليل محمد كرد علي ، سوري شامي بحكم المولد عام 1293هـ والوفاة عام 1372هـ ، ولكنه عربي عالمي بحكم الفكر والأثر التاريخي ، فقد تجاوزت كتاباته - سواء في العقيدة والدين ، أو الأحرى في العلوم والآداب - حدود مسقط رأسه في سوريا .. إلى غيرها من البلاد العربية الشقيقة والإسلامية بوجه عام ، وإليه ينتسب إنشاء أول جريدة ظهرت في دمشق في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر . واستمر يوالي الكتابة فيها حتى هاجر إلى مصر عام 1901م .. ليصدر (مجلة المقتبس) عام 1906م في دمشق ، ويضيف إلى مجلة المقتبس ، صحيفة يومية باسمها تغطي أخبار الشام .

لكن لا يطيب العيش طويلا لهذا العالم الجليل في سوريا ، فيهاجر مرة ثانية إلى مصر هربا من اضطهاد الأتراك ، هؤلاء الذين كانت سوريا خاضعة لهم ، ولا يعود إلى بلاده إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وهزيمة تركيا وتقلص نفوذها على البلاد العربية ومن بينها سوريا ، فيلقى من موطنه قبولا حسنا .. حيث يتولى وزارة المعارف مرتين وينتخب مدى حياته رئيسا للمجمع العلمي العربي هناك، وعندما ينشأ مجمع اللغة العربية بالقاهرة يصبح من بين أعضائه المؤسسين ؛ تقديرا لجهوده في مجالات الفكر والعلم وقبلهما العقيدة والدين .

ولمفكرنا العالم الجليل محمد كرد علي الذي يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري - الكثير من الكتابات في العقيدة والدين.. لكن أكثر هذه الكتابات خلودا ما تركه في مجلدين كبيرين تحت عنوان : (الإسلام والحضارة العربية) فيهما استطاع أن يفند هذه الأباطيل التي وجهت إلى الإسلام حيث يقول في تقدمته لهذا العمل

المبكر الكبير : « إن فئة تمثلت أساليب هذا العصر في البحث والتحليل ، ولم تتحرر إلى اليوم من سلطان العوامل الشعوبية والدينية والسياسية لمؤاخذة كل المؤاخذة بأحكامها الجائرة على الإسلام والمسلمين ، ولا يحول الإعجاب بأساليب أولئك الباحثين دون مناقشتهم في آراء لهم غير سديدة ، قال بها من قالوا ذهابا مع أهواء النفس الكثيرة ... » .

وعلى امتداد صفحات المجلدين ، يدير مناقشة بارعة .. مع هؤلاء الشعوبيين المتعصبين حول بعض القضايا ، مثلا ها هو يناقشهم في مسألة « صدق رسول الله في دعوته » فلا يكتفي بما لديه من أدلة وبراهين إسلامية ، وإنما يجيء لهم بحجج وبراهين مفكرين وفي مقدمتهم : «توماس كارليل» و«تولستوي» و«وليم موير» و«منتييه» و«فاليري» وغيرهم ممن دللوا على عظمة الرسول الكريم وصدق دعوته عن طريق العقل والمنطق .

وفي دفاعه المجيد عن القرآن الكريم ، نراه يعجب لاشتداد نغمة التعصب والشعوبية ضد هذا الكتاب ، فيقولون وهم الأعاجم الذين يصعب عليهم فهم آياته . وما لا يقوله إلا مجنون أو مخبول . ورغم هذا نرى هذا المفكر يرد عليهم بكل ما أوتي من علم وحلم ، مستشهدا بأقوال من أبناء جنسياتهم حتى يقتنعوا .

وإذا ما انتقلنا بين صفحات «الإسلام والحضارة العربية» تطالعنا قضية طال حولها الجدل وهي قضية : « القضاء والقدر كعقيدة إسلامية » فيستخدم معهم نفس المنهج ، بل ويرى أن الاعتقاد بالقضاء والقدر في الأصل مذهب من مذاهب الغربيين ، وهو أشد ظهورا في كتبهم منه في كتب الإسلام ، ويصحب ذلك بعشرات الأدلة .

وبنفس هذا المنهج الدقيق والفهم الواعي ، والثقافة الواسعة يناقش مسائل أخرى تتعلق بتعدد الزوجات ، والطلاق ، والحجاب ، والاسترقاق ، والمسكرات ،

وغيرها . فيدحض عن الإسلام الكثير من الأباطيل ، كما يرد على الكثير من الأفكار المسمومة التي روج لها هؤلاء المتعصبون ووجدت من الاستعمار خير سند لها ، لضرب الإسلام في معقله ، وهي الأمة العربية .

يرى في كتابه هذا الذي صدر في نهاية الربع الأول من هذا القرن : أن السبيل إلى الرد هو التصحيح بمعنى تصحيح هفوات من أساءوا ، وما برحوا يسيئون للعرب ودينهم ورسولهم ، مذكرا إياهم بما قدمته الحضارة الإسلامية للغرب في العصور الوسطى ، وهو ما قامت عليه حضارة الغرب الحديثة .

ما أحوج الدين الإسلامي اليوم إلى أمثال هذا المفكر المجدد : محمد كرد علي كي يرد على افتراءات الغرب التي تتهم أبناء الإسلام بشتى التهم ، وتعتبر البعض منهم إرهابيين بعد أحداث 11 سبتمبر عام 2001 تلك التي قد لا يكون للمسلمين أي علاقة بها . خاصة إذا صدقت الأقوال التي ترى أن هذا العمل الإجرامي ضد الأبرياء قد قام به اليهود الذين يحرضون الولايات المتحدة مدعين أن أبناء الدين الإسلامي هم الذين قاموا بتفجير برجي التجارة العالمي؛ حتى لا تتعاطف الولايات المتحدة مع هؤلاء المسلمين ، ومنهم العرب أصحاب النزاع المستمر مع إسرائيل : الطفل المدلل للولايات المتحدة الأمريكية .

ما أحوج هذه الفترة التي أعقبت أحداث سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية إلى مجدد في طول قامة محمد كرد علي .

* * *

عبد العزيز آل سعود

عاهل المملكة العربية السعودية : الراحل وموحدها ومؤسسها عبد العزيز آل سعود ، يعتبره المؤرخون والعلماء ضمن مجددي القرن الرابع عشر الهجري ، حيث ولد عام 1297هـ (1880م) وتوفي عام 1373هـ (1953م) عن عمر يناهز الثلاثة والسبعين عاما قضاها في عمل وجهاد مستمر حتى تتحول السعودية من مجرد قبائل بدوية منتشرة في الصحراء إلى دولة عصرية موحدة، على النحو الذي نراه عليه اليوم، وطبيعي أن تكون لذلك خطوات بدأت مع ميلاد وصبا وشباب وشيخوخة هذا العاهل الراحل .

لقد عاش «عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود» فترة صباه في [الرياض] تحت رعاية والده «الإمام عبد الرحمن» الذي تعهده بالتربية والتعليم والتدريب على أعمال الفروسية وغيرها من المهارات التي استفادها من مخالطة أهل البادية ، وفي هذه الفترة- الصبا- عاصر الأحداث التي أدت إلى استيلاء ابن رشيد على [الرياض] مما اضطر والده إلى الخروج مع أهله وأولاده إلى الكويت والإمارات المجاورة في الخليج، منتظرا الفرصة التي تجعله يعيد ملك آبائه وأجداده الذي بدأ من عام 1179هـ (1726م) على يد الإمام «محمد بن سعود» بموجب اتفاق تم بينه وبين الشيخ «محمد ابن عبد الوهاب» ولذلك عاش فتانا عبد العزيز في هجرته عن وطنه مع أسرته بموارد مادية قليلة ، عودته على حياة التقشف ، مما عمل على صقل شخصيته مبكرا ، فنشأ شابا جلدا قويا على مواجهة الصعوبات والتحديات على الشدائد والخطوب مهما قست وتعاظمت . حتى إذا بلغ الثانية والعشرين من عمره أي في عام 1319هـ (1902م) خرج على رأس حملة بلغ عددها أربعين رجلا من أقاربه وأعوانه ، لينضم

إليهم من المؤيدين عشرون رجلا آخرون عازما على استعادة الرياض معتمدا على الله، ثم على التأييد الذي يكنه الشعب لوالده الإمام عبد الرحمن.

وطبيعي أن يخطط لهذا الأمر ويعد له العدة ، ويحسب له ألف حساب نظرا لقلة أعوانه ، ولعل هذا العمل من عبد العزيز آل سعود يحسب له في ميزان حسناته وإنجازاته المبكرة ، وكان ضمن هذه الخطط والحيل التي مؤداها أن يقوم بإعداد كمين «لعجلان» حاكم الرياض وقتئذ من قبل ابن رشيد، قريبا من باب الحصن الذي كان يستقر فيه ، وبمجرد دخول عجلان هذا الحصن قام عبد العزيز ومن معه بقتله ، فاستسلم الحصن ومن فيه ، وليستولي عبد العزيز ومن معه على الحصن وما يتبعه من مبان وقصور ، ونادى المنادي معلنا مقتل الحاكم عجلان ، واستلام عبد العزيز مقاليد الحكم بدلا منه . معلنا في الوقت نفسه الأمن والأمان لأنصار ابن رشيد إذا التزموا الهدوء - وتلك من أخلاق الإسلام التي اتبعها عبد العزيز : «العفو عند المقدرة» وعم الخير في أنحاء الرياض بعد أن عادت إلى آل سعود ، وأخذ سكانها يتبادلون التهاني ، ويباركون عهد محررها عبد العزيز آل سعود .

ولم يكد عبد العزيز يحصن الرياض حتى مد سلطانه إلى مدينة [الخرج] ، ثم توغل إلى [وادي الدواسر] ووطد سلطانه عليه حتى وصل [الربع الخالي] ، وهنا تنازل له والده الإمام عبد الرحمن عن الإمارة في حضور العلماء وشيوخ القبائل ليصبح أميرا على هذه الأجزاء التي حررها ، أعقب ذلك ضم منطقة الإحساء إلى حكمه . ولم ينقض عام 1925م حتى كان عبد العزيز قد ضم إليه الحجاز ، ليشمل نفوذه غالبية الجزيرة العربية ، وتتوحد البلاد تحت اسم «المملكة العربية السعودية» عام 1932م ويكون ملكها عبد العزيز آل سعود وذلك بعد أن استتب الأمن ، وانتشر العدل ، في ظل نظام موحد على أساس مبادئ إسلامية شاملة .

وهكذا ، يبدأ الملك عبد العزيز في تنفيذ برامجه الإصلاحية للنهوض بالدولة الفتية تحت راية الإسلام ومبادئه وقيمه ، فوضع برنامج عمل اجتماعي واقتصادي

أطلق عليه نظام «الهجر» يهدف إلى تحويل مجتمع البادية إلى مجتمع مستقر ينعم بالأمن والأمان ، وقد اختار لكل هجرة موقعا مجاورا للمياه ، ودفع رجال القبائل إلى استبدال خيامهم المصنوعة من وبر الإبل وجلد الدواب ، إلى بيوت من الطين ، لتقيهم حرارة الصيف اللافح ، وبرودة الشتاء القارص ، وهذه واحدة من بدايات إصلاحاته ، يعقبها تعليم هؤلاء البدو على أساليب الزراعة موفرا لهم المياه والبذور وهذه ثانية ، كما عين لكل جماعة من البدو رجلا ملما بأصول الدين والشريعة الإسلامية لضمان الحفاظ على صفاء العقيدة الإسلامية والالتزام بما تفرضه ، ويعتبر ذلك من أهم إصلاحاته الجوهرية : أن يقرن الالتزام بالعمل بالتمسك بمبادئ الإسلام، حتى ينشأ المواطن قويا في عمله وعقيدته . هذا وغيره من الأعمال العديدة التي يذكرها التاريخ لهذا العاهل السعودي الراحل ، تلك التي أعطت البلاد دفعة قوية للسير إلى الأمام في دروب الحضارة والتقدم ، حيث أسس نواة المدارس الحديثة في كل واحدة من «الهجر» التي أنشأها وأحل السيارة محل الجمل ، واستحدث شبكة للاتصالات ، ونقب عن المياه في قلب الصحراء وخزن المزيد منها ليدفعه إلى بقية المناطق المتعطشة، والأهم: أن الملك عبد العزيز هو الذي عقد اتفاق منح الامتيازات للتنقيب عن البترول الذي كان منطلقا لكافة الإنجازات الاقتصادية التي حققتها المملكة العربية السعودية في العصر الحديث . ولا يمكن الاستهانة بهذا الإنجاز الذي تعيش من خيره اليوم السعودية ، لا يمكن التقليل من الجهد الذي بذله هذا العاهل حتى يضمن لبلاده الخير والرخاء في ظل عالم حديث، دوله العظمى لا تفكر إلا في الاستيلاء على موارد الشعوب العربية والإسلامية ، أقول : لا يمكن الاستهانة بهذا الجهد الذي بذله الملك عبد العزيز في التعاون بينه والدول الأجنبية : أمريكية كانت أو أوروبية لاستخراج هذه الثروة الهائلة من باطن الأرض مع الحفاظ عليها وحمايتها من أطماع هؤلاء الأجانب ، كما لا يمكن الاستهانة بكيفية إقناع أبناء المملكة العربية السعودية من البدو بالتعاون مع هؤلاء الأجانب المرفوضين مسبقا

من المواطن السعودي المحافظ على أمر دينه الإسلامي بما يفرض من تعاليم ربما تحدد نوع التعامل مع الأجانب خاصة في المناطق المقدسة ، إلا أن الملك عبد العزيز استطاع بحكمته وذكائه الفطري أن يقضى على هذا الأمر مجانبا كلا من [مكة والمدينة المنورة] ، مؤكدا أن العلاقة بين السعودية وبين الأجانب هي في مصلحة الوطن ، وهذه واحدة من مآثر هذا الرجل المتفتح التفكير الذي لو أغلق عقله تماما وسار على عادات وتقاليد أهل البدو ، ما كان قد حقق شيئا ، ولما أصبحت السعودية من أغنى بلاد العالم .

إن الذي يرى السعودية اليوم كما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عن الملك عبد العزيز وعنوانه : (مع عاهل الجزيرة العربية) ، وما وصلت إليه من تقدم وتطور شمل كل مرافقها لابد أن يتذكر مؤسسها عبد العزيز آل سعود ، حيث لم تظهر هذه الدولة الحديثة إلا في أوائل القرن العشرين الميلادي ، حينما أراد هذا الرجل الذي واجه العديد من التحديات والثورات والتي منها ثورتا بدو مطير ، وبني عتيبة وهما من الإخوان المسلمين التابعين للوهابيين الذين اعتمد عليهم في توطيد أركان مملكته إلا أنهم تمردوا عليه وفكروا في الغدر به .. ومن هنا - كما يذكر العقاد - يحق لذلك العاهل الذكر حين تذكر السعودية وما وصلت إليه من تقدم...» .

والعقاد بموضوعيته حين يترجم لهذا العاهل بصفحات تغطي كتابا بأكمله ، فإنه يرى فيه جوانب امتاز بها عن غيره من الحكام ، وهي التي يرجع إليها نجاحه في تأسيس دولة ، وولادة حضارة ، وسط الصحراء . صنع هذا حيث لم تكن تعوزه الحنكة السياسية التي لا تقل عن الخبرة القتالية ، فكما استطاع أن يجمع شتات هذه المملكة بالسيف ، استطاع أيضا أن يقنع العالم من حوله بالقول الحكيم ، فهو في الوقت الذي كان ينتقل من معركة إلى معركة ، ويضرب على أيدي الخارجين على القانون ويقمع نهب قوافل الحج، في ذلك الوقت كان يسعى إلى منح إحدى الشركات الأمريكية

امتيازا للتنقيب عن البترول واستخراجه ، ومع احتفاظه بالحياد في الحرب العالمية الثانية ، كانت ميوله إلى جانب دول الحلفاء ، وتلك ولا شك نظرة منه بعيدة وحكمة ، إلى آخر ما سجله الأستاذ العقاد من مآثر ومناقب لهذا العاهل في كتاب بأكمله .

ويذكر الأستاذ « عبد المتعال الصعيدي » تعليقا على إنجازاته : أن الملك عبد العزيز جرى حكمه في كل ذلك على أصول الشورى التي أتى بها الإسلام وإن لم يكن له مجلس نيابي مؤلف على النظام الحديث ، وله حكم قاطع دون كل حكم شخصي ، ولعل ما أخذ به نفسه من سيرة في الإصلاح بالتؤدة والتأني ، ومن مراعاة استعداد الشعب لما يريد من الإصلاح ، هو الذي منعه من التعجيل بتأليف مثل ذلك المجلس ، ولكنه استعاض عنه بأخذ الشورى من أهل الشورى والعدل في الحكم ، وإيثاره المصالح العامة على المصالح الخاصة ، لأنه لم يراع فيه مصلحة لنفسه ولا لقرابته أو حاشيته ، بل كان يميل إلى استرضاء الشعب واكتساب مودته بالعمل على مصالحه ، وكان كل ما يتعلق بشخصه لا يهتم به ، حتى إن علماء الرياض لما اعترضوا على قراره بإقامة احتفال سنوي بعيد جلوسه على عرش المملكة العربية السعودية ، مثلما يفعل غيره من الملوك والرؤساء ، ذكر له هؤلاء العلماء أن هذا مخالف للسنة ، هنا خضع لرأيهم ؛ حيث يتعلق هذا الرأي بشخصه لا بالمصلحة العامة ، ولكن كل هذا - كما يرى الأستاذ الصعيدي - لا يغني عن المجلس النيابي ، وقد تم إنشاء هذا المجلس على أيدي خلفائه من أولاده .

وقد يقال : إن الوضع في المملكة العربية السعودية لا يجري على التملق للحاكم والخضوع له ، والشعور بانحطاط المنزلة عنه ، كما يجري في غيرها من الأمم والشعوب . لأن الفريق الأكبر فيها ولا سيما البدو لا يعرفون الألقاب الشائعة عند غيرهم ، فهم شعبيون تلقائيون بفطرتهم ، يدعو بعضهم بعضا بأسمائهم المجردة ويخاطبون ملوكهم وأمراءهم بأسمائهم ، إن أصغر البدو كان يخاطب الملك عبد العزيز بقوله : يا عبد العزيز ، أو يا أبا تركي ، أو يا طويل العمر ، ولم يكن الملك

عبد العزيز يهتم أو يعبأ بلقب الملك أو غيره من الألقاب الملكية ، بل يعتز بهذه الطريقة من أبناء وطنه .

وقد يقال : إن الناس جميعا في هذه المملكة سواء فيما عدا التفاضل في الأنساب والإمارة ، فهم يكادون يتساوون في جميع ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، لأنهم جميعا سواء في نظر الشريعة الإسلامية التى يجري الحكم على نصوصها فلا تفضل هناك لشريف أو لسيد أو لحاكم على غيره، بل كلهم سواء في أحكام الشريعة، وإذا تعدى أمير على رجل من الرعية ، أنصفه الحاكم الشرعي منه ، ورد إليه حقه الذي تعدى عليه .

وقد يقال : إنه إذا كان الملك عبد العزيز لم يؤلف مجلسا نيابيا ، فإنه يكفيه عنه أنه عاش بين قوم هذا شأنهم ، إذ كان كل واحد منهم له أن يبدي رأيه في حكومته ، وأن يفرض عليه رأيه فيها بالحق ، وقد عودهم على هذا مدة حكمه الطويل ، فلا حاجة بعد إلى مجلس نيابي لاكتمال الحياة السياسية !

قد يقال هذا كله ، ولكنه لا يغنى عن تأليف مجلس نيابي على النظام الحديث ، يقضى على فوضى الجاهلية وعادات نظام القبيلة فيها ، تلك قد لا تستقيم مع النظم السياسية الحديثة ، وقد تم ذلك كما قلنا منذ قليل .

والحق .. أن الملك عبد العزيز لم تند عن ذاكرته كل هذه الأمور ، إلا أنه كان لا يقوم بكل الإنجازات دفعة واحدة . ولهذا ، فإن كان هذا المجلس النيابي لم يتحقق في عهده ، فقد تحقق على أيدي أولاده بعد ذلك .

ولهذا ولغيره من مبررات ، يعتبر الملك عبد العزيز آل سعود واحدا من المجددين في الإسلام ؛ نظرا لأعماله وإنجازاته وإصلاحاته التى حولت صحراء وقبائل الجزيرة العربية إلى مملكة موحدة متماسكة وفق النظم السياسية الحديثة ، يتحقق في ظلها التقدم والتطور ، الأمن والأمان .

* * *

محمد فريد وجدي

محمد فريد وجدي الذي عاش في الفترة من 1294م إلى 1374م، يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري، وقد اقترن اسمه بعملين جليلين هما: العمل الأول هو: « دائرة معارف القرن العشرين » التي تقع في عشرين مجلدا، انتفع بها إلى اليوم عديد من الأجيال في كل الأقطار العربية والإسلامية، حيث تم نشرها في العديد من الطبعات المتتالية. وأما العمل الثاني فهو: « تفسير القرآن الكريم » الذي استفاد منه القارئ المعاصر حيث كان في متناول يده وبأسلوب راق مبسط، هذا إلى جانب العديد من الأعمال ذات القيمة العلمية والثقافية منها: « الوجديات الشهرية »، وصحيفة الدستور اليومية، ومجلة «نور الإسلام» التي كان يصدرها الأزهر والتي سميت فيما بعد بمجلة الأزهر وغيرها من الأعمال التي تعلن عن ثقافة صاحبها الموسوعية، واتجاهاته العلمية والإعلامية، وكتاباته الضافية التي كان يرد بها على مفكري الغرب وفلاسفته المنكرين لدور الإسلام الحضاري.

هذا المجدد كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية، ولم يكن في ذلك كغيره من طلاب الجاه والسلطان والمال من وراء إيمانه بهذه الجامعة ودعوته إليها، بل كان يخسر في سبيل ذلك الكثير وهو في أحرج أوقات الحاجة، ومن ذلك على سبيل المثال: رفضه الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار الدستور لسان حال هذا الحزب في سياسته الرامية إلى تعزيز الدولة العثمانية، في مقابل: كفالة هذا الحزب بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها. وسبب رفضه كان؛ لأن هذا الحزب التركي كان يشترط أن ترفع من صدر الصحيفة عبارة «لسان حال الجامعة الإسلامية» التي كانت تقاومها تركيا في ذلك الوقت، ولم تمض شهور حتى كان هذا المجدد يبيع كتبه بثمن لا يضارع

إلا ثمن وزنها من الورق حتى يفي برواتب الموظفين والعمال بالصحيفة ، ومفضلا التشبث بدعوته إلى الجامعة الإسلامية عن هذه المساعدة التركية المشروطة.

وفي مجلة (نور الإسلام) التي تحول عنوانها إلى مجلة الأزهر نشر مئات المقالات التي لو جمعت لكونت العديد من المجلدات التي تتناول أدق وأخطر المشكلات الدينية والاجتماعية ، وترد على أعتى التيارات الإلحادية الإقليمية والعالمية ، وتحلل العديد من المبادئ الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامي مستعينا في ذلك بالعلم الحديث؛ ليثبت أن الدين فطري ، وأن الشرك نكسة طارئة ، كان زوالها محتما لدى الذين يقدرون الكرامة الإنسانية .

وقد نقل عن أئمة العلم الحديث خاصة الاجتماعي في أوروبا ، ما يدل على أن البشرية كانت موحدة في نشأتها الأولى ، إذ إنها عبدت الله وحده مهتدية بفطرتها الخالصة إلى الصواب حتى طرأ الزلل الذي أدى إلى الشرك ، كما تابع آثار الانحطاط الإنساني لدى الهمجيين من الوثنيين في بلاد مختلفة ، سواء في الغرب أو في الشرق .

والآن ، هل نحن في حاجة إلى تبيان للمنهج الفكري لهذا المجدد ؟ هذا المنهج الذي توسل به في مواجهة التغريب ، والذي يتفرع إلى عدة نقاط منها على سبيل المثال لا الحصر :

* إن مهمة الإسلام الكبرى في الأرض هي : أن يضع للناس كافة دستورا دينيا قوامه العقل ، وركنه العلم ، يوفقون به بين حاجات قلوبهم وعقولهم ، بحيث لا يصدمون في تمشيهم - نحو الحقيقة - بعقبة تقف بهم دون مواصلة السير إلى الغاية القصوى ، فلا يجد العلم في مدرجهم إليها من الإسلام مانعا يعمل على دكه كما دك كل الموانع التي حالت دونها من الأديان السابقة .

* إن الإنسانية مدفوعة إلى غاية بعيدة عن الارتقاء بكل ما أودع فيها من قوى ظاهرة أو خفية . فجاء الإسلام بدستور لا يدع هذه النزعة الجبارة من العلم

ولا الهمة الثائرة من ممثليه أن تنال من قدسيته مثالا ، راميا بذلك إلى غاية نص عليها في كتابه غير مرة ، وهي أن يكون دين البشرية في عهدها الأخير . وهو بطبيعته قد شرع ليكون دينا يسع جميع التطورات البشرية الممكنة ، فهو لذلك قد أتى بدستور ديني جمع هذه الأمور حتى لا يصطدم به في دور من أدوارها .

* إنه لا يوجد دين من الأديان ولا نظام اجتماعي من النظم المعروفة قديما أو حديثا يبلغ شأن الإسلام في رفع شأن العلم والتنويه بقيمته والدعوة إليه والتعويل عليه. والإنسانية كما تحتاج لعلم صحيح يتعلق بعقائدها تحتاج كذلك إلى علم تستصلح به معيشتها وتبني عليه اجتماعها .

* إن العقل إذا ساغ له أن يعتقد بأن هذه الشخصية (الإنسانية) فانية انحلت في نظره جميع الروابط الأخلاقية والقيود المعنوية ، ونال الوازع له من الإسفاف في المطالب الدينية ، فتحلل من جميع الالتزامات المادية ، فانتشار المذهب المادي يؤدي إلى توقف الترقي المادي والروحي .

* لقد دل الإسلام على مناعة صلبة في جميع أدوار حياته ، فاحتك بالأديان التى سبقته وقد كان يتولاها رجال بلغوا من الثقافة العلمية ما لم يكن له ظل في البيئة التى ظهر فيها الإسلام ، إن مناعة الإسلام التى ضربت بها الأمثال بعد أن خرج فائزا ومنتصرا على جميع ما صادفه من الخصومات .. تلك التى ستكلل بانتصار جديد على المذهب المادي الذي حاول أتباعه اليوم في بلاد المسلمين أن ينشئوا له دار هجرة يأوي إليها .

* لما كانت أصول الدين وتعاليمه ثابتة لا تتغير ، فإن الضرورات تدفع العقل البشري لإدمان البحث عن وجوه التوفيق بين المعلومات الحديثة التى تطرأ وتوسع في مجال النظر ، وبين الأصول الثابتة التي يدين بها باعتبار أنها منزلة .

كل ما في صميم الإنسانية من قوى وما يحيط بها من عوامل خارجة وما هو مدفوع إليها من الغايات البعيدة يدل على أن الإنسان خلق ليكون متدينا ذا عقيدة ؛

لينعم بها حيال الكوارث التى تصيبه في حياته الدنيوية القصيرة الآن . لذلك ، لا يوجد الإنسان حيث يكون إلا متدينا ، ولا يزال في عصر الشكوك متدينون .

* إن الإسلام لم يجعل لولاية الأمة سلطتين ، ولم يكل أمر الجماعة لطائفة من الطوائف ، بل ترك السلطة كلها للأمة تهبها للرجل الذي تراه صالحا لحكومتها وأمرها أن تحوطه برقابتها ومشورتها وأن تعطي لحكومتها الشكل الذي تجده أصلح لجمع كلمتها ، وهذا الوضع هو أرقى ما وصل إليه البشر في أمر السلطة الاجتماعية ، شأن الإسلام في كل الشئون الإنسانية . وعليه .. فالمسلمون لم يعرفوا تنازع السلطتين : الروحية والدنيوية ، وقد أوتوا أصولا مراعى فيها المزج بين هاتين السلطتين تفاديا من تنازعهما بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى . وقد عاش المسلمون أكثر من ثلاثة عشر قرنا لم تنشأ فيهم مسألة قيام سلطة روحية إزاء سلطة دنيوية ولا يخشى عليهم أن ينتحلوا شيئا من ذلك .

* إن المدنية الإسلامية هي الشكل الوحيد من الكمال البشري الذي يتقرب منه البشر يوما بعد يوم .

* إن الذي ضمن للإسلام الخلود أمران : « الفطرة الإنسانية ، وسلطان العقل الكامل » .

* إن الإسلام وهو دين الله العام لا يضيق عن مرمى ولا يخرج دون حال ، وأولى بنا أن نجمع إلينا إخواننا الذين صبغتهم الروح الأوروبية بصبغتها من أن ندعهم تطوح بهم اللوائح المدنية إلى حيث ينقلبون عليها ، إن الإسلام دين الله العام جاء لكل عصر بما يناسبه ، وفيه لكل عقل مسرح ولكل فؤاد مرتع .

* الانحراف عن سنة النظر والتأمل في الكون ، إلى سنة الفلسفة والكلام والاعتماد على العلوم الجدلية هو في الحقيقة انحراف عن الإسلام الخالص إلى غيره ، وما فرق الملل إلا اعتمادها على عقولها وإيثارها لأفكارها .

* إن الإنسان في ضوء النظر العقلي والعلمي سيسقط آثار الوراثات القديمة والتعصب المذموم ، ومن ثم تتاح الفرصة للنظر الصريح ومن هنا تستطيع العقيدة الإسلامية أن تجد مجالها إلى دعوة الإنسانية كلها .

* إن الإسلام قانون عام للأفراد والأمم على مثال القوانين الأخلاقية المعروفة ، ولكن هناك فارق كبير ، وهو أن الإسلام قانون شامل لجميع مطالب الروح والجسد ، قابل للانطباق على كافة الأمم بتوحيد مراميها ومقاصدها .

إلى آخر هذه النقاط التي من مجموعها يتكون ما يعرف بمنهج هذا المجدد في الدفاع عن الإسلام ضد منتقديه ومهاجميه .

* * *

أحـــمد أمـــين

المفكر الراحل أحمد أمين ، من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1374هـ، وبرزت قيمته العلمية كمفكر بين أفراد جيله من الرواد الأفذاذ الذين تصدوا لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي في أنه أوتي قدرة كبيرة على أن يحلل بعقله العقلية الإسلامية في نشوئها وتطورها وارتقائها ، بشكل يجعلنا أمام صرح شامخ من الأفكار .

فالقارئ الذي يطالع أحمد أمين في كتاباته الإسلامية المختلفة ، يتراءى له أسلوب «مفكر» بكل ما تعني هذه الكلمة من معان ودلالات ، فهو إذا عنت له فكرة، نلمح بين سطوره كيف يكون مقدار رسم هذه الفكرة في ذهنه ، وكيف يمكن تحويلها إلى خطة محكمة ، ثم كيف يعد حساباته . وإذا انتهى من هذه الفكرة ، فإنه يمد حواسه إلى فكرة جديدة تكملها ، فنراه وقد حشد خاطره . واستعان بكل ما يعرف من علم وفكر . وهكذا يصنع أحمد أمين في بناء مجموع أفكاره ، حتى نراه في النهاية وقد أحاط موضوعه بكل ما يكفل له البقاء والرسوخ ، فإذا نحن أمام بنيان شامخ من الأفكار يعلو ويرتفع ليكون حصنا للقرائح والعقول .

ولابد أن يكون أحمد أمين قد استعان من قبل بقواعد استخدام العقل في الحكم والنظر إلى الأشياء ، أو بمعنى آخر أسلوب العقل حين يتصدى لدراسة موضوع من الموضوعات ، فنراه يستخدم قواعد الحساب المنطقي من تحليل واستدلال ، حتى يستخلص ما يريد أن يستخلص من النتائج ، وهو ما نعرفه بالمنهج العلمي في تناول الأشياء .

ولعلنا نلمح ظلالا أو تأكيدا لما نقوله وندركه، حول تناول أحمد أمين لمادة «الحياة العقلية في القرون الأولى للإسلام» من عبارة وردت في تقدمته للأجزاء الثلاثة من كتابه: (ضحى الإسلام).. نجده يقول بالحرف الواحد: «لعل أصعب ما يواجه الباحث في تاريخ أمة، هو تاريخ عقلها في نشوئه وارتقائه، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب، ذلك أن مدار البحث في المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلي.

أما الفكرة، فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت، وكيف نمت، وما العوامل في إيجادها، وما العناصر التي غذتها، وما الطوارئ التي طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها، لأعياك ذلك، وبلغ منك في استخراجه الجهد، لأن الفكرة أول أمرها لا مظهر لها تستدل به عليها، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال، وتعمل في تغييرها وتعديلها عوامل في منتهى الغموض. والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ما ظهر من تعاليمها، قد يكون هذا الباعث سياسيا، وهي في مظهرها الخارجي مجردة من كل سياسة، وقد يكون الباعث لها إفساد الدين فتتشكل بشكل المتحمس للدين، وقد يكون المذهب صالحا كل الصلاح، ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهونه ويلغون فيه فيفسدونه، فيقف الباحث حائرا ضالا يتطلب بصيصا أو أثرا في الطريق يسلكه من قبله فيحتذيه».

ويستطرد أحمد أمين في إحصاء هذه الصعوبات التي يقابلها العقل عند دراسة الجوانب العقلية لأمة من الأمم، فيضيف إلى ما سبق: و«فوق هذا، فالأفكار متنوعة، والآراء متعددة، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها، ويراها الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط، ولم تتصل به أية صلة، فيعمل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب، وما قد يصل بينهما من سبب».

وهو ما أكده الدكتور طه حسين في تقديمه للطبعة الأولى لكتاب (فجر الإسلام) للأستاذ أحمد أمين ، حيث قال : « أخذ زميلنا الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلا ليس بأقل دقة واستقصاء من تحليل صاحب الكيمياء في معمله . نعم أخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع إلى عناصرها المختلفة المكونة لها ، وبأن يعرف إلى أي حد امتزجت هذه العناصر كالعنصر الجاهلى ؟ وما مقدار العنصر الفارسى ؟ وما مقدار العنصر اليهودي ؟ وما مقدار العنصر اليوناني؟ وما طبيعة هذه العناصر المختلفة التى كونت كل واحد منها؟ ثم بعد هذا كله : ما المزاج العربي الذي خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر في الآداب العربية كما نراه في شعر الشعراء، وخطب الخطباء، وعلوم العلماء، وأمثال الناس في أحاديثهم العامة والخاصة ؟ » .

وهذا التحليل الذي نشير إليه ، وينبه إليه من قبل مؤرخ الحياة العقلية في الإسلام الأستاذ أحمد أمين ، ومقدمة الدكتور طه حسين .. اقتضى من الأستاذ أحمد أمين الرجوع إلى العوامل المستمدة من الإسلام ، والعناصر الدخيلة على المسلمين ، من الحضارات المجاورة كالفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها في بوتقة واحدة هي الحضارة الإسلامية .

أساس الفكرة إذا عند أحمد أمين هى أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيرا قويا في حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته ، ذلك هو الإسلام الذي انتشر من أقصى الشرق في الهند إلى أقصى الغرب في الأندلس ، فإذا شئنا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية لتبين لنا الأسس التي قامت عليها ، والعوامل التي أدت إلى قيامها .

وأحمد أمين حيث تتيسر لديه المادة الإسلامية ، فإنه يلتزم في بحثها بثلاثة أبواب كان يفصلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية ، وهذه الأبواب هي : الناحية الاجتماعية ، ثم الناحية العلمية ، وأخيرا الناحية الدينية .

والقارئ لكل كتابات أحمد أمين الإسلامية لا يضنيه البحث في التعرف على هذه الجوانب الثلاثة ، فهي بادية واضحة في كل جزء من أجزاء كتبه الإسلامية . فإذا شئنا أن نعرف العقلية الإسلامية - على طريقة أحمد أمين - فلابد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التي تبرز بها وتحقق وهي العلوم المختلفة ، وحياتها وروحها وهي المراكز الاجتماعية التي نمت فيها وترعرعت .

وبمعنى آخر فإن العقلية الإسلامية في نظر أحمد أمين أشبه ما تكون بالنهر الجاري المتدفق : الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته ، ونجد تطبيق هذا المنهج بوضوح في (فجر الإسلام) ، ومفصلة في (ضحى الإسلام) ، وأكثر تفصيلا في (ظهر الإسلام) .

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين جوانب الحياة العقلية في الإسلام من جميع أنحائها ، ويفتح للباحث أبوابها على مصراعيها كي يغدو ويروح إلى كنوزها ، التي كانت تتوارى عن الأنظار ، والتي كانت تمتنع عليها امتناعا .

وبالطبع ، كل ذلك بفضل ملكات أحمد أمين العقلية التي ائتلفت منها شخصيته العلمية بخصالها الفذة ، وأولى هذه الخصال : تعمقه وفهمه للثقافة القديمة والحديثة ، تعمقا وفهما أتاح له كلما درس فكرة أتقنها فهما وفقها ونقدا دقيقا، وكأنه لا يريد أن يترك فيها بقية.

وخصلة ثانية هي : خصلة التعميم والتنظيم ، فقد كانت للأستاذ أحمد أمين قدرة غريبة على استخلاص الأفكار الكلية التي تجمع الجزء إلى الجزء ، وتضم العناصر عنصرا إلى آخر ، فإذا الكل يستوي قائما ، وإذا الفكرة تتمثل واضحة ، وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات إلى الكليات ، ولا يزال يلائم بين ما يصل إليه من الكليات في الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل ، ولا يزال يلائم بين الفصول حتى يتكون لها باب ، ولا يزال يلائم بين الأبواب حتى يتكون له كتاب . ومن ثم

يبدو التناسق واضحا فيما يؤلفه، إذ يحسن تصنيف الأفكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيبا دقيقا بحيث يعمها الاستواء والتناسق ، فلا نشاز ولا اضطراب ولا طغيان لفصل على فصل ولا لفكرة على فكرة مع الوضوح التام ، ومع ضرب من المنطق الحاد الذي يشفع بالقدرة على التعليل ، وهي قدرة بدأها أحمد أمين حيث كان ضمن هيئة القضاء الشرعي ، ونماها في الجامعة على ضوء ثقافته الحديثة .

وخصلة ثالثة هي : خصلة الحرية العقلية ، فالأستاذ أحمد أمين يجهر بالحق في صراحة ، وبدون مواربة، وبدون أي تكلف يجهر به في كل ما يمس الحياة دينا ودنيا . ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة، فقد كان ينصرهم دائما ويشيد بهم، ولكن ذلك لم يستر عنه معايبهم ، فمضى يشرحها شرحا واسعا ، شرح العالم المستبصر ، بل شرح العالم الحر الفكر ، الذي لا يحفل إلا بالحق وحده فهو يعيش له ويعيش به ، ويعلنه إعلانا صريحا لا غموض فيه ولا خفاء . وكذلك كان شأنه مع الشيعة ، فقد أجهد نفسه في تصوير عقيدتهم بكتابه (فجر الإسلام) وراحوا يعلنون عليه حربا شعواء . ولكن هذه الحرب لم تصرفه عن آرائه القديمة ، حيث أصدر كتابه الجديد «ضحى الإسلام» ، بل لقد مضى يثبتها ويكتب معها نقدا جريئا، إذ اعتقد أنه حينما يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم .

وثمة خصلة رابعة تتصل بهذه الخصلة ، هي : عدالته في الحكم على الأشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة ، وهي عدالة اكتسبها نظريا في مدرسة القضاء الشرعي وفي أثناء درسه للأخلاق ، وعمليا حين اشتغل قاضيا ، وتولى الحكم في القضايا الشخصية ، ونحن لا نقرؤه في (ضحى الإسلام) وفي غيره من مصنفاته ، حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يمينا ولا شمالا بتأثير هوى أو عصبية ، وهي موازين شديدة الحساسية ، تزن كل رأي مهما دق وكل فكرة مهما صغرت ، وهي لذلك أيضا تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد ، فأحكامه ونقده

جميعا لا يشوبهما ضعف أو عوج أو ص ، بل هو دائم التحري والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال إلى أقصى حدود الاعتدال .

وخصلة خامسة في الأستاذ أحمد أمين ، يمكن أن تضم إلى الخصال السابقة ، هي : الطموح إلى تحقيق المثال الأعلى في البحث والدراسة ، وهي خصلة دفعته دفعا إلى كفاح علمي عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقه وبمناهج القدماء والمحدثين جميعا ، ثم مضى ينفق أيامه في دراسة الحياة العقلية الإسلامية ، باذلا كل ما يملك من قوة وجهد ، متذرعا بكل ما يستطيع من صبر وجلد ، محتملا من ضروب المشقات ما تنوء به العصبة أولو القوة ، إذ كان الطريق العلمي إلى تلك الحياة مليئا بالعقبات والصعاب ، فما زال يقهر كل صعوبة حتى استقام له الطريق ممهدا واضح المعالم .

والحق ، أن الكثيرين من نقاد أحمد أمين ومؤرخي فكره يرون في كتاباته الإسلامية أسلوبا جديدا في التاريخ الإسلامي ، تعلم عليه واستفاد منه أكثر الباحثين والدارسين ، فقد أمدنا بفيض غزير ومنهج دقيق وعلم وفير . وتعد كتبه : (فجر الإسلام) ، و(ضحى الإسلام) ، و(ظهر الإسلام) ، من أعظم المؤلفات العلمية المنهجية في تناول الحياة العقلية وعرضها وبسطها في أسلوب علمي دقيق سهل ، ولا نعدو الحقيقة إذا أعددناها في مقدمة المراجع الحديثة التي يحتاج إليها الباحثون في هذا الميدان الواسع العريض ، ويكفي أن نعود إلى ما كتبه الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق، والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور برجشتراسر ، والدكتور جفري عن (فجر الإسلام) عقب ظهوره . فندرك قيمة ما التزم به أحمد أمين في دراسته ومنهجه، ومقدار ما اضطلع به من جهد جهيد، وما قدمه للدارس العربي ، من مصادر للبحث ومراجع عربية وغير عربية بما يتفق مع ما حققته الأمة

العـربية من تطورات في مجتمعهـا وثقافتهـا ، وما كان يتطلع إليه جمهـور المثقفـين في الجامعة المصرية التي قادت هذه النهضة وفتحت لها أوسع طـريق .

وبهذه الروح العلمية التي أشاد بها الكثيرون ، كتب أحمد أمين كتبه في الإسلام، وهي : (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام) في ثلاثـة أجـزاء ، و(ظهـر الإسـلام) في أربعة أجزاء و(يوم الإسلام)، و(الفتوة والصعلكة في الإسلام). و(هارون الرشيد)؛ لتصبح المصادر الأساسية التي لا يستطيع أي باحث الاستغناء عنها .



عبد الحميد العبادي

رائد التاريخ الإسلامي ، خاصة في جانبه السياسى والاجتماعي : عبد الحميد العبادي يعتبر واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري فقد ولد عام 1310هـ وتوفي عام 1375هـ ، ذلك لأنه يعتبر من بين الأصوات الصادقة التي ارتفعت عبر تاريخنا معلنة عبقرية التاريخ الإسلامي ، مؤكدا في كل ما قاله أو كتبه أن هناك حضارة حقيقية للإسلام ، لها مقوماتها ودعائمها ، من حقنا كورثة لهذه الحضارة أن نعرف عنها الكثير . والسؤال الآن : لكن كيف كون العبادي مدرسة تاريخية قويمة التقاليد عنيت بالتاريخ الإسلامي ؟ أو بمعنى آخر ما هو المنهج الذي اتبعه في تناول المادة الإسلامية ؟

إن ملامح هذا المنهج الخاص بالعبادي تبدو من رأي تلميذه الدكتور «جمال الدين الشيال» ، حيث يقول : « لقد كان التاريخ الإسلامى قبله (أي قبل العبادي) رواية تروى أو قصيدة تحكى ، أو نكتة تقال ، أو بيتا من الشعر ينشد ، وكان العبادي أول من ارتفع به إلى مرتبة العلم ، فجعله فكرا يمحص ، كما جعله تحليلا ، ونقدا ، ومقارنة ، ودراسة دقيقة على أسس ومذاهب علمية ثابتة . فإذا كان في مصر اليوم من يفهم التاريخ الإسلامى حق فهمه ، ومن يجيد بحثه ودراسته ، فإن الفضل الأكبر في هذا إنما يرجع إلى العبادي وطريقته وجهوده » .

وهذا التاريخ الإسلامي الذي أسس له العبادي مدرسة ينبغي أن تتصل دراسته بالأدب والشريعة ، وبموجات الحياة العربية والإسلامية ، وبواعث هذه الموجات من عقيدة ورأي وأدب ، وهذه الإمكانات جميعها متوافرة لدى العبادي – كما رأينا منذ قليل من غرامه للكتب وللشعر واللغة ، ومن استكمال ثقافته بدراسة

القانون وحصوله على ليسانس الحقوق ، مما يجعل من اليسير أن يكون لهذا الرجل الموهوب - كما وصفه تلميذه الدكتور « محمد عبد الهادي شعيرة » بأنه « أستاذ موهوب جمع بين الأدب والتاريخ في آن واحد - أسلوب متميز ، وله من الأدب جمال الصورة وروعة الأسلوب ، وله من التاريخ منهجه العلمي الدقيق ، يسنده دائما ويدعمه فيما يرسم من صور التاريخ أساسا تاريخيا عتيدا ، مبنيا على قراءات واسعة مستفيضة وافرة الحظ من الإجادة والإتقان ، أعانه عليها ذوقه الأدبي الممتاز ، فهو يحفظ بعضها عن ظهر قلب ويتمثله حيا ، ويزيد عباراته جمالا ، لكنه لا يتركه يثقل من سرده التاريخي القوي البناء ، ثم هو حريص على تجنب التفاصيل التي قد تشوه الصور التاريخية أحيانا وتذهب برونقها ووضوحها » .

ولهذا المنهج أو الأسلوب الذي استحدثه العبادي يتفق عليه تلاميذه ، وأغلبهم من أساتذة التاريخ وعلمائه ، على أنه صاحب مدرسة جديدة في التاريخ الإسلامي خرجت به عن طريقته القديمة في الرد والجمع ، كما تجاوزت به ذلك التقدم البراق الذي عرض له في القرن التاسع عشر على يد الكتاب الغربيين وبعض المؤرخين الشرقيين ، والذي لم يكد يغير إلا من مظهره فحسب ، بما أدخل عليه من تنظيم الوقائع ، وتبويب بعضها بالقياس إلى بعض في أسلوب أخاذ ، وإن كان عاطلا في كثير من الأحيان عن التعمق وفهم النصوص .

فللأستاذ العبادي طريقة علمية دقيقة أعانته عليها ملكاته القوية ، في أنه يجمع إلى قوة النقد وطرافة الاستنباط ، فطرة سليمة تجعله يسعى إلى فهم كل شيء ، وقدرة ممتازة على فهم النصوص ، وإدراك أساليب اللغة وفهم دقيق لمعانيها .

وبالجملة ، فقد اكتملت للعبادي - كما يتفق تلاميذه - العدة والوسيلة ؛ فعالج التاريخ الإسلامي على نحو خرج به عن نطاق السطحية والسرد ، والأساليب الخطابية الجوفاء ، إلى مدرسة منهجية ، والتعمق في سبر غور الحوادث والوصول إلى أصولها ، واستنباط نتائجها مع تصوير يعين على فهمها وتمثلها .

وبهذا المنهج القائم على الدقة والتثبت ، والتعمق والاستنباط ، قدم عبد الحميد العبادي إنتاجا فكريا محترما ، هذا الإنتاج - كما عرفنا - إما مباشر ملموس وهو ما نجده في كتبه ، وهذه الكتب إما مؤلفة ، أو مترجمة ، أو محققة ، وفي مقدمتها : كتب (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) الذي ظهر في جزأين ، الأول (المجمل والمجمل في تاريخ الأندلس) ، وهو في الأصل محاضرات كان يلقيها بجامعة عين شمس ، حيث قام عدد من تلاميذه بجمعها وإعدادها للنشر وراجعها ابن شقيقة الدكتور مختار العبادي ، والثاني : (الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها) ، وهو كتاب يشترك في تأليفه مع اثنين من تلاميذه ، هما : الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور إبراهيم أحمد العدوي . وقد وضح الدكتور زيادة في مقدمة الكتاب أستاذية العبادي لجيله ، وكتاب (علم التاريخ) لهرنشو ، الذي ترجمه وأضاف إليه فصلا عن التاريخ عند العرب ، وكتاب (الأندلس وتاريخها) تأليف «ليفي بروفنسال» ، ترجمة تلميذه الدكتور «محمد عبد الهادي شعيرة» ومراجعته ، وكتاب (الحضارة الإسلامية) «لجروبناوم» ، وترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد ومراجعته ، وكتاب (العنصرية في الإسلام) الذي ألفه في أعوام حياته الأخيرة ، كما حقق (أنساب العرب) للبلاذري ، و(نقد النثر) لابن قدامة .. وغيرها من الكتب والدراسات والأبحاث .

لكن إنتاجه الفكري الأكبر هو ذلك الإنتاج غير المباشر ، والذي تركه في نفوس تلاميذه ومدرسته التاريخية من بعده . فمثلا .. حين نتتبع فكرته الإسلامية في كتاب : (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) يستوقفنا فصل عن علاقة مصر بالعالم ، نجده يقول : « لم تكن مصر في نظر العرب - عندما أقدموا على فتحها سنة 18 هجرية مع غيرها - من الأقطار التي فتحوها في نهضتهم العظمى ، بل كان لها في أخيلتهم وخواطرهم مكانة ممتازة لا تشبهها إلا مكانة قطر آخر هو الشام. ذلك بأن القرآن الكريم ذكر مصر - في مواضع عدة - ذكرا كريما .. تارة بالتصريح

وأخرى بالإشارة والتلميح ، فمن ذلك : قول القرآن الكريم مخبرا عن فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾[1] ، وقوله مخبرا عن يوسف (عليه السلام) : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾[4] ، وقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[5] .

وكما اشتمل القرآن على جملة آيات فيها تنويه بقدر مصر وخطرها وتراثها ، فإن السنة ذكرت مصر ونوهت بأهلها خاصة لأسباب وردت في قصص الكتب المقدسة، ومن ذلك ما يروى من أن النبي – ﷺ – قال : « **إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما** »[6] ، وفسروا [رحما] بأن هاجر أم إسماعيل عليهما السلام كانت مصرية وأنها ولدت لإبراهيم ولده إسماعيل الذي هو من أصل عرب الحجاز، فكان القبط أخوال العرب الإسماعيلية إذا أخذنا بنظرية النسب العربية .

والمعروف من التاريخ المقدس أن مصر دخلها غير واحد من الأنبياء والرسل ، قدمها إبراهيم الخليل ودخلها يعقوب وابنه يوسف وإخوته ، وفيها ولد ونشأ موسى (عليه السلام) ، ومنها خرج بنو إسرائيل ، كما دخلها عيسى وأمه مريم (عليهما السلام) .

(1) الزخرف : 51 .
(2) يوسف : 99 .
(3) يونس : 93 .
(4) الدخان : 25 – 28 .
(5) يونس : 88 .
(6) أخرجه الحاكم .

فإذا ما صرنا إلى أخبار عرب الجاهلية وجدنا أن مصر كانت متجرا لهم تحمل إليهم منها فيما يحمل من الثياب المعروفة بالقباطي : جمع قبطية ، وقد ورد ذكرها في الشعر القديم .

كل هذه الذكريات المستمدة من المصادر التي ذكرنا كانت تجول بخاطر العرب عندما أقدموا على فتح مصر ، فلما تم لهم فتحها فعلا واختلطوا بأهلها ، وعاينوا نيلها العجيب وتربتها الخصبة وخيراتها الوافرة وآثارها الرائعة ، ووضعها الجغرافي الفريد ، ووداعة أهلها وانصرافهم إلى العمل والتكسب بالزراعة والصناعة والتجارة ، كل ذلك جعلهم يرون أنه قد صدق الخبر ، فانطلقت ألسنتهم تشيد بمصر وخيرات مصر ونيل مصر وعجائب مصر وجعلوها (جنة الدنيا وكنانة الله في أرضه) ، وقالوا : « من أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر إلى مثله في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخفز زروعها وتنور ثمارها » .

ويجلو العبادي الحوادث التي شاركت مصر فيها الدولة الإسلامية من قيام الخلافة إلى آخر العصر الأول ، ويركزها في ثلاثة ميادين كبيرة : «ميدان الفتوح الحربية» ، و«ميدان الأحداث السياسية» ، و«ميدان الحركة الفكرية» .

وحين يحدثنا العبادي عن إسهام مصر في الفتوح الحربية يقول : « كان العداء مستحكما ومتصلا بين الدولة العربية الناهضة والدولة البيزنطية طوال العصر المذكور . وكان الروم يحاولون إرجاع ما فقدوا من أملاكهم في آسيا وإفريقيا ، وكان العرب من ناحيتهم مضطرين إلى صد هذا العدوان ، ولقد وقع عبء قتال الروم في ذلك العهد على الشام ومصر ، واضطلعت مصر بنصيبها من هذا العبء اضطلاعا رائعا ، كما كان لها أثر في مد نطاق الدولة العربية غربا وجنوبا وشمالا بمحض جهودها ومواردها . إن مصر كانت في نظر الخلفاء باب المغرب والوسيلة إليه ، يعولون عليها في فتحه وبسط سلطانهم عليه ، لذلك نجد عمرو بن العاص غداة توليه أمر مصر يكر على [برقة] فيستولي عليها سنة 22 هـ ، ويتبع ذلك بالاستيلاء

على [طرابلس] سنة 23هـ ، ثم يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في غزو إفريقيا فلا يأذن له على عادته من المكث والتريث إزاء المشروعات الخطيرة ، ولكن عثمان ابن عفان يطلق يد عبد الله بن سعد عامله الجديد على مصر فيجتاح إفريقيا ، ثم يأتي «عقبة بن نافع» فيؤسس مدينة [القيروان] ويكتسح شمال إفريقيا ، كل ذلك بجيوش مصر وموارد مصر، نعم.. إن فاتحي المغرب من بعد عقبة وخاصة «حسان بن النعمان وموسى بن نصير» ، قد مكنوا للدولة العربية في المغرب حتى سواحل المحيط بجيوش عربية غير مصرية . ولكن مصر كانت دائما ردءا لهم تساعدهم بأسطولها ورجالها . وحتى الأندلس النائية فقد اشترك جند مصر في تهدئة أحوالها ضمن حملة «كلثوم بن عياض القشيري» ، ونزل هذا الجند المصري (كورة تدمير) التي سميت «بمصر» إشارة إلى أن الجند الذي نزلها أصله من مصر .

هذا في الغرب ، أما في الجنوب فقد غزا «عبد الله بن سعد بن أبي سرح» بلاد الأساود سنة 31 هـ ويريدون بها النوبة ، وكانت الحرب عنيفة استبسل فيها العرب والسودان ، فجنح ابن أبي سرح إلى السلم، لما رأى من شجاعة السودانيين وبراعتهم في الرماية في الواقعة المعروفة بيوم دمقلة ، فعقد بينه وبينهم هدنة على شروط معينة.

أما في الشمال فكان هدف الدولة الأموية الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية ، وكان معاوية بن أبي سفيان حريصا على إدراك هذه الغاية ، وتوسل إلى ذلك بإنشاء بحرية عربية قوية في سواحل الشام ، والاستعانة بالأسطول المصري والاستيلاء على جزائر البحر الأبيض الشرقية ، وافتتح معاوية برنامجه سنة 28هـ بالاستيلاء على قبرص ، ثم كانت الوقعة المعروفة [بذات الصواري] سنة 34هـ في أواخر عهد عثمان سنة 34 هـ . وقالوا : إن الإمبراطور قسطنطين سار في أسطول ضخم يريد به إرجاع ما فقد ، إما الشام أو مصر ، فسارع الأسطولان : الشامي والمصري إلى لقاء ، وكانت الوقعة بين الفريقين على إسهام مصر في الحركة الفكرية ، فيقول : « ولكن ينبغي ألا تغمط مصر نصيبها من هذه الحركة ، فالحق أن

الفسطاط غدت بيئة علمية تذكرنا بالبصرة والكوفة ، وأصبح جامع عمرو أشبه بجامعة يدرس بها علما الحديث والفقه ، كما تدرس الآداب العربية ... » .

وعن علاقات الدولة الإسلامية بغيرها من الدول غير الإسلامية يكتب العبادي فصلا ممتعا عن هذه العلاقات بين «هارون الرشيد وشارلمان» مؤكدا تواجد هذه العلاقات ، فيقول : « ليس من شك في أن «هارون الرشيد وشارل الكبير» هما رجلا العالم في أخريات القرن الثامن الميلادي وبداية القرن التاسع ، فالرشيد يمثل الشرق بمدينته المزدهرة أيامئذ وعظمته التي بلغت أوجها. وشارل الكبير أو شارلمان- كما درج المؤرخون على تسميته - يمثل الغرب ، الآخذ في الاستقرار على أثر نزوح القبائل الجرمانية من مجالاتها في أوروبا الوسطى إلى أملاك الدولة الرومانية الغربية ، والأخذ بتلك الأسباب التي جعلت فيه في النهاية باعث دول أوروبا الوسطى والغربية الحديثة بأوضاعها السياسية والاجتماعية والثقافية المعروفة .

وليس من شك في أن كلا من العاهلين العظيمين قد سمع بالآخر على أقل تقدير، فقد كانت بغداد منتجع السياح والتجارة والوافدين إليها من مختلف الأقطار، وكان لا يخلو الأمر من أن يجري على لسان هؤلاء الوافدين ذكر العاهل الفرنجي الكبير ، وكانت مدينة [آخن] هي كذلك مقصد السياح والتجارة واللاجئين السياسيين الواردين من الشرق ، فكان لا يخلو الأمر من أن يتحدث هؤلاء - وهم بعاصمة الدولة الفرنجية - عن الحروب الناشئة بين بيزنطة والعباسيين ، وعن أخبار الأمويين المتغلغلين على الجزيرة الإسبانية ، وعن التغير المؤثر الذي أحرزه الرشيد على الجيوش البيزنطية في هضاب آسيا الصغرى وأوديتها وسهولها .

كل ذلك من شأنه أن ينقل إلى كل من العاهلين عن الآخر صورة مبهمة غامضة، ولكن ترى هل كان الأمر مقصورا على مجرد السماع ، أم هل يتعداه إلى قيام علاقات سياسية أو ودية بينهما ، كما ينتظر أن تكون الحال بين رجلين توزع بينهما أمر المشرق والمغرب لعهدهما ؟

أما المصادر العربية ، فتسكت عن ذكر علاقة بين هارون الرشيد وشارلمان سكوتا مطلقا ، في حين أن المصادر الإفرنجية القديمة تشير صراحة إلى اشتباك العلاقة السياسية والودية بينهما ، وتبدي القول في ذلك وتعيده ، فتاريخ المملكة الفرنجية وسيرة الإمبراطور شرلمان والمنظومة المعروفة «بيويتا ساكسو» كلها تروي نبأ ثلاث سفارات وهدايا تبودلت بين شرلمان والرشيد . وكان شرلمان هو البادئ في كل منها بالاستفسار ، ولم يزد الرشيد على أن كان يرد على السفارة بسفارة وعلى الهدية بهدية مثلها » .

وفي نفس كتاب (صور وبحوث من التاريخ الإسلامي) نجد اهتماما بالحوادث التاريخية التي ساعدته على نمو اللغة وانتشارها ، ونفس هذا الفصل نجده منشورا بعد اختصار وإضافة لمحاضرة للعبادي بمجلة مجمع اللغة العربية ، كان قد ألقاها في الجلسة السابعة من جلسات مؤتمر المجمع في الدورة التاسعة عشرة ، وفي هذه المحاضرة يقول : « ولقد نظرت في حوادث التاريخ الإسلامي ، فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى في نحو اللغة العربية وانتشارها العظيم . أول هذه الحوادث : تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» (65 – 86 هـ) ، والثاني : أمر الخليفة «المأمون العباسي» (198 – 218 هـ) بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية » .

ويستطرد العبادي في الحديث عن كل واحدة من هذه الأحاديث الثلاثة ، مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره في اللغة العربية وانتشارها ، ليختم حديثه بمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل ، بالإضافة إلى نهضة اللغة العربية في العلم الحديث .. كل ذلك في دراسة شائقة وممتعة .

وعن أهمية دراسة تاريخ المغرب العربي والأندلس ، ينبه عبد الحميد العبادي في كتابه (المجمل في تاريخ الأندلس) قائلا : لا يستطيع مؤرخ أن يهمل تاريخ المغرب

والأندلس ؛ فإن لهذا التاريخ اعتبارا من ناحيتين : من ناحية التاريخ الإسلامي الخاص ، ومن ناحية التاريخ العام .

فمن ناحية التاريخ الإسلامي ، كان المغرب والأندلس مسرحا لدول إسلامية اشتركت في تكييف الحضارة الإسلامية الخاصة ، وقامت دول وخلافات في المغرب وفي الأندلس مثلت شقا من العالم الإسلامي ، الذي نستطيع أن نعده - وخصوصا بعد قيام الدولة الفاطمية بمصر - يتكون من شقين متميزين ، هما : المشرق الذي كانت تسيطر عليه الخلافة الفاطمية وشمال إفريقيا سيطرة روحية وسياسية ، ينضاف إليه الأندلس الذي كانت تسيطر عليه الدولة الأموية .

ثم إن الأندلس تميزت بتاريخ وظروف خاصة لا يستطيع مؤرخ يدرس التاريخ الإسلامي أن يهملها ، فدارس التاريخ الإسلامي يتعين عليه أن يلم بشقي العالم الإسلامي حتى يستطيع أن يزاوج بين الحضارة الإسلامية في ركني هذا العالم الفسيح .

هذا من ناحية ، أما من ناحية التاريخ العام ، فإن المغرب الإفريقي والأندلس كانت مراكز اتصال بين العالم الشرقي وما فيه من حضارة ونظم ، والعالم الغربي وما يسوده من عقائد ونظم . والعرب حين فتحوا المغرب الإفريقي وتطرقوا منه إلى الأندلس ، وثبوا على أجزاء من العالم الأوروبي ، فاحتلوا إسبانيا ، ثم احتلوا صقلية، ونزلوا في الجنوب ، وعبرت جيوشهم جبال البرانس ونزلت أرض غاليا (فرنسا) ودارت بينهم وبين الفرنجة معارك حامية ، كل هذه كانت نقط اتصال احتك بها العرب بالعالم الأوروبي ، ولابد أن شيئا كثيرا من الحضارة العربية والنظم الشرقية وصلت إلى أوروبا عن هذا الطريق .

ثم إن المغرب الإفريقي والأندلس اشتركا في الصراع الذي كان دائرا بين المسلمين من ناحية ، والبيزنطيين من ناحية أخرى ، حتى لنجد الفاطميين يتحركون

إلى المشرق مدفوعين في غزوهم لمصر بعامل إنقاذ دار الإسلام من خطر الروم البيزنطيين ، إلى جانب الأسباب الأخرى التي كانت قائمة في نفوسهم .

فاتصال تاريخ المغرب والأندلس بالتاريخ العام اتصال قوي ، من ناحية الحضارة وتفاعلها ، ومن ناحية الصراع العام بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، فمن هنا نرى أن تاريخ هذا الجزء من العالم تاريخ يهم المؤرخ أن يدرسه ، وليس له عذر في أن يتجاهله أو يغفله » .

وعن انتشار الإسلام في العالم : يرى الأستاذ «عبد الحميد العبادي» متفقا في ذلك مع الدكتور «محمد مصطفى زيادة والدكتور إبراهيم أحمد العدوي» – في أن للتبادل التجاري والطرق الصوفية أثرا في دخول الإسلام إلى السودان .

وهناك ثلاثة طرق رئيسية سارت فيها القوافل التجارية من شمال إفريقيا إلى السودان منذ العصور الوسطى حتى بداية العصور الحديثة .

فالطريق الأول : ممتد من [تلمسان] بمراكش إلى [تمبكو] على نهر النيجر في السودان الغربي ، والطريق الثاني ، يبدأ من تونس ويتجه إلى [كانو] بالسودان الأوسط. أما الطريق الثالث : فإنه ممتد من مصر إلى السودان الشرقي ، ولم يكن نهر النيل صالحا للملاحة في جميع شهور السنة أو في كل أجزائه بسبب الجنادل التي تعترض مجراه .

وعن انتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، تطالعنا صفحات تذكر أن التجارة كانت عاملا في ذلك ، حيث مهدت لانتشار الإسلام في الشرق الأقصى ، إذ امتدت تجارة المسلمين إلى شواطئ من الهند والهند الصينية والصين ، وتوغلت الدولة الإسلامية في جوف آسيا ، واشتملت على أجزاء من بلاد الهند ، والمناطق الآسيوية المتاخمة لأطراف الصين ، وهيمنت على الطرق التجارية الرئيسية في آسيا ووصل

التجار المسلمون منذ القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) إلى الصين وجزء من الهند الشرقية وغيرهما من بلاد الشرق الأقصى ، للحصول على مواردها الطبيعية من الحرير والكافور والقرنفل وخشب العود ، والصندل ... وغيرها .

وبعد، فهذه أمثلة لدور المؤرخ عبد الحميد العبادي في كتابة التاريخ الإسلامي، هذا الدور يجعل منه واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

محمد عبد الله دراز

يعد الدكتور محمد عبد الله دراز من المفكرين الإسلاميين ، الذين لم تنل كتاباتهم الإسلامية أي نصيب من الاهتمام ، رغم شموخها وعظمتها وخلودها ، فعلى الرغم من أن الفترة التي أعقبت عودته من البعثة التي قضى فيها أحد عشر عاما في فرنسا . لم تزد عن العشر سنوات إلا أنه قدم للمكتبة الإسلامية جانبا مميزا ومتفردا من الفكر الإسلامي . يعد أكثر تقدما من أفكار كثيرين جاءوا بعده بثلاثين عاما ، وفي مقدمة مؤلفات هذا المفكر كتابان باللغة الفرنسية هما : (الفلسفة الأخلاقية في القرآن) و(المدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليلي مقارن) وكتاب ثالث عنوانه : (الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) وغيرها من الكتب والمخطوطات التي تعد كنزا لم يكتشف بعد لهذا العالم الأزهري المستنير ، والتي تجعله واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري . حيث ولد عام 1312هـ ، وتوفي عام 1378هـ .

ولعل هذه الكتب الثلاثة ، تتيح لنا الاقتراب من فكره الشامخ ، فالكتاب الأول من عنوانه : (الفلسفة الأخلاقية في القرآن) يتضح مضمونه حيث يقوم بعملية الرصد لما في القرآن الكريم من جوانب للفلسفة الأخلاقية ، فيبحث وراء هذه الآيات البينات ويمحص ويحلل ؛ ليصل إلى ما تهدف إليه من قيم ومبادئ تنير للإنسان دنياه وتهديه إلى سواء السبيل ، وعلى صفحات الكتاب نلمح توصل المؤلف إلى فلسفة القرآن الأخلاقية كانت سابقة لما قبلها من فلسفات أخلاقية أتى بها العصر الحديث أو العصور الوسطى .

وفي الكتاب الثاني : (مدخل إلى القرآن الكريم) الذي ترجمه عن الفرنسية الأستاذ «محمد عبد العظيم علي» ، وراجعه الدكتور السيد «محمد بدوي» ، يطالعنا المؤلف بثلاثة أقسام رئيسية . في **أولها** نراه : مؤرخا **والثاني** نراه : محللا وفي القسم **الثالث** نراه ناقدا . وفي هذا الكتاب يفند الدكتور دراز الخطأ الشائع الذي يزعم أن الإسلام يبيح نشر الدعوة بالقوة ؛ حيث استطاع ، أن يثبت ما يخالف ذلك ، مؤكدا أن حرية العقيدة والدين هي من المبادئ الأساسية التي أرساها القرآن الكريم وعززها ، فالإسلام لا يكره الضمائر، وإنما يتصدى لكل من يحاول قهرها وإجبارها، فالحرب الشرعية المقدسة في نظر القرآن الكريم هي الحرب الدفاعية ، وإذا كانت هناك استثناءات لهذه القاعدة قد وقعت عبر التاريخ ، فإنها لا تستند إلى حرفية النص القرآني ، ولا إلى روحه . فضلا عن أنها لم تكن السبب الرئيسي لانتشار الإسلام .

وفي الكتاب الثالث : (الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان) يحدد لنا الدكتور دراز موقف الإسلام من الأديان الأخرى ، فيذكر أنه إذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالا للسؤال عن هذه العلاقة ، فالإسلام في لغة القرآن الكريم ليس اسما لدين خاص ، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وانتسب إليه كل أتباعهم. فهكذا نرى نوحا عليه السلام يقول لقومه : ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ** ﴾[1] ويعقوب عليه السلام يوصي بنيه : ﴿ **فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[2] وأبناء يعقوب يجيبون أباهم : ﴿ **نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾[3] . وموسى عليه السلام يقول لقومه : ﴿ **يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ**

(1) النمل : آية 91 .
(2) البقرة : آية 132 .
(3) البقرة : آية 133 .

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[1] ، والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام : ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2] .

وبالجملة.. يرى الدكتور دراز أن اسم الإسلام – شعارا عاما – يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية ، ثم يرى أن القرآن أجمل كل القضايا الخاصة بهذا الموضوع في قضية واحدة موجهة إلى قوم محمد – ﷺ – حيث يقول تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾[3] . ويذهب الدكتور دراز بعد ذلك إلى القول بأن الإسلام بمعناه القرآني لا يصلح أن يكون محلا للسؤال عن علاقة نبيه وبين سائر الأديان الأخرى ، ولا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه . فهنا وحدة لا انقسام .

وهكذا ، نجد في أفكار الدكتور «محمد عبد الله دراز» ما يخدم الحياة ، وقبل ذلك لا يتعارض مع الإسلام ، بل نراه يعتمد على تعاليمه ، سواء كان ذلك من كتاب الله الكريم أو من أحاديث نبيه – ﷺ – على الرغم من أن صاحب هذه الأفكار لم يعش طويلا ؛ حتى يضيف الكثير في مجال التجديد في الفكر الإسلامي .

* * *

(1) يونس : آية 84 .
(2) آل عمران : آية 52 .
(3) الشورى : آية 13 .

مولانا أبو الكلام آزاد

لأمر ما ، فرض علينا عدم معرفة الكتابات الإسلامية لمولانا أبو الكلام آزاد بشكل ميسور . مع أن هذا المفكر في شبه القارة الهندية يعتبر من ناحية الفكر الإسلامي إماما للمفكرين هناك ، كما يعتبر إماما في الكفاح السياسي ، دوره لا يقل عن دور المهاتما غاندي . ولهذا ، كان يلقب في الهند بصاحب الإمامتين معا : إمامة التفكير الإسلامي ، وإمامة التفكير السياسي .

لكن المكتبة العربية تفتقر لأخبار هذا المفكر، فإذا سألت عنه فربما لا تجد سوى صفحة ونصف - تأبين له - في كتاب (يوميات) للأستاذ «العقاد» . أو تقديم له كتبه الأستاذ «الباقوري» لكتاب هذا المفكر عن ذي القرنين ، ولولا هذا الجهد العلمي المشكور الذي أظهره منذ سنوات قليلة بشكل مشكور الدكتور «عبد المنعم النمر» والذي خرج في صورة جزأين عن هذا المفكر ، لاستمر مولانا أبو الكلام موضعا لدهشة واستغراب الخاصة قبل العامة ! .. ولأصبحت مؤلفاته الإنجليزية لغزا من الألغاز التي يصعب فهمها !

مع أن هذا الرجل في بلده كان عظيما ، ففي مجال السياسة يقول عنه زعيم الهند «نهرو» : « لقد كان آزاد مجموعة من عظمة الماضي وعظمة الحاضر ، لن يجود الزمان بمثلها » وفي مجال الدين يقول عنه أحد زعماء الفكر الإسلامي «شلبي النعمان» : «إن عقل آزاد وذهنه أعجوبة من أعاجيب الدهر» .

وفي غير بلده كان عظيما أيضا حيث يشهد بعلمه وفضله الكثيرون ، وفي مقدمتهم الأستاذ «العقاد» حيث يقول : « كان لأبي الكلام آزاد فضله في إنصاف

الثقافة الشرقية من الهند والصين إلى بابل ومصر » ويقول عنه الأستاذ «الباقوري» : «إن مكانة أبي الكلام عند المسلمين في الهند تساوي مكانة المهاتما غاندي عند غير المسلمين ، وأن دوره في الكفاح السياسي لا يقل عن دور غاندي . ويقول عنه الدكتور «النمر» : « كان حظ أبي الكلام في دعوته الدينية والسياسية أوفر من حظ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده معا ؛ إذ استطاع أن يقود بلاده إلى تحقيق غايتها في التحرر من الاستعمار ، ويجني ثمرة جهاده حين تولى باسم الهند التفاوض مع الزعماء الإنجليز لتحقيق الاستقلال لبلاده .. » هذا عن الرجل ، وأما عن أفكاره فهي غزيرة كثيرة ، يكفي الإشارة إليها من بعيد وليس من قريب في جانب واحد ، حيث نجد فضله في مؤلفاته التي عنيت بتحقيق الشخصيات الدينية الكبرى ، أو حتى الشخصيات التي وردت كأخبار في الكتب الدينية . ومنها شخصية «ذي القرنين وقارون وقورش والنمرود » ... وغيرها من الأسماء التي كانت كالأشباح التي تلوذ بغياهب الماضي المجهول ، فأخرجها هذا المفكر إلى دائرة الضوء فأصبحت على مداها البعيد مقربة .

وعن الإسلام والاستبداد يقول : « إني مسلم ، ولأني مسلم وجب علي أن أندد بالاستبداد وقبحه وأشهر بمساوئه وليعلم الغير أن الإسلام لا يعترف بالحكومة الشخصية ، ولا بحكومة عصبة من الموظفين يتقاضون رواتبهم » .

ويشير إلى حقوق الإنسان قائلا : « إلا أن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل فرنسا بأحد عشر قرنا وليس مجرد إعلان بل وضع نظاما » .

وفي إعلان الحق يقول : « لعمري أن المطالبة من مسلم أن يسكت عن الحق . ولا يسمي الظلم ظلما ، بمثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية ، فإن كنتم لا ترون لأنفسكم أن تطالبوا أحدا بأن يدافع عن دينه فليس لكم أن تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم أنه ظلم ؛ لأن معنى كلتا المطالبتين واحد .. » .

وحين يحدثنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يرى أن ذلك كان أساسا لعظمة المسلمين وفخرهم القومي .

ويرى أن التوحيد بالله ، يعلم المسلمين أن الخوف والخشوع لا يكون إلا لله الواحد العظيم ، أما غيره فلا يخاف منه .

كذلك يعتقد مولانا أبو الكلام آزاد : أن الإسلام من أوله إلى آخره دعوة عامة إلى التضحية والبسالة والجرأة والإقدام ، وهو ما جعله فخرا لدينه الإسلامي ولأمته الهندية في القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

هل نحن في حاجة إلى مزيد ؟ إننا حين نقرأ بعض المراجع ، نكتشف الكثير من الفضائل التي اتسم بها مولانا أبو الكلام آزاد[1] ، وذلك فيما كتبه بمذكراته ، أو ما كتبه عنه معاصروه من السياسيين ، وفي مقدمتهم: زعيم الهند «نهرو» ، أو ما كتبه عنه بعض علماء الإسلام . لقد كتب مذكرات حياته بقلمه أيضا ، وترجمت للإنجليزية بعنوان : India Wins Freedom أي «الهند تظفر بحريتها» ، وهي مذكرات تدور حول الهند التحررية وما قام به هو وغيره من جهود في سبيل استقلال الهند ، فهي مذكرات تاريخية سياسية حوت الكثير من آرائه ومواقفه السياسية ، ومواقف الآخرين من الزعماء أو من آراء المستعمرين الإنجليز وتصرفاتهم ، وقد تولى نشرها ومراجعتها مع آزاد تلميذاه وصديقاه : الدكتور «همايون كبير» والأستاذ «أجمل خان» ، وكما كان آزاد طرازا فريدا في حركة التجديد الدينية وزعامته السياسية وأسلوبه الأدبي كان طرازا خاصا في شخصيته وأخلاقه . ولعل أصدق ما يصور لنا

(1) كلمة «أبو الكلام» التي تضاف عادة إلى اسم مولانا آزاد أطلقها عليه الداعية الإسلامي «محمد رشيد رضا» في مجلة (المنار) . حيث كان مولانا آزاد إذا تكلم لا يتوقف حتى ولو ظل على ذلك ساعات ، وقد قيل إنه ظل يتحدث في خطاب له لأكثر من ست ساعات دون توقف . وكانت أحاديثه ساحرة وشائقة.

هذه الشخصية هو العالم الهندي المعاصر الأستاذ الكبير «أبو الحسن علي عبد الحي الندوي» حيث يقول[1] : « مما لا شك فيه ، أنه كان من نوابغ الرجال ونوادر العصر فطنة وذكاء ، وحدة ذهن ، وتوقد فكر ، وثقة بالنفس واعتدادا بها ، واعتزازا بكرامته ، وتمسكا برأيه وعقيدته ، وثباتا على مبدئه ، وإباء عن الضيم ، وترفعا عن خسائس الأمور وسفاسفها ، وكان جميلا وسيما أبيض اللون مشربا بالحمرة ، فارع القامة ، قليل شعرات اللحية ، حسن الملبس والشارة ، لطيف العشرة مليح الكلام ، فصيحا في كتابته وخطبه وحديثه ، ينتقي اللفظ الصحيح والفصيح ، قوي الذاكرة ، كثير المحفوظ حسن الاختيار للأبيات ، حسن الاقتباس من القرآن والاستشهاد بالآيات خطيبا مصقعا ، كاتبا بليغا وصحافيا بارعا ، وسياسيا ثاقب الفكرة ، سليم الذهن مطلعا على كتب التاريخ والأدب، وأخبار الشعوب والبلاد ، حسن التصرف فيما وعته ذاكرته ، وحواه صدره ، إذا تحدث في موضوع ظن السامع أنه صاحب اختصاص فيه ، سلفي العقيدة ، فقد رفض التقليد وخالف أباه - الذي كان شيخ طريقة - في الرسوم والبدع ، وآثر مذهب شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلميذه «ابن القيم» ومع ذلك كان يأخذ البيعة من بعض الناس ويرشدهم في الطريق ، وكان ذكيا جيد الفهم لكثير من الآيات القرآنية يفسرها بأسلوبه الأدبي القوي فيعجب بها الشباب المتعلم ، ذكاؤه يسبق علمه ، وقوة بيانه تغلب على تعمقه في العلم .. » .

تلك هي الصورة التي رسمها العالم الهندي المسلم الغيور «أبو الحسن الندوي» الذي عرفته الهند والعالم الإسلامي داعية للإسلام من طراز ممتاز ، رسمها لمولانا آزاد كما عرفه عن قرب ، بعد أن انتقل آزاد إلى رحمة الله ، مما يزيدنا ثقة في صدق كل

(1) وذلك فيما كتبه من تكملة لترجمة حياة آزاد التى بدأها والده المرحوم : مولانا عبد الحى . وتوفي قبل أن يتمها حيث كتب عن خمس وعشرين سنة فقط من حياة آزاد فأكملها نجله أبو الحسن ، ووردت في كتاب (نزهة الخواطر) الجزء الثامن الذي طبع حديثا في الهند ، وقد ضم هذا الكتاب بأجزائه الثمانية ترجمات لأعيان الهند وشخصياتها العلمية والسياسية منذ القرن الأول الهجري حتى توفي المؤلف سنة 1341 هـ 1922 م .

كلمة كتبت عنه ، فوق ما نعرفه من صدق في «أبي الحسن» وعدم مجاملته في الحق للأحياء ، حتى ولو كانوا أصحاب جاه وسلطان ، وكان آزاد مع ذلك كله حريصا كل الحرص على الحق والإنصاف ، لا يبالي في سبيل ذلك بأي اعتبار من الاعتبارات التي تميل بكثير من الناس عنه .

ويذكر الدكتور «همايون كبير» – وكان من ألصق الناس بمولانا آزاد في علمه وفي حياته – يذكر لنا واقعة تعتبر مفتاحا لكل من يريد التعرف على شخصية آزاد في هذه الناحية ، وهي واقعة كان فيها شاهد عيان ، وهي تجلو لنا الكثير عن مولانا الإنسان الحريص على احترام حق الغير وإنصافه حتى ولو من نفسه مهما يكن مركز هذا الغير صغيرا ، وهي تجلو لنا كذلك ما قاله أبو الحسن من أن آزاد كان من نوادر العصر ترفعا عن خسائس الأمور وسفاسفها – يقول «همايون كبير» : « جاءني يوما رجل من كبار الرسميين ، وكان في حالة شديدة من الضيق والحزن ، وأخبرني بأن مولانا آزاد غضب عليه ، وسجل ذلك في الملف الذي كان يقدمه إليه ، فطلبت الملف وقرأته ، فوجدت أن هذا الرجل لم يذكر في الورقة المقدمة لمولانا بعض الحقائق التي لابد من ذكرها ، فقلت له : ما الذي دعاك إلى ترك هذه الحقائق والمعلومات ؟ فأجاب بأنه ذكرها فعلا حين قدم الملف أول مرة ، ولكنه نسي أن يذكرها لما قدم الملف في المرة الثانية ، فقلت له أنه لا يتوقع من الوزير أن يطالع أوراق الملف بأجمعها كلما تقدم إليه ، فكان عليك أن تسجل ملاحظتك في العرض الأخير للملف وتدون هذه المعلومات اللازمة ، حتى يستغني الوزير عن مراجعة الملف بأجمعه، ولكني مع ذلك قلت لمولانا آزاد : أن فلانا قد أتى بالتفاصيل اللازمة، والحقائق المطلوبة ، حينما رفع إليك الملف في المرة الأولى ، واعتمد على ذلك في المرة الأخيرة ، وكان من الممكن لمولانا آزاد أن يقول : كان لابد لهذا الموظف أن يلخص هذه الحقائق ، أو يشير إليها في العرض الأخير للملف كما قلت أنا للرجل ، ولكنه – لنفسه الطيبة السمحة المحبة للخير – لم يقل هذا ، بل التمس العذر للموظف ، وعفا

عنه ، ولم يكتف بهذا بل تناول الملف الذي سجل فيه ملاحظته عليه وكتب عليه بخط يده : « إنه لم يكن على حق في ملاحظته في شأن الرجل ، وهو آسف لما حدث منه » ..

وسمع الرجل بهذا فدهش وقال : كان يكفي أن يكتب : أنه عفا عني ، وما كنت أطمع أبدا في أكثر من هذا ، وعرف مولانا آزاد هذا فقال له : « إنني سجلت أولا ملاحظتي بخطي على الملف ، وطالعه أعضاء المكتب جميعهم ، فكان لابد لي من أن أسجل أسفي أيضا لما حدث مني ، ليعلموا أنك لم تكن مخطئا » .

وأصحاب النفوس الكبيرة لا يحجمون أبدا عن الاعتراف بخطئهم ، لأنهم يدركون أن الاعتراف بالخطأ هو من سمات هذه النفوس ، وهو يزيد من سموهم ، ولا يغض من شأنهم ، وقديما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ملأ من الناس وهو على المنبر : « أخطأ عمر وأصابت امرأة » .

حادثة أخرى يمكن أن تكون عندنا مفتاحا لأخلاق هذا الرجل ونظرته للأمور، ولسنا بعدها في حاجة إلى المزيد .

ولقد كان مما يحرص عليه آزاد : ألا تمتد أصابع السياسة إلى الدين لتفرق بين جماعة المسلمين أو تثير الأحقاد فيما بينهم ، ولا سيما في أمور العبادات . يفقد هذه الصفات الإنسانية التي كنا نرى مولانا آزاد نموذجا لها ، وكان مع ذلك ملتقى لثقافات الشرق والغرب قل نظيره في هذا الزمان .

ومع أن مولانا آزاد كان جم النشاط ، كثير التنقل بين أرجاء الهند الواسعة لنشر دعوته الدينية والسياسية إلا أن هذه الجهود الضخمة التي بذلها وهو في أوج قوته ، بالإضافة إلى ما ساد الهند من خلافات وفتن ومذابح ، وما لحقه بسبب ذلك كله من متاعب جسمية ونفسية ، ذلك كله أثر عليه تأثيرا كبيرا بعد أن ظفرت البلاد باستقلالها فوجدناه يميل إلى العزلة والهروب من الضوضاء ، مؤثرا العيش مع الكتب التي يحبها ، ومع الصفوة من أصدقاء حياته وتلامذته ..

ولعله وجد مع ذلك أن فترة ما بعد الاستقلال تحتاج إلى العمل الهادئ المتزن أكثر ما تحتاج إلى الإثارة والخطب ، فوق أنه كان بطبيعته عالما مفكرا يميل إلى ما يميل إليه المفكرون من هدوء وبعد عن الضوضاء ، لولا أن السياسة وحركة التحرر جذبته إليها ، فلما انتهت عاد إلى طبيعته التي تغلب عليه .

ويرسم «نهرو» هذه الصورة الجانبية من حياته فيقول في كلمته التي أبنه بها :

« كان ذا حياء شديد ، وضمير حي يميل إلى الخلوة والانفراد ، ومع أنه كان خطيبا ساحرا مؤثرا إلا أنه كان يهرب من الضوضاء والاجتماعات الصاخبة ، ولم يكن من السهل أن تحمله على الخطابة في الجماهير ، ذلك لأن طباعه الأصيلة في الحقيقة كانت طباع العالم الفيلسوف ، أكثر من طباع الرجل السياسي ، ولكنه اندفع إلى السياسة للظروف السيئة التي كان الوطن يعانيها » .

ونهرو يصور بذلك فترة ما بعد الاستقلال ، وإلا فقد كان خطيبا قبله في كل مكان . وكان كلما تقدمت به السن ، وناوشه المرض ، اشتدت حاجته إلى العزلة والهدوء ، ولكن بعض الأحداث المهمة كانت تشده وتخرجه من هدوئه ليلقى بجماهيره التي أحبته وتعشق لقاءه والاستماع إليه .

اتجهت نوايا العاملين على إنصاف اللغة الأوردية ورد اعتبارها ، إلى إقامة مؤتمر عام من أجل هذه اللغة ، ردا على الجهود واللوائح التي وضعت للقضاء عليها بعد الاستقلال مع أنها تعتبر لغة الثقافة .

كانت له وللمسلمين في [كلكتا] عادة سنوية هي : أن يؤمهم في صلاة العيدين، ويلقي فيهم الخطبة بعد الصلاة . وفي أحد الأعياد كره زعماء الرابطة الإسلامية في كلكتا ، أن يؤمهم - وكانوا على خلاف سياسى معه - فعملوا على تنحيته عن الإمامة وافترق المسلمون ، وكانت الأغلبية تؤيد أن يؤمهم آزاد كعادته ، ورأى جماعة منهم

أن يحلوا هذا الخلاف بإقامة الصلاة في مكانين . ومن عادة مسلمي الهند أن يجتمعوا في مكان فسيح لإقامة صلاة العيد اتباعا للسنة .. ولكن مولانا آزاد لم يرض أن يثور الخلاف بين المسلمين بهذه الصورة حول من يؤمهم ، وأن يكون للسياسة دخل في مثل هذا الأمر الديني ، فأعلن أنه لا يريد أن يؤم الناس متى كانت هناك قلة من المسلمين لا تريد إمامته ، وأمكنه بهذا أن يقضي على هذا النزاع ، وتجنب مثل هذه الصورة الكريهة .

يضاف إلى ما سبق : صورة أخرى لشخصية يرسمها له زملاؤه في حركة التحرير والجهاد من أجل الاستقلال .. الذين عملوا معه واحتكوا به عشرات السنين . قال الدكتور «راجندر برساد» رئيس الجمهورية الهندية عن آزاد حين توفي إلى رحمة الله:

« كان يمتاز بجمعه بين الحكمة والزعامة ، النبوغ في الإدارة ، والتضحية في سبيل الوطن ، وبين علم غزير وسعة اطلاع وتضلع في الفنون والآداب ، وبما أنه رحمه الله قد جمع في حياته كل ما جاء به الشرق من تقاليد وحكم وعلوم مع أحسن ما تحويه الثقافة الغربية في هذا المضمار ، كان يعتبره كثير منا ملتقى الشرق والغرب ، ثم إنه كان كبحر عميق ينبض قلبه الكبير بالعطف والحنان ، فإن واجهته أزمات تبدو عويصة الحل أضاءت له طريقته الإنسانية في معالجة المشاكل وصلاحيته الخارقة في التوفيق بين النزعات طريقا لتحقيق التفاهم بين المختلفين المعارضين» .

ويضيف نهرو إلى هذه الصورة ، صورة أخرى يرسمها في كلمات قصار فيقول:

«كان مولانا آزاد مجموعة من عظمة الماضي وعظمة الحاضر ، وكان يتسم بكل الصفات الأخلاقية الحميدة التي يندر وجودهما في هذا الزمان ، إن الإنسان الآن يحاول الصعود إلى القمر ، ولكنه مع ذلك لم يصل إلى القيم الإسلامية والتراث الديني للمسلمين » . واللغة الأوردية هي اللغة التي يتحدث بها أغلبية أهل الهند من مسلمين وغيرهم . وكانت قبل الاستقلال تعتبر لغة رسمية ثانية بعد الإنجليزية في

الولايات التي تنتشر فيها وهي أكثر الولايات ، ولكن بعد الاستقلال تقرر إبعادها وعدم اعتمادها في الدواوين والمصالح الحكومية .

ورأى المسلمون أن هذا مقدمة للقضاء على هذه اللغة ، وبالتالي القضاء على التراث الإسلامي في الهند ، وقطع ينابيعه عن الجيل الجديد المسلم فتقدموا إلى الحكومة يطلبون منها الاعتراف بها واعتمادها في دوائر الحكومة ، وتعليمها لأبناء المسلمين في المدارس حتى يظلوا على صلة بتراثهم وتعاليم دينهم ، وجاهدوا في سبيل ذلك جهادا مريرا ، وكثير من المتعصبين الرسميين وغير الرسميين يقف في طريقهم ، حتى رأوا في أوائل سنة 1958 أن يعقدوا لهذا الغرض مؤتمرا عاما في [دلهي] ليرفعوا الصوت الجماعي الموحد إلى المسئولين .

وما كان لمولانا آزاد أمام هذه القضية الحيوية بالنسبة للإسلام والمسلمين أن يبقى في هدوئه ، أو أن يغلبه مرضه فيظل بعيدا عن هذا الميدان .

وهنا وجدناه يخرج من عزلته ، ويتغلب على نوازع الهدوء ومخاوف مضاعفات المرض ، ويحضر المؤتمر ويخطب فيه ، واستمع الناس في شوق وحب إلى الصوت الحبيب ، واللسان الساحر والخطيب المفوه الذي طالما زلزل من قبل بنيان الاستعمار، وقض مضجعه ، استمعوا إليه يجلجل مجاهدا في سبيل لغته ولغة دينه وثقافته الإسلامية .

وسبحان الله ! فقد كان كأنه يودع الشعب في هذا الاجتماع ، ويتوج جهاده الطويل في سبيل دينه وبلاده بكلمة حق يقولها في سبيل لغته ، بعد ما أبلى مشكورا في سبيل حرية بلاده ، فبعد هذا الاجتماع بنحو أسبوع لقي ربه بعد مرض قصير في صباح السبت لليلة خلت من شعبان سنة 1377هـ 22 فبراير سنة 1958م بعد حياة مديدة بعد أن ولد عام 1293هـ .

ورأى صديقه الوفي «نهرو» أن أفضل مكان يضم جثمان هذا الزعيم المجاهد هو هذا المكان الذي وقف فيه من نحو أسبوع يخطب في الجماهير .

وفي هذا المكان في الرحبة الواسعة التي تقع بين أثرين إسلاميين يعتبران من أعظم الآثار في الهند ، بين المسجد الجامع وبين القلعة الحمراء في [دلهي] استقر جثمانه الأخير قريبا من المسجد ، وعلى بعد قليل من قبر المغفور له المجاهد المسلم مولانا «شوكت علي» .

يقول زعيم الهند «نهرو» معبرا عن مشاعره يوم وفاة مولانا آزاد : لم أستطع السفر للاشتراك في تشييع جنازته ، ولكني جلست بجانب المذياع أتابع تشييع الجنازة ، وكنت أحس كأن الشعب كله قد التف بنفسه يودعه ، أوقفت الإذاعة كل برامجها في ذلك اليوم وخصصت الوقت كله لتشييع الجنازة والتحدث عن مآثره . ولم أكن حين استمعت إلى تشييع الجنازة أستمع إلى كلام يصعب علي فهم الكثير منه بل كنت أستمع إلى اللغة المشتركة التي يفهمها كل إنسان ، كنت أستمع إلى بكاء ونشيج ، وكأن الشعب كله قد تجمع من حوله ليبكي وينتحب . كان يمثل قصة وفاء الشعب للرجل الذي أحبه وعاش طوال حياته ومن فجر شبابه وفيا له ، واهبا نفسه لتحقيق حريته واستقلاله .

وكانت دموعي وأنا بجانب المذياع مزيجا من التعبير عن مشاعر الحزن ومشاعر التقدير لهذا الشعب الوفي .

فما أجمل الوفاء ! وفاء الرجال لأوطانهم ، ووفاء الأوطان لرجالها ، وقد كان شعور المسلمين مزيجا من الحزن والخوف على مستقبلهم ، فقد كان آزاد تاجهم وملاذهم ومناط عزهم وفخرهم ، وحصنهم الذي يسندون ظهورهم له ، ويلتجئون إليه في حاجاتهم وملماتهم ، ففقدوه ولم يكن أمامهم من الزعماء المسلمين من يتطلعون إليه كآزاد .

وفي اليوم الثاني لوفاته ، أقام حزب المؤتمر اجتماعا عاما لتأبينه في أحد ميادين [دلهي] تحت رئاسة فخامة رئيس الجمهورية دكتور «راجندر برساد» جمع أحزاب الهند وطوائفها ، واشتركت فيه الجموع الحاشدة من أبناء الشعب ، وتحدث فيه رئيس الجمهورية ونائبه ورئيس الوزراء «نهرو» وزعماء الأحزاب المختلفة . وعبر المجتمعون وخطباؤهم عن تقديرهم للفقيد وجهاده وتضحياته وتأثرهم وتأثر البلاد كلها وإحساسهم بفداحة الخطب فيه .

ونذكر هنا بعض فقرات مما قاله رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في تأبينه ، تعطينا صورة عن عظمة آزاد في نفوس العظماء ، حتى لو اختلفوا عنه دينيا حيث كانوا يدينون بغير الإسلام .

وقف رئيس الجمهورية فكان مما قاله : « إن تاريخ الهند خلال خمسين سنة مضت مقترن باسم الفقيد على وجه لا يمكن فصله عنه ..

« وإن القلم الذي ألهب الوطنية في الملايين من هذه البلاد قد وقف اليوم ، وإن الصوت الذي أثار ملايين الهنود وأيقظ في نفوسهم الحمية والحماس الوطني قد خفت اليوم ..

« إن الجماهير الغفيرة التي احتشدت اليوم في هذا الاجتماع قد كشفت عن أعمق التقدير والتكريم للزعيم الذي فارقنا فراقا أبديا يوم السبت الماضى ، وكفانا بهم شاهدا على ما كان للمغفور له من حب وثقة في قلوب الهنود ، إذ بادر الملايين بغض النظر عن دينهم وطبقتهم لتوديع الزعيم الجبار الذي اقترنت حياته خلال الخمسة والأربعين عاما الماضية بحركة استقلال الهند وتعميرها اقترانا غير منفصل» .

وخطب نهرو : « إن مولانا آزاد أثار الشعب بكتاباته البليغة البديعة ، وبث روح الكفاح لتحرير وطنهم ، وأرشدنا بأعماله الباهرة ، وتضحياته العظيمة إلى تذليل العقبات ، وإزاحة العراقيل والعوائق التي تعرقل سبيل الأمة ، وكان عبقريا

ومفكرا اكتنهته الغوامض ، وهو لم يبلغ بعد رشده ، واهتدى فكره إلى أنه لا مناص للهنود مسلمين وغيرهم من أن يتعايشوا في هذه البلاد مسالمين متصالحين ، حتى تكون حياتهم ملؤها الود والصداقة ، وما زال مؤمنا بهذا المبدأ إلى أن جاد بأنفاسه الأخيرة ، ولم يكترث لما اعتراه في هذا السبيل من عقبات وعراقيل ومحن وشدائد ..

« ولعل أحسن ما نزجيه لزعيمنا الراحل من آيات التقدير والوفاء : أن نجعل نصب أعيننا تلك المثل والمبادئ التي كافح عنها طوال حياته ، ونسترشد بها ، ونتخذها نبراسا للهداية ، وعلى الأخص وفاؤه وولاؤه وحبه العميق للبلاد ، واستنكاره للميول والنزعات الطائفية » .

وهكذا .. كان رأي أبناء الهند في مولانا آزاد . أقول : رأي أبناء الهند : مسلمين وغير مسلمين في هذا المجدد العظيم أبي الكلام آزاد ، مما يؤكد سموه وإخلاصه لكل أبناء وطنه .



الشيخ عبد الحليم محمود

يعتبر الإمام الأكبر الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود إمام الأزهر الأسبق ، واحدا من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة فقد ولد عام 1328هـ وتوفي عام 1398هـ . يعد من كبار المجددين لما اتسم به فكره من العمق والاستنارة ، وما اتصف به حديثه من الصدق والموضوعية، وما حظي به خلقه من النزاهة والتواضع، وما حفلت به حياته من المواقف العظيمة والأعمال الجليلة ، سواء كان عميدا لكلية ، أو وزيرا للأوقاف ، أو شيخا للأزهر .

نشأ في رحاب الله ، وشب شبابا عفا طاهرا ، واهتدى في ناشئة حياته إلى طريق أهل الله ، ووضع يده في أيديهم حتى إنه وهو في فرنسا يتقدم برسالة الدكتوراه عن رجل من أهل الله، وواحد من أعلام التصوف ، اهتدى إلى اختياره ببصيرة متصوفة، وروح محبته . هذا الشيخ الجليل انتهت حياته عام 1398هـ ، 1978م وهو شيخ للأزهر الشريف ، حيث حفلت فترة توليه لهذا المنصب الرفيع والتى لم تزد عن الخمس سنوات بالأفكار والأعمال التى كان من شأنها تطوير الأزهر الذي يعود على هذه المؤسسة ورجالها بالخير والنفع ، بل وتعيد إلى الأزهر هيبته ودوره الذي كاد أن يكون مفقودا ، بعد رحيل شيوخ كبار في طول قامة الشيخ الإمام محمد عبده، والإمام مصطفى المراغى ، والإمام محمود شلتوت وغيرهم من العلماء الأزهريين الذين لم يند عن ذاكرتهم التطوير ، وجعل الأزهر أكثر قربا ومواكبة للحياة التي وجد فيها ، وفي الوقت نفسه حافظ على سمته العلمي المعروف .

هذا الشيخ المجدد بدأ حياته العلمية كأي من الأزهريين؛ حيث حفظ القرآن في كتاب القرية التي ولد ونشأ فيها وهي قرية السلام بمحافظة الشرقية ، ليمر بمرحلة

التعليم الأساسى ، من بعدها يلتحق بالأزهر الشريف ؛ ليقضى به الفترة التي تجعله ينال العالمية عام 1932 .. إلا أن هذه الشهادة التي يتمناها كل الذين اختاروا التعليم الديني لم تشبع طموحاته ، تلك التي ترنو إلى المزيد من العلم والثقافة ، بل والتبحر والاتساع فيهما إلى درجة أن هذه الطموحات جعلته يطلب العلم – وهو الأزهري – في بلد أوروبي (فرنسا) ، حتى ولو كان السفر إليها والإقامة بها على نفقته الشخصية ، وفي فرنسا يلتحق بجامعة السربون لدراسة العلوم التي يحبها ويهواها وفي مقدمتها علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان إلى جانب الفلسفة ، ويستمر في دراسته طالبا للعلم الذي أوصى به ديننا حيث نبه إلى طلب العلم ولو في الصين ، حتى ينال الليسانس من جامعة السربون ، من بعده ينال الدكتوراه بتقدير الامتياز مع مرتبة الشرف عام 1940 ، وذلك حينما كان ملحقا بالبعثة الأزهرية إلى فرنسا ، ويكون موضوع رسالته لهذه الدرجة العلمية في جانب أثير إلى نفسه هو المتصوف الإسلامي «أستاذ السائرين المحاسبي» كنموذج ليعود إلى مصر حيث يعين مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، ثم أستاذا للفلسفة بكلية أصول الدين التي تدرج بها حتى أصبح عميدا لها . ويتوالى بعد ذلك الارتقاء في المناصب من عميد لكلية ، إلى عضو بمجمع البحوث الإسلامية ، إلى أمين عام لمجمع البحوث الإسلامية ، إلى وكيل للأزهر ، إلى وزير للأوقاف وشئون الأزهر ، إلى شيخ للأزهر الشريف .

ونظرة واحدة إلى حياته العلمية ، ومناصبه العملية ، وما تضمن ذلك من مراحل وفترات ، شهادات علمية ومواقع سياسية جميعها تؤكد بأن هذا المجدد الجليل لم يكن من الأزهريين العاديين التقليديين ، بل إنه تجاوز هذا المعنى إلى ما هو أكثر اتساعا وأبعد مدى ، أو باختصار أن الجانب العلمي والعملي في حياته كان ينبئ عن سمة تميزه عن زملائه من خريجي الأزهر الشريف لتقترب من السمات التي يتمتع بها الرواد في العصر الحديث . فكما تشير لوحة حياته بأنه من خريجي الأزهر

الشريف ، هو في الوقت نفسه من خريجي جامعة السربون الفرنسية ، هذه السمة الخاصة به جعلت منه مزيجا من رجل الدين ورجل العلم في آن واحد .

أقول: إن شيخنا الجليل الدكتور عبد الحليم محمود كان مزيجا قويا من حضارتين متغايرتين هما : حضارة الشرق بروحانيتها وحضارة الغرب بماديتها ، وعصارة طيبة من معهدين مختلفين هما : الأزهر الشريف وجامعة السربون ، وعلى هذا فإن أصوله ما برحت راسخة في حضارة الشرق تستخلص منها عناصر الغرب تتنسم منها الهواء وتستمد النور .

وقد تبدو لأول وهلة غرابة الجمع بين هذين المعهدين - الأزهر الشريف ، وجامعة السربون - أو حضارتين : الشرقية والغربية ، ولكن المتعمق المدقق يرى ويكتشف أنه ليس هناك أي تعارض بينهما ، وأن الجمع بينهما ليس بالمتعذر أو العسير ، فليسا هما على طرفي نقيض كما يظهران للوهلة الأولى ؛ لأنهما يرجعان إلى نبع واحد هو نبع المعرفة الإنسانية في مظانها الأولى ، والخلاف بينهما هو أن كلا منهما يتميز بما ليس في الآخر ، إنهما عنصران أساسيان لشخصية الشرقي الأصيل الذي يريد أن يصطحب أمجاد تاريخه التليد ، وميراث أجداده العظيم ، دون أن يعوقه ذلك عن مسايرة ركب الحضارة الحديثة في جانبها الإنساني ، وهي في طريقها إلى الأمام والتطور .

وإذا كان الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود قد جمع في شخصه بين «الشيخ» و«الدكتور» فقصارى ما فعل أنه لاءم بين نشاطين من ضروب الأنشطة الذهنية للإنسان كان هو بهذه الملاءمة نموذجا حيا للأزهري المستنير، ورجل العلم المعاصر، وكلا الأمرين: الديني والعلمي ، يخدم كل منهما الآخر ، لتكون النتيجة أعمالا فكرية جادة لا تترك القديم لقدمه ، ولا تجري وراء الجديد لجدته ، أعمال يقرها العقل ويرحب بها القلب ، خاصة وهي في مجملها تناقش الشئون الإسلامية.

هذه الخاصية التي يتمتع بها الدكتور عبد الحليم محمود دون غيره أفادته في حياته العملية ، كما أفادته في حياته العلمية ؛ فهو ليس كغيره يغلب عليه جانب النقل على جانب العقل ، بل إنه يجعلهما يسيران متوازيين في طريق واحد له خطة وهدف ، وعلى هذا فهو يسير تبعا لتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة كمصدرين أساسيين ، وهو في الوقت نفسه لا يغفل دور العقل وإعماله وأحكامه وتفكيره في شئون الحياة المعاصرة ، خاصة وأنه يدرك تماما أن تفكير العقل فريضة يقرها الإسلام .

وتأسيسا على ذلك ، استطاع أن يختط لنفسه منهجا يقوم على توازن بين العقل والنقل معا ، ملامح هذا المنهج أعلنه في كتابه (منهج الإصلاح الإسلامي في المجتمع) وفيه التزام بالأصول الأساسية من : «قرآن وسنة» وفي الوقت نفسه احتفاء بما يقره العقل بعد إعماله وهو ما أمرنا به الله عز وجل في محكم آياته ، ولعله يحمل ذلك في ثلاث كلمات هم : « القرآن كتاب العقل » ومعنى ذلك أن القرآن بأكمله دعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله ، وأنه يدعونا بعبارات تختلف في أسلوبها ، وتتحد في معناها ، إلى استعمال العقل ووزن كل شيء بميزانه ، وأنه يترك لنا الحرية في أن نعتقد ما يرشد إليه عقلنا ، وأن نتبع السبيل الذي يثيره منطقنا أو يهدينا إليه تفكيرنا .. إلى آخر ما سجله بكتابه : (الإسلام والعقل) ، ليعرف الصلة بينهما في نقاط منها :

1- جاء الدين هاديا للعقل في مسائل معينة هي : **أولا** ما وراء الطبيعة أي : العقائد الخاصة بالله سبحانه ، ورسوله - ﷺ - وباليوم الآخر ، وبالغيب الإلهي على وجه العموم . **وثانيا** في مسائل التشريع الذي ينظم به المجتمع وتسعد به الإنسانية ، يجيء الدين هاديا للعقل ؛ لأن هذا العقل إذا بحث في هذه الأمور مستقلا فإنه لا يصل إلى نتيجة يتفق عليها الجميع . **وثالثا** : في مسائل الأخلاق : أي : الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني ليكون الشخص صالحا .

2- جاء القرآن يفهمه العقل في المحكم فيه ، ولا يناقض العقل في المتشابه ؛ ذلك لأن القرآن : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

وقد أراد الإسلام من المسلم أن يستمسك بالمحكمات من الآيات استمساكا تاما ، وأن يعتصم بها اعتصاما كاملا ، وفي الوقت نفسه أن يسلم الأمر لله في المتشابه.

3- جاء القرآن حاسما لا يتردد ، ولا يقر التردد لأنه جاء بالحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الحق الذي كل ما عداه باطل ، وعلى من أسلم أن يتبع هذه المبادئ أو هذا الحق اتباعا لا تردد فيه ، ولا انحراف عنه .

4- جاء القرآن لا يستشير الإنسان في شيء، وتعالى الله عن أن يستشير المخلوق، وهذا هو موقف الدين من العقل، وهو موقف يقرنا عليه كل من له شعور ديني سليم.

5- نزل القرآن «ليقود الإنسانية نحو الكمال الروحي ، والإنسان إنسان بالجانب الروحي منه ، وكلما سما الإنسان روحيا كان أرقى وأعلى في معنى الإنسانية» إلى آخر ما سجله بكتابه : (الإسلام والعقل) حيث يعظم دور العقل إلى جانب الالتزام بتوجيهات القرآن الكريم والسنة الشريفة .

بعد ذلك .. ننتقل إلى جانب آخر من حياته هي : مواقفه من بعض القضايا والأحداث التي جمعها الأستاذ «محمد شلبي» في كتابه عن الدكتور عبد الحليم محمود، والتي كانت تستدعي موقفا واضحا منه كقيادة دينية ، فكان لا يتوانى عن إعلان موقفه ، ومنها على سبيل المثال ما سجلته (مجلة الاعتصام) من الكتب المشتركة ؛

---

(1) آل عمران : آية 7 .

حيث عرضت فكرة تأليف الكتب المشتركة في الدين والأخلاق .. يشترك في وضعها علماء المسلمين ورجال الدين من غير المسلمين ، وبعد أن عرضت هذه الفكرة بيومين أو ثلاثة توجه إليه أحد الوزراء ليدرس معه خطوات تنفيذ هذه الفكرة والبدء بها ، ولكنه- رضى الله عنه - قال للوزير : من أذنك بهذا وطلبه منك؟ إن مثل هذه الفكرة إذا طلبت ، فإنما توجه إلينا من كبار المسئولين مباشرة ، ويوم يطلب منا مثل هذه الكتب المشتركة فلن يكون ردي إلا تقديم استقالتي .

فاعتذر الوزير الفاضل وقال له : أنا ما جئت إلا لأستطلع رأي فضيلتكم وأعرف حكم الدين ، ويوم أن تقدم أنت استقالتك لهذا السبب ؛ فسأقدم أنا استقالتي إثرك مباشرة . وهكذا ماتت فكرة الكتب المشتركة بفضل هذا الموقف الكريم للإمام الأكبر .

وموقفه من سخرية الزعيم الراحل عبد الناصر بالعلماء حيث كان رضى الله عنه غيورا على الأزهر وعلى كرامة الأزهريين ، كان رضى الله عنه يلبس من قبل (البدلة) بعد أن عاد من فرنسا ، وظل مرتديا لها وهو مدرس بالأزهر الشريف ، وفي يوم من أيام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وقف الرئيس يعرض بعلماء الأزهر الذين يفتون الفتاوى من أجل ديك يأكلونه !

« وهنا » شعر بهذه المهانة ، وهذا التعريض الشائن ، فما كان من الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله إلا أن ارتدى الزي الأزهري ، ونادى زملاءه أن يعودوا إليه . تحديا للزعيم الراحل فيما قال ، واعتزازا بالأزهر والأزهريين .

من ذلك اليوم ظل فضيلته رحمه الله محافظا على هذا الزي .. مناشدا كل عالم وكل طالب أن يعودوا إلى هذا الزي ، وأن يحرصوا عليه .

وموقفه من قانون الأحوال الشخصية حين روج بعض المسئولين للدعوة إلى تعديل هذا القانون وتقييد الطلاق ، وتعدد الزوجات ، حتى تمسخ الأحوال الشخصية التي نزلت من عند الله ، فما كان من فضيلته إلا أن أصدر بيانا يوضح فيه

خطورة هذا الأمر ، وأرسله إلى جميع أعضاء مجلس الشعب والمسئولين وإلى الصحف . وقد جاء في آخر هذا البيان :

وبعد ، فإن مما يشبه اليقين عندنا : أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام : إنه لا قيود على الطلاق إلا من ضمير المسلم ، ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم ، ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم .

ومنع البيان حينذاك من النشر ، واجتمع الوزراء لينظروا في أمره ، وما انتهى الموضوع إلا بعد أن تمت الزيارة بينهم وبين رئيس الوزراء في ذلك الوقت ، وأعلنت الحكومة أنه ليس هناك تفكير على الإطلاق في تعديل قوانين الأحوال الشخصية الآن ، وقال له رئيس الوزراء في ذلك الوقت : تأكد يا فضيلة الإمام الأكبر أننا لا نصدر قانونا للأحوال الشخصية إلا إذا عرض عليكم ووافقتم عليه فضيلتك بالذات .

كذلك نقرأ موقفه من المحكمة العسكرية في قضية الجماعة المعروفة بجماعة «التكفير والهجرة» .. فقد أرادت هذه المحكمة أن تجر الأزهر وعلماءه للشهادة في قضية ليست أمامهم جميع وقائعها . فرفض الأزهر وعلماؤه .. فما كان من المحكمة إلا أن نددت برجال الأزهر وعلماء المسلمين ومجمع البحوث الإسلامية ، وكالت لهم التهم جزافا ، وألصقت بهم ظلما أنهم تهربوا من أداء رسالتهم .

فما كان من الإمام الأكبر رضى الله عنه إلا أن أصدر بيانا يكشف فيه حقيقة الموقف وقال في بيانه : « كان من واجب المحكمة أن تتريث وأن تصمم على الحصول على هذا الرأي - أي رأي الأزهر - مهما يكلفها ذلك من وقت ، فذلك منطق العدالة الذي لا محيص عنه ، وقد كان يجب عليها على أقل تقدير أن تضم إليها قضاة شرعيين ، يقفون موقفها ويشاركونها المسئولية ويتمكنون مثلها من الاطلاع كقضاة على جميع ظروف القضية ونواحيها ، فيتمكنون بعد ذلك من إصدار الحكم الصحيح».

وهذا للأسف الشديد هو الأمر الذي لم تشأ المحكمة أن تمكن منه علماء الأزهر، وإن بحث علماء الأزهر في هذه القضية الفكرية وغيرها لا يمكن أن يكون متسرعا مرتجلا على النحو الذي حاولت المحكمة أن تضطرهم إليه ، وليس من شأن العلماء أن يخضعوا لظروف العجلة التي من المحتمل أن تكون الهيئة القضائية واضعة إياها في الاعتبار ، فالحكم العلمي لا يمكن أن يخضع لغير البحث الدقيق الرصين مهما احتاج إلى زمن .

وهذا ولا شك ، موقف شجاع في قضية كانت موضع اهتمام الرأي العام على العموم والحكومة على وجه خاص .

وموقفه من قانون الخمر؛ حيث كان رضى الله عنه مهتما بأمر الشريعة الإسلامية اهتماما لم نلحظه في أكثر شيوخ الأزهر الذين تولوا هذا المنصب ، فهو لم يقتصر في منصبه على أن يكون شيخا للأزهر يكتفي بمجرد تصريف شئون الأزهر الإدارية ، ولكنه جعل من منصبه أن يكون شيخا للإسلام يهتم بشئون المسلمين وفي مقدمة ذلك العمل على تطبيق الشريعة الإسلامية .

لقد ندد في المحافل الرسمية بموقف السلطة التشريعية التي تراجعت من مشروع قانون تحريم الخمر وإباحته في أماكن معينة ، وقال : إن الإسلام لا يعرف أن تكون الخمر حلالا مباحا في الأماكن السياحية محرمة في غيرها .

كذلك.. كان للدكتور عبد الحليم محمود موقف لا يلين من الشيوعية وأتباعها، فكان حربا على الشيوعيين والإلحاد ، وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدولة بالمنبر اليساري والحزب التقدمي أصدر فضيلته البيانات وكتب الكتب والمقالات التي حكمت بالكفر على الماركسية والماركسيين والشيوعية والشيوعيين .

ونجد للإمام الدكتور عبد الحليم محمود موقفا من اليهود لم يتغير طوال حياته، خلاصته أن هناك كتابا من الكتب التي يجب أن يقرأها ويتدبرها كل مسلم، بل وكل

مسيحي وهو كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» ، سنرى فيه أن اليهود في مواثيقهم التي تعاهدوا عليها أن يفسدوا الإنسانية بكل ما يفسد ، ومن ذلك غمر المجتمعات بالأنواع التي تستجيب لها الغرائز في سهولة ويسر .

فاليهود من وراء الملذات المنحرفة وأنواع الموضة المنحرفة ، ومن وراء الآراء المنحرفة يشيعونها ويذيعونها بكل ما يستطيعون من وسائل النشر والإذاعة ، وهم يتبنون كل شخصية تكون نتيجة آرائها إفسادا للمجتمعات ، فإن نشأ مثلا شخص ملحد لا يعترف بالأخلاق ولا يقر بالفضيلة مثل «نيتشه» ، فإنهم يتبنون آراءه التي لا تعترف بأخلاق ولا بفضيلة ، ويقولون في مواثيقهم : نحن الذين رتبنا نجاح «نيتشه» .

وإذا جاء شخص وأنكر المثل العليا والمبادئ السامية ، وأعلن أن سلوك الإنسان في حياته لا يتبع مثلا أعلى ، ولا يسير متخذا هدفه الفضيلة وإنما تسيره في كل تصرفاته الغريزة الجنسية ، وينزل هذا الشخص بالأفراد في المجتمعات إلى أسوأ ما يمكن أن يتصور من انحطاط مثل «فرويد» ، فإن اليهود يتبنون آراءه ويذيعونها ، وهم يقولون صراحة في مواثيقهم : نحن الذين رتبنا نجاح «فرويد» .. مثلما قالوا من قبل عن نيتشه .

وعلى هذا النسق رتبوا نجاح «كارل ماركس» باعترافهم في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) .

كارل ماركس هذا الذي ينكر الدين والألوهية ولا يعترف بما وراء الطبيعة. ولما قيل له ما هو البديل لعقيدة الألوهية ؟ إذ لابد للإنسان من عقيدة – قال : البديل لها هو المسرح ، ألهوهم بالمسرح ، فإن في ذلك غناء عن فكرة الألوهية .

واهتم اليهود بالمسرح وأدخلوا فيه المسرحيات المنحرفة على مختلف درجات الانحراف .

وعلى هذا النسق أيضا رتبوا نجاح «داروين» واعترفوا بذلك ، لأن نظرية «داروين» تفسد على أصحاب الأديان أديانهم ، وعلى أصحاب الأخلاق أخلاقهم ، وتنتهي بأن كل أمر إنما هو نسبي العقيدة والأخلاق والتشريع ، ونظام المجتمع ليس في كل ذلك حقيقة ثابتة أو حقيقة مطلقة . وكل شيء من ذلك قابل للتغيير أو التطور إلى ما لا نهاية .

واليهود في آمالهم الكاذبة في إفساد الإنسانية إنما يهدفون إلى السيطرة عليها ، فإن المجتمعات : مسلمة أو مسيحية أو بوذية ، أو غير ذلك إذا فسدت فإنه من السهولة بمكان السيطرة عليها .

واليهود إذا .. يعمدون بكل ما يستطيعون إلى توافر الملذات الحسية الجنسية ينشرونها في كل مكان يستطيعون نشرها فيه .

وللإمام الأكبر عبد الحليم محمود في رأي معاصريه له كل التقدير والاحترام ، فنجد ذلك في رأي الشيخ «جاد الحق علي جاد الحق» شيخ الأزهر السابق حيث نقرأ: «فقد العالم الإسلامي عالما فاضلا صالحا ، قاد الأزهر فترة طيبة ، ونشط في الدعوة إلى الله داخل البلاد وخارجها ، وكان رحمه الله ورعا تقيا يعمل لصالح الإسلام وتصحيح مسار العقيدة وأحكامها وتنقيتها مما علق بها في فترة الركود العلمي التي مرت بالعالم الإسلامي ..

وقد ظل يعمل حتى لقي ربه ، في سبيل عودة الحكم بالشريعة الإسلامية وأحكامها ، وقاد مجمع البحوث الإسلامية شوطا طويلا في الوصول إلى هذا العصر..

لقد كان وإلى آخر لقاء بيننا ، يعمل على إصدار دستور إسلامي يكون نموذجا للحكم الإسلامي في الدول الإسلامية ، موحدا لها على هدف واحد ، كما عمل على إصدار نماذج للتقنين من أحكام المذاهب الفقهية المستنبطة من الكتاب والسنة تحت

يد المقننين في الدول الإسلامية، تقنن منها الحاجات التي تلزم المسلمين في هذا العصر».

وللدكتور «الحسينى هاشم» الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية الأسبق نقرأ ما يكتبه عن أستاذه وصهره الإمام الأكبر هذه الكلمة: «ظل الأزهر منارة للعلم والعرفان، ينشر نور كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - في أرجاء الدنيا، يرسل البعوث إلى العالم أجمع، ويستقبل طلاب العلم ليكونوا مصابيح الهدى والرشاد ..

ومنذ أن بنى الأزهر «جوهر الصقلى» منذ أكثر من ألف عام، وشيوخ الأزهر يبنون صروحا من المجد، ويضيفون جديدا من المعاهد والكليات، وكل شيخ قد وضع أسسا، وشيد صروحا، وأسدى فضلا مشكورا وتاريخا مجيدا ..

وجاء الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود، فوجد المعاهد الأزهرية منذ «جوهر الصقلى» إلى عهده حوالي أربعين معهدا، فرأى أن طريق الإصلاح الواضح الذي لا جدال فيه ليخرج الدعاة العلماء يدعون إلى الله على بصيرة في مساجد الله في جمهورية مصر العربية، وفي ربوعها، وفي العالم الإسلامي أجمع، رأى أن طريق الإصلاح إنما هو كثرة المعاهد الدينية، وكليات الأزهر ..

وإذا كانت المعاهد الأزهرية منذ عهد « جوهر الصقلى » إلى عهد الإمام عبد الحليم محمود تقترب من الأربعين، فقد جعلها - بفضل الله وعونه - عبد الحليم محمود أضعافا مضاعفة، أكثر من الألف معهد يعطر أرجاءها كتاب الله، وتشرق فيها سنة رسول الله - ﷺ -، ووجد الكليات الأزهرية عشر كليات فضاعفها إلى اثنتين وثلاثين كلية ..

ومن رآه - رضى الله عنه وأرضاه - وهو يضع حجر أساس معهد أو كلية، رأى صوت الصدق المنطلق من قلب مخلص طاهر وهو فرح مستبشر، تدوي من لسانه الصادق «الله أكبر الله أكبر الله أكبر»، وكان يدرك إدراكا يقينيا فرحا مستبشرا أنه ببناء معهد ديني أو كلية أزهرية أو مسجد لله، إنما يبني لنفسه بيتا في الجنة ..

من أجل ذلك .. اكتفى بهذه الثروة الطائلة المدخرة له في آخرته ، وهذا المجد الجليل عن أي بناء خاص له في الدنيا ، ولقي ربه طاهرا مطهرا ، وله أحباؤه وعشاقه المحبون للصدق والفضل والفضيلة ، والإيمان والزهد والنبل » .

والإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود في رأي الكاتب المجدد «خالد محمد خالد» نقرأ : « بالأمس رحل عن الدنيا رجل من الأخيار ، رجل اتقى الله وآمن برسوله فأتاه الله كفلين من رحمته ، وجعل له نورا يمشي به ..

كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة ، والسمات الوادعة في صمته ، وصوته وجميع سمته ، كان عظيم الصدق مع ربه ، ومع نفسه ..

وكان شجاعا في اختيار طريقه وفي السير على هذا الطريق غير ملق باله لنقد الناقدين ولوم اللائمين ، لم تكن له شخصيتان ، بل شخصية واحدة اتسقت اتساقا باهرا مع نور الشريعة والحقيقة معا ، وكان يذكر كلما ذكر الإخلاص ، والطهر ، والتقى ، ذلكم هو الإمام الأكبر عبد الحليم محمود .

عاش حياته متبتلا مخبتا أوابا ، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأئمة وروادا ، وكان للمتقين إماما » .

وفي رأي المجدد والعالم الهندي «أبو الحسن الندوي» نقرأ : « تلقيت نبأ وفاة فضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر بغاية من الأسف والأسى ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد كان الفقيد من كبار علماء الإسلام ، ومن المهتمين بالقضايا الإسلامية في كل مكان ، وقد عرفته عن كثب ورأيته من قريب فوجدت فيه عالما كبيرا ، وداعية مخلصا ومؤمنا تقيا واعيا ، ومسلما غيورا على دينه وإيمانه ، وكان واسع الاطلاع على ما يجري في العالم من تحركات ضد الإسلام ومؤتمرات للقضاء على شخصيته ، وهو بحكم ثقافته الواسعة ودراساته العميقة كان شديد الحرص على الإسهام في كل ما ينفع المسلمين ، وينهض بهم في جميع المجالات

الحيوية ، فكان لا يكل ولا يتعب بمتابعة الأسفار ومواصلة الجهود والنشاط في هذا السبيل ..

حضر فضيلته - رحمه الله - قبل ثلاث سنوات في المهرجان التعليمي الذي أقامته ندوة العلماء وترأسه ، فعشنا معه أياما عديدة في جو الحب والثقة والتعاون ، وكان المغفور له على جانب كبير من الورع والإخلاص والصلاح ، وذلك بجانب ما كان يتمتع به من تجارب واسعة في مجال التعليم والتربية ، فقد أفاد بوجوده الأزهر بوجه خاص ومصر بوجه عام في النواحي الدينية والعلمية ..

كانت لي به علاقة شخصية ، فكنت أحبه لصفاته المؤمنة ، ولغيرته القوية على الدين ، وإنني لا أعتبر وفاته خسارة للأزهر ومصر فقط ، بل إنها خسارة للعالم الإسلامي كله ، وأدعو الله تعالى أن يعوض عنه خيرا ، ويسد - بفضله - هذا الفراغ الذي نشأ بوفاته ، فإنه على كل شيء قدير » .

ونقرأ للكاتب الصحفي الكبير « محمد فهمي عبد اللطيف » : « تلقيت نعي الإمام الشيخ عبد الحليم محمود ، وكنت أقرأ أثرا من آثار قلمه ، فطويت صفحة الكتاب وقلت : لقد حان حين الرجل ، ومن الخير أن نقرأ صفحات حياته ، وهي صفحات حافلة بما يفيد وينفع ويهدي إلى الخير ..

وكذلك حياة المفكرين من أصحاب الإيمان والأذهان المطمئنة ، الذين يتركون حياتهم ثروة للفكر الإنساني وتراثا نافعا للناس ..

وحياة المغفور له الإمام عبد الحليم محمود كانت بالنسبة لي كتابا مفتوحا قرأته من الصفحة الأولى ، فقد كانت تربطني به رابطة الإقليم ، فهو من [بلبيس] تلك المدينة التاريخية التي تقع على تخوم الصحراء ، وهو من أصل عربي نقي ، وقد كان لهذا أثر واضح في سلامة فطرته ، وصفاء ذهنه ، ونفور طبعه من التعقيد في التفكير وفي أمور الحياة ، ثم جمعنا طلب العلم في معهد الزقازيق ، وكان هو في نهاية الدراسة

الثانوية وكنت ما أزال في الدراسة الابتدائية ، وكان يبدو طالبا متميزا في تفكيره وفي اتجاهه الثقافي ، فكان يقرأ الصحف والمجلات الأدبية ، وكان يتحرر من النطاق المدرسي ، فيقرأ الكتب الأدبية والمؤلفات الحديثة ، وكان بالنسبة لنا قدوة نتطلع إليها وكنا نخبة من الأذهان الشابة نقبل عليه ، ونسمع منه ، ونناقشه فيما نسمع ، وبهذا تأكدت بيننا وبينه المحبة والمودة والصلة التي لم تنقطع أبدا ، وكان هو ونحن في تقدير إخواننا الأزهريين طائفة خارجة من جادة الحياة الأزهرية في الثقافة والتفكير..

وفي التعليم العالي بالأزهر أكمل أستاذنا وصديقنا تعليمه الديني ، ولكنه لم يقنع بهذا ، ولم يجد فيه ما يكفي في تثقيف عقل مفكر ، فسافر إلى فرنسا للدراسة ، والحق أنه لم يذهب إليها بعقل الشيخ الأزهري ، ولكنه ذهب إليها بعقل مفتوح الفهم إلى معرفة كل شيء لم يقصر دراسته على الكتب المدرسية وسماع محاضرات المستشرقين ، ولكنه درس أوروبا بكل ما يضطرب فيها من مذاهب فكرية واجتماعية، وبكل ما يضطرم فيها من مذاهب فكرية واجتماعية ، وبكل ما يضطرم فيها من نعرات مادية وإلحادية ، وكان يدرس كل هذا دراسة فكر ورأي ، وبقي في فرنسا حتى نال الدكتوراه وعاد إلى مصر ..

عاد الدكتور عبد الحليم محمود إلى مصر وزارني في بيتي ، وكنت أعيش وحدي مع كتبي ، وكان يلبس هذا اللباس الذي نسميه بالبدلة ، ولكنه كان حاسر الرأس حتى إنني لم أعرفه عندما رأيته لأول وهلة ، وكأنه لاحظ هذا فقدم نفسه إلي قائلا وهو يبتسم: الشيخ عبد الحليم محمود ، وقال : إنني كنت أقرأ مقالاتك في «الرسالة» وأنا في فرنسا فكنت أذكرك دائما ، وجلسنا نتحدث ، وأدهشني أن الرجل الذي كان بالأمس أستاذا أجلس منه مجلس التلميذ ، وإنه حريص على أن يسمع مني لا أن يقول لي ، وأبديت له هذه الملاحظة فابتسم وقال لي : اطلب العلم من المهد إلى اللحد، وكلما أوغلنا في المعرفة ازددنا نهما إلى المعرفة ، ولن يقنع الإنسان أو يشبع

حتى يطمئن ، وكذلك أخذ الشيخ يواصل الدراسة والبحث سنوات في مصر حتى اطمأن ..

اطمأن الشيخ بالمعرفة ، وآمن بالمعرفة وكان إيمانه إيمان القلب والعقل ، حتى كان يتلقى الحياة بقلبه وعقله ، وكذلك كان تفكيره تفكير القلب والعقل ، وكان يعالج قضايا الفكر : المعاصرة وغير المعاصرة بالقلب والعقل معا ، وبهذا كانت براهينه تنبعث من القلب والعقل معا ، وكان في استطاعته أن يصل بالقارئ إلى الحقيقة من أقرب طريق ، وهذا هو السر في شدة التقبل لكل ما كان يكتبه عند الخاصة والعامة على السواء ..

إن الأسى على فقد المغفور له الإمام الشيخ عبد الحليم محمود ليس لأنه رجل صاحب منصب وجاه بهذا المنصب ، بل لأنه مجدد إسلامي كبير ، كانت به شخصيته الفكرية المستنيرة ، وكان له مذهبه الفكري المؤمن بتكريم الإنسان ، وقد استطاع بهذا المذهب أن يقدم للفكر عطاء سيبقى حيا في تاريخ الفكر الديني والإنساني ، وليس موقف الأسى مما يسمح بالإفاضة في شرح هذا العطاء الفكري العظيم ، ولكنها كلمة تحمل طابع المناسبة ، دلالة على وفاء للإمام العالم ، وعلامة تقدير للمفكر الإسلامي الذي عاش مؤمنا مطمئنا ، ولقي ربه وهو مؤمن مطمئن » .

هذه الآراء وغيرها تؤكد دور العالم الصوفي الراحل الشيخ عبد الحليم محمود في تجديد الفكر الإسلامي .

❋ ❋ ❋

الشـيخ محمـود شـلتوت

إمام التقريب بين السنة والشيعة ، إمام الأزهر الأسبق : الشيخ محمود شـلتوت من مجددي القرن الرابع عشر للهجرة . وقد ولد عام 1311هـ وتوفى عـام 1383هــ ، في إحدى قرى محافظة البحيرة ، وحصل على إجازة الأزهر الدراسـية عـام 1918م ، وأيد الزعيم الوطنى «سعد زغلول» في المطالبة بالاسـتقلال عـام 1919م ، وفي هـذا العام نفسه عين مدرسا بالمعهد الـدينى بالإسـكندرية ، فكـان مـن المنـادين بتطـوير الأزهر الشريف ، وأخذ على عاتقه هذه المسئولية ، وظهر ذلك في مقالاته الفكريـة ، وفي عام 1927 تولى منصب مدرس بالقسم العالي بالأزهر .

وحين تولى الشيخ محمد مـصطفى المراغـى مـشيخة الأزهـر ، ونـادى بتطـوير الأزهر كان الشيخ شلتوت أول المؤيـدين لخطتـه ، ولمـا تـولى «الـشيخ الظـواهري» مشيخة الأزهر عزل الشيخ شلتوت حيث لم يتنـازل عـن آرائـه في تطـوير الأزهـر ، فعمل في المحاماة الشرعية إلى جانب عمله في نشر المقالات التي عبرت تعبيرا صريحا عن وجهات نظره في تطوير الأزهر .

واستمر على هذا الحال إلى أن عاد أستاذه وشـيخه الإمـام المراغـي إلى مـشيخة الأزهر مرة ثانية ، وهنا عينه وكيلا لكلية الشريعة عام 1935 .

وقد شارك الشيخ شلتوت في العديد من المؤتمرات العالمية كان أهمهـا : (مـؤتمر لاهاي) حيث ألقى بحثا عن طبيعة القانون الإسلامى ، والتـي كانـت بمثابـة نقطـة التحول في الرجوع إلى الشريعة الإسلامية كمصدر للقانون .

وللشيخ شلتوت موقف مشهور من الملك فاروق ، وذلك عندما اقترح الـشيخ عبد المجيد سليم بعد تعيينه شيخا للأزهر ، تعيين محمود شـلتوت وكـيلا للأزهـر ،

وافق الملك ولكن على شرط أن يكف عن إلقاء الخطب والأحاديث بمسجد الأمير محمد علي بقصر المنيل ؛ وذلك بسبب الخلافات التي كانت بين الملك فاروق والأمير محمد علي ، وكان رد الشيخ شلتوت على هذا الشرط الاعتذار والثورة ؛ حيث قال : «أفضل أن أطرد من الأزهر مرة ثانية ، وأعاني من الجوع والفقر أنا وأولادي عن التنازل عن مبدئي وأطيع جلالة الملك» .

ونظرا لهذه المواقف العظيمة قبل الثورة كان الشيخ شلتوت من العلماء المقربين لهذه الثورة حيث عين وكيلا للأزهر عام 1957 ، ثم شيخا للأزهر عام 1958 ، وظل في هذا المنصب حتى كانت وفاته عام 1963 ، ليكون آخر الأئمة المجددين في القرن الرابع عشر الهجري .

وكان للإمام الشيخ محمود شلتوت العديد من الاجتهادات التي كانت تصدر تباعا في صورة توجيهات الإسلام للشيخ شلتوت إبان توليه لمشيخة الأزهر ، ومنها موقف الإسلام من التفكير فيقول :

« كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السماوات والأرض ، برهانا واضحا على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام ، إذ العقل آلة التفكير ، والعلم ثمرته . إذا ، يكون كل ما ورد في القرآن هنا على التفكير ، هو إعلان عن فضل العقل ، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته ، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم ، وإيحاء بتحصيله ، فيقف الإنسان على الحقائق ، وتزول عنه غشاوة الجهل ، ويحرر من رق الأوهام والخرافات :

وبذلك .. كان الإسلام دين الفكر ، ودين العقل ، ودين العلم ، وحسبنا أن رسوله- ﷺ- لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر، والتفكير، ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ

مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[1] .

وهكذا كان العقل ، وكان العلم والبرهان في نظر القرآن الكريم » .

وعن قيمة العلم في الإسلام .. يقول :

« وقد أدرك المسلمون الأولون إيحاء القرآن في كل ذلك ، فأدركوا قيمة العلم ، ومنزلته ، وضرورته في سعادة الأمم والأفراد : كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب ، فجدوا في محو أميتهم بكل الوسائل ، حتى أطلقوا سراح الأسير إذا هو علم عددا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وجعلوا تعليم القرآن مهرا في الزواج ، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات ، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة ، ويجعلهم أئمة يهتدون بأمر الله ..

رفعوا بالعلم مكانة الخامل ، وكان فيما بينهم نسب الوضيع ، وغنى الفقير ، وقوة الضعيف . وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية من المؤلفات والمترجمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة ما يشهد لهم بالتركيز العلمى ، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه ، التى وصل إليها بجهوده وتفكيره دون الوقوف عندما ترك السابقون بل نظروا وبحثوا ، واختاروا واختبروا وابتكروا ، وبذلك اقتعدوا مكانة الأستاذية العامة المطلقة ، وكانوا حقا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله : ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾[2] تسلك إلى الخير طريقه ، وتسد دون الشر سبيله ..

وإني لأحس إحساسا قويا بأن النهضة العلمية آخذة بإخلاص القائمين بها ، المشرفين عليها، الفاهمين لها طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة،

---

(1) العنكبوت : 50 ، 51 .

(2) آل عمران : 110 .

ويرد آخرها إلى أولها ؛ فتنعم بما نعموا ، وتسعد بما سعدوا ، ونخلع ما نحن فيه من محن ، وتكون العزة كما يحب الله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] » .

وعن جناية الجمود على الرأي في الإسلام .. يقول :

« إن الجمود في آراء المتقدمين ، وحظهم من العلم والمعرفة ، وأسلوبهم في البحث والنظر ، جناية على الفطرة البشرية ، وسلب لمزية العقل التي امتاز بها الإنسان ، وإهدار لحجة الله على عباده ، وتمسك بما لا وزن له عند الله ..

هذا ، وقد نشأ المسلمون في ظل ما قرره الإسلام ، ودعا إليه القرآن ؛ ففكروا ، وبحثوا ، وتعقلوا ، وطلبوا البرهان ، وأنكروا التقليد ، فسادوا وسادت بهم الأمم ، ثم لأمر ما انقلبوا على رؤوسهم ، وتولدت في أدمغتهم حمى التقليد ، فجهلوا أنفسهم ، وجهلوا الكون ، وجهلوا الحياة ، وتفرقوا في دين الله ، وكانوا شيعا ، فأبطلوا حجة الله على خلقه ، وصاروا حجة على دينه وشرعه ..

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر في أقوالهم ، وبذلك لبس الدين فيما بينهم أثوابا مختلفة الألوان ، مختلفة النسج ، وراجت عند الجميع البدع ، والخرافات، وعقدت على دين الله غبارا كثيفا ، فنفر الناس منه ، وأعرضوا عنه ، واتهموه بالاضطراب بين حلال وحرام ، صحيح وفاسد ، قوي وضعيف . وأخذوا يتأهبون للخلاص ، ناقمين على طوائف الدين مواقفهم ، من موروثاتهم التي جعلته في جانب وحياة الناس في جانب آخر ..

ألا فليعلم هؤلاء جميعا ، أن صدر الحياة الذي يتسع كل يوم ، وكل ساعة ، أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى ، فلينظروا في أي وضع يكونون ، وعلى أي منهم يسيرون حتى يحفظوا لله شرعه ويقيموا له دعوته » .

---

(1) المنافقون : 8 .

وعن موقف الإسلام من التقاليد .. يقول :

« والدين هو الحاكم على التقاليد . فما كان منها لا يخل بشيء من أحكامه ولا يترتب عليه ضرر يأباه الدين ، فإن الدين يقره ويسمح به ، وما كان منها يخل بشيء من أحكامه أو يستبيح ضررا أو فسادا يأباه الدين ، فإن الدين ينكره ويحاربه . ولقد جاء الإسلام وفي جميع البلاد التي دخلها تقاليد وصور عملية في نواحي الاجتماع ، فأقر الصالح منها وحارب الفاسد ، وحقق تلاؤما بين أهدافه وآثار التقاليد ، وكان الدين قوة للتقاليد الطيبة الصالحة ومطهرا من التقاليد الخبيثة الفاسدة ..

ومما يجب أن نعرفه هنا : أن الإسلام أطلق لأتباعه حق اختيار ما يرونه ، محققا لنهوضهم العلمي والاقتصادي والخلقي والاجتماعي ، ولم يقيدهم فيما وراء العقائد والعبادات والحلال والحرام بشيء مما يمنعهم من التقدم والنهوض ..

وليس من شك في أن جماعتنا وهي إسلامية قبل كل شيء ، نزعت في كثير من عصورها الماضية إلى كثير من التقاليد التي أنشأها العرف ، أو التي جرها إليهم تقليد الأمم المختلفة التي حكمتها واستغلت عقليتها وحياتها ..

وليس من شك في أن كثيرا من هذه التقاليد لا يتفق وأحكام الإسلام .. فتقاليد الأفراح والمآتم والأعياد وتقاليد طرق التصوف وزيارة الأضرحة ، تقاليد يأباها الدين ، ولقد امتدت التقاليد إلى دائرة العقيدة والعبادة والحلال والحرام ..

إذا ، فلابد من تشخيص هذه التقاليد والنظر فيها من جهة موافقتها للدين إلى السبيل الذي يحفظ لها شخصيتها الإسلامية أولا والذي ينهض بمستواها الاجتماعي نهوضا يحفظ عليها كيانها وأخلاقها ، ويمهد لها سبيل السير في الكمال ..

والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت في رأي قادة الفكر الإسلامي المعاصرين يعتبر من المجددين المستنيرين ، فيقول عنه الإمام الأكبر الشيخ الدكتور «محمد سيد طنطاوي» شيخ الأزهر : وبعد انتهاء دراسته في الأزهر عين سنة 1919 مدرسا

بمعهد الإسكندرية الديني ، وفي هذه السنة اندلعت الثورة في مصر ضد الاستعمار الإنجليزي ، فشارك فيها فضيلته بقلمه ولسانه وجرأته المعهودة ، وأخذ ينتقل من مكان إلى آخر للتحريض على محاربة الاستعمار ، ثم أخذ بعد ذلك يتدرج في المناصب المهمة بالأزهر ، حيث عين مدرسا بالقسم العالي بالأزهر ، ثم مفتشا بالمعاهد الدينية، ثم وكيلا لكلية الشريعة ، ثم مراقبا عاما لإدارة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر ، ثم وكيلا للأزهر ، ثم شيخا للأزهر في الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة 1958م ..

ولقد كان – رحمه الله – شعلة من النشاط الديني والعلمي والاجتماعي والسياسى ، منذ مطلع شبابه ، فهو الفقيه الكبير ، والمصلح الاجتماعي ، والكاتب البارز ، والخطيب الممتاز ، والمدافع عن دينه وأمته بأسلوب بليغ ، وبحجة مقنعة ، وبعقل حكيم راجح . ولعل من أبرز الدلائل على أن فضيلته كان شخصية لامعة بالأزهر منذ تقلده للمناصب الهامة به ، أنه في سنة 1937 اختاره المجلس الأعلى للأزهر عضوا في الوفد المشارك في مؤتمر القانون الدولي المقارن ، الذي انعقد بمدينة «لاهاي» بهولندا .

وقد ألقى فضيلته في هذا المؤتمر المهم بحثا موضوعه «المسئولية المدنية والجنائية في الشريعة الإسلامية» ، ونال هذا البحث استحسان أعضاء المؤتمر وإعجابهم ، فأصدروا قرارا بصلاحية الشريعة الإسلامية لمسايرة التطور المحمود ، وأنها مصدر من مصادر التشريع الحديث ، وأنها أصيلة وليست مقتبسة من غيرها من الشرائع الوضعية ، كما أصدر المؤتمر قرارا بأن تكون اللغة العربية– لغة هذه الشريعة– إحدى لغات هذا المؤتمر في دوراته المقبلة ، وأن يدعى إليه أكبر عدد ممكن من علماء الشريعة الإسلامية على اختلاف المذاهب والأقاليم .

ومن مناقب فضيلته – رحمه الله – أنه لم يمنعه نشاطه الديني والاجتماعي في مختلف الميادين ، من أن يؤلف المؤلفات الدينية .

أما الأستاذ الدكتور «محمود حمدي زقزوق» وزير الأوقاف فيقول :

« كان الشيخ شلتوت صاحب نشاط ملحوظ في الحياة الثقافية الدينية عن طريق العديد من المحاضرات التي كان يلقيها في المنتديات العامة ، والأحاديث الإذاعية والمقالات الكثيرة في الصحف والمجالات ..

لقد كان عالما مجددا واسع الأفق ، يدعو إلى الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام ، وكان يرفض العصبية الضيقة والتعصب الأعمى لمذاهب فقهية معينة . وكان يتطلع إلى تحقيق الوحدة الإسلامية بنبذ الخلافات الطائفية . فبدأ جهاده في «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» وقد كان متحمسا أشد التحمس لدعوة التقريب التي قال عنها :

[إن دعوة التقريب هي دعوة التوحيد والوحدة، هي دعوة الإسلام والسلام. لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم ، وأسهمت منذ أول يوم في جماعتها وفي وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة]. ومن هنا أصدر فتواه الشهيرة – عندما كان شيخا للأزهر– بجواز التعبد على المذهب الفقهي للشيعة الإمامية، وهو المذهب الجعفري، كسائر مذاهب أهل السنة وقال : [ينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة ، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب . فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى ، يجوز لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد – تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم ، ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات] ..

وقد كان الشيخ شلتوت في طليعة المنادين بالتجديد والإصلاح في الأزهر ، ويعد من ألمع الناشئين في مدرسة الشيخ محمد عبده والشيخ المراغي والشيخ عبد المجيد سليم ، فقد حمل راية الإصلاح والتجديد من بعدهم ، وطالب «بأن يعاد النظر في مناهج الأزهر وكتبه على الوجه الذي تعبر به تلك الكتب والمناهج عن النهضة الحديثة . وقال إن الذي نريده يعد انقلابا ، ولكنه انقلاب محبب إلى النفوس

الغيورة على ماضيها المتطلعة إلى مستقبلها . وقد وجدت دعوته آذانا صاغية من قادة الثورة حينذاك ، فصدر قانون تطوير الأزهر عام 1961 في عهد مشيخته للأزهر ..

وقد دعا الشيخ شلتوت في تفسيره للقرآن الكريم إلى ضرورة تجنب أمرين في التفسير وقع فيهما الكثيرون ، وكان ينبغي أن يظل القرآن بعيدا عنهما : **الأمر الأول** هو استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب في المجتمع الإسلامي ، والتنافس في العصبيات السياسية والمذهبية ، حيث امتدت أيدي أصحاب الفرق المختلفة إلى القرآن الكريم يؤولون آياته لتتوافق مع مذاهبهم أو يخرجونها عن بيانها الوضاح لكيلا تصلح لمذاهب خصومهم ، وبذلك جعلوا القرآن تابعا بعد أن كان متبوعا ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما . أما **الأمر الثاني** فهو استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة من القرآن . ويرى الشيخ شلتوت أن هذا اتجاه خاطئ في تفسير القرآن لعدة أسباب : أولها أن القرآن أنزله الله ليكون كتاب هداية للناس . وليس كتابا يتحدث إليهم عن نظريات العلوم ودقائق الفنون ..

وقد كان الشيخ شلتوت فقيها مجتهدا صاحب رأي ، وله فتاوى جريئة في المعاملات المالية التي لم تكن معروفة لدى الفقهاء السابقين ، فقد أفتى بجواز الأرباح المحددة بنسب للأسهم في الشركات التعاونية » .

ويقول العالم الجليل الدكتور « أحمد عبد المنعم البهي » عضو هيئة كبار العلماء المعاصرين : « لم يكن الشيخ شلتوت عالما إسلاميا فحسب ، وإنما كان زعيما من زعماء الإسلام يسعى لتوحيد كلمة المسلمين ولم شملهم والقضاء على الخلافات التي ورثوها من عهود بعيدة انتهت وتركت وراءها المسلمين يعيشون على ذكراها ، فلما أسندت إليه مشيخة الأزهر سارع إلى القضاء على هذه الخلافات بطريق عملي فأدخل دراسة المذاهب الإسلامية الأخرى في الأزهر ، وكان لهذا الإجراء صداه في نفوس المسلمين جميعا إذ اعتبروه خطوة كبيرة للتقريب والتوحيد ، وشكروا للشيخ شلتوت سعيه الحميد في هذا الصدد ..

ولقد كان شلتوت فقيها مجددا لم يـرض لنفسه أن يمـضى في ركـب التعـصب لمذهب فقهي معين ، بل كان يرى أن أصل التـشريع ومنبعـه الكتـاب والـسنة ، وأن الفقهاء استمدوا من هذا النبع الصافي فكان يرجع إلى مـصدر التـشريع ويأخـذ منـه ويؤيد الرأي الذي يراه متمشيا مع ما تهدف إليه نصوص الشريعة ..

ولقد ترك الشيخ شلتوت في الفقه الإسلامي مؤلفـات ضـخمة كانـت المكتبـة الفقهية في حاجة إليها ، ترك كتابه : (الإسلام عقيدة وشريعـة) سـار فيـه عـلى نهـج جديد في تبويب الفقه مع توضيح العقيدة الإسـلامية ، وتـرك كتابـه مـن (ترجمـات الإسلام) ، وكتاب (الفتاوى) ، وكتاب (الإسلام والعلاقـات الدوليـة) ، و(القتـال في الإسلام) ، و(القرآن والمرأة) ، وذلك عدا مئات الأحاديـث الموجهـة والنـدوات والمحاضرات والآراء التي كانـت آيـة واضـحة عـلى غزيـر علمـــه وسـمو تفكـيره وحرصه على أن يفهم الناس الإسلام فهما واعيا ويأخذوا الفقه صـافيا لا عـسر فيـه ولا تعقـيد ..

وكما ترك شلتوت هذه الموسوعات ترك مدرسة تحمل هذا اللـواء وتـؤمن بـه ، وتمضي على نهجه في الدرس والتوجيه ..

وإذا كان العالم الإسلامي قد فقد بموته رائدا من رواده الأعلام ، فإن الإسـلام قد فقد فيه عالما ومجددا وإماما من أئمته المخلصين الصادقين » .

ولعل أصدق الآراء حول إمامنا الأكبر الشيخ محمود شلتوت هـي : مـا يقرهـا ويعترف بها غير المسلمين ، خاصة الأوروبيـين . وفي ذلـك نقـرأ رسـالة الـدكتوراه المقدمة لجامعة لندن عام 1988 من الباحثة «كاترين ذبيري» ، وموضوعها : « الـشيخ محمود شلتوت مفكرا إسلاميا » ، والتي صدرت فـيما بعـد في كتـاب تناولتـه بعـض الصحف ، ولعلنا نجتزئ من ذلك بعض آراء الباحثة ، تلك التي أوردتها في رسـالة حول موضوعات تشغل الفكر الإسلامي حتى اليوم ، ومنها :

المرأة في الإسلام حيث كانت الحاجة ملحة للفتوى في أمور متعلقة بالحياة الاجتماعية ، وخاصة خلال مرحلة انتقالية لتطور العصر والمجتمع ، ورحب الشيخ شلتوت بأخذ المهمة على عاتقه ، وكانت المرأة هي أول الموضوعات التي أفتى فيها.

وأهمية هذا الموضوع ترجع إلى ما وجه إلى الإسلام من نقد حول وضع المرأة ، فقد شعر الشيخ بأن النقد الذي وجه إلى الإسلام بصفة عامة يمثل وجهة نظر صارمة ، فقد تناسى النقاد الناحيتين : الإنسانية ، والروحية في الإسلام ، فجاءت ردوده توضح وجهة نظره واعتقاداته المثقلة بدراسته للإسلام وبفكره التقدمي .

وفي تناوله للعلاقة الزوجية وحقوق الطرفين : جاء رده على ناقدي العلاقة بين الزوج والزوجة ، بأن الزواج لا يعطي لأحد الطرفين الحق في المطالبة بحقوقه من الطرف الآخر ، بل غايته الوصول إلى التوافق الروحاني والانسجام بين كليهما وإحسان العشرة ، لا يعني : أن الزوجة تلبي نداء زوجها على الفور أو أن مسئولية الزوج تجاه الزوجة هي توفير الطعام ، بل هو شيء مصطلح عليه ، وباستطاعة كل فرد العمل به . إن الأسلوب يجمع بين المعاملة والتحدث ، بل وصل حد شرحه إلى تعريفه «بالحب الروحاني الذي يخرج من قلب الرجل ليملأ قلب المرأة ثم يعود ويترنح بين قلبيهما » وبذا يخلقان جوا من الأمان والهدوء .

وأقام الإسلام بهذا تنظيما غير مباشر لحقوق الرجل على المرأة وحقوق المرأة على الرجل ، ومن الضروري أن يساعد كل منهما الآخر في أداء وظيفته الأولى . والنص واضح في الأخذ برأي الآخر عند البت في أمور تتعلق بهما .

وفي موضوع إكراه الرجال للنساء ظهرت عدة وجهات نظر أمام النص القرآني حول : ﴿ **ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾[1] ، وهنا تتمثل سلطة الرجل وتفضيله على المرأة في الإسلام .

---

(1) النساء : 34 .

والسلطة عند شلتوت لا تعطي الحق للزوج بإكراه زوجته ، ولكنها تمثل ما أسماه بنوع من الرياسة البيئية التي تعني بالضرورة قيادة الرجل وحمايته للزوجة أولا ثم للعائلة . وفي اعتقاد الشيخ شلتوت أن قوة الرجل وتفضيله على المرأة يرجع إلى قوة طبيعية لتكوينه الجسدي وعزمه .

وفي التأديب والهجر الذي يقره الإسلام فيقول :

وعن حق الرجل في تأديب زوجته سواء بالضرب أو الهجر لهذا الموضوع ، أن في اعتقاده أنه الوضع الطبيعي الذي يتطلبه الأمر في بعض الحالات .

ولكن أشار إلى أن التأديب الجسماني هو الملجأ الأخير بعد توجيه الموعظة باللسان ثم الهجر ، والهدف من هذه الخطوات هو الوصول إلى توافق في النزاع العائلي والمساعدة على حله في إطار الزواج ، وأن على الزوجة أن تستجيب لأي من هذه الخطوات حتى تساهم في استمرار حساسيتهما الزوجية .

وفي نطاق قضية تعدد الزوجات وإتاحة حق الزوج بأربع ، وهي مسألة حساسة للغاية ومرفوضة رفضا تاما وخاصة من النقاد الغربيين ؛ ولذا فقد احتلت هذه القضية مكانة كبيرة في المناقشات بالرغم من أنها غير شائعة اليوم في المجتمعات الحديثة.

قامت بعض البلدان بإعادة تشريعها القانوني .. فحدد البعض عدد الزيجات التي يمكن للرجل زواجها ، والبعض الآخر من البلدان ألغى حق تعدد الزوجات كما حدث في تونس عام 1956 .

وراود الشك الشيخ شلتوت مما دعاه إلى القول بأن «تعدد الزوجات أحد الموضوعات التي ركز الصوت المتطرف الأوروبي الغربي ودعايته السامة على مهاجمتها التي جعلت من البشر ناقدين لها ، إلى الدرجة التي جعلت من المسلمين أنفسهم يمضون في خلق قانون يضع قيودا على الزواج من أكثر من امرأة ، والحق يقال : أن تكون فكرته عن تعدد الزوجات لا تعني كل فرد ، ولكن بعض الحالات فقط » .

لا تتعارض وجهة نظر الشيخ شلتوت إلى المرأة مع نص القرآن ، بل مثلتها تمثيلا واضحا .. وانحصر اهتمامه في تصريحه بحق المرأة ، ورغبته الجامحة في إنهاء طرق إهدار حقوقها والاعتداء على هذه الحقوق .

هذا إلى جانب أن وجهة نظره في ذلك أفصحت عن اهتمامه أيضا بمسألة الفسق ، فاعتبر تعدد الزواج حماية من فسق الرجال .

وقد صرح في إحدى المقابلات التى جرت معه حول تحديد سن الزواج الخاص بالمرأة بصفة عامة بأنه : ما هو إلا حماية لحقوق الرجل والمرأة على السواء . وفي ختامه أعلن وجهة نظره التقدمية في : أن المرأة لها حق العمل : في أي ميدان تختاره حتى ولو أرادت أن تكون واعظة .

وعن العلاقة بغير المسلمين وموقف الإسلام منهم ، فالتعريف بغير المسلمين يقسمهم إلى فئتين : الكافرين أو المشركين ، وأهل الكتاب .

وأهل الكتاب لهم مكانتهم الروحية لانتمائهم الاجتماعي إلى فئة انتماء دينى وروحاني ، ولذلك فهم منفصلون عن الكافرين . ويمتد تحليل الشيخ شلتوت إلى تعريف الكافرين بأنهم : لا يمكن أن يطلق عليهم كافرون لمجرد أنهم لا ينتمون إلى دين معلن ومعين ، بل يطلق عليهم كافرون إذا عرض عليهم الدين الإسلامى بفهم ووعى واضح وأعرضوا عنه ، أي عدم وجود العقيدة لديهم فقط لا يمثل الكفر ، ونص القرآن لا يعني أن رحمة الله لا تسع الكافرين والمشركين ولا تعني الخلاص منهم.

وذكر الشيخ شلتوت أن الحياة التى تعم عليها أشكال الهدوء والسلام بين البشر في الإسلام لا يمكن تحقيقها إلا بتوحيد المسلمين وغيرهم ولا يفضل في ذلك المشركين عن أهل الكتاب .

وفي إيضاح حق الزواج من أهل الكتاب وإعطائهم فرصة التعرف على جوانب الإسلام في جو يسوده المحبة والصداقة . وجاءت وجهة نظر الشيخ شلتوت صارمة الرد بعد أن ظهر أن بعض الزيجات ما هي إلا تشكيل أوروبي للرجل ، وحينذاك

تقام نشأة وتربية الأطفال على تعاليم غير إسلامية ، فوقف مؤيدا للرأي الذي ينادي الحكومات بإبعاد هؤلاء ، وأبعد من هذا طالب بوضع القيود على من يتزوج من أهل الكتاب .

ويعطى الشيخ رأيه في موقف غير المسلمين الشرعى ويوضح أن الأخذ بشهادة غير مسلم في المحكمة الشرعية شرعى ، وله ثقله بناء على أن وضع المسلم وغير المسلم في المجتمعات الحديثة متساو ، ففكرته في موضوع غير المسلمين كانت واضحة تمام الوضوح ، وكثيرا ما أعلن أن بناء مجتمع حديث يتطلب تكافؤا وعدلا بين أطراف هذا المجتمع .

أما في رده على المدعين بأن انتشار الإسلام يتطلب دائما استخدام السيف ، اعترض اعتراضا شديدا بقوله « إنهم المسئولون في الحروب في العصر الحديث » .

ويعني بذلك : الاستعمار الأوروبي والقوى الأجنبية .

وفي مواجهة ما شاع عن أن (حتى يتم تحقيق أمر الله في إقامة مجتمع مسلم ، لابد لهذا المجتمع من أن تحكمه سلطة أو حكومة مسلمة) وقد ذهب إلى أبعد من ذلك الرأي بعض المتطرفين في القول بأنه لا يمكن إقامة دولة إسلامية إلا تحت نظام وحكم بفكر إسلامي خالص .

ورد عليهم الشيخ شلتوت بالتعبير عن اعتقاده في النموذج الإسلامى الأول ، وأن الدولة هى التى تضم رعاياها ليس فقط المسلمين ، بل أيضا أصحاب الميول والاتجاهات الأخرى .

واستشهد بذلك على مثل من حكم الرسول ، حين طلب منه أن يحكم في نزاع بين اثنين وقد أنصف اليهودي بالحق على المسلم .

وختم شلتوت رأيه في هذا بقوله : « أسود أم أبيض ، قوي أم ضعيف ، مسلم أم غير مسلم ، الحاكم والمحكوم ، جميعهم يتساوون أمام الله وقانونه وعدله » .

* * *

عباس محمـود العقـاد

مثل معاصره طه حسين من مجددي القرن الرابع عشر الهجري الأستاذ «عبـاس محمود العقاد» . حيث ولد في العام نفسه الذي ولد فيه طه حسين أي عـام 1307هــ وتوفي عام 1384هـ ، وحين نرصد جهوده في الإسلام ، نقول إنه ليس صدفة أن يعد العقاد – في تاريخنا الثقافي الحديث– من أكبر المدافعين عن الإسلام بالحجة والدليل، وأن يضع حقائق هذا الدين الحنيف في مواجهة أباطيل خصومه ، وأن يلتقـي حـول كتاباته الإسلامية عدد كبير من نقاده ومؤرخي حياته حتى وإن اختلفوا فيما بينهم أو اختلفوا معه ، وأن يتفق حول أمانة كتاباته الإسلامية عدد كبير مـن المتخصـصين في الدين ، فيرى – على سبيل المثال لا الحصر – الشيخ «أحمـد حـسن البـاقوري» أحـد مجددي القرن الخامس عشر « أن العقاد كان خير لسان للعروبة والإسـلام بـما كتـب من دراسات ، وأذاع من أحاديث تدافع عن العربية أوهام المبطلـين وعـن الإسـلام شبهات المغرضين» .

كما يراه مجدد آخر في القرن الخـامس عـشر الهجـري : داعيـة الإسـلام الـشيخ «محمد الغزالي» خير من كتب عن العقيدة والدين بوعي وإيمان من غير الأزهـريين ، وأن يكون العقاد بين أفـراد جيلـه مـن الأفـذاذ صـاحب أكـبر عـدد مـن المؤلفـات الإسلامية يزيد على الثلاثين مؤلفا .

ليس صدفة إذا ، أن يصبح عباس محمـود العقـاد كـل ذلـك وأكثـر ، إذ كانـت كرامته قد تفتحت وهو صبي صغير عـلى بيـت يقـدس الـدين ، وأسـاتذة يحترمـون الدين ، وبيئة تحافظ على الماضي محافظتها على الحاضر .

بيت يقدس الدين .. فها هو العقاد يحدثنا في سيرته الذاتية « أنا » عن أبيه وكيف تمثل صورته التي رآها ألفي مرة بل أكثر من ألفين ، حيث كان يراها كل يوم منذ أن فتح عينيه على الدنيا إلى أن فارق بلده أسوان بعد اشتغاله بالوظائف الحكومية ، فيقول عن أبيه : « تلك هي صورته على مصلاه يؤدي صلاة الفجر ، ويجلس على سجادة الصلاة من مطلع الفجر ، إلى ما قبل الإفطار، ليتلو سورا خاصة من القرآن الكريم ، ويعقبها بتلاوة الدعوات » .

ويعترف العقاد في سيرته الذاتية « أنا » بهذه المشادة المبكرة التي حدثت بينه وبين أبيه بسبب الصلاة ، فالأب يريد لابنه الذي لم يتم العاشرة أن يواظب على الصلاة في أوقاتها ، وكان أثقل ما يعانيه هو يقظة الفجر في الشتاء ، والطفل شأنه كبقية الأطفال يزين لهم النوم في هذا الوقت المبكر فلا يستيقظون إلا بعد جهد عنيف .. هنا حدثت مشادة ليس سببها أن الطفل ينفر من الصلاة ، وإنما السبب هو شدة الأب في تكليف الابن بما لا يطيق قبل الأوان . وعلى الرغم من هذا كان العقاد يخف إلى المسجد لأداء الصلاة، في مواعيدها. وينشد- وهو طفل- على المئذنة أناشيد الجمعة ، وظل ينشدها وينظمها ، ولا يذكر للمؤذن أنه ناظمها حتى لا يستصغرها ويمنعه من إنشادها .

ونفس ما لاحظه العقاد في أبيه لاحظه أيضا في أمه ، فيحدثنا في صفحات طوال عن إيمان هذه الأم واعتكافها ، فيقول : « ورثت عن أمي تقواها وسلامة بنيتها من أبيها وجدها ، ففتحت عيني أراها وهي تصلي وتؤدي الصلاة في مواقيتها، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلي في شبابها » .

وفي المدرسة وفي الحياة ، التقى العقاد برجال كانوا بمثابة أساتذة في المدرسة ، التقى بالشيخ «محمد فخر الدين» مدرس اللغة العربية ، ومن قبله الشيخ «أحمد الجداوي» الذي حضر العلم في الأزهر، وزامل الإمام «محمد عبده» أيام السيد

«جمال الدين الأفغاني». وفي سيرته الذاتية يذكر العقاد أنه كان يتردد على مجالس الشيخ الجداوي ويستفيد من علمه . وفي المدرسة رأى العقاد وهو تلميذ الإمام الشيخ محمد عبده ، الذي صادف أن قام بزيارة لهذه المدرسة ، ويومها أعجبت ثقافة العقاد وهو طفل الشيخ الإمام إلى درجة أنه تنبأ له بالمستقبل في الكتابة . ويحدثنا العقاد في سيرته عن الشيخ الإمام وتأثيره ، فيقول : «والشيخ محمد عبده في اعتقادي أعظم رجل ظهر في مصر وما جاورها منذ خمسة قرون ، وأثره في نفسي من أقوى الآثار».

ويخرج العقاد إلى ميدان الحياة فيلتقي بالكثيرين ، إلا أن التقاءه - خاصة - بالشيخ «محمد فريد وجدي» ، هذا الكاتب الإسلامي ، كان له عظيم الأثر في حياة العقاد .

وفي البيئة ، يفتح العقاد عينيه على بلدته أسوان ، فرأى التقاء الماضى بالحاضر ، وعلى حد قوله : «في أسوان : التاريخ حي يرزق ويتنفس الهواء ، لأنه ماثل شاخص في الأحياء» ، وفي هذه المدينة العريقة ، أدرك العقاد وهو طفل صغير قيمة المناسبات الدينية من اهتمام أبنائها .

وهكذا ، نرى أن الفكرة الإسلامية عند العقاد نبتت في الوسط الاجتماعي المناسب على نحو رأيناه فيما بعد في هذه المؤلفات التي زادت عن الثلاثين ، والتي قدمت زادا ثقافيا للقارئ أفضل مما تقدمه هيئة علمية أو معهد متخصص ، لاستيعابها جوانب كبيرة من التفكير الإسلامي .

ومن هنا ، من تعدد هذه المؤلفات ، ومن تنوع اهتماماتها ، أصبح من الضروري تبويبها وتنسيقها حسب موضوعاتها . فالعقاد حين يكتب العبقريات ، غيره حين يترجم للشخصيات الفذة في تاريخ الإسلام ، غيره حين ينشئ الدراسات والأبحاث حول أهم القضايا الإسلامية ، ولعل ما يربط بين عبقرياته وشخصياته ودراساته وأبحاثه في الإسلام هي صفته كأديب مؤرخ ، وأدبه في التاريخ هو كأدبه بوجه عام : أدب الفكرة الواعية .

ولهذا .. رأينا في مجال آخر : أن البحث فيما كتبه العقاد عن الإسلام يقتضى التمييز بين تناوله للعبقريات والشخصيات والأبحاث والدراسات ، وهذا يقتضى أيضا تأمل كل واحدة على حدة ، حتى يمكن الاقتراب من المنهج الذي اتبعه العقاد في تناوله للمادة الإسلامية التي أمامه .

مثلا في محاولة للكشف عن المنهج الذي اتبعه العقاد في العبقريات ، رأيناه يهتم بإيجاد مفتاح للعبقري الذي يتعرض له ، حتى يستطيع فتح مغاليق شخصية هذا العبقري ، ليعرف مدى عظمته وحدود هذه العظمة ، وما يصدر عنها من أفعال وتصرفات ، وقيمة هذه الأعمال والأقوال بالنسبة للإنسانية عامة .

ولكي يفي العقاد بهذا المطلب ، كان عليه أن يتفهم معنى مفتاح هذا العبقري ، الأمر الذي جعله يقوم بالتحليل النفسى الدقيق لهذه الشخصية التي يراها عبقرية ، ثم الإحاطة الشاملة لملابسات العصر الذي عاشت فيه .

وقد يحدث أن يتشابه مفتاح إحدى شخصياته مع مفتاح شخصية أخرى . وهنا يبحث العقاد عن ثمة اختلافات في السلوك الإنساني لهاتين العبقريتين المتشابهتين إلى أن يعثر على ما يميز بينهما .

فمثلا : عند البحث عن مفتاح لعبقرية عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجده في طبيعته كجندي ، ونفس هذا المفتاح - طبيعة الجندية - وجده لعبقرية خالد ابن الوليد . وهنا يوضح العقاد الفرق بين العبقريتين حين يجعل عمر (رضى الله عنه) تغلب عليه من طبيعة الجندية ناحيتها «الروحية» ، في حين تغلب على خالد من هذه الطبيعة ناحيتها «الحيوية» ، أو بعبارة أخرى كانت جندية ابن الخطاب - عند العقاد - متزنة حكيمة ، في حين جندية ابن الوليد مدفوعة هاجمة .

لكن من هو العبقري عند العقاد ؟ العبقري : يقيس الأشياء بمقياسه الخاص ، العبقري : إنسان لم يخلق لخدمة نفسه أو أسرته أو عشيرته وكفى ، بل هو خلق لخير

إنساني عام ، وأوتي من القوة ما يخدم به غيره ، ولو اتخذ هذا الخير الإنساني العام صورة عالمية أو قومية أو وطنية أو قبلية .

العبقرية عند العقاد : تنمو على البذل والعطاء ، ولا تتورم بالنهب أو السلب أو الجور على حقوق غيرها حتى تنفجر . باختصار ، عظمة العبقري عند العقاد هي التي تقول : «نحن» ولا تقول «أنا» مبتورة الجذور والفروع عما حولها ، وحتى لو سمعت منها «أنا» فلا تفهم من معناها إلا «نحن» .

والعقاد حين يكتب عبقرياته ، لا يكتفي بالعرض الفوضوي أو المنظم تنظيما آليا أو شبه آلي ، بل ينسق الملامح البارزة في كل صورة ، وينفخ فيها من روحه ، وروح العبقري موضوع الدراسة ، فيحييها في نفوس قرائه حتى يتعاطفوا مع عبقريته ، فيجدوا في نفوسهم بعض فضل من أفضالها ، ويلموا ببعض جمل من لغتها. ومن ثم يشعر القارئ بالغبطة ؛ لأنه يدرك بأنه ارتفع فوق نفسه .

والعقاد يبرز عبقرياته كما يبرز كتاب المآسي أبطالهم فيستسلمون إليهم ، ومن هذا التشيع لبطل المأساة ، تتطهر النفوس من أدرانها ، وهذا الجانب هو الذي يحركه العقاد في نفوس قراء عبقرياته ، فيشيعون معه إلى جانب العبقرية التي يكتب عنها بالقدر الذي يمضي بهم إليه ، وكثيرا ما يذهبون في تشيع لهذا العبقري إلى أبعد مما كان يريد العقاد ، والسبب في هذا أسلوب العقاد وتعبيره عن أفكاره - كما يتفق أغلب نقاد العقاد - ومؤرخيه ، فما من عبقرية من عبقرياته إلا وهي قصيدة شعرية ينقصها الوزن والقافية ، ولكن لا ينقصها صدق الشعور ولا جمال التعبير الذي يكاد يدفع الإنسان إلى التغني بها .

والعقاد لا يكتب حياة العبقري أو يصور صورته إلا وهو داخل معه في إهابه ، متلبس به ، يحيا معه حياته بكل ما تشتمل عليه من قوة وضعف ، فيقف على أسرار العبقري من داخل نفسه هو ، لا من مجرد ما ينسب إليه من أخبار وأعمال وأقوال ،

سواء كانت صحيحة أو منحولة . لذا ، ترى شخصية العقاد أمامك في كل عبقرية مع شخصية صاحبها يتحركان معا .

وهناك ملحوظة أخيرة ، أشار إليها مؤرخو العقاد ونقاده ، مؤداها : أن العقاد لا يتحفظ في الثناء على «العبقري» أو أعماله . ولماذا يتحفظ مادام يجد في هذه العبقرية الإسلامية ما تستحق عليه ثناء ؟! والسؤال : هل روح الثناء هذه تعطل ملكة التقييم عند العقاد وتضعفها ؟ والإجابة بالنفي ؟ فهذه الملكة ناشطة عند العقاد ، وروحها جياشة في كل ما يصدر من كتابات .

وبهذا المنهج الذي توصلنا به إلى فهم عبقريات العقاد المعروفة ، وهي : «عبقرية محمد» ، و«عبقرية الصديق» ، و«عبقرية عمر» ، و«عبقرية الإمام» و«عبقرية خالد» .

لكن العقاد - كما قلنا - حين يكتب العبقريات، غيره حين يكتب الشخصيات، وربما نلمح هذا الفرق عندما نقرأ تقديمه «لمعاوية بن أبي سفيان» كشخصية ... فالعقاد في تناوله لهذه الشخصية فرق بين القدرة والعظمة ، والشخصية والعبقرية حيث قال : « أما حين وصفت الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده ، واحتجان منافعه والإضرار بغيره ، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه . ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم . فنحن نقدر الإنسان بمقداره ، عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ، ولم تكن من وراء العمل نية ، ولكننا إذا عظمنا الإنسان ، فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ، ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التي تلحظها الإنسانية بأسرها ، وتعود عليها في منافعها وخبراتها . فكل عظيم قدير ، ولكن ليس كل قدير عظيم » .

وبهذه العبارة حدد العقاد الفرق بين الشخصيات المقتدرة ، والعبقريات العظيمة .

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن قارئ عبقريات العقاد وشخصياته الإسلامية ، لماذا جعل عثمان بن عفان (رضى الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان من الشخصيات ، ولم يجعلها من العبقريات ، مثل : الإمام علي ، والفاروق عمر ، والصديق أبي بكر؟

أجاب العقاد مرتين عن هذا السؤال : أولهما حين سأله نفس السؤال تقريبا المفكر والمجدد الإسلامي «محمد كرد علي» قائلا : لماذا لم تكتب لنا كتابا عن معاوية كما كتبت عن علي ، وكان رد العقاد : « إن صاحبك معاوية أراد الدنيا وأراد منها أن يكون ملكا فكان . ثم مات فماذا يريد بعد هذا ؟ الذي يطمع أن يكون ملكا أو وزيرا أو نائبا ، ثم ينتهك كل الحرمات ليصل إلى ما يرغب ويطلب ماذا نفعل له؟! .. أتريد بعد أن نخر له ساجدين في حياته وبعد موته ؟! » .

وأجاب العقاد مرة ثانية حين قدم شخصية عثمان بن عفان (رضى الله عنه) فأكد بأن سيرته لا تبرز لنا عبقرية ، مثل : عبقرية الصديق ، أو عمر ، أو علي ، أو خالد بن الوليد . ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث العقيدة والإيمان . لذلك ، فهو لا يؤمن بالعبقرية لضمان رضا الله عنه بقدر ما يؤمن بأنه ذو النورين : نور اليقين ونور الخلق الأمين .

والشخصيات التي قدمها العقاد ، ليست صور أعلام ذوي حظ واحد في القدرة والكفاية ، ولو أنها كانت كذلك لما غض هذا من شأنها . فمن كان يعرف حرفا واحدا من أبجدية الكفايات الإنسانية فهو على حظ كبير من المعرفة الإنسانية ، ولكن لا شك أقل وعيا ممن يعرف جملة حروف منها . وشخصيات العقاد تمثل عدة أنماط من القدرة الإنسانية ، لعلها في العلم والإدارة والسياسة والحرب .

يغلب على شخصيات العقاد الإسلامية أنها تنفذ إلى حقيقة القدرة الإنسانية معللة ، واختلاف نمطها عن أنماط الكفايات الأخرى . فلا نخلط بين هذا وغيره من ذوي المواهب والملكات التي ترفع صاحبها أو لا ترفعه .

في شخصيات العقاد الإسلامية يكمن سر ، لعله في : سهولة الأداء عن كل ذي قدرة ، أيا كان نوع قدرته وحظه منها ، ثم اتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة عن غيرها . ولهذا ، تبدو الترجمة وكأنها خرجت من قريحة صاحبها، فتسلمتها براعته دفعة واحدة ، شأنها شأن بدء الحياة في خروجها من الأرحام إلى أيادي القوابل .

إن العقاد كان يندمج مع شخصيته أثناء كتابتها ، حتى إنه يذكر أنه كان يكتب الفصل الواحد من «الحسين أبو الشهداء» وعيناه مغرورقتان بالدموع ، مع أنه يفترض فيه كمؤرخ أن يكون محايدا ولكن ما العمل ، وهو أديب فنان يحس ويشعر ويحلل الحدث ، قبل أن يكون شاهدا ومؤرخا يسجل ويدون ؟!

وكتابة التاريخ بهذه الصورة الأدبية ، أسلوب لم يبتدعه العقاد ، فقد سبق أن استخدمه كتاب أجانب ، مثل : «بلوتارك» و«كارليل» و«أندريه موروا» و«إميل لودفيج» . وكتاب عرب في مقدمتهم : الدكتور « طه حسين » ، والدكتور « محمد حسين هيكل » ، والأستاذ « أحمد أمين » .

هذا المنهج الذي توصلنا به إلى معرفة التمييز بين العبقرية والشخصية .. بين العظمة والقدرة ، استطعنا التعرف على شخصيات العقاد الإسلامية ، وفي مقدمتها «فاطمة الزهراء والفاطميون» و«الصديقة بنت الصديق» و«أبو الشهداء : الحسين ابن علي» و«ذو النورين : عثمان بن عفان» و«بلال بن رباح» و«عمرو بن العاص» و«معاوية بن أبي سفيان في الميزان» .

بعد محاولة الكشف عن منهج العقاد في العبقريات والشخصيات ، ننتقل إلى محاولة الكشف عن منهجه في الدراسات والأبحاث الإسلامية والتي أخرجت كتبا ،

في مقدمتها : (الله) ، و(الفلسفة القرآنية) ، و(حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) و(وما يقال عن الإسلام) ، و(التفكير فريضة إسلامية) ، و(الإنسان في القرآن) ، و(المرأة قي القرآن) ، و(الإسلام في القرن العشرين) ، و(الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام) ، و(الديمقراطية في الإسلام) ، و(مطلع النور) .

إلى جانب بحثين في كتابين عنوانهما : (أبو الأنبياء إبراهيم الخليل) ، و(المسيح والكشوف الحديثة) ، وكتب أخرى عن فلاسفة المسلمين ومفكريهم ، وفي مقدمتها : كتاب عن (ابن رشد) ، وآخر عن (الغزالي) ، وثالث عن (ابن سينا) ، ورابع عن (الكواكبي) ، وخامس عن (عبقري الإصلاح والتعليم : الإمام محمد عبده) ، إلى آخر هذه الأبحاث التي تزخر بها المكتبة العربية والإسلامية .

والسؤال الآن : ما النهج أو الأسلوب الذي اتبعه العقاد في كتابته لهذه الدراسات والأبحاث ؟

بادئ ذي بدء ، يتراءى لنا العقاد من قراءته أنه يكتب وفي ذهنه فكرة يؤمن بها منذ الثلاثينيات وما قبلها ، وهي : أن الإسلام دين قامت على مبادئه وقيمه حضارة. فالحضارة العربية التي شهد لها أعداؤها من المتعصبين لغير الإسلام ما قامت إلا بعد الإسلام . ولعل هذه الفكرة التي كانت محور تفكير العقاد في أبحاثه ودراساته الإسلامية يعلنها المستشرقون اليوم والمفكرون الأجانب ، وفي مقدمتهم الفيلسوف الفرنسي «جارودي» ، الذي يعلن أن التبرير الوحيد لإسلامه هو أنه اكتشف في الإسلام – بعد طول تفكير وتأمل ودراسة وبحث – أنه الدين الوحيد الذي تقوم على أكتافه حضارة أنارت أوروبا في عصور الظلام .

الإسلام دين تقوم عليه حضارة ، هي فكرة العقاد . فهو حين يحدثنا عن الإسلام .. يقدمه – عن فهم وعقيدة – على أنه نظام كامل تتحدد فيه الخطوط لإقامة مجتمع كبير متكامل ، في مختلف الميادين الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ولهذا ،

نرى العقاد حين ينبري لكتابة هذه الأبحاث والدراسات يشغله أمران مهمان من منطلق مسئوليته كمفكر، وعقيدته كمسلم .. هما :

1- الدفاع عن الإسلام ضد أباطيل خصومه .

2- تقديم الصورة الحقيقية للإسلام .

والأمران وجهان لعملة واحدة، أو لحقيقة واحدة، مؤداها : أنه حين يبحث عن الإسلام في معناه الصحيح، فإنه في نفس الوقت يدافع ضمنيا عن الإسلام .

والحق .. أن أصول المنهج مستمدة من فكر الشيخ الإمام محمد عبده، فقد مضى العقاد في أثره، يؤمن بأن الإسلام دين عالمي صالح لكل الشعوب، إذ قرر للإنسانية مبادئ لا يمكن صلاحها بغيرها، مفوضا للعقل الإنساني أن يختار ما يلائمه مما يتمشى مع الأطوار الاجتماعية التي تتغير فتلعب النظرية دورا كبيرا . وقد عبر العقاد عن ذلك صراحة في تقديمه لكتاب : (الفلسفة القرآنية)، حيث يقول «موضوع هذا الكتاب هو إصلاح العقيدة الإسلامية»، ووفقا لهذا المنهج، نرى العقاد يقدم لنا معظم دراساته وأبحاثه .

وفكرة ثانية بثها الإمام محمد عبده في كتبه، وتأثر بها العقاد في كتاباته، وهي أن الإسلام يفرض على الناس التفكير، والاحتكام إلى العقل في إثبات عقائده وتعاليمه الأساسية، وأنه لا بأس من الانتفاع بالإسلام في العلم وجميع شئون الحياة . إننا نجد العقاد يتأثر بهذه الفكرة ويفرد لشرحها كتابا بأكمله هو «التفكير فريضة إسلامية» الذي يستهله مسجلا بأن من مزايا القرآن الكثيرة .. مزية واضحة هي : التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة، وأمر التبعة والتكليف، ويقول: « إنه لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه .. » . وقد خاطبه بكل صوره المدركة للتصورات الإنشائية الوازعة عن المحظورات والمنكرات والاستدلالات المستخرجة للأحكام الراشدة المستبصرة . وبذلك يعم الخطاب في

القرآن العقل بكل صوره وخصائصه ووظائفه ، ولا يذكره عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له في كتاب من كتب الأديان السماوية الأخرى .

ومعروف ، أن الإمام محمد عبده عني عناية خاصة بالرد على خصوم الإسلام ، وعلى ضوء هذه العناية كتب العقاد مؤلفيه : (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) و(ما يقال عن الإسلام) ، وقد حاول كثيرا أن يدلل على : أن الإسلام وضع للإنسانية صورة رائعة من الإصلاح الاجتماعي ، وهو دائم الحديث عن ذلك في بقية كتبه ، فالإسلام كفل للناس حريتهم السياسية بما شرح لهم من نظام ديمقراطي سليم ، سجله العقاد في كتابه : (الديمقراطية في الإسلام) ، كما عني في كتابه : (مطلع النور) ببيان أن الرسالة المحمدية مهدت لحدوث مقدمات هيأت لها ، بحيث غيرت من لوازم الإنسانية وحاجتها ودواعيها . وسوف نراه في كتابه : (الإسلام والقرن العشرون) يتحدث عن قوة الإسلام الغالبة الصامدة على مر التاريخ ، كما تحدث عن الدعوات التي انبعثت فيه منذ القرن التاسع عشر وأطوارها مع نهضات الإصلاح . وهو دائما إذا تحدث عن مستقبل الإسلام ملأته الثقة والأمل .

يضاف إلى ذلك : تأثير الإمام محمد عبده في العقاد . فضلا عن إمكانية العقاد نفسه على الإقناع والدفاع ، والرد بالحجة والدليل ، وهي أمور عرف بها العقاد .

على ضوء هذا المنهج ، أمكننا تمييز أبحاث العقاد ودراساته بين عشرات الكتب. وعلى ضوئها مع غيرها من الأنشطة الثقافية المتميزة .

* * *

أمين الخولي

عميد جماعة الأمناء بمصر والعالم العربي : الراحل «أمين الخولي» من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1374هـ ، كان إلى جانب منهجه في النقد والدراسات الأدبية ، وأستاذيته للغة العربية وأدائها بالجامعة. كان صاحب عدد من الكتب والدراسات الإسلامية التي تناولها بمنهج ، خلاصته : التجديد والتطور الذي هو في الوقت نفسه دعوة كانت تنسب إليه .

إن دعوة أمين الخولي للتجديد والتطور والإصلاح التى عرفناها فيما بعد كانت مبكرة ، لعلها نشأت معه وهو بين جدران مدرسة القضاء الشرعي ، في لحظات إصراره على دراسة تجمع بين أصالة الماضي وتطور الحاضر .

من المؤكد أن هذه النزعة التجديدية في التفكير الإسلامى التى ظهرت عند أمين الخولي ، في صورة مذاهب جديدة لتناول المادة الإسلامية لم تنشأ بعد تخرجه عام 1920م، ليكون ضمن هيئة التدريس بمدرسة القضاء الشرعى، أو في عام 1923م حين ركب البحر متوجها إلى أوروبا ليعمل هناك إماما للمفوضية المصرية [بروما] ، ثم للمفوضية المصرية [ببرلين] ، وفي عام 1927م عاد إلى وطنه بفكر جديد ليواصل تدريسه لطلاب القضاء الشرعى ، أو في العام التالي حيث ينقل إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) كمدرس ثم أستاذ مساعد ، ثم أستاذ ، ثم رئيس قسم اللغة العربية حتى عام 1953م ، حيث ينقل ليعمل مستشارا فنيا بدار الكتب عام 1953م ، ومديرا لإدارة الثقافة بوزارة التربية عام 1955م .

كما أن هذه النزعة التجديدية عند أمين الخولي لم تظهر مع هذه الإنجازات الضخمة التي تحققت له في حياته . فلم تظهر مثلا سنة 1943م حيث كون مدرسة

هي الأمناء : مدرسة الفن والحياة ، تلك التي تعمل لتحقيق أهداف فنية نظرية عملية . وتتلمذ عليها كثيرون من أساتذة اليوم والتي أصدرت عام 1956م مجلة «الأدب» لتحقيق هذه الأهداف ، كذلك لم تظهر هذه الروح بعد أن عين بمجمع اللغة العربية سنة 1961م .

بالقطع ، لم تظهر هذه الروح التى قوامها «التجديد - التطور - الإصلاح» في أي مرحلة من هذه المراحل التى هى بمثابة علامات في حياة أمين الخولي ، وإنما كان ظهورها مبكرا ، بين جدران مدرسة القضاء الشرعى ، لتستمر كمنهج حياة في أقوال وأعمال وكتابات أمين الخولي ، حتى آخر يوم في حياته ، الذي عاجلته المنية يوم رفض - كما تعبر عن ذلك قرينته الدكتورة بنت الشاطئ - قائلة : « وأبى أن يستجيب لضراعتى ، وأنا أشهده ساهرا في فراشه ليلة بعد ليلة ، يعد مواد العدد الجديد - من مجلة الأدب - ويدبر ورقه ونفقاته ، وينسق فهارسه ، ويصحح تجاربه..

وظهر العدد في موعده ، صباح اليوم السابع من شهر مارس ختاما لسنة الأدب العاشرة عام 1966م ..

وفي اليوم نفسه ، عاودته الأزمة ، ولاح على أفقنا ظل نذير جزع له من جزع من الأهل والأحباب ، وتشبثت بالرجاء في أن يجتازها من رصيد عزيمته ، والمدخر من طاقة حيويته ..

وغرني الأمل (الحديث للدكتورة بنت الشاطئ) وأنا أراه على عهدي به متوهج الحيوية ناضر الفتوة متألق الملامح ، إلى أن لمحته عصر الأربعاء المشئوم ، التاسع من مارس سنة 1966م ، يغمض عينيه بعد أن استوعب وجودنا كله بنظرة ثاقبة ، وبدأ المشهد الفاجع لرحلة الإياب .. » .

هذه الروح التجديدية ، والتي أصبحت بالنسبة لصاحبها أمين الخولي رسالة استمر يضطلع بها منذ كان بمدرسة القضاء الشرعي ، حتى فارق الحياة كما رأينا ،

هي نفسها التي (همس بها) رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور «إبراهيم مدكور» لتلاميذ أمين الخولي المعروفين بالأمناء مناشدا إياهم أن يواصلوا رسالة أستاذهم حيث قال : « إن أستاذكم كان صاحب رسالة ولا شك في أنه لقنكم إياها ، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح ، كان ينشد تجديدا شاملا في المظهر والمخبر . وأذكر أن مشكلة توحيد الزي شغلتنا معا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة ، كان يؤمن بالإصلاح إيمانا جازما ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها فينصب على العادات والتقاليد ، ويشمل الأنظمة والقوانين ، والفكر واللغة فنادى بإصلاح الأسرة ، وكتب في إصلاح الأزهر ، ورسم سبلا في إصلاح النحو وتطوير اللغة ، وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الأعمى ، ويرى أن الدين متين ، وأن الشريعة سمحة وقد قبلا ، ويقبلان كل تجديد وإصلاح ، لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة ، التي ظهرت في آخر مؤلفاته : (المجددون في الإسلام) . أما مجرد محاكاة الغرب ، والافتنان ببدعه ومستحدثاته ، فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التي تؤدي إلى الفناء . كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، ويربط حاضرنا بماضينا ، ويبقي على معالم الحضارة الإسلامية التي تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية .. » .

لكن .. كيف كان يهدف أمين الخولي إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، إصلاح يربط حاضرنا بماضينا ، إصلاح يبقي على معالم حضارتنا الإسلامية التي تعتمد على أصول تختلف عن الحضارة الغربية ؟ كيف صنع هذا في حياته ، وأصبح استمراره وتطويره أمانة في أعناق الأمناء بعد مماته ، هذا بعينه السؤال عن منهج التجديد والإصلاح في تفكيره الإسلامي .

وقبل أن نسجل لملامح وخطوات منهج أمين الخولي في التفكير ، لنا أن نذكر ملاحظة مؤداها أنه بسبب هذا المنهج استهدف صاحبه للعديد من الهجمات ، سواء كانت من أبناء جيله أو حتى من هم في مثل تلاميذه .

ومن هنا ، وجب على الشيخ أمين الخولي ، وقد خرج علينا بمنهج جديد في التفكير الإسلامي ، أن يدرك كل هذه الجوانب . ولعل هذا الإدراك من الشيخ أمين الخولي ، جعل نقاده يقفون طويلا عند توصيفه .. هل هو من المجددين حقا أم أنه من غلاة المحافظين ؟ ولعل الحيرة التي تكمن في هذا السؤال يجسدها الدكتور «شكري محمد عياد» في تقديمه لكتاب : (مناهج تجديد) للشيخ أمين الخولي . وقد شاء مؤلف الكتاب أن يجعل أحد تلاميذه يكتب مقدمة واحد من كتبه ، فاختار الدكتور «شكري محمد عياد» . ولذلك فهذه المقدمة التي كتبت في حياة أمين الخولي وبرغبته وتحت نظره وثيقة مهمة لا تقل عما في الكتاب من مضمون ، فيقول : «وكان أشد ما يحيرنا أول ما بدأنا نختلف إلى دروس الأستاذ ، هو ذلك السؤال الذي كنا نردده بيننا وبين أنفسنا : من أي الفريقين هو ؟ أمحافظ أم مجدد ؟ ذلك أنه كان يبدو لنا أحيانا محافظا صلبا في محافظته ، وأحيانا أخرى مجددا متطرفا في تجديده ، كان يعلمنا (وإن أول التجديد قتل القديم فهما) ، فنفهم من ذلك أنه يعتز بالتراث القديم، ويتهم المجددين بالمسارعة إلى نبذه على غير بصيرة ، ثم كنا نسمعه يتحدث عن مطالب الحياة المتجددة ، وارتباط اللغة بالحياة ، ومكان الفن القولي من الحياة ومن اللغة ، ويرتب النتائج على المقدمات حتى يصل إلى آراء نحسبه لأجلها من غلاة المجددين ، بل من الثائرين ، ثم لم نزل حتى فهمنا أن التجديد والمحافظة يلتقيان في مزاج الأستاذ وتفكيره ويتلازمان . كما يلتقي الواقع والمثال ويتلازمان » .

وبهذا الفهم ، قضى الدكتور شكري محمد عياد .. على جانب كبير من الحيرة ؛ حيث جعل تلازم التجديد والمحافظة عند أمين الخولي تلازم تكامل وانسجام ؟ فاحترامه للعقل البشري هو الذي يدعوه إلى احترام آثار هذا العقل التي خلفها على

مدى العصور ، واحترامه للعقل البشري أيضا هو الذي يدعوه إلى مطالبة هذا العقل أن يقوم بمسئولياته في إنارة السبيل أمام كل جيل .

ولكن معاني التجديد والمحافظة لا يمكن أن ينسجما أو يتلازما أو يتكاملا إلا في نطاق منهج دقيق ، يحدد لكل من الطرفين دوره في الحياة . ولهذا ، فقد كان أمين الخولي منهجيا في كل ما كتب ، أو كما يقول الدكتور شكري محمد عياد : أن حياته العلمية – توشك أن تكون كلها سلسلة منهجية مترابطة الحلقات » .

ومن هنا ، نجد أن اشتغال أمين الخولي بتفسير القرآن كان اشتغالا منهجيا مرتبطا ارتباطا منهجيا باشتغاله بالبلاغة ، والارتباط قديم يعرفه كل من له إلمام بتاريخ الثقافة العربية . فأهم كتب البلاغة العربية كانت مرتبطة ببيان إعجاز القرآن، والزمخشري المعتزلي صاحب الكشاف كان تفسيره كإمام من أئمة البلاغة . ذلك أن البلاغة إذا كانت تتبعا لخواص الأساليب الجيدة أو كشفا عن أصول الحكم بالجودة لكلام ما ، فلا مفر لها من أن تستقرئ أحكامها من القرآن الكريم . ولعل هذه الصلة الوثيقة – كما يقول الدكتور شكري محمد عياد – هي التي هدت أمين الخولي إلى النظر في مناهج المفسرين فرآها في معظم الأمر انحرافا عما ينبغي القصد إليه من إظهار بلاغة القرآن . ولذلك ، أوجب العناية بالتفسير الأدبي للقرآن على أنه المقصد الأول والأساس ، يتبعه مقاصد وأهداف .

ونستطيع أن نتبين خطوات المنهج الأدبي في تفسير القرآن الكريم للشيخ أمين الخولي في الجزء الخاص بذلك من كتابه : (مناهج تجديد) والذي نراه يستهله بالقول: « إذا ما كان وجه الرأي هو : «أن التفسير الأدبي لكتاب العربية هو أول ما يجب أن يحاوله من لهم بالعربية صلة لغوية أدبية سواء أكانوا عربا أم غير عرب .

وإذا ما كان وجه الرأي أن هذا التفسير الأدبي ينبغي أن يتناول القرآن موضوعا موضوعا ، لا قطعة قطعة .. فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبي إذا ..

صنفين من الدراسة ، كما هي الخطة المثلى في درس النص الأدبي . وهذان الصنفان هما :

(أ) دراسة ما حول القرآن .

(ب) دراسة في القرآن نفسه .

ولتفصيل ذلك يرى أمين الخولي :

دراسة ما حول القرآن ، والتي تنقسم إلى قسمين : دراسة خاصة قريبة إلى القرآن. وهي ما لابد من معرفته مما حول القرآن ، ذلك الكتاب الذي ظهر في زهاء عشرين عاما ، ثم ظل مفرقا سنين حتى جمع في أدوار مختلفة أو أحوال مختلفة . وكان جمعه وكتابته عملاساير الزمن طويلا ، وناله من ذلك ما ناله . ثم هناك قراءته ومسايرة هذه القراءة للتطور اللغوي الذي تعرضت له اللغة العربية ، بفعل النهضة الجادة التي أثارتها الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية فقد كانت هذه القراءات عملا ذا أثر واضح في حياة هذا الكتاب الجليل وفهمه .

فتلك الأبحاث ، من نزول ، وجمع ، وقراءة ، وما إليها هي التي عرفت اصطلاحيا منذ حوالي القرن السادس الهجري باسم : علوم القرآن . بعد ما تناولها المفسرون المختلفون قبل ذلك بالبحث المجمل والبيان المتفاوت في الاستيفاء ، حسب عناية المفسر واهتمامه . ومثل تلك الأبحاث جد لازمة في نظر دارسى الآثار الأدبية ، ولابد منها لفهم النصوص المدروسة ، والاتصال بها إيصالا مجديا . وكان أكثر المفسرين يلمون في مقدمة تفاسيرهم بشيء من القول في النزول والجمع والقراءات .

وأما دراسة ما حول القرآن دراسة عامة .. فيراها أمين الخولي في كل ما يتصل بالبيئة المادية والمعنوية التي ظهر فيها القرآن ، وعاش فيها ، وجمع فيها ، وكتب فيها وقرأ وحفظ وخاطب أهلها ، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بها ، وإبلاغها شعوب

الدنيا فروح القرآن عربية ، ومزاجه عربي ، وأسلوبه عربي ، قرآنا عربيا غير ذي عوج. والنفاذ إلى مقاصده إنما يقوم على التمثيل الكامل ، والاستشفاف التام لهذه الروح العربية ، وذلك المزاج العربي والذوق العربي . ومن هنا لزمت المعرفة الكاملة لهذه البيئة العربية المادية : أرضها وجبالها ، وحرارتها وصحاريها ، وفيضانها ، وسماؤها بسحبها ونجومها وأنواؤها ، وجوها بحره وبرده وعواصفه ، وأنسامها وطبيعتها بجدبها وخصبها ونخلها ، ونباتها وشجرها .. إلخ .

ويؤكد أمين الخولي أن كل ما يتصل بتلك الحياة المادية العربية ، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين . وكذلك كل ما يتصل بالبيئة المعنوية ، بكل ما تتسع هذه الكلمة من ماض سحيق وتاريخ معروف ونظام أسرة أو قبيلة أو حكومة في أي درجة كانت ، أو عقيدة بأي لون تلونت ، وفنون مهما تتنوع ، وأعمال مهما تختلف وتتشعب . فكل ما تقوم به الحياة الإنسانية لهذه العروبة ، وسائل ضرورية لفهم هذا القرآن العربي المبين .

الخطوة الثانية أو الصنف الثاني من خطوات المنهج الأدبي في تفسير القرآن للأستاذ أمين الخولي، وهي دراسة القرآن نفسه . وتبدأ بالنظر في المفردات ، والمتأدب يجب أن يقدر ذلك : تدرج دلالة الألفاظ ، وأثرها في هذا التدرج يتفاوت ما بين الأجيال ، وبفعل الظواهر النفسية والاجتماعية ، وعوامل حضارة الأمة ، وما إلى ذلك مما تعرضت له ألفاظ العربية ، في تلك الحركة الجياشة المتوثبة التي نمت بها الدولة الإسلامية ، والنهضة الدينية والسياسية والثقافية التي خلفت هذا الميراث الكبير من الحضارة .

ويشير أمين الخولي إلى حقيقة عامة : هي أنه وقد تداولت اللغة العربية في تلك النهضات أفواه لأمم مختلفة الألوان والدماء ، والماضي والحاضر ، فتهيأت من كل ذلك خطوات تدريجية فسيحة متباعدة في حياة ألفاظ اللغة العربية ، حتى أصبح من الخطأ المبين أن يعمد متأدب إلى فهم ألفاظ هذا النص القرآني الأدبي الجليل ، فهما

لا يقوم على التقدير التام لهذا التدرج والتغير، الذي مس حياة الألفاظ ودلالتها، وعلى التنبيه إلى أنه يريد ليفهم هذه الألفاظ في الوقت الذي ظهرت فيه، وتليت أول ما تليت، على تاليها الأول (عليه الصلاة والسلام). وهذا هو أحد الاعتبارات الجوهرية التي تقف في وجه التفسير العلمي للقرآن.

بعد ذلك يشير أمين الخولي في منهجه الأدبي لتفسير القرآن إلى مراعاة التفسير وعلم النفس، والتفسير وعلم الاجتماع.

ويختم أمين الخولي منهجه الأدبي في تفسير القرآن بالقول: لقد وصفت الذي وصفت من منهج التفسير الأدبي، ومطالبه الجليلة، وأنا ذاكر ما لا أنساه أبدا، كلما شرحت المنهج الدقيق لدراسة أدبية أو غيرها. فأقول للمستكثرين: مهما تكن لهذه المطالب من أثر يثقل خطانا، ويؤخر ثمار دراستنا، ويشعرنا بالنقص، ويعود علينا باللائمة .. فإن هذه هي الحقيقة، ولن نكذب على أنفسنا وعلى الأجيال، فنزعم الكفاية الكاملة، والقدرة، ولئن لم يكن لنا من الكمال إلا الشعور بالنقص، فذلك أجمل بنا من التزيد الزائف.

وليس الذي نبغيه من هذا المنهج مستحيلا ولا بعيد التحقيق، فقد شعر أسلافنا بجملته، وقاموا ببعضه للقرآن، ثم قام المحدثون به كله لكتبهم الأدبية والدينية، ولن نكون نحن بين هؤلاء وأولئك الضائعين.

وننتقل بعد عرض خطوات التفسير الأدبي للقرآن الكريم .. للأستاذ أمين الخولي إلى منهجه في تناول المادة الإسلامية. وعلى وجه الخصوص منهجه في الكتابة عن الشخصيات الإسلامية في الإسلام، وفيه نقرأ ملامح هذا المنهج، حيث يقدم مخطوطة من مخطوطات المفكرين المسلمين، ويكملها من كتاب أحد المفكرين بعد ذلك، ويدون قول القدماء بعبارتهم في فكرة تجديد الدين. ثم يكمل هذه الصورة التاريخية بترجمة من اعتبروهم من المجددين .. ترجمة تقصد إلى بيان أعمالهم وأفكارهم في التجديد.

ويقصد من وراء ذلك سببين .

أولهما : أن يدع أصحاب هذا التراث المؤمن بالتجديد يتحدثون عن أنفسهم عن التجديد الديني ، يصنفونه ويسلسلون روايته .

فإذا حدث أصحاب القديم عن التجديد حديثهم الذي نرى نصوصه ، وبدأ حديثهم هذا مبكرا منذ حوالي القرن الثالث الهجري - مثلا - لم يبق بعد ذلك مقال لقائل ، ولا اعتراض لمعترض . ولم تعد فكرة التجديد بدعا من الأمر يختلف الناس حوله ، فتخسر الحياة ضحايا من الأشخاص والأوقات ، مما ينبغي أن تدخره هذه الحياة لتفيد منه في ميادين نشاطها .

ثانيهما : الذي يشير إليه أمين الخولي ، فإنه بإحياء نص من التراث وفاء له وبرا به، وعرضا للون من تفكير أصابهم ، وتناولهم للقضايا الحيوية ، وتعبيرهم عنها.

وينبه أمين الخولي إلى أن هناك فرقا في التناول المنهجي بالنسبة للترجمات العادية للشخصيات الإسلامية ، وشخصيات هؤلاء المجددين .

فالترجمات العادية ترسم شخصيات المترجم لها رسما عاما تخطيطيا ؛ لأن هذا الصنف من الترجمة تستقل به الفصول الطوال أو الكتب المفردة ، يجمع فيها كل ما يتصل بحياة المترجم ، وينقد ويحلل ، ويستنتج منه إلى آخر هذه الخطوات للمنهج الدقيق ، والذي يلحظه القارئ لأعمال أمين الخولي في كتاب : (مالك بن أنس) : ترجمة محررة .

أما ترجمة هؤلاء المجددين ، فيمكن وصفها بأنها ترجمة تجديدية تتبع الأعمال التجديدية للشخصية موضوع الدراسة ، فإذا كان المجدد حاكما كعمر بن عبد العزيز (مثلا) .. كانت العناية في ترجمته بالأعمال التي فهم بها الإسلام وفسره ، وهي اليوم مما يصحح فهمنا للدين ، ويسدد خطانا في العمل . وإذا كان المجدد عالما كالشافعي أو الغزالي أو البقلاني (مثلا) ، كانت العناية في ترجمته بالأفكار والآراء التي أبداها في

الإسلام وتفسيره ، وهي اليوم مما يصحح فهمنا للدين ويسدد خطانا في التطور الحيوي . ويقرر أمين الخولي في توصيفه لمعنى المجدد في أن تصرفات المجددين وتفكيرهم ما لم تصل إليه الحياة اليوم ، أو قل ما لم تجرؤ عليه ؛ لأن المقلدين قد ألقوا بجمودهم في الفهم والتصرف جنبا أو ظلاما أخفى حقيقته وحجبه عن الأنظار فلم يعرف ، لكنه في عمل الحاكم المجدد ، وفي فكر العالم المجدد لا يمكن أن يلقاه أحد بشيء من هذا الاستغراب أو ما يشبهه .

ومن هنا .. يبدو التباين واضحا تمام الوضوح بين التجديد والتطور في التفكير الإسلامي الذي يطلبه أمين الخولي وهو مرتبط بأصالتنا وثقافتنا الإسلامية ، والتجديد الديني الذي يطلبه والمرتبط بثقافته وحضارتنا .

وهكذا .. يستقر الأمر - كما يقول أمين الخولي - في فهم التجديد وما فيه من تطور في التفكير الإسلامي بأقوال القدماء أنفسهم ، وبتقرير العصريين بضرورة هذا التطور ، وتحقيقه في كل شيء ، وبذلك يمكن القول باطمئنان : « أن التجديد الذي يقرر القدماء اطراده في حياة الدين ، ووقوعه في كل نقلة من انتقالات الحياة التي تمتلئ بالقرون ، إنما هو التطور مآلا » .

❊ ❊ ❊

علي عبد الرازق

مجددنا في هذا القرن الرابع عشر هو الشيخ علي عبد الرازق فقد ولد عام 1306هـ وتوفي عام 1386هـ .. سليل أسرة معروفة بالصعيد ، كانت ذات جاه وسلطان ، فأبوه عبد الرازق باشا نائب رئيس حزب الأمة عام 1907 وشقيقه «حسن باشا عبد الرازق» الصغير : أحد مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين ، وشقيقه الثاني «محمود باشا عبد الرازق» أحد الموجهين لسياسة حزب الأحرار الدستوريين ، وشقيقه الكبير الشيخ الإمام «مصطفى باشا عبد الرازق» شيخ الأزهر الذي كان موضع تقدير الكثيرين لعلمه وفضله .

ولقد حصل علي عبد الرازق على الشهادة العالمية عام 1911 ، وسافر في العام التالي إلى إنجلترا ليدرس السياسة والاقتصاد وعاد عام 1914 بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى . فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية وتدرج في الوظائف حتى عين وزيرا للأوقاف ، وأنعم عليه بلقب الباشوية ، واختير عضوا بالمجمع اللغوي . وكان كتابه: (الإسلام وأصول الحكم) الذي عكف على تأليفه - كما يقول في مقدمته - بضع سنين ، بدأت منذ عام أهم حدث في حياته . فلم يكد يظهر حتى لقي معارضة صحفية ، تحولت إلى معركة حزبية ، تلتها إجراءات قضائية ، ثم أزمات وتطورات سياسية ؛ لما فيه من أفكار جريئة حول الخلافة الإسلامية .

ويرجع الاهتمام بهذا الكتاب فور صدوره - كما يذكر الدكتور « محمد ضياء الدين الريس» في كتابه المميز : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) إلى المناخ العام الذي سبق نشره بعام ، حيث تناول هذا الكتاب قضية شغلت الرأي العام والأمة الإسلامية وهي قضية الخلافة بعد أن ألغاها «أتاتورك» رئيس دولة تركيا عام

1924. مستفزا أي : أتاتورك بذلك الإجراء مشاعر أبناء العالم الإسلامي حيث كانت الخلافة جزءا من تراثهم وتاريخهم ، وكان لها وقع أليم بالنسبة لمصر ، خاصة التي تعتبر في مكان الزعامة للعالم الإسلامي . وهنا فكرت بعض الأوساط الدينية والأخرى السياسية في إعادة الخلافة من جديد ، وأن يكون مكانها مصر ، والخليفة هو «الملك فؤاد» ، خاصة بعد إعلان الملك «حسين بن علي» ملك الحجاز نفسه خليفة على المسلمين دون تشاور . وانتهى الأمر إلى ضرورة عقد مؤتمر إسلامي بالقاهرة يحضره ممثلون عن الدول الإسلامية لبحث مسألة الخلافة والوصول إلى قرار بشأنها .

أثناء هذا الوقت صدر الكتاب ، فكان من الطبيعى أن يلقى رد فعل عنيف ، خاصة وأن الكتاب تضمن من الأفكار ما فسرها البعض بأنها غريبة وجريئة ؛ حيث لم يقل مثلا أن الخلافة ليست ركنا أو واجبا في الإسلام ، أو يقول إنه لا ضرورة لها في هذا الزمان ، أو إن لها شروطا يجب أن تتوافر ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث حاول أن يثبت أن الخلافة الإسلامية التى قامت في التاريخ كانت ملكا دنيويا ، وأنها كانت شرا ونكبة على المسلمين ، ونحو ذلك من الأفكار الجريئة .

ولكون صاحب هذه الأفكار كان عالما من علماء الأزهر ، وقاضيا شرعيا ، ومن أسرة لها نفوذها السياسى ؛ حيث كانت دعامة من دعامات حزب الأحرار الدستوريين المتحالف مع الملك فؤاد ، والمشترك مع الوزارة القائمة ، إلى جانب أن هذه الآراء تعارض الجهود التى تبذل لترشيح الملك فؤاد نفسه لمقام الخلافة ، كما يتردد فهى ليست نقدا للخلافة التاريخية ، بل هدم للمشروع السياسى كله من أساسه.. كل هذه العوامل مجتمعة أزمت الموقف وأدت إلى اتساع المعركة . حيث تحولت المسألة من خلاف في الرأي إلى أزمة سياسية وتطورات دستورية .

وهكذا أصبحت فكرة (الإسلام وأصول الحكم) التي تضمنها كتاب علي عبد الرازق قضية تطرح للمناقشة بين آونة وأخرى ، ولها أطراف كثيرون ، وكل

طرف له موقفه . فالمؤلف ومن خلفه حزب الأحرار الدستوريين لهم موقف ، والعلماء بالأزهر الشريف لهم موقف ، وللملك فؤاد ومعاونوه من السياسيين لهم موقف ، والإنجليز وعملاؤهم لهم موقف ، والمفكرون الأحرار المحايدون لهم موقف، مما جعل الحديث عن أفكار هذا الكتاب لا يقتصر على العام الذي صدر فيه، وإنما يتجدد حتى أيامنا هذه !

ومهما يكن الأمر ، فإن الكتاب حمل الكثير من وجهات النظر الجديدة حول نظرية الحكم في الإسلام ، تلك التي نالت النصيب الأكبر من الاهتمام ، وربما لم تستغل كأفكار جديدة من حقها أن تناقش بطريقة هادئة . لا أن تفهم على أنها مخالفة للنظام الحاكم وقتئذ للمشروع السياسى الذي كان ينوي إقراره الملك فؤاد ومؤداه : أن يكون خليفة للمسلمين ، وربما يكون هذا المشروع هو الذي استفز المشاعر الإسلامية التي ترفض هذا المشروع شكلا ومضمونا ؛ إذ كيف يقبل المصريون أن يكون الملك فؤاد خليفة رغم ما يتضمنه تاريخه من صفحات لا تتسق مع هذه المكانة الإسلامية الخالدة .

طبيعي أن يكون هناك اعتراض من أصحاب الفكر المستقل الحر على هذه الفكرة ؛ ولذلك كانت المناقشات والمعارك التي دارت حول هذا الكتاب والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم .

ولمزيد من التعرف على هذا الكتاب الذي أثار ضجة كبرى نقرأ بعض ما يتناوله هذا الكتاب .

نقول : إذا أردت أن تعرف قيمة هذا الكتاب ، وما أحدثه من ضجة ، وما أثاره من مناقشات لا تزال مستمرة حتى الآن ، فلنقرأ معا ما كتبه الأستاذ « أحمد بهاء الدين» عام 1954 وهو ما أعاد نشره في فصل من فصول كتابه : (أيام لها تاريخ) وذلك حيث وصف الكتاب في جملة موجزة ولكنها دالة قائلا : « ... كتاب صغير لا تزيد صفحاته على المائة إلا قليلا ، اسمه : (الإسلام وأصول الحكم) .. فيكون له

دوي القنبلة ، ويكون من شأنه أن يسقط وزارة ويفض ائتلافا ، ويحول في السياسة المصرية تيارا خطيرا » هذا بالفعل ما أحدثه كتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ علي عبد الرازق .

وقصة تأليف هذا الكتاب مرتبطة بالظروف الاجتماعية والفكرية التي كانت تجتازها مصر ، وما يحيط بها من ظروف عالمية . ففي خارج مصر كان هناك حدث شغل العالم الإسلامي بأسره وهو : إعلان أتاتورك إلغاء الخلافة الإسلامية بتركيا عام 1924 . وبالطبع .. كان لهذا الحدث رد فعل في العالم الإسلامي ؛ حيث بدأ التفكير في إعادة هذه الخلافة في عدد من دول العالم الإسلامي . وفي مصر دعا بعض العلماء إلى عقد مؤتمر لبحث مسألة الخلافة . وبلغ اهتمام علماء الدين في مصر بهذا المؤتمر أنه صدرت في نوفمبر 1924 مجلة عنوانها : (المؤتمر الإسلامي العام للخلافة بمصر) خصصت كل صفحاتها للحديث عن الخلافة الإسلامية بمصر .

وفيما كانت هذه الأحداث تشغل الرأي العام الإسلامي ، وتجد صداها في الصحف الأجنبية ، كانت هناك تيارات خفية تجري خلف واجهات الأحزاب السياسية بمصر . فمنها : ما يعارض مشروع الخلافة ويهاجمه ، ومنها : ما يجد أن الوقت مناسب لتنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين .

وأخذ تيار معارضة مشروع الخلافة صورته العلمية حين قام الشيخ علي عبد الرازق قاضي محكمة المنصورة الشرعية بإصدار كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) في منتصف عام 1925 الذي يحوي أفكارا في مقدمتها : أن رسالة النبي – ﷺ – كانت روحية أو بتعبير المؤلف : « ما كان محمد – ﷺ – إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا دعوة لدولة وأن الإسلام وحدة دينية . والنبي – ﷺ – دعا إلى تلك الوحدة وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وفي سبيل هذه الوحدة الإسلامية ناضل عليه الصلاة والسلام بلسانه وسنانه ، وجاء نصر الله

والفتح » . ويقول المؤلف : « وإذا كان الرسول الكريم لم يكن إلا رسولا صاحب رسالة أو دعوة دينية فحسب ، فإنه يجب ألا يفوتنا أن الدعوة لذاتها تستلزم للرسول نوعا من الزعامة في قومه والسلطان عليهم . ولكن ذلك ليس في شيء من زعامة الملوك وسلطانهم على رعيتهم ، فلا نخلط بين زعامة الرسالة وزعامة الملك » . ويقول أيضا : « وقد رأيت – أي علي عبد الرازق – أن زعامة موسى وعيسى عليهما السلام في أتباعهما لم تكن زعامة ملوكية ولا كانت كذلك زعامة أكثر المرسلين » ثم يحدثنا في بداية كتابه عن الخلافة معناها وطبيعتها وكيف أن القرآن لم يذكرها وكذلك السنة ، ويشير إلى أن : «التاريخ يبين لنا أن الخلافة كانت نكبة على الإسلام وعلى المسلمين وينبوع شر وفساد» وغيرها من الأفكار التي أدت إلى قيام معركة كبيرة تدخلت عوامل حزبية لإشعال نيرانها ، خاصة بعد حكم هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ «علي عبد الرازق» من زمرتها ، وبنت حكمها الذي أصدرته في أغسطس 1925 على عدد من الحيثيات رد عليها الشيخ علي عبد الرازق . من جملة ردوده قوله : « إن فكرة الكتاب الأساسية التي حكم علي من أجلها هي : أن الإسلام لم يقرر نظاما معينا للحكومة ، ولم يفرض على المسلمين نظاما خاصا يجب أن يحكموه بمقتضاه ، بل ترك لنا مطلق الحرية في أن ننظم الدولة طبقا للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي نوجد فيها ، مع مراعاة تطورنا الاجتماعي ومراعاة مقتضيات الزمن » .

وهكذا : قامت معركة حول الكتاب وصاحبه ، فهناك (صحيفة السياسة) وكتابها ومن خلفهم حزب الأحرار الدستوريين كطرف ، وهناك (صحيفة الاتحاد) وكتابها وبعض علماء الأزهر كمعارضين ، وهناك من اتخذ الموقف المعتدل كصحيفة (البلاغ) وكاتبها الأول «العقاد» الذي ندد بروح الاستبداد في الآراء ، وبأنه قد مضى الزمن الذي تتصدر فيه جماعة من الناس بأي صفة لإكراه الأفكار على النزول عند رأيها . بل وتجاوزت المعركة الحدود ؛ حيث طارت أنباؤها إلى خارج مصر في

صحيفة (البورص إجيبسيان) ، وكذلك الصحف البريطانية التي أخذت جانب الكتاب .

وهدأت المعركة بعد حكم هيئة كبار العلماء ، وإقالة وزير الحقانية «عبد العزيز باشا فهمي» رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، والذي كان مشتركا مع حزب آخر في وزارة ائتلافية ، ولم تثر إلا بعد أن أعلن علي عبد الرازق بأنه رغم كل ما حدث هو باق على موقفه ونظرته إلى الدين . الأمر الذي جعل الأمير «شكيب أرسلان» يرد عليه قائلا : «ضاق الصدر بكتابك ، وأنت من واحدة إلى أخرى تتحكم بهواك تارة في التاريخ ، وطورا في التوحيد ، وتوهم الناس أنك فهمت ما لا يفهم أحد » .

نقول : انتهت المعركة حول الكتاب ، ولكنها لا تزال مستمرة إلى يومنا هذا ، فهناك من يراها معركة سياسية وفي مقدمتهم الأستاذ «أحمد بهاء الدين» في كتابه : (أيام لها تاريخ) والدكتور « محمد عمارة » في دراسته وبحثه لكتاب الإسلام وأصول الحكم ، ومنهم من يراها غير ذلك وفي مقدمتهم الدكتور «محمد ضياء الدين الريس» في كتابه : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) والدكتور «محمد البهي» في كتابه : (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي) . ولذلك .. علينا أن نسجل وجهة النظر المخالفة تماما لما جاء في كتاب (الإسلام وأصول الحكم) والذين كتبوا عنه وفي مقدمتهم الأستاذ « أحمد بهاء الدين » والأستاذ «فتحي رضوان» وآخرون ، عبر عنها كتاب آخر هو : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) للدكتور « محمد ضياء الدين الريس » أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة ، ومدون على الغلاف أنه نقد لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق ولكن بعد القراءة الأولى دعنا نقل أنه نسف لهذا الكتاب !

وواضح أيضا أن كتاب الدكتور الريس قد طبع في لبنان ، ونشر في السعودية ولم ينتشر إلا بعد فترة في مصر . وأن الفكرة العامة ، التي يمكن أن نلمحها من النظرة الأولى للكتاب تؤكد : أنه يشتمل على قسمين : قسم يناقش التفسيرات

المعاصرة لكتاب : (الإسلام وأصول الحكم) ، وقسم يهتم بمناقشة الكتاب نفسه ويفند ما جاء فيه من آراء وأفكار .

وأهمية ظهور كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) - كما قلنا - مستمدة ، من أنه يناقش قضايا تتعلق بكتاب «الإسلام وأصول الحكم» وهو الكتاب الذي خرج به على الناس - منذ أكثر من ثمانين عاما - الشيخ على عبد الرازق .. ونال ظهوره شهرة كبيرة . ويكفى أن يقال عنه بعد ذلك ، أنه أسقط وزارة ، وفض ائتلافا ، وحول في السياسة المصرية تيارا خطيرا .

ومنذ أصدر الشيخ على عبد الرازق كتابه عام 1925 حتى الآن .. والمناقشات دائرة حوله .. الكل يشيدون به ، ويقولون إنه يحتوي على فكر جديد يمثل الحد الفاصل بين ماض مغرق في ظلام الجهالة والجمود ، وحاضر مشرق يتسم بنور الحرية واليقين .

لكن .. وهنا المفاجأة - يجيء الدكتور «الريس» في كتابه الجديد ، ويبحث عما تضمنه كتاب الشيخ عبد الرازق .. بالأدلة المنطقية والتاريخية ، ويعلن - بعد ذلك - أن كتاب «الإسلام وأصول الحكم» ليس إلا مجموعة من الأخطاء ، وأنه ليس كتابا علميا بالمعنى الحقيقى ، إنه أشبه بمقالة مكونة من ادعاءات ، أو هو موضوع إنشاء .. وأن الفكرة الأساسية فيه عن علاقة الإسلام بالمجتمع ، أو عن حقيقة الدولة والحكومة في الإسلام .. فكرة خاطئة تدل على عدم فهم لحقيقة الإسلام وعدم معرفة تاريخه .

غير أن الدكتور الريس .. قبل أن يناقش الموضوع رأى من الضروري أن يشرح الظروف التى صدر فيها هذا الكتاب ؛ ليبين - وذلك لأول مرة - حقيقة الأسباب التي دعت إلى تأليفه ، والأهداف التي قصد إليها المؤلف من نشر كتابه هذا .

ونندهش بعد قراءتنا لكتاب الدكتور الريس ؛ إذ يتضح أن كثيرا مما نشر حول كتاب الشيخ علي عبد الرازق ما هو إلا دعاوى لا أساس لها ، أشبه بالأساطير

والخرافات ، ومع ذلك فقد وجدت هذه الخرافات رواجا على أوسع نطاق ، وكان هذا جناية على من قرأوا هذه الأساطير وأخذوها على أنها حقائق مسلمة .

فمن تلك الدعاوى أو الخرافات كما وصفها الدكتور الريس .. ما نشره البعض من أن سبب إصدار الكتاب هو أن الشيخ علي عبد الرازق أراد أن يقاوم المشروع الذي أراد الإنجليز أن ينفذوه في مصر ، وهو إقامة الخلافة الإسلامية ، وأنهم كانوا يريدون أن ينصبوا الملك فؤاد خليفة ليكون أداة لهم أو عميلا ، ويذكر الدكتور الريس أن المسئول عن نشر هذه الفكرة هو الأستاذ «أحمد بهاء الدين» فقد ذكرها بالتفصيل في كتابه : (أيام لها تاريخ) مقررا أن الإنجليز بعد أن أعلن «كمال أتاتورك» منصب الخلافة من تركيا دبروا مؤامرة لإقامة الخلافة في مصر على يد أحد عملائهم، وهو الملك فؤاد .. ولكن الشيخ علي عبد الرازق .. هو الذي تقدم فتحدى الإنجليز وأحبط المشروع !

ويعكف الدكتور الريس على كل المراجع التاريخية الموجودة من كتب ومذكرات لـ « لرافعي وأحمد شفيق باشا والدكتور محمد حسين هيكل باشا وعبد العزيز فهمي باشا» ، وحتى اللورد «لويد» الذي كان مندوبا ساميا في مصر ، فلا يجد في كل هذه الكتب والمذكرات أية إشارة على صدق هذه الدعوى ، التي ذكرها وكررها الأستاذ بهاء الدين ثم تبعه المقلدون فأخذوا يكررون ويرددون هذه الدعوى في مجلاتهم وكتبهم ويذيعونها على الناس ، وبذلك أمكن أن يدسوا - عن غير قصد - في تاريخ مصر الحديث دعوى وهمية لا أساس لها على الإطلاق .

الدكتور الريس يهدم هذه الدعوى ويجرد منها التاريخ ، بل إنه يثبت العكس تماما .. وهو أن هذه الآراء التي أوردها ودافع عنها الشيخ علي عبد الرازق ، وهي الآراء التي هاجم فيها الخلافة والخليفة العثماني .. كانت تتفق مع سياسة الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى ، وذلك أن الحرب كانت ناشبة بين تركيا وبريطانيا ،

وأعلن الخليفة العثماني الجهاد الديني ضد الإنجليز .. فكان من مصلحة الإنجليز إذ ذاك مهاجمة الخليفة العثماني ، وهدم الخلافة والادعاء بأن الإسلام ليس فيه خلافة ولا جهاد ولا قتال ؛ ليفصلوا بين مصر ودولة الخلافة في تركيا ، ويأمنوا من قيام ثورة عليهم من الشعب المصري الذي كان يدين للخليفة العثماني بالولاء ، ويميل إلى مناصرة إخوانه المسلمين في تركيا والعالم الإسلامي كافة .

وقد أثبت الدكتور الريس حقيقة مهمة لم يتنبه إليها أحد من قبل ، وهي : أن كتاب الشيخ علي عبد الرازق ألف أثناء الحرب العالمية الأولى في الفترة ما بين 1915- 1917 كما نص على ذلك الشيخ علي عبد الرازق نفسه في المقدمة وليس في عام 1925 كما يظن أكثر الناس وكما هو مشهور . فقد أثبت من نصوص الكتاب أن الشيخ علي عبد الرازق يذكر السلطان «محمد الخامس» .. الخليفة العثماني بالاسم ويهاجمه ، وكانت نهاية عهد هذا السلطان في عام 1918 .

إذا .. فلم يكن المقصود من هذا الكتاب والأمر كذلك هو : مهاجمة الملك فؤاد، كما هو شائع بين الناس ، وكما ذكره الأستاذ بهاء الدين ، فالملك فؤاد لم يعلن نفسه ملكا إلا منذ عام 1922 .

يتبع الأستاذ بهاء عدد من الكتاب اهتموا بالكتابة عن هذا الكتاب ، ويذكرهم الدكتور الريس ، ويطابق بين الفقرات جميعا فلا نلمس أي اختلاف .

والدكتور الريس نفسه ينفي بأن الشيخ علي عبد الرازق كان يقصد بكتابه الملك فؤاد ؛ لأن الكتاب ألف قبل عهده ، ولأن الملك كان متحالفا مع الحزب الذي ينتمي إليه الشيخ علي عبد الرازق وأسرته وهو : حزب الأحرار الدستوريين ؛ بل لأن الملك فؤاد نفسه لم يعلن أنه يريد الخلافة، بل قال في كتاب له إلى «سعد باشا زغلول»: « كيف أقوم بالواجب نحو جميع المسلمين ، مع أن حملي ثقيل بالنسبة لمصر وحدها» ؟!

كل ما حدث : أن العلماء دعوا إلى عقد مؤتمر عام بالقاهرة يمثل جميع البلاد الإسلامية لبحث مسألة الخلافة .. وأيدهم الملك في ذلك مجرد تأييد كما يحدث عادة كنوع من الرعاية ، لا أكثر ولا أقل .

بل إن الشيخ علي عبد الرازق ينفي عن نفسه هذه التهمة ، ويكتب فيمدح الملك فؤاد وينشر ذلك في جريدة السياسة فيقول : «أولئك ملوك لم يراعوا للعلم حرمة ، ولا عرفوا للحرية قدرا .. وملك مصر » وهو يعني الملك فؤاد «أعز الله دولته هو أول ملك عرفه الإسلام في مصر ملكا دستوريا ، ينصر العلم والعلماء ويؤيد في بلده مبادئ الحرية .. إلخ » .

يقول الشيخ علي عبد الرازق هذا ويمدح الملك فؤاد حتى بما يخالف الحقيقة ، فالملك فؤاد - كما يذكر الدكتور الريس - لم يكن ملكا دستوريا ولم يكن يؤيد مبادئ الحرية .. بل على العكس كان ضد الدستور والحرية . ولكن الشيخ عبد الرازق يمدح الملك حليف حزبه ، والذي يعتمد عليه بقاء حكومة الأحرار الدستوريين وقتئذ .

ودليل آخر يسوقه الأستاذ بهاء الدين على أن الشيخ عبد الرازق كان يقصد فعلا الملك فؤاد ؛ حيث قال الشيخ في مقدمة كتابه : (الإسلام وأصول الحكم) : «أشهد أن لا إله إلا الله ولا أخشى أحدا سواه» فاستنتج الأستاذ بهاء الدين وردد أيضا تابعوه : أن «أحدا» هنا تعني - حتما - : الملك فؤاد !!

ويعجب الدكتور الريس من هذا المنطق ويسخر قائلا : «كيف وبأي وجه! هكذا بالقوة والعافية .. ليت شعري كيف نحول النكرة إلى معرفة والعام إلى خاص بدون سبب ؟! » .

كذلك .. يستدل الكاتب «محمد عمارة» في دراسته لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) على أن الشيخ عبد الرازق كان يعني الملك فؤاد ، وذلك لاستخدامه أفعال

المضارعة في كتابه .. فيتهكم الدكتور الريس على هذا ويقول : « لست أدري أي نوع من الاستدلال هذا ؟ وما هو السر الباتع لأفعال المضارعة » !

والجميع يزعمون بأن الشيخ عبد الرازق كان يهاجم الملك فؤاد ؛ لأنه في الكتاب يهاجم الملوك فيقول : « ... ذلك الذي يسمى عرشا لا يرتفع إلا على رؤوس البشر ، وأن ذلك الذي يسمى تاجا لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر».

ويعقب الدكتور الريس على ذلك قائلا : « إنهم لو قرأوا أول العبارة لوجدوا أن الشيخ إنما يتكلم عن الملوك في الماضي ؛ لأنه سمى الخلفاء ملوكا ، ويتكلم على الخلفاء العثمانيين بالذات وعلى السلطان محمد الخامس بالأمس .. ولم يكن الملك فؤاد ، أحد هؤلاء الخلفاء » .

فالاستنتاجات كلها إذن خاطئة ومن وحي الخيال .. هكذا يؤكد الدكتور الريس في كتابه : (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) .

كذلك يدين الدكتور الريس هؤلاء الكتاب ؛ حيث رددوا ما زعمه الشيخ عبد الرازق من أن المسلمين لم يبحثوا ولم يؤلفوا في السياسة ؛ لأن الخلفاء كانوا يمنعونهم، أو لأنهم- حسبما يعبر الشيخ - كانوا خاضعين للضغط الملوكي .. ويقول إنه - أي الشيخ عبد الرازق : « لا يعرف لهم مؤلفا في السياسة ولا مترجما » .

ويرد الدكتور الريس على ذلك ، ويثبت أن هذه دعوى باطلة ، وأن المسلمين بحثوا وألفوا في السياسة ، ويورد أسماء عديدة من الكتب التي ألفها علماء الإسلام . فمنها كتب : «الماوردي» و«الغزالي» و«الرازي» و«نظام الملك» و«ابن أبي الربيع» و«الفارابي» و«ابن تيمية» وأخيرا «ابن خلدون» في مقدمته الشهيرة التي حوت بحوثا مطولة في السياسة .

وبين الدكتور الريس أيضا أن علماء المسلمين كانوا يبحثون في الإمامة - وهي الدولة الإسلامية - في كتب علم الفقه والكلام .

ويذكر أن ابن رشد شرح كتاب أرسطو في السياسة ، وترجم كتاب : (الجمهورية) لأفلاطون ثم شرحه في كتاب : (جوامع سياسة أفلاطون) الذي ظل يدرس في أوروبا مدة طويلة .

ويدعو إلى الرجوع إلى (مجلة المجمع العلمي العربي) في دمشق تلك التي نشرت بيانا شمل أكثر من خمسين كتابا ألفها علماء العرب في موضوعات تتعلق بعلوم السياسة والإدارة .

وبعد أن يعرض الدكتور الريس التفسيرات المعاصرة ويناقشها فيما لا يقل عن نصف الكتاب .. ينتقل إلى قسم جديد هو تقييم كتاب : (الإسلام وأصول الحكم) تقييما علميا . فيثبت بالأدلة العلمية والتاريخية أن كتاب الشيخ عبد الرازق مملوء بالمزاعم والأباطيل ، ويكشف خطأ لغويا وقع فيه الشيخ في أول سطر من الكتاب حيث قال : «الخلافة لغة مصدر تخلف فلان فلانا إذ تأخر عنه .. في حين أن أي مبتدئ في اللغة يصرف هذا الفعل تصريفا صحيحا ويقول : « خلفه يخلفه خلافة » فالخلافة مصدر خلف لا تخلف كما يذكر علي عبد الرازق .

ويريد الشيخ عبد الرازق أن يظهر معرفته ببعض النظريات الأجنبية - كما يذكر الدكتور الريس - فيقول إن نظرية «هوبز» تؤكد أن سلطان الملوك مقدس وحقهم سماوي .. وهذا بالضبط عكس ما يقوله «هوبز» الذي ما عرض نظريته هذه إلا ليعارض الحق الإلهي للملوك . ونفس الخطأ حدث مع المفكر «لوك» حين عكس نظريته تماما . وادعى ادعاء عجيبا يستطيع أن يدرك بطلانه أي ناشئ إذ يقول : « إن الإسلام لم يغير شيئا من أساليب الحكم عند العرب، ولا حاول أن يمس الصلات الاجتماعية والعلاقات الاقتصادية . ولم يسمع أن النبي - ﷺ - عزل واليا أو عين ولاة أو قضاة ، وكذلك الخلفاء بعده .

ويعلن الدكتور الريس أن الفكرة الأساسية في كتاب : (الإسلام وأصول الحكم) نفسها خطأ إذ تقول هذه الفكرة أن الإسلام دين فقط بمعنى أنه عبادة فردية فقط ، فلا شأن له بالدنيا وشئونها ولا بالمجتمع ولا بالسياسة . وذلك لأن الدين – كما يزعم الشيخ عبد الرازق – هو ضد الدنيا والضدان لا يجتمعان .

وهنا يعقد الدكتور الريس فصلا بعنوان : «الدين والدنيا» فيبين فيه أن الدين ليس ضد الدنيا ، ولكنه جاء لصلاحها وجاء لسعادة الناس ، وأثبت أن الدنيا ليست هينة عند الله ، إنما هي طريق إلى الله .

وهكذا .. يثبت الدكتور الريس في كتابه ذلك في فصول : (الإسلام والخلافة) و(الدين والدنيا) و(الخلافة في العهد الأول) إن فكرة الشيخ عبد الرازق خطأ محض، تخالف كل الحقائق التاريخية والدينية ، وهي مجرد دعوى تدل على عدم العلم بحقيقة الإسلام والتاريخ الإسلامي .

وإزاء هذه الأخطاء الفادحة .. التي تناقش كل ما يعتقده المسلمون .. يشك الدكتور الريس في أن مؤلف الكتاب الحقيقي هو الشيخ علي عبد الرازق .. وهذه مفاجأة كبيرة لكل من كتب عن هذا الموضوع .

فالدكتور الريس بدت له دلائل في الكتاب جعلت تثير وتقوي في نفسه الشك في أن الشيخ هو المؤلف الأصلي للكتاب . منها أنه لم يعرف عن الشيخ أبدا أنه كان باحثا أو مفكرا سياسيا أو حتى مشتغلا بالسياسة ، فهو قد تلقى ثقافته في الأزهر ولم ينتج غير مذكرة أو كتيب في علم البيان ، ومنها : أنه لم يعرف له مؤلف آخر أو بحث في السياسة بعد صدور الكتاب. فالكتاب كان شيئا شاذا بالنسبة لسيرة حياته، وهو كما يقال أشبه ببيضة الديك . ثم منها : أن الشيخ عبد الرازق لم ينهض ليؤلف كتابا يرد فيه على الذين انتقدوه أو هاجموه ، وهذا يدل على عجزه في هذا الموضوع من ناحية ، وتأكيد ما يقوله المهاجمون من ناحية ثانية .

ودليل آخر ، يسوقه الدكتور الريس حيث إنه من غير المعقول أن يكون هو الذي قصد أصلاً- وهو مسلم وقاض شرعي ومن عائلة محافظة- الهجوم على الدين أو الإسلام أو أن ينكر الجهاد في الإسلام، بل إن الشيخ عبد الرازق- للغرابة - أنكر القضاء الشرعي الذي هو وظيفته ، فهل كان من الغفلة بحيث ينكر وجوده نفسه ، ويدعو إلى إلغاء عمله ووظيفته أي يفصل نفسه من منصبه قبل أن يفصله الآخرون!؟

ولاحظ الدكتور الريس أن (كتاب الإسلام وأصول الحكم) يتحدث عن «قيصر وعيسى» عليه السلام «ومتى والإصحاح والإنجيل» .. فتعجب أن يكون الشيخ قد تعلم هذا في الأزهر ، ويلاحظ أن الكتاب يتكلم عن المسلمين بضمير الغائب فيقول مثلا : « ذلك الزعم بين المسلمين » و« غير مألوف في لغة المسلمين » و«الخلافة في لسان المسلمين» ونحو ذلك كأنه ليس منهم .

ويتعجب الدكتور الريس من أن مسلما صحيح الإيمان، وشيخا من أبناء الأزهر.. يدافع عن المرتدين ويتعاطف معهم ، وينتقد الصديق أبا بكر المسلم الأول، ويقول عن المرتدين : « إنهم خرجوا على وحدة أبي بكر » . وهل وحدة أبي بكر إلا جماعة المسلمين ودولة الإسلام !

وأخيرا .. عثر الدكتور الريس على ما يؤيد شكه ، وذلك في الكتاب الذي ألفه مفتي الديار المصرية الشيخ «محمد بخيت المطيعي» الذي كان هو نفسه من الأحرار الدستوريين وهو من تلاميذ الإمام محمد عبده .. عثر في هذا الكتاب وفي صفحة 237 على شهادة تنقل الشك إلى ما يقرب اليقين حيث يقول المفتي : « .. لأنه علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس فيه إلا وضع اسمه عليه فقط.. فهو منسوب إليه فقط ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار » .

وبعد أن يستعرض الدكتور الريس الأدلة ، يقرر أنه يميل إلى ترجيح هذا الرأي، وأن مؤلف الكتاب الأصلي أي : كتاب (الإسلام وأصول الحكم) شخص غير مسلم ، ويرجح أن يكون المؤلف الأصلي هو أحد المستشرقين الإنجليز .

وعلى امتداد صفحات كتاب (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) يبين الدكتور الريس كل هذه الأخطار، ويبدد الدعاوى الباطلة، ويفند الخرافات .

هذا عرض سريع .. لما جاء في كتاب الدكتور الريس من قضايا .. وقد كنت - مؤخرا - واحدا من هؤلاء الصحفيين والكتاب .. الذين كتبوا عن : (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ عبد الرازق بنفس الطريقة التي يرفضها الدكتور الريس ويهاجمها .. لكنها الموضوعية، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة .. ولو على حساب النفس .

وبديهي إذا .. أن تكون لدي رغبة في تأمل ما كتبه الدكتور الريس الذي يهاجم نفرا من أساتذتي ونفرا آخر من أبناء «جيلي» ويتهمهم في كتابه بتهمة «النقل دون عقل» . لكن ما العمل ؟! خاصة وأن الأخطاء تشيع وتنتشر، وتصبح مع مضي الزمن حقائق، وهذه هي الكارثة !

فإذا كانت الأخطاء تتعلق بموضوع مهم مثل تصور الدولة أو طبيعة نظام الحكم في المجتمع الإسلامي أو نحو ذلك، فإن الضرر سيكون فادحا، ويكون مضاعفا في فداحته إذا ما اقتحم أسوار الجامعة، ووجد مكانه هناك بين الحقائق العلمية الثابتة .. وهنا تصبح الجامعة في موقف لا تحسد عليه .. فهي بهذه الصورة تقنن وتلقن الأخطاء بدلا من أن تقنن وتلقن الحقائق، ويكون هذا قلبا لرسالتها وتدميرا لمسئولياتها .

ولعلي أتساءل : إذا كان الدكتور الريس حقا قد اكتشف هذه الأخطاء - منذ زمن - فلماذا لم يواجه المؤلف بها ؟ لماذا لم يكتب هذا الكتاب في حياة الشيخ علي عبد الرازق وليس بعد وفاته ؟!

غير أنني أذكر : أنني قرأت في هذا الموضوع صفحات رد فيها الدكتور الريس على كتاب الشيخ عبد الرازق . بكتابه : (النظريات السياسية الإسلامية) عام 1952 تحت عنوان : « الرد على دعاوى بعض المعاصرين » . وأن هناك حقيقة أعلنها

المؤلف لأول مرة .. وهي أنه قصد الشيخ عبد الرازق ومعه كتاب (النظريات السياسية الإسلامية) وقدمه إليه قائلا له : « إن في هذا الكتاب تفنيدا لآرائك التي أعلنتها في كتاب : (الإسلام وأصول الحكم) ، ويسرني أن ترد عليه ليعرف الناس الحقيقة» ، وكان هذا قبل وفاته بسنوات . وظللت أنتظر رده ، ولكنه لم يكتب حرفا واحدا ، مع أن هذا الكتاب طبع في حياته ثلاث مرات .

ويتساءل الدكتور الريس بهذه المناسبة : لماذا لم يرد صاحب (الإسلام وأصول الحكم) على كتاب كتب من أجل تفنيد ادعاءاته وطبع ثلاث مرات في حياته ؟ ولماذا رفض أن يعيد طباعته حين عرضت عليه دار الهلال . كما نشر في آخر حديث له في المصور قبل وفاته بزمن قليل ؟ ألا يكون عدم التجاسر على الرد أو عدم التهافت على إعادة الطبع دليلا كافيا على أن الشيخ عبد الرازق اكتشف - ولو مؤخرا - أن هذا الكتاب لا يصلح لإعادة طبعه أو للدفاع عنه ؟

لكن كيف يقتنع القارئ بأن ما كتبه الدكتور الريس على حق ، وبقية الذين كتبوا في الطرف الآخر على غير حق ؟

هنا أقول : قد لا يختلف معي القارئ على : أن المقياس الذي ينبغي أن نقيس به الأمور لنفرق بين الحق والباطل هو العقل .. ذلك الذي يقودنا بالمنطق والبرهان إلى الحقيقة . والمؤلف عرض بحثه مدعما بما وصل إليه من أدلة وبراهين علمية .. وهذه الأدلة والبراهين إما أن تكشف الخطأ وتعلن الحقيقة ، أو لا تكشف أو لا تعلن عن أي شيء ، وكل من الكتابين : (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ علي عبد الرازق و(الإسلام والخلافة في العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الريس متوافرين في المكتبات ، ومن حق القارئ أن يقرأ ويفكر ، قبل أن يصدق أو يقتنع .

* * *

محب الدين الخطيب

السيد محب الدين الخطيب ، من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1304هـ وتوفي عام 1389هـ ، لمواقفه الإسلامية الكثيرة ، وإيمانه بالعروبة والإسلام ، ولإنشائه بعض التجمعات الإسلامية ومنها : جمعية الشبان المسلمين ، ولإعداده الموسوعات ومنها موسوعة الحديقة ، ولابتكاره ما يسمى بالصحافة الإسلامية ومنها (مجلة الفتح) .

هذا إلى جانب معايشة فكر « محب الدين الخطيب » في كتبه التي تقترب من الخمسين ، ومقالاته التي تعد بالمئات ، وأوراقه ومخطوطاته التي تملأ عددا من الحقائب والصناديق .. والتي تجعلك تقول عن هذا المفكر « إنه صاحب مدرسة فكرية كبيرة خرج منها علماء وسياسيون ومفكرون في العالم العربي ، ولم يمتد مجال تأثيرها حتى الهند والصين فحسب ، بل إنه منهج متميز في التفكير يهدف إلى الإصلاح الاجتماعي والسياسى والاقتصادي والعلمي ، وإنه أكبر متيقظ لحركات الاستشراق العالمية وأكبر متابع لتحركات التغريب المحلية ، وأكبر واع لعمليات التعصب الشعوبية ، وإنه أحد الرواد الذين أضاءوا تاريخ صدر الإسلام بلوامع وضاءة فيما ألفه وحققه من كتب ، وإنه مركز استقبال وإرسال وتجمع لعدد ضخم من الكتب التي تحفل بها مكتبته الخاصة ذات المائة ألف مجلد ، ولا تجعلك تقول عن مجددنا الخطيب أن دراسة حياته هي دراسة لسير النضال الشريف طوال ثلاثة أرباع قرون وأن دراسة فكره توافر سجلا حافلا بالوثائق في مرحلة الريادة للنضال العربي.. فهو رجل صامت زاهد متواضع كان شعاره : اعمل ليراك الله وحده .. وتوار عن أعين الناس » .

وإذا كانت سمات الصمت والتواضع والزهد هي أولى خصال مفكرنا الخطيب، فإن تاريخنا الثقافي والسياسي لن يتجاهله كواحد من الذين عملوا ، ولم يكن في حسابه - وهو يؤدي واجبه - أنه يصنع من نفسه رائدا ، ومن عمله مجدا ، ومن تاريخه سجلا ، وإنما كان يفعل هذا غير راغب في شيء ولا راهب من شيء . فكتب له خلود لم يسع إليه .

إن أولى خطوات تفكيره : الإصرار على أن أرض العروبة كلها موطنه ، وأن دمشق التي ولد فيها عام 1886 كانت مقرا لتصبح القاهرة التي مات بها عام 1969 مستقرا . واليمن ولبنان والعراق مسرحا لنضاله ، من أجل عروبة العالم العربي .. الذي كان وقتئذ ولاية من ولايات الدولة العثمانية وها هو يعبر عن ذلك قائلا : «إن الأتراك في الماضي كانوا حريصين على استئصال عروبتنا ، وفرض نفوذهم علينا ، فكانوا يحملون العربي على اعتناق الثقافة التركية ، ومن أجل هذا .. عمل مفكرنا على تداول الكلمة العربية في إحياء تركيا نفسها، وتنجح محاولته مما يشجعه على إنشاء جمعية عربية من الشبان العرب هدفها : استرجاع مجد العروبة تعرف فيما بعد (بجمعية النهضة العربية) . وأعلن مع رفاقه دستور العمل الثوري . لكن لم يخف هذا النشاط عن أعين الرقباء ، فهوجم مركز الجمعية في بيت الخطيب [باستنبول] وصودر كل ما فيه وأصبح هو زبونا دائما يطلبه رجال السلطان عبد الحميد . ففكر في مكان آخر ، وكانت اليمن ؛ وهنا بدأ يغرس الفكرة العربية في نفوس جيله من الشباب في صحيفة (جزيرة العرب) التي كانت خير معاون للتحركات العربية ضد سياسة التتريك ، فاكتشف أمره ، ففر إلى دمشق تاركا على أرض اليمن أول خلية ثورية . وفي دمشق أصدر مجلة (طار الخرج) التي كانت تندد بأساليب الحكم التركي ويكتشف أمره ، وقبل القبض عليه يغادرها إلى بيروت التي لم يلبث فيها طويلا ليعود إلى [استنبول] مواصلا الكفاح وطلبا للتعليم . وبالطبع يكتشف أمره ،

وتضيق به الدنيا خصوصا بعد أن أصبح مراقبا في اليمن وسوريا والعراق فلا يجد غير القاهرة مكانا يتوجه إليه ويستقر فيه ، مواصلا نضاله وإن تغير سلاحه فقد أصبح القلم هو سلاحه الكبير في المعركة . ولذلك ينشئ فيها «الدار السلفية للطبع» عام 1909 ويعمل كاتبا بجريدة (المؤيد) ثم محررا بجريدة الأهرام خمس سنوات إلا أن عمله بالصحافة لم يشبع رغبته في تكتيل الجهد العربي لخدمة قضية العروبة ، فاشترك في عدد من الهيئات السياسية كان بارزا بها : سكرتيرا عاما أو كاتما للسر في مقدمتها «حزب اللامركزية» و«جمعية العربية الفتاة» و«جماعة الوحدة العربية» ونسق جهده مع بعض حكام العرب كأمير نجد عبد العزيز آل سعود وزعيم العراق «طالب النقيب» ، وشريف مكة «حسين بن علي» ، ويقوم مع رفاقه بسلسلة طويلة من المعارك السياسية ، هدفها : عروبة العالم العربي ، وهي معارك تحتاج إلى كثير من الوقت والدراسة ، ثم ينشئ جمعية الشبان المسلمين من الشباب العربي المثقف ، من أجل فكرة القومية العربية والإسلامية الخاصة .

وجنبا إلى جنب: ممارساته السياسية والاجتماعية، كانت هناك ممارساته الفكرية، والمصادر فيها كتبه وأوراقه إلى جانب بحث منشور للدكتورة «سهيلة الريماوي» حول أوراقه ، وآخر مخطوط عبارة عن رسالة للدكتوراه نوقشت عام 1976 وكان قد قدمها الدكتور «محمود فوزي محمد» إلى جانب عدد من قصاصات الصحف وصفحات بعض الكتب .

وأول ما يستوقفنا في تفكير الخطيب هو : منهجه الذي يرتكز على جملة من الحقائق منها امتزاج العروبة بالإسلام ، والتنبه إلى فضائل وقيم الحضارة العربية الإسلامية ، والحفاظ على سلامة اللغة العربية ، وتتحدد ملامح شخصية الخطيب في كلمتين جرى بهما قلمه ، الأولى : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الإسلامي » والثانية : «فأنا عشت ما عشت للعروبة والإسلام» .

وبهذا المنهج الواضح ومن خلال هذه الشخصية النقية ، وبذلك التصميم الواعي للوصول إلى الهدف المنشود ، جرى قلم مفكرنا معبرا عن جوانب الإصلاح المختلفة التي أشار إليها الدكتور «محمود فوزي محمود» في رسالته باستفاضة نجملها في هذه الخطوط السريعة . ففي الإصلاح السياسى: تناول مفهوم الوطنية، وضرورة إحياء النظام الإسلامي في اختيار ممثلي الأمة . وحتمية أن يحكم المسلمون بشريعتهم، وفي الإصلاح الاجتماعي يتناول الخطيب الكثير من أمراضنا الاجتماعية وفي مقدمتها انعدام معنى الجماعة ، وإهدار قيمة المصلحة العامة ، وحب التقليد للأجانب ، وفساد الأخلاق ، وتراجع الفضيلة ، والتواكل والكسل . وفي الإصلاح الاقتصادي يتناول النظام الإسلامي في المال ، وبيان وظيفة هذا المال في المجتمع . وفي إصلاح التعليم يقرر أن جميع علل المسلمين راجعة إلى سوء نظام التعليم ؛ وللشفاء من هذه العلل يطالب بإصلاح التعليم الديني في الأزهر ، وإصلاح التعليم المدني العام .

ومن أجل ذلك .. قال عنه الدكتور «محمد محمد حسين» في كتابه : (الاتجاهات الوطنية) : «محب الدين الخطيب هو أحد السابقين من دعاة العروبة والمجاهدين في تحرير الفكر والجانب الصحافي والجانب الأدبي والجانب الديني والجانب السياسي».

ومفكر عربي بهذه المواصفات من الطبيعي أن يكون له موقف مع أو ضد حركات الاستشراق والتغريب والشعوبية ، مثلا في تصديه لحركة الاستشراق نراه وقد سجل كل ما يمت لأعضاء هذه الحركة بصلة إلى درجة أن القارئ لما نشره أو لما كتبه في هذه المخطوطة النادرة التي أطلعني عليها ابنه الأستاذ «قصي» يكاد يجزم أنه كان يتعقبهم إلى حجرات نومهم .

ويتابع حركات التغريب التي تهدف إلى القضاء على معالم الشخصية الإسلامية، وتشكك في ماضيها وتقضي على قيمها ومثلها ، وكذا الشعوبية التي ما جاء الإسلام إلا للقضاء عليها .

بعد هذا .. هل نحن في حاجة للتعرف على أفكاره في كتبه التي تقترب من الخمسين وفي مقدمتها كتاب : (الحديقة) في 14 جزءا ، و(توضيح الجامع الصحيح) في 10 أجزاء و(سلسلة الأوف والضماد) التي صدر منها 7 كتب ... وغيرها من الكتب التي تقدمه كمفكر موسوعي ، فمثلا نراه في كتاب : (الموجات البشرية في جزيرة العرب) ، يصحح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها المؤرخ العالمي «توينبي» وفي كتاب (تقويمنا الشمسي) يقدم عملا جغرافيا فكرته : أن للمسلمين تاريخا شمسيا يتميز عن جميع التواريخ بميزات ظاهرة يعددها . وفي كتاب (طاغور) يعطينا فكرة شاملة عن حياة وثقافة شاعر الهند العظيم ، وفي كتاب (منهج الثقافة الإسلامية) يميز بين العلم وهو عالمي والثقافة على اعتبار أنها قومية ويثير قضية مهمة تتعلق بالتربية .

وإلى جانب هذا الجهد التأليفي ، هناك جهده في مجال تحقيق التراث ، وفيه يلتزم بواجب الأمانة في نقل النص ولا يقتصر عمله فيه على الشرح والتوضيح ، بل يمتد عمله إلى التنبيه إلى الأخطاء .

ولمفكرنا أساتذة في مقدمتهم : جمال الدين الأفغاني في تجديد الفكر الديني ، والإمام محمد عبده في الإصلاح والتعليم ، والشيخ علي يوسف ، ومحمد كرد علي في الصحافة ، وله أيضا تلاميذ في مقدمتهم بمصر الشيخ حسن البنا والدكتور عمر الدسوقي ، وخارج مصر في الهند أبو الحسن الندوي ومسعود غانم الندوي وفي الصين بدر الدين الصيني ومحمد مكين الصيني ... وغيرهم .

وإلى جانب كتبه ، هناك أوراقه التي ينبه إلى أهميتها الدكتور « أحمد عزت عبد الكريم» ؛ حيث إنها تتيح للدارسين والباحثين معرفة جوانب قضية النضال العربي في النصف الأول من القرن العشرين .

وقد حاول السيد محب الدين الخطيب أن يصور هدف (صحيفة الفتح) فكتب في العدد الأول من السنة التاسعة 1353هـ يقول :

« إن الفتح أنشئت لمماشاة الحركة الفكرية الإسلامية ، وتسجيل أطوارها ، ولسد الحاجة إلى حاج يترنم بحقائق الإسلام ، مستهدفا تثقيف النشء الإسلامي ، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة، يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته إلى هذا الجيل من الأجيال الإسلامية التي تقدمه » .

وعقيدته في ذلك : أن المسلمين أمة واحدة ، نفوسهم تتصل بآصرة واحدة ، وعقولهم تشترك في عقيدة واحدة ، وقلوبهم تتحرك بأمنية واحدة .

وكانت دعوته في الصحيفة إلى التشريع الإسلامي، « فهو أرحم وأعدل من كل تشريع تقدمه أو جاء بعده ، ومن الخير لحضارة الغرب والقائمة الآن أن تقوم إلى جانبها حضارة إسلامية ، تتذوق بها الإنسانية لونا آخر من ألوان التعاون الإنساني».

والواقع أن (الفتح) قد صدرت في خلال فترة عصيبة من تاريخ أمتنا السياسي والثقافي ، فإن سنوات الثلاثينيات والأربعينيات كانت أقسى السنوات على العالم الإسلامي والفكر الإسلامي ، من ناحية محاولات التدمير والتغريب الضخمة التي حمل لواءها النفوذ الغربي ؛ لتثبيت كيانه وهدم صرح القوة الفكرية والروحية في هذه الأمة .

وهذا هو العمل الحقيقي الذي تصدت له الفتح وحملت لواءه ، ومن هنا لم تكن الفتح «صحيفة» وإنما كانت «مدرسة» ، فإن محب الدين الخطيب الذي جمع إليه كتاب العالم الإسلامي حيث كانت صحيفته منبرا لهم ، لم يلبث أن جمع إليه قادة الفكر في مصر ليقيم جمعية «الشبان المسلمين» ؛لتقف في وجه الحملات الضخمة

الموجهة إلى الإسلام ، وقد سارت مجلة الفتح والشبان المسلمين في طريق واحد ، تستمد من إيمان هذا الرجل وحماسته وصدقه «القوة» ، وهو طاقة كبيرة لا تزال حية تعمل حتى الآن في مجال الفكر الإسلامي .

وقد واجهت الفتح قضايا التغريب والإلحاد ، وحملت على كل الفرق في الطوائف والمذاهب المنحرفة المضللة ، ولم تترك الفتح كلمة تنشر في الصحف المصرية أو العالم الإسلامي فيها اتهام للإسلام دون أن ترد عليها وتكشف زيفها ، كما قدم صاحبها كتاب (الغارة على العالم الإسلامي) حيث كشف لأول مرة عن مؤامرات التبشير .

وكانت أمانته للشمال الإفريقي كبيرة ، فقد حمل لواء الجهاد مع هذه الأقطار على نحو باهر خلال حروب «محمد عبد الكريم الخطابي» في الريف المغربي ، ومقاومة الظهير البربري في المغرب ، ومؤامرات التجنيس في تونس ، وقد حفلت الفتح بكتابات المغاربة حتى يمكن أن تكون الفتح مرجعا مهما لكل باحث عن قضايا الفكر والثقافة في المغرب العربي في هذه الفترة .

أما بالنسبة للعالم الإسلامي ، فأنت تقرأ « لمحمد مكين الصيني ، وخالد شلدريك» رئيس الجمعية الإسلامية في لندن ، وأخبار المسلمين في البوسنة والهرسك ، ودراسة حالة المسلمين في [ميلبار] ، والإسلام في شرقي إفريقيا ، وقضية فلسطين ، وتعليم اللغة العربية في الهند ، ومشكلة المسلمين في الحبشة ، وعرب زنجبار ، والإسلام في أندونيسيا ، وعن مسلمي بولونيا ، وكتابات «أبو عبد الله الزنجابي» من إيران ، ومقالات مطولة عن حاضر مسلمي الهند وغابرهم ، وعن المعاهد في [طرابلس وبرقة] .

وبالجملة .. تجد موسوعة عامة لتطورات الفكر والسياسة في العالم الإسلامي كلها بأقلام : « شكيب أرسلان » الذي يكتب أسبوعيا تقريبا من [جنيف] ،

مستعرضا ما يكتب عن الإسلام في أوروبا ، و«إسماعيل الندوي وشلبي النعماني ومسعود غانم الندوي» في الهند ، كما تنشر شعر «بهجت الأثري» عالم العراق الكبير، وديوان مجد الإسلام للشاعر «أحمد محرم» الذي نشرت أول فصوله في الفتح ، و«محمد تقي الدين الهلالي ، والشاعر محمد النجمي ، والشيخ مصطفى الرفاعي ، وعمر الدسوقي»، ومن المغرب «أحمد بلافريج»، ومن القوقاز «عبد الرشيد إبراهيم» تلميذ جمال الدين الأفغاني ، والدكتور «علي مظهر» ، و«عجاج نويهض» من لبنان ، والمرحوم الدكتور «مصطفى السباعي» (دمشق) والدكتور «يحيى الدرديري ومحمد كامل القصاب ومحمد الهياوي» .

وآراء السيد محب الدين الخطيب واضحة صريحة ، وأسلوبه مشرق مضيء ، يقول : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الإسلامي ، وكنت ولا أزال أفهم من هذه الكلمة الاصطلاحية أن الإسلام الذي كان عليه محمد – ﷺ – وأصحابه كما فهمه منهم التابعون ، فالإصلاح الإسلامي هو تجديد الإسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه، ومن الإصلاح الإسلامي : بث روح النشاط بين المسلمين ، لإحياء مقاصد دينهم ، وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه من الدعوة إليه ، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه » إلى آخر ما قاله والذي يعتبر دعوة صريحة لتجديد الفكر الإسلامي حتى يجعل هذا الدين مواكبا للحياة الدائمة التغير .

كذلك يدعو المسلمين إلى العمل الإيجابي من أجل اللحاق بركب النهضة حتى لا يتخلفوا عنه ، داعيا إلى إعداد رجال يقتبسون الصناعات ويتخصصون في العلوم اللازمة لها ، والإكثار من أهل المعرفة في فنون القوة .

وعنده : « أن الإسلام ليس دين عقيدة ، وعبادة فحسب ، بل الإسلام ثقافة طبيعية لأرواح ألفته وعاشت به وكان مبعث قوتها وسبب اعتلائها » . والإسلام

فوق ذلك تاريخ أمجاد تحسدنا عليها جميع الأمم ، وأمجاد العروبة لا ينفك تاريخها من تاريخ الإسلام بحال، فإذا حيل بين الإسلام والعروبة كانت العروبة جسدا بلا روح، وكان الإسلام روحا بلا جسد ، وهذا تاريخنا العربي من بدايته إلى اليوم ، لا نراه ازدهر وانتعش وكان مظهر العزة والقوة ، إلا في الأدوار التي كان الإسلام يزدهر فيها وينتعش ، ويأخذ نصيبه من العزة والقوة ، ويكذب من يظن أن العرب تنمو عزتهم بروح أجنبية غير روح الإسلام » .

ولست أعرف كاتبا كان أوضح رأيا في ربط الإسلام بالعروبة على النحو الذي يحقق فلسفة اليقظة وبناء النهضة ، كما يفعل السيد محب الدين الخطيب منذ سنوات طويلة ، فهو مؤمن بامتزاجهما واستحالة انفصامهما ، وهذه عبارته : « إن العروبة ظئر الإسلام ، وإن العروبة والإسلام كلاهما من كنوز الإنسانية وينابيع سعادتها ، إذا عرف أهلها قيمتهما وإذا أتيحت لهما أسباب الظهور للناس على حقيقتهما . وإذا ذلت العرب ذل الإسلام » ويقول : « إننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، وهذا حق ، ولكن لم نكن شيئا قبل الإسلام » .

وكما يذكر الأستاذ «الجندي» أن محب الدين الخطيب عاش حياته يدعو الشباب إلى التخصص في دراسة الفكر الإسلامي وتخليصه من الكتب القديمة وعرضه على النحو العصري الحديث ، الذي يتيح للمثقفين الانتفاع به ، ويرد عنه عادية خصومه حين يتهمونه بالضعف أو الاضطراب ، يقول : « أنا منذ بضعة عشر عاما إلى الآن أدعو شبابنا المثقف إلى التخصص في دراسة نواحي هذا الميراث المجيد ، وتنظيمه على النحو الذي يفعله المستشرقون والمستغربون ، ولكن بنية غير نيتهم فهم ينظرون إليه بعين الأم إلى بناتها ، أما المستشرقون فيدرسونه ليستعينوا به على استعمار أوطاننا. ونحن ندعو شبابنا أن يدرسوه ليصلوا به آتينا بماضينا ، ويتخذوا من قوته حصنا يجمع شتاتنا ويحمي حمانا » . كما يدعو إلى إعادة النظر في علوم الإسلام وتاريخ أهله، بعرض الحوادث الخطيرة في تاريخنا على نحو جديد .

ويؤمن السيد محب الدين الخطيب بالتربية ، فالعلم وحده – عنده – لا ينهض بالأمم فلابد من «التربية» .

ويصور أزمة العالم الإسلامي في افتتاحية مجلة «الزهراء» عام 1924 وهي مجلة ممتازة استمرت حتى عام 1930 يقول :

« تأصل في نفسي منذ أعوام كثيرة أن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما لم تكن قائمة على دعامتين :

1- المرونة في الاقتباس من حضارات الأمم الأجنبية في وسائل القوة .

2- الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا الأصيل . وقد قص علينا التاريخ أن الأقوام الذين جمدوا عند تقاليدهم ، فلم يدعموا كيانهم القومي بدعامة الارتقاء والتجديد، ضرب على قلوبهم بالانسداد فتصرف فيهم أهل القوة والحياة ، كما أنبأنا التاريخ أن الأقوام الذين استهواهم تقليد الأغيار من أهل القوة ، فيما ينافي كيانهم القومي فانسلخوا من سجاياهم وفرطوا في تقاليدهم وتركوا حدود لغتهم مباحة لاحتلال اللغات الأخرى ، لم ترحمهم الأمم الأجنبية التي ذابوا فيها فاهتضمتهم حتى لم يبق لكيانهم الاجتماعي من باقية » .

وهو يركز دعوته في الإصلاح على هدفين : «المدرسة والصحافة» فيقول : « إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة ، فهما اللتان كونتا رجالنا وجماهيرنا كما نرى ، ولن نتقي شر الاحتلال الذي نتوقع أن ينزل بنا ، ما لم تكن لنا مدارس وصحف مؤسسة على جلاميد من الإيمان بالهداية المحمدية ، لا تزعزعها الزلازل ، وعلى دعائم من الوفاء للتاريخ العربي يفني الزمان ولا يفنى » .

وفي حدود هذه المفاهيم الواضحة للإصلاح في مجال الثقافة والفكر مضى قلم السيد محب الدين الخطيب يكتب في خلال خمسين عاما ، وكانت أنصع فتراته «صحيفة الفتح» التي تكون الآن أكثر من 25 مجلدا تضم 30 ألف صفحة قوامها :

- الدفاع عن حقائق الإسلام .
- مقاومة تيار الإلحاد .
- حماية اللغة العربية .
- إحياء التراث الإسلامي .
- بعض الأمجاد والمفاخر الإسلامية.
- تصحيح التاريخ الإسلامي .
- امتزاج العروبة بالإسلام .
- العودة إلى منابع الإسلام الأولى .

وغير ذلك مما تضمنته مجلة الفتح خدمة للإسلام ودفاعا عنه ، وتحديدا للفكر المتجدد فيه حتى يكون مواكبا لتطور الحياة .. ولهذا ولغيره ، يعتبر محب الدين الخطيب واحدا من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

* * *

طـه حسـين

طه حسين : يعتبر من مجددي القرن الرابع عشر الهجري ؛ حيث ولـد في أوائـل سنواته. وتوفي في أواخره، أو بالتاريخ الميلادي ولد عام 1889، وتوفي عام 1973.

وفي الحديث عنه واعتباره مجددا على رأس المائة الرابعة عشرة ، أقول إن التاريخ لم يكن بجاحد لفضل الدكتور طه حسين حين سجل في صفحاته أن هذا المفكـر قـد أضاء تاريخ صدر الإسلام بنظرات نافذة ، ولوامع وضاءة ، مقـدما كنـوزا للـتراث الإسلامى ، محتها زمنا الأساليب المستعـصية القديمـة . أقـول : لـن يكـون التـاريخ بجاحـد لفضـل هذا المفـكر المسـلم ، مهما استهدف للاتهامـات والافـتراءات التـي لا تصمد أمام البحث العلمي الموضوعي النزيه .

لم يكن هذا التاريخ بجاحد لفضل عميد الأدب العربي .. حين سجل في صفحة من صفحاته . أنه قد دعا في ثلاثينيات هـذا القـرن إلى مـشروع مـن أسـمى وأجـل المشروعات الثقافية في تاريخنا الثقافي المعاصر .. وهو مشروع : إعادة كتابـة التـاريخ الإسلامى على نحو يتقبله الإنسان المعاصر الذي انصرف عن هذا التاريخ لأسـباب كثيرة نذكرها بعد قليل، ليقرأ مادة كتبها غـير العـرب وفـق سياسـات معينـة تخـدم أغراضا معينة ، كما رأينا في مدخل هذا الكتاب .

عندئذ اتفق الدكتور طه حسين مع اثنين من زملائه في هيئة التدريس بالجامعة ، وهما : الأستاذ «أحمد أمين» ، والأستاذ «عبد الحميد العبـادي» ، عـلى كتابـة تاريخنـا الإسلامى منذ فجره إلى أواخر عصر الدولة الأموية ، بحيث يختص كل مـن الثلاثـة بدراسة جانب يجيده ويتقنـه . فيختص الدكتور طـه حـسين بكتابـة جانـب الحيـاة الأدبيـة في الإسلام ، ويخـتص الدكتـور أحمـد أمـين بكتابـة جانـب الحيـاة العقليـة

والفكرية في الإسـلام، ويختص الأستاذ عبد الحميد العبـادي بجانب الحياة السياسية في الإسـلام .

والأمر الذي لا يستطيع أن ينكره حتى الجاحدون لفضل طه حـسين ، أن هـذا المشروع الذي كان هو صـاحب فكرتـه لم يكتـف بتقـديم عـشرات الكتـب للثلاثـة فحسب ، وإنما تجاوز هذا العدد إلى كتب أخـرى قـدمها أسـاتذة وعلـماء مـن أفـذاذ جيلهم ، وفتح الباب على مـصراعيه حـين اهـتم بإعـادة كتابـة التـاريخ الإسـلامي لأجيال متعاقبـة إلى يومنـا هـذا ، مازالـت تقـدم للمكتبـة الإسـلامية عطـاء وفـيرا وبأساليب مختلفة ، كلها تقرب هذا التاريخ من القارئ وتجلو الكثير من صفحاته.

ومن هذه الزاوية .. من زاوية دعوة الدكتور طه حسين لإعـادة كتابـة التـاريخ الإسلامي بشكل مقبول، وبمنهج علمي من ناحية، واستمراره في الكتابة الإسلامية ذات الطابع المميز حتى السنوات الأخيرة في حياته من ناحية أخرى .. كانت أعـمال الدكتور طه حسين الإسلامية تقفز في المقدمة بين الأعمال العظيمة ، عنـدما يتـصدى أي باحث أو دارس لرصد هذا التاريخ ، ومن كتبوه في مصر ، أو خارجها .

وإذا كان الدكتور طه حسين وأصحابه قد اتفقوا فيما بينهم عند الشروع في كتابة التاريخ الإسلامي .. على طريقة أو أسلوب في تناول المادة الإسلامية التي تزخر بهـا المكتبة العربية والأجنبية على حد سواء .. وهو بعينه المنهج ، فإن الدكتور طه حـسين لم يلوح بكيفية هذا المنهج الذي اتبعه في تناوله للـمادة الإسـلامية التـي أمامـه ، عـلى عادة ما يفعل بعض المؤرخين في كتاباتهم .. ولا سـيما إذا كـانوا في الأصـل أدبـاء أو مفكرين . ومن هنا .. أصبح القيام بعمليات مـن الاسـتنباط والاسـتدلال للتعـرف على هذا المنهج من كتاباته الإسلامية والاستئناس في ذلك بما كتب عنه من دراسات، إلى جانب ما شرف به صاحب هذه السطور من اهتمام ومتابعـة لفكـر الـدكتور طـه حسين .

بادئ ذي بدء .. كلنا نعرف أن شخصية الدكتور طه حسين قد تميزت بسمتين بارزتين . هما : سمة الأدب والنقد ، فهو أديب فنان إلى جانب كونه ناقدا حساسا . ومعنى هذا : أن شخصيته جمعت بين فنية الأدب ، وحساسية النقد . وبالطبع فإن سمات كهذه لابد وأن تلقي بظلالها على أي عمل فكري يقوم به ، حتى وإن كان إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، لابد أن يتعامل مع هذا التاريخ بفنية الأديب الذي يتناغم مع الأحداث ، وبشخصية الناقد الذي يمايز بين حادثة وأخرى - دون أن يعتدي على سير الأحداث - حسب إحساسه بالأحداث التاريخية . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية .. فإن التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح .. هو في مجموع علم من العلوم ، أو بالأحرى نوع من النقد والفن . فمن الواضح أن جانبا كبيرا لا يستهان به من إنتاج الدكتور طه حسين الفكري - بوجه عام - يدخل في نطاق التاريخ .

ولهذا .. فإن المتابع لمراحل فكر طه حسين يذهب إلى القول بأن ما كتبه أيام شبابه عن الشعر العربي ، سواء في الجاهلية أو في الإسلام ، هو نوع من التاريخ ، وأن ما كتبه عن بلاد اليونان القديمة في مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية نوع من التاريخ ، وما كتبه بعد أن بلغ سن النضج الفكري وخصصه لأصول الأدب العربي القديم وتطوره هو نوع ثالث من التاريخ ، وما كتبه عن مشاكل التعليم والثقافة في مصر والعالم العربي يعد في جوهره نوعا رابعا من التاريخ. وهكذا .. نجد في كل كتابات الدكتور طه حسين الاستئناس بالتاريخ .

ولعلني أذكره بهذه المناسبة يوم أن استمع إلى واحدة من هذه الدراسات التي كتبت حول كتابه : (في الشعر الجاهلي) ، فنصبت رئيسا للوزراء في مصر على صفحاتها غير رئيس الوزراء الفعلي . وبنى الكاتب على تصوره هذا جانبا من دراسته. يومئذ علق الدكتور طه حسين قائلا : «كان حريا بهذا الكاتب أن يرجع إلى

التاريخ ليتأكد من صحة الأحداث .. قراءة التاريخ واجب يضاف إلى واجبات الناقد عندما يرصد الحركة الأدبية ، أو الأديب عندما يبدع فنا يقال عنه إنه أدب ..» .

وعلى مستوى التطبيق ، نجد الدكتور طه حسين صادقا في هذا القول بالنسبة لإنتاجه الأدبي المحض ، فيما جادت به قريحته من إبداع في ذكرياته الحميمة والتي تضمنتها أجزاء رائعته : (الأيام) ، نستشعر نوعا من التاريخ – على الرغم من أن إبداعه الفني في كتابته – يجعل القارئ ينسى أنه أمام صفحات من تاريخنا الثقافي والاجتماعي والسياسي .

وفي تتبعنا للفكرة الإسلامية عند الدكتور طه حسين ، حيث إنه اختار الحياة الأدبية في الإسلام ، نجده مؤرخا .. حين نتناول بالدراسة السيرة النبوية الشريفة في كتاب : (على هامش السيرة) ، وكان مؤرخا في ترجمته للخلفاء الراشدين الأربعة : «أبو بكر وعمر وعثمان وعلي» رضى الله عنهم ، وكان مؤرخا أيضا حين تناول بالدراسة المجتمع الإسلامي بعد الرسول الكريم في كل من: (مرآة الإسلام) و(الوعد الحق) .

وإذا كنا قد توصلنا إلى أن الدكتور طه حسين مؤرخ. فلا يبقى أمامنا إلا تفاصيل وسمات وملامح منهجه في التاريخ الإسلامي .

فالدكتور طه حسين حين اختار الحياة الأدبية في الإسلام ، فمعنى ذلك : أنه يريد أن ينظر إلى المادة التاريخية التي أمامه نظرة الأديب الفنان ، الذي تجذبه وتبهره وتؤثر فيه الصورة الجميلة . ولعل هذا ما أراد قوله صراحة وليس ضمنا . في تقدمته للجزء الأول من كتابه : (على هامش السيرة) حيث قال : « إلى هذا النحو من إحياء الأدب القديم ، ومن إحياء ذكرى العرب الأولين .. قصدت حين أمليت فصول هذا الكتاب ، ولست أريد أن أخدع القراء عن نفسي ولا عن هذا الكتاب . فإني لم أفكر فيه تفكيرا ، ولا قدرته تقديرا ، ولا تعمدت تأليفه وتصنيفه كما يتعمد

المؤلفون .. إنما دفعت إلى ذلك دفعا ، وأكرهت عليه إكراها ، ورأيتني أقرأ السيرة فتمتلئ بها نفسى ، ويفيض بها قلبي ، وينطلق بها لساني ، وإذا أنا أملي هذه الفصول وفصولا أخرى ، أرجو أن تنشر بعد حين » .

ويقول :

« فليس في هذا الكتاب إذا تكلف ولا تصنع ، ولا محاولة للإجادة، ولا اجتناب للتقصير . وإنما هو صورة يسيرة طبيعية صادقة لبعض ما أجد من الشعور حين أقرأ هذه الكتب ، التي لا أعدل بها كتبا أخرى مهما تكن ، والتي لا أمل قراءتها والأنس إليها ، والتي لا ينقضى حبي لها وإعجابي بها ، وحرصى على أن يقرأها الناس ، ولكن الناس مع الأسف لا يقرءونها، لأنهم لا يريدون ، أو لأنهم لا يستطيعون. فإذا استطاع هذا الكتاب أن يحبب إلى الشباب قراءة كتب السيرة خاصة، وكتب الأدب العربي القديم عامة ، والتماس المتاع الفني في صحفها الخصبة .. فأنا سعيد حقا ، موفق حقا لأحب الأشياء إلي وآثرها عندي .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب حب الحياة العربية الأولى، ويلفتهم إلى أن في سذاجتها ويسرها جمالا ليس أقل روعة ولا نفاذا إلى القلوب من هذا الجمال الذي يجدونه في الحياة الحديثة المعقدة ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يدفع الشباب إلى استغلال الحياة العربية الأولى واتخاذها موضوعا قيما خصبا لا للإنتاج العلمي في التاريخ والأدب الوصفي وحدهما ، بل كذلك للإنتاج الإنشائي الخالص ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد .

ثم إذا استطاع هذا الكتاب أن يلقي في نفوس الشباب أن القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم ، وأن الجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد . وإنما يهجر القديم إذا برئ من النفع ، وخلا من الفائدة .. فإن كان نافعا مفيدا ، فليس الناس أقل حاجة إليه منهم إلى الجديد ، فأنا سعيد موفق لبعض ما أريد » .

وبهذه العبارات حدد الدكتور طه حسين منهجه في التاريخ .. فمن يقرأها ويقرأ غيرها في كتبه ، يدرك على الفور أنه أمام أديب مؤرخ .. يحس فيتصور مما يحس صورة ، هي جوهر من التاريخ لا من تفصيله ، وهي لب ما في التاريخ الذي نحب أن نتمثله جميعا ليكون لنا فيه الصورة المشتركة .

وقد نستشعر الدور العظيم الذي قام به الدكتور طه حسين وصحبه في استلهامهم تاريخنا الإسلامي من بطون الكتب القديمة من عبارته التالية : « .. فأما الأدب القديم فقراءته عسيرة ، وفهمه أعسر ، وتذوقه أشد عسرا . وأين هذا القارئ الذي يطمئن إلى قراءة الأسانيد المطولة ، والأخبار التي يلتوي منها الاستطراد وتجود بها لغته القديمة الغريبة عن سبيل الفهم السهل والذوق الهين الذي لا يكلف مشقة ولا عناء ؟!

ذلك.. أن الأدب القديم لم ينشأ ليبقى- كما هو- ثابتا مستقرا لا يتغير ولا يلتمس الناس لذته إلا في نصوصه ، يقرأونها ويعيدون قراءتها ، ويستظهرونها ويمعنون في استظهارها ، إنما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرؤه ، لأنه يقدم إليك ما يرضي عقلك وشعورك ، لأنه يوحي إليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصبا ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ، وينطقك كما أنطق القدماء، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك أو يصور قلبك في صورته ، وإذا أنت تعيده على الناس فتلقيه إليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضطرب في عقولهم..».

في هذه العبارة .. يكمن الهدف الذي من ورائه دعا الدكتور طه حسين إلى إعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، كما يكمن منهجه في استلهام هذا التاريخ الذي يريد كتابته للقارئ المعاصر من الكتب القديمة ، ويكمن أيضا طريقته في التناول .

وحيث نقترب من فكر الدكتور طه حسين .. يتراءى لنا ملامح منهجه كأديب مؤرخ ، فهو في هذا الجانب من فكره لديه مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب في العلم إغراقا من شأنه أن يصيب حوادثه التاريخية والأدبية بالجفاف . ولا يغرق في الفن إغراقا من شأنه أن يفني الشخصيات في ذاته وشخصيته ، بل هو يتخذ في تناوله للمادة الإسلامية طريقا وسطا بين العلم والفن .. بين التاريخ والأدب .. طريقا تتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبي في استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية ، مع ما ينبغي له من الحس الدقيق المرهف ، والذوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء ، وفيما يصور من مواطن الجمال الفني في الآثار الأدبية والتاريخية المختلفة .

وتأسيسا على ذلك .. وضع الدكتور طه حسين لنفسه ، ولمدرسته من بعده ، الأصول التي ينبغي أن تبدو عليها دراساتهم ، وهي أصول ترد إلى جانبين :

- **جانب علمي** : يتصل بفحص المادة التاريخية وتحقيقها واستنباط دلالاتها ، مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ، ومعرفة الظروف التي أحاطت بها ، والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئيها ، وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم .
- **وجانب فني** : يتصل بنقد هذه المادة التاريخية وتصوير شخصيات أصحابها ، وما تحدثه في نفس قارئيها من لذة ، وهو الجانب الذي يحيل التاريخ إلى عمل أدبي ممتع يلذ العقل والشعور ، إذ نرى من خلاله خصائص المؤرخ التسجيلي . فشخصيته كأديب تبدو من خلال كتاباته للتاريخ ، حيث ينفث فيه من روحه ونظرته وفكرته ، ويجمله بأسلوبه ، ويلتقط جوانب يطويها سرد المؤرخ التسجيلي .

إلى جانب فحص المادة التاريخية ، ثم نقدها ، تبدأ عملية صياغتها من جديد ، فهو حين يقوم بصياغتها يستخدم المنهج الاجتماعي في البحث ، وخاصة إذا كانت هذه المادة التاريخية حول أشخاص . ويمكن الاستدلال على هذا المنهج الاجتماعي عند الدكتور طه حسين من عبارة في تقديم كتابه : (قادة الفكر) ، حيث يقول : «الفرد ظاهرة اجتماعية ، وليس من البحث القيم العلمي في شيء أن تجعل الفرد كل شيء ، وتمحو الجماعة التي أنشأته وكونته محوا . إنما السبيل أن تقدر الجماعة وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطاعت في تحديد الصلة بينهما ، وفي تعيين ما تطلبهما من أثر في الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة .

بهذا المزج في شخص الدكتور طه حسين بين العلم والفن .. بين التاريخ والأدب ، وبهذه الرؤية الاجتماعية ، درس الدكتور طه حسين المادة الإسلامية وقدمها في قوالب جديدة .

وعلى ضوء هذا المنهج .. يقدم لنا الدكتور طه حسين المجتمع الإسلامي ، ويستهل تأريخه الفني لهذا المجتمع بهوامشه على السيرة المحمدية ، يتبعه بحديث عن الخليفتين : أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم بحديث آخر عن الخليفتين : عثمان ابن عفان وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما ، ثم حديث عن هؤلاء الرجال الذين كانوا حول الرسول : الأغنياء منهم أو الفقراء ، ولا ينهي حديثا عن المجتمع الإسلامي بما فيه من أفذاذ الرجال دون أن يحدثنا عن الإسلام نفسه دين الحنفية السمحة والفطرة السليمة ، وكيف أنه ساد في الجزيرة العربية المترامية الأطراف ، واستقر في القلوب التي أغلقت أمام كل عاطفة الإنسانية ، والأصول والمبادئ التي ارتكن إليها هذا الدين لينتشر وليبقى . فهل بعد هذه الاجتهادات ، ألا يعد الدكتور طه حسين مجددا ؟!

* * *

مالك بن نبي

عندما يتجاوز الفتى الصامت المرحلة الثانوية ، يغادر الجزائر إلى باريس ، ليلتحق بكلية الهندسة ويتخرج مهندسا كهربائيا ، ويتقدم للعمل ليفاجأ بكل الأبواب مغلقة في وجهه ؛ فالاستعمار الفرنسى أدرك الخطر من فتح الأبواب أمام هذا الفتى الذي لا يكف عن القراءة والتفكير والاتصال بالأحداث الجارية في العالم الإنساني ولا يجد أمامه إلا بابا واحدا مفتوحا على ميدان الفكر الإسلامى فيدخله . ولنعرفه فيما بعد بالمفكر «مالك بن نبى» . الذي ولد عام 1323هـ وتوفي عام 1393هـ كواحد من مجددي القرن الرابع عشر الهجري .

والحق أن مؤلفات مالك بن نبى الإسلامية تنقل لنا صورة حية للفكر الإسلامى، فيها حياة وقوة ، فيها خصب ونماء ، فيها عظمة وشموخ ، فيها ثورة وتمرد ، الأمر الذي يجعل العقل يهتز هذه الهزة القادرة وحدها على انتشاله من الشك إلى اليقين ، ولذلك فالقارئ في مصر ، تواق للاطلاع على هذه المؤلفات لإحساسه بصلة الرحم والقربى من ناحية ، ولإيمانه بتفتح واستنارة عقل صاحبها من ناحية أخرى ، إلا أن هذا القارئ لا تجتمع لديه عن فكر مالك بن نبى ما يصل به إلى هذا الرحم أو هذه القربى أو ما يدعو إليه ذلك الإحساس أو هذا الإيمان لأسباب كثيرة أبرزها : قلة ما يصل لمالك بن نبى أو عنه من مؤلفات ، فالرجل وقد كان من أبناء الشمال العربي الإفريقى . عاش في محنة ازدواجية : «العقل العربي» و«اللسان الفرنسى» .

ولنحلق الآن مع جوانب من فكره . ونتأمله وهو يضع الخطوط العريضة لفكر الأمة الإسلامية التى نكبت بالتخلف عن ركب الحضارة ، فيرى أن سبيل إنقاذها هو بتخليصها من الأفكار المريضة ، والتى في مقدمتها : قابليتها للاستعمار ، وإذا تم ذلك أخذت هذه الأمة مكانها اللائق بها .

ومشكلة أخرى ، تتمثل في اتباعنا الأساليب الغربية ، حيث يسأل لماذا ندور في فلك الغرب وننتهج سلوكه ؟ ويجيب بأن دوافع الحياة هي التي ورطتنا في ذلك منذ استيقظنا على خطر الاستعمار . إن مثلنا في ذلك مثل نائم استيقظ فجأة فوجد النار في غرفته ، ودون أي تفكير ألقى بنفسه من النافذة . فالمجتمع الإسلامى ألقى بنفسه – من حيث لا يدري ولا يريد – في هوة التقليد للغرب واستعماره حتى يعصم نفسه منه.

ومعنى ذلك أيضا : أن روحانية الشرق الإسلامى تأخذ من مادية الغرب الاستعماري ما تظن أنه يشفى جسدها العليل . وترد مؤلفات مالك بن نبى ، فترى لذلك سبيلا هو أننا ونحن في طريقنا إلى النهضة نتبع سبيل الشيء ، حينما نرى أوروبا تخرج علينا بزينتها المادية البهيجة ، فيقع في نفوسنا شيء مما وقع في نفوس بنى إسرائيل حينما خرج عليهم قارون بزينته ، وهكذا عمدنا إلى تقليد هذه الحالة ، والأكثر نقلد – بجهالة – عثرة المقص في يد الخياط الأوروبي .

وإذا كان مالك بن نبى قد وضع أيدينا على جسم المأساة، فما هو طريق العلاج؟ ويجيبنا هو : طريق الفكر الذي يحدد الوسائل والنتائج ، الفكر الذي انتهى إليه التطور وارتضاه السير في القرن العشرين .

وحين يفكر بصوت عال في السياسة الرشيدة والفعالة لعالمنا الإسلامى ، يراها تقوم على مبدأين: أولهما أن نتبع سياسة تتفق ووسائلنا المادية، وثانيهما: أن نوحد بأنفسنا وسائل سياستنا ، وبهذا تنسجم السياسة مع طبيعة الأمة الإسلامية فتوجه إمكانياتها .

ونستمع إلى سؤاله عن مكان المجتمع الإسلامي في المجتمع العالمي ؟ ويجيب : مكان تافه ! ونسأله : ولماذا ؟ فيجيب : لأن هذا المجتمع الإسلامي لا يمثل مصلحة ذات أهمية عالية ، وكيف يمثل هذه المصلحة ؟ ويجيب : إذا ارتفعت أصواتنا داعية إلى الخير وتحقق في سلوكنا معنى الآية الكريمة : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ** ﴾[1] الخير إذا .. في رأي مالك – هو جواز مرورنا إلى العالمية .

(1) آل عمران : 104 .

ويتأمل طبيعة النفس الإنسانية وغريزة التدين في فطرة البشر وتاريخ المذاهب والعقائد وتاريخ الأنبياء والرسل ، ثم آيات هذا الكتاب الذي جاء بنفسه دليلا على صدق نفسه، ليقدم لنا الظاهرة القرآنية مهتديا إلى منهج يقبله غير المسلم قبل المسلم. فهو مثلا لا يكتفي بالقول أن إعجاز القرآن يقوم على سمو كلام الله فوق كلام البشر، ولكنه يلجأ إلى الدراسة الأسلوبية ؛ لكي يضع للإعجاز أساسا عقليا .

ويتأمل الأنظمة الاقتصادية التي تحكم العالم - وقتئذ - فيجد أنها جميعا تنتهي إلى نظامين : رأسمالي وشيوعي ، ويسأل ما موقفنا نحن في المجتمع الإسلامي ؟

ويجيب : أننا نضيق على أنفسنا مجالات التفكير والاجتهاد ، حيث لا تخرج عن مسلمتين - الأولى : أن الموجود من الأنظمة الاقتصادية ليس هناك أفضل منه . والثانية: أن النشاط الاقتصادي لا يمكن قيامه دون تدخل المال ، سواء عن طريق استثمارات في القطاعات الخاصة التي يوجهها الأفراد ، والعامة التي توجهها الدولة.

ومعنى هذا : أن الفكر الإسلامي يتعثر ، والسبب طبيعة موقفه من الأشياء وليس من طبيعة الأشياء ذاتها .. وهنا يتقدم بنظرية ثالثة جديدة مؤكدا أن العالم الإسلامي متى تكونت لديه إرادة واضحة للتخلص من التخلف ، سيجد أولا في المجال النظري أن اختياره ليس محدودا بالرأسمالية أو الشيوعية ، وأنه بالتالي يكون التعويض للاستثمار المالي المفقود لديه بالاستثمار الاجتماعي الموجود على أساس مسلمتين جديدتين : **الأولى** لقمة العيش لكل فم . **والثانية** واجب على كل ساعد .

وبعد .. فهذه إيماءة متواضعة أو إشارة سريعة إلى المفكر الجزائري : مالك ابن نبي ونظرته إلى الإسلام ، وفكره الذي جعل منه واحدا من المجددين .

* * *

عبد الحميد جودة السحار

عبد الحميد جودة السحار : من مجددي القرن الرابع عشر الهجري حيث ولد عام 1331هـ وتوفي عام 1394هـ لما قدمه من كتب وكتابات ذات تناول خاص هو بعينه التناول القصصي ؛ حيث جعل المادة الإسلامية الموجودة في بطون الكتب القديمة مادة يقبل عليها القارئ الشاب ، ولعل ذلك نوع من الدفاع عن الإسلام ضد خصومه ، إلى جانب أنه كان يقدم الصورة الحقيقية للإسلام بأسلوب يقبله الشاب المعاصر .

وفي متابعة مسار الفكرة الإسلامية عند هذا الكاتب الإسلامى الذي كتب ما يقرب من الأربعين كتابا في الإسلام ، أبرزها العشرون كتابا التى تضمنها مؤلفه الضخم «محمد رسول الله» ، ومؤلفات أخرى منها : «أبو ذر الغفاري» و«بلال مؤذن الرسول» و«سعد بن أبي وقاص» و«أبناء أبي بكر» و«أهل البيت» و«فجر الإسلام» و«عيسى بن مريم» و«حياة الحسين» ، وغيرها قد تأثر في أسلوب تناوله للمادة الإسلامية بمن سبقه في الكتابة الإسلامية وفي مقدمتهم : طه حسين وهيكل وأحمد أمين والعبادي والعقاد .

فهو يعلن أنه اعتمد على القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتوراة والإنجيل ، وكتب التاريخ كمصادر وأنه لم يدون أي حادثة إلا وكان لها سند ، وقد محص الروايات المختلفة واختبر أقربها إلى المنطق وروح الدعوة الإسلامية .

والسحار وقد كان أديبا وقصاصا لم يكن عسيرا عليه تحقيق أمنية طالما راودته وعبر عنها في كتاباته حين قال : « وكانت أمنيتى منذ حملت القلم أن يوفقنى الله إلى كتابة السيرة النبوية ؛ ذلك لأن السيرة قصة حياة إنسان عظيم ترك من الأثر في الحياة والناس ما جذب إليه التاريخ ، وهي بذلك أقرب إلى القصة من التاريخ بمعناه العام

حيث تحفل بالعواطف الجياشة والأحاسيس النابضة؛ لأنها تعرض من سيرة هذا الإنسان جوانب مختلفة في حياته تنجلي فيها سمات روحه ومعالم شخصيته وسر نبوغه .

وهكذا اعتمد السحار على أسلوبه القصصي في تناوله للمادة الإسلامية مع التأكيد على صحة الوقائع التاريخية ، واستفاد من كونه قصاصا أن يستخدم الخيال- غير الجامح - في سد الثغرات التي تقطع التسلسل الزمني .

والسيرة كما هو معروف قد تناولها بالكتابة الكثيرون منذ أن سجلها «ابن هشام» إلى اليوم . لكن السحار حين شرع في كتابتها أضاف جديدا حين خالف رأي «علماء المقارنة بين الأديان» الذين يرون أن الإنسان ابتدأ في طفولته الدينية بالوثنيات ، ثم ارتقى في الديانات إلى أن عرف التوحيد ، وهنا يرى السحار أن هذه النظرية خاطئة من أساسها لأن آدم كان على علم وكان يعرف التوحيد ، ولكن كلما يطول بالناس الزمن وتقسو قلوبهم ويتحول التوحيد إلى أساطير يرسل الله لهم رسولا ليعيد البشرية مرة أخرى إلى التوحيد ، وتتكرر هذه القصة إلى أن جاء محمد - ﷺ - ومعه نزل القرآن .

وكتابات السحار الإسلامية تمت بعد اكتشاف مدينة [أور] الكلدانية وهي مدينة إبراهيم عليه السلام ، والتي يسر اكتشافها تفسير كثير من آيات القرآن الكريم تلك التي تحدثت عن إبراهيم عليه السلام فذكرت أنه حين رأى كوكبا فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾(1) ، ثم رأى القمر فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾(2) ، ثم رأى الشمس فقال : ﴿ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾(3) ، وقد لجأ بعض العلماء إلى الاعتماد على أساطير اليهود لتدبير هذا التسلسل ولكن بعد اكتشاف مدينة «أور» ومعرفة أن كوكب المشتري كان رب الأرباب في ذلك الوقت ، وأن عبادة الكواكب كانت أرقى

(1) الأنعام : 76 .
(2) الأنعام : 77 .
(3) الأنعام : 78 .

العبادات تليها عبادة القمر تليها عبادة الشمس وعلى هذا فإن الترتيب الذي جاء به القرآن الكريم هو الترتيب المنطقي الذي يطابق واقع الحياة الذي كان موجودا في الزمن القديم .

وللسحار اجتهاداته المشكورة في مجال التفكير الإسلامى ، ومثال ذلك : ما كتبه عن الخلاف بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء في التوراة حول إبراهيم عليه السلام ، فقد رأى من حقه كعربي مسلم أن يقبل من تراثه العربي ما يتفق وعقيدته الإسلامية ، فرفض مثلا أن يكون اسم والد إبراهيم عليه السلام «تارح» لأنه في القرآن الكريم «آزر» ، ورفض كذلك أن تكون «سارة» شقيقة لإبراهيم عليه السلام من أبيه تارح كما ذكرت التوراة ؛ لأنها عند المفسرين المسلمين هى ابنة عمه «هاران» وليست شقيقته ؛ حيث إن عادة زواج الأخت من أخيها لم تكن منتشرة بين العرب الذين خرجوا من جزيرتهم إلى بلاد تقر هذه العادة .

والسحار يبرر اجتهاده هذا بالقول : أن التوراة قد كتبها أحبار اليهود بعد أن انقضى على عهد موسى عليه السلام نحو سبعة قرون وانقضى على عهد إبراهيم عليه السلام أحد عشر قرنا ، وترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية في القرن الثاني الهجري فأخذ منها المؤرخون والأحباريون الكثيرون الذين ملأوا به التاريخ الإسلامى . وغيرها من الاجتهادات التى تؤكد أن السحار قد أضاف جديدا بكتاباته إلى الفكر الإسلامي الذي من أجله يمكن اعتباره واحدا من المجددين .

وعلى الرغم من أن السحار له إنتاج يزيد عن الخمسين كتابا - كما رأينا - كانت معظمها عن الإسلام وبأسلوب متميز .. على الرغم من ذلك فقد كان رحمه الله من المظلومين في الحياة الثقافية العربية ، سواء في حياته أو بعد مماته .

وكثيرا ما يتأمل المرء الأسباب التي تجعل المثقف مظلوما في حياتنا الثقافية ، وكثيرا أيضا ما تتراءى له هذه الأسباب فرادى وجماعات ، في مقدمتها بالنسبة للسحار أنه فيما كتب من إبداع أدبي اعتبره نقاد الأدب مفكرا إسلاميا ؛ لما له من

إنتاج غزير في هذا المجال ، يكفي أن نذكر منه المجلدات العشرين التي صدرت تحت عنوان (محمد رسول الله والذين معه) والتي تنتهي بعض أجزائها بتذييلات تعتبر منفصلة تصلح وحدها لأن تقيم أبحاثا في الأديان المقارنة ، يضاف إليها عدد آخر من الكتب الإسلامية المستنيرة التي تجعل ناقد الأدب لا يتردد كثيرا في القول : بأن أدب السحار يغلب عليه طابع التفكير .. وهو من شأن ناقد الفكر وليس ناقد الأدب .

ولا يقل موقف ناقد الفكر من السحار عن موقف ناقد الأدب ، إذ يعتبره أديبا مبدعا ، على زملائه من نقاد الأدب مسئولية تقييم أدبه من روايات طويلة أو قصص قصيرة ، وحتى عمله في الفكر الإسلامي يعتبره ناقد الفكر ذا صبغة أدبية . وعلى هذا .. يجد ناقد الفكر تبريرا للمرور مر الكرام على هذه الأعمال التي قدمها السحار في الفكر الإسلامي ... والتي تعتبر من أهم مراجع البحث .

وسبب آخر ، أنزل الظلم على إبداعات السحار الأدبية وأعماله الفكرية لعله في المعركة بين اليمين واليسار وما نشأ عنها من تعتيم . والحق أن هذه المعركة التي كانت بين اليمين واليسار في الستينيات شبيهة بالمعركة بين القديم والجديد في النصف الأول من الماضي أو بين الأصالة والمعاصرة .. وهي معارك تهدر قوى الأطراف المشتركة فيها ؛ لأنها تتيح لأصحاب السيادة الفكرية وقتئذ تجاهل إبداعات وأعمال الأطراف الأخرى . أو على الأقل تفرض عليها نوعا من التعتيم غير المبرر ، خاصة إذا كان كل طرف ينقسم إلى عدد من التصنيفات والتفريعات والتقسيمات الشبيهة بالبحار وما فيها من أصداف وأعشاب وطحالب ، وقد لا تكون هذه التقسيمات في مصلحة الثقافة والمثقفين في أحيان كثيرة ، وقد يتضاعف ضررها حين تتزايد من تصنيفاتها . فيقال إن في اليمين : يمين اليمين ، ويمين اليسار ، واليساري اليميني ، إلى آخر هذه التصنيفات التي تقابلها تصنيفات أخرى في اليسار ، وهي تقسيمات وتفريعات لا ينبغي بالضرورة أن تنطبق على الثقافة ، ناهيك عن الإخلاص أو

الزيف داخل كل منها، وهي معايير متغيرة ترتبط في الكثير من الأحيان بنظرة كل تيار إلى الآخر. هذه النظرة التي قد لا تكون موضوعية في أكثر الأحوال، كان من الطبيعي والأمر كذلك أن يفرض نوعا من التعتيم على إبداعات السحار وأعماله الفكرية ، إذ كان يمثل هذا الطرف أو ذاك ، ويتضاعف هذا التعتيم إذا كان المثقف محايدا مثل السحار لا ينتمي لأي من هذه الاتجاهات التي تقف بجانبه ظالما أو مظلوما .

يضاف إلى ذلك سبب ثالث لعله في ركود الحياة النقدية بوجه عام ، وهو أمر اتفق على الشكوى منه شيوخنا وأساتذتنا وعلماؤنا ومفكرونا . وأول نتائج هذا الركود هو : غيبة التقييم الحقيقي لكل إبداع أدبي أو عمل فكري ، وبالتالي ضياع الكثير من الحقوق .

ولولا وفرة من إنتاج السحار غطت مكانا فسيحا في المكتبة العربية ، واحتلت مكانة عظيمة لدى القراء لنسينا الرجل ، وكل ما قدم من إبداعات أدبية أو أعمال فكرية .

ولولا أن تنبه إلى إنتاجه عدد من الزملاء في مقدمتهم الأستاذ «مأمون غريب» الذي أفرد في عام 1975 له كتابه عنوانه (السحار والفكر الإسلامي) وعدد قليل جدا من المقالات النقدية الجادة في مقدمتها ما كتبه الأستاذ «فؤاد دوارة» ، أو الأستاذ «غالي شكري» .. لأضيف اسم السحار إلى أسماء غيره من أعلامنا المنسيين .

ولولا أن وضع أدب السحار وفكره في ميزان النقد الجامعي حيث نوقشت رسالة دكتوراه عنوانها (التيار الإسلامي في قصص السحار) كان قد قدمها الأستاذ/ «صفوت يوسف زيد» عام 1983 إلى كلية اللغة العربية بالمنصورة . متناولا بالبحث والدرس- مع العرض والتحليل- مجالات الإبداع التي تفرغ لها السحار في كتاباته، وتشمل القصص التاريخي بروافده المختلفة والقصص الاجتماعي بألوانه المتباينة.

ولعلنا نلمح هذا التأثر بالمنهج الإسلامي فيما كتبه الدكتور «صفوت أحمد زيد» في بحثه الذي نال عليه درجة الدكتوراه وعنوانه : (التيار الإسلامي في أدب عبد الحميد جودة السحار) حيث قدم السحار أكبر إنجاز فني يكفي قيامه وحده دليلا على صدق المنزع وسلامة الاتجاه ، وقد تمثل ذلك في السيرة النبوية التي ألفها في عشرين جزءا صدرت تباعا على مدى ما يقرب من ست سنوات ، وتناولت حقبة من التاريخ القديم ، تبدأ من حياة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ، وتستمر في تواصلها مرورا بإسماعيل وهاجر وأبناء إسماعيل فإذا وصل بها إلى مولد الرسول الكريم محمد - ﷺ - تناول حياته الشريفة بالكشف والإبانة في كل مرحلة من مراحلها ، على نمط خاص ومن منظور محدد ، ويظل في حركته الراصدة إلى وفاة الرسول - ﷺ - وما تبعها من خلافة أبي بكر رضي الله عنه وجهاده في حروب الردة ، مستعرضا من خلاف ذلك كله صور الكفاح الديني والبطولة الفذة في مواجهة زيف الشرك ، وفساد الطغيان ، ومبرزا دور الإسلام في تغيير المفاهيم الشركية ، وبث القيم الجديدة التي جاء بها من أجل رفعة البشر جميعا ، مستخدما نفس القالب القصصي الذي استخدمه قبل ذلك فيما عالج من سير الأعلام وقد أراد السحار من ذلك : (عرض حقبة مشرقة من تاريخ البشرية ارتفع فيها الإنسان حين أسلم وجهه لله ، ورفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة ، حقبة تحرر فيها من العبودية ، من أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا ، من أن يكون عبدا للشهوات ورغبات الجسد ، من أن ترتعد فرائصه خوفا من بطش الأقوياء وظلم الظالمين) .

وفي قطاع ثالث من أعماله - كما يسجل صاحب الرسالة الدكتور صفوت - نجده ينتقل سريعا على جسر الزمان مشدودا إلى بعض المراحل التاريخية ذات الملامح الخاصة ليؤكد صدق نظرته التي انطلق منها في تفسيره للتاريخ على أساس ديني يرى من خلاله ازدهار الحياة والحضارة في ظل الدين .

ومن هنا توقف السحار عند آخر عهد العرب بالأندلس في (أميرة قرطبة 1949) كما توقف على مشارف مصر الحديثة في (قلعة الأبطال 1954) وفي حربها ضد العدوان الثلاثي في (السهول البيض 1965) والسحار في كل هذه الأعمال لا يقدم التاريخ مجردا مدعوما بالوثائق والأسانيد فليست هذه وظيفته بحال من الأحوال ، وإنما هي وظيفة المؤرخ الذي ينشد الحقيقة ، ومن ثم فهو يتسلح بمنهج التاريخ ذي الصفة الاستردادية ، مسترشدا بمصادره في محاولة إعادة تصوير الماضي بهدف كشف الحقيقة . والبحث عن الدوافع الخفية وراء أحداثه وصراعاته .

ولا شك أن وظيفة المؤرخ بهذا المفهوم تقوم أساسا على رصد الحقائق كما هي في إطارها الموضوعي ، وتحتاج في الوقت نفسه إلى قدر من الإحساس الفني يتمثل في إعادة صياغة الماضي من جديد على صورة لا يمكن تجريدها من الذاتية التي تنبع من رؤيته للحدث التاريخي بعينه الباصرة وتكوينه النفسي والمذهبي . على أن هذه الذاتية مهما تسللت إلى الصياغة التاريخية لا يمكن أن تلحق بالطبيعة الأدبية ، ولا يصح أن يتحول التاريخ معها إلى مجال الأدب والفن . أما الفنان الذي يستلهم التاريخ في إبداعه الفني فإنه وإن كان يعتمد على الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية كمادة أولية – يرى هذا الحدث ليس أكثر من ركيزة ينطلق منها إلى عالم من التصورات والرؤى ليستشرف آفاق الحياة الإنسانية في رحلة الإنسان عبر خطوطها وصراعاته .

كما أراد بهذه السيرة أن يفسر التاريخ روحيا وأن يطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن يعيد إليه رفاهته التي بلغت غايتها في ظل الدين ، وأن يعيد للإنسان كرامته التي تتألق وتذكو كلما سما فوق مطالب الأبدان وضرورات الغرائز ، وما تهفو إليه النفوس .

وعلى ضوء هذه الدوافع راح يستعرض الجوانب المختلفة من حياة صاحب السيرة في تفصيل دقيق وتحليل أمين وعرض شيق ، مأخوذا بجوانب العظمة في حياة

الرسول - ﷺ - الذي شغف به منذ طفولته وأعجب بشخصيته، وكان كلما تعمق في تتبع مراحل حياته ازداد إعجابه وحبه له، ولقد عبر عن ذلك الحب بقوله: «بهرتني منذ نعومة أظافري شخصية محمد - ﷺ -، فعكفت على قراءة السيرة، فكنت كلما تعمقت في دراستي ازداد إعجابي بشخصية الرسول الكريم، فهو الإنسان الكامل والأسوة الحسنة للبشرية».

ومما يتصل بالمضمون التاريخي رأيناه يتناول الحياة الدينية في مجموعات قصصية ذات مستوى خاص، يتناسب مع مدارك الأطفال ودرجة نموهم، هادفا إلى غاية تهذيبية، وخطة تعليمية، فقدم للأطفال قصص الأنبياء في ثمان عشرة قصة، وقصص السيرة النبوية في أربع وعشرين قصة، وقصص الخلفاء الراشدين في عشرين قصة، والعرب في أوروبا في أربع وعشرين قصة، تناول فيها جميعا بالعرض الواضح: جوانب مختلفة من حياة البشرية وتطورها وموقفها من دعوات الرسل والأنبياء، وما تعرض الرسول - ﷺ - له في حياته من أذى المشركين في مكة، وما قام من حروب في سبيل الدعوة إلى الله، مبرزا شمائله وأخلاقه في المعاملات الإنسانية كما تناول بالبيان حياة الخلفاء الراشدين وجهادهم وما أخذوا أنفسهم به من حب للدين وإيثار لمصلحته على ذوات أنفسهم، والعمل على إعلاء كلمة الله وتطبيق أحكامه: قولا وعملا. إلى غير ذلك مما تعرض له في أسلوب سهل ولفظ رشيق، مستخدما وسائله الفنية في القصص والحكاية.

كذلك التأثر بالمنهج الإسلامي في التناول ليس فيما كتبه عبد الحميد جودة السحار من الأعمال الإسلامية وإنما أيضا نلمحه فيما كتب من أدب فنراه في حوار له بأهمية التراث الإسلامي وسر توجهه إليه في مرحلة مبكرة من حياته الأدبية بعد صدور (أحمس بطل الاستقلال) قال: «أحسست أن التراث الإسلامي والثقافة العربية الإسلامية تمثلان شيئا مهما وجوهريا داخل حلقات التطور الفكري لمصر

عبر العصور ، وأنه لا يمكن تطوير الأدب وتطـور الثقافـة المـصرية دون العـودة إلى استلهام هذا التراث وتحقيقه على المستويين : الفكري والفني .

لذلك .. كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة التي لم تشارك فقط في تطوير ثقافة وفكر المنطقة ، بل كان لها آثارها البعيدة في تطوير الثقافة الإنسانية العالمية بشكل عام » .

إلى آخر ما سجله الدكتور «صفوت أحمد زيد» في رسالته عن (التيار الإسـلامي في أدب عبد الحميد جودة السحار) ، وهو ما يؤكد سيادة هذا التيار لـيس في كتاباتـه الإسلامية فحسب ، وإنما سيادته في كل ما كتب .

❊ ❊ ❊

محمد أبو زهرة

الشيخ محمد أبو زهرة : من مجددي القرن الرابع عشر الهجري فقد ولد عام 1315هـ وتوفي عام 1394هـ . وكما يقرر أهل الفقه والعلم والتاريخ في الجامعة وخارج أسوارها : إمام لمع اسمه في سماء الفكر الإسلامي .. في أربعينيات وخمسينيات وستينيات القرن الميلادي الماضي ، ولم يقتصر الاهتمام بكتبه ودراساته ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه على الجامعة ، وإنما زاد الاهتمام واتسع ، حيث شمل طلاب علم الفقه والشريعة ومعهم المثقفون وكل المهتمين بقضايا العقيدة والدين على وجه الخصوص ، والتفكير الاجتماعي على وجه العموم . كذلك لم ينته دور إمامنا الشيخ محمد أبو زهرة على التدريس الجامعي وتعليم الأجيال المتعاقبة التي نهلت من علمه وفضله ، وإنما تجاوز ذلك .. فكان له دوره العظيم خارج أسوار الجامعة . في بعض الإنجازات الإسلامية .. ومنها مجمع البحوث الإسلامية ، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .. إلى جانب ما كان يقدمه من إسهامات مشكورة للمؤتمرات الإسلامية ، أو ما كان يقدمه لخاصة تلاميذه ومريديه وأصدقائه من زاد ثقافي .. في ندوته الأسبوعية التي كان يعقدها في منزله حتى الأيام الأخيرة من حياته .. والتي شاء القدر أن تكون آخر إنجازاته العلمية في خدمة الإسلام والتجديد في فكره حين تحول الوافدون إليها للاستفادة إلى مشيعين للشيخ الإمام إلى مثواه الأخير ، وأن يكون موضوع الندوة في هذه المرة هو : تأبين الإمام محمد أبو زهرة نفسه .

وللإمام محمد أبو زهرة آراؤه وأفكاره في العقيدة والدين ، تلك التي تجعله بين صفوف المجددين ، مثلا في موضوع تعدد الزوجات ، وما ينجم عنه من مشكلات

اجتماعية يقول : « كان تعدد الزوجات في الشرائع القديمة ، سواء أكانت شرائع دينية ، أم كانت شرائع إنسانية وضعها الإنسان ، فالتوراة بنصوصها القديمة تبيح التعدد إلى غير عدد ، ومن غير شرط . ثم من بعد ذلك جاء الشراح في الديانة الإسرائيلية ، فأراد بعضهم تقييد العدد فقيدوه بثماني عشرة ، وجاء آخرون فقيدوه بالقدرة على الإنفاق ... » إلى أن يقول : « ولم يعرف أن أمة من الأمم القديمة منعت تعدد الزوجات إلا مصر الفرعونية ، فقد عرف عنها أنها كانت في القديم تمنع التعدد، ولا تبيح قوانينها إلا زوجة واحدة .. وعن مصر أخذ الرومان وحدة الزوجة ، ثم أخذ بعد ذلك أهل أوروبا » .

ويقول رحمه الله : « والعرب كان التعدد عندهم مباحا حتى إن الإسلام جاء ، ومنهم من تحت عصمته عشر من النساء أو أكثر . وأول شريعة سماوية حدت التعدد وقيدته هي الشريعة الإسلامية ، فقد حددت العدد بأربع ، وقيدته بشرطين هما : العدالة ، والقدرة على الإنفاق » .

والإمام أبو زهرة نظر إلى مشكلة التعدد بمنظورين : **أولهما** من منظور رجل الدين المقيد بشرع الله ، الذي يرى أن تعدد الحلائل خير من تعدد الخلائل ، وأن مشكلة المشردين في الشرق ربما تكون أرحم من مشكلة لقطاء الغرب ، **وثاني** المنظورين هو منظور رجل الفكر الاجتماعي الذي يرى أن الحل في مشكلة التعدد هو في رفعة مستوى الثقافة .

وعن الربا وتحريمه في الإسلام : وكيف كان هذا التحريم القصد منه رفع سيطرة رأس المال ، يتساءل الإمام أبو زهرة : « أكان التحريم للرحمة بالفقراء حتى لا يستغل فقر الفقير وضعف الضعيف ، أم كان التحريم لأن الإسلام يريد نظاما اقتصاديا لا يتحكم فيه رأس المال بحيث يكسب صاحب المال من ماله مع عدم التعرض للخسارة سواء كسب المدين أم خسر ؟ ويجيبنا في الوقت نفسه قائلا :

« إن الواضح الذي لا مجال للريب فيه أن التحريم كان لإيجاد نظام اقتصادي لا يتحكم فيه رأس المال ذلك التحكم .. » .

ويذكرنا الإمام أبو زهرة : أن الربا قد تضاعف سبيله في أوروبا بعمل اليهود . حيث أشاعوه ليتحكموا في رؤوس الأموال . ودخل فيه المسلمون مع من دخلوا ؛ فتحققت نبوءة سيدنا رسول الله - ﷺ - حيث قال : « **يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا . قيل : الناس كلهم يا رسول الله !! فقال الصادق الأمين : من لم يأكله ناله غباره** »[1] .

وعن موضوع آخر هو الحضانة وشرعيتها في الإسلام : يذكر الإمام أبو زهرة أن لصلاحيتها شروطا ثلاثة - **أولها** : ألا تكون الحاضنة متزوجة من أجنبي عن الطفل لأن ذلك الأجنبي في الغالب لا ينظر إليه نظرات عاطفية ، **وثانيها** : أن تكون الحاضنة قادرة على المحافظة على الطفل ، **وثالثها** : أن تكون الحاضنة أمينة على خلق الطفل ودينه «ويرى» أنه لا حاضن للطفل مثل أمه .

ولا شك أن في آراء الإمام أبي زهرة الفقهية تجديدا يواكب مسيرة المجتمع الإسلامي ، وعلاقاته بغيره من المجتمعات غير المسلمة ، حيث إن الاتصالات ونظمها جعلت العالم قرية صغيرة لابد من تعاون أفرادها ، هذا إلى جانب أن هناك تيارات وأفكارا تغدو وتجيء إلى هذا المجتمع الإسلامي من الخارج ، وعليه أن يتعامل معها ، وإلا عاش خارج الزمن .

ولعل الإمام «أبو زهرة» وهو يحاول التجديد في الفكر الإسلامي في أربعينيات أو خمسينيات وستينيات القرن الميلادي الماضي كان يرنو بنظره إلى ما يحدث في أوائل القرن الحالي (الحادي والعشرين) من نظام عالمي جديد أهمه العولمة

---

(1) النسائي : بيوع .

وما تفرضه من تشابك العلاقات والأفكار . ولا يستطيع أي مجتمع إسلامي كـان أو غيره أن ينعزل عن النظام الكوني الجديد ، وإلا عاش هذا المجتمـع خـارج الـزمن . ولهذا .. فإن أفكار أمثال الشيخ الإمام محمد أبو زهرة ، لا غنى عنهـا حيـث تواكـب الزمن في حركته .

يبقى أن نشير إلى ثلاثة جوانب واضحة في تفكير هذا المجدد الجليل ، تلك التي لا يستطيع أي باحث أو دارس لحياته الفكرية أن يتجاوز هذه الجوانب الثلاثـة التـي تتضح في مواقفه ، وأستاذيته ومؤلفاته !

فأما عن مواقفه ، فنجـدها واحـدة لا تتغـير تجاه مـا يـتم مـن أحـداث ، هـي باختصار مواقف الإمام الذي يرى الموقف أرضا صلبة يقف عليها ، فـلا يهتـز مهـما جرى حوله من عواصف أو أنواء حتى لـو أصـابته .. فلـم تتغـير هـذه المواقـف في العصر الملكي أو العصر الجمهوري . ولم يخضع لسلطان أو حاكم مهـما كانـت قوتـه وسطوته . فنراه يدلي بالآراء ويصدر الفتاوى، ويلقي المحاضرات التي يضمنها آراءه في شتى الأمور المتصلة بالشريعة الإسلامية ، هذه الآراء كانت - أحيانا - غير مريحة لأصحاب النفوذ والسلطان ، وساء في العصر الملكي حين عبر عن أمـور كانـت لهـا دخل مباشر بالعقيدة والدين ، كأن ينادي نفر مـن الانتهـازيين والمنـافقين بانتـساب الملك فاروق إلى آل البيت عليهم رضوان الله . مع أن أصله لا يمكـن أن يقـرر هـذا النسب النبوي الشريف .. إذ كيف يعقل أن يكـون جـد هـذا الملـك « محمـد عـلي » المنحدر من أصول ألبانية لها علاقة قرابة بآل البيت في الجزيرة العربية؟! . لقـد كـان اعتراض الشيخ محمد أبو زهرة عـلى ذلـك واضـحا وصريحـا ، ممـا جعلـه مكروهـا للسراي وأتباعها وأشياعها من المنافقين والانتهازيين .

وفي العصر الجمهوري .. لم يكن يوافق على بعض الإجراءات والقرارات التـي كان يتخذها الزعيم جمال عبد الناصر خاصة تلك التي لهـا علاقـة بالملكيـة الخاصـة

للمواطنين مثل : قوانين الإصلاح الزراعي والمواقف من بعض التيارات والاتجاهات الإسلامية المعتدلة ، واستشراء المد الشيوعي المغلف بكلمة الاشتراكية وغيرها ، الأمر الذي كانت نتيجته استبعاده طوال المرحلة الناصرية ، حتى كاد أن يكون معزولا في بيته بعين شمس .

كذلك لم تكن مواقفه منسجمة أو متماشية تماما مع فترة حكم الرئيس الراحل أنور السادات ، خاصة فيما يتعلق بقوانين الأحوال الشخصية وما تبعها من إجراءات ، وكان يعلن رأيه صريحا واضحا في ذلك ، إلى آخر أيام حياته .

وأما عن تأثيره المباشر من خلال أستاذيته فقد كان ذلك من خلال طلابه في كليات الحقوق بالجامعات المصرية وحدها، أو المعاهد العليا مثل معهدي: الدراسات الإسلامية والدراسات العربية ؛ حيث لم يتخرج طالب من أي من هذه المعاهد العليا والكليات الجامعية أو ينال رسالة من الدراسات العليا «ماجستير» أو «دكتوراه» إلا وكانت بصمات أستاذية الشيخ أبو زهرة واضحة جلية فيما يقول أو يكتب ، خاصة فيما يتعلق بالشريعة الإسلامية وعلاقتها بالقوانين الوضعية . ولا ينسى أي من رجال القانون محاضرات الشيخ أبو زهرة التي كانت ملتقى لكل طلاب الجامعة حتى طلاب الكليات غير القانونية حيث كانوا يسارعون إلى هذه المحاضرات حتى يتشبعوا من علم وفضل هذا العالم الجليل .. ولهذا ، يمكن القول باطمئنان بأن للشيخ محمد أبو زهرة تأثيرا كبيرا على كل من تخرج في كليات الحقوق ، سواء الذين يواجهون الحياة العلمية داخل الجامعة ، أو الذين يعملون في القانون خارج أسوار الجامعة .

بقي الحديث عن مؤلفاته وكتاباته وقيمتها العلمية التي لا يمكن أن يتجاهلها إلا جاحد أو مكابر . هذه المؤلفات والكتابات أشرنا إليها مجرد إشارات عابرة وسريعة ، بل ورجعنا إلى الكثير منها في تناولنا لبعض المجددين في الصفحات

السابقة ، حيث كان يفرد للحديث عن هذه الشخصيات التاريخية مقالات ودراسات، سواء في كتبه العلمية ، أو مقالاته السيارة في الصحف والمجلات والدوريات أو في محاضراته في الندوات والمؤتمرات العامة ، أو حتى في الأحاديث في أجهزة الاتصال المقروءة والمسموعة والمرئية ... هذه المؤلفات والكتابات والأحاديث كانت من الدقة و الموضوعية إلى درجة تجعل المتلقي لا يمكن أن يتجاهلها أو يمر عليها مرا سريعا لما فيها من أصالة علمية ، وآراء تجديدية تضيف الكثير إلى تفكيرنا الإسلامي . ولهذا ولغيره من أسباب .. كانت مؤلفات الشيخ محمد أبو زهرة من المصادر العلمية والفقهية التي لا يمكن أن يتجاوزها الباحث .

إلى آخر ذلك من مآثر ومناصب خاصة بالعالم الجليل ، والمجدد العظيم ، الشيخ محمد أبو زهرة .





1 – أحمـــد حــسن البــاقوري

2 – عبــد الــرحمن الــشرقاوي

3 – محمــــــد الغزالـــــــي

4 – خالـــد محمـــد خالـــد

5 – محمــد متــولي الــشعراوي

6 – يوســــف القرضــــاوي

7 – أبـــو الأعلـــى المـــودودي

8 – أبـــو الحـــسن النـــدوي

9 – وحيـــد الـــدين خـــان

10 – أحمـــد عمـــر هاشـــم

1

هــذا القــرن

يبدأ القـرن الخـامس عـشر الهجـري في 9 نـوفمبر عـام 1980 حـسب التقـويم الميلادي ، أي : أننا قطعنا من هذا القرن (الخامس عشر الهجري) ما يزيد – تقريبـا – عن ربعه ، وفي هذه الفترة الزمنية يمكن أن نتبين ملامح بعض التغيرات في الأحوال السياسية والعلمية والاجتماعية يمكن الإشارة إليها ، آملين أن يتغير بعضها في قابـل الأعوام إلى الأفضل إن شاء الله .

فمثلا : نجد في الأحوال السياسية على مستوى العالم تفككا للكيانات الدوليـة التي كانت تتـضمن في داخلهـا مجموعـات مـن الـدول ، فلـم تعـد هنـاك في العـالم الإسلامي الدولة العثمانية في تركيا أو المغولية في فارس ... أو غير ذلك مما أصـبح في ذمة التاريخ ، كذلك انتهت إلى حد كبـير الحـرب البـاردة بـين القـوتين العظميـين : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ؛ بسبب تفكك الاتحاد الـسوفيتي إلى دول كانت في داخل الفلك الشيوعي أو الاشتراكي . ومن هـذه الـدول ، عـدد مـن الدول الإسلامية في قـارة آسـيا ، وذلـك بعـد أن نـشر الـرئيس الـسوفيتي الأسـبق «جورباتشوف» كتابه المسمى (بالبرستوريكا) وما يتضمنه من هذا التفكـك للاتحـاد السوفيتي . وكان نتيجة ذلك انفراد الولايات المتحدة بإدارة العالم ، وقد تعاقب عـلى هذه الإدارة الأمريكية للعالم عدد من الرؤساء الأمريكيين ، إلى أن تولى جورج بوش الابن هذه الإدارة عام 2000 ميلادية ليجيء بفكرة صورها له خياله المريض – كنوع من الخزعبلات أو التخريفات التي لا تستند على العقل – مؤدى هذه الفكرة أنه إنـما جاء للقضاء على الشر الذي عم وساد أرجاء الكرة الأرضية ! ويرى هو وحزبه مـن

المحافظين ومن يساندهم من اليهود والصهاينة الذين يكنون عداء أزليا للإسلام والمسلمين ، أن هذا الشيء يكمن في دار الإسلام أو بلغة العصر الحديث داخل الدول الإسلامية التي تعتبر بؤرة لذلك الشر !

وطبيعي .. وقد وصل تفكير الولايات المتحدة إلى هذا الحد غير المعقول أن يعمل رجالها والساسة منهم على القضاء عليه ، ونقرأ تعبيرات عجيبة أتت بها هذه الإدارة الأمريكية على طريقة أفلام الكاوبوي منها : محور الشر الذي يتكون - في رأي هذه الإدارة - من دول إسلامية بعينها منها : إيران وسوريا والسودان وليبيا قبل أن تعلن ندمها على ما فعلت ، وأنه ليس لديها ما يقلق الولايات المتحدة من أسلحة دمار شامل ، على الرغم من أنها لم تملك أصلا هذه الأسلحة في يوم من الأيام، وقبل هذه الدول العراق وأفغانستان، وهذا كله على حد زعم بوش وإدارته ، وبالطبع يزكي هذا الزعم ويدعمه اليهود والصهاينة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ حيث يخدمهم ذلك أولا في السيطرة على البيت الأبيض الأمريكي وما يصدر عنه من قرارات ، إلى جانب ذلك يخدمهم في موضوع الصراع العربي الإسرائيلي ، بوصف أن هذا اللوبي اليهودي الصهيوني يمتد إلى تل أبيب بإسرائيل .

ثم ينتهز الرئيس الأمريكي بوش الابن ما حدث في 11 سبتمبر 2001 من تدمير لبرجي التجارة العالمي في نيويورك، وأجزاء من وزارة الدفاع الأمريكية «البنتاجون» ليهتبلهما فرصة حيث يوجه الاتهام إلى الإسلام والمسلمين ، بأن هذا الدين ونفرا من رجاله هم الذين قاموا بهذه الكارثة التي راح ضحيتها الآلاف ، ولم يسأل نفسه إذا كان هناك نفر من أية ملة أو دين قام بهذا العمل فإنه لا يعني ذلك اتهام هذه الملة كلها أو ذاك الدين وأتباعه . هذه واحدة ، وأما الأخرى فهي تتعلق بما كتبه بعض الكتاب الأوروبيين ، بل والأمريكيين أنفسهم ، من أن ما حدث في نيويورك وواشنطن هو بفعل مؤامرة كبرى ربما قامت بها الجماعات اليهودية والصهيونية هناك، ودليلهم على ذلك أن العاملين في برجي التجارة العالمي من اليهود غادروا

هذين البرجين قبل أن يقع الانفجار ، بل لقد وصلت التحليلات السياسية لهذه الكتابات إلى أن هذا العمل تم داخل مطبخ السياسة الأمريكية لتحقيق بعض الأهداف السياسية والاقتصادية للإدارة الأمريكية في العالم الإسلامي وفي مقدمتها : الاستيلاء على بترول الدول الإسلامية .

وعلى أي حال .. فقد تم اتهام مقاتلي القاعدة بأفغانستان بالقيام بهذه العملية الانتحارية . وهنا يزداد العداء للإسلام ليس في داخل المجتمع الأمريكي الذي أصابه الضرر من هذه الانفجارات ، بل في كل أرجاء العالم ؛ حيث أصبح الإسلام والمسلمون في دائرة الاتهام ، وأن هذا الدين يحوي أعدادا كبيرة من الإرهابيين . وتتجاوز الإدارة الأمريكية كل الحدود حيث ترى بجهل فاضح أن في الإسلام أفكارا شريرة ، وطبيعي أن تشايع أمريكا في هذه الأفكار الشاذة بعض دول الاتحاد الأوروبي ، وفي مقدمتها بريطانيا ورئيس وزرائها «بلير» الذي أصبح تابعا أو ذيلاً- في سياسته الخارجية - للولايات المتحدة الأمريكية ، وإيطاليا ورئيس وزرائها السابق «برلسكوني» الذي يتهم الإسلام بالشر تأييدا لما تقوله الولايات المتحدة الأمريكية ، أملا في مساعدته على خوض الانتخابات ، التي يستمر بمقتضاها إعادة اختياره رئيسا لوزراء إيطاليا ، ولكنه سقط في الانتخابات ، واستبعد من الحكم ، ولم تنفعه الولايات المتحدة الأمريكية أو اتهامه للإسلام والمسلمين ، أو كما حدث في في عام 2006 لرئيس وزراء بريطانيا من المطالبة بإقالته واستبعاده هو وحزبه «المحافظين» من الحكم بسبب سياسته المؤيدة للولايات المتحدة الأمريكية ، أو حتى ما حدث للرئيس الأمريكي بوش نفسه الذي طالبت الأوساط السياسية والفكرية باستبعاده من الحكم ؛ لاتخاذه سياسة تسبب عنها قتل الآلاف من أفراد الجيش الأمريكي ، إلى جانب ضياع مئات المليارات من الميزانية الأمريكية دون تحقيق أي هدف استراتيجي يكون في صالح الولايات المتحدة الأمريكية .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد واصلت الولايات المتحدة الأمريكية ومن يشايعها من الصهاينة واليهود داخل المجتمع الأمريكي الادعاءات والأكاذيب لاتهام الإسلام والمسلمين بشكل لم يحدث له مثيل في التاريخ ، حيث أصبحت تخترع الأسباب والمبررات للعدوان على أي بلد إسلامي ؛ حيث تدعي بأنها خطر على الولايات المتحدة الأمريكية ، على الرغم من أن هناك آلاف الكيلومترات بين هذه الدولة وأمريكا مثلما حدث في العراق التي احتلته بدعوى أن رئيسه صدام حسين خطر على الأمن القومي الأمريكي ، ولذلك أسقطت حكمه في عام 2003 ، ودخلت بقواتها مدعمة بقوات من حلف الأطلنطي والاتحاد الأوروبي لاحتلال العراق معلنة أنها تفعل ذلك لتحقيق الأمن والأمان، الحرية والسلام، العدل والإنصاف ، السعادة والرخاء !؟ وكان نتيجة كل ذلك قتل العشرات في اليوم الواحد ، حتى يصل تعداد القتلى والمشردين والمحتجزين والمسجونين من العراقيين إلى الملايين ، ذلك لأنه لم يكن احتلالها للعراق وإسقاطها لنظام صدام حسين بل والحكم على رئيسه المخلوع صدام حسين بالإعدام شنقا، ولا لتحقيق الأمن والأمان، وإنما كان الهدف: السيطرة على مقدرات هذا الشعب المسلم ومخزونه من البترول العراقي الذي يؤول بعد ذلك إلى الشركات البترولية التي يمتلكها بوش ونائبه «ديك تشيني».

ولكن لا يحيق المكر السيئ إلا بصاحبه ، حين يتحول الموقف إلى عكس ما كانوا يتوقعون بفعل المقاومة العراقية ، وتصبح العراق مقبرة للأمريكان ومن يشايعهم ، حيث يقتل فيها الآلاف من خيرة أبناء القوات الأمريكية ، الأمر الذي جعل بعض الدول المشاركة في قوات حفظ السلام في العراق تنسحب ، معلنة أنه ليس لها في هذه الحرب ناقة ولا جمل ، وتنفرد أمريكا والبعض ممن يشايعها بتجرع مرارة الهزيمة ، والأكثر ضياع المليارات من الميزانية الأمريكية ، ويتأكد للأمريكيين أن بوش وشركاءه قد أوقعوا أمريكا في مستنقع لا مخرج منه إلا بسفك دماء الملايين وإنفاق مليارات من الدولارات . وسبحان الله ! هكذا ينقلب السحر على الساحر نتيجة لما يفعل ويصنع !؟

كذلك ، من هذه السياسات الفاشلة للولايات المتحدة الأمريكية التي تدير العالم، الكيل بمكيالين، في الصراع العربي الإسرائيلي، وذلك بمساعدة إسرائيل بلا حدود ضد العرب ، وقد نتج عن ذلك تأييدها وموافقتها لكل ما تصنعه إسرائيل من تقتيل وتدمير وتشريد فتغمض العين عنها، لكن حين يصاب أحد الإسرائيليين بمكروه نتيجة عدوانه ، فإن الدنيا تقف ولا تقعد ؛ فهذه جريمة نكراء ضد الإنسانية وما عداها من قتل وتشريد للمئات من الفلسطينيين واللبنانيين ، وتدمير منشآتهم وبيوتهم فهو أمر يدخل في إطار الدفاع عن النفس في رأي أمريكا !

والأمر نفسه يحدث في أفغانستان حين قتلت وشردت الآلاف إن لم يكن الملايين على أيدي الجندي الأمريكي ودولته التي تدير العالم ، وتسقط الحكومة الوطنية في كابول (طالبان) لتحل محلها حكومة تقبل بما تفعله أمريكا في أفغانستان كحكومة عميلة .

أو كما صنعت في العراق حين أسقطت نظام صدام حسين واعتبرته خطرا على الأمن الأمريكي ، وعينت بدلا منه حكومة عميلة من الأكراد ، والأكثر تعمل على بذر بذور الفتنة والشقاق بين العراقيين سنة وشيعة وأكرادا ، ويعلم الله كيف ومتى يلتئم هذا الجرح الغائر الذي أصاب العراق في مقتل !؟ وكل ذلك بفعل السياسة الأمريكية الرامية إلى نشر الحرية والديمقراطية في عهد بوش على ما تدعي !! فلا يحل بالعراق إلا القتل والدمار .

كذلك لم تحل القضية الفلسطينية بل تزداد تعقيدا ، ويضرب السلام على أرض السلام كل يوم . هذه القضية التي كانت في طريقها للحل قبل مجيء بوش والمحافظين ، وكل يوم لا نسمع سوى قتل العشرات وتدمير المنشآت وتشريد وسجن المئات، وكل هذا تحت شعار الديمقراطية والحرية والسلام وغيرها من أكاذيب تدعيها الولايات المتحدة الأمريكية ورئيسها بوش الغبي المخبول كما يصفه شعبه !

بل ويصبح العالم الإسلامي مستهدفا بلا سبب من بوش وإدارته، بوش الذي لا يكف عن الادعاء بأنه ما جاء إلا لتحقيق الأمن والأمان، الحرية والديمقراطية للعالم، وأنه من أجل ذلك يستأصل بؤر الشر فيه ! وطبيعي أن تتأثر دول العالم الإسلامي بهذه السياسة الأمريكية الخرقاء، خاصة وأنها تمثل القوة الوحيدة في العالم التي لا يراجعها أحد فيما تفعل أو حتى يحاسبها أو يقف ضد ما تصنعه من عربدة سياسية تكون نتيجتها التقتيل والتشريد والتدمير.

هذه الحالة السياسية تنعكس على ما عداها من أحوال اجتماعية وعلمية؛ حيث يصبح النموذج الأمريكي هو الأفضل عند ضعاف العقول وصغار النفوس في المجتمعات الإسلامية، مع أن الفرد في هذه المجتمعات لا يأمن في غده أو حتى يومه، ولا يضمن استقرارا داخل وطنه أو خارجه، بعد السيطرة الغاشمة والمستبدة للولايات المتحدة الأمريكية على كل شيء؛ حيث يستطيع أن يتضرر من سياستها المواطن العادي في المجتمع الإسلامي في عقر داره، بل يتجاوز الأمر إلى أبعد من ذلك حين يصبح من حق أمريكا أن تزيل أنظمة، وتقيم أنظمة وفق أسماء ومسميات منها: النظام العالمي الجديد، والعولمة ... وغيرها، وأن يحدث هذا وفقا لما يتماشى مع مصالحها وإستراتيجيتها خاصة في المجتمعات الإسلامية. مما تتأثر به الحالة الاجتماعية من بعيد أو قريب.

ولا تقل الحالة العلمية ارتباكا وحيرة إن لم يكن سوءا عن الحالتين السابقتين: (السياسية والاجتماعية) إذ كيف يكون الأمر على غير ذلك، والإسلام - دينا ونظاما بل وعقيدة - مستهدف للتهجم والافتراء؟ كيف يكون ذلك ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام يهاجم جهارا نهارا، من شذاذ الآفاق وحثالة الشعوب ممن كانوا في الأصل من صائدي الأسماك (المعروفين بالفايكنج) فيقوم واحد منهم في الدانمارك برسوم صور للرسول الكريم لا تراعي قدسية الأديان وأنبيائها، ولا حتى حرمة الأموات !؟ بل تتجاوز هذه الافتراءات حدودها حين يتولى كبر الهجوم على

النبي ، وبأنه جاء بالشر على لسان بابا روما ! وكيف يكون ذلك والإسلام كنظام يتضمن العبادات والمعاملات والقوانين الشرعية يهدد كل يوم من أمريكا التي تدعي بجهل فاضح القيام بعملية التعليم والعلم الإسلامي بالمدارس والجامعات والمعاهد العليا ، في العالم الإسلامي ؟! بل وأخذت أمريكا من جانبها تطالب بعض الدول الإسلامية أن تطور ثقافتها وتعليمها كما حدث منها في أفغانستان حين طلبت ذلك من الإدارات العلمية والتعليمية ، أو ما حدث شبيه له في باكستان .

أقول : أمريكا تدعي كذبا بأنها تعمل على تجديد الفكر الديني في الإسلام لأول مرة في التاريخ ، مع أن ذلك حدث وتم على أيدي علماء الإسلام وفقهائه منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، كما يتضح من صفحات وفصول هذا الكتاب الذي تتم صفحاته بعون الله وتوفيقه بمثل هذه السطور . ولكن ما العمل وقد أصيبت الإدارة الأمريكية بالجهل الفاضح والغفلة التي ليس لها مثيل ؟!

والسؤال الآن : كيف يكون هناك أمن وأمان ، سلام واطمئنان ، حرية وديمقراطية في المجتمعات الإسلامية في ظل السياسة الأمريكية القائمة على عداوة الإسلام والمسلمين ؟! .. سؤال نترك للأيام الإجابة عليه .

يضاف إلى ذلك ما يصيب الإسلام من أبنائه أنفسهم ، في هذا المنعطف التاريخي الحاسم ؛ حيث تختلط الأوراق وتتداخل الأمور ، ونجد من ليس له دراية أو علم أو حتى خبرة في الدين يقوم بالفتوى فيه !! حيث تتحول القنوات الفضائية والأرضية إلى ملتقى وقبلة للإفتاء في الإسلام !؟ وممن!؟ من غير متخصصين تحولوا بقدرة حي قادر إلى علماء لا يشق لهم غبار في الدين ، كالفنانين والفنانات الذين اعتزلوا الفن ، فنراهم اليوم يدعون إلى المعروف وينهون عن المنكر ، ويفتون في كل شيء ، مما يجعل لهم ضحايا ممن ارتبط وجدانيا أو عقليا بهؤلاء المعتزلين ، والغريب أنهم يعودون إلى ما كانوا فيه قبل الاعتزال ، والله غفور رحيم .

كذلك ، نجد طائفة أخرى من مدعي الإفتاء تطل علينا في كل يوم من هذه القنوات الفضائية والأرضية ، وأغلبهم من غير المتخصصين ، وقد جاءوا لتحقيق الشهرة والمال في الحديث عن الإسلام ! .

وفي ظل هذا الوضع المتدهور نجد الأزهر وجامعته في صمت دائم حيال هذه الهجمة الضارية من الخارج ومن الداخل على الإسلام ونبي الإسلام ، فإذا كان لا يستطيع الرد على الذين يهاجمون الإسلام في الخارج ؛ لأن لذلك أسبابا ومسببات لا داعي من ذكرها ، فعلى الأقل عليه أن يقوم برد هذا الهجوم في الداخل ، أما أن يبقي الأمر على ما هو عليه ، ولا نسمع أو نقرأ موقفا حاسما للأزهر وجامعته ضد هذه الافتراءات ، فهذا هو غير المعقول ؛ حيث إن الأزهر وجامعته وهيئاته ومراكزه هي جميعها من أصحاب الاختصاص في هذا الأمر بالذات .

ولكن على الرغم من ذلك ، على الرغم من هذا الإحباط الذي يعم حياتنا في الربع الأول من القرن الهجري الخامس عشر في كل النواحي ، نجد هناك بروزا لثلاثة من العلماء الأجلاء أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد في الإسلام هم : إمام أهل التيسير الشيخ «أحمد حسن الباقوري» ، والداعية المفكر الشيخ «محمد الغزالي» ، والداعية المستنير الذي ارتبطت به الجماهير الشيخ «محمد متولي الشعراوي» فلنقرأ معا آثارهم التجديدية .

الشيـخ الباقـوري

يعتبر الشيخ أحمد حسن الباقوري ، في مقدمة مجددي القرن الخامس عشر للهجرة حيث ولد عام 1325هـ وتوفى عام 1406هـ . فهذا العالم المستنير كان في إمكانه أن يكون من بين المجددين في ذلك القرن أو القرن الذي قبله كعالم من علماء الدين ، الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير العقلي للأمة الإسلامية ، وبذلوا في سبيل ذلك الكثير من التضحيات الباسلة التي منها السجن قبل ثورة يوليو 1952 أو تحديد الإقامة في منزله عددا من السنين بعد هذه الثورة .

وكان في إمكانه أن يكون من المجددين ، وذلك من باب إعلاء قيمة العقل ، والحفاظ عليه بعيدا عن الانقياد للعاطفة والهوى ، أو أن ينزل على حكم غير حكم العقل المستند على الضمير الحي اليقظ الموضوعي .

وكان في إمكانه أن يكون بين المجددين ، وذلك من خدمته للغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، كأديب مطبوع يعرف أمانة الكلمة ، ويرعى اللغة العربية وحرفتها ، ويحرص على الصلة الأزلية بينها وبين القرآن الكريم .

وكان في إمكانه أن يكون من بين المجددين في زمانه لو دخل التجديد من باب كونه داعية ومربيا ومعلما يتلقى الناس عنه مثالية الأخلاق ، وصفاء العلم والمعرفة ، عملا لا قولا ، وسلوكا لا نصحا .

وكان في إمكانه أن يكون من بين المجددين من باب مواقفه الوطنية الباهرة التي تسعى إلى الحق والعدل في الأحكام وترفض الاستكانة والذل لغاصب أجنبي أو حاكم مستبد، هذه المواقف التي جعلته يحمل رأسه على كفه ويسير غير مبال بالموت،

مؤمنا بأنه كلما حرص على الموت والشهادة في سبيل كرامة وعزة وطنه كتبت له الحياة والكرامة ، ويبقى مشاركا لثورة عارمة من أبناء الأزهر ، تتحدى وتقاوم ، لتنتصر على القصر الملكي ، والاحتلال البريطاني ، والرجعية السياسية والأخرى العلمية ، وكلتاهما كانت تجران مصر إلى الوراء .

وكان في إمكان الشيخ أحمد حسن الباقوري أن يدخل باب التجديد في الفكر الإسلامي ، وزيرا ثائرا مع الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تمر بها مصر ، نعم وزيرا للأوقاف يحول خزائنها المتناثرة على أرض مصر إلى عمارات ، ومقابرها إلى مساجد ومدارس ، ويدفع بعلماء الدعوة فيها إلى الوظائف العليا ، والمراكز القيادية . حتى تحولت هذه الوزارة في عهده إلى وزارة للدعوة المتعقلة ، والتعمير والإنتاج والتصنيع المطلوب .

ثم كان في وسعه وإمكانه أن يكون من المجددين للقرن الخامس عشر ، قرن التحولات والأعمال الكبرى ، إذا دخل من باب إنشائه وإدارته لجامعة الأزهر ، فأعاد للأزهر مجده وبهاءه ، وجعل منه رحابا فسيحة تتسع لكليات الطب والهندسة والعلوم والزراعة واللغات إلى جانب كليات للبنات ، فيعود صحن الأزهر إلى أيام شبابه وفتوته ، وتموج قاعاته وأعمدته بحلقات العلم مفتوحة للجميع .

كان في وسع الشيخ أحمد حسن الباقوري أن يكون ذلك وغيره ، الذي يجعله من بين المجددين ، ولكنه كما قال عنه مؤرخوه : بصيرا ملهما ، أمينا ونقيا ، شجاعا وباسلا ، متفتحا وسمحا ، متواضعا وجليلا ، ومهيبا ومحبوبا ، فكان في كل ذلك مزيجا من كل هذه الصفات .

وكان الباقوري نموذجا فذا من العلماء الدعاة ، فقد جمع إلى جانب العلم الغزير المروءة العالية ، والسماحة التي يلمسها كل من يلقاه والأدب العالي الذي يجذب إليه كل من يستمع إليه خطيبا أو متحدثا أو محاورا ، وقد شهدت وزارة

الأوقاف في عهده انطلاقة واسعة تمثلت في الارتفاع بمستوى القائمين بأمر الدعوة وسيادة النظرة السمحة التي كانت تميز منهج الشيخ والتعبير الصادق عن نظرة الإسلام الرحبة للكون والحياة ، ونشر المفاهيم التي تؤصل هذه القيم العليا في القلوب والمشاعر .

وقد قامت الوزارة في عهده بنشر كتاب : (العلم يدعو للإيمان) ، وقدم له ببحث رائع عن الإيمان وأثره في حياة الأفراد والمجتمعات ، وهو كتاب يستفيد منه المشتغلون بعلوم الدنيا والدين ، كذلك كان الباقوري هو اللسان المعبر في شرق الأرض وغربها عن اتجاهات ثورة يوليو ، وتمثل ذلك في رحلاته التي قام بها من الصين إلى المغرب ، ولما أسندت رئاسة جامعة الأزهر إليه ، كان ذلك يمثل عصرها الذهبي فقد جعل منها ملتقى للفكر العالمي ، ومثابة للباحثين والزائرين من جميع أرجاء العالم .

لقد شهدت – ولاتزال تشهد – قاعة الشيخ محمد عبده قادة الأديان وأساتذة الجامعات في أوروبا يلقون فيها محاضراتهم . ويعرض الشيخ الباقوري من خلال ذلك عظمة الإسلام وسماحته ، وكان مجلسه على مدى خمس سنوات ونصف في منزله ندوة علمية يرتادها كبار العلماء والمفكرين ، وتبسط فيها القضايا العلمية في علوم الإسلام واللغة وآدابها بعيدا عن السياسة وما فيها ، وكان رحمه الله محورا تتجمع فيه القلوب والمشاعر في مصر وخارجها ، وقد تكررت زيارته إلى إنجلترا على مدى العشرين عاما الأخيرة من حياته لاستشارة الأطباء وتلقي العلاج ، وهناك كان مجلسه مثابة للعلماء والأدباء من رجال العروبة الذين يتواجدون في لندن ، وعلى الرغم من تعرضه لبعض المتاعب الصحية ، إلا أن ذلك لم يصرفه عن البحث والدرس والإنتاج والتوجيه في الصحف ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية ، وما زود به المكتبة الإسلامية والعربية من إنتاج غزير في الشريعة ومعالمها ، واللغة وآدابها، والتاريخ ورجاله .

وكانت حياته العلمية - كما يسجل الدكتور «محمد إبراهيم الجيوشى» في مقالة بالأهرام : سلسلة متواصلة من الكفاح العلمى والنضال السياسى ، فقد وهبه الله عقلا راجحا ولسانا مبينا ورأيا سديدا وشجاعة في الحق لا تعرف التردد فكان الخطيب الذي يهز أعواد المنابر والأديب الذي يأخذ بلب القارئ والعالم الباحث المدقق الذي يكشف عن أسرار كتاب الله وهدي النبي - ﷺ - ، وكان الانتماء للإسلام الهاجس الذي يشغل باله ويملك آفاق فكره ، والمحرك الذي يدفعه إلى الإقدام على أي عمل يرى فيه خدمة لدينه ورفعة لشأنه ، وتجلية لحقائقه ، من أجل ذلك صحب الشيخ «حسن البنا» وجاب معه مصر من شمالها إلى جنوبها ، وقضى أيامه الوظيفية الأولى بالأزهر بين ساحات الدروس وباحات المعتقلات والسجون .

له دور مذكور ومشكور في الإصلاح الذي يحتاج إليه القائمون بأمر الدعوة من أئمة وخطباء ، وكان رحمه الله يتخذ المنابر وسيلة لتقديم المثل الحى على ما يجب أن يكون عليه خطيب الجمعة من فقه في الدين ومعرفة بالحياة . وقد حدد منهجه في أول خطبة ألقاها بعد توليه الوزارة في عناصر ثلاثة :

1- الحرية التي تنبع من الإسلام من حقيقة : لا إله إلا الله .

2- الثقة بالنفس التي تستند في نفوس المؤمنين الصادقين إلى الأدب الرفيع في قول رسول الله - ﷺ - : « **لا يكن أحدكم إمعة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم** »[1] .

3- قيام العلاقة بين المواطنين على المودة والتراحم ، مع البعد عن العصبية للعرق أو الجنس أو اللون أو الدين أو الغنى أو الفقر ، ويكون فضل الإنسان ومكانته بقدر ما يبذله من جهد مشكور .

(1) الترمذي : باب البر .

ولعلنا نستنير من فكر وعلم الشيخ الباقوري بعرض كتابين من كتبه ، الأول : (معاني القرآن بين الرواية والدراية) والثاني ، كتاب : (قطوف من أدب النبوة) في هذه السطور السريعة .

يدور الكتاب الأول حول وحدة المسلمين ، وقد كان - رحمه الله - يأسى كثيرا لما يجد عليه المسلمين من تفرق الكلمة ، واختلاف الرأي ، واحتدام الضغائن فيما بينهم ، ويرى أن الرابطة الوحيدة التي تجمعهم هي رابطة الإسلام ، وأنهم ما تفرقوا واختلفوا إلا لأنهم اتخذوا هذا القرآن مهجورا ؛ فالقرآن والسنة كلاهما يدعو إلى الوحدة وينهى عن النزاع والاختلاف ، وهكذا يتناول كتاب : (معاني القرآن بين الرواية والدراية) والأسس الثلاثة التي تقوم عليها وحدة المسلمين وهي : الكعبة المشرفة ، والقرآن الكريم ، والخلافة الإسلامية وهي العمد الثلاثة التي قامت عليها أول دولة للإسلام في المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

أولا - الكعبة المشرفة : هي الرمز البارز لاتحاد المسلمين ، مهما تباعدت مواطنهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم ، وإليها يفيئون من شتى البقاع وإليها تتجه وجوههم في صلواتهم .

وفي تناوله لموضوع الكعبة المشرفة يقول الشيخ الباقوري :

« والذين يتبعون في عصرنا هذا ما صار عرفا متبعا بين الشعوب من المعاهدات الثقافية التي يتعارفون فيها ويتواصلون والمعاهدات الاقتصادية التي يتبادلون فيها المنافع والكسوب ، يرون الإسلام قد سبقهم إلى ذلك بأربعة عشر قرنا من الزمان . فالحج بهذا النظر ركن عظيم تستند إليه الجامعة الإسلامية التي تصون مصالح أمة القرآن » .

ثانيا- القرآن الكريم: هو دستور المسلمين العام، فيه علم ما بينهم ونبأ ما قبلهم وما بعدهم ، وهو كلام الله الذي يتعبد المسلمون بتلاوته ويتبعون أحكامه ويتقربون

إلى الله بقراءته وسماعه . ويتساءل الشيخ الباقوري : « وإذا كان المسلمون في مختلف أنحاء الأرض يتلون كتابا واحدا، فلماذا يختلفون فيما بينهم ، ولماذا تنحل وحدتهم؟!»

ويقول – رحمه الله – : « لقد جمع الله تعالى للمسلمين في هذا الكتاب الكريم أصول الحياة الاجتماعية الشريفة التي يسعد في ظلالها أبناء العقيدة الإسلامية ، وأجمع على احترامها أهل الديانات السابقة على الإسلام ، إنها الكليات الخمس وهي : احترام النفس – واحترام المال – واحترام النسب – واحترام العقل – واحترام الدين . إن الله قد جمع للأمة الإسلامية في هذا الكتاب العزيز كل ما يعتز به الإنسان ويسعى إليه ويحرص على الظفر به من الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والسلام . وصدق الله فيما وصف به كتابه الكريم في قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1] ».

ثالثا – الخلافة الإسلامية : هي الرابطة السياسية التي تجمع المسلمين تحت لواء واحد ، وقد خسر العالم الإسلامي خسارة كبيرة بضياع الخلافة الإسلامية منذ دالت دولة العثمانيين .

وبمقدار ما كانت الأمة الإسلامية ترى في هذه الأصول الثلاثة سبب بقائها ونمائها كانت قوة الاستعمار ترى فيها عقبة كئودا في طريقها إلى الاستذلال والاستغلال ؛ ولذلك راحوا يتربصون بها ويكيدون لها ، تسوقهم إلى ذلك أحقاد مشبوبة النار مسعورة الأوار ، حتى إذا لاحت لهم الفرصة إلى النيل منها ، خصوها بكل ما تنطوي عليه صدورهم من أحقاد .

ونختار من الكتاب الثاني (قطوف من أدب النبوة) فصلا عنوانه : «الرجوع للحق فضيلة» نسجل منه هذه السطور :

---

(1) إبراهيم : 1 .

« وقد يخطئ الناس طريق الحق ، وربما كان في معروف أهل السلطان ، أن الرحمة خور في الطبيعة، وأن العدل غض من جاه الحكم، ونقص من هيبة السلطان، فإذا الظلم عند أحدهم أحب إليه وآثر عنده من العدل الذي هو في رأيه أو في رأي أهل السوء من بطانته ، سبيل إلى فقد لعزازة الجاه وحرمان من لذاذة السلطان .

ولذلك ، يبدو غريبا من مثل «الحجاج بن يوسف الثقفي» . أن يعترف بالحق ويخضع لمنطق المظلوم ، ويشيع في الناس ذلك المعنى ، على نفرة الظلمة من الخضوع لمنطقه ، والضن بهيبتهم على التخاضع لسلطان العدل الذي تنتظم به أمور الدنيا وأمور الدين .

وبيان ذلك ، وما يرويه الثقات من أسلافنا ، من أن في أولئك الطغاة من ولاة أمر الأمة العربية ، من كان يفيء إلى ظلال العدالة ، تسكن إليها نفسه ، أو يعتز بها سلطانه ، فقد وفد ذات يوم على الحجاج رجل يدعى «فرعون بن سلكة» فقال له : أصلحك الله أيها الأمير ، أصغ إلي سمعك ، واغضض عني بصرك ، فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك العقاب ، وإن سمعت غير ذلك فأنصفني من الظالمين .

وعلى الرغم من أن الحجاج كان فاتكا لا يهاب دما يريقه ولا ظلما يرتكبه . لم يجد بدا من أن يكون كما رغب إليه الشاكي أن يكون فقال له : قل ، أسمع ، وإياك أن تفتئت بالباطل ، أو تتزيد في الشكوى ، فإن الصدق أنجى لك وأعون على إنصافك ، فقال له ابن السلكة : اقترف جار قريب لي ذنبا ، وليس لي سلطان ، ولا لي بمعاقبته يدان أو قدرة ، فجاء وكيلك فأمر بهدم داري ، ثم وضع حلقة حول اسمي. فوضعني بهذا التحليق على اسمي في قوائم أهل الشبهات ، المتمردين على سلطان القانون ، وأدركت الحجاج بعنجهيته الإعرابية . فقال : هيهات . أو ما سمعت قول الشاعر :

جـانيك من يجنـي عليك وقد
تعدى الصحاح مبارك الجـرب
ولرب مأخـوذ بذنب عشـيرة
ونجا المقارف صاحب الذنـب

ثم قال الحجاج للمستغيث به من رعيته : إن الجاني هو من يجني ، ولكن جـوار الجناة سبيل إلى أخـذ الـبريء بـذنب المجـرم ، كالإبـل الـصحيحة يـصيبها الجـرب بالعدوى ، إذا بركت في مبارك الإبل الجربى .

ولم يكد المظلوم الشاكي ، يستوعب كلمات الحجـاج ، حتـى مـلأ اليـأس قلبـه واستعجمت الكلمات على شفتيه ، وضاقت الدنيا - بما رحبت - عليه وحتـى خيـل إليه أن اللياذ برؤوس الجبال آمن له وأحب إليـه مـن معايـشة أولـئك الظـالمين مـن الحكام والمحكومين ، ولكن عناية الله أدركته ، بعد أن بلغ اليأس به غاية مداه ، فـإذا هو يتجه إلى الحجاج ، فيراه شيئا قميئا ، ويرى الله جل ثنـاؤه مـلء نفـسه ، ومطـاف حسه ، فيقول من حيث لم يرد أن يقول : ولكن الله يقول غير ذلك يا حجـاج ، فإمـا أخذت بقول الله في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا مـن خلفـه ، وإما أخذت بكلمة شاعر أعرابي جهول .

فقال الحجاج : وما الذي قال الله يا هذا ؟ قال الله - جل ثناؤه - على لسان أبناء يعقوب لفرعون مصر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴾[1] .

(1) يوسف : 78 ، 79 .

فلما قرعت الآية سمع الحجاج ، دعا بصاحب المظالم فقال له : أفكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعطائه، ومر مناديا ينادي في الناس : صدق الله ، وكذب الشاعر، وأخطأ الأمير .

وهكذا يكون الكبار دائما ، يرجعون إلى الحق ، حين تلوح لأعينهم أعلامه ، وتتضح بين أيديهم المعالم إليه . فأما الصغار ، فإنهم دائما صغار ، لا يرجون الخير في دنيا أو دين ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » .

وإذا أضفنا إلى ما سبق من إشارات إلى علم وفكر وفضل الشيخ الباقوري جانبا مهما هو جانب التيسير وعدم التشدد ، فإن ذلك يعتبر في حد ذاته من مقومات تجديد هذا العالم الجليل في التفكير الإسلامي .

هذا التيسير وعدم التشدد استمدهما من الكتاب والسنة ، حتى صار إماما في هذا المجال يعرف به ، فضلا عن مآثره الأدبية واللغوية المكتوبة أو المسجلة بصوته في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية إلى جانب محاضراته ؛ فقد كان رحمه الله داعية يملك كلمته ويبثها في موضعها باقتدار وسلاسة ، تشع بالروح القرآني المبهر ، الذي يغزو القلوب والعقول فور إلقائه ، فتهتز لها الأرواح طربا وتطمئن لها خشوعا وسكينة ، وهذا بفضل معايشته للقرآن الكريم .

لقد كان يرى في مجال التيسير وعدم التشدد ، أسلوبا ينبغي أن يتبعه العالم أو الداعية أو العالم أو المتفقه في الدين مع الحرص - بالطبع - على الكتاب والسنة فيقول : «التشدد لا خير فيه للمتشدد، وللمتشدد عليهم ، ولا خير فيه لرب العالمين، فالله سبحانه وتعالى حين أمر الناس وكلفهم إنما أمرهم وكلفهم في حدود ما يطيقون، وفي حدود ما ينتفعون ويسعدون ، فعلى قدر ما تحسن ستلقى ، كلما كان المنهاج سهلا ميسرا ، ولذلك انصرف الناس أحيانا عن الدين نتيجة التعسف أو العصبية ؛ لأن الإنسان إذا وجد نفسه محوطا بالأغلال والسلاسل ، حيثما تحرر أو تحرك ، فإنه

لا مناص له ولا معدل في أن يحطم عن نفسه هذه السلاسل والأغلال ، ومن هنا ، وجدت طائفة الخوارج في التاريخ القديم ، ووجدت في التاريخ الحديث الأعمال المغرضة فشقيت لنفسها ، وأشقت المجتمع الذي تعيش فيه » .

ولعل من مقومات هذا التيسير وعدم التشدد ، مكونات الأسلوب عنده وتميزه عن غيره من العلماء ، فقد كان يمزج أسلوبه بسحر الكلمة ، وعطر الحرف ، ودقة العلم ، ورصانة العبارة ، وموضوعية ونزاهة الحكم .

ولعلني أسجل مثلين على هذا التيسير وعدم التشدد اللذين تميز بهما عالمنا الجليل الشيخ الباقوري . أما **المثل الأول** : فقد كان قبل منتصف الستينيات من القرن العشرين وكان صاحب هذه السطور صحفيا في بداية الطريق ، وقد طلب منه إجراء حديث مع الشيخ الباقوري أثناء إدارته لجامعة الأزهر بمناسبة شهر رمضان . وتوجهت إلى مكتبه للقائه ، وإذ بي أجد نفسي في مواجهته وحوله عدد كبير من كبار العلماء المعروفين في ذلك الوقت ، وأستأذن منهم كي يستمع إلى أسئلتي . وكان من بين هذه الأسئلة سؤال مستفز في مضمونه هو : لو جاءك شيوعي لا يؤمن بالله وسألك عن قيمة وجدوى الصيام فكيف تقنعه بالصوم دون أن ترجع إلى الكتاب أو السنة اللتين لا يؤمن بهما فماذا تقول له ؟ انزعج الحاضرون لهذا السؤال ، وبدت عليهم ملامح الازورار والغضب ، والتي تحولت إلى همهمة تعبيرا عن رفض هذا الأسلوب في الحوار ، وهنا انبرى الشيخ الباقوري مهدئا إياهم وقائلا : « إن ولدنا سامح على حق في هذا السؤال ، فمثل هذه الأسئلة هي واجب علينا أن نرد عليها ونقنع أصحابها » . وواصل حديثه معي مدللا على قيمة الصوم وجدواه ومنافعه دون أن يلجأ إلى آية قرآنية أو حديث شريف .

وأما **المثل الثاني** : فقد كان حين شرعت في تأليف كتاب : (مع النبي في رمضان) الذي يتناول هدي النبي - ﷺ - اليومي في رمضان بحيث يشتمل الكتاب على

ثلاثين فصلا بعدد أيام شهر رمضان ، ولما كانت هذه الفصول تتضمن مسائل فقهية حساسة ومتعددة طلب مني الناشر وقتئذ أن أمهد لها بمقدمة بقلم أحد العلماء الثقات، وطبيعي أن يمثل هذا المطلب من الناشر عندي صعوبة مؤداها: كيف يمكن إقناع واحد من علمائنا الأجلاء بتقديم كتاب يتناول هدي النبي - ﷺ - وتعاليمه التي ينبغي أن يتبعها المسلم في رمضان ؟!.. وهنا قصدت باب الشيخ الباقوري وطلبت منه أن يكتب مقدمة لهذا الكتاب ، فأبدى استعدادا طيبا وأخذ الكتاب وقرأه وعلق عليه بشيء من الأناة والدقة مستحسنا جهد صاحبه المؤلف الشاب ...

وهكذا كان الشيخ الباقوري يأخذ بأيدي الأجيال الشابة ، شأنه في ذلك شأن الأساتذة الكبار . وغير ذلك من جوانب تيسيره في الدين .. على اعتبار أن الدين يسر وليس عسرا .

❋ ❋ ❋

عبد الرحمن الشرقاوي

يعتبر عبد الرحمن الشرقاوي من مجددي القرن الخامس عشر الهجري، فقد ولد عام 1338هـ وتوفي عام 1408هـ، لما قدمه من كتب إسلامية تدور حول النبي - ﷺ - والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والصحابة والقضايا الإسلامية بأسلوب أدبي شاعري تميز به عن غيره، خاصة حين مزج الدين بالسياسة على اعتبار: أن الإسلام دين وحياة، وغير ذلك مما جعل كتاباته عن الإسلام ذات مذاق خاص، وتناوله مختلف عن غيره من كتاب (السير والشخصيات الإسلامية).

وطبيعي أن يكون ما يبقى للشرقاوي ككاتب إسلامي صناعته الكلمة: مواقفه وأعماله، فأما المواقف فقد حفلت بها حياته، وأما الأعمال فقد سجلتها كتاباته. ومن مزيج الاثنين معا كان الشرقاوي الذي عرفه القارئ العربي، وعرف مواقفه لأقرب من نصف قرن.

هذه المواقف جسدتها كتاباته - وإن كان لم يحرص على كتابة ترجمة ذاتية لنفسه على عادة كبار الكتاب، باستثناء هذه الإشارات السريعة التي جاءت في مقدمة «أحلام صغيرة» - بصورة إن لم تكن صريحة فهي على الأقل ضمنية. على أن بعض الكتابات قد غطت هذا الجانب المفتقد من كتاباته، فرصدت العديد من مواقفه، سواء في حياته أو بعد رحيله.

تبقى الأعمال. وهنا يحار المرء بسبب غزارتها وتعدد توجهاتها، فهل يكتب عن الشرقاوي الروائي: صاحب رائعة «الأرض» التي تعد واحدة من عيون الأدب العربي الحديث، وغيرها من الأعمال الروائية الخالدة؟! أم يكتب عن الشرقاوي

كاتب القصة القصيرة وإسهاماته في هذا الميدان بمجموعات منها (أرض الأحـلام) و(أحلام صغيرة) وأمله مع أبناء جيله أن يرقى هذا النوع من الأدب إلى المستويات العالمية ؟! أم يرصد هذه الأعمال الشعرية ، والتي نلمحها في الكثير من أعماله سـواء ما نشر في كتب مثل : (رسالة إلى شهيد) أو (باندونج والسلام العـالمي) أو مقـالات في صحف ومجلات الشعب والمساء وروزاليوسف والأهـرام ، حيـث كـان يواكـب الأحداث ، مؤكدا بصورة أو بأخرى مقولة أن الكاتب الحقيقي وسط المعركة قاسم وشريك ، وأن صمته أحيانا عن الأحداث يعتبر موقفا في حد ذاته ؟! أم يسجل المرء لمسرحه الشعري وتجربته الرائدة في استخدام الشعر الحر في الدراما الـشعرية ، فاتحـا بذلك آفاقا جديدة للمسرح الشعري أسهمت إلى حد كبير في إثراء الحوار المـسرحي ليشمل الكثير من قضايانا مـن خـلال مـسرحيات منهـا : (مأسـاة جميلـة) و(الفتـى مهران) و(وطني عكا) و(الحسين ثائرا) و(الحسين شهيدا) و(النسر الأحمر) و(عرابي زعيم الفلاحين)؟! ... وغيرها من الأعمال التي وظـف في بعـضها الـتراث العـربي والإسلامي توظيفا فنيا مبدعا ، فلم يتعامل مع هـذا الـتراث كـمادة خـام تنتمـي إلى الماضي، بل كمواقف وحركات تسهم إلى حد كبير في تطوير المجتمع العربي المعاصر، وكأنه يؤكد أن أصالة إبداعنا هي الرؤية المعاصرة لتراثنا ، أم ترانا نسجل لإسـهاماته في ميدان الكتابة الإسلامية ، وهو الميدان الأثير إلى نفسه حتى آخر أيام حياته ، وهـو في الوقت نفسه الميدان الذي تمثل فيه بحق وهج تفكيره شابا ناضجا ، وعمق تجربتـه كاتبا كبيرا ، وخاض من أجله الكثير من المعارك الفكرية التي ناله منها مـا نالـه مـن متاعب مصدرها وضعه حدا فاصلا بين معنى الدين الإسلامي في عظمتـه وجلالـه من ناحية ، والمتحدثين باسم هذا الدين والمتاجرين به من ناحية أخرى ؟!

وعلى الرغـم من أن هذا الميدان الذي كان أثـيرا لديه ، والذي قـدم فيـه إنتاجـا غـزيرا نذكر منه: (محمد رسول الحرية) و(الفاروق عمر) و(علي إمام المتقين) و(أول الخلفاء أبو بكر الصديق) و(عمر بن عبد العزيـز) و(الأئمـة التـسعة) و(ابـن تيميـة

الفقيه المعذب) و(قراءات في الفكر الإسلامي) ، والذي لم يتوقف عن الإسهام فيه حتى آخر أيام حياته ، فإنه لم يقيم التقييم الواجب الذي يعطيه ما يستحقه ويأخذ منه ما يزيد على حقه .

ولعل المرء لا يبالغ في القول : أن إسهام الشرقاوي في ميدان الكتابة الإسلامية مادة خصبة تغريه بالتأمل ، بل تجعله يفضله على غيره من الميادين الأخرى التي أسهم فيها ، لسبب بسيط هو أنه في هذا الميدان بالذات تتركز خلاصة أفكاره العلمية والعملية معا .

ولهذا ولغيره من أسباب ، تقدم هذه السطور محاولة متواضعة أو هذه الكتابة الإسلامية إشارة إلى إسهام الشرقاوي في ميدان الكتابة الإسلامية ، حيث تختبر هذا الإسهام بعدد من التساؤلات منها : هل أضافت جديدا إلى تفكيرنا الإسلامي ؟ وهل كانت هذه الكتابات الإسلامية مميزة عما كتبه عدد من الرواد ؟ وهل تضمنت حقا خلاصة تجربة الشرقاوي سواء العلمية أو العملية ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها ، نسجل بادئ ذي بدء : أن الشرقاوي في اختياره لهذا النوع من الكتابات ، قد أدرك أن الكتابة عن هذه الشخصيات الإسلامية أو غيرها من المادة الإسلامية عمل فكري لا يقوم أمره على تجارب حاضرة تخدم أخرى قديمة ، أو برهان جديد ينقض آخر قديما ، بل الأمر فيها قائم على رواية الخلف عن السلف ، والمحدثين عن الأقدمين ، منذ قام الإخباريون المسلمون الأوائل يتناقلونها حتى وصلت في شكل سير وتراجم مكتوبة .

هذا الأمر لم يكن خافيا على الشرقاوي ، فقد أشار إليه في كتاباته الإسلامية المتعددة ، فنراه في تقدمته لكتاب (محمد رسول الحرية) يقول : « أنا لا أقدم كتابا جديدا في السيرة ، فمكتبة السيرة غنية زاخرة بالمؤلفات القديمة ، وما أحسب أن كتابا جديدا يمكن أن يضيف حقيقة جديدة إلى ما كتب عن السيرة » .

وإذا كانت المادة في هذه الكتابات واحدة ، فلابد أن يكون في تناولها ما يميز كاتبا عن آخر . وهنا نجد الشرقاوي قد اختار لنفسه ذلك اللون الفني في التناول وهو لون يصبغ العمل ككل بصبغة الإبداع ، فالكاتب يجمع بين يديه كتب السابقين والمحدثين ليخرج في النهاية بعمل مبدع مؤلف ، في ظاهره له ، وفي حقيقته لمن سبقه من الرواة والكاتبين . وهذا الأمر لم يكن خافيا على الشرقاوي ؛ ففي تقدمته لأغلب الشخصيات الإسلامية التي اختارها كان يعلن عن ذلك ، مثلا في تقدمته لـ (أئمة الفقه التسعة) يقول : « أحسست أن من الواجب علي أن أنشر صفحات نضال هؤلاء العلماء والفقهاء ، وأن أتقصى مواقفهم من الحياة والناس ، وأن أرسم بقدر ما وسعني الجهد صورا لهم أضعها أمام القارئ المعاصر » .

وكلا الأمرين: اختياره للشخصيات الإسلامية الفذة ، وتناولها بأسلوب فني ، يضع الباحث في إسلاميات الشرقاوي أمام مسئوليات جسام ، لعل أولها أن يكون على معرفة بالمصادر القديمة التي يرجع إليها ، بالضبط مثل معرفته بالعمل الجديد . خاصة أن الشرقاوي كان أمينا حين رد مادته الجديدة في شكلها وتناولها ، القديمة في جوهرها وأصلها إلى مصادرها الأولى ، لكنه مع ذلك لم يذكر في بعض أجزاء من كتبه أرقام الصفحات التي كان يرجع إليها ، وهذا بالطبع يرهق الباحث ، فيكفي أن أذكر أن مصدرا واحدا من عشرات المصادر التي رجع إليها وهو كتاب (الأغاني) للأصفهاني يتفرع إلى أكثر من عشرين مجلدا ، كل مجلد يتضمن مئات الصفحات من القطع الكبير ، لكن هذا أيضا لم يكن خافيا عليه ، بل كان يتعمده . وكانت حكمته في ذلك أن يثير لدى القارئ إمكان البحث وهو ما عبر عنه صراحة في كتابه (علي إمام المتقين) قائلا : «فليرجعوا إلى هذه الموسوعة ، وليبذلوا ما بذلت من جهد» .

وكاتب كبير مثل الشرقاوي ، يدخل ميدان الكتابة الإسلامية على هذا النحو ، لابد أن يثير في الذهن التساؤلات حول بداية الاهتمام بهذا الجانب من الكتابة ، والمؤثرات والأسباب ، والمراجعة تكشف عن اهتمام الشرقاوي بهذا الجانب بدأ

عنده مبكرا ، لتظهر بذوره في خمسينيات هذا القرن في سلسلة مقالات نشرها تحت عنوان (ثورة الفكر الإسلامي) لتصدر فيما بعد في كتاب هو (قراءات في الفكر الإسلامي) عام 1972 ، وبين نشر هذه المقالات وإصدارها في كتاب ، أصدر كتابه الخالد (محمد رسول الحرية) عام 1962 الذي كان يعده منذ عام 1953 كما تقول مقدمته ، لتتوالى من بعد كتاباته الإسلامية وكان آخرها عن (الصديق أبو بكر) الذي صدر بعد وفاته بأيام .

وهذا الاهتمام كان له ما يبرره من ظروف وراثية وأخرى مكتسبة .

أما الظروف الوراثية فنلمح ظلالها حتى في رائعته الأدبية (الأرض) ، في حديث يجري على لسان راويها أو كاتبها ، فيه يظهر كيف اهتم والده بتأديب ابنه بآداب الدين ، كذلك نرى كيف كان تقدير القرية لشيخها ، فهو فقيه القرية ومفتيها، وخطيب مسجدها ومأذونها الشرعي ، ومعلم الصغار ، وواعظ الكبار .

كذلك .. نلمح في إهداءاته لكتبه الإسلامية دلالات تقربنا من هذا الاهتمام . مثلا : يهدي والده كتاب (محمد رسول الحرية) قائلا : « إلى أبي الذي غرس في قلبي منذ الطفولة حب محمد » ، ويهدي والدته مسرحيتي (الحسين ثائرا) و(الحسين شهيدا) مسجلا كيف علمته حب الحسين ، ولشقيقه يهدي كتاب (علي إمام المتقين) مذكرا إياه حبهم للإمام علي وقرابتهم لابنه الإمام الحسين ، ولأولاده يهدي كتاب (عمر بن عبد العزيز) راجيا أن يحبب لهم تراثهم العظيم ، وأن يجدوا فيه العبرة والأسوة . فإذا أخذنا بمقولة أن الكاتب هو ما يكتب ، أصبح لدينا سبب وراثي لظهور هذا الاهتمام ، نابع من الوسط الاجتماعي ، وقلنا إن للوراثة وظروف النشأة دخلا كبيرا في هذا الاهتمام الذي لازمه إلى آخر أيام حياته .

يضاف إلى هذا الاهتمام الموروث آخر مكتسب ، خلاصته : أن الشرقاوي عرف فيما قرأ لجيل الرواد أنه كانت هناك هجمة ضارية على الإسلام في ثلاثينيات هذا

القرن ، جعلت رواد هذا الجيل يتفقون فيما بينهم على إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بصورة تقربه إلى الناس حتى لا يلتمسوا معرفته من كتاب غير مسلمين .

كان ذلك فيما عرفنا بمشروع إعادة كتابة التاريخ الإسلامي الذي دعا إليه طه حسين ليكتب الجانب الأدبي من هذا التاريخ ، ويتولى أحمد أمين الجانب الفكري ، وعبد الحميد العبادي الجانب السياسي، يواكب هؤلاء في الاهتمام بالكتابة الإسلامية كل من العقاد وهيكل والحكيم .. ولابد أن يكون الشرقاوي قد قرأ لهؤلاء ما حبب إليه الكتابة في هذا الميدان .

وعلى هذا الأساس ، يمكن القول بأنه ليس مصادفة أن يقتحم ميدان الكتابة الإسلامية أديب مثل الشرقاوي ، إذ كان قد سبقه من قبل أدباء كبار منهم : طه حسين والعقاد وهيكل وأحمد أمين والحكيم ، عندما كانت مصر تبحث عن تحقيق ذاتها في ثلاثينيات القرن الماضي ، ففكروا في إيجاد وسيلة لربط حاضر الأمة بماضيها من ناحية ، وتفنيد افتراءات أعداء الإسلام ومزاعمهم من ناحية أخرى ، وأن يكون ذلك بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي ، وقد أشار إلى شيء من ذلك هيكل في كتابه (حياة محمد) قائلا : « خيل إلي كما خيل إلى أصحابي أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر » .

وليس مصادفة أن يقتحم ميدان الكتابة الإسلامية كاتب كالشرقاوي ، مدافعا عن قيم ومبادئ هذا الدين ، بعد أن سلك دراسة القانون ، ولعل أبسط ما تتيحه هذه الدراسة لصاحبها أنها تجعل منه مدافعا عن حق يراه مشروعا . لذلك ، نراه فيما يكتب عن النبي الكريم وخلفائه الراشدين وأئمة الإسلام خير مدافع ؛ حيث يجلي الكثير من المعاني التي تمثلت في هؤلاء جميعا ، ومنها التطور الذي كان يمثله هؤلاء الأفذاذ ، والعدل الاجتماعي الذي كان مطلبهم ، والقدوة التي سارت عليها شئون حياتهم . وهنا نرى الشرقاوي في كل ذلك يهتم بتصوير الجانب الإنساني

للإسلام كدين سماوي جاء للناس كافة ، وميراث حضاري لكل البشر مهما اختلفت آراؤهم ، معلنا أننا نملك من حقائق التاريخ الثابتة ، ما يقطع بأن للإسلام دورا فعالا استطاع أن يؤثر به في ماضي البشرية ، بالقدر نفسه الذي يمكن أن يؤثر به في مستقبلها .

يضاف إلى ذلك : أن حياة الشرقاوي العملية قد وهبها للأدب شاعرا وقصاصا، وبين الشعر والقصة صلة رحم وقربى ، فمنذ القدم والقصة لا تفترق عن الشعر . أليس «هوميروس» الملقب بأبي الشعراء والأوروبيين كان في الأصل قصاصا ، في حضانته الشاعرية تربت القصة في مهدها الأول ؟! وأليس «شكسبير» و«جيتي» وغيرهما من النوابغ استمدوا القصة من الإطار الشعري ؟!

ها هو الشرقاوي يبدأ الكتابة الإسلامية بعد أن استوى شاعرا وقصاصا ؛ فلابد أن يكون لذلك أثره المباشر على أسلوبه واختياراته ، وأول ما نستشعره هو : شاعريته في سرده للأحداث التاريخية ، ولعلنا نتأمل ذلك في عبارة من آلاف العبارات جاءت بكتابه : (محمد رسول الحرية) فيها يصور حلم النبي الكريم بعالم جديد : «يحلم عليه الصلاة والسلام - بأشياء رهيبة حقا ، يحلم كأن أصنام الكعبة تسقط ، ودولة الطغيان تتقوض ، بكل دعارتها وترفها المستبد ، من أقصى بلاد الروم والفرس إلى الجزيرة العربية ، وكأن الناس قد تحولوا إلى بشر آخرين ، لا يرفع أحدهم السيف في وجه أخيه ، ولا تمتد يد بالعدوان على أحد ، كلمة الحق ترتفع كالراية تظلل جموعا لا حصر لها من رجال شرفاء ، ونساء فاضلات ، وأطفال سعداء .. » .

ونلمح أيضا أسلوبه القصصي في تركيباته واختياراته ، فبينما نجد أن معظم أعماله سير وتراجم ، لا نجد في الدراسات غير كتاب واحد هو (قراءات في الفكر الإسلامي) ، وهذا في حد ذاته يشير إلى دلالات ، منها : إيمان الشرقاوي بصلاحية

القيم والمثل التي ازدهرت في حضانة الدين الإسلامي ورواها الخلف عن السلف ، قاصدا معنى أكبر وأبعد هو تشكيل الحياة المعاصرة ببث روح الطمأنينة في النفوس القلقة ، على نحو ما كان أجدادنا الأقدمون الذين لم تخل حياتهم من مشكلات .

ويضاف إلى كل ذلك : أن الشرقاوي وقد كان في الأصل شاعرا وقصاصا - يجتذبه من المادة التاريخية جوهرها وروحها ، وليست وقائعها وتفصيلاتها ، فهو حين يقوم بالترجمة لواحد من عظماء الإسلام ، فإنه يقدم صورة فنية أدبية مبدعة ، لا عملا تاريخيا موثقا ، فليست الأخيرة مهمته كأديب بل هي مهمة المؤرخ الذي يتسلح بالمنهج العلمي ، فهو فيما كتب أديب فنان يستلهم التاريخ في إبداعه الفني ، وهو حين يعتمد على الحدث التاريخي كمادة أولية ، فإنه يرى في هذا الحدث ركيزة ينطلق منها إلى عالم التصورات والرؤى ، مستشرفا آفاق الإنسانية في رحلة الإسلام عبر القرون .

ويبقى سؤال : هل كان الشرقاوي في إسلامياته صورة لأي واحد من جيل الرواد ؟ بالقطع لا ، إن للشرقاوي لونه الخاص ، ورؤيته المتميزة ، ومذاقه المختلف، وربما يتفوق واحد من جيل الشرقاوي على واحد من جيل الرواد، إلا أن حق الريادة محفوظ ، والتجربة خير دليل على اختلاف كتابات هؤلاء وهؤلاء . مثلا: لو قرأنا كتاب (محمد رسول الحرية) للشرقاوي نجده يختلف عن (حياة محمد) لهيكل و(عبقرية محمد) للعقاد و(محمد الرسول البشر) للحكيم و(على هامش السيرة) لطه حسين و(فجر الإسلام) لأحمد أمين .

بعد هذا ، هل نحن في حاجة إلى تحديد أكثر لفكر الشرقاوي الإسلامي في عبارات وصفحات مجملها تعتبر تفكيرا في الإسلام ، وإنه يتناوله عن فهم وعقيدة ، فيقدمه على أنه نظام متكامل استطاع إقامة مجتمع متكامل في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أن يختار ما يلائمه مما يتماشى مع الأطوار الاجتماعية التي تتغير في كل زمان ومكان .

هنا يبدو الاستقصاء والتأمل واضحا على خلاف ما كتب الشرقاوي في بقية إسلامياته ، بمعنى آخر : هو أننا نلمح الشرقاوي مفكرا أكثر منه فنانا مفكرا يتعامل مع الفكرة المجردة ؛ لينقلها إلى القارئ بعد أن يقتلها فهما ، ولعله في ذلك قد تأثر بكتابات الإمام محمد عبده ، ومن بعده الأستاذ العقاد في تناولهما لحقيقة الإسلام كدين يفرض على الذي يتعامل معه البحث والاستقصاء والتأمل والتفكير ، والاحتكام في كل ذلك إلى العقل . ذلك أن التنويه بالعقل والتعويل على حكمه ، ثم الاقتناع بهذا الحكم ، مزية بارزة ضمن المزايا العديدة للقرآن الكريم : ذلك الكتاب المبين ، الذي يذكر العقل في مقام التعظيم والإجلال والتنبيه ، إلى وجوب العمل به والرجوع إليه والاعتماد على «إعماله» وهو التفكير . الأمر الذي لا نجده مفصلا وميسرا هكذا صراحة في بقية الكتب السماوية ، حتى ذهب السلف الصالح إلى القول بأن التفكير فريضة إسلامية محضة ، وأن هذا الدين العظيم يتيح للعقل البشري مساحات هائلة من التفكير مجربا فيه إمكانياته في التطلع والاستقصاء والتأمل.

ولعناية الإسلام بالعقل على هذا النحو ، فإنه يدعو صراحة إلى حرية الإرادة الإنسانية ، فالله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان قدرا من هذه الحرية وتلك الإرادة ، وبدونهما لا يكون عليه تكليف أو مسئولية ، وما تشوبه هذه الحرية أو تلك الإرادة إلا من صنع الإنسان نفسه . والإسلام كدين سماوي منح للبشر حرية إرادتهم ، وحريتهم السياسية أيضا بما كفل لهم من الأنظمة السليمة التي أدت إبان ظهوره إلى صلاح حال الفرد والجماعة ، وجعلت الدولة تمتد بدينها وقيمها ومبادئها عن طريق العقل قبل كل شيء .

والآن ، وقد فرغنا من القراءة وقطعنا مع فكر الشرقاوي الإسلامي رحلة ممتعة طيبة ، التقينا في أول مراحلها بالإسلام في أوج عظمته في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين ، ثم بالإسلام كعلم وفقه من خلال رجال عظماء أخذوا على عاتقهم

مسئولية شرح وتفسير نصوص هذا الدين ليواكب متغيرات الزمان والمكان على امتداد أرض الإسلام .

ومع هذا الفكر الإسلامى ، عشنا عصورا مختلفة بدأت بعصر المبعث وما قبله ، حيث كانت الأحوال في العالم القديم ، من سيطرة للدولتين العظميين : الروم والفرس، ثم عصر الخلافة الإسلامية كقوة جديدة في ميزان العالم القديم تستطيع أن تناوئ القوتين العظميين وتتغلب عليهما ، يلي ذلك عصر بنى أمية مرورا بملك بنى مروان ووقوفا عند عمر بن عبد العزيز بن مروان ذلك الخليفة العادل الذي أعاد للخلافة الإسلامية تقاها وورعها مع قوتها وعظمتها ، وقبله عصر الإمام الحسين بن على رضى الله عنهما حتى ينتهى عصر بنى أمية بشره وخيره ليسلمنا إلى عصر بنى العباس حيث نعيش مع أئمة الفقه التسعة . من بعده نعيش عصر انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات واستهداف الإسلام لهجمات التتار ، حيث نكون وجها لوجه مع مواقف وأفكار الفقيه المعذب «ابن تيمية» لنعيش أيام محنته في سجون سوريا ومصر .

والحق أقول لكم : إنها كانت رحلة ممتعة حقا طيبة أيضا ، استطاع فيها الشرقاوي أن يضع فوق راحة اليد أهم مراحل التاريخ الإسلامى من خلال تناول الشخصيات الفذة ، وفي كل مرحلة من مراحل هذا التاريخ تطل أحداث تدعو إلى التفكير والبحث حتى في غير كتب الشرقاوي ، ولعل أول هذه الأحداث وأعظمها: وفاة النبي - ﷺ - والدولة الإسلامية في بدايتها من الناحية السياسية وعدم إعلانه - صراحة - خليفة له عليه أفضل الصلاة والسلام ، حتى وإن كان قد أعد أبا بكر رضي الله عنه ليتولى أمر المسلمين من بعده . هنا كانت عظمة المؤمنين الأوائل حين استقر رأيهم على اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله - ﷺ - على الرغم من دس البعض وفي مقدمتهم «أبو سفيان بن حرب بن أمية» الذي كان يؤلب الإمام عليا قائلا له أنه أحق بالخلافة .

ومع تسجيل بداية عصر الخلافة وما أعقبه ، نلمح سمات فكر الشرقاوي نفسه فيما يكتب ويؤرخ ، هذا الفكر القائم على الإيمان بالعدل والحرية والمساواة ، فيجد مجالا رحبا لما يؤمن به ، مما يجعل المرء يفكر أيضا بعد قراءته ، فيجد بالرجوع إلى المصادر الأولى مصداقا لما يؤمن ويكتب ، إذ إن هذه الخلافة - كما تقول المصادر الأولى - استمرت ثلاثين عاما مضافا إليها ما يزيد على العامين بشهور هي كل خلافة عمر بن عبد العزيز - بعدها تحولت إلى ملك عضوض على أيدي بني أمية . وصدق نبينا الكريم- ﷺ- حيث تنبأ بذلك فقال : « **إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة ، ثم يكون ملكا وجبرية** » ؛ لأننا إذا نظرنا بعد انتهاء الخلافة الراشدة وبداية عصر بني أمية نجد أن «معاوية بن أبي سفيان» قد تولى أمر المسلمين ، ومن بعده ابنه «يزيد» وكان من المنتظر أن يتولاها حفيده من ابنه يزيد «خالد» لولا أنها تحولت إلى ملك يورثه «مروان بن الحكم» ليتولى ابنه عبد الملك ويتولى أبناء عبد الملك الأربعة «الوليد وسليمان ويزيد وهشام» أمر المسلمين ، وفي عصر بني العباس يتولى حفيد الرشيد من ابنه «المعتصم» وهو المتوكل الأمر ، من بعده يتولاه أبناؤه «المنتصر والمعتز والمعتمد» ، وهكذا تتحول الخلافة إلى ملك يرثه الأبناء والأحفاد.

ثم إن المرء يتساءل بعد قراءة ما كتبه الشرقاوي ، ألم يكن تنازل الإمام الحسن ابن علي رضى الله عنهما عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان من شأنه فتح الباب على مصراعيه أمام أطماع معاوية وأسرته من الذين يريدون الوصول إلى هذه الخلافة حتى على جماجم خير البشر؟ لقد قام معاوية وابنه يزيد بمؤامرة قتل الحسن رضى الله عنه مسموما على يد «الجعد» هذه المرأة اللعينة ، حتى يتولى يزيد الخلافة بعد أبيه دون منازع . صحيح أن الإمام الحسن كان زاهدا في الخلافة كأبيه رضى الله عنهما، ويزداد زهد الحسن لأسباب كثيرة لعل أولها : كرهه أن تحدث بسببها فتنة وقتل ، حتى إنه رد على رجل استفزه بقوله إن هذا السبط الأكبر للنبي الأعظم أراد ذل

المؤمنين بتنازله عن الخلافة لمعاوية قائلا: « لست بمذل المؤمنين ، ولكني كرهت أن أقتلكم على الملك » . فهل انتهى القتل بسبب الملك الذي كرهه الحسن رضى الله عنه أم أنه استمر ، وكان هو رضوان الله عليه المقصود بالقتل مسموما ، وأخوه الإمام الحسين رضى الله عنهما مذبوحا ؟ وهكذا يخلو الميدان لبني أمية وبني مروان ، وحتى حين بايع المؤمنون «عبد الله بن الزبير» رضى الله عنه خليفة عليهم إبان خلافة بني أمية يقتله عبد الملك بن مروان بسيف الحجاج بن يوسف ليخلو الميدان لملك بني مروان. وكأن ملك بني أمية وبني مروان أبى ألا يستقيم إلا بقتل الأنفس البريئة الطاهرة!

وحتى عمر بن عبد العزيز ذلك الخليفة العادل ، الذي كانت فترة خلافته غريبة في عصر بني أمية وبني مروان ، ترى هل كان يدري أن حبه للعدل والمساواة بين الناس في وجود آل بيته من بني مروان وأمية ، يصله إلى نفس المصير الذي انتهى به مسموما ؟! وإلا فما معنى رفضه أن يعالج من هذا السم الذي كان يعلم أنه قاتله حتى بعد أن أرسل له ملك الروم طبيبه الخاص ، فأصر على الرفض قائلا : « لقد علمت الساعة التي سقيت فيها ، ولو كان شفائي أن أمسح شحمة أذني أو أوتى بطيب فأرفعه إلى أنفي ما فعلت » ، ما معنى هذا ؟!.. إلا أنه رضى الله عنه كان يدرك أنه لو نجا في هذه المرة فإنه لن ينجو في المرات القادمة في وجود بني أمية .

وغير ذلك من تفاصيل تؤكد ما يضيفه عبد الرحمن الشرقاوي إلى موضوع تجديد التفكير الإسلامي ، والتي تجعل منه أحد المجددين في القرن الخامس عشر الهجري .

* * *

الشيخ محمد الغزالي

الشيخ محمد الغزالي ، أحد مجددي القرن الخامس عشر الهجري حيث عاش في الفترة ما بين 1336هـ ، 1416هـ . هذا المفكر الوحيد الذي تهيأ لاستقبال القرن الخامس عشر بنشر كتاب ضمن كتبه الثمانين تحت عنوان: (الدعوة الإسلامية تستقبل عامها الخامس عشر) مشيرا إلى هذا القرن قائلا : « ونحن الآن نتهيأ لاستقبال القرن الخامس عشر ، ونريد أن نلقى نظرة سريعة على مسيرة الدعوة الإسلامية خلال ذلك الماضى الطويل ، لماذا ؟ لنحاكم أنفسنا إلى مبادئنا الثابتة ، ولنتعرف على ما لنا وما علينا بدقة » .

ويقول : « إن تاريخنا المديد يقوم على كيان واحد متماسك الأجزاء ، متجدد الهدف ، يرث الأخلاف عن الأسلاف منهجا واحدا ، وبلاغا واحدا ، وتجمعهم أمام الله مسئولية مشتركة » .

هذا المفكر الجليل سمعت عنه قبل أن ألتقى به، والتقيت به قبل أن أتحدث إليه، وتحدثت إليه قبل أن أكتب عنه ، وكتبت عنه بعد أن قرأت له ما يقرب من الأربعين كتابا ، وعدد لا بأس به من مقالات بالصحف والمجلات والدوريات من مقالاته التى بلغت (1500 مقالة) إلى جانب ما كتبه البعض عنه فتبين لي من كل ذلك أننى أمام مفكر من الوزن الثقيل ، أو على الأقل مفكر من نوع خاص . من هؤلاء المفكرين القلائل الذين أوقفوا حياتهم لخدمة الدعوة الإسلامية ، سواء بالقول أو بالفعل ، بالأعمال أو بالمواقف ، حيث نلمح في كل كلمة من كلماته أو صفحة من كتاباته مدى الجهد المبذول وراءها ، وأنها تعتمد المناهج الفكرية الموثوق بها ، وتهتم بهموم المسلمين وأزماتهم وتواكب التحركات العالمية المضادة للإسلام ، وكل ذلك يعد ميزة يتميز بها ويتفرد قليلون من المتخصصين في العقيدة والدين ، هو باختصار

من المؤمنين بالعقل ، بالطبع إلى جانب النقل عن الكتاب والسنة وما أتى به السلف الصالح من المسلمين .

وفي سياق الحديث عن مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي : أذكر أنه أتيح لي لقاؤه : اللقاء الأول والأخير صدفة ، وكان ذلك في واحدة من المؤتمرات التي كان يعقدها المجمع الملكي للدراسات الإسلامية (آل البيت) بالأردن ، حيث كنت ثالث ثلاثة من المشاركين الذين يمثلون مصر ! شيخنا المفكر الجليل «محمد الغزالي ، والدكتور ثروت عكاشة» وكاتب هذه السطور ، وتصادف أن كانت تنقلاتنا في العاصمة الأردنية معا منذ غادرنا مطار القاهرة إلى أن عدنا إلى القاهرة .

وقد حدث ما شد انتباهي في هذا الشيخ الجليل في واحدة من جلسات المؤتمر ، حين أثار بحث الدكتور ثروت عكاشة عن التصوير الإسلامي أزمة في المؤتمر ، افتعلها وزير الأوقاف السوري الأسبق ، الأمر الذي سبب انقساما بين المشاركين في المؤتمر ، حيث كان هناك من كان يؤيد البحث ، وهناك من كان يعترض عليه بشدة ، وكان موقف الشيخ محمد الغزالي موضوعيا مستنيرا ، على الرغم من الود المفقود بينه كواحد من الإخوان المسلمين ، وبين رجال ثورة 23 يوليو 1952 ، تلك التي يعتبر الدكتور عكاشة واحدا من صناعها ، إلا أنه مع ذلك تكلم بموضوعية فائقة كانت موضع إعجاب المشاركين في هذا المؤتمر ومنهم المستشرقون الأجانب ، والأشقاء العرب والممثلون عن أقطار العالم الإسلامي .

أقول : كان هذا هو اللقاء الأول والأخير – حيث رحل عن دنيانا في العام نفسه – الذي جمعني مع هذا المفكر الجليل فاكتشفت في شخصيته مصداقا للمثل الفرنسي الذي يقول : «الرجل هو الأسلوب» فصفحات كتبه التي أتيحت للمرء قراءتها لا تختلف كثيرا عن مداخلاته وتعقيباته في المؤتمر ، كما لمحت في أحاديثه وكتاباته نموذجا من تلك النماذج التي قرأت عنها للعلماء المسلمين الأوائل الذين تفخر بهم حضارتنا العربية الإسلامية .

فكما يقول نقاد الشيخ الغزالي ومؤرخوه : أنه شغل بكتبه وأحاديثه وخطبه حيزا كبيرا من الفعل ورد الفعل ، على مستوى الحركة الإسلامية من حيث مناقشاتها ومساجلاتها ومعاركها الفكرية والسياسية ، بل وخلافاتها الداخلية . ومن خلال أطروحات هذا المفكر الجليل انعكست روح البرنامج السياسى والاقتصادي لهذه الحركة الإسلامية المعاصرة ، فكان صاحب هذه الأطروحات قدوة ومثالا للداعية المستنير الذي يواجه الآخرين بالحجة والمنطق ، هذا الداعية الذي يرى المبدأ أرضا يقف عليها حيا أو يستشهد في سبيله ، وظل طوال حياته مهموما بقضايا أمته الإسلامية ، أمرا جعله يتجاوز الدائرة الإقليمية لينتقل إلى الدائرة القومية وربما الدائرة العالمية ، حيث ذاع صيته في كل أرجاء العالم الإسلامي نظرا لمواقفه الصلبة التي لا تلين في الحق .

وإذا كان هذا هو رأيي المتواضع في مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي ، بالقياس لآراء الأساتذة والعلماء الذين عرفوه عن قرب وعاشروه عشرات السنين وكانوا من نفس طرازه الفريد ، هؤلاء الذين كتبوا عنه قبل وبعد وفاته العديد من الدراسات وتمت بينه وبينهم العديد من المناقشات الفكرية ، وأخص بالذكر الدكتور «يوسف القرضاوي» أمد الله في عمره وغيره . هذا إلى جانب ما تمت مناقشته في الجامعة من رسائل وأطروحات تدور حول الجوانب الفكرية والتجديدية ومنها رسالتان ، **الأولى** : رسالة الماجستير التي نوقشت بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر والتي وضح فيها الباحث «خالد كمال» الخصائص الفنية في مقالات مفكرنا الجليل الشيخ محمد الغزالي مثل اللجوء إلى الحوار والحكاية والأمثال العربية الفصيحة ، وكذلك المأثورات الشعبية والمزج بين العاطفة والعقل والخيال والواقع ، هذا بالطبع إلى جانب الرجوع إلى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والاستشهاد بالشعر العربي خاصة في قصائده التي تتسم بالثورية والعنف أو تلك التي تدعو إلى التغيير إلى الأفضل .

كذلك تشير هذه الرسالة إلى : أن مفكرنا الجليل محمد الغزالي كان دارسا جيدا للتاريخ وعلوم الكون ، متعمقا في الدراسات الإنسانية مثل الفلسفة وعلم النفس والاجتماع والتربية ، بالإضافة إلى إلمام ممتاز بالواقع المعاش وما يدور فيه من أحداث إيجابية أو سلبية كان له فيها مواقف .

وأما **الرسالة الثانية** : فقد جاءت بعنوان: (مواقف الشيخ محمد الغزالي من قضية التخلف الحضاري للمسلمين: الأسباب والحلول دراسة تحليلية) حصل بها الباحث إبراهيم طلبة حسين، على الماجستير في الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة جامعة الأزهر.

والحق أن قضية التخلف الحضاري قد أخذت مجالا رحبا في فكر الشيخ محمد الغزالي ؛ حيث رصد العديد من الأسباب التي منها : العقلية ، وتشمل الفقر الثقافي للمسلمين ومخاطرة اختزال الإسلام في فقه العبادات ، والاشتغال بالجزئيات على حساب الكليات ، وكذا شيوع البدع والخرافات في الحياة الإسلامية ، وترسيخ الجمود على الموروثات ، وعدم الاستفادة من تجارب الآخرين ، وغياب اليقظة الفكرية ، ومنها الأسباب الاجتماعية التي رصدها الباحث في فكر الشيخ الغزالي ، فتشتمل على تدهور وضع المرأة في فكر المسلمين ، وتجاوز الاعتدال في الترف ، وإثارة العصبيات والنعرات واختلال التوازن الاجتماعي . ومنها الأسباب النفسية كالغرور بالتدين وتفشي الرياء ، والأسباب السياسية التي أجملها الشيخ الغزالي في مشكلة الوراثة في الحكم وغياب مبدأ الشورى ، وأثر الحكم الفردي على الفكر الإسلامي ، وأثر الاستعمار السياسى على واقعنا المعاصر ، ومساوئ الديمقراطية الغربية على العالم الإسلامي ، ومنها : الأسباب العلمية التي يحددها الشيخ محمد الغزالي في مشكلة التأخر العلمي لدى المسلمين، وهجرة العقول العلمية إلى الخارج، وفساد النظام التعليمي والعلمي .

كذلك رصدت الرسالة رؤية الشيخ محمد الغزالي في النهوض والإصلاح ، وتمثل ذلك في كل المجالات التي ذكرناها وحدث فيها تخلف من جوانب اقتصادية

إلى سياسية إلى اجتماعية إلى علمية ، إلى جانب الحفاظ على اللغة العربية في محيط الحياة : إذ تبقى كلمة الشيخ الغزالي المشهورة : « الأمة التي تفقد لغتها كالفتاة التي تفقد عرضها » .

وفي غير ذلك من الرسائل الجامعية التي دارت حول فكر الشيخ الغزالي ، وجهوده في مجال تجديد الفكر الإسلامي .

ولعلنا نستأنس في ذلك بالرأي الممتاز الذي كتبه الأستاذ الدكتور «محمد مورو» وعنوانه : « الشيخ الغزالي شاهد على العصر » لما فيه من توضيح لمواقف وأعمال لهذا الداعية الجليل حيث يقول :

« وبقدر ما أثار الشيخ محمد الغزالي من قضايا حيوية من خلال مواقفه أو من خلال مقالاته الكثيرة في الدوريات المختلفة ، أو من خلال محاضراته المهمة بقدر ما أثار من خلافات معه أو حوله أو ردود فعل مؤيدة أو معارضة، وهذا شأن أي مفكر يقرر أن يناقش القضايا الحية المطروحة على الساحة والتحديات التى تواجه الأمة الإسلامية، ولا يلوذ بالقضايا الميتة أو التى لا رصيد لها في الواقع. وهكذا فإن دراسة حياة الشيخ محمد الغزالي ، هى دراسة في الوقت نفسه لجزء مهم من تاريخ الحركة الإسلامية في مصر عموما ، وحركة الإخوان المسلمين خصوصا بدءا من الإمام الشهيد حسن البنا حتى الآن ..

كان فكر الشيخ الغزالي دائما فكرا مرتبطا بالواقع ، وكانت اجتهاداته الفقهية مرتبطة دائما بأحوال المسلمين في وقتها ، وسواء أصاب أم أخطأ فإنه اختار الطريق الصعب ، ولم يتدثر بعباءة السكون والاكتفاء بطرح القضايا الكلية دون الخوض في الواقع الذي تعيشه الحركة الإسلامية أو الذي تعيشه جماهير المسلمين » .

وفي مواجهة الشيخ الغزالي للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية قبل ثورة يوليو يقول الدكتور «مورو» : « ففي مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتردية والاجتماعية الظالمة التي كانت تعيشها مصر قبل 1952 من رأسمالية زراعية بشعة وظلم مستمر

للفلاحين والعمال وتفاوت طبقي رهيب كانت كلمات ودراسات الشيخ محمد الغزالي تدافع عن حقوق الفلاحين الفقراء والعمال المطحونين في مواجهة الرأسمالية والملكية» وهكذا جاءت دراساته المهمة مثل : (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) - (الإسلام المفترى عليه بين الرأسمالية والشيوعية) .

وفي مواجهة الاستعمار الإنجليزي الجاثم على صدر مصر في ذلك الوقت والاستعمار عموما ، الجاثم على صدور جماهير الشعوب المستضعفة في العالم الثالث كان كتابه : (الاستعمار أحقاد وأطماع) .

وفي مرحلة الستينيات - حيث تزايد المد الاشتراكي في العالم الإسلامي - مع ما ارتبط به من قمع هائل للحركة الإسلامية ، جاءت دراسات الشيخ محمد الغزالي لتؤكد هوية الأمة ، وأن خلاصها ليس إلا في الإسلام مثل كتابه : (الإسلام والمناهج الاشتراكية) . وكذلك مجموعة دراساته عن سيرة الرسول - ﷺ - أو دراساته التي تدعو إلى الصبر والصمود في مواجهة المحنة وتحدد أبعادها مثل : (كيف نفهم الإسلام؟) وكتاب : (من معالم الحق) . وفي المرحلة الحالية حيث انتشرت مفاهيم القشرية والجمود والاهتمام بالقضايا الجانبية جاء كتابه المهم : (السنة بين أهل الفقه وأهل الدين) - ويصفه البعض بأنه بيروسترويكا إسلامية - وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل حادة ومنتقدة لدى بعض اتجاهات الحركة الإسلامية التي تميل إلى الأخذ بالأصعب والأشد في أمور الإسلام ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد الشيخ الغزالي بل زاده تصميما على خوض المعركة ضد الجمود والشكلية ، والاهتمام بالقضايا الجانبية على حساب القضايا الجوهرية للأمة .

وقد كان الغزالي دائما كمفكر ، يبادر إلى الرد على كل هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام كدين شامل، أو يروجون للمذاهب المادية مثل الشيوعية وغيرها. فقد أصدر كتابه: (من هنا نعلم) ردا على الأستاذ «خالد محمد خالد» الذي حاول أن

يدعي أنه لا سياسة في الدين ولا دولة في الإسلام في كتابه : (من هنا نبدأ) . وقد تراجع الأستاذ خالد محمد خالد عن هذه الأقوال والآراء فيما بعد ، كما أصدر الشيخ محمد الغزالي كتابه : (الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر) كرد على الترويج للشيوعية في مصر والعالم الإسلامي.

وعن فكر الشيخ الغزالي من بعض كتبه يستطرد الدكتور «مورو»: «وإذا حاولنا أن نكون رؤية في فكر الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه ودراساته المنشورة ، نجد أنه يميل دائما إلى فتح باب الاجتهاد والاهتمام بالقضايا الحيوية والمطروحة وينحاز صراحة إلى مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي ؛ على اعتبار أن الفقه الإسلامي قد انقسم منذ البداية إلى مدرستين هما : مدرسة الحديث – ومدرسة الرأي . والمدرسة الأولى (مدرسة الحديث) بدأت بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وانتهت إلى ابن حزم الأندلسى مع وجود مذاهب فقهية شديدة التأثير هي (مدرسة الرأي) وهي التى مثلها كبار الصحابة رضوان الله عليهم جميعا مثل الإمام على بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وانتهت إلى مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي والليث بن سعد. الشيخ الغزالي يرى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة ، ويرى أن التعصب هو نقيض التدين ، وأنه لم يكن من أخلاق مؤسسي المذاهب ذواتهم » .

وعن ربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسى كان الشيخ الغزالي يربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسى عموما ، وهو يرى أن الحرية هي أهم مبادئ الإسلام ، ومن هنا ، فإنه دائما يدافع عن الحريات باعتبار أنها فريضة إسلامية وينعى على الاستبداد والمستبدين ، ويرى أنهم أشد فتكا وخطرا على الإسلام من الكفار .

ومن النادر أن نجد مقالا أو كتابا للغزالي يخلو من الهجوم على الاستبداد والمستبدين ، وقد أفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة هي (الإسلام والاستبداد السياسي) .

ويرى الشيخ الغزالي أن على المسلم أن يناضل من أجل الحريات السياسية بأوسع مدلولاتها ، وأنه مع التعددية السياسية سواء في إطار الإسلام أو حتى في خارج الإطار ؛ لأن الجماهير قادرة على لفظ كل ما هو غير إسلامي في حالة سيادة الحريات وفي جو الانفتاح الفكري. وفي هذا الصدد يحرص الشيخ الغزالي على تأكيد: حق تشكيل الأحزاب ، حق تداول السلطة ، حق إصدار الصحف ، حرية التظاهر السلمي ، حرية الإضراب السلمي ، حق الاجتماع ... وغيرها من الحريات .

وعن تخلف المسلمين يسجل «الدكتور مورو» رأيا للشيخ الغزالي الذي يقول فيه بصراحة وشجاعة : « إن المسلمين حاليا متخلفون ، وأن هذا يسيء إلى الإسلام ويسيء إلى المسلمين أنفسهم، وأنه يجب على كل مسلم أن يعمل بكد ودأب لتحصيل العلم والمعرفة والتفاني في عمله حتى لا نصاب بالمزيد من التخلف ، على اعتبار أن التقدم العلمي والصناعي هو تراث إنساني ، وأن علينا أن نحرز فيه السبق لا أن نكتفي باستهلاك منتجات غيرنا أو فتات موائدهم العلمية والصناعية . وفي الوقت نفسه ، علينا أن ندرك أننا أمة صاحبة حضارة متميزة ومتفرقة ، وأخص ما ندعو إليه هو العلم والتعلم والإيجابية في الحياة الدنيا وتعميرها » .

ولا يفوت باحثنا الدكتور مورو أن يختم بحثه بالقول : « إذا .. فالشيخ محمد الغزالي يمثل مشروعا فكريا إسلاميا متكاملا مستمدا من الإسلام بصورة أصيلة وواعية ومجتهدة في نفس الوقت ، فهو يؤكد على تميزنا له ، وهو أيضا يقدم برنامجا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا مستمدا من الإسلام ومراعيا ظروف الواقع الذي نعيشه في نفس الوقت » .

هل نحن في حاجة إلى مزيد من التعرف على أعمال ومواقف مفكرنا الشيخ محمد الغزالي ؟ إذا أردنا ذلك فليس هناك أفضل وأصدق مما كتبه معاصره وصديقه العالم الجليل الدكتور «يوسف القرضاوي» الذي يتحمل اليوم عبء الدعوة

والتجديد والدفاع عن الإسلام في عالم يموج بالأحداث المناهضة بل والرافضة للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، بما لم تمتلئ قلوب زعمائه بالحقد الدفين ضد هذا الدين الذي ما جاء إلا رحمة للعالمين ... أقول ليس هناك أصدق وأفضل مما سطره قلم الدكتور القرضاوي عن صديقه وزميله في الكفاح [كما عرفه عن قرب] ، كتب يقول : « والحق .. أن هذه الدراسة التي قدمتها عن الشيخ الغزالي - رحمه الله - أثبتت أننا أمام قائد كبير من قادة الفكر والتوجيه ، وإمام فذ من أئمة الدعوة والفكر والإصلاح ، لها طابعها ، ولها أسلوبها ، ولها مذاقها الخاص ، وتحتاج إلى دراسات عدة لإبراز خصائصها ومواقفها وآثارها . فليس الغزالي ملك نفسه ، ولا ملك جماعة أو حركة ، ولا ملك قطر أو شعب ، بل هو ملك الأمة الإسلامية جمعاء .

لقد عاش الشيخ - رحمه الله - بشعور يغمره ويملأ فؤاده ووجدانه أبدا : أنه حارس من حراس هذا الدين الأيقاظ ، يجب أن يتنبه دائما لأعدائه في الداخل والخارج ، وأن يقف لهم بالمرصاد مدافعا ذائدا ، بل مقاتلا مهاجما ، فخير وسائل الدفاع الهجوم ، لا يلقي السلاح ولا ينشد الراحة ، ومعركة المصحف في العالم الإسلامي قائمة والحرب على الإسلام وأمته دائرة ، لم تنطفئ لها أوار ، والدم الإسلامي مستباح ..

لقد كتبت الأقدار على الشيخ أن يحارب في جبهتين واسعتين :

الأولى : جبهة الخصوم الكائدين للإسلام ، المتربصين به الشر ، الكارهين لانتشار أنواره وعودته إلى قيادة الحياة من جديد . بعض هؤلاء من خارج الإسلام ، وخارج أرضه ، من القوى العالمية التي تخافه أو تبغضه من اليهودية والصليبية (يقصد الشمالية في أوروبا والغرب) والشيوعية والوثنية ، الذين اختلفت دياناتهم ، واختلفت طرائقهم ، ولكن اتحدت أهدافهم على ضرب الإسلام ، ووقف مسيرته ،

ووضع الأحجار والعثرات في طريقه . وهم الـذين قـال الله فـيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[1] ..

والجبهة الثانية : جبهة (الأصدقاء الجهلة) للإسلام ، الـذين يـضرون الإسـلام أبلغ الضرر من حيث يريدون أن ينفعوه ، ويهشمون وجهه من حيـث يظنـون أنهـم يدفعون ذبابة عنه ، هؤلاء الذين سماهم الـشيخ (الـدعاة الفنـانين) الـذين يـشغلون الناس بالفروع عن الأصول ، وبالجزئيات عن الكليات ، وبالمختلف فيه عن المتفـق عليه ، وبأعمال الجوارح عن أعمال القلوب ..

لقــد كان يشكو من دعـاة أغلبهـم نكبـة على الإسلام ، وقـذى في عينـه ! إنهـم لا يقرؤون ولا يعانون ، والقليل من الحقائق لـديهم لا يـضعونه في موضـعه الـصحيح، وعلل الأمة لا تلقى منهم أساة ولا بكاة، لأنهم مشدودون إلى جدليات الماضي السحيق، لا يدركون ما جد حولنا ، ولا الطفرات الهائلة التي قفزت بها الحياة على أرضنا ..

وإذا كان الجسم المصاب بفقر الـدم يـسقط في أول مراحـل الطريـق ، فالعقـل المصاب بفقر المعرفة أعجز من أن يلاحق مطالب الجهاد ، أو يلبي حاجات الحق .

إن مكمن الخطر على مستقبل الإسـلام ومـستقبل أمتـه ، وصـحوته تكمـن في هؤلاء الذين وجه إليهم الشيخ جل كتبه في المرحلة الأخيرة ، عساهم أن يتعلموا من جهل ، وينتبهوا عن الإعجاب بالرأي ، والازدراء للغـير ، وأن يتعلمـوا الذلـة عـلى المؤمنين ، والتوقير للكبار ، والرحمة للصغار ».

يقول الشيخ : « والخطورة تجيء من أنصاف متعلمين أو أنصاف متدينين ، يعلو الآن نقيقهـم في الليل المخيم على العـالم الإسلامي ، ويعتمـد أعـداء الإسـلام في أوروبا وأمريكا على ضحالة ذكرهـم في إخماد صحوة جديدة لـديننا المكـافح المـثخن بالجراح ..

(1) الأنفال : 73 .

إن الحضارة التي تحكم العالم مشحونة بالأخطاء والخطايا، بيد أنها ستبقى حاكمة ما دام لا يوجد بديل أفضل !..

هل البديل الأفضل جلباب قصير وسروال طويل، أم عقل أذكى، وقلب أنقى، وخلق أزكى وفطرة أسلم، وسيرة أحكم ؟..

لقد نجح بعض الفتيان في قلب شجرة التعاليم الإسلامية، فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعا أو جذورا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقا تتساقط مع الرياح ! وشرف الإسلام أنه يبني النفس على قاعدة : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** ﴾[1] . وأنه يربط الاستخلاف في الأرض بمبدأ : ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾[2] ».

وهذا ما يخيف الشيخ الإمام الغزالي ويثير فزعه على غد الأمة وهو ما نراه في كتبه حيث يقول رحمه الله في كتابه : (هموم داعية) : « لقد خامرني الخوف على مستقبل أمتنا لما رأيت أفرادا مشتغلين بالحديث ينقصهم الفقه، يتحولون إلى أصحاب فقه، ثم إلى أصحاب سياسة تبغي تغيير المجتمع والدولة على نحو ما رووا ورأوا !!..

إن أعجب ما يشين هذا التفكير الديني الهابط هو أنه : لا يدري قليلا ولا كثيرا عن دساتير الحكم، وتظالم الطبقات، ومشكلات الشباب، ومتاعب الأسرة، وتربية الأخلاق، ثم هو لا يدري قليلا ولا كثيرا عن تطويع الحياة المدنية، وأطوار العمران لخدمة المثل الرفيعة، والأهداف الكبرى التي جاء بها الإسلام ..

إن العقول الكلية لا تعرف إلا القضايا التافهة، لها تهيج، وبها تنفعل، وعليها تصالح وتخاصم ! هززت رأسي أسفا، وأنا أرمق مسار الدعوة الإسلامية !..

(1) الشمس : 9، 10 .

(2) الحج : 41 .

إن الرسالة التي استقبلها العالم قديما استقبال المقرور للدفء ، واستقبال المعلول للشفاء ، هانت على الناس فلم يروا ما يستحق التناول ، وهانت على أهلها فلم يدروا منها ما يرفع خسيستهم ويحمي محارمهم » .

ويقول في مقدمة كتاب : (الإسلام في وجه الزحف الأحمر) يقول : «رأيت أن أكتب هذه الصحائف الحافلة بالحقائق العلمية والتاريخية ، وأودعتها صرخات قلب غيور على دينه ، شفيق على أمته وأعرف أنني بكتابتها سأتعرض لعداوات مميتة !! ولكن بئست الحياة أن تبقى ويفنى الإسلام !! » .

ويقول أيضا في مقدمة كتاب : (قذائف الحق) : أعداء الإسلام يريدون الانتهاء منه ، ويريدون استغلال المصائب أنى نزلت بأمته ، كي يبنوا أنفسهم على أنقاضها . يريدون بإيجاز القضاء على أمة ودين » .

ليكون الرد على ذلك من راحلنا الجليل محمد الغزالي تصميما يتجسد في هذه العبارة : «وقد قررنا نحن أن نبقى وأن تبقى معنا رسالتنا الخالدة ، أو قررنا أن تبقى هذه الرسالة ، ولو اقتضى الأمر أن نذهب في سبيلها ، لترثها الأجيال اللاحقة» .. إلى أن يقول في نهاية المقدمة :

« إن الله أخذ على حملة الوحي أن يعالنوا به ويكشفوا للناس حقائقه ، وأكد عليهم ذلك في قوله تعالى : ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ ﴾[1] » . إلى آخر ما جاء به فكر الشيخ الغزالي .

وبعد ... فهذا قليل من كثير من حصيلة ما قرأته من أبحاث ودراسات ومقالات دارت حول أعمال ومواقف مفكرنا الجليل محمد الغزالي إلى جانب كتبه وكتاباته .

* * *

(1) آل عمران : 187 .

خالد محمد خالد

يعتبر المفكر الإسلامي الراحل خالد محمد خالد ، من مجددي القرن الخامس عشر الهجري حيث ولد عام 1338هـ وتوفي عام 1417هـ ، وذلك لتفرده بأسلوب مميز ، يتبينه القارئ له ولغيره من بين عشرات المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، هذا الأسلوب الذي تميز به في تناوله للمادة الإسلامية ، وللقضايا التي تشغل الإنسان المسلم إلى جانب كونه واحدا من مفكري الإسلام المستنيرين الذين استطاعوا أن يمزجوا الفكر الديني بالفكر السياسى مزجا فريدا من نوعه ؛ بحيث لا يجعلون الفكر السياسى المجرد يطغى على معطيات الفكر الإسلامي ، ولا الفكر الديني يطغى على متطلبات السياسة ومعاصرتها للأحداث .

والحق ، أن «خالد محمد خالد» وهو على هذا النحو ، كان من قلائل تطلبتهم ظروف وأحوال زمانهم ، بما في هذا الزمان من تحولات إبان النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، وقد كان في مقدمة الرجال الأوفياء لعقيدتهم ، المدركين لمتطلبات العصر بما فيه من تحديات وأزمات، حتى صدق عليه ، أو على أي من رفاقه القول : بأنه يفد على الدنيا بين الحين والحين رجل .. يهز وجدان الناس ويحرك مشاعرهم ؛ حيث يتحدث بلغتهم ويعزف لحنهم ، ويعيش آلامهم ويعانق آمالهم وقد يكون هذا الرجل كاتبا أو مفكرا أو عالما أو فنانا أو عبقريا في أي جانب من جوانب الحياة ، ولكن أمته تحس بأنها أنجبته بعد طول انتظار ، وأنه جاء - في لحظة فارقة - كنقطة الضوء التي تبدو في جوف الظلمة .

وفي دنيا الإسلام ، عاش الناس الأجيال والقرون ينتظرون مثل هذا الرجل ؛ لأنه في غيبته ، كان الغزو الفكري المعادي لتاريخنا يجد المناخ الملائم لعمليات

التدمير والتخريب، التي يقوم بها حين كان عدوانه يتسلل ليجهز على ما بقي من صور إيمانية تعيش بين جنباتنا ولتغتال كل الأحلام والأمنيات التي تعيش الأمة على أمل اللقاء بها .

وفي عصر اختصار المسافات التي يعيشها العالم الإسلامي، كان لابد أن يكون هناك رجل من هذا الطراز أو رواد من طراز نادر من أمثال : «الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي ومحمد إقبال وأبو الكلام آزاد ومالك بن نبي ووحيد الدين خان»، ومن هؤلاء الرواد المسلمين كان خالد محمد خالد الذي بدأت كلماته منذ بداية النصف الثاني للقرن الرابع عشر الهجري وكأنها محراث واثق يشق أرض الفكر، لتنبت بدلا من الأعشاب والأشواك : قمحا وأزهارا . بالطبع بعد تخرجه في الأزهر الشريف كانت كلمات خالد محمد خالد حانية ومحددة، تمضي في محاولة جادة ومخلصة لبعث الأسس التي قام عليها مجدنا الماضي، لتكون هي نفس الأسس التي نبني عليها الحاضر والمستقبل، ولتعيش القيم والمبادئ التي حكمت سلوك أجدادنا وأسلافنا، كواقع للآباء والأحفاد، ولتفتح الطريق - الذي ظل فترة وكأنه مسدود - واسعا وممهدا أمام عشرات بل مئات من الكتاب والمفكرين الذين تنتظرهم أمتنا للإسهام في هذه المحاولة الشاقة التي ترى الماضي في صورة الحاضر، ولا تحتبس الحاضر وراء تخوم الماضي .

ولقد وضعت كلمات خالد محمد خالد علامات بارزة ومضيئة على طريق التفكير الإسلامي المستنير الذي تقترب فيه قوافل الشباب باحثة عن الأمن والاقتناع، عن الأمل والمستقبل، وكانت كل واحدة من هذه العلامات توضع بحساب دقيق، ووفق منهج وصفه أحد كبار المفكرين بأنه المنهج الذي يضع عيوننا ليس على الأسلوب الأفضل، بل الأسلوب الأمثل الأوحد الذي نستطيع أن نمزج به روح الإسلام بروح العصر .

وهكذا .. كان خالد محمد خالد كاتبا موهوبا ، يبدأ من حيث يبدأ ، ثم يطوف بمجالات الفكر ، حتى يصل إلى مكانه الحقيقى ، الذي يحس بأنه إنما خلق له ، ويجد المنطقة التي لابد أن يدعمها بفكره وآثاره ، ولطالما كان مهموما ومهتما بالتجديد والابتكار حتى حين يعرض القديم ، ولطالما كانت دعوته : أن ينصرف الكتاب عن فكر الدروب المطروقة إلى فكر الإبداع والابتكار ، القائم على الدراسة العميقة والأناة والخلق الغني ، والإبداع الفكري المتفرد .

إن خالد محمد خالد الذي تميز بمثاليته وخلقه، بوضوح فكرته ونبل شخصيته ، بروحه العميقة ووفائه المنقطع النظير ، لابد أن يكون له منهج يميزه عن غيره ، ولعله يعلن عن هذا المنهج في مقدمة كتابه : (إنه الإنسان) فيقول : «في صحبة تفاؤل عظيم بمستقبل الإنسان كتبت هذا الكتاب ، وفي صحبة هذا التفاؤل أعيش دوما وأحيا ، وصاحبكم من الذين يربطهم بالإنسان ولاء غير مجذوذ ، ولا محدود ، وكل ما في الناس من ضعف، لا يصرفنى عن رؤية الإنسان الكامن في داخل ذواتهم وصنوفهم، والكادح إلى الكمال كدحا فملاقيه ..صحيح أننى - أحيانا - أبتئس بما يفعلون وبما أفعل ، ويتراءى لي مشهد الفيلسوف الإغريقى «ديوجينز» حين صاح من فوق ربوة عالية قائلا : أيها الناس.. فلما سارعوا إليه هز رأسه أسفا وقال : لم أنادكم ، أنا أنادي الناس . لكن الإنسان لا يلبث أن يظهر ، متربعا على عرشه القديم فوق كل هذه الفوضى ، حاملا مشعله المضيء وسط كل هذا الظلام ، فتذهب من فورها تلك الحسرات الكاذبة ، وتتطاير غواشي الكآبة واليأس أمام عظمته السابقة».

ثم يقول : « ينبغى أن نثق بالإنسان ، ونطمئن إلى مصيره ، وينبغى أن يكون جهادنا دائما مرتبطا بجهاده ومتمما له ، وأن نتحرى مشيئته ونعمل وفقها ، علينا أن ننقل الإنسان إلى حياتنا ، ونملأها برؤاه وبإصراره ، وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره ، لنثق تماما ، أن هذه الأرض لن تشهد يوما ما جنازة الإنسان ، فالإنسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ الرشد الذي يبدأ

منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضي نحبه حين تدق ساعة رشده وتبدأ بشائر عصوره، ولقد دقت الساعة وأهلت البشائر ، ولو لم يبق من البشر سوى ألف أو مائة ، فسيعمل الإنسان داخل هذه الألف ، أو هذه المائة . وإذا لم يبق من نوعه إلا عشرة فسيعمل مع هذه العشرة ، وإذا لم يبق إلا واحد فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ، وإذا فنى هذا الواحد أيضا ، فسيكمن الإنسان داخل (أميبا) يهرب بها من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد .. ».

وهكذا .. يرسم خالد محمد خالد لنفسه منهجا حين يؤمن بالإنسان ، وهو بهذا يضع نفسه في صف كتاب الإنسانية الذين يبحثون في وعي وذكاء عن قضاياه ، ويعيش مهتما ومهموما حتى يضع لها الحلول ، وهو أسلوب أو منهج موفق في الكتابة ، متصل عندما يصل إلى الغاية ، والهدف سيكون من أعظم أعمال الفكر الإسلامى والعربي . وهذا لعمري جوهر التجديد الذي أتى به خالد محمد خالد حيث أضاف إلى صرح الفكر الإسلامي بناء جديدا خاصا به وحده .

وإذا ما حلقنا مع مؤلفات خالد محمد خالد الخاصة بالإسلام ، فإننا نكتشف صدى لهذا الأسلوب أو المنهج ؛ لأنها من ذات الروح والوجدان ، تلك التى تصل صاحبها بما في الإسلام من قدرة على تحقيق آمال المستقبل لهذا الإنسان الذي يثق فيه ويؤمن به ، بالقدر الذي تعكسه حياته في الماضى من نور وبهاء ، هذا إلى جانب أسباب أخرى تربط هذا الإنسان بما في الفكر الإسلامى من مبادئ تجعل الماضي يعيش في الحاضر ولا تجعل الحاضر أسيرا لأشكال الماضي .

وهذه المبادئ هي التي تصنع حياتنا وتمنحها الرحابة والعبير والضياء ، بل وكل ما هو جميل وجليل .

مثلا : في الإمكان تبين ملامح هذا المنهج الذي يؤمن بالإنسان : ماضيه وحاضره ومستقبله في كتاب : (رجال حول الرسول) الذي أصدره خالد محمد

خالد في أربعة أجزاء ، فيها يتناول تجربة الحياة لمجموعة من أعلام الصحابة والرجال الذين جاهدوا مع الرسول - ﷺ - . فلقد تعودنا أن نقرأ عن أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم ، حيث يكفي بها نقرؤه بأن نرى من خلال حياتهم عظمة العصر الذي ينتمون إليه ، بل الذي ينتمي إليهم ، ولكن خالد محمد خالد حاول فيما كتبه أن يجعلنا نتعرف على مجموعة من الرجال العظام الذين عاشوا مع النبي الكريم - ﷺ - ، ونهضوا حوله ، ومثلوا فوق الأرض أعظم أدوار التفوق والعظمة . فعنده « أن بطولة أولئك الرجال في حمل أنفسهم على الزهد والورع ، التقوى والبذل ، وفي أخذها إلى كل رفيع وجليل من قيمة الحق وفضائله ، لشرف كبير للجنس البشري ، وحتى في بطولاتهم في القتال والجهاد من أجل الدين، لا تقدم مكانها العالي في عصرنا الذي يستنكف الحرب ويمجد السلام ، ذلك لأنهم مارسوا القتال المشروع في عصر كانت القوة فيه هي الحماية الوحيدة والفريدة للحق..» .

وهكذا .. يصل خالد محمد خالد في أجزاء كتابه : (رجال حول الرسول)، وفي هذا الجانب من الدراسات الإنسانية إلى غايته ، حيث تجد الإنسانية حلولا لقضاياها العليا في قيمة الفكر الإسلامي وميراثه المجيد .

مثلا عن الإيمان بالعقل ، يقول في فصل من كتابه : (الوصايا العشر) : «والذين يريدون أن ينيطوا الإيمان بالعقل وبالعلم سيجدون أنفسهم - إذا هم أحسنوا استخدام العقل والعلم في هذا المجال - أمام حقيقة الإيمان مسفرة كضياء النهار .

فالله سبحانه حين دعا الناس إلى التعرف إليه .. لم يقدم نفسه إليهم في ألغاز وأساطير ، بل قدم ألوهيته عن طريق ما يشاهدون من آثاره ، ودعاهم أن يستعملوا عقولهم في الاهتداء إليه ، ليكتشفوا بأنفسهم وجوده ، جاعلين سبيلهم لهذا النظر والتفكر .

لنقرأ – مثلا – هذه الآيات :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾[1] .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[2] .

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾[3] .

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[4] .

فماذا تعني هذه التوجيهات ؟ إنها تعني : أن الإيمان تجربة قبل أن يكون إذعانا.. ونظر عقلي قبل أن يكون تلقينا .

وهي دعوة صريحة إلى البحث عن حقيقة الألوهية من خلال ملاحظة الكون ملاحظة عقلية وعلمية .

وإن القرآن الكريم ليحدثنا كيف ترك الله أبا الأنبياء ، وأبا الأديان يعاني تجربة الإيمان بعقله ومحاولاته ، فراح يبحث ويتأمل وينظر ويفحص .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[5] .

(1) الروم : 9 .

(2) العنكبوت : 20 .

(3) النمل : 61 .

(4) النمل : 88 .

(5) الأنعام : 76 .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1] .

﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2] ..

فأبو الأنبياء عليه السلام يسلك إلى الله طريق العقل ، والنظر والتأمل ، مقلبا وجهه في السماء ، ممعنا بحواسه في اجتلاء الغيب ، متوسلا في نطاق نسبي ، بنفس الطريقة التي يسلكها العلم اليوم ، وهي : وضع الفروض ، ثم مناقشتها وفحصها».

وفي كتابه : (كما تحدث القرآن) يكتب فصلا بعنوان : (القرآن يحدثنا عن نفسه) فيقول : « مائتان وثلاثون آية ، أو تزيد ، تحدث القرآن فيها عن نفسه وطرح خلالها كل الأسئلة التي تتعلق به ، وأجاب عنها .

ما هو ؟ من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ هل هو سحر ؟ هل هو شعر ؟ هل هو إفك مفترى؟ هل هو أساطير الأولين ..؟ هل هو نقض لما سبقه ، أم هو مصدق الذي بين يديه من الكتاب ؟

ولماذا لم يأت جملة واحدة ؟ وهل جاء لقريش وحدها ..؟ أم هو ذكر للعالمين..؟

وما موقفه من الذين ارتابوا فيه ، والذين خاصموه وولوا عنه مدبرين ..؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تباعا ، وأجاب عنها في وضوح .. كما جلى بها حقيقته ، وحكى بها قصته .

(1) الأنعام : 77 .
(2) الأنعام : 78 ، 79 .

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات :

﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(1) .

هذا هو القرآن ، وهذه هي أسرته ..

أما هو - فـ «كتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» .

وأما أسرته ، فهم «الذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك» .

وإنها لبداية سعيدة وباهرة ، ينحى القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية ، والعنصرية ، الطائفية .

فجميع الذين لهم إيمان بالله ، وبالحق ، وبالغيب - القرآن كتابهم .

وهو إذا لم يأت لينقض ما سبقه ، بل جاء يكمل ويتمم .

والذين يؤمنون به ، يؤمنون حتما وضمنا بكل ما سبقه من كتاب .

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير ، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ ﴾(2) .

وإذا كانت التوراة والإنجيل - الكتابان اللذان يتحدث عنهما القرآن ، لم يكونا فرية ولا ضلالا - إنما كانا رحمة للناس وهدى ، فكذلك القرآن الذي جاء يتمم رسالة الكتب السابقة والصادقة .

(1) البقرة : ٢ - 5 .
(2) آل عمران : 3 ، 4 .

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

وفي القرآن الكريم عشرات من هذه الآيات فيها يحدثنا عن نفسه وعن الرسول - ﷺ - .

يا من جئت الحياة ، فأعطيت ولم تأخذ .

يا من قدست الوجود كله ، ورعيت قضية الإنسان .

يا من زكيت سيادة العقل ، ونهنهت غريزة القطيع .

يا من هيأك تفوقك لتكون سيدا «فوق» الجميع .. فعشت واحدا «بين» الجميع .

يا من أعطيت القدوة ، وضربت المثل ، وعبدت الطريق . يا أيها الرسول ، والأب ، والأخ ، والصديق ... إليك أهدي هذه الكلمات :

في حياء من يعلم أنه يجاوز قدره بهذا الإهداء .

لو لم يكن محمد رسولا ، لكان إنسانا في مستوى الرسول ، ولو لم يتلق الأمر من ربه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[2] . لتلقاه من ذات نفسه : يا أيها الرسول بلغ ما يعتمل في ضميرك؛ ذلك أن «محمدا الإنسان» جاوز نضجه وارتقاؤه كل تخوم الذات وحدودها ، ولم يكن ثمة سبيل لوقف انتشار هذا النضج وهذا الارتقاء خارج الذات وخارج البيئة ، بل خارج الزمان والمكان ..

إن «محمدا الإنسان» شيء باهر ، فإذا التقى به «محمد الرسول» فإن عظمته آنئذ تجاوز كل حدود الثناء !!

(1) يونس : 37 .

(2) المائدة : 67 .

ولكن ، لماذا أضع «الإنسان» مقابل «الرسول» ..؟ أوليس الرسول إنسانا..؟ بلى - إن الرسول إنسان ، وإنما أعني بصفة «الإنسان» هنا التركيز على الطابع البشري المحض الذي يشترك فيه «محمد» مع غيره من الناس ، والذي تفوق فيه على من سواه من الناس ..

فهذا الطابع البشري بكل انفعالاته وبساطته وتلقائيته - يبهجنا ويبهرنا ؛ لأنه من صنع واحد منا ، ومن ثم فهو يمنحنا ثقة بأنفسنا واحتراما عظيما لبشريتنا التي تنجب هذا الطراز الرفيع من الخلق .

عندما نستعرض المشاهد التي تجلى خلالها إيمان أبي بكر ، نجد أنفسنا أمام سؤال بالغ الأهمية . هو : ماذا ، لو لم يكن هناك أبو بكر؟؟

وسيتألق هذا السؤال ، ويفرض نفسه بصورة آكد وأوضح عندما نعيش عما قريب مع أبي بكر في يومين عظيمين : يوم السقيفة ، ويوم الردة .

إن الأمر ليبدو كما لو كان الله سبحانه حين اصطفى «محمدا» عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس اجتبى معه في نفس اللحظة «أبا بكر» رضي الله عنه، ليكمل دور الرسول . وحين تتطلع حياتنا الإنسانية إلى أساتذة نتلقى عنهم ومن سيرتهم فن الإيمان ، فإنها واحدة على رأس تلك القلة النادرة الباهرة ، رجل الإسلام الكبير : «أبو بكر الصديق» .

وتحت «ما تقول لربك غدا» من كتاب : (بين يدي عمر) يقول خالد محمد خالد : «ولو جئنا موقفه من السلطان ، حيث يتنازل الناس عن أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين .. فماذا نجد ؟ أما هذا السلطان ، على ضخامة ما أحرز منه عمر ، فما شقي بشيء ، مثلما شقي بأن رأى نفسه خليفة ، وأميرا ، وحاكما .. لقد كانت أغلى أمانيه أن يظل عمر بن الخطاب لا غير ، فلا هو خليفة ، ولا هو أمير .

ولقد اقتربت منه الخلافة إثر وفاة رسول الله ، إذ بسط إليه أبو بكر يمينه في اجتماع السقيفة قائلا : هات يدك يا عمر نبايع لك .. ولكن عمر خلص منها ناجيا ، إذ قال : « بل إياك نبايع ؛ فأنت أفضل مني » .

قال أبو بكر : « أنت أقوى مني يا عمر » .

قال عمر : « إن قوتي لك مع فضلك » وسارع فمد يمينه وبايع أبا بكر ، وبايعه الناس على أثره .

وحين كان أبو بكر يودع الدنيا ، ويعهد بالخلافة لعمر . كان عمر يتقبل مكرها وكارها إمارة المؤمنين . ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظرف الحرج الدقيق، هاربا من واجب سيسأله الله عنه غدا ، لرفض السلطان وهرب من الإمارة .

« أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم ، وأشدكم اضطلاعا بأموركم ما توليت ذلك منكم ، ولكفى عمر انتظار الحساب » ..

انظروا .. ولكفى عمر انتظار الحساب .

هذا رجل مشغول لا غير ، بالكلمة التي سيقولها له الله غدا ، وبالكلمة التي سيقولها هو لله ، والحظوظ الوافية عنده ليست في منصب أو جاه ، إنما هي في الظفر برضاء الله سبحانه ..

وفد عليه يوما جماعة من المسلمين النازحين ، فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس في البلاد التي مروا بها . فقالوا : « أما بلد «كذا» فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه ، وأما بلد «كذا» فإن بها قوما صالحين يدعون الله لك ويقولون : «اللهم اغفر لعمر وارفع درجته» .

وتحت عنوان: «الحاكم القديس» من كتاب: (معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز) يكتب «خالد محمد خالد» : « وراح عمر بن عبد العزيز ينشئ في طول البلاد

وعرضها دور الضيافة يأوي إليها المسافرون وأبناء السبيل ، ومضى يرفع مستوى الأجور الضعيفة ، وكفل كل حاجات العملاء والفقهاء ليتفرغوا لعلمهم ورسالتهم دون أن ينتظروا من أيدي الناس أجرا ، وسخا على ولاته برواتب كبيرة ، حتى يتفرغوا لمهامهم ، وحتى لا تضعف نفوسهم أمام إغراء الحرام .

وعلى طول البلاد وعرضها كذلك ، أمر لكل أعمى بقائد يقوده ويقضي له أموره على حساب الدولة ، ولكل مريض أو مريضين بخادم ، على حساب الدولة، وأمر ولاته بإحصاء جميع الغارمين ، فقضى عنهم ديونهم ، وافتدى أسرى المسلمين جميعا ، وأغدق عليهم العطاء ..

وكفل اليتامى الذين لا عائل لهم في جميع أقطار دولته العريضة المترامية ، وكما فعل جده العظيم - عمر بن الخطاب - من قبل ، فعل هو أيضا ، فأمر أن يفرض لكل مولود راتبه وعطاؤه بمجرد ولادته ، وليس بعد فطامه ، حتى لا تتعجل الأمهات فطام الرضعاء فيتعثر نموهم ، وتضمحل قواهم .

ومن أجل ألا يتحول عطاء الدولة إلى فرصة للطامعين ، منع أن يجمع أحد بين عطاءين ، وحرم على جميع العاملين والموظفين ، الجمع بين راتبين مهما تكن الأسباب.

وهكذا تقسط الناس جميعا في عهده العظيم ما أفاءه الله عليهم من خير ورزق.

وإنا لنكاد نذهل أمام ذلك الإجماع التاريخي الذي يحدثنا عن اختفاء الفقر والفقراء في عهد التقي الورع «عمر بن عبد العزيز» ، حتى لقد كان الأغنياء يخرجون بزكاة أموالهم فلا يجدون فقيرا يأخذها - ويبسط يده إليها .

ذلك أن عدل - ابن عبد العزيز - لم يكف الناس حاجاتهم فحسب ، بل وملأهم شعورا بالكرامة والقناعة ، فلم تعد تستهويهم بالصدقات مهما تكن كبيرة

وكثيرة ، بعد أن أغناهم الله من فضله بالحق ، وبالعدل ، وبعبده الصالح : عمر ابن عبد العزيز » .

وتحت عنوان : «يوم الطائف» من كتاب (عشرة أيام في حياة الرسول) ... يقول خالد محمد خالد : « وهكذا .. نرى الرسول - ﷺ - يتخطى بآماله وبأحلامه كل عوائق القنوط ودوافع اليأس ، فهو إذ يرى أهله وعشيرته وأعرف الناس بصدقه وأمانته ، ونبل شمائله واستقامة نهجه ، حين يراهم يكذبونه ويحاربونه ، لا يستسلم لمنطق اليأس الذي يقول : إذا كان هذا صنيع الأقربين والذين يعرفون ؟ فكيف إذن يكون صنيع الآخرين !؟

لم يستسلم لهذا المنطق رغم إغرائه ، بل امتدت آماله وأحلامه إلى الآفاق البعيدة التي لا تبشر بخير ولا بعطاء .

أجل ، إنه رسول ، عليه البلاغ . « إنما أنت منذر » . « ولكل قوم هاد » .

وهكذا سافر إلى الطائف ، وهناك بدأ بثلاثة من سادتها وأشرافها راجيا أن يصيروا - إذا هداهم الله لدينه - قدوة تجري ثقيف وراءها .

وكان هؤلاء الثلاثة إخوة وأشقاء ، أبناء عمرو بن عمير ، أقبل عليهم رسول الله يدعوهم إلى الهدى ، ويحدثهم عن الإيمان ، ويبشرهم بمثوبة الله ورضوانه إذا هم ناصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فقابلوه بجحود ما يسمعون ، بل جاوزوا الجحود إلى السخرية ، وتحريض السفهاء من أهليهم وعبيدهم على توجيه الإساءات المؤلمة إلى شخصه الكريم .

لقد تخلى سادة ثقيف هؤلاء عن أبسط مظاهر الخلق العربي : إكرام الضيف الغريب .. لقد كان جوابهم لدعوة الرسول إياهم أن قالوا : ألم يجد الله غيرك يرسله!؟

ثم نادوا سفهاءهم وعبيدهم ليشيعوا الرسول بالسباب والسخريات والحجارة، يقذفون بها أكرم الخلق وإمام الهداة .

ولم يفجعه الموقف على ما فيه من نذالة وسفالة ، بقدر ما توجس من خيفة الشماتة ، ومرارة التشفي حين يبلغ قريشا ، هذا هو الذي لقيه في الطائف من ثقيف .

ومضى ، تلاحقه مظاهرة السفهاء صاخبة نابحة ، حتى وجد بستانا فآوى إليه، وراح يجفف الدم الذي يسيل من عقبيه اللتين أدمتهما حجارة السفهاء .

وأخذه على نفسه الحنان ، فتندت بالدمع عيناه .. إنه منذ ولد حتى يومه هذا ، أي طوال ثمانية وأربعين عاما وهو يعيش بين الناس في مهرجان حافل بالحب ، وبالحفاوة والاحترام .. ثم ها هو ذا اليوم ، يلقى الذي يلقاه .

ولكن ، أي بأس إذا كان هذا وأضعافه معه في سبيل الله !؟ أي شرف عظيم أن يناله الضر لأنه يرفع في الأرض راية الحق والهدى والخير !؟

وأي شيء يجعل الحياة عظيمة ، سوى ألم عظيم !؟

هنالك أسند ظهره إلى إحدى شجيرات البستان ، وبسط كفيه إلى السماء مناجيا ربه وضارعا إليه .

« **اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس** » .

« **يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني** » .

« **إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟** » .

« **إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي .. !** » .

« **ولكن عافيتك أوسع لي ..** » .

« **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك** » .

« **لك العتبى حتى ترضى** » .

« **ولا حول ولا قوة إلا بك** »[1] ..

إنها معزوفة جليلة ، لروح جليل ، إنها ابتهالات رسول أواب ، قدر الله حق قدره ، وأسلم وجهه وقلبه وكله لمشيئته ورضاه » .

وتحت عنوان : «الحسين بن علي في يومه العظيم» من كتاب : (أبناء الرسول في كربلاء) يكتب خالد محمد خالد صفحات مفعمة بالحزن والأسى حين بدأت أول فتنة في الإسلام فيقول : « وتقدم أبناء « الحسين » وأبناء « الحسن » : أبو بكر ابن الحسين ، وعبد الله ابن الحسين ، والقاسم بن الحسن ، كما تقدم أبناء جعفر ابن علي بن أبي طالب عون ، ومحمد ، وعبد الله ، وأبناء « عقيل بن أبي طالب » : عبد الله الأكبر .. وعبد الله الأصغر .. وجعفر ..

وأبناء «مسلم بن عقيل» الذي قتله ابن زياد في الكوفة : محمد وعبد الله ، كما تقدم محمد بن أبي سعيد بن عقيل ، تقدموا جميعا في بطولة تتحدى نفسها !!

واندفع أصغرهم سنا : - القاسم بن الحسن - يهز سيفه في الهواء الساخن ، ثم يهوى به فوق الأعناق الضالة الظالمة ، حتى نالته سيوفهم فهوى كالنجم ، ينادي : يا عماه ..!!

ونسي «الحسين» ما حوله من هول ، وانطلق كالصغير صوب قاتل ابن أخيه، حيث شد عليه شدة الليث ، وضربه بسيفه ، فبتر يده الشقية ثم طرحه أرضا ، حيث داسته خيل جيش ابن زياد ، فهلك تحت حوافرها ، وانثنى «البطل» نحو ابن أخيه يضمه ، ويشمه ، ويتملى في جسده المثخن رونق الزهور .

---

(1) رواه ابن ماجه .

ولأول مرة سالت عبرات الأسد ، وقال يخاطب الجثمان المسجى بالمجد :

– عزيز والله على عمك ، أن تدعوه فلا يجيبك .. أو يجيبك ، فلا ينفعك في يوم– كثر واتره .. وقل ناصره ..

ثم حمله بين ذراعيه ، إلى حيث أرقده بجوار ابنه علي ، ثم عاد لهول المعركة من جديد .

لك الله ، أبا عبد الله !! وهل اختارتك المقادير لهذا العبء الذي يدغدغ الجبال، إلا وأنت له كفؤ وبه جدير ؟؟ » .

* * *

الشيخ محمد متولي الشعراوي

الداعية الكبير الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - ولد عام 1330هـ وتوفي عام 1419هـ . يعتبر من مجددي القرن الخامس عشر للهجرة ، وذلك لتأثيره المنقطع النظير على الجماهير ، أقول : الجماهير بكل فئاتها وأطيافها ، العامة منهم والخاصة ، الأدباء أو السياسيون ، العلماء أو الفنانون ، وهو أمر لم يحدث له مثيل معاصر لعالم أو داعية أو فقيه من العلماء أو الدعاة أو فقهاء الدين ، لم يحدث لواحد من هؤلاء الاهتمام به مثلما حدث مع هذا الشيخ الجليل .

إن نظرة واحدة إلى الذين يقصدون ندواته أو أحاديثه الأسبوعية في واحد من مساجد القاهرة أو أقاليم مصر أو مدنها ، والتى تنقلها القنوات المرئية أو المسموعة لتحقيق فائدة أكبر بالنسبة للمشاهدين أو المستمعين ، تكفى وتزيد للدلالة على أن هذا الشيخ الجليل يجمع حوله هذا العدد الغفير والمتنوع من المريدين الذين يسعون إليه دون إلزام من أحد ، أو حتى يكون معنى هذا السعى لمآرب ومصالح شخصية أو فوائد مادية . والأغرب تراهم ساكتين - وكأن على رؤوسهم الطير - لا يصدر عن أي منهم نأمة أو حركة ، إلا إذا كان ذلك على سبيل الاستحسان ، أو لتوجيه سؤال ، والشيخ الجليل ماض في تفسيراته وتحليلاته بتدفق ، لا يفسره سوى القول بأنه فتح من الله وهبه لعبد من عباده ، وفي الجانب الآخر تجد هؤلاء المريدين مشدودين إليه من أفئدتهم وقلوبهم ، بشكل لم يحدث له مثيل فيمن رأيناهم من شيوخنا الأجلاء .

والمرء يدهش حين يدرك ويعرف أن ذلك يحدث تلقائيا وعن طيب خاطر ، فلم يحدث أن طلب هذا الشيخ الجليل من أحد أو من جماعة ، الحضور إلى ندواته أو

أحاديثه ، المفتوحة لكل عابر سبيل . كذلك يدهش المرء حين يدرك ويعرف أن هؤلاء المريدين لم يحضروا ابتغاء مصلحة أو فائدة مادية ، بل على العكس إنهم يحضرون للاستفادة المعنوية التي تحقق لهم معرفة أمر دينهم .

وقد يدهش المرء الذي يتابع ندوات وأحاديث الشيخ الشعراوي إذا أدرك أن هذه الأعداد الغفيرة من المريدين يزدادون عددا وتنوعا يوما بعد يوم مع مرور الوقت ، وكأن هناك خيطا رفيعا غير مرئي يجذبهم ويشدهم إليه ، هذا الخيط غير المرئي لعله يتجسد في معاني الارتقاء بهم إلى ما يحبه ويرجوه ويتمناه الإنسان المسلم من إيمان يستقر في القلب ويصدقه العقل . وقد يزداد المرء دهشة حين يلمح صدى لهذا القبول الذي يحظى به هذا الشيخ الجليل من مريديه ، لا يقابله غرور أو تعال منه، بل على العكس ربما يزيده هذا القبول المنقطع النظير إحساسا بالمسئولية التي تقع على عاتقه تجاه هؤلاء المريدين ، وهو شعور الإنسان المسئول عن كل ما يصدر منه من أقوال أو أفعال تتعلق بعلاقة الإنسان بالله عز وجل وكتابه المبين وسنة رسوله الكريم .

ولعل هذا القبول الذي كان يحظى به الشيخ الشعراوي ؛ وذلك لإقبال مريديه من كل حدب وصوب كان يسبب له - أحيانا - بعض المتاعب ؛ حيث كانت أحاديثه وندواته توضع تحت مجهر الرقباء بسبب تأثيرها الشديد على هذه الجموع ، أمرا تسبب عنه منع إذاعة ندواته وأحاديثه أو حتى إقامتها ، بقرار في عصر الرئيس أنور السادات ، وظلت على هذا النحو ممنوعة إلى أن تولى الرئيس حسني مبارك زمام الأمور ، فأمر بإقامتها وإذاعتها خاصة بعد أن تبين أن هذا الشيخ الجليل لم يخرج في أحاديثه وندواته عن الإطار الديني الواجب عليه أن قدمه للناس كرجل أوتي العلم فلا يضن به على غيره ، بل من واجبه أن يهديهم إلى الطريق المستقيم . فلم يكن يناصر في ذلك حزبا أو جماعة ، ولم يعرف عنه أنه كان نصيرا لأي اتجاه من الاتجاهات السياسية أو الاجتماعية ، اللهم إلا ما حدث في شبابه من تعاطف مع

حزب الوفد القديم كحزب سياسى ، وجماعة الإخوان المسلمين في بداياتها ، حدث منه ذلك كواحد من أبناء الريف الذين كانوا يرون في الوفد كحزب وفي الإخوان كجماعة وسائل النجاة والخلاص من الأزمات والمشاكل التي كانت تعج بها الحياة المصرية قبل ثورة 23 يوليو 1952 .

بل ويذكر عنه ، أنه كان يرفض رفضا قاطعا أساليب الإخوان في الاغتيالات ، مثلما حدث في اغتيالهم للرئيس السادات ، إلى درجة أنه طلب من مفتي الجماعات الإسلامية «عمر عبد الرحمن» أن يستغفر الله بقية عمره حين أسهم في هذه الجريمة ، حدث هذا من الشيخ الشعراوي الذي لم يكن على ود مع الرئيس السادات في آخر سنوات حكمه مثلما رأينا أنه منع إقامة وإذاعة أحاديثه وندواته .

أما باستثناء ذلك ، فقد انصرف إلى العلم الذي ربط بينه وبين مئات الآلاف من الناس المنتشرين ليس في مصر وحدها ، وإنما على امتداد العالم العربي من الخليج إلى المحيط ؛ حيث حقق ما لم يحققه غيره من إيجاد قاعدة ثابتة وواسعة من الاطمئنان لدى الذين يبحثون عن الطريق إلى الله عز وجل ، ولهذا ولغيره أصبح اللجوء إليه أمرا متكررا من فنان قدير أو فنانة مشهورة يعيشان تحت الأضواء ، كما يعيشان حياتهما بالطول والعرض ، وقد استمتعا بكل مباهج الحياة ومتعها ، وأرادا أن يتوبا إلى الله بعد أن أعياهما المضى فيما هما فيه ، فلم يجدا من سبيل إلى ذلك إلا المرور من باب الشيخ الشعراوي الذي تلقاهما بترحيب عملا بحقيقة أن الله خالق السماء والأرض وما بينهما يقبل التوبة من عباده ، فلماذا لا يساعدهما على بلوغ ذلك إلا إذا كانت هذه رغبتهما !؟

وهناك أمثلة كثيرة لفنانين وفنانات وسياسيين وأصحاب سلطان أعياهم البحث عن هذا الطريق المؤدي إلى الهدوء النفسى والانسجام الروحي ، فوجدوا بدايته لدى الشيخ الشعراوي فاتبعوه وصدقوه ، وأنعم الله عليهم بالإيمان والهداية وعاشوا أكثر استقرارا في الحياة واطمئنانا ورضى عن النفس ، بل وغنى عن المال والناس .

ولعلنا نتساءل بعد ذلك عن الأسباب التي جعلت هذه الجموع على اختلاف فئاتها وتنوع أساليب حياتها ، يسعون إلى هذا الشيخ الجليل ويطمئنون إليه ، ويجدون في أحاديثه وندواته الهداية والرشاد والأكثر ما يطمئن قلوبهم ؟ لنترك الإجابة على هذا التساؤل لكتاب (مصريون ومعاصرون) لعضو مجمع اللغة العربية الدكتور «محمد الجوادي» حيث يذكر الأسباب في فصل من فصوله ، خصصه للشيخ الشعراوي مع هذا العدد من المصريين المعاصرين ويحددها في أربع نقاط : « **أولها** أن الشيخ الشعراوي كان يلجأ إلى العامية الراقية حين يحتاج إليها ، وكان يفعل ذلك في براءة الدعاة ، ولهذا فقد قدره مجمع اللغة العربية ودعاه إلى تبوء مقعده بين الخالدين.

وأما **النقطة الثانية** هي : أن الشعراوي كان كثيرا ما يصرح بأنه لا يقرأ إلا القرآن الكريم ولكن أحاديثه كانت تنم عن أنه لا يكف عن القراءة ، وأنه متابع جيد لكل تفصيلات الحياة والعلم والاقتصاد ، ولأدق نظريات الاجتماع ، وتطورات العلوم الحديثة ، ومنجزات التكنولوجيا ، وكان هذا أظهر ما يكون في حديثه وتشبيهاته وحواشيه ، ولكنه - والعلم عند الله - كان يلتزم الأمانة في ألا يقيد الناس بشيء يقرأونه اقتداء به .

والنقطة الثالثة هي : أن الشيخ الشعراوي كان واضح الانتماء في أفكاره السياسية، ومع أنه لم يكن ميالا إلى الحزبية بمعناها الديناميكي ، فإنه حين اختار طريقه السياسى كان دائما في الصف الذي فيه أغلبية الشعب ، وكأنه - والعلم عند الله - كان حريصا على أن يكون مع الجماعة ، وعلى الرغم من أن معظم متاعبه جاءته من هذا الاختيار بالذات إلا أنه لم يتراجع عن اختياراته السياسية المبكرة ، وظل على الدوام فخورا بوفديته المبكرة، وبعلاقته بالنحاس باشا، بل واستشراقه لأخريات أيام الزعيم «سعد زغلول» ، وفي كل حواراته السياسية وغير السياسية ، فإن الشيخ الشعراوي لم يدلس أبدا ولم يزعم على الإطلاق أنه قاد جماعة سياسية ، ولا انضوى تحت أي حركة دينية ذات طابع سياسي .

وقد سببت له صراحته في هذه النقطة كثيرا من المتاعب الخفية ، ولكنه بحكم إيمانه وعقيدته لم يكن ليعبأ بمثل هذه المتاعب ، ولا كان حريصا على أن يسترضي كل الناس .

والنقطة الرابعة هي : أن الشيخ الشعراوي كان يستعمل المنطق والفلسفة والقياس فيما استعمله الأقدمون وربما أكثر ، وكان يمعن في الاستنتاجات إلى نهايتها ما دام مطمئنا إلى وسائله ومقدماته ، ولكنه مع هذا ، كان يؤمن برحابة الفكر حتى وإن لم يدرك هذه الرحابة بما أمكنه لله من وسائل عقلية ، ولهذا فإن الاهتداء القلبي كان يقود خطواته إلى التسامح الفكري ، وتقبل رأي الآخر على الرغم من أن الجماهير ووسائل الإعلام والمشاعر الجارفة كانت طوع بنانه ، ولو كان مغرضا ولو بنسبة واحد في المليون لأشعل في العقدين الأخيرين من القرن الماضي - العشرين - حروبا لا تقل ضراوة عن الحروب الصليبية ، ولعقد محاكم لا تقل قسوة عن محاكم التفتيش ، ولكنه لحسن الحظ لم يفعل هذا ولم ينسق إليه ، وكان امتناعه عن كثير من السلوك الأرعن أعظم بكثير جدا من إنجازاته الفكرية والفقهية والبيانية . وكان الشيخ الشعراوي موفقا جدا في التوقف عند لحظة حاسمة في كل الخلافات التي اشتعلت بينه وبين أعلام الفكر والأدب والسياسة » .

ولعل الدكتور «الجوادي» يشير إلى الخلافات التي نشأت بين الشيخ الشعراوي وكل من الأستاذ «توفيق الحكيم» حين بدأ في نشر مقالات بالأهرام تحت عنوان : (حديث مع الله) . أو مع الدكتور «زكي نجيب محمود» حين انتقد بعض أقوال هذا الشيخ في حلقة من حلقاته حول فائدة الذباب فكان رد الشيخ الشعراوي على ذلك وغيره من خلافات لكنها كانت في واقع الأمر لا تخرج عن حجمها الحقيقي ، ولا تفسد للود قضية بينه وبين هؤلاء المفكرين والأدباء والسياسيين والتي كان آخرها خلافا وقع بينه وبين الدكتور «يوسف إدريس» على صفحات جريدة الأهرام رحمهم الله جميعا .

وقد يجرنا تسجيل هذه الأسباب إلى التعرف عن بعض أفكار الشيخ الشعراوي وآرائه ، فنستأنس في ذلك بكتاب : (الشعراوي مفكرا) للمسئول عن الفكر الديني بمؤسسة الأهرام الكاتب الكبير الأستاذ «محمود مهدي» رحمه الله حيث سجل في كتابه العديد من الأحاديث التي أجراها مع الشيخ الشعراوي ، والتي تكشف وتوضح الجانب الفكري في حياة الشيخ الشعراوي تلك التي تتضمنها آراؤه وأفكاره في موضوعات على جانب كبير من الأهمية ، تتركز في بعض مما سجله الأستاذ «محمود مهدي» في كتابه قائلا : «موضوعات هذا الكتاب تتعلق بالشورى ، وأنها ليست ملزمة للحاكم المسلم الذي جاء على اختيار سليم ، وبالاجتهاد وهو ضرورة ولكن ليس من الإسلام التعصب لرأي مجتهد على حساب رأي مجتهد آخر ، وفي الكتاب أحاديث عن الغزو الفكري باعتباره من أخطر القضايا التي يجب أن يهتم بها العلماء والمفكرون ، وعن واقع العالم الإسلامي اليوم وضرورة أن يتفق حكام المسلمين على موقف موحد إزاء ما يحدث الآن على الساحة الإسلامية والعالمية ، وعن مناهج التربية الدينية وضرورة أن تقوم هذه المناهج بترسيخ العقيدة باعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة ... وعن العلم ما هو ؟ وكيف نتلقاه ؟ وما حدود الاجتهاد فيه؟ وما حدود البشر في إدراك ظواهر الكون ؟ وهل القرآن الكريم كتاب علم ؟ وكيف ننظر إلى ما فيه من إشارات علمية ؟ وعن خطبة الجمعة التي ألقاها فضيلة الشيخ الشعراوي إبان توليه وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ، تلك التي أثارت ردود أفعال غاضبة لدى الشيعة وكادت أن تحدث أزمة بين مصر وإيران بسبب حديث الشعراوي عن الشيعة الفاطمية ، وعن الطريقة المثلى للاحتفال بذكرى المولد النبوي الشريف ، وعن المهدي المنتظر وهل هو شخص معين أو رمز لمعنى واتجاه في الإصلاح » .

كذلك سجل الكتاب لجانبين مهمين في حياة الشيخ الشعراوي ، ولكنهما غير معروفين عند كثير من الناس وهما عن : الشيخ الشعراوي الوطني ، والشيخ

الشعراوي الشاعر ، وغير ذلك مما حرص الأستاذ «محمود مهدي» على رصده في دقة وأناة كمنهج اتبعه في كتاباته الدينية .

كذلك ، هناك العديد من المؤلفات التي نسبت إلى هذا الشيخ الجليل ، حيث قام البعض بإعدادها للنشر بعد تفريغ ندواته وأحاديثه ، ونخص بالذكر الأجزاء المتعددة والكثيرة التي نشرتها مؤسسة أخبار اليوم في سلسلة كتاب اليوم تحت عنوان «معجزة القرآن» وهو العمل الممتاز والمفيد الذي تتضح فيه الجوانب التجديدية في التفكير الإسلامي حيث أتى هذا الشيخ الجليل بما لم يأت به أحد من قبل على اعتبار أن معجزة القرآن الكريم هي معجزة خالدة باقية إلى يوم القيامة ، والقرآن خاتم الكتب السماوية ليس له عصر ، وهو لم يأت ككتاب علم . هذه حقيقة يجب أن نضعها في أذهاننا ، ولكنه في الوقت نفسه جاء كمعجزة خالدة باقية ، ومن هنا فإن فيه إعجازا لكل العصور ، إعجازا لمن عاشوا قبلنا ، وإعجازا لعصرنا وإعجازا لمن سيأتون بعدنا حتى تنتهي الدنيا وما فيها .

هذا الكتاب المبين جاء لينذر من كان حيا ، ومن هنا فإنه موجه للأحياء ، وتحديه هو بالنسبة لمن يقيمون على هذه الأرض ، وليس لمن انتقلوا منها إلى العالم الآخر فأولئك يرون عين اليقين ، ويعرفون الحق بعد مغادرتهم دنيانا .

وكما يسجل الكاتب الراحل «أحمد زين» المشرف على إصدار هذه السلسلة المعروفة بمعجزة القرآن أن الشيخ محمد متولي الشعراوي حين كتب مقالاته في أخبار اليوم عن إعجاز القرآن ، فإن هذه المقالات أثارت ضجة كبيرة ، حيث تحدث فضيلته عن آدم وكيف علمه الله الأسماء ، وما معنى أن يعلم الله الأسماء لآدم ؟ ثم تناول بعد ذلك كيف أن الإنسان حين يتعلم الآن يجب أن يتعلم الأسماء أولا .

كذلك ، تناول الشيخ الشعراوي في أحاديثه عن معجزة القرآن الكريم : لماذا نزل القرآن ككتاب جامع للبشرية كلها ، ولماذا كانت الكتب السماوية تنزل إلى أمة أو

شعب لتعالج داء، بينما القرآن جمع المشاكل البشرية كلها. ثم روى بالتفصيل كيف أن القرآن الكريم فرق حجب الغيب الثلاثة : حجاب الزمن الماضى ، وحجاب الحاضر ، وحجاب المستقبل ، بل إنه اقتحم مجاهل النفس البشرية ليظهر ما يخبئه الإنسان ، ولا يبوح به لأحد ، ولا يعلمه إلا الله عز وجل ، وفرق القرآن بعد ذلك حجب المستقبل : القريب والبعيد ، فأنبأ عن أشياء لم يكن العقل يعتقد أنها ستحدث أو أنها يمكن أن تحدث ، وتنبأ بنتائج حروب ومصائر شعوب ، وقال لنا إن الأرض كروية ، وكشف لنا علم الأجنة قبل أن يعرفه العالم ، وتحدى البشرية في أن تخلق بعوضة أو ذبابة واحدة وكشف عما هو أصغر من الذرة ، ثم قال : « وما تحت الثرى» مشيرا إلى أن هناك ثروات هائلة في باطن الأرض ، ثم أنبأنا عن معجزة الخلق، وكيف تتم ، وأبان لنا أشياء وصلنا إليها بالعلم الأرضى ، وأشياء لم نصل إليها حتى الآن... كل ذلك أوضحه الشيخ الشعراوي حين تحدث عن معجزة القرآن .

والحق ، أن تفسير معجزة القرآن يعتبر تفسيرا عميقا ومهما لم يتناوله أحد من الأئمة حتى الآن بهذه الصورة ، ولم يقدمه بهذا الأسلوب السهل الممتنع ؛ حيث يضيف إلى المكتبة القرآنية إضافات مهمة يعتز بها كل مسلم .

وكما يذكر المشرف على سلسلة كتاب معجزة القرآن الراحل «أحمد زين» أن هذا العمل الذي قام به الشيخ الشعراوي عمل متميز وفريد ؛ حيث لم يسبقه إليه أحد ، وهو ما يجعلنا بدورنا نضعه مع الأعمال التي تضع صاحبها ضمن المجددين الذين أضافوا إلى الفكر الإسلامي المستنير أفكارا وآراء جديدة في القرن الخامس عشر للهجرة .

* * *

الدكتور يوسف القرضاوي

من مجددي القرن الخامس عشر الهجري الدكتور يوسف القرضاوي أطال الله في عمره حيث ولد في عام 1345هـ . وهو أحد علماء الإسلام البارزين المعاصرين، ويعيش حاليا في الشقيقة قطر وتجنس بجنسيتها، إلى جانب كونه متمتعا بالجنسية المصرية.

والشيخ يوسف القرضاوي من مواليد المحلة الكبرى عام 1926م أي : إنه في الواحد والثمانين - أطال الله عمره - ، ونشأ في أسرة متدينة رقيقة الحال ، وقد توفي والده وهو في الثانية من عمره فكفله عمه ، وقد التحق بكتاب قريته ، وأتم حفظ القرآن الكريم وهو في التاسعة من عمره ، كما كان يتلوه تلاوة محكمة وكان أهل قريته يقدمونه للإمامة في الصلاة في سنوات عمره الأولى ، حتى كانوا يطلقون عليه وهو لا يزال طفلا صغيرا بـ : الشيخ يوسف .

وقد جمع إلى دراسته الدينية بالمعهد الدينى في طنطا ، الدراسة الميدانية حيث نال شهادة القانونية العامة مع شهادة المعهد الدينى ليسافر إلى القاهرة ويلتحق بكلية أصول الدين لينال إجازتها التى تؤهل إلى الالتحاق بالدراسات العليا ؛ وليعد رسالة الدكتوراه وعنوانها : «الزكاة في حل المشكلات الاجتماعية» .

والدكتور يوسف القرضاوي عمل بالدعوة الإسلامية منذ فجر شبابه ، كما شارك في الحركات السياسية الإسلامية ، واعتقل أكثر من مرة ، سواء في العهد الملكى أو بعد الثورة . وقد عمل بعد تخرجه في مراقبة الشئون الدينية بالأوقاف إلى أن أعير إلى دولة قطر فعمل مديرا لمعهدها الدينى ، فرئيسا مؤسسا لقسم الدراسات الإسلامية بكليات التربية ، فعميدا لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية فمديرا لمركز بحوث السنة والسيرة بعد أن قام بتأسيسه .

يقولون عنه بأنه خطيب مؤثر يقنع العقل ويهز القلب ، وكاتب أصيل لا يكرر نفسه ولا يقلد غيره ، وفقيه مميز بالرسوخ والاعتدال ، وعالم متمكن في شتى العلوم الإسلامية ، وقد جمع بين علوم أهل النظر ، وعلوم الأثر . جاوزت مؤلفاته الثمانين مؤلفا ، لاقت قبولا عاما في العالم الإسلامي، وطبع بعضها عشرات المرات ، وترجم عدد كبير منها إلى اللغات العالمية . وهو من أبرز دعاة الوسطية في الإسلام ، التي تجمع بين السلفية والتجديد وتمزج بين الفكر والتطبيق ، وتركز على فقه السنن وفقه المقاصة ، وتوازن بين ثوابت الإسلام ومتغيرات العصر .

وفي مذكراته التي أعدها للنشر الأستاذ «بدر محمد بدر» نقرأ الكثير عن الجوانب في صباه ، ومنها حديثه عن حرب العاشر من رمضان فيقول :

« وكان من أهم ما حدث في هذا العام وفي شهر رمضان المبارك : ما فاجأنا العالم كله من حدث اهتزت له القلوب طربا ، وابتسمت له الثغور فرحا ، ولهجت به الألسنة ثناء ، وسجدت الجباه من أجله لله شكرا .

إنه الحدث الذي عوضنا عما فوجئنا به من قبل في الخامس من حزيران (يونيو) 1967م ، والذي خسرت به الأمة ما خسرت، وكسبت إسرائيل ما كسبت، وضاعت إلى اليوم - القدس والضفة والقطاع والجولان ، بالإضافة إلى سيناء التي استردتها مصر فيما بعد .

وهذا الحدث الذي أحيا الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، بل الأمة الإسلامية من المحيط إلى المحيط ، هو : حرب العاشر من رمضان ، وأنا أحب دائما أن أسميها: معركة العاشر من رمضان، وليس السادس من أكتوبر، لأن شهر رمضان ونفحاته وبركاته وإمداداته التي هبت نسماتها على الجنود والصائمين والمصلين كان له أثره في تحقيق النصر ، وإمداد المقاتلين بشحنة إيمانية دفعتهم إلى البذل والفداء ، أما أكتوبر ، فليس له أي إيحاء أو دخل في هذا النصر .

مازلت أذكر هذا اليوم المشرق، وقد خرجت من درس العصر في مسجد الشيخ خليفة ، فإذا الأنباء المبشرة تستقبلني ، وإذا الهواتف تدق ولا تتوقـف ، للاتـصال بي من هنا وهناك ، مهنئة بما وقع ، شاكرة لله تعالى ، الذي صدق وعده ، وأعـز جنـده ، وهزم الظالمين وحده .

في أول الأمر خفت أن نكون مخدوعين ، كما خدع كثيرون ، أيام نكبـة 5 يونيـو 1967م ، فقد كانت القاهرة تذيع الأكاذيب على الناس ، وتخبرهم بأخبـار لا أسـاس لها: طائرات إسرائيلية تسقط بالعشرات ، والحقيقة أن طائراتنا هي التـي ضربـت في مدرجاتها ، ولم تطر حتى تسقط ، ولكن كانت الشواهد كلها تؤكـد أن هـذه حقيقـة وليس حلما ، وأنه واقع وليس من نسج الخيال .

ألا ما أحلى مذاق النصر ، وخصوصا بعد تجرع مرارة الهزيمة المذلة مـن قبـل ! وللأسف ، طالت هزائم الأمة في معارك شتى ، وذرفت الدموع كثيرا على هزائمها ، حيث لم تغن الجموع ، وآن لها أن تجد مناسبة تفرح بها بعد حزن ، وأن تضحك بعـد طول بكاء .

لقد عبر الجيش المصري القناة ، صنع قناطر أو جسورا للعبـور عليهـا ، مكونـة من أجزاء ، تركب في الحال ، ويوصل بعضها ببعض ، فتكون جسرا فوق المـاء تعـبر فوقه المصفحات والمجنزرات والدبابات إلى البر الآخر ، وقد بـدأ العمـل فيهـا مـن سنوات ، ثم بدأت تجربتها ، والتدريب عليها منذ شـهور ، في تكـتم وسريـة بالغـة ، وهذا عمل مصري خالص ، لم يشترك فيه خبراء أجانب ، ولهذا حفظ السر ، ولم يبح به أحد .

بعد عبور القناة بسلام وأمان ونجاح ، اقتحمت القـوات المـصرية : مـا عـرف باسم خط بارليف ، الذي أقامته إسرائيل ، ليكون حاجزا ترابيا بعد الحـاجز المـائي ، وكانت العدة قد أعدت لتخطيه بإحكام ومهارة ، وكان كل شيء معدا بجدارة وأناة

وحكمة ، ولم يكن هناك شيء مرتجل ، وقام كل سلاح بدوره : سلاح المهندسين ، وسلاح الفرسان والمدرعات ، وسلاح الطيران ، كل قام بما هيئ له ، وما كلف به .

وقد اختير التوقيت المناسب لبدء المعركة ، وكان رمضان هو الوقت الملائم نفسيا وروحيا ، لما يمد به الجنود من نفحات ، وما يعطيهم من شحنة روحية ، وكان أكتوبر مناسبا ، من حيث المناخ ، وليس فيه حرارة الصيف ، ولا برد الشتاء . وكان الوقت مناسبا من ناحية أخرى: إنه يوم الغفران، أو عيد الغفران عند اليهود، فلننتهز غفلتهم وانهماكهم في الاحتفال بالعيد ، لنفاجئهم بضربتنا ، كما فاجأونا بضربتهم في يونيو 67م » .

وفي مؤتمر جامعة بيروت كان حديثه بمذكراته عن الحضارة العربية الإسلامية ما نجتزئه حيث يرى : « أن حضارتنا عربية إسلامية معا ، فهي عربية بحكم أن آثارها مكتوبة باللغة العربية ، وأن أهم عنصر في تأسيسها وإقامتها كان هو العنصر العربي ، حتى إن مؤرخا مثل «جوستاف لوبون» المفكر الفرنسى المعروف ، حين أرخ لهذه الحضارة آثر أن يسمي كتابه (حضارة العرب) مع أنه في الواقع والغالب يتحدث عن حضارة المسلمين .

وهي كذلك حضارة إسلامية، بحكم الدوافع والبواعث والفلسفة التي دفعت إلى إنشائها وإعلانها ، فهي بواعث إسلامية لأهداف إسلامية ، منبثقة عن تصور إسلامي ونظرة إسلامية للإنسان والعالم والدين والدنيا .

وهي إسلامية كذلك بحكم العناصر التي شاركت فيها ، فلم يكن العرب وحدهم ، هم الذين صنعوا هذه الحضارة ، بل شاركهم فرس وأفغان وهنود وروم ومصريون وأتراك وأفارقة ، ومن أجناس شتى ، وهي إسلامية أيضا بحكم الرقعة التي قامت فيها الحضارة ، فقد وسعت العالم الإسلامي كله ، بما فيه بلاد العرب والعجم ، فنجد معالم الحضارة الإسلامية في سمرقند ، كما نجدها في الهند ، كما نجدها في استانبول ، مثلما نجدها في دمشق وبغداد والقاهرة والمغرب .

وكان المحور الثاني الذي أخذ حظا من النقاش ، هو : الأصالة والتجديد ، وما المراد بهما ؟ ولم يكن مصطلح (الأصالة والمعاصرة) قد شاع في ذلك الوقت ، كما عرف بعد ذلك .

وكان الاتجاه العام للمؤتمر أن الأصالة والتجديد لا يتقابلان ، حتى نقول : بين الأصالة والتجديد ، فكأننا مخيرون بينهما ، مع أن كلا منهما مطلوب ، فنحن نريد تجديدا في ظل الأصالة . والواقع أننا بقينا تلك الأيام في جو علمي وفكري حي ، وكانت أياما خصبة ومثمرة ، وقد ألقيت فيها بحثي عن الفقه بين الأصالة والتجديد وبينت أوجه التجديد الذي ينبغي أن تدخل في الفقه من ناحية الشكل ، ومن ناحية الموضوع ، وقد نشرت البحث بعد ذلك في رسالة خاصة تحمل هذا العنوان نفسه.

ثم عدنا إلى الدوحة ، وإن كنت لم أحصل من الجامعة على ثمن التذكرة ، كما وعد «د. كاظم» ، ولكن ما كسبته من المؤتمر كان أغلى وأعظم من ذلك .

ومن فتاوى الدكتور يوسف القرضاوي التي كان يسجلها الأستاذ «حسن علي دبا» لنشرها بالأهرام العربي موضوع : التقريب بين المذاهب الإسلامية ، وغيرها ذلك الذي يتساءل حوله المسلمون ، خاصة التقريب بين الشيعة والسنة فيقول الدكتور القرضاوي: إن من المبادئ المهمة في الحوار الإسلامي - الإسلامي والتقريب بين المذاهب الإسلامية تجنب الاستفزاز من أحد الطرفين للآخر ، فالحوار المنشود أو الجدال بالتي هي أحسن كما سماه القرآن - يقتضى أن يتوخى كل من الطرفين في خطاب الآخر العبارات المثيرة والكلمات المستفزة التي تحدث التوتر في الأعصاب والحقد في الصدور واختيار الكلمات التي تقرب ولا تباعد ، وتحبب ولا تبغض ، وتجمع ولا تفرق .

ومن ذلك : ترك الألقاب التي لا يحبها أحد الفريقين : كتسمية الشيعة بـ(الرافضة) وأهل السنة بـ (الناصبة) ، وخطاب كل فئة باللقب الذي تسمي به

نفسها ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾[1] ومن أدب المسلم : إذا لقي أخاه المسلم أن يدعوه بأحب الأسماء إليه .

كيف تتم المصارحة بين الفريقين في رأيكم في ظل تاريخ مليء بقضايا شائكة ؟

يجب أن يصارح بعضنا بعضا بالمشكلات القائمة والمسائل المعلقة ، والعوائق المانعة ، ومحاولة التغلب عليها ، بالحكمة والتدرج والتعاون المفروض شرعا بين المسلمين بعضهم وبعض .

فليس من الحكمة أن نخفي كل شيء ، أو نسكت عنه ، أو نؤجله وندعه معلقا دون أن نجرؤ على إثارته ، أو الكلام فيه ؛ فهذا لا يحل مشكلة ولا يقدم علاجا ، أو يقرب بين الفريقين خطوة واحدة .

من ذلك : ما ذكرته للإخوة من علماء الشيعة حين زرتهم في إيران وهو أن من المهم أن نراعى (فقه الموازنات) و(فقه الأولويات) في العلاقة بين بعضنا وبعض ، فقد يتراءى للبعض أن ينشر المذهب الشيعى في البلاد السنية الخالصة مثل مصر أو السودان . ورأيى أن هذا عمل ضرره أكبر من نفعه ؛ لأنه يثير فتنا وبلبلة في مجتمع واحد مستقر على السنة ، ويحدث توترا وغضبا ضد الشيعة ، في حين لا تكسب الشيعة من وراء ذلك إلا أفرادا معدودين هم في غنى عنهم ، فأيهما أرجح في ميزان المصالح الحقيقية : إثارة شعب بكل فئاته ضد المذاهب أم كسب أفراد منه ؟ ومن هنا أقول : ينبغى للشيعة ألا يحاولوا نشر المذهب الشيعى في بلاد السنة الخالصة ولا لأهل السنة أن ينشروا مذهبهم في البلاد الخالصة للمذهب الشيعي إبقاء على الود واتقاء للفتنة .

يجب علينا أن نكون على حذر من كيد أعداء الأمة ودسائسهم ، التى يريدون بها أن يفرقوا جمعها ويشتتوا شملها ، ويمزقوا صفوفها ؛ فلا تتوحد على غاية ولا تجتمع على طريق .

---

(1) الحجرات : 11 .

ومن المعروف أن الاتحاد يقوي القلة والتفرق يضعف الكثرة ، وما نال أعداء الأمة المسلمة منها إلا يوم أن تفرقت واختصمت واختلفت راياتها وتعددت قياداتها، وتنازعوا فيما بينهم ، فهيؤوا الفرصة لعدوهم أن ينفذ إليهم وأن ينفث سمومه فيما بينهم، حتى يكيد بعضهم لبعض ويذوق بعضهم بأس بعض وحق عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: « **لا تختلفوا ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا** »[2] .

وعن أهمية وحدة السنة والشيعة شرعا اليوم ، يقول :

إذا جاز لبعض الناس أن يتفرقوا ويختلفوا في أوقات العافية والرخاء والنصر فلا يجوز بهم بحال أن يتفرقوا في ساعات الشدة والعسرة والمحنة . فالمفروض أن المحن تجمع المتفرقين وأن المصائب تجمع المصابين ، وقديما قال الشاعر : عند الشدائد تذهب الأحقاد .

ونحن الآن نعاني محنا قاسية وقوارع شديدة في كل وطن من أوطاننا وفي أمتنا بصفة عامة وخصوصا بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 م، فقد دخلت الأمة من مشرقها إلى مغربها في امتحان عسير وموقف خطير يستوجب منها عامة ومن علمائها ودعاتها وفصائل صحوتها خاصة ، أن ينسوا خلافاتهم الجانبية ومعاركهم الهامشية ، ويقفوا في جبهة واحدة متراصة في المعركة التي يواجهها الإسلام وأهله ، فعند المعركة يجب أن يتلاحم الجميع ويتساند الجميع ولا يعلو صوت نشاز يفرق الأمة في ساعة الخطر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَـٰنٌ مَّرۡصُوصٌ ﴾[3] .

(1) الأنفال : 46 .
(2) رواه البخاري .
(3) الصف : 4 .

والمسلمون وحدهم هم الذين يختلفون ويتنازعون بعضهم مع بعض مع توافر الكثير من أسباب الوحدة بينهم ، وحسبهم أنهم جميعا من أهل القبلة وأنهم جميعا من أهل **(لا إله إلا الله محمد رسول الله)** ، وأنهم جميعا رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا » .

وعن حرية الفكر يقول : « جاء الإسلام فقرر مبدأ الحرية ، وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلمته المشهورة في ذلك: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، وقال علي بن أبي طالب في وصية له : لا تكن أسير غيرك وقد خلقك الله حرا . فالأصل في الناس أنهم أحرار بحكم خلق الله ، وبطبيعة ولادتهم هم أحرار ، لهم حق الحرية ، وليسوا عبيدا ، جاء الإسلام فأقر الحرية في زمن كان الناس فيه مستعبدين : فكريا ، وسياسيا ، واجتماعيا ، ودينيا ، واقتصاديا ، جاء فأقر الحرية : حرية الاعتقاد ، وحرية الفكرة ، وحرية القول ، والنقد ، أهم الحريات التي يبحث عنها البشر ، جاء الإسلام وهو دين فأقر الحرية الدينية ، حرية الاعتقاد ، فلم يبح أبدا أن يكره الناس على اعتناقه ، أو اعتناق سواه من الأديان ، وأعلن في ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ** ﴾[1] هذا في العهد المكي ، وفي العهد المدني جاء في سورة البقرة : ﴿ **لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ** ﴾[2] .

ولم يكن مبدأ الحرية قد جاء نتيجة تطور في المجتمع ، أو ثورة طالبت به ، أو نضوج وصل إليه الناس ، وإنما مبدأ أعلى من المجتمع في ذلك الحين ، جاء مبدأ من السماء ، ليرتفع به أهل الأرض ، جاء الإسلام ليرقى بالبشرية بتقرير هذا المبدأ ، مبدأ حرية الاعتقاد ، وحرية التدين ، ولكن هذا المبدأ الذي أقره الإسلام مشروط ومقيد

(1) يونس : 99 .
(2) البقرة : 256 .

أيضا بألا يصبح الدين ألعوبة في أيدي الناس ، كما قال اليهود : ﴿ **ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[1] آمنوا الصبح وفي آخر النهار تولوا : لقد وجدنا دين محمد صفته كذا وكذا ، فتركناه ، أو آمنوا اليوم واكفروا غدا ، أو بعد أسبوع ، شنعوا على هذا الدين الجديد ، أراد الله سبحانه ألا يكون هذا الدين ألعوبة ، فمن دخل في الإسلام بعد اقتناع وبعد وعي وبصيرة، فليلزمه وإلا تعرض لعقوبة الردة ، فالحرية الأولى حرية التدين والاعتقاد ، أما الحرية الثانية فهي حرية التفكير والنظر ، فقد جاء الإسلام يدعو الناس إلى النظر في الكون ، وإلى التفكير ﴿ **إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟** ﴾[2] » .

وعن حرية النقد والقول يرى : « أن حرية القول والنقد أيضا أقرها الإسلام ، بل جعل ما هو أكثر من الحرية إذ جعل القول والنقد - إذا تعلقت به مصلحة الأمة ، ومصلحة الأخلاق والآداب العامة - أمرا واجبا ، أن تقول الحق ، لا تخاف في الله لومة لائم ، أن تأمر بالمعروف ، أن تنهى عن المنكر ، أن تدعو إلى الخير ، أن تقول للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أسأت ، هذا ينتقل من حق إلى واجب إذا لم يوجد غيرك يقوم به ، أو إذا كان سكوتك يترتب عليه ضرر في الأمة ، أو فساد عام ، حين ذاك يجب أن تقول الحق ، لا تخش ما يصيبك : ﴿ **وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ** ﴾[3] هذا ما وصل إليه الإسلام ، ليس في الإسلام أن تكتم أنفاس الناس ، ولا أن يلجم الناس بلجام ، فلا يتكلمون

---

(1) آل عمران : 72 .

(2) سبأ : 46 .

(3) لقمان : 17 .

إلا بإذن ، ولا يؤمنون إلا بتصريح ، كما قال فرعون لسحرته : ﴿ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾[1] » .

ويسجل الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه : (في فقه الأقليات المسلمة) في غير دار الإسلام أي في الدول غير المسلمة ؛ حيث يتساءل يوسف القرضاوي عن المراد بمصطلح (الأقلية) الذي نتحدث عنه هنا ؟ : « لقد راجت هذه الكلمة في عصرنا ، نتيجة لكثرة الهجرات وتقارب العالم بعضه من بعض ، ويراد بها: كل مجموعة بشرية في قطر من الأقطار ، تتميز عن أكثرية أهله في الدين ، أو المذهب أو العرق ، أو اللغة ، أو نحو ذلك ، من الأساسيات التي تتمايز بها المجموعات البشرية بعضها عن بعض .

ومثل ذلك: الأقليات المسلمة في المجتمعات المسيحية في الغرب ، أو الهندوسية في الهند ، أو البوذية في الصين ، فهي تخالف الأكثرية في العقيدة والدين ، ومثلها الأقليات المسيحية في مصر وسورية والعراق وغيرها. والأقليات اليهودية في المغرب وإيران وتركيا وغيرها ، ومثلها الأقليات الكاثوليكية في كثير من بلدان العالم .

ومن لوازم الأقلية : أنها تكون عادة ضعيفة أمام الأكثرية ، فالكثرة تنبئ عن القوة ، والقلة تنبئ عن الضعف .

هناك الأقليات المسلمة في أوروبا الشرقية والغربية ، بعضهم من أهل البلاد الأصليين ، مثل الجزء الأوروبي من تركيا ، وألبانيا والبوسنة والهرسك وكوسوفو ومقدونيا ، وهؤلاء لا يجوز اعتبارهم أقليات ، لأن بلادهم في الحقيقة بلاد إسلامية، ومثل مسلمي كرواتيا وصربيا والجبل الأسود ، وبلغاريا ، وغيرها ، فهم من أهل البلاد .

(1) الأعراف : 123 .

وهناك من دخل الإسلام حديثا من أهل أوروبا الغربية ، ومن انضم إليهم من المهاجرين من بلاد المغرب في فرنسا ، وفيها أكبر جالية إسلامية ، نحو خمسة ملايين ، بعضهم يحملون الجنسية الفرنسية ، وآخرون يقيمون إقامة مشروعة لها حقوقها .

ولقد بدأ المسلمون في أوروبا منذ مدة يشعرون بذاتيتهم ، وأدركتهم الصحوة الإسلامية العامة ، فطفقوا ينشئون المؤسسات المختلفة : دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية للحفاظ على كيانهم : المساجد لصلواتهم ، والمدارس لتعليم أولادهم ، والكليات والجامعات لتخريج المتخصصين منهم . ومن المؤسسات التي تذكر للجالية المسلمة في أوروبا : اتحاد المنظمات الإسلامية ، والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية في فرنسا : اتحاد المنظمات الإسلامية ، والكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية في فرنسا ، وقد خرجت عدة دفعات ، ومثلها في بريطانيا ، والمجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث ، وقد عقد سبع دورات ، وأصدر عددا من الفتاوى والتوصيات المهمة ، حلت كثيرا من مشكلات المسلمين في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها .

وهناك المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا ، ويقدر عددهم بأكثر من سبعة ملايين ، معظمهم من (المسلمين الأفارقة) الذين استلبوا من أوطانهم استلابا ، وسيقوا بسلاسل القهر إلى (الرق) وهم أحرار أبناء أحرار .

ولقد مرت الأقليات المسلمة في صلتها بالإسلام : فكرا وشعورا وسلوكا ، بمراحل متفاوتة ، وخصوصا فئات المهاجرين من أوطان الإسلام الأصلية .

في المرحلة الأولى كانت (ضياعا) بمعنى الكلمة ، لم يكن هناك وعي ، ولا حتى إحساس كاف بالانتماء الإسلامي ، أو الهوية الإسلامية .

بدأ ذلك من بعد الحرب العالمية الأولى ، حيث هزمت دولة الخلافة ، وانتصر الحلفاء ، وتألق العالم الغربي بحضارته ، وانسحب العالم الإسلامي ليدخل تحت سلطان الاستعمار ، الذي لم يكن قد دخل بلدانه من قبل » .

ومن أقوال وكتابات الدكتور يوسف القرضاوي: يختار الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ «أحمد بهجت» الكثير في عموده اليومي بالأهرام «صندوق الدنيا» الذي نختار معه جوانب منها ، مثلا : الحديث عن التاريخ الإسلامي المفترى عليه حيث جاء في سؤال خلاصته أن كثيرا ممن يتحدثون عن عظمة الإسلام وعدالته ، وما أرساه في الحياة من قيم ومفاهيم وتقاليد، يقفون به عند عصر الخلفاء الراشدين، ثم يسكتون عما بعد ذلك من العصور ، كأنما خلت هذه العصور من كل فضل ، أو إنجاز .

ولقد وجدنا من يقول : إن الإسلام لم يطبق إلا في عهد الخلفاء الراشدين ، فإذا حللنا عهد الراشدين نجد عهد أبي بكر عهدا قصيرا اشتغل فيه بمحاربة المرتدين ومانعي الزكاة ، وعهد عثمان عهد فتن داخلي انتهت بقتله ، وعهد علي عهد حروب أهلية بين المسلمين بعضهم وبعض ، فلم يبق إلا عهد عمر، وعمر كان فلتة لا تتكرر ولا يمكن القياس عليها .

خلاصة هذا الكلام أن شريعة الإسلام فكرة مثالية لم تطبق في التاريخ ، ولا يمكن أن تطبق في الواقع .

وهذه هي المقولة التي يتصدى لها الشيخ يوسف القرضاوي بالنفي والتفنيد ، وهو يعترف بأن التاريخ الإسلامي ليس تاريخ ملائكة مطهرين ، أو أنبياء معصومين لا خطايا فيه ولا أخطاء، إنما هو تاريخ بشر يصيبون ويخطئون ، ويظلمون ويعدلون، شأنهم شأن البشر ، والحكم على التاريخ يكون بمجموع أحداثه ووقائعه ، وبكل فئاته وطبقاته ، وبجميع أقطاره وأمصاره ، وبالمقارنة بينه وبين غيره من تاريخ الأمم في عصره ، وهنا نجد تاريخنا يتفوق .. وهذا موضوع الكتاب .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي عن أساس المجتمع في كتابه: (تاريخنا المفترى عليه) : « إن الشريعة الإسلامية كانت هي الأساس الدستوري والقانوني للمجتمع الإسلامي ، في جميع أقطار الدولة الإسلامية منذ العهد النبوي ، وعهد الخلفاء الراشدين وممن بعدهم من الأمويين والعباسيين والعثمانيين لقرون متطاولة ، إلى أن

دخل الاستعمار بلاد المسلمين وبدأ في تغيير أصول المجتمع ، ومضى يحاول تبديل هويته ، ومسخ شخصيته ليتحول من الأصالة إلى التبعية في الفكر والتشريع والتقاليد ، وبذلك يسهل تطويعه وتسخيره لما يراد منه .

نعم ، ظلت الشريعة طوال العصور الإسلامية وقبل دخول الاستعمار بلاد المسلمين مصدر التشريع ومصدر القضاء ومصدر التوجيه والتربية والتعليم للمجتمع كله ، ولم يكن لها مزاحم في ذلك ، وقد شهد المؤرخون الغربيون أنفسهم أن الفجوة بين المبادئ والقيم من ناحية ، والتطبيق والسلوك من ناحية أخرى، كانت للمسلمين أضيق بكثير منها عند أصحاب الأديان الأخرى .

كانت الجماهير المسلمة في أنحاء الدولة الإسلامية تلتزم بالإسلام مرجعا لها في عباداتها ومعاملاتها وسلوكها .

كان الناس يتزوجون ويطلقون ويرثون ويورثون وفق شريعة الإسلام ، وكان الناس يبيعون ويشترون ويؤجرون ويستأجرون ويمارسون سائر معاملاتهم وفق شريعة الإسلام ، وبهذا أصبحت حياتهم منضبطة بأحكام الإسلام .

هذا من ناحية الالتزام . أما من حيث التطبيق فالناس متفاوتون كما ذكر القرآن ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ** ﴾[1].

وإذا كان حكام المسلمين يخرجون أحيانا على روح الشريعة أو نصوصها ، فإن الشعوب المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها كانت طوال التاريخ تحتكم لهذه الشريعة في كل شئونها .

وعن تأثير الحكام في المجتمع الإسلامى يرى د. يوسف القرضاوي أن أطغى الطغاة لم يكن ليجرؤ على رفض شريعة الله أو تحدي نصوصها ، ولو كان هو «الحجاج بن يوسف» المشهور بقسوته وجبروته .

(1) فاطر : 32 .

ويتحدث د. القرضاوي عن تأثير الحكام في الشعوب في ذلك الزمن البعيد فيقول : « أود أن أكون منصفا فأقول : إن الحكام في ذلك الزمن القديم لم يكن لهم من التأثير ما للحكام في زماننا .

فالحكومة في زمننا أصبح لها تأثير بالغ في المجتمع ، فهي التي غدت تملك زمام التعليم والتربية للمجتمع كله من الحضانة إلى الجامعة .

وهي التي تملك زمام الإعلام كله بالكلمة المكتوبة ، والكلمة المسموعة ، والكلمة المرئية ، وهي التي تنقل إليه الحديث والخبر والرأي ، وتلون هذا كما تشاء ، وهي التي تملك زمام الأمن والدفاع والقضاء والنيابة والشرطة ... وغيرها ، إلى غير ذلك مما أمسى في يد الدولة الحديثة ، حتى قال الفيلسوف الوضعي «برتراند راسل»: إن من مميزات عصرنا قدرة الدولة الهائلة على التأثير في الشعب .

أما الدولة – قديما – فما كانت تملك هذا كله ولا نصفه ولا عشره ، كان العلماء هم الذين يعلمون الناس في المساجد والمدارس ، ولم يكن أمر ذلك إلى الدولة ، وكان العلماء هم الذين يفتون الناس في شئون حياتهم ودينهم ، ولا علاقة للدولة بهم ، وكانت الدولة ممثلة في الإمام تعين القضاة ، ولكنهم كانوا يقضون بأحكامهم بمعزل عن الدولة ، وقد يحكمون عليها نفسها ، وكثيرا ما رأينا القضاة يحكمون على الأمراء والخلفاء فما يملكون إلا أن ينفذوا ، وكان القانون الوحيد الذي يرجع إليه القضاة هو الشريعة .

كانت الدولة مشغولة في أكثر الأحوال بالحرب أو السلم وتوفير الأمن ، وما يتعلق بالمحافظة على بقائها ، وكان الناس في مدنهم وقراهم يمارسون حياتهم في ضوء دينهم بكل حرية دون أن يسائلهم أحد ، أو يضيق عليهم » .

وعن قيمة الوقت في حياة الإنسان يقول الدكتور القرضاوي :

« ولما كان الإنسان مجموعة من الأوقات هي الماضي والحاضر والمستقبل ، فإن قتل الوقت لا يعني إلا قتل جزء من الإنسان . وإذا اعتبرنا أن الوقت جزء من

الحياة، فإن قتل الوقت وإهداره فيما لا يفيد هو قتل للحياة ، وسوف نلاحظ أن التقدم رهن بالوقت ، أو بتحديد أكثر هو رهن بالإحساس بالوقت .

هناك شعوب تعيش على أمجاد الماضى ، ولا حاضر لها ولا مستقبل ، وهناك شعوب تعيش أسيرة لأحلام الغد ، ولا حاضر لها ولا ماض ، ومأساة الوقت أنه شفاف كالهواء ويصعب الإمساك به أو تتبعه ، والفرق بين التقدم والتخلف هو الفرق بين الإحساس بالوقت وعدم الإحساس به .

وكل شيء يمكن تعويضه واسترجاعه إلا الوقت ، إن اليوم إذا مر وانقضى استحال على كل قوى الدنيا إعادته لا يبعث الأيام إلا الله بقدرته وحده سبحانه » .

وفي هذا السياق يحدثنا الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي عن قصة سيدنا يوسف وتفسيره لحلم الملك واستغلاله للوقت وتخطيطه فيه .

﴿ **قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ** ﴾[1] .

وبلغة العصر قام يوسف عليه السلام بالتخطيط على امتداد 14 سنة لإنقاذ مصر وما حولها من المجاعة ، حتى انتهت الأزمة في العام الخامس عشر الهجري .

وغير ذلك ، مما سجله الأستاذ «أحمد بهجت» وغيره من أقوال وكتابات الدكتور يوسف القرضاوي ، مما يؤكد ممارسة هذا العالم الجليل للتجديد في التفكير الإسلامي .



(1) يوسف : 47 – 49 .

أبو الأعلى المودودي

مؤلفات مفكر الهند المعاصر «أبو الأعلى المودودي» المنتمي إلى القرن الخامس عشر الهجري لا تطمع في أن تعلمك شيئا جديدا في الإسلام، على الرغم من أنها تعلمنا الجديد والمفيد، بقدر ما تطمع في أن تقيم بينك وبينها جسورا من الحوار حول مبادئ ونظريات هذا الدين، فكرتها: أن تدعوك إلى تحريك عقلك في الجهات الأربع، ووسيلتها أن تنمي لديك فضيلة البحث والتفكير، وهدفها أن تحفزك إلى حمل أمانة وجودك كإنسان يدرك أمر دينه ودنياه. مثلا: نراه يتأمل القرآن، ويرسل البصر وراء آياته وتستوقفه تكرار أربع كلمات على امتدادها هي «الإله والرب والعبادة والدين»، فيؤلف حوله كتاب: (المصطلحات الأربعة في القرآن) مؤكدا أن هذه الكلمات الأربع هي أساس المصطلح القرآني وقوامه، والمحور الذي تدور حوله دعوته.

وهل يكفى مجرد تحديد هذه الكلمات الأربع؟ لا. إن المودودي يدعونا إلى تدبرها وتفهمها، ذاكرا أن الإنسان الذي لا يعرف ما الإله؟ وما معنى الرب. وما العبادة؟ وما تطلق عليه كلمة الدين؟ فمن المؤكد أنه لا يفهم ما يعنيه القرآن، ومن أجل معرفة صحيحة بهذه الكلمات يضع بين أيدينا أسلوبا للتفكير ومنهاجا للبحث أبرز خطواته التحليل اللغوي لها.

ونمضى إلى كتاب آخر هو: (شهادة الحق) يحدثنا فيه المودودي عن المراد بهذه الشهادة، ولعله يخاطبنا قائلا: أنتم مطالبون بهذه الشهادة.

وشهادة الحق - في رأيه - من الأهمية بحيث تعتبر أساس مكافأة الناس بأعمالهم ومما سبقهم عليها، لكن كيف يمكن تأدية هذه الشهادة؟ ويجيبنا المودودي

قائلا : « بطرق قولية كأن نبين للناس الحق الذي بلغنا به ، نبينه لهم باللسان والقلم ، وبما يمكن استخدامه من وسائل الدعوة والتلقين والتبليغ التي عرفها إنسان القرن العشرين الميلادي ، وإلى جانب هذه الطرق القولية هناك أيضا الطرق العلمية في الشهادة بأن تكون حياتنا العملية مرآة للأصول والمبادئ » .

ويطالب في كتابه : (تدوين الدستور الإسلامي) بتدوين دستورنا الإسلامي ومصادره الأربعة وهي : القرآن ، والسنة ، وأعمال الخلفاء والتابعين ، ومذاهب المجتهدين المجددين في الإسلام .

والسؤال الآن : إذا كانت هذه المصادر مدونة في الكتب ، فما المانع من كتابة هذا الدستور ؟ ويجيب : « لقد تعذر ذلك للأسباب الأربعة :

غرابة المصطلحات ، وغرابة ترتيب الكتب الفقهية القديمة ، وإفساد النظام التعليمي في الأمة الإسلامية ، وادعاء الاجتهاد مع الجهل .

وبتأمل المسائل الأساسية التي يهتم بها الدستور ومنها : من الذي يحكم ؟

وما حدود تصرف الدولة ؟ وما حدود تصرف السلطات ؟ وما غاية الدولة؟

وهل يرشدنا الإسلام إلى هذه المسائل ؟ وإذا كان يرشدنا فهل إرشاده من باب التوجيه ، أم أنه من باب الأحكام القاطعة ؟ » .

وفي إطار انهيار وازدهار الأمة الإسلامية يستوقفنا كتاباه : (الإسلام اليوم) و(واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم) ونراه في الكتاب الأول يعتني بالمراحل التي اجتازتها الأمة الإسلامية وهي «المرحلة المثالية في تاريخها» و«مرحلة الملكية» و«مرحلة الاستعباد» و«مرحلة الاستقلال» بينما نراه في كتابه الثاني يعتني بالأسباب التي أدت إلى هذا الواقع الإسلامي ، فيراها : « من أحوالنا الدينية والخلقية والفكرية والعلمية ، ومن اتباعنا لأسس ثقافة الغرب وعلى الأخص نظريات «هيجل وداروين وماركس»، ومن تأثر تعليمنا واقتصادنا واجتماعنا وسياستنا بالغرب » .

ومن هنا يمكن القول : بأنه إذا كان كتاب : (الإسلام اليوم) تأريخا لما وصل إليه الإسلام فإن كتاب : (واقع المسلمين) يعتبر تقريرا لما وصل إليه الإسلام .

وإذا كنا قد عرفنا أسباب الانهيار والنهوض ، فهل تستطيع الأمة الإسلامية أن تقود العالم ؟ ويجيبنا المودودي : « إذا خرجت الحياة أمة جديدة في كل شيء » .

وفي كتاب : (الحكومة الإسلامية) يعلن المودودي أن الإسلام جاء ليضع حدا لمسألة أن الدين ملحق للحياة ، وقال : « إن الدين هو الحياة بأسرها ، وقد وضح هذا في مبادئ الإسلام ، حين بحثت العلاقة بين الله والإنسان ، وبين الإنسان والإنسان، وبين الإنسان وجميع الكائنات ». ويذهب المودودي إلى أن طلب الحكومة الإسلامية والجهاد في سبيل تكوينها وطلب السلطة لإقامة الدين وتنفيذ الشريعة وتطبيق حدود الله ليس أمرا مشروعا فحسب– من قبل الإسلام – وإنما هو مطلوب أيضا .

وما رأي الإسلام في هذه المفاهيم السياسية ومنها حقوق الإنسان ، والعدالة الاجتماعية ؟ في إجابته على هذا السؤال نرى المودودي يتعجب من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي لا يزال يبحث عن حقوقه . فكل المخلوقات أعطتها الفطرة حقوقها تلقائيا ، وقد فطن القرآن إلى ذلك حيث أعلن حقوق الإنسان في كل آياته ولا عدالة اجتماعية حقيقية صحيحة إلا في الإسلام ، فعدالة الاشتراكية العلمية وهمية ، وعدالة الرأسمالية الديمقراطية مقيدة .

* * *

أبو الحسن الندوي

العلامة الكبير المعاصر أبو الحسن الندوي ، أحد مجددي الإسلام في القرن الخامس عشر للهجرة ، وواحد من المفكرين الإسلاميين في شبه القارة الهندية الذين أخذوا على عاتقهم مهمة التنوير الإسلامي ، وجسدوا عظمة قيم ومبادئ العقيدة الإسلامية ، وجلوا الكثير من صفحات التاريخ الإسلامي ، وجعلوا لهذا الدين الحنيف صوتا مجلجلا في شبه القارة الهندية . وفي مقدمتهم «أبو الكلام آزاد» و«أبو الأعلى المودودي» و«وحيد الدين خان» وبالطبع من قبلهم جميعا : شاعر الهند والباكستان الفيلسوف «محمد إقبال» .

ولا شك أن جهود أبي الحسن الندوي كانت بارزة بين هؤلاء المفكرين ، سواء كانت هذه الجهود في كتبه ، أو منتشرة في أحاديثه ، أو حتى في ندوته التي ينتسب إليها كأمين لدارها بالهند ، هذه الجهود حدت بالكثيرين أن ينظروا إلى الإسلام نظرة عدل وإنصاف ، وأنه دين ودنيا ، فكر وعمل ، نظرية وتطبيق ، وأن يتأملوا أحكام هذا الدين الحنيف ، عندئذ سيجدونه خليقا بأن يكون آخر الأديان ، ونبيه الكريم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

في حديثه إلى الغرب ، وما الذي تتطلبه ماديته من روحانية الشرق ، يقول في كتاب حديثه مع الغرب : « إن شقاء الإنسانية في انفصال الغرب عن الشرق ، وفي انفصال العلم عن الإيمان ، وفي انفصال المؤسسات عن الأخلاق ، هذا الانفصال الكبير الذي جر على مدنيتنا شقاء طويلا . إن الإيمان تقدم وتضخم في الشرق قديما ، والعلم تقدم وتضخم في الغرب حديثا ، والإيمان لا يزال ينتظر مرافقة العلم ، والعلم لا يزال ينتظر مرافقة الإيمان ، والإنسانية تنتظر التقاءهما وتعاونهما في بناء

المجتمع الجديد ، وليست ثروة الشرق أيها السادة الغربيون في هذا النفط الذي تنقلونه إلى عواصمكم لتتحرك به هذه المدنية بطائراتها وسياراتها . إن ثروة الشرق وهديته ذلك الإيمان الذي نبع فأضفى الشرق ، وأخذتم منه نصيبا ، ثم نبع وفاض في ركن بعيد من جزيرة العرب حين فاض على العالم وأروى الإنسانية » .

(وفي الطريق إلى المدينة المنورة) وهو عنوان كتاب للعلامة أبي الحسن الندوي نجده ينطوي على هذه الكلمة : «رحم الله الشاعر - يقصد محمد إقبال - الذي يقول: لقد عزمت على أن أجهز جيشا جديدا من بلاد الحب والعاطفة ، فقد بدت في مركز الإسلام - يقصد المدينة المنورة ، طلائع ثورة يقودها العقل الفلسفي » .

ونمضي مع المؤلف في صفحات كتابه ، لنرى بعينه طلائع هذه الثورة في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان والعاطفة ، وفي ربوعها تمثلت أروع رواياته من روايات الوفاء والغذاء وقوة العاطفة . ولم تزل شعوب العالم الإسلامي تستمد من تاريخ المدينة المنورة هذا الحب الطاهر ، وهذه العاطفة الجياشة ، وتشعل بها مجامر قلوبها التي تتعرض حينا بعد حين للانطفاء .

ويخاطب المسلمين في كتابه : (إلى الإسلام من جديد) فيقول : « إن آباءكم قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ومراكزها الكبرى يقولون : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد ، إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » إلى أن يقول : « والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية يهتفون : الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة ، والإيثار والزهد ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، إلى عدل الإسلام » .

وعن حيرة الشباب وقلقه ، يقول العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه : (نحو التربية الإسلامية الحرة) : « إنني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المتردية ، هي توحيد نظم التعليم . ولستم في حاجة إلى شرح هذه النقطة أن المعسكر التعليمي موزع قسمين : معسكر ديني ، ومعسكر لا ديني أو علماني ، وهذه الازدواجية في التعليم هي السبب الأكبر في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها إلى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هي: تنسيق غايات التعليم ومولد التعليم ، فهنالك تناقض في المواد الدراسية ، فالذي يبنيه تعليم ، يهدمه آخر .. » ويرى أن هذا التنسيق يجعل التعليم وحدة لا تتجزأ أمام الشباب .

وإلى جانب هذه الكتب وغيرها ، تلك التي أنارت الطريق أمام المسلمين في الهند ، نجد ندوته الأسبوعية التي خرجت منها العديد من الأفكار الجديدة التي تواكب الحياة في حركتها المستمرة، التي هي من صميم قيم ومبادئ الإسلام، في حين أن الهند تتنازعها الكثير من الديانات والتيارات ، والتداخلات الأجنبية خاصة بقايا الاستعمار الإنجليزي في الهند ، وغيرها من مشكلات تجعل المسلم يحتاط ، وعليه أن يحسن التصرف . ولن يكون ذلك إلا بتجديد فكره ليساير ما يطرأ على المجتمع من متغيرات ، وفي الوقت نفسه يحافظ على المبادئ الإسلامية الأولى .

ولهذا وغيره من أسباب .. اعتبر الداعية الحسن الندوي من المجددين في الإسلام ، خاصة في شبه القارة الهندية .

* * *

وحيد الدين خان

قبل أن يصدر كتابه الخالد : (الإسلام يتحدى) يبدو أن مفكرنا الهندي المعاصر «وحيد الدين خان» أحد مجددي القرن الخامس عشر الهجري ، فقد كان مثالاً لموقف التحدي من مجتمعه الذي يتكلم بغير العربية ، ويدين بغير الإسلام ؛ حيث كان ينشر الفكر الإسلامي ، متحديا في نفس الوقت هذه التيارات الضارة ، التي وجدت مراكز لها في شبه القارة الهندية إبان الاستعمار الإنجليزي وبعده ، ولا شك أن ثبات وحيد الدين خاف على موقفه، هو إيمان بالإسلام كدين ودنيا، إلى جانب أنه أصالة ووعي.

مثلا : هو لا يكتفي بتحديد المشكلة ، وإنما أيضا يحدد سبيل مواجهتها حيث يقول : « إن المشكلات التي يواجهها الإسلام في عصرنا الحديث ، منها ما هو علمي، يوجه إليه بلغة العلم ومصطلحاته ، ولذلك كان لزاما علينا أن نضع إجاباتنا في مواجهة هذه الحملات المسعورة بنفس المصطلحات العقلية والعلمية التي يستخدمها المعارضون للدين الإسلامي » .

وهو كمفكر يتجاوز تحديد المشكلة وسبيل مواجهتها إلى البناء ، حيث يقول : «إن الميدان الثاني لنشاطي هو ما نسميه بميدان بناء الأمة الإسلامية وتعميرها ، والعمل على نهضتها ، وعلينا في هذا المجال أن نكشف الملل ، ونمحص الأسباب السياسية والاجتماعية التي أدت إلى سوء أحوال المسلمين ، ثم وضع خريطة للمستقبل بعد الوقوف على أسباب النكسة التي أصابتنا ، وتقوية الشعور القومي لدى المسلمين » .

وهنا لا نرى وحيد الدين خان مفكرا مستقبليا فحسب ، وإنما أيضا مفكرا صاحب دعوة ورسالة ربما تتضح في عبارة أخرى حيث يقول : « .. نحن نصبو إلى بعث الأحلام ، التي رآها أسلافنا خلال كفاحهم وتحقيقها ، لإعلاء شأن الأمة الإسلامية ، وهي الأحلام التي لم تتحقق لسبب أو لآخر .. » .

فالرجل إذا صاحب دعوة يريد إبلاغها إلى ضمير الأمة المسلمة بلاغا يحركها نحو أهدافها ، ويوحدها أمام الأخطار على حد تعبير الدكتور «عبد الصبور شاهين» أحد أصحاب الفضل في تعريفنا على هذا المفكر حين ترجم أعماله .

وإذا نحن مضينا مع تفكير وحيد الدين خان في كتبه نجده في كتاب : (الإسلام يتحدى) يهدف إلى إثبات أحقية الدين أمام الفكر المادي الجديد . وهذا الإثبات يتخذ لنفسه أسلوبين : أولهما أن نستدل له على أن الدين الإسلامي ليس ماديا ، بل هو فوق المادة ، وبناء على ذلك ليس للعلوم المادية أن تعترض طريقه ، وقد أصبح هذا الاستدلال الذي سجله وحيد الدين خان في غاية القوة بعد اعتراف علماء هذا القرن أخيرا – بأن العلوم المادية لا تعطي إلا علما جزئيا عن الحقائق الكونية .

والطريقة الثانية لإثبات أحقية الدين ، فهي في اتباع نفس الطرق العلمية التي يتبعها العلماء الملحدون لإثبات معتقداتهم . فهو يرى أنه لابد من اتباع نفس أساليب الاستدلال التي يستغلها الملحدون لإثبات حقائق الدين .

ويواصل في كتابه الثاني : (الإسلام والعصر الحديث) مناقشة لقضية مواجهة الإسلام للمشكلات المعاصرة بمنظور مختلف عن منظور الكتاب الأول حيث يرد على أدعياء العصر الحديث بأن الإسلام قد فقد مبررات بقائه ، ليس من الناحية العملية بل من الناحية النظرية، حيث أبطلت النهضة العلمية الحديثة الأسس التي تركها الإسلام. ولذلك يدعي المتحدثون باسم العصر الحديث بأن الإسلام يتمتع الآن بقيمة تاريخية تقليدية ، بدلا من أن يتمتع بقيمة حقيقية وعملية. ويدحض

وحيد الدين خان هذا الادعاء ، ويثبت بطلانه على صفحات كتاب : (الإسلام والعصر الحديث) .

وفي كتابه : (حكمة الدين) يرى أن الدين يتألف من جزأين رئيسيين : أحدهما جانبه النفسي ، وثانيهما جانبه الخارجي أو ما اصطلح عليه العلماء حيث قالوا أعمال روحية وأخرى بدنية ، ويبحث في كتابه عن العلاقات بين الجانبين التوأمين ، ويقدم التفسير المتزن للدين ، الذي يحتفظ للإسلام بجوهره وأصالته .

وفي كتاب : (المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل) نراه يؤكد على ثلاثة موضوعات أولها : بمثابة المسح التاريخي لظهور الإسلام في الماضي، وثانيها : يتناول بالتحليل الحركات الإسلامية التي قامت في العصور الأخيرة ، وثالثها : التغيرات التي طرأت على العصر الحاضر ، فجعلت من القرن العشرين قرن الإسلام ، والتي ربما تمكننا لو أحسنا استخدامها لجعل هذا القرن قرن النهضة الإسلامية .

وهكذا ، نرى المفكر الهندي المسلم وحيد الدين خان لا يكتفي بالدفاع عن الإسلام ضد أباطيل خصومه ممن وجدوا في كل زمان ومكان منذ ظهور هذا الدين الحنيف ، بل إنه يكافح وينافح من أجل قضية إثبات أن الإسلام هو دين البناء الحق، حيث يضع للمسلم منهاجا يجعله يعمل لدينه وكأنه يموت غدا ، كما يعمل لدنياه ، وكأنه يعيش أبدا ، وفي هذا يختلف هذا الدين عن غيره من الأديان الأخرى التي تقوم معظم تعاليمها على العمل من أجل الآخرة فحسب ، بما تقرره من الدعوى إلى اتباع هذه التعاليم .

وإلى جانب إثبات المفكر وحيد الدين خان بأن الإسلام دين بناء ، فهو يؤكد عظمة هذا الدين في إمكانية تحديه لما يوجه إليه من ادعاءات ، وذلك في إطار الدفاع عنه ضد أباطيل خصومه . ففي ثنايا هذا الدفاع نكتشف قوة هذا الدين في التحدي

لما يدعيه هؤلاء الخصوم ، مؤكدا أنـه يواكـب الحيـاة الإنـسانية في تطورهـا المـستمر بحيث لا يتخلف عنها ، وإلا لما قيل عن هذا الدين بأنه دين وحياة .

ولهذا ، يمكن القول بأن المفكر الهندي المسلم وحيد الدين خان وما قام به مـن اجتهادات تعتبر إضافة للفكر الإسـلامي ، ومـن بعـد محـاولة للتجديـد في هــذا التفكير.



الدكتور أحمد عمر هاشم

الدكتور أحمد عمر هاشم ، من مجددي القرن الخامس عشر للهجرة الأحياء ، فهو على هذا النحو ، والدكتور «يوسف القرضاوي» ... وغيرهما في العالم الإسلامي من الأحياء الذين يثرون الفكر الإسلامي بأفكارهم المستنيرة، وفتاواهم الصحيحة ، المستمدة من القرآن الكريم ، والسنة الشريفة ، مع إعمال للعقل فيما يفيد ، ويصلح لهذا العصر الذي يعيشان فيه ، والذي يتسم بألوان شتى من المعضلات والتحديات، والمشكلات التي طرأت مع تغير الحياة الدائمة التغير ، والتي تواجه المسلم المعاصر ، والتي تتطلب مواجهة من علماء أفذاذ في طول قامة هذين المجددين الجليلين ، أطال الله في عمرهما .

وإذا كان قد سبق الحديث عن الدكتور القرضاوي ، فإن الصفحات التالية ، ستهتم بمجددنا الدكتور «أحمد عمر هاشم» .. فتبدأ بالحديث عن شخصيته في جانب من السيرة الذاتية ، حيث نهتم أولا وأخيرا بالأعمال كمنهج متبع في بقية تناولنا لشخصيات المجددين السابقين .

وفي هذا السياق ، يمكن البدء بما شغل من وظائف ومواقع ومناصب ، وهل كانت ذات فائدة لدوره في الدعوة إلى تعاليم الإسلام الصحيح ؟ وما قدم - خلال هذا الدور - بعلمه الغزير ، وتفكيره المستنير للإسلام من اجتهادات قامت على جهد صادق وأمين ، ليس على المستوى المحلي بمصر فحسب ، وإنما على المستوى القومي في عالمنا العربي ، وعلى المستوى العالمي حيث أبناء الأمة الإسلامية على امتداد القارات ، وما يوجد بها من مسلمين .

ولعلنا نبدأ بتدرجه العلمي الجامعي ؛ حيث نال الإجازة العالية من الأزهر الشريف ، ثم درجة الماجستير في الحديث النبوي وعلومه ، ثم الدكتوراه من كلية أصول الدين بجامعة الأزهر ، ليبدأ تعيينه من معيد بقسم الحديث بكلية أصول الدين ، إلى مدرس مساعد ، إلى مدرس ، إلى أستاذ مساعد ، إلى أستاذ ، إلى رئيس قسم الحديث وعلومه بكلية أصول الدين ، ثم عميدا لهذه الكلية ، ثم نائبا لرئيس جامعة الأزهر مرتين ، ثم إلى رئيس لجامعة الأزهر ... وهذا التدرج الوظيفي في هيئة التدريس الجامعي ، جاء طبيعيا ؛ حيث قام على ما يتسم به من كفاءة علمية ، وفكر متميز ، واستعداد لخدمة الإسلام في أي من هذه المواقع التي شغلها . وكيف لا تكون هذه الكفاءة العلمية والاستنارة الفكرية سببا ومبررا ؟ وهذه القائمة الطويلة - التي أمامي الآن - من مؤلفاته التي تتجاوز الثمانين عنوانا ما بين : تأليف، وتحقيق ، وشرح ، ودراسة ، وإبداع شعري ، يتضمنه أكثر من ديوان شعر . هذا إلى جانب دراساته الضافية في جوانب مهمة من الفكر الإسلامي ، وما تشتمل عليه من قضايا ، وتقديمه لعدد من أعلام هذا الفكر الإسلامي المستنير والمؤثر ، يتقدمهم الشيخان الجليلان : «مصطفى المراغي» ، و«محمود شلتوت» ، وأيضا «محمد متولي الشعراوي» .. وغيرهم ، كأمثلة لما يكون عليه السلف الصالح من التفكير الحر المستنير في إطار خدمة الإسلام .

وإلى جانب جهوده التأليفية العظيمة في مجالات الفكر الإسلامي والدعوة والفقه ، التي تكفي وتزيد لتقديم واحد من المجددين الكبار ، هناك أيضا حضوره الدائم والمفيد كمشارك في الزيارات والمؤتمرات والندوات العلمية والفكرية ، ليس في مصر وحدها ، وإنما على امتداد كل أقطار العالم العربي والبلاد الأجنبية ، كصاحب دعوة إلى هذه الأماكن ، وحاملا لرسالة الإسلام في قيمه ومبادئه .. فنراه في هذه الزيارات يلبي رسالة العلم في بعض الأقطار العربية الشقيقة ، ومنها

التدريس في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان ، وكلية الشريعة بمكة المكرمة بالسعودية .

وفي هذه الندوات والمؤتمرات ، نراه يشارك في فعاليات علمية وفكرية في كل من : تلمسان بالجزائر ، وكراتشي ، وإسلام أباد في باكستان ، وكوالالمبور ، ودبي في الإمارات العربية المتحدة ، والرباط بالمغرب ، والكويت بدولة الكويت ، وألمانيا الاتحادية ، والأردن ، والعراق ، والسعودية .. كذلك كان يدعى لإلقاء محاضرات حول قضايا الفكر الإسلامي في أمريكا ، وذلك بدعوة من الكونجرس الأمريكي ، أو حضور مؤتمرات في كل من : روما بإيطاليا ، وباريس في فرنسا ، والبوسنة والهرسك ... وغيرها من الأمم العربية والإسلامية والأجنبية .

ولعل هذه الجهود جميعها القائمة على علم وفضل ، يتمتع بهما هذا المجدد الجليل، أهلته لعضوية العديد من المجامع والاتحادات ، والتي منها : عضوية المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، واتحاد الكتاب بمصر ، ومجلس البحوث الإسلامية ، ومجلس الشعب ، والمجلس الأعلى للصحافة ، والمجلس الأعلى للثقافة، والمجلس الأعلى للجامعات ، والمجالس القومية المتخصصة . وطبيعي أن يكون لهذا المجدد نصيب من الأوسمة والجوائز ، فنراه ينال أعلى الجوائز المصرية الممثلة في الجائزة التقديرية ، وأكبر الأوسمة ، في مقدمتها : وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .. تقديرا لعلمه وفضله ، وخدمته للإسلام باجتهاداته وجهوده .

وفي مجال إسهاماته التجديدية في الفكر الإسلامي ، نراه وقد عني مبكرا بدراسة الحديث النبوي الشريف ، دراسة واعية مستفيضة ، وذلك في مؤلفات كثيرة توجها برسائله العلمية التي قدمها لجامعة الأزهر ، وفيها جميعا ندرك مدى إخلاصه وأمانته في الدفاع عن الحديث النبوي ، بمناهج عقلانية تعتمد على أحدث المناهج العلمية ، في كل خطواته ، إلى جانب ما يكنه من حب وتقدير كمسلم لصاحب هذه

الأحاديث النبوية الشريفة ﷺ ، فيستهل أحد كتبه العديدة وعنوانه : (منهج الدفاع عن الحديث النبوي) بقوله : « يسعدني ويشرفني أن أكون أحد المجندين والخادمين لسنة رسولنا صلوات الله وسلامه عليه ، وأي شرف أعلى وأغلى من هذا الشرف ، فللسنة النبوية مكانتها في الإسلام التي لا تخفى على أحد من المسلمين ، ولها أهميتها في الدين ، بحيث لا يمكن الوقوف على تفاصيل العقيدة والتشريع والسلوك ، إلا عن طريقها بعد القرآن الكريم . ومن هذا ، تعرضت لسهام أعداء الإسلام من المبشرين والمستشرقين » .

ولذلك ، نراه في كل ما كتب في هذا الكتاب أو غيره من مؤلفات ، يواجه خصوم هذه السنة الشريفة ، الذين يحاولون النيل منها ، والكيد لها ، والمكر برجالها ، محاولا تقديم صورة لجهود العلماء في حفظ السنة ، ومواجهة المستشرقين الذين أثاروا حولها بعض الشبهات . كما كان يدافع عن حجتها ، ويبرز مقاومة الأئمة والعلماء لحركة الوضع والوضاعين ، ثم يذكر بعض أسباب عدم الاحتجاج بها في النحو والصرف ، مدللا على ذلك بأنه ليس لقصور روايتها ، وإنما لقصور لدى النحاة واللغويين أنفسهم ، كما قام بالرد على الشبهات الحديثة لبعض خصوم الإسلام وأعدائه . وهو ما سوف نتبين البعض منه في الصفحات التالية :

على سبيل المثال : يذكر الدكتور «أحمد عمر هاشم» من افتراءات أعداء الإسلام : مبشرين ومستشرقين ما قاله المبشر الأمريكي «جب» من : « أن الإسلام مبني على الأحاديث النبوية أكثر مما هو مبني على القرآن الكريم ، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة ، لم يبق من الإسلام شيء ، وصار أشبه بصبيرة «طومسون» وطومسون هذا رجل أمريكي جاء إلى لبنان ، فقدمت له صبيرة ، فحاول أن ينقيها من البذر ، فلما نقى منها كل بذورها لم يبق في يده منها شيء » .

ويرد على هذا الافتراء بقوله : « هي محاولة عدوانية ظالمة للتجني على السنة النبوية الشريفة التي جاءت مفسرة للقرآن الكريم ، ومفصلة لمجمله ، وموضحة لمبهمه ، ومبينة لأحكامه . ونلاحظ أن هذا المبشر الأمريكي يريد أن يصور السنة وكأنها مجموعة من الأخبار التي إذا نقيت لم يبق منها شيء . وفي هذا افتراء متبجح ، ومحاولة إجرامية للنيل من السنة النبوية التي ثبتت بأدق طرق الرواية والنقل الصحيح ، ولقد كان الإسناد الصحيح المتصل خصوصية لهذه الأمة ، وليس لغيرها من الأمم ، ولقد نوه القرآن الكريم بذكر الإسناد في قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾[1] » .

ويذكر الدكتور «أحمد عمر هاشم» أن همم أئمة الحديث وحفاظه كانت عالية ، وعنايتهم بانتقاء الأحاديث الصحيحة فائقة . فهذا هو الإمام أحمد بن حنبل يقول : «انتقيت المسند من سبعمائة وخمسين ألف حديث» .

ولدقتهم في تمييز الصحيح من غيره : « كان بعض أئمة الحديث يحفظ الصحيح من الأحاديث ، كما يحفظ غير الصحيح ، حتى لا يلتبس على الناس هذا بذاك . وحتى لا يأتي من يخلط بينهما ، أو يحاول تلبيس الأمور ، فميزوا بذلك الصحيح من السقيم . فقد كان الإمام البخاري يحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتي ألف حديث غير صحيح ، وصنف «الإمام مسلم» صحيحه من ثلثمائة ألف حديث مسموعة ، وكتب الإمام «أبو داود» خمسمائة ألف حديث ، انتخب منها ما ضمنه كتاب «السنن» . وهكذا ، بهذه الدقة الفائقة والجهود المخلصة ، قيض الله تعالى لحفظ السنة الشريفة رجالا أمناء ، وحفاظا ثقات ، أفنوا أعمارهم في جمع السنة الصحيحة وتدوينها ، وحفظها من لدن صدورها من فم النبي الشريف صلوات الله

(1) الأحقاف : 4 .

وسلامه عليه ، إلى أن وصلت إلينا نقية صحيحة ، خالصة بيضاء ، في كتب الصحاح التي أشرقت على دنيا الناس ، فكان منها صحيحا البخاري ومسلم اللذان تلقتهما الأمة الإسلامية بالقبول .

وغير ذلك من الكتب الصحيحة والسنن والمسانيد والمعاجم ، والمستدركات والمستخرجات ، وما إلى ذلك ، مما هو مدون في كتب السنة الصحيحة . فادعاء أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين ، وغيرهم من أبواق الكفر والإلحاد ادعاء كاذب ، وعدوان ظالم ، وتجن على الإسلام وعلى مصادره الأصلية ، التي تمثلت في كتاب الله تعالى ، وفي سنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه » .

ومن الافتراءات كذلك قولهم : وبينما كان محمد يعظ ، كان المؤمنون يدونون كلماته على عجل .

ويرد الدكتور «أحمد عمر هاشم» على ذلك بأنهم : « يريدون - أي المبشرون والمستشرقون - أن يثيروا حول السنة : أنها لم تدون تدوينا دقيقا ، يتسم بالروية والأناة والتثبت ، وهي شبهة لا أساس لها من الصحة ؛ فما عرفت البشرية على مر أدوار الحياة تاريخا من التواريخ ، أو علما من العلوم نقل بأدق وأعظم مما نقلت به السنة الشريفة . وما كان المؤمنون يدونون أحاديث الرسول ﷺ ، وكلماته على عجل، كما يدعي أعداء الإسلام ، وإنما كانوا في غاية التثبت والحيطة ، يتثبتون من الراوي والمروي ، أو السند والمتن تثبيتا قويا ، فما اطمأنوا إليه قبلوه ، وما لم يطمئنوا إليه طلبوا عليه شاهدا ، وما لم تقم البينة على صدقه ردوه ، وكان تثبتهم قائما على ميزان النقد العلمي الصحيح ، ومنع الصحابة الرواة أن يحدثوا بما يعلو على فهم العامة ، لأن في هذا مدعاة لتكذيبهم للمحدث فيما لا يفهمونه ، ومدعاة للخطأ والشك في الدين ، فامتنعوا عن ذلك خشية أن يستغل أصحاب الأهواء ظاهر النصوص لصالح بدعهم وأهوائهم .

كذلك .. لما كان الصحابة متفاوتين في العلم ، فلم يكن عند الجميع ما قاله الرسول ﷺ ، فقد بدأت الرحلات العلمية ، فقام الصحابة والتابعون بالرحلات العلمية إلى كثير من البلاد ، حتى تميز البعض بكثرة الرحلات والانتساب إلى أكثر من بلد ، وكانت الرحلة سبيلا إلى طلب الحديث وضبطه والتثبت منه .

وهكذا ، كانوا يتثبتون في أخذ الحديث وروايته وضبطه وتدوينه ، بموازين النقد العلمي النزيه ، تلقوه خلفا عن سلف ، حتى وصل إلينا في هذه الدواوين المعتمدة ، والجوامع الواسعة » .

وفي إطار الدفاع عن حجية السنة : يذكر الدكتور أحمد عمر هاشم أن بعض أصحاب الآراء الجامحة - من الفرق والطوائف - ذهبوا إلى إنكار حجية السنة جملة . مستندين في ذلك إلى فهمهم السقيم في مثل قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ** ﴾[2] ، وأصل هذا الرأي الفاسد لأصحاب هذه الآراء الجامحة هم : الزنادقة ، وطائفة من غلاة الرافضة ، ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة ، والاقتصار على القرآن ، ونسبوا إلى الرسول ﷺ أنه قال : «**ما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافقه فأنا قلته ، وما خالف فلم أقله**» ، كما استدلوا على عدم حجيتها أيضا بنهي الرسول ﷺ عن كتابة السنة ، وأمره بمحو ما كتب منها .

والإجابة على هذه الشبهات تتلخص فيما يلي :

1 - قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ﴾[3] ، والمراد هنا - والله أعلم - : أن الكتاب يبين أمور الدين بالنص الذي ورد فيه ، أو بالإحالة على

(1) النحل : 89 .
(2) الأنعام : 38 .
(3) النحل : 89 .

السنة التي تولت بيانه ، وإلا فلو لم يكن الأمر كذلك لتناقضت الآية مع قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1] .

2 – وأما قوله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾[2] ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ بدليل السياق : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[3] ، وعلى تقدير أنه القرآن ، فالمعنى : أنه يحتوي على كل أمور الدين ، إما بالنص الصريح ، وإما ببيان السنة له .

3 – وأما الحديث الذي نسبوه إلى النبي ﷺ ، وزعموا – حسب ادعائهم – أنه يفيد ضرورة عرض السنة على الكتاب ، فقد قال فيه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : « ما روى هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغر ولا كبر » .

وذكر أئمة الحديث : أنه موضوع ، وضعته الزنادقة ؛ فقد قال «عبد الرحمن ابن مهدي» : الزنادقة والخوارج وضعوا ذلك الحديث ، وهذه الألفاظ لا تصح عنه ﷺ، عند أهل العلم بصحيح النقل من سقيمه ، وقد عارض هذا الحديث قوم من أهل العلم ، وقالوا : نعرض هذا الحديث على كتاب الله قبل كل شيء ، ونعتمد على ذلك. قالوا : فلما عرضناه على كتاب الله وجدناه مخالفا لكتاب الله ، لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ ما وافق كتاب الله ، بل وجدنا كتاب الله ، يطلق التأسي به ، والأمر بطاعته ، ويحذر من المخالفة عن أمره جملة .

4 – وأما نهي الرسول ﷺ عن تدوين السنة ، فلا يدل على عدم حجيتها ؛ لأن المصلحة يومئذ كانت تقضي بتضافر كتاب الصحابة ، وهم قلة على جمع القرآن

(1) النحل : 44 .

(2) الأنعام : 38 .

(3) الأنعام : 38 .

الكريم وتدوينه وحفظه ؛ خشية أن يلتبس بغيره على البعض ، فنهاهم عن تدوين السنة ؛ حتى لا يكون تدوينها شاغلا عن القرآن الكريم ، أو أن النهي كان بالنسبة لمن يوثق بحفظه حفظا جيدا .

وأخيرا : فكيف يترك الاحتجاج بالسنة ، اقتصارا على القرآن ؟ ولا سبيل إلى فهم القرآن إلا عن طريق السنة الصحيحة التي يعلم بها المفسر أسباب النزول ، والظروف والمناسبات والوقائع الخاصة التي نزلت فيها الآيات الكريمة ، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق السنة الصحيحة .

وإذا كانت هذه جوانب من السيرة الذاتية للدكتور أحمد عمر هاشم ، وجوانب أخرى سريعة من إسهاماته التجديدية في خدمة الإسلام كأمثلة من جهوده المتعددة. فماذا عن رأي الآخرين في علمه وفضله وتجديده ؟

أمامي عدد من الكتب ، وملف من الكتابات ، كلها تهتم بالكتابة عن هذا المجدد الجليل ، وتشيد بفضله وعلمه وجهوده في خدمة الإسلام ، إلا أنني أختار منها مجلدين اقتصر حديثهما عنه ، أما الأول فعنوانه : «الإمام الدكتور أحمد عمر هاشم محدثا ومجددا » ، يقول مؤلفه الدكتور : «عثمان محمد عثمان الغزالي» : «الأفكار نوعان : نوع يحيا في العقول ، ولا يموت بموت أصحابه ، ونوع يموت ولا يحيا حتى لو كان أصحابه أحياء يرزقون ! فتحيا الأفكار لو أن المفكر والداعية وقف على تراث أمته ، ومقومات حضارتها ، وطوعها لتكون تعقيلا لواقعها ، وحلا لمشكلاتها المتجددة بتجدد مشكلات الحياة الإنسانية المعاصرة ، وتموت الأفكار لو بقي صاحبها بعيدا عن مشكلات أمته ، لا يعي أزماتها ، ولا يكشف لها عن أسبابها.

والنوع الذي يعنينا هو النوع الأول ؛ لأنه ألصق دوما بحياة الأمة ، وهو ما وجدناه في المصلحين والمجددين أمثال : «الإمام محمد عبده» ، و«الشيخ محمد رشيد رضا» و«الإمام الدكتور عبد الحليم محمود» ، و«الشيخ محمد متولي الشعراوي» ،

رحمهم الله جميعا ، ثم الإمام المجدد ، صاحب الفضيلة الدكتور «أحمد عمر هاشم»- أمد الله في عمره - الذي يتفق مع كل السابقين في شيء واحد هو : إدراك رسالته ؛ فيستلهم من مقومات الأمة العقائدية والذاتية ما يمكن في تحقيق مهمته في الإصلاح والدعوة والتجديد ، وبشكل يجعل هذه الأمة قادرة على مواجهة التحديات ، وخاصة أن الإسلام - أصل هذه الأمة - دين للعقل والروح معا ، وبصورة تجعله صالحا للحياتين : الروحية والمادية .

وشخصية الدكتور «أحمد عمر هاشم» نموذج فريد للمفكر الإسلامي الداعية الراقي ، والمصلح الذي يعي دوره ورسالته في رحلة الحياة ، فهو أمة وحده ؛ فقد استطاع بمفرده أولا ، ثم بمساعدة العلماء ، أن يقوم بتربية جيل ، وتكوين أمة وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها » .

وأما المجلد الثاني الذي عني بالكتابة عن الدكتور أحمد عمر هاشم فعنوانه : (الدكتور أحمد عمر هاشم : جهوده ومنهجه في الدعوة إلى الله تعالى) ونماذج من خطبه للأستاذ «عزت السيد إبراهيم حماد» حيث يقول : «تاريخ الدعوة الإسلامية حافل بالكثير من العلماء المجتهدين ، والدعاة المخلصين ، الذين ندين لهم بالفضل ؛ فبقيامهم بواجب الدعوة إلى الله تعالى، استحقت الأمة الإسلامية وصف الخيرية التي وصفها الله به : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾[1] ، وهؤلاء العلماء - قادة الإصلاح ، ودعاة الخير والهدى - أعدهم الله تعالى في كل زمان ومكان ، وظلت منهم طائفة ظاهرة على الحق ، متمسكة به ، داعية إلى الله كما أخبر النبي ﷺ : «**لا يزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**»[2] .

(1) آل عمران : 110 .

(2) فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

ومن بين هؤلاء العلماء المجددين : فضيلة «الدكتور أحمد عمر هاشم» الذي تضيء سيرته صفحات التاريخ الإسلامي ؛ فهو رائد مخلص في مجال الدعوة الإسلامية ، نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى ، فحياته كلها حافلة بالعمل الجاد في خدمة الإسلام ، وهو مع هذا غير عابئ بما يصادفه من عقبات ، كما أن عطاءه يتجدد دائما كواحد من المجددين الكبار » .

وغير ذلك من شهادات في كتابات وكتب أخرى تجتمع كلها حول أحقية هذا العالم الجليل بلقب المجدد في القرن الخامس عشر الهجري .. ولتكون عنده خاتمة الحديث عن المجددين في الإسلام في الخمسة عشر قرنا للهجرة .



ختـــام

وبعد ، فقد انتهت هذه الرحلة الممتعة مع هؤلاء المجددين في الإسلام ، التي امتدت مكانا ، فشملت كل أقطار العالم الإسلامي : قديما وحديثا ، وامتدت زمانا حيث قاربت الأربعة عشر قرنا هجريا وأكثر من الربع قرن . هذه الرحلة التي كنت فيها قارئا أكثر مني مؤلفا ، قارئا لتلال من الكتب القديمة والحديثة : العربية وغير العربية ، أبحث فيها عن أي شيء يتصل بالتجديد : معناه وأهدافه ، التحديات والصعوبات التي يواجهها ، إلى جانب البحث عن المجددين أنفسهم ، وكيف تنطبق عليهم شروط التجديد ، خاصة الذين كانوا في القرنين : الرابع عشر والخامس عشر الهجريين ، حيث كانت هذه الكتب - التي أمامي - تشير مجرد إشارات إلى التجديد، مختلطا أحيانا بالاجتهاد العلمي ، وأحيانا مختلطا بالتنوير ، مع أن لكل مفهوم من هذه المفاهيم الثلاثة معناه وأهدافه . أقول : مجرد إشارات عابرة ، إلا أنها لا يمكن تجاهلها أو تجاوزها ، بل كان الوقوف عندها طويلا حتى ولو كانت تجيء في لمحات أو تأتي في صيغة ما قل ودل .. لتفتح بيني وبينها أبوابا من التأمل والتفكير، للوقوف على ما تهدف إليه وترقى ، وهل تكون أهدافها ومراميها لها صلة بما شرعت فيه من البحث حول التجديد والمجددين في الإسلام في الخمسة عشر قرنا الهجرية ؟!

أقول : انتهت هذه الرحلة مع التجديد في الفكر الإسلامي في صحبة ما يقرب من الثمانين مجددا ، عاشوا فيما بين القرن الأول الهجري حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري . وكأنني بذلك قد قرأت وتأملت واستوعبت التاريخ الإسلامي كله ، منذ العصر النبوي إلى العصر الذي نعيش فيه ، مرورا بالعصور الإسلامية وغير الإسلامية التي سجلها هذا التاريخ ، وبالتحديد في جوانب محددة منها : السياسية والعلمية والاجتماعية والثقافية ، بل والدينية . وهذه الأخيرة تمثل ما نبحث عنه من التجديد والمجددين ، وكل صفحة من صفحات هذا التاريخ تؤكد على عظمة وشموخ هؤلاء الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ ، وذلك لرقي أفكارهم ، وسمو أهدافهم . ليس فقط في مراحل تقدم هذا التاريخ وازدهاره ، وإنما أيضا في مراحل ضعفه وانهياره .

وأبحث عمن تنطبق عليه شروط التجديد بين علماء وفقهاء الأمة منذ عصر النبوة المتسم بالعدل والإنصاف الذي أرساه النبي – ﷺ – وتبعه الخلفاء الراشدون الأربعة إلى عصور مفعمة بالأسى والألم ، حين تحولت هذه الخلافة الراشدة إلى ملك مستبد عضوض ، شاد بنيانه «معاوية بن أبي سفيان» : مؤسس الدولة الأموية ، وكأنه إرث له يرثه أولاده من بعده ، وربما كان يظن أن هذا الملك الذي قام على المكر والخديعة ، الغدر والعدوان ، يدوم ويستمر هادئا مطمئنا حتى يصل إلى أحفاده ، وأحفاد أولاده حتى يرث الله الأرض ومن عليها. لكن هيهات أن يظل الجور والظلم مستمرا . فما كاد هذا الملك يستقر لبني أمية دهرا أو أكثر ، حتى انصرف عنهم؛ لأن الفتنة لم تنقض بمقتل « علي ابن أبي طالب » كرم الله وجهه ، ولا باستشهاد « الحسين » رضي الله عنه ، ولا باستقرار الملك لمعاوية ، ولا بموت ابنه يزيد ، وإنما استأنفت عنفها وشدتها

بعد ذلك ؛ فعرضت المسلمين والدولة الإسلامية لخطوب ليست أقل جسامة من الخطوب التي حدثت من قبل .

صحيح ، أنه تحققت في العصر الأموي بعض الفتوحات التي بمقتضاها انتشر الإسلام ، وامتد في بعض الممالك والبلدان ، في نظام لا يمكن أن يتجاهله تاريخ الأمم والشعوب ، ليأتي من بعده العصر العباسي ؛ لتأخذ الأرض زينتها لاستقبال الحضارة العربية الإسلامية الوليدة ، وما حققته من إنجازات في العلوم والثقافات والفنون ، بل وتنفتح هذه الحضارة العربية الإسلامية على الفكر اليوناني القديم في أوج عظمته وازدهاره من خلال الترجمات التي تمت في عصر الخليفة العباسي «المأمون» والذين بعده من خلفاء بني العباس ، ولا تقتصر فائدة هذه الترجمة على مجرد انتقال الثقافة اليونانية إلى الثقافة العربية ، وإنما تمتد هذه الفائدة إلى حيث يتم إنقاذ التراث اليوناني إلى الثقافة العربية ، وإنما تمتد هذه الفائدة إلى حيث يتم إنقاذ التراث اليوناني من الضياع ، وذلك في صورة ترجمته إلى العربية والحفاظ عليه ، وكيف كان للعرب من فضل في استرداد ما فقد من هذا التراث باللغة اليونانية . يضاف إلى ذلك دور العرب في شرح هذا التراث ، والتوسع فيه وإخصابه بالفكر العربي الإسلامي الأصيل ، مما يشهد بفضل العرب على التراث اليوناني ، هذا التراث الذي يعترف الناس جميعا بفضله - وكذلك فضل العرب - على الفكر الإنساني كله .

وجانب آخر .. لعله أهم وأشمل وهو: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، وذلك بعد وصوله إلى الأندلس (إسبانيا) بعد الفتح العربي لها ؛ ليمتد الفكر العربي إلى بقية بلدان أوروبا عبر منطقتين على الحدود بين دار الإسلام وأوروبا، هما :

[طليطلة] في الأندلس ، والأخرى في [صقلية] وجنوب إيطاليا ، ليكون هناك دور بارز للحضارة العربية الإسلامية ، دور واسع المدى عميق الأثر ، شمل العلوم كما شمل الصناعات ، ولم يقتصر على العلوم الطبيعية والكيميائية والفيزيائية والفلك وعلوم البحار ، بل امتد كذلك إلى الأدب : الشعر منه والقصة ، وإلى الفن المعماري منه والموسيقى ؛ لتتم وفق ذلك عملية الإخصاب الفكري بين العقل العربي الإسلامي البالغ كمال تطوره ، والعقل الأوروبي الناشئ ، وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه ، وليصنع من بعده الحضارة الأوروبية الحديثة التي قامت على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية .

أقول : قامت الحضارة الأوروبية الحديثة على أنقاض الحضارة العربية الإسلامية ؛ لأن أصحاب هذه الحضارة من العرب المسلمين لم يحافظوا على ما في أيديهم مما حققه الأجداد من العرب والمسلمين الأقدمين ، وإنما تهاونوا وأهملوا في ذلك ؛ مما جعل التخلف والجمود والتأخر من نصيبهم . وكان لذلك أسباب ومسببات أشرنا إليها من قبل في تناولنا لإنجازات المجددين في القرون الخمسة عشر الهجرية ، مما كان له أكبر الأثر في انقسام وتفكك الدولة الإسلامية إلى شيع وأحزاب، ممالك ودويلات ، طوائف وإمارات ، ويدب فيها الفساد والضعف في أوصالها . وفي المقابل : تبدأ أوروبا في الصعود والرقي والتقدم والتطور .

وهكذا ، وصلت الدولة الإسلامية إلى ما أصبحت فيه اليوم ، إلى درجة أن يسمعنا زماننا أن الرئيس «جورج بوش» عازم على القيام بتجديد الفكر الإسلامي ، ناسيا في غمرة جهله الفاضح أن هذا التجديد قد تم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ،

من خلال علماء وفقهاء وأدباء وكتاب ومؤرخين ، أخذوا على عاتقهم مهمة التجديد والتنوير ، وبذلوا في سبيل ذلك التضحيات الباسلة التي وصلت إلى حد السجن والموت ، كما رأينا في الصفحات السابقة . وأن العالم الإسلامي لم يكن بعلمائه وفقهائه بغافل عن هذا التجديد ، ولا بحاجة إلى بوش أو غيره من رعاة البقر ليقوم به نيابة عن أصحابه الحقيقيين !

أقول : وأريد أن أكرر القول مرات ، بأنني استمتعت بما قرأت من مجلدات وكتب ومقالات ودراسات تدور حول التاريخ الإسلامي، والفكر الإسلامي، والفقه الإسلامي ، بحثا عن التجديد والمجددين ، سواء كان هذا التاريخ أو الفكر أو الفقه في أوج عظمته وازدهاره ، أو حتى في أوقات ضعفه وانهياره . ففي الأولى أشعر بعزة تجلل هامتي لما صنع أجدادنا من العرب المسلمين ، وفي الثانية ألمح من بين الأسى والألم بوادر الأمل والرجاء تطل من بين السطور. إذ إن هذه الأمة العربية الإسلامية التي أنجبت هذا الكم الهائل من العلماء والمفكرين والأدباء والمؤرخين والفقهاء والكتاب الذين يجتمعون تحت مظلة التجديد ، ليست بعاجزة عن أن تنجب آخرين، وتعيد أمجادها من جديد ، حتى وإن طال الزمن .

أقول : استمتعت بما قرأت ، ومن أجل هذا أحببت أن يشاركني القارئ – لما قرأت – هذه المتعة ، راجيا أن ينال الفائدة التي نلتها من وراء القراءة والتأمل والاستيعاب .

وأخيرا .. لعلني أقول بعد ذلك في ختام هذه السطور : إنني في هذا الكتاب قدمت قليلا من كثير ، كان يدور في تفكيري حول التجديد في الإسلام ورجاله ، ولكنني فضلت أن أبدأ بما أشعر أن بيني وبينه صلة رحم وقربى ، آملا أن يسمح لي

الغد إذا قدر لي أن أحياه ، فأقوم بشرف تقـديم ما قد تركت ، قاصدا أو غير قاصد ، أو تنقيح وتجميل ما هو موجود بالفعـل في طبعـة تاليـة ، أو تحقيـق مـا يـصلني مـن ملاحظات للقارئ الجاد المدقق .. تلك التي تعلو على كل اعتبـار .

والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير .

سامح كريم

القاهرة الجديدة – 2008

المراجـــع

- القرآن الكريم
- الأحاديث النبوية
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
- السيرة النبوية لابن هشام
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب للسخاوي
- بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس
- الممالك والمسالك لابن حوقل
- النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي
- تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبري
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر
- الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات
- الطبقات لابن سعد
- فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد
- العقد الفريد لابن عبد البر
- تاريخ المسلمين لابن العميد
- عيون الأخبار لابن قتيبة
- البداية والنهاية لابن كثير
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري
- الأغاني للأصفهاني

– السنن الكبرى	للبيهقي
– إغاثة الأمة بكشف الغمة	للمقريزي
– الخطط والآثار	للمقريزي
– السلوك لمعرفة دول الملوك	للشعراني
– الطبقات الكبرى	للشعراني
– الطبقات الصغرى	للشعراني
– الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية	للمناوي
– مروج الذهب	للمسعودي
– مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع	لياقوت الحموي
– البلدان	لليعقوبي
– رسائل بين الإمامين: مالك، والليث بن سعد	لأحمد كمال أبو المجد
– أبو الحسن الأشعري	دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
– تاريخ الخلفاء	لجلال الدين السيوطي
– حسن المحاضرة	لجلال الدين السيوطي
– الشفاء	لابن سينا
– القانون	لابن سينا
– الكتاب الذهبي .. إعداد جامعة الدول العربية عام 1952م	عن ابن سينا
– المنقذ من الضلال	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
– تهافت الفلاسفة	لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي
– تهافت التهافت	لابن رشد
– فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال	لابن رشد

- طوق الحمامة   لابن حزم
- نزهة المشتاق   للشريف الإدريسي
- الموسوعة الجغرافية   للشريف الإدريسي
- روض الأنس .. ونزهة النفس   للشريف الإدريسي
- الفتوحات المكية   لمحيي الدين بن عربي
- نصوص الحكم   لمحيي الدين بن عربي
- المقدمة   لعبد الرحمن بن خلدون
- العبر .. وديوان المبتدأ والخبر   لعبد الرحمن بن خلدون
- صبح الأعشى   للقلقشندي
- الإنصاف في بيان أسباب الخلاف   للدهلري
- الرسائل   للدهلري
- شرح أبواب صحيح البخاري   للدهلري
- التفهمات الإلهية   للدهلري
- القول الجميل في بيان سواء السبيل   للدهلري
- السيل الجرار على حدائق الأزهار   للشوكاني
- القول المفيد في حكم التقليد   للشوكاني
- المسند   لأحمد بن حنبل
- المأمون : عالم من العلماء، وأديب مع الأدباء   لجمال الدين سرور
- الفهرست   لابن النديم
- ابن سينا : فيلسوف لا ينسى   لجور وانو
- مؤلفات ابن تيمية
- مشكاة الأنوار   لحجة الإسلام : أبو حامد الغزالي

- الكشف في مناهج الأدلة في عقائد الملة	لابن رشد
- الفصل في الملل والأهواء والنحل	لابن حزم
- الأخلاق والسير في مداواة النفوس	لابن حزم
- مناجاة	لمحيي الدين بن عربي
- المدينة الفاضلة	لأبي نصر الفارابي
- تفسير القرطبي .. الجامع لأحكام القرآن	للقرطبي
- وفيات الأعيان	لابن خلكان
- الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني
- الهند	للبيروني
- الصيادلة	للبيروني
- لسان العرب	لابن منظور
- نهاية الأرب	للوطواط
- الموطأ	للإمام مالك
- الأم	للإمام الشافعي
- إسلاميات الدكتور محمد حسين هيكل	لسامح كريم
- شرح موطأ مالك	للشيباني
- رحلات ابن بطوطة	تحقيق الدكتور عبد الهادي الغازي
- الموافقات	للشاطبي الغرناطي
- الاعتصام	للشاطبي الغرناطي
- إسلاميات طه حسين	لسامح كريم
- إسلاميات العقاد	لسامح كريم
- إسلاميات أحمد أمين	لسامح كريم

- محمد الرسول البشر — لتوفيق الحكيم
- المجددون في الإسلام — لعبد المتعال الصعيدي
- فلاسفة الإسلام — للدكتور سعد عبد العزيز
- المؤلفات الإسلامية — لعبد الرحمن الشرقاوي
- محمد رسول الله والذين معه — لعبد الحميد جودة السحار
- حوار لا مواجهة — للدكتور أحمد كمال أبو المجد
- فلاسفة العرب — للدكتور محمد لطفي جمعة
- قادة الفكر الإسلامي — للدكتور راشد البراوي
- الفلسفة الإسلامية — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- الفلسفة المسيحية — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي — للدكتور عبد الرحمن بدوي
- إسلاميات توفيق الحكيم — إعداد الدكتور عبد الرحمن بدوي
  لسامح كريم
- الكافية في النحو — لابن الحاجب
- الإمام عبد الحليم محمود — لمحمد شلبي
- ثلاثة حكماء مسلمين — للدكتور سيد حسين نصر
- مفكرو الإسلام — لكارادوفو
- أعلام الإسكندرية — للدكتور جمال الدين الشيال
- السحار .. والفكر الإسلامي — لمأمون غريب
- جمال الدين الأفغاني — لعبد الرحمن الرافعي
- عبقري الإصلاح والتعليم : محمد عبده — لعباس محمود العقاد
- أم القرى — لعبد الرحمن الكواكبي
- طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد — لعبد الرحمن الكواكبي

– الأعمال الكاملة للكواكبي	تحقيق للدكتور محمد عمارة
– الرحالة ك	لعباس محمود العقاد
– الإسلام والحضارة العربية	لمحمد كرد علي
– الإسلام ، وأصول الحكم	لعلي عبد الرازق
– أيام لها تاريخ	لأحمد بهاء الدين
– الإسلام والخلافة في العصر الحديث	للدكتور محمد ضياء الدين الريس
– من هنا نبدأ	لخالد محمد خالد
– رجال حول الرسول	لخالد محمد خالد
– أفكار في القمة	لخالد محمد خالد
– حديث رمضان	للإمام مصطفى المراغي
– محاضرات في الفلسفة الإسلامية	للشيخ مصطفى عبد الرازق
– الفكر الإسلامي	للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
– الفلسفة الإسلامية	للدكتور إبراهيم بيومي مدكور
– الإسلام في شبه القارة الهندية	للدكتور عبد المنعم النمر
– مالك بن أنس	لأمين الخولي
– المجددون في الإسلام (في أربعة قرون)	لأمين الخولي
– تقديم كتاب (ذو القرنين) لأبي الكلام آزاد	لأحمد حسن الباقوري
– أبو الكلام آزاد	للدكتور عبد المنعم النمر
– كتابات العبادي التاريخية	للدكتور جمال الدين الشيال
– ابن بطوطة	للدكتور محمد مصطفى زيادة
– معاني القرآن بين الرواية والدراية	لأحمد حسن الباقوري
– قطوف من أدب النبوة	لأحمد حسن الباقوري

- من أعلام العصر .. كيف عرفت هؤلاء ؟ للدكتور محمد رجب البيومي
- مواقف الغزالي من قضية تخلف المسلمين للباحث إبراهيم طلبة حسين
- الخصائص الفنية لمقالات الشيخ الغزالي للباحث خالد كمال
- الشيخ الغزالي : شاهد على العصر للباحث الدكتور محمد مورو
- من هنا نعلم للشيخ محمد الغزالي
- أعمال ومواقف الغزالي دراسة للشيخ الدكتور يوسف القرضاوي
- أجزاء معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي
- مصريون معاصرون للدكتور محمد الجوادي
- الشعراوي مفكرا لمحمود مهدي
- عمر بن عبد العزيز دراسة للدكتور وليد قمحاوي
- الخطط التوفيقية لعلي مبارك
- أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين
- الطرق الصوفية في مصر للدكتور عامر النجار
- الحركة الصوفية في الإسلام للدكتور محمد علي أبو ريان
- الأعلام للدكتور زركلي
- عظماء الإسلام لحسن النشار
- محمد عبده للدكتور عثمان أمين
- الفلسفة الأخلاقية في القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز
- المدخل إلى القرآن الكريم : عرض تحليلي مقارن للدكتور محمد عبد الله دراز
- مؤلفات أبي الأعلى المودودي
- مؤلفات أبي الحسن الندوي

- مؤلفات وحيد الدين خان
- تاج العروس للزبيدي
- تجريد العقائد لنصير الدين الطوسي
- الشامل في الطب لابن النفيس
- رسالة في الأعضاء للدكتور يوسف زيدان
- الحكم لابن عطاء الله السكندري
- الأبناء العظام لرأفت الخياط
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البنداري
- اتباع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأتباع للمقريزي
- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي
- مؤلفات عبد الحميد جودة السحار الإسلامية
- التيار الإسلامي في قصص السحار للدكتور صفوت يوسف زيد
- أحمد بن حنبل دراسة للشيخ محمد أبو زهرة
- الإبانة لأبي الحسن الأشعري
- اللمع لأبي الحسن الأشعري
- مصطفى عبد الرازق دراسة للدكتور عثمان أمين
- مساجد مصر للدكتورة سعاد ماهر
- حول التجديد في الفكر الإسلامي مقال بالمصور للدكتور عبد المعطي بيومي
- دائرة المعارف الإسلامية المترجمة
- الموسوعة العربية الميسرة
- الشريف الإدريسي دراسة لمحمد عبد الله عنان

- مقالات التجديد في الإسلام من عام 1987 إلى عام 2006م — لسامح كريم
- دائرة معارف القرن العشرين — لمحمد فريد وجدي
- مناهج تجديد — لأمين الخولي
- مع النبي في رمضان
- قمم وأفكار إسلامية — لسامح كريم
- أعلام في التاريخ الإسلامي في مصر — لسامح كريم
- أعداد من مجلة العربي الكويتية
- أعداد من مجلة تراث الإنسانية
- مفكرون وأدباء من خلال آثارهم — لأنور الجندي
- الشيخ المراغي بأقلام الكتاب — إعداد : أبو الوفا المراغي
- فجر الإسلام — لأحمد أمين
- قادة الفكر الإسلامي — لعبد الله بن سعد الرويشيد
- شخصيات صوفية من صعيد مصر في العصر الإسلامي
- الإسلام في القرن العشرين — لعباس محمود العقاد
- البغية — للسيوطي
- معجم البلدان — لياقوت الحموي
- نثار الأزهار — لابن منظور
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري — لابن الأثير
- الكامل — للمبرد
- تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير الأعلام — للذهبي، تحقيق : محمد محمود حمدان

- الكبائر للذهبي	تحقيق : محمد محمود حمدان
- عصر محمد علي	لعبد الرحمن الرافعي
- مخطوط للدكتوراه عن محب الدين الخطيب	لمحمود فوزي محمود
- بحث عن محب الدين الخطيب	للدكتورة سهيلة البرماوي
- الطهطاوي قبل قاسم أمين في الكتابة عن تحرير المرأة	بحث للدكتور محمد محمود الدش
- الأوزاعي : إمام أهل الشام	بحث للدكتور زهدي يكن
- ابن طفيل	بحث لمحمد عبد الله عنان
- الإمام مسلم	بحث للشيخ محمد أبو زهرة
- الطبري	بحث لمحمد خليفة القوسي
- القزويني	بحث للدكتور عبد الحليم منتصر
- الماتريدي	بحث للدكتور فتح الله خليف
- توجيهات الشيخ شلتوت	للإمام محمود شلتوت
- مذكرات القرضاوي	لبدر محمد بدر

❊ ❊ ❊